مجمع القرآن الكريم بالشارقة

مَوْسُوعَةُ التَّفْسِيرِ البَلاغِيِّ

المُجَلَّدُ الثَّالِثُ والسِّتّون

سورة المُلك من الآية 12 إلى سورة المَعارج الآية 14

مَوْسُوعَةُ التَّفْسِيرِ البَلَاغِي

حكومة الشارقة Government of Sharjah
مجمع القرآن الكريم بالشارقة
HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

موسوعة التفسير البلاغي

المُجلَّدُ الثَّالِث والسّتّون

سورة المُلك من الآية 12 إلى سورة المَعَارج الآية 14

نُخبةٌ مِنْ عُلَماء مَجمَعِ القُرآنِ الكَرِيمِ بِالشّارِقَةِ

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
2026

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والستون،
سورة المُلك من الآية 12 إلى سورة المَعارج الآية 14
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م

الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والستون، سورة المُلك من الآية 12 إلى سورة المَعارج الآية 14
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 63 ، 822 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 3-00-647-9948-978
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 63 : المجلد الثالث والستون، سورة المُلك من الآية 12 إلى سورة المَعارج الآية 14.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 3-00-647-9948-978
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7111585 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجُزْءُ
التَّاسِعُ وَالعِشْرُونَ

سُورَةُ المُلْكِ

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ١٢﴾

[الملك: 12]

مُناسبة الآية لما قبلها:

أَتْبَعَ الوَعيدَ بِالوَعْدِ

لمّا ذكر اللّه تعالى وعيدَ الكافرين؛ أعقبه بوَعْدِ المؤمنين، وكما عرَضَ حالَ الأشقياءِ الفُجّار؛ أتبعه بذِكْرِ حالِ السُّعداء الأبرارِ(1).

المعنى الإجماليُّ:

بَيَّن اللّه تعالى حال السُّعداء الأبرار؛ ترغيبًا في الإيمان والطّاعة، وحثًّا على الفرارِ من السَّعير، وهم الذين يَخشَون اللّه تعالى في الغيب، فيُطيعونه، ويجتنبون معصيته، وإن لم يروه في الدُّنيا، ولم يشاهدوا عذابه، فيُراقبونه في علانيَّتهم، ويراقبونَهُ أيضًا في خلواتهم حيث لا يراهُم النّاس، هؤلاء وعدهم اللّه سُبحانَهُ بمغفرةٍ لذُنوبِهم، وبثوابٍ عظيمٍ، وهوَ الجَنَّة(2).

شرح المُفردات:

1) ﴿يَخۡشَوۡنَ﴾: الخَشيةُ: خوفٌ يَشوبُه تعظيمٌ، من قولهم: خَشيَ الرَّجُلُ يَخشَى خَشية، أي: خافَ، وأصلُ (خشي): يدُلُّ على خوفٍ وذُعْرٍ(3)، وهي: أشدُّ مِن الخَوفِ وأخَصُّ منه، فهي خَوفٌ مَقرونٌ بمعرفةٍ، وأكثرُ ما تكونُ الخَشيةُ عن عِلمٍ بالمَخوفِ منه(4)، والمعنى في الآية: يخافون ربَّهُم بالغَيْبِ، وهُم لَم يَرَوهُ(5).

2) ﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾: الغيبُ مصدرٌ، وهو نقيضُ الشَّهادة، بمعنى:

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 588، والشَّوكاني، فتح القدير: 5/ 312، والسِّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 876.

(2) الواحدي، الوسيط: 4/ 328، وابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 5/ 340، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 213.

(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خشي).

(4) الأزهري، تهذيب اللُّغة والرّاغب، المفردات: (خشي).

(5) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 511.

الحضور، فالكونُ كلُّه: غيبٌ وشهادةٌ، وكلُّ مكانٍ لا يُدرى ما فيه؛ فهو غيبٌ، وكذلك المَوضِعُ الَّذي لا يُدرَى ما وراءه، وجمعُه: غُيوبٌ[1]، ويُطلق على المُطْمَئِنِّ مِنَ الأرضِ[2]، وهو ما انخفضَ مِنها، وهو راجِعٌ إلى المعنى المتقدِّم؛ إذِ الدّاخِلُ في مطمئنِّ الأرض يكون غائبًا مخفيًّا عَنِ العيونِ[3]، والإيمان بالغَيْبِ يَقتَضي الإيمانَ بكُلِّ ما غابَ عنهم، مِمّا أُخبِروا به، كالجنَّة والنّار والملائكةِ وغيرِ ذلك.

الإيضاح اللُّغويُّ والبلاغيُّ:

دلالَةُ الاستئنافِ بذِكْرِ حالِ أهلِ الإيمانِ:

كـون الـكـلام جـاريًـا عـلى نـهـج أسـلـوب الـقـرآن في تعقيبِ التَّرهيب بالتَّرغيب

قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾ جاء على سبيل الاعتراضِ - على القول بأنَّ الخطابَ في قوله: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ﴾ موجَّه للكُفّار - ويُفيد الاستئناف البيانيَّ؛ جريًا على معهود القرآن في تعقيب التَّرهيب بالتَّرغيب، فبعد أن ذُكِرَ ما أُعِدَّ للكافرين المُعرضين عن خشية اللّه تعالى؛ أتبع ذلك ببيانِ ما أُعِدَّ للذين يخشونه في الغيب من مغفرة وثواب؛ إظهارًا لامتيازهم عن المُشركين ورفعًا لمقامهم[4]، فيكون بين هذه الجملة وما قبلَها شبهُ كمال الاتِّصالِ، فإنَّ المتلقّي لمّا سَمِعَ جزاءَ الكفّار؛ تطلَّعت نفسُهُ لمعرفةِ جزاءِ أهل الإيمانِ، فحضرَ في ذهْنِه سؤالٌ حاصلُه: وما جزاءُ المؤمنين؟ فجاء الجواب في قول اللّه سُبحانَهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾.

سِرُّ التَّعبير بلفظ (الخشية) دون غيره:

الخشيةُ خوف مُمتزج بالعِلْم بعظَمَةِ المخشيِّ ومقامِه

عبَّر النَّظم الكريم عن الممدوحينَ بصِفَةِ الخشية للّه تعالى، لا بمجرَّد الخوف أو نحوِه؛ مبالغةً في الثَّناء عليهم؛ إذ هُم - لعِلْمهم

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (غيب).
(2) الفيومي، المصباح المنير: (غيب).
(3) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (غيب).
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 29، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 14.

بعظمة ربِّهم وهيبتهم لجلالهِ - يَخشَونه حقَّ الخشية، فهي خوفٌ ممتزج بالعلم بعظمة المخشيِّ ومقامه[1].

والخشية: تألُّم القلبِ؛ بسبَبِ توقُّع مكروهٍ في المستقبَل، يكون تارةً بكثرة الجنايةِ من العبد، وتارةً بمعرفة جلالِ اللّه تعالى وهَيْبَتِه، وخشية الأنبياء من هذا الضَّرْبِ[2]، وكذلك خشية العلماء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: 28][3].

دلالة التَّعبير بالفعل المُضارع ﴿يَخْشَوْنَ﴾:

الـدَّلالـة على تَجدُّد خشيتهم لـلّـه تـعـالى واستمرارِها

جاء التَّعبير بالفعل المُضارع ﴿يَخْشَوْنَ﴾؛ للدَّلالة على تَجدُّد خشيتهم للّه تعالى واستمرارها، فهم يُراقبونه آناء اللَّيل وأطراف النَّهار، في السِّرِّ والعلن، ويعرفون حقَّه عليهم، فإذا فَتَرَت قلوبُهم لحظةً؛ نشطَت مِن جديدٍ؛ لتعودَ إلى مقام الخَشْيَةِ.

دلالة التَّعبير بالرُّبوبيَّة دون الألوهيَّة:

الإشـارةُ إلى أنَّ خشيَتَهُم لربِّهم إنَّـمـا هـي ثـمـرةُ إنـعـامِـه عليهم وإحسانِه إليهِم

جاء التَّعبير هُنا بصفة الرُّبوبيَّة - ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم﴾ - التي من آثارِها: الرَّحمة والإنعام، دون صفة الألوهيَّة التي تشير إلى الهَيبَةِ والجلال؛ إشارةً إلى أنَّ خشيتهم لربِّهم إنَّما هي ثمرةُ إنعامِه عليهم وإحسانِه إليهم؛ إذ وفَّقهم لمعرفة مقامِه ومهابَةِ جلاله، فكان تقديرُهم لهُ حَقَّ قدرِه سببًا لاستحقاقهم هذا الثَّناء، ومِن لوازم التَّعبير بالرُّبوبيَّة كذلك طَمْأَنَةُ الخاشعين، بأنَّ اللّه سُبحانَهُ يَعْذُرُهم؛ إذا عرَض لعزيمَتِهم ما يَعوقُها حينًا، فلا يعاجِلُهُم بالعقوبة، ولا يُغْلِقُ أمامَهُم أبواب التَّوبة، بل يَظَلُّ يُحْسِنُ إليهم حتّى يعودوا إلى رُشْدِهِم[4].

---

(1) الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: 8/ 235، ومأمون حمّوش، التَّفسير المأمون: 8/ 133.

(2) الجرجانيّ، التّعريفات، ص: 98.

(3) الزّركشيّ، البرهان: 4/ 78.

(4) البقاعي، نظمُ الدُّرر: 20/ 240، والشِّربيني، السراج المنير: 4/ 373.

دلالةُ الإضافةِ في قوله: ﴿رَبَّهُم﴾:

في إضافة اسم الرَّبِّ إلى ضمير أهل الإيمانِ، في قوله تعالى: ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم﴾ ما يقتضي شَرَفَهُم، فهي إضافةُ تشريفٍ وتكريمٍ.

سِرُّ الإيجازِ في تقييدِ الخَشْيَة بالغَيب:

بيان أنَّ من يخشاه في غيابِهِ؛ يخشاه في الشَّهادة

قوله تعالى: ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ مُتعلِّق بالفعل ﴿يَخْشَوْنَ﴾، ومعناه: يخافونه في السِّرِّ والخفاء، وقد حُذِف ما يدلُّ على المقابل، وهو (الشَّهادة)؛ لأنَّ مَن يخشاهُ في غيابه؛ يخشاه في شهادتهِ وحُضورِهِ بالضَّرورة، بخلاف العكسِ، والمقصودُ: أنَّ حالَ الإنسانِ دائرَةٌ بين الغيبِ والشَّهادة، والإيمانُ بهما معًا واجِبٌ.

سِرُّ تقديم الجارِّ والمجرورِ على المُسند إليه:

إبراز الاهتمام به، معَ مراعاةِ انسجامِ الفاصِلَةِ في السّياق

قُدِّم متعلِّقُ الخبر ﴿لَهُم﴾ على المُبتدأ ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾، في قول اللّه تعالى: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾؛ ليتَأتّى الإتيانُ بالمبتدأ نكرةً؛ إذ لا يجوزُ ذلك مع تقدُّمِ المبتدأ. وفي هذا التَّقديمِ أيضًا إبرازٌ لمعنى الاهتمام بالمقدَّمِ، وهم أهلُ الإيمانِ، مع مراعاةِ التَّوافقِ الصَّوتي للفاصِلَةِ في السّياق[1].

دلالة تنكير لفظ ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾:

نُكِّر لفظُ ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾، من قول اللّه سُبحانَهُ: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾؛ للدَّلالة على عِظم شأنها، ويؤكِّد ذلك اقترانُها بـ (أجر كبير)؛ إضافةً إلى ما أفاده التَّقديمُ من تعظيمٍ واهتمامٍ[2].

سِرُّ تقديم المغفرة على الأجر:

طَمْأنةُ قلوب الذين يخشونَهُ بِالغيب

قدَّم اللّهُ تعالى ذِكْرَ المغفرة أوَّلًا؛ لطَمْأنَةِ قلوب الذين يَخشَونَهُ بِالغيب؛ إذ تُساوِرُهُم المخاوفُ مِن المُؤاخَذَة على ما صدر مِنهُم قبلَ إسلامِهم، مِن كُفرٍ، أو ما وقعَ مِنهُم بعدُ مِن صغائِرَ وزَلّاتٍ، ثُمَّ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 29.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 29.

أتبعها بالبِشارة بالأجْرِ الكبيرِ العظيم، فجاء التَّرتيب موافقًا لسنَّة تقديمِ التَّخلية على التَّحلية، أي: دفع الضَّرر قبلَ جلبِ النَّفع[1].

دلالةُ الوَعْدِ بالأجْرِ، ونُكْتَةُ وصفِه بالكِبَرِ:

أورِدَ الوعدُ بالأجرِ بعد الوَعدِ بالمغفرةِ؛ لأنَّ الأجرَ هُنا جاء على سبيلِ الوفاء بوعده سبحانه لعباده، وهو تَفَضُّل مِنهُ ﷻ، ووصفه بـ ﴿كَبِيرٌ﴾ تأكيدٌ؛ لِما يُفيدُهُ تنكيرُهُ مِن التَّعظيم والتَّمجيد[2].

سِرُّ التَّنكير في ﴿وَأَجْرٌ﴾ و﴿كَبِيرٌ﴾:

الدَّلالة على أنَّه أجـرٌ عـظـيمٌ لا يُقدَّر قَـدْرُه ولا يـبـلـغُ الـعـقـلُ مُنْتَهاه

التَّنكير في ﴿وَأَجْرٌ﴾ و﴿كَبِيرٌ﴾، من قول اللّه تعالى: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ يُفيدُ التَّعظيم والتَّفخيم، أي: هوَ أجرٌ عظيم لا يُقدَّر قدرُهُ، ولا يبلغُ العقل منتهاه، فهو جزاءٌ يفوقُ التَّصوُّر؛ تعظيمًا لشأنه ورفعةً لمقامه[3].

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الخوف والخشية:

الخشية خوف خـاصٌّ يَشوبُه تعظيمٌ، وهي من آثار الخوفِ

الخوف: توقُّع حلولِ مكروه، أو فواتِ محبوب[4]، والخشيةُ: تألُّم القلب لتوقُّع المكروه مُستقبلًا[5]، وهما متقاربان في اللُّغة، أمّا ما كان منهما من العبدِ في حقِّ ربِّه؛ فإنَّ الخوف تألُّم النَّفس من العقاب المتوقَّع؛ بسبب ارتكاب المنهيّات، والتَّقصيرِ في الطّاعات، وهو يحصل لأكثر الخلْقِ، وإن كانت مراتِبُهُ متفاوتةً جِدًّا، والمرتبة العُليا منه لا تَحْصُلُ إلّا للقليل[6].

والخشيَةُ: حالٌ تَحْصُل عند الشُّعور بمعرفةِ جلالِ اللّهِ تَعالى

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 29، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 14.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 199.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 14.
(4) الجرجانيُّ، التَّعريفات، ص: 101.
(5) المناوي، التَّوقيف على مهمات التَّعاريف، ص: 155.
(6) أبو هلال العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 241.

وهيبتِهِ[1]، وخوفِ الحَجْبِ عنه، وهذه حالٌ لا تَحْصُلُ إلّا لمن عَلِمَ، وذاق لذَّة القُرب، ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: 28]، فالخوف مِن شرطِ الإيمان، والخشيةُ مِن شَرْطِ العلم[2]، فالخشية: خوف خاصٌّ يَشوبُه تعظيمٌ[3]، ويؤيِّد هذا قوله تعالى واصفًا المؤمنين: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ۝٢١﴾ [الرَّعد: 21]؛ إذ ذَكَرَ الخشيةَ في جانبِهِ سُبحانَهُ، والخوفَ في جانبِ الحِساب.

---

(1) الجرجانيُّ، التَّعريفات، ص: 98، والمناوي، التَّوقيف على مهمّات التَّعاريف، ص: 155.

(2) البعلي، المُطْلِعُ على ألفاظ المقنع، ص: 239.

(3) الرّاغب، المفردات، والسَّمين الحلبيُّ، عُمدة الحُفّاظ، ومرتضى الزَّبيدي، تاج العروس: (خشي).

﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٣﴾

[الملك: 13]

❁ مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قبلَها:

الانتقالُ من ذكر مصير الخلقِ إلى أمرهم بمراقبة الخالق

لمّا ذكرتِ الآياتُ السّابقة حالَ الفريقين في الآخرة؛ ناسب خطابَ الجميع بأنَّ إسرارَهم وجهرَهم بأقوالهم ومعتقداتِهم سيّان، فإنَّ اللّه تعالى عليمٌ بذات الصُّدور، مطّلعٌ على السّرائر، عالمٌ بالبواطن، فإنَّ مآل العباد يوم القيامة وحسابَهُم سيكون بميزان اللّه تعالى، واطّلاعه على العباد، لا بما يظنّون من الجهر دون الإسرار أو العكس، وهي دعوةٌ إلى مراقبة اللّه تعالى في السِّرِّ والعلن؛ لاستواء الأمر عندهُ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَأَسِرُّواْ﴾: الإسرارُ: إخفاءُ الشَّيء وكتمانُه[1]، يقال: أسَرَّ إليه حَديثًا، أي: أفْضى بِهِ إليه في خُفْيَة[2]، وأصل (سرَّ) يدلُّ على إخْفاءِ الشَّيء[3]، والإسرارُ خِلافُ الإعلانِ، والمَعْنى: أخفوا قَولَكُم وكلامَكُم أيُّها النّاسُ[4].

2) ﴿ٱجۡهَرُواْ﴾: (جهر) تدلُّ اشتقاقاتُه على إعلان الشَّيءِ وكشفِهِ وعُلوِّهِ[5]، يُقال: جهرَ الكلامَ، وجهرَ به، فيكون لازمًا ومتعدّيًا، بمعنى: أعلَنَه، وأعلنَ به[6]، ورجلٌ جَهيرُ الصّوتِ، أي: عاليه، والجهرُ: العلانيَةُ[7]، ومعنى ﴿ٱجۡهَرُواْ﴾ في الآيةِ: أعْلِنوهُ، وأظْهِروه[8].

(1) الزّبيديّ، تاج العروس: (سرر).
(2) الرّاغِب، المُفردات، والسّمين، عُمدةُ الحُفّاظ: (سرر).
(3) ابْنُ فارِسٍ، مقاييسُ اللُّغة: (سرّ).
(4) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 511، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 214.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جهر).
(6) الزَّبيديّ، تاج العروس: (جهر).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (جهر).
(8) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 511، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 214.

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

سرائرُ العباد وعلانيَّتُها في علمِ اللهِ تَعالى سواءٌ

تُخبر الآية الكريمة النّاسَ بطريق الأمر الإنشائيِّ المفيد للتّسويةِ، بأن يَصْنَعوا ما يريدون من إسرار الأقوال أو الجهر بها، فإنَّ اللّه سُبحانَهُ مُطَّلِعٌ على الضَّمائرِ، وهو عليمٌ بما في قُلوبِ العِبادِ، فإنَّ السِّرَّ والجَهرَ عنده سواءٌ[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الواو ودلالتُها:

الاستئنافُ والعطفُ دالّانِ على الانتقالِ من غرَضٍ إلى آخرَ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، إمّا أن تكون عاطفةً غرضًا على غرضٍ، على سَنَنِ البيان القرآنيِّ في إحكام المُناسبة، فقد جاء عقب حكايةِ أقوالهم يوم القيامة؛ ليُنْتَقل إلى أقوالهِم في الدُّنيا، وهي ما كانوا يتناجَون به، أو يُعْلِنونه في النَّيل مِن رسولِ اللّه ﷺ، وذلك على القول بأنَّ الخطابَ مُتَوَجِّهٌ إلى الكُفّار[2].

وعلى القول الآخر؛ فإنَّ الخطاب عامٌّ لجميع الخلق في جميع الأقوال والأعمالِ، فسواءٌ أخفيتُم أعمالَكم أم أظهرتُموها، فالأمرُ عند اللّه تَعالى سواءٌ؛ إذ عِلْمُه محيطٌ بالسَّرائر والعلانيَة، فيكون العطفُ هُنا لتقرير شمول عِلْم اللّه تعالى، وتحذيرِ العباد من المعاصي في السِّرِّ، كما يُحَذَّرون منها في العلانية؛ إذْ لا خَفاءَ على اللّه سُبحانَهُ في شيءٍ منها[3].

ويَحْتَمِل أن تكون الواوُ استئنافيّةً؛ باعتبار الانتقالِ مِن الإخبار عن مصير الخلائقِ في اليوم الآخر، إلى خطاب النّاس في الدُّنيا، وهو قريبٌ في المعنى من القولِ بعَطْفِ الغرض على الغرَضِ.

(1) ابن عطيَّة الأندلسيّ، المحرَّر الوجيز: 5/ 340، والسَّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 876.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 29، 30.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 589، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 312.

غَرَضُ التَّعبير بفعل الأمرِ ودلالتُه:

غرضُ الأمرِ التّسويةُ، وهو دالٌّ على التَّهديدِ والوعيدِ

جاء استعمالُ صيغةِ الأمر في قوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ﴾؛ للتَّسويةِ بين الأمرين، أي: لا فرقَ في عِلْمِ اللّهِ تَعالى بين ما تُسرّونه، أو تجهرون به، فاللَّفظ لفظ الأمرِ، والمراد به: الخبرُ المتضمِّنُ للتَّهديدِ والوعيد(1)، وقد جاء الخطابُ للجمع إشعارًا بأنَّ هذا الحكم شاملٌ لجميع المكلّفين، لا يَخرُجُ منه أحدٌ، أمّا التَّضعيف في فعل (أسِرّوا)؛ ففيه معنى المُبالغة في الإخفاء، أي: لو بالَغْتُم في الكِتْمان غايةَ ما يُمْكِن؛ فإنَّ عِلْمَ اللّه تَعالى مُحيطٌ بكم(2)، وتنبيهًا إلى أنَّ معصيتَهُ في الخفاءِ كمَعْصيَتِه في العلانية؛ إذ لا يَخْفى عليهِ شيءٌ(3).

سِرُّ انتخابِ (القول) دون الكلام:

التَّعبيرُ بالقولِ أبلَغُ في شُمولِ الدَّلالةِ

آثر النَّظم الكريمُ استعمالَ مُفردَةِ (القول)، في قوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ﴾ دون (الكلام)؛ لعُموم القولِ؛ إذ يُطلَقُ على المفرد والمركَّب من الكلام، فكان التَّعبيرُ بالقول أبلغَ في شمول الدّلالة(4).

دلالةُ إفراد لفظِ القَوْلِ:

أُفرِدَ لفظُ القول ﴿قَوْلَكُمْ﴾؛ ليشمل الجنسَ كلَّه، قليلَهُ وكثيرَه، خيرَهُ وشرَّه؛ ليكونَ الخطابُ أعمَّ وأشملَ(5).

نوع الإضافة ودلالةُ التّعريف بها:

القولُ الصّادرُ عن النّاس في الدّنيا هو مجموعُ معتقداتهم الّتي يُعرَفون بها

أُضيفَ لفظُ القولِ إلى ضمير المخاطَبين ﴿قَوْلَكُمْ﴾، وهي إضافةٌ بمَعْنى اللّام، أي: الأقوال الَّتي صدرت عنكم إسرارًا فيما

---

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 213، والقونويّ، حاشية القونويّ على تفسير البيضاوي: 19/ 199، والهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 30/ 30.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 579، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 6، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 30، ومأمون حمّوش، التَّفسير المأمون: 8/ 133.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 589.

(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 261.

(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 20/ 242.

بينَكم، أو جهرًا على مَسامِعِ الآخرين، والمراد: القولُ الَّذي يخصُّكم فيما ستُحاسبون عليه يوم القيامة.

ونُكتةُ التَّعريف بالإضافةِ إقامَةُ الحُجَّة على المخاطَبين بأنّه قولُهم الصّادرُ عنهم في الدُّنيا، والَّذي اختصّوا به من مجموع المعاني والحقائق والمُعتَقَداتِ الَّتي تُجمع في قولٍ واحدٍ يُحاسَب عليه النّاسُ يوم القيامة، فهو كالعُنْوانِ العريضِ الدّالِّ على المُعتَقَدِ.

توجيهُ تخصيصِ القَوْلِ بالذِّكر:

التَّنبيهُ بالأخفى على الأظهَر

آثر النّظم الكريمُ تخصيصَ القول بالذّكر دون الفعلِ، في قوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ﴾؛ وذلك لأنَّ القولَ أخصُّ في باب الخفاءِ، وأدقُّ في باب الكِتْمان؛ فإذا كان اللّهُ تعالى لا يخفى عليه ما يُسرُّه العبدُ من حديثِ نفسِه، أو يُخفيه في مَنْطِقه، فالفعلُ أولى وأحرى أن يكون داخلًا في علمِه سُبحانه، فجاء الاكتفاءُ بذِكْرِ القَوْلِ؛ ليدلَّ على ما هو أعَمُّ وأشملُ بطريقٍ أولويٍّ، فالقولُ أخفى من الفعلِ؛ فاكتُفيَ به عنه[1]، فهو من بابِ التّنبيه على الأظهَرِ بالأخفى، فإذا استوى إسرارُ القولِ وجهرُه في عِلْمِ اللّهِ تعالى؛ فالفعل أولى بالعلْم، وذلك فيما تُدركُه أذهانُ البَشر، وإلّا فكلُّ ذلكَ سواءٌ في عِلْمِ العليم الخبير.

تعيينُ مرجِع الخطاب:

توجَّهَ الخطابُ في ﴿وَأَسِرُّواْ﴾ إلى عموم الخلق؛ ليُفْصِحَ عن شمولِ عِلْمِ اللّه بالأقوال والأعمال الظّاهرة والباطنة الصّادرةِ عن جميع المكلَّفين.

وجهُ العطف بـ ﴿أَوِ﴾ ودلالتُه:

إســرارُ الـقـول والجهرُ به سواءٌ في عِـلْـمِ الله سُبحانَهُ

العطف بـ ﴿أَوِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ﴾ جاء للتَّسوية، ومِنْهُ ومِن السّياق جاء تعيينُ غَرَضِ الأمر بأنّه للتّسوية كذلك؛ إذ عُطِفَ الفعلُ (أسرّوا) على نقيضه ﴿ٱجۡهَرُواْ﴾؛ ليدلّ على

---

(1) الباليسانيّ، حسن البيان: 6/ 2606.

أنّ السِّرَّ والجهر في علم اللّه تَعالى سواءٌ؛ ردًّا على زعم المشركين أنّ الإسرار يخفى عليه، فبيَّنَ سبحانه أنّه لا يخفى عليه شيءٌ، فيعلمُ خائنةَ الأعيُنِ وما تخفي الصُّدور[1].

بلاغة استعمالِ مفردة ﴿ٱجۡهَرُواْ﴾ مادَّةً وصيغة:

الجمعُ بينَ أعلى مراتبِ الكلامِ وأدناهُ؛ ليشمَلَ جميعَ ما بينَهُما

غرض فعل الأمر ﴿ٱجۡهَرُواْ﴾ التَّسوية بينه وبين الأمر بالإسرارِ لا لطلب الفعلِ، والجهر في أصل معناه: رَفْعُ الصَّوت بالقول حتى يَسْمَعَهُ مَن حول القائل[2]، فاختياره هُنا يدلُّ على أنَّ أظهر مراتب الكلام لا يَخْرُجُ عن عِلْم اللّهِ تَعالى، كما لا يَخْرُجُ عنه أخفاه، فهو جمعٌ بين أدنى كلامٍ يُسرُّه العبدُ لغيرِه، وبين أعلى كلامٍ يَجْهَرُ به العبد، فيدخل في ذلك ما بينَهُما من مراتبَ؛ لأنَّ القاعدةَ المتقرِّرةَ: أنَّ البَيْنَ مُسْتَحْضَرٌ في الطَّرفين.

فنُّ الطِّباق ودلالتُه:

بيانُ سَعَةِ عِلْمِ اللهِ تعالى وإحاطتِه

جمَع النَّظم الكريم بَيْنَ ذِكْرِ الإسرار والإجهار، وهو طباقُ إيجابٍ[3] يُبْرِز التَّقابلَ بين أدنى مراتب الخفاء وأقصى مراتب العلانية، وهو تقابلٌ يُفيد شمولَ علم اللّه تَعالى للطَّرفينِ وما بينَهما.

نكتةُ تقديمِ السِّرِّ على الجَهْرِ:

تقديمُ الأخفى كاشفٌ عن تمام القُدْرَةِ وعظيمِ الإحاطة

قُدِّم ذكرُ السِّرِّ على الجهر في قوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ﴾؛ لأنَّ الإسرار هو الأعنى بالكشْفِ والبيان، ففيه إيماءٌ إلى افتضاحِهم منذ اللَّحظةِ الأولى، ووقوعِ ما كانوا يَحْذَرون، وهوفي الوقتِ نفْسِهِ مُبالغةٌ في تقرير شمولِ علمه سُبحانه، وإحاطته التّامة بجميع المعلومات، فكأنَّ علمَهُ بما يُخْفونَهُ أقدَرُ منهُ بما يُعْلِنونهُ، مع أنَّ الأمر في الحقيقة سواءٌ[4]، ومرتبةُ السِّرِّ سابقةٌ على مرتبة

---

(1) عطيّة سالم، تتمَّة أضواء البيان: 8/ 236.

(2) الميدانيّ، معارج التَّفكُّر: 14/ 623.

(3) الدُّرَّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 10/ 48.

(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 6، والقنّوجيّ، فتح البيان: 14/ 238.

الجهر، فما مِن كلمةٍ تُقال علنًا إلّا وقد سبقها في القلب خاطرٌ أو معنًى مكتومٌ، فيتعلَّق به الإسرارُ أوَّلًا، ثُمَّ يَخرجُ إلى الجهر ثانيًا، فعِلمُ اللّه تعالى به في حالِه الأولى سابقٌ لعلمه به في حالِه الثّانية، وإنْ كان كلُّ ذلكَ عندهُ على حَدٍّ سواءٍ(1).

بلاغةُ التَّوكيد في جملة الفاصلة:

توكيدُ جملة التَّعليلِ دفعٌ لبقايا الظنّون

كان المشركون يعتقدون أنَّهم إذا أسرُّوا القولَ؛ فاللّهُ تَعالى لا يعلمه، فبيَّنت الآيةُ أنَّ إسرارَ القولِ والجهرَ به على حدٍّ سواء، فاللّه سُبحانَهُ يعلمه، وجاءت جملةُ الفاصلة: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ مؤكَّدة بـ (إنَّ)؛ ليكون ذلك أوكَدَ في إبطال ظنِّهم، وأبلغَ في تقرير إحاطة عِلمه ﷻ، وجاء هذا التَّوكيدُ تعليليًّا تقريريًّا؛ للتَّسوية المستفادة من صيغة الأمر ومن دلالة ﴿أَوِ﴾؛ لأنَّ عِلْمَهُ تعالى بما في الصُّدور هو السَّببُ في تساوي السِّرِّ والجهر عنده سُبحانه، فعِلْمُه تعالى محيطٌ بما يَخْتَلِجُ في صدور النّاس بَلْهَ ما يُسِرّون به من الكلام(2).

تعيينُ مرجع الضَّمير:

رُبَّ مضمرٍ أقوى حضورًا من مُظْهَرٍ

الضَّمير في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ عائدٌ إلى اللّه سبحانه، وهو معلومٌ من المَقام(3)، فلا حاجة إلى التَّصريح بالاسم الأحسَن (اللّه)؛ إذ حُضورُه في ذِهْنِ السّامع أوضحُ من أن يُنَصَّ عليه، وفي ذلك إشعارٌ بعِظَم المعلوم وظهور شأنه، وقد آثرَ النّظمُ الكريمُ الإضمارَ دون الإظهار؛ للإشعارِ بأنَّ الضَّمير يعود بديهةً إلى واحدٍ أحدٍ دون سواه، فأتى على الأصل، ولو أُظْهِر؛ لاحتملَ الكلام أن يكون على التّأسيس في ابتداء كلام لا سابقَ لَهُ في الأذهان، فكأنّه قيل: إنّه الّذي تعلمونَهُ، فهو العليمُ بِذاتِ الصُّدور.

(1) المنصوريّ، المقتطف من عيون التّفاسير: 5/ 286.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 6، والقونويّ، حاشية القونويّ على تفسير البيضاوي: 19/ 199، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 30.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 30.

دلالَةُ التَّعبير بصيغةِ ﴿عَلِيمٌۢ﴾ منكَّرًا:

عِلْمُ اللهِ تعالى لا تُحيطُ به الأذهانُ، ولا تستوعِبُه عقولُ الأنامِ

جاء وصفُه تعالى بـ ﴿عَلِيمٌۢ﴾ على وزن (فَعيل)، وهو مِن صيَغ المبالغة؛ ليدلَّ على كمال علمه وشمولِ إحاطته بما يُضمِرُه النّاسُ في قُلوبِهم، وما يُخْفونَهُ مِن أسرارهم المُستكنّة في الصُّدور، وجاء اللَّفظُ مُنَكَّرًا للتَّفخيم والتَّعظيم، أي: عليمٌ عظيمُ العلمِ، لا يعزُبُ عن علمهِ دقيقٌ ولا جليل، سرٌّ ولا جهر، فهو سُبحانه محيطٌ علمًا بجميع الخلائقِ ظاهِرهم وباطِنهم[1].

نُكتةُ ذِكْرِ لفظِ (ذات) دون الاكتفاءِ بلفظِ ﴿ٱلصُّدُورِ﴾:

الإشـارةُ إلى ما يَختَلِجُ في النَّفس مِن خواطِرَ وتَقديراتٍ، وعزائمَ ونيّات

جاء التَّعبير القرآنيُّ بـ ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ دون: (ما في الصُّدور)؛ إشارةً إلى ما يَخْتَلِجُ في النَّفس من خواطرَ وتقديراتٍ، وعزائمَ ونيّات تتعلَّقُ بالأعمال، ولفظة (ذات) - وهي مؤنَّث (ذو) بمعنى: صاحب - تُفيدُ المُلازمةَ والاختصاصَ، فكأنَّ الصُّدور قد اقترنَتْ بما تَحْويهِ مِن خَفايا اقترانِ الذّات بصاحِبِها، لا تنفَكُّ عنها، ولا تَنْفَصِل، وفي إضافةِ (ذات) إلى ﴿ٱلصُّدُورِ﴾ تعظيمٌ لشأن ما تَشْتَمل عليه الصُّدورُ من أسرار؛ إذِ الأصل في "ذو" أن يُضاف إلى ما فيه شأنٌ وخطَرٌ، فجاء التَّعبير أبلغَ في الدّلالة على كمال إحاطة علم اللّه تَعالى بِما يُلازم القلوبَ مِن نيّاتٍ ودقائقَ لا يطّلِعُ عليها غيرُه[2].

ويُحتمَلُ أن يُراد بذات الصُّدور القلوبُ الَّتي في الصّدور، وما تحويه من نيّات ومقاصِدَ، فيكون المعنى: إنَّ اللّهَ تَعالى عليمٌ بالقلوب وأحوالِها، لا يخفى عليه سرٌّ من أسرارها، وجميعُ أقوالنا وأفعالنا جهرٌ منّا بين يديه[3].

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/ 6، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 15، والقنّوجيّ، فتح البيان: 14/ 238.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 15، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 30.

(3) الخطيب، التَّفسير القرآنيّ: 15/ 1059، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 15، والقنّوجيّ، فتح البيان: 14/ 238.

دلالَةُ تعريف ﴿ٱلصُّدُورِ﴾ وجمعِه:

استغراقُ جميع الصُّدورِ بما تنطوي عليه من مُضْمَراتٍ

جيء بـ ﴿ٱلصُّدُورِ﴾ معرَّفةً باللّام المفيدةِ الاستغراقَ؛ إشارةً إلى شمولِ عِلْمِ اللّه تعالى لِكُلِّ ما تنطوي عليه صدورُ النّاس أجمعين من مُضمراتٍ وخفايا، ثُمَّ جاء جَمْعُها؛ ليدُلَّ على التَّعميم، فلا يَخْرُج صدرٌ عن علمِه، ولا يَغيب قلبٌ عن إحاطته، وهي على اختلاف درجاتِ أصحابها في الكُفْرِ والإيمان، فإنَّ اللّهَ تَعالى عليمٌ بها، مطَّلعٌ عليها.

بلاغةُ التَّذييل بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾:

تقريرُ سَعَةِ علمِ الله تعالى وتثبيتُه

قول اللّهِ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ جاء تذييلًا لما قبلَهُ وتعليلًا له؛ إذْ بُني الحكمُ على علّته، وتقرَّر به أنَّ الإسرارَ والجهر سواءٌ عند اللّه ﷻ، فقد اشتمل هذا التَّذييل على صيغة (فعيل)، الدّالة على المبالغة، وعلى تعريف الصُّدور بلام الاستغراق، وعلى وصفها بـ (ذات) الدّالة على المُلازمة، وفي كلِّ هذا مِنَ الجزالة والبلاغة ما لا مزيدَ عليه، فكان المعنى: إنَّ اللّه سبحانه محيطٌ علمًا بكلِّ ما تُخفيه الصُّدورُ من خواطرَ ونيّات وأسرارٍ مستكنَّةٍ لا تُفارقُها، فكيف يخفى عليه ما تُسرّونه، أو تجهرون به، فهو تعليلٌ بالأشدِّ خفاءً على الخفيِّ؟[1].

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

السِّرّ والنَّجْوى:

السِّرُّ أعمُّ من النَّجوى، وأشدُّ منه خفاءً

السِّرُّ في أصل اللُّغة: إخفاء الشَّيء وكِتمانُه، وأمّا النَّجوى؛ فهيَ إسرارُ الحديثِ، وبهذا تكون النَّجوى أخصَّ من السِّرِّ؛ لكونها خاصَّة بنوعٍ واحدٍ مِنَ الإخفاء والكِتْمان، وهو إخفاءُ الحديثِ دون غيرِه.

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 579، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 6، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 225، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 30.

والسِّرُّ لا يتجاوز صاحبَه، بخلاف النَّجوى فإنَّها تتجاوزُه إلى غيره، فهيَ ما اطَّلعَ عليه بعضُ النّاس دون بعضٍ، فالسِّرُّ أشدُّ خفاءً من النَّجوى.

وقد ذُكِرَ السِّرُّ في القرآن الكريم، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٧٤﴾ [البقرة: 274]، وقوله ﷻ: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ [البقرة: 235]، والسِّرُّ هنا: قُرْبانُ المرأة ونكاحُها؛ لأنَّ ذلك لا يكون في العَلَنِ.

وأمّا النَّجوى؛ فقد وردت في مواضعَ، مِنها قولُ الله تعالى: ﴿۞لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ [النساء: 114]، وقوله سُبحانَهُ: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ﴾ [المجادلة: 7].

وقد جُمِعَ بين السِّرِّ والنَّجوى في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ٧٨﴾ [التوبة: 78]، وهذا يظهَرُ بجَلاءٍ أنَّ لكلٍّ منهُما مَعْنًى يختَلِفُ عن الآخر، فالسِّرُّ: ما يُخْفيهِ الإنسانُ، ويُضْمِرُه في نفسِه، فلا يطَّلِع عليه أحَدٌ، وأمّا النَّجوى؛ فهي المحادَثَةُ بخَفاءٍ، وقد عُطِفَت النَّجوى على السِّرِّ مع كونه أعمَّ منها؛ لتَنْبيهِهِم باطِّلاعِهِ على ما يَتَناجَوْنَ بِهِ مِنَ الكَيْدِ والمَطاعِن.

والحاصلُ أنَّ بين السِّرِّ والنَّجوى تقاربًا دلاليًّا؛ لاشتِراكِهِما في الإخفاءِ والكِتْمان، إلّا أنَّ السِّرَّ أعَمُّ من النَّجوى؛ لكونه يعمُّ الحديثَ وغيرَهُ، بخلاف النَّجوى فإنَّها مخصوصَةٌ بالحديثِ الخَفيِّ.

كما أنَّ السِّرَّ أشدُّ خفاءً مِنَ النَّجوى؛ لأنَّ النَّجوى يَطَّلِعُ عليها بعضُ النّاس، بخلاف السِّرِّ فلا يطَّلع عليه غيرُ صاحبِه(1).

الإسرارُ والإخفاءُ:

الإخفاءُ: السَّترُ والتَّغطيةُ، والخَفاء: ما يُستَرُ به كالغطاء(2)، وأخْفَيْتُ الشّيءَ: سَتَرْتُه، وكتَمْتُه، وخَفَيْتُه: أظْهَرْتُه، فهوَ مِنَ الأضداد، وأخفى الصَّوتَ: كتَمَهُ، ويَقولونَ: بَرِح

(1) محمد داود، معجم الفروق الدّلاليّة في القرآن الكريم، ص: 292 - 294.

(2) الرّاغب، المُفردات، ص: 290، والسَّمين الحلبيّ، عُمدة الحُفّاظ: 1/ 518.

الخَفاءُ، أيْ: وضَحَ السِّرُّ، وبَدا[1]، ونقيضُ الإخفاء العلانية، قال تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ﴾ [إبراهيم: 38][2]، وما هو أخفى مِن السِّرِّ يُسَمَّى خِفيَةً وخَفاءً، قال تعالى: ﴿أَلَّا يَسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ٢٥﴾ [النمل: 25]، فالخَبءُ هو المخبوءُ والمَخفيُّ الّذي لا يعلمُهُ إلّا اللّهُ تَعالى، ولهذا قالَ اللّهُ تعالى في نهايةِ الآية: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ٢٥﴾ [النمل: 25] دون (يعلم ما تُسِرّونَ، وما تُعْلِنونَ)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٥﴾ [آل عمران: 5]؛ لأنَّ الخفاءَ أدقُّ مِنَ السِّرِّ، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ٧﴾ [طه: 7]، أي: يعلمُ ما هو أخفَى من السِّرِّ.

السِّرُّ ما استودِع في النَّفس، أمّا الخِفية؛ فهي أخفَى من السِّرِّ

كما أنَّ السِّرَّ ما يصحُّ أنْ يقعَ فيه إسرارٌ إلى غيرِكَ، وأمّا الخِفيةُ؛ فهو ما خَطَرَ بالبالِ ممّا لا يقعُ منه إسرارٌ، ولا يُتفوَّهُ بِهِ[3]، فالإسرارُ قد يكونُ في النَّفْسِ، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ﴾ [يوسف: 77]، وقد يكونُ إلى غيرك: ﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ﴾ [التحريم: 3]، وأمّا الخِفية؛ فلا تكونُ إلى غَيرِك، بل تكونُ في النَّفسِ أو في الصَّدرِ، ولهذا جاءَ في الآيةِ: ﴿مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ ٧٧﴾ [البقرة: 77]، والسِّرُّ ما يكونُ في النَّفْسِ متحصَّلًا ممّا لمْ يُعلَنْ به، والخَفاءُ ما يكونُ في النَّفسِ ممّا يُستأنفُ في المُستقبلِ[4]، كما أنَّ الخِفية هي: "ما يَتَكَلَّمُ اللِّسان مِن حَديثِ النَّفْسِ ونَحوِهِ مِنَ الأصواتِ الَّتي هيَ أخْفى مِن كَلامِ السِّرِّ"[5].

الجَهْرُ والإعلانُ:

الإعـلانُ قصدُ إظهارِ الكلامِ وإيصالِهِ، ولا يُشترط ذلك في الجهر، بل هو رفعُ الصّوت

هُناك تقاربٌ دلاليٌّ كبير بين لفظَي الجهر والعلن، فكلاهما

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (خفي).
(2) ابن عبّاد، المُحيط في اللُّغة، ومحمَّد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (خفي).
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 5.
(4) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 4/ 37.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 191.

فيه معنى الظُّهور، ولذا يُعرَّف أحدُهُما بالآخر في اللُّغة، فمعنى جَهَر: أعلن، ومعنى الإعلان: المُجاهرة[1]، ومع هذا التَّقارب فقد فرَّق العُلماء بينهما؛ إذ ذَكَرَ العسكريُّ: "أنَّ الإعلانَ خلافُ الكِتْمان، وهوَ إظْهار المَعْنى للنَّفس، ولا يَقْتَضي رَفْعَ الصَّوْت بِهِ، والجهرُ يَقْتَضي رفع الصَّوْت بِهِ، ومِنْه يُقال: رجلٌ جهيرٌ وجهوريٌّ؛ إذا كانَ رفيعَ الصَّوْت"[2]، والعَلانيَةُ: ضِدُّ السِّرِّ، وأكثر ما يُقال ذلك في المعاني دون الأعيان[3]، وأصْل الجَهْرِ ظُهورُ الشَّيءِ بإفراطٍ، إمّا بحاسَّة البصر، كرأيتُه جِهارًا، أو بحاسَّة السَّمع، نَحْو: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ﴾ [طه: 7][4].

(1) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديّ، تاج العروس: (جهر)، (علن).

(2) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 287.

(3) الرّاغب، المُفردات: (علن).

(4) الرّاغب، المُفردات، والزّبيديّ، تاج العروس: (جهر).

﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٤﴾ [الملك: 14]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الانـتـقـالُ مِـنَ الـدّعـوى إلى دليلِها

لمّا ذَكَرَ اللّهُ تعالى إحاطتَه بالسِرِّ والجهر وما في صدور العالمين؛ أردفَ ذلك بِذكْرِ الدَّليل على علمه المُحيط، فقال سُبحانه: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾، أي: كيف يَخْفى عليه شيءٌ، وقد خَلَقَ الخَلْقَ، وأحاط بهم عِلمًا ولُطفًا وخِبرةً(1).

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱللَّطِيفُ﴾: أصلُ اللُّطفِ في الكَلام: خَفاءُ المَسْلَك ودقَّةُ المَذهَب(2)، ومعناهُ في حقِّ اللّهِ: المُحسِنُ إلى عبادِه الرَّفيقُ بهم، الموصِلُ إليهم مَصالِحَهم بلُطفِه وإحسانِه في خَفاءٍ وسترٍ من حَيثُ لا يَعْلَمونَ(3)، وسُمّيَ باللَّطيفِ؛ لعلمِهِ بدقائقِ الأمورِ، الَّذي أحاطَ عِلمُه بالسَّرائرِ والخفايا(4).

2) ﴿ٱلۡخَبِيرُ﴾: الذي انتهَى عِلمُه إلى الإحاطةِ ببَواطِنِ الأشياءِ وخَفاياها، كما أحاطَ بظَواهِرِها، والخُبْرُ: العِلمُ بالشَّيءِ، أو هو العِلمُ بكُنْهِ المَعلوماتِ على حقائقِها، وأصلُ (خبر) هنا: يدُلُّ على عِلمٍ، تَقولُ: لي بِفُلانٍ خِبْرَةٌ وخُبْرٌ، واللّه تعالى الخَبيرُ، أيِ: العالمُ بِكُلِّ شَيءٍ(5).

❁ المَعنى الإجماليُّ:

ذِكْـرُ الـدَّلـيـل الـعـقـليّ على إحاطةِ عِلْمِ الله تـعـالى بـالـسِّـرِّ والجهر

تُبيِّنُ الآيةُ الكريمةُ الدَّليلَ العقليَّ البَيِّنَ على كمالِ علمِهِ تَعالى،

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 589.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (لطف).
(3) الزّجّاج، شرح أسماء الله الحُسنى، ص: 44، والخطّابيّ، شأن الدُّعاء، ص: 62.
(4) الرّاغب، المفردات: (لطف)، والسَّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 947.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خبر)، والعسكريّ، الفروق اللُّغويَّة: 93، والكفويّ، الكُليّات: 438، والسَّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 252.

فمَنْ خلَقَ الخَلْقَ؛ هو العليمُ بهم، لا يخفى عليهِ شيءٌ، وهو العليمُ بدقائق الأمور وخفاياها، وهو سُبحانه اللَّطيف الَّذي يُدبِّر شؤونَ عباده برفقٍ وخفاءٍ، ويَسوقُ لهُم مقاديرَهُم مِن حيث لا يَشْعُرون، والخبيرُ الَّذي لا يعزُب عنه ما بُثّ في القلوبِ مِن خواطِرَ وعَزائِمَ[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ الفَصْلِ وبلاغَتُه:

خالقُ الصُّدورِ هو المُحيطُ بما فيها

قول اللهِ تعالى: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ جاء استئنافًا بيانيًّا مُتفرِّعًا عن قوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾؛ فكأنَّ سائلًا قد سألَ: كيفَ يعلَمُ اللّهُ تَعالى ما في الصّدور، مع أنَّ المعروف أنَّ ما في النَّفس لا يطَّلعُ عليه إلّا صاحِبُها؟ فجاء الجوابُ بإنكار هذا الوهم، وبيان أنَّ عِلْمَهُ سُبحانه بما في الصُّدور أمرٌ بدَهيٌّ؛ إذ هو خالِقُ أصحابِها، وخالقُ نُفوسِهم وما يَخْتَلِج فيها، فكما أوجدَها ابتداءً؛ فهو أعلمُ بها من أنفُسِها، واتِّصالُ علمِه بما يدور في خلَدها ليس بأعجبَ مِن اتِّصال علم أصحاب الصُّدور بما يجولُ في خواطرهم[2].

غرَضُ الاستِفهامِ وبلاغَتُه:

الإنكارُ على الكُفّار نَقْضَ اعتقادِهم وتقريرُ حقائقِ اليَقينِ

افتُتِحَت الآيةُ بالاستفهام بالهمزةِ الدّاخلةِ على النّفي، في قول اللهِ تعالى: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ﴾؛ لينصبَّ الإنكارُ على النَّفي، فالآيةُ تُنْكِرُ على الكفّار اعتقادَهُم أنَّ اللّه تَعالى لا يعلمُ الخفيّاتِ والسَّرائرَ؛ إذ كيف يَنْتَفي علمُه بِهما، وهو خالقُ كُلِّ شيء، وهُما في جُملة هذا الخلق[3]؟ فأنكر عليهم أن يظنّوا أنّه لا يُحيط علمًا بالمُضْمَرِ والمُسَرِّ والمَجهور مَن خَلَقَ الأشياء، وحالهُ أنَّه اللَّطيفُ الخبيرُ المُتوصِّلُ عِلْمُه

---

(1) الواحديّ، الوجيز: 1118، والسَّمعانيّ، تفسير القرآن: 6/ 11، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 590.

(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 579، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 7، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 30.

(3) الصّاويّ، حاشية الصّاويّ على الجلالين: 4/ 233.

إلى ما ظهر وما بطَن[1]، مع ما في الاستفهام من تقريرٍ لِما سَبَقَ في قوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾؛ فعِلْمُ اللهِ تَعالى بما نُسرُّه، وما نَجْهَر به من قولٍ، أمرٌ لا يَسوغُ لعاقلٍ إنكارُهُ أو الشَّكُّ فيه.

وَجْهُ النَّفي بـ (لا) ودلالَتُه:

إنـكـارُ الـنَّـفـي إثباتٌ لمَضْمونِ الجُمْلَةِ المَنْفيّة على أبلَغِ وجْهٍ

الاستفهامُ في قول اللهِ تعالى: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ، يُبطِل وهْمَ الكافرين، ونفيُ النَّفي يُفيدُ إثباتَ العلم على أبلغِ وجْهٍ، فالمعنى: بلى، إنَّه سبحانه يعلم كُلَّ ما يكون من خَلْقِه، فجاء هذا الأسلوب؛ ليكون توكيدًا لِما سَبق من تقرير عِلْمِه ﷻ بالسِّرِّ والجهر وما في الصُّدور[2].

فائدَةُ التَّعبير بصيغَةِ المُضارِع:

جاءَ التَّعبير بفعل العلم مضارعًا ﴿يَعۡلَمُ﴾؛ للإيحاءِ باستمرار هذا العِلْم، وأنَّه علمٌ جارٍ، لا ينقَطِعُ، يُحيط بالسِّرِّ والعَلن معًا، دالٌّ على أنَّ إحاطته سُبحانه دائمةٌ لا يحجُبها زمانٌ ولا مكانٌ.

بلاغَةُ الاحتمالِ في الاسمِ الموصولِ:

احتمال الفاعليَّة والمفعوليَّة صَنْعَةُ الإعراب، وما يقتضيه البيانُ الفاعليّةُ

يجوز أن يكون قوله تعالى: ﴿مَنۡ خَلَقَ﴾ مفعولًا لـ ﴿يَعۡلَمُ﴾، فيكون الفِعْلانِ ﴿يَعۡلَمُ﴾ و﴿خَلَقَ﴾ قد تضمَّنا ضميرين يعودان إلى ما عاد إليه الضَّمير في قوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، فيُراد بـ ﴿مَنۡ﴾ الموصولةِ: المخلوقون، وحُذِف العائد مِن الصِّلة لكثرته في الاستعمال، والتَّقدير: مَن خَلَقَهُم؟ كما يجوز أن يكون ﴿مَنۡ خَلَقَ﴾ فاعلًا لـ ﴿يَعۡلَمُ﴾، والمُرادُ به اللّهُ تعالى، ويُحذَف مفعولُ ﴿يَعۡلَمُ﴾؛ لدلالة السّياق عليه، أي: ألا يعلم خالقُكم سرَّكم وجهرَكم؟ وهو سبحانه الموصوفُ باللُّطْف والخِبْرَة، فلا تخفى عليه خافيةٌ،

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 579، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 225.

(2) المظهريّ، التَّفسير المظهريّ: 10/ 24، وصالح بهجت، إعراب القرآن الكريم: 10/ 230.

فالتَّعبير بالموصول ﴿مَنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ يُفيد معنى التَّعليل والعموم معًا؛ إذ يَحْتَمِل أن يكون المرادُ به المخلوقينَ، ويحتمل أيضًا أن يكونَ المرادُ به الخالقَ سُبحانه، فجاء حذفُ العائدِ في الوجه الأوَّل، وحذفُ المفعول في الوجه الثّاني؛ لمزيد الإيجازِ والبلاغة، والمقصودُ على كلا التَّقديرين: أنَّ مَن خلق النُّفوس والصّدور لا يخفى عليهِ ما تَشْتَمِلُ عليه مِن خواطِرَ وأسرارٍ[1]، هذا ما تقتضيه صَنعةُ الإعراب، والوجهُ فيها أن يكون ﴿مَنْ﴾ فاعلًا مرادًا به الخالق، ومفعولُ العلم محذوفًا، تقديره: ذلك؛ إشارةً إلى السِّرِّ والجهر، ومفعول ﴿خَلَقَ﴾ محذوفٌ، ضميره عائدٌ إلى ذلك، والتَّقدير في الجميع: ألا يعلم السِّرَّ والجهر مَن خَلَقَهُما، ومتى حذونا غير هذا الوجهِ من الإعراب؛ ألقانا إلى مضايق التَّكلّف والتَّعسّف، فمِن المحتمل أن يكون ﴿مَنْ﴾ مفعولًا واقعًا على فاعل السّرِّ والجهر، والتَّقدير: ألا يعلم اللّهُ تَعالى المُسِرّين والجاهرين، وليس مطابقًا للمُفَصَّل، فإنَّه لم يقع على ذوات الفاعلين، وإنَّما وقع على أفعالهم من السِّرِّ والجهر، وعليه وقَعَ الاستدلالُ، ويحتمل غيرَ ذلك أبعد منه، وهذا هو الأولى لفظًا ومعنًى[2].

بلاغةُ اختيارِ مفردة ﴿خَلَقَ﴾:

مفردَةُ الخَلْق تدلُّ على أصلِ الخلقِ ابتداءً وتقديرِ الخَلْقِ

آثَر النَّظمُ الكريمُ استعمالَ مفردَةِ ﴿خَلَقَ﴾، دون مُقارباتِها في مقام الاستدلالِ على العِلْم؛ لأنَّ الخَلْقَ أدلُّ دليلٍ على الإحاطة، فمَن أوجَدَ الشَّيءَ من العدَم؛ فَهو أدْرى بتَفاصيله وأسراره وخباياهُ، فالتَّصريح بالفِعْلِ هُنا إشعارٌ بأنَّ الخالقَ بِحُكْم كونه مُبدعًا للصَّنعة، لا يُعقل أن يَخْفى عليه شأنُ ما صنَعَ، بل هو أعلَمُ به منه[3]، ودلَّت

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 579، والبيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 5/ 230، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 225، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/ 7.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 154.

(3) الطّيبيّ، حاشية الطّيبيّ على الكَشّاف: 15/ 550، 551.

المفردةُ على الخلق ابتداءً وعلى التّقدير، وهما مرادان، فمَن أوجد الإنسانَ ابتداءً وإبداعًا، ثمّ قدَّر هذا الخَلْقَ، هو المحيطُ علمًا به، المُطّلع على أسراره، ويلزَمُ عَن الخَلْقِ العلمُ بالمخلوق إجمالًا وتفصيلًا.

براعَةُ فنِّ الإدماج:

الإشارة إلى أنَّ العبْدَ غيرُ خالقٍ لأفعالِه

مِن دقائقِ البلاغة في هذه الآية وقوعُ الإدماج؛ إذ تضمَّن الكلامُ معنًى آخرَ بجانب الأصل المقصودِ في السّياق، وهو نفيُ كونِ العَبْدِ خالقًا لأفعاله؛ لأنَّ الخلق فَرْعُ العلم، والعبد لا يعلَمُ أفعالَه أزلًا، ولا يحيط بها قبلَ وُقوعِها، فكيف يُنسَبُ إليه الخَلْقُ؟ فدلَّ الإدماجُ هنا على اختصاصِ الخَلْقِ باللّهِ تَعالى وحدَه، وأنَّه العليمُ الخبيرُ المحيطُ بكلِّ ما كان، ويكونُ في الكلام إدماجٌ لمعنى أنَّ العبْدَ غيرُ خالقٍ لأفعالِه؛ لأنَّه لا يَعلَمُها في الأزَلِ[1]، فأفعال العباد تُنْسَبُ إلى اللّه تَعالى خَلْقًا وإيجادًا وتقديرًا، وتُنسَبُ إلى العباد تحصيلًا واقترافًا واكتسابًا.

نوعُ الواو ودلالَتُها:

الـدّلالَـةُ علـى العِـلْـمِ الشّاملِ لذواتِ المخلوقاتِ ودقائِق أحوالِها

تَحْتَمل الواوُ في جملة: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ أن تكون للعطفِ على قوله تعالى: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ﴾؛ لتكون بيانًا وتعليمًا للنّاس بأنَّ علمَ اللّهِ تعالى ليس قاصرًا على ما يُسرّونه، ويجهرون به، بل هو علمٌ شاملٌ لذوات المخلوقاتِ ودقائقِ أحوالِها، فبَعْدَ أن أبْطَلَ تَعالى ظنَّهم بانتفاءِ عِلْمِه بما يُخْفون؛ زادهم بيانًا بأنَّه يُدْرِك ما هو أعمُّ من ذلك وأدقّ، ممّا لا يَخْطُر لَهُم على بالٍ[2].

ويَحْتَمِل أن تكون جملةُ: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ في محلِّ نصبٍ على الحالِ مِن فاعلِ ﴿يَعۡلَمُ﴾، جاءت لتوكيدِ معنى الإنكار والنَّفي، فالمعنى على ذلك: أفلا يعلَمُ ذلكَ، مع أنَّ حالَه أنَّه المحيطُ علمُه بما ظهر مِن خلقهِ وما بطن؟ ويجوز أيضًا أن يكون التَّقدير: ألا يَعلمُ اللّهُ

(1) الطّيبيّ، حاشية الطّيبيّ على الكَشّاف: 15/ 550، 551.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 31.

تَعالى مَن خلقه، والحالُ أنَّه في غايةِ شُمول العلم وإحاطته، على القول بأنَّ ﴿مَنۡ خَلَقَ﴾ مفعولٌ به لفِعلِ ﴿يَعۡلَمُ﴾، وقيل: بل هي حالٌ مِن فاعلِ ﴿خَلَقَ﴾[1].

بلاغَةُ القَصْرِ ودلالَتُه:

وَصْفا اللَّطيف الخبير لا يكونانِ مُجْتَمِعَين إلّا في حقِّ الله تَعالى وحدهُ

في قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ أسلوبُ قصْرٍ، وذلك بتعريفِ طَرَفَي الإسنادِ، والمعنى: قَصْرُ هاتين الصِّفتين على الله تَعالى وحده؛ فاللَّطيف هو الَّذي يُدرك دقائقَ الأمور وخفايا المصالح وما دقّ منها وما لطف، ثُمَّ يبلّغها إلى عباده بلُطفٍ ورِفْقٍ، ولا يُتصوَّر كمالُ هذا المعنى في الإدراك والفِعْلِ إلّا في حَقِّ اللّه تعالى، وأمّا الخبير؛ فهو الَّذي لا تخفى عليهِ خافيَةٌ في السَّماوات ولا في الأرض؛ إذ لا تتحرَّك ذَرَّةٌ، ولا تسكُنُ، ولا يَضْطَرِبُ نَفَسٌ، ولا يطمئِنُّ، إلّا وهو سُبحانه عالمٌ بخبرها، والخبرة هُنا أَخَصُّ من مُطلَقِ العلم، فهي العلمُ بما خفيَ من الأمور الباطنة، ولذلك لا يستحقُّ اسمَ الخبيرِ على وجْهِ الكمال إلّا اللّهُ ﷻ[2].

دلالةُ التَّعبير بزِنَةِ (فعيل):

كمالُ العِلْمِ بدقائق الأشياءِ مع حُسْنِ تدبيرها بحِكْمَةٍ بالغَةٍ

جاء وصفُهُ تعالى بـ ﴿ٱللَّطِيفُ﴾ و﴿ٱلۡخَبِيرُ﴾ على صيغة (فعيل) الدّالَّة على المُبالغة؛ للدّلالة على كمال عِلْمِه بدقائق الأشياء وخفايا الأمور، مع حُسْنِ تدبيرها برِفْقٍ وحِكْمَةٍ بالغَةٍ، ثُمَّ عُرِّف الاسمان بـ (أل)؛ لإفادة الكمالِ المُطْلَقِ للوصفِ الَّذي تضمَّنَهُ كلٌّ مِن الاسمَيْنِ، فهو سبحانه وحدَه المُتَّصفُ بهذه الصِّفاتِ على وجه الكمال[3].

نكتَةُ اقترانِ الوَصفَين:

قَطْعُ عُذْرِ المنكرين وتقويةُ الحُجَّةِ على الكُفّار

اقترانُ الوَصْفَينِ في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 579، 580، والبيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 5/ 230، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 7.

(2) القاسميّ، محاسن التَّأويل: 9/ 291، والهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 30/ 32.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 15.

يتجلّى في أنَّ اللّهَ تعالى خَتَمَ الحُجَّة بوصفَيْنِ جَليلَيْنِ يَقْطَعان عُذر المُنْكِرين، فاللَّطيف: لَطُفَ صُنْعُه وحِكْمَتُه، ودَقَّ حتَّى عجزت العقولُ عن إدراك غايته، فهو العالم بأدقِّ الخفايا ولطائف الأمور، والخَبير: الذي وسِعَ عِلْمُه ظاهر الأشياء وباطنَها، فأحاط بدقائقِ الأسرار، كما أحاطَ بالعلانيَة، واجتماعُ هذين الوصفين يؤكّد أنَّ علمه سبحانه لا يغيبُ عنه شيءٌ، ظاهرًا كان أو خفيًّا، واجتماعُهما في سياقٍ واحدٍ يُبرز كمالَ العِلْم الإلهيِّ مِن جميع جهاتِهِ ما دقَّ، ولَطُف، وما ظهَرَ، وبَطن، فيَبْطُلُ بذلك ظَنُّ المشركين أن يُخفوا عن اللّه تَعالى ما في صُدورهم، أو ما يُسرّون من أقوالهم[1].

فنُّ تشابُهِ الأطْرافِ:

اللَّطيفُ مُناسبٌ لإسْرارِ القولِ، والخبيرُ ملائمٌ للجَهْرِ به

اختير الاسمانِ الكريمان ﴿ٱللَّطِيفُ﴾ و﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ في هذا الموضع دونَ سِواهُما؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ مِنْهُما جاء مُلائمًا لمقام البيانِ لما سبَقَ في قوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ﴾، فاللَّطيفُ مناسِبٌ لِما خَفيَ، واستَتَر، وهو السِّرُّ؛ إذ يدلّ على إدراك الدَّقائق والخفايا بلُطْفٍ وإحاطَةٍ، أمّا الخبيرُ؛ فمُناسب للجَهْرِ وما ظهَر للعيان؛ إذ هو العليمُ بما بطن وما ظهر، فإذا كان علمهُ نافذًا إلى الباطن المستور، فأولى أن يُحيط بالظّاهر المكشوف[2]، وهذا تشابهُ أطرافٍ، فقد جاءت كلُّ صفةٍ مناسبةً لمعنًى مذكورٍ في المتقدِّم.

تَوْجيهُ تَخْصيصِ الصِّفتين بالذِّكر:

الإحاطةُ بالعُلومِ كلِّها خفيِّها وجليِّها

تفيد صفتا اللُّطفِ والخِبرة الإحاطةَ الدَّقيقة بما في البواطن على وجهٍ لا يُدانيه إدراكٌ آخر؛ إذِ المقصود هُنا تأكيدُ عِلْم اللّه تَعالى بما أخفَوه، وظنّوا أنّه يخفى؛ إذا أسرّوه، لا مجرَّدُ إثبات مطلقِ

(1) ابن القيّم، الصَّواعق المُرسلة: 2/ 492.
(2) شيخ زاده، حاشية زاده على تفسير البيضاوي: 8/ 279.

العلم؛ لأنّهم - على القول بأنّ الخطاب موجّهٌ للكفّار - لَم يكونوا يُنْكِرون أصلَ علم اللّٰهِ تَعالى، وإنَّما توهَّموا أنَّ خفايا صُدورهِم قد تَنِدُّ عن علمِه سُبحانه[1]، فإنَّه سُبحانَه يَجعَلُ أسماءَه دليلًا على ما يُنكِرُه الجاحِدونَ مِن صِفاتِ كَمالِه[2].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 20/ 243، 244.
(2) ابن القيّم، جلاء الأفهام، ص: 176.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ١٥﴾ [الملك: 15]

❁ مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قبلَها:

الانتقالُ مِن العلمِ الإلهيِّ إلى الامْتِنانِ الرّبّانيِّ

لمّا بيَّنتِ الآياتُ السّابقة علمَ اللّه تعالى وإحاطتَه بخَلْقِ الإنسان وتقديره؛ ناسب الانتقالُ إلى مثالٍ من أمثلةِ واقِعِ الإنسان الكاشفِ عن شَخْصِه وطريقة تفكيره وحِرْصِه، فذَكَرَ ما خلقَ اللّهُ تعالى له مِن الأرض، وما أوْدَعَها مِنَ الرِّزق، الَّذي يَحْرِص عليه الإنسانُ في حِلِّه وترحاله، فهو انتقالٌ مِن ذِكْرِ العلم بواقِعِ الإنسان، إلى ذِكْرِ دليلٍ عَمَليٍّ، يَجْمَعُ البُرْهانَ على العلمِ الإلهيِّ، والامتنان الرّبّانيِّ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ذَلُولٗا﴾: صيغةُ مبالغةٍ على زنَةِ فَعول، والجذر اللّغويّ منْهُ: (ذلل)، يُقال: ذَلَّ يَذِلُّ، ودابَّةٌ ذَلولٌ: بَيِّنَة الذُّلِّ، والذُّلُّ: اللّينُ والانقيادُ، والذَّلول المُنْقاد من الدّوابِّ[1]، وأصل معناه: الخُضوع، والاستكانة، واللّين، فالذُّلُّ: ضِدُّ العِزِّ[2]، و"الذُّلُّ: ما كان عن قهرٍ، يُقال: ذَلَّ يَذِلُّ ذُلًّا، والذِّلُّ ما كان بعد تصعُّب، وهي ذَلولٌ، أي: ليستْ بصَعْبةٍ"[3]، ومعنى الذّلول هنا: سَهلةٌ لَيِّنةٌ لا يَمتَنِعُ المَشيُ عليها[4].

2) ﴿مَنَاكِبِهَا﴾: أطرافها وجوانبها، والمَنْكِبُ: مجتمَعُ ما بين العَضُد والكتِف، والجمع: مناكبُ، وقد استُعير ذلك للأرض استعارةَ الظّهور لها[5]، وأصلُ (نكب): يدُلُّ على مَيلٍ في شَيءٍ، والأنْكَبُ:

(1) الخليل، العين: (ذل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذل).
(3) الرّاغب، المفردات: (ذل).
(4) الواحديّ، البسيط: 22/ 53، وابن الجوزيّ، تذكرة الأريب، ص: 408.
(5) السَّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (نكب).

الَّذي كَأَنَّهُ يَمْشي في شِقٍّ[1]، يُقال: نَكَبَ عن الطَّريق يَنْكُبُ نُكوبًا، أي: عدلَ[2]، والمعنى هُنا: نواحيها وطُرُقها وفِجاجها[3].

3) ﴿ٱلنُّشُورُ﴾: البَعثُ، وأصلُ (نشر): يدُلُّ على فَتحِ شَيءٍ وتشَعُّبِه[4]، ومنه: نَشَرَ اللّهُ تعالى الميِّتَ: أحياه وبعثه، وإذا حَيّ انبسطَ؛ لأنَّ البعث إثارةٌ وإقامَةٌ يظهَر فيهما الامتدادُ، وهو انبساطٌ[5]، والمعنى هُنا: البَعثُ والمَرجِعُ[6].

المَعنى الإجْماليُّ:

التَّذكيرُ بنِعَمِ اللهِ تَعالى في تذليلِ الأرض وتسخيرها للعِبادِ

تَذْكُر الآية الكريمةُ منّةَ اللّهِ تعالى على عباده بنعمتِه العظيمة؛ إذ سخَّر لهم الأرضَ، وهيَّأها؛ لتكون سهلةً مذلَّلةً، مطاوعةً لمنافعهم، فجعلها قرارًا يمشون على ظهرها، ويتنقَّلون في أرجائها وأطرافها، ويُسافرون في أقطارها طلبًا للرِّزق والمَعاش، ولم يجعلْها صعبةً عسيرةً تمنعُهم من السَّير أو الانتفاع بها، بل أودع فيها أرزاقَهم، ومكَّنهم من استخراج خيراتها والانتفاعِ بما أخرج منها مِنَ المنافع، ثُمَّ نبَّههم سبحانه أنَّ مرجِعَهُم في النِّهاية إليه وحدَه؛ إذ يُبعَثون بعد موتهم للحساب والجزاءِ على ما قدَّمت أيديهِم[7].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

علّةُ فَصْلِ الآية عمّا قبلَها:

العَودُ إلى الاستِدلالِ المقرون بالامتنانِ الدّالّ على تمام القدرة والعلم

قولُ اللّهِ تَعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ استئنافٌ فيه عَودٌ إلى الاستِدلالِ المقرونِ بالامتنانِ، فاللّهُ تعالى بعدَما أقامَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نكب).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (نكب).
(3) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 312.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نشر).
(5) محمَّد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (نشر).
(6) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 215، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 179.
(7) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 215، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 179، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 313، والسَّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 877.

البُرْهانَ بخَلْقِ الإنسان؛ انتقلَ إلى ما هو أعظمُ وأشمل دلالةً على قدرتهِ وعِلْمِه، وهو خَلْقُ الأرض الَّتي تَحْتَضِنُ البشَرَ جميعًا، فالإنسان ليس إلّا جزءًا منها، بل هو من مادَّتها أصلًا، كما قال تعالى: ﴿۞مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ﴾ [طه: 55]، وجاء الامتنانُ في جَعْلِ الأرض مذلَّلةً مُهيَّأةً لهم: يسيرون في أرجائِها، ويَنْتَفِعون بخيراتها، ويستخرجونَ أرزاقَهُم منها، ثُمَّ ذُيِّل ذلك بتذكيرهم أنَّ النُّشور سيكون منها وإليه سُبحانه وحدهُ، فلا ملجأ ولا مآبَ إلّا إليه[1].

نوعُ القَصْرِ وبلاغَتُه:

الـخـالِـقُ هـو المُسْتَأْثِر بجَعْلِ الأرض ذلـولًا وسببًا في الرِّزق

اقتضى تعريفُ جُزْأي الجملةِ في قولهِ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ قَصْرَ الخلْقِ والرَّزْقِ على اللّه تعالى، وهو يَحْتَمِلُ أن يكون قَصْرَ قلبٍ؛ إذ نُزِّل المخاطَبون منزلةَ مَن يَعْتَقِد أنَّ الأصنامَ هي الَّتي خلقَتِ الأرض؛ إذْ إنَّ ادّعاءهم ألوهيَّتَها يقتضي إلزامَهم بهذا الظَّنِّ الباطل، وإن لم يُصرِّحوا به بألْسِنَتِهم[2]، فالآية تُبطِل مُقْتَضى ادّعاء المُشْرِكين ما اعتَقَدوهُ في الأصنام، ومعاملتها معاملةَ الخالِق المُسْتَحِقّ للعبادة وحدَهُ دونَ سِواهُ، ويَحْتَمِل أن يكون القَصْرُ محمولًا على الإفرادِ، كأنَّه قال: هو الرّازق لا آلهتُكُم وأصنامُكم؛ ذلك أنَّ المشركين اعتقدوا استحقاق الآلهةِ العبادةَ، وأشركوا مع اللّه تعالى غيرَه، فأفْرَدَ القصرُ الحكمَ على اللّه تعالى، ونفاه عن غيره، والإفرادُ هو الأبيَنُ في هذا البابِ.

نوعُ اللّامِ وفائِدَتُها:

إظـهـارُ المِـنَّـة وتأكيدُ تكريم الإنـسـانِ على سائِرِ الخَلْقِ

اللّام في قوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ﴾ للاختصاص، جاءت في سياق الامتنانِ؛ إذ يَمْتَنُّ اللّه تعالى على بني آدمَ بتَمْكينِهِم من هذه الأرض، وإعطائِهم القُدراتِ؛ لتَحْصيلِ خيراتها، أي: إنّ اللّه تعالى

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 31.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 32.

خلَقَ الأرضَ، وهيّأها لمنفعَةِ الإنسان؛ لتكونَ مسخّرةً له، يَنْتَفِعُ بها في معاشِه، ويستخرجُ منها أرزاقَه، ويستقرّ عليها، ويمشي في مناكِبِها، ويسلُك سُبُلَها[1]، ففائدةُ اللّامِ هنا إظهارُ المِنّة وتأكيدُ تكريمِ الإنسانِ وتفضيلِه على كثيرٍ مِنَ الخَلْق.

بلاغَةُ الخِطاب وشُمولُهُ:

لـفـتُ الأنـظـار إلى عظيمِ المِنّة الإلهيَّة الشّاملة للسّابقين واللّاحقين

الخطابُ في القيد ﴿لَكُمُ﴾ موَجَّهٌ إلى جميع النّاس دون استثناءٍ؛ ليَشْمَلَ المُخاطَبين الأوائلَ ومَن يأتي بعدَهُم، فيكون أبلغَ في التَّذكير بفَضْلِ اللّه تعالى، والمقصودُ منه لَفْتُ أنظار الخَلْقِ إلى عظيم المِنّة الإلهيَّة عليهم، فقد أنشأهُم اللّهُ تَعالى، وهيَّأ لهم الأرضَ؛ لتكون مقرًّا لخلافَتِهم، وميدانًا لعِمارَتِهم، وذلَّلها تسخيرًا، فجعلها قابلةً للانتفاع، ميسَّرةً لمعاشِهم، مُطاوعةً لخُطواتِهم، بما أودع فيها من أقواتٍ، ومعادنَ، ومنافعَ، وأدوات عملٍ وصناعةٍ، وبهذا الخطاب يظهر إحسانُ اللّه تَعالى إلى عباده، ويُذكِّرهم بواجب الشُّكر له وحدَه؛ إذْ هو الَّذي مهَّد لهم سُبل الحياة، وأعطاهم أسبابَ البقاء والرِّزق، دون أن يكون للأصنام أو غيرها أدنى نصيبٍ في ذلك[2].

دلالَةُ تعريفِ لفظ ﴿ٱلْأَرْضَ﴾:

الأرضُ المعهودةُ هـي المـرادُ في غالب الخِطاب القرآنيّ

التَّعريف في لفظ ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ للعَهْدِ العلميِّ؛ فالمُراد بها الأرضُ المعمورة ببني آدمَ، أي: هذه الأرض الَّتي يعيشونَ عليها، ويُشاهدونها، فجاء التَّعريف؛ ليَرْبِط المُخاطَبين بما يُباشرونه من مَعايِشِهم ومواطنهم، وليكون أبلغَ في إقامة الحُجَّة عليهم؛ إذ لا يَمْلِكون إنكارَ ما هو حاضِرٌ بَيْنَ أيديهم مُشاهَدٌ في حياتِهِمُ اليوميَّة من تذليلِ الأرض وتسخيرها لمنافِعِهم[3].

---

(1) نجم الدّين الكبرى، التَّأويلات النَّجميَّة: 6/ 188، وعبد الملك قاسم، عقد الجمان: 1/ 1213.

(2) الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 15/ 1060.

(3) الصّاويّ، حاشية الصّاويّ: 4/ 234.

نُكتَةُ تقديم القَيْدِ على المفعولِ:

قُدِّم قيد ﴿لَكُمُ﴾ على مَفعولَي الجَعْلِ مع أنَّ حقَّه التَّأخُّرُ عنهُما؛ ليخدم غرضًا بلاغيًّا، وهو الاهتمام بما قُدِّم، والتَّشويق إلى ما أُخِّر، فالتَّقديم أبرزَ عنايةَ اللّهِ تعالى بعباده؛ إذ جُعِلَ التَّذليل والتَّهيئة في الأرض أوَّلًا وأساسًا لمنافعهم، فإنَّ كُلَّ ما في الأرض مُسَخَّرٌ ومُهيًّأٌ لأجلكم أيّها النّاس، ومن جهةٍ أخرى؛ فإنَّ تأخير ذِكْرِ الأرض بعد التَّشويق يُحدِث في النَّفس تَرَقُّبًا وانتظارًا لمعرفة الشَّيءِ الَّذي جُعِل لمصلحة المخاطَبين، فيرسخ عند السّامع أبلغَ رُسوخٍ، ويَزْداد أثَرُ الامتنانِ في القُلوب[1].

الاهـتـمـامُ بما قُدِّم، والتَّشويق إلى ما أُخِّر

بلاغَةُ التَّعبير بصيغَةِ (فعول):

جاء لفظ ﴿ذَلُولًا﴾ على وزن (فعول)، وهي صيغَةُ مُبالغَةٍ تَزيدُ المعنى شمولًا، فكما يُقال: دابَّةٌ ذَلول، أي: مطواعةٌ مُنقادةٌ لا صعوبةَ في ركوبها أو قيادها، استُعمِل هُنا؛ للدّلالة على أنَّ الأرض قد سُخِّرت للإنسان تسخيرًا كاملًا، بحيث غدَتْ مُهيَّأةً لِكُلِّ ما يحتاجه من أسبابِ الحياة ووسائل المعيشة، فذَلَّلها لهم، ووَطَّأها، وفَتَقَ فيها السُّبُلَ والطُّرُقَ الَّتي يَمشون فيها، وأودعها رِزقَهم، فذكَرَ تهيئةَ المَسكَنِ للانتِفاعِ والتَّقلُّبِ فيه بالذَّهابِ والمجيءِ، والأكلِ ممّا أودع فيها للسّاكنِ، بحيث يسهُل الاستقرارُ عليها، والسَّيرُ في أرجائها، والانتفاعُ بخيراتها، وهذا يَحْمِلُ تذكيرًا بآيات الرُّبوبيَّة وآثار الإنعام؛ ليوقِظَ النُّفوسَ الغافلةَ، ويدعوها إلى التَّدبُّر والاعتراف بالمُنعم، وترك العناد والجحود[2].

تسخيرُ الأرضِ للإنسانِ شامِلٌ لجميعِ منافعِهِ وكامِلٌ احتياجاتِه

بلاغَةُ التَّشبيه والاستعارة:

في قول اللّهِ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ

الأرضُ مذلَّلةٌ للنّاس انتفاعًا ومشيًا، والإنسان ينتقِلُ فيها مِن دارٍ إلى أخرى

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 7.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 225، وابن القيم، الفوائد، ص: 17، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 32.

﴿فِي مَنَاكِبِهَا﴾ استعارةٌ؛ إذ شُبِّهت الأرض بدابّةٍ، وذُكِرَ المشبَّهُ، وحُذِفَ المشبَّهُ به، ثُم رُمِز لها بالذّلول على سبيل الاستعارةِ المكنيَّة، وشُبِّه الانتفاعُ بالأرض وتيسيرُ سبُلِها والمشيُ فيها بالذّلول، وهو وصفٌ يُطلَق على الدّابّة، فصُرِّحَ بالمشبّه به، وحُذِف المشبَّهُ، وهو يُسر الانتفاع على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة؛ إذْ أُطلِق عليها وصفُ الذَّلول بجامع تيسيرِ الانتفاع بها، مع كونِها في أصلها صُلْبة قويَّة، كما تُذلَّل الدّابّة العصيَّة بعد صعوبة، فيسهل ركوبُها والانتفاع بها، فذُكِر المُشبَّه ﴿ٱلْأَرْضَ﴾، وحُذِف المشبَّه به (الدّابة)، وأُبقيت الصِّفة المُشتركة، وهي الذّلول، وزاد البيان بقَرْن الكلام بما يُناسب المُشبَّه به من لوازمه، وهو قوله: ﴿فَٱمْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا﴾؛ إذ جُعلت الأرضُ ذاتَ مناكِبَ على سبيل التَّخييل؛ إذِ المَنكِبُ في الأصل ملتقى الكَتِفِ والعَضُدِ مِن الدّابّة، وهو مِن أرقِّ المواضع الَّتي يضَعُ عليها الرّاكبُ قدمَهُ عندَ الرُّكوب، فجاء التَّعبير بذلك؛ إشارةً إلى فرط التَّذليل ومبالغته، فكأنَّ المشيَ على الأرض بمنزلة ركوبِ الدّابّة الذَّلول، والانتفاعَ بخيراتها من نباتٍ ورزقٍ أشبهُ بالانتفاع بما يُستفاد من الأنعام من ركوبٍ ولحمٍ ولبنٍ، وبذلك جمعَت الاستعارةُ بين الكناية بالأرض عن الدّابة، والتَّصريح بالوصف المشترك ﴿ذَلُولًا﴾ والتَّجريد بذكر المناكِب؛ للدَّلالة على سعة الأرض وامتداد نواحيها، في صورةٍ بلاغيَّةٍ مؤثِّرةٍ تُقرِّب المعنى إلى الأذهان، وتُبرز تمام النِّعمة وتسخير الأرض للإنسان[1].

وقد يُحمَل التَّشبيه هُنا على معنى التَّشبيه البليغ[2]، كما هو الظّاهر في أمثاله، نحو ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ [البقرة: 22]، ونحو: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦﴾ [النبأ: 6]، على أنَّ الذَّلول من الذِّل - بالكسر - ويكون في الكلام تشبيهُ الأرض بالدّابّة المُذلَّلة في سهولة الانقياد والانتفاع بها؛ إذ حُذِف وجه الشَّبه وأداة التَّشبيه، وأُثبت المُشبَّه ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ والمشبّه به في صورةِ خبَرِ ﴿ذَلُولًا﴾، فصار كأنَّ الأرض هي بذاتها دابَّةٌ مُنقادةٌ، وهذا أبلغ في بيان شِدَّة تيسيرها وتسخيرها للإنسان.

وتكمُنُ القيمَةُ الإرشاديَّة في ذلك كلِّه بأنَّ الإنسان يركَبُ الأرض في حياته، ويستقرّ

---

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 580، والقونويّ، حاشية القونويّ على تفسير البيضاوي: 19/ 202، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 32، والصّابونيّ، الإبداع البيانيّ: 1/ 361.

(2) القونويّ، حاشية القونويّ على تفسير البيضاوي: 19/ 202، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 16.

فيها بعد مماتِه، وهي تَحمِلُه حيًّا وميّتًا من دار الدُّنيا إلى دار الآخرة، وهو غيرُ شاعرٍ بذلك الحَمْلِ على الأرضِ الذّلول.

بلاغَةُ الكناية وفائدَتُها:

انقياد الأرض وتسخيرُها للإنسانِ مِن أعظَمِ النّعم وأكملِ المِنَن

قوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا﴾ كنايةٌ عن صفة الانقياد والتَّسخير والتَّطويع الَّتي أودعها اللّهُ تعالى في الأرض؛ لتكون مُهيَّأةً لخدمة الإنسان وتيسير مَعاشه، وهي صفةٌ معنويَّةٌ دقيقةٌ، وقد ظَهَرَ هذا التَّذليل جليًّا عبر العصور، ولا سيّما في زماننا؛ إذ استثمر الإنسانُ كُلَّ صور الانتفاع بالأرض، فاستخرج معادِنَها، وحلّل عناصِرَها، وشطر ذرّاتها، واستَنْبَت نباتاتِها، وكشف أسرارَ مخلوقاتها، وغاص في أعماق بحارها، وطار في أجواء فضائِها، وكلُّ ذلك من مَظاهر تذليل الأرض لبني آدم بإرادة اللّهِ تعالى ومنَّته[1].

دلالَةُ تقديم ذِكْرِ تذليل الأرض على الأمر بالمَشْيِ في مناكبِها:

تقريرُ الامتنان وتهيئة السَّكَنِ قبلَ نزول السُّكّان

قدَّم النَّظم الكريمُ بيانَ تذليل الأرض وتسخيرها للإنسان، في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا﴾ قبل الأمرِ بالسَّعي فيها: ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا﴾؛ وذلك ليُقرِّر الامتنانَ أوّلًا، ثمّ يوجِّه إلى العمل ثانيًا، دون العكس، فلم يأمر بالمشي فيها، ثُمّ يُعلِّل ذلك بذِكْرِ تذليلِها، ففي هذا التَّقديم إشارةٌ إلى أنَّ إباحة الانتفاع بما في الأرض هي دعوةٌ إلى الحركة والسَّعي والجدّ في طلب الرّزق، بعد أن هيّأها اللّهُ تَعالى وسهّلها لعباده، وبهذا يضع القرآنُ الكريم الأمّة في موقع العزَّة والقُدْرَةِ على الإنتاج والاكتفاء، ويُشعرها أنَّ أيَّ تقصيرٍ في عُمران الأرض أو استثمار خيراتها إنَّما يعود إلى إهمالها وتفريطِها، لا إلى نقصٍ فيما سخَّره اللّهُ تَعالى لها[2].

(1) الحجازيّ، التَّفسير الواضح: 3/ 715.
(2) عطيّة سالم، تتمَّة أضواء البيان: 8/ 238، 239.

نوعُ الفاء ودلالتُها:

المشيُ في جوانب الأرض نتيجةٌ مبنيّةٌ على تذليلها وتسخيرها

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا﴾ تحتَمِلُ أن تكون فصيحةً، فهي تُفصح عن مقدَّر محذوفٍ فيه معنى الشَّرط، والمعنى: إذا تبيَّن لكم أنَّ اللّهَ تَعالى جعَلَ الأرض مُذلَّلةً ميسَّرةً؛ فامشوا في جوانبها، وانتَفِعوا بها، فجاءت الفاءُ؛ لتَرْبط الأمرَ بالمشي بما تقرَّر من نعمة التَّذليل، وتحتمل التَّفريعيّة دلالةً على أنَّ السَّير في الأرض وطلبَ الرِّزق إنَّما هو أثر طبيعيٌّ ولازمٌ لِما أنعم اللّهُ تَعالى به مِن تَسْخيرها، والمعنيانِ مُتقارِبان[1].

غَرَضُ التَّعبير بصيغَةِ الأمر:

إقامَةُ الحجَّة على العبادِ ببيان التّناقُضِ في استِجابَتِهم لأهوائِهم وإعراضِهم عن الحقِّ

جاء فعلُ (امشوا) بصيغة الأمر، وهو دالٌّ على الإباحةِ في الانتفاع، بما سخّره اللّه تَعالى في الأرض، ويحتمل أن يكون خَبَرًا سيق بلَفْظِ الأمر زيادةً في تقرير التَّذليل، أي: امشوا الهوينى بسُهولةٍ ويُسرٍ، سواءٌ أكنتُم تسيرون ساعينَ في طلب المكاسب أم غيرَ ساعين، دون مَشقَّة تُلجئكم إلى الوَثْبِ أو الزَّحف[2]، وتحتمل صيغةُ الأمر أيضًا معنى الدّوام، أي: استمرّوا في المشي والانتفاع بما في الأرض، وفي ذلك تذكيرٌ بنعمةِ اللّهِ تَعالى وامْتِنانه عليهم بتسخير الأرض لَهُم وتهيئَتِها لمصالحِهِم[3].

والَّذي يظهَرُ أنَّ غرضَ الأمر هو إقامةُ الحُجّة والإلزامُ، كأنّه قيل: ما لكم إذا قيل لكم: امشوا في طلب رزقكم، وكلوا منهُ؛ استَجَبتُم بواقع الحال المُشاهَد، وإذا قيل لكم: آمنوا بالبعث؛ أعرضتُم بواقع المقالِ المَسْموع؟ فهو تلويحٌ بعَسارةِ النّفوس وعدم صِدْقها.

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 7، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 32، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 10/ 89.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 20/ 245.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 591، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 215، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 32.

بلاغَةُ حرفِ الظَّرفيَّة:

المَشْيُ في الأرض ليس انتقالًا فحسبُ، بل هو استخراجٌ للكنوز وبحثٌ عن الخيرات

آثَر النَّظمُ الكريمُ استعمالَ حرفِ الظَّرفيَّة دون الاستعلاءِ، في قوله تعالى: ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا﴾، والمشيُ يكون فوق الأرض، وذلك لبيانِ أنَّ الإنسانَ يَمْشي في أعماق جوانب الأرض، ويزرَعُها ويستخرج خيراتِها، ويعمَلُ على كشْفِ أسرارها، فهي ليستْ مُجرَّدَ طريقٍ يمشي عليه، فالمشي في الأرض بعد تذليلِها لا يعني المشيَ المعهودَ، وهو الانتقالُ بين أنحائها، بل البحث فيها وكشف أغوارِها، وطلَب الانتفاع من بَواطِنِها، وهو ما يُعبِّر عنه حرفُ الظَّرفيّة بجَلاءٍ.

غَرَضُ جَمْعِ لفظ ﴿مَنَاكِبِهَا﴾ وتعريفِهِ بالإضافةِ:

كثرةُ جوانبِ الأرض المتنوِّعة المنافعِ والمتعدِّدةِ الأشكالِ

المناكِبُ جَمْعُ: مَنْكِبٍ، وهو مُلتقى الكتِف مع العَضُد، والمُراد به هُنا: جوانِبُها أو طرُقُها وأطرافُها، وفي جمع ﴿مَنَاكِبِهَا﴾ مع إضافتِه للأرض تصويرٌ لكَثْرةِ جوانِبِها وطُرُقِها وفِجاجِها، وهو إشارةٌ إلى شِدَّة تسخيرها وفَرْطِ تذليلها للإنسان(1)، مع الإشارة إلى تنوُّعها، فهي مناكبُ تصلُحُ للزِّراعة، وأخرى للصِّناعة، وأخرى للسَّكن، وأخرى للنَّقل والتِّجارة.

بلاغَةُ الاستِعارةِ في لفظ ﴿مَنَاكِبِهَا﴾:

إبرازُ شِدَّة تذليل الأرضِ وتَسْخيرها للإنسانِ

شُبِّهت الجوانِبُ بالمناكِبِ في قوله تعالى: ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا﴾، فذُكِر لفظُ المُشبَّه به، وأُريدَ به المُشبَّه على سبيل الاستعارةِ التَّصريحيَّة؛ ذلك أنَّ المَنْكِب هو مُلْتَقى العَضُد بالكتِف، وشُبِّهت به الجبالُ والمُرْتَفعات من حيثُ العلوُّ والارتفاع، فاستُعير للأرض في قوله تعالى: ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا﴾، واستُعير لها لفظُ الظّهر أيضًا في قوله تعالى: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ﴾ [فاطر: 45](2).

(1) الطَّنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 15/ 19.
(2) إسماعيل حقّي، روح البيان: 10/ 89.

دلالَةُ عَطْفِ الأمْرِ بالأكل عَلى الأمْرِ بالمَشْيِ:

الجَمْعُ بَيْنَ نعمَةِ الحرَكَة والتَّنقُّل ونعمةِ القوتِ والمَعاش

عُطِف قوله تعالى: ﴿وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ﴾ على الأمر بالمَشْي في جوانب الأرض؛ للانتقالِ من الامتنانِ بتيسير السَّير فيها إلى الامتنان بتيسير الانتفاع بخيراتها وأرزاقها، فهو مظهَرٌ ثانٍ من مظاهر تسخيرها أن أوْجَدَ فيها كلَّ ما يحتاجه الإنسان لرزقه، فجمَعَ لهم بين نعمة الحركة والتَّنقل ونعمة القوت والمعاش، ولا يتحقّق الأكل إلّا بعد المشي في طلب الرّزق[1].

غرَضُ الأمْرِ بالأكْلِ:

تذكيرُ العِباد بعَطايا اللهِ تَعالى ومِنَنِه

جاء الأمر في قوله: ﴿وَكُلُواْ﴾ مرادًا به الإباحةُ زيادةً في الامتنان؛ إذ يُذكِّر العبادَ بأنَّ ما يأكلونه من رِزْق إنَّما هو عطيَّةٌ من اللّه تَعالى الَّذي ذلَّل لهم الأرض، وهيَّأ لهم مواردَها وخيراتِها[2].

دلالَةُ إضافَةِ لَفْظِ الرّزق إلى الضّمير:

التّلويح بالتّهديد في سياق الامتِنانِ

أُضيف لفظ الرِّزق إلى الضّمير العائدِ إلى اللّهِ تَعالى: ﴿وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ﴾، وهي إضافةٌ بمَعْنى اللّام، فهي للاختصاص، وإمّا بمعنى (من)، أي: إنَّ الرِّزق هو ملك للّهِ تَعالى وحده، لا يملِكُ أحَدٌ أن يخلقَه، أو يَضْمَنَهُ سِواه، وفي ذلك تذكيرٌ للإنسان بأنَّ ما ينالُه من خيراتِ الأرض إنَّما هو عطاءٌ من اللّه تَعالى وفضلٌ، لا بكَسْبِه وحده، فينبغي أن يُقابلَه بالشُّكر والطّاعة[3]، وفي الإضافة تلويحٌ بالتّهديد في سياق الامتنان، فإذا كان الرّزقُ رزقَه؛ فعلى العبادِ أن يَخشَوا منعَهُ؛ إن هم أشركوا به غيرَه.

بلاغَةُ العَطْفِ ودلالَتُه:

عَطْفُ الغاياتِ على الوسائلِ تتميمٌ للمَعاني وتكميلٌ للمَقاصِدِ

عُطِف قولُه تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾ على الأمر بالمَشْي والأكل، مِن عطف الغاية على وسائلها، أي: إذا مشيتم في طلبِ الرّزق أيّها

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 20/ 246.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 591.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 591.

النّاس، وأكلتم منه، وانتفعتُم، وعَلِمْتُم أنَّ الخالقَ الرّازق ﷻ هو مَن أوجَدَ لَكُم ذلك؛ فآمنوا به حقَّ الإيمان، فإليه النُّشور والحساب والجزاء، فالدُّنيا مزرعَةُ الآخرة، وطريق الحساب، فالعطف "تتميمٌ لمناسبة ذِكْرِ الأرض، فإنّها مثوى النّاس بعد الموتِ"[1].

بلاغَةُ استِعمالِ حرفِ (إلى):

بدايةُ الطَّريقِ المشيُ في الأرض ونهايتُهُ إلى اللهِ تعالى

جاء استِعمالُ حرفِ (إلى) في قوله تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾؛ ليُفيد الغايةَ والانتهاء، أي: إنَّ المرجِع والمصير المحتومَ بعدَ الموت هو إلى اللّهِ تَعالى وحدَه لا إلى غيره، وفيه إيحاءٌ بالتَّحذير والتَّنبيه على أنَّ على الإنسانِ أن يُقيم في الأرض، ويأكُلَ مِن رزقها، وهو مُستشعر أنَّ مصيره منَّتهٍ إلى اللّه سُبحانَهُ، فيستعدَّ بلقاء عمَلِه، فيَجْتَنِب الكُفْرَ والمعاصيَ سِرًّا وجَهرًا[2]، وتظهر بلاغةُ استعمالِ (إلى) دون اللّام في مناسبَةِ السّياق، فإنَّهُ لمّا ذكر المَشْي في الأرض الذّلول؛ ناسَب بيان غايةِ المَشْي على طريقِ الإيماء وهو البعثُ، فالبدايةُ كانت مِن الدُّنيا، والغايةُ كانت إلى الآخرة، فذِكْرُ حرفِ (إلى) نبَّه إلى البداياتِ بذِكْرِ الغاياتِ.

نكتَةُ تَقْديمِ الجارِّ والمجرور على المُسْنَدِ إليهِ:

العنايَةُ والاهتمامُ بالنُّشورِ دليلُ موقعِه وبرهانُ أثرِه

قُدِّم ذِكْرُ الجارِّ والمجرور على المسنَدِ إليه، في قوله تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾ للاهتمام[3]، لا الاختصاصِ؛ إذْ لم يدَّعِ أحدٌ أنَّ هناك نشورًا لغيرِ اللّه تعالى، ودلالة الاختصاص ليست باعتبارِ السّياق بل باعتبار أصلِ المَعْنى، فالمرجِعُ بعدَ البَعْث مقصورٌ على اللّه تَعالى وحدهُ دونَ سِواهُ، وفي ذلك توجيهٌ إلى وُجوب شُكْرِ نِعَمه وتعظيم آلائه.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 32.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 591.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 32.

معنى تعريفِ لَفْظِ ﴿ٱلنُّشُورُ﴾:

التَّعريف في لفظ النُّشور هو تعريفُ الجنسِ، فيُفيد العمومَ والشُّمول، أي: كُلّ نشورٍ، فيدخُلُ فيه نشورُ المُخاطَبين وغيرهم(1).

بلاغَةُ الكِنايَةِ:

التَّذكير بأنَّ المرجِعَ إلى اللهِ تَعالى وحدَهُ بعدَ البَعْثِ للحِساب تحذيرًا وتنبيهًا

قوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ كنايةٌ تَحمِلُ في طيِّها تحذيرًا وتنبيهًا، فهي تذكيرٌ بأنّ المرجِعَ إلى اللّه تَعالى وحده بعد البعث للحساب، فلا يصحّ للعبدِ أن يلجأ في طلَبِ رزقه إلى الحرام؛ لأنَّه سَيُسْألُ عنه، وأيضًا فإنّها تقطَعُ تعلُّقَ القَلْبِ بالدُّنيا، وتَمْنَعُ الرّكون إليها؛ إذِ المَقْصودُ أنْ تكون الدُّنيا مزرعةً للآخرة، لا مستقَرًّا دائمًا، وفيها أيضًا تقريرٌ لعظمة اللّهِ تَعالى بتَذْكيرِ عبادِهِ بوَحدانيَّته، وقُدرته على الإحياء بعدَ الإماتة، وحثِّهم على الاستعدادِ لِلقاءِ ربِّهم بالعمل الصّالح(2).

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 32.

(2) ابن القيِّم، الفوائد، ص: 18.

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ١٦ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ١٧﴾ [الملك: 16 - 17]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

الانتقالُ مِنَ التَّرغيبِ بالامتنانِ إلى التّرهيبِ بالتَّهديد

لمّا بيَّن اللّه تعالى أنَّ استقرار الخَلق وسلامتَهُم في الأرض إنَّما هو بفضلِه ورحمته، ولو شاء؛ لقَلَبَ عليهِم نِعْمَتَها نقمةً، فكان هذا ترغيبًا لهم في العبادةِ والتَّوحيد؛ ناسَب أن يتمّم هذا البيانَ بالتّرهيب والإنذار، فجاء التَّهديد للمكذِّبين بعذاب عاجلٍ دونَ عذاب جهنَّم، مبيِّنًا بطلانَ شعورِهم بالأمان، بعدَما أُقيم البرهانُ على أنَّ الملك بيدِه وحدَهُ، وأنَّه قادِرٌ على إنزال العقوبة بجُنودِهِ أو بغَيْرِ سبَبٍ ظاهِر، فجاء التَّقرير بحقيقة افتقار الإنسانِ وضَعْفِه، وأنَّه لا ملجأ له مِن عذاب اللّه تَعالى ولا واقيَ لَهُ منه، وهكذا انتقل السّياقُ من بيان النِّعمة والاستدلال بها إلى إيقاظ القلوبِ بالتَّخويف والإنذار؛ إذْ ثبَتَ أنَّ اللّه تَعالى خالقُ الأرض ومُسخِّرُها، وثبَتَ أنَّهم قصَّروا في شُكْرِه، فاستحقّوا غضبَهُ وعِقابَهُ، حتّى ينقلبَ مَشْيُهُم على ظاهِر الأرض إلى غَوْصٍ واضطرابٍ في أعْماقِها[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَخۡسِفَ﴾: أصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على غُموضٍ وغُؤورٍ، وإليهِ تَرجِعُ فُروعُ البابِ، فالخَسْفُ: غُموضُ ظاهِرِ الأرْضِ[2]، والخَسْفُ: زِلْزالٌ شَديدٌ تَنْشَقُّ بِهِ الأرْضُ، فتَحْدُثُ بِانشِقاقِها هوَّةٌ عَظيمَةٌ تَسْقُطُ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 591، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 20/ 247، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 33.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خسف).

فيها الدّيارُ والنّاسُ، ثُمَّ تَنْغَلِقُ الأرْضُ على ما دَخَلَ فيها، والخَسْفُ: سُؤوخُ الأرض بما عليها، تقول: انْخَسَف به الأرض، وخَسَف اللّهُ به الأرض[1]، والخَسْفُ في الآية: انقلابُ ظاهرِ الأرضِ في باطنِها مِنَ الزِّلزالِ، أي: يُغَيِّبكم فيها[2].

2) ﴿تَمُورُ﴾: تَدورُ، وتتحَرَّكُ، والجذرُ اللّغويُّ منه: (مور) وهو دالٌّ على التّردُّد، يقال: مارَ يمورُ مَوْرًا، ومعنى المَوْر: التَّردُّدُ وعدمُ الاستقرار، يُقال: البعير يمورُ عَضُداه؛ إذا تردَّدا في عرض جَنبَيه، والطَّعنةُ تمورُ؛ إذا مالَت يمينًا أو شمالًا، والدِّماءُ تمورُ في وجهِ الأرض؛ إذا انصبّت، فتردّدت[3]، والمعنى هُنا: تَدورُ، وتَضطَرِبُ، وتتحَرَّكُ ذهابًا ومجيئًا على خلاف ما كانت عليه من الذُّلِّ والاطمئنان[4].

3) ﴿حَاصِبًاۖ﴾: حِجارةً أو ريحًا عاصِفًا تَرمي بالحَصْباءِ، وهي الحَصَى الصِّغارُ، وأصلُ (حصب): يدُلُّ على الرَّمي، يُقالُ: حَصَبْتُ الرَّجُلَ بِالحَصْباءِ، وريحٌ حاصِبٌ؛ إذا أتَتْ بِالغُبارِ، والمعنى هنا: (ريحًا تَحْصِبُهم بالحجارة)[5].

المَعْنى الإجْماليُّ:

تهديدُ الكافرين بعذابِ الخَسْفِ والرَّجم تهديدٌ غيرُ مسبوقٍ

يقول اللّهُ تعالى مهدِّدًا الجاحدينَ ممَّن استمرَّ في طُغيانِه وكفرِه: هل أمِنتُم - أيّها المُعْرِضون - مِن عذاب اللّه تَعالى الَّذي علا، وارتفع فوقَ سماواتِه، أن يَخْسِفَ بِكُم الأرْضَ جزاءَ كُفْرِكُم، فإذا بها تهتَزُّ، وتَضطَرِبُ بكم؟ أم أمِنْتُم اللّهَ الَّذي في العُلوِّ فوقَ السَّماءِ أن يُرسل عليكم حجارةً من السَّماء يَرميكم بها؟ وحين يقع ذلك سَتُدْرِكون حقًّا صدقَ إنذاري، وعاقبة مَن أعرض عن هُدايَ، وكذَّب بِرُسُلي[6].

---

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (خسف).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خسف)، والكفويّ، الكُلّيّات، ص: 771.
(3) الخليل، العين، ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مور).
(4) الآلوسي، روح البيان: 10/ 90، والهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 30/ 37.
(5) العليميّ، فتح الرَّحمن: 7/ 114، والمظهريّ، التَّفسير المظهريّ: 10/ 25.
(6) القِنَّوْجيّ، فتح البيان: 14/ 240، والسَّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 877.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

غرَضُ الاستِفهامِ وبلاغَتُه:

الإنكارُ على المُشْرِكين وتوبيخُ المُعْرِضين، وهُم في مَعْرِض العذابِ المُهين

توجَّهَ الخِطابُ في قولِهِ تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ إلى الكُفّار بأسلوبِ الاستفهامِ الإنكاريِّ الَّذي غرضُه التَّوبيخُ والتَّخويفُ والتَّعجيبُ من حالِهم[1]؛ إذْ كيفَ يأمَنون مع كفرهم، وهم مُعرَّضون لأنْ يخسِفَ الأرضَ بهم، فإذا هي تضطرب، وتتحرَّك بشدَّة؟ فالآية جاءت لتُذكّرهم بقدرة اللّهِ تَعالى القاهرة، فجاء الاستفهامُ هُنا على سبيل الإنكار على الكُفّار لسوءِ اعْتِقادِهم، وتوبيخهم وتقريعهم لِما هُم عليه مِن الشُّعور بالأمن، وقد عَصَوا، وأشركوا مَن بيَدِه الأمْرُ كلُّه[2].

نكتَةُ التَّعبير بالاسْمِ المؤصول:

تفخيمُ سُلْطانِ اللهِ تعالى وتَعظيمُ قُدْرَتِه

المراد بالاسم الموصول في قوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ هو اللّهُ ﷻ[3]، بدليل قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزۡجِي لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ فِي ٱلۡبَحۡرِ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ٦٦ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا ٦٧ أَفَأَمِنتُمۡ أَن يَخۡسِفَ بِكُمۡ جَانِبَ ٱلۡبَرِّ أَوۡ يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ وَكِيلًا ٦٨ أَمۡ أَمِنتُمۡ أَن يُعِيدَكُمۡ فِيهِ تَارَةً أُخۡرَىٰ فَيُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ قَاصِفٗا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغۡرِقَكُم بِمَا كَفَرۡتُمۡ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ عَلَيۡنَا بِهِۦ تَبِيعٗا ٦٩﴾ [الإسراء: 66 - 69][4]، والاسم الموصولُ في ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ وُضع مقام المُضْمَر (أأمنتموه)؛ لأنَّ الإتيان بالموصول لِما تُؤذِنُ به الصِّلةُ مِن عظيم سلطان اللّه تَعالى وتصرُّفه في العالَم العلويِّ، الَّذي هو

(1) نصر السَّمرقنديّ، تفسير السَّمرقنديّ: 3/ 476، وابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 19/ 249.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 33، والهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 30/ 35.

(3) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 513.

(4) الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 3/ 173.

مصدر القوى والعناصر وعجائِب المخلوقات، والمقصود مِن ذلك تفخيمُ قدرة اللّه تَعالى وتعظيمُ شأنِه، فالمقصودُ مِن الموصول تفخيمُ سُلْطانِ اللّهِ تَعالى وتعظيمُ قُدْرَتِه[1].

علوُّ اللهِ تَعالى على خَلْقِه عُلوًّا مُطْلَقًا

معنى ﴿فِي﴾ ودلالتُها:

﴿فِي﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ حرفُ جرٍّ بمعنى: (على)، فمعنى: ﴿مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ من على السَّماء، وقد دلَّ على هذا الأخبارُ من الكتاب العزيز والسُّنَّة المشرَّفةِ الدّالَّةُ على علوِّ اللّهِ تَعالى على خَلْقِه علوًّا مطلقًا[2].

التَّهديد آتٍ مِن سماءٍ واحدةٍ مرئيَّة

دلالَةُ إفْراد لَفْظِ السَّماء:

أُفرِد ذِكْرُ السَّماء في قوله تعالى: ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾؛ لأنَّ الوعيد بالخَسْفِ نازلٌ وجاءٍ من جهة السّماء الَّتي يراها النّاسُ سماءً واحدة، ودلَّ الإفرادُ على قُرْبِ السَّماء الَّتي يراها النّاسُ، والقربُ أشدُّ في التّهديد والوعيدِ.

التَّهديدُ بالخَسْفِ قائمٌ متجدِّدٌ لمَن فَهِمَ عَنِ اللهِ تَعالى مرادَه

نكتَةُ التَّعبير بـ(أنْ) المصدريّةِ والفعلِ المُضارع:

آثر النَّظم الكريمُ التَّعبيرَ بالمَصْدَرِ المُؤَوَّل من ﴿أَن﴾ والفعل المضارع ﴿يَخْسِفَ﴾؛ وذلك لِلَفْتِ الأنظار إلى عُنْصِر التَّهديد المستمرِّ، فالخسفُ قد يقَعُ في أيِّ لحظةٍ، ويُصيب العباد، وهو بدلُ اشتمالٍ مِنَ الاسم الموصول؛ إذ إنَّ الخَسْفَ فعلٌ داخلٌ في فعلِه ومِن شأنه، ويجوز نصبُه على نزع الخافضِ أيضًا، والأصل: (مِن أن يَخْسِفَ)، وحُذف حرفُ الجَرِّ (من)، وهو حذف شائعٌ مَعَ (أن) في أسلوبِ العرَبِ، وفي ذلك إيجازٌ بليغٌ يزيد المعنى قوّة[3]، وفيهِ أيضًا توبيخٌ للمشركين على سوء تعامُلِهم مع ربِّهم، وكأنَّهم

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 33.

(2) حافظ حكمي، معارج القبول: 1/ 198.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 34.

في غفلَةٍ أو أمْنٍ مِن أن يأمُر اللّهُ تعالى بخَسْفِ الأرض بهِم عقوبةً على كُفْرِهِم[1].

علَّةُ تقديمِ ذِكْرِ الخَسْفِ على الحاصِبِ:

الابتداءُ بالأقْرَبِ مكانًا والأكثرِ أمانًا

قُدِّم ذِكرُ الخَسْفِ على الحاصِب؛ لأنَّ الخسفَ مرتبطٌ بأحوال الأرض، والحديث قبلَ ذلك كان عن تَذْليلِها وتمكين النّاس مِن العَيْشِ فيها، فناسَب أن يُذْكَرَ أوَّلًا، فلمّا سبَق ذِكرُ نعمةِ اللّه تعالى عليهم في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا﴾، واستقرَّت هذه النِّعمةُ في أذهانِهم، وهم يتقلّبون فيها، ويَنْتَفِعون بخيراتها حاضرين في حالِ الخِطاب؛ كان الأنسبُ في بابِ المَوْعِظَةِ أن يُذكَّروا بما قَد يُصيبُهُم مِنَ العقوبة المتعلّقة بها نَفْسِها، وهي خسفُ الأرض مِن تَحْتِ أقدامِهم؛ حتّى يُخيَّل إليهم أنّ العقابَ يَخْرُج من ذات الأرض الَّتي مُتِّعوا بها، لا من أمْرٍ بعيدٍ عنها[2]، فالأرض أقربُ إلى الإنسان من السَّماء البعيدةِ عنه، فهي موضع إقامته ومصدَرُ رِزْقِه، ومع ذلك اتَّخذها مقرًّا لعبادةِ غيرِ اللّه تَعالى[3]، ثُمَّ جاء التَّهديد بإرسال الحاصِب من السَّماء جزاءً على كفرهم بنعمة اللّه تَعالى، الَّتي بثّها لهم في هذه الأرض المكَّنة للسَّعي، فالمعنى: هذه الأرضُ الَّتي جَعَلْتُها لكُم قرارًا، وذلَّلْتُها لَكُم، لو شئتُ؛ لأمرتُها أن تميدَ بكم، أو تَبْتَلِعَكُم، فمَن الَّذي يُمْسِكُها، ويحفَظُ وُجودَكُم عليها غيري[4]؟.

نوعُ الباءِ ودلالَتُها:

المقصودُ بالخَسْفِ أصالةً المكذِّبون المُعرضون

الباء في قوله تعالى: ﴿بِكُمُ﴾ جاءت للمُصاحبةِ، أي: إنَّ الخَسْفَ واقع على الأرض مقترنًا بوجودهِم فيها، وفي ذلك تهويلٌ للوعيدِ،

---

(1) دروزة، التَّفسير الحديث: 5/ 380، ومحمد جمال، التَّفسير الفريد: 8/ 3147.

(2) الغرناطيّ، ملاك التَّأويل: 2/ 479.

(3) زكريا الأنصاريّ، فتح الرَّحمن: 1/ 307، وعطيّة الأجهوري، إرشاد الرَّحمن: 2/ 724.

(4) ابن عادل، اللُّباب: 19/ 246، والخطيب، التَّفسير القرآنيّ: 15/ 1062.

فَهو انقلابٌ واضطرابٌ للأرض الَّتي يَطْمَئِنّون إليها، ويأمَنونَ فيها، وهذا أبلَغُ في التَّوبيخ والتَّحذير[1]، وفي الباء مَعْنى السَّببيَّة، فإنَّ الخسفَ كان بسببِهم عقابًا على تكذيبهم وإعراضِهم، فالخسفُ إنْ وقَعَ؛ أصابَهُم قصدًا لا عَرَضًا، وأصالةً لا تبعًا، وهذا أشدُّ في الوعيدِ.

معنى تَعْريفِ لَفْظِ ﴿ٱلْأَرْضَ﴾:

الأرض المأمونُ جانِبُها مِنها يأتي الخَسْفُ

التَّعريف في كلمة الأرضِ للعَهْدِ العلميِّ، والمُراد به الأرضُ الَّتي يَقْطُنُها المُخاطَبون، ويستقرّون عليها في حَياتِهم ومَعايِشِهم[2]، وذِكْرُها معرفةً يُشْعِرُ بتَمام التَّهديد والتَّخويف؛ إذْ ليسَ المَقصودُ أرضًا مجهولةً أو بعيدة، بل هذه الأرض الَّتي يَعْرِفونَها، ويأمَنون جانِبَها، ويَطْمَئِنّون لرُسوخها، فإذا بها بقدرةِ اللّه تَعالى تتحوَّل مِن قرارٍ وأمانٍ إلى خسفٍ واضطرابٍ.

بديعُ الطِّباق في لفْظَيِ ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ و﴿ٱلْأَرْضَ﴾:

شمولُ قُدرة اللّه تعالى وسلطانه في العالَم العلويّ والسُّفليّ

يظهَرُ البديعُ في قوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾، بِذِكْرِ السَّماء والأرض على سبيل الطِّباق؛ إذْ جُمِع بين أعلى الجهاتِ وأدْناها؛ للدَّلالة على شمول قُدرة اللّه تعالى وسُلطانه في العالَم العلويِّ والسُّفليّ، ولزيادة تقريرِ المَعْنى في النُّفوس؛ تقويةً للتَّهديد والتَّحذير بِذِكْرِ الطَّرفين المُتقابِلَيْن.

نوعُ الفاءِ ودَلالَتُها:

المَوْر نتيجة الخَسْفِ وما بينَهُما مَحْقٌ ونَسْفٌ

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ جاءت للتَّفريع، أي: تفريع المَوْر على الخَسْفِ؛ لأنَّ المَوْرَ نتيجةٌ حتميَّةٌ مُترتِّبةٌ عليه، فجُعل اهتزازُ الأرض واضطرابُها أثرًا مُلازمًا للخَسْف المهدَّد به، وسِرُّ العطف بالفاءِ هُنا أنَّها أفادت سُرعةَ التَّلازم والمُفاجأة، وكأنَّ المَوْرَ يقع مُباشرةً عَقِبَ الخسْفِ بلا فاصِلٍ، ولهذا عُبِّر بعدها بـ (إذا)

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 34.

(2) الفرماويّ، السَّهل المُفيد: 3/ 472.

الفُجائيَّة الَّتي توحي بحصولِ الأمْرِ دفعةً واحدة، فصارت صورةُ التَّهديد كأنَّها مشهَدٌ واقِعٌ يَراهُ السّامع أمامه، لا مُجرَّد أمرٍ مُستقبليٍّ مُحتمَلٍ، وذلك أبلغُ في التَّخويف والإنذارِ(1).

دلالَةُ التَّعبير بـ (إذا) الفجائيَّة:

جاء التَّعبيرُ بـ (إذا) الفجائيَّة في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِىَ تَمُورُ﴾؛ لأنَّ الخَسْفَ إذا وقع؛ لَزِمَ عنه الاضطرابُ والاهتزازُ مُباشرةً، فجاءت (إذا) لتُفيد المُفاجأةَ والسُّرعة، وكأنَّ المَوْرَ أمرٌ حاضِرٌ مُشاهَدٌ يقَعُ في الحال لا في الاستقبال، وهذا الأسلوبُ يُصوِّر التَّهديد في صورة الواقع المَلْموسِ، ويجعل التَّخويف أبلغَ وأشدَّ تأثيرًا؛ لأنَّ الكلام نَزَّلَ الخَسْفَ واقعًا مُحقَّقًا وقوعُهُ لا مُتوقَّعًا(2)، ونكتةُ الفُجاءَةِ هو ما يقَعُ في نُفوس البَشَر، كيف تمور الأرضُ الَّتي سكنّاها، ومكثْنا فوقَها آمنين؟ فاستِحالة توقُّع الخَسْف؛ جَعَلَ المَوْرَ أمرًا مفاجئًا.

المُفاجأةُ عُنْصرٌ نفسيٌّ يقَعُ عندَ الحدَثِ المُدْلَهِمِّ

بلاغَةُ استِعمالِ مفردَةِ ﴿تَمُورُ﴾:

آثر النَّظمُ الكريمُ استعمالَ مُفْرَدَةِ المَوْرِ في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِىَ تَمُورُ﴾ دون (تميل)؛ ذلك أنَّ المَوْرَ هو الاضطراب الشَّديد المُتكرِّر، والذَّهاب والمجيءُ بلا استقرارٍ، يُقال: مارَ الشَّيءُ مَوْرًا؛ إذا اضْطَربَ، وارتجّ، ومن هُنا جاء التَّعبير بالفعْلِ ﴿تَمُورُ﴾؛ إذْ يُصوِّر حالَ الأرض، إذا خُسِفَ بها، فهي تَضْطَرِبُ بِمَن عليها، وتدور بهم كَما يدورُ الماء بمَن يغرَق فيه(3)، والمَوْرُ حركةٌ مقصودةٌ موصِلةٌ إلى الغايَةِ الَّتي لأجْلِها وقَعَ الخَسْفُ، وهو إنزالُ العقوبة بالمُكذِّبين شيئًا فشيئًا بحيث يُدرك النّاسُ ما نزَل بِهم.

إدراكُ نُزول العقوبةِ ومشاهدةُ آثارها أشدُّ مِنَ الأخذ السَّريع

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 34، 35، والدُّرَّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 10/ 52.
(2) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 30/ 37، والدُّرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 10/ 52.
(3) الطَّبرانيّ، التَّفسير الكبير: 6/ 315، والقُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 216، والطَّنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 15/ 20.

بلاغةُ الاستعارةِ التَّمثيليَّةِ:

كمالُ التّهديدِ تحقيقُ الوعيدِ في نفوس العبيدِ

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ شُبِّه الخَسْفُ المُتوقَّع المهدَّد به بحالِ خسفٍ قد وقع بالفعل، بجامع التَّحقُّق والوقوع الحتميِّ، وقد حُذِف المشبَّه به، وهو صورة الخسف الواقع، ورُمِز إليه بأثره، وهو المَوْرُ - بمعنى: الاضطِرابِ الشَّديدِ والحركة المتردِّدة - فصار الكلامُ مِن باب الاستعارة المكنيَّة التَّمثيليَّة؛ إذ صوِّرت الأرضُ في حال الخَسْفِ تصويرًا حِسّيًّا يجعل المَشْهَدَ، وكأنَّه ماثِلٌ أمامَ السّامع[1].

بلاغةُ الاستعارة في لفظ ﴿تَمُورُ﴾:

تــصــويــرُ اضطرابِ الأرض وتـشـخـيـص حرَكَتِها بعاقلٍ يُعاقِب المُذنِبين

يدلُّ لفظ ﴿تَمُورُ﴾ في الأصل على التَّردُّد في المجيء والذَّهاب المُتتابِع، فشُبِّه مَوْرُ الأرض عند الخَسْفِ بحالِ إنسانٍ مُضطربٍ مُتردِّدٍ في مِشْيَتِه، يذهَبُ، ويجيء في قلَقٍ وحركَةٍ لا تهدأ، ثُم استُعير لها الفعلُ ﴿تَمُورُ﴾ الدّالُّ على ذلك الاضطراب الشَّديد، ولَمّا كان هذا التّردُّدُ مستلزِمًا للاهتزاز والاضطراب؛ شُبِّهت حركة الأرض عند الخَسْفِ به، فجيء بلفظ ﴿تَمُورُ﴾ على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة الَّتي تزيدُ المشهدَ قوّةً وهولًا، وتوحي بشدَّة هذا الاضطراب، الَّذي يفقد معَهُ الإنسانُ توازُنَهُ وطُمأنينَتَهُ[2].

بلاغةُ الإضْراب ونوعُه:

الـتّـنـويـعُ في الـوعـيـدِ دلـيـلُ المُكْنَةِ والتّقريعِ بالتّهديد

العطف بـ ﴿أَمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ يُفيد الإضرابَ الانتقاليَّ، فهو إضرابٌ انتقاليٌّ مِن التَّهديد بالخسف إلى التَّهديد بإرسال حاصبٍ مِنَ السَّماء؛ تنويعًا في التَّهديد ومبالغةً في الوعيد؛ إذ انتقل السّياق مِن استفهام إنكاريٍّ تَعْجيبيٍّ إلى استفهام آخرَ مِن جِنْسِه، لكنْ معَ اختلاف الأثر النّاتج عن الفعل المُستفهَم عنه، وهو اختلافٌ يُبْرِزُ تبايُنَ حالِ الفِعْلَيْنِ رغم اتِّحادهما في الغاية[3].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 35.

(2) القونويّ، حاشية القونويّ على تفسير البيضاوي: 19/ 205.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 35، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 7، والدَّرويش، إعراب القرآن: 10/ 154.

توجيهُ المُتشابِهِ اللَّفظيِّ:

المُناسبَةُ السّياقيّةُ أصلٌ في توجيهِ آياتِ المُتشابهِ اللّفظيِّ

جاء تقديمُ الخَسْفِ على الحاصبِ في سورة الملك؛ وذلك لأنَّه سَبَقَها ذِكرُ نعمةِ تَذْليل الأرض لهُم بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾؛ فكان الأنسَب أن يُعقِّب ذلك بالوعيد بالخَسْفِ من تلك الأرض نفسِها الَّتي أُذِلَّت لهم، فجاء التَّهديد بالخَسْف أوَّلًا، أمّا آية سورة الأنعام وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ [الأنعام: 65]؛ فقد جاء في سِباقِها قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ [الأنعام: 61]، وهذا السّياق يَصْرِفُ الذِّهن إلى جهة العُلوِّ والقدرة القاهرة مِن فوق، فناسَب أن يُبدَأ بذِكْرِ العذابِ النّازل من السَّماء قبلَ العذاب الآتي مِن تحت الأقدام، فجاءَ التَّقديم والتَّأخير بناءً على المناسبة بين الآيات، وهكذا يُكَمِّل كُلُّ موضعٍ الآخرَ، ويظهرُ التَّناسبُ الدَّقيقُ بين السّياقين في ترتيبِ الوعيدِ(1).

دلالَةُ الإظْهارِ في مَوْضِعِ الإضْمارِ:

إبرازُ عظمَةِ شَأْنِهِ ﷻ، وتفخيمُ قُدْرَتِه وتَصرُّفِه المُطلَق في مَلكوتِهِ

الاسمُ الموصولُ ﴿مَّن﴾ في قوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ جاء على سبيلِ الإظهارِ في موضعِ الإضمار؛ فلم يأتِ البيانُ القرآنيُّ: (أم أمنتموه)، كما في الضَّمائر العائدة على اللّهِ تعالى في الآيات السّابقة، مثل قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾، وعُدل عن الضَّمير إلى الاسْم الموصول ﴿مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾؛ لِما فيه من إبرازِ عظمة شأنه ﷻ، وتفخيم قُدرته وتصرُّفِه المُطلَقِ في ملكوته؛ ليَكونَ أوقعَ في التَّهديد وأشدَّ في التَّخويف؛ فإنَّ سياقَ التّهديدِ قد يَستَدعي الإظهارَ؛ لإبرازِ اختلافِ نَوْعِ العذابِ.

(1) ابن جماعة، كشف المعاني، ص: 362، والغرناطيّ، ملاك التَّأويل: 2/ 479.

فائدَةُ تقييدِ فِعْلِ الإرسالِ:

التَّخصيص بالعذابِ كالتّخصيص بالإكرامِ في قوَّتِهِ وأثرِه

قُيِّد فعلُ الإرسالِ بالجارِّ والمجرور ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ﴾؛ لإفادة التَّخصيص والتَّوجيه المُباشر بالوعيد، أي: إنَّ العذابَ مُرسَلٌ مخصوصٌ بكم أيُّها المُشركون، واقعٌ عليكُم مُحيطٌ بكُم مِن فَوْقِكم، لا يُمْكِنُكُم دَفْعُه ولا النَّجاةُ منهُ[1].

نُكْتَةُ تَنْكيرِ ﴿حَاصِبٗاۖ﴾:

نُكِّرت كلمةُ ﴿حَاصِبٗاۖ﴾ للتَّهويل والتَّفخيم؛ إذْ أشْعَرَ التَّنكيرُ بشِدَّة العذاب وهَوْلِه، فالحاصب مجهولٌ على التَّحقيق، وشأنُ الإبهام زيادةُ التّهويلِ في سياقِ الوعيدِ.

نَوْعُ الفاءِ ودلالَتُها:

التَّفريع على الوعيدِ السّابق

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَسَتَعۡلَمُونَ﴾ تفريعٌ على الوعيد بإرسال حاصِبٍ من السّماء، أي: إذا أرسل حاصبًا؛ فحينئذٍ ستعلمون، فالعِلْمُ بيقينيَّةِ ما أخبَرَ بِه النَّذيرُ تفريعٌ على التَّعذيبِ.

نكتَةُ استِعمالِ حَرْفِ التَّنفيس:

قربُ الوقوع وتحقُّق الوعدِ تهيئةٌ للنُّفوس

آثر النّظمُ الكريم استعمالَ حَرْفِ التَّنفيس (السّين)، في قوله تعالى: ﴿فَسَتَعۡلَمُونَ﴾ دون (سوف)؛ ليُفيدَ قربَ الوقوع وتحقُّقَ الوعد، فهو إنذارٌ عاجلٌ بأنَّ العِلْمَ بحقيقةِ العَذاب حاصلٌ عن قريبٍ في الدُّنيا، ثُمَّ هو آتٍ لا محالةَ في الآخرة[2].

بلاغَةُ الاستعارةِ التَّمثيليَّة:

تَشْبيهُ التَّهديد بالأمرِ الواقِعِ

قول اللّهِ تعالى: ﴿فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ﴾، أي: فحينئذٍ سَتَعْلَمون عندَ مُعايَنَتِكُم للعذابِ كيفَ كان إنذاري لَكُم متحقَّقًا وواقعًا، وقد جاء حرف التَّنفيس (السّين) في ﴿فَسَتَعۡلَمُونَ﴾، وحَقُّه الدُّخولُ على الأخبارِ الَّتي ستقَعُ مستقبَلًا، وإرسالُ الحاصِب غيرُ مُخبَرٍ بحصوله

(1) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان في روابي علوم القرآن: 30/ 37.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 249.

بعدُ، ولكنَّه تهديدٌ وتحذيرٌ مِن إرسالِه، فلمّا أُريد تحقيقُ هذا التَّهديد؛ شُبِّه بالأمر الَّذي وقَعَ، فكان تفريعُ صيغة الإخبار على هذا مؤذنًا بتشبيهِ المُهدَّد به بالأمر الواقع على سبيل الاستعارة التَّمثيليَّة، وجملة ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ قرينَتُها؛ لأنَّها من رَوادِف المُشَبَّه به[1].

بلاغةُ الاستِفهامِ بالأداة ﴿كَيْفَ﴾:

التَّصويرُ البليغُ لِشدَّة الإنذارِ وهَوْلِه

خرجَ الاستفهامُ بـ ﴿كَيْفَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ عن معناهُ الأصليِّ إلى التَّهديد والتَّهويل، فهو ليس سؤالًا عن الحال، بل تصويرٌ بليغٌ لِشدَّة الإنذار وهوله، فجاءت ﴿كَيْفَ﴾؛ للدّلالة على أنَّ الإنذار سَيَظْهَرُ لَهُم في هيئةٍ مخصوصةٍ تبلغ الغايةَ في الإخافَةِ والزَّجر، أي: ستعلمونَ إنذاري على حالٍ مُروِّعةٍ عظيمةِ الأثر[2]، فعِلْمُهُم سيَقَعُ على الحال الَّتي آلَ إليها أمرُ الإنذار مِنَ الشِّدَّة المهولَة.

دلالَةُ التَّعبير بصيغَةِ (فعيل):

الدَّلالةُ على قوَّةِ الإنـذارِ وشدَّته والإشـارةُ إلى تحقُّق الوعيدِ

جاء لفظ ﴿نَذِيرِ﴾ على وزنِ (فعيل) الدّالِّ على المصدريَّة، فهو في أصلِه مصدَرٌ بمَعْنى الإنذار، وجَعْلُهُ اسْمَ مصدرٍ أقرَبُ؛ إذْ إنَّ مصدر الفعلِ أنذر: هوَ الإنذارُ، أمّا جعله اسْمَ مصدرٍ؛ فالمعنى أدقُّ وأوقع، ولا مانع كذلك من اعتبارِه اسْمَ مصدَرٍ للفِعْلِ المَزيد، كما في (سلام) بمعنى: التَّسليم[3]، وفي هذا ما يُفيد قوَّةَ الإنذار وشدَّته، مع ما في جعلِه اسْمَ مصدَرٍ من إشارةٍ إلى تحقُّق الوعيد ووقوعه وقوعًا حتميًّا.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإرسال والبَعْث:

الإرسالُ توجيهٌ برسالةٍ وسلاسَةٍ وتُؤَدَةٍ، والبعثُ إثـارةٌ ودفـعٌ وإيقاظٌ

يتقاربُ لفظا الإرسال والبعثِ في معنى التَّوجيه، وقد يُستعمل

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 35.
(2) القونويّ، حاشية القونويّ على تفسير البيضاوي: 19/ 205، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 35.
(3) القونويّ، حاشية القونويّ على تفسير البيضاوي: 19/ 205.

كُلٌّ منهما بمعنى الآخر[1]؛ إذْ أحدُ معاني الإرسالِ هو البَعْثُ[2]، وأحدُ معاني البعث هو الإرسال، إلّا أنَّهما يفترقان ببعض الملامحِ المميّزة لكلٍّ منهما، ومن هذه الفروق: أنَّ الإرسالَ يتميّزُ بملمحِ الرِّفقِ والتُّؤَدةِ والسُّهولةِ؛ إذ إنَّ أصل (رسل) يدلُّ على الانبعاثِ والامتِدادِ، والرَّسْلُ: السَّيْرُ السَّهْلُ[3]، والرِّسْل: الرِّفْق والتُّؤَدة، والإرْسالُ: الإطلاقُ، والإهمال، والتَّخْليَةُ، والتَّوجيه[4]، والإرْسال في المَحْبوسِ: إطلاقه، وفي المُطلقِ: بَعثُه[5].

في حين يتميّزُ البعثُ بملمحِ الإثارةِ والاندفاعِ والإيقاظِ؛ إذ إنَّ أصلَ (بعث) يدلُّ على الإثارة[6] والتَّوجيه، ويختلفُ البعثُ بحسَبِ اختلافِ ما عُلِّق به، فبَعَثْتُ البعيرَ: أثَرْتُهُ، وسيَّرته، وبعثَ اللّهُ تَعالى الموتى: أخْرَجَهُم، وسيَّرهم إلى القيامة، وبعثَ رسولًا: أرسله، ووجّهه[7]، وانْبعثَ الشَّيءُ: اندفعَ، وبعثَهَ من نومِه: أيقظهُ، وأهَبَّه، والبَعْثُ: النُّشور[8].

والَّذي يَظْهَرُ في استعمالِ مفردة الإرسالِ في الآية: أنَّه لَمّا كان مِنَ السَّماء؛ لوحِظَ فيه معنى السُّهولة دونَ الإثارة، ويُلحَظُ كذلك أنّ الإرسالَ مِنَ السَّماء هو إرسالٌ مقصودٌ، وفيه رسالةٌ للعالَمين بأنَّ وعيدَهُم سيأتيهِم مِنَ السَّماء.

---

(1) الكفويّ، الكليّات، ص: 244.
(2) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين النَّواظر، ص: 151.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رسل).
(4) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديّ، تاج العروس: (رسل).
(5) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين النواظر، ص: 152.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بعث).
(7) الرّاغب، المفردات، ص: 132.
(8) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، وابن منظور، لسان العرب: (بعث).

﴿وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ١٨﴾ [الملك: 18]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الانتقالُ مِنَ التَّهديد المباشر إلى ذِكْرِ حال المكذِّبين

بعد أنْ ساق النَّظمُ الكريمُ خطابًا مُباشرًا للمشركين؛ تذكيرًا واستدلالًا وامتنانًا وتهديدًا، ابتداءً مِن قوله: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ﴾، إلى التّهديد بالخَسْفِ وإرسال الحاصب؛ ناسب توكيدَ التَّهديد بذِكْرِ عذاب الأُمَم السّالفة؛ تثبيتًا لمعنى التَّهديد، وتأكيدًا للتَّخويف عن طريقِ ضَرْبِ المَثَلِ بما جَرى على مَن سَبَقَهُم؛ ليَكونَ ذلك أوضحَ بُرْهانٍ، وأقوى زاجِرٍ لهُم عن الاستمرارِ في غَيِّهم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَكِيرِ﴾: التَّنَكُّرُ: التَّنَقُّلُ مِن حالٍ تَسُرُّ إلى أُخرى تُكرَهُ، والنَّكيرُ اسمٌ للإنكار الّذي يُعنَى به التَّغيُّرُ[2]، وأصلُ (نكر): يدُلُّ على خِلافِ المَعرِفةِ[3]، ونَكِرَ الأمرَ: غيَّره، فصار غريبًا[4]، ومعنى ﴿نَكِيرِ﴾: إنكاري وتغييري، أليس وجَدوا العذابَ حقًّا[5].

المَعْنى الإجْماليُّ:

يذكِّر اللهُ جلّ شأنُه المُعرضين بما حلّ بالكافرين مِن قَبلِهم، فيقول: لقد كذَّب الَّذين سبقوكُم مِنَ الأُمَم رُسُلَهُم، فانظروا كيف كان إنكاري عليهِم وعِقابي لَهُم[6]؟.

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 29/ 17، والزُّحيليّ، التَّفسير المنير: 29/ 26، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 36.
(2) الخليل، العين: (نكر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نكر).
(4) محمَّد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (نكر).
(5) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 22/ 57، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 593، والخازن، لباب التَّأويل: 4/ 320.
(6) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 217، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 180، والسَّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 877.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الواوِ ودلالَتُها:

احتمالُ الاستِئنافِ والعَطْفِ والحالِ مجتمعٌ على التّصريحِ بعقابٍ عاجلٍ

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ تحتَمِلُ أن تكون استِئنافيّةً، وتحتَمِلُ أن تكون للعطف على ما قبلها من التَّهديد بالخَسْفِ أو الحاصِب؛ للإيماء إلى أنَّ مِن صوَرِ العقاب الَّتي لحِقَتِ الأُممَ السّابقةَ ما وقع من خسفٍ بالأرض أو رَمْيٍ بالحجارة من السَّماء، كما جرى لقوم لوطٍ وأصحاب الرَّسّ، ويجوز أن تكون الواوُ للحال، أي: كيف تأمَنون هذا العذابَ، مع أنَّ مَن قَبْلَكُم قد كذَّبوا رُسُلَهُم، فأصابهم ما تَعْلَمون مِنَ الاستِئصال؟ فجاء العطفُ لتَذْكيرِهِم بما وقَعَ للأُمَم السّابقة ضربًا للمثل، وتنبيهًا إلى أنَّ ما حلَّ بغيرهم قد يحلُّ بهم؛ إذِ العرَبُ كانوا يَعرِفون آثار عادٍ وثمود، وتناقلوا أخبارَ نوح ولوطٍ وأصحاب الرَّسِّ، فكان ذكرُ تلكَ الأُمَم موعظةً قريبةً مِن مَداركِهم[1].

بلاغَةُ الالتفاتِ مِنَ الخِطاب إلى الغَيْبَةِ:

الإعراضُ عَنِ المُخاطَبين تصعيدٌ في الخطابِ وتعظيمٌ للموقف

التَفَتَ النَّظمُ الكريمُ عن خطاب المشركين في قوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ﴾، إلى الغَيْبَة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾، فلم يرِدْ: (ولقد كذَّب الَّذين مِن قبلكم)، فعَدَلَ السّياقُ مِن مُخاطبتهم مُباشرةً إلى الإخبار عنهم بضميرِ الغَيبة؛ إشارةً إلى الإعراضِ عَنْهُم، وتعريضًا بشدّة الغضَب عليهم؛ لِما اقترفوه من تكذيبٍ مُتَكرِّرٍ للرَّسول ﷺ، وكانوا أحقَّ بهذا الإبعادِ عَن مَقام الحضور في الخطاب، فجاء على أسلوبِ الغَيبة مع بقاءِ التَّذكير والوعيدِ موجَّهًا إليهم، رجاءَ أن يتفكَّروا في أنَّ اللّه تَعالى لم يَتْرُك وسيلةً لنُصْحِهِم إلّا وبذلها[2]،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 36.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 78، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 36.

فالمقصود مِن هذا الالتفات أن يُبرِز الإعراضَ عنهم، دلالةً على عظيمِ السَّخط عليهم بما صدَرَ مِنْهُم مِنَ التَّكذيب.

فائدَةُ تَوْكيدِ الخبَرِ:

تـأكـيـدُ سـبَـبِ العَذابِ ونَوْعِه

أفاد التَّوكيدُ باللّام و(قد) في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ تنزيلَ المخاطَبين منزلةَ مَن يُتَوَهَّم منه إنكارُ وقوعِ العقوبة أو نِسبَتِها إلى غير سَبَبِها الحقيقيِّ، وهو التَّكذيب، فجاء الخبرُ مؤكَّدًا باللّام و(لقد)؛ لإزالةِ هذا التَّوهُّم، والمعنى: إنَّ الَّذين مِن قبلِهم كَذَّبوا رُسُلَهُم حقًّا، وإنَّ إنكارَ اللّهِ تعالى عليهم وعقابَه لَهُم كان واقعًا بتلك الكَيفيَّة المعلومَة[1].

نكتَةُ استِعمالِ مفردة ﴿كَذَّبَ﴾ دلالةً وصيغة:

تَحقُّق التَّكذيب يومِئُ إلى تحقُّق الوعيدِ

جاء استعمالُ مفردةِ التَّكذيب في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَذَّبَ﴾؛ لبيانِ تحقُّق تكذيبِهم بالحقِّ، أي: لقد تحقَّق تكذيب أُمَمٍ سابقة قبلَ قَوْمِك، فالتَّعبير بالفعل الماضي (كذَّب) يُفيدُ التَّحقُّقَ والوقوعَ؛ إذ إنَّ أُمَمًا سالفَةً قدَ كذَّبت بالفِعْلِ رُسُلَها، فأنكر أكثرُهم نوحًا وهودًا وسائرَ المُرْسَلين صلواتُ اللّهِ عليهم أجمعين، وهو ما يَشي بتحقُّق العذاب عليهم، فكما كذّبوا، وأصرّوا، واستكبروا؛ فقد لحِقَهُم العذابُ تحقيقًا أكيدًا.

وَجْهُ التَّعبير بالاسم الموصول وصِلَتِهِ:

آثر البيانُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بالاسم الموصولِ وصِلتِهِ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾؛ لِما في جملةِ الصِّلةِ مِنْ بيانٍ للزَّمن المُشْتَمِلِ على جميعِ المُتَقدِّم قبلَ المُشْرِكين؛ فلا يُستَثْنى أحدٌ منهم.

معنى ﴿مِن﴾ ودلالَتُها:

بيانُ ابتِداء زَمَن التَّكذيب

جاءت ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾؛ لبيانِ ابتِداء الزَّمن الَّذي يشمل السّابقين المكذِّبين، فكانَ التَّكذيبُ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 37.

ابتداءً مِن قبل المشركين، وفي ﴿مِن﴾ مَعنى التَّأكيدِ، كما هوَ شأن (مِنْ) الدّاخلةِ على (قبل) و(بعد).

فائِدَةُ الظَّرف ﴿قَبۡلِهِمۡ﴾ وتعيينُ مَرْجِعِ الضَّمير:

التَّكذيبُ لَم يَقْتَصِر على المُخاطَبين المتَّبعين سَنَنَ أسْلافِهم

قولهُ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾، أي: ولقد كذَّب الَّذين كانوا مِنَ الأُمَم الماضية قبل هؤلاء المُشركين رسلَهم[1]، وقد جاء الظَّرفُ ﴿قَبۡلِهِمۡ﴾؛ ليدلّ على أنَّ التَّكذيب لم يَقتصِرْ على عصر المُخاطَبين بل كان سُنَّةً ماضيةً في أُمَمٍ سالفَة، فالمعنى: ولقد كذَّب الَّذين كانوا في أزمنةٍ سابقَةٍ على زمَنِ هؤلاء المُشركين، أمّا الضَّمير في ﴿قَبۡلِهِمۡ﴾؛ فيعود على المخاطَبين من مُشركي قُرَيْشٍ؛ تنبيهًا لهم على أنّهم يَسْلُكون ذاتَ الطَّريق الَّذي سلكه أسلافُهُم مِنَ المُكَذّبين، وأنّ عاقبتَهُم لَن تَخْتَلِفَ عَن عاقِبَتِهم.

معنى الفاءِ ودلالتُها:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾؛ لتفريع هذا الاستفهامِ على ما قَبْلَهُ مِن تكذيب الأمم السّابقة مِن نُزول العذابِ بِهِم، فأفاد العطفُ تَرَتُّبَ الجزاء على السَّبب مباشرةً.

بلاغَةُ الاستفهامِ بـ (كيف):

الاستفهامُ تقريريٌّ لتحقيق وقوعِ العذاب في حالٍ فظيعةٍ

جاء الاستفهام في قوله تعالى: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ على سبيلِ التَّهويل والتَّفظيع، أي: إنَّ إنكارَهُ سُبْحانَهُ على الأمم الماضيةِ كان إنكارًا عظيمًا ترتَّب عليه عذابٌ مُهْلِكٌ أخذَهُم أخْذَ عزيزٍ مُقْتَدِرٍ، فالاستفهام هنا تقريريٌّ يُثبت وقوع العذاب، ويُشير إلى شِدَّته وهَوْلِه، وهو في حقيقتهِ كنايَةٌ عَن تحقيقِ وُقوع النَّكير في صورةٍ فظيعَةٍ مُرَوِّعة[2].

(1) مكيُّ بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النِّهاية: 12/ 7601، والسّيواسيّ، عيون التَّفاسير: 4/ 234.

(2) المظهريّ، التَّفسير المظهريّ: 10/ 25، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 36، والطَّنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 15/ 21.

دلالَةُ ذِكْرِ ﴿كَانَ﴾:

آثَر النَّظمُ الكريمُ ذِكْرَ فعلِ الكون الماضي في قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾؛ وذلك للدّلالة على تحقُّق وقوعِ العذاب وثبوتِه في الزَّمن الماضي، وأنَّه حدثٌ مستمرٌّ في آثارِه بقَطْعِ دابر الظّالمين، مع ما في صيغةِ المُضيِّ من تقوية التَّهويل والتَّقرير بأنَّ ذلك الإنكارَ قَد وقَعَ فعلًا، وكان على غايةٍ مِنَ الشِّدَّة والفظاعة، لا مُجرَّد وعيد منتظَرٍ[1].

آثـــارُ عـــذابِ الظّالمين ثابتَةٌ في ذاكـرَةِ التّاريخ، راسخَةٌ في ديار الغابِرين

دلالَةُ صَوْغِ ﴿نَكِيرِ﴾ على (فعيل):

جاء لفظُ ﴿نَكِيرِ﴾ على وزن (فعيل)؛ للدَّلالة على المُبالغة وشِدَّة الإنكار، أي: إنكاري عليهم كان إنكارًا عظيمًا هائلًا بلغ الغايةَ في الفَظاعةِ والهَوْلِ، وهذا الأسلوبُ أبلَغُ في تَسْليةِ الرَّسول ﷺ وتثْبيته، وفي الوقتِ نفسِه يَحْمِلُ تشديدَ التَّهديد والوعيد لقَوْمِه بما لا يَخْفى[2].

هَـــوْلُ الـنَّـكـيرِ شـديـدٌ لـشِـدَّة الكُفْرِ والكُفْران

نُكْتَةُ حَذْفِ الياءِ:

حُذِفت الياء في قوله تعالى: ﴿نَكِيرِ﴾؛ للتّخفيف اللَّفظيِّ، وللإيماء إلى أنَّ هذا النَّكيرَ يسيرٌ سريعٌ، مقارنةً مع ما سيكون عليهم يوم القيامَة، معَ ما في حذفِها مِن تناسُبِ رؤوس الآيِ.

الإيـــمـــاءُ إلى سُرْعَةِ النَّكيرِ

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التَّكْذيب والاستِكبار:

ذَهَبَ ابنُ عرفَةَ إلى أنَّ التَّكذيبَ أعمُّ مِنَ الاستِكبارِ؛ لأنَّ المكذِّبَ قَد يَكونُ مُستَكْبِرًا، وقَد لا يكونُ[3]، والظّاهرُ أنَّ بينَ التَّكذيبِ والاستِكبارِ عُمومًا وخصوصًا من وجهٍ، فالتَّكْذيبُ أعمُّ مِنَ الاستِكبار بالاعتبارِ المُتَقَدِّم ذِكْرُهُ، والاستِكبار أعَمُّ مِنَ التَّكذيبِ؛ باعتبارِ أن ليسَ كلُّ مستكْبِرٍ يقعُ مِنهُ تَكْذيبٌ، فتحصَّلَ أنَّ بَيْنَهُما عُمومًا وخصوصًا وجْهيًّا، فقَدْ يَجْتَمِعانِ، وقَدْ يفترِقُ كلٌّ مِنْهما عن الآخَرِ.

بـيـنَ الـتَّـكـذيـب والاســتــكــبـارِ عمومٌ وخصوصٌ وجْهيٌّ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 20/ 251.
(2) ابن عجيبة، البحر المديد: 7/ 98.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/ 225.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ [الملك: 19]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الانتقالُ مِن ذِكْرِ عذابِ السَّماء إلى ذِكْرِ جَمالِها وبَهائها

لَمّا ذكرتِ الآياتُ السّابقةُ عذابَ اللّهِ تَعالى المتمثِّلَ في الخَسْفِ وإرسالِ الحاصب من السَّماء، ونبَّهت على ذلك بما كان للأمم السّابقةِ المكذّبةِ؛ ناسَب الانتقالُ إلى ضرْبِ مثالٍ بديعٍ من عالَم العَجْماوات، وهو الطَّيرُ في طَيَرانها؛ ليدُلَّ على عظيمِ قُدرته ﷻ، فكما يُمسك الطَّيرَ في جوِّ السَّماء بلا دِعامةٍ ولا سَنَدٍ، ولولاه سبحانه؛ لَما بقيَ طيرٌ في السَّماء، فكذلك هو الَّذي يُمسكُ السَّماواتِ أن تقعَ على الأرْضِ، فالأصلُ سقوطُ السَّماواتِ وخسفُ الأرض، فرَفْعُ العذابِ عن الأرضِ ليس فَقَط بعدمِ إرسالِه، بل بمَنْعِ وقوعه، فهذا أعظمُ في الامتنان، وأقوى في الاستدلال، وهو كذلك انتقالٌ من التَّهديد ممّا ينزل من السَّماء، إلى الاستدلال بما هو مُشاهَدٌ فيها.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾: الصَّفُّ: السَّطْر المُستَوي من كلِّ شيء، وأصلُ (صفف): يدُلُّ على استِواءٍ في شَيءٍ، يُقال: صَفَفْتُ القومَ: أقَمْتُهم في الحرب صفًّا[1]، وصَفّت الطَّيرُ في السَّماء: بسطَتْ أجنحَتَها، ولم تُحَرِّكْها، فمعنى صافّات: باسطاتٌ أجنحَتَها[2].

المَعنى الإجماليُّ:

صفُّ الطَّيرِ في السَّماء من أدلَّة القُدرة الإلهيَّة على الرّعاية الرّبّانيَّة

ينتقلُ الخطابُ الإلهيُّ من التَّهديد والإنذار إلى الدَّعوة للتَّفكُّر والتَّأمُّل، فيسألهم: أوَلَم ينظُرْ هؤلاء المشركون المكذّبون إلى الطَّير،

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، ومحمَّد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (صفف).
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 287.

وهي تعلو في السَّماء، باسطةً أجنحتَها حينًا، وتضمّها أحيانًا أخرى؟ وما الَّذي يمنَعُها من السُّقوط إلّا حفظُ الرَّحمن ورعايتُه، فهو سُبحانه المحيطُ عِلْمًا وبصرًا بِكُلِّ شيءٍ[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغَةُ الاستفهامِ ودلالَتُه:

الإنـكـارُ عَلى المُشْرِكين عدمَ رُؤْيَةِ الواضِحاتِ وتوبيخُهم على رَفْـضِ التَّفكير السَّليم

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ﴾ جاء بأسلوب الاستفهام، وغرضُهُ الإنكارُ والتَّوبيخُ؛ إذْ يُنْكِرُ اللّهُ تعالى على هؤلاء المكذِّبين إعراضَهُم عن النَّظر في هذا المشهَدِ العَجيب، مشهدِ الطَّير في طيرانها باسطةً أجنحتَها أو قابِضَتَها، دون أن تَسْقُط[2]، فالهمزة لإنكار غفلتِهم، فنزَّلهم الاستفهامُ منزلةَ مَن لم يرَ هذه الظّاهرة قَطُّ؛ لأنَّهم لم يعتبروا بها، ولم يستدلّوا بها على قُدرةِ اللّه تَعالى وانفرادِهِ بالألوهيَّة[3].

تعيينُ المعطوف عليهِ بالواو:

المعطوفُ عليهِ إمّا مقدّرٌ من السّياق وإمّا مذكورٌ فيهِ

الواو في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ﴾، إمّا أن تكون عطفًا على قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا﴾، وذلك على سبيل الاسترسال في سَوق الأدلّة على انفراد اللّه تعالى بالخَلْقِ والتَّدبير، فكما أنَّ تذليل الأرض لهُم آيةٌ واضحةٌ على قُدْرَتِه تعالى، فإنَّ تمكُّن الطَّير من الطّيران في الجوِّ دون أن تَسْقُطَ دليلٌ آخرُ لا يقلُّ عجبًا وإحكامًا[4].

وإمّا أن تكون الواوُ عطفًا على محذوفٍ مقدَّرٍ، تقديره: أغَفَلوا

---

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 217، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 227، 228، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 180، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 39.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 39.

(3) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 313، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 39، والدَّرويش، إعراب القرآن: 10/ 157.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 37.

عن أدلَّةِ التَّوحيد، ولم يَنْظُروا، فلم يتفكَّروا، ولم يعتبروا، ولم يوجِّهوا أنظارَهم إلى الطّير[1]؟.

الحثُّ على النَّظَرِ والاعتبارِ المُستَمِرَّيْن

نكتةُ التَّعبير بالفعل المُضارع المنفيّ:

جاء التَّعبيرُ بالفعل المُضارع المنفيِّ بـ (لم) في قوله: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾؛ ليدلّ على إنكارٍ مُتجدِّدٍ مُستمرٍّ، وحثٍّ دائمٍ على النَّظر والاعتبار بقُدْرةِ اللّهِ تَعالى في خَلْقِ الطَّير وتَسْخيرِها في الفضاء.

أدواتُ التَّفكير في الكَوْنِ المَنْشورِ أقرَبُ للمُشْرِكين مِنَ الوَهْمِ المأفونِ

دلالَةُ استِعمالِ حرفِ ﴿إِلَى﴾:

جاء فعل ﴿يَرَوۡاْ﴾ متعدّيًا بالحرف ﴿إِلَى﴾؛ ليُفيد انتهاءَ الرُّؤيةِ الحسّيَّةِ البصريَّةِ إلى الطّيرِ المشاهَدِ في جوِّ السَّماء؛ إذْ إنَّهم يُعاينون الطَّير فوقَهُم صفوفًا وجماعاتٍ ناشراتٍ أجنحتَهنَّ ثُمَّ قابضاتٍ، ومع ذلك لم يَعْتَبِروا بهذه الآية الباهرةِ الدّالّة على وحدانيَّة اللّه تَعالى وقُدْرَته[2].

الطَّيرُ في جوِّ السَّماءِ آيةٌ تَلْفِتُ الأنظار، وتَخْطِفُ الأفكارَ

مَعْنى تعريفِ لَفْظِ ﴿ٱلطَّيۡرِ﴾:

جاء لفظ ﴿ٱلطَّيۡرِ﴾ مُعرَّفًا بـ (أل)؛ للدّلالة على الجِنْسِ، أي: ليشمَلَ كُلَّ ما له جناحٌ يَسْبَحُ في الهواء بالصّفات المذكورة في الآية، فهو ليس لطائفةٍ بعَيْنِها ولا نوعٍ مخصوص، بل هو استحضارٌ لصورةِ هذا الخَلْق العجيب بجُملته، والتَّعريف هنا يُفيد الاستغراق؛ ليَلْفِتَ الأنظارَ إلى كَثْرةِ هذا الجنس وتنوُّعِ أنواعه، ممّا يزيد في قوَّة الدّلالة على القُدْرةِ الإلهيَّةِ الباهرةِ[3].

توبيخُ المُعْرِضين عَلى عَدَمِ ملاحظة مَشاهِدِ المَخْلوقين

دلالَةُ التَّعبيرِ بالظَّرفيَّة:

كلمة ﴿فَوۡقَهُمۡ﴾ يَحْتَمِل أن تكون ظرفًا مُتعلِّقًا بالفعل ﴿يَرَوۡاْ﴾، وأن تكون حالًا من ﴿ٱلطَّيۡرِ﴾، أي: في حال كونها مُحلِّقةً فوقَهُم صافّاتٍ

(1) المظهريّ، التَّفسير المظهريّ: 10/ 25، والقنّوجيّ، فتح البيان: 14/ 242.
(2) إسماعيل حقّي، روح البيان: 10/ 91.
(3) العُليميّ، فتح الرَّحمن: 7/ 115، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 10/ 91، والهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 30/ 39.

أجنحَتَها[1]، والأَوْلى: جَعْلُ ﴿فَوْقَهُمْ﴾ ظرفًا مُستقِرًّا، و﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾ حالًا من الضَّمير في ﴿فَوْقَهُمْ﴾؛ لأنَّ المقصود ليس مُطلق رؤية الطُّيور، بل هوَ توبيخهم على إعراضهم عَن ملاحظة تلك الهيئة العجيبة، فجاء التَّعبيرُ أوَّلًا بالإجمال، ثُمَّ فُصِّل بعده؛ ليكون ذلك أرسَخَ في الذِّهن وأبلغَ في التَّصوير[2].

بلاغَةُ تَقْديمِ الظَّرف على الحالِ:

العِنايَةُ بالغاياتِ مقدَّمٌ على العنايةِ بذِكْرِ الوَسائل

قُدِّم ذِكْرُ الظَّرف ﴿فَوْقَهُمْ﴾ على الحال ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾، في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ﴾، فلم يأتِ البيانُ القرآنيُّ: (إلى الطّير صافّاتٍ فوقهم)؛ لإبراز عُلوِّ الطّير عليهم في الجوّ؛ إذ هذا أوقَعُ في نفوسهم، فجاء تقديمُ الظَّرف؛ لإفادة العناية بهذا المعنى وتخصيصِه بالاهتمام قبل الانتقال إلى وصف هيئته ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾؛ فدلَّ على أنَّ المقام لذِكرِ طيرانٍ مخصوصٍ في حالٍ مخصوصةٍ، وهو علوُّها عليهم[3].

بلاغةُ استِعمالِ مفردة ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾ مادَّة وصيغةً:

صفُّ الأجنحة في السَّماء جامعٌ بَيْن جمالِ الصَّنعةِ وضرورة الاستدلالِ

لفظة ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾ جاءت على وزن اسْمِ الفاعل من مادّة الصَّفّ الَّتي تدلُّ على التَّقارب والانتظام في نسَقٍ واحدٍ، والمقصودُ بها هنا: أنَّ الطَّير تبسُط أجنحتَها في حال الطَّيران، فيبدو ريشُها مصطفًّا متراصًّا؛ إذ ليس ممّا تصفّه الطّيور سوى ريش أجنحتها، فحين يمدُّ الطّائرُ جناحَيْهِ أثناء التَّحليق، ينتظمُ ريشُ الجناحَيْنِ في صفٍّ بديعٍ، فكأنَّ الفعل ذاتَه - وهو البسط - أخرجَ هذه الصّورة الاصطفافيّة، ولهذا وُصِفَت الطُّيور بكونها ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾، وأيضًا فإنّ بَسْطَ الجناحين هو سرُّ تمكُّنها من الطَّيران، تمامًا كما يمدُّ السّابح ذراعَيْهِ في الماء؛

(1) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 30/ 39.
(2) القونويّ، حاشية القونويّ على تفسير البيضاوي: 19/ 206.
(3) القونويّ، حاشية القونويّ على تفسير البيضاوي: 19/ 206.

ليَشُقَّ طريقَهُ فيه[1]، وصيغَة اسمِ الفاعل ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾ توحي بالفعل المستمرّ المتجدِّد، فجاء التَّعبير بصافّات؛ ليجمعَ بين إظهار الصَّنعة البديعة في خَلْقِ الأجنحة وريشِها، وبَيْنَ الإشارة إلى فعل الطَّيران نفسِه الَّذي لا يكون إلّا بهذا البَسْطِ المنظَّم.

بلاغَةُ عَطْفِ الفِعْلِ على الاسمِ:

الاتِّســاقُ بين الفِعْلِ وما فيه روحُ الفِعْلِ في الـدَّلالـة على الحدَثِ

عطْفُ فعلِ (يَقْبِضْنَ) على ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾ مِن عطْفِ الفعلِ على الاسمِ الشَّبيهِ بالفعلِ في الاشتقاقِ؛ لأنَّه بمعناه، أي: وقابضاتٍ، فالفعلُ هنا مُؤَوَّلٌ بالاسم، مفيدٌ الاتِّصافَ بحُدوثِ المصدَرِ في فاعِله، فلم يَفُتْ بعَطْفه تَماثُلُ المَعْطوفينِ في الاسميَّةِ والفِعليةِ الذي هو مِن مُحسِّناتِ الوصْلِ[2].

نُكتَةُ التَّعبير بالاسمِ للصَّفِّ والفعلِ للقَبْضِ:

امـتـيـازُ الـصَّـفِّ بـالـثَّـبـاتِ، فناسبَهُ الاسْمُ، والـقـبـضِ بالتّجدُّدِ فناسبَهُ الفِعْلُ

عُطِفَ فِعْلُ (يَقْبِضْنَ) على الاسم ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾، فالطّيور تبسُطُ أجنحتَها وتقبِضُها، وقد آثر النّظمُ التَّعبيرَ باسم الفاعل الدّالِّ على الثُّبوت والاستمرار لقوله: ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾؛ وذلك لأنَّ الصَّفَّ هو الأصلُ في الطَّيران؛ إذ يُشْبِهُ الطَّيرانُ في الهواءِ السِّباحةَ في الماء، وأساسُ السِّباحة بسطُ الأطرافِ، وأمّا القبض؛ فهو أمرٌ عارض يُستعانُ به على الحركة، فناسَب الإتيان به بالفعل الدّال على التَّجدُّد والحدوث؛ للدَّلالة على أنَّ الطَّيرَ في حالِ التَّحليق هي صافّاتٌ غالبًا، قابضاتٌ أحيانًا، كما يَفْعَلُ السّابح في الماءِ[3].

التَّقابُلُ بينَ دلالةِ الفِعْلِ ودلالَةِ الاسْمِ:

الـدَّلالـةُ على أنَّ هذا القَبْضَ يتكرَّر آنًا بعدَ آنٍ

الفعل المُضارع في الأصل يدلُّ على التَّجدُّد الاستمراريِّ، لكنّه في فعل (يقبضن) قد دلَّ على أنَّ هذا القبض يتكرَّر آنًا بعد آنٍ؛

(1) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 5/ 230، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 227، 228، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 593، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 8.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 37، 38.

(3) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 581.

إذ تضمّ الطّيورُ أجنِحَتَها بين الحين والآخر للاستعانة بها على الحركةِ، فالطَّير إذا قبَضَ جناحَيْهِ؛ لا يسقُطُ رغم ثِقَل جسمه وجاذبيَّة الأرض، وإنَّما يبقى مُعَلَّقًا في الفضاء، وذلك لا يكون إلّا بقُدْرةِ اللّهِ تَعالى المُمْسِكِ له[1]، والتَّعبير بالمضارع يدلّ على التَّقابُلِ الدّلاليِّ مع قوله: ﴿صَٰٓفَّٰتٖ﴾، فدلَّ على أنَّ للطّير في جوِّ السماء حالَيْنِ مُتناوِبَتَيْن، وهما حالُ الصّفِّ الَّذي يَفْرِدُ الطّير جناحَيْهِ فيها، وحالُ قبضِ الأجنحة للارتفاع والتَّبديل بين الأماكنِ.

بلاغَةُ الإيجازِ بالحَذْفِ:

حَـذْفُ المعلـومِ مِــنَ الـسّـيـاقِ سياسةُ النَّظْمِ في الإيجازِ ما لم يَخْلُ مِن نُكْتَةٍ

حُذِفَ متعلّق كلٍّ من ﴿صَٰٓفَّٰتٖ﴾ و(يَقبِضن)، فالفِعْلُ أو الوصفُ المُشْتَقُّ لا بُدَّ له من مُتعلّق، وتقديرُ المحذوفِ: صافّات أجنحتَهنّ، ويَقْبِضْنَها، فحُذِفَ المفعولُ به اعتمادًا على وضوحه من السّياق؛ إذ إنَّ الصَّفّ والقبض لا يكونان إلّا للأجنحة، وهذا الحذفُ أبلغُ؛ لأنَّه يجعَلُ الذِّهنَ يتوجّه مُباشرةً إلى المَشْهَدِ، فيرى صورةَ الطَّير، وهي تَبْسُط جناحَيْها، ثُمَّ تَضُمُّهما في حركةٍ مُتواصلة، كما أنَّ الجَمْعَ بَيْنَ الصِّفتين - صفِّ الأجنحة وقبضِها - ممّا يزيد في الإعجازِ والاعتبار بقُدرة اللّهِ تعالى المُمسكِ لها في الهَواء[2].

بلاغَةُ الإطْنابِ:

إثـــارَةُ الانتباهِ إلـــى دقـائـقَ حـاضِرَةٍ يغفُلُ عنها الإنسانُ بـتَـصَـرُّفـات فاضحَةٍ

جاء التَّذكير بعجيبِ خَلْقِ الطَّير في حالِ طَيرانها مُتضمِّنًا لونًا مِنَ الإطناب؛ إذْ إنَّ الأوصافَ الثَّلاثة الواردةَ في قوله تعالى: ﴿فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ﴾ إطنابٌ في الوصف لِما هو معلومٌ بالبديهةِ، ولكنّها قَد رَسَمَت للسّامع صورةً دقيقة لحركات الطَّيران، بما يُثير الانتباهَ إلى دقائقَ قَد يغفُلُ عنها الإنسانُ رغم نشأته بَيْنَ هذه المَظاهر مُنذ صِغَرِه حين كان إدراكهُ قاصرًا، وكم مِن دقائقَ في المَخْلوقاتِ من

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 39.

(2) السَّمين الحلبيّ، الدُّر المصون: 10/ 391، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 39.

حَيوانٍ أو جَماد يغفُل عنها النّاظر، ولو تأمَّلها حَقَّ التَّأمُّل؛ لتجلَّى له مِن العجائب ما يملأ الأسفارَ وصفًا وإعجازًا[1].

علّة فَصْلِ جُمْلَةِ: ﴿مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ﴾:

البَيانُ والتَّفسير مِن مُقْتَضياتِ كمالِ الاتِّصال المُفْضي إلى الفَصْلِ

جملة: ﴿مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ﴾ جاءت مفسِّرةً لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ﴾، وما تضمَّنته من إنكارٍ على غَفْلَتِهم، أي: كان الأجدر بهم أن يُدركوا أنَّ الَّذي يمنع الطّير من السّقوط هو الرَّحمنُ وحده؛ إذْ لا يَمْلِكون أن يُشيروا إلى مُمسكٍ غيره، وفي ذلك إشارةٌ دقيقةٌ إلى أنَّ القادر على إمساكِ الطَّير في الجوِّ هو نفسُه الَّذي أهلك الأمم السّابقة حين كفروا، وأنَّه لو أطاعوه، ولم يُشركوا به؛ لكانَ حَفِظهم مِنَ الهلاك، كما يحفظُ الطَّيرَ من الهويِّ، ويَحْتَمِلُ أن تكون الجُملة مُستأنفةً أو حالًا من الضَّمير في (يقبضنَ)[2].

دلالَةُ النَّفي بالأداةِ ﴿مَا﴾:

آثرَ النَّظمُ الكريمُ استعمال الأداة ﴿مَا﴾، في قوله تعالى: ﴿مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ﴾؛ لنَفْيِ ما يكون في الحالِ والاستقبال نفيًا عامًّا؛ لا لنفي ما يكونُ في الاستقبالِ فحسْبُ.

بلاغَةُ القصر بأسلوبِ النَّفي والاستثناءِ:

التّخليَةُ مقدَّمَةٌ على التّحليةِ

جاء النَّفيُ بـ ﴿مَا﴾ مع أداة الاستثناء ﴿إِلَّا﴾، في قوله تعالى: ﴿مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ﴾؛ لإفادة القَصْرِ الحقيقيِّ، أي: حصْرُ فعلِ الإمساك والقدرة على إبقاءِ الطَّير محلّقة في السَّماء باللّه تعالى وحده دون سواه، فالآية تنفي كُلَّ قوّةٍ أو سببٍ مستقلٍّ يُمْكِنُ أن يتوهَّمه الذِّهن، وتثبتُ أنَّ ما يراه النّاسُ من بقاء الطَّير في الجوِّ ليس إلّا أثرًا مِن آثارِ قُدْرَةِ الرَّحمن، وفي هذا تأكيدٌ لوحدانيَّة الخالقِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 37.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 8.

وربوبيَّته المُطلقة[1]، والقَصْرُ بالنَّفي والاستثناءِ لنَفْيِ أيِّ ظنٍّ موهومٍ في أنَّ لأحدٍ القدرةَ على ذلك ابتداءً، ثُمَّ إثباته للّه تعالى وحدَه.

بلاغَةُ استِعمال مفردة ﴿يُمۡسِكُهُنَّ﴾ دلالةً وصيغةً:

حِفْظُ اللهِ تَعالى لخلقه ثابتٌ في خصائصِه متجدِّدٌ في ظاهرِه

آثر النّظم الكريمُ استعمالَ مفردة ﴿يُمۡسِكُهُنَّ﴾؛ لإبراز فعل الحِفْظِ والإمساك المُتجدِّد في كُلِّ لحظة يحفَظُها الطّير مِن السُّقوط، ومعنى هذا الإمساك أنَّ اللّه تعالى أوْدَعَ في خِلقة الطَّير خصائِصَ دقيقةً تَجْعَلُها صالحةً للتَّحليق من خِفَّة عظامها، وقوَّة حركة أجنحَتِها، فجميعُ هذه الخصائصِ ليست إلّا أثرًا من آثار إمساكِ الرَّحمن، الَّذي جَعَلَها سببًا في بقائها معلَّقةً في الفضاءِ دون أن تَهْوي، ولولا بديعُ الصُّنع؛ لَمَا بَقيَ طيرٌ في جوِّ السَّماء[2].

نُكْتَةُ إيثار اسْمِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُۚ﴾:

رحمةُ اللهِ تَعالى وسِعَتْ جميعَ المخلوقاتِ، وشَمِلَتْ كلَّ الكائناتِ

آثَر النَّظم الكريمُ استعمالَ اسم ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُۚ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ﴾ دون الاسم الأحسَنِ (اللّه)، وذلك لأمرٍ يخصُّ سياق الآية، وآخرَ يخُصُّ سياق السّورة، فذِكْرُ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُۚ﴾ أنسَبُ لسياق الامتنان؛ إذ ما أودعَهُ اللّه تعالى في الطَّير من خصائصِ البَسْطِ والقبض، وما هيَّأ لها مِن قدرةٍ على الرَّفرفة في الجوِّ وتسخير الهواء لحركتها، كُلُّ ذلك مَظهرٌ من مظاهر رحمته ولُطفه بخَلْقه، فجاء التَّعبير بـ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُۚ﴾؛ ليَلْفِتَ إلى أنَّ هذه القُدرةَ المعجزةَ إنَّما هي أثرٌ مِن آثار رحمتِه الواسعة، الَّتي تشمل الطَّير والإنسانَ وسائرَ المخلوقات، وأمّا ما يخصُّ سياق السّورة؛ فقد جاء تَكرارُه في السّورة أربع مَرّات؛ لتثبيتِ معناهُ في أذهان المُشْرِكين[3].

---

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 263، وحاشية محيي الدّين شيخ زاده على تفسير القاضي البيضاويّ: 8/ 282.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 40.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 40.

لكلِّ انتقاءٍ مناسَبةٌ في السّياق الخاصِّ والعامِّ

توجيهُ المُتشابهِ اللَّفظيِّ:

قال تعالى في سورة النَّحل: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ مُسَخَّرَٰتٖ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ [النحل: 79]، وقال في سورة المُلك: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ﴾، والمُتأمِّل في الآيتين يَجِدُ أنَّ مقصودَهما واحدٌ، وهو لَفْتُ النَّظر إلى عظيم قُدرة الله تعالى وحكمته في تسخير الطَّير وتمكينِه من التَّحليق في جَوِّ السَّماء، ففي سورة النَّحل جاء التَّعبير بـ: ﴿مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ [النحل: 79]؛ لأنَّ الآية لم تتعرَّض إلّا لبيان تسخير الطَّير في الجوِّ، دون تفصيلٍ لحَركاته وهيئاته، فناسبهُ ذِكْرُ الاسمِ العلَمِ الدّالِّ على الذّات الإلهيَّة في مقام القُدرة والتَّسخير العامِّ.

أمّا في سورة المُلك؛ فقد ذُكِرَ للطَّير حالانِ: صافّات ويقبضن، أي: حال البَسْطِ وحال القبض، وهما حالانِ فيهما راحَةٌ ورحمَةٌ بالطّائر؛ إذ يَجِدُ بها توازنًا في الطَّيران كما يجِدُ السّابحُ راحتَه في بَسْطِ يدَيْه وضمِّهما، فناسَب هذا المقامُ ذِكْرَ اسْم الرَّحمن الدّالِّ على الرَّحمة والإنعام مع ما ذُكِرَ مِن مظاهِر رَحْمَتِه ولُطفِه بخَلْقِه في الآياتِ السّابقة(1).

الجُملة تَعليلٌ لمَضمونِ ما سَبَقَ

بلاغَةُ التَّوكيدِ ودلالَتُه:

التَّوكيدُ بـ (إنّ) في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ﴾ جاء تعليلًا لما سبقَ مِن قوله: ﴿مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ﴾؛ إذ لا يخفى عليه ﷻ من دقائقِ خَلْقِها وهيئاتها شيءٌ، وهو الَّذي أتقَنَ تسخيرَها للطَّيران، وحَفِظَها مِنَ السُّقوط(2).

عِلْمُ اللهِ تَعالى محيطٌ بمخلوقاتِهِ كلِّها

دلالَةُ تَنْكيرِ لفظِ ﴿شَيۡءٍ﴾:

دلَّ لفظ ﴿شَيۡءٍ﴾ في قولهِ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ﴾ على

(1) ابن الزُّبير الغرناطيّ، ملاك التَّأويل: 2/ 305 - 306.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 40.

العُموم والشُّمول، أي: إنّ بَصَرَهُ سُبحانه يشمَلُ كُلَّ ما يُتصوَّر وجودُهُ، قليلًا كان أو كثيرًا، حقيرًا أو عظيمًا، خفيًّا أو ظاهرًا[1].

نكتَةُ تنكير لفظ ﴿بَصِيرٌ﴾:

تعظيمُ صِفَةِ البصير وأثرُها في رعايةِ الخَلْقِ

نُكِّر لفظ ﴿بَصِيرٌ﴾ لإرادةِ التَّعظيم، أي: إنّ بصَرَهُ تعالى بصرٌ عظيمٌ لا يَحُدُّه حدٌّ، ولا يغيب عنه شيءٌ، صغيرًا كان أو كبيرًا، جليًّا أو خفيًّا[2].

وقد دلَّت صيغة (فعيل) على المُبالغة والثُّبوت، فهو سُبحانه بالغُ البَصَر، يرى أدقَّ الجزئيّات وأخفى الخفيّات، لا يحجبه ظاهرٌ عَن باطنٍ، ولا قريبٌ عن بعيدٍ، والبصر هُنا صفة زائدةٌ على مُطلَق العلم؛ ليدلّ على شُمول قدرته في الإحاطة بالمُبصَرات على أكمَلِ وجْهٍ[3].

بلاغَةُ الكِنايَةِ:

دوامُ مُراقبَةِ العَبْدِ لربِّه تَعالى دليلُ إيمانٍ وحُسْنِ إيقانٍ

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ﴾ كناية عن رقابةِ اللّه تعالى لعباده، وإحاطةِ علمِه بهم، ما يُفيد لزومَ المُراقبة الباطنة؛ إذْ مَن أيقَنَ أنَّ اللّهَ تَعالى مطّلعٌ على كُلِّ شيء لم يغفُل عن مُحاسبة نفسِه، فكانت الكنايةُ هُنا عن دوامِ مُراقبة العبد لربِّه ومحاسبته لنفسِه بدقَّة، وهي ثمرةٌ مِن ثَمراتِ الإيمانِ الحقِّ[4].

فائدَةُ تَقْديمِ شِبْهِ الجُمْلَةِ على المُسْنَد:

الرَّدُّ على مَن زَعَمَ أنَّ الله تَعالى لا يُحيط بكلِّ شيء عِلْمًا

قُدِّم ذكرُ شبه الجملة ﴿بِكُلِّ شَيۡءِۭ﴾ على متعلِّقها ﴿بَصِيرٌ﴾؛ لإفادةِ معنى القصر الإضافيِّ، وهو قصرُ قلب؛ ردًّا على مَن زَعَمَ أنَّ اللّه تَعالى لا يُحيط بكلِّ شيء عِلْمًا، فجاء التَّقديم ردًّا على مقالتِهم حين قال بعضُهم لبعضٍ: (أسِرّوا قولَكم لئلّا يسمعَكم الإلهُ)، فأثبت سُبحانه أنَّه محيطٌ بدقائق الأمور وجليلِها، لا يخفى عليهِ شيءٌ[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 20/ 253.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 20/ 254.
(3) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 30/ 40.
(4) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 30/ 40.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 40.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

النَّظر والبَصَرُ والرُّؤية:

الإبصارُ يتميَّز بالوضوح، والرُّؤية تتميَّز بالعلم، والنَّظر يُميِّزه التَّأمُّلُ

بين هذه الأوصافِ الثَّلاثَةِ - في حقِّ المخلوق - فروقٌ، فالنَّظَرُ: عبارةٌ عن تقليبِ العَيْنِ نحو المرئيِّ التماسًا لرؤيته، فهو طلبُ ظُهور الشَّيء، ويكون النّاظر الطّالبُ لظهور الشَّيء بإدراكه من جهة حاسَّة بصره أو غيرها من حواسِّه، والنَّظر بالقلب من جهة التَّفَكُّر، والنَّظر أيضًا هو الفكر والتَّأمُّل لأحوال الأشياء[1]، والرُّؤية هي إدراك المرئيِّ، ولذلك قَد يَنْظُر، ولا يراه، ولمّا كانت الرُّؤية من توابع النَّظر ولوازمه غالبًا؛ أُجْرِيَ لفظُ النَّظر على الرُّؤية على سبيل إطلاق اسم السَّبب على المسبَّب[2]، فالفرقُ بينهما أنَّ الرُّؤية هي: إدراك المرئيِّ، والنَّظر: الإقبال بالبصَر نحو المرئيِّ.

أمّا البصرُ؛ فهو إدراكُ العين، ويُطلَق على القوَّة الباصرة، الَّتي من شأنِها إدراك أشباح الصّور[3]، والعَيْنُ هي أداة الإبصار، قال تعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ﴾ [الأعراف: 195]، وقد يُطلَق البصر؛ ليدلَّ على العلم القويِّ المُضاهي لإدراك الرُّؤية، فيُقال: بَصُرَ بالشَّيء: عَلِمَهُ عن عيانٍ، فهو بصير به[4]، قال تعالى: ﴿فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ ۝٥﴾ [القلم: 5]، وحينها يكون الفرق بين النَّظر والبصر كالفرق بين النَّظر والرُّؤية، قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ۝١٩٨﴾ [الأعراف: 198].

---

(1) أبو هلال العسكريُّ، معجم الفروق اللُّغويَّة، ص: 543.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 457.
(3) الكفويُّ، الكليّات، ص: 247، والتَّهانويُّ، كشّاف اصطلاحات الفنون: 1/ 938.
(4) نشوان الحميريّ، شمس العلوم: 1/ 544.

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾ [الملك: 20 - 21]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

الانـتـقـالُ مِـن بَـسْـطِ الأدلَّــةِ إلــى مناقـشَة مُـقْـتَـضـيـات الإنكارِ

لمّا كان الكفّارُ يُصِرّون على الكفر، ويُنكِرون التَّوحيد رغم وضوحِ البراهين؛ صار حالُهم كحال من يَظُنُّ أنَّ له قوَّةً تمنَعُه من عذابِ اللّه تَعالى، فكأنَّهم يتوهَّمون أنَّ بأيديهم جندًا يدفَعونَ به نِقْمَتَهُ؛ إن نزلَتْ بِهِم، فناسب ذِكر مُقْتَضى إنكارهم بهذا الحال، وهو وُجودُ جُنْدٍ يمنَعُهُم من عذابِ اللّه تعالى، ووجود رازقٍ سِوى اللّهِ تَعالى؛ إذْ بِنُزول العذاب ورفعِ الرّزق يهلِكُ الإنسان، فذكر أسباب الهلاك تلويحًا آخرَ بعد التَّصريح بإرساله.

❁ شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿جُندٌ﴾: (جند) تدورُ تصاريفُه على مَعْنَى التَّجمُّعِ والنُّصْرَة، ومنه: الجُنْدُ، وهُمُ الأعوانُ والأنْصارُ[1]، وذهبَ بعضُ أهلِ العِلْمِ بالعربيَّةِ، إلى أنَّ أصلَ المادَّة دالٌّ على صلابَةِ الشَّيءِ وغِلَظِه، ومنه: الجَنَدُ، وهي الأرضُ الصُّلْبَةُ، ومنه: سُمّيَ العسْكَرُ جُنْدًا؛ لِما فيهم مِنَ الغِلْظَةِ[2]، والجُنودُ جَمْعُ جُنْدٍ؛ إذِ الجُنْدُ يُجْمَعُ على جُنودٍ وأجْنادٍ[3].

2) ﴿غُرُورٍ﴾: الغُرور: مصدر غَرَّه يغُرُّه غُرورًا، أي: خدعه، والغِرَّةُ: غفلةٌ في اليقظةِ، يقال: غَررْتُ فلانًا: أصبتُ غِرَّتَه، ونِلتُ منه ما أُريدُه، وأصلُ ذلك مِن الغَرِّ، وهو الأثَرُ الظّاهرُ مِن الشَّيءِ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جند).
(2) الرّاغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (جند).
(3) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (جند).

والغِرُّ: هو الَّذي لا يَفطُنُ للشَّرِّ، ويَغْفُلُ عَنْهُ، ومنه أصاب غِرَّته، أي: غفلتَهُ في اليَقَظةِ، ونال منه ما يُريد، حتَّى يُدخِلَه في معصيةِ اللّهِ تَعالى، فيما يستوجِبُ به عُقوبتَهُ، فالَّذي يقوم بالغرورِ هو الخِبُّ، أي: الخَدّاعُ المُفْسدُ، ويقال: غَرَّ فلانٌ فلانًا، معناهُ: قد عَرَّضَهُ للهَلَكَةِ والبَوارِ، والغُرور هو: إظهارُ النُّصحِ مع إبطان الشَّرِّ[1].

3) ﴿أَمۡسَكَ﴾: أصلُ (مسك) يَدُلُّ عَلى حَبْسِ الشَّيءِ أو تَحَبُّسِه، والإمساكُ: البُخْلُ[2]، وأصلُ إمساكِ الشَّيءِ: التَّعلُّقُ به وحِفظُه[3]، والإمساكُ أيضًا: القَبْضُ، والكفُّ والامتِناعُ والاعتصام، يُقالُ: أمسَكْتُ الشَّيءَ بيَدي إمساكًا، أيْ: قَبَضْتُهُ، وأمسَكَ عن الطَّعامِ، أي: كَفَّ عَنهُ، وامتَنَعَ[4]، والمعنى: حبَسَ، ومنَعَ رِزْقَهُ بإمساكِ المَطَرِ ومباديه[5].

4) ﴿لَّجُّواْ﴾: تَمادَوا، واللَّجاجُ: التَّمادي والعِنادُ في تعاطي الفِعلِ المَزجورِ عنه، وأصلُ (لجج): يدُلُّ على تردُّدِ الشَّيءِ بَعضِه على بَعضٍ[6]، والمعنى: تمادَوا، واستمرّوا[7].

5) ﴿عُتُوّٖ﴾: العُتوُّ: هو بلوغُ غايةِ الشِّدَّةِ في الأمرِ، وعتا الشَّيخُ يَعتو عِتيًّا: بلغَ الغايةَ في السِّنِّ والكِبَرِ، أي: أَسَنَّ، وكَبِرَ؛ فهو عاتٍ، وأصلُ (عتو): يدُلُّ على استِكبارٍ، والعتوُّ: بلوغُ غايةِ الشِّدَّةِ في النُّبوِّ عنِ الطّاعة، ومجاوزةُ الحدِّ في التَّجبُّرِ والتَّكبُّر، والعاتي: الشَّديدُ الدُّخولِ في الفَساد، المُتَمَرِّدُ الَّذي لا يقبلُ موعِظَةً، والعُتوُّ: الخُروجُ عن الطّاعةِ[8]، ومعنى العتوِّ في الآية: العناد والاستكبارُ والطُّغيان[9].

6) ﴿وَنُفُورٍ﴾: أصلُ (نفر): يَدُلُّ على تَجافٍ وتَباعُدٍ[10]، وهو أيضًا: الإسْراعُ إلى الشَّيءِ، والانزِعاجُ عنِ الشَّيءِ أو إليْهِ[11]، يُقال: نَفَرَ، يَنْفِرُ، نُفورًا ونِفارًا؛ إذا فَرَّ، وذَهَبَ، وانطَلَقَ مُسرِعًا بِقوَّةٍ، ومنْهُ: نَفَرَ النّاسُ إلى العَدوِّ نَفْرًا؛ إذا أسرَعوا في الخُروجِ لِقتالِه، والنَّفْرُ:

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات: (غرر)، وابن الهائم، التّبيان في تفسير غريب القرآن، ص: 64.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مسك).
(3) الرّاغب، المُفردات، والسّمين الحلبيّ، عُمدة الحُفّاظ: (مسك).
(4) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب، والفيوميّ، المصباح المنير: (مسك).
(5) السَّمرقنديّ، بحر العلوم: 3/ 478، والسّيواسيّ، عيون التَّفاسير: 4/ 234، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 10/ 93.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (لجج).
(7) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 218.
(8) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (عتو - عتا).
(9) إسماعيل حقّي، روح البيان: 10/ 93، وطنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 15/ 24.
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نفر).
(11) المناويّ، التّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 327.

الخُروجُ السَّريعُ مِنْ مَوْضِعٍ إلى غَيْرِهِ لِأَمْرٍ يَحْدُثُ[1]، ومعنى النّفور في الآية: الذَّهاب والبُعد عن الحَقِّ[2].

المَعنى الإجماليُّ:

توبيخُ المُشركين بعَجْزِ آلهتهم عن النَّصر والرِّزق

تُخاطب الآيتان الكريمتان المُشركين الَّذين اتَّخذوا من دونه أولياءَ يَطْلبون عندَهُم النَّصر والرِّزق: مَن ذا الَّذي يملِكُ أن يكونَ لكم عونًا وناصرًا يدفَعُ عنكُم عذاب الرَّحمن؟ إنَّما الكافرون باللّهِ تَعالى غارقون في أوهامٍ وخداعٍ، ثُمَّ تُسائِلُهُم: ومن هذا الَّذي يستطيعُ أن يرزُقَكم؛ إن حبَسَ اللّهُ تَعالى عنكم رِزْقَه؟ لكنَّهم مع وضوح الدَّليل ماضون في طُغْيانِهم، مُستكبِرونَ عَنِ الحقِّ، مُعْرِضونَ عنه بنُفورٍ وعِنادٍ[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ (أم) وبلاغةُ العَطْفِ بها:

الانتقالُ مِن التَّوبيخ إلى التَّبكيت تصعيدٌ في الاستدلالِ المَزوجِ بالتَّقريعِ

جاءت (أم) المُنقطعةُ في هذا الموضع؛ لتؤدّيَ وظيفةَ الإضرابِ الانتقاليّ؛ إذ نَقَلَت السّياق من توبيخِهم على تَرْكِ التَّدبُّر في آية الطَّير وما تومِئُ إليه من بديعِ قُدرة اللّه تَعالى، إلى تبكيتٍ أشدَّ وقعًا يتمَثَّل في نفي وجودِ ناصرٍ لهم من دونِ اللّه تعالى، فالمولى سُبحانه وجَّه أنظارَهُم ثانيةً إلى قوَّة بأسِه ونَفاذِ إرادَته، مبيِّنًا أنَّه لا أحد يأخذ بأيديهِم؛ إنْ أنزل بهِم عِقابَه، أو أمسَك عنهم رزقَه، و(أم) هُنا بمعنى (بل)، فهي للإضراب الانتقاليِّ من غرَضٍ إلى آخرَ، فهي تنقُلُ الخطابَ من إثباتِ الألوهيَّة الحَقَّة للّهِ وحده وتذكيرهم بضَعْفِهم وافتقارهم إليه، إلى إبطال دعوى وجود نصيرٍ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/ 197.

(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 5/ 342، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 10/ 93.

(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 218، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 228، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 181، والسَّعديُّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 877.

أو شفيعٍ يردُّ عنهم ما قضى اللّهُ تَعالى به، ولا يسَعُهُم في هذا المقام إلّا الاعترافُ بالعَجْزِ؛ إذ لا يستطيعون تعيينَ ناصرٍ لهم إلّا أن يَسْلُكوا سبيلَ البُهْتان، وهو سبيلٌ لا يَلْجَؤون إليه في مثلِ هذا المَوْطِن لانكشاف زيفِهِ وافتِضاحِ أمْرِه[1].

الاستفهامُ تقريريٌّ في أنْ لا ناصِرَ إلّا اللهُ، كما أنَّهُ لا مُمْسِكَ للطّير إلّا اللهُ

براعَةُ استِعْمالِ أسلوبِ الاستفهامِ:

آثَر النّظمُ الكريمُ استِعْمالَ أسلوبِ الاستفهام بالأداة (مَن) في قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾، وغرضُه الإنكارُ، فالآية تُنكِر على المشركين وجودَ مَن يدفع عنهم العذابَ، وقد جاء الاستفهامُ على صورةٍ تُشعِر بالتَّحدّي والتَّعجيز؛ إذ لا قِبَل لهم بأن يُجيبوا: هذا أحَدُ أصنامِنا يَنْصُرُنا، فالمعنى أنَّ هذا الجُنْدَ الَّذي زَعَموه لا وجود له في الحقيقة، فالاستفهامُ جاء على وجهِ التَّعجيز عن التَّعيين، ومُقتضاه أنَّ هذا الجُنْدَ المزعومَ إنَّما هو أمرٌ مَعْدومٌ لا حقيقةَ له[2].

وأفادَ الاستفهامُ أيضًا مَعْنى التَّحقير؛ إذْ يُنزِل آلهتَهُم منزلةَ العدم، ويُظهِر خَواءَها مِن كلِّ قُدْرةٍ، ومن هُنا أعقب ببيان حالهم: ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾، أي: في باطلٍ وخداعٍ من الشَّيطان، زيَّن لَهُم الشِّرك، ووعدَهُم أمانيَّ زائفةً، أنَّ آلهتهم ستشفَعُ لهم، وأنَّه لا عذابَ بعدَ الموت، وأيضًا فإنَّ الاستفهامَ جاء عديلًا مقابلًا لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُۚ﴾؛ إذْ كلاهما في نسَقٍ واحدٍ، وهو تقرير عظيم قُدْرةِ الرَّحمن على إمساك الطّير في الجوِّ، ثُمّ التَّذْكيرُ بقُدْرَته على إنزال العذاب، فكما لا رادَّ لإمساك الطَّير إلّا اللّهُ، فلا دافِعَ لعذابِهِ ولا

(1) الحصنيّ، المقتطف: 5/ 288، وابن عجيبة، البحر المديد: 7/ 99، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 8، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 40، 41.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 41.

مُمْسِكَ لرزقِهِ سِواهُ، وإخراج هذا التَّقرير في صورة الاستفهام لَهُ نكتَةٌ بليغَةٌ: فهو على طريق التَّهكُّم بهم؛ إذ صيغ السُّؤال بدَعْوى أنَّ النَّصر مُتقرِّرٌ لهم، والكلام في تعيين النّاصر لا في النّصر، فإذا عجزوا عن التَّعيين استجابةً لمقتضى السُّؤال؛ اتَّضَحَ بطلانُ دعواهم، وهذا نظيرُ قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾ [الأنبياء: 43][1].

تَعْيينُ مَرْجِعِ الإشارَةِ وبيانُ غَرَضِ الإشارة بالقَريب:

توبيخُ المُشْرِكِ بتَحْقيرِ الأصنامِ المُشارِ إليْها

يرجِعُ اسْمُ الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ إلى جماعة الأصنام المعروفةِ لدَيْهم والمُقامَةِ في الكعبةِ وما حولها، والَّتي اتَّخذوها جُندًا وعُدَّة، فجاء الاستفهام بـ (مَن) على سبيل التَّوبيخ والتَّحقير والتَّقريع: مَن هذا الجُنْد؟ أي: أهونُ مِن أن يُعرَف، أو يُلتَفت إليه، فجُعِل اسم الإشارة صفةً لاسم الاستفهام لزيادةِ البيان، ثُمَّ وُصِف ﴿هَٰذَا﴾ بالموصول ﴿ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ﴾، وجُعِلت جُملة ﴿يَنصُرُكُم﴾ خَبرًا عن اسم الاستفهام؛ ليكون التَّقدير: (أيُّ مخلوقٍ أحقرُ مِن هذا أن يَنْصُرَكُم مِن دون الرَّحمن)[2]؟.

نكتة التَّعبير بالموصول:

تأكيد معنى التَّحقير والتَّهوين المُستفادِ مِن اسمِ الإشارة

جيء بالموصولِ ﴿ٱلَّذِى﴾ معَ صِلَتِه على جِهَةِ الوَصْفِ والبيان؛ لزيادةِ تَحديدِ المُشارِ إليه وفَضْحِ عَجْزِه، فالموصولُ هُنا في قوَّة الصِّفة، وذِكْرُهُ بعدَ اسمِ الإشارة القريبِ ﴿هَٰذَا﴾ يُقوّي، ويؤكِّد معنى التَّحقير والتَّهوين[3].

سِرُّ انتخابِ الجُملة الاسميَّة:

الدَّلالَةُ على معنى الثَّبات والدَّوامِ

عُبِّر بالجُملة الاسميَّة في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ﴾؛ للدَّلالة على معنى الثَّبات والدَّوام؛ إذ شأنُ الجُندِ أن يكونوا على

(1) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 5/ 231، والشِّهاب الخفاجيّ، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 223.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 228، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 8، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 21، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 41، 42.
(3) إسماعيل حقّي، روح البيان: 10/ 92.

أُهْبَةِ الاستعدادِ للنُّصرة في كُلِّ حينٍ، سواءٌ استُدعوا للقتال، أم لم يُستدعَوا؛ إذِ النَّصر لا يتحقَّق إلّا بوجود قوَّةٍ مُهيَّأةٍ له، فجاءت الجُملةُ الاسميَّةُ؛ لتصوير هذا المعنى الثّابت في زَعْمِهم[1].

نُكْتَةُ تَنْكيرِ لَفْظِ ﴿جُندٌ﴾ وجَمْعِه:

تهوينُ شأنِ الأصنامِ وتَحْقيرُهُم

نُكِّر لفظ ﴿جُندٌ﴾، وجُمِعَ؛ تهوينًا لشأنِ الأصْنامِ وتَحْقيرًا لقوَّتهم، فمَعَ كَثْرَتِهم وتجَمُّعِهم لا يُبالى بهم، ولا يُعتدُّ بوجودِهم في مقامِ القُدْرَةِ الإلهيَّةِ القاهرةِ، فالتَّعبير بالجُند للتَّهكُّم[2].

فائِدَةُ اللّامِ ودلالاتُها السّياقيَّة:

مَن آثَرَ الوهمَ على الحقيقةِ؛ استحقَّ الجلدَ بسَوْطِ التَّهكُّم

اللّام في قوله تعالى: ﴿هُوَ جُندٌ لَّكُمْ﴾ دالَّةٌ على الاختصاص، أي: اختصاص النَّفع في زَعْمِهم، والمعنى: أيُّ شيءٍ هذا الحقيرُ الَّذي تَزْعُمون أنَّه مُعينٌ لكم خاصٌّ بكم، تستعينون به على النَّصْرِ ودفْعِ الضُّرِّ، مُتجاوزين في ذلك نُصرةَ الرَّحمن وإرادتَه ومشيئتَه[3]؟ وفي الاستفهام الدّاخلِ على هذا القَيْدِ معنى النّفي المستفادِ بأدْنى تفكُّر، فإنَّ مقتضى الاستفهامِ الإنكارُ عليهم، ومِن شأن الاستفهام عن أمرٍ وهميٍّ نفيُه عمّا أُثبِتَ له، فدلَّ الاختصاصُ على معنى التَّهكُّم بالمخاطَبين.

وَجْهُ الجَمْعِ بينَ الفعليَّة والاسميَّة:

التَّناسُبُ بينَ المَعاني ودلالاتِ الجُمَلِ أصلٌ في اختيارِ الجُمَلِ

جاء الخبَرُ عن اسمِ الاستفهام جملةً فعليَّة ﴿يَنصُرُكُم﴾ الدّالة على التَّجدُّد، وجيء بالجملة الاسميَّة: ﴿ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ﴾ الدّالّة على الدَّوام والثُّبوت؛ لأنَّ الجندَ يكون على استعدادٍ للنَّصر؛ إذا دُعيَ إليهِ سواءٌ أقاتَل أم لم يُقاتِل؛ لأنَّ النَّصر يَحْتاجُ إلى استعدادٍ وتَهَيُّؤ، فالمعنى: يَنْصُركم عند احتياجِكُم إلى نَصْرِه، فهذا وجهُ الجمعِ بينَ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 42.

(2) القونويّ، حاشية القونويّ على تفسير البيضاوي: 19/ 209.

(3) الطَّنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 15/ 24.

جملة: ﴿هُوَ جُندٌ لَّكُمْ﴾، وجملة: ﴿يَنصُرُكُم﴾، ولم يُستَغْنَ بالثّانية عن الأولى[1]، وأيضًا فإنَّ الاسميّةَ ارتبطت بالجُنْد الَّذين اختصّوا بالمشركين، وهو ما يُناسبه معنى الثَّبات، والنَّصرَ ارتبَطَ بمعنى الانطلاقةِ والعمل على نُصْرَةِ الأولياء، وهو ما يُناسبه الفعليَّةُ.

بلاغَةُ الخِطاب بينَ الالتِفاتِ وعَدَمِه:

الالتفاتُ أُسْلوبٌ بلاغيٌّ كلّيٌّ لا ملحَظٌ جزئيٌّ

التَفَتَ النَّظْمُ مِن الغَيْبَة في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ﴾، إلى الخِطاب في قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم﴾، وهذا الالتفاتُ فيهِ نُكتَةٌ بلاغيَّةٌ، وهي: المُبالغةُ في التَّهديدِ والتَّقريعِ والتَّبكيتِ، فالخطابُ المُباشرُ أوقَعُ في النَّفس، وأشدُّ إيلامًا؛ إذ يواجَه المُخاطَبُ بالتَّحدّي، ويُطالَب بالجواب، فيَنْكَشِفُ عَجْزُه، وتَظْهَرُ سوْءَتُه[2]، ويَحْتَمِلُ أن يكون الكلامُ عائدًا على الخِطابِ في قوله تعالى: ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ﴾؛ فلا التِفاتَ، وما بينهما اعتراضٌ مقصودٌ منه الاستدلالُ بالتّرهيب والتَّرغيب.

معنى ﴿مِّن دُونِ﴾ وسِرُّ المجازِ في التَّعبير بها:

الدَّلالة على أنَّ ما يزعُمونَه مِن أولياءَ أو أنصارٍ هُم في مرتبةٍ أدنى وأحطَّ

آثَر النَّظم الكريم استعمالَ ﴿دُونِ﴾، وهو ظرفُ مكانٍ يدلُّ على السُّفل، وبلاغةُ استعمالهِ تَظْهَرُ فيما يُفيده بأنَّ كلَّ ما انتُصِر بهِ مِنَ المَخْلوقينَ فهو دونَ اللّه تعالى، ومقامَه في أسفَلِ مقامٍ، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٤٠﴾ [التوبة: 40]؛ للدَّلالة على أنَّ ما يَزْعُمونَه مِن أولياءَ وأنصارٍ هُم في مرتبةٍ دون، ولا يُمْكِن بحالٍ أن يُشاركوا الرَّحمن أبدًا في نُصْرَةٍ أو رزقٍ، بل هُم بمعزلٍ عن ذلك تمامًا، فالتَّعبيرُ بالمكان المنخفضِ ﴿دُونِ﴾ في موضعِ المُغايَرةِ فيه تصويرُ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 42.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 8، والشِّهاب الخفاجيّ، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 8/ 223.

آلهتِهم في حضيضٍ سافلٍ لا يَمْلِكون معه عُلوًّا ولا قُدْرةً، وهذا أبلغُ في التَّحقير والتَّبكيت[1].

رحمةُ اللهِ تعالى هي سببُ نجاةِ العبادِ وسِرُّ بقاءِ المُعانِدين

نُكتة تَكرار اسمِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِۚ﴾:

دلَّ تَكرارُ اسمِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِۚ﴾، على أنَّ رحمةَ اللّهِ تَعالى وحدَها هي المُنْجيةُ من عذابِه، وأنَّ بقاءَ الخلقِ في الأرضِ مع كُفرِهم إنَّما هو برحمةٍ عمَّتْهم، لا بقدرةِ أصنامٍ ولا بشفاعةِ جُندٍ، وفيه تبكيتٌ لهم؛ إذْ أعْرَضوا عن الرَّحمن المانحِ للنَّصرِ والرِّزقِ إلى ما لا يَمْلِكُ لَهُم ضرًّا ولا نَفْعًا، فجاء الاسمُ مُكرَّرًا؛ ليُرسِّخَ أنَّ آثارَ النَّصرِ والرِّزقِ والإمهالِ إنَّما هي مظاهرُ لرحمةِ الرَّحمنِ الَّتي وسِعَت كُلَّ شيءٍ[2]، وفيه إيماءٌ إلى أنّ صفة الرَّحمن هي الحَبْلُ الأخير الَّذي على المُشْركين التّوجهُ إليه، والاستمساكُ به؛ للنَّجاةِ من بَحْرِ الظُّلُمات، وماء الأكْدار.

دلالَةُ النَّفي بأداةِ ﴿إِنِ﴾:

﴿إِنِ﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِنِ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ نافيَةٌ، أي: ما الكافرون إلّا مُنْغَمِسونَ في غُرورٍ شاملٍ يَحْتَويهم، ويطوِّقُهم، وفي هذا تأكيدُ ضَلالِهم التّامِّ[3].

دلالةُ تعريفِ اسمِ الفاعلِ المجموعِ:

جاء لفظ: ﴿ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ مَعْرِفَةً جمعًا للاستغراقِ، فهو يدلُّ على أنَّ وصف الغرور شاملٌ لجميع الكافرين، وصيغَ باسمِ الفاعل؛ للدّلالة على عَراقَتِهم في الكُفر ورُسوخِهم فيه[4].

الإعْــراضُ عَـن المُـعْـرِضِ عدالةُ الـكـلامِ وبـراعَـةُ الأسلوبِ

فائِدَةُ الالتفاتِ مِنَ الخِطاب إلى الغَيْبَة:

التَفتَ النَّظمُ الكريمُ من الخطابِ في قوله تعالى: ﴿لَّكُمۡ

(1) السّيواسيّ، عيون التَّفاسير: 4/ 234، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 42.

(2) إسماعيل حقّي، روح البيان: 10/ 92، والهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 30/ 71.

(3) الخطيب، التَّفسير القرآنيّ: 15/ 1066.

(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 20/ 255، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 42.

﴿يَنصُرُكُم﴾، إلى ضميرِ الغَيْبة في قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾؛ للإيذانِ باقتِضاءِ حالِهِم للإعراضِ عنهُم وبيانِ قبائِحِهِم لغيرِهِم[1]، وفائدةٌ أخرى ليعمَّ الكلامُ جميعَ الكافرين، ولو جاء الكلامُ على الخطابِ؛ لتوُهِّم فيه الخُصوصُ، وهو ما يُرشِّحُهُ جَمْعُ اسمِ الفاعلِ المعرَّف ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

بلاغَةُ إظْهارِ ما حقُّه الإضْمارُ:

الكفرُ علّةُ كُلِّ خِسّةٍ وأصْلُ كلِّ عِلّةٍ

لفظ ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ حملَهُ بعضُ المُفَسِّرين على أنّه في موضعِ الإضمارِ؛ إذْ تقدَّمَ ذِكْرُ الكافرين؛ وذلك لذمِّهِم بصريح الكُفرِ وتعليلِ غُرورِهِم بهِ[2]، فهو كاشفٌ لسببِ معتقدات المشركين، وعلّة إعراضِ المكذِّبين، وهو الكفْرُ بربِّ العالمين، وحَمَلَهُ بعضُهم على خلافِ ذلك[3]؛ ليَشْمَلَ عمومَ الكافرين، فهو مِن وضْعِ الظّاهر في موضعه، وهو الأليق بالسّياق.

بلاغَةُ القَصْرِ بطريقِ النَّفي والاستثناء:

مُعْتَقداتُ الكافرين أوهامٌ زائلَةٌ وظُنونٌ غائلَةٌ

جاء قولُهُ تَعالى: ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾ قصرًا بأسلوب النَّفي والاستثناءِ، وهو قَصْرٌ إضافيٌّ لقلبِ اعتقادِهِم أنَّهم في مَأْمَنٍ من الكوارثِ بحِمايَةِ آلِهَتِهِم[4]، وتظهَرُ بلاغَتُه في كونه يَنْفي عن الكافرينَ كلَّ شيءٍ يكون سببًا في كُفْرِهِم، ثُمَّ إثبات السَّببيَّة حصرًا في الغرور، ففيه مبالغةٌ في شأن الغرور المؤثِّر في كُفْرِهِم، وأنّ الغُرورَ الَّذي انْطَوى عليهم هو ما أوردَهُم مهالكَ التَّكذيبِ والإعراضِ، فقُصِرَ حالُ الكافرين على الغرور لا يتجاوزونه، وأنَّهم لا يَمْلِكون من أمرِهِم شيئًا سوى أن يَحْيَوا في أوهامٍ باطلةٍ وزخارفَ كاذبةٍ سوَّلَها لهم الشَّيطانُ.

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 8.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 8، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 20.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 43.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 43.

إذا استَولى الغرورُ على صاحبِه؛ أغرَقَهُ في بحرِ كُفْرِه

بلاغَةُ استِعمال حرفِ الظَّرفيَّة:

جيء بحَرْفِ الجرِّ ﴿فِى﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾؛ للدّلالة على شِدَّة تلبُّسِهم بالغُرور، والغُرورُ هو توهُّمُ النَّفس حصولَ نَفْعٍ لها على خلاف الواقع، حتَّى صار يُحيط بهم إحاطةَ الظَّرف بما في داخله، فلا يُفارقونه، ولا يخرجون عنه، فالمعنى: ما الكافرون في حالٍ من الأحوال إلّا وهم غارقون في الغُرورِ، مُحاطون به من كُلِّ جانبٍ[1].

إفادةُ العُموم والشُّمول تهويلًا لحالِ الكافِرين

فائدَةُ استِعمالِ المَصْدَرِ نكرةً:

صيغَ لفظُ ﴿غُرُورٍ﴾ مَصْدَرًا منكَّرًا؛ لإفادة العُموم والشُّمول والتَّعظيم، وفيه تهويلٌ لحالِ الكافرين؛ إذ يَكشفُ عن غَرَقِهم في غُرورٍ عظيمٍ وضلالٍ فاحِشٍ، يزيِّنُه لهم الشَّيطانُ ويُحيطُ بِهِم مِن كُلِّ جانبٍ[2].

توكيدُ نَفْيِ النّاصرِ مِن دون اللهِ تَعالى بوَصْفِ المُشركين بالغُرور

بلاغَةُ التَّذييل بجملة الفاصلةِ:

أوثِرَ خَتْمُ آيةِ: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم﴾ بجملةِ: ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾؛ لأنَّ النُّصرة دالَّةٌ على القوَّة، وهُم ادَّعوها لأنفُسِهم، وزَعَموا أنَّهم ينصرون، فالكُفّار كانوا يمتَنِعون عن الإيمان، ولا يَلْتَفِتون إلى دعوةِ الرَّسول ﷺ، وكان تعويلُهُم على شَيئَينِ، أحدِهما: القوَّة الَّتي كانت حاصلَةً لهُم بسبَبِ مالِهِم وجُندِهِم، والآخَرِ: أنَّهم كانوا يقولونَ: هذهِ الأوثانُ توصل إلينا جميعَ الخيرات، وتدفع عَنّا الآفات، وقد أبطَلَ اللهُ تَعالى كُلَّ واحدٍ من هذين الوَجهَيْن، وأنَّ الشَّيطان يَغرُّهم بأنَّ العذابَ لا يقَعُ بِهِم[3]، فقوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾ تذييلٌ ناعٍ عليهم ما هُم فيه مِن غايةِ الضَّلالِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 43.
(2) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 314، والقنّوجيّ، فتح البيان: 14/ 243.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 263، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 594، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 8.

بلاغةُ تَكْرار العَطْفِ بحَرْفِ (أم):

زيادَةُ التّبكيت والتّقريع في سياقِ إقامَةِ الحُجَجِ على المُعانِدين

كُرِّر العطفُ بـ (أم) في قولِه تَعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ﴾؛ لزيادَةِ التَّبكيت والتَّقريع؛ إذ ينتقل بهم مِن تهافُتِ دَعواهُم في وجود جُندٍ ينصُرُهم مِن دون اللّهِ تعالى، إلى تهافتٍ أعظمَ، وهو زَعْمُهُم أنَّ لهم رازقًا يَرْزُقُهم؛ إنْ مَنَعَهُم اللّهُ سُبحانَهُ رزقَهُ، فالآية تُقرِّرُ أنَّ أولئك الَّذين اتَّخذوهم جُندًا لا يملكون لأنفُسِهم رزقًا، بل هم عيالٌ عَلى رزق اللّه ﷻ، فكيف يُتوهَّم أنَّهم يَمْلِكون نصرًا أو دفعًا عن غَيْرِهِم[1]؟.

بلاغةُ الاستِفهامِ وغرَضُهُ:

المُبالغةُ في التَّبكيتِ والتَّوبيخِ والتَّحْقيرِ

الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ﴾ إنكاريٌّ، جاء لنَفْيِ أن يكون ثَمَّ من يَمْلِكُ رزقَ النّاس غير اللّهِ تعالى، فجاء في صورةِ سُؤالٍ، والمراد بهِ: التَّوبيخُ والتَّقريعُ، فالقصدُ زيادَةُ إغلاظِ النَّكير عليهِم وإظهار عَجْزِهم وضلالِ اعتِقادِهِم[2].

فائدَةُ استِعمالِ اسمِ الإشارَةِ القَريبِ:

التَّهكُّمُ بالمُخاطَبينَ وتَحْقيرُ عُقولِهِم والتَّهوينُ مِن شَأْنِ المُشارِ إليهِ

التَّعبير باسم الإشارة القريب ﴿هَٰذَا﴾ جاء للدّلالة على التَّحقير والتَّهوين مِن شأنِ المُشار إليه، أي: أيُّ شيءٍ يُساوي هذا الحقيرُ الذَّليلُ المَهينُ الَّذي تزعمونَ أنّه يملِك أن يأتيَكُم برزقٍ إنْ أمسكَهُ اللّهُ تَعالى؟ فالإشارَةُ بلَفْظِ القَريب تُشْعِرُ بصِغَرِ قَدْرِه ووَضاعة مكانَتِه[3]، واستعمالُ اسْمِ الإشارة المُقتَرنِ بالاستفهام فيهِ دعوةٌ للبحثِ عَن هذا الرّازِق من دونِ اللّه تعالى، أي: ابحثوا عَنِ المُشار إليهِ بالقريب تهكُّمًا بهم، وإزراءً عليهم بِما يعتقدونَ.

وَجْهُ التَّعبير بالاسمِ المَوصولِ:

جاء التَّعبير بالموصولِ في قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ﴾؛

(1) المهائميّ، تفسير المهائميّ: 3/ 435.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 228، والبالسيانيّ، حسن البيان: 6/ 2611.

(3) إسماعيل حقّي، روح البيان: 10/ 93، والهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 30/ 43.

لتَنْزيلِه منزلَةَ الحاضِرِ في الأذْهانِ، المُسْتَقِرّ في المكان، وما على المخاطَبين إلّا الإشارةُ إليه، زيادةً في التَّهكُّم بهم.

فائدَةُ التَّعبير بصيغة المضارع:

الاستدلالُ بأنَّ تجدُّدَ الأرْزاقِ لا يكونُ إلّا للهِ تعالى

جاءَ الفعلُ المُضارع ﴿يَرۡزُقُكُمۡ﴾ مُناسبًا للسّياق؛ إذ يُفيدُ التَّجدُّدَ والاستمرارَ، فالإنسانُ في كُلِّ لحظةٍ مُحتاجٌ إلى رزقٍ جديدٍ مُتكرِّرٍ، من ماءٍ ينزل، ونباتٍ يخرُج، وأقواتٍ تتوالى، فجُعِلَ الفعلُ بصيغةِ المُضارع؛ ليُصوِّرَ هذا التَّكرارَ الدّائمَ؛ لبيانِ أنَّ الرّازقَ يتجدَّدُ رزقُه، فلا يتوقَّفُ، ويستمرُّ عَطاؤُه، فلا يُمنَعُ، وأنَّ مَن كانَ كذلك؛ فهوَ اللّه تعالى، ولا يوجد سواهُ من الخَلْقِ مَن يستطيعُ ذلك، فتيسيرُ الأرزاق وتجدُّدها لا يملكهُ إلّا اللّه سُبحانَهُ، فإذا أمسكها؛ فلا قُدرة لمخلوقٍ على إنزالها أو إيجادِها[1].

بلاغَةُ الاستِدلالِ بالامتنانِ بالنَّصر والرِّزق:

دفعُ الضُّرِّ وجلبُ الرِّزقِ أصلٌ دالٌّ على ربّانيّةِ القادِرِ عَلَيْهِما

الجَمعُ بَينَ النَّصر والرِّزق في الآيتين الكريمتَيْن من بديع البيانِ القرآنيِّ؛ إذ فيه تذكيرٌ بأنَّ الإنسانَ لا غنى له عن أمرَين عظيمَين: دفعِ الضُّر بالنّاصر، وجلبِ المَنفَعَةِ بالرّازق، فاللّهُ تَعالى وحدَهُ هو الَّذي يَمْلِكُ هذين الأمرين، فهو الَّذي يكفي عبدَه شرَّ أعدائه بالنَّصر، ويكفيه مَؤونَتَهُ ومصالحَه بالرِّزق، وبهذا يبيِّن السّياقُ أنَّ ما يدّعيه الكافرون من نُصْرَةِ آلهتهم أو رزقِها لَهُم ليس إلّا غرورًا، وأنَّ النّاصرَ والرّازقَ على الحقيقةِ هوَ اللّه الرَّزّاقُ ذو القوَّةِ المتينُ[2].

دلالَةُ استِعمالِ ﴿إِنۡ﴾ دونَ (إذا):

سياقُ التَّهديد يُناسِبُهُ ما هو مظِنّةُ الوقوعِ

آثر النَّظمُ الكريم استعمالَ ﴿إِنۡ﴾ الشَّرطيَّةِ دونَ (إذا) في بابِ الرِّزق؛ إذ إنَّ الرِّزق أمرٌ لازمٌ للخلْقِ لا قيامَ لَهُم بدونه، فحياتهُم مُرتبطةٌ به ارتباطًا لا انفكاكَ له، ولا قوامَ لَهُم بدونه، وبذهابِ

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 43.

(2) ابن القيّم، إغاثة اللهفان: 1/ 34.

الرّزقِ يُمَحَقُ الخَلْقُ، فكان ذِكْرُ إمساكِ الرّزق تهديدًا ترهيبيًّا، غرضُهُ الاستدلالُ على إسنادِ الرّزقِ لصاحبِهِ الحقّ، فكان المناسب لسياقِ التّهديدِ ﴿إِنۡ﴾ الشَّرطيَّة الدّالّة على مظنّة الوقوع، لا (إذا) الدّالّة على قطعيّة الوقوعِ، وفي ذلك إشارةٌ خفيَّةٌ إلى أنّه ما كان الرّحمنُ الرَّزاقُ ليقْطعَ رزقَه عن خَلْقِه، وإن استنكفوا عن عبادتِه، فسبحانه ما أرحمَه! وما أبلغَ كلامَه! إذ جمع التَّرهيب والتَّرغيب في مُحْكَم بيانه.

دلالَةُ إضافَةِ لَفْظِ الرّزق إلى الضَّميرِ:

الـرِّزقُ من آثـار الـرُّبـوبـيّـة دالٌّ على الرّحمانيّةِ

إضافَةُ الرّزق إلى الضَّمير في قوله تعالى: ﴿إِنۡ أَمۡسَكَ رِزۡقَهُۥۚ﴾، بمعنى (مِن)، فالرّزقُ مِن اللهِ تعالى، وهو مِن مُقْتَضَيات ربوبيّتِه تَعالى، فالرِّزق كلّه ملكٌ للّهِ تَعالى، لا يملِكُ أحَدٌ مِن دونِه دفعَه ولا جَلْبَه، فَجَعْلُ الرِّزق مُضافًا إلى الضَّميرِ العائدِ إلى اللهِ تَعالى يُرادُ به إبرازُ أنّ الرِّزقَ مختصٌّ باللّهِ تعالى، لا يُشارِكُه فيه غيرُه.

بلاغَةُ اللَّفِّ والنَّشرِ:

ترتيبُ الجُمَلِ باعتِبارِ علائقِ المَعاني وتَعانُقِ الدّلالاتِ

الَّذي يقتَضيهِ النَّظم القرآنيُّ أن يكونَ قولُه تعالى: ﴿أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٞ لَّكُمۡ﴾ متعلِّقًا بِذِكرِ الخسف؛ باعتبارِ أنَّ الجُنْدَ والخَسْفَ في الأرض، وأن يكونَ قولُه سبحانه: ﴿أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ﴾ متعلِّقًا بذِكْرِ إرسال الحاصِبِ؛ باعتبار أنَّ الرّزق والحاصب من السَّماء، فكأنَّه لمّا قيل: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾؛ أعقبَهُ بقَوْلِه: ﴿أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٞ لَّكُمۡ﴾، أي: أأمِنْتُم مَن تَزْعُمون أنّه جندٌ لَكُم يَمْنَعُكم مِن عذاب اللهِ تَعالى وبأسِه؟ ولمّا قيل: ﴿أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ﴾؛ أعْقَبَهُ بقوله: ﴿أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ إِنۡ أَمۡسَكَ رِزۡقَهُۥۚ﴾، أي: أتَظنّون أنَّ أصنامَكُم تَمْلِكُ أن تَرْزُقَكُم؛ إنْ حبَسَ اللهُ تَعالى رِزْقَه عنكم[1]، ويجوز أيضًا أن يكون

(1) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 21.

قولهُ تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾ انتقالًا إلى معنًى آخَر، مرتبطًا بقوله السّابق: ﴿وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾، على أسلوبِ اللَّفِّ والنَّشر المعكوس، فيأتي الرِّزق بَعْدَ الذِّكر السّابق له؛ ليبيّن انفرادَهُ تعالى به دونَ سِواهُ(1).

بلاغَةُ الفَصْلِ بـ ﴿بَل﴾ في الجملةِ الكريمَةِ:

كَشفُ تماديهم في العِناد وازديادِهم في النُّفور

جاء حرفُ ﴿بَل﴾ في قوله تعالى: ﴿بَل لَّجُّواْ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾؛ لنَقْضِ ما قَد يَسْبِقُ إلى وهْمِ السّامع من انتفاعِ القَومِ بالآيات والزَّواجر المُتقدِّمة؛ لقوّتها وبليغ أثرِها، فكأنَّ السّامعَ يتساءَلُ: لعلَّهم تأثَّروا، فاتَّعظوا؟ فجاء الاستئناف البيانيُّ بـ ﴿بَل﴾؛ ليُبطل هذا الظَّنَّ، ويكشفَ الحقيقة المُخالِفَة، وهي أنَّهم تَمادَوا في العِناد، وزادوا في الاستِكبارِ والنُّفورِ(2).

نَوْعُ حَرْفِ ﴿بَل﴾ ودِلالَتُه:

الانتقالُ مِن غرَضِ التَّعجيز إلى الإخبارِ عن عِنادِهم

جاءت ﴿بَل﴾ لإضرابِ انتقاليٍّ يُبطِل ما قد يُتوهَّم مِن تأثُّرهم بالأدلَّةِ والبراهين، ويُبرز الحقيقة الرّاسخة أنّهم لم يُذعِنوا للحقِّ، بل تَمادَوا في عُتوٍّ واستكبارٍ، ونفورٍ وشرادٍ عن الهدى، أو للانتقالِ مِن غرَضِ التَّعجيزِ إلى الإخبارِ عن عِنادِهم(3)، وهذا على جَعْلِ ﴿بَل﴾ بمعنى الإضرابِ الإبْطاليِّ، وإذا جَعلناهُ انتقاليًّا؛ فهو للانتقالِ إلى بَيان مَوْقِفِهم مِن البعث والوحي، والمعنيانِ مُتقارِبانِ.

بلاغَةُ الاستِعارةِ في الفِعْلِ ﴿لَّجُّواْ﴾:

التَّمادي المُتكرِّر والإغراقُ في لُجَجِ الباطل سَجيّةُ المكذِّبين

اختير فعل ﴿لَّجُّواْ﴾؛ لِما فيه من دلالةٍ على التَّمادي المُتكرِّر والمتَرَدِّد(4) والمُبالَغ فيه، فهو يُفيد الإغراقَ في العناد وتجاوزَ الحَدِّ، حتَّى صار العنادُ لَهُم سجيَّةً غالبةً، فتمادَوا في الباطل، وازدادوا

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 43.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 43.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 9، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 44.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (لج).

نفورًا عن قبولِ الحَقِّ[1]، وهو مأخوذٌ من لُجَّة البَحْرِ؛ إذ يتردَّد ساحِلُه وأمواجُه، ففيه تشبيهُ رجوعِ المُشْرِكين إلى عتوِّهم وطغيانِهم بلُجَّة البحر، على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة، ونكتةُ ذلك بيانُ إغراقِهم في باطلِهم وطُغْيانِهم.

نكتَةُ الالتِفاتِ مِنَ الغَيبَةِ إلى الخِطاب:

الإعــراضُ عَـنِ المُعانِدين مزيدُ تبكيتٍ وشديدُ تقريعٍ

التَفَتَ النَّظمُ الكريمُ من الخطابِ إلى الغَيْبَةِ في قوله تعالى: ﴿بَل لَّجُّواْ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾؛ لإبرازِ شدَّة التَّوبيخ والتَّقريع؛ إذْ يواجَهون أوّلًا بخِطاب مُباشر فيه تبكيتٌ وتهديدٌ، ثُمَّ يُعرَض عنهم إلى الغَيْبَة؛ تحقيرًا لشأنِهم وحطًّا مِن قَدْرِهم، فيزدادُ الوعيدُ وقْعًا وشدَّةً[2]، ويُقوّي هذا المسلكَ معنى الإضرابِ المُخْبِر عن واقِعِهم.

بلاغَةُ استِعمالِ حرفِ الظَّرفيَّة:

الـدّلالَـةُ على شِـدَّة التَّلبُّس بالعُتوِّ والنُّفور

استعملَ النَّظمُ حرفَ الظَّرفيَّة في قوله تعالى: ﴿بَل لَّجُّواْ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ استعمالًا مجازيًّا؛ إذ دلَّ على شِدَّة التَّلبُّس بالعتوِّ والنُّفور، حتَّى أصبحوا مغمورين بالعِناد والنّفور، لا يُفارِقُهُم، فصار العُتوُّ والنُّفور محيطَين بهم إحاطَةَ الظَّرف بالمَظْروفِ، فلا حالَ لَهُم إلّا حال العنادِ والشُّرود عَنِ الحَقِّ[3].

فائدَةُ الاستعارَةِ في لَفْظَي ﴿عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾:

تـصـويـرُ العـتـوِّ والـنُّـفـور ببحرٍ يـغـرَقُ فـيـهِ المشركون

شُبِّه العتوُّ والنُّفور بالبحر في قوله تعالى: ﴿بَل لَّجُّواْ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾، وحُذِف المشبَّه به، ورُمز إليه بإحدى لوازمه، وهو فِعْلُ ﴿لَّجُّواْ﴾، على سبيل الاستعارة المكنيَّة، وفائدَةُ الاستعارَةِ تَصْويرُ العُتوِّ والنُّفور الَّذي لجَّ فيه أولئك المُشْرِكونَ المُعانِدون ببَحْرٍ يَغْرَقونَ فيه؛ لبَيان إحاطةِ العتوّ والنُّفور بهِم كإحاطةِ البَحْرِ، فإنَّ شأنَ ماءِ

---

(1) نجم الدّين الكبرى، التَّأويلات النَّجميَّة: 6/ 189، وإسماعيل حقي، روح البيان: 10/ 93، والخطيب، التَّفسير القرآنيّ: 15/ 1066.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 9.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 44.

السّاحل الَّذي هو لُجّة البَحْر أن يَرْجِعَ إلى البَحْرِ فيندمِجَ فيه، وهكذا شأنُ أولئك مع العتوِّ والنُّفور.

نُكتَةُ تنكيرِ لَفْظِ ﴿عُتُوٍّ﴾:

نُكِّر لفظُ ﴿عُتُوٍّ﴾؛ ليُفيد التَّهويلَ، وجيء به مصدرًا؛ ليدلَّ على مُطلق العُتوِّ؛ إيذانًا بأنَّهم غارقون في عنادٍ شديدٍ وفسادٍ عظيمٍ لا حَدَّ لَهُ[1].

وَجْهُ العَطْفِ ودلالتُه:

الجَمْعُ بَيْنَ فساد العمَل وفسادِ الفِكْرِ والنَّظر

عُطِف لفظُ (نفور) على لفظ ﴿عُتُوٍّ﴾؛ ليُجْمَع بين نوعَي الفسادِ: فسادِ القوَّة العَمَليَّة بالعُتوِّ المُستنِد إلى الحرْصِ على الدُّنيا، وفسادِ القوَّة النَّظريَّة بالنُّفور النّاشئِ عن الجهل، فصاروا في ضلالٍ مُركَّبٍ يَجْمَعُ بَيْنَ فساد العمل وفساد الفِكْرِ والنَّظر[2].

نُكتَةُ استِعمالِ مفردة (نفور) نكرَةً:

التَّحقيرُ من شأنِ الجاهِلِ النّافر عن أسبابِ نَجاتِهِ

نُكِّر لفظ (نفور)؛ ليُفيد التَّهويلَ من شِدَّة فِرارهم عنِ الحَقِّ، وصياغتُه مصدرًا تدلّ على المُبالغة في اتّصافهم بالنُّفور، وهذا يدلُّ على حقارتهم؛ إذ صارَ حالُهُم كحالِ الحُمُر المُسْتَنْفِرَة الَّتي لا تعقِلُ، فجُمع لهم بَيْنَ التَّحقير لشأنِهم والإشارة إلى جَهْلِهِم المُفرطِ وغَباوتهم الشَّديدة[3]، فإنَّ شأنَ الجاهلِ أن يفِرَّ مِن أسبابِ نَجاتِهِ.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

القَبْض والإمساك:

القَبْضُ في الرِّزق بمعنى التَّضييق، والإمساكُ بِمَعْنى المَنْعِ

القَبْضُ هو الأخذ والتَّملُّك، يقال: قَبَضْتُ الشَّيءَ قَبْضًا، أي: أخذته، وصار الشَّيءُ في قبضتك، أي: في مِلكك، ويصلحُ للقَبْضِ الفعليِّ بالكَفّ، وللحَوْز، فَيُقال: قبض الدّارَ والأرض: حازها، والقَبْضُ: خلاف البَسْطِ[4]، فيأتي بمعنى التّضييق، فقَبْضُ الرّزقِ تضييقُه.

(1) النَّيسابوريّ، إيجاز البيان: 2/ 827، والخطيب، التَّفسير القرآنيّ: 15/ 1066.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 594.

(3) إسماعيل حقّي، روح البيان: 10/ 93، والهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 30/ 43.

(4) أبو نصرٍ الجوْهَريُّ، الصِّحاحُ، ومُحمَّد جبل، المُعجَم الاشتِقاقيُّ المُؤَصَّلُ: (قبض).

أمّا الإمساكُ؛ فهو حَبْسُ النَّفس عَن الفِعْل، ويكثُرُ استِعْمالُهُ في الامتناعِ عَمّا تَدْعو إلَيْهِ الشَّهْوَة، يُقال: أَمْسَكَ عَنِ الإفطار، وقد يُستعمل أيضًا فيما لا تدعو إليه الشّهوة، كَما يُقال: أَمْسَكَ عَن الكلام، وأَصْلُ الإمْساكِ: حَبْسُ النَّفس عَن الفِعْل، ونقيضُ الإمساك: الإرْسالُ[1]، ويأتي الإمساكُ بِمَعْنى المَنْع، وهو المقصودُ في الآية، فالقَبْضُ فيما يتعلَّقُ بالرّزق بمعنى التَّضييقِ، والإمساكُ بمَعْنى المَنْع.

الكَيْدُ والمكْرُ والخِداع:

الخِداعُ أَعَمُّ مِنَ الكَيْدِ، والكَيْدُ أقْوى دِلالَةً مِنَ المكْرِ

الفرقُ بَيْنَها[2] أنَّ الخداع إظهارُ أمْرٍ لِغَيْرِكَ مع إضْمارِ خِلافِه، ولا يَلْزَمُ مِنْهُ أن يكونَ بعد نظَرٍ وتدبُّرٍ، ولذا يُقال: خدعَهُ في البيع؛ إذا غشَّهُ، ولو كان ذلكَ بديهَةً من غير فِكْرٍ سابقٍ، بخلاف الكَيْدِ فإنَّه - في حقِّ المخلوقِ - لا يكونُ إلّا بعد تدبُّرٍ وفِكْرٍ ونظَرٍ.

وأمّا المَكْرُ؛ فهو مِثْلُ الكَيْدِ في كَوْنِه - في حقِّ المَخْلوق - لا يكون إلّا بَعْدَ فِكْرٍ ونَظرٍ، إلّا أنَّ الكَيْدَ أقوَى مِنَ المَكْرِ.

(1) أبو هِلالٍ العَسْكَرِيُّ، الفُروقُ اللُّغَويَةُ، ص: 112.

(2) أبو هلالٍ العسكريّ ونور الدّين الجزائريّ، معجم الفروق اللُّغويَّة، ص: 313، ومحمد ياس خضر دوري، دقائق الفروق في البيان القرآنيّ، ص: 139 - 142، ومحمَّد داود، معجم الفروق الدِّلاليَّة في القرآن الكريم، ص: 281 - 284.

﴿أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٢٢﴾ [الملك: 22]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الانتقالُ مِنَ الوَصْفِ المُجَرَّدِ إلى الوَصْفِ الحاصِلِ بالتّقابل

لـمّا وصفَ اللّهُ تعالى الكافرين بالعُتوّ والنُّفور؛ عقَّبهُ بذِكْرِ ما يُبيِّن شناعةَ هذَين الوَصْفَين؛ إذ هُما فعلُ مَن عَميَ عن البصيرة، وفَقَد الهُدى، فناسب أن يُضْرَبَ لَهُما مثلُ الموحِّد والمُشرِك؛ ليتجلَّى الفَرْقُ بَيْنَ سالكِ سبيلِ الحقِّ وسالكِ سبيلِ الباطل[1]، فهو انتقالٌ من الوصفِ المُتجرِّد للمشرك، إلى الوصفِ الَّذي يحصُلُ بالتّقابل الاستفهاميِّ؛ ليُتوصَّل إلى البيانِ الإجماليِّ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُكِبًّا﴾: الكَبُّ: إسقاطُ الشَّيءِ على وجهِه، يُقال: كَبَّ الشَّيءَ يكُبُّه كَبًّا، وكَبْكَبه: قَلَبَهُ[2]، وأكَبَّ على الشَّيءِ: أقبل عليه، ولَزِمَه[3]، وأصلُ (كبب): يدُلُّ على جمعٍ وتجَمُّع[4]، والمعنى: ساقطًا عَلى وجْهِهِ لا يُبصِرُ يمينًا ولا شمالًا، ولا ما بيْنَ يَدَيْه[5].

2) ﴿سَوِيًّا﴾: السَّوِيُّ: فَعيلٌ في معنى: مُفْتَعِلٍ، أي: مُسْتَوٍ، والسَّوِيُّ يقال فيما يُصان عن الإفراط والتّفريط من حيث القَدْرُ والكيفيّةُ[6]، وأصلُ (سوي): يدُلُّ على استِقامةٍ واعتِدالٍ بيْنَ شَيئَيْنِ[7]، يُقال: هُما على سَوِيَّةٍ من الأمر، أي: على سواء، أي: استواء، ومعنى ﴿سَوِيًّا﴾ في

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 594، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 20/ 257.
(2) ابن سيده، المحكم: (كبب).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (كبب).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (كبب).
(5) النَّسفيّ، مدارك التَّنزيل: 3/ 516، وابن عجيبة، البحر المديد: 7/ 100.
(6) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سوا).
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سَوِيَ).

الآيةِ: (مُسْتَقيمًا مُنتصبَ القامةِ، مُعتدلًا، ناظرًا إلى ما بيْنَ يدَيْه، سالمًا مِن العُثورِ والخُرورِ)[1].

❁ المَعنى الإجماليُّ:

تمثيلُ الكافِر بالمُنكَبِّ على وجهِهِ والمؤمنِ بالماشي على صراطٍ مستقيمٍ

ضربتِ الآيةُ الكريمةُ مثلًا لحالِ الكافرِ والمؤمنِ، فالكافرُ كمَن يمشي مُطأطئَ الرَّأس، لا يهتَدي إلى سبيلِه، فيتعثَّر، ويَسْقُط على وجهه، وأمّا المؤمنُ فكالَّذي يَسيرُ معتدلًا، رافعًا رأسَه، ثابتًا في خُطواتِه، مُبصرًا طريقَهُ الواضحَ المُستقيم، بعيدًا عن الاعوجاجِ والانحرافِ[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغَةُ الاستفهامِ وغرَضُه:

تقريرُ المعنى في ذِهْنِ السّامعِ وتبكيتُ المُخالِفِ والإنكارُ عليه

غرضُ الاستفهامِ في قولِه تعالى: ﴿أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ التَّقرير، أي: تقرير أنّ المؤمنَ الَّذي يَمْشي على صراطٍ مستقيم أقوَمُ مِنَ الَّذي يَمْشي مُكِبًّا على وجهِه وهو المُشرِكُ والفاسق، فالاستفهام هُنا معناه الإلزامُ والقَطْعُ بالحقيقة[3]، كما أنَّ في هذا الاستفهامِ إنكارًا و تبكيتًا، ومثلُ هذا الإنكارِ قولُه تعالى: ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ ۝٥٩﴾ [يونس: 59][4].

نوعُ الفاءِ ودلالَتُها:

تفريعُ المَثَلِ عَلى ما تقدَّم؛ لبيانِ تَبايُنِ أحوالِ النّاسِ

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبًّا﴾ لترتيبِ المَثَلِ على ما ظهرَ من سوءِ حالِهم وخرورِهم في مَهاوي الغرورِ وركوبِهم مَتْنَ عشواءِ العتوِّ والنفورِ، وعدمِ اهتدائِهم في مسلكِ المُحاجَّةِ إلى جهةٍ يُتوهَّمُ فيها رشدٌ في الجملةِ، فهي تُبرز نتيجةَ ما تقدّم مِن أدلَّةٍ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 594، والرَّسعنيّ، رموز الكنوز: 8/ 209.
(2) القُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 219، والبيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 5/ 231، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 181.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 229، والباليسانيّ، حسن البيان: 6/ 2611، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 46.
(4) المجاشعيّ، النّكت في القرآن الكريم: 1/ 507.

وعِبَر، وتُبيّن أنَّ سوءَ حالِهم واغترارَهم وركوبَهم مَتْنَ العتوِّ والنُّفور قادَ إلى هَذا التَّمثيل البَليغ[1].

وَجهُ التَّعبير بالموصولِ:

دلالةُ العُمومِ في التَّمثيل بالمُكِبِّ على وجهِهِ

في اختيار الموصولِ (مَن) دون الاسم الصَّريح في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبًّا﴾ إجمالٌ في اللَّفظ، وتشويقٌ للسّامع ليَستَمِعَ إلى الصِّلة الَّتي تُحدِّدُ الموصوفَ، وتَكْشِف عن حاله، وهي تُفيد معنى العُموم، أي: إنَّ المثل لا يخصُّ فردًا بعينه، بل يشمَلُ كُلَّ مَن تَنْطَبِقُ عليه الصِّلة، فكلُّ كافرٍ داخِلٌ في هذا المثَلِ[2].

دلالَةُ التَّعبير بصيغةِ المُضارع:

المُؤاخذَةُ على السُّلوك المتجدِّد لا على الفِعْلِ الطّارئ

دلَّ الفعل ﴿يَمۡشِي﴾ بصيغةِ المُضارع على الاستمرار والتَّجدُّد، فحالُ الكافر في عَماه وضلالهِ متواصلٌ، والمُؤاخذَةُ ليسَت على فعلٍ واحدٍ طارئٍ، بل على سُلوكٍ مستمرٍّ متجدِّد.

نُكتَةُ تَنْكيرِ ﴿مُكِبًّا﴾ وصوغِهِ اسمَ فاعلٍ:

تحقيرُ شأن الضّالِّ وتعميمُ سقوطِ كلِّ كافر معانِدٍ

نُكِّر لفظ ﴿مُكِبًّا﴾؛ لإفادة تحقيرِ شأن الضّالِّ، والتَّعميم لحالِ السُّقوط والمَهانَة، فكلُّ مَن اتّصَفَ بالكُفْر والعناد فهو واقعٌ في هذا المَصير. وصياغَتُه على وزنِ اسْمِ الفاعل مأخوذٌ مِن (أكبَّ) اللّازم المطاوِعِ لفِعْلِ (كبَّه)، فهو تصويرٌ للكافر كأنّه ذاتٌ مطبوعَةٌ على الانكبابِ والسُّقوط، لا يَمْلِكُ لنَفْسِه قيامًا ولا اهتداءً[3].

بلاغَةُ استعمالِ مُفْرَدَةِ ﴿مُكِبًّا﴾:

المُعاكسَةُ في المَشْي توصلُ إلى خلافِ إرادةِ الماشي وتوقِعُهُ في شرِّ انكبابِهِ

جاء لفظ ﴿مُكِبًّا﴾ حالًا من فاعل ﴿يَمۡشِي﴾؛ لتُصَوِّرَ هيئةَ المَسير في غاية العجْزِ والاضطراب، فالآية تصِفُ حالَ الماشي بالانكباب

---

(1) الحصنيّ، المقتطف من عيون التّفاسير: 5/ 289، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 9، والدَّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 158.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 44.

(3) ابن جزيّ، التَّسهيل: 2/ 397، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 46، والقنّوجيّ، فتح البيان: 14/ 244.

على وجهه، فحالهُ مُعاكِسٌ للطَّريقة المرضيّة باتّباع الفطرة الإنسانيّة، فالانكباب جَعْلُ الوجه إلى أسفلَ مُخالفًا لِما خَلَقَ اللّهُ تَعالى البشَرَ عليهِ في المَشْي، دلالةً على المخالفَةِ في طريقِ الحقِّ الموصل إلى النّجاة، وهو دالٌّ كذلك على وُعورَةِ مَسْلَكِه، واختلال قواه، والاكتفاءُ بدلالةِ الكَبِّ وحده على هذه الهيئةِ إشعارٌ بمَهانَةِ طريقِ المُشرك، وأنّه طريقٌ شاقٌّ غيرُ موصِلٍ إلّا لسوءِ المصير؛ إذ شأنُ التّعكيس أن يوصِلَ المعاكِسَ إلى نقيضِ طريقِ النّجاة؛ لأنَّه لا يرى الأمور باستقامةٍ، فيقَع في غيرِ ما يُريد، ويَصِل إلى غيرِ ما يَظُنُّ.

بلاغَةُ الكِنايَةِ في التَّعبير بلَفْظِ ﴿مُكِبًّا﴾:

الإشارَةُ إلى حالِ الكافِرِ في الدُّنيا ومآله في الآخرَةِ

التَّعبير بمفردةِ الكَبِّ كِنايةٌ عن العَمى؛ إذ المُكِبُّ لا يهتدي إلى الطَّريق، فيظلُّ يتعثَّرُ، وينكَبُّ على وجهِه، والمقصودُ به الكافرُ الَّذي أكبّ على المعاصي في الدُّنيا، فحُشِر على وجهِهِ في الآخرة، في مقابلِ المُؤمن الَّذي استَقامَ على أمرِ اللّهِ تَعالى في دُنْياهُ، فحُشِر قائمًا إلى الجنَّة[1].

بلاغَةُ الإيجاز بالحَذْفِ:

ما عليهِ الكافِرُ لا يَسْتَحِقُّ أن يُسمّى طريقًا

حُذِف ذِكْرُ الطَّريق في شأن المُكِبِّ على وجهه في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ﴾ إيجازًا، ونكتةُ ذلكَ بيانُ أنَّ ما عليه الكافِرُ لا يستحقُّ أن يُسمّى طريقًا، ولأنَّ مقابلةَ هذا المَشْيِ السّاقط المُلْتَوي بذِكْرِ الصِّراط المستقيم في الجانبِ الآخَر كافيَةٌ في الدّلالة، فجاءَ الحَذْفُ أبلَغَ؛ إذْ جُعِلَ حالُهُ كأنّها تيهٌ بلا طريقٍ، لا مسلَكَ فيها ولا هدايَة[2].

دلالة التّعبيرِ بصيغَةِ (أفْعل) التَّفضيل:

صيغُ التَّفضيل تُعيَّن مفاضلتُها مـن عـدَمِـهـا بحسَبِ السّياق

وردَ لفظ الهدايةِ بصيغَةِ أَفْعَل التَّفضيل ﴿أَهۡدَىٰٓ﴾، وليس التّعبيرُ

(1) ابن عجيبة، البحر المديد: 8/ 100، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 10/ 93، والهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 30/ 44.

(2) إسماعيل حقّي، روح البيان: 10/ 93، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 46.

بهذهِ الصّيغة على بابها في إفادَةِ المُفاضلَةِ؛ إذْ لا معنى لمُفاضلةٍ بَيْنَ مَن يَمْشي مُكبًّا على وجههِ، وهو فاقِدٌ الهدايةَ بالكلّيَّة، وبَيْنَ مَن يَسيرُ سويًّا على الصِّراط المُستقيم، فجاءت الصّيغةُ هُنا مسلوبةَ المُفاضلة، على سبيل التَّهكُّم بالمُشركين والتَّبكيت لَهُم، أو هو تَمْليحٌ بحسَبِ المقام[1]، أي: ليس المقصودُ أنَّ الماشيَ مُستقيمًا هو أكثرُ هدايَةً مِن الماشي مكبًّا، بحيث يُفهَم أنّ للثّاني قدرًا من الهدايةِ، بلِ المقصودُ أنَّ الأوّل هو المهتدي حقًّا في مُقابل الثّاني الضّالِّ الَّذي لا هداية عندَهُ، ومِن ثَمَّ يكون ﴿أَهْدَىٰٓ﴾ في مَعْنى الصِّفة المُشبَّهة، أو هو من قَبيل (أفعل) التَّفضيل المُجرَّد عن معنى الزّيادة، فهو منزوعُ المفاضلةِ، وما كان كذلك؛ فقَدْ أفادَ المبالغة، كقولهم: (هو أفقَهُ مِنَ الجِدار)؛ إذِ الجِدارُ لا فِقْهَ لَهُ أصلًا، فالنَّتيجة: أنَّ الأوّلَ واصلٌ إلى الحَقِّ والدّين القويم، والآخرَ مُنقطعٌ عنه تمامًا[2].

بلاغَةُ التَّكرارِ:

تأكيدُ التَّقرير السّابق بتقريرٍ لاحِقٍ بيانٍ للمبايَنَةِ التّامَّة بينَ الفَريقَيْنِ

جاء تَكرارُ صيغةِ الاستفهام والاسم الموصولِ والفِعْلِ ﴿أَفَمَن يَمْشِي﴾، على سبيل التَّقرير لا لطَلَبِ الجَواب؛ إذْ إنَّ السّامع لا يملك إلّا أن يُقرَّ بأنَّ الماشيَ سويًّا على صراطٍ مُستقيم هو الأهدى، فغرَضُ الاستفهام التَّقريرُ؛ ليُؤكِّد أنَّ المُؤمن المهتديَ على الطَّريق الواضح أهدى وأقومُ مِن الكافِرِ الَّذي يمشي مُكبًّا على وجهه، مُتردِّدًا في ظُلمات الغيِّ والضَّلال[3].

كما أنَّ تَكْرارَ الموصول (مَن) يُفيد التَّقابلَ التّامَّ بَيْنَ الحالين، فيُعطي كُلَّ فريق استقلالًا في الذِّكر، ويُبرِزُ التَّباين بينَهُما بوُضوحٍ، وأيضًا فإنَّ في التَّكرار نوعًا من التَّقرير والتَّوكيد على أنّ لكلِّ فريقٍ صِفَتَهُ الَّتي لا تَلْتَبِسُ بغَيْرِه.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 46.

(2) الباليسانيّ، حسن البيان: 6/ 2611، والصّاويّ، حاشية الصاويّ على الجلالين: 4/ 236.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 229، والباليسانيّ، حسن البيان: 6/ 2611.

بلاغَةُ التَّعْبيرِ بصيغَةِ ﴿سَوِيًّا﴾ نكرةً:

المُهْتَدي كامِلُ الاعْتِدالِ تامُّ الاسْتِقامَةِ

جاء لفظُ ﴿سَوِيًّا﴾ على صيغة فعيل بمعنى: فاعل؛ لبيان أنَّه شديدُ الاستقامةِ والاستواء، وفي هذا دلالةٌ على كمال الاعتدالِ وتمام الاستقامة، كما في قولهِ تعالى: ﴿أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾﴾ [مريم: 43]، ونُكِّر لإفادة التَّعظيم، أي: طريقًا مستقيمًا تامَّ الاستواء لا عِوَج فيه[1].

بلاغَةُ استِعْمالِ حرفِ الاستعلاءِ:

الإيماءُ إلى تمكُّنِ المُهْتَدي على طريقِ الحقِّ

آثر النّظمُ الكريم استعمالَ حرف الاستعلاءِ ﴿عَلَىٰ﴾ في قولهِ تعالى: ﴿أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؛ لبيان تمكُّنِ الماشي، لا لبيان أنّه فوق الصِّراط مكانًا، وإن كان ذلك لازمَ الكلامِ.

نُكتَةُ تَنْكيرِ لَفْظِ ﴿صِرَاطٍ﴾:

فخامَةُ الصِّراط في كونِهِ شاملًا لطريقِ الحَقِّ في الدُّنيا والنَّجاة في الآخِرَةِ

نُكِّر لفظ ﴿صِرَاطٍ﴾ للتَّفخيم والتَّعظيم، كأنَّه قيل: صراطٌ عظيمٌ واضحٌ مُسْتَقيمٌ، واسعٌ ممتدٌّ للسّالكين، سهلُ المَسْلَك، لا حدودَ لوضوحه في الدُّنيا، يُرْشِدهُم ربُّهم إلى الحقِّ واتِّباعه، ويوفِّقهم لمخالفةِ الباطِل واجْتنابه، وفي الآخرة يهديهم الصِّراطَ المستقيمَ الموصلَ إلى درجاتِ الجنّات، ويُزحْزِحُهم عن العذابِ الأليم ودَرَكاتِ الجَحيم[2].

دلالَةُ وصْفِ الصِّراط بالاستقامة:

أقربُ طريقٍ وأسدُّ سبيلٍ المستقيمُ

وُصِفَ لفظُ ﴿صِرَاطٍ﴾ بصفة الاستقامَة ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾؛ ليدلَّ على كمالِ اعتدالِه، فلا عِوَج فيه ولا انحرافَ، وليس فيه ما يُتعثَّرُ به[3]، فأحسنُ الطُّرق ما كان مستقيمًا؛ لأنَّه باستقامته يكون أقربَ موصلٍ إلى المقصود، فلا يَضِلُّ سالكُه، ولا يتردَّد، ولا يتحيَّر، فهو العَدْلُ السَّويُّ الَّذي لا يميلون إلى غيره، ولا يَنْحَرفونَ عنهُ، وهذا الوصفُ أبلَغُ في بيان سهولةِ الاهتداء به وسلامةِ سالكِهِ مِنَ الضَّلال.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 46، والطَّنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 15/ 25.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 20/ 258، والزُّحيليّ، التَّفسير المُنير: 29/ 33.
(3) الطَّنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 15/ 25، وشحاته، تفسير القرآن الكريم: 29/ 6002.

نُكتَةُ تَنْكير لفظِ ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾:

نُكِّر لفظُ ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾ للمبالغَةِ والتَّفخيم، أي: هو في غاية القِوَم، فهو صراطٌ عظيمُ الاستقامَةِ، كامِلُ الوُضوح، لا عوجَ فيهِ ولا التواءَ[1].

فائدَةُ الاستعارةِ التَّصريحيَّة في لفظِ ﴿صِرَٰطٍ﴾:

طَـريـقُ الحـقِّ واضحٌ لا التِباسَ فيهِ ولا اشْتِباهَ

الصِّراطُ المُسْتَقيمُ مُستعارٌ للإيمان والحقِّ؛ لأنَّ الصِّراطَ يُطلَق في الأصل على الطَّريق الحِسّيِّ المخصوص، فاستعمالُهُ هُنا لطريق الإسلام[2] استعارةً تَصريحيَّةً أصليَّةً؛ إذ شُبِّهَ دينُ الإسلام بالطَّريق المخصوص الحسّيِّ، والجامعُ بينَهُما: أنَّ كُلًّا منْهُما موَصِّلٌ للمقصودِ[3]، مع الاستقامةِ في كلٍّ منْهُما، فصُرِّحَ باسم المُشَبَّه به، وطويَ ذكرُ المشبَّه، على طريقة الاستعارة التَّصريحيَّة، وفائدةُ الاستعارة: التَّنْبيهُ على وضوحِ الطَّريقِ وعَدَمِ اشتباهِهِ؛ إذِ الحِسّيّاتُ أظْهَرُ في التَّصوُّرِ منَ العقليّاتِ.

بلاغَةُ فنِّ الاحتباكِ:

الاحتباكُ أبلَغُ في تصوير التَّباين بَيْنَ الفَريقَيْن

في قولِهِ تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ احتِباكٌ؛ إذ حُذِف من الجُملة الأولى ما ذُكِر في الثّانية، وحُذِف من الثّانية ما ذُكِر في الأولى؛ إذ ذُكر ﴿عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ﴾ أوَّلًا؛ ليدلّ بمقابلَتِه على: (على قدميه) في الثّانية، وذُكر ﴿صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ثانيًا؛ ليدلّ بمقابلته على: (طريق مُعْوجّ) في الأولى، وتقدير الكلام دون احتباكٍ: أفمن يمشي مكبًّا على وجْهِه على طريقٍ مُعْوجٍّ أهدى أمَّن يمشي سويًّا على قدَمَيْهِ على صراطٍ مستقيم، وسِرُّ هذا الأسلوبِ أنَّ الآية أبْرَزَت أقبحَ ما يَصِف حالَ المجرم، وهوَ الكبُّ على الوجه، وأجمل

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 20/ 258.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 219، والسّيواسيّ، عيون التَّفاسير: 4/ 234.
(3) الميدانيّ، معارج التَّفكر: 14/ 532.

ما يُزيِّن حالَ المؤمنِ المشي على صراط مستقيم، فكان الاحتباكُ أبلَغَ في تصويرِ التَّباين بَيْنَ الفريقين.

بلاغَةُ الاستعاراتِ التَّمثيليَّة:

تمثيلُ المعاني المركّبة بألفاظٍ محسوسَةٍ طريقُ النَّظْمِ في بيانِ مقاصِدِ القرآنِ

في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ تصويرٌ بليغٌ لحالِ المؤمنِ والكافرِ، فالكافرُ بما هو فيه مِن اضطرابٍ في عقيدتِه، وتخبُّطٍ في نظرِه، وشدَّةِ التباسِ الأمرِ عليه، يشبهُ الأعمى الَّذي يمشي في طريقٍ وعرٍ كثيرِ التَّعرُّج، فلا يكادُ يخطو خطوةً إلّا يتعثَّر، فيسقطُ على وجهِه، أمّا المؤمنُ - لِقوَّة يقينِه، واطمئنانِ قلبِه بالإيمانِ، ووضوحِ الحقِّ أمامه - فهو كالَّذي يمشي صحيحَ البصر، مستويَ القامة، على طريقٍ مُمهَّدٍ واضحٍ، لا عوجَ فيه ولا مشقَّة، يرى معالمَه بيّنةً، فلا يضلّ فيه، وهذا تمثيلٌ ضربَهُ اللّٰهُ تعالى للكافرين والمؤمنين، أو لرجُلين أحدهما كافرٌ، والآخر مؤمن، وهو مرتبطٌ بقولِه سُبْحانَه: ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾، وقولِه: ﴿بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾، وما تلاه مِنَ الحُجج البالغة عليهم في قوله: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ﴾، وقوله: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ﴾، فقد جَرى التَّمثيلُ على تشبيهِ حالِ المُؤمنِ والكافرِ بحالَيْنِ مِنَ المَشْي، إحداهما: مُنَكَّسَةٌ مُتعثِّرة، والأخرى: مستقيمةٌ مُطْمَئِنَّة، وجُعِل الدّينُ طريقًا يُسْلَك؛ ولذا تعيّن أن يُفهَم من قوله: ﴿مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ﴾ أنَّ الكافرَ إنَّما يَسْلُك طريقًا مُعوجًّا، فلا يزال يَتَلَمَّس موضعَ خَطْوِه خشيةَ الضَّلال، على صورةِ مَن يمشي مُنَكَّسًا لا يرى سِوى ما تحت قدميه، بخلاف المؤمن الَّذي يسيرُ في وضوحٍ وبيانٍ(1).

فالآية الكريمة تَشْتَمِلُ على ثلاثِ استعاراتٍ تمثيليَّة بديعةٍ،

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 582، والبيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 5/ 231، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 228، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 9، والدَّرويش، إعراب القرآن وإعرابه: 10/ 159.

فقولُه تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ﴾ تصويرٌ لحال المُشْرِك في تَقَسُّم أمره بَيْنَ الآلهة طلبًا للَّذي ينفعُه منها، الشّاكِّ في انتفاعه بها، بحالِ مسافرٍ يَقْصِدُ أرضًا بعَيْنِها، لكنْ لا طريقَ واضحةٌ إليها، فيسلكُ مسالكَ مُلتويةً مُتشعِّبة، ويَلْتَبِسُ عليه السَّبيل، فلا يطمئنُّ لوِجهةٍ يسلكُها، بل يبقى مُتردِّدًا يتفحَّص آثارَ الأقدامِ وأخفافِ الإبلِ؛ ليتأكَّد إنْ كان الطَّريقُ مطروقًا أو مهجورًا.

وفي ثنايا هذا التَّشبيهِ تمثيلٌ آخرُ مُضمَّن في قوله: ﴿مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ﴾؛ إذ شُبِّه المتحيّر الَّذي يَلْصَقُ نظرُه بالأرض بحثًا عن أدلَّةِ السَّير، بالماشي مُنَكِّسًا وجهَهُ قريبًا من الأرض لا يرفَعُ بَصَرَهُ.

وأمّا قوله: ﴿أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا﴾؛ فتمثيلٌ لحالِ المُؤْمن الموحِّد، الواثقِ بتأييدِ ربِّه ونَصْرِه، والمُطْمئنِّ لكونه على الحقِّ، بحال مَن يسلُك طريقًا مستقيمًا واضحَ المعالم، لا يلتفتُ إلّا نحوَ وِجهته، فيمضي معتدلًا مطمئنَّ الخُطا، وقد جاء هذا التَّصوير البليغُ في غاية الإيجازِ؛ إذْ أغْنى ذِكْرُ الاستقامةِ في المَشْهَدِ الثّاني عن التَّصريح باعْوِجاجِ الطَّريق في المشهد الأوَّل، فاكتُفي بالمقابلةِ بينَهُما لتَمام البَيان[1]، فالمُؤْمِنُ مَن يَمْشي سويًّا على صراطٍ مُسْتَقيم، والكافر يَمْشي مكبًّا على وجهِهِ إلى طريقِ الجَحيم.

بلاغَةُ إيجازِ القَصْرِ في التَّقابل:

إبـرازُ التَّـفـاوت الـشّـاسـع بَـيْنَ الـفريقَيْن دونَ ذِكْـرٍ صـريـحٍ للمُفاضلةِ

التَّقابل في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ يقوم على مبدأٍ بلاغيٍّ رفيع، وهو الاكتفاءُ بعَرْضِ صورتَيْنِ مُتَضادَّتين دون الحاجةِ إلى التَّصريح بالمُفاضلة بينَهُما؛ لأنّ العقلَ السَّليمَ يُدركها مِنْ أوَّل وهْلةٍ، فالنَّظم الكريم يَعْرِضُ حالَ المشرك كمَن يَمْشي مكبًّا على وجهِه، متعثِّرًا

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 44 - 46.

تائهًا، في مقابلة حال المؤمن الَّذي يَمْشي سويًّا على صراطٍ مُسْتَقيم، معتدلَ الخُطا، واضحَ الطَّريق، وبهذا الأسلوبِ البليغِ يتحَقَّق الغرَضُ البلاغيُّ، وهوَ إبرازُ التَّفاوت الشّاسع ونفي التّساوي بين مُتَبايِنَيْن دون ذكرٍ صريحٍ للمفاضلة، وهذا من بديعِ إيجازِ القَصْرِ؛ لأنّه يترُكُ للمُتَلَقّي تصوُّرَ الأمر بكلّيَّته، واستحضارَ الحالِ بمآله[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الطَّريق والسَّبيل والصِّراط:

السَّبيلُ هو الطَّريق السَّهل، والصِّراطُ أقْوَمُ الطَّريق، والطَّريق أعمُّها

الطَّريقُ: هوَ كُلُّ ما يَطْرُقُه الطّارِقُ مِنَ النّاسِ، مُعْتادًا كانَ أو غَيْرَ مُعْتادٍ[2]، كما قال تعالى: ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾﴾ [طه: 77]، أمّا السَّبيلُ؛ فهوَ الطَّريقُ السَّهْلُ، وأغْلَبُ ما يَقَعُ في الخَيْرِ، وقَد يَقَعُ في الشَّرِّ كَقَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأنعام: 55]، وأمّا الصِّراطُ؛ فَهوَ السَّبيلُ الَّذي لا اعوِجاجَ فيهِ ولا التِواءَ.

فالفَرْقُ بَيْنَ الطَّريقِ والسَّبيلِ: أنَّ الطَّريقَ لا يَقْتَضي السُّهولَةَ واعْتِيادَ السُّلوكِ[3]، والسَّبيلُ: السَّهْلُ المُعْتادُ، والفَرْقُ بَيْنَ السَّبيلِ والصِّراطِ: أنَّ الصِّراطَ لا اعْوِجاجَ فيهِ[4]، كما قالَ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: 161]، فالصِّراطُ أخَصُّ مِنَ السَّبيلِ، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: 153]، والسَّبيلُ أخَصُّ مِنَ الطَّريقِ[5]، وقَد يُطْلَقُ كُلٌّ مِنْها على الآخَرِ تَوَسُّعًا.

(1) السَّعديّ، القواعد الحسان، ص: 162، 163، والميدانيّ، معارج التَّفكُّر: 14/ 532.
(2) أبو البَقاءِ الكَفويُّ، الكُلّيات، ص: 513.
(3) أبو هِلالٍ العَسْكريُّ، الفُروقُ اللُّغَويَّةُ، ص: 298.
(4) أبو البَقاءِ الكَفويُّ، الكُلّيات، ص: 513.
(5) المَناويُّ، التَّوقيفُ، ص: 215.

﴿قُلۡ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمۡ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ٢٣ قُلۡ هُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٢٤﴾ [الملك: 23 - 24]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

الانتقالُ مِن ذِكْرِ الضَّلال والهدى إلى ذِكْرِ أسبابِهما

لمّا ذكرت الآيةُ السّابقةُ الطَّريقَ الموصِلَ إلى النّجاة والهداية، وذكَرَتْ ضدَّه بطريق الإيماء والتَّلميح، فاتّضح أنَّ طريقَ الحقِّ هو سلوكُ الفطرة السَّليمة، وما سواه طريقُ الفطرة المشوّهة؛ ناسَب أن يُذْكَر ما يتعلّق بهذه الفطرةِ وسلامَتِها، فصرّحت الآياتانِ بما أوْدَعَهُ اللّهُ تَعالى في الإنسانِ من أدواتٍ مُعينَةٍ على معرفَةِ الحقِّ وهي السَّمع والبصر والفؤاد، وذكَّرَ بأصلِ خَلْقِ الإنسانِ وغايةِ ذلكَ، وهيَ العبادَةُ بطريق ذِكْرِ الحَشْرِ إليه سُبْحانَه، فانتقَلَ الكلامُ مِن ذِكْرِ الضَّلال والهدى، إلى ذِكْرِ أسبابِهما فعلًا وتركًا، وابتداءً وانتهاءً.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَنشَأَكُمۡ﴾: الإنشاءُ: ابتداءُ الخَلْقِ وإحداثُ الشَّيء وابتداؤه، ويدلُّ أصل (نشأ) على ارتِفاعٍ في شَيْءٍ وسُموٍّ[1]، ومنه: نشأ السَّحاب: ارتفع، وأنشأه اللّه تَعالى: رفعه، و"نشأ السَّحاب لحدوثه في الهواء، وتربيته شيئًا فشيئًا، قال تعالى: ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ١٢﴾ [الرعد: 12]، والإنشاءُ: إيجادُ الشَّيْءِ وتربيَتُه"[2]، ومن هذا الأصل عُبِّر بها عن بدْءِ الشَّيء لأوَّل أمرِه من عَدَمٍ، كما قالوا: أنشأ دارًا: بناها، أو من أثناء كانت موجودة، ولكن لم يكُن له وجود مُتعَيَّن فيها: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، (نشأ).
(2) الرّاغب، المفردات: (نشأ).

﴿أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [الأنعام: 98][1]، والمقصودُ بالإنشاءِ في الآيةِ: الخَلْقُ، والإيجادُ منْ عَدَمٍ[2].

2) ﴿وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾: الأفئدةُ: جمْعُ فُؤادٍ، وهو القلبُ، و(فأد): أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على حُمَّى وشِدَّةِ حرارةٍ، ومنه: الفُؤادُ، سُمّيَ بذلك لحرارتِه، والفَأْدُ: مصدرُ فَأَدْتُه؛ إذا أَصَبْتَ فُؤادَهُ[3]، والفُؤادُ: القلبُ، لكنْ يُقال له: فُؤادٌ؛ إذا اعتُبِر فيه مَعْنى التَّفَؤُّدِ، أي: التّوقُّد[4]، وقيل: أصلُ الفأْدِ الحركَةُ والتّحريك، ومنه اشتُقَّ الفُؤادُ؛ لأنّه ينبضُ، ويتحرّك كثيرًا[5].

3) ﴿ذَرَأَكُمۡ﴾: خلَقَكم، يُقال: ذرأ اللّهُ تَعالى الخلقَ يذْرَؤُهُم ذَرْءًا وذَرْوًا؛ إذا خَلَقَهُمْ، أي: أنْشأهم، ونشَرَهم في الأرض بتَناسُلِهم، وذرأ الشَّيءَ: كثَّره، ومنه: الذُّرّيَّةُ، وهو اسْمٌ لنَسْلِ الثّقلَيْن، والذَّرْءُ في أصل اللّغةِ: بثُّ الأشياءِ ونَشْرُها وبَذرُها وتفريقُها وتكثيرُها[6]، فدلالةُ الذَّرءِ الإنماءُ؛ لأنَّ إنشاءَ شيءٍ تكثيرٌ وإنماءٌ، والذَّرْءُ: إظهارُ اللّهِ تَعالى ما أبْداه[7]، والمعنى هنا: خلَقَكم وبثَّكم ونَشَرَكُم في أقْطارِ الأرْضِ وأرْجائِها[8].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

خلْقُ الإنسانِ ورزقُه الحواسَّ للهدايةِ تَقْتَضي الشُّكرَ بالطّاعة والتَّوحيد

ذكَّرتِ الآيتان بأصلِ الإنسان، وأنَّ اللّه تعالى هو الَّذي خَلَقَ الإنسانَ، وجَعَلَ له سمعًا وبصرًا وفؤادًا، مُبيِّنًا أنّه وحدَه المستحقُّ

---

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نشأ).
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 47.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فأد).
(4) الرّاغب، المفردات: (فأد).
(5) الزّبيديّ، تاج العروس: (فأد).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (ذرأ)، والفيروزابادي، بصائر ذوي التَّمييز: (ذرأ)، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ذرأ).
(7) الرّاغب، المُفردات، والسَّمين الحلبيُّ، عُمدة الحُفّاظ: (ذرأ).
(8) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 182.

للعبادة دون سواه، وحاثًّا لهم على شُكر نعمِه وإفراده بالطّاعة، ولكنّ قليلًا من النّاس مَن يَشْكُر، وجاء ذلك على سبيل خطابِ النَّبيِّ ﷺ بأن يقولَ ذلكَ للنّاس، ثُمَّ أمره أن يُخاطِبَهُم بأنّ اللّهَ تَعالى هو الَّذي بَثَّكم في أرجاءِ الأرض، ونشرَكم في أنحائِها، وإليه وحدَه يكون مرجعُكم ومصيرُكم يومَ القيامة(1).

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغَةُ الفَصْلِ ودلالَتُهُ:

الانـتـقـالُ مِـنَ الأصولِ الكونيّة إلـــى الـفــروعِ الإنسانيّة

قوله تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمۡ﴾ استئنافٌ انتقلَ فيه السّياقُ مِن خطابٍ مُباشرٍ من اللّهِ تَعالى للمُشركين بما تضمَّن من حُججٍ ووعيد، إلى خطابٍ على لسانِ الرَّسول ﷺ، ليقولَ لَهُم ما أُمِر به، والانتقالُ هُنا جاء مِنَ الاستدلالِ بالأُصول: السَّماواتِ والأرضِ والحياةِ والمَوْت، إلى الاستدلالِ بالفُروعِ: مِن خَلْقِ الإنسان وأعضائِه ومَدارِكه، ومِنَ الأصول الكونيَّة إلى الفروعِ الإنسانيَّة الدَّقيقة، وهي السَّمع والبصر والفُؤاد، فجاءت الجملةُ دون عطفٍ لإبراز عِظَم ما تَحْمِلُه مِن حُجّةٍ وتَذْكير، والفَصْلُ هنا يَشي بالاهتمامِ بهذا الخطابِ، ويُعمّق وقْعَهُ في النُّفوس(2).

دلالةُ الأمْرِ وغرضُهُ:

تكريمُ النَّبيِّ ﷺ ورَفْـعُ شأنِه في تكليفِهِ بالتّذكير والإعلامِ

الأمْرُ في قوله تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمۡ﴾ موجَّهٌ مِنَ اللّهِ تَعالى إلى سيّد الخلق وخليل اللّهِ ﷺ؛ ليكون هو المُبَلِّغَ عَن ربّه تَعالى، والخطابُ بعدَهُ مُنصبٌّ على أهلِ مكّة، وكلِّ مَن يَعْقِلُ، ويَسْتَمِع، فيعتبر(3)، وغرضُ الأمرِ الوُجوب، فإنَّ اللّهَ تَعالى أمَرَ بأنْ يُقالَ لَهُم ذلك الكلامُ، ودلَّ على شرف النَّبيِّ ﷺ، فإنَّه قد جَعَلَ له مُقامًا ورتبةً في التّذكير بعد أن كان التَّذكيرُ صادرًا عن الحقِّ ﷻ؛ إذ لقَّنه

---

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 219، والنَّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 516، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 182، والسَّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 878.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 47.

(3) الدُّرَّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه: 10/ 60.

الحُجَجَ الَّتي يَنْبَغي أن يُحاجِجَ بها المُشركين من أجلِ بيان فساد مُعتقَداتِهم، والاستدلال على العقيدةِ الصَّحيحة[1].

بلاغةُ القَصْرِ وفائدتُه:

قطْعُ كلِّ شبهةٍ ودفْعُ كلِّ وهمٍ قد يَتذرَّعُ به أهلُ الباطلِ

في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمۡ﴾ أسلوبُ قصْرٍ، بتعريفِ طَرَفَي الإسنادِ، وهو مفيدٌ قصرَ الإيجادِ والإنشاء على اللّه وحده دون سواه، وهو قَصْرُ إفراد؛ إذ يُنزِّل المُشركون منزلةَ من يَعْتَقِد أنَّ لتلك المعبوداتِ الباطلة نصيبًا في الخلق والإيجاد، فجاءُ الأسلوب؛ ليؤكِّد أنَّ اللّه تعالى هو المُتفرِّدُ بالإنشاء، دون أدنى مُشاركةٍ أو مُعارضَةٍ، وسِرُّ التَّأكيد بالقصر أنَّه يقطَعُ كُلَّ شُبهة قد يتذرَّعَ بها أهلُ الشِّرك، ويقرِّرُ في العقول أنَّ هذا الخلق وما تَبِعَهُ مِن آلات الإحساسِ والإدراك لا يُمْكِنُ أن يكون إلّا بفاعلٍ واحدٍ، فلا مُصوِّرَ ولا موجدَ ولا مُنعمَ بهذه النِّعم سوى اللّهِ ﷻ[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بالاسْمِ الموصولِ:

جاء التّعبيرُ بالاسْمِ الموصولِ في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمۡ﴾؛ لإفادة التَّعليل بصِلَةِ الموصول، أي: لأنَّه هو الَّذي أنشأكم، وجعَلَ لكم السَّمع والأبصار والأفئدة لتَشْكُروهُ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بمفردةِ ﴿أَنشَأَكُمۡ﴾:

الـدّلالـةُ على الإحداثِ المُقْتَرِن بالتَّكامل المُتدرِّج

اختار النّظمُ الكريم فعلَ ﴿أَنشَأَكُمۡ﴾؛ للدَّلالة على الإحداث المقرونِ بالتَّكامل المُتدرِّج، كما يُنبت الزَّرع، فينمو شيئًا فشيئًا حتَّى يكتَمِلَ، وفي التَّعبير بالإنشاءِ تذكيرٌ بقدرةِ اللّه تَعالى وسُلطانه، وعلمِه وحِكْمَتِه، وما أولاه لعبادِه مِن نِعَمٍ وآلاء، مع التَّنبيه على تَنزُّهه سبحانه عن الأمثالِ والنُّظراءِ[3].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 47.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتنوير: 29/ 47، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 264.
(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السُّنة: 10/ 126، والميدانيّ، معارج التَّفكُّر: 14/ 535.

مناسبَةُ العَطْفِ ودلالَتُه:

لمّا ذكر اللّهُ سبحانه إنشاءَ البشَرِ وخَلْقَهُم؛ ناسب عَطْفَ أجَلِّ النِّعم بعد نعمة الإيجاد، الّتي يَتوصَّل الإنسانُ بها إلى رُتَب الهداية، وهي الَّتي خُصَّ بها الإنسانُ على سائر المخلوقات، وجاء العطفُ بالواوِ لِمُطْلَقِ التَّشريك والإيماء إلى التّرتيب، فالجَعْلُ بعد الإنشاء، وكلاهما فعلٌ صادرٌ عن اللّهِ تعالى، فهو الَّذي أنشأ، وجعَلَ دونَ سواهُ.

إنشاءُ الإنسانِ أصْلُ جَعْلِ الحواسِّ والعَقْلِ

نكتَةُ استِعمالِ مفردَةِ (جعل) دون (خلق):

آثَرَ النَّظم الكريمُ استعمالَ فِعْلِ الجَعْلِ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ﴾ دون فعل الخَلْقِ؛ إذ إنَّ (الجعل) أخصُّ من (الخلق)؛ فالجَعْلُ تصييرُ حالِ الخلق والإنشاء على صورةٍ مكتَمِلَةٍ بعدَ أصلِ الخلق، فهو انتقالٌ مِنَ العموم إلى الخصوصِ، وأيضًا فإنَّه يُفيد تخصيصَ ما خُلِق بوظيفَةٍ معيَّنة، وترتيبَه على وجهٍ يليقُ بالغَرَضِ الَّذي أُريدَ مِنْهُ، فذِكْرُ السَّمع والبصر والفؤاد بعدَ الإنشاءِ إشارَةٌ إلى أنَّ اللّه سُبحانه ركَّب في الإنسان هذه الحواسَّ والقوى؛ لتكونَ له أدواتِ إدراكٍ وهدايَةٍ[1].

الامتنانُ بذِكْرِ خُصوصِ الجَعْلِ بعدَ عُمومِ الإنشاءِ

نوعُ اللّامِ ودلالَتُها:

اللّامُ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ﴾ لامُ الاختصاصِ، أي: إنَّ اللّهَ سُبْحانَهُ خَصَّ البَشَر بهذهِ النِّعَمِ الجليلةِ، وبهذا الكمالِ والانتظام دونَ غَيْرِهِم مِنَ المَخْلوقاتِ[2].

نكتَةُ تعريفِ ﴿ٱلسَّمۡعَ﴾ وإفرادِه:

جاء لفظُ السَّمعِ مَصْدَرًا، والمصادرُ لا تُجمع، فهو يشمَلُ القليلَ والكثير، فلا يُثنَّى، ولا يُجمع، فوَرَدَ بلَفْظِ الإفرادِ على الأصل، ولأنَّ العلمَ الحاصل بالسَّمع نوعٌ واحِدٌ، وهو الصَّوت المسموعُ المتضمِّن

الوحيُ المَسْموعُ واحِدٌ، فكان الأنسَبُ إفرادَ السَّمْعِ

(1) الخازن، لباب التَّأويل: 4/ 321، والدُّرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 10/ 60.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 20/ 259.

الوحيَ، بينَما تتعدَّد صورُ الإدراك الحاصلِ بالبَصَر والفؤادِ، فجاء التَّعبيرُ على هَذا النَّحو البليغ[1].

وأُفرِد السَّمع أيضًا؛ لأنَّ السَّمع يَعُمُّ جميع الجهاتِ بلا تَكَلُّف، فيُدرك الإنسانُ الأصواتَ من أمامِه وخلفِه وفوقِه وتحتِه وعن يمينِه وشماله من غير التفاتٍ أو تحوُّل، بخلاف البَصَر الَّذي يَقتَصِر على ما هو أمامَ العين، ولا يُدرِك ما وراءَها إلّا بالانتقالِ أو الالتفات، وأيضًا فإنَّ النّاس غالبًا يتَقارَبون في قوَّة السَّمع، بخلاف تفاوُتِهم المَلْحوظِ في قوَّة الإبصارِ[2].

نكتَةُ تَعْريفِ (الأبصار) وجَمْعِهِ:

الأدلَّـة الحسّيّة المُبْصَرَةُ يُناسِبُها جَمْعُ البصَرِ

عُرِّف لفظ (الأبصار)، وجُمِع؛ لأنَّ المقصود الأبصارُ الَّتي يُباشِر النّاسُ بها النَّظر في الكائنات، وهي المعهودةُ الَّتي يرون بها آياتِ اللّه تَعالى في الكونِ الفَسيح، والمُشاهَداتُ مُتنوِّعةٌ مُتعدِّدةٌ، وأنظار النّاس في تلك الآيات تتفاوت بَيْنَ تَدبُّر عميق وسَطحيٍّ، فاقتضى ذلك تَعَدُّد المُبصَراتِ بتعدُّد مراتب ما يستنبطونَهُ من أدلَّة قُدرة اللّهِ تَعالى وآياته في الآفاق، ولمّا كان المسموعُ - وهو الوحيُ - واحدًا؛ ناسَبه إفرادُ السَّمع، وكانت المُبْصَراتُ - وهي الأدلَّة الحسّيّة - متعدِّدةً؛ ناسَبهُ جَمْعُ البَصَرِ[3].

نُكْتَةُ جمْعِ (الأفئدة):

تَـعَـدُّدُ مُدركات الـنّـاس وتـنـوُّع تعلُّقاتها إخبارٌ بـقـصـدِ إقـامـةِ الحُجَّة

الفُؤاد هو القَلْبُ الَّذي يقَعُ بِهِ الإدراك والفَهْمُ، وجُمِعَ الفؤاد في قوله: ﴿وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ﴾؛ لأنَّها تتباين بِحَسَبِ ما تستوعِبُه من إنذار أو تبشير، ومن حُجَّةٍ أو بُرهانٍ، فاختلاف القلوب راجعٌ إلى اختلاف استعداد النّاس ومَدى تقبُّلهم للحقائقِ، وفي جَمْعِها أيضًا إشارةٌ إلى تَعَدُّد مُدركاتِها وتنوُّع تعلُّقاتِها[4].

---

(1) المظهريّ، التَّفسير المظهريّ: 10/ 27.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 265.

(3) الطَّنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 15/ 27.

(4) الباليسانيّ، حسن البيان في تفسير القرآن: 6/ 2613، والطَّنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 15/ 27.

نُكْتَةُ تقديمِ السَّمع على البَصَر:

قُدِّم ذِكْرُ السَّمع على البصر في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾؛ لأنَّ السَّمع أسبَقُ في وجودِه وتكوُّنه من البصر، والسَّمع أوَّلُ الحواسِّ إدراكًا للوحي، وأوَّلُ ما يَبتدئُ به الإنسانُ حياتَه كلَّها، وحياتَه اليوميّة عند الاستيقاظ، وآخِر ما يكونُ معَ الإنسان قُبَيْلَ نومِه، وقبلَ مُغادَرَتِه الحياةَ.

السَّمعُ أوَّلُ الحواسِّ وأهَمُّها في دَرْكِ الوَحْيِ وفَهْمِه

علَّة تقديم السَّمع والبصَرِ على الأفئدة:

قُدِّم ذِكْرُ السَّمع والبصر على الأفئدة في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ﴾؛ لأنَّهما بمنزلة المَنافذ الأولى الَّتي يَدْخُل منها العِلْمُ والمعرفةُ إلى القَلْبِ، فهما القَناتانِ اللَّتان تَصُبّان في الفُؤاد، فيتلقّى بهما ما يُسمَع، وما يُبصَر، ثُمَّ يعيه القلب مَحَلَّ الإدراك والفهم، فجيءَ بالأفئدة بعدَهُما؛ لأنَّه مَحَلُّ التَّفكُّر والتَّدبُّر والتَّعقُّل، وهذه لا تتحقَّق إلّا بعد وُرود المُدرَكاتِ عن طريقِ السَّمع والبصر، فجاء التَّرتيبُ دقيقًا: السَّمع أوَّلًا لسَبْقه وجودًا، ثُمَّ الأبصارُ لاتِّصالها بالمُشاهَدات، وأخيرًا الأفئدةُ؛ لأنَّها محلُّ وعي ما يَرِدُ عليها[1]، فهو تقديمُ الوسائلِ على الغاياتِ، والأدواتِ على المقاصدِ.

تقديمُ الوسائلِ على الغاياتِ، والأدواتِ على المَقاصِدِ

تَوْجيهُ تخصيصِ السَّمع والأبصارِ والأفئدةِ بالذِّكْر:

خَصَّ النَّظمُ الكريمُ السَّمع والأبصار والأفئدةَ بالذِّكر في هذه الآية؛ لِما فيها مِنَ الامتنان العظيم؛ إذْ هي أعظمُ ما يَمْلِكه الإنسانُ من أدواتِ المعرفَةِ والإدراك، فاللهُ ﷻ يذكّرهم بأنّه هو الَّذي مَنَحَهُم هذه القوى الشَّريفة؛ ليهتدوا بها إلى الحقِّ، ويسلكوا بها سبيلَ الرَّشاد، غير أنَّهم لم يَنْتَفِعوا بها، فأعْرَضوا عن السَّماع النّافع، ولم يَعْتَبِروا بما رأوا من أدلَّةِ القُدرة، ولم يتفكَّروا بعُقولِهم في عواقبِ أمْرِهِم ولا في براهين التَّوحيد، فجاءت الآيةُ في مقام

أعظَمُ أدواتِ المعرفَةِ عندَ الإنسانِ مضيَّعةٌ في اتِّباع الأهواء واقْتراف الشَّهواتِ

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 265.

التَّذكير والتَّنديد والتَّقرير؛ لتدلَّ على أنَّهم قد ضيّعوا هذه المواهبَ الجليلة، وحوَّلوها عن وجْهِها الصَّحيح، فكأنَّهم لَم يَشْكُروا اللّهَ تعالى أصلًا[1].

كما أنَّ غرضَ السّياقِ التَّذكيرُ والوعظُ بالآيات الكونيَّة والشَّرعيَّة، وهذا لا يتحقَّق إلّا بما يُسْمَعُ مِنَ الحُجج والبراهين، وما يُبصَر من أدلَّةِ القُدرة، وما يُعقَل بالقلب من معانٍ ومواعظَ، فتخصيصُ هذه الثَّلاثة بالذّكر يوجِّه الخطابَ إلى أقوى منافذِ الإدراك المؤدّيَة إلى اليقين؛ إذ السَّمع آلةُ تلقّي الوَحْي والتَّعليم، والبصرُ وسيلَةُ مُشاهدَةِ الآيات في الآفاق والأنفس، والفؤادُ موضِعُ التَّدبُّر والتَّفكُّر الَّذي تكونُ بِهِ الهداية، وبذلك يكون في تخصيصِها إيضاحٌ للحُجَّة، وقطعٌ لأيِّ عُذْرٍ قَد يَتَشَبَّثُ به المنكرون للمحجَّة، مع توبيخِهِم على عدَمِ شُكْرِهِم للنِّعَم الجليلة الَّتي مَنَحَهُم اللّهُ تَعالى إيّاها[2].

بلاغَةُ التَّعبير بلفظ ﴿قَلِيلًا﴾ بين الحقيقةِ والمجاز:

إنْ صَدَر الشُّكر عـن النّـاس؛ فقليلٌ لا يليق بـأدنى مـراتـبِ الشُّكْرِ

يحتمل لفظُ ﴿قَلِيلًا﴾ أنْ يُحمَلَ على حقيقته، أي: إنّ شُكْرَهُم للنِّعم حاصلٌ في بعض الأحيان، لكنَّه نادر ومتقطّع، فقليلٌ مِنَ النّاس مَنْ يَشْكُرُ، وقليلٌ مِنَ الشُّكر يصدر عنهم، فهو قليلٌ غيرُ نافِع، والغالب هو الإعراضُ والغفلة[3]، ويَحْتَمِلُ أن يكونَ ﴿قَلِيلًا﴾ مُستعارًا لمعنَى النَّفْي والعَدَمِ على وجهِ التَّلميح، فقد استُعير لفظ القِلَّة للتَّعبير عن النَّفي المُطلق؛ تنبيهًا على انعدام الشُّكر في واقعهم، على نحو قوله تعالى: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ٨٨﴾ [البقرة: 88]، أي: لا يُؤمنون أصلًا، فجيء بالقِلَّة تلميحًا إلى العدم، على عادة العرب في قولهم: قلّ ما تفعل كذا، يريدون به نفيَ الفعْلِ بالكليَّة، كأنّه قيل: إنْ شَكَرْتُم؛ فهو شكرٌ قليلٌ، فما بالكم أنّكم لَم تَشْكُروا أصلًا، فالمعنى في الحالَيْنِ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 595، ودروزة، التَّفسير الحديث: 5/ 381.

(2) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 315.

(3) ابن عطيَّة الأندلسيّ، المحرَّر الوجيز: 5/ 343، والسَّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 878.

يَشي بذمٍّ شديدٍ: إمّا لقلَّةِ شُكْرِهِم مقارنةً بجَسامَةِ النِّعم، وإمّا لانْعِدامِ الشُّكْرِ أصلًا[1].

بلاغَةُ الكِنايَةِ وغرَضُها البيانيُّ:

الشُّكر القليل ليس بشكرٍ على التّحقيق ولا امتنانٌ على التّدقيق

التَّعبير بلفظ ﴿قَلِيلًا﴾ في قوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾ كنايةٌ عن نفي الشُّكر وانعدامه؛ إذْ لم يُصرِّح النَّظم الكريمُ بعدَم شُكرهم، بل عرَضَ المعنى في صورةٍ بديعةٍ، جَعلت القِلَّة قائمةً مقام العَدَم، على سبيل التَّلميح المقرونِ بالتَّوبيخ، وفيه شيء من التَّهكُّم الضِّمنيِّ، فكأنَّ ما يصدر عنهم من الشُّكر لا يستحقُّ أن يُعدَّ شكرًا أصلًا، فهو قليلٌ إلى درجة العدم، وهذا من دقائق الكنايَةِ القُرآنيَّة[2].

دلالَةُ التّوكيد بِـ ﴿مَّا﴾:

التّأكيد على نُدْرَةِ شُكْرِهِم أو انعِدامِهِ

جاء استعمال ﴿مَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾؛ لتوكيد معنى القِلَّة، والتَّقدير: (شُكرًا قليلًا تشكرون)، أو (زمانًا قليلًا تشكرون)، وفي هذا الأسلوب مزيدُ تقريع وذمٍّ؛ إذ يُبرز أنَّ شُكرَهم - إن وُجد - لا يُجاوز القليل النّادر، بل يكاد يُعدَم بالكلِّيَّة[3].

بلاغَةُ التَّكرار وغرضُهُ:

تعظيمُ شأن المعنى وتشريفُ المضمون وتوكيدُ دلالَتِه

آثر النَّظمُ الكريم تكرار ﴿قُلۡ هُوَ ٱلَّذِيٓ﴾ دون الاكتفاءِ بالعطف، فلم يردِ البيانُ القرآنيُّ: (وذرأكم)؛ وذلك لتعظيم الشَّأن وتشريف المَقول، وتوكيدِ مضمونه، والتَّكرار هُنا دليلٌ على أنَّ الكلامَ حُجَّةٌ راسخة، وبرهانٌ قاطع، يُلقِّنه اللّهُ ﷻ لنبيِّه ﷺ؛ ليواجه به المُشركين في جَوْلاتِ المُحاجَّة لإقامة الحُجَّة، وإبطال الشُّبهة، ويُرسِّخ العقيدة الصَّحيحة[4].

---

(1) زاده، حاشية محيي الدّين شيخ زاده على تفسير البيضاويّ: 8/ 284، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 9، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 315.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 229، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 9، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 47، والدَّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 160.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 9، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 315، والصّاويّ، حاشية الصّاويّ على الجلالين: 4/ 236.

(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 264، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 48.

بلاغَةُ الإيجازِ في التَّعبير بفِعْلِ ﴿ذَرَأَكُمْ﴾:

جَمَعَ لَفْظُ (ذرأ) بـيـنَ الإيـجـادِ والامتِدادِ وإعادةِ الحَشْرِ بعلمٍ تامٍّ لواقعٍ سَيَتِمُّ

آثر النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بفِعْلِ ﴿ذَرَأَكُمْ﴾ دون (خَلَقَكُم)، وفِعْلُ (ذَرَأ) يدلُّ على الخَلْقِ والإيجاد، وعلى البثّ والتَّكثير والانتشار؛ وذلك للإيحاء بأنَّ اللّهَ تعالى خلَقَهُم، ثُمَّ بثّهم في الأرض، وكثّرهم، وجَعَلَهُم يَنْتَشِرون في أرجائِها للانتفاعِ بخَيْراتِها، فجَمَعَ النَّظم الكريم بين مَعْنى الإيجادِ ابتداءً والإمداد مآلًا، وهذا مِن بديعِ الإيجاز الَّذي يُؤَدّيه لفظٌ واحد، وفيه أيضًا دلالة على إمكانِ الحَشْر، فمَن بَثَّ النّاس في أقطارِ الأرض قادِرٌ على أنْ يجمَعَهُم بعد التَّفرُّق، ويعيدَهُم للحِساب والجزاء[1]، وقد جاء فعل ﴿ذَرَأَكُمْ﴾ ماضيًا؛ لبيان أنَّ الأمر قد تحقَّق، واستَتَمَّ، وأنَّ اللّه تعالى قد ذرأ البَشَر في عِلْمِه، وأخبرَ عَن ذلك قبل استِتمامِهِ واقعًا، فما تَمَّ في علمِه؛ فهو متحقِّق الوقوع.

مَعْنى (أل) في ﴿ٱلْأَرْضِ﴾:

الإيـمـاءُ إلى الأرْضِ المعهودَةِ لدى المخاطَبينَ

(أل) في ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ مِن قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ لامُ العَهْدِ العلميِّ، والمرادُ الأرض المعهودةُ الَّتي يعيشُ فيها العبادُ، وليس المرادُ باللّام لامَ الجنس المفيدةِ العمومَ.

سِرُّ التَّأكيدِ بقَصْرِ المُسند على المُسندِ إليه:

إفرادُ الله تعالى بالخَلْقِ يلزم مِنهُ إفرادُهُ بالطّاعة والعبادةِ

أفاد تعريفُ طرفَي الإسنادِ القصرَ في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ لإفادة إفرادِ اللّه تعالى وحده بفِعْلِ الخلق والبثِّ؛ ليُرتِّب عليه إفرادَهُ بالطّاعة والعبادة والاعتقاد، فنَزَّلَ الخطابُ المشركينَ منزلةَ مَن يزعُم مشاركة الأصنام للّهِ تَعالى في إيجاد البَشَر وبثّهم في الأرض، فجاء هذا الأسلوبُ قصرَ إفرادٍ يُفهم منه أنّ اللّه تَعالى وحدَهُ لا شريكَ لَهُ في هذا التَّدبير العجيب،

(1) الحصنيّ، المقتطف: 5/ 290، والهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 30/ 46، والميدانيّ، معارج التَّفكُّر: 14/ 536.

فليس لآلهتهم المزعومة نصيبٌ فيه، وهو مِن أقوى أساليبِ التَّوكيد، الَّتي تَقْطَعُ دابِرَ الشُّبهة، وتقرِّر حقيقةَ التَّوحيد[1].

بلاغَةُ استِعمالِ حَرْفِ الظَّرفيَّة:

تكثيرُ الخَلْقِ في الأرض للانتشارِ والانتفاع بخيراتِها

استُعمِل الحرف ﴿فِي﴾ في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ للظَّرفيَّة المجازيَّة؛ وذلك لبيانِ أنَّ الإنشاءَ والخلق للعَيْشِ والانتشار والانتفاع بخيراتها[2]، والانتشار يكون في الأرض لا عليها؛ ذلك أنّ الأرض فيها سهولٌ ووديان وأغوار ومغاراتٌ وكهوف، فيها منافع كثيرة للنّاس، والجوَلانُ في الأرض يُعبَّر عنه بحرف الظّرفيّة لا بحرف الاستعلاءِ، فأدّى هذا الحرفُ مقصودَهُ؛ لبيان غايةِ السّياق في الامتنانِ.

دلالةُ الواوِ في ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾:

عبادُ الله تعالى مِلكُ يديه دنيا وأخرى

الواوُ في ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ عاطفةٌ[3] الجملةَ بعدها على جملةِ الصِّلة ﴿ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، فهي داخلةٌ في حيِّز الصِّلةِ، ووُصِلَت الجملةُ بما قبلها؛ لِما بينَهما من التَّوسُّط بين الكمالَيْن؛ لاتِّحادهما في الخبريَّة، وبينهما تناسبٌ في اللَّفْظِ والمعنى، فأمّا اللَّفْظُ؛ فلاشتمالِ الجملَتين على ضميرِ الخطابِ، وأمّا في المعنى؛ فلِما فيهما من بيانِ تصرُّفِ اللّهِ تعالى في العبادِ في الدّارين: الدُّنيا والآخرةِ.

فائدَةُ تقديمِ القَيْدِ:

الحَشْرُ لا يكون إلّا للهِ تعالى، فإنكارُهُ اقتَضى الاهتمامَ به

قُدِّم الجارُّ والمجرور على عاملِه في قوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ للحصرِ، أي: قصر الحَشْرِ على اللّهِ تَعالى وحدَه، والمعنى: لا تُرجَعونَ إلّا إليه، وهذا فيه ردٌّ ضمنيٌّ على ما قد يَزْعُمه المُشْرِكونَ مِن شفاعَةٍ أو رجوعٍ لآلهتهم[4]، وذهب بعضُ أهل العلمِ إلى أنَّهُ: قُدِّم للاهتمام

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 47، 48.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 48.
(3) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 29/ 27.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 213.

ولرعايةِ الفاصلَةِ لا للحصر؛ لأنَّ المُشركين لم يكونوا يُثبتون الحشر أصلًا، فلا يُتصوَّر منهم ادِّعاءُ أن يكون إلى غير الله تَعالى[1]، وهو الأوْلى بالقبولِ، إلّا أن يُحمل القَصْرُ على المبالغة بافتِراض دَعْوى باطلةٍ، فيكون القَصْرُ لردِّها وإثبات الحشرِ للّه تعالى وحدَه.

دلالةُ التَّعبير بالفِعْلِ المضارعِ ﴿تُحۡشَرُونَ﴾ مبنيًّا للمفعول:

جاء التَّعبير بالفعل المضارع ﴿تُحۡشَرُونَ﴾؛ للدّلالة على تحقُّق الحَشْر واستِحْضارِ صورتِهِ ماثلةً أمامَ المُتَلَقّي، وفي بنائهِ للمَفْعولِ إظهارٌ لرَهْبَةِ الفِعْلِ وتعظيمِ شأنِه؛ إذِ المَقْصودُ تهويل الموقفِ لا بيان فاعِلِ الحَشْر، ولأنَّ الفاعل معلومٌ، وهو اللّه تعالى؛ إذ لا يَحْشُر العبادَ في الآخرةِ إلّا هو سُبْحانَهُ.

تهويلُ المَوْقِفِ وتعظيمُ شَأنِه

براعَةُ التَّقابل اللَّفظيِّ:

قابلَ قولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾، بين الذَّرء والحشر، والذّرء: هو الانتشار، أي: بثّ الخلق في الأرض وتكثيرُهم فيها، حتّى يتوزّعوا في أرجائها، والحَشْرُ: هو الجمع بعد النَّشر، أي: استدعاء هؤلاء المُبَعْثَرين في الأرض؛ ليُحشروا في موقفٍ واحد بعد أن كانوا مُنْتَشِرين، فالمَشْهَدُ الأوَّل - وهو الذَّرء - تصويرٌ للبثّ والانتشار والانطلاق في الأرضِ، والمشهدُ الثّاني - وهو الحَشْرُ - تصويرٌ للعَوْدَةِ والجَمْعِ بعد التَّفرّق، وهذه مقابلةٌ بديعَةٌ تَجْتَمِع فيها الصّورةُ الحسّيَّة، وهي الانتشار والجمع، مَعَ الدّلالة المعنويَّة، وهي الخَلْقُ والبعث، فيتجلّى التَّوازن بينَ البدءِ والنِّهاية، والنَّشر ثُمَّ الحشر، على أسلوب القرآنِ في إثارة الحِسِّ وتنبيه الفِكْرِ، وفيه بيانُ الغايَةِ بعدَ ذِكْرِ وسيلَتِها، فلا حَشْرَ إلّا بعد الذَّرء والنَّشر في الأرض، فذُكِرَت الوسيلةُ ابتداءً الموصلة إلى الغايةِ، وهي الحَشْرُ الَّذي يكون فيه الحسابُ والجزاءُ على ما كانَ مِنَ النّاس أثناء نَشْرِهم في الأرضِ.

المُقابلة بين النَّشر الدُّنيويِّ والنَّشر الأُخْرويِّ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 48.

الجَمْعُ بَيْنَ التَّذكير بالموت والإنذارِ بما يَعْقُبُه مِن بعثٍ وحَشْرٍ

بلاغَةُ الكِناية في جملةِ الفاصلة:

في قوله تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ كنايَةٌ عَن موصوفٍ، وهو الموتُ؛ إذ كَنَّى اللهُ تَعالى بمَرْتَبَتَيْنِ مِنَ المُلازمة؛ فالحشر يكونُ بعدَ البَعْثِ الَّذي يسبقُهُ الموت، وقد دمَجَ بَيْنَ تذكيرِهم بالموت الَّذي لا بُدَّ منه، وإنذارِهم بالبَعْثِ والحَشْر[1]، فجَمَعَتِ الآيةُ بَيْنَ التَّذكير بالموتِ الَّذي لا مفرَّ منه، والإنذارِ بما يَعْقُبُه مِن بَعْثٍ وحَشْرٍ، في نسَقٍ بليغ يرسّخُ المعنى في النُّفوسِ.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 48.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الملك: 25 - 26]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

الانتقالُ مِن تَقْريرِ البَعْثِ إلى ذِكْرِ مَوْقِفِ الكُفّارِ مِنْهُ

لَمّا ذكرتِ الآيةُ السّابقة أمرَ الحَشْرِ والبعث، وقدَّمَت ذِكْرَ (إليه) على ﴿تُحْشَرُونَ﴾؛ لبيانِ العنايةِ والاهتمامِ بأمْرِ الحشْرِ، وأنّه ممّا لا يَنْبَغي أن يُتهاوَنَ فيه، وأنّه أكيدُ الوقوعِ، مُتيَقّن المآل؛ ناسَبَ بيان موقِفِ الَّذين كانوا يُنْكِرونَ البَعْثَ والحَشْرَ إنكارًا ناشئًا عن كُفْرِهِم باللّهِ تَعالى، فأعقب ذلك بِذِكْرِ مقالتهم الَّتي تَدُلُّ على استهزائهم وجُحودهم: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾، وكأنَّ التَّقدير: لمّا أتمَّ سُبحانه وعْظَهُم بما تضمَّنه السّياق من حُجَجٍ قاطعةٍ وأدلَّةٍ ساطعة؛ قابلوا هذا الوعظَ بالإنكارِ والجحودِ(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْوَعْدُ﴾: (وعد) كلمة صحيحةٌ تدلُّ على ترجيةٍ بقَوْلٍ، يُقال: وعَدْتُه أعِدُه وعْدًا، ويُستعمَل في الخير والشرِّ، ويُعدَّى بنفسه وبالباءِ، فيقال: وعَدَهُ الخيرَ، وبالخيرِ، وغلب الوعدُ في الخير، والإيعادُ في الشرِّ، والوعيدُ لا يكون إلّا بشَرٍّ(2)، ووعده الأمر؛ قال له: إنَّه يُجريه له، أو يُنيلُه إيّاه، ووعده بالخير: منّاه به، وبالشَّرِّ: هدَّدَه به، والمَوْعِدُ: العهد(3)، والمراد بالوعد: يوم القيامة، أي: مَتى يقَعُ هذا الوَعْد(4)؟.

المَعْنى الإجْماليُّ:

الأصلُ توكيلُ العِلْمِ إلى الله تَعالى

يُبَيِّنُ اللّهُ تعالى موقفَ الكافرينَ الَّذين جَحَدوا البعثَ، واستبعدوا

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 20/ 263، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 49.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والفيوميّ، المصباح المنير: (وعد).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (وعد).
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 229، والمكيّ، المعين على تدبُّر الكتاب المبين: 1/ 563.

إمكانَهُ، فيقول: إنَّ المُشركينَ قالوا استهزاءً وتكذيبًا: متى يتحقَّقُ ما توعَدون به من الحَشْرِ؛ إن كنتُم صادقين؟ فأُمِرَ النَّبيُّ ﷺ أن يَرُدَّ عليهم بقوله: إنَّ عِلْمَ ذلك عند اللّٰه تَعالى وحدَه، لا يملكُه أحدٌ سواه، وأمّا أنا؛ فليس عَلَيَّ إلّا أنْ أُحذِّركم مِن عذابِ اللّٰهِ تَعالى، وأُنذركم عقوبتَه[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نَوْعُ الواوِ ودلالَتُها:

ما بَعْدَ تَكْذيبِ المُنْكرينَ إلّا الاستهزاءُ بقَطْعيّات الدّين

لَمّا لم يجد الكُفّارُ سبيلًا للاعتراضِ على البُرهان الواضح في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ﴾، إلى قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ اقْتَصَر عنادُهُم على إنكارِ ما تَضَمَّنَه قولهُ سبحانه: ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾، فقد جحَدوا البعثَ صراحةً[2]، واستنكروا أن يُخوِّفَهم القرآنُ الكريمُ به، فَعَطَفَ النَّظم الكريمُ[3] بذِكْرِ قولهِم المُقْتَضي إنكارَهم وجحودَهُم: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ على التَّكذيب المستفاد من مجموعِ ما تقدَّم، كأنَّه قيل: كانوا يكذِّبون جاحدينَ، ويَقولونَ مُستَهزئين، ويَحْتَمِلُ أن تكون الواوُ استئنافيَّةً[4]؛ لذِكْرِ موقفِهِم والتَّصريح بقولِهِم بعدَ ذِكْرِ مُناقَشَتِهم؛ لبيانِ عُتوِّهِم ونُفورِهِم.

نُكْتَةُ التَّعبير بالفِعْلِ المُضارِع:

الاستهزاءُ المُسْتَمِرُّ كاشفٌ عن الضَّعْفِ الخَفيِّ والخَوْفِ الرَّديِّ

آثر النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بصيغَةِ الفِعْلِ المضارع في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾؛ إيماءً إلى استحضارِ مَشْهَدِ إنكارهم، وكأنَّه حاضرٌ مُتجدِّدٌ، ودلالةً على أنَّ هذا القولَ لَم يكن واقعةً عابرةً في الماضي، بل هو عادةٌ لهم ودَيدَنٌ مُتكرِّر، فهُم يُجدِّدون هذا القولَ

---

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 220، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 182، والسَّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 878.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 48، والخطيب، التَّفسير القرآنيّ: 15/ 1068.

(3) درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 10/ 16.

(4) صافي، الجدول: 15/ 28.

تجديدًا مستمرًّا استهزاءً وتكذيبًا، فالمُضارع يصوِّرُ استمرارَهُم في الاستهزاءِ بالوعيدِ قائِلين: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾، فجاءت الصّيغةُ؛ لتُبرزَ تَكْرار العنادِ واستمرارَهُ مِنهُم لصَدِّ جَماهيرهِم عَنِ الإيمانِ والإسْلام[1].

نُكْتَةُ الإضمارِ وتعيينُ مَرجِع الضَّمير:

الإيجازُ مُقدَّمٌ على الإطنابِ إلّا لنُكتةٍ

يعود الضَّميرُ في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ على مشركي قُريْشٍ ومَن سار على نَهْجِهِم مِنْ منكري البَعث[2]، وقد عُبِّر عنهم بالضَّمير دون التَّصريح بوصْفِهم، فلم يقل: (ويقول المشركون)؛ للعِلْم بِمَن يَصْدُر عنه هذا القولُ، مع الإشارة إلى أنَّ ذِكْرَهم لا يستحقُّ العناية، وفي ذلك تحقيرٌ لشأنِهم وتوبيخٌ لهم، كما يُفْهَم منه أنَّ أقوالَهم لا قيمةَ لها حتَّى يُلتفت إلَيْها.

بلاغَةُ الاستفهامِ وغرَضُهُ:

مقصودُ المشركين بالتَّهكُّم والاستهزاءِ التّكذيبُ والإنكارُ

غرَضُ الاستفهام في قوله تعالى: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ﴾ التَّهكُّم والاستهزاءُ؛ إذْ لَم يَكُن قصدُهُم السُّؤالَ الحقيقيَّ عن وقت البعث، وإنَّما كان غرضُهم السُّخريةَ والتَّشكيك، وقد جرت عادَتُهم أن يُقابِلوا دعوة الرَّسول ﷺ بالتَّهكُّم، فقالوا ذلك على وجهِ الاستِخْفاف، وعبَّروا أيضًا بلفظِ الوعد استِنْجازًا له، باعتبارِ أنَّ شأن الوعدِ أن يوفَّى به، فجاء استفهامُهُم مزيجًا من التَّهكُّم والتَّهوين من أمْرِ البَعْث[3]، ومقصود التَّهكُّم التَّكذيبُ والنُّكرانُ، وما كُذِّب بلسانِ الاستهزاءِ ليسَ كما كُذِّب بلسانِ الجِدال، فالأوَّل باعِثُه ضَعْفُ العَقْلِ وقوَّةُ السّفاهة، والآخَرُ باعِثُه الحِقْدُ معَ طلاقَةِ اللِّسانِ.

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 20/ 263، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 48، والميدانيّ، معارج التَّفكُّر: 14/ 538.

(2) الهوّاريّ، تفسير كتاب الله العزيز: 4/ 354.

(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 220، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 49.

الاستبطاءُ مَعَ التَّكذيب وقاحةٌ في الطَّلَب واغترارٌ بالنّفسِ

بلاغَةُ الكِنايَةِ ودلالَتُها:

الاستفهامُ بالأداة ﴿مَتَىٰ﴾ كنايةٌ عَن الاستبطاء مع التَّكذيب، فلا يُراد به مجرَّدُ طلَبِ معرفة الزَّمن، وإنَّما يُفهَم منه أنَّهم غيرُ مُكْتَرِثين بالوَعيد، مُسْتَهينون به، ومِن ثَمَّ يُستفاد منه بطريقِ الإيماءِ: أنَّهم مكذِّبون بوقوعِه، وقرينةُ ذلك قولُهم: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، أي: إن كنتم صادقين في دَعْواكُم وقوعَ العذابِ؛ فعَيِّنوا لنا وقتَه[1].

نُكْتَةُ التَّعبير باسْمِ الإشارةِ للقَريبِ:

عُبِّر باسم الإشارة للقريبِ ﴿هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾؛ إشارةً إلى ما تداولَهُ النّاسُ فيما أخبَر القرآنُ الكريمُ بوُقوعه، وهو ما يدلُّ على أنَّه حاضرٌ في مجالِسِهم ونَواديهم ذِكْرُه.

سياقُ الآيةِ يَدُلُّ على وعدٍ معلوم ومعنًى معهودٍ

مَعْنى تعريفِ لَفْظِ ﴿ٱلْوَعْدُ﴾:

تعريفُ لفظ ﴿ٱلْوَعْدُ﴾ هي للعَهْدِ العلميِّ؛ إذِ المَقصودُ وعدٌ معلومٌ لَدَيْهم، فقد يُراد به وعْدُ الحَشْرِ المُستفاد من قوله تعالى قبلُ: ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾، فيكون العَهْدُ إشارةً إلى ذلك، ويَحْتَمِلُ أن يكون المُراد وعيدًا آخر سَمِعوهُ مِنَ الرَّسول ﷺ كوعيد نَصْرِ المُسْلِمين عليهم بالفَتْحِ على رسولِه ﷺ وظهورِ دينِه، وعلى كلا الاحتمالين فإنَّ (أل) تفيدُ تحديدَ الوَعْدِ في أذهانِهم، فتكون للعَهْدِ العلميِّ[2]، والأقربُ هو يومُ القيامة، فهو المرادُ عندَ الإطلاق، وأمّا نصرُ الدّين؛ فهذا كائنٌ بطريقِ الإيماءِ والتَّلميح.

إطلاقُ المَصْدَرِ وإرادةُ المَفْعول تَعْميقٌ للمَعْنى وتكثيفٌ للدّلالة

بلاغَةُ المَجازِ المُرْسَلِ:

جاء التَّعبير بلفظ ﴿ٱلْوَعْدُ﴾، وهو في أصلِه مصدَرٌ من وعَدَ يَعِدُ، وأُريد الموعودُ به، أي: ما أخبرَ به الرَّسولُ ﷺ مِنَ البعث والجزاء أو نَصْرِ المؤمنين[3]، فهو مصدرٌ أُريدَ به اسمُ المفعولِ، وهوَ من

(1) المظهريّ، التفسير المظهريّ: 10/ 27.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 48، والقاسميّ، محاسن التَّأويل: 9/ 294.

(3) الإسنويّ، نهاية السّول شرح منهاج الوصول: 132.

قبيل المجازِ بطريق الاشتقاق[1]، والمقام مُؤذِنٌ بأنَّ المُراد: مَتَى وقوعُ الموعود؟ على تقدير: متى يظهر؟ والنُّكتة البلاغيَّة في هذا العدول: هي المُبالغةُ في نفيهم للموعود أصلًا، وكأنَّهم يُبطلون حقيقتَهُ قبلَ أن يُبطلوا وقوعَه، وذلك على سبيل التَّهكم والاستهزاء.

دلالَةُ التّعبير باسْتِعْمالِ ﴿إِن﴾ الشَّرطيَّة دون (إذا):

ذِكْـرُ الاحتمال الظَّنّيِّ في سياقِ الإنـكـارِ تَـهَـكُّـمٌ واستهزاءٌ

عُلِّق الشَّرْطُ بـ ﴿إِن﴾ في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾؛ للدّلالة على نَفْيِ تصديقِهم، وجاء ذلك في أسلوبٍ يحمِلُ معنى التَّهكُّم والاستهزاء والاستبعاد؛ إذْ إنَّ (إنْ) تُستعمل في الأصل فيما لا يُقْطَعُ بوقوعِه، فكان قولُهُم: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ يُراد به الاستبعادُ لِما وُعِدوا به مِنَ العذاب، فألْهَبوا، وهيّجوا؛ إيضاحًا للتَّكذيب على زَعْمِهم بالشَّرط في قولهم: ﴿إِن كُنتُمۡ﴾، وهو شبيهٌ بِقَوْلِ المُنْكِر لأمرٍ أمامَه: إنْ كُنتَ صادقًا؛ فافعَل كذا[2]، والتَّعبير باستعمال ﴿إِن﴾ يُراد به التَّكذيبُ بطريقِ الاحتمالِ الضَّعيف، وهو ما يُؤكِّد تهكُّمَهُم واستهزاءَهم.

بلاغَةُ حَذْفِ جوابِ الشَّرط:

الإيجازُ داعٍ إلى تـأمُّـلِ الأقْـوال واكتشافِ المعاني الخفيَّةِ

حُذِف جوابُ الشَّرط في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾؛ لدلالة المقامِ عليه؛ إذِ التَّقدير: إن كنتُم صادقين فيما تُخْبِرون به مِن مجيءِ السّاعة والحَشْر، فبيِّنوا وقْتَها، فجاء الحذفُ على سبيلِ الإيجاز؛ ليوافقَ حالَهُم في الاستعجالِ، وليَكونَ أوقَعَ في الدّلالةِ على تَهَكُّمِهم واستبعادِهم للوُقوع[3].

نُكْتَةُ التَّعبير بفعلِ الكَوْنِ الماضي:

مـبـالـغَـةُ أهـلِ الكُفْرِ في التَّهكُّم بالحقِّ وأهلِهِ

التَّعبيرُ بالفعل الماضي ﴿كُنتُمۡ﴾، في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ

(1) الطَّنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 15/ 27.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 20/ 263.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 10، والدَّرويش، إعراب القرآن: 10/ 161.

﴿صَٰدِقِينَ﴾ يُفيد معنى الرُّسوخ والثُّبوت، أي: إن كان الصِّدق فيكم طَبْعًا ثابتًا وجِبِلَّةً راسخةً[1]، ومقصودُهُم بذلك التَّهكُّم.

دلالةُ التَّعبيرِ بضَميرِ الجَمْع:

بيانُ شأنِ الصّحابةِ في الدّعوةِ ومُشاركتِهم في حوارِ المُشْرِكين

جاء التّعبيرُ بضمير الجمع في قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ﴾، ولم يتَّجِه الخطابُ لِخُصوص النَّبيِّ ﷺ، بل وُجِّه لهُ ولِمَن معَهُ مِنَ المؤمنين؛ وذلك لبيان أنَّهم جميعًا كانوا يبلِّغون المشركين بالوعد الإلهيِّ، ومُشاركين في تهديد المُشركين من البَعْثِ والحساب والجزاء بوقوع العذابِ الأليم والعقاب الشَّديد مِن خلال ما يَتْلونَ عليهم من آيات اللّه تَعالى[2]، ولم يكُنِ الأمرُ مقتصرًا على رسول اللّه ﷺ، وهو ما يُعطي قيمةً عظيمةً للصّحابة رضوانُ اللّه عليهم في حَمْلِهم للدّعوة، والمشاركةِ في تبليغ النّاس، ولم يُقْصَر الأمرُ على شخص واحد، بل هو عمَلُ مجموعةٍ كاملةٍ، فقد حَمَلَ الصَّحابةُ رضوانُ اللّه عليهم هَمَّ النَّبيِّ ﷺ في تبليغ الدَّعْوة، حتَّى نالَهم ما نالَه ﷺ من الإيذاء والتَّكذيب.

علّة فَصْلِ جملة ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ﴾ عمّا قبلها:

شأنُ المحاوراتِ الفَصْلُ بينَها للتّنبيهِ عَلى مَضامينِها

أمَرَ اللّهُ تعالى نبيَّه ﷺ بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ تلْقينًا للحُجَّة الَّتي يواجِه بها المشركين؛ لإبطال شُبهاتِهم وإظهار فسادِ مُعْتَقَدِهم، ولترسيخ العقيدة الصَّحيحة في النُّفوس، وقد جاء فِعْلُ الأمر ﴿قُلْ﴾ مفصولًا بلا عَطْفٍ؛ لأنَّه واردٌ في سياق المُحاورة والمُجاوبة؛ إذ يَقْتَضي المقامُ مباشرةَ الجوابِ على كلامِهم[3].

بديعُ الأسلوبِ الحكيم:

الجوابُ الحكيمُ في توجيهِ السّائلِ إلى مُقْتَضى السُّؤالِ الوجيهِ

لَمّا سأل المشركون استهزاءً عن وقت الوَعْد: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾؛ جاء الجوابُ على غَيْر مُقْتَضى سؤالهم، بل على وفْقِ ما ينبغي لهم أن يَسْألوا عنه، وهو بيانُ أنَّ العلمَ بمَوْعِده مختصٌّ باللّهِ تَعالى وحدَه، وأنَّ

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 20/ 263.

(2) القنّوجيّ، فتح البيان: 14/ 246، والهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 30/ 47.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 49.

وظيفةَ الرَّسول ﷺ ليسَتِ الإخبارَ عن الغَيْب، وإنَّما البلاغُ والإنذار، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، وهذا مِن بديعِ الأسلوبِ الحَكيم؛ إذْ عُدِل بالجوابِ إلى ما هو أولى وأنفعُ، لا إلى ما قَصدوهُ مِن تَعَنُّتهم، فجاء الأمر الإلهيُّ: ﴿قُلْ﴾؛ ليُرْشِدَ الرَّسول ﷺ إلى الجواب الفَصلِ الَّذي يَقْطَعُ مادَّة الجدالِ[1].

نُكْتَةُ القَصْرِ بالأداة ﴿إِنَّمَا﴾:

عِلْمُ وقتِ القيامةِ مقصورٌ على اللهِ تَعالى وحدَهُ، ومنفيٌّ عمّن سواهُ

جاءَ أسلوبُ الحَصْرِ بالأداة ﴿إِنَّمَا﴾، في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ لإفادَةِ قصرِ علم وقت القيامة على اللّهِ تَعالى وحده، ونفيه عن غيرِه نَفْيًا قاطعًا، وشأنُ القَصْرِ بالأداة ﴿إِنَّمَا﴾ هو أن يكون مضمونُ القَصْرِ معلومًا لدى المخاطَب، وهو قصرٌ حقيقيٌّ فيه ردٌّ على المُشركين حين طالبوا النَّبيَّ ﷺ بتعيينِ وقتِ الوعد، وتأكيدُ أنَّ هذا مِن خصائص عِلْمِ اللّه تَعالى الَّذي استأثر بهِ في غَيْبِه، فلا يطّلع عليه أحدٌ مِن خَلْقِه، وهذا الحَصْرُ يقطعُ أطماعَ السّائلين، ويُبيِّن أنَّ سؤالَهُم في غيرِ محلّه؛ إذْ لا يَمْلِكُ النَّبيُّ ﷺ ولا غيرُه أن يُجيب عن شيءٍ لا يعلَمُهُ إلّا اللّهُ تَعالى[2].

مَعْنى تعريفِ لَفْظِ ﴿ٱلْعِلْمُ﴾:

جاء لفظُ ﴿ٱلْعِلْمُ﴾ معرَّفًا بـ (أل)، وهي عِوَضٌ عن المضافِ إليه المحذوف، أي: عِلْمُ وقتِ قيامِ السّاعة للّه تَعالى وحده، وهو مِن أنواع الإيجازِ بالحَذْفِ لدلالةِ السّياق عليه.

فائدَةُ التَّعبير بالاسم الأحسنِ ﴿ٱللَّهِ﴾:

كمالُ الإحاطةِ والعَظَمَةِ والهيمنَةِ والجلالِ

جاء التَّعبير بالاسم الأحسَن ﴿ٱللَّهِ﴾ هنا؛ لأنَّ المقامَ يقتضي الدّلالةَ على كمالِ الإحاطة والعظَمَةِ والهَيْمَنَةِ والجلال، فهو سُبْحانَهُ المتفرِّدُ بجميع صفات الكمالِ، فلا يُتصوَّرُ أن يكون العلمُ بوَقْتِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 49.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 49، وشحاته، تفسير القرآن الكريم: 29/ 6003.

السّاعة إلّا عنده وحده، وهيبتُه تمنَعُ المخلوقين أن يتطلّعوا إلى ما لم يُؤذن لَهُم به، وأيضًا فإنَّ عظمتَهُ تَقْتَضي الاستئثارَ بالأمور الجليلةِ العِظام، ومِن أعظَمِها علمُ الغيبِ وموعدُ السّاعة[1].

بلاغَةُ القَصْرِ بعد القَصْرِ:

قَصْرُ العِلْمِ على الله تَعالى وحدَهُ والقطعُ بجَهْلِ مَن دونَهُ به

جاءَ القَصْرُ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ قصرًا إضافيًّا، أي: ليس شأني إلّا الإنذارَ بما أوحى اللّهُ تَعالى إليَّ مِن وُقوع الوعد، ولا أتجاوَزُ ذلك إلى ادِّعاء العِلْم بوَقْتِه، فبَعْدَ أن حُصِر العلمُ بمَوْعِدِ السّاعة في اللّه تعالى وحدَهُ؛ حُصِرَ عَمَلُ الرَّسول في البلاغ والإنذار؛ ليُرْفَعَ اللَّبس، ويُقطَعَ الطَّمعُ في أن يكونَ عندَهُ مِنَ الغَيْب شيءٌ لَم يُطلِعه به اللّهُ تعالى[2]، وليُقابَلَ حصرُ العلم بوقت السّاعة في اللّهِ تعالى بحصرِ وظيفة الرَّسول ﷺ بالنّذارة، فيكمُل الجَهْلُ بموعدِ قيامها على وجهِ القَصْرِ ومقابلة القَصْرِ للقَصر، كأنّه قيل: علمُها عندَ اللّه تَعالى وحدَهُ، ولا علمَ لي إلّا بما كُلِّفت به مِن النّذارة.

دلالَةُ صَوْغِ ﴿نَذِيرٌ﴾ على (فعيل):

الـدّلالَـةُ على بُـلـوغِ الـغـايَـةِ في أداءِ وظيفةِ النَّذارة

قوله: ﴿نَذِيرٌ﴾، أي: قد بَلَغْتُ الغايةَ في أداءِ وظيفَةِ النَّذارة، فهي مُهمَّتي الكاملةُ الَّتي تَقْتَضي في المُقابِلِ البشارةَ لمَن استجاب لما أنذرْتُ به، ولستُ إلّا مُبلِّغًا أمينًا لما يوحى إليَّ من عند اللّه تَعالى على وجهِ الصَّحيح، ولا سبيلَ لي إلى معرفةِ زمَنِ وُقوع الوعد إلّا عن طريقِ الوحي، ولم يوحَ إليَّ بتحديد وقتِه، فكيف يُطْلَبُ منّي تحديدُ وقته؟ فالأجدر بكم ألّا تستعجلوا وقوعَه؛ لأنَّه أمرٌ مردُّهُ إلى اللّهِ وحْدَهُ[3].

بلاغَةُ الإيماءِ بالوَصْفِ:

التَّلويحُ بغَباوَةِ المُـعـانِـديـن وحَـمـاقَـةِ مَنْزَعِهم

وُصِفَ ﷺ بـ ﴿مُّبِينٌ﴾؛ لأنّه يُجلّي النَّذارةَ غايةَ الجَلاء، فيُقيمُ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 20/ 264.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 49.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 20/ 264، والجيلانيّ، تفسير الجيلانيّ: 6/ 140.

الحُجَجَ السّاطعةَ والأدلَّةَ القاطعةَ حَتَّى تُدرَك كأنَّها عيانٌ لأولي الأفهام، وفي ذلك تنويهٌ بفضلِ المُنذِرِ إذا كان مُبينًا في إنذارِه؛ إذ الإبانةُ عُنوانُ البلاغة، ووضوحُ الحُجَّة مَعْلَمُ الفصاحة، فصار في الوصفِ مدحٌ له بتمام البيان، وإشارةٌ إلى أنّ مقام النِّذارة لا يُؤدَّى إلّا بلسانٍ مبين[1]، مع ما فيه من الإيماء والتَّلويح بغَباوتهم، فإنَّ النّذارة الَّتي أنْذَرَهُم بها رسولُ اللّه ﷺ واضحةٌ بيّنة، لا تخفى على أحدٍ، فَهُم إمّا أن يختاروا طريقَ الغَباوة والحماقة، وإمّا أن يسلُكوا طريقَ الإنكارِ والجحودِ.

دلالَةُ صوغ ﴿مُّبِينٌ﴾ على زِنَةِ اسْمِ الفاعل:

تبليغه ﷺ مَقرونٌ بالوُضوح التّام والبيانِ الكامل

جاء لفظ ﴿مُّبِينٌ﴾ على وزن اسْم الفاعل مِن الفعل (أبانَ) المُتعدّي، وصوغهُ يُفيد كونَه ﷺ مُظهِرًا لما أُمِر بتبليغه إظهارًا جليًّا يكشف المعانيَ كَشْفًا لا يبقى معه إبهامٌ، ولا يشوبُه أدْنى غموضٍ، فاللَّفظ يدلُّ على ثبوت صفةِ البيان فيه، وأنَّ تبليغَه مَقرونٌ بالوضوح التّام والبيان الكامل[2].

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 20/ 265.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 49، والطنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 15/ 28.

﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ زُلۡفَةٗ سِيٓـَٔتۡ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ٢٧﴾ [الملك: 27]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

لمّا ذكرتِ الآياتُ السّابقةُ إنكارَ المشركين للبعثِ؛ ناسب بيان موقِفِهم عندَ وُقوعِه، وكيف حالُهم إن هُم عايَنوهُ، ورأوهُ حاضرًا.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿زُلۡفَةٗ﴾: (زلف) تدُلُّ اشتقاقاتُه على اندِفاعٍ وتَقَدُّمٍ في قُرْبٍ إلى شَيْءٍ، يُقالُ من ذَلِكَ: ازْدَلَفَ الرَّجُلُ: تَقَدَّمَ، وسُمّيَتْ مُزْدَلِفَةَ بِمَكَّةَ؛ لاقترابِ النّاسِ إلى منًى بعد الإفاضَةِ من عَرَفاتٍ، ويُقالُ: لِفُلانٍ عِنْدَ فُلانٍ زُلْفى، أي: قُرْبى، قال اللّٰه جَلَّ وعَزَّ: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ﴾ [ص: 25]، والزَّلَفُ والزُّلْفَةُ: الدَّرَجَةُ والمَنْزِلَةُ، وأَزْلَفْتُ الرَّجُلَ إلى كَذا: أَدْنَيْتُهُ[1]، والمعنى هُنا في الآيةِ: قريبًا[2].

2) ﴿سِيٓـَٔتۡ﴾: مِن: ساء يَسوءُ سوءًا، نعتٌ لكلِّ شيءٍ رديءٍ، وساء الشَّيءُ: قَبُحَ، فهو سَيِّئٌ، والسّوء: اسمٌ جامعٌ للآفاتِ والدّاءِ[3]، وأصلُ السّوءِ: القُبحُ[4]، وهو كلُّ ما يَغُمُّ الإنسانَ من الأمورِ الدُّنيويَّةِ، والأخرويَّةِ، ومن الأحوالِ النَّفسيَّةِ والبدنيَّةِ والخارجةِ، من فواتِ مالٍ وجاهٍ وفقْدِ حميمٍ[5]، والمعنى هُنا في الآيةِ: ظهَر فيها السّوءُ لِما حلَّ بها، وقبُحَتْ بالسَّوادِ وأثرِ الكآبةِ[6].

3) ﴿تَدَّعُونَ﴾: من الدُّعاءِ، ثمّ أُعِلَّ ثُمَّ أُدغِم، أو تَدَّعونَ أن لا بعثَ، فهو من الدَّعوَى، وأصلُ (دعو): أنْ تُميلَ الشَّيءَ إليكَ بصَوتٍ وكَلامٍ يَكونُ مِنكَ[7]، والمعنى هُنا في الآيةِ: تَطلُبونَ، وتَستعجِلونَ[8].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زلف).
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 220.
(3) الخليل، العين: (سوأ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سوأ).
(5) الرّاغب، المفردات: (سوأ).
(6) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 5/ 343، وابن جزيّ، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 2/ 397.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دعو).
(8) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 5/ 232، وابن جزيّ، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 2/ 397.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تذكُرُ الآية الكريمةُ موقِفَ المشركين وحالَهم عندَما يرَونَ العذابَ، فتقول: فلمّا عاين أولئك الكافرونَ ما وُعِدوا به قريبًا منهم؛ ساءَهُم، وأفزَعَهم، وأخذَهُم الهلَعُ والفزع، واسودَّت وجوهُهم من شدَّة الكَرْبِ، وقَبُحَت، وقيل لهم على جهةِ التَّوبيخ والتَّقريع يوم القيامة: هذا هو العذابُ الَّذي كنتُم تَلِحّون في طلبِه، وتستعجلونَ به استهزاءً وسُخريةً في الدُّنيا[1].

بيانُ مشهَدِ الكُفّار عند معاينَةِ العذابِ الَّذي أنكروهُ، واستَعْجلوهُ

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مَعْنى الفاء ودلالتُها:

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ زُلۡفَةٗ﴾ فصيحةٌ، كاشفَةٌ عن جُملةٍ محذوفةٍ دلَّ عليها السّياقُ؛ إذِ التَّقديرُ: فحلَّ بهم ما وُعِدوا به، فلمّا رأوه زلفةً، أو على تقدير جُملتَين: وقد أتاهم الموعودُ، فعاينوه، فلمّا رأوه زلفةً، فالفاءُ تُؤذن بترتُّب ما بعدها على ما قُدِّر قبلها، فجاءتِ الجملةُ إيذانًا بسرعة دُنوِّ الوعد ووقوعِه، وكأنَّه لم يُمهَل بَيْنَ البشارة بقدوم العذاب وبَيْنَ مشهد رؤيتهم له إلّا فاءٌ عاطفةٌ تُسابِق الزَّمن[2].

طَيُّ الأحداث الكثيرةِ وإظهارُ الألصَقِ بمُراد السّياق

دلالةُ استِعمال (لمّا):

دلَّ مجيء (لمّا) الظَّرفيَّة الشَّرطية على التَّوقيت المقترن بالشَّرط، أي: في الوقتِ الَّذي عاينوا فيهِ ما وُعِدوا به اسوَدَّت وجوهُهم[3]، فاقْتَرَن وقتُ الرُّؤية بالمَساءَة حتّى التَصَقَ.

بلاغَةُ استِعمالِ مفردَةِ ﴿رَأَوۡهُ﴾:

آثر النّظمُ الكريم استعمالَ الفعل ﴿رَأَوۡهُ﴾، والمقصود بالرُّؤية هُنا:

مَن لَم يَنفَعهُ عَقلُهُ في الدُّنيا؛ ساءَهُ نظرُهُ في الآخرة

---

(1) الواحديّ، الوسيط: 4/ 330، 331، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 220، وابن كثير، تفسير القرآن العزيز: 8/ 182، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 20/ 265، والسَّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 878.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 10، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 49، والدَّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 161.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 49.

الرُّؤيةُ البصريَّةُ الحِسّيَّة، لا مُجرَّد العلم، أي: إنَّهم عاينوا العذابَ الموعود عيانًا بالأبصار حين أظلَّهم في اليوم المشهود؛ وذلك لبيان أنَّ القومَ لا يُصدِّقون إلّا بالمشاهدة الحسّيّة، ففيه إيماءٌ إلى ضَعْفِهم في استعمالِ عُقولِهم، وهو تهكُّمٌ بهم وتوبيخٌ، وفيه أيضًا وعيد شديد بأنَّهم سَيَرَوْنَهُ عيانًا، ويترتَّب على تلك الرُّؤْيَةِ ما ذُكر في الآيةِ.

نكتةُ التَّعبير بصيغةِ المُضيِّ:

التَّصويرُ بالماضي أرسَخُ في التَّهديد وأبلَغُ في التَّخويف

جاء التّعبير بالفعل ﴿رَأَوۡهُ﴾ ماضيًا، مع أنَّ السّياق دالٌّ على حدثٍ مستقبليٍّ، ونكتةُ ذلك إبرازُ صورةِ الوعيدِ في هيئةِ أَمْرٍ قد وقَعَ، وانقَضى، لا مجرَّدُ وعدٍ مُنتَظَرٍ، فالتَّعبير بالماضي هُنا يُفيد التَّحقيقَ والتَّوكيد؛ إذْ هو صادرٌ عن اللّهِ تَعالى الَّذي لا يُخلِف الميعاد، وليُصاغ المشهَدُ، كأنَّه واقعٌ حاضرٌ مُتحقِّقُ الوقوع، لا مجالَ للرَّيب فيه، فالتَّصوير بالماضي أرسخُ في التَّهديد، وأشدُّ إيقاعًا في النُّفوس؛ إذ يَنْقُلُ المستقبلَ المرهوب إلى مقام المُشاهدَةِ والمُعاينَة[1]، وأيضًا فإنَّهُ قد عُبِّرَ بالماضي؛ لأنَّ ذلك الأمر قد تقرَّر، وانتهى حكمُه في علمِ اللّه تعالى، وجَرى به قَضاؤُهُ[2].

تعيينُ مرجِع الضَّمير:

معاينةُ العذاب الموعود في اليوم المشهودِ

الضَّمير في الفعل ﴿رَأَوۡهُ﴾ عائدٌ على العذاب الموعود الَّذي طالما كذَّب به المشركون، واستهزؤوا بقدومه، فصار مَشهدًا حاضرًا أمامَهم، وبهذا التَّوجيه يتجلَّى الوعيدُ الغَيْبيُّ في حقيقةِ مُشاهَدَةٍ، تزيدُ مِن حَسْرَتِهم، ويَعْظُم بها وقْعُ المُفاجأة عليهم؛ إذ رأوا بأعيُنِهم ما كانوا به يكذِّبون[3].

بلاغَةُ المَجاز في إطلاقِ المَصْدَرِ وإرادةِ غَيْرِه:

جاءت كلمة ﴿زُلۡفَةٗ﴾ في الآية حالًا من مفعول ﴿رَأَوۡهُ﴾، وهي

(1) أبو السُّعود، السعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 10، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 49، 50.

(2) الباليسانيّ، حسن البيان: 6/ 2614.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 229، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 10/ 96.

المُبالغة في تصوير دُنوِّ العذابِ وشِدَّته عليهم

مصدَرٌ على تقديرِ مُضاف، أي: رأوه ذا زُلْفَةٍ[1]، أي: ذا قربٍ شديدٍ منهم، فالمصدر أُقيم مُقامَ الوَصْفِ للمُبالغة في تصويرِ دنوِّ العذاب، ويَحْتَمِل أن يكون بمعنى: الفاعل، أي: مُزْدَلِفًا، فجاء المصدر بدلًا عن اسمِ الفاعل[2]؛ لِما في ذلك مِن تقويةِ المعنى وإشعارهم بأنَّ العذابَ نفسَه هو الَّذي تقرَّب، واقتربَ مِنْهُم، كأنَّه كائنٌ يَزْحَفُ باتِّجاههم، وقد يكون على معنى الظَّرفية، أي: رأوه في مكانٍ ذي زُلفة، أي: في موضعٍ قد دنا منهُم، واقترب، وهذا تصويرٌ بيانيٌّ يُحيل الخوفَ إلى مكانٍ محيطٍ يطوِّقُهُم مِن كلِّ جانب، وعلى جهةِ المُبالغة، أي: رأوه شديدَ القُرْبِ، فإطلاقُ المَصْدَر وإرادةُ الوصفِ أبلَغُ في الدّلالة[3]، وجميع الاحتمالاتِ محمولَةٌ على المجازِ المُرْسَلِ أو المجاز بالحذفِ.

بلاغَةُ الكناية بالتّأنيث:

أكَّد النَّظم الكريم المبالغةَ بالتّاء في ﴿زُلۡفَةٗ﴾؛ لأنَّها تَرِدُ للمُبالغة؛ إذا لَم يُرَدْ منها التَّأنيث[4]، وذلك بتشبيههِ بالدّاهية، وفيه كنايةٌ عَن الأهوال الَّتي تكون في ذلك اليوم العظيم[5].

بلاغَةُ استِعْمالِ أسلوب الشَّرط:

جوابُ الشّرط يدلُّ على عزّة المتكلِّمِ وقوّة الكلامِ

(لمّا) في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ زُلۡفَةٗ﴾ ظرفيَّةٌ شرطيَّة غيرُ جازمة، وجملةُ: ﴿سِيٓـَٔتۡ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ هي جوابُ الشَّرط، لا محلَّ لها من الإعراب[6]، واستخدام الشَّرط فيه تشويقٌ لمعرفة النَّتيجة، كما جاء أسلوبُ الشَّرط؛ لتَصْوير التَّلازم الوثيق بَيْنَ الرُّؤية ونتيجتها، فعند سماعِ قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ زُلۡفَةٗ﴾ يُسابق

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 582، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 229.
(2) القُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 220، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 10.
(3) الحلبيّ، الدُّرّ المصون: 10/ 394، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 23، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 50.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 20/ 265.
(5) الماتريديّ، تأويلات أهل السُّنَّة: 10/ 129.
(6) الدَّعاس، إعراب القرآن الكريم: 3/ 365، والعلوان، إعراب القرآن الكريم: 4/ 2504.

الذِّهنُ الكلامَ لمَعرِفَة جواب الشَّرط، وما الَّذي سيكونُ، وهو يدلُّ على قوَّةِ الكلام، وعزَّةِ المتكلِّم، وغَضَبه على المُنْكِرين، والعربيُّ بطبعه الفصيحِ وذوقه الأصيل يَستَشِفُّ هذه المعانيَ، ويُدرك هذه المَراميَ.

بلاغَةُ استِعمالِ مُفْرَدَةِ ﴿سِيٓـَٔتۡ﴾:

الإيــمــاءُ إلى مُعاكسَةِ ما كانَ عليهِ المُشْرِكون في الدُّنيا

في اختيار الفعلِ ﴿سِيٓـَٔتۡ﴾ تصويرٌ لأثر العذاب على وجوهِ الكافرين؛ إذ دلَّ على تغيُّرها تغيُّرًا قبيحًا، فاسودَّت، وعَلَتْها الكآبةُ والقَتَرةُ، وغَشيَتْها الذِّلّةُ والإظلام، وأيضًا فإنَّ الفعل هنا ليس من بابِ (بِئْسَ) الَّذي يُستعمل للذَّمِّ، وإنّما من ساءَ يسوءُ، أي: قَبُح، وقَتُم[1]، فجاء في هذا السّياق؛ ليعبِّر عن التّغيُّر الحسّيّ والمعنويِّ معًا: تحوُّل الصّورة الظّاهرة، وتحطُّم الباطنِ بالغمّ والحُزن؛ ليُعاكس ما كانوا عليه في الدّنيا، من ابيضاضِ الوُجوه بالرّاحة والاسترخاءِ في الغَفْلَة عَن دار الجزاءِ.

دلالَةُ بناءِ الفِعلِ للمَفعول:

العِنايَةُ بإبراز حالِ الوُجوه والتَّنبيهُ على مآلها

بُني الفعل ﴿سِيٓـَٔتۡ﴾ للمفعول، أي: ساء وجوهَهُم رؤيَةُ ذلك الوعد[2]، أي: أَحْزَنَها، وأَكْسَبَها قُبْحًا، فبُني الفعلُ للمَفعولِ لمَزيدِ العِناية بإبراز حالِ الوُجوه نفسِها، فيُبرِز ما اعتراها من كآبةٍ وذُلٍّ وقَتَرة، دون التّفكير في الفاعل، فهو معلومٌ، وتوزيع المعاني على الفاعل والمفعولِ يُضعِفُ التّركيز على أحَدِهما، وهذه فلسفَةُ بناءِ الأفعالِ للمفعول، وهو التّنبيهُ على المرادِ مِنَ المَفعولِ.

بلاغَةُ الكِنايَةِ ودلالَتُها:

شِدَّةُ الحُزْنِ والفَزَعِ تُسيءُ الوجوهَ، وتَكْشِفُ بواطِنَها

قوله تعالى: ﴿سِيٓـَٔتۡ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ كنايةٌ عن الحُزْن والفزع والخوف والهلَع الَّذي سَيَعْلو وجوهَ المشركين يوم القيامة، وإنّما جُعِلت المَساءةُ باديةً على وُجوهِهم؛ لأنَّ الوجوهَ مرآةُ البواطِن،

(1) القنّوجيّ، فتح البيان: 14/ 247.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 50.

فإذا اسودَّت، وعَلَتْها الكآبة والقَترةُ؛ كان ذلك دليلًا على ما استقرَّ في قلوبهم مِنَ الخوف والغمِّ والخذلان، فهي كنايةٌ عن شدَّة ما نالَهُم من العذاب، وعن انكشافِ حقيقةِ كُفْرِهِم، على نحو ما جاء في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ﴾ [آل عمران: 106][1]، فجمع التَّعبيرُ بين الإيجازِ والإيحاء؛ إذْ أظهرَ الأثرَ، ودلَّ بهِ عَلى المُؤثِّر.

بلاغَةُ التّضمين:

ضُـمِّـنَ الفعل (سِـيـئـت) مَعْنى التَّقبُّض والعُبوسِ

أُسْنِد الفعلُ ﴿سِيٓـَٔتۡ﴾ إلى الوجوهِ في قوله تعالى: ﴿سِيٓـَٔتۡ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ لتَضْمينِ الفعلِ معنى (كلحَت) الدّالِّ على التَّقبُّض والعُبوس، ففي الإسناد تصويرٌ حسّيٌّ للشُّعورِ النَّفسيِّ؛ إذ انتقَلَ الأثرُ من الباطنِ إلى الظّاهرِ، فانعَكَسَ عليهِ، فكانت الصّورةُ أشدَّ وقعًا وأقوى تبكيتًا[2].

توجيهُ تخصيصِ الوُجوه بالذِّكْر:

الـوجـوهُ أشـرَفُ أعضاءِ الإنسانِ، فـإذا سـاءَتْ؛ ساءَ غيرُها

خصَّ النَّظمُ الكريم الوجوهَ بالذِّكر؛ لأنَّها أشرفُ ما في الإنسان، ومَجمَعُ ملامحِه وعُنوان حالهِ الَّذي يَظْهَرُ عليه أثَرُ المسرَّة والمساءَة، فهيَ أبرَزُ مَوْضِعٍ يَبدو عليهِ أثرُ الكآبة والغمِّ وشدَّة الحزن، فكان ذِكرُها أبلغَ في تصويرِ الفَضيحة وكَشْفِ ما اعتمَلَ في النُّفوس من انكسارٍ وهوان[3].

نُكْتَةُ إظهارِ ما حقُّه الإضمار:

بـيـانُ عِـلَّـةِ اسـتـحـقـاقِ المَـسـاءَةِ إنـذارٌ لـهـم وتـخـويـفٌ لِمَنْ بَعْدَهُم

أظهر النّظمُ الكريم الاسمَ الموصول ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بدلَ الإضمار، فلم يأتِ البيان القرآنيُّ: (سيئَت وجوهُهُم)، فأفْصَحَ عَن ذِكْرِ الموصول؛ ليَقْرِنَ ذِكرَهم بعلّة استحقاقهم لتلك المَساءة - وهي الكفرُ - وذمِّهم بها، فيكون في ذلك توبيخٌ لهم، وفضحٌ لحقيقتِهم، وتشديدٌ في توعُّدِهم بالعذاب، وتخويفُ مَن بَعْدَهُم[4].

(1) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 316.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 50.

(3) القونويّ، حاشية القونويّ على تفسير البيضاوي: 19/ 214، والهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 30/ 71.

(4) الحصنيّ، المقتطف: 5/ 291، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 10.

مُناسبَةُ العَطْفِ بينَ الجُمَلِ:

الجمعُ بَيْنَ ما يَرَوْنَهُ ممّا يُسيءُ الوجوهَ ويُفجِعُ الآذانَ

عُطِف قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ﴾ على الفعل ﴿سِيٓـَٔتۡ﴾؛ ليَجْمَعَ بينَ مَشْهَدِ إساءة وجوه الكافرين عند رُؤية العذاب، ومشهَدِ التَّوبيخ والزَّجر بقولِ الملائكَةِ لَهُم: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾، فكان العطفُ بالواو أدقَّ في تصويرِ تتابُعِ الأهوال، وإبراز تعدُّد المشاهد المُرْعِبَة، فجَمَعَ المشهَدُ بين ما يرونَهُ مِن مشاهِدَ مفزعةٍ، وبين ما يسمعونَه من أقوالٍ مُفْجِعَة؛ فجمَعَ لهُم النّظمُ بين مساءَةِ الوجوه وإفْجاعِ الآذانِ والقُلوب.

نكتَةُ بناء فعلِ القَوْلِ للمفعول:

العنايةُ بالمَقول بما فيهِ مِنَ التَّبكيت والتَّقريع بقطع النَّظر عن القائلِ

بُني الفِعْلُ (قيل) للمفعول؛ لأنَّ المقصود من السّياق إظهارُ المقولِ بما فيه من التَّبكيت والتَّقريع[1] لا ذكر القائل، فحُذِفَ القائلُ من باب الإيجاز[2]، وفي ذلك أيضًا إمعانٌ في التَّشديد عليهم؛ إذْ لا شيءَ أوجَعُ على النَّفس مِن أن يُسمع التَّقريع عندَ نُزولِ العذاب من غيرِ حاجَةٍ إلى تعيين فاعله[3]؛ ليكون أوسَعَ وقعًا وأشدَّ إيلامًا.

بلاغَةُ القَصْرِ بتَعْريفِ جُزْأيِ الجملةِ:

التَّعريضُ بالكفّار وتصويرُ شِدَّة جُحودِهم

القصرُ المُستفادُ من تعريفِ جُزأيِ الإسنادِ في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِي﴾ يتضمَّن تعريضًا بالكافرين؛ إذ صوِّروا - لشِدَّة جُحودِهم - كأنَّهم لو عايَنوا الوعدَ بأعْيُنِهِم؛ لظنّوه أمرًا آخرَ غيره، فلا يُسَلِّمون بحقيقتهِ إلّا عندَ وُقوعه[4].

وجهُ التَّعبير بالمَوْصول:

في اختيارِ المَوْصولِ في قوله: ﴿ٱلَّذِي كُنتُم﴾ إيماءٌ إلى ما تقدَّم من عِنادِهم ومَكْرِهِم واستكبارهم؛ ليُذكِّرَهم بالصِّفة المذمومة الَّتي جَلَبَت لَهُم هَذا الجزاءَ[5].

---

(1) إسماعيل حقّي، روح البيان: 10/ 96، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 10.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 51.

(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 20/ 265.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 51.

(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 20/ 265.

دلالَةُ ذِكْرِ فِعْلِ الكونِ الماضي:

رسوخُ العنادِ والجُحودِ فيهِم

آثر النّظمُ الكريم ذِكْرَ فِعل الكونِ ﴿كُنتُم﴾ دون أن يردَ البيانُ القرآنيُّ: (هذا الَّذي ادَّعيتم)؛ إشارةً إلى أنّ ما كانوا عليه مِن العناد والجحودِ ثابِتٌ فيهم على جهة الجِبِلَّة والطَّبع الرّاسخ[1].

نوعُ الباءِ ودلالَتُها:

حرفُ الجرِّ (الباءِ) في قوله تعالى: ﴿بِهِۦ﴾ يفيدُ السَّببيَّةَ، أي: بسببه ومِن أجلِه، فالمعنى: هذا هو العذابُ الَّذي كنتُم بسبَبِه تدَّعون أنَّكم لا تُبْعَثون[2].

فائدَةُ تقديمِ القَيْدِ ﴿بِهِۦ﴾:

العنايَةُ بالمُقَدَّم لغَرَضِ التَّحسير والتَّنديم

قُدِّم ذكر الجارِّ والمجرور ﴿بِهِۦ﴾ على عامله ﴿تَدَّعُونَ﴾؛ لإظهار شدَّة الاهتمام بشَأْنِه، والتَّنبيهِ على خُطورَتِه في مقام التَّوبيخ، مع ما فيهِ مِن مُراعاةٍ للفاصلةِ القرآنيَّة، الَّتي تُكسِب الآية انسجامًا وجمالًا صوتيًّا في النَّظم[3]، وفيهِ تحسيرٌ عَلى ما مَضى مِنْهُم.

براعَةُ استِعمالِ مفردة ﴿تَدَّعُونَ﴾:

اختيارُ المُفْرَدَة الدّالَّة على واقِعِ المُنْكرِينَ في الدّنيا أشدُّ إيلامًا وأقوى تَحْسيرًا

آثر النّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالفِعْل ﴿تَدَّعُونَ﴾ بصيغة المضارع المزيد بالتَّضعيف؛ للدَّلالة على شدَّة الطَّلب الصّادر عن المشركين في الدّنيا وتَكراره بإلحاحٍ، كحالِ مَن يَستَعجِل إنزالَ المَكْروه بهِ استهانةً به، ويُلِحُّ في كُلِّ وقتٍ على هذا الادِّعاء، مُعْرِضًا عن السَّعي في دفْعِ العَذاب أو التَّخلُّص من أسبابه[4]، فهو استحضارٌ للصّورة السّابقة؛ لتَوْريث الحَسْرَةِ الدّائمة، فإنَّ مَن عانَدَ؛ لهُ رتبَةٌ، ومَن أصرَّ على عنادِه؛ له رتبَةٌ أشَدُّ، ومَن أصرَّ على عناده بتَكرارٍ مستمرٍّ؛ له رتبة أعْتى وهكذا، وقد حقّق أولئك أشدَّ رُتَبِ العناد والإنكار، فكان

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 20/ 266.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 597، والعليميّ، فتح الرَّحمن: 7/ 118.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 50.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 20/ 266.

اختيارُ المفردة مناسبًا لواقعهِم في الدُّنيا جزاءً وفاقًا، ومِن معاني ﴿تدَّعُونَ﴾، أي: تدَّعون أنَّه باطلٌ لا يأتيكم، أو هذا الَّذي كنتُم بسببه تدَّعون أنَّكم لا تُبْعَثون، والاحتمالانِ قائِمان وصادِرانِ عَن المُشْرِكين في الدُّنيا.

بلاغَةُ الإيجاز:

الجَمْعُ بينَ معنى الادّعاء بالاستعجالِ والتَّكذيب بالبَعْثِ

تعلَّقَ الجارُّ والمجرورُ بالفِعْلِ ﴿تَدَّعُونَ﴾ بَعْدَ أن ضُمِّن معناه (تُكذّبون)؛ فحُذِف معمولُ الفِعْلِ الأصليِّ، وأُقيم معمول التَّضمين مُقامه، فدلّ المذكورُ على المَحْذوفِ، وهذا مِن أرقى أساليبِ الإيجاز؛ إذْ جَمَعَ التَّعبيرُ بين معنى الادّعاء بالاستعجالِ والتَّكذيب بالبعثِ والعذاب، فجَمَعَ النَّظمُ القُرآنيُّ هذه المعانيَ كُلَّها في عبارةٍ وجيزة مُحْكَمَة[1].

توجيهُ القراءاتِ القُرآنيَّة:

التَّنويع في المعاني بحَسَبِ تَغايُرِ المَبَاني

قرأ يعقوبُ الحَضْرميُّ: ﴿تَدْعُونَ﴾ بسكون الدّالِ مِن الدُّعاء[2]، أي: هذا هو العَذابُ الَّذي كُنتُم تَدْعون اللّهَ تَعالى ليَأتيَكم به؛ تَهكُّمًا مِنْكُم وعِنادًا[3]، وقرأ باقي العشرة: ﴿تَدَّعُونَ﴾ بفتح الدّال المشدَّدة[4]، أي: تطلبون، وتُلحّون في طلبه، أو تكذّبون بالبعث، فتدَّعونَ أنَّكم لا تُبعثون بعد الموت، أو تَمْتَرون وتشكّون، وقيل معنى تدَّعون: تَتَمنَّون[5]. فتَنَوَّعت المعاني في اللَّفظ الواحد، وهذا مِن مُمَيِّزات النَّظم الكريم وبلاغَته العالية، والقراءتان جَمَعَتا بَيْنَ تصويرِ عنادِ الكافرين في استِدعاء العذاب استهزاءً، وبَيْنَ إصرارهِم على التَّكذيب بالبَعْثِ والمَعاد.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 597، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 50.
(2) ابن الجزريّ، النَّشر: 2/ 389.
(3) الأزهريّ، معاني القراءات: 3/ 81، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 597، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 50.
(4) ابن الجزريّ، النَّشر: 2/ 389.
(5) مقاتل، تفسير مقاتل بن سليمان: 4/ 394، والزَّجاج، معاني القرآن: 5/ 201، والماورديّ، النكت والعيون: 6/ 57، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 229.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ٢٨﴾ [الملك: 28]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قبلَها:

الانتقالُ مِن مَشْهَدِ المَساءَة والفَزَع إلى مَشْهَدِ الدَّعْوَة إلى طلَبِ النَّجاة

لـمّا صوَّرتِ الآيةُ السّابقة حالَ المُشركين عندَ مُعايَنةِ اليَوم المَوْعودِ وما يَعْتَريهِم فيه من هلَعٍ وفزَعٍ؛ ناسبه ذِكْرُ مزيدِ بيانٍ لشدَّة العذاب الأليم يوم القيامة، فالأمر لا يَقْتَصِرُ على الفزَعِ عندَ المَشْهَد، بل إنَّ وراءَهُ عذابًا أليمًا في جهنَّم لا يَمْلِكُ أحدٌ أن يَدْفَعَهُ عنهُم، ولا يَنْفَعهم فيه صديقٌ ولا قريب، فلو هلكَ النَّبيُّ ﷺ ومَن معه، أو رُحموا في الدُّنيا؛ فذلك لا يغيِّر شيئًا من حقيقةِ المَصير المحتوم للكافرين في الآخرة، ولا يخفِّف عنهم شيئًا من العذاب، وهكذا جاء السّياق ردًّا على تمنّيهم هلاكَ النَّبيِّ ﷺ، وانتظارِهم خُلوَّ السّاحة منه، مؤكِّدًا أنَّ عذابهم واقعٌ لا محالة، لا يَمْنَعُهُ غيابُ النَّبيِّ ﷺ ولا حُضورُه[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُجِيرُ﴾: أصل (جور) يدلُّ على دخولٍ في حيِّز شيءٍ بقوَّةٍ للإقامةِ[2]، والجارُ: من يَقْرُبُ مسكنُهُ منكَ، والإجارةُ في معنى الحماية، ولمّا تُصوِّرَ مِنَ الجارِ معنى القُربِ؛ دلَّ الجوارُ على معنى الحمايةِ مع القُربِ منهُ، فعُبِّرَ عن كلِّ من يَعْظُم حقُّه، يقالُ: استجرْتُهُ، فأجارَني، أي: طَلَبْتُ منه الجوارَ لأجْلِ الحمايةِ والأمانِ[3]، والمعنى في الآيةِ: يَحْمي، ويَمنَعُ، ويُغيثُ[4].

(1) الخطيب، التَّفسير القرآنيّ: 15/ 1072.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (جور).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المُفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (جور).
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 145، والسّيواسيّ، عيون التَّفاسير: 4/ 235.

❁ المَعنى الإجماليُّ:

توجِّه الآية الكريمةُ النَّبيَّ ﷺ، وتُرْشِدُه أن يُجابِه المُشركين في أمانيِّهم الباطلة، فيقول لهم: أخبِروني إنْ كانَ اللّهُ تَعالى قَد أماتَني ومَن مَعي مِنَ المُؤْمنين بعذابٍ، أو رَحِمَنا؛ فهل يرفَعُ ذلكَ عنكُم عذابَ اللّهِ تَعالى، أو يخلِّصكم منه؟ إنَّكم أنْتُم الباقون على كُفْرِكُم، فمَن ذا الَّذي يَقيكُم مِن عذابه الأليم[1]؟.

عِلَّةُ النّجاة يومَ القيامةِ هي في طَلَبِ الرِّضوان وتحقيقِ الغُفران

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغَةُ الاستئنافِ ودلالَتُهُ:

جاءَ فعلُ الأمر مُكَرَّرًا في قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَهۡلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوۡ رَحِمَنَا﴾، واستئنافًا بديعًا، غايتُه تلقينُ النَّبيِّ ﷺ الجوابَ الفَصْلَ على تمنّيات المشركين وتربُّصهم بهلاكِه، والمعنى: إن حَصَلَت لكُم أُمْنِيَتُكم، فأهلكنيَ اللّهُ تَعالى ومَن معي، فلن ينفعَكُم ذلك شيئًا؛ لأنَّكم أنتم الَّذين كفرتم بآيات اللّه تَعالى، واستَحْقَقتُم العذاب، ولا مفرَّ لكم مِن عقوبته، فمصيرُهم المحتومُ لن يتغيَّر شيئًا[2].

نطقُ النَّبيِّ ﷺ بإرشادِ الوَحيِ في مسائلِ الجزاءِ الموكولِ إلى الله تَعالى

بلاغَةُ الاستفهامِ وغرَضُه:

الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَرَءَيۡتُمۡ﴾ على وجه الإنكار والتَّعجيب؛ من سوء تفكيرِ المشركين وتمنّيهم هلاكَ النَّبيِّ ﷺ ومَن معه، وهو تَمَنّي حاسدٍ حاقدٍ لا يجرُّ لهم نفعًا، بل يُقَرِّرُ في خاتمةِ الآية أنّ موتَ الرَّسول ﷺ أو حياتَه لا يُجديهم شيئًا، وأنَّه لا مُجير لهم من عذابِ اللّهِ تَعالى بسبَبِ كُفْرِهم، فجاء الاستفهامُ توبيخًا وتقريعًا[3].

تَمَنّي هلاكِ أهلِ الحقِّ سلوكُ الضُّعفاء وعمَلُ الجُبَناء

نُكْتَةُ التَّعبير بالفِعلِ ﴿أَرَءَيۡتُمۡ﴾:

الرُّؤية في قوله تعالى: ﴿أَرَءَيۡتُمۡ﴾ علميَّة لا بصريَّة، وقد عُلِّق

---

(1) الواحديّ، الوسيط: 4/ 331، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 316، والسَّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 878.

(2) والسَّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن: 878، والدَّعاس، إعراب القرآن الكريم: 3/ 366.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 52، والطَّنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 15/ 30.

فعلُها عن العمَلِ لِوُرود الاستفهام بعدَها ﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ ولذلك لَم يُذكَر مَفْعولاه، والمعنى هُنا: هل تدبَّرتم بعقولكم تدبُّرًا راشدًا عميقًا؛ حتَّى أدركتُم إدراكًا يُشبه المُشاهَدةَ أنّ مَوْتي أو موتَ أصْحابي، أو بقائي ومَن مَعي منصورين برحمةِ اللّٰه تَعالى، لا يغيِّر شيئًا من مصيركم، وأنَّه لا منجاةَ لكم من عذاب جهنَّم المُعدِّ للكافرين[1]، ونكتةُ التَّعبير بفعل الرُّؤية: الدّعوةُ إلى النّظر المؤدّي إلى الفِكر، وذلك بتنزيل العِلْم منزلةَ الشَّيء الحسّيّ الَّذي يُتأمَّل بِرُؤْيَته، بحيث تكون نتائجُه واضحةً مَلْموسةً لا غُبار عليها.

في قـوَّة النّظَر تَكْمُنُ صحَّةُ الفِكْرِ ودقَّة الفهم

دلالَةُ استِعمالِ ﴿إِنْ﴾ دون (إذا):

جاء التَّعبير بـ ﴿إِنْ﴾ الشَّرطيةِ الدّالَّة على الشَّكِّ في وقوعِ مدخولِها دون (إذا)؛ للإشعار بالشَّكِّ والاحتمال، لا التَّحقُّق واليقين؛ وذلك لأنَّ المشركين لا يَدْرون ماذا تكونُ عاقبةُ ما يتمنَّونه من موتِ النَّبيِّ ﷺ ومَن معَهُ مِنَ المُؤْمِنين[2]، والمطلوبُ من المشركين أن يتأمَّلوا أمرًا غير واقع، بل هو على مظِنّة الوقوع الافتراضيِّ الَّذي من شأنه تحريكُ الأفكار وتنشيطُ الأفهام.

الافتراضُ الفِكْريُّ مِن شأنِهِ تحريكُ الأفكار وتنشيطُ الأفهام

بلاغَةُ التَّعبير بمفردة ﴿أَهْلَكَنِيَ﴾ دون الإماتَةِ:

جاء التَّعبير بالفِعْلِ ﴿أَهْلَكَنِيَ﴾ بدلًا من (أماتني)؛ لأنّ المشركين كانوا يُلِحّون في دُعائهم على النَّبيِّ ﷺ وأصحابه بالهلاك، فناسَب أن يواجَهوا بلفظِ ما تمنَّوه بألسِنَتِهم[3]، فهي مناسبَةٌ للمَقام، وأيضًا فإنّ الهلاكَ هو الماحقُ الَّذي لا يُبقي بعده شيئًا، بخلاف الإماتة الَّتي هي تحصيلُ حاصلٍ، فموتُ النَّبيِّ ﷺ محقّقُ الوقوعِ، والإماتة غيرُ مناسِبَةٍ لاستعمال ﴿إِنْ﴾.

مناسبَةُ مقامِ النُّزول فيما هو مُفْتَرَضُ الوقوعِ لا متَحَقَّقُهُ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 52، والمكيّ، المعين على تدبُّر الكتاب المبين: 1/ 564.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 20/ 267.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 10، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 52.

بلاغةُ التَّصريح باسم الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾:

بيانُ انفراده تعالى بالقُدرة التّامَّة والمُلْك العظيم لمَصائر العِباد

جاء التَّصريحُ باسم الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ الدّالِّ على تناهي العَظَمَة في قوله: ﴿إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ﴾؛ لِما في ذلك من بيان انفرادهِ تَعالى بالقُدرة التّامَّة على إهلاك عباده، ونفي أيِّ تأثيرٍ لغيره، والتَّعبيرُ باسم الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ يوحي باليقين الجازم أنَّ المُشركين لا يَمْلِكون شيئًا من مصائر العبادِ، وأنَّ النَّبيَّ ﷺ لا يخشى مكرَهُم ولا كيدَهم؛ إذِ الأمْرُ كلُّه بيدِ اللّهِ تَعالى وحده، الَّذي يحفَظُ أولياءَه، ويَقْصِمُ أعداءَه(1).

فائدَةُ المَجاز في التّقييد بالظّرفِ ﴿مَّعِيَ﴾:

المرادُ بالمعيَّة الموافَقةُ والمُشاركةُ في الاعتقادِ والدّين

المعيَّة في قوله تعالى: ﴿وَمَن مَّعِيَ﴾ هي معيَّةٌ مجازيَّةٌ، يُراد بها الموافقةُ والمُشاركة في الاعتقاد والدّين، كما في قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ﴾ [التحريم: 8]، أي: الَّذين شاركوه في الإيمان، فقَيْدُ ﴿مَّعِيَ﴾ يُبْرِزُ أنَّ المقصودَ الارتباطُ الوثيقُ في العقيدة والدّين والمصير(2).

مَعْنى ﴿أَوۡ﴾ ودلالَتُه:

العاقِلُ يَنْظُر في مآل أفعالِه ومصيره لا في مَصائر الآخرينَ

العطفُ بحَرْفِ ﴿أَوۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَوۡ رَحِمَنَا﴾ جاء للتَّنويع بين حالَيْنِ مُتقابِلَيْن: الإهلاكِ أو الرَّحمة؛ دلالةً على أنَّ مصير الكافرين واحدٌ في الحالَيْنِ، وهو عدَمُ النَّجاة من عذاب اللّهِ تَعالى، فمَوْتُ المؤمنين أو بقاؤُهُم لا يغيِّر شيئًا من حقيقةِ وُقوع العذاب بِهِم(3)، ومقتضى التّنويع البتُّ بأنَّ مصير النَّبيِّ ﷺ لا علاقة له بمصير المُشْركين، وأنَّ المشركين سينالون مصيرًا واضحًا إن هُم أصرّوا على ما هم عليه من الكُفْر والعناد، فالآية تُبيِّن سياسةَ النّظر الصّائب في مآلاتِ الأمور، وأنَّ على العاقل أن يَنْظُر في مصيرهِ دون مصائرِ الآخرين.

---

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 20/ 268.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 53.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 10.

فائدَةُ استِعمالِ مُفرَدَةِ ﴿رَحِمَنَا﴾:

آثر النّظمُ الكريمُ استعمالَ مفردة ﴿رَحِمَنَا﴾ دون (أحْيانا)؛ للدّلالة على أنَّ الحياةَ في أصلِها رَحْمَةٌ، وأنَّ تأخير الأجل نعمَةٌ عظيمة، وأيضًا فإنَّ وصفَ الحياة بالرَّحمة للرَّسول ﷺ وللمؤمنين معَهُ؛ لأنَّ بقاءَهُ نعمَةٌ وهداية ورحمةٌ للنّاس، ولأنَّ حياةَ المُؤمن بركةٌ مُتَّصلةٌ بما تحمِلُهُ من تجدُّدِ الإيمان ومُضاعفةِ الأعمالِ الصّالحة[1].

حياةُ النَّبيِّ ﷺ والمؤمنينَ رحمَةٌ تَشْمَلُهُم وتشمَلُ الأمّةَ كلَّها

بَديعُ فنِّ المُقابلةِ ودلالَتُه:

قابلتِ الآية بين حالَي الإهلاكِ والرَّحمة، ويُبرز هذا التَّضادُّ تساويَ النَّتيجة بالنِّسبة للكافرين، فاختلافُ حالِ الآخرين لا يُؤثِّر في نتيجةِ أهل الكُفْرِ.

بلاغَةُ فنِّ الاحتباكِ:

من الاحتباك البديع في الآية الكريمَةِ ماورد في ذِكْرِ الإهلاك والرَّحمة؛ إذ حُذِف من كُلِّ طَرَفٍ ما أُثبِت في الآخر؛ لدلالَةِ المَذْكورِ عليهِ، فكان في ذلك غايَةُ الإيجازِ مَع تمامِ المعنى، فذِكرُ الإهلاكِ أوَّلًا دلَّ على ما يُقابله من النَّجاة ثانيًا، وذِكرُ الرَّحمة ثانيًا دلَّ على ما يُقابلها من الغضب أوَّلًا، وبهذا نَسَجَ النَّظمُ الكريمُ صورةً مُتكاملةً تجمَعُ بين طرفَي المعنى: هلاك يُقابله نجاةٌ، ورحمَة تقابلُها نِقْمَةٌ، في توازنٍ بديعٍ يُعمِّق الأثرَ ويُحْكِم الدّلالة[2]، والتَّقدير بناءً على الاحتباك: (قل أرأيتم إنْ أهلكنيَ اللّه ومَن معي، وغضب علينا، أو أنجانا، ورحمنا)، وذُكِرَ الإهلاكُ دون الغضَبِ باعتبار المآلِ، والرَّحمةُ دون النَّجاة باعتبارها السَّبب في ذلك.

تقويَةُ المقصودِ ذِكْرًا، والإيماءُ إلى المَفْهومِ حذفًا

نوعُ الفاءِ ودلالَتُها:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَمَن يُجِيرُ﴾ رابطةٌ لجَواب الشَّرْطِ؛ لأنَّها

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 52.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 20/ 268.

تَعمَلُ الفاءُ في الرَّبط الدّلاليّ بين الجُمَلِ لقوَّةِ تَعقيبِها

وقعَت بعد جُملة يُقدَّر أصلُها المُبتدأ والخبر، أي: المفعولان المقدَّران في ﴿أَرَءَيۡتُمۡ﴾، فاقْتَضى ذلك أن يُرجَّح جانبُ الشَّرط، فجاءت الفاءُ لتَرْبِطَ الجواب به(1).

وذهب بعضُ أهل العلم إلى أنَّ الفاءَ ليست جوابًا للشَّرط، بل جاءت جوابًا للجُملة ﴿أَرَءَيۡتُمۡ﴾، والمعنى: (انتبهوا، فمن يجيركم) على نحو قول: اجلِس، فزيد قائمٌ، فتكون (الفاء) هُنا للرَّبط بَيْنَ جُملتين(2).

بلاغَةُ الاستِفهامِ وغرضُه:

الإنكارُ على عدَمِ تعقُّلِ المآلاتِ وضَعفِ فَهْمِ المُراداتِ

الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ إنكاريٌّ، يُفيد نفيَ وجود مَن يَحميهم مِنَ العذاب، أي: (لا يُجيرهم منه مُجير)، كأنّه قيل: هل تظنّون أنَّكم ستَجِدون مَن يُجيركم؛ إنْ نَحْنُ هَلَكْنا؟ ذلك أمْرٌ مُستَحيلٌ، فما جَدْوى هلاكِنا لَكُم إذًا؟(3).

نكتةُ التَّعبير بالفعل ﴿يُجِيرُ﴾ مادَّةً وصيغةً:

الجمعُ بين دلالاتِ الحمايَةِ والمَنْعِ والتَّأمين وقتَ الشَّدائد والأهوال

آثر النّظمُ الكريم اختيارَ الفعل ﴿يُجِيرُ﴾؛ لِما يحمِلُه من معنى الحمايةِ والمنع والتَّأمين في أوقات الشِدَّة والخوف والهَوْل، فهو أخصُّ من مُطلق النَّصر أو الدّفع؛ إذ يوحي بكفالةِ العَبْدِ المُستَضعَف عند القويّ، وصيغةُ المُضارعَةِ ﴿يُجِيرُ﴾ تدلّ على الاستمرار، أي: إنَّه لا يوجد على الإطلاقِ؛ ليُؤَكّدَ استحالةَ وُجودِ المُجير في أيِّ زمان(4).

دلالة التّعبير بصيغةِ اسمِ الفاعل:

جاء التَّعبيرُ باسم الفاعل في لفظ ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ بدَلَ الفِعْلِ؛ للدَّلالة على الرُّسوخ والثَّبات في صفة الكُفْر، أي: العَريقينَ فيه، المُستقرِّين عليه(5).

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 53.
(2) ابن الأنباريّ، البيان في غريب إعراب القرآن: 2/ 452.
(3) الصّاويّ، حاشية الصّاويّ: 4/ 237، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 53، والدَّرويش، إعراب القرآن: 10/ 162.
(4) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 4/ 317، والقنّوجيّ، فتح البيان: 14/ 248، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 316.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 20/ 268.

نكتَةُ إظهارِ ما حقُّه الإضمارُ:

آثَر النّظمُ الكريمُ إظهارَ لفظ ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ دون أن يَرِدَ البيانُ القرآنيُّ: (فمن يجيركم)؛ تسجيلًا عليهم بالكُفر، وتعليلًا لاستحقاقهم العذاب؛ إذ العِلَّةُ في نفي الإنجاء هي الكُفْرُ ذاتُه، كما جاء التَّعبير بالاسم الظّاهر بَدَلَ الضّمير؛ للإيماء إلى أنَّ الحكمَ عامٌّ، ويشمل المخاطَبين وغيرَهُم مِن كلِّ كافر، فجاء الكلامُ بمنزلةِ التَّذييل[1] والتَّأكيد لِما تقدَّم، ولدفْعِ تَوَهُّمِ أن يكون المقصودُ بالخطاب المشركين المُعاصرين للنُّزول، فجرى الاسم الظّاهرُ مَجْرى التَّنبيهِ على العُموم، وأنَّ الخطابَ يكونُ لَهُم ولغَيْرِهِم إلى يومِ الدّين.

بـيـانُ عِـلَـلِ الأفـعـالِ مِـن مسالكِ القرآنِ الكريمِ في تنبيهِ الغافلينَ

غرَضُ تَنْكيرِ لَفْظِ ﴿عَذَابٍ﴾:

نُكِّر لفظُ ﴿عَذَابٍ﴾ للتَّعظيم والتَّهويل، أي: عذابٍ عظيم لا يُدرَك كُنْهُه، ولا يُتصوَّر مِقدارُه، فالتَّنكير هنا يُشيع في النَّفس رهبَةً، ويُثير فيها خوفًا عظيمًا، فتَذْهَب النَّفسُ في تقديره كلَّ مذهَبٍ لِما فيه من الإبهامِ الَّذي يوهِمُ بِشُمول كُلِّ صنوف العذاب وألوانِه[2].

عظمَةُ العَذاب مِـن عـظـمَـةِ الحاكِمِ بِهِ

فائدةُ وصفِ العذاب بالأليم وتنكيرِه:

وُصِف العذابُ بصِفَةِ ﴿أَلِيمٍ﴾ لزيادةِ التَّخويف، فهو عذابٌ موجِعٌ بالغُ الإيلام، يَجْمَعُ بين شدَّة العذابِ مِن جهَةٍ، واستمرارِ الألَم مِن جِهَةٍ أُخْرى، فيَغْدو التَّعبيرُ جامعًا بين التَّهويل من جهَةٍ، والدَّوام من جِهَةٍ أخرى[3]، وجيء بوصفِ ﴿أَلِيمٍ﴾ دون (عظيم) أو (كبير)؛ لأنَّ الألم هو وصفٌ لِما يُحدِثُه العذابُ في داخل الأبدان والنُّفوس، فكما أنّ أقوالَ المُشْركين وعنادَهُم وإصرارَهم ورَّثَ ألَمًا في نفوس المؤمنين؛ فناسب أن يُعذَّبوا بعذابٍ يورِّثُهم الألَمَ جزاءً وِفاقًا.

مُناسبَةُ العذاب للمشركين بما صـدَرَ عَـنْـهُـم مِن أفعالِ آلَمَت المُؤمنين

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 10، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 53.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 53.

(3) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 30/ 50.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العَذاب والعِقاب:

العذابُ يدلُّ على إرادة الإيلامِ، والعِقابُ دالٌّ على الجزاء

العِقابُ والعذابُ يَردانِ مرادًا بهما النَّكالُ، ومجازاةُ الذَّنْبِ بمِثْلِه، ويفترِقانِ مِن وجهَيْن: أحدِهما: أنَّ الأصلَ الدّلاليَّ لـ (العذاب) يدلُّ على الضَّرْبِ، والأصلَ الدَّلاليَّ لـ (العقابِ) دالٌّ على الشِّدَّةِ، وتأخُّرِ شيءٍ وإتيانِهِ بعدَ غيرِهِ. والآخر: أنَّ العقابَ يُنبئُ عَنِ الاستحقاقِ؛ لأنَّه لا يكونُ إلّا عَقِبَ ذنْبٍ، بخلافِ العَذابِ؛ فإنَّه أعَمُّ، فقد يقَعُ عَلى مَن يَسْتَحِقُّهُ ومَن لا يَسْتَحِقُّهُ[1].

(1) أبو هلال العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 239 - 240، ومحمَّد داود، معجم الفروق الدَّلالية، ص: 341 - 343.

﴿قُلۡ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيۡهِ تَوَكَّلۡنَاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢٩﴾ [الملك: 29]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

دفعُ أوهامِ أهلِ النّيران، بإثباتِ حالِ المؤمنين معَ الرَّحْمَن

لمّا ذكرَتِ الآيةُ السّابقةُ أنَّ فَرْضَ هلاكِ المُؤْمِنين أو رَحْمتِهم سواءٌ، وأنَّه لا يُجير المشركين أحدٌ مِنَ العذاب؛ عقَّب ذلك ببيان حال المؤمنين، فهُم قد آمنوا بالرَّحمن، فكانوا أحقَّ النّاس بأنْ تتعلَّقَ بهم صفةُ الرَّحمة، فيَرْحَمهم اللّهُ تعالى في الدُّنيا والآخرة، وبذلك يتبيَّن للمُشركين يقينًا أيُّ الفريقين هو الضّالُّ؛ إذ يُشاهِدون آثارَ الرَّحمة تَحُفُّ بالمؤمنين، بينَما هي مُنتفيةٌ عنهم في الدُّنيا، فضلًا عن انقطاعِها عَنْهُم يومَ القيامة(1)، فناسب بيان أنّ المؤمنين في رحمة الرَّحمن دفعًا لأوهام أهلِ النّيران بأنَّ المؤمنين في قلّة شأنٍ وانعدام رأفةٍ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ضَلَٰلٖ﴾: الضَّلالُ: ضدُّ الهُدى والرَّشادِ(2)، وهو العُدولُ عنِ الطَّريق المستقيم(3)، والفعلُ منه: ضَلَّ يضِلُّ ضلالًا وضلالةً، وأصلُه: من ضياعِ الشَّيءِ وذهابِه في غير حقِّهِ(4)، ويقالُ أيضًا: ضلَّ الشَّيءُ؛ إذا ضاعَ، وهلَكَ، فيكونُ الضَّلال بمعنى الضَّياع والتَّلف والفَوات(5)، والمعنى في الآيةِ: (تباعُد وذهاب مِنَ الحقِّ وانحراف عَن طريقِه)(6).

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 54.
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديّ، تاج العروس: (ضلل).
(3) الرّاغب، المفردات، الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، والزَّبيديّ، تاج العروس: (ضلل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (ضلل).
(5) الجوهريّ، الصّحاح، والحلبيّ، عُمدة الحُفّاظ، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديّ، تاج العروس: (ضلل).
(6) أبو مظفر السَّمعانيّ، تفسير القرآن: 4/ 344، والقاسميّ، محاسن التَّأويل: 9/ 29.

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

إعلانُ الإيمانِ بالرَّحمن، وإبطالُ دَعْوى أهلِ النّيرانِ

تُرشد الآيةُ الكريمةُ النَّبيَّ ﷺ بأنْ يقولَ للكُفّار: إنَّ الَّذي أدعوكُم إلى عبادتِه هو الرَّحمن، الَّذي وسِعَت رحمَتُه جميعَ خَلْقِه، به وحدَهُ آمَنّا، وعليهِ اعتمَدْنا، وتوكَّلنا، وسيأتي اليومُ الَّذي يتبيَّن لكم فيهِ - ساعةَ نزولِ العذاب - مَن هو البعيدُ عن طريقِ الحقِّ والهداية[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغَةُ الاستئنافِ:

محاورةُ المشركين متجدّدةٌ بغَرْسِ قيَمِ الهداية ودَعْوتِهم إلى النَّجاة

إنّ افتتاحَ الآية بفِعْلِ الأمْرِ ﴿قُلۡ﴾ استئنافٌ مَقْصودٌ به تلقينُ الرَّسولِ ﷺ حُجَجًا يقيمُ بها الحجَّة على المُشْرِكين، فيوبِّخُهُم، ويُبطل شُبُهاتِهِم؛ ليتفكّروا في عموم قدرته، فقال: ﴿قُلۡ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، أي: الَّذي ذَكَر فيما سبَق أدلَّةَ وُجودِه وقدرته وسلطانِه، فبهذه التَّوطئةِ جاءَ التَّلميح إلى تمييز الفريقِ المُهْتَدي عن الفريق الضّالِّ في قوله تعالى بعد ذلك: ﴿فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾؛ إذ يتبيّن منذُ أوَّلِ نظَرٍ أنَّ المقصود بالضَّلال المُبين هم الَّذين أنكروا صفةَ الرَّحمن، واعتمدوا في توكُّلهم على الأوثانِ[2].

دلالةُ القصْرِ وبلاغَتُهُ:

قَصْرُ الرَّحمة الواسعَةِ الكاملةِ على اللهِ تَعالى وحدَه، ودفعُ أباطيلِ الجاهِلينَ

في قول اللّه تعالى: ﴿هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ أسلوبُ قصرٍ بتعريف جُزأيِ الجملة، أي: اللّهُ وحدَه هو المتَّصفُ بالرَّحمة الواسعة، لا غيرُه من معبوداتِكم الباطلة، وعودُ الضَّمير ﴿هُوَ﴾ على الاسم الأحسَنِ المتقدِّم في الآية السّابقة يُبرزُ اختصاصَ الوصفِ بالرَّحمن، فيدلُّ على أنَّ رحمتَه حقيقةٌ ثابتة، بخلافِ ما زعمه المشركون في أوثانِهم[3].

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 182، 183، والقاسميّ، محاسن التَّأويل: 9/ 29.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 20/ 269، والدَّعاس، إعراب القرآن الكريم: 3/ 366، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 54.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 54.

بلاغَةُ استِعمالِ الاسم الأحسنَ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾:

الإيماءُ إلى أنَّ الرَّحمة شَمِلَت المؤمنين، وحُرِم منها المُشرِكون

في اختيارِ اسم ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ في هذا الموضع إيماءٌ إلى أنَّ المؤمنين دائمًا مَشْمولون بالرَّحمة الإلهيَّة، وأنَّ ما يرجوهُ الكافرون من زوالِ النِّعمة عَنْهُم لا حقيقةَ لَهُ، بَل هو ضربٌ مِنَ الوَهْمِ والضَّلال، فالمؤمنونَ لمّا آمَنوا بالرَّحمن؛ صاروا أهلًا لتعلُّق رحمتِه بهم في الدُّنيا والآخرة، فيُفيض عليهم باللُّطف والنَّصر والهداية، وفيه تعريضٌ بأنَّ إنكارَهم لهذا الاسم الإلهيِّ هو سببُ حرمانِهم من آثار رحمتهِ، في حين أنَّ المؤمنين سلَّموا له بالوَصْفِ، وآمنوا به، وتوكَّلوا عليهِ، فكانوا أهلًا للفوزِ بعَطائه(1).

نكتةُ ذكرِ الإيمان دونَ الألفاظِ المقاربة لَهُ:

بيان التّقابل بينَ علّة النّجاة وعلّة الخسارة

جيءِ بالفِعْلِ ﴿ءَامَنَّا﴾ دون مُقارباتِه كالإسلام؛ لبيان أنَّ مَن أراد النَّجاة ابتداءً؛ فعليه أن يؤمِنَ إيمانًا يقينيًّا، كي يَنْجوَ مِنَ الكُفْرِ العريضِ، فالكفرُ سَببُ استحقاقِ العذاب، والإيمانُ سبب النَّجاة والإجارة مِن النّار، وبذلك يكتَمِلُ التَّقابل في المعنى، ويقعَ التَّعريضُ بالمُشركين في أبلَغِ مَوْقِعِه؛ إذ يتبيَّن أنَّ الَّذي جرَّ عليهم العذابَ هو كفرُهم، والَّذي أورث المؤمنين الرَّحمةَ والنَّجاةَ هو إيمانُهم(2).

توجيهُ تخصيص التَّوكُّل بالذِّكر:

كمالُ الأعمالِ وتَمامُ ثَمَرَتِها لا يتحقَّق إلّا بالتَّوكُّل على اللهِ تَعالى

خصَّ النَّظمُ الكريمُ ذِكْرَ التَّوكّل في قوله تعالى: ﴿وَعَلَيۡهِ تَوَكَّلۡنَاۖ﴾، وعطَفَه على الإيمانِ مَع أنَّه من لوازمه؛ وذلك لِما لَهُ مِن خُصوصيّةٍ في مقام الاستدلال؛ إذِ الإيمانُ في حقيقَتِه يشمَلُ التَّصديق القلبيَّ وسائرَ الأعمالِ الباطنة والظّاهرة؛ وذلك أنَّ كمالَ هذه الأعمال وتمامَ ثَمَرَتِها لا يتحقَّق إلّا بالتَّوكُّل على اللهِ تَعالى، فخصَّه اللّهُ تَعالى بالذِّكر؛ تنويهًا بشأنه وإبرازًا لمكانته، ولهذا قال تعالى: ﴿وَعَلَى

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 54.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 24.

ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ [المائدة: 23]، فجعله علامةً على صِدْقِ الإيمان، فإذا كان حالُ الرَّسول ﷺ وأتباعِه قائمًا على الإيمانِ المَقْرونِ بالتَّوكُّل، وحالُ أعدائهم على ضِدِّ ذلك؛ تبيَّن للسّامع أيُّ الفريقين على هُدًى، وأيُّهما في ضلالٍ مبينٍ(1).

فائدَةُ تقديمِ القَيْدِ (عليه):

قَصْرُ التَّوكُّل على اللهِ تَعالى ونَبْذُ كلِّ وهْمٍ فاسد

قُدِّم الجارُّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾؛ لإفادَةِ قَصْرِ التَّوكُّل على الله تَعالى وحدَهُ، أي: إنَّنا لا نتوكَّل إلّا عليه سُبْحانَه، وهذا مِن قَصْرِ الصِّفة على الموصوف؛ إذ التَّوكُّل لا يكون إلّا على الخالق المُدبِّر(2)، فجاء تقديمُ المعمول (عَلَيْه) على العامل ﴿تَوَكَّلْنَا﴾؛ ليدُلَّ على هذا القَصْرِ والاختصاص، فلا يَصِحُّ أن يكونَ تَوكّل المؤمنين إلّا على ربِّهم، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [آل عمران: 122]، وفي هذا التَّقديم أيضًا تعريضٌ بحال المشركين؛ إذ جَعَلوا اعتمادَهُم على أوثانِهم، وأشْرَكوها في مقام التَّوكُّل مع اللّهِ تَعالى، بل غَفَلوا عن التَّوكُّل عليهِ لانشِغالِ قُلوبِهم بالتَّوجُّه إلى أصنامِهم(3).

نكتَةُ تَقْديمِ ﴿ءَامَنَّا﴾ على قيدِه، وتأخيرِ ﴿تَوَكَّلْنَا﴾ عن قيدِه:

لا يكتَمِلُ الإيمانُ إلّا بحُسْنِ التَّوكُّل على الرَّحمن

قُدِّم الفعل ﴿ءَامَنَّا﴾ على القيد ﴿بِهِۦ﴾، وقُدِّم القيد (عليه) على الفعل ﴿تَوَكَّلْنَا﴾، في قوله تعالى: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾؛ لاختلاف المَقامَيْن، ففِعْلُ ﴿ءَامَنَّا﴾ جاء في الإخبار عن إيمان المؤمنين الثّابت الَّذي لا يتطرّق إليهِ شكٌّ أو جحود، والخطورة إنَّما تأتي من التَّوكُّل، فقَد يُؤْمِن الإنسانُ، ولا يتوكَّل على اللّهِ تَعالى حقَّ التّوكّل، فيكون إيمانُه ناقصًا، فقُدِّم (عليه)؛ لإفادة القَصْرِ، ولبيان تمامِ الإيمانِ وكماله، فهُم لا يتوكَّلون إلّا على اللّه تعالى،

(1) السَّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 878.

(2) القونويّ، حاشية القونويّ على تفسير البيضاوي: 19/ 217، والصّاويّ، حاشية الصّاويّ: 4/ 237.

(3) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 583، والبيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 5/ 232، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 10.

وهذا هو محضُ الإيمانِ الكامل، ومَن خَلَطَ توكُّله؛ فقد أنقَصَ إيمانَه، وأتى بما يُهدِّد قبولَ أعمالِه.

نوعُ الفاءِ ودلالَتُها:

احتمالُ الفاءِ للتَّفريع بكَشْفِ العاقبة، والفصيحةِ بإقرارِ المَضْمون

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَسَتَعۡلَمُونَ﴾ يَحْتَمِل أن تكون فصيحةً، والتَّقدير: إن كان الأمر كما ذَكَرْنا؛ فسَتَعْلَمون، ويَحْتَمِل أن تكون للتَّفريع، أي: لمّا آمنّا باللّهِ تعالى، وما أنزلَهُ مِن الحقِّ، وأصْرَرْتُم أنتُم على الكُفْر والجُحود؛ كان مُقتضى ذلك أن يَحِلَّ بكم العذابُ، وحين يقَعُ سترون الحقيقةَ جليَّةً بعد أن يَنْكَشِفَ عنكُم الغِطاء[1].

توجيهُ القِراءاتِ القُرآنيَّة:

دَوَرانُ الآيةِ على الالتفاتِ والأصلِ مرادٌ في التَّنويع بين المَعاني

قرأ الجمهورُ: ﴿فَسَتَعۡلَمُونَ﴾ بالتّاءِ على الخطابِ، أي: ستُدْرِكون غدًا أيُّ الفريقين واقعٌ في الضَّلال المبين، فتكون الجملةُ مِن تمام ما أُمِرَ الرَّسولُ ﷺ أنْ يقولَهُ لَهُم، وقرأ الكسائيُّ: ﴿فَسَيَعۡلَمُونَ﴾ بالياءِ على الغَيْبَة[2]، فعلى قراءة الجمهورِ فإنَّ الآيةَ تكونُ على أصلِها، وعلى قراءة الكسائيِّ؛ فإنَّ في الآيةِ التفاتًا مِن الخطابِ في ﴿أَرَءَيۡتُمۡ﴾ إلى الغَيْبَة ﴿فَسَيَعۡلَمُونَ﴾، وهو متّسقٌ مع فاصلةِ الآيةِ السّابقة: ﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾؛ إذ إنَّها بأسلوبِ الغَيبة[3]؛ فتكون الجملةُ إخبارًا مِنَ اللّه تَعالى بأنَّه سيُعاقبهم عقابَ الضّالين[4]، فقراءة الخطابِ تُشدِّد على المواجهةِ والتَّبكيت، بينَما قراءة الغَيبة تُفيد التَّهديد العامَّ والإخبارَ الجازِمَ بِعقابِهم، وكلاهُما مرادٌ.

غرَضُ التَّعبير بالاسمِ الموصول:

التَّهكُّمُ بالمُشْركين بما فيهِ تقريعٌ وتوبيخٌ

جاءت ﴿مَنۡ﴾ الموصولةُ في قوله تعالى: ﴿فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾؛ للدّلالة على الفريقِ غير المحدَّد بَعْدُ بينَ خيارَيْن

(1) القونويّ، حاشية القونويّ على تفسير البيضاوي: 19/ 217.
(2) ابن الجزريّ، النَّشر: 2/ 389.
(3) الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 10/ 395.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 55.

مُتقابِلَيْن، وبذلك تشير الموصوليَّةُ إلى أنَّ الكُفّار سيعلمون عند وقوع الأمْرِ أيُّ الفريقين واقعٌ في الضَّلال المبين، أي: يتَّضح لهم الفريقُ المُستحقُّ للعذاب[1]، وفي الإبهام نوعٌ من التَّهكُّم الممزوج بالتّبكيت والتّقريع الضِّمنيِّ.

تمكُّنُ المُشْرِكين في الضَّلال المبين تنبيهٌ على خُطورَةِ العَذاب المُبِين

بلاغَةُ استِعْمالِ حَرْفِ الظَّرفيَّة:

استُعمِل حرفُ الظَّرفيَّة في قوله تعالى: ﴿فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾؛ للدّلالة على تصويرِ شِدَّة تلبُّسِ المشركين بالضَّلال وإيغالهم فيه، فشبَّه حالَهُم في إحاطة الضَّلال بهم بحالِ الشَّيء داخلَ ظَرْفٍ يحيط به من كُلِّ جانب، فلا يستطيع مفارقتَه، وكأنهم قد أصبحوا مَظْروفينَ في الضَّلال واقعينَ فيه[2]، وهذا يدلُّ على تمكُّنهم منه وانغماسِهم فيه، وأنَّه ضلالٌ صريحٌ لا شُبهة فيه، ولذا جاء وصفُ الضّلال مؤكَّدًا بِقوله: ﴿مُّبِينٖ﴾، وهذا أبلغُ من مُجرَّد الوَصْفِ بالضَّلال، فلم يقل: (من هو ضالّ).

غرضُ تنكيرِ لفظِ ﴿ضَلَٰلٖ﴾:

نُكِّر لفظ ﴿ضَلَٰلٖ﴾ للتَّعظيم والتَّهويل، والمعنى: في ضلالٍ عظيمٍ عَنِ الحقِّ، فهو ضلالٌ هائلٌ لا حدَّ له.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِاسمِ الفاعِلِ:

جاء التَّعبير باسم الفاعل ﴿مُّبِينٖ﴾؛ للمُبالغة في بيان الضَّلال، فالضَّلال بَيِّنٌ في نفسه موضَّح لِكلِّ أحدٍ أنَّه لا خفاءَ فيه[3]، ولا اشتباهَ بغيره، وأنّهم اختاروهُ عالِمين به غيرَ جاهِلين.

فسادُ العُقول يُعْمي عَن جلاء الحقِّ

فائدَةُ وصْفِ الضَّلال بالمُبين دونَ البعيد:

وَصْفُ الضَّلال بلفظ ﴿مُّبِينٖ﴾ دليلٌ على شِدَّة فسادِ عُقولهم؛ إذ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 54.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 20/ 271، وشحاته، تفسير القرآن الكريم: 29/ 6005.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 271.

لَم يتفطّنوا لضلالهم مع أنَّه كالمُشاهد المرئيِّ، ولم يوصَف الضَّلالُ بالبُعْدِ (بعيد)؛ لأنَّ السّياق في بيان مآل كُفْرِهم، فيُحتاج إلى التّنبيه على وضوحِ الضَّلال دون بُعْدِه.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الضَّلالُ والغَوايَةُ:

الضَّلالُ عامٌّ، وهو فِقدانُ الطَّريقِ الموصِل، والغَوايةُ العدولُ عن الطَّريق القويم

الضَّلال هو فِقدانُ ما يوصِلُ إلى المطلوب، وقيل: هو سلوك طريق لا يوصل إلى المطلوب[1]، وكلُّ عدول عَن النَّهج عمدًا أو سَهوًا قَليلًا كانَ أو كثيرًا[2]، فَهوَ ضلال، وفي باب الحقِّ والباطل يكون الضَّلال عدولًا عن الطَّريق المستقيم[3]، أمّا الغَواية؛ فهي جَهْلٌ مِن اعتقادٍ فاسد[4]، فلا يكون للغاوي مَقْصِدٌ إلى الطَّريق المُسْتَقيم[5]، والغواية إمعانٌ في الضَّلال، وأيضًا فإنَّ الضَّلال عامٌّ[6]، يكون للعاقل وغيره، فيُقال: ضلَّت الدّابَّة، ولا يُقال: غوت الدابّة، أمّا الغَواية؛ فهي للعاقل المُكلَّف، والضَّلال: نقيضُ الهُدى، قال اللّه تعالى: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ﴾ [فاطر: 8]، والغَوايَةُ نقيض الرُّشْد، كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ﴾ [الأعراف: 146]، وقال سُبحانَهُ: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة: 256].

وقد اجتَمع ذِكْرُ الضَّلال والغَوايةِ في قوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ٢﴾ [النَّجم: 2]، وفيه الشَّهادةُ للرَّسول ﷺ بأنَّه راشدٌ تابع للحقِّ لَيْسَ بضالٍّ، وهو الجاهل الَّذي يسلُك طريقًا بغير علمٍ، والغاوي هو العالِمُ بالحقِّ العادِلُ عنه قصدًا إلى غيره، فنَزَّه

(1) الجرجانيّ، التَّعريفات، ص: 138.
(2) الكفويُّ، الكليّات، ص: 567.
(3) المناويُّ، التَّوقيف، ص: 223.
(4) الرّاغب، المفردات: (غوى).
(5) الكفويُّ، الكليّات، ص: 576.
(6) النَّيسابوريُّ، غرائب القرآن: 6/ 199.

اللّهُ تَعالى رسولهُ ﷺ وشَرّعَهُ عَن مشابهة أهل الضّلال كالنَّصارى، وطرائق غوايةِ اليَهود وهي عِلْمُ الشَّيء وكِتمانُه والعملُ بخلافه، بل هو صلاةُ اللّهِ وسلامه عليهِ وما بعثَهُ اللّهُ تَعالى به مِن الشَّرع العظيم في غاية الاستقامةِ والاعتدالِ والسَّداد، فأثنى عليه بكمالِ العِلْمِ والعَمَلِ[1].

الضَّلالُ عُدولٌ عـن الـحـقِّ، والنِّسيانُ ذُهولٌ عنهُ بعدَ معرفتِه

الضَّلالُ والنِّسيان:

الضَّلال: هو العُدول عن الطَّريق المُستقيم، ويَسبق العِلْمَ بالشَّيء والمعرفةَ به، وضِدُّه: الهُدى[2]، أمّا النِّسيانُ؛ فهو ضَياعُ العِلْمِ بعد عِلْمِه، وزوالُ المعرفة بعدَ معرفتِها، وضِدُّه: الذِّكرُ، فالضَّلالُ أنْ تُخطِئَ الشَّيءَ في مكانِه؛ فلم تَهْتدِ إليه، والنِّسيانُ أن تغفُلَ عنه[3]، قال اللّه تعالى: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٦٨﴾ [الأنعام: 68]، ويمكن أن يُسمَّى الضَّلالُ نِسْياناً مَجازاً على اعتبارِ أنَّه سببٌ فيه، نحو: ﴿أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ﴾ [الفرقان: 29] [الفرقان: 29]. و﴿أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ﴾ [البقرة: 282].

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 411.
(2) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 1/ 225.
(3) إسْماعيل حَقّي، روحُ البَيانِ: 5/ 395.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ٣٠﴾ [الملك: 30]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

التَّعقيب بِذِكْرِ الدَّليل الدّالِّ على وجوب التَّوكُّل على اللهِ تَعالى

لمّا أمَرَ اللّهُ تعالى بالتَّوكُّل عليه وحدَهُ دونَ سواه؛ ناسب أن يُعَقِّب ذلك بذِكْرِ الدَّليل الدّالِّ على وجوب هذا التَّوكُّل[1]، وأيضًا فإنَّه لمّا ذَكَرَ العذابَ بصيغَةٍ مُطلقة عامَّة؛ أَتْبَعَ ذلك ببيانِ نوعٍ خاصٍّ من العذابِ، وهو سَلْبُ الماءِ الَّذي به قِوام الحياةِ[2].

شَرْحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿غَوْرًا﴾: أصلُ (غور): يدُلُّ على خُفوضٍ في الشَّيءِ وانحِطاطٍ[3]، يُقال: غار الماءُ يغورُ غَوْرًا: غاض، وذهب في الأرض[4]، وغارَتْ عَيْنُه تَغورُ غَوْرًا وغُؤورًا، وغَوَّرَتْ: دَخَلَتْ في الرَّأس[5]، والمَعْنى هنا: غائِرًا ذاهِبًا في الأرضِ لا تَنالُه الدِّلاءُ[6].

2) ﴿مَّعِينٍ﴾: أصلُ (معن): يدُلُّ على سُهولةٍ في جَرَيانٍ[7]، وقيل: هو مشتقٌّ من العَيْن الجارية، أي: ماء جارٍ، يُقالُ: مَعَنَ الماءُ؛ إذا جرى، والمَعينُ: السَّهلُ الَّذي يَنقادُ، ولا يَعتاصُ، أي: يصعبُ إخراجُه، ومُعْنانُ الماءِ: مَسايِلُه ومَجاريه، أو مِنَ العين الباصرة، ووزنُه: مفعولٌ، فالميمُ زائدةٌ[8]، والمعنى هُنا: جارٍ ظاهِرٌ تراهُ العيونُ سَهْلَ التَّناول تنالُه الأيدي[9].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 597.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 230.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (غور).
(4) ابن دريد، جمهرة اللُّغة: (رغو).
(5) الزَّبيديّ، تاج العروس: (غور).
(6) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 222، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 29/ 25.
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (معن).
(8) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 476، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (عين).
(9) العليميّ، فتح الرَّحمن: 7/ 120، والقاسميّ، محاسن التَّأويل: 9/ 295.

المَعْنى الإجْماليُّ:

تفـرُّدُ الخالق بـإنـزالِ المـاءِ وإظْهارِ نِعْمَتِه

تُبيِّنُ الآيةُ الكريمة انفرادَ اللّهِ تعالى بإنعامِهِ على عباده، ومِن أعظَمِها نعمَةُ الماءِ، فيأمر نبيَّه ﷺ أن يقول للمُشْرِكين: أخبروني؛ إن صارَ ماؤُكم ذاهبًا في أعماق الأرض لا تنالونَهُ، ولا تَسْتَخْرِجونَهُ، فمَن ذا الَّذي يَقْدِرُ أن يُمِدَّكُم بماءِ عذبٍ جارٍ على وجه الأرض تراهُ أعينُكُم، وتَنْتَفِعونَ بِهِ؟ لا أحدَ يَمْلِكُ ذلكَ إلّا اللّه ﷻ[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغَةُ تَكْرارِ فِعْلِ الأمْرِ ﴿قُلْ﴾:

قيامُ الحُجَجِ الإلهيَّة على البَشريَّة بتَلْقينٍ يُرادُ بِهِ التَّعليمُ والتَّحذيرُ

تكرَّر افتتاحُ الآيات بفِعْلِ الأمر ﴿قُلْ﴾ في هذه السّورة ستَّ مرّات، وذلك لتوجيه النَّبيّ ﷺ إلى تلقين الحُجج الدّامغة الَّتي يواجه بها المُشركين، فيكشِفُ فسادَ معتقَدِهم، ويُقيم الدَّليل على العقيدةِ الحقّة، فجاء قوله ﷻ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ على سبيل التَّهديد والإنذار؛ إذ يتضمَّن وعيدًا بأنَّ اللّهَ تَعالى قادِرٌ على أن يبتليَهم في الدُّنيا بسَلْب النِّعم، وأن يَغورَ ماؤُهُم، فيُحرَموا مِن أعظم مقوِّمات الحياة، فيُدْركوا أنَّ المُنعم المُتفرِّد هو اللّهُ تَعالى وحده، لا من يعبُدونه مِن دونه[2]، ويَحْمِلُ هذا التَّكرارُ دلالاتٍ بليغَةً، فهو مِن جهةٍ يؤكِّد المقول، ومِن جهةٍ أُخْرى يَشُدُّ انتباهَ السّامع إليه، وينشّط المخاطَبين، ويَسْتَثير قُلوبَهُم كي يتأمّلوا مَضْمونَ الخطاب[3].

كُــلُّ جـمـلـةٍ اسْتُفتِحَتْ بِفِعْلِ (قـل) كـافـيـةٌ في بـيـان مقـصـودِ السّورة

وفي تَكرارِ فعل القولِ في هذه الآيات ملمَحٌ ينبغي الوقوفُ عندَهُ، وهو الإشارة إلى أنَّ كُلَّ جملة استُفتحت به كافيةٌ بذاتِها في الدّلالة على مقصود السّورة؛ إذ تضمَّنَت براهينَ القُدْرَةِ وعجائبَ الصَّنعة،

---

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 222، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 183، والسَّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 878.

(2) الخطيب، التَّفسير القرآنيّ: 15/ 1073.

(3) الطَّنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 15/ 30، والهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 30/ 72.

فجاء التَّكرار؛ ليَقْرَعَ الأسماعَ بالتَّنبيه، وليَزيدَ في التَّوبيخ والزَّجر والتَّبكيت للمُشْرِكينَ[1].

دلالَةُ التَّعبير بصيغَةِ الأمْرِ:

ظاهِرُ الأمْرِ دعوةٌ للتَّفْكير وحقيقتُه تهديدٌ لمَن غفَل عَن النّجاةِ

فِعْلُ ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ بمعنى الرُّؤية العِلْميَّة، أي: أتَفَكَّرتم تفكيرًا عميقًا مُتأنّيًا، حتَّى وصلتُم إلى إدراكٍ يقينيٍّ واضحٍ يُشْبِهُ المُشاهدَةَ البَصريَّة؟ إن صار ماؤُكُم غائرًا في أعماقِ الأرض، غائبًا عن مُتَناوَلِ الأيدي والدِّلاء، فمَن ذا الَّذي يَسْتَطيعُ غيرَ اللّهِ تَعالى أن يأتيَكُم بماءٍ ظاهرٍ عذبٍ جارٍ[2]؟ والأمرُ بالرُّؤية فيه تهديدٌ ضمنيٌّ؛ لأنَّ ظاهرَهُ الدّعوةُ إلى التَّفكير القائد إلى المطلوب، وهو الإيمانُ باللّهِ تَعالى، وحقيقتُه تهديدٌ لِمَن آثَرَ الكُفْرَ على الإيمان، فلَم يَنْتَفعِ بالتَّمثيل المضروبِ في الآيةِ.

نكتَةُ استِعمال الفِعْلِ ﴿أَصْبَحَ﴾:

غَلَبَ على العذابِ أن يأتي صباحًا

آثَر النَّظم الكريم استعمال الفعل ﴿أَصْبَحَ﴾، في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾؛ وذلك لأنَّ الإصباحَ يُشير إلى وقت الصَّباح، وعادةُ النّاس أنَّهم يَسْتَبشِرون برِزْقِهم في الصَّباح، وأيضًا فإنَّ العادةَ قَد جرَت بِمَجيءِ العذابِ في الصَّباح، فهو تهديدٌ بعذاب القَحْطِ والجَفاف، وتنبيهُ المشركين إلى ما قَد يواجِهونَه من شِدَّة الحاجة؛ إذا غارَ ماؤُهُم، وفُقِدَ مِن ظاهِرِ الأرض، فيكون حالُهُم كحال السّابقينَ.

بلاغَةُ الإضافَةِ ونَوْعُها، ونكتة التَّهديد بالماءِ:

التّهديدُ بِسَلْبِ ما كانَ تحتَ تَصَرُّفِهم

أُضيف لفظُ الماء إلى ضمير الخطابِ الجمعيِّ في قوله تعالى: ﴿مَآؤُكُمْ﴾، وفي ذلك إشارةٌ إلى ما يَظُنّونه ملكًا خالصًا لهم وتحتَ أيديهم وتصرُّفهم، بما نبَّهت عليه الإضافةُ، وهو

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 20/ 271، 267.

(2) المكيّ، المعين على تدبُّر الكتاب المبين: 1/ 564.

في الحقيقةِ نعمَةٌ مِن اللّهِ تَعالى وحده، يَصْرِفُها كيف يشاء[1]، والإضافة بمَعْنى اللّام، وقَد جرت الإضافةُ على التَّعريف بالماء الَّذي يَعْهَدونَهُ، كما أنَّ مكَّةَ بلدٌ قليلُ المياه، لَم تكن فيها ينابيعُ جاريَةٌ ولا آبارٌ معروفةٌ قبل أن يفيضَ اللّهُ تَعالى عليهم بِئْرَ زمزم، فجاءتِ الآيَةُ؛ لتذكيرهم بهذه النِّعمة العُظْمى، وبيان عجزِهم عن دفْعِ الضَّرر؛ إن سُلبت منهم[2]، ففي ذِكْرِ الماء تذكيرٌ بما كان مَسْلوبًا، وتحذيرٌ من أن يُسْلَبَ مرّةً أخرى.

بلاغَةُ استِعْمالِ مفردة ﴿غَوۡرًا﴾ مادّةً وصيغَةً:

ذهابُ الماءِ في أعماقِ الأرض تهديدٌ باستحالةِ عَوْدَتِهِ

آثرَ النّظمُ الكريمُ استعمالَ مفردة ﴿غَوۡرًا﴾، وهو مصدرٌ يدلُّ على ذهاب الماء في أعماق الأرض، وهو مِن قولهم: غارَ الماءُ؛ إذا غاصَ فيها، فجاء التَّعبيرُ بالمصدر بدَلَ الوَصْفِ؛ للدّلالة على المُبالغة وشدّةِ الذَّهاب والبُعْدِ في الأرض، وفي تنكيرِهِ دلالةٌ على التَّهويل والتَّعظيم، أي: غورًا شديدًا لا يُستطاعُ الوصولُ إليه[3]، واستعمال الغَوْرِ فيه بيانُ استحالةِ تحصيلِهِ مرّةً أخرى، وبه يَكْتَمِلُ عُنصرُ التّهديد بنوعٍ يسيرٍ مِنَ العذاب.

نوعُ الفاءِ ودلالَتُها:

تنبيهُ الغافِلين بخَطْفِ الأذهان إلى خُطورة التَّهديد

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَمَن يَأۡتِيكُم بِمَآءٖ مَّعِينِۭ﴾ واقِعَةٌ في جوابِ الشَّرط؛ لتَرْبطَ بَيْنَ الشَّرْطِ المُقدَّم: ﴿إِنۡ أَصۡبَحَ مَآؤُكُمۡ غَوۡرٗا﴾، وبين جوابِهِ: (من يأتيكم بماء معين)؛ ويَصِحُّ أيضًا أن تُجعل الفاءُ واقعةً في جواب جُملةِ ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ﴾، والمعنى: انتَبِهوا فمَن يأتيكم[4]؟ فجاءت الفاءُ لإفادة سُرعة الرَّبط بَيْنَ الشَّرط والنَّتيجة، وتنبيهِ المُخاطَبين إلى خُطورة الموقِف.

(1) القنّوجيّ، فتح البيان: 14/ 249، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 20/ 271.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 55.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 56.
(4) الأنصاريّ، إعراب القرآن: 1/ 445.

بلاغَةُ الاستفهامِ وغرضُهُ:

النّفيُ الكلّيّ والتّقريرُ يدلّان على قَصْرِ الأمرِ على معيَّنٍ

الاستفهام في قوله تعالى: ﴿فَمَن يَأۡتِيكُم بِمَآءٖ مَّعِينِۭ﴾ إنكاريٌّ تقريريٌّ، يُقصَد به نفيُ وجودِ أيِّ قادرٍ على الإتيانِ بالماءِ الظّاهر الجاري سِوى اللّهِ سُبْحانه، فالمعنى: لا أحدَ يملك أن يُظهر لكمُ الماءَ مِن باطنِ الأرض، ويُيَسِّرَ أخْذَهُ إلّا اللّه تعالى، وقد صيغَ الاستفهامُ بهذا الأسلوب ليَلْفِتَ الأنظارَ إلى عجزِ البشر، ويُقرِّرَ في نفوسِهم حقيقةَ تفرُّد اللّهِ تَعالى بالقُدرة والمُلك والتَّصرُّف، فهو وحده الَّذي يُنعِمُ بالماء، ويستطيعُ نزعَهُ متى شاء[1]، فالاستفهام هنا خارجٌ عن أصلهِ؛ ليُفيد غرضًا بلاغيًّا، وهو الإنكارُ والنَّفي، أي: لا أحد يأتيكُم بماء سهلِ المأخَذِ قريبٍ مِن وجه الأرض إلّا اللّه تَعالى، ففيهِ مَعْنَى القَصْرِ[2].

نكتَةُ تنكيرِ لفظِ (ماء):

التَّنكير دليلُ الكَثْرَةِ والوَفْرَة، ويلْفِتُ النَّظرَ إلى عظيمِ المُنعِمِ

نُكِّر لفظ (ماء)؛ لإرادةِ التَّكثير، وهو مأخوذٌ من دلالة السّياق؛ إذ الوعدُ بأن يأتيَ اللّهُ تَعالى بماءٍ مِن عندِهِ فيهِ إنعامٌ على العبادِ بَعْدَ مَنْعٍ، والإنعامُ كثرةُ النِّعَم الوفيرةِ بَعْدَ انقطاعِها، والمعنى: فمَن الَّذي يقدِرُ أن يُخرج لكم ماءً كثيرًا متدفِّقًا وفيرًا، ظاهرًا للعيون، جاريًا على وجه الأرض، لا يَنْقَطِع مَدَدُه، فتشربون منه، وتَنْتَفِعون بهِ في أنعامِكم وزُروعِكُم وأشجارِكم؟ فالتَّنكير دليلُ الكثرةِ والوَفرة يَلْفِتُ النَّظر إلى عِظَم النِّعمة[3].

بلاغَةُ وصْفِ الماءِ بالمَعين:

الإيماءُ إلى كثرة الماءِ الجاري المُبْصَرِ بالعيون

وُصف الماءُ في قوله تعالى: ﴿فَمَن يَأۡتِيكُم بِمَآءٖ مَّعِينِۭ﴾ بلفظ ﴿مَّعِينِۭ﴾، وهو على وزنِ: فعيل، وهو من (معن)؛ إذا جرى، وكَثُر، فالمعنى: فمَن يأتيكُم بماءٍ عَذْبٍ غزيرٍ كثير جارٍ، فيهِ وفرَةٌ وسَعة،

(1) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 316.
(2) السَّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 878.
(3) الثَّعالبيّ، الجواهر الحسان: 5/ 462، وقاسم، عقد الجمان: 1/ 1216.

وقد يكونُ من (عين)، أي: جارٍ كالعين الجاريةِ على وجه الأرض، والمَعْنى: ماء ظاهِر تُبصره العيون، وتتناوله الأيدي بسُهولَةٍ، والمعنيان مُتعاضدانِ، فأفادَت الصّيغَة معنى المبالغَةِ في الكثرة، أو معنى المفعوليَّة، أي: ماء مُعان، أي: مُبْصَر مَرْئيّ للعيون، وبهذا جَمَعَ الوصفُ بين وفرة الماءِ وسُهولةِ تناولِه، وكلتاهما نعمَةٌ عُظْمى لا يَمْلِكُها إلّا اللّه تَعالى[1].

بلاغَةُ فنِّ ردِّ الخِتام على صَدْرِ السّورة:

الملكُ كلُّه لله تَعالى الواحد القهّار ما ظهَرَ مِنْهُ وما بَطَنَ

افتتح اللّهُ تعالى هذه السّورةَ العَظيمَةَ بإظْهار عظيم برَكَتِه وكمالِ قُدْرَتِه وانفراده بالملك والتَّدبير، وبيَّنَ ذلكَ بتفرُّده بالإحياء والإماتة، ثُمَّ خَتَمَها بما يوازي المَطْلَعَ، ويؤكّدُه؛ فذَكَرَ الماء الَّذي هو عَصَبُ الحياة، وبه قِوامُ الأحياءِ، فإذا فُقِد؛ كان الهلاكُ والفناء، وبهذا جاء الختام جامعًا بَيْنَ مَطْلَعِ السّورة ومُنْتَهاها في أبلَغِ صورَةٍ مِن صوَرِ براعةِ الاستهلالِ والخِتامِ[2].

(1) ابن عطيَّة الأندلسيّ، المحرَّر الوجيز: 5/ 344، والثَّعالبيّ، الجواهر الحسان: 5/ 462، والقنّوجيّ، فتح البيان: 14/ 249.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 20/ 271.

سُورَةُ القَلَمِ

سُورَةُ القَلَمِ

التَّعريف العامُّ بالسّورة:

المكّيُّ والمدنيُّ وعد الآي:

سورة القلم مكّيَّة اتِّفاقًا، وقد ذَكَرَ ابنُ عطيَّة[1] والسُّيوطيُّ[2] الإجماعَ على ذلك، وتبعهم في ذلك كثيرٌ من المفسِّرين، وإن كان الماورديُّ قد نقل عن ابن عبّاس رضي الله عنه: أنَّها مكّيَّة من أوَّلها إلى قوله سبحانه: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ﴾، ومن بعد ذلك إلى قوله تعالى: ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ مدنيٌّ، ومن بعد ذلك إلى قوله: ﴿أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ﴾ مكّيٌّ، ومن بعد ذلك إلى قوله: ﴿فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ مدنيٌّ، وباقي السّورة مكّيٌّ[3][4]، ولا شكَّ أنَّه لم يثبت شيءٌ من الرِّوايات في ذلك، وموضوعاتُ السّورةِ وأساليبُها ممّا يتَّصل بالعهد المكّيِّ دون المدنيِّ، وأمّا عدد آياتها؛ فهي اثنتان وخمسون آية باتِّفاق علماء العدد[5].

ترتيب النُّزول وترتيب المصحف:

ترتيبها المصحفيُّ بين سورتَي الملك والحاقّة

سورة القلم هي الثّامنة والسُّتّون في التَّرتيب المصحفيِّ الشَّريف، وهو التَّرتيب الثّابت والمُعوَّل عليه عند أهل النَّظر والتَّحقيق، وقد جاء ترتيبُها بين سورتي المُلك والحاقَّة، وأمّا ترتيبها النُّزوليُّ؛ فقيل فيه: إنَّها السّورَةُ الثّانية نزولًا، نَزَلَتْ بَعدَ سورَةِ العلق وقَبلَ سورَةِ المزمِّل[6]، وقيل: بل هي الثّالثة نزولًا، بعد سورتي الفاتحة والعلق

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 345.
(2) السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 1/ 42.
(3) الماورديّ، النّكت والعيون: 6/ 59، والسّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 1/ 66.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 7.
(5) الدّاني، البيان في عدّ آي القرآن، ص: 252.
(6) السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 1/ 42.

وقبل سورة المزَّمِّل[1]، وقيل: بل هي الرّابعة، سبقتها سور: العلق، والمدثر، والمزمِّل[2]، وقيل غير ذلك.

فضائل السّورة:

سورة القلم من سور المفَصَّل

سورة القلم من طوال المفصَّل الذي قال فيه الحبيب ﷺ فيما رواه عنه واثلة بن الأسقع رضي الله عنه: "أُعطيتُ مكانَ التَّوراةِ السَّبعَ الطِّوالَ، وأُعطيتُ مكانَ الزَّبورِ المِئين، وأُعطيتُ مكانَ الإنجيلِ المثانيَ، وفُضِّلتُ بالمُفصَّلِ"[3].

اسم السّورة ومناسبة تسميتها:

سورةُ القلم اشتهرت بعدَّة أسماء

وردت تسميتها بسورة (القلم) في كثيرٍ من المصاحف، وفي صحيح البخاريِّ وردت تسميتُها بـ ﴿نٓ وَٱلۡقَلَمِ﴾[4]، وفي سنن التِّرمذي سورة ﴿نٓ﴾[5]، وقد ذكروا أنَّ تسميتها بهذا الاسم؛ لورود هذه الألفاظ في أوَّلها، وهذا الرَّأيُ ليس بشافٍ ولا كافٍ، فقد وردت ألفاظٌ في أوائل كثيرٍ من السّور، ومع ذلك لم تُسمَّ باسمها، وقد قام البقاعيُّ بالرَّبط بين أسمائها ومقصودها خيرَ ربطٍ، فقال: "ومقصودُها: إظهار ما سُتِر، وبيانُ ما أُبهم في آية: ﴿فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢٩﴾ [الملك: 29]، بتعيين المهتدي الذي بَرْهَن على هدايته حيازتُه العِلمَ الذي هو النّور الأعظم، الذي لا يضلُّ بمصاحبته، بتقبُّل القرآن، والتَّخلُّق بالفرقان، الذي هو صفة الرَّحمن، وأدلُّ ما فيها على هذا الغرض: ﴿نٓ﴾، وكذا: ﴿وَٱلۡقَلَمِ﴾؛ فلذا سُمّيت بكلٍّ منهما، وبالكلام على كلٍّ منهما يُعرف ذلك، وحاصله: أنَّ النّون مبيَّن محيط في بيانه، كما يحيط ضوءُ الشَّمس بما يظهره، وكما تحيط الدَّواة بمِدادها، بآية

---

(1) دروزة، التّفسير الحديث: 1/ 353.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 58.
(3) أخرجه أحمد في المسند، برقم: (16982)، والطّبرانيّ في الكبير: 22/ 76، برقم: (187)، والبيهقيّ في شعب الإيمان، برقم: (2192).
(4) البخاريّ في صحيحه، باب تفسير سورة القلم: 4/ 1869.
(5) التّرمذيّ في سننه، باب وَمِنْ سورَةِ: (ن): 5/ 424.

ما دلَّ عليه بمخرجه وصفاته، واستقراء الكلم الواقع فيها المعاني التي اشتركت في لفظه، وأمّا القلم؛ فإبانتُه للمعارف أمرٌ لا يُنكَر"[1].

والحقُّ أنَّ ما قاله هذا العالِمُ الألمعيُّ مرتبطٌ بمحورها العامِّ الذي يقوم على بيان أثر العِلم في العصمة من الوقوع في الكفر وفي الاتِّصاف بالأخلاق الرَّفيعة التي تحمي صاحبَها من الوقوع في العذاب.

المحور العام للسّورة:

محور سورة القلم يقوم على تثبيت النَّبيِّ ﷺ ورفع شأنه

إذا كان محورُ سورة المُلك يقوم على التَّعريف بصفات اللّه تعالى التي تستلزم خضوعَ العبادِ له وتسليمهم لقدرته، واستعراضَ الأدلَّة الكونيَّة على وجوده وملكوته، فإنَّ محور سورة القلم يقوم على تثبيت النَّبيِّ ﷺ والفئةِ المؤمنة معه أمامَ شبهات المشركين وافتراءاتهم حولَه وحولَ أصحابه، من خلال فضح المنظومات التَّعليميَّة والأخلاقيَّة، التي أقاموا عليها افتراءاتهم.

لذا فقد اقتضاها هذا المحور التعرض للأمور الآتية بالذِّكر:

أوّلًا: بدأت السورة آياتها بالقَسَم بالقلم وما يسطرون، بأنَّ هذا النَّبيَّ ليس بمجنون كما يزعمون، وبأنَّه على خُلقٍ عظيم.

ثانيًا: نهت السورة النَّبيَّ ﷺ عن طاعة أصنافٍ من النّاس ممَّن تجرَّدوا من القيم الأخلاقيَّة، كالمكذِّبين وكلِّ حلّافٍ مهينٍ، همّازٍ مشّاءٍ بنميم، منّاعٍ للخير معتدٍ أثيم، عُتُلٍّ بعد ذلك زنيم، ثمَّ توعَّدت أصحابَ هذه الصِّفات بأنَّه سيَسِمُهم على الخرطوم. وخاطبت المشركين بالحِجاج العقليِّ من خلال مجموعة من الأسئلة الإنكاريَّة المتتالية، التي تكشف زيفَ شبهاتِهم وافتقارَهم الأدلَّةَ في إثباتها؛ إذ إنَّها قامت على أسانيدَ واهية.

ثالثًا: ضربت السورة لأهل مكَّة أُنموذجًا في قصَّة أصحاب الجنَّة،

(1) البقاعيّ، مصاعد النّظر: 3/ 111.

وما أقسموا عليه من نيَّة السّوء، ثمَّ ما حلَّ بجنَّتهم، وتلاومهم بعد ذلك واتِّهامهم لأنفسهم بالظُّلم والطُّغيان، ولكن بعد فوات الأوان.

رابعًا: أوصت السورة النَّبيَّ ﷺ بأن يصبر على أذاهم، ولا يتعجَّل عليهم كما فعل يونسُ عليه السلام، الذي ابتلاه ربُّه بعد ذلك بأن يبتلعَه الحوتُ، ولولا نعمة ربِّه عليه بأن ألهمَه التَّسبيحَ والاستغفار لَلَبث في بطنه إلى يوم البعث؛ لذلك فعليه أن يصبر عليهم، واللّهُ تعالى ناصرُه عليهم.

موضوعات السّورة وخصائصها:

مَدارُ سورة القلم يدور حول تثبيت النَّبيِّ ﷺ وتبشيره بظهور دعوته

بُدِئت سورة القلم بالقَسم بالقلم؛ تعظيمًا له، ولنفي تُهَمِ المشركين ومزاعمِهم الباطلة، ووَصفِ النَّبيِّ ﷺ بالخُلق العظيم، وأردفت ذلك ببيان سوءِ أخلاق بعضِ الكفّار وافترائهم على الرَّسول ﷺ، وتهديدِهم بما أعدَّ اللّهُ لهم من العذاب الأليم، ثمَّ ضربت المثلَ لكفّار مكَّة بأصحاب الجنَّة بإحراقها وإتلافها؛ بسبب كفرِهم وجُحودِهم نعمةَ اللّه، وعزمِهم على منع حقوقِ الفقراء والمساكين، وقارنت بين المؤمنين والمجرمين، ووبَّخت المشركين على أحكامهم الفاسدة، وفنَّدت دعاويهم، وأقامت الحُججَ عليهم، وأبانت أحوالَهم في الآخرة وموقفَهم المُخزي، ثمَّ هدَّدت المشركين المُكذِّبين بالقرآن.

وخُتِمت السّورةُ بأمر النَّبيِّ ﷺ بالصَّبر على أذى المشركين، وحذَّرته من التَّبرُّم والتَّضجُّر في تبليغ دعوته، وأعلنت حمايتَه من أذاهم، ودحضت افتراءَهم بأنَّه مجنون، وردَّت عليهم بأنَّ القرآن عظةٌ وعِبرةٌ للعالَمين، فكيف يكون المُنزَّل عليه مجنونًا؟[1].

الخصائص الموضوعيَّة للسورة:

أولًا: امتازت سورة القلم ببراعة الاستهلال بقوله تعالى: ﴿نٓ

(1) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 29/ 42، 43.

تميّزت سورة القلم بموضوعات أفردتها عن غيرها من السّور

﴿وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾؛ إذ لم تشاركها فيه أيُّ سورةٍ أخرى، وقد ذكر الماورديُّ عشرة أقوال في معنى النّون: أوّلها: أنَّ النّون الحوت الذي عليه الأرض. الثّاني: أنَّ النّون الدَّواة. الثّالث: أنَّه حرفٌ من حروف الرَّحمن. الرّابع: هو لوح من نور. الخامس: أنَّه اسم من أسماء السّورة، وهو مأثور. السّادس: أنَّه قَسمٌ أقسم الله به، ولله تعالى أن يُقْسِم بما يشاء. السّابع: أنَّه حرف من حروف المعجم، وهذا الذي عليه أكثر العلماء. الثّامن: أنَّ نون بالفارسيَّة (كُن). التّاسع: معناه: تكوين الأفعال ﴿وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾. العاشر: أن يريد بالنّون النَّفْس؛ لأنَّ الخطاب متوجِّهٌ إليها بغير عينها بأوّل حروفها، والمُراد بالقلم: ما قدَّره الله لها وعليها من سعادة وشقاء؛ لأنَّه مكتوب في اللوح المحفوظ[1].

ثانيًا: تميَّزت سورةُ القلم بأنَّها تناولت قصَّةَ أصحاب الجنَّة؛ إذ لم تَرِد في غيرها من السّور.

الخصائص الأسلوبيَّة للسورة:

تفرَّدت سورة القلم بخصائص أسلوبية ميزتها عن غيرها من السّور

أولًا: تميَّزت سورةُ القلم بكثرة أسلوب الاستفهام التَّقريريِّ والإنكاريِّ فيها؛ إذ ورد نحو عشر مرّات[2].

ثانيًا: تميَّزت سورةُ القلم بتكرُّر حرف النّون فيها في جميع فواصلها، ممّا أعطاها إيقاعًا صوتيًّا مميّزًا تلاءمَ مع محورها، وترافقَ ذلك مع قصر آياتها وجَرْس صوتِها.

ثالثًا: تميَّزت سورةُ القلم بوفرة المشتقّات اللُّغويَّة وتنوُّعها، فقد حوت شتّى أنواع الأفعال الماضويَّة والمضارعة والأمر، وحوت أسماءَ كثيرةً كذلك، ومنها عدد كبير من صيغة اسم الفاعل، مثل:

---

(1) الماورديّ، النّكت والعيون: 6/ 60.

(2) الآيات: [28، 35، 36(2)، 37، 39، 40، 41، 46، 47].

﴿بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾، ﴿ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾، ﴿نَآئِمُونَ﴾، ﴿صَٰرِمِينَ﴾، ﴿قَٰدِرِينَ﴾، ﴿لَضَآلُّونَ﴾، ﴿ظَٰلِمِينَ﴾، ﴿طَٰغِينَ﴾، ﴿رَٰغِبُونَ﴾، ﴿مُصۡبِحِينَ﴾... ومن أسماء المفعول: ﴿بِمَجۡنُونٖ﴾، ﴿مَمۡنُونٖ﴾، ﴿ٱلۡمَفۡتُونُ﴾، ﴿مَحۡرُومُونَ﴾، ﴿مَكۡظُومٞ﴾، ﴿مَذۡمُومٞ﴾... ومن صيغ المبالغة: ﴿حَلَّافٖ﴾، ﴿هَمَّازٖ﴾، ﴿مَّشَّآءِۭ﴾، ﴿مَّنَّاعٖ﴾، ﴿عَظِيمٖ﴾، ﴿مَّهِينٍ﴾، ﴿بِنَمِيمٖ﴾، ﴿أَثِيمٍ﴾...

رابعًا: امتازت سورة القلم بكثرة شواهد الجناس الاشتقاقيِّ فيها، من مثل: ﴿فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ﴾، ﴿تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ﴾، ﴿بَلَوۡنَٰهُمۡ كَمَا بَلَوۡنَآ﴾، ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَآءُ فَلۡيَأۡتُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ﴾، ﴿فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٞ﴾، ﴿بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾، ﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡعَذَابُۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ﴾.

خامسًا: حَوَت سورة القلم قاموسًا معجميًّا من ألفاظ اليمين، فضلًا عن ابتدائها بالقَسم، وهي: ﴿حَلَّافٖ﴾، ﴿أَقۡسَمُواْ﴾، ﴿أَيۡمَٰنٌ﴾.

سادسًا: حَوَت سورة القلم كذلك قاموسًا من ألفاظ التَّعلُّم والتَّعليم، من مثل: ﴿نٓۚ﴾؛ إذ قيل في معناها عند مَن ذهب إلى أنَّها ليست من حروف المعجم المُقطَّعة أنَّ معناها الحِبر أو الدَّواة، ﴿وَٱلۡقَلَمِ﴾، ﴿يَسۡطُرُونَ﴾، ﴿أَعۡلَمُ﴾، ﴿أَسَٰطِيرُ﴾، ﴿يَعۡلَمُونَ﴾، ﴿كِتَٰبٞ﴾، ﴿تَدۡرُسُونَ﴾، ﴿يَكۡتُبُونَ﴾، ﴿ٱلذِّكۡرَ﴾.

سابعًا: تكرَّر في سورة القلم لفظ الجنون: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾، ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ﴾، ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ﴾، وذلك مرتبط بتنزيه النَّبيِّ ﷺ عن هذه الفرية.

ثامنًا: حَوت سورة القلم كذلك قاموسًا معجميًّا من ألفاظ المنظومة الأخلاقيَّة وأنساقها، فبدأت بوصف النَّبيِّ ﷺ بأنَّه على ﴿خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾، ثمَّ ذكرت من الأخلاق والفعال القبيحة: ﴿فَيُدۡهِنُونَ﴾، ﴿حَلَّافٖ مَّهِينٍ﴾، ﴿هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ﴾، ﴿مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ﴾، ﴿عُتُلِّۭ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾، ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، ﴿أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكُم مِّسۡكِينٞ﴾، ﴿لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ﴾.

تاسعًا: تميَّزت سورة القلم بأنَّها حَوت أبنية صرفيَّة لم تأتِ في غيرها من السّور، مثل: ﴿يَسۡطُرُونَ﴾، ﴿فَسَتُبۡصِرُ﴾، ﴿ٱلۡمَفۡتُونُ﴾، ﴿تُدۡهِنُ﴾، ﴿حَلَّافٖ﴾، ﴿هَمَّازٖ﴾، ﴿مَّشَّآءِۭ﴾، ﴿عُتُلِّۭ﴾، ﴿زَنِيمٍ﴾، ﴿سَنَسِمُهُۥ﴾، ﴿فَتَنَادَوۡاْ﴾، ﴿ٱغۡدُواْ﴾، ﴿فَٱنطَلَقُواْ﴾، ﴿يَتَلَٰوَمُونَ﴾، ﴿مَكۡظُومٞ﴾، ﴿تَدَٰرَكَهُۥ﴾، وغيرها.

عاشرًا: تميَّزت سورة القلم بأنَّها حَوت ألفاظًا فريدة في مادَّتها وبنائها الصَّرفيِّ، مثل: ﴿بِنَمِيمٖ﴾، ﴿زَنِيمٍ﴾، ﴿حَرۡدٖ﴾، ﴿ٱلۡخُرۡطُومِ﴾، كما انفردت بذكر مادَّة (صرم) في ثلاثة أبنية هي: ﴿لَيَصۡرِمُنَّهَا﴾، ﴿كَٱلصَّرِيمِ﴾، ﴿صَٰرِمِينَ﴾.

الحادي عشر: تميَّزت سورة القلم بوفرة الأنساق التَّعبيريَّة التي لم تتكرَّر في غيرها، حتّى تكاد تكون كلُّ أنساقها كذلك، ولكنَّنا نذكر بعضها على سبيل التَّمثيل: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾، ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾، ﴿وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ﴾، ﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ﴾، ﴿هَمَّازٖ مَّشَّآءِۢ بِنَمِيمٖ﴾، ﴿مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ﴾، ﴿عُتُلِّۭ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾، ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ﴾، ﴿إِذۡ أَقۡسَمُواْ لَيَصۡرِمُنَّهَا مُصۡبِحِينَ﴾، وغيرها.

مناسبة السورة لما قبلها:

سورة القلم متَّصلة تمامًا بسورة الملك مضمونًا وأسلوبًا

وأمّا وجهُ اعتلاقِ سورة القلم بسورة الملك؛ فيقول فيه الغرناطيُّ: "لَمّا تضمَّنت سورةُ المُلك من عظيم البراهين ما تعجز العقولُ من استيفاء الاعتبار ببعضه، كالاعتبار بخلق السَّماوات، كما أشعر خصوص اسم الرَّحمن بما في هذه الأدلَّة المبسوطة من الرَّحمة للخلائق لمن رُزِقَ الاعتبار، ثمَّ نبَّه تعالى على ما يدفع الرَّيب، ويزيح الإشكال؛ حتّى يصحَّ عندك ما أخبرت به بالمعاينة، ولا يبقى معك في ذلك شبهة: ﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ٣﴾ [الملك: 3]، أي: صدوع وشقوق، ثمَّ أمر تعالى بتكرير البصر فيهن متصفِّحًا ومتمتِّعًا، هل تجد عيبًا أو خللًا ﴿يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا﴾ [الملك: 4]، فَلِعظيم ما انطوت عليه سورةُ الملك من البراهين، أُتبِعت بتنزيه الآتي به ﷺ ممّا تقوَّله المُبطلون، مُقْسِمًا على ذلك؛ زيادةً في التَّعظيم، وتأكيدًا في التَّعزيز والتَّكريم، فقال تعالى: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ١ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾"[1].

(1) الغرناطيّ، البرهان في تناسب سور القرآن، ص: 343، 344.

وقد ربط الزُّحيليُّ بين السّورتَيْن في وجهَيْن:

ذَكَرَ اللّٰهُ تعالى في آخر سورة تبارك الملك تهديدَ المشركين بتغوير الماء، وذَكر في سورة القلم دليلًا على ذلك، وهو إذهابُ ثمرِ البستان في ليلة بطائف طاف عليه، وهو نار من السَّماء أحرقته، وهم نائمون، فلم يجدوا له أثرًا.

ذكر اللّٰهُ تعالى في سورة الملك أدلَّةَ قدرتِه الباهرة وعلمِه الواسع، وأثبت البعث، وهدَّد المشركين بالعذاب الأليم في الدُّنيا والآخرة، وحثَّهم على الإيمان باللّٰه وحده لا شريك له، وبالبعث وبالرَّسول محمَّد ﷺ، ثمَّ برَّأ اللّٰهُ نبيَّه ﷺ في مطلع سورة القلم من أباطيل المشركين، ونسبتهم رسولَ اللّٰه ﷺ إلى السِّحر أو الشِّعر أو الجنون، وأثنى عليه بالخُلُق العظيم[1].

(1) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 29/ 41، 42.

﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ١ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ٤﴾

[القلم: 1 - 4]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

سورة القلم بيان لما أُبهِم وتتميمٌ لما بُدِئَ في سورة المُلك

ذكرَ البقاعيُّ أنَّ المقصودَ من السّورة تبيينُ ما أُبهمَ في سورةِ المُلك، بتعيينِ مَن هو في ضلالٍ مُبين، فقال: "لمّا أبهمَ الضّالَّ والمُهتدي في آخرِ (المُلك)، والمُسيءَ والمُحسن في العملِ أوَّلَها؛ افتتحَ هذه السّورة بكلمة (البيان)، وهو اسمُ الحرفِ الَّذي هو آخرُ حروفِ تلك ﴿مَّعِينِۭ ٣٠﴾ [الملك: 30]، ومِن لوازمِ بعضِ ما دلَّ عليه الماءُ الَّذي هو الحياةُ المُصحِّحة، ونبَّهَ على نصبِهِ له سُبحانه دليلًا على العلْمِ بما دلَّ عليه مِن مَخرجِ مُسمّاه وصفاتِه ومَواقعِه في الكَلِمِ في جميعِ تقلُّباتِه"[1]، وقيلَ: "وجهُ المناسبة: أنَّ سورةَ (الملك) اختُتِمتْ بالوعيد: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَصۡبَحَ مَآؤُكُمۡ غَوۡرٗا فَمَن يَأۡتِيكُم بِمَآءٖ مَّعِينِۭ ٣٠﴾ [الملك: 30]، واشتملَتْ سورةُ (القلم) في أوائلها عليه، وقال الجلالُ السُّيوطيُّ في ذلك: لمّا ذكر في آخرِ سورةِ المُلك التَّهديدَ بتغويرِ الماءِ؛ استظهرَ عليه في سورة القلم بإذهابِ ثمرِ أصحابِ البُستان"[2]، وقال الهرريُّ: "إنَّه ذُكِرَ في آخرِ (المُلك) تهديدُ المشركينَ بتغويرِ مائهم في الأرض، وذُكِرَ هنا ما هو كالدَّليلِ على ذلك، وهو ثمرُ البُستانِ الَّذي طافَ عليه طائفٌ، فأهلكَهُ، وأهلكَ أهلَهُ، وهُم نائِمون"[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نٓۚ﴾: حَرْفٌ مَجْهورٌ أغَنُّ، فيهِ نونانِ بَيْنَهما واوٌ، وهي مَدَّة، وهو مِن حُروفِ الزّيادَةِ، تُزادُ في الأسماءِ والأفعالِ، والنّونُ:

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 274.
(2) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 10/ 1522.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 74.

(الدَّواةُ)، وبه فُسِّرَ قوْلُه: ﴿نٓ وَٱلۡقَلَمِ﴾، وقيلَ: (الحوتُ)، وقالَ الأزْهريُّ: ﴿نٓ وَٱلۡقَلَمِ﴾ لا يَجوزُ فيهِ غَيْرُ الهِجاءِ، ألا تَرَى أنَّ كُتّابَ المصْحَفِ كَتَبوه ﴿نٓ﴾، ولَو أُريدَ بِهِ الدَّواةُ أو الحوتُ؛ لكُتِبَ (نون)، والنّونُ تُذكَّرُ، وتُؤنَّثُ، والنِّسْبَةُ (نونيٌّ)، وقد نَوَّنْتُ نونًا حَسَنًا وحَسَنَةً، وجَمْعُه أنْوانٌ ونوناتٌ[1]، والمرادُ به في الآية: حرفٌ من حروفِ المُعجَم، جيءَ بِهِ للتَّحدّي والإعجازِ.

2) ﴿وَٱلۡقَلَمِ﴾: أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على تسويةِ شيءٍ عندَ بَرْيِهِ وإصلاحِهِ، ومِن هذا البابِ سُمّي القلَمُ قلَمًا؛ لأنَّه يُقلَمُ منه، ثمَّ شُبِّهَ القَدَحُ به، فقيلَ: قلَمٌ[2]، والمِقلَم: طرفُ قضيبِ البَعير، والقلَمُ: قطعُ الظُّفرِ بالقَلمَيْنِ وبالقَلَم، والقُلامةُ: ما يُقْلَمُ منه[3]، والقَلَمُ: الذي يُكتَبُ به[4]، واليَراعَةُ، أو إذا بُريَتْ[5]، والتَّحقيقُ: أنَّ الأصلَ الواحدَ في المادَّة هو البَرْيُ والتَّهيئةُ والعملُ، حتّى يكونَ وسيلةً في ضبطِ أمرٍ وإحداثِهِ ونَظْمِهِ[6]، والمرادُ بهِ في الآية: الآلةُ المعروفةُ الَّتي يُكتبُ بها بقرينةِ ﴿يَسۡطُرُونَ﴾.

3) ﴿يَسۡطُرُونَ﴾: أصلٌ مطَّردٌ يدلُّ على اصطفافِ الشَّيءِ، كالكتابِ والشَّجرِ[7]، وسَطَرتُ الكتابَ سَطْرًا - من بابِ قتلَ -: كتبتُهُ، والسَّطرُ الصَّفُّ منَ الشَّجرِ وغيرِه[8]، والمرادُ به في الآيةِ: الكتابةُ والتَّدوين.

4) ﴿بِمَجۡنُونٖ﴾: (جنّ) أصلٌ واحدٌ، وهو السَّترُ والتَّستُّرُ، والجِنَّةُ: الجُنونُ، وذلك أنَّه يُغطّي العقلَ[9]، وجُنَّ الرَّجلُ، وأجَنَّه اللّٰهُ؛ فهو مَجنونٌ، وهُم مَجانينُ[10]، والمرادُ به في الآيةِ: زَوالُ العقلِ والاضطرابُ في الأحكامِ والأقوالِ والأفعال.

5) ﴿مَمۡنُونٖ﴾: (منن) أصلانِ، أحدُهما: يدلُّ على قطعٍ وانقطاعٍ. والآخرُ: على اصطناعِ

(1) الزّبيديّ، تاج العروس: (نون).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قلم).
(3) الخليل، العين: (قلم).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (قلم).
(5) الزّبيديّ، تاج العروس: (قلم).
(6) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 9/ 294.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سطر).
(8) الفيوميّ، المصباح المنير: (سطر).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جنن).
(10) الخليل، العين: (جنن).

خيرٍ، ومنَ الأوَّلِ: مَنَنْتُ الحبلَ: قطعتُه، ومنَ الثّاني: منَّ يَمُنُّ مَنًّا؛ إذا صَنعَ صُنعًا جميلًا[1]، ومَنَّ عليهِ بالعتق وغيرِه مَنًّا، وامتنَّ عليهِ به أيضًا: أنعمَ عليهِ بهِ، ومَنَنْتَ عليهِ مَنًّا: عددتَ لهُ ما فعلتَ له منَ الصَّنائعِ[2]، والمرادُ به في الآيةِ: أجرٌ وثوابٌ غيرُ مقطوعٍ، ولا بِمِنَّة عليك معًا.

❁ المَعنى الإجماليُّ:

القَسَمُ المُعجز المُؤكَّد احتفاءٌ وتكريم للنَّبيِّ محمَّد ﷺ

(النّونُ) حرفٌ من حروفِ المُعجم الَّتي بُدِئتْ بها بعضُ السّوَرِ؛ للتَّحدّي والإعجاز، وأقسمَ اللّه بالقلَم الَّذي يُكتَبُ به؛ إظهارًا لمكانتِه، والمُقْسَمُ عليه انتفاءُ الجُنونِ عنك - أيُّها النَّبيُّ المُكرَّم - بسببِ نعمةِ ربِّك عليك ورحمتِه بك، وإنَّ لك - لمُقاساتِك ألوانَ الشَّدائد وأنواعَ المَتاعب - لثوابًا عظيمًا وأجرًا جسيمًا غيرَ مَقطوعٍ معَ عظمةٍ، أوْ غيرَ مَمنونٍ به عليك مِن النّاس، وإنّك لمُستمسِكٌ بمكارمِ الصِّفات ومَحاسِنِ الخِلالِ الَّتي طبعَك اللّهُ عليها، وأدَّبَك بها، فلَكَ خُلُقٌ لا يُدرِكُ شَأْوَهُ أحدٌ منَ الخَلْق، تحتملُ من جهتِهم ما لا يَحتمِلُ أمثالُكَ من أولي العَزْمِ[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مَعنى ﴿نٓ﴾ والغرضُ منهُ:

التَّحدّي قبلَ البَيان أوضَحُ بُرهان

ابتدأ النَّظمُ الكريم السّورةَ بأحدِ الحروفِ المُقطَّعة، فقال تعالى: ﴿نٓ وَٱلۡقَلَمِ﴾، والرّاجحُ في الأحرفِ المقطَّعة أنّها أُتيَ بها للإعجازِ والتَّحدّي، فهي تُشيرُ إلى أنَّ هذا القرآنَ من جنسِ حُروفكم وكلامِكم، ومع ذلك لا تقدرونَ على مُعارضتِه والإتيانِ بمثلِه، وبه يحصلُ التَّحدّي والإعجاز قبلَ البيان؛ ليكونَ أوضحَ بُرهانٍ على

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (منن).
(2) الفيوميّ، المصباح المنير: (منن).
(3) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 10/ 1525 وما بعدها.

الحقّيَّة والصِّدق، وقيل: هي سِرٌّ استأثرَ اللّهُ تعالى بعلمِه، "وقيلَ: اسمٌ للسّورة، وقيل: اسمٌ للدَّواة، وتوقَّفَ عندَها الزَّمخشريُّ بقولِه: وأمّا قولهم: هو الدَّواةُ؛ فما أدري أهو وضعٌ لغويٌّ أم شرعيٌّ؟ ولا يخلو إذا كان اسمًا للدَّواة من أنْ يكونَ جنسًا أوْ عَلَمًا، فإنْ كان جنسًا؛ فأينَ الإعرابُ والتَّنوين؟ وإنْ كان عَلَمًا؛ فأينَ الإعرابُ؟ وأيُّهما كان؛ فلا بدَّ له من موقعٍ في تأليفِ الكلام، فإن قلتَ: هو مُقسَمٌ به؛ وجبَ - إنْ كان جنسًا - أنْ تَجُرَّهُ وتنوِّنَهُ، ويكونُ القَسَم بدواةٍ مُنكَّرةٍ مجهولةٍ، كأنَّه قيل: (ودَواةٍ والقلم)، وإنْ كان عَلَمًا أنْ تصرفَهُ، وتَجُرَّهُ، أو لا تصرفَه، وتفتحَهُ للعَلَميَّة والتَّأنيث، وكذلك التَّفسيرُ بالحوتِ، إمّا أن يُراد نونٌ من النّينان، أو يُجعلَ عَلَمًا لليَهموتِ[1] الَّذي يزعُمونَ، والتَّفسيرُ باللَّوح من نورٍ أوْ ذهبٍ، والنَّهر في الجنَّة نحوَ ذلك"[2].

معنى (الواو) ودلالتُها في ﴿وَٱلْقَلَمِ﴾:

نفيُ الشَّكِّ والرَّيب عن المُبْرَّأ من كلِّ خلَلٍ وعَيب

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بـ(الواو) في قوله تعالى: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ﴾؛ للدَّلالة على القَسَم، والغرضُ منه تأكيدُ الكلام المُقسَم عليه، قال الماتريديُّ: "القَسَمُ لتأكيدِ ما يَقصِدُ من الأمرِ"[3]، والإشارةُ إلى أنَّه أمرٌ فيه شكٌّ وريبٌ عند الخصمِ، فيحتاجُ إلى قَسَمٍ لإثباتِهِ وبيانِ صحَّتِه، كما يدلُّ القَسَم على تعظيمِ المُقسَم به، وأنَّه أمرٌ بالغُ الأهمّيَّة، حتّى إنَّه صار آلةً للقَسَم مُثبِتًا للمُراد.

القلَم بينَ الدَّلالة المطابقيَّة والالتزاميَّة:

القلَمُ آلةُ تدوين المَعلومات وتنقيحِ التَّصوُّرات

جاء القَسَم بـ(القلَم) في قوله تعالى: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ﴾؛ واختُلف في المرادِ به اختلافًا كبيرًا، والرّاجحُ أنَّه الآلةُ المعروفةُ في الكتابةِ على اختلافِ هَيئاتها، بقرينةِ قولِه: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾، والغرضُ من

(1) اسمٌ للحوت الّذي عليه الأرضُ، الزّبيديّ، تاج العروس: (يهموت).

(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 566، ومجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 10/ 1524.

(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 10/ 135.

القسَم بالآلةِ المعروفةِ الإشارةُ إلى أهمّيَّةِ (القلَم) في التَّعلُّم وتثبيتِ المعلوماتِ، وجَعْلِها محفورةً في الأوراق، وأنَّه أمضى من السَّيف في نُصرةِ الحقِّ وتبيينِه، قال الهرريُّ: "أقسمَ الله سبحانه بالقلَم؛ لما فيهِ منَ البيان"[1]، فهو آلةٌ لسَكْبِ المعلومات وتنظيمِها في الأوراق، بحيثُ تبدو مكتوبةً منظَّمةً متناسِقة، والله تعالى يقسِمُ بما شاء من مخلوقاتِه؛ لفتًا للانتباه إلى أنَّها مخلوقاتٌ تشتملُ على الحكمةِ البالغة والمصالحِ العجيبة، وفي مادةِ (القلم) الإزالةُ والتَّنقيح من الأطرافِ كـ(مقلمة الأظافر)، فهي آلةٌ تُزيلُ بعضَ المكتوبِ غيرِ المُحكم، وتعملُ على تنقيحِ المكتوب وتهذيبِه ممّا يعلَق به، كما أنَّ (القلمَ) في حَدِّ ذاته يُبرَى من أطرافِه، وتُزالُ منه الزَّوائد حتّى يُكتبَ به، فهو يُشيرُ إلى الدِّقَّةِ في الصُّنعِ والإتقانِ في البَرْيِ.

دلالةُ المجازِ الحَذْفيِّ في ﴿وَٱلْقَلَمِ﴾:

ذِكرُ آلةِ الكتابِ يَستلزِمُ ذِكرَ الكُتّاب

أُقسِمَ بـ(القلَم) في قوله تعالى: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ﴾، والمرادُ به على ما جَوَّزَهُ الزَّمخشريُّ: أصحابُه، ويكونُ الضَّميرُ في قوله: ﴿يَسْطُرُونَ﴾ لهم، كأنَّه قيلَ: أُقسِمُ بأصحابِ القلَمِ ومَسطوراتِهم أوْ تسطيرِهم"[2]، فيكونُ ضميرُ (الواو) راجعًا إلى محذوفٍ دلَّ عليه الكلامُ.

دلالةُ التَّعريفِ في (القلَم):

حقيقةُ القلَم نافعةٌ لجميعِ الأُمَم

عرَّف النَّظمُ الكريم (القلَم) في قولِه تعالى: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ﴾؛ للدَّلالة على الجنسِ والماهيَّة المعهودةِ في الذِّهن، فـ"هو واقعٌ على كلِّ قلمٍ يُكتَبُ به"[3]، فالمُرادُ به هذه الحقيقةُ المعيَّنةُ في الذِّهن، المُتحقَّقةُ في كلِّ قلم، قال القونويُّ مُرجِّحًا له: "لعدم قرينةٍ قويَّةٍ عَلَى أنَّ المُرادَ به فردٌ معيَّن، فيرادُ به فردٌ غيرُ معيَّن، أوْ جميعُ الأفراد، وفي التَّلويح قد تَعُمُّ النَّكرةُ، بدليلٍ يدلُّ عَلَى العموم، والدَّليلُ هنا عليه عدمُ

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 80.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 584.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 80.

اختصاصِ القسَم بفردٍ دونَ فردٍ، ومثل هذا كافٍ في الخطابيّات"[1]، وقيل للعهدِ: "قالَ جماعةٌ من المفسِّرين: المرادُ به القلَمُ الَّذي كُتِبَ به اللَّوحُ المَحفوظ، أقسمَ اللّه بِه تعظيمًا له"[2]، ورجَّح الطِّيبيُّ الأوَّلَ بقوله: "وهو واقعٌ على كلِّ قلم يَكتبُ في السَّماء والأرض، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق: 4 - 5]، ويؤيِّدهُ قوله: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾"[3]، في حين أجازَ البقاعيُّ الجنسَ والاستغراقَ بقوله: "لمّا كانَ الحاصلُ بـ(القلم) من بثِّ الأخبارِ ونَشْرِ العُلوم على تشعُّبِها والأسرارِ ما يفوقُ الحَصْرَ، فصارَ كأنَّهُ العالمُ المُطيق، واللَّسَنُ المِنطيق، وكانَ المرادُ به الجنسَ؛ أسندَ إليه كما يُسنَدُ إلى العُقلاءِ، فقال: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾، أي: قلمُ القُدرة، وجمعَهُ، وأجراه مجرى أولي العِلْمِ للتَّعظيم؛ لأنَّه فعلُ أفعالِهم، أوِ الأقلامُ على إرادةِ الجنس"[4].

عَظَمةُ المُقسَم به (القلَم):

للقلَم أفضالٌ كثيرة منها المجهولةُ والشَّهيرة

أقسمَ اللّهُ تعالى بالقلَم في قوله تعالى: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ﴾؛ للدَّلالة على عظمةِ المُقسَم ومَكانتِهِ وأهمّيَّتِه، فهو "يَجْري عَلَى سُنَنِ الأقسامِ الصّادِرَةِ في كَلامِ اللّه تعالى أن تَكونَ بأشياءَ مُعَظَّمَةٍ دالَّةٍ عَلَى آثارِ صِفاتِ اللّه تعالى"[5]، قال الطِّيبيُّ: "فمَنَّ بتيسيرِ الكتابة بالقلَم، كما مَنَّ بالنُّطق، فقال: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ [الرّحمن: 3 - 4]، ووجهُ الانتفاع به أنَّه يُنزِّلُ الغائبَ منزلةَ المُخاطَب، فيتمكَّنُ المَرءُ من تعريفِ البعيدِ به ما يتمكَّنُ باللِّسان من تعريفِ القريب[6]، وأشارَ الهرريُّ إلى رَمزيَّة (القلم) بقوله: "وقد أقسمَ سُبحانَه بالقلم والكُتُبِ فتحًا لبابِ التَّعليم بهما، ولا يُقسِمُ ربُّنا إلّا بالأمورِ العظام،

(1) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 220.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 80.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 599، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 567.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 285.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 60.
(6) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 567.

فإذا أقسمَ بالشَّمس والقمر واللَّيل والفجر، فإنَّما ذلك لعَظَمةِ الخَلْقِ وجمالِ الصُّنع، وإذا أقسمَ بالقلم والكَتْب؛ فإنَّما ذاك ليَعُمَّ العِلْم والعِرفان، وبه تتهذَّبُ النُّفوسُ، وترقَى شؤونُنا الاجتماعيَّة والعِمرانيَّة"[1]، وإنَّما استحقَّ قلمُ الملائكةِ أنْ يُقْسَم به؛ لأنَّهم يكتبونَ به ما في اللَّوح المحفوظ، ويُسجِّلون به في صحائفِهم أعمالَ النّاس، وأمّا استحقاقُ القلم الَّذي يكتبُ به النّاسُ؛ فلِكَثرةِ مَنافعِهِ وعظيمِ فوائدِهِ، ولو لم يكنْ له مَزيَّةٌ سوى تسجيلِ كُتُب اللّه ﷻ؛ لكفى به فضلًا موجبًا لتعظيمِه، كيف لا وهو الَّذي يُنْشَر به العِلمُ، وتُحَرَّر به الفنونُ والآدابُ، وتُذاعُ به المعارفُ والأخلاقُ والفضائل؟"[2].

رمزيَّةُ ذِكرِ (القلَم):

آلةُ التَّدوين رمزٌ لكتابةِ القُرآنِ المُبين

رمزَ النَّظمُ القرآنيُّ بـ(القلَم) في قولِه تعالى: ﴿نٓ وَٱلۡقَلَمِ﴾، إلى أنَّ هذا القرآنَ المقروءَ نزولًا يُكتَبُ، ويُدوَّنُ، ويُصبِحُ كتابًا بالقلَم يُعتمَدُ على مَعلوماته، ويوثَقُ بأحكامِهِ لدقَّتِها ونفاستِها وجَودتِها وإعجازِها، "وَمِن فوائدِ هَذا القسم: أنَّ هَذا القُرآنَ كِتابُ الإسلام، وأنَّهُ سَيَكونُ مَكْتوبًا مَقروءًا بَينَ المُسْلِمينَ، ولِهَذا كانَ رَسولُ اللّه ﷺ يَأْمُرُ أصحابَهُ بِكِتابَةِ ما يوحَى بِهِ إلَيه"[3]، فيكونُ النَّظمُ الكريم قد ذَكَر (القلم)، وأرادَ به لازمَهُ، وهو الكتابةُ والتَّدوينُ للكُتبِ، وأعظمُها القرآنُ الكريم، وأنَّه في أصلِهِ مكتوبٌ في اللَّوح المحفوظ، لكنَّه يَنزلُ مقروءًا؛ ليوضَعَ في كتابٍ، ويُحفظَ فيه بآلة القلَم، وفيه رمزٌ لأهمّيَّة القَلم وخطورتِهِ في تدوينِ أعظَم الكُتُب، وهذا ما رجَّحَهُ ابنُ عاشور في قولِه: "القَلَمُ المُقْسَمُ بِهِ قيلَ: هوَ ما يُكَنَّى عَنهُ بِالقَلَم مِن تَعَلُّق عِلْم اللّه بِالمَوجوداتِ الكائِنَةِ الَّتي سَتَكونُ، أو هوَ كائِنٌ غَيْبيٌّ لا يَعلَمُهُ إلّا اللّه، وعَن مُجاهِد وقَتادَة: أنَّهُ القَلَمُ الَّذي في قَوْلِهِ تعالَى: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 77.

(2) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 10/ 1525.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 60.

﴿ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق: 4 - 5]، قُلْتُ: وهَذا هوَ المُناسِبُ لِقَوله: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ في الظّاهِرِ، وهوَ الَّذي يَقتَضيه حالُ المُشركينَ المَقصودينَ بِالخِطابِ، الَّذينَ لا يَعرفونَ إلّا القَلَمَ الَّذي هوَ آلَةُ الكِتابَةِ عِندَ أهلِ الكِتابِ، وعِندَ الَّذينَ يَعرِفونَ الكِتابَةَ مِنَ العَرَبِ"[1].

معنى (الواو) في ﴿وَمَا﴾:

عبَّر النَّظمُ الكريمُ بـ(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾؛ للدَّلالة على العطفِ على المُقسَم به الَّذي هو القلَم[2]، فيكونُ للجمع والاقترانِ بينَ (القلم وما يسطرونَ) في كونِهما للقَسَم، والغرضُ من العطف بيانُ المُقسَم به الثّاني؛ فكلٌّ من (القلم وما يسطرونَ) مُقسَمٌ بهما، وأُريدَ بالعطف تحديدُ القَلَم المُقسَم به، أنَّه مستعمَلٌ في تسطيرِ المعلومات وتنظيمِها بكلِّ دقَّةٍ وإحكام، فليس القلَمُ يكتبُ بعَبَث، بل يضعُ الأسطُرَ المنظَّمة بكلِّ عنايةٍ وإتقانٍ، فيكونُ العطفُ ترشيحًا للكنايةِ في (القلم).

ما يَسطُرون تنظيمُ المكتوبِ لقومٍ يُؤمنون

(ما) في ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ بينَ المصدريّةِ والموصوليَّة:

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بـ(ما) في قولِه تعالى: ﴿وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾؛ للدَّلالة على المصدريَّة أوِ الموصوليَّة، أي: أُقسم بالقلَم وسَطرِهم، أو: القلَمِ والَّذي يَسطرونَهُ بهِ، أعني: الكتاب، ولمّا كان المعنى المصدريُّ بمعنى: المفعولِ، أي: المَسطور، فإنَّه يؤولُ إلى الدَّلالةِ الموصوليَّة، فيكونُ القَسَمُ بالقلم والمسطورِ به، قال الهرريُّ: "ويجوزُ أنْ تكونَ (ما) مصدريَّةً، أي: وبَسَطْرِهم وكِتابتِهم، فأقسمَ أوَّلًا بالقلَم، ثمَّ بِسَطرِ الملائكةِ أو بمَسطورِهم، فالمُقسَمُ به شيئانِ"[3]، وأفادَتْ (ما) الموصوليَّة العمومَ والإبهامَ؛ رفعًا لشأن ما يَسطرونَهُ، وتنويهًا باتِّساعه وعَظَمتِهِ ودلالاتِه الثَّرَّةِ العَجيبة.

المَسطورُ العجيب دعوةٌ للانتفاعِ بهِ مِن كلِّ أريب

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 60.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 81.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 81.

دلالةُ الفعلِ ﴿يَسۡطُرُونَ﴾ صيغةً:

استمرارُ كتابةِ القُرآنِ لصلاحِهِ لكلِّ زَمانٍ ومَكان

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بصيغة الفعلِ المضارعِ في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾؛ للدَّلالة على التَّجدُّدِ الاستمراريِّ لما يَكتبونه، ويُدوِّنونه[1]، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ هذا الكتاب المُنَزَّل سوفَ يستمِرُّ كَتْبُهُ وتدوينُهُ وتناقلُهُ في الصُّحفِ والأوراق؛ لصلاحيَّتِهِ لكلِّ زمانٍ ومَكان، وأنَّ تفسيرَهُ مُتجدِّدٌ ومُتحرِّكٌ بحركةِ مَعانيهِ الثَّرَّةِ.

دلالةُ الفعلِ ﴿يَسۡطُرُونَ﴾ مادَّةً:

توصيفُ المكتوبِ بالاطِّراد أبلغُ ردٍّ على المتَّهمينَ له بالاضطِراب

عبَّرَ النَّظمُ الكريم عن الكتابةِ بالسَّطْر، في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾ دونَ (يكتبونَ) مثلًا؛ للدَّلالة على أنَّ هذا المكتوبَ مُنتَظِمٌ انتظامَ السَّطْرِ، ومُتتابِعٌ تتابُعَ الأسطُر، ففي مادَّةِ السَّطر دلالةُ الانتظام والتَّتابُع[2]، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّه كتابٌ منظَّمٌ تتوالى أفكارُهُ تواليًا عجيبًا، بحيث يُحِسُّ بانتظامه المتراصفِ، واختارَ (السَّطر) دونَ الكتابة؛ لأنَّهم اتَّهموا قائلَهُ بالجُنون، وما يصدرُ عن المجنون عادةً يكونُ غيرَ مُنتظَم في معانيهِ ولا في تتابُعِهِ، فيكونُ القَسَم بذلك الأمرِ الموصوفِ بالانتظامِ أجلى في ردِّ ذلك الاتِّهام الدّالِّ على الاضطرابِ العقليِّ، فيكون انتظامُهُ وتسطيرُهُ منتظمًا أبلغَ في منعِ ذلك الاضطرابِ المُدَّعى.

تحديدُ مَرجِعِ الضَّمير في ﴿يَسۡطُرُونَ﴾:

الـكَـمُّ الـوفير يتعاهَدُ كتابةَ النَّظمِ المُنير

أسندَ النَّظمُ الكريم الفعلَ ﴿يَسۡطُرُونَ﴾، في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾ إلى (واو) الجماعة؛ للدَّلالة على أنَّ عمليَّةَ التَّدوين والكتابةِ والتَّسطير تحصلُ من كمٍّ وفيرٍ، سواءٌ أُريد بها الملائكةُ في كَتبِهِم لهُ باللَّوحِ المحفوظ، أَوْ كَتبةُ الوحي في زمنِ النُّزولِ وبعدَهُ في المصاحِف، وفي ذلك دلالةٌ على أنَّ عمليَّةَ تسطيرِهِ وكتابتِهِ لا تتوقَّفُ،

(1) القزوينيّ، الإيضاح في علوم البلاغة: 2/ 113.

(2) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 5/ 127.

ولا تتباطأُ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، قال الهرريُّ: "الواوُ عائدٌ على أصحابِ (القلَم) المدلولِ عليهم بذِكرِه؛ لأنَّ ذِكرَ آلةِ الكتابةِ يدلُّ على الكاتب، والمعنى: وبالكتابِ الَّذي يَسطُرُه الكاتبونَ من الملائكةِ وغيرهم، أي: وبما تكتبُهُ الملائكة في صُحُفِهم، التي يكتبونَ فيها المقاديرَ الَّتي تقعُ في العالَم، يَنتسِخونَ ذلك من اللَّوح المَحفوظ، أوِ المُرادُ به ما تكتبُهُ الحَفَظةُ الموكَّلونَ ببني آدمَ من أعمالِهم"[1]، فتكونُ (ما) حينَئذٍ مَوصولًا اسميًّا بمعنى (الكتاب).

دلالةُ الإسنادِ المجازيِّ في ﴿يَسۡطُرُونَ﴾:

تعظيمُ القلم لتعظيمِ القَسَم والرَّسولِ الأكرَم

أسندَ النَّظمُ الكريمُ الفعلَ (يَسطُرُ) إلى ضميرِ الجمعِ (الواو)، في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾؛ وهو إسنادٌ مجازيٌّ عقليٌّ من نسبةِ ما للشَّيءِ إلى آلتِه؛ بناءً على أنَّ الضَّمير في قولِهِ سُبحانه: ﴿وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾ للقَلَم؛ مُرادًا به قلمُ اللَّوح، وعُبِّر عنه بضميرِ الجمعِ؛ تعظيمًا له أوْ للقلَم، لكن يُراد به جنسُ ما به الخطُّ، فضميرُ الجمعِ لتعدُّدِه، لكنَّه ليس بكاتبٍ حقيقةً، بل هو آلةٌ للكاتب، فالإسنادُ إليه إسنادٌ إلى الآلةِ مَجازًا، والتَّعبيرُ عنه بضميرِ العُقلاء؛ لقيامِه مُقامَهم وجَعْلِه فاعلًا"[2]، فالغَرضُ من الإسنادِ للقلَم التَّعظيمُ له؛ للدَّلالة على تعظيمِ القَسَم نفسِه، والحكمةِ الَّتي جاء القَسَمُ لأجلها، وهي تبرئةُ ساحةِ النَّبيِّ ﷺ ممّا اتُّهِمَ به، وإثباتُ الخُلقِ العَظيم له.

دلالةُ تقديمِ القَسَمِ بـ(القلم) على (الكتابةِ):

تـقـدُّمُ الأقـلامِ كتَقدُّمِ اللِّسانِ على الكلام

قدَّمَ النَّظمُ الكريمُ القَسَمَ بـ(القلم) على القَسم بالكتابةِ، في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ الكتابة لا تتحقَّقُ في الوجودِ الخارجيِّ من دونِ الآلةِ والسَّبب، فيكونُ من تقديمِ السَّببِ على المسبَّب، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ تقدُّمَ القلَمِ في الوجود على الكتابة،

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 81.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 28.

مثلُ توقُّفِ النُّطقِ على اللِّسان، وأنَّ ذَينك آيتانِ من الآيات، ومِنّتان عظيمتانِ من المِنَن، ولذا لم يكتفِ النَّظمُ الكريمُ بالقَسَمِ بما يكتبونَ، بل ذكرَ آلةَ ذلك؛ لعجيبِ التَّوصُّلِ إليه ودلالةِ اكتشافِه.

أثرُ التَّعريفِ في (القلَم) لتحديدِ الضَّميرِ في ﴿يَسۡطُرُونَ﴾:

كلُّ الخلائقِ تُصغي لنداءِ الخالِق

يتأثَّرُ تحديدُ مرجِعِ الضَّمير في قولِه تعالى: ﴿وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾ على تحديدِ نوعِ التَّعريفِ في لفظ (القلَم)، فإن كان المرادُ به القلَمَ المعهودَ الَّذي خُطَّ به اللَّوحُ المحفوظ؛ فيكون الضَّميرُ الجَمعيُّ للتَّعظيم من شأنِه، وإنْ كانَ المرادُ به كلَّ قلَمٍ يكتبُ به، على إرادة الجنسِ؛ فيكون الضَّميرُ راجعًا إلى القلَم بإجرائِه مجرى أولي العِلْم؛ لإقامتِه مُقامَهم، ولكنْ فيه إسنادُ الفعلِ إلى الآلةِ بتنزيلِها منزلةَ العاقِل[1].

نُكْتَةُ إيثارِ القَسَمِ بـ﴿وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾:

التَّنبيهُ بالكِتابة على عدمِ الاضطرابِ في التِّلاوة

أقسمَ اللهُ تعالى بالقلمِ والمكتوبِ به في قولِه تعالى: ﴿وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ ذلك المكتوبَ المنتظَمَ المُحكَم قدِ استُعمِلَتْ فيه آلتُهُ الدّالَّةُ على الإحكامِ في وضْعِ السُّطور في مواضِعِها بكلِّ إتقان؛ للرَّدِّ على ادِّعائهم جنونَ النَّبيِّ ﷺ بتلاوتِه للقرآن الكريم عليهم، فذُكِر أنَّه ليس نصًّا مقروءًا فحسبُ، بل هو نصٌّ مكتوبٌ بآلةِ الكتابة؛ تحقيقًا لمعنى الكتابةِ والتَّأنّي في الكَتْبِ والتَّنظيم والإحكام، فاتِّهامُهُ بتلاوتِهِ للقرآن، بأنَّه كلامٌ صادرٌ عن مجنونٍ يتناقَضُ مع إتقانِهِ في الكتاب وتنظيمِهِ في المكتوب، فكيف يُنسَبُ قائلُه وتاليهِ للجنون، وهو مُنتظَمُ الأسطُرِ بقلمٍ عجيبٍ؟ قال الهرريُّ: "وكيفَ يكونُ مَجنونًا والكتبُ والأقلامُ أُعِدَّتْ لكتابةِ ما يَنزِلُ عليهِ منَ الوحي؟"[2]، وعلَّلَ ابن عاشور إيثارَ القَسَم بهما بقوله: "وَأوثِرَ القَسَمُ بِالقَلَمِ والكِتابَةِ؛ لِلإيماءِ إلَى أنَّ باعِثَ

---

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 233.

(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 77.

الطّاعِنينَ على الرَّسولِ ﷺ واللّامِزين لَهُ بالمجنون، إنَّما هوَ ما أتاهُم بِهِ مِنَ الكِتابِ"[1].

دلالةُ الكِنايةِ في القَسَم:

سببُ الاتِّهام هو بعينِهِ علامةُ الصِّدقِ في الكَلام

كنَّى النَّظمُ القرآنيُّ عندَ القَسَمِ بقوله تعالى: ﴿وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾ عن عدمِ انتظامِ مَداركِهم وسوءِ استنباطِهم وقَلْبِهم للحقائق؛ إذ إنَّ سببَ الاتِّهامِ بالجُنونِ له ﷺ هو دليلٌ على عدمِ صحَّةِ الاتِّهامِ الموجَّهِ منكم إليه، فقد كانَ سببُ الاتِّهامِ للنَّبيِّ ﷺ بالاضطرابِ العقليِّ هو تلاوتُه للقرآن الكريم، فأقسمَ اللّهُ تعالى به بعدَ أن ذكَرَ آلةَ كَتْبِهِ وطبيعةَ حقيقتِهِ، وهو أنَّهُ نصٌّ مكتوبٌ في اللَّوح المحفوظ على عدمِ صحَّةِ الاتِّهام له؛ إشارةً إلى أنَّ سبب اتِّهامِكم له بالجُنون هو في الحقيقةِ آيةُ صدقِهِ، ورجاحةِ عقلِهِ، وقوَّةِ بَصيرته؛ إذِ التَّأمُّلُ في هذا الكلام المسطورِ بصدقٍ كافٍ في إثباتِ صدقِهِ وصحَّةِ مَدرَكِه، قال ابن عاشور: "ويجوزُ أن يَكونَ قَسَمًا بالأقلامِ الَّتي يَكتُبُ بها كُتّابُ الوَحيِ القُرآنَ، وما يَسطُرونَ قَسَمًا بِكِتابَتِهِم، فيكونَ قَسَمًا بِالقُرْآنِ عَلَى أنَّ القُرْآنَ ما هوَ بِكَلامِ مَجْنونٍ، كَما تَقَدَّمَ في قَولِهِ تَعالَى: ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزُّخرُف: 2 - 3]"[2]، ففيه كنايةٌ عن سوءِ إدراكِهم بجَعْلِهم أداةَ الصِّدق وسيلةً للتَّكذيب، وهذا يُسمَّى في صَنعة المناظرةِ المُعارضةَ بالقَلْب.

سرُّ فصلِ جملةِ ﴿مَآ أَنتَ﴾:

الاعتقادُ بنقيضِ الحُكْمِ يَنفيهِ القَسَم

فَصَلَ النَّظمُ الكريمُ الجملةَ في قولِهِ تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾؛ لأنَّها جملةٌ واقعةٌ جوابًا للقسَم[3]، والغرضُ منها بيانُ المُقسَمِ عليه، وهو محلُّ التَّوكيدِ الَّذي جيءَ القَسَمُ لأجلِهِ؛ ردًّا على

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 61.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 61.
(3) الحنبليّ، فتح الرّحمن: 7/ 122.

مِن اتَّهمَ النَّبيَّ ﷺ بالجُنونِ والاضطراب نتيجةَ ما يتلوهُ عليهم من القرآنِ معَ ادِّعاءِ النُّبوَّة، و"مُكذِّبًا بذلك مُشركي قريشٍ الَّذين قالوا له: إنَّك مَجنونٌ"(1)، قال ابنُ عاشور: "والخِطابُ لَهُ بهذا تَسليَةً لَهُ؛ لِئَلّا يُحزِنَهُ قَولُ المُشْرِكينَ؛ لَمّا دَعاهُم إلَى الإسلام: هوَ مَجنونٌ"(2)، وقال البقاعيُّ: "ولمّا كان المُخاطَبُ بهذا ﷺ قد عاشَرَ المُرسَلَ إليهم دهرًا طويلًا، وهو أعلاهُم قدرًا، ولم يتجدَّدْ له شيءٌ يستحِقُّ به أن يَصِفوه بسببِه بالجُنون، الَّذي يَنشأُ عنهُ الضَّلالُ عن المقاصدِ المذكورُ آخرَ (المُلك) في قولِه: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الملك: 29]، إلّا النِّعمةَ الَّتي ما نالَ أحدٌ قطُّ مثلَها في دهرٍ منَ الدُّهور، ولا عصرٍ منَ الأعصار، قال مُجيبًا هذا القَسمَ العظيمَ؛ رادًّا عليهم بأجلى ما يكونُ وأدلِّه على المُراد؛ تأنيسًا له ﷺ ممّا أوجبَ افتراؤُهُم عليه منَ الوَحشةِ، وشرحًا لصَدْرِه، وتهدئةً لسِرِّه"(3).

معنى ﴿مَآ﴾ في ﴿مَآ أَنتَ﴾ والغرضُ منها:

نفيُ الاتِّهام وإبطالُ شَنيعِ الكَلام

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بـ﴿مَآ﴾ في قولِه تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾؛ للدَّلالة على النَّفي على سبيلِ الاستمرارِ لمقولةِ الَّذين سَمِعوا تلاوةَ النَّبيِّ ﷺ للقرآن، فنَسَبوه للجُنون، ورمَوهُ بالاضطرابِ العقليِّ، ودليلُ النَّفي لذلك الاتِّهامِ ما اشتملَ عليه القَسَمُ من إتقانِ القلَمِ والكتابةِ لألفاظِ القرآنِ ومضامينِه، قال ابنُ عطيَّة: "و(ما) هنا عاملةٌ، لها اسمٌ وخبر، وكذلك هي حيثُ دخلتِ (الباءُ) في الخبر"(4).

سرُّ التَّعبيرِ بالضَّميرِ ﴿أَنتَ﴾:

الاهتمامُ بشأنِ الرَّسول بخِطابِه بأعرَفِ القَوْل

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بضميرِ المُخاطَب ﴿أَنتَ﴾، في قولِه تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾؛ للدَّلالة على الإقبالِ على المُخاطَب ﷺ،

(1) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 528.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 61.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 287.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 346.

وتوجيهِ الكلامِ لهُ بصورةِ الحاضِرِ في المَقام؛ إشارةً إلى الاهتمام بشَأنِ المُخاطَب، وإعلاءً لمَقامِهِ المُبارك، ولذا قالَ البقاعيُّ: "أي: يا أعلى المُتأهِّلينَ لِخِطابِنا"(1).

مَعنى (الباءِ) في ﴿بِنِعۡمَةِ﴾ والغرضُ منها:

تعليلُ نفيِ الجُنون بكمالِ نِعمةِ الرَّبِّ الغَفور

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بـ(الباء) الدّاخلةِ على (نِعمة)، في قولِه تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾؛ للدَّلالةِ إمّا على المُلابَسة، فيكونُ الجارُّ والمجرورُ في مَوضِعِ الحالِ، أو على السَّببيَّةِ فيكونُ مُتعلِّقًا بلفظِ (مَجنون)، والغرضُ نفيُ الجنونِ عنه ﷺ في حالِ مُلابَستهِ نعمةَ الرَّبِّ الغَفور، فـ: "الباءُ: في ﴿بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ﴾ مُتعلِّقةٌ بمحذوفٍ، هو حالٌ من الضَّمير في خبرِ ﴿مَآ﴾، وهو (مجنون)، والعاملُ فيها معنى النَّفي، كأنَّه قيل: انتفَى عنك الجنونُ يا محمد، وأنتَ بريءٌ منه، مُتلبِّسًا بنعمة اللّه الَّتي هي النُّبوَّة والرِّئاسةُ العامَّة"(2)، ولمّا كانت تلك المُلابسةُ مُستمرَّةً، فيكون نفيُ الجنون عنه بالكليَّة في جميع الأحوالِ والأقوال، قال الطِّيبيُّ: "أي: مُنعَمًا عليكَ بنفيِ الجنون، ولو جُعِلَ مُطلقًا بأن يقال: ما أنتَ بمجنونٍ مُنعَمًا عليك بالنُّبوَّة والفَهْم وكمالِ العقلِ وسائرِ ما أنعمَ عليك من الفضائل؛ لجازَ، وعلى هذا: ﴿بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ﴾ كانَ صفةً لـ(مجنون)، فقُدِّمَ، وصُيِّرَ حالًا"(3)، هذا على المعنى الأوَّل، وعلى الثّاني فإنَّ الغرضَ نفيُ الجنون عنه ﷺ بسببِ نُزولِ نعمةِ ربِّك عليك؛ إذ نعمةُ الدّينِ والتَّكليف بتبليغ القرآنِ لا يكونُ إلّا لعاقلٍ حَصيف، فتكونُ (الباءُ) السَّببيَّةُ تعليلًا لنفيِ الجُنون عنه ﷺ، قالَ الهرريُّ: "والمعنى انتفَى عنكَ الجنونُ؛ بسببِ إنعامِ ربِّك عليكَ بالنُّبوَّة"(4)، وقال الرّازيُّ: "ومَعناهُ: أنَّ تِلْكَ الصِّفَةَ المَحمودةَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 287.

(2) الهرريّ، فتوح الغيب: 30/ 82.

(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 568.

(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 119.

إنَّما حَصَلَت، والصِّفةَ المذمومةَ إنَّما زالَت بِواسِطَةِ إنعام اللَّه ولُطْفِهِ وإكْرامِهِ"[1]، وأجازَ بعضُهم أنْ تكونَ (الباءُ) للقَسم، والجملةُ مُعترِضةٌ، والتَّقدير: (ما أنتَ - أقسِمُ بنعمة ربِّك - بمجنونٍ)[2]، فهو: "قسمٌ اعترِضَ به بينَ المحكوم عليه والحُكْم، على سبيلِ التَّأكيد والتَّشديدِ والمبالغةِ في انتفاءِ الوَصْف الذَّميم عنه ﷺ"[3]، وردَّه القونويُّ بقوله: "تكلُّفٌ؛ لأنَّه جوابُ القَسَم، واعتبارُ القَسَمِ الآخَرِ في جوابِ القَسَم لم يُعهَدْ في كلامهم"[4]، "قالَ الزَّجّاج: هذا كما تقولُ: أنتَ بنعمةِ اللّه فَهِمٌ، وما أنتَ بنعمةِ اللّه بجاهلٍ"[5]، ولو فسَّرنا (المجنون) بالجاهلِ كما هو مرادُهم، فإنَّ (الباء) للتَّعدية حينَئذٍ.

تعلُّقُ الجارِّ والمجرور بـ(مجنون) حالًا:

اختلفَ المُفسِّرون في تحديدِ مُتعلِّق الجارِّ والمجرور، في قوله تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾، فمنهم مَن ذهب إلى أنَّه مُتعلِّق بالمُتأخِّر، وهو (مجنون)، فيكونُ حالًا مُتقدِّمًا على عاملِه، قال الزَّمخشريُّ: فهو "يتعلَّقُ بـ(مجنون) مَنفيًّا، كما يتعلَّقُ بـ(عاقلٍ) مُثبتًا في قولك: (أنتَ بنعمةِ اللّه عاقلٌ)، مُستويًا في ذلك الإثباتُ والنَّفيُ، استواءَهما في قولك: (ضربَ زيدٌ عَمْرًا، وما ضربَ زيدٌ عَمْرًا)، تُعمِلُ الفعلَ مُثبتًا ومَنفيًّا إعمالًا واحدًا، ومحلُّه النَّصبُ على الحال، كأنَّه قال: (ما أنتَ بمجنون منعمًا عليك بذلك، ولم تمنع (الباءُ) أن يعملَ (مجنون) فيما قبلَهُ؛ لأنَّها زائدةٌ لتأكيدِ النَّفي"[6]، وناقشَ أبو حيّان هذا الرَّأيَ بقوله: "وَما ذَهَبَ إلَيهِ الزَّمَخشَريُّ من أنَّ ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ مُتَعَلِّقٌ ﴿بِمَجْنُونٍ﴾، وأنَّهُ في مَوضِعِ الحالِ، يَحْتاجُ إلَى تَأمُّلٍ، وذَلِكَ أنَّهُ إذا تَسلَّطَ النَّفْيُ عَلَى مَحْكوم بِهِ، وذَلِكَ لَهُ مَعْمولٌ، فَفي ذَلِكَ طَريقانِ: أحَدُهُما: أنَّ النَّفْيَ يَتَسلَّطُ عَلَى ذَلِكَ المَعْمولِ فَقَط، والآخَرُ: أن يَتَسَلَّطَ النَّفْيُ عَلَى المَحْكوم بِهِ، فَيَنْتفي مَعمولُهُ لانتِفائِه، بَيانُ ذَلِكَ تقولُ: (ما زَيْدٌ قائِمٌ مُسْرِعًا)، فالمُتَبادِرُ إلَى الذِّهنِ أنَّهُ مُنتَفٍ إسراعُهُ دونَ قيامِهِ، فَيَكون قَد قامَ غَيرَ مُسْرِعٍ، والوَجْهُ الآخَرُ: أنَّهُ انتَفَى قيامُهُ، فانتَفَى إسْراعُهُ، أي: لا قيامَ فَلا إسْراعَ، وهَذا

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 600.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 569.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 235، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 82.
(4) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 224.
(5) الواحديّ، التّفسير البسيط: 4/ 333.
(6) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 585.

توجيهُ الحاليَّة وأثرُهُ في تحصيل الصّورةِ الوهميَّة

الَّذي قَرَّرْناهُ لا يَتَأَتَّى مَعَهُ قَوْلُ الزَّمَخْشَريِّ بِوَجْهٍ، بَلْ يُؤَدّي إِلَى ما لا يَجوزُ أن يُنْطَقَ بِهِ في حَقِّ المَعْصوم ﷺ"(1)، ووضَّحَ ذلك القونويُّ بقوله: "لأنَّه يَقتضي أنَّ انتفاءَ الجنون في هذه الحالِ، وقد لا يَنتفي في غيرها، وكونُها حالًا لازمةً لا يدفعُ الإيهام، والجَوابُ: أنَّ هذا مفهومُ المخالفة، وليس بمعتبَرٍ عند أئمَّتنا الحَنَفيَّة، والزَّمَخْشَريُّ منهم، عَلَى أنَّه ليس بحال غيرِها، فإنَّ النُّبوَّة وحصافةَ الرَّأي لا ينفكّانِ عنه ﷺ أصلًا، فهي لبيان الواقِع، فالغرضُ من هذا القيد بيانُ دوامِه، وقد صرَّح الأئمَّة الشّافعيَّة بأنَّه إذا كان في القيدِ فائدَةٌ أخرى غيرُ المفهوم؛ فلا مفهومَ"(2).

تعلُّقُ الجارِّ والمجرور بالحرفِ النّافي ﴿مَآ﴾:

انتفاءُ الجُنون بسببِ النِّعَمِ التّامَّةِ الحُصول

ذهبَ ابْنُ الحاجِبِ في قولِه تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾ إلى: "أنَّ ﴿بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ﴾ مُتَعَلِّقٌ بما يَتَضَمَّنُهُ حَرْفُ (ما) النّافيَةِ من مَعنَى الفِعلِ، وقَدَّرَهُ: (انتفَى أَنْ تَكونَ مَجْنونًا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ)، ولا يَصِحُّ تَعَلُّقُهُ بِقَولِهِ: (مَجْنونٍ)؛ إذ لَو عُلِّقَ بِهِ؛ لَأَوهَمَ نَفْيَ جُنونٍ خاصٍّ، وهوَ المَجْنون الَّذي يَكونُ من نِعْمَةِ اللّه، ولَيْسَ ذَلِكَ بِمُستَقيم"(3)، واستَحْسَنَ هَذا ابْنُ هِشام لَوْلا أَنَّهُ مُخالِفٌ لِاتِّفاقِ النُّحاةِ عَلَى عَدَمِ صِحَّةِ تَعَلُّقِ الظَّرْفِ بِالحَرْفِ، ولَم يُخالِفْهُم في ذَلِكَ إلّا أبو عَلِيٍّ وأبو الفَتْحِ في خُصوصِ تَعَلُّقِ المَجْرورِ والظَّرْفِ بِمَعْنَى الحَرْفِ النّائِبِ عَن فِعْلٍ، مِثْلُ حَرْفِ النِّداءِ في قَوْلِكَ: يا لَزَيْدٍ"(4)، والذي يظهرُ ممّا تقدَّم أنَّه لو كانَ الجارُّ والمجرورُ مُتعلِّقًا بـ(مجنون) يلزمُ منه تقدُّمُ المعمول على عامله، وأنَّ (الباء) مُتعلِّقةٌ بـ(حال) محذوفةٍ، وهي باءُ المُلابَسة، ومعنى الحاليَّةِ فيه خدشٌ معنويٌّ إلّا أن يوجَّهَ بما مرَّ من كلام

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 236.

(2) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 224.

(3) ابن الحاجب، الأمالي النّحويّة: 1/ 241.

(4) ابن هشام، مغني اللبيب، ص: 573، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 62.

القونويِّ، ولو تعلَّق بالنَّفي؛ انتفَى التَّقدُّم أوَّلًا، بل جاءَ اللَّفظ بمركزه، وأنَّ (الباء) ظرفٌ لغوٌ ثانيًا، وهي للسَّببيَّة، وإنصافًا للزَّمخشريِّ، فلعلَّ مرادَه أنَّ الجنونَ فارقَكَ لتلبُّسك بنعمةِ اللّه تلبُّسًا مستمرًّا، فهو من قبيلِ الحالِ اللّازمةِ بمعونةِ المَقام، فـ "المُرادُ: التَّنْبِيهُ عَلَى أنَّ هذه النِّعمةَ لا تنفكُّ أصلًا؛ فَكَيفَ يُنسبُ إليه الجنون؟"[1].

دلالةُ الاستعارة في (النِّعمة):

الحقدُ الدَّفين لكمالِ نِعمةِ الرَّسولِ الكَريم

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ عن القرآنِ أوِ النُّبوَّة بـ(النِّعمة)، في قولِهِ تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾؛ على سبيلِ الاستعارة التَّصريحيَّة؛ إذ شبَّه النَّظمُ القرآنَ الكريمَ أوِ النُّبوَّةَ والاصطفاءَ للرِّسالة بالنِّعمة والرَّحمة الممنوحة، ثمَّ حذفَ المشبَّهَ، وأبقى المُشبَّهَ به على سبيلِ الاستعارة التَّصريحيَّة؛ إعلاءً من شأنِ القرآن الكريم، ورَفْعًا لَمقام النُّبوَّةِ وتشريفًا له، وإظهارًا لسببِ الاتِّهام له بالجنونِ، وهو الحِقدُ والحسدُ على تلك النِّعمةِ العظيمةِ الكاملة.

دلالةُ الإضافةِ في ﴿بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ﴾:

يَجِلُّ الخَطْب بِنِعَمِ الرَّبِّ

أضافَ النَّظمُ الكريمُ النِّعمةَ إلى الرَّبِّ، في قولِهِ تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾؛ للدَّلالةِ على كمالِ تلك النِّعمةِ وشَرَفِها وعُلوِّ مَنزلتِها؛ إذِ الإضافةُ دلَّتْ على تعيينِ مَصدَرِها فاكتسبتْ فخامةً وتشريفًا وتعظيمًا، هذا إن فُسِّرتِ (النِّعمة) على أنَّها اسمُ جنسٍ بمعنى النُّبوَّة والقُرآن والوَحي، وأمّا إنْ أُريدَ بالنِّعمة المصدرُ، أي: الإنعام[2]، فالإضافةُ من إضافةِ المصدرِ لفاعلِه، أي: إنعامُ ربِّك عليك، ويكونُ الملاحظُ ومحطُّ الاهتمام الإمدادَ الإلهيَّ بالنِّعَم.

دلالةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور ﴿بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ﴾:

قدَّمَ النَّظمُ الكريمُ الجارَّ والمجرورَ في قوله تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ

(1) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 224.
(2) الحنبليّ، فتح الرّحمن: 7/ 122.

تعيينُ مَوضعِ الغَلَط بتقديمِ ما نجمَ عنه العطَب

رَبِّكَ بِمَجۡنُونٍ﴾؛ للدَّلالة على الاختصاصِ والحَصْرِ والتَّقييد؛ إذ سرُّ اتِّهامِهم له بالجنون نزولُ القرآن الكريم عليهِ وانحصارُ النُّبوَّة فيه، واختيارُ اللّه تعالى له نبيًّا ورَسولًا، فكانَ التَّكذيب؛ بسببِ تلك النِّعمة وتلبُّسِه بها، وكلُّ ذي نعمةٍ مَحسود، فالاتِّهامُ والتَّكذيب حسدٌ له، وحِقدٌ عليه، فقدَّمَ النَّظم الكريمُ في نفي الجُنون عنه سببَ الاتِّهام ومَنشأ الاعتراض؛ تأشيرًا على بيانِ عِلَّةِ التَّكذيب، وأنَّ ذلك الاتِّهامَ مجرَّدُ حسَدٍ لا يقومُ على حقيقةٍ علميَّة، بل تلك النِّعمة في حدِّ ذاتها أكبرُ دليلٍ على صدقِهِ وعظيمِ برهانِه، قال الرّازيُّ: "ثُمَّ إنَّهُ تعالى قَرَنَ بِهَذِهِ الدَّعْوَى ما يَكونُ كالدَّلالَةِ القاطِعَةِ على صِحَّتِها، وذلكَ لِأنَّ قَوۡلَهُ: ﴿بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ﴾ يَدُلُّ عَلَى أنَّ نِعَمَ اللّه تعالى كانَتْ ظاهِرَةً في حَقِّهِ، مِنَ الفَصاحَةِ التّامَّةِ والعَقْلِ الكامِلِ والسّيرَةِ المَرْضيَّة، والبَراءَةِ من كُلِّ عيب، والاتِّصافِ بِكُلِّ مَكْرُمَةٍ، وإذا كانَتْ هَذِهِ النِّعَمُ مَحْسوسَةً ظاهِرَةً؛ فَوُجودُها يُنافي حُصولَ الجُنون، فاللّه تعالى نَبَّهَ على هذه الدَّقيقَةِ؛ لِتَكونَ جارِيَةً مجرى الدَّلالَةِ اليَقينيَّة على كَوْنِهِم كاذِبينَ في قَولِهِمۡ لَهُۥ: إنَّهُ مَجۡنونٌ"(1).

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بـ ﴿رَبِّكَ﴾:

التَّربيةُ الرّوحيَّة والخُلقيَّة تتنافى معَ الاتِّهامِ لمقامِ الرُّسوليَّة

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ عن الذّاتِ الإلَهيَّة بلفظِ (الرَّبِّ)، في قولِهِ تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾، دونَ الاسم الجليل (اللّه)؛ إظهارًا لمزيدِ الاعتناءِ بتلك النِّعمة، وأنَّ الذي أنعمَ بها هي الذّاتُ الكاملةُ المُسيطِرة، الَّتي تولَّتْ تربيتَك وتنشئَتَكَ وإعدادَك لتحمُّلِ تلك النِّعمة، فهي ليستْ نعمةً ومنَّةً عاديَّةً، بل تحتاجُ إلى تقويمٍ وتهذيبٍ، وتعديلٍ وترتيبٍ، واختيارٍ واعتناءٍ، فكان لفظُ (الرَّبِّ) أنسبَ بالمقام، كما يَحملُ لفظُ (الرَّبِّ)؛ دلالةً على التَّربيةِ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 600.

الرّوحيَّة والخُلقيَّة للنَّبيِّ ﷺ؛ فكيف تنسبونَهُ للجُنون؛ إذِ المُنعِمُ عليه بتلك النِّعمة هو المُربّي الكاملُ في تربيتِهِ وإعدادِهِ، فلا يليقُ به أن يكونَ مَجنونًا بتلك النِّعمةِ الرَّبّانيَّة.

نُكْتَةُ إضافةِ (الرَّبِّ) إلى مفعولِهِ:

التَّربيةُ والإعداد لصاحِبِ الفَخرِ والأمجاد

بعدَ أن أضافَ النَّظمُ الكريمُ (النِّعمةَ) إلى (الرَّبِّ) المُنعم، أضافَ (الرَّبَّ) إلى ضميرِ المخاطَبِ العائدِ إلى النَّبيِّ ﷺ، في قوله تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾؛ للدَّلالة على تولّي الرَّبِّ تربيتَك والاعتناءَ بكَ، وإن كان هو تعالى ربُّ العالَمين، لكنَّ الإضافةَ إليه تدلُّ على مزيدِ العِنايةِ بالإعدادِ والتَّهيئةِ لهُ مع التَّكريمِ والتَّفخيم لشأنِهِ، فلا يُمكنُ أن تُنسَبَ للجُنونِ والاضطرابِ، والإضافةُ في ﴿رَبِّكَ﴾ من إضافةِ المصدرِ للمفعولِ.

معنى (الباءِ) في ﴿بِمَجۡنُونٖ﴾:

تنزيهُ المَقام الشَّريف عن كلِّ اتِّهامٍ وتَزييف

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بـ(الباء) الدّاخلة على (مجنون)، في قولِهِ تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾؛ للدَّلالةِ على توكيدِ النَّفي والمُبالغةِ فيه؛ إذ تُزادُ (الباءُ) في خبر (ما)؛ للدَّلالة على التَّوكيدِ والمبالغةِ في نفي الاتِّهام له بالجنون بعدَ أنْ حصلتْ له النِّعمةُ الرَّبّانيَّة والاصطفاءُ الإلهيُّ؛ ليكونَ ذلك أبلغَ في الرَّدِّ وأعظمَ في التَّقريعِ، وأكملَ له ﷺ في التَّنزيهِ والتَّشريفِ، قال البقاعيُّ: "وأكَّدَ النَّفيَ؛ زيادةً في شَرَفِه ﷺ، فقال: ﴿بِمَجۡنُونٖ﴾، أي: بلِ الَّذي وصفَكَ بهذا هو الحقيقُ باسمِ الجُنون ومعناه، فضلًا عنِ الضَّلال، فنَفَى عنه ﷺ الشَّقاوةَ الَّتي سببُها فسادُ العقل، فثبتَتِ السَّعادةُ الَّتي سَبَبُها صَلاحُ العقلِ ونِعمةُ الرَّبِّ له"[1].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 287.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بلفظِ (مَجنون):

تأشيرُ سببِ الجُنون دالٌّ على الحسَدِ المأفون

أخبرَ النَّظمُ الكريمُ بلفظِ (مجنون) المنفيِّ عن النَّبيِّ ﷺ، في قوله: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾؛ الدّالِّ بمادَّتِه على استتارِ العقل وتغطيتِه؛ إذِ اللَّفظُ مأخوذٌ من (جنَّ) بمعنى: استترَ، وغُطّيَ[1]، فاتَّهمه المُكذِّبون بالجُنون؛ لأنَّهم ادَّعوا تغطيةَ ما جاء به لعقلِه، حتّى غابَ، وأخذَ يتكلَّمُ، ويتلو كلامًا ناشئًا عنِ اضطرابٍ وعدمِ وُضوحٍ، فيكون اتِّهامُهم له راجعًا لاتِّهامِهم لما جاء به من الحقِّ، وهو القرآنُ الكريم والدّينُ الحقُّ والآياتُ البيِّنات، ومن ثَمَّ حَرِص النَّظمُ على ردِّ ذلك الاتِّهام بنفسِ اللَّفظ، وهو (الجنون)؛ ليُبيِّنَ مَدى الفساد والتَّناقُض في ادِّعائه؛ إذ كيفَ يدَّعونَ أنَّه مجنون بتلك الآيات وتلك المعاني والأحكام، مع أنَّها نعمةٌ إلهيَّة وكرمٌ حكيم، لكنَّها النِّعمة التي تُثيرُ الحِقدَ والحسَد، والأحكامُ النّاشئةُ عنهما تكون ظالمةً فيها بهتانٌ، ولذا لم يقلِ النَّظمُ بأسلوب الإثباتِ: (إنَّك عاقل بنعمةِ اللّه عليك)، بل أرادَ بيانَ فسادِ تدبيرهم وخَطَلِ اتِّهامِهم.

دلالةُ الكناية في نَفْيِ الجُنون:

نفيُ الجُنونِ لإثباتِ أنَّه الرَّسولُ المأمون

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بأسلوبِ الكِناية في قولِه تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾؛ إذ أطلقَ نفيَ الجنونِ عن مُدَّعي النُّبوَّة، وأرادَ بهِ لازمَهُ، وهو إثباتُ كونِه رَسولًا من اللّه تعالى، فهو من النَّفي المُرادِ به لازمُهُ المُثبَت، قال ابنُ عاشور: "والمَقصودُ مِن نَفْيِ الجُنونِ عَنهُ إثْباتُ ما قَصَدَ المُشْرِكونَ نَفْيَهُ، وهو أن يَكونَ رَسولًا مِنَ اللّه؛ لِأنَّهُم لَمّا نَفَوا عَنهُ صِفَةَ الرِّسالَةِ؛ وضَعوا مَوْضِعَها صِفَةَ الجُنونِ، فَإذا نُفِيَ ما زَعَموهُ؛ فَقَد ثَبَتَ ما ادَّعاهُ"[2].

(1) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 2/ 113.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 62.

دلالةُ التَّقابلِ بينَ الفاصلتينِ: ﴿يَسۡطُرُونَ﴾ و(مَجنون):

تسطيرُ المكتوب نافٍ للجُنون عنِ العُقولِ والقُلوب

قابلَ النَّظمُ الكريمُ بين فاصلةِ المُقسَم به وفاصلةِ المُقسَم عليه، في قولِه تعالى: ﴿وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ١ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾، فقد دلَّت فاصلةُ المقسَم به، وهو (ما يسطرون) على الكتابةِ المُنظَّمة والإتقانِ في وضعِ الأسطُر عند التَّدوين، حتّى تبدوَ متراصَّةً بالغة الإتقان والتَّنظيم، ودلَّت فاصلةُ المُقسَم عليه على نفيِ الاتِّهام له بالجنونِ الدّالِّ؛ ضمنًا على اتِّهامِهم له بالاضطراب وعدمِ النِّظام في الأقوالِ والأحوال، فيكون بينَ كلٍّ من المُقسَم به والمُقسَم عليه تقابلٌ جدليٌّ؛ إذ كيف يكونُ القلم، وما يُكتبُ به هذا القرآنُ في أعلى درجاتِ النِّظام والتَّرتيب صادرًا عنِ اضطرابٍ عقليٍّ، وجنونٍ قوليٍّ؟.

الغرضُ من الخبرِ:

الـرَّدُّ على المتَّهمين بكمالِ عقلِ سيِّدِ المرسَلين

أخبرَ النَّظمُ الكريمُ بجملةِ جوابِ القَسَم، في قوله تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾، عن نفيِ كونِه ﷺ مجنونًا، والمقصود من ذلك الرَّدُّ على المُتَّهمينَ له بذلك، وإذا كانَ المقصودُ من الخبر الرَّدَّ، فلا يُعترَضُ بأنَّ الغرض من الخبر إمّا فائدةُ الخبر أو لازمُها، وكلٌّ منهما لا يصحُّ تحريرُهُ هنا، قال القونويُّ: "أي: انتفى عنك الجُنونُ مُنعِمًا عليك بالنُّبوَّة؛ إشارَةً إلى أنَّ النِّعمة التي تَفرَّدَ بها وحصافةَ الرَّأي، والتَّعرُّضُ بهذه النِّعمة دونَ غيرها؛ لأنَّ الكَلام مسوقٌ لردِّ قولِ المُشْركينَ: إنَّه مَجنون، ولمّا قصدَ الرَّدَّ؛ فلا إشكالَ بأنَّه لا فائدَةَ في الخبر ولازمَها بحسبِ الظّاهر؛ إذ كلُّ أحدٍ يعرفُ حالَ نفسِه، فيكون مَجازًا؛ لكونِ الرَّدِّ لازمًا له"[1].

سرُّ التَّعبيرِ بالجُملةِ الاسميَّةِ المَنفيَّة:

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ عن نفيِ الجنونِ عن النَّبيِّ ﷺ بالجملةِ

(1) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 223.

الاسميَّةِ المنفيَّة، في قولِهِ تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾؛ للدَّلالةِ على الثُّبوتِ والدَّوام والاستمرارِ لهذا الانتفاءِ في جميع الأقوالِ والأحوال[1]؛ لأنَّ سبب الاتِّهام له بالجنونِ هو الحسدُ له بسببِ تلك النِّعمة العظيمة التي خصَّها اللّهُ به، ولمّا كانت تلك النِّعمةُ باقيةً مستمرَّةً، فإنَّ اتِّهامَهم له ثابتٌ دائم، فكان الرَّدُّ بالجملةِ الدّالَّة على نفي ذلك الاتِّهام، بتكوينٍ دالٍّ على الدَّوامِ والبَقاء.

دوامُ التَّكذيب يُقابِلُهُ دوامُ رفعِ الاتِّهام والتَّأنيب

تقابلُ المؤكِّدات في ﴿مَآ أَنتَ﴾:

توالتْ مجموعةٌ من المُؤكِّدات في قولِهِ تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾؛ لتوكيدِ انتفاءِ اتِّهامِهم ولكمالِ الرَّدِّ عليهم؛ إذ هؤلاءِ المُكذِّبونَ اتَّهموهُ بقولِهم: ﴿إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ﴾، فأكَّدوا كلامَهُم بالجملةِ الاسميَّة وإنَّ واللّام، فجاءَ الرَّدُّ عليهم بشكلٍ أبلغَ، فاشتملَ على اسميَّةِ الجملةِ، والنَّفي بـ﴿مَآ﴾، والباءِ المَزيدةِ للتَّوكيد والقَسَم، وتقديم المتعلِّق الدّالِّ على سببِ الاتِّهامِ تفنيدًا لهُ؛ إذ هو دليلُ صدقٍ لا دليلُ تُهمةٍ، قال ابن عاشور: "وقد أُجيبَ قَولُهُم وتَأْكيدُهُم ذلك بِحَرْفِ (إنَّ) ولامِ الابتداءِ؛ إذ قالوا: ﴿إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ﴾، بِمُؤَكِّداتٍ أَقْوَى مِمّا في كَلامِهِم؛ إذ أُقْسِمَ عَلَيهِ، وجيءَ بَعْدَ النَّفْيِ بِالباءِ الَّتي تُزادُ بَعدَ النَّفيِ لِتَأكيدِهِ، وبِالجُمْلَةِ الاسميَّةِ مَنفيَّةً لِدَلالَةِ الجُمْلَةِ الاسْميَّةِ عَلَى ثَباتِ الخَبَرِ، أَي: تَحَقُّقِهِ، فَهَذِهِ ثَلاثَةُ مُؤَكِّداتٍ"[2].

الاتِّهامُ المُؤكَّد يُقابِلُه النَّفيُ المُحقَّق

دلالةُ الوصلِ في ﴿وَإِنَّ لَكَ﴾:

عطفَ النَّظمُ الكريمُ قولَه تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ﴾ على ما قبلَهُ؛ ليكونَ مُقسَمًا عليه، والغرضُ من العطفِ إثباتُ الأجرِ غيرِ المقطوع للنَّبيِّ ﷺ بعدَ ما نفى عنه تُهمةَ الجنون، عَطْفَ مُثبتٍ على منفيٍّ، ولمّا كان الدّافعُ لاتِّهامهم هو الحسدَ على تلك النِّعمة؛

إثباتُ الأجرِ بلا أذى بعدَ نفي الجُنونِ وزَوالِ العقل

(1) القزوينيّ، الإيضاح: 2/ 113.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 62.

أثبتَ هنا ما يزيدُ حَنَقَهم عليه بإخباره أنَّ له معَ تلك النِّعمةِ أجرًا غيرَ مُنقطِعٍ وبلا مِنَّةٍ أو أذًى، ومن موجباتِ الوَصْلِ تساوي الجُملتينِ في الخبريَّةِ لفظًا ومعنًى، ومن محسِّناتِهِ تَساويهما في الاسميَّةِ أيضًا، قال البقاعيُّ في تناسُبِ المُتعاطفين: "ولمّا نفى سُبحانه عنه ﷺ ما قالوهُ ممّا تَواقَحوا به، فثبتَ له ﷺ كمالُ العَقل، وكانَ المَجنون مَن لا يكونُ له عمَلٌ ينتظِمُ ولا قولٌ يَرتبِطُ، فلا يَستعمِلُهُ أحدٌ في شيءٍ؛ ليكونَ لهُ عليهِ أجرٌ؛ أثبتَ له الأجرَ المُستلزِمَ للعقل، فيتحقَّق إثباتُهُ من أحكم الحُكماء على وجهٍ أبلغَ ممّا لو صرَّحَ به، فقال على وجهِ التَّأكيدِ لإنكارهم له بما ادَّعَوا فيه من البُهت: ﴿وَإِنَّ لَكَ﴾"[1].

دلالةُ التَّوكيد بـ (إنَّ):

الـــرَّدُّ عـلى الـحـاسـديـن بتوكيدِ الأجْرِ المُبين

أكَّدَ النَّظمُ الكريمُ قولَهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾، بـ(إنَّ) الدَّالَّة على تحقيقِ النِّسبةِ وتوكيدها؛ ردًّا على أولئك الحاسِدين الَّذين يُنكِرونَ لحقدِهم ثبوتَ الأجر له على ما يصبرُ عليهم، ويُبلِّغهم به عن ربِّه تعالى؛ إذ لم يكتفوا باتِّهامهم له بالجنون، بل أنكروا أنَّ في تبليغِهِ وصَبْرِه على أذاهم الأجرَ لهُ.

دلالةُ تقديم شبهِ الجملة ﴿لَكَ﴾:

ثـوابُ الـنَّـبـيِّ الكريم مُتميِّزٌ عن كلِّ ثواباتِ المتَّقين

قدَّمَ النَّظمُ الكريمُ شبهَ الجُملة ﴿لَكَ﴾، في قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾؛ للدَّلالة على الاختصاصِ والانحصار والاهتمام[2]؛ إذ تقديمُ المُسنَد على المُسنَد إليه مفيدٌ لذلك، فيكونُ الجارُّ والمجرورُ متعلِّقًا بمحذوفٍ في محلِّ الرَّفعِ خبر (إنَّ) مُتقدِّمًا على اسمِها، فيُفيدُ انحصارَ الأجرِ غيرِ المُنقطع به ﷺ، ودوام الأجر الَّذي لا تُرافِقُهُ مِنَّةٌ له ﷺ، فيكون العطاءُ الكامل بكلِّ مواصفاته مُنحصِرًا فيه؛ إعلاءً لشأنه، وبيانًا لحقيقةِ ثَوابِه.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 291.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 31/ 396.

معنى (اللّامِ) في ﴿لَكَ﴾:

عبَّر النَّظمُ الكريمُ باللّام في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكَ﴾؛ للدَّلالة على الاختصاصِ والاستحقاقِ والغرَض[1]؛ إذِ الأجرُ المُستمرُّ الدّائمُ مختصٌّ بكَ ومُستحَقٌّ لك ولأجلك، على ما تحمَّلتَ من أعباءِ الدَّعوة وإيذاء القَوم.

الصَّبرُ على المِنهاج سرُّ استحقاقِ الإبهاج

دلالةُ ضميرِ المُخاطَب في ﴿لَكَ﴾:

عبَّر النَّظمُ الكريمُ بضميرِ المخاطَبِ في قوله: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا﴾؛ للدَّلالة على تعيينِ المتحدَّث عنه بأبلغ معيَّنٍ ومُشخِّصٍ، وهو الضَّمير، العائدُ إلى المنفيِّ عنه الجُنون، والغرضُ من خطابِهِ: بيانُ قُربِهِ وبلوغِهِ بالقُربِ المعنويِّ حَضرةَ المتكلِّم العظيمِ سُبحانه، رِضًا عمّا يفعلُهُ في سبيله، فهو يُخاطِبُهُ، ويُؤنِسُهُ بهذا الخطاب؛ تسليةً له عمّا يُكابِدُه في سبيلِ الدَّعوة ومَشاقِّها، ويُستفادُ من خصوصِ خِطابِهِ مخاطبةُ كلِّ أحدٍ مَضَى على طريقتِهِ وسُنَّتِهِ في الدَّعوة والصَّبرِ على الإيذاء.

التَّسلية والإيناس لكلِّ الصّابرين على دعوةِ النّاس

معنى (اللّام) ودلالتُها في ﴿لَأَجۡرًا﴾:

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بـ(لام) الابتداءِ المُزحلَقة، في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا﴾؛ للدَّلالةِ على التَّوكيد والتَّحقيقِ لمَضمونِ الكلام؛ وسُمّيت مُزحلَقةً لكراهيةِ العربِ اجتماعَ توكيدِ (إنَّ واللّام) في محلٍّ واحدٍ[2]، والغرضُ من التَّوكيد إثباتُ الأجرِ له؛ دفعًا لكلِّ مُنكِرٍ ومُرتاب.

زيادةُ اللّام نفيٌّ لكلِّ اتِّهام

دلالةُ التَّنكيرِ في ﴿لَأَجۡرًا﴾:

نكَّرَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ (الأجر)، في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا﴾؛ للدَّلالةِ على التَّعظيم لذلك الأجرِ وتفخيمِه، الَّذي لا يبلغُ العقلُ كُنهَهُ ودرجتَهُ العظيمة، قال البقاعيُّ: "دالًّا بتنوينِهِ وما

نيلُ المَراتب السَّنيَّةِ دليلُ إنجازِ المَهامِّ العليَّة

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 32/ 212.

(2) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 413.

أفهمَهُ السّياقُ من مَدحِهِ ﷺ على عظمتِهِ"[1]، فالتَّنوينُ يقومُ مقامَ وصفِ (الأجر)، بالعظمةِ والاتِّساع والشَّرف والارتفاع، ومادَّة (الأجر) تدلُّ على استحقاقِ شيءٍ جرّاءَ تقديم عملٍ والقيام بمهمَّة، ومعنى ذلك: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قد قامَ بالمهمَّة العليَّة على أكملِ وجهٍ وأتمِّه، فاستحقَّ الأجرَ والمرتبةَ السَّنيَّة، ففيه إشارةٌ إلى أنَّ ذلك التَّبليغ مهمَّةٌ وتكليفٌ، أوكِلَ إلى النَّبيِّ الكريم ﷺ؛ إذِ الأجرُ يستلزمُ تقديمَ العمل، والمُكافِئَ هو الله تعالى الذي كرمُهُ أعلى درجات الكرَم وأبهاه.

سرُّ التَّعبير بـ ﴿غَيۡرَ﴾ النَّعتيَّة:

التَّغاير الوصفيُّ في الأجور نتيجةَ التَّباين في أداء العمل المبرور

نعتَ النَّظمُ الكريمُ (الأجرَ) بلفظ ﴿غَيۡرَ﴾، في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ﴾؛ للدَّلالة على المغايرَةِ الوصفيَّةِ للأجرِ النَّبويِّ عن أجورِ ما عداه من المؤمنينَ والمُقتدينَ به، وفائدةُ المغايرةِ في الأجرِ: بيانُ المُغايرةِ في العملِ المقدَّم وحقيقةِ نيَّة العامل وطبيعةِ الأداء؛ إذ كلُّ العاملين أجورُهُم له ﷺ من غير أنْ يُنقَصَ من أجورهم شيءٌ، ولذا يقالُ: "أجرُ النَّبيِّ مثلُ أجرِ الأُمَّة قاطبةً غيرَ مَنقوصٍ"[2]، ومن ثَمَّ كان أجرُهُ مُغايرًا لأجورِهم في الوصفِ والرِّفعة، كما يفيدُ النَّعتُ الاحتراسَ؛ ولذا قال البقاعيُّ: "ولمّا أثبتَ له ما يُلازِمُ العقلَ، ويصلُحُ لأنْ يكونَ في الدُّنيا، وأنْ يكونَ في الآخرةِ، وكانَ الأجرُ لا يستلزمُ الدَّوامَ، وقد يكونُ مُنغَّصًا بنوعِ مِنَّةٍ؛ قال: ﴿غَيۡرَ مَمۡنُونٖ﴾، أي: غير مَقطوعٍ ولا مَنقوصٍ في دُنياك ولا في آخرتِكَ"[3].

دلالةُ الإضافةِ في ﴿غَيۡرَ مَمۡنُونٖ﴾:

تخصيصُ الغيريَّة بعدمِ الانقطاعِ والأذيَّة

أضافَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ ﴿غَيۡرَ﴾ إلى ﴿مَمۡنُونٖ﴾ في قولِهِ تعالى:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 291.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 83.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 291.

﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ﴾؛ للدَّلالةِ على تخصيصِ الغيريَّةِ بعدم الانقطاعِ، أو مُصاحبةِ الأجرِ للمِنَّة والأذيَّة، والغرضُ من الإضافةِ تحديدُ تلك الغيريَّة وبيانُ قيمتِها المعنويَّة، فالمُغايرةُ بينَ أجرِ النَّبيِّ ﷺ وأجرِ مُتابعيه أنَّ أجرَهُ كاملٌ وتامٌّ، لا ينالُهُ نقصٌ أو انقطاعٌ.

نُكْتَةُ اختيارِ الوَصْفِ ﴿مَمۡنُونٖ﴾ مادَّةً وصيغةً:

فَخامةُ الأجرِ بعدمِ اقترانِهِ بالنَّقصِ والكَسْرِ

اختارَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ ﴿مَمۡنُونٖ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ﴾؛ لما فيه من اجتماعِ دلالتين؛ إذ مادَّةُ اللَّفظ تحتملُ أن تكون بمعنى الإيذاءِ بعدَ الإعطاء، وأنْ تكون بمعنى النَّقص والانقطاع، قال الهرريُّ: أي: "غير مقطوعٍ ولا مَنقوصٍ معَ عِظَمِه، ومنهُ قيل: المَنونُ للمَنيَّة؛ لأنَّها تُنقِصُ العددَ، وتقطَعُ المَدَدَ، يقالُ: مَنَنْتَ الحبلَ؛ إذا قطعْتَهُ، وقال مجاهدٌ: ﴿غَيۡرَ مَمۡنُونٖ﴾ غيرَ مَحسوبٍ، وقال الحسنُ: غيرَ مُكدَّر بالمَنِّ"[(1)]، فاختار النَّظمُ هذا اللَّفظ المُشترك على رأيِ مُجوِّزيه؛ ليبيِّنَ أنَّ أجرَهُ ﷺ لا يُرافقُهُ إيذاءٌ ومَنٌّ، ولا ينالُهُ انقطاعٌ أو نقص، وأمّا على رأيِ المانعينَ من استعمالِ المُشترَكِ في مَعنييهِ، فيكون من عُمومِ المَجاز؛ بأن يُرادَ به مطلَقُ الإيذاءِ الصّادقِ بالمَنِّ اللِّسانيِّ أو بالنَّقص والانقطاعِ فيه، والَّذي يهمُّنا أنَّ اختيار النَّظمِ لهذا اللَّفظ بالذّاتِ ليفيدَ كمالَ الأجر، فهو مع عِظَمِه وفخامتِهِ كرمٌ خالٍ من أيِّ إيذاء أو خللٍ أَوْ نقص، قال ابنُ عاشور: "ولِهَذا كانَ لِإيثارِ كَلِمَةِ ﴿مَمۡنُونٖ﴾ هُنا مِنَ الإيجازِ بِجَمْعِ مَعنَيَيْنِ، بِخِلافِ قَوْلِه: ﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ١٠٨﴾ في سورَةِ هودٍ [هود: 108]؛ لِأنَّ ما هُنا تَكْرِمَةٌ لِلرَّسولِ ﷺ"[(2)]، كما دلَّت صيغةُ اسم المفعول على عدمِ وقوعِ المَنِّ فيه أو كونِهِ مُنقطِعًا وغيرَ دائمٍ.

---

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 83.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 63.

دلالةُ عطفِ المُثْبَتِ على المنفيِّ:

نفيُ التُّهمة والإعلامُ بعُلوِّ الرُّتبة

عطفَ النَّظمُ الكريمُ الجملةَ المُثبتَةَ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾، على الجملةِ المنفيَّةِ في قوله: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾؛ للدَّلالةِ على تبرئتِهِ أوَّلًا منَ الاضطرابِ العقليِّ، وتحليتِهِ بأعلى درجات الأجرِ الأُخرويِّ، قال ابنُ عاشور: "وَلَمَّا ثَبَّتَ اللّه رَسولَهُ ﷺ، فَدَفَعَ بُهتانَ أعدائِه؛ أَعْقَبَهُ بِإكْرامِهِ بِأجْرٍ عَظيم عَلَى ما لَقيَهُ مِنَ المُشْرِكينَ مِنْ أذًى بِقَوْلِه: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾، بِقَرينَةِ وُقوعِهِ عَقِبَ قَوْلِه: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾"[1]، فيكون ردًّا ثانيًا مغيظًا لصدورِهِم الَّتي حَنِقَتْ بما أولاهُ ربُّهُ من نعمة الوحي والرِّسالة، فاتَّهموه بالجنون حَسَدًا، فأخبرهم بأنَّ له أجرًا على ما يصدُرُ منهم من إيذاءٍ، فيزدادُ حِقدُهم، ويعظُمُ حَنَقُهم؛ لفرطِ عنادِهم وكمالِ استكبارِهِم.

دلالةُ توالي المُؤكِّدات:

لا يَستقيمُ الإنكارُ معَ كلِّ صوَرِ التَّوكيدِ والإصرار

توالَتْ طرائقُ التَّوكيدِ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾؛ فقدِ اشتملَ على أربعةٍ منها، هي: التَّوكيدُ بـ (إنَّ)، وتقديمُ شبهِ الجُملة على اسمِها، واللّامُ المُزحلَقَةُ، واسميَّةُ الجُملة، وهذه العناصرُ تحقِّقُ بمَجموعِها حِكمَ الجملةِ من نيلِهِ ﷺ الأجرَ الكاملَ؛ ردًّا على مُنكِري ذلك والمجادلينَ فيه.

مَعنى (الواوِ) في ﴿وَإِنَّكَ﴾، والغرضُ منها:

الخُلُقُ العظيم دليلُ العَقلِ الحَكيم

عطفَ النَّظمُ الكريمُ قولَهُ تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ على ما قبلَهُ؛ للدَّلالة على الجمعِ والاقتران بينَ حيازتِهِ ﷺ الأجرَ التّامَّ، وكونِه على خُلُقٍ عظيم، فهو إنِ استحقَّ الأجرَ التّامَّ على صبرِهِ عليهم لاتِّهامِهم له بالجنون، فإنَّه على خُلُقٍ عظيم، فكيف يُتَّهَمُ بالجنون؟ إذِ الخُلُقُ لا يكونُ إلّا عن وعيٍ وانتظامٍ في الطَّبع،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 62.

وحُسْنِ التَّصرُّفِ معَ الخَلْقِ، وذلك دليلُ العقلِ التّامِّ، قال البقاعيُّ: "ولمّا ثبتَ بهذا العقلُ معَ ما أفادَهُ منَ الفضلِ، وكانَ الَّذي يُؤَجَرُ قد يكونُ في أدنى رُتَبِ العقل؛ بيَّن أنَّه ﷺ في أعلاها بقولِه مُؤكِّدًا لما مضى: ﴿وَإِنَّكَ﴾"(1).

التَّفسيرُ المعنويُّ لـ(نعمة ربِّك):

نعمةُ الله الكريم هي الخُلُق العَظيم

ذهبَ الإمامُ الرّازيُّ إلى أنَّ جملةَ قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، كالتَّفسيرِ للنِّعمةِ الواردةِ في قولِه: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٍ﴾؛ إذِ انتفاءُ الجنونِ بمُلابسةِ نعمةِ ربِّك، وفيها شيءٌ من الغُموضِ وتعدُّدِ الاحتمالات، فكانتْ هذه الجملةُ مُفسِّرةً له تفسيرًا معنويًّا، ولذا قال: "اعلَمْ أنَّ هَذا كالتَّفْسيرِ لِما تَقَدَّمَ مِن قَوْلِه: ﴿بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ﴾، وتَعريفُ لِمَنْ رَماهُ بِالجُنونِ بِأنَّ ذَلِكَ كذبٌ وخَطَأٌ؛ وذَلِكَ لِأنَّ الأخْلاقَ الحَميدَةَ والأفْعالَ المَرْضيَّةَ كانَتْ ظاهِرَةً مِنْهُ، ومَن كانَ مَوْصوفًا بِتِلْكَ الأخْلاقِ والأفْعالِ؛ لَمْ يَجُزْ إضافَةُ الجُنونِ إلَيْهِ؛ لِأنَّ أخْلاقَ المَجانينِ سَيِّئَةٌ"(2).

دلالةُ التَّوكيدِ بـ(إنَّ):

الرَّدُّ على المُنكِرين للتَّصرُّفِ النَّبويِّ القويم

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بـ(إنَّ) في قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾؛ للدَّلالةِ على توكيدِ الحُكمِ وتحقيقِه، وردًّا على منِ اتَّهَمَهُ بالجنون؛ إذ مُقتضى الجنونِ انتفاءُ الخُلقِ لسوءِ التَّصرُّف وعدمِ الانتظامِ في التَّعاملِ.

إيثارُ التَّعبيرِ بضَميرِ المُخاطَب في (إنَّك):

دلالةُ الخطاب تُفيدُ معنى الزُّلفى والاقتراب

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بضميرِ المخاطَبِ، في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾؛ للدَّلالة على التَّعيينِ والتَّشخيص بأبلغِ مُعيِّنٍ ومُشخِّصٍ، ولبيانِ قُربِه من المتكلِّم حتّى كأنَّه حاضرٌ لديه وفي مواجهَتِه.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 292.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 601.

معنى (اللّام) في ﴿لَعَلَىٰ﴾ ودلالتُها:

الرَّدُّ على اللِّئام بتوكيدِ الكلام

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بحرفِ (اللّام)، في قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّوكيد، وهي لامُ الابتداءِ الَّتي زُحلِقَتْ لدخولِ (إنَّ)، والغرضُ منه إفادةُ الكلام تحقيقًا وتقويةً وتقريرًا؛ ردًّا على مَن أنكَرَ ذلك، أوْ نَفاهُ[1]، ودخول (اللّام) هنا على مُتعلِّقِ الخبرِ، وفي الآيةِ السّابقة على اسم (إنَّ) المُتأخِّر في: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا﴾؛ لبيانِ محطِّ الاهتمام ومقصَدِ التَّقوية؛ إذ هنا أُريدَ توكيدُ الكلام بكونِه على الخُلُقِ العظيم، وهناك أُريدَ توكيدُ الكلام بثبوتِ الأجرِ المُحقَّقِ له ﷺ.

دلالةُ المتعلِّق (على خُلُقٍ):

ثبوتُ الخُلُقِ العظيم للنَّبيِّ الكَريم

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بالجارِّ والمجرورِ المتعلِّقِ بالخبرِ المَحذوف، في قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، والتَّقديرُ: (مُستقِرٌّ على خُلُق)؛ للدَّلالة على ثبوتِ الخُلُقِ العظيم وتمكُّنِه في ذاتِ النَّبيِّ الكريم ﷺ تمكُّنًا تامًّا لا يحيدُ عنه، ولا ينفكُّ منه.

مَعنى (على) والغرضُ مِنها:

مِن كمالِ أخلاقِهِ اعتلاؤُهُ الخُلُقَ والسَّيطرةُ علَيه

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بحرفِ الجرِّ (على) في قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾؛ للدَّلالةِ على الاستعلاءِ المجازيِّ؛ إذِ النَّبيُّ الكريم ﷺ لا يعلو على الخُلُق حسّيًّا؛ لأنَّ الخُلُقَ أمرٌ معنويٌّ يتَّصفُ به الموصوف، فكونُ الموصوفِ على هذا الخُلُق دالٌّ على استعلاءٍ وتمكُّنٍ من ذلك الخُلُق، وسيطرةٍ عليه كسيطرةِ المُستعلي على المُستعلَى منه، والغرضُ من ذلك بيانُ كونِه مَجبولًا على الخُلُق العظيم، لا يفارقُهُ، ولا ينفكُّ عنه، قال الهرريُّ: "وكلمةُ (على) للاستعلاء، فدلَّت على أنَّه ﷺ مُشتمِلٌ على الأخلاقِ الحميدة، ومُستولٍ على الأفعالِ المَرضيَّة، حتَّى صارت بمنزلةِ

(1) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 304.

الأمورِ الطَّبيعيَّةِ له"[1]، ولذا فإنَّ (على) مستعارةٌ لحرفِ الظَّرف (في) أوِ (الباء)؛ بيانًا للتَّمكُّنِ والاستقرارِ والثُّبوتِ عليه.

دلالةُ التَّنكيرِ في ﴿خُلُقٍ﴾:

خُلُقُه ﷺ كثيرُ الأفرادِ مُنتظِمُ السِّمات

نكَّرَ النَّظمُ الكريمُ (الخُلُق) في قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾؛ للدَّلالة على فَخامةِ ذلك الخُلُق، وعُلوِّ شأنِه، وجلالِ أمرِه، مع كثرةِ أفرادِه وتنوُّعِ خِلالِه، ومادَّةُ (الخُلُق) تدلُّ على انتظامٍ في الطَّبع، وتناسُبٍ في التَّصرُّف وتناسُقٍ في الصِّفات الكريمة، قال الرّازيُّ: "الخُلُقُ مَلَكَةٌ نَفْسانيَّةٌ يَسْهُلُ على المُتَّصِفِ بها الإتيانُ بِالأَفْعالِ الجَميلَةِ"[2]، بمعنى أنَّ الصِّفات الحميدةَ تجري عليهِ من غيرِ تكلُّفٍ ولا مَشقَّةٍ في تحصيلِها؛ لكونِها طَبعًا مُستحكِمًا، وصفةً راسِخةً، وذلك يَتنافى مع اتِّهامِهم لهُ بالجنونِ والاضطِراب، قال الهرريُّ: "وفي الآيةِ رمزٌ إلى أنَّ الأخلاقَ الحسنةَ لا تكونُ معَ الجُنون، وكلَّما كان الإنسانُ أحسنَ أخلاقًا؛ كان أبعدَ مِنَ الجُنون"[3].

دلالةُ النَّعت والاستعارةِ في ﴿عَظِيمٍ﴾:

أخلاقُهُ الكريمة مثلُ الذَّوات العَظيمة

نعتَ النَّظمُ الكريمُ الخُلُقَ النَّبويَّ بـ(العظيم)، في قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾؛ للدَّلالة على تقييدِ ذلك الخُلُقِ الكريم بأنَّه فخمٌ وعظيم، والعظَمةُ إنَّما تُطلَقُ على الأجسام، فيكون فيها استعارةٌ؛ إذ شبَّهَ الخُلُقَ بجسم متَّسع في الكَمِّ والكيف، ثمَّ حذفَ المشبَّه به، وأبقى من خواصِّه ﴿عَظِيمٍ﴾؛ بيانًا لاتِّساعِ أخلاقِه وكمالِها، وكونِها تملأُ جميعَ المَوصوف، وأنَّ ذلك الخُلُقَ مُتَّسِعٌ اتِّساعَ الأجسامِ العظيمة، تجتمعُ فيه كلُّ مَكارم الأخلاقِ وجميل الصِّفات، قال ابنُ عاشور: "وَهوَ مُستَعارٌ مِن ضَخامَةِ الجِسْمِ، وشاعَتْ هَذِهِ الاستِعارَةُ حَتَّى ساوَتِ الحَقيقَةَ"[4].

---

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 83.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 601.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 84.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 63.

اللَّفُّ والنَّشرُ المُرتَّبُ بينَ المُقسَمِ به والمُقسَمِ عليهِ:

مِن مُميِّزات الكلام التَّناسُقُ والانسجام

في قولِه تعالى: ﴿وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، وقعَ قَسَمانِ باعتبارِ الظّاهر، وهما: القَسَمُ بالقلَم، وبما يَسطرونَ، وتثَلَّث المقسَم عليه بنفي الجنون أوَّلًا، وثبوتِ الأجر العظيم ثانيًا، وكونه على الخُلُق التّامِّ ثالثًا، لكن لو اعتبرْنا أنَّ ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ قَسَمًا ثالثًا، فيكون هنالك تساوٍ بين المُقسَم به والمُقسَم عليه، فالقَسَمُ الأوَّل بالقلم متناسِقٌ معَ انتفاءِ الجنون، والقَسَمُ الثّاني بالكتابةِ يتلاءمُ معَ حَوْزِ الأجرِ الكبير، والقَسَمُ الثّالث بالنِّعمة ينسجمُ مع كونِه صاحبَ الخُلُق العظيم، ففي المُقسَمِ به والمقسَم عليهِ لفٌّ ونشرٌ مُرتَّب.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

(يَكتبونَ) و(يَسطُرونَ):

الكتابةُ أعمُّ مُطلقًا منَ السَّطر

الكتابةُ مشتقَّةٌ من الكَتْبِ، وهو الضَّمُّ والجمعُ، وسُمّيَتِ الكتابةُ بذلك؛ لأنَّها تجمَعُ الحروفَ والكلمات، وتضمُّها بعضَها إلى بعض، وأمّا السَّطرُ؛ فهو في الأصلِ بمعنى الصَّفِّ المُنتظِم من الشَّجَرِ وغيره، وأُطلِقَ على صُفوفِ الكتابة لما فيها من الانتظامِ على سبيلِ الاستعارة، ثمَّ شاعتْ حتّى صارتْ حقيقةً في الكتابةِ المنتظمة الأسطُرِ والصُّفوف، فيكون بينَ (الكتابة والسَّطر) عمومٌ وخصوصٌ مُطلَقٌ؛ إذِ الكتابةُ تُطلَقُ على المكتوبِ بانتظام الأسطُرِ وعدَمِها، بخِلافِ السَّطر الَّذي يختصُّ بالكتابةِ المنتظمة الصُّفوف والسُّطور، ولذا آثرَ النَّظمُ في قولِه: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ ذِكرَ السَّطرِ دونَ الكتابة؛ للدَّلالة على انتظام القرآن وتناسُقِ أشكالِه، كما أنَّ مضامينَهُ متناسِقةٌ، ومعانيَهُ مُنسجِمةٌ.

﴿فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ ۞ بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ ۞﴾ [القلم: 5 - 6]

۞ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

بعد إحقاق الحقائق يأتي الوعدُ الصّادق والوعيدُ الماحِق

لَمّا ذَكرَ النَّظمُ الكريمُ اتِّهامَهم للنَّبيِّ الكريم بالجُنون الدّالِّ على إنكارِهم لشرعِهِ ودينِهِ وما جاءَ به من الحقِّ؛ ناسَبَ أنْ يذكُرَ الوعدَ لهُ ﷺ بالنَّصرِ عليهم والوعيدِ لهم بالخِذلانِ والخَسارة في مواجَهةِ الحقِّ والحقيقة، وحينَئذٍ يتبيَّنُ المهتدي من الضّالِّ، والعاقلُ منَ المجنون، والحكيمُ من الجاهِلِ السَّفيه.

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَسَتُبۡصِرُ﴾: البَصَرُ: العِلْمُ بالشَّيءِ، وبَصُرتُ بالشَّيءِ؛ إذا صِرتُ بهِ عالِمًا بصيرًا، وأبصَرتُهُ؛ إذا رأيتُهُ[1]، والبَصُر: حاسَّةُ الرُّؤية، والبصيرُ: العالِمُ، والتَّبصُّرُ: التَّأمُّلُ والتَّعرُّفُ، والتَّبصيرُ: التَّعريفُ والإيضاحُ[2]، والتَّحقيقُ: أنَّ الأصلَ الواحدَ في هذه المادَّة: هو العِلْمُ بنظرِ العَين أو بنَظَرِ القَلْبِ[3]، والمرادُ به في الآيةِ: العِلْمُ بالمآلِ، والرُّؤيةُ لواقعِ الحالِ.

2) ﴿ٱلۡمَفۡتُونُ﴾: الفتْنُ أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على ابتلاءٍ واختبارٍ، من ذلك الفتنةُ، يقالُ: فُتِنْتُ أُفتَنُ فَتْنًا، وفَتَنْتُ الذَّهبَ بالنّار؛ إذا امتحنتَهُ، وهو مَفتونٌ وفتينٌ، والفتّانُ: الشَّيطانُ[4]، وفتَنَ المالُ النّاسَ (من بابِ ضرَبَ) فُتونًا: استمالَهُم، وفُتِنَ في دينِه، وافتُتِنَ أيضًا: مالَ عنهُ، والفتنةُ: المِحنةُ والابتلاءُ، والجمعُ فِتَنٌ[5]، والتَّحقيقُ: أنَّ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بصر).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (بصر).
(3) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 1/ 249.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فتن).
(5) الفيوميّ، المصباح المنير: (فتن).

الأصلَ الواحدَ في المادَّة: هو ما يوجِبُ اختلالًا معَ اضطِرابٍ، فما أوجبَ هذَينِ الأمرينِ؛ فهو فتنةٌ، ولها مصاديقُ: كالأموال، والأولاد، والاختلافِ في الآراء، والغُلُوِّ في الأمرِ، والعذاب، والكُفر، والجنون، والابتلاء وغيرِها؛ إذا أوجبَ الأمرينِ[1]، والمرادُ بِهِ في الآية: المجنونُ الَّذي فُتِنَ بعقلِهِ عن رُؤيةِ الدّينِ الحقِّ.

المَعنى الإجماليُّ:

عـنـد تجلـيـة الحقائق وغـوْر الظُّنون، يُعلَم مَـن بـه الفتنةُ والجُنون

أي: فستعلَمُ يا محمَّد عِلْمًا يقينيًّا، وسيعلمُ مُخالفوك أيُّكُم المفتونُ، أي: المجنونُ؛ لأنَّه فُتِن، أي: مُحِنَ بالجُنون، وقيلَ: فستُبصِرُ، ويُبصِرون بأيِّ الفريقينِ منكُم الفتنةُ، أي: المجنونُ، أبفريقِ المؤمنينَ أم بفريقِ الكافرينَ، وفي أيّهما يوجد مَن يَستحِقُّ هذا الاسمَ"[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الفاءِ) والغرضُ منها:

الاتِّهامُ بالجُنون ضلالٌ وفُتون

عطفَ النَّظمُ الكريمُ بـ(الفاء) في قولِه تعالى: ﴿فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ﴾ على ما قبلَهُ؛ للتَّوعُّدِ والتَّهديدِ على ما صدرَ منهم من اتِّهامٍ وتكذيبٍ، وما سيَصلونَ إلى إبصارِهِ من ضَلالٍ مُبين، ولذا كانت "الفاءُ لِلتَّفْريعِ على قَوْلِه: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾، باعتِبارِ ما اقتَضاهُ قَوْلُهُ: ﴿بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ﴾، مِن إبْطالِ مَقالَة قيلَتْ في شَأْنِه، قالَها أعداؤُهُ في الدّينِ، ابْتَدَأَ بِإبْطالِ بُهْتانِهِم، وفَرَّعَ عَلَيه أَنَّهُم إذا نَظَروا الدَّلائِلَ، وتَوَسَّموا الشَّمائِلَ؛ عَلِموا أيُّ الفَرِيقَيْنِ المَفْتونُ؟ أَهُم مَفْتونونَ بِالانصِرافِ عَنِ الحَقِّ والرُّشْدِ، أَمْ هوَ بِاخْتِلالِ العَقْلِ، كَما اختَلَقوا؟"[3].

دلالةُ السّينِ في ﴿فَسَتُبۡصِرُ﴾:

تحقيقُ الإخبارِ لما يكونُ مَرئيًّا بالأبصار

عبَّر النَّظمُ الكريمُ بـ(السّين)، في قولِه تعالى: ﴿فَسَتُبۡصِرُ

(1) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 9/ 20.
(2) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 10/ 1526.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 65.

﴿وَيُبۡصِرُونَ﴾؛ للدَّلالة على الاستقبالِ معَ تأكيدِ وقوعِ ذلك في المستقبلِ القريب، وفيه وعدٌ بالحصولِ، والوعدُ من الصّادق لا يتخلَّفُ، فهو واقعٌ لا محالةَ، ونبَّه ابن عاشور إلى أنَّ (السّينَ) تكونُ للتَّأكيد؛ إن كانَ الفعلُ ﴿فَسَتُبۡصِرُ﴾ بمعنى العِلْم؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ قد عَلِمَ ذلك بالفعلِ ماضيًا، فيكونُ الإخبارُ عن علمِهِ مُستقبلًا توكيدًا لذلك المُتحقِّقِ الوقوع، وإنْ كان بمعنى الإبصارِ لذلك الأمر؛ فإنَّها تكونُ للمستقبلِ فحسبُ[1]، والَّذي يبدو أنّها تأكيديَّةٌ وإنْ كانت الرُّؤيةُ بالإبصارِ الحسيِّ؛ لأنَّ الوعد بالأمرِ المستقبليِّ الَّذي يُبصَرُ يُفيدُ التَّوكيدَ والتَّثبيتَ لهُ، ونبَّه ابنُ عَرَفة إلى فائدةٍ للسّين أُخرى، فقال: "عبَّرَ بالمستقبل معَ أنَّه ﷺ عالمٌ بذلك في الحال؛ لأنَّ الخطاب بذلك عامٌّ في جميع النّاس، وكلُّ واحد لا يَدري بماذا يُختَمُ له من ضَلالٍ أوْ هِدايةٍ؟"[2].

دلالةُ المضارعِ (تبصرُ) صيغةً:

تهديدُ المُجرمين بما يقعُ عليهم من خِذلانٍ مُبين

اختارَ النَّظمُ الكريمُ الفعلَ المضارعَ في قوله تعالى: ﴿فَسَتُبۡصِرُ﴾؛ للدَّلالة على وقوعِ ذلك الأمرِ الموعودِ في حُصوله على سبيلِ الاستمرار المتجدِّد، ويتكرَّرُ ذلك الحصول؛ لأنَّ الاتِّهامَ له بالجُنون شنيعٌ، وسوف يَرى، ويُبصر، ويَعلم يقينًا ما سيؤولُ إليه أمرُهُ وأمرُهُم.

دلالةُ الإدماجِ في ﴿فَسَتُبۡصِرُ﴾:

لنجاحِ الحِوار الإنصافُ بينَ الأشرارِ والأخيارِ

أدمجَ النَّظمُ الكريمُ ذِكرَ الفعلِ (تُبصِرُ)، في قولِه تعالى: ﴿فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ﴾؛ لغرضِ مُجاراةِ الخَصْم وتصويرِ الأمر دائرًا بينَ الطَّرفين على سبيل الشَّكِّ والاحتمال؛ ولذا قالَ ابنُ عاشور: "والمَقْصودُ هوَ ما في قَوْلِهِ: ﴿وَيُبۡصِرُونَ﴾، ولَكِنْ أُدْمِجَ فيهِ قَوْلُهُ: ﴿فَسَتُبۡصِرُ﴾؛ لِيَتَأتَّى بِذِكْرِ الجانِبَيۡنِ إيقاعُ كَلامٍ مُنْصِفٍ (أي: داعٍ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 65.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 268.

إلَى الإنْصافِ) على طَريقَةِ قَوْلِه: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢٤﴾ [سبأ: 24]؛ لِأنَّ القُرآنَ يَبْلُغُ مَسامِعَهُم، ويُتْلَى عَلَيهِم"[1].

دلالةُ المُضارِع (تُبصر) مادَّةً بينَ الحقيقةِ والاستعارة:

المُبالغة في العِلْمِ بتنزيلِه مَنزلةَ الجِسْم

عبَّر النَّظمُ القرآنيُّ بالفعلِ المضارعِ للإبصارِ كرَّتينِ، في قوله تعالى: ﴿فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ﴾؛ للدَّلالة إمّا على الإبصارِ الحسيِّ، وذلك بالرُّؤية له بالعَينِ المُجرَّدة، وإمّا بمعنى العِلْم والإدراكِ والاعتقاد بالشَّيء، فإن كان بالمعنى الأوَّل؛ فهو استعمالٌ حقيقيٌّ فيما وُضِعَ له اللَّفظ، وإن كان بالمعنى الثّاني؛ فهو استعارةٌ؛ للدَّلالة على شدَّةِ العِلْم بالشَّيء حتّى إنَّه يَتحوَّلُ إلى إبصارٍ له، فيكون هنالك استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ؛ بتشبيهِ العِلْم بالشَّيء بالإبصارِ له؛ مبالغةً وتجسيدًا للمعلوم، ثُمَّ حُذِفَ المشبَّهُ، واشتُقَّ من المشبَّهِ به الفعلانِ، قال البقاعيُّ: "أي: ستعلَمُ يا أعلى الخَلْقِ وأشرَفِهم وأكملِهم عن قريبٍ بوعدٍ لا خُلفَ فيه، عِلْمًا أنتَ في تحقُّقِه كالمُبصِرِ بالحسِّ الباصِرِ"[2]، والغرضُ من التَّشبيه تحقيقُ ذلك الفعلِ وتثبيتُ وقوعِه، حتّى إنَّه يُصبحُ إبصارًا من شدَّةِ العِلْم به، وبذلك يتقوّى التَّهديدُ والتَّوعُّدُ لأولئك الحاسِدينَ والمُكذِّبين.

مَرجِعُ الضَّميرينِ في ﴿فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ﴾:

تشريفُ النَّبيِّ بالخطاب، وإهمالُ المُكذِّبينَ بالغياب

الفعلانِ المُضارعانِ الوارِدانِ في قولِه تعالى: ﴿فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ﴾ مَنسوبانِ إلى فاعلٍ معيَّنٍ ومعلوم من السّياق، والفعلُ الأوَّل منسوبٌ إلى النَّبيِّ ﷺ بأسلوبِ ضميرِ الخطّاب؛ إشعارًا بالقُرب منه والاهتمام بأمره، ومن ثَمَّ قُدِّمَ في النَّظم فعلُهُ ﷺ وإنْ كان ذِكرُهُ مُدمَجًا، والفعلُ الثّاني منسوبٌ للمشركينَ الحاسِدينَ، الَّذين اتَّهموا النَّبيَّ ﷺ بالجُنون والاضطراب العقليِّ، المُعبَّرِ عنهم بضميرِ الغَيبة (الواو)؛ للدَّلالة على

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 65.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 295.

غَيبتهِم عن المشهَدِ وعدمِ الاكتراث بحالِهم، وإنْ كان ذِكرُ حَدَثِهم على أنَّه الأبرزُ؛ إذ إبصارُهُم لما يؤولُ إليه أمرُهم هو المقصدُ من التَّوعُّدِ والتَّهديد، ولذا أُخِّرَ فعلُهم، وجُعِلَ مُرتبطًا بالمتعلِّقِ مُباشرةً.

معنى (الواو) في ﴿وَيُبۡصِرُونَ﴾:

الارتباطُ بينَ الإبصارين تعديلٌ لحقِّ الطَّرفين

عطفَ النَّظمُ الكريمُ الفعلَ المضارعَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَيُبۡصِرُونَ﴾ على ما قبلَهُ؛ للدَّلالة على الجمعِ والاقتران بينَ إبصارِهِم للمُهدَّدِ به وإبصارِهِ له، والعطفُ وإنْ دلَّ في الصَّنعة على أنَّ المعطوفَ تابعٌ وثانٍ، إلّا أنَّه في السّياق هو المقصودُ أصالةً، وذِكرُ المعطوفِ عليه للعدالةِ عندَ التَّهديد بما سيكونُ.

دلالةُ الفعلِ المُضارعِ ﴿وَيُبۡصِرُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

رؤيةُ الضَّلالِ المُبينِ بنظَرِ القلبِ والعَين

عبَّر النَّظمُ الكريمُ بالفعلِ المضارعِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَيُبۡصِرُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّجدُّدِ الاستمراريِّ لإبصارِهم الحِسّيِّ أوِ العلْميِّ، ويحتملُ أن يكون الإبصارُ الأوَّلُ المنسوبُ للنَّبيِّ الكريم ﷺ بمعنى الرُّؤيةِ العينيَّة، والإبصارُ الثّاني المسندُ إليهم بالمعنَيين الحسّيِّ والاعتقاديِّ؛ لأنَّ بعضَهم يموتُ، فلنْ يتحقَّقَ له الإبصارُ بالمُهتدينَ والمَجانينَ الضالِّين، إلّا علْميًّا بما يَؤولُ إليه أمرُهُ من عِقاب، وبعضُهم يبقى حيًّا حتّى يُدركَ ذلك بأُمِّ عينِهِ.

سرُّ تركِ (السّين) معَ ﴿وَيُبۡصِرُونَ﴾:

الاهتمامُ يقتضي الوَعْدَ تسليةً له عنِ الإيذاءِ بما يَجِد

تركَ النَّظمُ الكريمُ (السّين) في قولِهِ تعالى: ﴿فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ﴾؛ لعدمِ الاهتمامِ بشأنِهم، وعدمِ التَّنويهِ بأمرِهم، فقد أكَّدَ الوعدَ للنَّبيِّ ﷺ بإبصارِ ذلك الأمرِ والعِلْمِ به، ولم يُؤكِّد لهم، ولم يهتمَّ بالوعدِ معَهُم، قال القونويُّ: "وزيادةُ (السّين) هنا تأكيدُ بصيرتِهِ عليه السلام، بحيثُ يترتَّبُ عليه زيادةُ اليقين، وأمّا المشركونَ؛ فلا فائدَةَ في إبصارهم، وعن هذا تركَ (سينَ) التَّأكيد هنا"[1].

(1) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 225.

دلالةُ التَّضمين في الفعلينِ:

أعلى درجاتِ اليقينِ المتُحقِّقُ إبصارُهُ بالعَين

يحتملُ فِعلا الإبصارِ الوارِدانِ في قوله تعالى: ﴿فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ﴾ أنَّهما ضُمِّنا مَعنى (توقِنُ ويوقِنون)، ويُرشِّحُ ذلك تعديتُهما بـ(الباء)؛ لأنَّ الإبصارَ بالعينِ والعِلْم يتعدَّيانِ بأنفسِهما، وفائدةُ التَّضمين الإشارةُ بطريقِ الكنايةِ إلى أنَّ ذلك اليقين متحقِّقُ الوقوع(1)، وكأنَّه مُبصَرٌ بأُمِّ العين؛ إذ أعلى درجاتِ اليقين ما يكونُ إبصارهُ بالعَين المجرَّدة.

معنى (الباءِ) في ﴿بِأَييِّكُمُ﴾:

ثَراءُ المعاني الحرفيَّة المتُأثِّرةِ بالدَّلالاتِ السّياقيَّة

يتعدَّدُ معنى (الحرف) باختلافِ الدَّلالات السّياقيَّة، وطبيعةِ الارتباط بينَ عناصرِ التَّراكيب، من ذلك (الباء) الواردةُ في قولِه تعالى: ﴿فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ ۝ بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ﴾؛ فقدِ احتملت أربعَ دلالاتٍ بتعدُّدِ المُرادِ بـ﴿ٱلۡمَفۡتُونُ﴾، أهو المَجنون أم الجنونُ أوَّلًا؟ وبطبيعةِ التَّعديةِ بينَ (تبصر وتبصرون) بالجارِّ والمجرورِ ثانيًا، وبالتَّضمينِ وعدمِه فيهما ثالثًا، وبتعلُّقِ الجارِّ والمجرور واستئنافِه رابعًا، على التَّفصيل الآتي:

الباءُ زائدةٌ للتَّوكيد(2)، وهذا التَّوجيهُ بناءً على أنَّ الفعلين ﴿فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ﴾، بمعنى الإبصارِ أوِ العِلمِ مُتعلّقان بالاستفهام (أيّ)، قال ابن عطيَّة: "الإبصارُ عاملٌ في الجملةِ المُستفهَم عنها في معناها"(3)، والتَّقديرُ: (فستُبصر، ويُبصِرونَ أيُّكم المفتونُ) المُمتحَنُ في عقلِه وطريقِ هِدايته أوِ المَجنونُ؛ إذِ الفعلُ بمعنى (الإبصارِ والعِلْم) يَتعدَّيانِ بأنفُسِهما، فتكون (الباءُ) مُؤكِّدةً لذلك الشَّيء المُبصَر المَعلوم، وأنَّ ﴿ٱلۡمَفۡتُونُ﴾ بمعنى اسم المفعول، قال السَّمين: "تكونُ الجملةُ الاستفهاميَّةُ في محلِّ نَصْبٍ؛ لأنَّها واقعةٌ موقعَ مفعولِ الإبصار"(4).

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 67.
(2) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 10/ 402.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 346.
(4) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 10/ 402.

الباءُ ظرفيَّةٌ بمعنى (في)، وهذا التَّوجيهُ مبنيٌّ أيضًا على تعلُّقِ الفعلينِ بالاستفهامِ تعلُّقَ المظروفِ بالظَّرف، وأنَّ ﴿ٱلْمَفْتُونُ﴾ بمعنى (المَجنون)، والتَّقديرُ: (فستُبصِرُ، ويُبصِرونَ في أيِّكم يوجدُ المجنونُ) الَّذي فُتِنَ بعقلِه، والإبصارُ في الاستفهامِ هو إبصارٌ في جوابِه المفهومِ من السّياق، فإن كان الجوابُ بأيٍّ منهما؛ فإنَّه يتحقَّقُ الإبصارُ في جوابِ ذلك والعِلْم به، ولكن يَلزمُ على هذا الوجهِ أن تكونَ (الباءُ) للظَّرفيَّة، فتكونَ مَجازًا بذِكر المُعدّي وإرادةِ المَعنى الظَّرفيِّ، قال الطَّبريُّ: "تأويلُهُ (بأيِّكم المَجنونُ)، كأنَّه وجَّه معنى (الباء) في قوله: ﴿بِأَييِّكُمُ﴾ إلى معنى (في)، وإذا وُجِّهَتِ (الباء) إلى معنى (في)؛ كان تأويل الكلام: (ويُبصِرونَ في أيِّ الفريقَينِ المجنونُ؟ في فريقك يا محمَّد أو فريقِهم، ويكون المجنونُ اسمًا مرفوعًا بـ(الباء)"[1].

الباءُ للمُلابسةِ بمعنى (مَعَ) أو للإلصاقِ، وهذا التَّوجيهُ بناءً على قطعِ العلاقةِ بينَ الفعلين والجملةِ الاستفهاميَّة بـ(الباء)، فيكون الكلامُ قد تمَّ في جُملتَي ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾، ثمَّ ابتدأ بكلامٍ آخرَ استفهاميٍّ، قال ابنُ عطيَّة: "الكلامُ تامٌّ في قوله: ﴿وَيُبْصِرُونَ﴾، ثمَّ استأنفَ قولَه: ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾"[2]، وأنَّ ﴿ٱلْمَفْتُونُ﴾ اسمُ مفعول بمعنى المصدر، والتَّقدير: (الفتونُ مُلتبِسٌ بأيِّكم)، ثمَّ يقع التَّركيبُ الاستفهاميُّ الاسميُّ بأكملِه مُتعلِّقًا للفعلَينِ ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾، وليس عن طريقِ (الباء)، وفائدةُ الارتباط بالمجموعِ التَّخلُّصُ من إشكاليَّةِ تعديةِ الفعلينِ المتعدّيينِ بأنفسِهما إلى التَّعدّي بـ(الباء)، والذَّهاب إلى دَعوى الزّيادةِ لها أوِ المَجازِ الظَّرفيِّ فيها، والتَّقديرُ: (فستُبصِرُ، ويُبصِرونَ، الفتونُ مُلتبِسٌ بأيِّكم)، قال الطَّبريُّ: "تأويلُ ذلك: بأيِّكُمُ الجُنونُ، وكأنَّ الَّذين قالوا هذا القولَ وجَّهوا ﴿ٱلْمَفْتُونُ﴾ إلى معنى (الفتنةِ أوِ الفتون)، كما قيل: ليس لهُ معقولٌ ولا معقودٌ، أي: بمعنى ليس له عقلٌ ولا عقدُ رأيٍ، وأولى الأقوالِ في ذلك عندي بالصَّواب قولُ مَن قال: معنى ذلك (بأيِّكم الجُنون)، ووجَّهَ المفتونَ إلى (الفُتون) بمعنى المصدر؛ لأنَّ ذلك أظهرُ معاني الكلام؛ إذا لم ينوِ إسقاطَ الباء، وجعلنا لدخولِها وجهًا مفهومًا"[3].

(1) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 530.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 346.
(3) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 530.

الباءُ مُعدّيةٌ، وهذا بناءً على تضمينِ الفعلينِ ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾ معنى اليقينِ، فيكونانِ لازمينِ بالتَّضمين، وتكونُ (الباءُ) مُعدّيةً لهُما.

مُتعلّقُ الباءِ في ﴿بِأَيِيّكُمُ﴾:

تقويةُ التَّعدية تخصيصٌ لما تقعُ فيهِ التَّبصرة

الجارُّ والمجرور ﴿بِأَيِيّكُمُ﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ٥ بِأَيِيّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾، يتعلَّقُ باعتبارِ دلالتِه وأصالتِه، فمَن رأى أنَّه مزيدٌ للتَّوكيد؛ فلا تعلُّق لهُ أصلًا بالباء، بلْ يكونُ محلُّ الجملةِ مُتعلّقًا، ومَن ذهب إلى أنَّه دالٌّ على الظَّرفيَّةِ المجازيَّة؛ فإنَّه مُتعلِّقٌ بما قبلَهُ، ومَن أعربَهُ خبرًا مُقدَّمًا؛ فإنَّه مُتعلِّقٌ بخبرٍ محذوفٍ تقديرُهُ (ملتبِسٌ)، ومَن ضمَّنَ الفِعلين ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾ معنى اليقين؛ فإنَّه متعلِّقٌ حينئذٍ بهما باعتبارِ ما تضمَّناه، والذي يظهر أنَّه متعلِّقٌ بالفعلينِ على سبيلِ التَّنازُع، وأنَّ (الباءَ) مُقوّيَةٌ للتَّعدّي الأصليِّ في الفعلينِ؛ لأجل تحديدِ محلِّ الإبصار، فيفيدُ الاختصاصَ بإبصارِ (أيُّكم المفتون)؛ لأنَّه محلُّ النِّزاع.

مَعنى (أيّكم) والغرضُ منه:

الإغـماضُ في الاستفهام لتحقيق الإنصافِ عندَ الإفهام

استعملَ النَّظمُ الكريمُ أداةَ الاستفهام (أيّ)، في قولِه تعالى: ﴿بِأَيِيّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾؛ للدَّلالة على تمييزِ أحدِ المُتشاركينَ عن الآخر، قال ابن عاشور: "وهوَ في جَميعِ ذَلِكَ يُفيدُ شَيْئًا مُتَمَيِّزًا عَمّا يُشارِكُهُ في طائِفَتِهِ المَدْلولَةِ بما أُضيفَ هوَ إلَيهِ، فَقَوله تعالى: ﴿بِأَيِيّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾، مَعْناهُ: أيُّ رَجُلٍ، أو أيُّ فَريقٍ مِنكُمُ المَفْتونُ؟"[1]، والغرضُ منَ الاستفهام الإبهامُ على المخاطَبِ والإغماضُ فيه، وإن كان معلومًا الجوابُ من السّياق، لكنَّ المناظرةَ توجِبُ مُجاراةَ الخصم حتّى يتحقَّقَ الإنصافُ في التَّعبير، فالاستفهامُ مُستعمَلٌ في التَّمييزِ مجازًا، والمراد به الإبهامُ لدى الإفهام؛ إذِ المَفتونُ هُمُ المُكذِّبون، وأنَّ غيرَ المفتونِ هو النَّبيُّ الكريمُ ﷺ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 66.

صيغةُ ﴿ٱلْمَفْتُونُ﴾ بينَ المفعوليَّةِ والمصدريَّة:

الحملُ على أصلِ الصّيغة أَوْلى من العُدولِ عن الحقيقةِ

استعملَ النَّظمُ الكريمُ ﴿ٱلْمَفْتُونُ﴾ في قوله تعالى: ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾؛ إمّا للدَّلالةِ على معنى المفعولِ، والمرادُ به الَّذي فُتِنَ في عقلِهِ وقلبِهِ، فلا يَرى الحقَّ، ولا يبصرُ الحقيقةَ، وإمّا للدَّلالة على معنى المصدريَّة؛ إذ وقعتْ صيغةُ المفعولِ؛ للدَّلالة على المصدرِ كـ(الميسور والمَعسور)، قال الهرريُّ: "المفتونُ إمّا اسمُ مفعولٍ بمعنى المَجنون، أو مصدرٌ بمعنى الفُتون، وهو الجنونُ، كـ(المعقولِ) بمعنى العَقْلِ"[1]، فالمرادُ: بأيِّكم الفُتونُ مُلتبسٌ، والَّذي يترجَّحُ أنَّ اللَّفظ بمعنى المفعولِ المُتناسِقِ مع الاتِّهام للنَّبيِّ الكريم باسم المفعول (مجنون)، فردَّ عليهم النَّظمُ أنَّهم سوفَ يُبصِرون أيُّهم الَّذي فُتِنَ في عقله، فلا يرى طريقَ الحقِّ، ولا يُبصرُ نورَهُ المُبين.

دلالةُ ﴿ٱلْمَفْتُونُ﴾ مادَّةً:

المفتونُ مَن ضلَّ عنِ الطَّريقِ المأمون

عبَّر النَّظم الكريم بلفظِ ﴿ٱلْمَفْتُونُ﴾ في قوله تعالى: ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ المشتقِّ من الفعلِ (فُتِنَ)، فيكونُ إمّا بمعنى الَّذي أصابَتْهُ فتنةٌ إنْ كان اسمَ مفعول، أو بمعنى الفُتونِ إنْ كان مَصْدرًا، و﴿ٱلْمَفْتُونُ﴾ لفظ عامٌّ يتحقَّقُ في أفرادٍ عديدة، منها فتنةُ العقلِ والبصيرة والحِكمة، ومن ثمَّ يقالُ للمجنونِ مفتونٌ، وبهذا المعنى يتحقَّقُ الرَّدُّ على المتَّهمينِ للنَّبيِّ ﷺ بأنَّه مجنون، فتوعَّدَهُم بأنَّهم سوف يُبصِرون مَن هو المفتونُ والمجنونُ في عقله حتَّى ضلَّ عن سبيل ربِّه، أو يُبصِرونَ مَن تتلبَّسُ الفتنةُ في عمِلِه وتصوُّرِه، أي: فتنةُ العقلِ والإدراكِ والتَّصديقِ والإذعانِ.

إيثارُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿ٱلْمَفْتُونُ﴾:

الأنسبُ عندَ التَّوصيف أحقُّ في الاختيارِ والتَّعريف

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بلفظِ ﴿ٱلْمَفْتُونُ﴾، في قولِهِ تعالى: ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ دونَ لفظِ (المجنون)، مع أنَّ المفتونَ من أفرادِهِ

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 130.

المجنونُ الَّذي فُتِنَ في عقلِهِ وإدراكِهِ، وأنَّ التُّهمةَ الَّتي أوجبَتِ الرَّدَّ هي صفةُ الجُنون التي ألصقها الأعداءُ بالنَّبيِّ الكريم ﷺ، والسِّرُّ في ذلك بيانُ ضلالِهم في وصفِهم هذا النَّبيَّ بهذا النَّعت، وأنَّهم لم يُحسنوا الاختيارَ، فالأنسبُ أن يتَّهموه بالمفتونِ دونَ المجنون؛ لأنَّ الجُنون عَرَضٌ مستمرٌّ بخلافِ ﴿ٱلۡمَفۡتُونُ﴾، الَّذي يفتَنُ في عقله، ويَضطرِبُ فهمُهُ أحيانًا، فهو بيانٌ لجهلِهم في ذِكرِ التَّوصيفِ المناسب أوَّلًا، وأنَّ الأنسب بالمقام عندَ الرَّدِّ عدمُ نسبةِ الطَّرفين للجنون ثانيًا، فلم يقل: (أيكم المجنون)؛ لأنَّ الاعتقاد بالضَّلال وعدم معرفة الحق يكونُ في المفتون عن رُؤيتِهِ ومعرفتِه، قال ابن عاشور: "إيثار هذا اللَّفْظِ، دونَ لَفْظِ (المَجنونِ) مِنَ الكَلامِ المَوَجَّهِ أوِ التَّورِيَةِ؛ ليَصِحَّ فَرْضُهُ لِلجانِبَينِ، فَإن لَم يَكُنْ بَعْضُ المُشْرِكينَ بِمَنْزِلَةِ المَجانينِ الَّذينَ يَندَفِعونَ إلَى مُقاوَمَةِ النَّبيِّ ﷺ بِدونِ تَبَصُّرٍ؛ يَكُنْ في فِتْنَةِ اضطِرابِ أقْوالِهِ وأفْعالِهِ، كَأبي جَهْلٍ والوَليدِ بنِ المُغيرَةِ وأضْرابِهِما، الَّذينَ أغرَوُا العامَّةَ بِالطَّعْنِ في النَّبيِّ ﷺ بِأقْوالٍ مُخْتَلِفَةٍ"(1).

الوصفُ الادِّعائيُّ والتَّشبيهُ البليغُ في ﴿ٱلۡمَفۡتُونُ﴾:

توصيفٌ راجحِ التَّفكير بالجُنونِ قولٌ مأفون

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بـ﴿ٱلۡمَفۡتُونُ﴾، في قولِه تعالى: ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ﴾، وهو يحتملُ إرادةَ الحقيقةِ، بأنَّهم سيُبصِرونَ المجنونَ الحقيقيَّ في نهايةِ المطافِ، أو كالمجنونِ والمنزَّلِ منزلتَهُ، فيكون الوصفُ ادِّعائيًّا على أسلوب التَّشبيهِ البليغ، قال ابنُ عاشور: "فَيَكونُ تَعْريضًا بِأبي جَهْلٍ والوَليدِ بنِ المُغيرَةِ وغيرِهما مِن مُدَبِّري السُّوءِ عَلَى دهماءِ قُرَيْشٍ بِهَذِهِ الأقْوالِ الشَّبيهَةِ بِأقْوالِ المَجانينِ؛ ذَلِكَ أنَّهُم وصَفوا رَجُلًا مَعْروفًا بَينَ العُقَلاءِ، مَذْكورًا بِرَجاحَةِ العَقْلِ والأمانَةِ في الجاهِليَّةِ، فَوَصَفوهُ بِأنَّهُ مَجْنونٌ، فَكانوا كَمَن زَعَمَ أنَّ النَّهارَ لَيْلٌ، ومَنْ وصَفَ اليَوْمَ الشَّديدَ البَرْدِ بِالحَرارَةِ، فَهَذا شُبِّهَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 66.

بِالمَجْنونِ، ولِذَلِكَ يُجْعَلُ ﴿ٱلۡمَفۡتُونُ﴾ في الآيَةِ وصْفًا ادِّعائيًّا على طريقَةِ التَّشبيهِ البَليغِ"[1].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الاختبارُ والابتلاءُ والامتحانُ والفتنة:

الوقوفُ على الدَّلالة الوضعيَّة لمعرفة الفروقِ الاستعماليَّة

الاختبارُ منَ (الخبَر) بمعنى الاطِّلاع النّافذِ وأخذِه، والابتلاءُ منَ (البَلْوِ) بمعنى إيجادِ التَّحوُّل والتَّقلُّب والأخذِ به، والامتحانُ من (المَحْنِ)، وهو دأبٌ وجِدٌّ في العمل حتّى يتحصَّلَ الخبرُ والنَّتيجة، والفتنُ إيجادُ اختلالٍ واضطراب، فلا يصحُّ استعمالُ واحدٍ منها في موردٍ آخرَ إلّا بالتَّجوُّز، وقدِ اختلط كلُّ واحد من هذه المعاني في مقامِ الاستعمال والتَّفسيرِ في كَلماتهم، نعم؛ إذا لوحظتِ الحيثيّات والقيودُ؛ فلا إشكال، فيقال: اختبرتُ الذَّهبَ، وابتليتُهُ، وامتحنتُهُ، وافتتنْتُه؛ **فالأوَّلُ**: بلحاظِ مُجرَّدِ تحصُّلِ الخبرِ فيه، **والثّاني**: بتحصُّلِ التَّحوُّلِ والتَّقلُّبِ فيه، **والثّالثُ**: بالنَّظر إلى دأبٍ وجِدٍّ حتّى يتحصَّلَ الخبرُ. **والرّابع**: بالنَّظرِ إلى حصولِ اختلالٍ واضطرابٍ فيه[2].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 67.

(2) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 9/ 20 - 21.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ۝٧﴾ [القلم: 7]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

استدراج الأذهان لاستيعاب الحقِّ بالبرهان

لمّا ذكرَ المولى تعالى على سبيل المماشاةِ والإنصافِ مع الخصم في حُصولِ العلْم بالمفتون على سبيلِ الحقيقة؛ ناسبَ أنْ يذكرَ على الأسلوبِ نفسِه أَنَّ الله هو الَّذي يعلمُ الضّالَّ من المهتدي، أوْ أنَّه لمّا ذكر ذلك أوّلًا؛ أرادَ أنْ يُعلِمَ المُكذِّبين أنَّهم الضّالّون، فيكونَ وعيدًا لهم، وأنْ يُعلِمَ المؤمنين منهم بأنَّهم المهتدونَ، فيثيبَهم عليه، فيكونَ وعدًا لهم، قال الطَّيبيُّ: "فعلَى الأوَّل: ﴿هُوَ أَعۡلَمُ﴾ بالمجانين على الحقيقةِ، وهم الَّذين ضلّوا عن سبيلِه، ﴿وَهُوَ أَعۡلَمُ﴾ بالعُقلاءِ - وهمُ المُهتدون - مجرى على الاستدراجِ وإرخاءِ العِنان؛ لأنَّ قولَه: ﴿فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ﴾ واردٌ عليه؛ لأنَّ المسلمين كانوا يعلمونَ أنَّ المفتونين كانوا أضدادَهُم، نحو قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝٢٤﴾ [سبأ: 24]، والمعنى: لا أنتم أيُّها المؤمنون تدرونَ ولا الكفرةُ مَن ضلَّ عن سبيلِه ومن اهتدى، والله على الحقيقةِ هو أعلَمُ، وعلى الثّاني: - (الوعيد والوعد) - أنَّ الله يعلمُ أحوالَ المؤمنينَ وما هُم عليه من الهُدى، فيُثيبهم بذلك، ويعلمُ كفرَ المعاندينَ وضلالَهم، فيُعاقبهم عليه"[1]، وأوضحَ الرّازيُّ الوجهين بقوله: "وَفيهِ وجهانِ: **الأوَّلُ**: هو أن يكونَ المعنى: إنَّ ربَّك هو أعلمُ بالمجانين على الحقيقة، وهم الَّذينَ ضَلّوا عَن سَبيلِه، وهوَ أعلَمُ بِالعُقَلاءِ، وهُمُ المُهتَدونَ، **والثّاني**: أن يَكونَ المَعنَى أنَّهُم رَمَوكَ بِالجُنونِ، ووَصَفوا أنفُسَهُم بِالعَقلِ، وهُم كَذَبوا في ذَلِكَ، ولَكِنَّهُم مَوصوفونَ بِالضَّلالِ،

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 573.

وأنتَ مَوصوفٌ بِالهِدايَةِ، والامتيازُ الحاصِلُ بِالهِدايَةِ والضَّلالِ أوْلَى بِالرِّعايَةِ مِنَ الامتيازِ الحاصِلِ بِسَبَبِ العَقْلِ والجُنونِ"(1).

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ضَلَّ﴾: (ضلل) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على معنًى واحدٍ، وهو ضَياعُ الشَّيءِ وذهابُهُ في غيرِ حقِّهِ، يقالُ: ضلَّ يضِلُّ، وكلُّ جائرٍ عن الحقِّ والقَصدِ ضالٌّ(2)، وضلَّ الرَّجلُ الطَّريقَ، وضلَّ عنهُ يَضِلُّ، من بابِ (ضربَ)، ضَلالًا وضلالةً: زلَّ عنه، ولم يَهتدِ إليه(3)، فالضَّلال هو عدمُ الاهتداء، والإضلال هو فقدانُ الهدايةِ، أي: جَعْلُ شيءٍ ضالًّا. فالضَّلال: فُقدانُ الرَّشاد والدَّلالةِ إلى المقصود، سواءٌ كان في جهةٍ مادّيَّةٍ أوْ معنويَّةٍ(4)، والمرادُ به في الآيةِ بقرينةِ السّياق: فقدانُ العَقل والاتِّصافُ بالجُنون.

2) ﴿بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾: لـ (هدي) أصلانِ: أَحَدُهُما: التَّقَدُّمُ لِلإرشاد، والآخرُ: بعثةُ لطف، فالأَوَّلُ قولُهُم: هَدَيتُهُ الطَّريقَ هِدايَةً، أي: تَقَدَّمْتُهُ؛ لأُرْشِدَهُ، وكُلُّ مُتَقَدِّمٍ لِذَلِكَ هادٍ، وينشعِبُ هَذا، فَيُقالُ: الهُدَى خِلافُ الضَّلالَةِ، تَقولُ: هَدَيْتُهُ هُدًى(5)، وهَدَيْتُهُ الطَّريقَ أَهْديهِ هِدايَةً، هَذِهِ لُغَةُ الحِجازِ، ولُغَةُ غَيرِهِم يَتَعَدَّى بِالحَرْفِ، فَيُقالُ: هَدَيْتُهُ إلَى الطَّريقِ ولِلطَّريقِ، وهَداهُ اللّٰه إلَى الإيمانِ هُدًى، والهُدَى البَيانُ(6)، والمُراد به في الآية: قبولُ الهداية وحصولُ أثرِها في النَّفس، أي: كمالُ العقل بقرينةِ الاتِّهامِ بالجُنون.

❁ المَعْنى الإجْماليّ:

أي: إنَّ اللّٰه تعالى أعلَمُ بمَن حادَ عن طريقِهِ المُؤدّي إلى سعادةِ

عِلمُ اللهِ الأزَليُّ بـالـزّكيِّ المهتدي والضّال الغَويِّ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 603.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ضل).
(3) الفيوميّ، المصباح المنير: (ضل).
(4) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 7/ 40.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هدي).
(6) الفيوميّ، المصباح المنير: (هدي).

الدّارَين، وهامَ في تيهِ الضَّلال المُفْضي به إلى الشَّقاوة ومَزيد النَّكال، وهذا هو المجنونُ الَّذي لا يُفرِّقُ بينَ النَّفعِ والضَّرِّ، وهو سبحانه أعلمُ بالمهتدينَ إلى سبيلِه، الفائزينَ بكلِّ مَطلوبٍ، النّاجينَ مِن كل مَحْذور وهم العُقَلاء، فَيَجْزي كُلًّا من الفريقينِ بما يَستحِقُّ من العقابِ والثَّواب[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الفصلِ في ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾:

تعليلُ ضَلالِ المُكذِّبين واهتداءِ المؤمنين

فصلَ النَّظمُ الكريمُ قولَه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لكونِه تعليلًا لما تقدَّمَه، المتضمِّن التَّعريضَ بأنَّهم هم المجانينُ الَّذين فُتِنوا، وضَلّوا عن الحقيقة والحقِّ، قال ابن عاشور: "تَعْليلٌ لِجُمْلَةِ: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾، باعتبارِ ما تَضمَّنَتْهُ مِنَ التَّعْريضِ بِأنَّ الجانِبَ المَفْتونَ هوَ الجانِبُ القائِلُ لَهُ: ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝﴾ [الحجر: 6]، وأنَّ ضِدَّهُ بِضِدِّهِ هوَ الرّاجِحُ العَقْلِ، أي: الَّذي أخْبَرَكَ - بِما كَنّى عَنهُ قَوْلَهُ: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾ مِن أنَّهُمُ المَجانينُ - هوَ الأعْلَمُ بِالفَريقَيْنِ، وهوَ الَّذي أنْبَأكَ بِأن سَيَتَّضِحُ الحَقُّ لِأبْصارِهِم، فَتَعَيَّنَ أنَّ المَفْتونَ هوَ الفَريقُ الَّذينَ وسَموا النَّبيَّ ﷺ بِأنَّهُ مَجْنونٌ، المَرْدودُ عَلَيْهِم بِقَوْلِهِ تَعالَى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾؛ إذْ هُمُ الضّالّونَ عَن سَبيلِ رَبِّ النَّبيِّ ﷺ لا مَحالَةَ"[2]، في حين رَأى بعضُهم أنَّه "استئنافٌ لبيانِ ما قبلَهُ، وتأكيدٌ لما تضمَّنَهُ من الوعدِ والوعيدِ"[3]، ولا مانِعَ من أنْ يكونَ الفصلُ للغرضَينِ معًا، ولذا قال أبو السُّعود: "تعليلٌ لما يُنبئُ عنهُ ما قبلَهُ من ظهورِ جُنونِهم، بحيثُ لا يَخْفى على أحدٍ، وتأكيدٌ لما فيهِ من الوَعْدِ والوَعيدِ"[4].

(1) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 10/ 1527.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 67.
(3) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 10/ 1526.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/ 12.

معنى ﴿إِنَّ﴾ والغرضُ منه:

توكيد التَّعليل لمنع التَّأويل

أكَّدَ النَّظمُ الكريمُ قولَه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ﴾؛ لتحقيقِ نسبةِ ثبوتِ الأعلَميَّة للّه تعالى، ولمّا كان الغرضُ من الجملة التَّعليلَ؛ فإنَّ هذا التَّعليلَ سوف يكونُ مؤكَّدَ المضمون لا سبيلَ لإنكارِهِ وردِّهِ.

دلالةُ لفظِ (الرَّبِّ):

ربُّ الرَّسول هو المتفرِّدُ عن أربابِهم بمعرفةِ الضّالّين عن الوُصول

عبَّر النَّظمُ الكريمُ بلفظِ (الرَّبِّ) بدلَ الاسم الجليل (اللّه)، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ الذي أنعمَ عليك، وربّاك، وكوَّنك هو الأعلمُ بالضّالّين والمعتدين، فلا تحزنْ لعدم علمِهم ورؤيتهم الحقَّ، ففي ذلك التَّعبير تسليةٌ للنَّبيِّ ﷺ بأنَّ المُربّي يُبصِرُ كونَك على الحقِّ، فهو ذاتُهُ صاحبُ النِّعمة في قوله: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾، كما أنَّ الخطابَ مع المشركينَ الَّذين لا ينكرونَ اللّه وأعلميَّته، لكنَّهم يدَّعونَ معَهُ أربابًا من دونِه، فنبَّهَ إلى أنَّ الرَّبَّ الحقيقيَّ هو ربُّكَ أيُّها الرَّسول الأمينُ ﷺ، وفيه تعريضٌ بأنَّك المُهتدي، وأنَّهم الضّالّون.

نُكْتَةُ إضافةِ (الرَّبِّ) إلى ضميرِ المخاطَب:

تثبيتُ النَّبيِّ الكريم بأنَّه على الحقِّ المُبين

أضافَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ (الرَّبِّ)، إلى ضميرِ المُخاطَب العائدِ إلى الرَّسول ﷺ، في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ﴾؛ لتشريفِ مقامِ نبيِّه الكريم، وتمييزِ رُبوبيَّته الحَقَّة عن رُبوبيَّة ما يَدَّعونَهُ من دون اللّه، وفي ذلك ردٌّ عليهم بأنَّ الرَّبَّ الحقيقيَّ هو ربُّ هذا النَّبيِّ الَّذي يتفرَّدُ بالأعلميَّة، وأنَّ أربابَكم لا يفقهونَ شيئًا، وفيه تثبيتٌ للنَّبيِّ ﷺ أنَّه على الحقِّ المُبين، وأنَّه المُهتدي، وأنَّكم الضّالّون، قالَ الطَّبريُّ: "ربُّك يا محمَّد هو أعلمُ بمَن ضلَّ عن سبيله، كضُلّال كفّار قُريش عن دين اللّه وطريقِ الهُدى، ﴿وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ يقولُ: وهو أعلمُ بمَن اهتدى، فاتَّبَعَ الحقَّ، وأقرَّ به، كما اهتديتَ أنتَ، فاتَّبعتَ الحقَّ، وهذا من مَعاريضِ الكلام، وإنَّما معنى الكلام: إنَّ ربَّك هو أعلمُ

يا محمَّد بك - وأنتَ المُهتدي - وبقومِك من كفّار قُريش، وأنَّهم الضّالّون عن سبيلِ الحقِّ"[1].

توكيدُ النِّسبةِ وتحقيقُها وحصرٌ بالله لمضمونِها

دلالةُ الضَّمير ﴿هُوَ﴾:

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بالضَّمير في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ﴾؛ للدَّلالة على حَصْر الأعلميَّةِ بربِّ الرَّسول المُنزَّه عن الجنونِ بالضّالّين والمُهتدين؛ ردًّا عليهم عِلْمَ ربِّه تعالى بذلك، كما أفادَ توكيدًا وتحقيقًا لثُبوتِ تلك الأعلميَّةِ، ممّا لا سبيل إلى إنكارِها ونَفيِها، ولذا لم يَقُلِ النَّظمُ: (إنَّ ربَّك أعلمُ)؛ لأنَّه يُفيدُ ثُبوتَ الحُكمِ، لكنْ لا على سبيلِ الانحصارِ والتَّأكيدِ[2].

عندَ المُحاجَجة تُقصَدُ المُفاضَلة

دلالةُ اسم التَّفضيل ﴿أَعۡلَمُ﴾:

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ باسم التَّفضيل، في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ﴾؛ إمّا للدَّلالةِ على المفاضلةِ بناءً على مُعتقَدِهم أنَّ أربابَهم تعلَمُ، فأثبتَ أفضليَّةَ عِلْمِ ربِّ هذا الرَّسولِ وزيادتَه على أربابِهم، بإثبات العِلم لهم على سبيلِ الافتراضِ عندَ المُحاجَجة، أو أنَّه لا يدلُّ على التَّفضيلِ أصلًا، بل هو بمعنى (عالم)، فيكونُ اسم التَّفضيل جاريًا على غيرِ بابِه، بإثباتِ العِلْم للّه وحدَهُ ونفيِه عن غيرِه[3].

الأعلميَّةُ بالفريقَين تَقتضي الجزاءَ على الاختيارَين

دلالةُ الكناية في ﴿أَعۡلَمُ﴾:

كنَّى النَّظمُ القرآنيُّ بإثبات الأعلميَّة للّه تعالى بالضّالّين والمُهتدين، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾، عن جزاء الكافرينَ والمؤمنين، فيكونُ قد ذَكَر الملزومَ، وهو الأعلميَّةُ، وأرادَ به لازمَهُ، وهو المُجازي والمُكافِئُ لكلٍّ من الفريقين على أعمالِهم[4].

---

(1) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 532.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 296.

(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 12/ 88.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 237.

معنى (الباء) في ﴿بِمَن﴾ والغرضُ منها:

إلصاقُ العِلْم بالمعلوم يَنفي اتِّهامَ الخُصوم

استعملَ النَّظمُ الكريمُ حرفَ الجرِّ (الباء)، في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ﴾؛ للدَّلالةِ على تقويةِ التَّعديةِ وإيصالِ الحَدثِ لَمجرورها، وفائدةُ التَّعديةِ بها والتَّقويةِ لها الدَّلالةُ على التصاقِ عِلمه بذلك المَعلوم، والغرضُ تقويةُ ذلك العِلْم وحُصولُهُ بحيثُ لا يتشكَّكُ به شاكٌّ أبدًا، قال ابنُ عطيَّة: "والعاملُ في قولِه: ﴿بِمَن ضَلَّ﴾ أَعْلَمُ، وقد قوّاهُ حرفُ الجرِّ، فلا يحتاجُ إلى إضمارِ فعلٍ"(1).

دلالةُ الاسمِ الموصولِ (مَن):

دلالـةُ الشُّمول تُفيدُ التَّوبيخَ لـكـلِّ ضـالٍّ مَخذول

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بالاسم الموصولِ (مَن)، في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ﴾؛ للدَّلالةِ على العُموم والاستغراق لجميع أفرادِ الضّالّينَ بلا استثناء، ففيهِ تهديدٌ وتوبيخٌ لكلِّ واحدٍ منهم، وفائدةُ اختيارِ التَّعبيرِ عنهم بالاسم الموصول لما فيه من افتقارٍ للصِّلة الَّتي توضِّحُهُ، وتكشفُهُ، فيكونُ من قبيل الإبهام المشوِّق للإصغاءِ إلى الموضِّح، ولعلَّ فائدةَ العدول أيضًا عن (الضّالّين)، إلى التَّعريفِ بالموصولِ تحقيقُ معنى العموم؛ إذ قد يَسري إلى الذِّهن إرادةُ المعهودينَ منَ المُخاطَبين.

دلالةُ جملةِ الصِّلة ﴿ضَلَّ﴾:

التَّهديدُ للضّالّين ردعٌ وتوبيخٌ للمُخاطَبين

اختارَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ عن جملةِ الصِّلة بالجُملة الفعليَّة الماضيَة، في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ﴾؛ للدَّلالة على حدوثِ ذلك الضَّلال على سبيلِ القَطْعِ بالحصول والوقوع، وفيه تهديدٌ وتوبيخٌ للَّذين ضلّوا عن سبيلِ اللّه، بأنَّه عالمٌ بضَلالِهم ومُحاسِبُهم عليه، ففيهِ تهديدٌ وردْعٌ.

دلالةُ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ في ﴿ضَلَّ﴾:

استعارَ النَّظمُ الكريم لفظَ ﴿ضَلَّ﴾؛ للدَّلالة على المجنونِ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 347.

الَّذي لا ينتفِعُ بعقلِهِ ضالٌّ عن سبيلِهِ

الَّذي جُنَّ بتركِ الآياتِ، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾؛ وقرينةُ الاستعارة أنَّ ما سبقَهُ من قوله: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾، يدلُّ على حصولِ إبصارِهِ وإبصاركم بالمجنونِ أو بالجُنون على سبيل الحقيقة، فيكون (الضَّالُّ) مُستعارًا للمجنونِ؛ لأنَّه لا ينتفِعُ بعقلِهِ، ولا يستعملُهُ للتَّمييزِ بينَ الخَطأ والصَّواب[1].

نُكْتَةُ العُدول عن المَجنون إلى الضَّلال:

الـضَّـلالُ عن الدّين يُصاحِبُهُ ضلالٌ في الاتِّهام والتَّوهين

عدلَ النَّظمُ الكريم عن (المجنون) إلى (الضّالِّ)، في قوله تعالى: ﴿أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾، مع أنَّ السّياقَ في تعيين مَن هو المفتون الَّذي أُطلِق عليه الجنونُ أوِ المجنون؛ وذلك للدَّلالة على أنَّ الاتِّهام بالجُنون لم يكن محلَّ اتِّفاق بينهم؛ إذ هم قد ضَلّوا حتّى في نعتِهِ ﷺ واتِّهامِهِم له، فقد تاهوا بين السِّحر والكَهانة والجُنون والشِّعر، وما إلى ذلك من اتِّهامات، فعدلَ النَّظمُ عن محلِّ التَّنازع في الاتِّهام إلى ما هو أعمُّ؛ ليحكيَ اضطرابَهم في اتِّهامه، كما تناسقَ العدولُ عنهُ مع ﴿ٱلْمَفْتُونُ﴾ الدّالِّ على مطلقِ الافتتان، سواءٌ كان الافتتان بالعقلِ أم بغيره؛ تَهكُّمًا بهم في اتِّهامهم له بالجُنون؛ وأنَّ الأنسب بالاتِّهام هو الضَّلالة، لكنَّهم قومٌ سُفهاء العقولِ، يتَّهمون راجِحَ العقل بالجُنونِ.

دلالةُ تقديمِ الضّالّين على المُهتدين:

تقديمُ المقصود بالخِطاب أنفعُ لأولي الألباب

قدَّمَ النَّظمُ الكريمُ فرقةَ الضّالّين على فرقةِ المُهتدين، في قولِهِ تعالى: ﴿أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّهم المقصودونَ بالتَّهديد والتَّوبيخ، وأنَّهم الَّذين صدر منهم الاتِّهامُ بالجُنون، فكانوا هم المقصودينَ بقوله: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾؛ إذِ المقصود عِلمُهُم ودِرايتُهم بالضّالّينَ والمهتدين، فقُدِّموا حِرصًا على

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 237.

رَدعِهم، لعلَّهم عن غَيِّهم يَرجِعونَ، وأشارَ القونويُّ إلى فائدةٍ أُخرى بقوله: "والمُرادُ بإخبارِ العِلْم بذلك: إفادةُ جُنونِهم في الأوَّلِ، وكمالُ عُقولهم في الثّاني"(1).

دلالةُ اللَّفِّ والنَّشرِ غيرِ المُرتَّب:

رَبْطُ إبصارِهم بعِلْمِ اللهِ بضَلالِهم

اختارَ النَّظمُ الكريمُ أسلوبَ اللَّفِّ والنَّشرِ غيرِ المُرتَّب، في قوله تعالى: ﴿فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ ٥ بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ ٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾، فقد قدَّمَ عِلمَ النَّبيِّ وإبصارَهُ بالمفتونِ، وأخَّرَ علمَهم وإبصارَهم به، لكنَّه قدَّم فرقةَ الضّالّين الَّذين يَعلمُهم اللّهُ؛ حتّى ترتبطَ بـ(يبصرونَ)، فيكونَ إبصارُهم مُتعلِّقًا بضلالِهم المُتحقِّق الَّذي يعلمُه اللّهُ تعالى فيهم، وأخَّر فرقةَ المهتدينَ المتعلِّقة بإبصارِه ﷺ والمؤمنين بالمهتدين؛ إشارةً إلى تعيينِ الضّالّين بهم، والمهتدينَ به ﷺ ومَن معه، قال القونويُّ: "وقدَّمَ الأوَّلَ لفَرْطِ اتِّصالِه بما قبلَهُ"(2).

مَعنى ﴿عَن﴾ والغرضُ منه:

الابتعادُ عن الطَّريق تحذيرٌ من الانزلاقِ السَّحيق

استعملَ النَّظمُ الكريمُ حرفَ الجرِّ ﴿عَن﴾، في قولِه تعالى: ﴿أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾؛ للدَّلالةِ على المُجاوزة(3)؛ لأنَّ الضّالَّ تاهَ عن الطَّريقِ الحقيقيِّ، وتجاوزَهُ إلى طريقٍ لا يوصِلُه إلى المطلوب، ففيهِ إشارةٌ إلى الابتعادِ والتَّجاوزِ للطَّريقِ الموصل للحقِّ والصَّواب.

دلالةُ الاستعارةِ التَّمثيليَّة في ﴿ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾:

حالُ المُكذِّبين بالنبيّين حالُ الرّاكبينَ التّائهين الحائِرين

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بأسلوبِ (الاستعارة التَّمثيليَّة)، في قوله تعالى: ﴿ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾؛ إذ شبَّه المُكذِّبَ بالحقِّ، والمُبتعِدَ عن منهجِ الصِّدق بالتّائهِ في الطَّريق، المُتجاوِزِ له إلى طُرقٍ لا توصِلُهُ

(1) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 226.
(2) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 226.
(3) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 196.

إلى هدفِهِ، ثمَّ حذفَ المُشبَّهَ، وأبقى المشبَّه به على سبيلِ الاستعارة التَّمثيليَّة، والغَرَضُ منها: بيانُ أنَّ الَّذين لا يتَّبعونَ دعواتِ الأنبياء، رَكِبوا طُرُقًا تُبعِدُهم عن الوصولِ إلى مقصَدِهم وهدفِهم في الحياة.

دلالةُ الإضافةِ في ﴿سَبِيلِهِۦ﴾:

تعيينُ الضّالّين بإضافةِ السَّبيل إلى ربِّ الرَّسول الأمين

أضافَ النَّظمُ الكريمُ (السَّبيل) إلى ضميرِ الرَّبِّ المضافِ إلى (الرَّسول)، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾؛ للدَّلالة على أنَّهم ضلّوا عن سبيلِ ربِّك، وبما أنَّ ربَّك هو أعلمُ بهم، فإنَّ الَّذين اتَّهموك بالجُنون هم الضّالّون عن سبيلِ ربِّك؛ ولذا أضافَ النَّظمُ السَّبيلَ إلى ضميرِ الرَّبِّ المضافِ إلى الرَّسول؛ ليكون مُحدِّدًا للجهةِ التي ضلَّتْ، وهي الَّتي اختارتِ اتِّهامَ الرَّسولِ بالمجنون، واللّه أعلم بتلك الجهةِ، التي ضلَّت عن سبيل ربِّ الرَّسول، كما أفادتِ الإضافةُ تعظيمَ السَّبيلِ وتشريفَهُ بإضافتِهِ إلى ذاتِهِ الجَليلة، قال الهرريُّ: "وفي الآيةِ إشعارٌ بأنَّ المجنونَ في الحقيقة هو العاصي لا المُطيع"[1].

دلالةُ الاستعارة في ﴿سَبِيلِهِۦ﴾:

الدّينُ طريقٌ كاملٌ والسّائرُ فيه للخيرِ واصِل

عبَّرَ النَّظم الكريمُ عن دينِ اللّه الحقِّ ومنهاجِه المُستقيم بـ(السَّبيل) الذي هو الطَّريق، في قوله تعالى: ﴿بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾؛ بأسلوبِ الاستعارةِ التَّصريحيَّة؛ إذ شبَّهَ الدّينَ الحقَّ والمنهجَ الصِّدقَ بالطَّريق، وأضافَهُ إلى اللّه تعالى؛ ليكونَ تجريدًا للاستعارةِ التَّصريحيَّة، مقوّيَةً لإرادةِ المُشبَّه، وهو الدّينُ الحقُّ، وعلَّقَه بـ﴿ضَلَّ﴾؛ ليكونَ ترشيحًا لإرادةِ المُشبَّه به، والغرضُ منَ الاستعارةِ التَّصريحيَّة بيانُ أنَّ الدّينَ هو طريقٌ آمِنٌ للوصول إلى الحقِّ والخير والسَّعادة، إنْ فُهِمَ، ولم يُضَلَّ عنهُ.

مَعنى الوصلِ في ﴿وَهُوَ﴾:

كمالُ العِلْمِ الإلهيِّ بالضّالِّ والمُهتدي

عطفَ النَّظمُ الكريمُ الجملةَ الاسميَّةَ في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 86.

﴿أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ على ما قبلَها؛ للدَّلالة على الجمعِ والاقتران؛ إذ بينَ الجُملتينِ اتِّحادٌ تامٌّ، فالجامعُ عقليٌّ، والغرضُ من الرَّبط بيانُ شمولِ عِلْمِ اللّه تعالى بكلٍّ من الضّالّين والمهتدين، فلا يعزُبُ عن عِلمِهِ شيءٌ، فليخشَ الضّالُّ مِن إحاطةِ عِلمِ اللّهِ به، ولْيَطمئِنَّ المُهتدي إلى عِلم اللّه به، وما يترتَّبُ عليه مِن ثوابٍ وإكرام.

دلالةُ تكرار الضَّمير (هو):

علمُهُ مُنفرِد لا يُشاركُهُ فيه أحَد

كرَّرَ النَّظمُ الضَّميرَ (هو)، في قولِهِ تعالى: ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على إرادةِ الحَصر والتَّأكيدِ لمضمونِ الجُملة؛ فهو المُنفرِدُ بالأعلميَّة بالضّالّين والمُهتدين، لا يُشاركُهُ فيها أحدٌ من أربابِهِم المَزعومِ علمُها.

دلالةُ تكرارِ اسمِ التَّفضيلِ ﴿أَعۡلَمُ﴾:

التَّفصيلُ في الأعلميَّة يناسِبُ التَّفصيلَ في الإبصاريَّة

كرَّر النَّظمُ الكريمُ اسمَ التَّفضيل في قولِهِ تعالى: ﴿أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾؛ للدَّلالة على تأكيدِ تفوُّقِ أعلميَّته وشُمولِها لكلٍّ من الفريقين، فهو الأعلمُ في جانبِ الضّالّين، والأعلَمُ في جانبِ المُهتدين، ولم يكتفِ النَّظمُ بالإجمالِ لهُما بالقول: (هو أعلم بمن ضل، واهتدى)، بل لجأ إلى التَّفصيل؛ لأنَّ ما قبلَه تفصيلٌ بينَ إبصارِهِ وإبصارهم، فيكونُ إبصارُهُ اهتداءَهُ، وإبصارُهم ضلالَهم، واللّهُ المحيطُ بعِلمِهِ بكلٍّ من الفريقين على سبيلِ التَّفصيلِ أيضًا، قال الهرريُّ: "وإعادةُ (هو أعلم) لزيادةِ التَّقرير"[1].

معنى (الباء) والغرضُ منها:

السَّعيدُ مَن علِمَ اللهَ باهتدائِهِ الحَميد

عبَّرَ النَّظمُ بـ(الباء) في قولِهِ تعالى: ﴿وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾؛ للدَّلالة على تقويةِ التَّعديةِ لأعلميَّتِهِ تعالى إلى المهتدينَ، كما عُدّيت أعلميَّتُهُ إلى الضّالّين، وللدَّلالة على إلصاقِ علمِهِ بأحوالهم

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 86.

وذواتهم؛ بيانًا لكمالِ علمِهِ بهم حتَّى كأنَّه ملتصِقٌ بهم، فيحصلُ لهم الاطمئنانُ والرّاحةُ بإحاطةِ عِلمِهِ تعالى بهِم.

دلالةُ التَّعريفِ بـ(أل) في (المُهتدين):

جميعُ المُهتدين داخلونَ في علْمِ الله العظيم

عرَّف النَّظمُ لفظَ (المهتدين) بـ(أل)، في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾؛ للدَّلالة إمّا على الجنسيَّة المفيدةِ للاستغراقِ الكليِّ، فهو تعالى يُحيطُ عِلمُهُ بجميعِ المُهتدين؛ دلالةً على كمالِ عِلمِهِ، أوْ على الموصوليَّة، والتَّقدير: (والذين اهتدوا)، ولا تكون (أل) هنا للعهد؛ لأنَّ المقابلة ﴿بِمَن ضَلَّ﴾ تفيدُ العمومَ قياسًا عليها.

دلالةُ الاستعارةِ في (المهتدين):

المُنتفِعُ بعقلِهِ مُهتدٍ لسبيلِ ربِّه

استعارَ النَّظمُ القرآنيُّ لفظَ (المهتدين)، في قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾؛ للدَّلالة على العُقلاء، بدليلِ قولِه تعالى: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ أي: أيُّكم تحقَّقَ فيه الجُنونُ؟ وأيُّكم لم يَتحقَّق فيه؟ فيكون قد شبَّهَ العُقلاءَ بالَّذين اهتَدَوا، كما شَبَّهَ المجانينَ بالضّالّين؛ إذ الَّذي يستعملُ عقلَهُ ينتفعُ، ويهتدي بهِ.

دلالةُ حذفِ المتُعلِّق:

الاهتداءُ للسَّبيل بمُلازمةِ فطرةِ الله الجَليل

حذفَ النَّظمُ الكريم مُتعلِّق (المهتدين)، في قوله تعالى: ﴿ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ أي: لسَبيلِه؛ للدَّلالة على أنَّ الضَّلال هو مخالفةُ الفطرة والانحرافُ عنها، ومن ثَمَّ صرَّحَ بلفظِ السَّبيل، وأمّا الاهتداء؛ فهو الثَّباتُ على الفطرة النَّقيَّة، وهي السَّبيلُ بعينِه، فلو صرَّحَ بلفظِ (السبيل)؛ لدلَّ على أنّهم كانوا خارجَ الفطرةِ، فاهتدَوا للسَّبيل، مع أنَّهم تمسَّكوا بفطرتِهم، فكانوا على السَّبيل.

دلالةُ الطِّباق بينَ ﴿ضَلَّ﴾ و(المُهتدينَ):

تنافُرُ الدّوالِّ والكلمات لتنافُرِ المعاني والمَدلولات

عبَّرَ النَّظمُ بأسلوبِ (الطِّباق)، في قوله تعالى: ﴿أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾؛ للدَّلالة على كمالِ عِلمِهِ تعالى بحالِ الفريقينِ المُتباعدَينِ المُتضادَّين، فلا يقتصِرُ عِلمُهُ على فريق

دونَ آخَر، ومن ثَمَّ فهو يُكافِئُ الفريقين، ويتولّى حسابَهم، وأفادتِ المقابلةُ الضِّدّيَّة اللَّفظيَّة مدى التَّنافُرِ بين الفريقين على مستوى الواقعِ، فكانَ اللَّفظُ المُتنافر راسِمًا المضمونَ المُتباعِد.

الاختلافُ بالفعليَّة والاسميَّة في ﴿ضَلَّ﴾ و(المُهتدين):

عـدمُ إقـناط الضّالّين وتثبيتُ المُهتدين

اختلفَ التَّعبيرُ عن الفريقين بالفعليَّة والاسميَّة، في قولِه تعالى: ﴿بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾، فاختارَ توصيفَ المُكذِّبين بالجملةِ الفعليَّة ﴿ضَلَّ﴾؛ للدَّلالةِ على تحقُّق الضَّلال فيهم على سبيلِ الحدوث، وفيه إشارةٌ إلى إمكانيَّةِ تغييرِه والإقدام على تحويله إلى هدايةٍ في المستقبل، في حين عبَّرَ عن المصدِّقين بـ(المهتدين) إلى السَّبيل الحقِّ بصورةِ الاسم المفيدِ للثُّبوتِ والدَّوام، ففي التَّعبيرينِ عدمُ إقناطٍ للضّالّين، وإسعادٌ وتثبيتٌ للمُهتدينَ؛ ليَبقَوا، ويدومَ اهتداؤُهُم، قالَ القونويُّ: "إنَّ الاهتداءَ أمرٌ ثابتٌ له، غيرُ زائدٍ أوْ غيرُ مُستحَقٍّ للزَّوال، وأمّا الضَّلال؛ فأمرٌ زائلٌ أوْ مُعرَّضٌ للزَّوال"[1]، في حين أشار ابنُ عَرَفة إلى فائدةٍ أُخرى بقوله: "عبَّر بالماضي لمّا كان الضَّلالُ راسِخًا فيهم ذاتيًّا لهم، والمُراد بهذا المدحُ والثَّناءُ على النَّبيِّ ﷺ، فعبَّرَ فيها بالاسمِ الدّالِّ على ثبوته على الهدايةِ، واتِّصافه بأكملِ صِفاتها وأبلغِها"[2].

الاختلافُ في الصّيغة الصَّرفية ﴿ضَلَّ﴾ و(المُهتدون):

الضّالُّ مجنونٌ، والمُهتدي عاقلٌ مَيمون

اختلفَتِ الصّيغةُ الصَّرفيَّة في فِعلَي (الضَّلال والاهتداء)، في قوله تعالى: ﴿أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾، فاختارَ النَّظمُ الفعلَ الثُّلاثيَّ المُجرَّد في حالةِ الضَّلال، وهو ﴿ضَلَّ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ ضلالَه أمرٌ ذاتيٌّ؛ لأنَّه لم يَنتفِع بهدايةِ النَّبيِّ ﷺ وإرشادِهِ إلى الطَّريق الحقِّ، فاختار الضَّلالَ، وصدرَ منه الفعلُ على

(1) القونويّ، حاشية القونويّ على تفسير البيضاوي: 19/ 226.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 268 - 269.

سبيلِ التَّلبُّس به مع وجودِ الهادي، ولا يفعلُ ذلك إلّا المجنونُ من النّاس، يَسمعُ الرَّشادَ، ويصُدُّ عنه، في حين اختارَ في جانب الهدايةِ وصفَ (المهتدين) الدّالَّ على المُطاوعةِ والقَبولِ لدَعوةِ الهادي، وما ذلك الاهتداءُ إلّا للانتفاع بدعوةِ الهادي إلى الصَّواب، وهو دليلُ استعمالِ العقل، وبذلك أفادَ اختلافُ الصّيغتين المجنونَ الحقيقيَّ، الَّذي لم ينتفع بدعوةِ الهادي، والعاقلَ الذي قَبِلَ، وطاوعَ، وحصلت آثارُ الهداية فيهِ لكمالِ عقلِه، فهو العاقلُ الحقيقيُّ.

نُكتَتا التَّعليلِ والعُموم:

التَّعـليـلُ والعُـمـومُ مُفيدانِ التَّذييلَ في المَنظوم

دلَّتِ الآيةُ من قولِه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾، على التَّعليلِ لما تقدَّمَها بفصلِها عنه، وعلى العُموم بالتَّعبيرِ عن الفريقينِ بألفاظ العموم والاستغراق في (الضالّين والمهتدين) المفيدَينِ كونَها منَ التَّذييلِ لمَضمونِ ما تقدَّمَها؛ إذ وظيفةُ التَّذييل في الآياتِ إفادةُ التَّعليل لما قبلَها مع عُمومِها وشُمولِها.

دلالةُ التَّوطئةِ والتَّمهيدِ:

العِلمُ بالاهتداء مُمهِّدٌ للمواقفِ من أهلِ الضَّلالِ والإغواء

شكَّلتِ الآيةُ من مطلعها إلى اختتامِها توطئةً وتمهيدًا؛ لما سيأتي بعدَها من تفريعٍ وتعقيب؛ إذِ استقرارُ مدلولِ الآية في الأنفُس بإحاطةِ علْم اللّه تعالى بحالِ المُكذِّبين والمُهتدين تمهيدٌ لما سيَنبني عليها من مواقفَ تجاهَ المُكذِّبين الضّالّين.

المُتشابِهُ اللَّفظيُّ:

العـمـومُ والخُـصـوص وأثـرُهـما فـي النَّـظـم والمَنصوص

استعملَ النَّظمُ القرآنيُّ هذا المعنى بأكثرَ من نَظْم، فقدِ اختارَ الفعلَ المضارعَ في فعلِ الضَّلال في سورةِ الأنعام، فقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١١٧﴾ [الأنعام: 117]؛ لأنَّ السّياق كان يتحدَّثُ عن مُطلَقِ الضّالّين الَّذين يكونونَ في زمنِ النُّزولِ وغيره، واختارَ الفعلَ المضارع الدّالَّ على التَّجدُّدِ والاستمرار؛ تخويفًا وتهديدًا لكلِّ مَن اختارَهُ طريقًا، في حينِ اختار

التَّعبيرَ بالصّيغة الفعليَّة الماضيَة لكلٍّ منَ الضَّلال والاهتداء في سورة النَّجم، فقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ٣٠﴾ [النَّجم: 30]؛ لأنَّ الآية تتحدَّثُ عمَّنِ اتَّصف بهما على سبيلِ التَّحقُّقِ والحصول، فقد صدرَ منهم الضَّلالُ بشكلٍ قاطِع، ولذا أُمِرَ بالإعراض عنهم وعدمِ الانشغالِ بدَعوتهم؛ لرُسوخِهم في الضَّلال، في حين اختارَ هنا صيغةَ الماضي القاطعةَ في فعل الضَّلال، واختارَ الصّيغة الاسميَّة في جانب الاهتداء، فقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾؛ لأنَّ النَّظم يتحدَّثُ معَ المتَّهمينَ للنَّبيِّ ﷺ بالجُنون على سبيلِ الخصوصِ، فناسبَ أنْ يَخصَّ الذينَ صدرَ منهم الضَّلالُ على جهةِ الرُّسوخ، فيكونَ جنونُهم راسِخًا فيهم، وأمّا المهتدونَ؛ فإنَّ عقلَهم كاملٌ وثابتٌ ودائم.

الفروقُ المُعجَميَّةُ:

الضَّلالُ والتَّكذيب:

التَّكذيبُ التَّكذيبُ سببُ الضَّلالِ وملزومُهُ

التَّكذيبُ جَعْلُ المُتكلِّم كاذبًا في أقوالِه، فهو ينسبُ كلامَ القائلِ إلى مُخالفة الواقعِ والحقيقةِ المعلومة لديهِ، فإنْ وُجِّهَ للخبرِ الكاذب؛ كانَ التَّكذيبُ حقًّا، وإنْ وُجِّهَ للكلام الصّادق والموافقِ للواقع؛ كان التَّكذيبُ باطِلًا، فمَنِ اعتقدَ الباطلَ، ووثِقَ به كان ضالًّا ومُنحرِفًا وتائِهًا؛ لأنَّه يُكذِّبُ بالحقِّ مُتعمِّدًا بعد معرفتِه، ويَجْحَدُ الحقيقةَ بعدَ ثبوتها، فالضَّلال مُسبَّبٌ عنِ التَّكذيب بالحقِّ والصِّدق، ولذا عبَّر النَّظمُ في الآية بالضَّلال دونَ التَّكذيب؛ لأنَّ نسبتَهم الجُنونَ إلى النَّبيِّ ﷺ - وهو في الواقع راجحُ العقل، قويُّ الإدراك، مشهورُ الأمانةِ والصِّدق - كان تكذيبًا، فقادَهُم ذلك إلى الضَّلال والانحراف.

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾﴾ [القلم: 8 - 9]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

بيانُ المَوقفِ منَ المُكذِّبين بعدَ الفصلِ بينَهم وبينَ المُصدِّقين

لمّا فصَلَ المولى تعالى بينَ الضّالّينَ والمُهتدين، والمَجانينَ والعاقلينَ، وغيرِ المُنتفعين بدعوةِ النَّبيِّ ﷺ والمُنتفعينَ بها؛ ناسَبَ أنْ يُبيِّنَ موقفَ النَّبيِّ وأتْباعِهِ من أولئك المُتَّهمينَ له ولهم، على مرِّ العصورِ والقرونِ بأشنعِ الصِّفات وأوقَحِها، ومُخالفتِها للواقعِ والبُرهان.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَدُّواْ﴾: (الودُّ) كلمةٌ تدلُّ على محبَّة، وودِدتُهُ: أحببتُهُ[1]، وقالوا: من الحُبِّ وُدَّ ووِدَّ بالضَّمِّ والكسر[2]، ووَدِدتُه أَوَدُّهُ - من باب تعِبَ - ودًّا، والاسمُ المَوَدَّةُ[3]، وهو تمايلٌ إلى شيءٍ، وهو مرتبةٌ ضعيفةٌ وعموميَّة منَ المحبَّة، فإنَّ الحُبَّ يُستعمَلُ فيما يكونُ فيه تمايلٌ شديدٌ على أساسِ الطَّبيعة والحِكمة، وبهذا العنوانِ قد تُستعمَلُ المادَّة في موارد التَّمنّي، فإنَّ فيه تمايلًا ما إلى جهة، والمُرادُ بِهِ في الآية: مَحبَّةُ المُداهِنِ وميلُه أنْ يكونَ النَّبيُّ ﷺ مثلَهُ في المُداهَنة.

2) ﴿تُدْهِنُ﴾: (دهن) أصلٌ واحدٌ يدلُّ على لينٍ وسُهولةٍ وقلَّةٍ، من ذلك الدُّهْنُ، ويقالُ: دَهَنْتُهُ أدهُنُهُ دَهْنًا، ومن البابِ الإدهانُ منَ (المُداهنة)، وهي المُصانَعَةُ، داهَنْتُ الرَّجُلَ؛ إذا واربْتَهُ، وأظهرتَ له خلافَ ما تُضمِرُ له، وهو من البابِ كأنَّه إذا فعلَ ذلك؛ فهو يَدهُنُهُ، ويُسكِّنُ منه[4]، والمرادُ به في الآية: المُلاطفةُ في الكلام، ويقالُ لها: المُصالحة والمُداهنة والمُصانَعة، أي: يحبّونَ أن يكونَ منكَ اللّينُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ودّ).
(2) ابن دريد، الاشتقاق: (ود).
(3) الفيوميّ، المصباح المنير: (ود).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دهن).

واللُّطفُ في القولِ والفعلِ بالنِّسبةِ إليهم، وتتركَ الخِلافَ الشَّديدَ والخُشونةَ والعَداوة، فيلائموا، ويُداهِنوا[1].

المَعنى الإجماليُّ:

تَـرْكُ شيءٍ من الدّينِ وتبليغِهِ كـفـرٌ بـالـلـهِ ورِسالتِهِ

والمعنى: دُمْ على ما أنتَ عليه من عدمِ طاعةِ المُكذِّبين عامَّةً، وتشدَّدْ في ذلك؛ إذ ودَّ المشركون لو تلينُ لهم في دينِك بالرُّكون إلى آلهتِهم، فَيُلينون لك في عبادةِ إلهِكَ، أَوْ ودّوا لو تتركُ بعضَ ما أنت عليه ممّا لا يَرضَونَهُ مصانعةً لهم، فيفعلونَ مثلَ ذلك، ويتركونَ بعضَ ما لا ترضى، فتلينُ لهم، ويَلينونَ لك، وتركُ بعضِ الدّينِ أَوْ كلِّه كفرٌ بَواح"[2].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الفاءِ) والغرضُ منها:

نتيجةُ الإيـذاءِ الإغلاظُ والإباء

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بـ(الفاء) العاطفةِ في قوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾؛ للدَّلالة على التَّفريعِ والتَّسبُّبِ عمّا قبلَه "باعتبارِ ما تَضَمَّنَتْهُ من أنَّه على الهدى، وأنَّ الجانبَ الآخَرَ في ضَلالِ السَّبيلِ، فَإنَّ ذَلِكَ يَقتَضي المُشادَّةَ مَعَهُم، وألّا يَلينَ لَهُم في شَيءٍ، فَإنَّ أذاهُم إيّاهُ آلَ إلَى مُحارَبَةِ الحَقِّ والهُدَى، وتَصَلُّبٍ فيما هُم عَلَيهِ مِنَ الضَّلالِ عَن سَبيلِ اللَّه، فَلا يَستَأْهِلونَ بِهِ لينًا، ولَكِنْ يَستَأهِلونَ إغلاظًا"[3]، وفي ذلك إرشادٌ لكلِّ داعيةٍ إلى طبيعةِ الموقفِ المُترتِّبِ على التَّكذيبِ والإيذاء، بأن يُغلِظَ لهم القولَ، ويأبى طاعتَهم فيما يُريدونَ، وذهبَ الهرريُّ إلى أنَّ الفاءَ هي فاءُ الفصيحة؛ "لأنَّها أفصحَتْ عن جوابِ شرطٍ مقدَّرٍ، تقديره: (إذا عرفتَ ما تقدَّم لك، وأردتَ بيانَ ما هو اللّازمُ لكَ، فأقولُ لك: (لا تُطِعِ المُكذِّبين)"[4].

(1) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 3/ 250.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 87.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 68.
(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 86.

دلالةُ النَّهْي بـ(لا) بينَ الإطلاقِ والتَّقييد:

النَّهيُ عن طاعةِ المُكَذِّبين تمسُّكٌ بالدّين المُبين

عبَّرَ النَّظمُ بـ(لا) النّاهية في قولِهِ تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾؛ للدَّلالة على طلبِ الكفِّ والامتناعِ من طاعتِهِم والاستجابةِ لَمطلوبِهم بالمُداهَنة والمُلايَنة، وذلك أنَّهم لمّا سَمِعوا الوعيدَ لهم والوعدَ له بمعرفةِ المُحِقِّ من المُبطِلِ؛ طلَبوا ليونةً في الموقف ومصالحةً في الكلام، فنُهيَ ﷺ عن طاعتِهِم في ذلك والاستجابةِ لَمطلوبهم، فالنَّهيُ مُستعمَلٌ في طلبِ الكفِّ عنِ الطّاعة لهم، المقيَّدةِ بالمُداهَنة فحسبُ بقرينةِ السّياق التَّعليليِّ الآتي: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ﴾، أوِ المرادُ من هذا النَّهي: التَّهييجُ والتَّشدُّدُ في المُخالفة، والتَّصميمُ على مُعاداتِهِم[1]، قال القونويُّ: "إذ لا يُتوقَّعُ الإطاعةُ لهم منه عليه السلام، فالمُراد: أمرٌ بدوام عدمِ الإطاعة، وترغيبٌ عَلَى عصيانِهِم ومُخالفتِهِم فيما يخالفُ الحقَّ القويمَ والدّينَ المستقيم"[2]، فلا يكونُ مقيَّدًا بودادهم، بل مطلقٌ في كلِّ مُخالفةٍ، سواءٌ كان مُداهنةً أَوْ غيرها، والَّذي يترجَّحُ الأوَّل؛ لأنَّه إنَّما نُهي عن المداهنةِ، ولم يُنهَ عن طاعتِهِم في خيرٍ أو صلاحٍ أو نفعٍ.

دلالةُ الفعلِ المضارع ﴿تُطِعِ﴾ مادَّةً وصيغةً:

صرفُ الطّاعة لأهلِ الصِّدق والاستقامة

استعملَ النَّظمُ الكريم الفعلَ المضارعَ المُقترنَ بـ(لا) النّاهية، في قوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على الكفِّ عن طاعتِهِم على سبيلِ الاستمرار والتَّجدُّد، في كلِّ ما يطلبونَهُ من صوَرِ المُداهنة في الكلامِ والفعل وأفرادِهما، كما دلَّتْ مادَّةُ (الطّاعة) على أنَّهم توجَّهوا إليه، وطلَبوا منه بالقولِ آمرينَ أن يُطيعَهم، ويوافِقَهم في مَطلوبِهم بتركِ الخُشونة واعتمادِ المُلاينة؛ إذِ الطّاعةُ لا تكونُ إلّا عن أمرٍ وطلبٍ من الآخرِ بشكلٍ مُباشِرٍ، ولذا قال ابنُ عاشور: "وليسَ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 586.

(2) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 226.

المُرادُ أنَّهُم ودّوا ذَلِكَ في نُفوسِهِم، فَأطلَعَ اللّه عَلَيهِ رَسولَهُ ﷺ؛ لِعَدَمِ مُناسَبَتِهِ لِقَولِهِ: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾"[1].

النَّهيُ عن الطّاعة بينَ الحقيقةِ والمَجاز:

النَّهيُ عن الطّاعة مُستلزِمٌ للنَّهي عنِ المُداهنة

استعملَ النَّظمُ القرآنيُّ فعلَ (الإطاعة) مَنهيًّا عنه، في قوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾، ويحتملُ إرادةَ الحقيقةِ بأنَّهم طَلَبوا منه المُلاينةَ، فجاءَهُ النَّهيُ عن طاعتِهم والموافقةِ على تحقيقِ مَطلوبهم، ويَحتمِلُ كما قالَ بعضُهم احتمالَ إرادةِ النَّهي عن مُداهنتهم ومُداراتهم، وأنَّ التَّقدير: (ولا تُداهِنْهم) بإظهار خلافِ ما في ضَميرِهِ ﷺ؛ استجلابًا لقلوبهم، لا نهيًا عن طاعتهم حقيقةً، وعُبِّر عن المُداهنة بالطّاعةِ للمُبالغة في التَّفسير"[2]، فيكون هنالك مجازٌ مُرسَلٌ لعلاقةِ التَّلازُم؛ إذِ المُداهنةُ فردٌ من أفرادِ الطّاعة، فالنَّهيُ عن الطّاعة نهيٌ عن كلِّ لوازمِها وأفرادِها، ومنها المُداهنةُ، قال ابنُ عاشور: "وَوُقوعُ فِعلِ ﴿تُطِعِ﴾ في حَيِّزِ النَّهْيِ يَقتَضي النَّهيَ عَن جِنسِ الطّاعَةِ لَهُمَ، فَيَعُمُّ كُلَّ إجابَةٍ لِطَلَبٍ مِنهُم، فالطّاعَةُ مُرادٌ بها هُنا: المُصالَحَةُ والمُلايَنَةُ"[3]، أوِ استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ بتشبيهِ المُداهَنة بالطّاعة.

الغرضُ منَ النَّهْيِ عن المُداهَنة:

تداخُلُ الحال موجِبٌ للنَّهي عن سيّئ الخِلال

عبَّر النَّظمُ الكريم بـ(لا) النّاهية في قوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾؛ للدَّلالة على النَّهي عنِ الطّاعةِ لهم في طلبِهم ووِدادِهم المُداهنةَ منه ﷺ، فنُهِيَ عن ذلك، والغرضُ من النَّهي أنَّهم: "لو داهنوا كانوا في مُداهنَتِهم مُحقّين، فإذا تركوا ذلك؛ فقد تركوا الحقَّ الَّذي كانَ عليهم، ورسولُ اللّه ﷺ لو داهَنَهم؛ لم يكُنْ في مُداهنتِهم مُحِقًّا؛ فلذلك نُهيَ عنِ المُداهنة"[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 68.
(2) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 10/ 1528.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 69.
(4) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 10/ 140.

أثرُ تعيينِ مَرجعِ ضَميرِ المُخاطَب في ﴿تُطِعِ﴾:

نهيُ النَّبيِّ الكريم نهيٌ لجماعةِ المؤمنين المقتدين

توجَّهَ النَّهيُ عن الطّاعة إلى النَّبيِّ ﷺ، في قوله: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾، ويحتملُ أنَّ المُرادَ به أُمَّتُه أيضًا، فالضَّمير المُفردُ المخاطَبُ في ﴿تُطِعِ﴾، وإنْ عادَ إلى معيَّن، لكنَّ المرادَ به العمومُ، وإنَّما توجَّهَ إلى النَّبيِّ الكريم ﷺ؛ لأنَّه أساسُ الاقتداء؛ فإن لانَ في كلامه بعدَ الإيذاء، وتساهلَ في قولِه لهم بعدَ الاتِّهام كانَ مُتَّبَعًا من جماعةِ المؤمنين، فالضَّميرُ مُرادٌ به العُموم مجازًا، وحينَئذٍ يكونُ النَّهيُ عن الطّاعة نَهيًا عن حقيقتها بالنِّسبة لأمَّتِه، ويحتملُ أنَّ المرادَ به النَّبيُّ الكريم ﷺ، فيكونُ النَّهيُ عن الطّاعةِ تَهييجًا على المُخالفةِ أو إدامةً لها، أو بمعنى المُداراةِ والمُلاينة القوليَّةِ فحسبُ، كما مرَّ.

إيثارُ التَّعليقِ بلَفظِ ﴿ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

التَّكذيبُ الشَّديد يناسبُهُ الإغلاظُ العَميق

علَّق النَّظمُ النَّهيَ عن الطّاعة بالمُكذِّبينَ، في قولِه تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾؛ لما فيه من الدَّلالةِ بصيغتِه على الملازمينَ للتَّكذيبِ، المُتلبِّسينَ به المُكثرينَ منه، على سبيلِ المُبالغة والكَثرة، قال البقاعيُّ: "أي: العَريقينَ في التَّكذيب"(1)، كما أنَّ (المُكذِّب) يكونُ ناسِبًا الكذبَ لغيرِه، والتَّعاملُ معَ الَّذين يَنسبونَك - أيُّها النَّبيُّ الكريم - ودينَك الحقَّ إلى الكذبِ يكونُ بعدم الطّاعة لهم في تحقيقِ اللّيونةِ والتَّساهُل، وتعليقُ الحُكم والنَّهي عن الطّاعة بـ﴿ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ يدلُّ على علّيَّةِ الحُكم؛ فلأنَّهم مُكذِّبونَ لا يجوزُ طاعتُهُم وموافقتُهم بحالٍ يتعلَّقُ بأمورِ الدّين والتَّبليغ والتَّوصيفِ لضَلالِهم المُبين، بل تجبُ تعريةُ عقائدِهم المنحرفةِ، وبيانُ سلوكِهم المُشين؛ ليتبيَّنَ الحقُّ من الباطل، قالَ ابنُ عاشور: "واختيرَ تَعريفُهُم بوَصفِ ﴿ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ دونَ غيرِه مِن طُرُقِ التَّعْريفِ؛ لأنَّهُ بِمنزِلَةِ المَوْصولِ في الإيماءِ إلَى وجْهِ بِناءِ الحُكْمِ،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 297.

وهوَ حُكْمُ النَّهْيِ عَن طاعَتِهِم، فَإِنَّ النَّهْيَ عَن طاعَتِهِم؛ لِأَنَّهُم كَذَّبوا رِسالَتَهُ"[1].

سرُّ العدولِ عن (الضالّينَ) إلى ﴿ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾:

عـدمُ الاكـتفاءِ بـالـضَّـلال بـل انـــجـــرّوا إلى التَّكذيبِ وسوءِ المَقَال

عدلَ النَّظمُ الكريم عن لفظِ (الضالّين) الَّذي تقدَّمَ وصفُهم به، إلى وصفِ ﴿ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّهم لم يكتفوا بمجرَّدِ الضَّلال عن الحقِّ والتّيهِ في سَراديب الباطل، ولم يَكتفوا بسيلِ الاتِّهامات الجارحةِ والإيذاءِ بالنُّعوت الباطلةِ الكاذبة؛ بل تلبَّسوا بالتَّكذيبِ على سبيلِ المُبالغة، ناسبينَ له الكذبَ، وهنا تكمُنُ المفارقةُ، فقد كَذَبوا في اتِّهاماتهم، ونَسبوهُ للكذب، فكانوا مُخالفين للحقِّ مرَّتين، بعدمِ مُطابقة اتِّهامهم للواقع، وبعدم مطابقةِ تكذيبهم له للواقع، فهم المَفتونونَ والمجانينُ، وهم الكذّابون، ولذا اختارَ صيغةَ المبالغة ﴿ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾؛ للدَّلالة على شدَّة تكذيبِهم اللّازم منه كثرةَ صدورِ الكذبِ منهم، كما أفاد العدولُ أيضًا أنَّ مُلاينةَ المكذِّبين في أمورِ الدّين موافقةٌ لهم على تكذيبِهِم، فيكونُ الموافِقُ والمُطيعُ لهم مُكذِّبًا من حيثُ لا يشعُرُ.

دلالةُ التَّعريفِ في ﴿ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾:

الـنَّـهـيُ عن طاعةِ المُكذِّبين عـلى سـبـيـلِ الاسـتـغـراق المَكين

عرَّفَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ ﴿ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾، في قوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾؛ للدَّلالة على الجنسِ المُفيدِ للاستغراق؛ فيفيدُ عدمَ إطاعةِ أيِّ واحدٍ من المُكذِّبين له في أمورِ الدّين، المتعلِّقةِ بفضحِ عقائدِهم وما هُم عليه من خَبالٍ وضَلال وجُنون وشكٍّ مبين، وأمّا ما عدا ذلك من أمورِ الحياةِ اليوميَّة؛ فلا يدلُّ النَّصُّ على عدمِ موافقتِهم أوْ لينِ الكلامِ معهم؛ ولذا لم يقلِ النظمُ: (فلا تُطعْهُم) بالضَّمير، بل أتى بلفظ ﴿ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾؛ للدَّلالة على علَّة النَّهي، والتَّكذيبُ إنَّما يكون في أمورِ الدّين، فيكون النَّهيُ مُتعلِّقًا بكلِّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 69.

مُكذِّبٍ بالدّينِ، فلا يُطاعُ إلى مَطلبِهِ في اللّين واللَّطافة، وهو متلبِّسٌ بالتَّكذيب، كما تحتملُ (أل) أنْ تكون موصولةً دالَّةً على تعليلِ النَّهي عن الطّاعةِ.

دلالةُ الفصلِ في جملة ﴿وَدُّواْ﴾:

الإجمالُ ثمَّ البيانُ ألذُّ في نَظْمِ الكلام

فصلَ النَّظمُ الكريمُ قولَهُ تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لكونِهِ بيانًا "لِمُتَعَلِّقِ الطّاعةِ المنهيِّ عَنها"[1]، أي: لا تُطِعْهم في مودَّتِهم مُداهنتَكَ لهم بالقولِ، حتَّى يُصالحوك، ويُسالموك، ولا يقدموا على إيذائِك، فتكونَ الجملةُ البيانيَّةُ مخصِّصةً لعدمِ إطاعتِهم في طَلَبِهم المخصوص، وهي المُداهنة التي كانوا يَودّونَها، في حينِ جَعَلَها البقاعيُّ تعليليَّةً لما قبلَها، فقال: "ثمَّ علَّلَ ذلك بما يكونُ مجموعُهُ على وقوعِهِ منهم من مدَّة طويلةٍ، وهُم مستمرّونَ عليه بقوله: ﴿وَدُّواْ﴾"[2].

دلالةُ الفعلِ ﴿وَدُّواْ﴾ مادَّةً وصيغةً:

الوُدُّ القلبيُّ رافَقَهُ تعبيرٌ قوليٌّ

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ عن رغبتِهم ومَيلِهم بفعلِ (الوُدِّ)، في قوله تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ﴾؛ للدَّلالة على مَحبَّتِهم ومَيلِهم القلبيِّ على سبيلِ القَطْعِ والحُصول، ولذا اختارَ صيغةَ الماضي المفيدةَ للقطعِ بحصولِ الحَدَث مع الاستمرار فيه، قال البقاعيُّ: "أي: أحبّوا محبَّةً عظيمةً واسعةً مُتجاوزةً للحدِّ قديمًا، مع الاستمرارِ على ذلك، وأكَّدَ تهالُكَهم على هذه الوِدادة بما يُفهِمُ التَّمنّيَ، وأنَّ ذلك مُستمِرٌّ منهُم، لا أنَّه وقعَ، ومَضَى"[3]، فقد رَغِبوا بشِدَّةٍ بتحقيقِ المُداهَنة والمُلاينة، وهذا الوُدُّ القلبيُّ عبَّروا عنه باللَّفظ، ولذا نُهيَ عن طاعتِهم، فلم يكُن مُنحصِرًا في الميل القلبيِّ فحسب، فالمادَّةُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 69.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 297.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 297.

وإنْ دلَّت على محبَّةٍ قلبيَّةٍ وميلٍ نفسيٍّ لتحقيقِ ذلك الغرض، لكنَّه خرجَ بمعونة المقامِ إلى الطَّلبِ القوليِّ بدليلِ النَّهي عن طاعتِهم فيهِ.

الجمعُ بينَ المُتناقِضات في (وُدِّهم):

تحقُّقُ المُداهنةِ بشكلٍ عمليٍّ، دليلٌ للاضطِراب العقليِّ

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بما يَودّونَهُ من طلبِ مُداهنتِهِ لهم حتَّى يُداهنوهُ، في قوله تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾؛ للدَّلالة على مَدى الاضطرابِ العقليِّ والضَّلالِ الَّذي هم عليه؛ ليُبيِّنَ اضطرابَهم السّابق في وصفِهم لهُ بالجنون، ووعيدُ اللّه لهم بأنَّهم سوف يُبصِرونَ اضطرابَهُم، ومن تلك الاضطراباتِ العقليَّةِ طلبُ المُداهنةِ المُؤدّية إلى بقاءِ المُخالفة، والغرضُ من طلبِهم تحصيلُ الموافقةِ أصلًا، قال الماتريديُّ: والمعنى: "لو ترفضُ ما أنتَ عليه من الدّين، فيَرفضون ما هم عليهِ منَ الدّين، وهذا لا يستقيمُ؛ لأنَّه إذا رفض ما هو عليهِ من الدّين؛ كفرَ، وهُم لو تركوا ما هُم عليه؛ صاروا مُسلمين، فيَبقى بينَهم الاختلافُ الَّذي لأجلِهِ دَعَوا إلى المُداهنةِ، ووَدّوها"[1].

دلالةُ الإسنادِ إلى ضميرِ الجمع ﴿وَدُّواْ﴾:

لا مُهادنةَ معَ المُكذِّبين، وإنْ رَغِبوا فيهِ مُجمِعين

عبَّرَ النَّظمُ عن فاعلِ المَودَّة بضميرِ الجمعِ العائدِ على ﴿ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾، في قولِه تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ المُكذِّبين جميعًا على سبيلِ الاستغراقِ الكليِّ رَغِبوا في ذلك الأمرِ مع كونِهم اختاروا طريقَ التَّكذيبِ والإيذاء؛ وتَرْكُ الإغلاظِ عليهم بوصفِهم بالضَّلال والجهلِ المُبين تَرْكٌ للتَّبليغِ لهم عن ربِّ العالَمين، وتنازُلٌ عن إعلاءِ الحقِّ والصِّدق على حسابِ الظُّلم والجَهل.

مَعنى ﴿لَوْ﴾ والغرضُ مِنها:

عبَّرَ النَّظمُ بـ﴿لَوْ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾؛ للدَّلالة إمّا على الشَّرط أوْ على المصدريَّة، فإن كانت شرطيَّةً،

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 10/ 140.

مَوَدَّتُهم المُداهنة طريقٌ من طُرقِ المُخادَعة

فجوابُها محذوفٌ يدلُّ عليه ما سبقَ من فعلِ الوُدِّ، والتَّقديرُ: (لو تُدهِنُ؛ لحصلَ لهم ما يَوَدّون)، أو: "تقديرُهُ: لَسُرّوا بذَلِكَ"[1]، وإنْ كانت (مصدريّةً)؛ فتكونُ مع فعلِها مفعولًا للفعلِ ﴿وَدُّواْ﴾، والظّاهرُ رُجحانُ المصدريَّة على الشَّرطيَّة؛ لما فيه من كثرةِ التَّقديرِ، قال أبو السُّعود: "وقيلَ: ﴿لَوۡ﴾ على حقيقتها، وجوابُها محذوفٌ، وكذا مفعولُ ﴿وَدُّواْ﴾، أي: ودّوا إدهانَكَ؛ لو تُدهنُ، فيُدهنونَ؛ لَسُرّوا بذلكَ"[2].

دلالةُ المُضارعِ ﴿تُدۡهِنُ﴾ مادَّةً وصيغةً:

المُداهنةُ في الحقِّ تعطيلٌ لحركةِ الصِّدق

استعملَ النَّظمُ الكريم الفعلَ المضارعَ، في قوله تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ﴾؛ ليكونَ مَعمولًا للمَودَّة؛ للدَّلالةِ على أنَّهم يَودّون إدهانًا مُتجدِّدًا مُستمرًّا لا ينقطعُ، فهم لم يَرغبوا بهُدنةٍ قوليَّة محدَّدة، بلِ الاستمرارُ في تلك المُلاينةِ والمُلاطفة القوليَّة، وهو خِداعٌ ظاهر؛ لأنَّه إنْ أطاعَهُم لَميلِهم ذلك؛ تعطَّلَ التَّبليغُ القائم على وصفِ الحقِّ وتمييزِهِ عن الباطل، وما الباطلُ إلّا أصنامُهُم، فيكون توقُّفُهُ عن ذلك توقُّفًا للتَّبليغ بالحقِّ والنُّطقِ بالصِّدق، ومن ثَمَّ فسَّرَ بعضُهم الإدهانَ باللّين في الدّين[3]، قال مُجاهد: "تَرْكَنُ إليهم، وتتركُ ما أنتَ عليه من الحقِّ، فَيُمالئونَك"[4]، ويظهرُ من هذا أنَّه عندما لا يستجيبُ لَمطلوبهم يكون مُتشدِّدًا معهم وراغبًا في عداوتهم، ففيه إشارةٌ إلى رغبةٍ خفيَّة بإظهارِ عداوتِهم والزّيادة في تكذيبِهم؛ لأنَّ الرَّفض منه أمرٌ طبيعيٌّ لتحقيقِ التَّبليغ، ومادَّة (المداهنة) من الدُّهن الَّذي يسيلُ بكلِّ لُطفٍ ولينٍ ورِقَّةٍ من دونِ إيذاءٍ في حركتِهِ وسَرَيانه، فقد رَغِبوا بالمُلاطفة التّامَّة في القول، وما ذلك بأمرٍ مُستطاعٍ عندَ التَّبليغ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 238.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/ 13.

(3) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 532.

(4) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 4/ 335.

والإرشادِ، ولذا قالَ الهرريُّ: "أحبّوا لو تُلاينُهم، وتُسامِحُهم في بعضِ الأمور، وتركِ الدَّعوةِ إلى اللّه سبحانه"[1].

تحديدُ المعطوفِ في (فاء) السَّببيَّة:

الدَّعوةُ للمُلاينة طموحٌ لتحقيقِ المُصالحة

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بـ(الفاء) في قوله تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ﴾؛ للدَّلالةِ إمّا على السَّببيَّة والعطفِ على ودادِهم، أي: عطفِ المُسبَّبِ على السَّبب؛ إذ بحصولِ إدهانِك لهم، فهم يُدهنون، ويُشيرُ ذلك التَّسبُّب إلى أنَّهم رَبَطوا مُلاينتَهم له وعدمَ غِلظتهم له بالقول؛ إن تركَ الإغلاظَ لهم والإيذاءَ بالتَّعرُّض لمعبوداتِهم الباطلة وعقولِهم التّافهة، قالَ ابنُ عاشور: "والفاءُ في ﴿فَيُدۡهِنُونَ﴾ لِلعَطْفِ، والتَّسَبُّبِ عَن جُمْلَةِ ﴿لَوۡ تُدۡهِنُ﴾؛ جَوابًا لِمَعْنَى التَّمَنّي المَدْلولِ عَلَيهِ بِفِعْلِ ﴿وَدُّواْ﴾"[2].

والظّاهرُ أنَّها للسَّبب، وليس للتَّسبُّب؛ ولذا أضربَ ابنُ عاشور عن هذا التَّوجيهِ بـ(بل)؛ إذ مداهنتُهُم سببٌ لودادِهم ذلك، فهُم مُتلبِّسونَ بالمُداهنة، ومن ثَمَّ ودّوا مُداهنتَهُ لهُم، فالفاءُ للسَّببيَّة، والجملةُ مُستأنفةٌ من عطفِ الجُمل دونَ المُفردات، والتَّقديرُ على السَّببيَّة: "فهُم يُدهِنونَ حينَئذٍ، أو فهُمُ الآنَ يُدْهِنونَ طمَعًا في إدهانِكَ"[3]، فإمّا أنَّ إدهانَهم مرغوبٌ فيه منهم ومؤجَّلٌ إلى زمنِ صدورِ إدهانِك، أوْ أنَّهم مُتلبِّسونَ بالإدهانِ الآنَ، ويَطمعونَ تحقُّقَ الخَصلةِ ذاتِها فيك، وأوضحَ الآلوسيُّ الفرقَ بينَ الوجهينِ بقوله: "أي: فهُم يُدهنونَ حينَئذٍ، أوْ فهُم الآنَ يُدهنونَ طَمعًا في إدْهانِك، فـ(الفاءُ) للسَّببيَّة داخلةٌ على جملةٍ مُسبَّبةٍ عمّا قبلَها، وقُدِّرَ المبتدأ لمكانِ رفعِ بالفعل، والفرقُ بين الوجهينِ: أنَّ المعنى على أنَّهم تَمنَّوا لو تُدهِنُ؛ فتترتَّبُ مُداهنتُهُم على

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 86.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 69.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/ 13.

مُداهنتِك، ففيهِ ترتُّبُ إحدى المُداهنتينِ على الأُخرى في الخارج، و﴿لَوۡ﴾ فيه غيرُ مَصدريَّة، وعلى الثّاني هي مَصدريَّةٌ، والتَّرتُّبُ ذِهنيٌّ على ودادتِهم وتَمنّيهم"[1]، وإمّا للدَّلالةِ على السَّببيَّةِ والعطفِ معًا على ما في حيِّز (لو)، قال أبو السُّعود: "وقيل: هو معطوفٌ على ﴿تُدۡهِنُ﴾، داخلٌ في حيزِ ﴿لَوۡ﴾، والمَعْنَى: ودّوا لو يُدهنونَ عقيبَ إدهانِك، ويأباهُ ما سيأتي مِن بَدئِهِم بالإدَهان، على أنَّ إدهانَهُم أمرٌ مُحقَّقٌ لا يُناسِبُ إدخالَهُ تحت التَّمنّي"[2].

سرُّ الاستئنافِ بـ(الفاء):

تحقيقُ دلالةِ الانحصار بالاستئنافِ المُختار

منَ المعلوم أنَّ (الفاءَ) السَّببيَّةَ الواقعةَ بعدَ جوابِ الطَّلب يُنصَبُ الفعلُ المضارع بعدَها بـ(أنْ) مُضمرةً؛ للدَّلالة على التَّسبُّب والارتباط، مثلُ: (ليت لي مالًا فأُنفِقَه)، فالإنفاقُ مسبَّبٌ عن تمنّي المال، ويكونُ من عطفِ المُفرداتِ، لكنَّ النَّظمَ الكريمَ ترك النَّصبَ، ورفعَ الفعلَ المضارعَ بعدَ (فاء السَّببيَّة)، في قولِه تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على إرادةِ السَّببيَّة بـ(الفاءِ)، وتقدير الفعلِ بعدَها مُستأنَفًا، فيجبُ الرَّفعُ لِخُلوِّ الفعلِ عنِ النّاصبِ والجازم، والكلامُ بتقديرِ محذوفٍ مُبتدأ، تقديره: (فهم يُدهِنون)، فيكونُ من عطفِ الجُمل، "ورفعَ ﴿فَيُدۡهِنُونَ﴾ وإنْ كان جوابَ التَّمنّي؛ لأنَّه خبرُ مُبتدأٍ محذوفٍ، أي: فهُم يُدهنون"[3]، فيكونُ الإخبار بالاستئنافِ عن إدهانِهم له سببًا مؤشِّرًا لودادِهم إدهانَه ومُلاينتَه لهم، وسرُّ ارتكابِ الاستئناف والاكتفاءِ بفاءِ السَّببيَّة: "ليكونَ الاسمُ المُقدَّرُ مُقَدَّمًا عَلَى الخَبَرِ الفِعْلِيِّ، فيفيدَ مَعنى الاختِصاص، أي: فالإدْهانُ مِنهُم لا مِنكَ، أي: فاترُك الإدهانَ لَهُم، ولا تَتَخَلَّقْ أنتَ بِهِ، وهَذِهِ طَريقَةٌ في الاستِعمالِ، إذا أُريدَ بِالتَّرَتُّباتِ أنَّهُ لَيسَ تعليقَ جَوابٍ، كَقَولِهِ تَعالَى:

(1) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 30.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/ 13.
(3) الحنبليّ، فتح الرّحمن: 7/ 125.

﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ١٣﴾ [الجنّ: 13]، أي: فَهوَ لا يَخافُ بَخْسًا ولا رَهَقًا"[1]، في حين لو نُصِبَ المضارع؛ لكانَ من عطفِ المفرد على المفرد، في حين تُرِك النَّصبُ إلى الرَّفع؛ لإرادةِ عطفِ الجُملة، والتَّركيزُ على السَّببيَّة، وتفيدُ فاءُ السَّببيَّة تعليلَ وِدادهِم، أي: لأنَّهم مُدهِنون، فيرغبونَ أنْ يُشارَكوا في تلك الخَصلةِ.

دلالةُ المُضارع (يُدهِنون) مادَّةً وصيغةً:

المُداينةُ القوليَّة نفاقٌ في الأفعالِ القلبيَّة

عبَّر النَّظمُ الكريم بالفعلِ المضارعِ (يُدهنون)، في قولِه تعالى: ﴿لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ﴾؛ للدَّلالة على تلبُّسِهم الاستمراريِّ المتجدِّد بتلك الخصلةِ القائمة على المُجامَلةِ السَّطحيَّة دونَ المودَّة القلبيَّة، وفيها شائبةٌ من النِّفاقِ والكذب، قال الفخر الرّازيُّ: "قالَ: المُبَرِّدُ: داهَنَ الرَّجُلُ في دينِه، وداهَنَ في أمْرِهِ؛ إذا خانَ فيه، وأظْهَرَ خِلافَ ما يُضْمِرُ"[2].

دلالةُ الاستعارة في الفعلين: ﴿تُدۡهِنُ﴾ و(يُدهِنون):

المُلاطفةُ في الحديث كسَيَلانِ الدُّهنِ اللَّطيف

استعارَ النَّظمُ الكريمُ الفعلينِ المُضارعينِ في قولِه تعالى: ﴿لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ﴾؛ للدَّلالة على المُجاملة والمُلاطَفة في الحديث؛ إذ شبَّه المُلاطفةَ القوليَّةَ بسَيلانِ الدُّهنِ وحركتِهِ في الأواني بكلِّ انسيابيَّةٍ وليونةٍ، ثمَّ حذفَ المشبَّهَ، وأبقى المشبَّهَ به على سبيلِ الاستعارةِ التَّصريحيَّة التَّبعيَّة، قال الطَّبريُّ: "وإنَّما هو مَأخوذٌ منَ (الدُّهن)، شبَّهَ التَّليينَ في القولِ بتليينِ الدُّهْنِ"[3].

۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

المودَّة والتَّمنّي والحُبُّ:

الـوُدُّ طبعيٌّ، والحُبُّ حِكْميٌّ، والتَّمنّي لمُتعسِّر الحُصول

أعمُّ المفاهيم الثَّلاثة التَّمنّي؛ لأنَّ الإنسانَ لا يتمنَّى إلّا ما يُحبُّه، ويَوَدُّه، لكنَّ التَّمنّي يكونُ في المحبوب، والمودَّة الصَّعب الحُصول،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 69.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 603.
(3) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 534.

وأمّا الحُبُّ؛ فهو ميلٌ قلبيٌّ ناجِمٌ عن حِكمةٍ وعقلٍ مُستنيرٍ، وعن رغبةٍ طبعيَّة في المحبوب، فهو أعمُّ من الوُدِّ الَّذي لا يكونُ إلّا فيما تميلُ إليه القلوبُ من جهةِ الطَّبعِ فقط، ولذا يقال: أُحِبُّ الصَّلاة، ولا يقالُ: أَوَدُّها، وإنَّما استأثر النَّظمُ في الآية فعلَ (الودِّ) دونَ (التَّمنّي والحُبِّ)؛ لأنَّهم كانوا يتمنَّونَ ذلك من جهةِ المَيل القلبيِّ لمُجرَّد الطَّبع دون حِكمةٍ وتفكيرٍ في ذلك الأمر المطلوب؛ إذ كيف يَودّون أنْ يلاطفَهم في الكلام، وهم يُكذِّبونَه، ويَختلفونَ معَهُ في الدّين والمُعتَقد؛ إذ مُجرَّدُ دعوتِه لدينه يكون هنالك تسفيهٌ لمُعتقدِهم الباطل وأصنامِهم الفارِغة.

المُداهَنةُ والمُداراة:

المُداراةُ مَحمودة، والمُداهَنةُ مَذمومة

المُداهنةُ بيعُ الدّين بالدُّنيا، فهي من السَّيّئات، والمُداراة بيعُ الدُّنيا بالدّين، فهي من الحَسَنات، ويقال: الإدهانُ: المُلاينةُ لمَن لا ينبغي لهُ ذلك، وهو لا يُنافي الأمرَ بالمُداراة، والإدهانُ: المُلاينةُ فيما لا يَحِلُّ، والمُداراةُ المُلاينةُ فيما يَحِلُّ[1]، وفَرَّق الإمامُ الغزاليُّ بينَ (المُداراة والمُداهنة)، بالغرضِ الباعثِ على الإغضاء، فإن أغضَيْتَ لسَلامةِ دينِكَ، ولِما ترى فيهِ من إصلاحِ أخيك بالإغضاءِ؛ فأنتَ مُدارٍ، وإنْ أغضَيتَ لحَظِّ نفسِكَ واجتلابِ شَهواتِك، وسَلامةِ جاهِكَ؛ فأنتَ مُداهِنٌ[2]، والحاصلُ: أنَّ المُداراةَ محمودةٌ مرغوبٌ فيها، وأمّا المُداهنةُ؛ فهي مذمومةٌ، وفيها شائبةُ النِّفاق والكَذب، ومن ثَمَّ اختارَ النَّظمُ الفعلَ ﴿تُدۡهِنُ﴾ على الفعل (تُداري).

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 347.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 87.

﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ ١٠ هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ ١١ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ١٢ عُتُلِّۭ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ١٣﴾ [القلم: 10 - 13]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

تعليل النَّهي عن الطّاعة بذِكر الخصال المانعة

لمّا نهى الله تعالى رسولَهُ والمؤمنينَ عن إطاعةِ المُكذِّبين إجمالًا دونَ ذِكرِ خِصالهم الشَّنيعة وصفاتِهم الفَظيعة على سبيلِ التَّفصيل؛ ناسَبَ ذِكرُ النَّهي مُجدَّدًا مُتعلِّقًا بأوصافِهم المُفصَّلةِ المُعلِّلةِ النَّهيَ عن الإطاعةِ والتَّهييجِ بدَوامِ المُخالفة.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حَلَّافٖ﴾: (حلف) أصلٌ واحدٌ، وهو المُلازمة، يقالُ: حالفَ فلانٌ فلانًا؛ إذا لازمَهُ، ومن البابِ الحِلْفُ، يقالُ: حَلَفَ يَحلِفُ حَلْفًا، وذلك أنَّ الإنسانَ يَلزمُهُ الثَّباتُ عليها[1]، ورجلٌ حَلّافٌ وحلّافةٌ: كثيرُ الحَلْف، وتقولُ: حالفَ فلانٌ فلانًا؛ فهو حليفُهُ؛ لأنَّهما تحالَفا بالأيمان[2]، فالأصلُ الواحد فيها هو الالتزامُ معَ القَسَم وبوسيلتِه، كما أنَّ القَسَمَ هو مُجرَّدُ القَسَم من دونِ التزام[3]، والمرادُ به في الآية: مَن يُكثر منَ الحَلْف والالتزام، وهو في رأيِه وعَهدِه مُتسامِحٌ هَيّن، فلا يُعتمَدُ على قولِه.

2) ﴿مَّهِينٍ﴾: (مهن) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على احتقارٍ وحقارةٍ في الشَّيء، ومنهُ قولهم: مَهينٌ، أي: حقيرٌ، والمَهانةُ: الحَقارة، وهو مَهينٌ: بيِّنُ المَهانةِ[4]، ومَهُنَ مَهْنًا - من بابَي قتَلَ ونفَع -: خَدَمَ غيرَهُ، وأمهَنْتُهُ: استخدمتُهُ، وامتهَنْتُهُ: ابتذلتُهُ، وهو في مِهنةِ أهلِه، أي: في

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حلف).
(2) الخليل، العين: (حلف).
(3) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 2/ 251.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مهن).

خِدمتِهم، وخرجَ في ثيابِ مِهنتِهِ، أي: خدمتِهِ[1]، قالَ الزَّجّاج: "هو فعيلٌ من المَهانة، وهي القِلَّة، ومعناه هاهنا: القِلَّةُ في الرَّأي والتَّمييز"[2]، فهو الضَّعيف الَّذي يكونُ تحتَ اختيارٍ، ولا يكونُ لهُ اختيارٌ[3]، والمُرادُ به في الآية: الضَّعيفُ الَّذي لا اختيارَ له، ويكونُ تحتَ اختيارٍ من غيرِهِ، ولذا يَلجَأ إلى الحَلفِ؛ ليُصدَّقَ، وهذا الوصفُ يصدُقُ في (الوليد بن المغيرة) الَّذي خضعَ لسُلطانِ قومِهِ؛ خوفًا من المَهانةِ الاجتماعيَّة، فصارَ مَهينًا.

3) ﴿هَمَّازٍ﴾: (همز) كلمةٌ تدلُّ على ضغطٍ وعَصْرٍ، ومنهُ الهَمْزُ في الكلام، كأنَّه يَضغُطُ الكلامَ، والهَمّازُ: العيّابُ، وكذا الهُمَزَةُ[4]، وهَمَزْتُ الشَّيءَ هَمْزًا - من بابِ (ضَرَبَ) -: تحاملتُ عليهِ كالعاصِرِ، وهَمَزَهُ هَمْزًا: اغتابَهُ في غَيبتِهِ، فهو همّازٌ[5]، وعن ابنِ الأعرابيِّ: الهُمّاز: المُغتابونَ في الغَيبِ، واللُّمّازُ: المُغتابونَ في الحَضْرة[6]، فهو دالٌّ على التَّعييبِ والنَّقص الضَّعيف، كما أنَّ اللَّمْزَ هو تعييبٌ وتضعيفٌ قويٌّ شديد[7]، والمرادُ به في الآية: العَيّابُ والمُنتقِصُ من النّاسِ في الغَيبةِ.

4) ﴿مَّشَّآءِۭ﴾: للمَشْيِ أصلانِ صَحيحان: أحدُهما: يدلُّ على حركةِ الإنسانِ وغيرِهِ، والآخَرُ: النَّماءُ والزّيادةُ[8]، ومشى يَمشي مَشيًا؛ إذا كانَ على رِجليهِ؛ سَريعًا كانَ أوْ بطيئًا، فهو ماشٍ، والجمعُ مُشاةٌ، ويتعدّى بالهمزةِ والتَّضعيف، ومشَى بالنَّميمة، فهو مَشّاءٌ[9]، والمشّاءُ: مبالغةٌ في المَشْيِ، كالحلّاف في الحَلف، والهمّازِ في الهَمْز، والمُرادُ به في الآية: مَن يَمشي كثيرًا بسببِ نميم ظهرَ، أي: في إشاعتِهِ.

5) ﴿بِنَمِيمٍ﴾: النَّمُّ: أصلٌ صحيحٌ له معنيانِ: أحدُهما: إظهارُ شيءٍ وإبرازُهُ. والآخرُ: لونٌ من الألوان، والنَّمّامُ من الأوَّل؛ لأنَّه لا يُبقي الكلامَ في جَوْفِهِ، والنَّميمةُ: الصَّوتُ

(1) الفيوميّ، المصباح المنير: (مهن).
(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 22/ 81.
(3) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 11/ 184.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (همز).
(5) الفيوميّ، المصباح المنير: (همز).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (همز).
(7) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 11/ 264.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مشى).
(9) الفيوميّ، المصباح المنير: (مشى).

والهَمْسُ؛ لأنَّهما يَنُمّانِ على الإنسان[1]، ونَمَّ الرَّجلُ الحديثَ نمًّا - مِن بابَي (قتلَ وضرَبَ): سَعَى به؛ ليوقِعَ فتنةً أو وحْشَةً، فالرَّجلُ نَمٌّ؛ تسميةً بالمصدر، ونَمّامٌ مبالغةٌ، والاسمُ النَّميمةُ والنَّميمُ أيضًا[2]، فالنَّمُّ: نقلُ قولٍ من شخصٍ، من شأنِه أنْ يحتفيَ به عندَ شخصٍ آخرَ، يُنتجُ فسادًا، والمرادُ بِهِ في الآيةِ: الخبرُ المُتَّصِفُ بعنوانِ كونِهِ مَنقولًا، وفيه إفسادٌ[3].

6) ﴿مَّنَّاعٍ﴾: (منع) أصلٌ واحدٌ، وهو خلافُ الإعطاءِ، ومَنَعْتُهُ الشَّيءَ مَنْعًا، وهو مانِعٌ ومنّاعٌ[4]، والمنعُ: أن تحولَ بينَ الرَّجُلِ وبينَ الشَّيءِ الَّذي يُريدُهُ، يقالُ: مَنَعْتُهُ فامتنعَ، ورجلٌ مَنيعٌ: لا يُخلَصُ إليه، ورجلٌ مَنوعٌ ومنّاعٌ؛ إذا كانَ بَخيلًا مُمسِكًا[5]، وامتنعَ منَ الأمرِ: كفَّ عنه[6]، والمرادُ به في الآيةِ: البخيلُ أوِ الصّادُّ عن سبيل اللّه، فيمنعُ وصولَ الدَّعوة الَّتي هي خيرٌ مَحْضٌ إلى النّاس.

7) ﴿أَثِيمٍ﴾: الإثمُ يدلُّ على أصلٍ واحدٍ، وهو البُطْءُ والتَّأخُّرُ، والإثمُ مشتقٌّ من ذلك؛ لأنَّ ذا الإثم بطيءٌ عن الخير مُتأخِّرٌ عنه[7]، والأَثْمُ: الذَّنْبُ، وقد أثِمَ الرَّجل إثمًا ومَأْثَمًا؛ إذا وقع في الإثم، فهو آثِمٌ وأثّام وأثيمٌ وأثومٌ، وأثَمَهُ اللّه في كذا يَأْثُمُهُ ويَأْثِمُهُ، أي: عَدَّه عليه إثمًا، فهو مأثومٌ[8]، والمرادُ به في الآية: كثيرُ الإثمِ والذَّنبِ الَّذي يُؤخِّرُه عنِ الخير، أوْ يُؤَخِّرُ الناسَ عنِ الخير.

8) ﴿عُتُلٍّ﴾: (عتل) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على شِدَّةٍ وقوَّةٍ في الشَّيء، من ذلك: الرَّجلُ العُتُلُّ، وهو الشَّديدُ القويُّ المُصحَّح الجسم، واشتقاقُهُ من (العَتَلة) الَّتي يُحفَرُ بها[9]، ورجلٌ عُتُلٌّ، أي: أكولٌ مَنوعٌ، والعَتْلُ: أن تأخذَ بتلْبيبِ رجلٍ، فَتَعْتِلَهُ، أي: تَجُره إليك، وتذهب به إلى حَبْسٍ أوْ عذاب[10]، قال ابنُ عاشور: "والعُتُلُّ: اسْمٌ، ولَيسَ بِوَصْفٍ، لَكِنَّهُ يَتَضَمَّنُ

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نم).
(2) الفيوميّ، المصباح المنير: (نم).
(3) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: (نم).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (منع).
(5) الخليل، العين: (منع).
(6) الفيوميّ، المصباح المنير: (منع).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أثم).
(8) الجوهريّ، الصّحاح، والفيوميّ، المصباح المنير: (أثم).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عتل).
(10) الخليل، العين: (عتل).

مَعنى صِفَةٍ؛ لأنَّهُ مُشْتَقٌّ مِنَ (العَتْل)، وهوَ الدَّفْعُ بِقوَّةٍ، ومِمّا يَدُلُّ عَلَى أنَّهُ مِنْ قَبيلِ الأسماءِ دونَ الأوْصافِ مُرَكَّبٌ مِن وصفَيْنِ في أحوالٍ مختَلِفَةٍ، أو من مُرَكَّبِ أوْصافٍ في حالَينِ مختَلِفَينِ"[1]، وهو في الأصلِ الغِلظَةُ والتَّعنُّفُ والجَفاءُ، ليس فيه لينةٌ ولا عُطوفة[2]، والمرادُ به في الآية: الرَّجُلُ الغليظُ المُتعنِّفُ الجافي.

9) ﴿زَنِيمٍ﴾: (زنم) أصلٌ يدلُّ على تعليقِ شيءٍ بشيءٍ، من ذلك الزَّنيمُ، وهو الدَّعيُّ، وكذلك المُزنَّم، وشُبِّهَ بزَنَمَتَي العَنْز، وهما اللَّتانِ تَتعلَّقانِ من أُذُنِها، والزَّنمةُ: اللَّحمةُ المُتدلّيةُ في الحَلْق[3]، ويقالُ: رجلٌ زَنيم؛ إذا نُسِبَ إلى اللُّؤم، وللزَّنيم مَوضعان: المُلصَقُ بالقوم ليسَ مِنهُم، والَّذي له زَنَمَةٌ من الشَّرِّ يُعرَفُ بها، أي: علامةٌ[4]، فهو ما ليسَ له أصالةٌ واستقرارٌ في نفسِه، بل هو مُعلَّقٌ بالآخر، ويتقوَّمُ به، والمرادُ به في الآية: ليس له قَوامٌ واستقرارٌ بنفسِه وبصفاتِه الذّاتيَّة وأخلاقه وعملِه وصدقِه وخُلوصِه، فالإطاعةُ والاتِّباعُ والمُصاحبة والاعتمادُ على مَن لا يعتمدُ على نفسِه غيرُ صحيحٍ، فإنَّ نظَرَهُ غيرُ خالِصٍ، ومَقصِدَه جَلْبُ النَّفعِ لنفسِه وحِفظُها[5].

قال الواحديُّ: "عن عكرمةَ قال: الزَّنيمُ الَّذي يُعرَفُ باللُّؤمِ كما تُعرَفُ الشّاةُ بزَنَمَتِها"[6].

۞ المَعنى الإجماليُّ:

النَّهيُ عن الإطاعةِ لمَن اتَّصفَ بهذهِ الوَضاعة

المعنى: وتمسَّكْ بما أنتَ عليه من عدمِ طاعةِ كلِّ كثيرِ الحَلف في الحقِّ والباطِل، وكلِّ مهينٍ مُحتَقَرٍ؛ لكذبِه ومَهانتِه في نفسِه، وكلِّ همّازٍ وطعّانٍ في النّاس وأعراضِهم، وعيّابٍ عليهم، ومُنتقِصٍ من

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 74.
(2) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 8/ 28.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زنم).
(4) ابن دريد، الاشتقاق، ص: 175.
(5) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 4/ 338.
(6) الواحديّ، التّفسير البسيط: 22/ 87، 92.

مِقدارهم، وكلِّ ساعٍ بينَ النّاس في النَّميمةِ والإيذاءِ، وكلِّ بخيلٍ مُمسِكٍ بالمال، أو منَّاعٍ أهلَهُ الخيرَ، وهو الإسلام، وكلِّ مُتجاوِزٍ في الظُّلْم حَدَّه، وكلِّ كثيرِ الآثام، والمرادُ بها المَعاصي والذُّنوب، وكلِّ غليظٍ جافٍ عنيفِ الطَّبعِ لئيم، وكلِّ دعيٍّ غيرِ مستقرٍّ في نفسِه، فلا يُعتمَدُ عليه[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الوصلِ في ﴿وَلَا تُطِعْ﴾:

التَّحذيرُ منَ الإطاعةِ لمَنِ اتَّصفَ بالوَضاعة

عطفَ النَّظمُ الكريم بـ(الواو) في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾؛ للجمعِ بينَ عدمِ إطاعةِ المُكذبين ومَن اتَّصف بهذه الصِّفات الَّتي هي شعارُ المُكذِّبين، قالَ الرّازيُّ: "لَمّا نَهاهُ عَن طاعَةِ المُكَذِّبينَ، وهذا يَتَناوَلُ النَّهيَ عَن طاعَةِ جَميعِ الكُفّارِ، إلّا أنَّهُ أعادَ النَّهيَ عَن طاعَةِ مَن كانَ من الكفّار مَوصوفًا بِصِفاتٍ مَذمومَةٍ وراءَ الكُفْرِ"[2]؛ ليُفيدَ تعليلًا آخرَ على عدمِ إطاعتِهم؛ لما اتَّصفوا به من صفاتٍ شَنيعة، والمعطوفُ والمعطوفُ عليه مُتَّفقانِ في الإنشاءِ لفظًا ومعنًى، كما هما متَّفقانِ في المقصود بالإجمالِ والتَّفصيل، وذهبَ الهرريُّ إلى أنَّ العطفَ للتَّخصيص، فقال: "ثمَّ خصَّ من هؤلاءِ (المُكذِّبين) أصنافًا هانَتْ عليهم نفوسُهُم، فأفسَدوا فِطرتَها؛ تشهيرًا بهم"[3].

معنى (لا) والغرضُ منها:

النَّهيُ بين الحقيقة والمجاز يُفيدُ المُخالفةَ لأهلِ الأوثانِ والأرجاس

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بـ(لا) في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾؛ للدَّلالة على النَّهي للنَّبيِّ ﷺ ومَن تبِعَه من المؤمنين، فيكونُ بالنِّسبة للمؤمنين بمعنى النَّهي الحقيقيِّ، وبالنِّسبة له ﷺ بمعنى

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 320.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 603.

(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 88.

الدَّوامِ على المخالفةِ؛ إذ لا يُتصوَّرُ منه طاعةٌ لهم، فهو مِن استعمالِ اللَّفظ في حقيقتِهِ ومَجازِه عندَ مُجوِّزيه، قال الماتريديُّ: "لا يجوزُ أنْ يكونَ رسولُ اللّه ﷺ يُخشَى عليه طاعةُ مَن هذا وصْفُهُ، وأنْ يميلَ قلبُهُ إليه، ولكنَّ النَّهي لمكانِ غيره، وإنْ كان هو المُشارَ إليه بالذِّكر"[1]، ففي ضميرِ المخاطَبِ تجوُّزٌ، ويحتملُ أنَّ الضَّميرَ مخصوصٌ بالنَّبيِّ ﷺ، لكنَّ الغرضَ من النَّهي، كما قالَ القونويُّ: "التَّهييجُ عَلَى ما كانَ عليهِ من عدمِ الإطاعة"[2]، أي: استمرارُ المُخالفةِ وإدامتُها.

دلالةُ الفعل المضارعِ ﴿تُطِعْ﴾ مادَّةً وصيغةً:

عدمُ الموافقة الدّائمة لأهلِ الأهواءِ الباطِلة

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بالفعل المضارع ﴿تُطِعْ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ﴾؛ للدَّلالة على عدم الموافقة لهم والنُّزولِ على رأيهم فيما يَودّونَه من مُلاينةٍ ومُجاراة ومُداهنة؛ لأنَّ الطّاعة والموافقة إنَّما تكون مع الصّادقين الثِّقات، وأفادَتْ صيغةُ المضارع دوامَ عدم الطّاعة لهم واستمرارَها، والمعنى: دُمْ، واستمرَّ على مُخالفتهم وترك موافقتهم؛ لما عُرِفوا به من خِلالٍ تمنَعُ الاتفاقَ والائتلاف.

دلالةُ تكرارِ النَّهي عن الطّاعة في ﴿وَلَا تُطِعْ﴾:

الاختصاص والاهتمام يَقتضي الإعادة في الكلام

كرَّرَ النَّظمُ الكريم لفظَ المنهيِّ عنه (الإطاعة)، في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ﴾؛ للدَّلالةِ على الاهتمام بالموقف من دَعوات المُكذِّبين بالمُلاينةِ والمُلاطفة على حساب تبليغ الدّين المُبين، قال ابن عاشور: "إعادَةُ فِعْلِ النَّهْيِ عَنِ الطّاعَةِ لِمَنْ هَذِهِ صفاتُهم؛ لِلاهتِمامِ بِهَذا الأدَبِ، فَلَم يَكتَفِ بِدُخولِ أصْحابِ هَذِهِ الأوصافِ في عُمومِ ﴿ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾، ولا بِتَخصيصِهِم بِالذِّكرِ بِمُجَرَّدِ عَطْفِ الخاصِّ عَلَى العامِّ بِأنْ يُقالَ: (وَلا كلّ حلّاف)، بَلْ جيءَ في جانِبِهِم بِصيغَةِ نَهْيٍ أُخْرَى مُماثِلَةٍ لِلأولَى، ولِيُفيدَ تَسْليطَ الوَعيدِ الخاصِّ، وهوَ في

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 10/ 141.

(2) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 228.

مَضْمونِ قَوْلِهِ: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ﴾، عَلَى أَصْحابِ هَذِهِ الصِّفاتِ الخاصَّةِ زِيادَةً عَلَى وعيدِ المُكَذِّبينَ"[1].

العدولُ من (العَلَم) إلى الوصفِ المُصَدَّرِ بـ﴿كُلَّ﴾:

العِبرةُ بعُموم اللَّفظ لا بخُصوصِ السَّبب

علَّق النَّظمُ النَّهيَ عن الإطاعةِ بلفظِ (الكلِّ)، في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ﴾؛ للدَّلالةِ على العُموم الاستغراقيِّ الشُّموليِّ؛ لإفادةِ أنَّ كلَّ مُكذِّب عن جُحودٍ واستكبارٍ تجتمعُ فيه هذه الأوصافُ أو مجموعُها، ومن ثَمَّ لا تجوزُ إطاعتُهم؛ لما فيها مِن نزولٍ إلى مستوى المتِّصفِ بهذه الأوصاف الدَّنيئة، قال ابن عاشور: "وَكَلِمَةُ ﴿كُلَّ﴾ مَوضوعَةٌ لِإفادَةِ الشُّمولِ والإحاطَةِ لِأَفْرادِ الاسْمِ الَّذي تُضافُ هيَ إلَيهِ، فَهيَ هُنا تُفيدُ النَّهيَ العامَّ عَن طاعَةِ كُلِّ فَرْدٍ مِن أفرادِ أصحابِ هَذِهِ الصِّفاتِ الَّتي أُضيفَ إلَيها ﴿كُلَّ﴾ بِالمُباشَرَةِ وبِالنُّعوت"[2]، ولكن ذهبَ المفسِّرون إلى تحديدِ بعضِ الشَّخصيّات في زمنِ النُّزول كالوليد بن المغيرة والأخنس بن شُريق وغيرهما، لكنَّ النَّظم الكريم لم يُعيِّن ذلك باسمِه العلَم، بل عدلَ إلى وصفِه؛ لما في الوَصْف من عموم وضعيٍّ؛ إشارةً منه إلى أنَّه وإنْ كان قد تحقَّق في شخصٍ معيَّن، لكنَّه معنًى استغراقيٌّ في المُكذِّبين يخترقُ حواجزَ الزَّمان والمكان؛ إذ الأوصافُ من الوضعِ العامِّ لموضوعٍ له عامٍّ، وهذا من دقائقِ إعجازِ القرآن، الَّذي يصلح لكلِّ زمان ومكان، فالمُكذِّبون مُتواطِئون على هذه الخِلال، وإن تحقَّقت في زمنِ النُّزولِ في واحدٍ منهم، ولذا قال الماتريديُّ: "قيل: إنَّ هذه الآياتِ نزلَتْ في واحدٍ يشارُ إليه، وهو الوليدُ بنُ المغيرة المخزوميُّ، وفيما يشارُ إلى واحدٍ لا يُطلَقُ فيه لفظةُ (كلّ)، فيقال: ﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ﴾، والحلّاف

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 70.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 78.

المَهين ليس إلّا واحدًا، ولكنّ معناه: ولا تُطِعْ هذا، ولا كلَّ مَن يوجدُ فيه هذه الصِّفة"[1].

الكلّيّةُ في حيّز النَّهي:

تَساوي الدَّلالة في وقوع (الكلّ) تحتَ النَّهي وفي البداية

علَّقَ النَّظمُ الكريم فعلَ النَّهي بلفظِ (الكلّ)، في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ﴾؛ للدَّلالة على عدم إطاعةِ مَن اتَّصفَ بهذه الصِّفات كلِّها أو بعضِها، وليس المُرادُ توجيهَ النَّهي المتَّصفِ بالكلِّ دونَ البعضِ، كما نبَّه إليه ابنُ عاشور بقولِه: "وَقَد وقَعَت كَلِمَةُ ﴿كُلَّ﴾ معمولةً لِلفِعْلِ الدّاخِلَةِ عَلَيهِ أداةُ النَّهْيِ، ولا يُفْهَمُ مِنهُ أنَّ النَّهيَ مُنصَبٌّ إلَى طاعَةِ مَن اجتَمَعَت فيهِ هَذِهِ الصِّفاتُ، بِحَيْثُ لَوْ أطاعَ بَعْضَ أصْحابِ هَذِهِ الصِّفاتِ؛ لَم يَكُنْ مُخالِفًا لِلنَّهْيِ؛ إذ لا يَخْطُرُ ذَلِكَ بِالبالِ، ولا يَجْرِي عَلَى أساليبِ الاستِعمالِ، بَلِ المُرادُ النَّهْيُ عَن طاعَةِ كُلِّ مَوْصوفٍ بِخَصْلَةٍ مِن هَذِهِ الخِصالِ، بَلْهَ مَن اجتَمَعَ لَهُ عِدَّةٌ مِنها[2]، فلا فرقَ في الدَّلالة بينَ وقوعِ (الكلِّ) في حيِّز النَّفي والنَّهي، وبينَ تصدُّرِها قبلَ النَّهي والنَّفي، فالمعنيانِ مُتساويانِ في قولنا: (لا تُطِعَ الكلَّ) و (الكلُّ لا تُطِعْهُ)، لكنَّ القونويَّ جعلَهُ من باب ما " لوحظَ فيه النَّهيُ أوَّلًا، ثمَّ الكلُّ ثانيًا، وكذا قَوْلُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٠﴾ [الشّورى: 40]، يُلاحَظُ فيه أوَّلًا النَّفيُ ثمَّ العمومُ ثانيًا، فيكون العمومُ في النَّفي في الموضعينِ دونَ نفيِ العموم، ولو لوحِظ بالعكس؛ لكان لسلبِ العموم، فيختلُّ المَعنَى"[3]، ولذا قال البقاعيُّ: "وليسَ المرادُ النَّهيَ عن العُموم، بل عمومُ النَّهي، أي: انتَهِ عن كلِّ حلّاف، فالنَّهيُ أصلٌ، والكلُّ واردٌ عليه"[4].

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 10/ 140.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 270، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 71.
(3) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 13/ 24.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 299.

دلالةُ الإضافةِ في ﴿كُلَّ حَلَّافٍ﴾:

دلالـةُ التَّقييد تعليلٌ وتحديد

أضافَ النَّظمُ الكريم لفظَ ﴿كُلَّ﴾ إلى ﴿حَلَّافٍ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾؛ للدَّلالة على تعيينِ المُراد وتخصيصِه بالكلّيَّة، فيكونُ النَّهي مقيَّدًا بعدمِ طاعةِ مَن اتَّصف بتلك الأوصافِ الشَّنيعة، قال ابن عاشور: "وأُجريَتْ عَلى المَنهيِّ عَنِ الإطاعَةِ بِهَذِهِ الصِّفاتِ الذَّميمَةِ؛ لِأنَّ أصْحابَها لَيسوا أهلًا لِأن يُطاعوا؛ إذ لا ثِقَةَ بِهِم، ولا يَأمُرونَ إلّا بِسوءٍ"[1]، وفي إضافةِ الكلِّ إلى الأوصافِ توبيخٌ وتقريعٌ وتهجينٌ منها، قال الماتريديُّ: "يخرُجُ مَخرَجَ الهِجاءِ والشَّتم في الشّاهد؛ لأنَّ ذِكرَ المَرءِ بما هو عليهِ مِن ارتكابِ الفَواحِشِ والمَساوِئِ تهجينٌ له وشتمٌ، وجلَّ اللّه ورسولُهُ أنْ يَقصِدوا إلى شتمِ إنسانٍ، فالآيةُ ليست في تثبيتِ فواحِشِه، وإنَّما هي في موضعِ التَّوبيخِ والزَّجر عنِ اتِّباعِ مثلِه"[2].

دلالةُ ﴿حَلَّافٍ﴾ مادَّةً وصيغةً:

الـجُـرأةُ على الأيمانِ الكاذِبة دالَّةٌ على القُلوبِ النّاصِبة

استعملَ النَّظمُ الكريم صيغةَ المُبالغة ﴿حَلَّافٍ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾؛ للدَّلالة على المُبالغةِ في الحَلف؛ سواءٌ كانَ في الحقِّ أوِ الباطل، فهو للمُبالغة: "في الكمِّ دونَ الكَيْف، معَ أنَّه الأكثرُ استعمالًا"[3]، حتّى يُبرهِنَ على الصِّدق في الوعدِ والكلام، مع أنَّه لم يلجأ إلى الحَلف الكثيرِ إلّا بعدَ تجربةٍ عنه بالكذب، أو دفْعٍ لما يُعرَفُ عنه مِن اختلافٍ في تحقيقِ ما يَعِدُ به، قال المراغيُّ: "والكاذبُ يتَّقي بأيمانِهِ الكاذبةِ - التي يَجترئُ بها على اللّه - ضعفَهُ ومَهانتَهُ أمامَ الحقِّ، وفيه دليلٌ على عدمِ استشعارِهِ الخوفَ مِنَ اللّه"[4]؛ إذِ المُكذِّبون بهذا النَّبيِّ الكريم ﷺ ودّوا مُداهنَتَهُ، فلجؤوا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 79.

(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 10/ 140.

(3) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 228.

(4) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 29/ 31.

إلى الحَلف والقَسَم؛ لتأكيدِ الالتزام برغبتِهم، مع أنَّهم كاذبون حتّى في وِدادِهم، ومادَّةُ الكلمةِ تُنبِئُ عن الكذب، فهي تفيدُ الالتزامَ بطريقِ القَسَم، مع أنَّ الالتزامَ عند الصّادقينَ تكفي فيه الكلمةُ، وما لجوءُ المُلتزم بأمرٍ إلى القَسَمِ إلّا لدفعِ شُبهةِ عدمِ الصِّدق، ومن ثَمَّ شاعَتِ اللَّفظةُ في الكذبِ منَ الوعدِ والقَول.

دلالةُ الكناية في ﴿حَلَّافٖ﴾:

صيغةُ المُبالغة كنايةٌ عن عدمِ الاكتراث بالأيمانِ الكاذبة

يحتملُ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ﴾ المعنى المُطابقيَّ، وهو كثيرُ الحَلفِ والقَسَم حتّى يُصدَّقَ في كلامِهِ ودَعواه، ويحتملُ أنَّه كنايةٌ عن عدم المبالاةِ بالكذبِ في اليمين، قال ابن عاشور: "والحَلّافُ: المُكْثِرُ مِنَ الأيمانِ عَلَى وُعودِهِ وأخْبارِهِ، وأحْسَبُ أنَّهُ أُريدَ بِهِ الكِنايَةُ عَنْ عَدَمِ المُبالاةِ بِالكَذِبِ وبِالأيْمانِ الفاجِرَةِ، فَجُعِلَتْ صيغَةُ المُبالَغَةِ كِنايَةً عَنْ تَعَمُّدِ الحِنْثِ، وإلّا لَمْ يَكُنْ ذَمُّهُ بِهَذِهِ المَثابَةِ"[1]، والغرضُ من الكناية بهذا الوصفِ أنَّ المُكذِّبَ بالدّين القويم يعلم أنَّهُ على خطأ عظيم، لكنَّه يَستكبرُ، فيُقْدِمُ على الأيمانِ بلا مُبالاة، فيكون ذَمُّ (الحلّاف) لأجلِ استكبارِهِ على الحقِّ، وليس لذاتِ الحَلف المُتكاثِر.

دلالةُ تقديمِ (الحلّاف) على غيرِها منَ الخِصال:

الجُرْمُ العظيم بالإكثارِ منَ الحَلفِ على الكذبِ المُبين

قدَّمَ النَّظمُ الكريمُ صفةَ (الحلّاف) على سائرِ الخِصال، في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ﴾؛ للدَّلالةِ على شَناعة هذا العَيب المُقترنِ بالتَّكذيب، فـ: "كثرةُ الحَلف تدلُّ على عدم استشعارِ عظمةِ اللّه ﷻ، وذلك أصلُ كلِّ شرٍّ"[2]، والمرادُ منه: صرفُ النّاسِ عن الحقِّ، فيستهينُ باللّه مستعينًا بالقَسَم به؛ ليَكْذِبَ على النّاس بوسيلةٍ تصرفُ النّاسَ عن المَحلوف به؛ إن كان حالفًا باللّه، وإنْ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 72.

(2) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 10/ 1529.

كان حالِفًا بالأصنام والطَّواغيت؛ فإنَّه أقبحُ جُرمًا لإشراكِهِ وسوءِ مُعتقَدِه، وعلَّلَ أبو السُّعود التَّقديمَ بقولِه: "تقديمُ هذا الوصفِ على سائرِ الأوصافِ الزّاجرةِ عن الطّاعةِ؛ لكونِهِ أدخلَ في الزَّجْرِ"[1]؛ إذِ (الحلّاف) كثيرُ الحَلفِ في الحقِّ والباطل، فلا يُلتفَتُ إلى كلامِه ولا إلى وُعودِهِ حتَّى يُطاعَ، قال رضا: "فالحَلّافُ يُعَدُّ في مُقَدِّمَةِ هَؤُلَاءِ الأشرارِ، ومَن أكثَرَ الحَلِفَ؛ قلَّتْ مَهابَتُهُ، وكَثُرَ حِنْثُهُ، واتُّهِمَ بالكَذِبِ، ولا يَكونُ الحَلّافُ إلّا كَذّابًا، فهو على إهانَتِهِ لاسمِ اللّهِ تعالى يَفوتُهُ ما يُريدُ من قَبولِ قَوْلِهِ وتَصْديقِهِ"[2].

دلالةُ النَّعتِ المُقَيَّدِ والمُستقِلِّ ﴿مَّهِينٍ﴾:

نعتَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ ﴿حَلَّافٍ﴾ بـ﴿مَّهِينٍ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ﴾، وهو إمّا نعتٌ للتَّقييدِ أوْ عدمِه، فإنْ كان للتَّقييد؛ فإنَّ (الحلّاف) مُتَّصِفٌ بـ(المَهين)؛ لكثرةِ حلفِه، قال الهرريُّ: "لأنَّه لا يعرفُ عظَمةَ اللّهِ سُبحانه، ولذا أقدمَ على كَثرةِ الحَلِفِ"[3] أوْ أنَّه حلّاف كاذبٌ، فيكونُ مَهينًا وحَقيرًا، لاتِّصافِ كثيرِ الحَلِف بالمَهانة والحَقارةِ وعدمِ الكَرامة؛ إذ يكذبُ في وعدِهِ والتزاماتِهِ ممّا يُؤدّي إلى كونِهِ مَهينًا لا قيمةَ له، وفائدةُ الوصفِ التَّقييدُ؛ ليَحترزَ به عن المُضطَرِّ للحَلِفِ، والظّاهرُ أنَّ كلَّ نَعتٍ من النُّعوتِ الآتيةِ مُستقِلٌّ؛ ليكونَ من تعدُّدِ النُّعوتِ المستقلَّة؛ وليُفيدَ كلُّ وصفٍ خصلةً لا تُفيد الخصلةَ الَّتي قبلَها، وإن كان بينها تلازمٌ.

التَّقييدُ والاستقلالُ تحقيرٌ وإذلالٌ

معنى ﴿مَّهِينٍ﴾ مادَّةً وصيغةً:

عبَّر النَّظمُ الكريمُ بلفظ ﴿مَّهِينٍ﴾، في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ﴾؛ للدَّلالة على وصفٍ لازمٍ على سبيلِ الثُّبوتِ والدَّوام؛ إذ هو "بِفَتْحِ الميمِ (فَعيلٌ) مِنْ (مَهُنَ) بِمَعْنَى: حَقُرَ، وذَلَّ، فَهوَ صِفَةٌ

المَهِينُ مِن (مَهُنَ) لا مِن (هانَ)

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/ 13.

(2) رضا، تفسير المنار: 2/ 290.

(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 88.

مُشَبَّهَةٌ، وفِعْلُه (مَهُنَ) بِضَمِّ الهاءِ، وميمُهُ أصليَّةٌ، وياؤُهُ زائِدَةٌ، وهوَ فَعيلٌ بِمَعْنَى فاعِلٍ، أي: لا تُطِعِ الفاجِرَ الحَقيرَ، وقَد يَكونُ ﴿مَّهِينٍ﴾ هُنا بِمَعْنَى ضَعيفِ الرَّأْيِ والتَّمْييزِ، وكُلُّ ذَلِكَ مِنَ المَهانَةِ"[1]، واختار النَّظمُ وصفَ (المَهين) الدّالَّ على الحقارة؛ نتيجةَ الخُضوع لرغبات غيره، فيَهربُ من المَهانة التي تلحقُهُ نتيجةَ الإذلالِ المُجتمَعيِّ والتَّعيير له باتِّباعِ الدّين الجديد، فيقعُ في دائرةِ المَهانةِ، وكانت العقوبةُ من جنسِ ما هَرَبَ منهُ واهِمًا، ولا يبعُدُ أنْ يكونَ ﴿مَّهِينٍ﴾ صيغةَ مُبالغةٍ؛ للدَّلالة على كثرةِ الحَقارة في نفسِهِ من كثرةِ الأيمان الكاذبة، أو كثيرِ المَهانة من إكثارِهِ منَ القبائحِ والسَّيِّئات، "قالَ الرُّمّاني: المَهين الوضيعُ؛ لإكثارِهِ من القبيح، وعن ابنِ عبّاس: الكذّاب"[2]، وجوَّز ابنُ عادل أنَّه: "فعيلٌ بمعنى (مُفْعَل)، والمعنى: مُهان"[3]، فيكونُ اسمَ مفعول، والأنسبُ حملُهُ على صيغةِ المُبالغة؛ لتآخيها مع بقيَّةِ الصِّفات في ذلك.

دلالةُ الكِنايةِ في ﴿مَّهِينٍ﴾:

مَهانةُ النُّفوس بالكذِبِ المَنحوس

عبَّر النَّظمُ بلفظِ ﴿مَّهِينٍ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ﴾؛ للدَّلالة على الحقارةِ والوَضاعة والمَهانة بشكلٍ مُطابقيٍّ، وبعضُهُم جعلَها كنايةً عن الكذّاب، قال الطَّبريُّ: "بعضُهُم وجَّه معنى (المهين) إلى الكذّاب، وأحسبُهُ فعلَ ذلك؛ لأنَّه رأى أنَّه إذا وُصِفَ بالمَهانة؛ فإنَّما وُصِفَ بها لمهانةِ نفسِهِ كانتْ عليه، وكذلك صفةُ (الكذوب) إنَّما يَكْذبُ لمهانةِ نفسِهِ عليه"[4]، فبينَهُما تلازمٌ واجتماع في اللّازم، والَّذي يبدو أنَّ (المهين) كنايةٌ عمَّن لا يعرفُ عظَمةَ اللّه تعالى، فيَجترئُ عليه بالحَلف والكذِب، قال الرّازيُّ: "كَوْنُهُ حَلّافًا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 72.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 10/ 1529.
(3) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 19/ 275.
(4) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 534.

يَدُلُّ على أنَّه لا يَعْرِفُ عَظَمَةَ اللّه تعالى وجلالَهُ؛ إذ لَو عَرَفَ ذَلِك؛ لَمَا أقدَمَ في كُلِّ حينٍ وأوانٍ؛ بِسَبَبِ كُلِّ باطِلٍ عَلَى الاستِشهادِ باسمِهِ وصِفَتِهِ، ومَن لَمْ يَكُنْ عالِمًا بِعَظَمَةِ اللّه، وكانَ مُتَعَلِّقَ القَلْبِ بِطَلَبِ الدُّنْيا؛ كانَ مَهينًا"[1].

دلالةُ الارتباطِ بينَ الوَصفين:

العِزَّةُ النَّفسيَّة مقترنةٌ بتصحيحِ نِسبةِ العُبوديَّة

قرنَ النَّظمُ الكريم بينَ وصفَي (الحلّاف) و(المَهين)، في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ﴾؛ لوجودِ تناسُبٍ وانسجامٍ بينَهما؛ إذ كثرةُ الحَلف باللّه دالَّةٌ على عدمِ مَعرفةِ الحالفِ بقدرِ المحلوفِ به وعظَمتِهِ، ممّا يترتَّبُ على تلك الجهالةِ مهانةٌ للنَّفس وحقارةٌ لها، ومن ثَمَّ قال النّيسابوريُّ مُعلِّلًا الجمعَ بينهما: "لأنَّ مَن أكثر الحَلف باللّه - ولم يعرفْ قدرَ المعبود بالحقِّ - أذلَّه اللّهُ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ عِزَّةَ النَّفس منوطةٌ بتصحيحِ نسبةِ العبوديَّة، ومهانةُ النَّفس مربوطةٌ بالغَفلةِ عن سرِّ الرُّبوبيَّة، وأيضًا (الحلّاف) يتَّفق له الكذبُ كثيرًا، والكِذْبُ حقيرٌ عندَ النّاس"[2].

دلالةُ النَّعت ﴿هَمَّازٖ﴾ مادَّةً وصيغةً:

المبالغةُ في الانتقاص جُرْمٌ لا يليقُ بالنّاس

عبَّرَ النَّظمُ بخصلةٍ ثالثةٍ من خِصالِ المنهيِّ عن طاعتِهِم، وهو نعتٌ ثانٍ مُستقلٌّ عمّا قبلَهُ، منسجمٌ معَهُ، وذلك في قولِهِ تعالى: ﴿هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ﴾؛ للدَّلالةِ على علَّةِ النَّهي عن الطّاعة لهم؛ إذِ المُتَّصِفُ بكثرةِ التَّعييبِ والانتقاص مِنَ الناس ليس أهلًا للثِّقة، ولا يُصاحَبُ فضلًا عن أنْ يُطاع، واختارَ النَّظمُ صيغةَ المُبالغة؛ للدَّلالة على الكثرةِ والمبالغةِ في الهَمْزِ والانتقاص، حتّى صارَ له سجيَّةً وطبيعةً، قال ابنُ عاشور: "وَصيغَةُ المُبالَغَةِ راجِعَةٌ إلَى قوَّةِ الصِّفَة، فَإذا كانَ أذًى شَديدًا؛ فَصاحِبُهُ هَمّازٌ، وإذا تَكَرَّرَ الأذَى؛ فصاحِبُه

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 604.

(2) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 6/ 336.

هَمّازٌ"[1]، فهو اسمُ فاعلٍ أُريدَ به الاستمرارُ والدَّوامُ معَ الكثرة والمُبالغة، وتفيدُ مادَّةُ (الهَمْز) في أصلِ وضعِها العَصْرَ، ثمَّ أُطلِقَتْ على العَيّابِ المُنتقِصِ من النّاس؛ كأنَّه بذلك يَعصِرُهم، ويَضغَطُ عليهم، ويُؤلِمُهم بكلامِه، حتّى كأنَّهم عُصِروا من شدَّة تأثيرِ تعييبِه عليهم، كما تدلُّ مادَّةُ (الهَمْز) على الكَسْرِ، فسُمّيَ به العيّابُ؛ لأنَّه يَكسرُ قلوبَ الآخرينَ، ويُحطِّمُ مشاعرَهُم بكلامِه المُعيب لما ليس عَيبًا فيهم، بل يَختلِقُه، ويَنسِبُه إليهم، ولذا كانَ حَلّافًا وكذّابًا في هَمْزِه وتَعييبِه، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ هامِزي الرَّسول ﷺ لم يَجِدوا عَيبًا فيه، بل اختلقوا له عُيوبًا، ونَسبوها إليه؛ إذ صيغةُ المُبالغةِ تُنبِئُ عن كَذِبِهم في هَمْزِهم، كما تُنبِئُ صيغةُ المبالغةِ في ﴿حَلَّافٍ﴾ على الكذبِ في الإخبار.

دلالةُ الاستعارة في ﴿هَمَّازٍ﴾:

المُنتقِصُ من النّاس إنسانٌ بلا إحساس

استعارَ النَّظمُ القرآنيُّ لفظَ (الهمّاز)، في قولِهِ تعالى: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ﴾؛ للدَّلالة على الطَّعّان والعيّاب والمُغتابِ للنّاس المُنتقِص من مقدارِهم وقيمتهم، قال الهرريُّ: "الهمّازُ: عيّابٌ، طعّانٌ، مُغتابٌ للنّاس، وهو مبالغةُ (هامِز) منَ الهَمْز، وهو الضَّربُ والطَّعنُ والكَسرُ والعيبُ، فاستُعير للمُغتاب الَّذي يَذْكر النّاسَ بالمكروه، ويُظهرُ عيوبَهم، ويَكسِرُ أعراضَهم، كأنَّه يَضربُهُم بأذاهُ إيّاهم"[2].

دلالةُ الاقترانِ بين ﴿حَلَّافٍ﴾ و﴿مَّهِينٍ﴾ و﴿هَمَّازٍ﴾:

العيّاب مُهانٌ كذّاب

جمعَ النَّظمُ بين الأوصافِ المُترابطة بعضِها ببعض، والمُنسجمةِ والمتناسقةِ في الواقعِ والحقيقة، وذلك في قوله تعالى: ﴿حَلَّافٖ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٖ﴾؛ إذِ (الحلّاف) يعمَدُ إلى الحَلفِ الكثيرِ تَسويقًا لكذبِه، وهو ﴿مَّهِينٍ﴾ بينَ النّاس مُحتقَرٌ لكذبِهِ وضَعفِ رأيِهِ وفَسادِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 72.

(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 88.

تدبيره، ومِن ثَمَّ يَلجأُ إلى الهَمْزِ والانتقاص من النّاس وإثارةِ العُيوب واختلاقِها عليهم؛ لَمهانتِهِ وصَغارِ مَقامِهِ ومَكانتِهِ بينهم، فهو العيّابُ المُنتقِصُ لشعورِهِ بالامتهانِ والمَذلَّة، قال المصطفويُّ: "الحَلِف آيةُ مَهانةٍ في الرَّأي، وضعفٍ في التَّفكُّر، ثمَّ يبلغُ إلى الضُّرِّ والتَّعييبِ وسوءِ النَّظَر والظَّنِّ، ثمَّ يبلغُ إلى مقام العمل، ويظهرُ في الخارج بصورةِ المَشْيِ في إشاعةِ النَّميمة"[1]، فالاقترانُ بينَ الثَّلاثة ارتقائيٌّ.

دلالةُ النَّعت ﴿مَّشَّآءِۭ﴾ مادَّةً وصيغةً:

إشاعةُ الأخبار الفاسِدة للصَّدِّ عن الدَّعوةِ الرَّاشِدة

عبَّر النَّظمُ بخصلةٍ رابعةٍ من خِصال المَنهيِّ عن طاعتِهِم، في قولِهِ تعالى: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ﴾؛ للدَّلالةِ على السَّعي الكثيرِ والعمَلِ المُتواصِلِ في إفسادِ العلاقاتِ بين النّاس، وتدلُّ صيغةُ المبالغة مِن اسم الفاعل على كثرةِ المَشْيِ بالنَّميمة حتّى صارَ عادةً فيهم، وبرنامجًا مُعتمدًا يتكلَّفون له، ويَسعَونَ إليه، فيُفيدُ اللُّزومَ والمبالغةَ وعدمَ الانفكاك، وفي اختيارِ مادَّةِ (المشي) الدّالَّة على الحركةِ والنُّهوضِ بالأمر ما يدلُّ على رغبةٍ قويَّةٍ في ذلك العمَل، فهو يَسعى بالنَّميمة، ويَنطلِقُ بها، قال المصطفويُّ: "والتَّعبيرُ بالمشي، فإنَّه أتمُّ وسيلةٍ في إعمالِ النَّميمةِ وإشاعتِها، ولا سيَّما بصيغةِ المبالغةِ الدّالَّةِ على كثرةِ المَشْيِ في إجرائها"[2]، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ المشّائين بالنَّميمة في رسولِ اللّه ﷺ كانوا حريصينَ على نقلِ الكلامِ الفاسِدِ عنه، إلى الرّاغبينَ في الدُّخول في دينِهِ ودعوتِهِ؛ ليَصدّوا النّاسَ عنه، فيَمشون بين النّاس ناقلينَ لهم العيوبَ المُختلَقة والأخبارَ المُلفَّقة مُعتمدينَ على الحَلِف الكثيرِ الكاذب، وهم يَمتهِنون أنفسَهم بذلك الكذبِ والهَمْزِ والسَّعْيِ بالنَّميمة.

---

(1) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 11/ 112.
(2) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 12/ 274.

دلالةُ العُدول عن (نمّام) إلى ﴿مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ﴾:

النَّمّامُ أخفُّ حالًا من المشّاءِ الهَدّام

عدلَ النَّظمُ القرآنيُّ الكريمُ عن التَّعبيرِ بلفظِ (نمّام) إلى ﴿مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ﴾؛ للدَّلالةِ على حركتِهم في هذا العمَلِ وسعيهم الدَّؤوبِ إليه، بخلافِ (النمّام) الدّالِّ على كثرةِ النَّمِّ والنَّقلِ للإخبارِ من دونِ حركةٍ ونُهوضٍ بالأمرِ وسَعْيٍ إليه بكلِّ إقدامٍ وحَركة، فلم يَرضَوا بأن يَنقُلوا الأخبارَ بغيةَ الإفسادِ، وهُم ماكِثونَ في أماكِنهم.

دلالةُ الاستعارةِ في ﴿مَّشَّآءِۭ﴾:

تنزيلُ المعنويّات منزلةَ الحسّيّات أوضَحُ في فهمِ الدَّلالات

استعارَ النَّظمُ القرآنيُّ ﴿مَّشَّآءِۭ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ﴾؛ للدَّلالة على النَّمّامِ المُبالغِ في نَمِّهِ؛ إذ شبَّهَ حالَ النَّمّامِ الَّذي يَسعى جاهدًا في تحقيقِ ما يُريدُهُ، ويتعَبُ من أجلِ الإفسادِ بحالِ مَن يَمشي، ويتحرَّكُ نحوَ هدفِهِ المنشود، ثمَّ حذفَ المشبَّه، وأبقى المشبَّهَ به على سبيلِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّة، قال ابن عاشور: "المَشيُ استِعارَةٌ لِتَشويهِ حالِه؛ بِأنَّهُ يَتَجَشَّمُ المَشَقَّةَ لأجلِ النَّميمَةِ، مِثلُ ذِكْرِ السَّعيِ، في قَولِهِ تَعالَى: ﴿وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادٗاۚ﴾ [المائدة: 64]، ذَلِكَ أنَّ أسماءَ الأشياءِ المَحسوسَةِ أشَدُّ وقْعًا في تَصَوُّرِ السّامِعِ مِن أسماءِ المَعْقولات، فَذِكْرُ المَشيِ بِالنَّميمَةِ فيهِ تَصويرٌ لِحالِ النَّمّام، ألا تَرَى أنَّ قولَكَ: (قُطِعَ رَأْسُهُ) أوْقَعُ في النَّفسِ مِن قَوْلِكَ: (قُتِلَ)؟"(1).

مَعنى (الباء) المجازيِّ ودلالتُه على الاستعارة:

النَّمُّ المتحرِّك مفيدٌ السَّعيَ في الجُرمِ بشكلٍ مُتهالِك

عبَّرَ النَّظمُ بـ(الباءِ) في قولِهِ تعالى: ﴿هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّعديةِ حقيقةً، والإلصاقِ والمُصاحبةِ مجازًا؛ إذِ الفعلُ (مشى) لازمٌ، فلمّا دخلتِ (الباءُ)؛ تعدّى بها إلى المَمشيِّ به، أي: جَعَلَ النَّمامُ النَّميمَ ماشيًا، وصيَّرَهُ مُصاحِبًا له في المَشْيِ مُلتصِقًا به، وفي خَلعِ المَشْيِ على النَّميم، وهو الخبرُ المنقولُ بغيةَ الإفسادِ إشارةٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 73.

إلى استعارةٍ مكنيَّة؛ إذ شبَّه النَّميمَ بذاتٍ تقبلُ المشيَ والحركة، ثمَّ حذفَه، وأبقى من خواصِّه ولوازمِه المشيُ المتعدّي بالباءِ الدّالَّةِ على المُصاحَبة؛ إذِ المَشيُ يكونُ بذاتٍ تقبلُ المشيَ، وأمّا المَشيُ بالنَّميمةِ أو الفتنةِ ممّا لا يقبلُ ذلك؛ فمبنيٌّ على التَّشبيهِ الاستعاريِّ، ووظيفةُ الاستعارة المبالغةُ في عملِ النَّميمة، حتَّى كأنَّها تَمشي، وتتحرَّكُ صوبَ الهدف، وتُصاحِبُ النَّمّام أينَما حلَّ، وارتحلَ.

دلالةُ (نَميم) مادَّةً وصيغةً:

المُبالغةُ في الإفساد خروجٌ عنِ النَّسقِ المُعتاد

عبَّر النَّظمُ بلفظِ (نَميم) في قولِه تعالى: ﴿هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ﴾؛ للدَّلالةِ على الخبرِ المَنقول إلى النّاس بقصدِ الإفساد، و"النَّمُّ يُستعمَلُ مَصدرًا كالضَّرب، وصفةً كالصَّعب، وإذا أُريد منها الوصفُ كالنَّميم والنُّموم يُستعمَلُ لازمًا، ويرادُ منه القولُ الَّذي يُنقَلُ بعنوانِ الوِشاية، ومُتعدّيًا، ويُرادُ منه الشَّخصُ النَّمّام"[1]، فاختارَ النَّظمُ لفظَ (نميم)؛ لإرادةِ الخبرِ المُكتنِزِ بالنَّمِّ مبالغةً، فهو فعيلٌ بمعنى مفعول، وتُفيدُ الصّيغة تَحقُّقَ النَّمِّ في جميعِ جوانبِ الكلامِ، فكأنَّه ينقلُ النَّمَّ بعينِه مُبالغةً، ويحتملُ أنَّ (النَّميم) جمعُ نميمةٍ، فيكونُ مُكثِرًا مَنَ المَشي ومُكثِرًا من النَّميمةِ معًا[2].

دلالةُ النَّعتِ ﴿مَّنَّاعٖ﴾ مادَّةً وصيغةً:

كثرةُ المنعِ سببٌ للقطيعةِ والقَطْعِ

عبَّرَ النَّظمُ بصيغةِ فعّال ﴿مَّنَّاعٖ﴾، في قولِه تعالى: ﴿مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ﴾؛ للدَّلالة على المبالغةِ والكثرةِ في الصَّدِّ عن الخيرِ والوقوفِ ضِدَّه؛ إذ ﴿مَّنَّاعٖ﴾ مبالغةٌ من (مانِع)، ويُفهَمُ من المادَّة أنَّه لا يَكتفي بالبخل، بل يمنعُ غيرَه من الكرَم أوْ من وُصولِ الكرم والخيرِ إليه، فيقفُ حائِلًا وعائقًا بطريقِ ما فيه منفعةٌ لغيره، فهو صادٌّ على سبيلِ اللّه، مانعٌ من وصولِ الدَّعوة للنّاس، محاربٌ للّه

(1) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 12/ 274.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 73.

تعالى ودعوتِهِ الَّتي هي خيرٌ محضٌ، ومنِ اتَّصفَ بهذه الصِّفة لا يُطاعُ، ولا يُستجابُ له فيما يُريد.

المُـكـذِّبُ بـينَ الأعمالِ القوليَّة والأعـمـالِ الفعليَّة

دلالةُ الاقترانِ بينَ (الهمّاز) و(المشّاء) و(المنّاع):

قرنَ النَّظمُ في الآيتينِ بينَ (الهمّاز المشّاء) وبينَ (المنّاع)، في قوله تعالى: ﴿هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ ١١ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ﴾؛ للدَّلالةِ على الانتقالِ منَ الخِصال المتعلِّقة بالجانبِ اللَّفظيِّ إلى الخِصال المتعلِّقة بالجانبِ الفعليِّ العمليِّ، فهو لا يَكتفي بكثرةِ الحَلِفِ الكاذبِ الَّذي يَجعلُه مَهينًا في نفسِهِ، بل يقدحُ في الآخرينَ أو في صاحبِ الدَّعوة ﷺ بالهَمْزِ والسَّعيِ بالنَّميمة، بل ينتقلُ إلى الفعلِ والحركةِ والصَّدِّ عن سبيل اللّه والمَنعِ من وُصولِ الخير إلى مَن يُريد الإصغاءَ والاستماعَ للدَّعوةِ وبرنامَجِها النّافِع.

المُـبـالـغـةُ في الـصُّـدودِ والـوقـوفُ أمامَ الخيرِ كالسُّدود

مَعنى (اللّام) والغرضُ منها في ﴿لِّلۡخَيۡرِ﴾:

عبَّرَ النَّظمُ بـ(اللّام)، في قولِهِ تعالى: ﴿مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ﴾؛ للدَّلالة على تقويةِ التَّعديةِ ممّا يُفيدُ الحرصَ الشَّديد من المُتَّصفِ بهذه الخَصلة على الحيلولةِ بينَ الخيرِ والنّاس؛ إذِ الفعلُ (منعَ) يتعدَّى بنفسِهِ، فلمّا دخلتِ (اللّام)؛ أفادَتْ تقويةَ التَّعديةِ والمبالغةَ في فعلِ المنع تركيبيًّا، كما أفادتِ المبالغةُ في الصّيغة صرفيًّا.

التَّركيزُ على الذَّمِّ موجِبٌ للاقتصارِ على الأهمِّ

حذْفُ المفعولِ بِهِ الأوَّل (الناس):

حذفَ النَّظمُ الكريمُ المفعولَ به الأوَّل، في قولِهِ تعالى: ﴿مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ﴾، فلم يقل: (منّاعٌ النّاسَ الخيرَ)؛ لأنَّ المقصود ذَمُّه بصفةِ المَنعِ والصَّدِّ والبُخل، دونَ ذكرِ مَن يمنَعُهُ، قال الطَّيبيُّ: "فذُكِرَ الممنوعُ منهُ، أي: الخير، دونَ الممنوعِ، أي: الأهل؛ وذلك أنَّ القصدَ ذَمُّهُ، وأنَّه ممَّن يمنعُ الخير، وليس القصدُ أنَّ الممنوعَ مَن هو؟ نحوُ: (شُتِمَ الأميرُ، وقُطِعَ اللِّصُّ)"[1].

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 576.

دلالةُ الاستعارةِ والكنايةِ في المتعلِّق ﴿لِّلۡخَيۡرِ﴾:

الدّينُ الإسلاميُّ كمالٌ ونورٌ إلهيٌّ

استعارَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ (الخير)، في قولِه تعالى: ﴿مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ﴾؛ للدَّعوةِ والدّين الجديد؛ إذ شبَّه الدَّعوةَ والدّينَ الإسلاميَّ بالخيرِ القادِمِ للنّاس، ثمَّ حذفَ المشبَّهَ، وأبقى المشبَّهَ به على سبيل الاستعارةِ التَّصريحيَّة، والغرضُ منها بيانُ حقيقةِ (المنّاع)، الَّذي يقفُ بوجهِ الدَّعوة؛ ليمنعَ من وصولِها لآذانِ النّاس من خلالِ نشرِ الأكاذيب وإلقاءِ الاتّهامات الباطلة، ويحتملُ لفظُ (الخير) أنْ يكونَ بمعنى (المال)، فيكونَ المذمومُ بهذه الخصلةِ مَنّاعًا للمال، ومن ثَمَّ فهو كنايةٌ عن ذَمِّهِ بالبُخل والتَّقتير، قالَ الطَّيبيُّ: "والفرقُ أنَّ المنّاعَ في الوجهِ الثّاني يُحِبُّ الخيرَ، أي: المالَ، ويَمنعُهُ منَ النّاس، وفي الأَوَّلِ يبغضُ الخيرَ، أي: الإسلامَ، ويمنَعُ النّاسَ منه"[1]، ومن ثَمَّ يكونُ الوجهُ الأَوَّلُ أرجحَ من الثّاني؛ لأنَّه يجمَعُ بينَ بُغضِ الإسلامِ والمَنع، وهذا ما تُرشِّحُهُ قرينةُ المُبالغة في الصّيغة ﴿مَّنَّاعٖ﴾.

دلالةُ (أل) والعُموم في (الخير):

المُكذِّبونَ بالدّين يَمنَعونَ عن كلِّ خيرٍ وجميل

اختارَ النَّظمُ لفظَ (الخير)، في قولِه تعالى: ﴿مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ﴾؛ للدَّلالة على العُموم؛ لما في (أل) من الاستغراقِ، ولما في لفظ (خير) من تحقُّقٍ في صوَرٍ عديدة، فالإسلامُ خيرٌ والمالُ خيرٌ، والله تعالى خيرٌ، والأعمالُ الصّالحة خيرٌ، فكان اختيارُ لفظٍ عامٍّ يتحقَّقُ في مَصاديقَ مُتعدِّدة معَ تعريفِهِ بـ(أل) الاستغراقيَّة، مُتناسِقًا معَ صيغةِ ﴿مَّنَّاعٖ﴾؛ للمبالغةِ في المنع لكلِّ صور الخير، فتكون هنالك مبالغةٌ في الكَمِّ والكيفِ معًا، قال أبو حيّان: "والظّاهِرُ أنَّ الخيرَ هُنا يُرادُ بِهِ العُمومُ فيما يُطلَقُ عَلَيه خَيرٌ"[2].

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 576.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 238.

دلالةُ النَّعت بـ ﴿مُعۡتَدٍ﴾ مادَّةً وصيغةً:

المُبالغةُ في العُدوان سِمَةٌ لأهلِ التَّكذيبِ والطُّغيان

نعتَ النَّظمُ الكريم المنهيَّ عن طاعتهم بخصلةٍ سادسةٍ، وهي ﴿مُعۡتَدٍ﴾ في قولِه تعالى: ﴿مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ﴾؛ للدَّلالة بمادَّته على العُدوان وتجاوُزِ الحدِّ في الاعتداءِ والإيذاء، كما تُفيدُ الصّيغةُ (افتعل) دلالةَ المبالغةِ في العُدوان مع ملازمةٍ وعدم انفكاكٍ له عنه، حتّى كأنَّه يمارِسُه على سبيلِ الاستمرارِ، قال ابنُ عاشور: "مُبالَغَةٌ في العُدوانِ، فالافتِعالُ فيهِ؛ لِلدَّلالَةِ على الشِّدَّةِ"[1].

دلالةُ النَّعت بـ ﴿أَثِيمٍ﴾ مادَّةً وصيغةً:

صيرورةُ الوَصفِ كالاسمِ لمُبالغتِه في الإثْمِ

نعتَ النَّظمُ الكريم المنهيَّ عن طاعتِهم بخصلةٍ سابعةٍ، وهي ﴿أَثِيمٍ﴾، في قولِه تعالى: ﴿مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ﴾؛ للدَّلالة على المُبالغة في الإثم حتَّى كأنَّه مُتلبِّسٌ به لا ينفكُّ عنه، وأفادَت صيغةُ المبالغةِ حالةَ الحِرصِ على اكتسابِهِ الإثمَ والعملَ بالآثام، حتَّى اشتُقَّ له مِن لفظِه وصفٌ يُعرَفُ به وعلامةٌ تُميِّزُه، قال ابن عاشور: "الأثيمُ كَثيرُ الإثمِ، وهوَ فَعيلٌ مِن أمثِلَةِ المُبالَغَةِ، قالَ تَعالَى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ ٱلۡأَثِيمِ ۝٤٤﴾ [الدُّخان: 43 - 44]"[2]، وكلُّ ما سبقَ ذكرُهُ من الخصالِ السّابقة أفرادٌ للإثم، فيكون ذكرُ (الأثيم)؛ للدَّلالة على خصالٍ أُخرى اتَّسمَ بها، ولذا قال القونويُّ: "﴿أَثِيمٍ﴾ أي: بغيرِ ما ذُكِرَ أيضًا، كأنَّه تعميم بعد التَّخْصيص"[3].

دلالةُ الطِّباق بينَ ﴿مَّنَّاعٖ﴾ و﴿مُعۡتَدٍ﴾ و﴿أَثِيمٍ﴾:

الجمعُ بينَ الأضدادِ تصويرٌ للحِرصِ على الإبعادِ

استعملَ النَّظمُ أسلوبَ (الطِّباق) البديعي، في قوله تعالى: ﴿مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ﴾؛ إذ جمعَ بينَ وصفَي ﴿مَّنَّاعٖ﴾ و﴿مُعۡتَدٍ﴾، وبينهما طباقُ التَّرجيعِ والتَّقديم؛ إذِ المنّاعُ هو الَّذي يحولُ بينَ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 73.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 74.

(3) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 228.

وصولِ شيءٍ إلى آخر، فهو اسمٌ دالٌّ على الإعاقةِ للخير والإبقاءِ لهُ في محلِّه في حركةٍ تمنعُهُ، وتصدُّهُ؛ إذِ (المنّاع): "من منعَ مَعروفَهُ عنهُ؛ إذا أمسَكَهُ"[1]، وأمّا ﴿مُعۡتَدٍ﴾؛ فهو دالٌّ على حركةٍ تؤدّي إلى إيصالِ العدوان للآخر وإنزالِ الإيذاءِ به، فهو ضِدُّ الإمساكِ، وكذا بينَ ﴿مُعۡتَدٍ﴾ و﴿أَثِيمٍ﴾؛ إذِ الاعتداءُ حركةٌ توصِلُ الإيذاءَ والعُدوان، و(الأثيمُ) حالةٌ نُكوصيَّةٌ تراجعيَّة، قال المصطفويُّ: "والأصلُ في هذه المادَّة: هو البُطْءُ والتَّأخُّرُ للخير"[2]، فدلَّ التَّضادُّ في العناصر والمكوِّنات على الحرصِ الشَّديد على الإيذاءِ والعُدوانِ والمَنعِ للخيراتِ بكلِّ الحركاتِ والصّوَر.

دلالاتُ الاقترانِ بينَ الخِصالِ المذكورة:

التَّـدرُّجُ والارتقاءُ سِرُّ جمعِ الصِّفاتِ والأسماء

قرنَ النَّظمُ في الآيةِ مِن قوله تعالى: ﴿مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ﴾، بين خصالٍ مُترابطةٍ، فهو يمنعُ الخيرَ كثيرًا، ويصدُّ عنه، وعندما يقومُ بذلك، فهو مُعتدٍ مُتجاوزٌ على حقوقِ الآخرين في الإصغاءِ والاستماع للنَّبيِّ الكريم ﷺ، وكلُّ من منعَ الخير، واعتدى؛ فهو أثيمٌ؛ لمبالغتهِ في العُدوان، فقد بالغَ في الإثم والاتِّصاف به، قال أبو حيّان: "وَجاءَتْ هَذِهِ الصِّفاتُ صِفاتَ مُبالَغَةٍ، ونوسِبَ فيها، فَجاءَ ﴿حَلَّافٖ﴾ وبَعْدَهُ ﴿مَّهِينٍ﴾؛ لِأنَّ النّونَ فيها مَعَ الميم تَواخٍ، ثُمَّ جاءَ: ﴿هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ﴾ بِصِفَتَي المُبالَغَةِ، ثُمَّ جاءَ: ﴿مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ﴾، فَمَنّاعٌ وأثيمٌ صِفَتا مُبالَغَةٍ"[3]، فيتحقَّقُ الاقترانُ على مُستوى المعنى والإيقاعِ مَعًا.

دلالةُ النَّعت بـ ﴿عُتُلِّۭ﴾ مادَّةً وصيغةً:

مِن شأنِ الصّادّين عن الخَير الغِلظةُ في الطَّبع والقَسوةُ مع الآخر

ذكرَ النَّظمُ الكريم خصلةً ثامنةً من خِصال المنهيِّ عن طاعتِهم، وهو (العُتُلُّ)، في قولِه تعالى: ﴿عُتُلِّۭ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾؛ للدَّلالة على

(1) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 10/ 1529.
(2) المصطفوي، التّحقيق في كلمات القرآن: 1/ 30.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 238.

سببِ النَّهي عن طاعةِ المُتَّصِف بهذا الخُلُق السَّيِّئ، قال ابنُ عاشور: "وَفُسِّرَ (العُتُلُّ) بِالشَّديدِ الخِلْقَة، الرَّحيب الجَوْف، وبالأكول الشَّروبِ، وبالغَشومِ الظَّلوم، وبالكَثيرِ اللَّحم، المُخْتالِ"[1]؛ إذ مَن اتَّصف بهذه الصِّفات الخِلْقيَّة والخُلُقيَّة لا يصلحُ أن يوافَقَ على أمرٍ، أوْ يُعاوَنَ في مقصودٍ فضلًا عن طاعتِهِ، قالَ بعضُهم: "وإنَّما نهى سُبحانَهُ عن طاعةِ (العُتُلِّ)، وجعلَ غِلظتَهُ أشدَّ مَعايبِهِ؛ لأنَّه لقسوةِ قلبِهِ وغِلَظِ طَبْعِهِ يَجترئُ على كلِّ مَعصيةٍ"[2]، وتفيدُ البِنيةُ المبالغةَ في تلك الأوصافِ المَقيتة الَّتي تتحوَّلُ لكثرتِها في المتَّصِف بها إلى طبعٍ قاسٍ وقلبٍ غليظٍ ونفسٍ جافية، فيُغلِظُ بالقول، وهو يَصُدُّ عن الخيرِ، ويمنَعُ منهُ، قال ابنُ عاشور: "وعلى تَفْسيرِ (العُتُلِّ) بِالشَّديدِ الخِلْقَةِ والرَّحيبِ الجَوْفِ يَكونُ وجْهُ ذِكْرِهِ أنَّ قَباحَةَ ذاتِهِ مُكَمِّلَةٌ لِمَعائِبِهِ؛ لأنَّ العَيْبَ المُشاهَدَ أجْلَبُ إلى الاشمِئْزازِ، وأوْغَلُ في النُّفْرَةِ مِنْ صاحِبِهِ"[3]، فليس ذِكرُ الأوصافِ الخِلقيَّة لذاتِها يستحِقُّ الذَّمَّ، بل لما يقترنُ بها من أوصافٍ خُلُقيَّةٍ تُلازِمُها عادةً.

دلالةُ الاقترانِ بينَ (العُتُلِّ) و(المَنّاع المُعتدي الأثيم):

العنفُ في الطَّبعِ والكَلامِ مِن سِماتِ المُكذِّبين اللِّئام

قرنَ النَّظمُ الكريم بينَ الخِصال الواردةِ، في قولِهِ تعالى: ﴿مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ﴾، والوصفِ ﴿عُتُلِّۭ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ الصّادَّ عن سبيلِ اللّه لا يكتفي بمُجرَّد الصَّدِّ والاعتداءِ والوقوعِ في الإثم والرُّجوعِ عن الحقِّ، بل يَمتلكُ طبْعًا غليظًا، ونفْسًا قاسيةً، وروحًا مُؤذيةً، وعجرفةً لفظيَّةً، وعنفًا لغويًّا، يُحقِّقُ من خلالِها هدفَهُ في الصَّدِّ عنِ السَّبيل، قال السَّمين: "العُتُلُّ: هو الشَّديدُ الخُصومة الجافي الضَّريبةِ اللَّئيم، وقالَ ابنُ عرَفة: هو الفَظُّ الغليظُ الَّذي لا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 74.
(2) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 10/ 1529.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 74، 75.

ينقادُ لخيرٍ، وقيل: هو الجافي الغليظُ، وقيلَ: الأكولُ المَنوع؛ لأنَّه يَعتِلُ الماءَ عَتْلًا"[1].

دلالةُ الظَّرف ﴿بَعۡدَ﴾ على البعديَّة المَجازيَّة:

تَظافُرُ الرَّذائل في المُكذِّبِ الكافِر

عبَّرَ النَّظمُ بالظَّرف ﴿بَعۡدَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿عُتُلِّۭ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾؛ للدَّلالة على البَعديَّة المجازيَّة؛ إذ لم يُقصَدْ بها التَّأخُّرُ الزَّمنيُّ في الاتِّصاف بها، بل أُريدَ التَّأخُّرُ الرُّتَبيُّ، بحيثُ تُضافُ صفةٌ أُخرى إلى تلك الصِّفات السَّيِّئة؛ لتزيدَ من قَتامةِ أوصافِ المنهيِّ عن طاعتِه، قال الحنبليُّ: "فهذا التَّرتيبُ إنَّما هو في قولِ الواصِف، لا في حُصولِ تلك الصِّفات في المَوصوف"[2]، فهو بعدَ كلِّ تلك الرَّذائلِ تُضافُ رذيلةٌ أُخرى يكونُ مُتَّصِفًا بها، قال ابن عاشور: "ومَعْنَى ﴿بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾: علاوَةً على ما عُدِّدَ لَهُ مِنَ الأوْصاف هوَ سيِّئُ الخِلقَة سيِّئُ المُعامَلَة، فالبَعْديَّةُ هُنا بَعْديَّةٌ في الارْتِقاءِ في دَرَجاتِ التَّوصيفِ المَذْكورِ، فَمُفادُها مُفادُ التَّراخي الرُّتَبيِّ"[3]، فهذه "البعديَّة في الرُّتبة لا في الخارجِ، قال أبو السُّعود: وفيه دلالةٌ على أنَّ دعوتَهُ أشدُّ مَعايبِهِ وأقبحُ قبائِحِه"[4]، وقيل: إنَّ ﴿بَعۡدَ﴾ هنا في موضع (معَ)، ومنهُ قولُهم: (أنتَ أحمقُ، وأنتَ بعدَ هذا سيِّئُ الخُلُقِ)[5].

دلالةُ الإضافةِ في ﴿بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾:

تعظيمُ الأوصافِ الحَقيرة دالٌّ على أنَّها أفعالٌ شَنيعة

أضافَ النَّظمُ الظَّرفَ ﴿بَعۡدَ﴾ إلى اسمِ الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾، في قولِهِ تعالى: ﴿عُتُلِّۭ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾؛ للدَّلالةِ على تعيينِ البَعديَّة بتلك الأوصافِ المَذكورة، فهي بَعديَّةٌ مجازيَّة مُعيَّنة، بكونِها بعدَ تلك الأوصافِ المُشارِ إليها، وإنَّما كانتِ البَعديَّةُ مجازيَّةً: "لأنَّ هذا

---

(1) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 3/ 28.
(2) الحنبليّ، فتح الرّحمن: 7/ 126.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 74.
(4) الشّوكانيّ، فتح القدير: 14/ 261.
(5) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 537، وابن عادل، اللّباب في علوم القرآن: 20/ 144.

التَّرتيبَ إنَّما هو في قولِ الواصِفِ، لا في حُصولِ تلك الصِّفات في الموصوف، وإلّا فكونُه عُتُلًّا هو قبلَ كونِه صاحبَ خيرٍ يَمنعُهُ"(1)، واختارَ اسمَ الإشارةِ الدّالَّ على البُعد مع قُربها، فلم يقل: (بعدَ هذهِ)؛ للدَّلالةِ على تفخيم شأنِ تلك الأوصافِ في الجُرم والشَّناعة، ولذا ذكَّرها، ولم يقُل: (تلك)(2).

موقعُ ﴿بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾ في الآية:

التَّوضيحُ والبَيان للاتِّصافِ بهذا العُنوان

أوقعَ النَّظمُ التَّركيبَ الظَّرفيَّ ﴿بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾، في قولِه تعالى: ﴿عُتُلِّۢ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾؛ إمّا في مَوقعِ الاعتراضِ بينَ المبتدأ والخبر، والتَّقدير: (وهو بعدَ ذلك زنيمٌ)، وفائدةُ الاعتراضِ التَّوضيحُ والبيانُ للاتِّصاف بهذا العنوانِ الَّذي زادَ، وانضافَ على سائرِ العُنوانات، وإمّا على أنَّه مُتعلِّقٌ بـ﴿زَنِيمٍ﴾ متقدِّمٌ عليه؛ للدَّلالة على الحاليَّة، والتَّقدير: (وهو زنيمٌ حالَ كونِه بعدَ الأوصافِ السّابقة)(3).

التَّغايرُ الإعرابيُّ في ﴿زَنِيمٍ﴾ معَ الأوصافِ السّابقة:

تغييرُ النَّظم للدَّلالة على اختلافِ الحُكم

عبَّر النَّظمُ الكريم عن خصلةِ ﴿زَنِيمٍ﴾ بالرَّفع خبرًا لمُبتدأ محذوفٍ، في قولِه تعالى: ﴿عُتُلِّۢ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾؛ مُغايرًا لكلِّ تلك الأوصافِ السّابقة الواقعةِ مجرورةً بالإضافةِ لِلَفظِ ﴿كُلَّ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ تلك الخصالَ اختياريَّةٌ عندَ المُكذِّبين إلّا الخَصلةَ التّاسعة، فإنَّها جبلّيَّةٌ؛ بناءً على أنَّ الدَّعيَّ هو المشكوكُ في نِسبتِه، فهو وصفٌ خَلْقيٌّ لا اختيارَ للمُكذِّب فيه، لكنَّه ذُكِرَ؛ للدَّلالة على أثرِ النَّقص في التَّلبُّس بتلك الأعمالِ الشَّنيعة، "وإنَّما نَهى عن طاعةِ الدَّعيِّ؛ لأنَّ الغالبَ أنَّ النُّطفةَ إذا خَبُثَتْ؛ خَبُثَ النّاشئُ منها"(4)، أوْ للدَّلالة على أنَّ كلَّ تلك الأوصافِ كانت بسببِ هذا الوَصف، قال المُصطفويُّ:

---

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 90.

(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 578.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 75.

(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 605، ومجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 10/ 1530.

"فالزَّنيمُ الَّذي ليسَ له استقلالٌ في نفسِهِ واعتمادٌ عليها، بل يَعتمدُ على الحَلف وتضعيفِ النّاس وتعييبِهم، والاعتداءِ عليهم حتّى يتقوَّم بها، وهو غليظٌ مُتعنِّف، وليسَ له قوامٌ واستقرارٌ بنفْسِهِ وبصفاته الذّاتيَّة وأخلاقِه وعملِه"[1].

دلالةُ النَّعت ﴿زَنِيمٍ﴾ مادَّةً وصيغةً:

مَـنِ اتَّـصـفَ بـالاسـتـقـلال أحـقُّ بالطّاعةِ والامتثال

عبَّرَ النَّظمُ عنِ الخصلة التّاسعةِ من صفاتِ المنهيِّ عن طاعتِهم بـ﴿زَنِيمٍ﴾، في قولِه تعالى: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾؛ للدَّلالة إمّا على عدمِ المُبالغة، ويكون المقصودُ الاتِّصافَ باللُّصوقِ إلى غيرِ أهلِه؛ لكونِه دَعيًّا أوْ حليفًا لقومٍ آخَرين، قال السَّمين: "الزَّنيم: الدَّعيُّ في القوم، أي: المُعلَّقُ والمُلصَقُ بهم، وليس منهم، تشبيهًا بزنَمَتَي شاةِ المَعْز؛ لأنَّ في عُنُقِها زَنَمتَين تُعرَفُ بهما، فكذلك هذا جعلَ اللّهُ عليه علامةً يُعرَفُ بها أنَّه لصيقٌ في قُريش"[2]، وإمّا للدَّلالة على المُبالغة في عدمِ الاعتمادِ على ذاتِه في الأمور؛ فيَلجأ إلى أوصافٍ مقيتة؛ ليُثبِتَ وُجودَه، وعلى كلِّ حال فإنَّ الصّيغة تحتملُ الاسميَّة والوصفيَّة، ودلَّتِ المادَّة على اللُّصوق بغيره، فالزَّنيم هو: "اللَّصيقُ، وهوَ مَنْ يَكونُ دَعيًّا في قَوْمِهِ لَيسَ مِنْ صَريحِ نَسَبِهِم؛ إمّا بِمَغْمَزٍ في نَسَبِهِ، وإمّا بِكَونِهِ حَليفًا في قَومٍ أو مَولى، مَأْخوذٌ مِنَ الزَّنَمَةِ - بالتَّحريكِ - وهيَ قِطْعَةٌ مِن أُذُنِ البَعيرِ لا تُنْزَعُ، بَل تَبقى مُعَلَّقَةً بالأُذُنِ عَلامَةً عَلَى كَرَمِ البَعيرِ، والزَّنَمَتانِ بِضْعَتانِ في رِقابِ المَعْزِ"[3]، أو دلَّت على ما "ليسَ لَهُ استقلالٌ في نفسِهِ واعتمادٌ عليها، بل يعتمدُ على الحَلف وتضعيفِ النّاس وتعييبِهم والاعتداءِ عليهم حتّى يتقوَّم بها، وهو غليظٌ مُتعنِّف، وليس له قوامٌ واستقرارٌ بنفسِهِ وبصفاتِه الذّاتيَّة"[4].

(1) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 4/ 338.
(2) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 2/ 149.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 75.
(4) المصطفوي، التّحقيق في كلمات القرآن: 4/ 338.

ويترجَّحُ الثّاني؛ لأنَّ القرآنَ الكريمَ لا يُعيِّرُ الإنسانَ بما لا اختيارَ له فيه، بخلافِ المعنى الثّاني الدّالِّ على ضعفٍ في الشَّخصيَّة الرّاجع إلى اختياريّاتٍ؛ فكيفَ يُطاع؟.

﴿زَنِيمٍ﴾ بينَ الرَّمزِ والعُموم:

الرَّمزُ في الكلام دِلالةُ عُمومٍ في الأفهام

عبَّرَ النَّظمُ القرآنيُّ بلفظِ ﴿زَنِيمٍ﴾، في قولِه تعالى: ﴿عُتُلِّۭ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾، ويحتملُ أنَّ المرادَ به وصفُ شخصٍ مخصوص لا يصدُقُ على غيره، فقيل: إنَّ المرادَ به: "الوَليدُ بْنُ المُغيرَةِ؛ لِأنَّهُ ادَّعاهُ أبوهُ بَعدَ ثَماني عَشْرَةَ سَنَةً مِن مَوْلِدِه، وقيلَ: أُريدَ الأَخْنَسُ بْنُ شُريقٍ؛ لِأنَّهُ كانَ مِنْ ثَقيفٍ، فَحالَفَ قُرَيْشًا، وحَلَّ بَينهُم"[1]، وهذا التَّخصيصُ يَتناسبُ معَ تفسيرِ (الزَّنيم) بالدَّعيِّ واللَّصيق، وأمّا لِو اعتمدْنا معنى الضَّعفِ في الشَّخصيَّة وعدم الرّوح القياديَّة، فإنَّه يكون عامًّا ومُتناسِبًا مع الكلّيَّة في أوَّل الأوصاف عندَ قولِه: ﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ﴾، ولذا لجأ مَن فسَّر (الزَّنيم) باللُّصوق إلى إرادةِ التَّعميم، قال ابنُ عطيَّة: "وظاهرُ اللَّفظ عمومُ مَن بهذه الصِّفة، والمُخاطبةُ بهذا مستمرَّةٌ باقي الزَّمن"[2]، فهو لفظٌ خاصٌّ عندَهُ أُريدَ به العمومُ؛ ليكونَ رَمزًا على كلِّ مَنِ اتَّصف بضَعفِ النَّسب وقلَّة المَكانة الاجتماعيَّة، قالَ ابنُ عاشور: "وَأيًّا مّا كانَ المُرادُ بِهِ؛ فَإنَّ المُرادَ بِهِ خاصٌّ، فَدُخولُهُ في المَعْطوفِ عَلَى ما أُضيفَ إلَيْهِ ﴿كُلَّ﴾، إنَّما هوَ عَلَى فَرْضِ وُجودِ أمْثالِ هذا الخاصِّ، وهوَ ضَرْبٌ مِنَ الرَّمْز"[3].

دلالةُ الاقترانِ بينَ (العتُلّ) و(الزَّنيم):

التَّعبيرُ بالأوصافِ الخَلْقيَّة للانصرافِ عن المُتابعة الفعليَّة

جمعَ النَّظم الكريمُ بينَ هاتين الخَصْلتين، في قوله تعالى: ﴿عُتُلِّۭ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾؛ لكونِهما صفتينِ خَلْقيَّتينِ على بعضِ التَّفاسير، فالأولى: الشَّديدُ الخَلْقِ الرَّحيبُ الجوفِ الأكولُ الشَّروب، والثّانيةُ:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 75.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 90.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 75.

الدَّعيُّ وابنُ الزِّنى، أوْ ما لهُ علامةٌ في أُذُنِه يُعرَفُ بها، وتصدَّى الماتريديُّ للتَّعبيرِ بهما معَ أنَّهما صفتانِ خلقيَّتان بقوله: "ولقائلٍ أنْ يقولَ: إذا كان تأويلُ (العتلّ) ما ذُكِرَ في الخبرِ، والزَّنيم: الدَّعيُّ أوْ ما ذُكِرَ من العَلامة؛ فكيف عُيِّرَ بهذه الأشياء، ولم يكُن له في ذلك صنعٌ؟ فيُجابُ عن هذا من وجهين، أحدُهما: أنَّ ذِكرَه بما فيه من العيوبِ ليسَ لمكانِ المذكورِ نفسِه، ولكنْ لزَجرِ النّاس عنِ اتِّباعِه؛ لأنَّ مَنِ اشتملَ على العُيوب الَّتي ذكرها، وكانَ مع ذلك عُتُلًّا زَنيمًا، فأنفُسُ الخَلْقِ تأبى عنِ اتِّباعِه، ففائدةُ تعييرِه بما أُنشِئَ عليها ما ذَكرنا منَ الحِكمةِ، لا تعييرُهُ. والثّاني: أنَّ ذِكرَ أصلِه كنايةٌ عن سوءِ فعلِه؛ ليُعلَمَ أنَّ خُبثَ الأصلِ يَدعو الإنسانَ إلى تعاطي الأفعالِ الذَّميمة، وصحَّةَ الأصلِ وحُسنَهُ ونَقاوتَهُ يَدعو صاحبَه إلى مَحاسنِ الأخلاق وإلى الأفعالِ المَرضيَّة"[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الحَلفُ والقَسَمُ واليَمين:

الحَـلِـفُ أخـصُّ مـن الـقَـسَـم، والـيـمـينُ تـجـوُّزٌ فيهما

الحَلفُ هو الالتزامُ معَ القَسَمِ وبوسيلتِه، كما أنَّ القَسَمَ هو مجرَّدُ القَسَمِ من دونِ التزام، فكلُّ حَلفٍ قَسَمٌ، وليس كلُّ قَسَم حَلفًا، ولهذا المعنى يُطلَقُ الحَلفُ على العَهد والالتزام المُطلَقِ المُؤكَّد[2]، ويقال: بينَهما حِلْفٌ؛ لأنَّهما تحالَفا بالأيمان، ثمَّ يُطلَقُ على كلِّ شيءٍ لزِمَ شيئًا، فلم يُفارِقْهُ، فهو حليفُهُ، يقال: فلانٌ حليفُ الجودِ وحليفُ الإكثار[3]، ومِن ثَمَّ أوثِرَ في الآية على القَسَم؛ لأنَّه يُكثِرُ مِنَ الحَلف والالتزام، وهو في رأيِه وعهدِه مُتسامِحٌ هيِّنٌ، فلا يُعتمَدُ على قولِه، فهو يُبالغُ في الحَلف، ويُبالغُ في الالتزام؛ محاولةً منهُ لتصديقِه لما

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 10/ 143.
(2) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 2/ 251.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (حلف).

يُعلَمُ عنهُ مِن ضعفٍ في كلامِهِ وحُجَّته، وهنالك مَن فرَّقَ بينَ الحَلف والقَسَم في الاستعمالِ القرآنيِّ، فرأى أنَّ الغالب في مواطنِ الحَلف استعمالُهُ عندَ الكذب، وأنَّ الغالبَ في مواطنِ القَسَم استعمالُهُ عندَ الصِّدق، وأمّا اليمين؛ فهي في الأصلِ القوَّةُ والشِّدَّةُ، وسُمّي الحَلفُ يمينًا؛ لأنَّ المُتحالِفَينِ كأنَّ أحدَهما يَصْفِقُ بيمينِهِ على يمينِ صاحبِهِ[1]، واليدُ اليمنى فيها قوَّة وزيادةُ قدرةٍ وحركةٌ إلى جانبِ العمَل والفعّاليَّة، بخلافِ اليُسرى، وهكذا الحَلف؛ فإنَّ فيه تشديدًا وتقويةً، ومزيدَ اعتبارٍ في الأمر[2]، فيكونُ إطلاقُ اليمينِ على الحَلفِ والقَسَم استعاريًّا للمشابهة، وفيه نوعُ تفاؤلٍ بالبَرَكةِ منَ القَسَم.

المهين والهوان:

الــهَـــوانُ من الـهَـوْنِ للحقارة الذّاتيَّة، والمَهينُ مـــن المَـــهْـــنِ للحقارة الغيريَّة

مَهُنَ: أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على احتقارٍ وحقارةٍ في الشَّيءِ، ومنه قولُهم: مَهين، أي: حقيرٌ، والمهانةُ: الحقارةُ، وهو مَهين بيِّنُ المَهانة[3]، ويُطلقُ على الضَّعيف الَّذي يكونُ تحتَ اختيارٍ، ولا يكونُ له اختيارٌ، ومن مصاديقِهِ: العبدُ المَملوك، والخادمُ الأجيرُ، والمَولى مِن جهةِ كونِه موظَّفًا لخدمةِ عائلتِه، والفَحْلُ إذا لم يَستطِعْ أن يُلقِّحَ، والثَّوبُ إذا استقرَّ تحتَ عمَلِ الغاسِل، والفرقُ بينَهُ وبينَ الهَوان: أنَّ الهَونَ حَقارةٌ في نفسِ الشَّيءِ، والحاصلُ: أنَّ الشَّيءَ إذا كانَ في نفسه وذاتِهِ حقيرًا مُبتذلًا؛ فهو هَوانٌ؛ ولذا يُطلقُ على (المَنيّ) ماءٌ مَهينٌ، فهو من الهَون، وإذا كان في ذاتِهِ عظيمًا إلّا أنَّه مسلوبُ الاختيارِ ضعيفُ القرارِ؛ كانَ مَهينًا من المَهْن، ولذا فُسِّرَ (المَهين) في الآيةِ بالمعنى الأوَّل.

الهَمْزُ واللَّمْزُ:

الهَمْزُ أخفُّ من اللَّمزِ

الهَمّازونَ: المُغتابونَ في الغَيب، واللَّمّازونَ: المُغتابونَ في الحَضْرة، وقال أبو إسحاق الزَّجّاج: الهُمَزةُ اللُّمَزة: الَّذي يَغتابُ النّاسَ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (يمن).

(2) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 14/ 257.

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مهن).

ويغُضُّهُم، وقال ابنُ الأعرابيِّ: الهمزُ الغَضُّ، واللَّمزُ: الكَسْرُ[1]، فالهمزُ: هو التَّعييبُ والنَّقصُ الضَّعيفُ، كما أنَّ اللَّمزَ هو تعييبٌ وتضعيفٌ قويٌّ شديد، وهذا المعنى إنَّما يُستفادُ من حرفِ (الهاء)، فإنَّه من حروفِ الهَمْس والرَّخاوة والصَّمت والخَفاء، بخلاف (اللّام) فإنَّه منْ حروفِ الجهرِ بينَ الشِّدَّة والرَّخاوة والانحرافِ والذَّلَق، فمَن يكونُ في مقامِ التَّعييب المُطلَق بكلامٍ أوْ إشارةٍ أوْ غَمَزٍ أوْ عمَلٍ في غَيبةٍ أوْ حَضرةٍ ما لم يَبلُغْ شدَّةً وقوَّةً، فهو الهمّازُ، ومن يكونُ في مقامِ تعييبٍ وتنقيصٍ وإضرارٍ شديدٍ بقولٍ أوْ بغَمْزٍ في حُضورٍ ومواجهة، فهو اللَّمّازُ[2].

السّاعي والمَشّاء:

المَشْيُ أبطأُ وأهدأُ وأهـمـسُ مـنَ السَّعْيِ

السَّعيُ في المشي: الهرولةُ، وسعى إلى الصَّلاة: ذهبَ إليها على أيِّ وجهٍ كانَ[3]، والسَّعيُ: المَشْيُ السَّريع، وهو دونَ العَدْوِ، ويُستعمَلُ للجِدِّ في الأمر، خيرًا كانَ أو شرًّا، وأكثرُ ما يُستعمَلُ السَّعيُ في الأفعالِ المحمودةِ، وخُصَّ السَّعيُ فيما بينَ الصَّفا والمَروة من المَشْي[4]، فهو مرتبةٌ منَ الجُهد، بخلافِ (المشي)، فإنَّه أبطأُ في الحركةِ، وأهدأُ في الجَريان، وأهمَسُ في الحركةِ؛ ولذا ناسبَ (النَّمّام) أنْ يكونَ مشّاءً؛ لأنَّه يَنِمُّ، ويُشيعُ بهدوءٍ وهَمْسٍ وخِفَّة.

الأثيمُ والمُذنِب:

الأثيمُ مُتأخِّرٌ عنِ الخيرِ، والمُذنِبُ يَلحقُهُ العَيب

الذَّنبُ يُسمّى به لما يَتبعُهُ منَ الذَّمِّ، ومنهُ قيل: ذَنَبُ الدّابَّة؛ لأنَّه كالتّابعِ لها، والذَّنوبُ: الدَّلْوُ الَّتي لها ذَنَبٌ، وسُمّي الذَّنْبُ ذَنْبًا؛ لأنَّه أرذلُ ما في صاحبِهِ[5]، ويُفسَّرُ الذَّنْبُ بالإثم، لكنْ باختلاف

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (همز).
(2) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 11/ 264.
(3) الفيوميّ، المصباح المنير: (سعي).
(4) الرّاغب، المفردات: (سعي).
(5) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 229.

الجِهة، فالنَّظَرُ في الذَّنْب إلى جهةِ اللُّحوقِ والدَّناءةِ والتَّبعيَّة، وفي الإثم إلى جهةِ القُصور والبُطْءِ[1]، فالإثم مُشتقٌّ من ذلك؛ لأنَّ ذا الإثم بطيءٌ عن الخيرِ مُتأخِّرٌ عنه، والأصلُ في هذه المادَّة: هو البُطْءُ والتَّأخُّرُ للخير، وناسبَ استعمالُ (الأثيم) في الآيةِ دونَ (المُذنب)؛ لأنَّه جاءَ في سياقِ المنّاع للخيرِ والمُعتدي، فكان أثيمًا مُتأخِّرًا عنِ الخير، كما هو مُؤخَّرٌ بعملِهِ عنِ الخَير.

(1) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 3/ 319.

﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ١٤ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ١٥﴾ [القلم: 14 - 15]

مُناسَبَةُ الآيَتينِ لِما قبلَهُما:

تحديدُ العِلَّةِ والوقت مُؤشِّرٌ على سوءِ القَصْد

لمّا ذَكرَ المَولى تعالى الخِصالَ الّتي اتَّصفَ بها المنهيُّ عن طاعتِهِم؛ ناسبَ أنْ يَذكرَ السَّببَ الحامِلَ على صُدورِ التَّكذيب، ووقتَ صُدوره منهم؛ ليُظهرَ مَدى تكذيبِهم وسوءَ مَقصدِهِم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَالٍ﴾: من مول، يقال: تموَّلَ الرَّجلُ: اتَّخذَ مالًا[1]، وكانتْ أموالُ العربِ أنعامَهم، ورجلٌ مالٌ، أي: ذو مالٍ، والفِعْل: تَمَوَّل[2]، والمالُ معروفٌ، ويُذَكَّر، ويُؤنَّث، ويقالُ: مالَ الرَّجلُ يمالُ مالًا؛ إذا كَثُرَ مالُه[3]، والمَيلُ: العدولُ عن الوسَط إلى أحدِ الجانبين، ويُستعمَلُ في الجَور، والمالُ: سُمّي بذلك؛ لكونِه مائلًا أبدًا وزائلًا، ولذلك سُمّي عَرَضًا[4]، والمُرادُ به في الآية: ما يملكُهُ الإنسانُ من النَّقدينِ والمَواشي والرَّقيق وغيرِها[5].

2) ﴿أَسَٰطِيرُ﴾: السَّطرُ يدلُّ على اصطفافِ الشَّيءِ، كالكتابِ والشَّجَر، وكلِّ شيءٍ اصطفَّ، وأمّا الأساطيرُ؛ فكأنَّها أشياءُ كُتبتْ من الباطلِ، فصارَ ذلك اسمًا لها مَخصوصًا بها، يقالُ: سطَّر فلانٌ علينا تسطيرًا؛ إذا جاءَ بالأباطيل، وواحدُ الأساطيرِ: إسطارٌ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مول).
(2) الخليل، العين: (مول).
(3) الفيوميّ، المصباح المنير: (مول).
(4) الرّاغب، المفردات: (ميل).
(5) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 11/ 206.

وأُسطورةٌ[1]، والسَّطرُ: الصَّفُّ من الشَّيء، يقال: بَنى سَطْرًا، وغَرَسَ سَطْرًا، والسَّطْرُ: الخَطُّ والكتابةُ، ثمَّ يُجمَعُ على أساطيرَ، وجمعُ السَّطرِ: أسطُر وسُطور، والأساطير: الأباطيل[2]، وأمّا الأسطورةُ والإسطارة والأساطيرُ؛ فمزيدةٌ، وتدلُّ على زيادةٍ وإضافةٍ على السَّطر الطَّبيعيِّ، وهو السَّطرُ المَجعول[3]، والمُرادُ به في الآيةِ: سطورٌ زائدةٌ مصنوعةٌ مجعولةٌ من الماضين، وليستْ منسوبةً إلى اللّٰه أوِ الوحيِ أوِ القلَم.

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

جزاءُ النِّعَمِ عندَ المُكذِّبين كيلُ التُّهَم

أي: لا تُطِعْ مَن هذه عيوبُهُ ونقائصُهُ؛ بسببِ كونِهِ موسِرًا مُعْتَدًّا بمالِهِ، مُنْجِبًا مُعْتَزًّا ومُتقوّيًا بأبنائِهِ، أوْ لأنْ كانَ صاحبَ مالٍ ومُستظهرًا بالبنين، كذَّبَ بآياتنا، وأعرضَ عنها، وإذا يُتلى عليه القرآنُ؛ قالَ أساطيرُ الأوَّلين وأباطيلُهُم، فجعلَ الكفرَ مكانَ الشُّكرِ، والتَّكذيبَ موضِعَ التَّصديقِ والإيمان[4].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

مَعنى ﴿أَن﴾ والغرضُ منها:

تحقُّقُ المِنَّة موجِبٌ لشُكْر النِّعمة

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بـ﴿أَن﴾، في قولِه تعالى: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٖ وَبَنِينَ﴾؛ لتكونَ مع مَدخولِها مَصدرًا مؤوَّلًا، وإنَّما لم يُعبِّر بالمصدرِ الصَّريح بأنْ يقالَ مثلًا: (لكونِه ذا مالٍ وبنينَ)؛ لما في الفعل من دلالةٍ على التَّحقُّقِ والوقوعِ؛ نتيجةَ ارتباطِهِ بالزَّمن، ونظرًا لدلالةِ ﴿أَن﴾ المصدريَّة على الزَّمن المُستقبل في أزمنةِ الماضي للكون، فيفيد أنَّ تكذيبَ المُكذِّبين لأن كانوا أصحابَ أموالٍ وبنين، أي: تحقَّقَ ذلك فيهم ماضيًا، بعدَ أنْ لم يكونوا كذلك في بعضِ أزمنةِ الماضي، وفي

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سطر).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (سطر).
(3) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 5/ 127.
(4) مجمع البيان، التّفسير الوسيط: 10/ 1530.

تلك إشارةٌ خفيَّةٌ إلى أنَّه كان يَنبغي لهم أنْ يتفكَّروا في صيرورتهم كذلك، وفي مِنَّةِ اللّه تعالى عليهم.

تعدُّدُ القراءاتِ في ﴿أَن﴾، وثراءُ المَعنى:

التَّعليلُ والإنكارُ إبطالٌ للتَّكذيبِ على سبيلِ الاستمرار

اختلفَ القُرّاء في النُّطق بـ﴿أَن﴾ مِن قوله تعالى: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾، فبعضُهُم قرأها بهمزةٍ أصليَّة في الحرف، وهم نافعٌ، وابنُ كثيرٍ، وأبو عمرٍو، والكسائيُّ، وخلَفٌ، وحفصٌ عن عاصِمٍ؛ ﴿أَن كَانَ﴾ بهمزةٍ واحدةٍ على الخَبَر[1]، فتكونُ الجملةُ خبريَّةً، والمصدرُ المُؤوَّل مُعلِّلًا، والتَّقديرُ: (قالوا أساطيرُ الأولين لأنْ كانوا ذَوي أموالٍ وبنين)، وقرأها الباقونَ بهمزتين؛ أولاهما للاستفهام، وثانيتُهما أصليَّة، فتكونُ الجملةُ بتقدير: (أأنْ كانوا ذَوي أموالٍ وبنينَ قالوا أساطير الأوَّلين؟)، فتكونُ الجملةُ استفهاميَّةً دالَّةً على الإنكارِ والتَّوبيخ[2] معَ التَّعليل، قال الطَّبريُّ مُبيِّنًا وجهَ تعلُّق الاستفهام: "أحدُهما: أنْ يكونَ مُرادًا به تقريعُ هذا الحلّاف المَهين، فقيلَ: ألأَن كانَ هذا الحَلّافُ المهينُ ذا مالٍ وبنينَ، ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، وهذا أظهرُ وجهَيه، والآخرُ: أن يكونَ مُرادًا به: (ألِأَنْ كانَ ذا مالٍ وبنين تُطيعُهُ)، على وجهِ التَّوبيخِ لمَنْ أطاعَهُ"[3].

تحديدُ المُتعلِّقِ لـ ﴿أَن كَانَ﴾:

تقديمُ العِلَّة لتفنيدِ التُّهمَة

عبَّرَ النَّظمُ القرآنيُّ بالمصدرِ المؤوَّل ﴿أَن كَانَ﴾، في قولِه تعالى: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾، وهو مُتعلِّقٌ إمّا بـ(قالَ) من قولِه الآتي: ﴿قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، وقد حُذِفتِ (اللّام) التَّعليليَّةُ التي يطَّردُ حذفُها مع (أنْ)، والتَّقدير: (قالَ أساطيرُ الأوَّلين لأنْ كانَ)، فهو واقعٌ في موضِعِ المفعول لأجلِه، ويكونُ من تقديمِ العِلَّةِ على المعلول؛

(1) ابن الجزري، النشر: 1/ 367.
(2) النّيسابوريّ، التّفسير البسيط: 22/ 88.
(3) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 540.

اهتمامًا بها، وتنبيهًا لهؤلاءِ المُكذِّبين إلى أنَّ سببَ تكذيبِهم استكبارُهم وغُرورُهم بأموالهم وأولادهم، وأمّا تكذيبُهم؛ فهو أمرٌ معلوم، وقد ذكر الزَّمخشريُّ وجهًا فقال: "ويجوزُ أنْ يتعلَّق بما بعدَهُ على معنى: (لكونِهِ مُتموِّلًا مُستظهِرًا بالبنين كذَّبَ آياتِنا)، ولا يعملُ فيه ﴿قَالَ﴾ الَّذي هو جوابُ ﴿إِذَا﴾؛ لأنَّ ما بعدَ الشَّرطِ لا يعملُ فيما قبلَهُ، ولكنْ ما دلَّت عليه الجملةُ مِن مَعنى التَّكذيب"[1].

وردَّهُ ابنُ عاشور بقوله: "يَتَعَلَّقُ قَوْلُهُ: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ بِفِعْلِ ﴿قَالَ﴾ بِتَقْدِيرِ لامِ التَّعْليلِ مَحْذوفَةً قَبْلَ ﴿أَن﴾، وهو حَذْفٌ مُطَّرِدٌ، تَعَلَّقَ بِذَلِكَ الفِعْلِ ظَرْفٌ هوَ ﴿إِذَا تُتْلَىٰ﴾، ومَجْرورٌ هوَ ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ﴾، ولا بِدْعَ في ذَلِكَ، ولَيْسَتْ ﴿إِذَا﴾ بِشَرطيَّةٍ هُنا؛ فَلا يَهولَنَّكَ قَولُهُم: إنَّ ما بَعْدَ الشَّرْطِ لا يُعْمَلُ فيما قَبْلَهُ، على أنَّها لَوْ جُعِلَتْ شَرْطيَّةً؛ لَمَا امْتَنَعَ ذَلِكَ؛ لأنَّهُم يَتَوَسَّعونَ في المَجْروراتِ ما لا يَتَوَسَّعونَ في غَيْرِها، وهَذا مَجْرورٌ باللّامِ المَحْذوفَةِ"[2].

ووجه آخر: وهو أن يكون متعلّقًا بقولهِ قبلُ: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾، قالَ الواحديُّ: "والمعنى: ولا تُطِعْ كلَّ حلّافٍ مَهينٍ أنْ كانَ، أي: لأنْ كانَ، يريدُ: لا تُطعْهُ لمالِهِ وبَنيهِ"[3]، ويُضعِفُه أنَّه "لا يُتوقَّعُ منهُ ﷺ الإطاعةُ ليَسارِهِ وحَظِّه منَ الدُّنْيا قطعًا، كما لا يُتوقَّعُ نفيُ الإطاعة"[4]، إلّا بأنْ يُحمَلَ على معنى: لا تنخدِعْ بطلبِهم المُلاينةَ طمَعًا في إيمانِهم؛ لكونِهم من أهلِ الأموالِ والأولاد، الَّذين تحتاجهُم في نَشْرِ الدَّعوة؛ إذ إيمانُ هؤلاء مفيدٌ لنشرِ الإسلام، ويترجَّحُ الأوَّل، وهو ما اقتصرَ عليهِ ابنُ عاشور، واختارَه أبو إسحاقٍ الزَّجّاج، "وقال: (أنْ) نصبٌ، بمعنى: قال ذلك؛ لأنْ كانَ ذا مالٍ وبنين، أي: جعلَ مُجازاةَ النِّعَمِ الَّتي خوَّلها منَ المالِ والبنينَ الكُفرَ بآياتِنا"[5].

دلالةُ الفعلِ النّاقصِ ﴿كَانَ﴾:

عبَّرَ النَّظم القرآنيُّ بفعلِ الكونِ ماضيًا، في قوله تعالى: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾؛ للدَّلالة على تحقُّقِ الاتِّصاف بالمالِ والبنينَ، وثبوتِ ذلك الاتِّصافِ على سبيلِ التَّمكُّنِ والاستقرارِ،

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 588.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 79.
(3) الواحديّ، التّفسير البسيط: 22/ 88.
(4) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 230.
(5) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 5/ 206، والنّيسابوري، التّفسير البسيط: 22/ 89.

المالُ والبنونَ عندَ المُكذِّبين مَصدَرُ شقاءٍ وخُسرانٍ مُبين

وبدخولِ ﴿أَن﴾ المصدريَّة الاستقباليَّة عليه؛ أفاد أنَّ حصولَ ذلك في الزَّمن المستقبَلِ بالنِّسبةِ لأجزاءِ الماضي، أي: وُجِدَتْ لهم الأموالُ والبنون بعد أنْ لم يكونوا كذلك، فتصبحُ بعضُ أزمنةِ الماضي خاليةً من ذلك، ثمَّ طرأ عليهم في أجزاءِ الماضي المُستقبَلَة لما قبلَها مالٌ وبنون، فهي بمعنى (صار) كذلك في أزمنةِ الماضي، ممّا يدلُّ على طُروء النِّعمة وحدوثِها بعدَ أنْ لم تكُنْ.

دلالةُ الإضافةِ في ﴿ذَا مَالٍ﴾:

علّةُ التَّكذيب الزَّهْوُ بالمَتاعِ القليلِ القريب

أضافَ النَّظمُ الكريم ﴿ذَا﴾ إلى (المالِ والبَنين)، في قولِهِ تعالى: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾؛ للدَّلالة على اتِّصافِ هؤلاءِ المُكذِّبين بالغِنى وكثرةِ البَنين، و(ذو) بمعنى (صاحب) يُؤتَى بها للتَّوصُّلِ إلى الاتِّصاف باسمِ الجنس، فلا نقولُ: (جاءَ رجلٌ مالٌ)، بل (ذو مالٍ)، والفرقُ بينها وبينَ (صاحب) أنَّ الصّاحبَ يدلُّ على المتبوعيَّة لما يُضافُ إليه، بخلاف (ذو) فإنَّه يدلُّ على الاتِّصاف الشَّديد والقويِّ بالمضافِ إليه، حتّى كأنَّه هو بعينِه، فالمالُ والبنونَ تابعانِ لصاحبهما، فيُشعرانِه بالزَّهْوِ، في حين أنَّ المُصاحبة تدلُّ على التّابعيَّة والانقياد للمُصاحَب، فالمصاحبةُ تدلُّ على المغايرة، بخلافِ (ذو) الدّالَّة على عُمقِ الاتِّصال والاتِّصاف، والغايةُ من الإضافة بيانُ عِلَّةِ الغُرور الدّافعِ إلى التَّكذيب؛ إذِ الإضافةُ لاميَّة.

دلالةُ تقديمِ (المال) على (البَنين):

المالُ المُعين أساسٌ للافتخارِ بالبنين

قدَّمَ النَّظمُ الكريم (المالَ) على (البنين)، في قولِهِ تعالى: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾؛ للدَّلالة على أهمّيَّةِ المالِ وحرصِ الإنسانِ على تحصيلِهِ قبلَ البنين، ولأنَّ الافتخارَ بالبنين إنَّما يكونُ بعدَ المال؛ وإلّا صارَ البنونَ عِبئًا على الأب، كما أنَّ المال أهمُّ من البنين في استقامةِ حياةِ المَرءِ، فهو يَعمُدُ بمالِهِ إلى حفظِ نفسِه، بخلافِ البنين.

النِّعَمُ الكثيرة توجِبُ الطّاعة المَتينة

دلالةُ التَّنكيرِ في ﴿مَالٍ﴾:

نكَّرَ النَّظمُ الكريم لفظَ ﴿مَالٍ﴾، في قوله تعالى: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّعظيم[1]؛ لذلك المالِ بالنَّظر لذاتِ المُفتخِرِ المَغرور، وإنْ كان لا يُساوي ذرَّةً بالنَّظر إلى المُنعِم تعالى، كما أفادَ التَّنكيرُ للمالِ تنوُّعَهُ وكثرتَه، فهو أجناسٌ متعدِّدة، منها: المَواشي والزُّروع وعُروض التِّجارة والنَّقدان، فالمالُ اسمُ جنسٍ إفراديٌّ، يتحقّقُ في صوَر عديدة، فهو مفردٌ لفظًا، جمعٌ تحقُّقًا.

ما هو نِعمة يُصبحُ نِقمةً

دلالةُ (الواو) في ﴿وَبَنِينَ﴾:

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بـ(الواو)، في قولِه تعالى: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾؛ للدَّلالة على العطفِ والجمعِ والاقترانِ بينَ عُنصرينِ يَفتخر بهما المرءُ، ويفرح، ويَستغني عنِ الاحتياجِ إلى الآخرِ، فيَستكبِرُ على خالقِهِ المُنعِم، وبدلًا من أنْ يشكُرَ العبدُ رازقَهُ على هاتَينِ النِّعمتين فإنَّ المُكذِّب يَغترُّ بهما ليكونا سببًا لتكذيبِهِ وعدمِ قَبولِهِ الحقَّ والإذعانِ له.

الافـتـخـار بـالـجـهـالات أوجـبَ ذِكـرَ الـبـنـين على البنات

دلالةُ عطفِ (البنين) على (المال):

عطفَ النَّظمُ الكريم (البنين) على (المال)، في قولِه تعالى: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾؛ للدَّلالة على كثرةِ البنين مثلَ كثرةِ الأموالِ وتنوُّعِها؛ وإنَّما عبَّر النَّظم الكريم بالبنينَ دونَ (الأولاد)؛ لشُمولِ الولدِ البنتَ أيضًا، وهي ليست للافتخار عندَ المُخاطَبين، فلا تكونُ دافعًا للتَّكذيبِ والغُرور والاستكبارِ عن الحقِّ؛ جَهلًا بتلك النِّعَم وما يَنبغي معَها من أعمالٍ وشُكر.

سرُّ فصلِ الجُملةِ ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ﴾:

فصلَ النَّظمُ الكريمُ الجملةَ الواردةَ في قولِهِ تعالى: ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ

---

(1) القزوينيّ، الإيضاح: 2/ 36.

تعليلُ النَّهي عن الإطاعةِ بما يَصدُرُ عنهُم من فَظاعة

﴿عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ عمّا قبلَها؛ للدَّلالة على الاستئنافِ التَّعليليِّ للنَّهي عن إطاعةِ المُكذِّبين[1]، فهي مستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا واقعًا في جوابِ سؤالٍ مقدَّرٍ نشأ من النَّهي عن الإطاعةِ المُكرَّرِ مَرَّتين، فأجابَ عنه بأنَّهم إذا تُلِيَتْ عليهم الآياتُ؛ اتَّهموها، وكذَّبوا بها.

سِرُّ التَّعبيرِ بالظَّرف ﴿إِذَا﴾:

قَرْنُ التَّكذيبِ بالتِّلاوة مُفيدٌ لكمالِ الشَّناعة

عبَّرَ النَّظمُ بـ ﴿إِذَا﴾ الظَّرفيَّةِ الخافضةِ لشَرطِها المنصوبةِ بجوابِها على أنَّها مفعولٌ فيه، في قولِه تعالى: ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على تقييدِ زمنِ تكذيبِهم، واتِّهامِهم للآيات بوقتِ تلاوةِ الآياتِ عليهم، والغرضُ منَ التَّقييدِ الظَّرفيِّ لزمنِ تكذيبِهم تبشيعُ ذلك الجُرمِ العظيم؛ إذ يَقترنُ التَّكذيبُ بتلاوةِ الآياتِ القُرآنيَّة عليهم، وذلك الاقترانُ دالٌّ على ما ينبغي لهم فعلُهُ وقتَ التِّلاوة؛ إذ بدلًا من التَّصديقِ والإذعانِ لكمالِ الآيات يُقدِمونَ على التَّكذيبِ بها، والظَّرف ﴿إِذَا﴾ دالٌّ على المُسارعةِ إلى التَّكذيبِ والاتِّهام بمُجرَّدِ تِلاوةِ آياتِ القُرآن، قال القونويُّ: "والمُناسِبُ كون ﴿إِذَا﴾ للكلّيَّة لا للإهمال، والمَعْنَى: (كلَّما تُتلى عليه آياتُنا؛ قال ...)، لأنَّ فرطَ غُرورِهم يَقتضي عمومَ الأوقات"[2].

دلالةُ تقديمِ الظَّرفِ ﴿إِذَا﴾:

تحديدُ زمنِ الاتِّهام لبيانِ عُمْقِ الإجرام

قدَّمَ النَّظمُ الكريمُ الظَّرفَ ﴿إِذَا﴾، في قولِه تعالى: ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على الاهتمامِ بتحديدِ الوقتِ لزمنِ الاتِّهام، كما قدَّمَ العلَّةَ؛ اهتمامًا بها في ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٖ وَبَنِينَ﴾، فكلٌّ من تقديمِ العِلَّةِ والظَّرف يُظهِران سببَ التَّكذيبِ ووقتَ صُدورِه منهم، وكلٌّ من العِلَّةِ والوقت يَقتضيانِ خِلافَ ما أقدَموا عليه من التَّكذيب؛ إذِ النِّعمةُ تُقابَلُ بالشُّكر، وتلاوةُ آياتِ القرآن تُقابَلُ

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 91.

(2) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 230.

بالتَّصديقِ والتَّسليم، لكنَّهم تركوا الواجبَ، وأقدَموا على الجُرم معَ عِلَّةٍ تقتضي الشُّكرَ، وفي زمنٍ يَقتضي الإيقانَ.

دلالةُ الفعلِ المُضارع ﴿تُتۡلَىٰ﴾ مادَّة وصيغةً ومَجازًا:

التَّكذيبُ المُستمِرُّ مـعَ الـتَّـتـالي المُنْهَمِر

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بالفعلِ المضارع ﴿تُتۡلَىٰ﴾، في قولِه: ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا﴾؛ للدَّلالة على القراءةِ المُتتابعةِ للآيات، بحيثُ يتلو بعضُها بعضًا، فكانتِ الآياتُ تُتلى على مَسامِعِهم، وتُكرَّرُ على آذانهم، ومع ذلك لا يستجيبونَ لها، بل يَتَّهمونَها، ويَفترونَ عليها، واختارَ صيغةَ المضارعِ المجهولِ للدَّلالةِ على التَّجدُّدِ الاستمراريِّ؛ تركيزًا على دلالةِ التِّلاوة دونَ التّالي لها؛ لأنَّها الأهمُّ، فالتِّلاوةُ بمادَّتِها دالَّةٌ على التَّتابُع، والفعلُ بصيغتِه مفيدٌ للتَّجدُّدِ والاستمرار، لكنَّهم يُقابلونَها بالتَّكذيبِ والطَّعن والرَّفض، والفعل المضارعُ مُستعارٌ للقراءةِ استعارةً تصريحيَّةً تبعيَّة؛ إذ شَبَّه القراءةَ في تواليها بما يتلو بعضُهُ بعضًا، بجامعِ التَّتابُعِ في كلٍّ، والغرضُ منَ الاستعارة: بيانُ أنَّ الآياتِ كانت تَتوالى عليهم، لكنَّهم لا يوقنون.

دلالةُ الاستعارة في (على):

استعلاءُ الآياتِ على الآذان دونَ تحقُّقِ الإذعان

عبَّرَ النَّظمُ بحرفِ الجرِّ (على)، في قولِه تعالى: ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا﴾؛ للدَّلالة على الاستعلاءِ المجازيِّ المُفيد تمكُّنَ التِّلاوةِ منهم، وإحاطتَها بهم إحاطةً تامَّةً، فكأنَّ الآياتِ قدِ استعلَت على المسامع والآذانِ، ومعَ ذلك لم تستولِ على القلوبِ بالإذعان، فقدِ استعارَ النَّظمُ حرفَ الجرِّ (على) بعدَ تشبيهِ الاختصاص بالاستعلاءِ، بجامعِ الانحصارِ في كلٍّ منهما، وقدَّم النَّظمُ الكريمُ الجارَّ والمجرورَ ﴿عَلَيۡهِ﴾ على (الآيات)؛ للدَّلالة على الاهتمام بالتِّلاوة عليهم، دونَ تلاوةِ الآياتِ ذاتِها؛ إذ هُمُ المَقصودونَ بالتِّلاوة.

دلالةُ (الآيات) مادَّةً وصيغةً:

عبَّرَ النَّظمُ بـ(الآيات) في قوله تعالى: ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا﴾؛

للدَّلالة على البراهينِ العظيمةِ الحَقَّة، حتّى تكون آيةً من الآيات يُتعجَّبُ من حُسنِها وجمالِها وجلالِها، ففي تسميةِ ألفاظِ القرآن بالآياتِ استعارةٌ تصريحيَّة، لكنَّها غدتْ لكثرةِ استعمالها فيها حقيقةً عُرفيَّةً، وأفادَتْ صيغةُ الجمعيَّة كثرةَ ما يُتلَى عليهم، ومع كلِّ تلك الآياتِ العَجيبة والمُتكاثرة إلّا أنَّهم ازدادوا طَعْنًا ونُفورًا منَ الحقِّ.

جلالُ الآياتِ وكثرةُ البَلاغات موصِلٌ لليقينيّات

دلالةُ الإضافةِ في ﴿ءَايَٰتُنَا﴾:

أضافَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ (الآيات) إلى ضميرِ العَظمةِ والجَلال، في قولِهِ تعالى: ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا﴾؛ للدَّلالة على التَّفخيمِ والتَّعظيم لتلكَ الآياتِ الجليلة، التي هي جليلةٌ بالنَّظر إلى ذاتِها، حتّى سُمّيتْ آيةً، وجليلةٌ بالنَّظر إلى مُنزِلِها تعالى، وجليلةٌ بكمالِ المُنزَلِ عليه، لكنَّهم تَركوها، واتَّهموها تكذيبًا وغُرورًا واستكبارًا.

جلالُ الآياتِ بجَلالِ ربِّ الأرضِ والسَّماوات

دلالةُ الجوابِ بفعلِ القَوْل:

عبَّر النَّظمُ الكريمُ بفعلِ القولِ ماضيًا في قولِهِ تعالى: ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على تحقُّقِ وقوعِ القولِ منهم على سبيلِ القطعِ بالحُصولِ في زَمَنِ تِلاوةِ القرآنِ عليهم، والفعلُ ﴿قَالَ﴾ عاملُ النَّصبَ بالمفعولِ فيه ﴿إِذَا﴾، والنَّصبَ بمحلِّ المصدرِ المُؤوَّل المقدَّم لـ ﴿أَن كَانَ﴾، والتَّقدير: (قالوا كذا وقتَ التِّلاوةِ لأن كانوا ذوي مالٍ وبنين)، وفعلُ القولِ يدلُّ على استساغتِهم الكلامَ وسهولةِ إصدارِ الاتِّهام منهم على سبيلِ المُسارعة دونَ تأمُّلٍ، وقال البقاعيُّ: "أي: فاجأ هذا القولُ من غيرِ تأمُّلٍ ولا توقُّفٍ عِوَضًا عنِ الشُّكر"[1]، وفعلُ القولِ قد أُسنِد إلى ضميرِ الغائبِ الواحدِ، كما أنَّ فعلَ الكونِ قد أُسنِدَ إليه من قبلُ، فيكونانِ من قبيلِ الفاعلِ الخاصِّ المُرادِ به العُموم؛ إذ جُعِلَ أحدُ مُشركيهم كالوليدِ بنِ المُغيرة رَمْزًا لبقيَّتِهم؛ لتصديقِهم لهُ

استسهالُ الأقوالِ في تكذيبِ ما تتحقَّقُ بهِ الآمال

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 304.

وافتتانِهِم به، قالَ ابنُ عاشور: "والوَجهُ ألّا يَختَصَّ هَذا الوَصْفُ بِهِ، وأن يَكونَ تَعريضًا بِهِ"[1].

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بـ﴿أَسَٰطِيرُ﴾ مادَّةً وصيغةً:

تسميتُهم بالمُكذِّبين لاعتقادِهم بالآياتِ أنَّها أساطيرُ الأوّلين

عبَّرَ النَّظم الكريم بلفظِ ﴿أَسَٰطِيرُ﴾، في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ آياتِ القرآنِ لها أصلٌ مأخوذٌ من كلام السّابقين، لكنْ زيدَ فيها، وأُضيفَ إليها الكثيرُ من الأكاذيبِ والكلام الَّذي لا يُطابقُ الحقَّ والواقعَ، قال الهرريُّ: الأساطيرُ "أحاديثُ لا نظامَ لها، اكتتبَها الأقدمونَ كَذِبًا فيما زَعَموه"[2]، ولذا وُصِفوا بـ﴿ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾، أي: النّاسبينَ الكذبَ للنَّبيِّ ﷺ وللآياتِ الَّتي جاء بها؛ إذ ﴿أَسَٰطِيرُ﴾ من السَّطر، وهو الكتابةُ المُنتظمة، فلمّا زيدَ في اللَّفظ؛ زادَ المعنى، فتكونُ الأسطورةُ عبارةً عن المكتوبِ المَزيدِ فيه بالأباطيلِ، وجُمِعَ اللَّفظ للدَّلالة على مُقابلةِ الآياتِ المجموعةِ بها، فتكونُ الآياتُ المتعدِّدةُ المُقتضيةُ للإيمانِ تواجَهُ منهم بأنَّها الأساطيرُ والأخبارُ الماضيةُ المُلفَّقة.

دلالةُ الطِّباقِ بينَ (الآياتِ والأساطير):

الآياتُ البيِّنات عندَ المُكذِّبين بَواطِلُ قاطِعات

قابلَ النَّظمُ بينَ (الآياتِ والأساطير)، في قولِهِ تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على مدى التَّكذيبِ العظيم الصّادرِ منهم؛ إذ سَمَّوا الآياتِ البيِّنات والدَّلائلَ العجيبةَ والأخبارَ الحَقَّة بالأباطيلِ المُلفَّقة والأكاذيبِ التّامَّة، وبذا يَرسُمُ الطِّباقُ حالةَ جحودٍ تامَّة، ومَن كان هذا شأنه؛ فكيفَ يُطاع؟.

دلالةُ الإضافةِ الكنائيَّة في ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾:

تحيُّرُ المُكذِّبين في نسبةِ آياتِ ربِّ العالَمين

أضافَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ ﴿أَسَٰطِيرُ﴾ إلى ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ إضافةً لاميَّةً، في قولِهِ تعالى: ﴿قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّها

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 76.

(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 91.

أكاذيبُ ملفَّقة منسوبٌ تلفيقُها والكذبُ فيها إلى الأوَّلين، وفيها كنايةٌ على اتِّهام النَّبيِّ ﷺ بأنَّ الآياتِ الَّتي يأتي بها ينقلُها من تلك الأساطيرِ، ويُحدِّثُ بها، فيكون متَّهمًا بالكذبِ والانتحالِ معًا، وتفيدُ الإضافةُ تحيُّرَهم في وصفِ تلك الآيات وتعيينِ مَصدرِها، فإنْ لم تكنْ شعرًا ولا كهانةً ولا سَجعًا؛ فهي منسوبةٌ لأمرٍ مجهولٍ يَرمُزونَ له بأنَّه من أساطيرِ الأوَّلين، الَّذين سبقونا، ولا نعرفُ عنه إلَّا نُتَفًا من أخبارِهم وأحوالِهم؛ ففيهِ إشارةٌ إلى مجهوليَّةٍ بحقيقةِ تلك الآيات.

دلالةُ المُضافِ إليه ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾:

نِسبةُ الآياتِ إلى القَصَص المَوروثات

عبَّرَ النَّظمُ الكريم عن المضافِ إليه في قولِه تعالى: ﴿قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، بلفظِ ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ الدّالِّ على السّابقين والماضينَ من الأُمَم والأقوام، وإنَّما سُمّوا بالأوَّلينَ؛ لأنَّ مَن يوجَدُ اليومَ يَؤولُ إليهم، ويَرجِعُ إليهم؛ لكونهم أصولًا لِمَن جاءَ بعدهم، وقد شاعَ في العُرفِ أنَّ الأخبارَ الغريبةَ والقَصصَ العجيبةَ تُنسَبُ إلى الأوَّلين بأنَّهم مُخترِعوها، على أنَّها حكاياتٌ وقَصصٌ مأثورة، لا تُسمِنُ، ولا تُغْني من جوع، وفيه إشارةٌ إلى سلبِ النَّبيِّ ﷺ إبداعَها واختراعَها، فضلًا عن كونِها نازلةً منَ اللّه تعالى عليه.

دلالةُ العُموم والخُصوص في ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾:

اختلافُ الاتِّهام بتنوُّعِ مواقِعِ الكَلام

عبَّرَ النَّظمُ القرآنيُّ عن توصيفِ الآياتِ المتلوَّة على المُكذِّبين، بأنَّها: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، وهي دلالةٌ ظاهرُها يفيدُ العمومَ لجميعِ الآيات، ولكنْ بعدَ النَّظرِ في السّياقات تنصرفُ التُّهمةُ إلى الخصوص، قال الماتريديُّ: "وإنْ كانَ عامًّا بظاهره، لكنْ لم يُرَدْ به العموم؛ لأنَّ قوله: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، ليسَ في كلِّ الآيات، وإنَّما هو في الآياتِ الَّتي هي في حقِّ الإخبار عن الأُمَم السّالفة، وأمّا إذا تُليت عليه الآياتُ التي فيها دلالةُ إثباتِ الرِّسالة ودلالةُ التَّوحيدِ ودلالةُ البعثِ، فقولُهُ فيها ما قالَ في سورةِ المدثر: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ

﴿٢٤ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ٢٥﴾ [المدّثر: 24-25]، وهذا دليلٌ على أنَّه لا يجبُ اعتقادُ ظاهرِ العموم ما لم يُعلَمْ بيقين"[1].

المَوقعُ الإعرابيُّ لـ ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾:

ثبوتُ الاتِّصاف دالٌّ على الانبهارِ بجَلالِ الأوصاف

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بالجملةِ الاسميَّةِ المَحذوفةِ المبتدأ، في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، والتَّقدير: (هي أساطيرُ الأوَّلين)، وتفيدُ الجملةُ الاسميَّةُ دلالتَي الثُّبوتِ والدَّوام في اتِّصافِ الآيات بذلك الحُكم القاسي؛ إذ لمّا بَهَرَتْهم الآياتُ البيِّناتُ، ولم يَقدِروا على مُعارضتِها، نسبوها للأقوام السّابقة والأُمم الماضيَةِ نسبةً ثبوتيَّةً دائميَّةً، والغرضُ حينَئذٍ من الإخبارِ بها الاستهزاءُ والتَّهكُّمُ والاستخفافُ.

دلالةُ الاختتامِ بهذهِ الخَصلة:

تناسُقُ الابتداءِ والاختتام مِن بَلاغاتِ الكَلام

اختتمَ النَّظمُ الكريمُ خِصالَ المنهيِّ عن طاعتِهم بقولِه: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، الدّالَّةَ على التَّكذيبِ بالآيات والاستخفافِ بها والإنكارِ لصحَّتِها، فيكونُ أبلغَ اختتامٍ موافقٍ لما ابتدأ به من النَّهي عن طاعةِ المُكذِّبين، قال ابنُ عاشور: "وَخُتِمَتِ الأَوْصافُ المُحَذَّرُ عَن إطاعَةِ أصحابِها بِوَصْفِ التَّكْذيبِ؛ لِيُرْجَعَ إلَى صِفَةِ التَّكْذيبِ الَّتي انتُقِلَ الأُسْلوبُ مِنْها مِن قَوْلِه: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾"[2].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الأساطيرُ والأكاذيبُ والأباطيلُ:

كلُّ الأساطيرِ أكاذيبُ وأباطيلُ، ولا ينعكس

الأساطيرُ جمعُ (أسطورة)، وهي مأخوذةٌ من السَّطر بمعنى الانتظام والاصطفاف، ولذا قيلَ: سطرُ الكتاب، وسطرُ الأشجار، ثمَّ زيدَ فيهِ ليزدادَ المعنى، ويصبحَ الكلامُ المتزيَّدُ فيه حتّى يخرجَ عنِ الانتظام، ويصير كلامًا يَحتوي على خُرافاتٍ وأكاذيبَ وقصصٍ

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 10/ 143.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 76.

مَنسوجةٍ بالخَيال، فالأساطير: "سطورٌ زائدةٌ مَصنوعةٌ مَجعولةٌ منَ الماضين، وليسَتْ منسوبةً إلى اللهِ أوِ الوَحي أوِ القَلَم"[1]، ويُرمَى بها الكلامُ الَّذي يَحتوي على قَصَصِ الماضين دونَ الأخبارِ الَّتي يُخبرُ بها عن أمورٍ تحدُثُ الآنَ أوْ في المستقبل، بخلافِ (الأكاذيب) فإنَّها تكونُ شاملةً للأخبارِ الماضيةِ والحاليَّة والمُستقبلة، وأمّا الأباطيل؛ فهي أقوالٌ باطلةٌ ثبتَ بُطلانُها وزوالُها وانمحاقُها.

البنونَ والأوْلاد:

العُـمـومُ والخُـصـوصُ الوجهيُّ

يُطلَقُ لفظ (البنون) على الأوْلادِ الذُّكورِ، سواءٌ كانوا أولادًا أم أحفادًا، ولذا يُعبِّر النَّظمُ القرآنيُّ عن البنين بقوله: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الأعراف: 26]، و﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [البقرة: 40]، بخلافِ (الأبناء) المختصِّ إطلاقُهم على المُباشرينَ من الأب فحسبُ، ولذا قال تعالى: ﴿ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ﴾ [النّساء: 11]، في حين يُطلَقُ (الأولاد) على الذُّكور والإناث معًا، ولكنَّ الإطلاقَ مختصٌّ بالأولادِ من الأبِ دونَ الأحفاد؛ لما في لفظ (الأولاد) من مَعنى الوِلادة، فبينَهُما عمومٌ وخصوصٌ وجهيٌّ؛ إذ بعضُ البنين أولادٌ، كما أنَّ بعضَ الأولاد بنونَ، فيَجتمعانِ في الذَّكر المُنتسِبِ لأبيهِ مُباشرةً، وينفردُ الابنُ بالحفيد، وينفردُ الولدُ بالأُنثى.

(1) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 5/ 129، 1/ 256.

﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ ١٦﴾ [القلم: 16]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الاعتزازُ والغُرور مَصيرُهُ الإهانةُ والثُّبور

لمّا نَهى اللهُ تعالى عن طاعةِ المُكذِّبين، وذكرَ خِصالَهُم وأوصافَهُم الشَّنيعة، وبيَّنَ سببَ تكذيبِهم وهو اغترارُهُم بالأولاد، وتعزُّزُهم بالأموال؛ ناسبَ أنْ يذكرَ جزاءَهم واحتقارَهم بالتَّنصيصِ على عذابٍ يُظهِرُ مدى الاستخفافِ بهم، وكمالَ إهانتهم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَنَسِمُهُۥ﴾: (وسم) أصلٌ واحدٌ يدلُّ على أثرٍ ومَعلَم[1]، ووَسَمْتُ الشَّيءَ وَسْمًا من بابِ (وعدَ)، والاسمُ السِّمةُ، وهي العَلامة[2]، والوسمُ وضعُ أثرٍ في شيءٍ ليُعرَفَ به؛ فالقيدانِ لازمانِ في صدقِ الأصلِ، ومن مَصاديقه: الكَيُّ في الحيوانِ بعنوانِ التَّعرفة، وقطعُ الأُذُنِ فيه، وجَعْلُ علامةٍ بالتَّأثيرِ في شيءٍ، وتعيينُ علامةٍ في شخصٍ خيرًا أوْ شرًّا، والمُرادُ به في الآية: جَعْلُ أثرٍ أوْ عَلامةٍ في أنفِهِ، فيُعرَفُ أنَّهُ كان مُتأنِّفًا في قِبالِ الحقِّ، فيُشيرُ إلى كُمونِ التَّأنُّفِ والاستكبارِ في نفسِهِ، وظُهوره في الحشرِ بهذه الصّورة، فإنَّ النّاسَ يُحشَرونَ في الآخرةِ على صوَرِ بَواطنِهِم[3].

2) ﴿ٱلۡخُرۡطُومِ﴾: (خطم) يدلُّ على تقدُّم شيءٍ في نُتوٍّ يكونُ فيه، فالمَخاطِمُ الأُنوفُ، واحدُها مِخْطَمٌ، ورجلٌ أخطَم: طويلُ الأنف[4]، والخُرطومُ الأنفُ، والجمعُ خراطيمُ[5]، والخرطومُ: الأنفُ الطَّويلُ

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وسم).
(2) الفيوميّ، المصباح المنير: (وسم).
(3) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 13/ 108.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خطم).
(5) الفيوميّ، المصباح المنير: (خرط).

المُمتدُّ، سواءٌ قلنا: إنَّها مَأخوذةٌ من مادَّة الخَطْم بمعنى الأنف، والإضافةُ تدلُّ على الطّول والامتداد، فإنَّ زيادةَ المَبنى تدلُّ على زيادةِ المعنى، فهي على (فَرْعول)، أو إنَّها مأخوذةٌ من (الخَرْطِ) على (فُعلوم)، بمناسبةِ كون الخرطوم كالخشبةِ المقشورةِ، أَوْ إنَّها كاليدِ تُقشَّرُ بها الأوراق أو لطولها، أَوْ إنَّها رباعيَّةٌ أصيلةٌ على زنةِ (فُعلول)، وعلى أيِّ صورةٍ؛ فالخُرطومُ مظهَرُ التَّأنُّفِ والتَّكبُّر والتَّظاهُرِ كما في الأنفِ، ولهذا وردَ في الآية بمعنى: نجعلُ على خُرطومِهِ علامةً؛ ليُرغَمَ أنفُهُ، ويَنكسِرَ تأنُّفُهُ، ويزولَ استكبارُهُ.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

ظهورُ العار على سبيلِ الاستمِرار

والمُرادُ: أنّا سنُبيِّنُ أمرَهُ بيانًا واضحًا حتَّى لا يَخفى على أحدٍ، كما لا يَخفى ذو السِّمَة على الخُرطوم، وفي هذا إذلالٌ ومَهانةٌ له؛ لأنَّ السِّمةَ على الوَجهِ شَيْنٌ، فما بالكَ بها في أكرم مَوضِعٍ؟ وهو الأنفُ الَّذي هو مَكانُ العِزَّة والحميَّة والأنَفة، والخُلاصةُ: سنُذلُّهُ في الدُّنيا غايةَ الإذلال، ونجعلُهُ مَمقوتًا مذمومًا مشهورًا بالشَّرِّ، ونَسِمُهُ يومَ القيامة على أنفِهِ؛ ليُعرَفَ بذلك كفرُهُ وانحطاطُ درجتِهِ، أي: سنُعَلِّمُهُ يومَ القيامة بعلامةٍ مُشوِّهةٍ يُعلَمُ بها من سائرِ الكفرة؛ إذ كان بالغًا في عَداوةِ سيِّدِ المُرسلينَ عليه و ﷺ أقصى مراتبِ العَداوة[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ فصلِ ﴿سَنَسِمُهُۥ﴾ عمّا قبلَه:

جزاءُ المُستكبِرين العَذابُ المُهين

فصلَ النَّظمُ الكريمُ الجملةَ الفعليَّةَ في قولِهِ تعالى: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ﴾ عمّا قبلها؛ لكونِها استئنافًا بَيانيًّا؛ "جَوابًا لِسُؤالٍ يَنْشَأُ عَنِ الصِّفاتِ الذَّميمَةِ الَّتي وُصِفوا بِها، أن يَسألَ السّامِعُ: ما جَزاءُ

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 92.

أصحابِ هَذِهِ الأَوْصافِ مِنَ اللهِ عَلَى ما أَتوهُ مِنَ القَبائِحِ والاجتِراءِ عَلَى رَبِّهِم؟"[1].

دلالةُ (السّين) في ﴿سَنَسِمُهُۥ﴾:

شـدَّةُ الـوعيد بعَظَمة التَّهديد

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بحرفِ (السّين)، في قولِهِ تعالى: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ﴾؛ للدَّلالة على التَّأكيد، وتحقُّقِ الوقوع في المُستقبَلِ، مع الوعيدِ بإنجازِ ذلك رَدْعًا لِمَنْ يَسمَعُ الخطاب، فيعودُ إلى جادَّة الصَّواب، قال أبو حيّان: "﴿سَنَسِمُهُۥ﴾ فعلٌ مُستَقبَلٌ لَم يَتَعَيَّنْ زَمانُهُ، فقيل: هوَ الضَّرْبُ بالسَّيْفِ، أي: يُضْرَبُ بِهِ على وجْهِهِ وعلى أَنْفِهِ، فَيَجيءُ ذَلِكَ كالوَسْمِ على الأَنْفِ، وحَلَّ بِهِ ذَلِكَ يَوْمَ بَدْرٍ، وقال المُبَرِّدُ: ذَلِكَ في عَذابِ الآخِرَةِ في جَهَنَّمَ، وهو تَعْذيبٌ بِنارٍ على أُنوفِهِم"[2].

دلالةُ الفعلِ المُضارِعِ (نَسِمُ) مادَّةً وصيغةً:

إهـانـةُ الظّـالمين بـعـلامـةِ الـذُّلِّ والهَوانِ المُبين

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بالفعلِ المضارعِ في قولِهِ تعالى: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ﴾؛ للدَّلالة على حدوثِ الوَسْمِ والضَّربِ والتَّعليم على الأنفِ بعَلامةٍ في المستقبلِ القريب، و"الوَسْمُ: أثرُ كَيَّةٍ، يقالُ: وسَمْتُهُ، فهو مَوسومٌ بِسِمَةٍ يُعرَفُ بها، إمّا بكَيَّةٍ، وإمّا قَطْعٍ في أُذُنٍ علامةً لهُ"[3]، سواءٌ كانت تلك العلامةُ في الدُّنيا أو في الآخرة، وهو يفيدُ التَّجدُّدَ الاستمراريَّ لتلك العَلامةِ على أنفِهِ، وأصلُ مادَّةِ الفعلِ من (الوَسْم) لِلإبِلِ ونَحوِها، وهو جَعْلُ سِمَةٍ لَها أنَّها مِنْ مَمْلوكاتِ القَبيلَةِ أو المالِكِ المُعَيَّنِ"[4]، وعبَّرَ النَّظمُ عن الوعيدِ بوضعِ علامةٍ على الأنفِ يُعرفُ بها؛ ليكونَ مُنسجِمًا مع كونه ذا عَلامةٍ عُرِفَ بها في مُحاربتِهِ للّه ورسولِهِ عندَ قولِهِ تعالى: ﴿عُتُلِّۭ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾، أي: لهُ علامةٌ حسّيَّةٌ مثلُ زَنَمَتَي الشّاة، فتوضَعُ له علامةٌ أُخرى

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 76.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 240.

(3) الواحديّ، التّفسير البسيط: 22/ 91.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 78.

للعذاب، أوْ لهُ علامةٌ معنويَّةٌ في معاداةِ اللّه ورسولِهِ يُعرَفُ بها، فتوضَعُ لهُ علامةٌ حسّيَّةٌ[1].

دلالةُ ضميرِ الفاعلِ المتكلِّم في ﴿سَنَسِمُهُۥ﴾:

تعظيمُ التَّهديد بعظَمةِ مَن يصدُرُ عنهُ الوَعيد

أضمرَ النَّظمُ الكريم فاعلَ (نَسِمُهُ)، في قولِهِ تعالى: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾، وتقديرُهُ: (نحن)؛ للعِلْم به، وهو اللّهُ تعالى، وأفادَ التَّعبيرُ بضميرِ العَظَمة شدَّةَ العذابِ المتوعَّدِ به وتقويَةَ وُقوعِه؛ تَهديدًا وتخويفًا لكُلِّ مَن يَجترئُ على الاستكبارِ والغرورِ عن الدّين الحقِّ.

تحديدُ مَرجِعِ الضَّمير (الهاء) في ﴿سَنَسِمُهُۥ﴾:

شدَّةُ الوعيد بتهديدِ كلِّ فردٍ عَنيد

أعادَ النَّظمُ الكريم ضميرَ الغائبِ في قولِهِ تعالى: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾، إلى لفظِ ﴿كُلَّ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾، والتَّقديرُ: (سَنَسِمُ كلَّ حلّاف...)، فيكونُ الضَّميرُ المفردُ راجعًا باعتبارِ اللَّفظ إلى ﴿كُلَّ﴾، "وَإن كانَ مَعناهُ الجَماعاتِ، فَإفرادُ ضَميرِهِ كَإفرادِ ما أُضيفَ إلَيْه ﴿كُلَّ﴾ مِنَ الصِّفاتِ الَّتي جاءَتْ بِحالَةِ الإفْرادِ"[2]؛ إذ لم يقُل النَّظمُ: (كلَّ الحلّافين المَهينين)، بل أفردَ المُضافَ إليه؛ للدَّلالةِ على أنَّ كلَّ واحدٍ منَ الحلّافين لا يُطاعُ، فضلًا عن كلِّهم، فأفردَ الضَّميرَ هنا؛ ليعودَ إلى كلِّ واحدٍ ممَّنِ اتَّصفَ بتلك الخِصال.

دلالةُ التَّعريضِ بالضَّميرِ الغائب:

وعيدُ المستكبرين للتَّعريضِ برَمْزٍ مَهين

عبَّر النَّظمُ الكريم بضميرِ الغائبِ المُفرد، في قولِهِ تعالى: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾؛ للدَّلالة على التَّعريضِ بالمقصودِ بالخطاب؛ سواءٌ كان الوليدَ بنَ المُغيرة أو غيرَه، فهو وإنْ رجعَ إلى ﴿كُلَّ حَلَّافٍ﴾، إلّا أنَّه يُعرِّضُ بمُعيَّنٍ مُتَّخَذٍ رمزًا لكلِّ من اتَّصف بذلك، بقرينةِ الإفرادِ في قولِه: ﴿أَن كَانَ﴾، و﴿قَالَ أَسَٰطِيرُ﴾، قال ابن

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 607.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 77.

عاشور: "والمَعنَى: سَنَسِمُ كُلَّ هَؤُلاءِ على الخَراطيم، وقد عَلِمْتَ آنِفًا أنَّ ذلك تَعْرِيضٌ بِمُعَيَّنٍ"[1].

مَعنى ﴿عَلَى﴾ والغرضُ منها:

العَلامةُ المُشينةُ الظَّاهرة للنُّفوسِ المُستكبِرةِ قاهِرة

عبَّرَ النَّظمُ القرآنيُّ بحرفِ الجرِّ ﴿عَلَى﴾، في قولِه تعالى: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ﴾؛ للدَّلالة على الاستعلاءِ الحقيقيِّ؛ إذِ العلامةُ والوَسْمُ يوضعانِ فوقَ الجسم؛ لكَي يُعيَّنَ، ويتميَّز، وأمّا وضعُ الوشمِ هنا؛ فإنَّه إهانةٌ وقهرٌ للعِزَّة والغُرور، والأصلُ في الوسم أنْ يكونَ على جسدِ الحيوان بغيةَ تمييزِه، فوضْعُها على أنفِ المُستكبرين مجازاةٌ على غُرورِهم المُبين.

دلالةُ (أل) في ﴿ٱلۡخُرۡطُومِ﴾:

تعيينُ العضوِ عندَ الإحالة مُفيدٌ كمالَ الإهانة

عبَّرَ النَّظمُ القرآنيُّ عن ﴿ٱلۡخُرۡطُومِ﴾ الموسوم مُعرَّفًا بـ(أل) في قوله تعالى: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّعيين الجنسيِّ المعلوم عندَ المُخاطَبين؛ إذِ ﴿ٱلۡخُرۡطُومِ﴾ في الحيوانِ يُقابلُه (الأنفُ) في الإنسانِ، لكنَّه سُمّيَ خُرطومًا للإهانةِ والتَّشويه، قال الطِّيبيُّ: "لو قال: (على الأنف)؛ لكان استهانةً، فلمّا قال: ﴿عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ﴾؛ كانَ أبلغَ في الإهانة؛ لأنَّ الخُرطومَ لا يَكادُ يُستعمَلُ إلّا في أنفِ الفيلِ والخِنزير من بينِ الدَّوابِّ"[2]، ولا يَبعدُ أن تكونَ (أل) عِوَضًا عنِ المُضافِ إليه، أي: خُرطومِه، والغرضُ من العدولِ الخروجُ من إرادة خُرطومٍ لمعيَّنٍ إلى أيِّ خرطومٍ، بحيثُ يتَّسِقُ مع: ﴿كُلَّ حَلَّافٖ﴾.

دلالةُ الاستعارة أوِ المَجازِ المرسَل في ﴿ٱلۡخُرۡطُومِ﴾:

التَّشويهُ والتَّقبيحُ لارتكابِهِ الذَّنبَ القَبيح

استعارَ النَّظمُ القرآنيُّ لفظَ ﴿ٱلۡخُرۡطُومِ﴾ لأنفِ الإنسانِ، في قولِه تعالى: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ﴾، قال ابنُ عاشور: "والظّاهِرُ أنَّ حَقيقَةَ الخُرطومِ: الأنفُ المُستَطيلُ كَأنفِ الفيلِ والخِنْزيرِ ونَحوِهما

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 77.

(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 581.

مِن كُلِّ أنْفٍ مُسْتَطيلٍ، وجَزَمَ ابْنُ عَطيَّةَ: أنَّ حَقيقَةَ الخُرْطوم مَخْطِمُ السَّبُعِ[1]، أي: أنْفُ مِثْلُ الأسَدِ، فَإطلاقُ ﴿ٱلۡخُرۡطُومِ﴾ على أنفِ الإنسانِ هُنا اسْتِعارَةٌ؛ كَإطلاقِ المِشْفَرِ، وهوَ شَفَةُ البَعيرِ على شَفَةِ الإنسانِ"[2]، والغرضُ مِن الاستعارة التَّشويهُ والتَّقبيحُ والإهانةُ لوجهِ المتوعَّدِ بالوَسْم بسببِ ذَنبِهِ القَبيح، قال السَّمين: "والخُرطومُ في الأصلِ أنفُ الفيل، فذُكِرَ هنا تقبيحًا لصاحبِهِ"[3]، ويحتملُ أنْ يكونَ مجازًا مرسَلًا من قبيلِ ذِكرِ الجُزْء وإرادةِ الكلِّ، فيكونَ الخرطومُ بمعنى الوجهِ[4]؛ بناءً على أنَّ الوسمَ تسويدُ الوجهِ.

سرُّ اختيارِ (الأنفِ) مَحَلًّا للوَسْم:

مَحلُّ العِزَّة صارَ مَحلًّا للذِّلَّة

اختارَ النَّظمُ القرآنيُّ (الأنفَ) من بينِ أعضاءِ الجسمِ مَحَلًّا للوَشْم باستعارةِ ﴿ٱلۡخُرۡطُومِ﴾ له، في قولِهِ تعالى: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ﴾؛ ليكونَ أعزُّ شيءٍ مُهانًا، فخُصَّ (الأنفُ) بالذِّكر؛ لأنَّ الوسمَ عليه أبشعُ[5]؛ إذ تعارفَ العربُ على استعمالِ (الأنف) للعِزَّةِ والشُّموخ، فيكون ذِكرُهُ والتَّنصيصُ عليه مبالغةً في الإهانةِ والاستخفاف، قالَ ابنُ عاشور: "ذُكِرَ الأنْفُ في التَّعْبيرِ عَن إظْهارِ العِزَّةِ في قَوْلِهِم: شَمَخَ بِأنْفِهِ، وهو أشَمُّ الأنْفِ، وهُمْ شُمُّ العَرانين، وعَبَّرَ عَن ظُهورِ الذِّلَّة والاستِكانَةِ بِكَسْرِ الأنْفِ، وجَدْعِهِ، ووُقوعِهِ في التُّرابِ، في قَوْلِهِمْ: رَغِمَ أنْفُهُ، وعلى رَغْمِ أنْفِهِ"[6]، فيكونُ ذِكرُ هذا العضوِ دونَ غيره مَقصودًا؛ لإظهارِ شدَّةِ الإذلال؛ ليكونَ مُقابلًا لغرورِهم واستكبارِهم عن الحقِّ، "وجُعِلَ تَشويهُهُ يَوْمَ القيامةِ في أنْفِهِ؛ لِأنَّهُ إنَّما بالَغَ في عَداوَةِ الرَّسولِ والطَّعْنِ في الدّينِ بِسَبَبِ الأنَفَةِ والكِبْرياءِ، وقَد كانَ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 348.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 77.
(3) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 1/ 498.
(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 137.
(5) الحنبليّ، فتح الرّحمن: 7/ 127.
(6) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 588، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 78.

(الأنْفُ) مَظْهَرَ الكِبْرِ، ولِذَلِكَ سُمّيَ الكِبْرُ (أَنَفَةً)؛ اشتِقاقًا مِنِ اسمِ الأنْفِ، فَجُعِلَتْ شَوْهَتُهُ في مَظْهَرِ آثارِ كبريائه"[1].

دلالةُ الحقيقةِ أوِ الاستعارةِ التَّمثيليّة في ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾:

المجازُ والحقيقة دالّانِ على خطأ المَنهجِ والطَّريقة

يحتملُ النَّظمُ في قولِه تعالى: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ أنَّه مُستعمَلٌ بالمعنى الحقيقيِّ، وهو وضعُ علامةٍ تُميِّزُهم، ووَشْمٍ يُقبِّحُهم، ويُذلُّهم على أُنوفهم، أمّا في الدُّنيا؛ فيكونُ بضَرْبِ الوُجوهِ بالسُّيوفِ وتشويهها، فيكونُ وشمًا على الخُرطوم باقيًا، فعَنِ ابنِ عَبّاسٍ ﵄: مَعْنَى ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾: "سَنَخْطِمُهُ بِالسَّيْفِ، فنجعل ذلك علامةً باقيةً على أنفه"[2]، وقَد كانوا إذا ضَرَبوا بِالسُّيوفِ؛ قصدوا الوُجوه والرُّؤوس، وأمّا في الآخرة فأنْ يُحشَروا، ويُعذَّبوا بعلامةٍ موضوعةٍ على أنوفٍ ممتدَّةٍ يتميَّزون بها عن المُعذَّبين؛ لغرورِهم واستكبارِهم، والغرضُ من الإخبارِ الحقيقيِّ حينَئذٍ الوعيدُ الدُّنيويُّ أوِ الأخرويُّ، ويحتملُ أنَّه مُستعمَلٌ بالمعنى المجازيِّ، فيكون استعارةً تمثيليَّةً، قال ابن عاشور: "فالمَعْنَى: سَنُعامِلُهُ مُعامَلَةً يُعْرَفُ بِها أنَّهُ عَبْدُنا، وأنَّهُ لا يُغْنِي عنه مالُهُ ووَلَدُهُ مِنّا شَيْئًا، فالوَسْمُ: تَمْثِيلٌ تَتْبَعُهُ كِنايَةٌ عَنِ التَّمَكُّنِ مِنهُ وإظْهارِ عَجْزِه"[3]، فقد شبَّه مُعاملةَ اللّهِ تعالى لهم بطريقةٍ مُذلَّةٍ بمَنْ يوضَعُ الوَسْمُ على أنفِهِ؛ ليتميَّزَ عن أقرانِه بجامعِ الإذلالِ في كلٍّ، ثمَّ حذفَ المُشبَّه، وأبقى المشبَّه به، والغرضُ منَ الاستعارةِ حينَئذٍ دوامُ الإهانةِ والإذلالِ.

ورجَّحه الطَّبريُّ بقوله: "وأَوْلى القولين بالصَّواب في تأويل ذلك عندي قولُ مَن قالَ: معنى ذلك سنُبيِّنُ أمرَهُ بيانًا واضحًا حتّى يَعرفوهُ، فلا يَخفى عليهم، كما لا تَخفى السِّمةُ على الخُرطوم"[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 78.
(2) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 10/ 15.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 77.
(4) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 541.

دلالةُ الكِنايةِ في ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ﴾:

نصيبُ المُستكبرين الهَوانُ يومَ الدّين

كنَّى النَّظمُ القرآنيُّ في قولِهِ تعالى: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ﴾، عنِ التُّمكُّن من المتوعَّد به؛ إذ وضْعُ العلامةِ على أيِّ منطقةٍ في الجسدِ دليلُ التَّمكُّنِ والغَلبةِ والسَّيطرةِ عليه؛ "إذْ صارَ كالبَهيمَةِ لا يَمْلِكُ الدَّفْعَ عَن وسْمِهِ في الأنْفِ"[1]، فإنْ كانت في الوجهِ فهي أقوى، وإنْ كانت على الأنفِ؛ فهي أظهرُ، قال ابنُ عاشور: "والضَّرْبُ والوَسْمُ ونَحْوُهُما على الأنْفِ كِنايَةٌ عَنْ قوَّةِ التَّمَكُّنِ وتَمامِ الغَلَبَةِ وعَجْزِ صاحِبِ الأنْفِ عَنِ المُقاوَمَةِ؛ لِأنَّ الأنْفَ أبْرَزُ ما في الوَجْهِ، وهوَ مَجْرَى النَّفَس"[2].

قال الواحديُّ: "وجائزٌ أنْ ينفردَ بسِمَةٍ؛ لتعاليهِ في عَداوة النَّبيِّ ﷺ، فيُخَصُّ منَ التَّشويه بما يَتبيَّنُ به من غيرِه، كما كانت عَداوتُهُ لرسولِ اللّه ﷺ عداوةً يتبيَّنُ بها من غيره"[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

السِّمة والعَلامة:

الوَسْمُ تأثيرٌ والتَّعليمُ استدلالٌ

الوَسْمُ: هو وضْعُ أثرٍ في شيءٍ؛ ليُعرَفَ به، ومِن مصاديقِهِ: الكَيُّ في الحيوانِ بعنوانِ التَّعرفةِ، وقطعُ الأُذُن فيه، وجَعْلُ علامةٍ بالتَّأثيرِ في شيءٍ، وتعيينُ علامةٍ في شخصٍ خيرًا أوْ شرًّا[4]، فالوسمُ وضعُ علامةٍ تُؤثِّرُ في الشَّيءِ حِسّيًّا بحيثُ لا يزولُ أثرُها، بخلافِ (التَّعليم) فإنَّه يكونُ بوضعِ علامةٍ لا تؤثِّرُ في الشَّيءِ المُعَلَم، بل تدلُّ عليه حتّى يحصلَ العِلمُ به بعدَ مدَّة، فلا يُنسَى، ولذا استعملَ النَّظمُ فعلَ (الوَسْم) دونَ فعلِ التَّعليم، فلم يقُل: (سَنُعْلِمُهُ بعلامةٍ على الخُرطوم).

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 240.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 78.
(3) الواحديّ، التّفسير البسيط: 22/ 87، 92.
(4) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 13/ 106.

الأنف والخُرطوم:

الأنـف للإنسان حـقـيـقـيٌّ والـخُـرطـوم له مجازيٌّ

يُعهَدُ استعمالُ الأنفِ للإنسان؛ إذِ الأنفُ ذلك العضوُ المعلومُ طولُهُ وامتدادُهُ، في حين يَشتهِرُ استعمالُ الخُرطوم للفيلِ والخِنزير، المختلفِ طولًا وامتدادًا وشَكْلًا، لكن قد يُطلَقُ الخرطومُ على الأنفِ الإنسانيِّ عندَ إرادةِ التَّشبيهِ للعُضْوِ القصيرِ الجميلِ اللّائقِ، بذلك العُضْوِ العريضِ الممتدِّ، على سبيلِ التَّشويهِ للوَجهِ معَ الاستخفافِ والإهانة.

﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا
مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ
وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾
أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ
يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟
عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [القلم: 17 - 25]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

المُغترّونَ بالدُّنيا ونعيمِها يكذِّبون، فيخسرون الآخرةَ والدُّنيا ويَشْقَون

لمّا كانَ التَّكذيبُ بالحقِّ والآياتِ قائمًا على الاغترارِ بالدُّنيا وما فيها من أموالٍ وبنينَ؛ ظنًّا منهم أنَّها باقيةٌ مُعمِّرةٌ؛ ناسَبَ أنْ يُشبِّهَ ابتلاءَهم بالدُّنيا وغُرورِها بابتلاءِ أصحابِ الجنَّة الَّذين افتُتِنوا بها، وأرادوا أن تكونَ خيراتُها مُنحصِرةً فيهم لا يشارِكُهم فيها أحد، وهذا شأنُ المُكذِّبين بالحقِّ، أنَّهم مُغترّونَ بدُنياهم؛ فلا يريدونَ إنفاذَ حقٍّ عليهم أوْ تقديمَ طاعةٍ منهم، فكانتْ عاقبةُ أمرِهم خسارةَ الجنَّةِ الدُّنيويَّة والجنَّةِ الأُخرويَّة، والحصولَ على العَذابِ المُهين، وكذلك عاقبةُ المُكذِّبين بالآياتِ الحَقَّة يَخسَرونَ دُنياهم وآخِرتَهُم معًا، قال الهرريُّ: "مناسبةُ هذه الآيات لما قبلها أنَّه ﷻ لمّا ذكر فيما سلف أنَّ (ذا المالِ والبنينَ) كفرَ، وعصَى، وتمرَّدَ؛ لما آتاه اللّهُ منَ النِّعَم؛ أردفَ هذا ببيانِ أنَّ ما أُوتِيَهُ إنَّما كان ابتلاءً وامتحانًا؛ ليرى أيصرفُ ذلك في طاعةِ اللّه وشُكرِه، فيزيدُ له في النِّعمة، أم يكفرُ بها؟ فيقطعُها عنه، ويَصبُّ عليه ألوانَ البلاءِ والعذاب، كما أنَّ أصحابَ الجنَّة لمّا أتَوا بهذا القَدرِ اليسيرِ من المعاصي؛ دمَّر اللّهُ جنَّتَهم، فما بالُك بمَنْ حادَّ اللّهَ ورسولَهُ، وأصرَّ على الكُفرِ والمَعصيةِ؟"[1].

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 30/ 77.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَيَصۡرِمُنَّهَا﴾: (صرم) أصلٌ واحدٌ صحيحٌ مُطَّرد، وهو القطعُ، من ذلك: صرمُ الهجران، والصِّرام: آخِرُ اللَّبن بعدَ التَّغزير، وآخرُ الشَّيءِ عندَ انقطاعِه؛ فأمّا الصَّريم؛ فيقال: إنَّه اسمُ الصُّبحِ واسمُ اللَّيل، وكيفَ كان فهو من القياس؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ منهما يَصرِمُ صاحبَهُ، ويَنصرِمُ عنهُ[1]، والصَّرمُ: القطعُ البائنُ للحبلِ والعِذْق، وقد صرمَ العِذق عنِ النَّخلة[2]، فهو الفرقُ بالقطعِ، وليسَ بمُطلقِ فرقٍ ولا قطعٍ، فيُقالُ: صرمَ النَّخلَ والحبلَ والعِذْق؛ إذا قطعَ جزءًا منها، وفرَّقَها عنِ الأصلِ[3]، والمرادُ بهِ في الآية: قَطْعُ الثَّمرِ مَعَ خَزْنِه وعدمِ إبقاءِ شيءٍ منهُ للفُقراء.

2) ﴿مُصۡبِحِينَ﴾: (صبح) أصلٌ واحدٌ مُطَّرد، وهو لونٌ من الألوان، قالوا: أصلُهُ الحُمرة، وسُمّي الصُّبح صُبحًا لحُمرتِهِ، ولذلك يقالُ: وجهٌ صبيحٌ، والصَّباح: نورُ النَّهار[4]، وأصبحْنا: دَخلنا في الصَّباح[5]، والإصباحُ: صيرورةُ شخصٍ أوْ شيءٍ ذا صباح، وهو لازمٌ[6]، والمرادُ به في الآية: وقوعُ الصَّرم، وهم داخلونَ في وقتِ الصُّبحِ وأوَّلِ النَّهار.

3) ﴿طَآئِفٞ﴾: (طوف) أصلٌ واحدٌ صحيحٌ يدلُّ على دَورانِ الشَّيءِ على الشَّيءِ، وأنْ يَحُفَّ به، يقالُ: طافَ به وبالبيتِ يطوفُ طَوْفًا وطَوافًا، ثمَّ يقالُ لما يدورُ بالأشياءِ، ويُغشّيهَا من الماء: طَوَفان، ومن الباب الطّائفُ، وهو العاسُّ[7]، وطافَ بالشَّيء: استدارَ به، والمَطافُ: مَوضِعُ الطَّواف، وأطافَ بالشَّيءِ: أحاطَ به، واسمُ الفاعل طائفٌ[8]، فهو حركةٌ حولَ شيءٍ، مادّيًّا أوْ معنويًّا، وسواءٌ كان أمرًا مطلوبًا أوْ غيرَه[9]، والمُرادُ به في الآية: ما يُحيطُ بهم، ويدورُ عليهم من عذابٍ ونِقمةٍ غاشيةٍ يُقهَرونَ بها.

4) ﴿ٱغۡدُواْ﴾: (غدو) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على زمانٍ، من ذلك الغدوُّ، يقالُ: غَدا يَغدو،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صرم).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (صرم).
(3) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 6/ 243.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صبح).
(5) الفيوميّ، المصباح المنير: (صبح).
(6) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 6/ 184.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طوف).
(8) الفيوميّ، المصباح المنير: (طوف).
(9) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 7/ 150.

والغُدوةُ والغَداةُ[1]، وغدا غُدوًّا (من بابِ قَعَدَ): ذَهَبَ غُدوةً، وهي ما بينَ صَلاةِ الصُّبح وطلوعِ الشَّمس، هذا أصلُه، ثمَّ كَثُرَ حتّى استُعمِلَ في الذَّهاب والانطلاقِ في أيِّ وقتٍ كان[2]، والغُدوةُ: البُكرة، واغتدى: بكَّرَ[3]، فهو تحوُّلٌ معَ جريانٍ، كالتَّحوُّلِ في اللَّيل وجَرَيانِه إلى أن يزولَ آثارُ اللَّيل، وهذا المَعنى يتحقَّقُ من أوَّلِ الفجرِ إلى طلوعِ الشَّمس، فلا بدَّ في تحقُّق هذا الأصلِ مِن لَحاظِ قيدينِ: التَّحوُّلُ، وجَرَيانُهُ[4]، والمُرادُ به في الآية: تحوَّلوا من حالةِ النَّوم إلى الإقبالِ على الحَرْثِ أوَّلَ النَّهار.

5) ﴿حَرۡثِكُمۡ﴾: (حرث) أصلانِ، أحدُهما: الجَمْعُ والكَسْبُ، والآخَرُ أن يَهزِلَ الشَّيءُ[5]، وحرثَ الرَّجلُ المالَ حَرْثًا (من بابِ قتلَ)، فهو حارِثٌ، وحرَثَ الأرضَ حَرْثًا: أثارَها للزِّراعة[6]، والحَرْثُ: الزَّرع، والحَرّاثُ: الزرّاع[7]، فهو بلوغُ المَحصولِ منَ الزَّرع، وتحصيلُ النَّتيجةِ منه، وهذا المَعنى إنَّما يتحقَّقُ بعدَ الزَّرع وقبلَ الحَصاد، وفي هذا المَقام ظهورُ ما زُرِعَ واخضرارُهُ وتجلّيه، والمُرادُ به في الآيةِ: الزَّرعُ الصّادق بجميعِ ما يُزرَعُ من أثمارٍ وحُبوبٍ وخُضارٍ.

6) ﴿يَتَخَٰفَتُونَ﴾: (خفت) أصلٌ واحدٌ، وهو إسرارٌ وكِتمانٌ، فالخَفْتُ إسرارُ النُّطق[8]، وخَفَتَ الصَّوتُ خَفْتًا من بابِ (ضَرَبَ)، ويُعدَّى بالباءِ، فيقالُ: خفتَ الرَّجلُ بصوتِه؛ إذا لم يَرفَعْهُ، وخافَتَ بقراءتِه مُخافتَةً، وخَفَتَ الزَّرعُ ونحوُهُ؛ إذا ماتَ، فهو خافِتٌ[9]، وهو خفضُ الصّوت إلى حَدٍّ يَقرُبُ منَ السُّكون والإسرارِ، وهذا المَعنى في مُقابِلِ الجَهْرِ، فإنَّ الجَهْرَ: هو رفعُ الصَّوتِ والإظهارُ بحيثُ يَسمَعُ كلُّ أحدٍ يقرُبُ منهُ عَلَنًا[10]، والمُرادُ به في الآية: يُخفِضونَ أصواتَهم، ويُخفونها إسرارًا بينَهُم.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غدو).
(2) الفيوميّ، المصباح المنير: (غدو).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (غدو).
(4) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 7/ 209.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حرث).
(6) الفيوميّ، المصباح المنير: (حرث).
(7) الجوهريّ، الصّحاح: (حرث).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خفت).
(9) الفيوميّ، المصباح المنير: (خفت).
(10) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 3/ 85.

7) ﴿مِّسۡكِينٌ﴾: (سكن) أصلٌ واحدٌ مُطَّردٌ، يدلُّ على خِلافِ الاضطِراب والحَركةِ، يقالُ: سكنَ الشَّيءُ يَسكُنُ سُكونًا، فهو ساكِنٌ[1]، وسَكَنتُ الدّارَ سَكْنًا من بابِ (طلَبَ)، والسَّكَنُ: ما يُسكَنُ إليه من أهلٍ ومالٍ وغيرِ ذلك، وهو مصدرُ سَكَنْتُ إلى الشَّيء، والسَّكينةُ: المَهابة والرَّزانة والوَقار، وسَكَنَ المُتحرِّكُ سُكونًا: ذهبَتْ حركتُهُ، والمِسكينُ من هذا؛ لسُكونِه إلى النّاس[2]، والمِسكينُ (مِفعيل) مبالغةٌ في السّاكن، وهو الَّذي بلغَ في السُّكونِ إلى أقصاهُ، ويُعبِّر هذا عمَّن يكونُ محدودًا قدرةً وقوَّةً وتَمَكُّنًا، بحيثُ يَعجَزُ عنِ السَّعي والجُهد في توسِعة المَعيشة، إمّا لمَرضٍ أوْ لهَرَمٍ أوْ لضعفٍ في البدَنِ أوْ في المالِ[3]، وهو المُرادُ في الآية.

8) ﴿حَرۡدٖ﴾: (حرد) أصولٌ ثلاثةٌ: القَصْدُ، والغَضَبُ، والتَّنحّي[4]، وحَرَدَ يَحْرِدُ حَرْدًا: قصدَ، ﴿وَغَدَوۡاْ عَلَىٰ حَرۡدٖ قَٰدِرِينَ﴾، أي: على قَصْدٍ، وقيلَ على مَنْعٍ، مِن قولِهم: حارَدَتِ الإبلُ حِرادًا، أي: قلَّتْ ألبانُها[5]، والحَرْدُ: المَنعُ عن حِدَّةٍ وغضَبٍ[6]، فهو التَّنحّي على حِدَّةٍ، وبتناسُبِ هذا المفهوم تُستعمَلُ في الغَضَبِ والمَنْعِ والعُدولِ والاعوجاجِ والنَّكَدِ، وهو قِلَّةُ الخيرِ والمنعُ عنِ الدَّرِّ[7]، والمُرادُ به في الآية: التَّنحّي عنِ المَساكينِ والحِدَّةِ عليهم.

9) ﴿قَٰدِرِينَ﴾: (قدر) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على مَبلغِ الشَّيءِ وكُنهِهِ ونِهايتِهِ[8]، وقَدَرْتُ الشَّيءَ قَدْرًا من بابَي (ضَرَبَ وقَتَلَ)، والقَدَرُ: القضاءُ الَّذي يُقدِّره الله تعالى، وإذا وافقَ الشَّيءُ الشَّيءَ؛ قيلَ: جاءَ على قَدَرٍ، ورجلٌ ذو قُدْرةٍ ومَقدرةٍ، أي: يَسار، وقَدَرْتُ على الشَّيءِ أقْدِرُ من بابِ (ضرَبَ): قَويتُ عليه، وتمكَّنتُ منه، والاسمُ: القُدرةُ، والفاعلُ قادرٌ وقديرٌ، والشَّيءُ مَقدورٌ عليه[9]، فهو دالٌّ على القوَّةِ في اختيارِ إيتاءِ الفعلِ وتَركِه، بمعنى: أنَّ له قوَّةً؛ إنْ شاءَ فعلَ بها، وإنْ لم يشأ؛ لم يَفعَلْ، والمُرادُ به في الآية: (قادرينَ على الدَّرِّ والخير، ولكنَّهم نَكِدوا)[10].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سكن).
(2) الفيوميّ، المصباح المنير: (سكن).
(3) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 5/ 169.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حرد).
(5) الجوهريّ، الصّحاح: (حرد).
(6) الرّاغب، المفردات: (حرد).
(7) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: (حرد).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قدر).
(9) الفيوميّ، المصباح المنير: (قدر).
(10) المصطفويّ، التحقيق في كلمات القرآن: 2/ 176، 9/ 193.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

ضَرْبُ القَصَصِ والأمثال للعِبرة والعِظة بعاقبةِ المآل

أي: إنّا اختبرنا أهلَ مكَّة، وأصبْناهُم ببليَّةٍ مثلَ ما بَلَونا أصحابَ الجنَّةِ المعروفِ خبرُها عندَهم، قيلَ: كانتْ بأرضِ اليمنِ قريبًا من صَنعاء لرجلٍ؛ كان يُؤدّي حقَّ اللّه منها، فماتَ، فصارَتْ إلى ولدِه، فمَنَعوا النّاس خيرَها، فكانَ ما ذَكرَهُ اللّهُ تعالى؛ إذ حَلفوا؛ لَيَقْطَعُنَّ ثمارَها بعدَ نُضجِها واستوائِها وقتَ الصَّباحِ قبلَ أنْ يخرُجَ المساكينُ؛ كي لا يَشعُروا بهم، ولا يستثنونَ منها حِصَّةَ المساكينِ، كما كان يفعلُ أبوهُم، فنزلَ على الجنَّة، وأحاطَ بها من كلِّ جانبٍ بلاءٌ مُحيط وعذابٌ، وهُمْ نائمونَ أوْ غافلونَ غفلةً تامَّةً عمّا جرَتْ بهِ المقاديرُ، فأصبَحَتْ جنَّتُهم كالبُستانِ الَّذي صُرِمت ثمارُهُ، وقُطِعَتْ بحيثُ لم يبقَ فيها شيءٌ، فنادَى بعضُهم بعضًا وقتَ الصَّباحِ أنِ اخرُجوا مُبكِّرين إلى بُستانكم إنْ كنتُم مُصرّين على الصَّرمِ وقطعِ الثِّمار، فاندفعوا مُسرعينَ وهم يَتشاورونَ فيما بينهُم بطريقِ المُخافتةِ والمُسارَّة، مُتواصّينَ قائلًا بعضُهُم لبعض: لا يُمكِّنَنَّ أحدٌ منكم اليومَ مِسكينًا من دخولِ الجنَّة عليكُم، وساروا في أوَّلِ النَّهار إلى جنَّتِهم قادرينَ على مَنْعٍ، أوْ غضَبٍ، أوْ سُرعةٍ ليس إلّا.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الفصلِ في ﴿إِنَّا بَلَوۡنَٰهُمۡ﴾:

استقلالُ الكلامِ لتحقيقِ الانتباهِ لخطورةِ المقامِ

فصلَ النَّظمُ الكريم قولَه تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوۡنَٰهُمۡ﴾ عمّا قبله؛ للاستئنافِ الابتدائيِّ المُنقطِعِ عمّا قبلَه؛ تحقيقًا للاستقلالِ في الكلامِ؛ ونظرًا لأهمّيَّة المقامِ والغرضِ من التَّمثيلِ بالقصَّة؛ إذِ الغَرضُ الإخبارُ بقِصَّةٍ تُشبِهُ قصَّةَ هؤلاءِ المُكذِّبين بالآياتِ؛ إذِ الدّافعُ للتَّكذيب الاغترارُ بالمالِ والبَنين، والدّافعُ في القصَّة - أيضًا - الاغترارُ بالجنَّة ونعيمِها، فالاستئنافُ ناظرٌ إلى سببِ التَّكذيب بالآيات، وهو قولُه: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٖ وَبَنِينَ﴾، فهي نعمةٌ

عظيمة، وأصحابُ الجنَّة يمتلكونَ جنَّةً جميلة، فالنَّعيمُ المؤقَّتُ الزّائلُ والاغترارُ به سببٌ للتَّكذيب وللمَحْق معًا، قال ابنُ عاشور: "والجُملَةُ مُسْتَأْنَفَةٌ اسْتِئْنافًا ابتدائيًّا دَعَتْ إلَيهِ مُناسَبَةُ قَوْلِه: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٖ وَبَنِينَ﴾، فَإنَّ الازْدِهاءَ والغُرورَ بِسَعَةِ الرِّزْقِ المُفْضِيَيْنِ إلى الاستِخْفافِ بِدَعْوَةِ الحَقِّ وإهْمالِ النَّظَرِ في كُنْهِها ودَلائِلِها، قَدْ أَوْقَعا مِنْ قَديمِ الزَّمانِ أَصْحابَهُما في بَطَرِ النِّعْمَةِ وإهْمالِ الشُّكْرِ، فَجَرَّ ذَلِكَ عَلَيْهِم شَرَّ العَواقِبِ، فَضَرَبَ اللهُ لِلْمُشْرِكينَ مَثَلًا بِحالِ أَصْحابِ هَذِهِ الجَنَّةِ؛ لَعَلَّهُمْ يَسْتَفيقونَ مِنْ غَفْلَتِهِمْ وغُرورِهِمْ"(1).

دلالةُ (إنَّ) في ﴿إِنَّا﴾ والغرضُ منها:

تحقيقُ الكلام دَعْـوةٌ لمَزيدِ الاهتمام

أكَّدَ النَّظمُ الكريمُ الجملةَ الاسميَّة، في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوۡنَٰهُمۡ﴾؛ للدَّلالةِ على تحقيقِ النِّسبةِ الكلاميَّة، وتأكيدِ وقوعِها في الأذهان، دفعًا لأيِّ شكٍّ أوْ إنكارٍ في وقوعِ ذلك الابتلاءِ والامتحان؛ كما يُحقِّقُ التَّوكيدُ اهتمامًا بالمعنى المُرادِ إثباتُهُ؛ إذ لا يُؤكَّدُ إلّا المُهتَمُّ به؛ إثارةً للأذهانِ وإصغاءً للأسماع.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ(نا) العَظمةِ في ﴿إِنَّا﴾ مُقدَّمًا:

تعظيمُ الـذّاتِ الإلَهيّةِ تعظيمٌ لأفعالِها الجَليَّة

عبَّرَ النَّظمُ بضميرِ المتكلِّمين (نا)، في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوۡنَٰهُمۡ﴾؛ للدَّلالةِ على الذّاتِ الإلَهيَّة الواحدة في الحقيقةِ العَظيمةِ في الكمالاتِ، وتعظيمُ الذّاتِ يُنبئُ عن تعظيمِ ذلك الفعلِ المُسنَدِ إليه، فيكونُ الامتحانُ الإلَهيُّ مُختلفًا عن كلِّ امتحانٍ في صورتِهِ ومَضمونِه، وقدَّمَ النَّظمُ المسندَ إليه؛ للدَّلالة على الاختصاصِ والانحصار؛ ردًّا على ما يَعتقِدُهُ المُشركونَ من تأثيرِ آلهتهم، فينحصرُ الابتلاءُ والاختبارُ باللّه تعالى لا يتعدَّى إلى غيرِه؛ إذ لا فاعلَ إلّا اللّهُ تعالى.

دلالةُ الفعلِ الماضي ﴿بَلَوۡنَٰهُمۡ﴾ مادَّةً وصيغةً:

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ عن فعلِ (البَلْو) ماضيًا، في قولِهِ تعالى:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 79.

بعدَ الامتحانِ يُكرَمُ المرءُ أوْ يُهان

﴿إِنَّا بَلَوۡنَٰهُمۡ﴾؛ للدَّلالة على تحقُّقِ ذلك البلاءِ والاختبارِ، وصُدورِه على سبيلِ القَطعِ بالحُصول، ممّا يُفيدُ تقويةً لحصولِ تلك النِّسبة، وتحقيقًا لوقوعِها، ويَدلُّ الفعلُ بمادَّتِه على الاختبارِ والامتحان، وكلُّ امتحانٍ بلاءٌ، لكنَّ هذا الامتحانَ يُؤدّي إلى سَعادةٍ دُنيويَّة وسَعادةٍ أُخرويَّة، وقد يُؤدّي إلى تَعاسةٍ في الدُّنيا والآخرةِ معًا.

دلالةُ الاستعارةِ في ﴿بَلَوۡنَٰهُمۡ﴾:

الاختبارُ ابتلاء والصَّبرُ هو الدَّواء

استعارَ النَّظمُ الكريم فعلَ (البَلْو) في قولِه تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوۡنَٰهُمۡ﴾؛ للدَّلالة على الاختبارِ والامتحان بالنِّعَم؛ سواءٌ كانت أموالًا وبنينَ أم جنَّةً نَضيرة، بجامعِ وجودِ الصُّعوبة والشِّدَّةِ في كلٍّ، ثمَّ حَذفَ المُشبَّهَ، وأبقَى المشبَّهَ به على سبيلِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّة، وفي تسميةِ الاختبارِ والامتحانِ بلاءً وشدَّةً تنبيهٌ إلى ما يجبُ على المكلَّف منَ الاستعدادِ له، حتّى يخوضَ ذلك الابتلاءَ وتلك الفتنةَ، وينجَحَ في تخطّيها، والنَّظمُ الكريمُ يَلْفِتُ الانتباهَ إلى أنَّ البلاءَ كما يكونُ بالنِّقَم يكونُ بالنِّعَم، وأنَّ النِّعَم المُتلفةَ أكثرُ من النِّقَم.

وجعلَها ابنُ عاشور من الاستعارةِ التَّمثيليَّة بقوله: "البَلْوى هُنا تَمثيلٌ بِحالِ المُبْتَلَى في إرْخاءِ الحبْلِ لَهُ بالنِّعْمَة؛ لِيَشْكُرَ، أوْ يَكْفُرَ، فالبَلْوَى المَذْكورَةُ هُنا بَلْوَى بالخَيْر، فَإنَّ اللهَ أمَدَّ أهْلَ مَكَّةَ بِنِعْمَة الأمْن، ونِعْمَة الرِّزْق، وجَعَلَ الرِّزْقَ يَأْتيهم مِنْ كُلِّ جِهَةٍ، ويَسَّرَ لَهُمْ سُبُلَ التِّجارَةِ في الآفاقِ بِنِعْمَةِ الإيلافِ بِرِحْلَةِ الشِّتاءِ ورِحْلَةِ الصَّيْف، فَلَمّا أكْمَلَ لَهُمُ النِّعْمَةَ بِإرْسالِ رَسولٍ مِنْهُم؛ لِيُكْمِلَ لَهُمْ صَلاحَ أحْوالِهِم، ويَهْدِيَهُمْ إلى ما فيهِ النَّعيمُ الدّائِمُ، فَدَعاهُم، وذَكَّرَهُمْ بِنِعَمِ اللهِ؛ أعرضوا، وطغَوا، ولَم يَتَوَجَّهوا إلَى النَّظَرِ في النِّعَمِ السّالِفَة، ولا في النِّعْمَةِ الكامِلَةِ الَّتي أكْمَلَتْ لَهُمُ النِّعَمَ"[1].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 79.

ثبوتُ تلك السُّنَّة وكيفيَّةُ مواجهةِ المِحنَة

دلالتا الإخبارِ بالجُملتينِ الاسميَّةِ والفعليَّة:

جاء خبر (إنَّ) جملةً فعليَّةً؛ للدَّلالة على صُدورِ ذلك الفعلِ على سبيلِ الحُدوث، وجاءت الجملةُ الكبرى اسميَّةً؛ لتُفيدَ ثبوتَ ذلك الامتحانِ على سبيلِ الاستقرار، في حين أنَّ الجملةَ الفعليَّة تدلُّ على حدوثِهِ وتجدُّدِهِ في كلِّ وقتٍ وحالٍ.

الازدراءُ بالمُكذِّبين لازدرائِهِمُ الحقَّ المبِين

مَرجِعُ ضميرِ الغائبِ (هُم) في ﴿بَلَوۡنَٰهُمۡ﴾:

عبَّرَ النَّظمُ بضميرِ الجمعِ الغائبِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوۡنَٰهُمۡ﴾؛ للدَّلالة على أهلِ مكَّةَ والمُكذِّبين منهم على سبيلِ الخُصوص، الَّذينَ جاءَهم الخيرُ، ومَدَّهم اللّهُ تعالى بالأموالِ والبنين، لكنَّهم بدلًا من أنْ يَفهَموا اختبارَ النِّعمة؛ كذَّبوا بالآيات، وجَحَدوا المُنعِمَ الحقيقيَّ، فالضَّميرُ راجعٌ إلى ﴿ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ الَّذين استندوا في تكذيبِهم على الأموالِ والبنين، وعبَّرَ عنهم بضميرِ الغَيبة دون ضميرِ المُخاطَب؛ ازدراءً بوجودِهم وتَقليلًا لشأنِهم.

الابتلاءُ بالنِّعَم أصعَبُ مِنَ الابتلاءِ بالنِّقَم

حذْفُ مُتعلِّقِ الابتلاءِ في ﴿بَلَوۡنَٰهُمۡ﴾:

حذفَ النَّظمُ متعلِّقَ الفعلِ ﴿بَلَوۡنَٰهُمۡ﴾، في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوۡنَٰهُمۡ كَمَا بَلَوۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ﴾؛ ليُفيدَ عمومَ البَلوى، ومن المُفسِّرين مَن نظرَ إلى مآلِ ﴿أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ﴾، الَّتي احترقَتْ، وصارَتْ أثرًا بعد عين، "قالَ المُفسِّرون: بَلَوْنا أهلَ مكَّة بالجوعِ والقَحط، كما ابتلَينا أصحابَ الجنَّةِ بالجوعِ حينَ هلكَتْ جنانُهم"[1]، فكانَ الابتلاءُ والاختبارُ لهم في جنَّتِهم تهديدًا ورَدْعًا لهم؛ حتّى يَرجِعوا إلى الإنفاقِ والكرمِ في سبيلِ اللّه، ومن ثَمَّ حدَّدَ متعلِّقَ الابتلاءِ لأهلِ مكَّة بـ(الجَدْبِ والقَحْط)، حتَّى يَصبِروا، ويَرجِعوا إلى طاعةِ الرَّسول ﷺ وعدمِ تكذيبِهِ، ويحتمل أنَّ الاختبارَ والابتلاءَ بما هُم عليه من نِعَمٍ وفيرةٍ، سواءٌ لمُكذِّبي أهلِ مكَّةَ من أصحابِ الأموالِ والبنينَ، أوْ

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 22/ 95.

للمُكذِّبين من أصحابِ الجنَّةِ المَليئةِ بالثِّمارِ، فقادَتْهُما النِّعمةُ إلى بطَرِ الحقِّ والتَّكذيبِ، قال الرّازيُّ: "كَلَّفْنا هَؤُلاءِ أن يَشْكُروا على النِّعَمِ، كما كَلَّفْنا أصحابَ الجَنَّةِ ذاتِ الثِّمارِ أن يَشكُروا، ويُعْطوا الفُقَراءَ حُقوقَهُم"[1]، والابتلاءُ كما يتحقَّقُ بالنِّقَمِ؛ فإنَّ تحقُّقَه بالنِّعَمِ أَوْلى، وهو المُناسِبُ لسياقِ النَّظْمِ، ولذا جعلَ أصحابُ القولِ الأوَّلِ هذا الكلامَ مُرتَّبًا "على محذوفٍ، تقديرُه: أعطَينا أهلَ مكَّة الأموالَ؛ ليَشكروا، لا ليَبْطَروا، فلمّا بطَروا؛ ابتليناهُم بالجوعِ والقحط"[2]، ثمَّ ضُرِبَ لهم المثلُ بأصحابِ الجنَّة وابتلائِهم بجَنَّتِهم، وأجازَ الماتريديُّ الوجهين[3].

الموقعُ الإعرابيُّ لمحلِّ الجارِّ والمجرورِ في ﴿كَمَا بَلَوْنَآ﴾:

تقييدُ البَلاءِ بالبلاءِ دَعوةٌ لِلُّجوءِ إلى ربِّ الأرضِ والسَّماءِ

أوقعَ النَّظمُ الجارَّ والمجرورَ في قوله تعالى: ﴿بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ﴾؛ في محلِّ النَّصبِ نائبًا عن المفعولِ المطلق، ودالًّا عليه دلالةَ الصِّفةِ على الموصوف[4]، والتَّقديرُ: (بلوناهم بلاءً مثلَ بلاءِ...)، وفائدةُ الوصفِ التَّقييدُ للموصوفِ بكونِه مُشابهًا لبلاءٍ سابقٍ في طبيعتِه ودَوافعِه ونَتائجِه، فالمماثلةُ بين البَلائين دعوةُ تثبيتٍ لغيرِ المُكذِّبين، وعظةٌ لِمَن اتَّخذ التَّكذيبَ طريقًا لرَدْعِه عن مَسعاهُ الأثيم، "قال مقاتل: وهذا مثلٌ ضربَهُ اللّهُ لكفّارِ مكَّة؛ ليَعتبروا، فيَرجِعوا"[5]، وفي تقييدِ البلاءِ بالبلاءِ دلالةٌ على تحقُّقِ البلاءِ، كما تحقَّق ذلك البلاءُ السّابق عليه، ودلالةٌ على تواصُلِ الابتلاءات والفِتَنِ ما كانت الحياةُ، واستمرَّت.

نوعُ التَّشبيهِ ودلالتُهُ في ﴿كَمَا بَلَوْنَآ﴾:

المالُ والبَنون والجِنان مُعرَّضةٌ للتَّلَفِ والخُسران

شبَّهَ النَّظمُ القرآنيُّ في قوله تعالى: ﴿بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ﴾ اختبارَ أهلِ مكَّة باختبارٍ وقعَ لأصحابِ الجنَّة، والغرضُ من

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 607.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 92.
(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 10/ 145.
(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 92.
(5) الواحديّ، التّفسير البسيط: 13/ 107.

التَّشبيهِ: بيانُ الابتلاءين ببيانِ جَرَيانِ سُنَّة الله في خَلْقِهِ؛ إذ تتكرَّرُ الامتحاناتُ والفتنُ بالنِّعَم والنِّقَم؛ ليَميزَ اللهُ الخبيثَ من الطيِّب، فالمُشبَّهُ هو البلاءُ والامتحان الَّذي نزلَ بالمُكذِّبين من أهل مكَّة، الذينَ فُتنوا بأموالِهم وأولادِهم، وغرَّتْهم الحياةُ الدُّنيا، والمُشبَّه به البلاءُ والامتحانُ الَّذي نزلَ بأصحابِ الجنَّة، الَّذين غرَّتْهُم الأموالُ والثِّمار، وكلٌّ من الطَّرفينِ قد حصَلَ على النِّعمة من دون جَهْدٍ، فالأموالُ والبنونَ نعمةٌ من الله تعالى، كما حصلَتِ الجنَّةُ لأصحابِها إرثًا من أبيهم ونعمةً منه تعالى، لكنَّهما جَحَدا المنعمَ الحقيقيَّ، فالتَّشبيهُ مُركَّبٌ من مجموعِ حالاتٍ تشترِكُ بين الطَّرفين في الأسباب والدَّوافع، والنَّتائجِ وطبيعةِ الابتلاء، قال ابن عاشور: "ووَجْهُ المُشابَهَةِ بَيْنَ حالِهِم وحالِ أصْحابِ الجَنَّةِ المَذْكورَةِ هُنا هوَ (الإعْراضُ عَنْ طَلَبِ مَرْضاةِ اللهِ وعَنْ شُكْرِ نِعْمَتِهِ)، وهَذا التَّمْثيلُ تَعْريضٌ بالتَّهْديدِ بأنْ يَلْحَقَهُمْ ما لَحِقَ أصْحابَ الجَنَّةِ مِنَ البُؤْسِ بَعْدَ النَّعيمِ، والقَحْطِ بَعْدَ الخِصْبِ، وإنِ اخْتَلَفَ السَّبَبُ في نَوْعِهِ؛ فَقَدِ اتَّحَدَ جِنْسُهُ، وقَدْ حَصَلَ ذلِكَ بَعْدَ سِنينَ؛ إذْ أخَذَهُمُ اللهُ بِسَبْعِ سِنينَ بَعْدَ هِجْرَةِ النَّبيِّ ﷺ إلَى المَدينَةِ"[1].

دلالةُ (ما) في ﴿كَمَا بَلَوْنَآ﴾:

يَقوى التَّشبيهُ ويتأنَّقُ كلَّما تَقْوَى العَلاقاتُ وتتعمَّق

تحتملُ (ما) في قولِهِ تعالى: ﴿بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ المصدريَّةَ، فيكونُ من تشبيهِ البَلاء بالبلاء، وتشبيهِ المصدرِ بالمصدرِ، وهو يفيدُ أنَّ الحدثَ النّازلَ بالمُشبَّهِ مُشابِهٌ للحَدَثِ النّازلِ بالمُشبَّه به، فهو من تشبيهِ حالةٍ بحالةٍ أُخرى، وتحتملُ الموصوليَّةَ، فيحتاجُ إلى تقديرِ متعلِّقٍ للفعل الواقعِ في طرفِ المشبَّه، والتَّقديرُ: (بلوناهم بالنِّعمة كالنِّعمة الَّتي بلونا بها أصحابَ الجنَّة، ولا يبعدُ أنَّ النَّظمَ عبَّر بـ(ما)؛ للدَّلالة على الاحتمالينِ؛ لأنَّ التَّشبيهَ تقويةٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 79.

للعلاقةِ بينَ الطَّرفين، وكلَّما وُجدتْ علاقاتٌ تدمجُ بين الحالتين؛ قَويَ التَّشبيهُ، وتعمَّقتْ حالةُ المُشابهة، فيكونُ التَّشبيه في طبيعةِ البَلاء وفي النِّعمة التي ابتُلوا، واختُبِروا بها معًا.

دلالةُ تكرارِ الفعلِ ﴿بَلَوۡنَآ﴾:

التَّكرُّرُ اللَّفظيُّ مناسِبٌ للتَّكرُّرِ الوقوعيِّ

كرَّرَ النَّظمُ القرآنيُّ لفظَ فعلِ (البَلْو)، في قولِه تعالى: ﴿بَلَوۡنَٰهُمۡ كَمَا بَلَوۡنَآ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ سُنَّة الله في خَلْقِهِ دوامُ الابتلاءِ بالنِّعَم والمِحَن، وأنَّ المكلَّف خاضعٌ لسلسلةِ ابتلاءاتٍ وتكليفات، والابتلاءُ المُتكرِّرُ وقوعًا؛ ناسَبَهُ تكرُّرُه لفظًا، وكان التَّعبيرُ بالفعلِ الماضي؛ للدَّلالة على تحقُّقِ الوقوعِ الَّذي لا يَنبغي أنْ يُشَكَّ في صدوره وما ترتَّبَ عليه من نتائجَ ونِهايات.

دلالةُ الاستعارةِ في لفظِ ﴿أَصۡحَٰبَ﴾:

تحوُّلُ المالِك إلى تابعٍ ذَليلٍ مُتهالِك

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ عن المُبتَلينَ بلفظِ ﴿أَصۡحَٰبَ﴾، في قولِهِ تعالى: ﴿بَلَوۡنَٰهُمۡ كَمَا بَلَوۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ﴾، والصُّحبةُ دليلُ المُلازمةِ الشَّديدةِ والتَّعلُّقِ الكبير بالمُصاحَب، ممّا يُنبِئُ عنِ افتتانٍ بتلك النِّعمة حتّى صاحَبوها، والتصقوا بها، فكانوا أتباعًا للمالِ خاضعينَ له، فقد استعارَ النَّظمُ لفظَ (الأصحاب)؛ للمالكينَ بجامعِ أنَّ المالكَ لشيءٍ يُصاحِبُ ذلك الشَّيءَ، ويَرتبِطُ به، ثمَّ حذفَ المُلّاكَ، وأبقى الأصحابَ على سبيلِ الاستعارةِ التَّصريحيَّة، والغرضُ منَ الاستعارةِ تحويلُهُم مِن مُلّاكٍ إلى أصحابٍ وتابعينَ للمال، وتحويلُهم من مُلّاك إلى مُحبّين للمَصحوب مُنقادينَ له.

دلالةُ المُضافِ إليه ﴿ٱلۡجَنَّةِ﴾:

تحديدُ الفتنةِ بيانٌ لمحلِّ المِحنة

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ عن المضافِ إليه بلفظِ ﴿ٱلۡجَنَّةِ﴾، في قولِهِ تعالى: ﴿كَمَا بَلَوۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ﴾؛ للدَّلالة على تحديدِ النِّعمة الَّتي ابتُلوا بها، فكانتْ سببًا للفتنة والعذاب بدلًا من أن تكونَ سببًا للرَّحمة والسَّعادة، ولذا لم يَذكُرِ النَّظمُ أسماءَ أصحابِ القِصَّة أوْ قوميَّتَهم

أوْ بلدَهم، بل اقتصرَ على ذِكرِ المُبتلينَ ومحلِّ الابتلاءِ؛ إذِ العِبرةُ من التَّشبيه بيانُ أثرِ النِّعَم على الجُحود للمُنعم، بدلًا من الشُّكر له والتَّصديقِ به، ولفظُ ﴿ٱلۡجَنَّةِ﴾ يدلُّ على السَّتر والتَّغطية، وكأنَّها من كثافةِ أشجارها وكثرةِ أغصانِها مستورةٌ لا يُرى ما في داخلِها، كما يوحي لفظُ ﴿ٱلۡجَنَّةِ﴾ بالهناءةِ والسُّرور والنِّعمة والدَّعَة والجمال، ومع كلِّ تلك الكثرةِ بَخِلوا، وشَحّوا، ولم يفعلوا ما يَنبغي عليهم من شُكرِ المُنعِم تعالى عليهم، كما اغترَّ أهلُ مكَّةَ بالمالِ والبنينَ، فجَحَدوا المُنعمَ الحقيقيَّ، وكذَّبوا بالآيات.

دلالةُ الإضافةِ في ﴿أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ﴾:

تحويلُ الجنَّة إلى ذاتٍ لها أصحابٌ، إشارةٌ لتمكُّنِها من عقولِهم بكلِّ الأسباب

أضافَ النَّظمُ الكريم لفظَ (الأصحاب)، إلى لفظِ ﴿ٱلۡجَنَّةِ﴾، في قوله تعالى: ﴿بَلَوۡنَٰهُمۡ كَمَا بَلَوۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ﴾؛ للدَّلالة على تَعيينهم بإضافتِهم إلى الجنَّة؛ إذ يكتسبُ المضاف من المضاف إليه التَّعيينَ؛ إنْ كانَ معرفةً كما هنا[1]، والغرضُ من الإضافة بيانُ مالكيَّتهم للجنَّة؛ إذِ الإضافةُ لاميَّة، وتُشعِر بعلاقةِ المالك بالمملوكِ الَّذي تحوَّلَ إلى مُسيطِرٍ عليهم مُؤثِّرٍ فيهم، مع أنَّه لا يعدو أنْ يكون وسيلةً بينَ أيديهم، ولا يَبعُدُ أنْ يكونَ في إضافةِ الأصحاب إلى الجنَّة إشارةٌ إلى استعارةٍ مكنيَّة بتشبيهِ الجنَّة بذاتٍ عاقلة أمينةٍ قائدةٍ، تجمَّعَ حولَها أصحابٌ، وأُضيفوا إليها؛ ليكون المضافُ قرينةً على المَكنيَّة وتَخييلًا.

دلالةُ ﴿إِذۡ﴾ والغرضُ مِنها:

الابتداءُ بالتَّنفيذِ لا بالتَّخطيط

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بـ﴿إِذۡ﴾ الظَّرفيَّة الماضية، في قولِه تعالى: ﴿بَلَوۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ إِذۡ أَقۡسَمُواْ﴾؛ للدَّلالةِ على تحديدِ زمنِ بَلواهم واختبارِهم، فهي مُتعلِّقةٌ بجملةِ ﴿بَلَوۡنَآ﴾[2]، والغرضُ من رَبطِ وقتِ

(1) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 663.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 93.

الإقسام على المَعصيةِ بالبلاءِ تحديدُ بدايةِ الاختبارِ بأوَّل أعمالِ المَعصية؛ إذ أقسموا على تنفيذِ مُخطَّطِهم، فابتدأ وقتُ الاختبارِ حينَئذٍ، ونبَّهَ القونويُّ بقوله: "والمُرادُ وقتٌ متَّسِعٌ شاملٌ لوقتِ القَسَم ووقتِ هلاكِ البُستان، ولو جعل ﴿إِذْ﴾ للتَّعليل؛ [لَسَلِم] من التَّمحُّل"[1]، إلى أنَّ زمنَ البلاء ممتدٌّ وطويلٌ، فلا بدَّ من توسيعِ دلالة ﴿إِذْ﴾، حتّى تشملَ طولَ حدثِ الابتلاء، ورأى أنَّ حمْلَها على (التَّعليليَّة) أَوْلى لذلك، والتَّقديرُ: (لأجلِ أنَّهم أقسَموا؛ بَلَوناهُم).

دلالةُ الفعلِ ﴿أَقْسَمُواْ﴾ مادَّةً وصيغةً:

الإصــرار على تـنفيـذِ الـجُـرمِ الجبّار

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بالفعلِ الماضي المَزيدِ على الثُّلاثيِّ بالهمزةِ (أقسمَ)، في قولِه تعالى: ﴿إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا﴾؛ للدَّلالة على صُدورِ القَسَمِ منهم على سبيلِ القطعِ والتَّحقُّق، وأنَّه وقعَ منهم بشكلٍ لا شكَّ فيه، وتدلُّ مادَّةُ (القَسَم) على اليمينِ الصّادقةِ والعَزْمِ المُؤكَّد؛ إذ يغلبُ استعمالُ فعلِ القَسَم عند إرادةِ الصِّدق باليمينِ وإنجازِها على صعيدِ الفعل والواقِع، كما أفادَتْ صيغةُ (أفعلَ) على الإيجادِ للقَسَم وإنشائِه بكلِّ نيَّة وإصرارٍ، فهُم لم يَكتفوا بعَمَلِ الجريمةِ والإقدامِ على الباطِل، بل أقسَموا على تنفيذِه وتبييتِه، حتَّى لا يَتراجَعوا عن تَنفيذِه.

دلالةُ الإسنادِ إلى ضميرِ الجمعِ في ﴿أَقْسَمُواْ﴾:

المَـعـصـيـةُ الإجماعيَّة صورةُ إصرارٍ واقعيَّة

أسندَ النَّظمُ الكريم الفعلَ (أقسمَ) إلى (واو) الجماعة، في قولِه تعالى: ﴿إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا﴾؛ للدَّلالةِ على صُدورِ القَسَم منهم على سبيلِ الإجماعِ أوِ الأغلبيَّة، فإمّا أنَّ أوسَطَهم قد مانعَهُم، إلّا أنَّه شارَكَهم في القَسَم في نهايةِ المَطاف، أو لم يُقسِمْ معَهم على التَّنفيذِ، قال ابنُ عاشور: "ولَعَلَّهُم أقسَموا؛ ليُلزِموا أنْفُسَهُم بِتَنفيذِ

---

(1) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 232.

ما تَداعَوا إليهِ، وهَذا يَقْتَضي أنَّ بَعْضَهُم كانَ مُتَرَدِّدًا في موافَقَتِهِم على ما عَزَموا عليه، وأنَّهُم ألْجَموهُ بالقَسَم، وهذا الَّذي يَلْتَئِمُ مع قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ لَوۡلَا تُسَبِّحُونَ﴾، ولَعَلَّهُم أقْسَموا على أن يَفْعَلوا، وأقْسَموا عليه أن يَفْعَلَ مَعَهُمْ ذلِكَ، فَأقْسَمَ مَعَهُم، أو وافَقَهُمْ على ما أقْسَموا عليه، ولهذا الاعْتِبارِ أُسْنِدَ القَسَمُ إلى جَميعِ أصْحابِ الجَنَّة"[1].

سرُّ الإضافةِ في ﴿إِذۡ أَقۡسَمُواْ﴾:

أضافَ النَّظمُ الكريمُ الظَّرف ﴿إِذۡ﴾ للجملةِ ﴿أَقۡسَمُواْ﴾، في قولِه تعالى: ﴿إِذۡ أَقۡسَمُواْ لَيَصۡرِمُنَّهَا﴾؛ للدَّلالةِ على تحديدِ الزَّمن وتعيينِه؛ إذِ الزَّمنُ الَّذي تدلُّ عليه ﴿إِذۡ﴾ للماضي المُبهَم، ويتعيَّنُ بإضافتِه إلى فعلٍ وقعَ في الماضي، فيكونُ الزَّمنُ الماضي مُتحقِّقًا في صورةِ إقسامِهم على التَّنفيذِ لما عزَموا على فعلِه، وفيه إشارةٌ إلى تقبيحِ الجُرم مع حالةِ العَزمِ والقَسَم على التَّنفيذ؛ لما فيه من الجُرأةِ على الباطِلِ.

القَسَمُ على الجَريمةِ جُرأةٌ شنيعة

حذفُ مُتعلِّقِ الفعلِ ﴿أَقۡسَمُواْ﴾:

حذفَ النَّظمُ الكريم مُتعلِّقَ الفعلِ ﴿أَقۡسَمُواْ﴾، في قولِه تعالى: ﴿إِذۡ أَقۡسَمُواْ لَيَصۡرِمُنَّهَا﴾؛ إمّا للدَّلالة على أنَّهم أقسَموا بغيرِ (اللّه)، بقرينةِ قولِ أوسطِهم: ﴿لَوۡلَا تُسَبِّحُونَ﴾، الدّالِّ على وقوعِهم في الشِّرك، فيكونونَ قد أقسَموا بآلهةٍ باطلةٍ لا يَنبغي ذِكرُها، وإمّا أنَّهم أقسَموا باللّهِ مع شِركِهم به أيضًا، وحُذِفَ للعِلْم به وللصّيانةِ له عنِ المُقارنةِ للفعلِ القَبيح، وعلى كِلا الاعتبارينِ فإنَّ القَسَمَ على التَّنفيذِ باللّه تعالى أو بغيرِه، دالٌّ على شدَّةِ الإصرار على التَّنفيذِ للجُرم.

صيانةُ الاسمِ الجليلِ عنِ الفعلِ غيرِ النَّبيل

دلالةُ (اللّام) في ﴿لَيَصۡرِمُنَّهَا﴾ والغرضُ منها:

عبَّر النَّظمُ الكريم بـ(اللّام) في قولِه تعالى: ﴿أَقۡسَمُواْ لَيَصۡرِمُنَّهَا﴾؛ للدّلالةِ على التَّوكيدِ والتَّحقيقِ، فهي اللّام الواقعةُ في جوابِ القَسَم،

التَّوكيدُ والمُبالغة يُفيدانِ الإقدامَ بلا مُمانعة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 80.

المُنبئةُ بدُخولِها على توكيدِ المُقسَمِ عليهِ؛ تأكيدًا غيرَ قابلٍ للتَّراجُعِ عنِ التَّنفيذِ لهُ.

دلالةُ الفعلِ المُضارع (يَصرِمُ) مادَّةً وصيغةً:

القطعُ للأثمار على سبيلِ الاستمرار

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بالفعلِ المُضارعِ (يَصرِمُ)، في قولِه تعالى: ﴿لَيَصۡرِمُنَّهَا مُصۡبِحِينَ﴾؛ للدَّلالة على حدوثِ فعلِ الصَّرم على سبيلِ الاستمرار، حتّى لا يدعوا شيئًا معلَّقًا للفقراء، وتشترك المادَّةُ معَ الصّيغة في الدَّلالةِ على القطعِ للثِّمار قطعًا يُشبهُ الكمالَ معَ الخَزْنِ لهُ، قال البقاعيُّ: "عبَّر بِهِ عن (الجذاذ) بدلالته على القطعِ البائنِ المَعزوم عليه، المُستأصِلِ المانعِ للفقراءِ؛ ليكونَ قَطْعًا مِن كلِّ وجهٍ"[1]، بخلافِ (القطع) فإنَّه يُفيدُ القطعَ من دونِ إفناءٍ للمقطوعِ بحيثُ يبقى قِسْمٌ منه ينتفِعُ به الآخرون دونَ خَزْنٍ.

دلالةُ الإسنادِ إلى الفاعلِ في (يَصرِمُنّها):

العملُ بالاتِّفاق بعدَ القَسَمِ الإجماعيِّ بالإطلاق

أسندَ النَّظمُ الكريم الفعلَ المُضارعَ إلى ضميرِ الجَمع (الواو)، الَّتي تدلُّ عليها الضَّمَّة بعدَ حذفِها لالتقاءِ السّاكِنَين في قولِه تعالى: ﴿لَيَصۡرِمُنَّهَا مُصۡبِحِينَ﴾؛ للدَّلالة على حُدوثِ الصَّرم للثِّمار بشكلٍ جماعيٍّ من عُمّالِ أصحابِ الجنَّة، والعملُ الجماعيُّ دالٌّ على اتِّفاقٍ وتواطُؤٍ منهم على التَّنفيذِ بكلِّ إقدام.

مَرجِعُ الضَّميرِ الغائبِ في (يَصرِمُنَّها):

مِن شِدَّةِ الإصرام تغدو الجنَّةُ بلا قَوام

علَّقَ النَّظمُ الكريمُ فعلَ الصَّرم بضميرِ الغَيبةِ، في قولِه تعالى: ﴿لَيَصۡرِمُنَّهَا مُصۡبِحِينَ﴾، العائدِ إلى ﴿ٱلۡجَنَّةِ﴾ دونَ الثِّمارِ فحَسب، ولمّا كانَ الصَّرمُ مختصًّا بالثِّمار، وتسلَّط على الجنَّة بتقنيَّة مَجازِ الحَذْفِ، فلم يقُلْ: (ليَصرِمُنَّ أثمارَ الجنَّة)؛ عُلِمَ أنَّ الصَّرمَ من شدَّةِ تعلُّقِه بالأثمارِ حتّى تَبدوَ الجنَّةُ قد صُرِمَتْ بالكلِّيَّة، فلم يبقَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 307.

منها شيءٌ، وفي ذلك كشفٌ عن نيَّتِهم عدمَ إعطاءِ أيِّ شيءٍ منها للفُقراء والمُستحقّينَ بُخلًا منهم وكُفرًا بأوامرِ المُنعِم الحقِّ.

دلالةُ العُدولِ أوِ الالتفاتِ في ﴿لَيَصۡرِمُنَّهَا﴾:

الصِّرامُ هو مَحطُّ الاهتمام

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بأسلوبِ العُدولِ أوِ الالتفاتِ في قولِه تعالى: ﴿إِذۡ أَقۡسَمُواْ لَيَصۡرِمُنَّهَا﴾؛ فقدِ التفتَ النَّظمُ من ضميرِ المُتكلِّم في (لَنَصْرِمُنَّها) إلى ضميرِ الغَيبة في ﴿لَيَصۡرِمُنَّهَا﴾؛ والغرضُ من ذلك الالتفاتِ أوِ العُدولِ التَّركيزُ على فعلِ الصَّرم دونَ الاهتمامِ بالصّارم له، وليُفيدَ أنَّ الصّارم هُمُ العَمَلَةُ الَّذين في الجنَّة، فالواوُ حينَئذٍ راجعةٌ إلى العمّال.

دلالةُ ﴿مُصۡبِحِينَ﴾ ومَوقِعُهُ الإعرابيُّ:

تحديدُ حالةِ الصِّرام يُفيدُ التَّخطيطَ بكلِّ انتِظام

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بالحالِ[1] في قوله تعالى: ﴿لَيَصۡرِمُنَّهَا مُصۡبِحِينَ﴾؛ للدَّلالة على تقييدِ الصَّرمِ باللَّيلِ؛ ليَنتهيَ الصِّرمُ في حالةِ الإصباحِ والدُّخولِ في وقتِ أوَّلِ النَّهار، قال أبو السُّعود: "ليقطَعُنَّها داخلينَ في الصَّباح"[2]، مع بيانِ هَيئتِهم المُتلبِّسة بمقارنةِ أوَّلِ ضَوءِ النَّهار؛ ظَنًّا منهم أنَّهم يَسبقونَ الفُقراءَ بالحضورِ قبلَهم، فيَنتهونَ من العملِ ليلًا، وقد بدأ الصَّباحُ مُسرعينَ قبلَ مَجيءِ الفقراءِ إليهم، وفي تحديدِ حالِ الإصباحِ لانتهاءِ تلبُّسِهم بالصَّرم إشارةٌ منهم إلى التَّخطيطِ الدَّقيق معَ العَزمِ على التَّنفيذِ ليلًا بكلِّ دِقَّةٍ وإتقان.

سرُّ الوَصلِ بـ(الواو) في ﴿وَلَا﴾:

توكيدُ الصَّرمِ بالقَطْعِ بلا عقلٍ ولا فَهْم

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بـ(الواوِ) في قولِه تعالى: ﴿وَلَا يَسۡتَثۡنُونَ﴾؛ للدَّلالةِ إمّا:

على العطفِ على ﴿لَيَصۡرِمُنَّهَا﴾؛ بناءً على أنَّ مَعنى ﴿وَلَا يَسۡتَثۡنُونَ﴾:

---

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 93.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/ 14.

لا يَتركونَ، ولا يُبقونَ شيئًا للفقراء، فيكونُ من عطفِ الجملةِ الفعليَّة المضارعيَّة المنفيَّة على الجُملةِ الفعليَّةِ المضارعيَّة المُثبتةِ الواقعةِ في جوابِ القَسَم، فتكون داخلةً تحتَ القَسَم أيضًا[1]؛ للدَّلالةِ على التَّوكيدِ لدلالةِ (الصَّرم) المُفيدِ للقطعِ للأثْمار بشكلٍ كبيرٍ، بحيثُ لا يبقَى منهُ إلّا الشَّيءُ القليل، والظّاهرُ أنَّ أباهُم كانَ يقطَعُ بعضَ الثِّمار، ويَترِكُ بعضًا آخَرَ للفُقراء يَجذّونَهُ، ويَنتفعونَ به، فأكَّدوا رَغبتَهُم بالقطعِ الكُلّيِّ من خلالِ فعلِ (الصَّرم)، والعطفِ بعدم تركِ شيءٍ يصلُحُ للقطعِ والجَذِّ بعدَهُم، فتكونُ وظيفةُ العطفِ توكيدَ القطعِ بشكلٍ تامٍّ معَ الاحتراسِ عن تَرْكِ شيءٍ حتّى القليلِ منهُ، قال ابنُ عاشور: "ومَعْنَى ﴿وَلَا يَسۡتَثۡنُونَ﴾: أنَّهُم لا يَستَثْنونَ مِنَ الثَّمَرَةِ شَيْئًا لِلمَساكِينِ، وهذا التَّعْميمُ مُسْتَفادٌ مِمّا في (الصَّرْمِ) مِن مَعنى الخَزْنِ والانْتِفاعِ بِالثَّمَرَةِ؛ وإلّا فَإنَّ الصَّرْمَ لا يُنافي إعْطاءَ شَيْءٍ مِنَ المَجْذوذِ لِمَنْ يُريدونَ"[2]، وفائدةُ العُدولِ عن المضارعِ الاستحضارُ لحالةِ عدمِ التَّركِ لشيءٍ من الأشياءِ.

وإمّا للدَّلالةِ على الاستئنافِ، أوِ (الواوُ) للحالِ؛ وهما مبنيّانِ على أنَّ مَعْنى الاستثناءِ في ﴿وَلَا يَسۡتَثۡنُونَ﴾ هو قولُهم: (إنْ شاء الله) بعدَ القَسَم، قال الهرريُّ: "ولعلَّ إيرادَ (الاستثناء) بعدَ إيرادِ إقسامِهم على فعلٍ مُضمرٍ لمقصودِهم، مُستنكَر عندَ أربابِ المروءة؛ لتقبيحِ شأنِهم بذِكرِ السَّببينِ لحِرمانهم، وإنْ كان أحدُهما كافيًا فيه، لكنْ ذِكرُ (الإقسام) على أمرٍ مُستنكَرٍ أوَّلًا، وجعلُ (تركِ الاستثناءِ) حالًا منه ثانيًا؛ يُفيدُ أصالتَهُ وقوَّتَه في اقتضاءِ الحِرمان"[3].

ويحتملُ أنَّ مَعنى: ﴿وَلَا يَسۡتَثۡنُونَ﴾ منَ الثَّني: وهو الانعطافُ والصَّرف، يُريدونَ الشِّدَّةَ في نَظَرهم بعدمِ قَبولِ انعطافٍ وانصرافٍ في إجراءِ حُكمِهم في حُقوقِ الفقراءِ[4]، فيكون المعنى: ولا يَنثنونَ عن عَزمِهم، والسّينُ والتّاءُ للمُبالغة، والَّذي يترجَّحُ كونُ (الواو) للحال.

دلالةُ الإدماجِ في ﴿وَلَا يَسۡتَثۡنُونَ﴾:

أدمجَ النَّظمُ الكريم بيانَ حالهم عندَ إقسامِهم على الفعلِ القبيح، بقولِهِ تعالى:

---

(1) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 10/ 1533.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 81.

(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 93.

(4) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 6/ 243.

شِدَّةُ الغُرور تُفيدُ التَّبجُّحَ والنُّفور

﴿لَيَصۡرِمُنَّهَا مُصۡبِحِينَ ۝١٧ وَلَا يَسۡتَثۡنُونَ﴾؛ بناءً على أنَّ (الواو) للحال، وأنَّ مَعنى (الاستثناءِ) هو قولُهم: إنْ شاءَ اللّه، وحينَئذٍ يكونُ الفعلُ المضارعُ ﴿يَسۡتَثۡنُونَ﴾ لاستحضارِ حالِهم العَجيبة، ولذا لم يقُل: (وما استثنوا)، نبَّهَ إلى ذلك ابنُ عاشور بقوله: "وعلى هذا التَّفْسيرِ يَكونُ قَوْلُهُ: ﴿وَلَا يَسۡتَثۡنُونَ﴾ مِن قَبيلِ الإدْماجِ، أي: لِمَبْلَغِ غُرورِهِم بِقوَّةِ أنْفُسِهِم، صاروا إذا عَزَموا على فِعْلِ شَيءٍ لا يَتَوَقَّعونَ لَهُ عائِقًا، والجُمْلَةُ في مَوْضِعِ الحالِ، والتَّعْبيرُ بِالفِعْلِ المُضارِعِ لاستحضار حالَتِهِمُ العَجيبَةِ مِن بُخْلِهِم على الفُقَراءِ والأيتام"[1]، ولكنْ "يُضعِفُ كونَ (الواو) حاليَّةً من حيثُ إنَّ المضارعَ المنفيَّ بـ(لا) كالمُثْبَت في عدم دخولِ (الواو) عليه، وإلّا فبإضمارِ مُبتدأ قبلَهُ"[2].

دلالةُ (لا) والغرضُ منها:

نفيُ التَّركِ للقليلِ توكيدٌ للصَّرمِ الكثير

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بـ(لا) في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَا يَسۡتَثۡنُونَ﴾؛ للدَّلالة على نفيِ الاستثناءِ والتَّركِ حالًا واستقبالًا، والغرضُ من النَّفي بيانُ أنَّ الصَّرمَ المتعلِّق بالكلِّ لا يُبقي، ولا يذرُ، فهُم لا يَتركونَ شيئًا، ولو قليلًا للفقراءِ، والذي يظهرُ: أنَّ جملةَ النَّفي هي محطُّ الاهتمام؛ لأنَّ الصَّرم في الابتداءِ ليلًا، وفي الانتهاءِ وقتَ الصَّباح لا يُفيدُ عدمَ إعطاءِ الفقراء دلالةً قطعيَّةً، لكنَّ الَّذي يدلُّ على ذلك جملةُ النَّفي الَّتي نفتْ إبقاءَ شيءٍ لغيرِهم أوْ تركَهُ.

دلالةُ الفعلِ المضارعِ ﴿يَسۡتَثۡنُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

عبوديَّةُ المالِ تُؤدّي إلى سوءِ المآل

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بالفعلِ المضارع ﴿يَسۡتَثۡنُونَ﴾، في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَا يَسۡتَثۡنُونَ﴾؛ للدَّلالة إمّا على عدمِ التَّرك، أي: يَصرِمونَ الأثمارَ، ولا يُبقونَ شيئًا منها، وإمّا أنَّهم عندَما أقسَموا على الصَّرمِ، لم يقولوا: (إن شاءَ اللّه) مُعلِّقينَ قسَمَهم وتنفيذَ مُخطَّطِهم على

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 81.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 175.

المشيئةِ الإلهيَّة، "يقالُ: حلفَ فلانٌ يمينًا ليس فيها ثُنيا ولا ثُنوى ولا ثُنيةَ ولا مَثنويَّةَ ولا استثناءَ، كلُّه واحدٌ، وأصلُ هذا كلِّه من (الثَّني)، وهو الكفُّ والرَّدُّ، وذلك أنَّ الحالفَ إذا قالَ: (واللّه لأفعلَنَّ كذا إلّا أن يشاءَ اللّه غيرَهُ)، فقد ردَّ ما قالَهُ بمشيئةِ اللّه غيرَه"(1)، وعلَّل ابنُ عاشور تسميةَ التَّعليقِ بالمشيئةِ استثناءً بقوله: "إنَّ أَصْلَ صيغَتِه فيها حَرْفُ الاستِثْناءِ، وهوَ (إلّا)، فَإذا اقْتَصَرَ أحَدٌ على (إنْ شاءَ اللّه) دونَ حَرْفِ الاستِثْناءِ أُطْلِقَ على قَوْلِهِ ذَلكَ استِثْناءٌ؛ لأنَّهُ عَلَى تَقدير: (إلّا أن يَشاءَ اللّه) عَلَى أنَّهُ لَمّا كانَ الشَّرطُ يُؤَوَّلُ إلَى مَعْنَى الاستِثْناءِ؛ أُطْلِقَ عَلَيهِ استِثْناءٌ؛ نَظَرًا إلى المَعْنَى وإلى مادَّة اشتِقاقِ الاستِثْناءِ"(2)، ولا يَخفى أنَّ تفسير (الاستثناء) بهذا فيه شيءٌ؛ لأنَّ مَن يُقدِمُ على هذا العملِ الشَّنيعِ لا يُعلِّقُ فعلَهُ بالمشيئةِ الإلهيَّة، ولو علَّقَها؛ لكانَ هازئًا مُتهكِّمًا، فلا يُحمَلُ النَّظمُ عليه، والفعلُ ﴿يَسْتَثْنُونَ﴾ مزيدٌ بالسّينِ والتّاءِ؛ للدَّلالة على الطَّلب، أي: عندما يَصرِمونَ لا يَطلبونَ الثَّنيَ والإبقاءَ، فكأنَّ الإبقاءَ صارَ غيرَ مطلوبٍ لهم من شدَّةِ حرصِهم وشُحِّهم.

مَعنى (الفاءِ) والغرضُ منها في ﴿فَطَافَ﴾:

عطفَ النَّظمُ الكريمُ الجملةَ الفعليَّة على ما قبلَها بـ(الفاء)، في قولِه تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٞ مِّن رَّبِّكَ﴾؛ للدَّلالة على التَّعقيبِ المتَّصلِ بلا مُهلةٍ مع التَّسبُّب عنه، فيُنبئُ الحرفُ عن مَعنى المُسارعةِ في الإهلاكِ بعدَ أن عَزَموا النّيَّة، وأقسَموا الأيمانَ المُغلَّظةَ على عدمِ التَّراجُعِ والانثناءِ عن المَعصية، وفي ذلك إشارةٌ إلى أثرِ العَزمِ على المعصية عَزْمًا قويًّا مُبالغًا في السَّعيِ إلى تحقيقِهِ في نُزولِ العقابِ وحُصولِ الجَزاء والنِّقمة، قال ابنُ عاشور: "وعُجِّلَ العِقابُ لَهُمْ قَبْلَ

العــزمُ على العِصيان يَستدعي العقوبةَ لذلك الطُّغيان

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 22/ 97.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 81.

التَّلَبُّسِ بِمَنْعِ الصَّدَقَةِ؛ لِأَنَّ عَزْمَهُمْ على المَنْعِ وتَقاسُمَهُم عليه حَقَّقَ أنَّهُم مانِعونَ صَدَقاتِهِم، فَكانوا مانِعينَ، ويُؤْخَذُ مِنَ الآيَةِ مَوعِظَةٌ لِلَّذينِ لا يواسونَ بِأموالِهِم"(1).

دلالةُ الفعلِ الماضي (طافَ) مادَّةً وصيغةً:

الـدَّورانُ حـولَ البُستانِ إهلاكٌ مثلُ الطّوفان

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بالفعلِ الماضي (طافَ)، في قولِه تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٞ﴾؛ للدَّلالة على تحقُّقِ الوقوعِ على سبيلِ القَطْعِ بالحُصول، وأفادَتْ مادَّةُ الفعلِ دلالةَ الإحاطةِ بالجنَّة والدَّوران حولَها، وفُهِم منَ الدَّورانِ أنَّ العذاب اختصَّ بها دونَ بقيَّة الجنّات الَّتي من حَولها؛ ليكونَ العذابُ مَقصودًا بأهلِها، كما أنَّ فعلَ الطَّوف يُنبئُ عن الدَّورانِ والإحاطةِ بالشَّيءِ المُلتفِّ من حولِه؛ ليكونَ دالًّا على الإهلاكِ به إهلاكًا تامًّا، فلم يَذَرِ العذابُ الدّائرُ بالجنَّة منها شيئًا.

دلالةُ الاستعارةِ التَّمثيليَّة في ﴿فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٞ﴾:

العذابُ المُحدِق موجِعٌ ومؤرِّق

استعارَ النَّظمُ القرآنيُّ صورةَ مَن يطوفُ حولَ شيءٍ، ويمشي حولَه دائريًّا في قولِه تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٞ مِّن رَّبِّكَ﴾؛ للعذابِ الَّذي نزلَ بالجنَّة، وأتى عليها، فقد شبَّه حالَ العَذاب النّازلِ المُحدقِ بالجنَّة، ويحيطُ به بذلك الطّائف الَّذي يدورُ حولَ الشَّيءِ، ويحيطُ به مِن جوانبِه كلِّها، ثمَّ حذفَ المشبَّهَ، وأبقَى المُشبَّه به على سبيلِ الاستعارةِ التَّمثيليَّة، قال ابنُ عاشور: "وأُريدَ بِهِ هُنا تَمثيلَ حالَةِ الإصابَةِ لِشَيءٍ كُلِّهِ بِحالِ مَن يَطوفُ بِمَكانٍ"(2)، والغرضُ منَ الاستعارةِ إظهارُ صورةِ العَذابِ، وكأنَّه يَلتفُّ بالمكان، فلا يَتجاوزُهُ لغيره، ثمَّ يَقضي على جميعِ ما فيه، كما يُحيطُ الطّائفُ بالمكان مِن جميعِ جهاتِه.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 82.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 81.

سرُّ العُدول في الجارِّ والمجرور ﴿عَلَيۡهَا﴾:

الإحاطةُ والدَّوران معَ الاستعلاءِ على المكَان

عدَّى النَّظمُ القرآنيُّ فعلَ الطَّواف بـ(على)، في قولِهِ تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٞ مِّن رَّبِّكَ﴾ دونَ (الباء)؛ للدَّلالة على التَّسلُّطِ ونُزولِ العذابِ من جهةِ الفَوق، معَ الدَّلالة على التَّمكُّنِ والإحاطةِ إحاطةَ المُستعلي بالمستعلَى عليه، قال ابنُ عاشور: "وَعُدّيَ (طافَ) بِحَرْفِ (عَلَى) لِتَضْمِينِهِ مَعنَى: تَسَلَّطَ، أو نَزَلَ"[1]، فيكونُ العذابُ النّازل دائرًا بالشَّيءِ مُحيطًا ومُلتفًّا به ومُستعليًا عليه، قادمًا من جهةٍ عُلويَّةٍ، ولذا قالَ: ﴿فَطَافَ عَلَيۡهَا﴾، ولم يقل: (فطافَ بها).

دلالةُ الفاعلِ المُشتقِّ من لفظِ الفِعل ﴿طَآئِفٞ﴾:

تصويرُ المَجهول بِما يُقرِّبُهُ للعُقول

عبَّر النَّظمُ القرآنيُّ عن فاعلِ فعلِ الطَّواف بلفظٍ مشتقٍّ من الفعلِ (طافَ)، فقال تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٞ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ العذابَ النّازلَ طافَ بالمكان؛ لأنَّ من شأنه الطَّواف، قال القونويُّ: "ومعنى ﴿طَآئِفٞ﴾، أي: من شأنِهِ الطَّواف، بقرينةِ إسنادِ (طافَ)"[2]؛ لأنّا إذا قلنا: (قام قائمٌ، وركعَ راكعٌ)؛ فإنَّ الغرضَ من ذِكرِ الفاعلِ المأخوذِ من لفظِ الفعل الدَّلالةُ على أنَّ الَّذي أحدثَ الفعل من شأنِهِ صدورُ الفعلِ منه، فيكون فيه نوعُ توضيحٍ لطبيعةِ العذابِ النّازل المُعبَّر عنه بأنَّه ﴿طَآئِفٞ﴾ بالتَّنكير، فيُعلَمُ من كونه طائفًا أنَّه نارٌ على شبهِ إعصارٍ يدورُ حولَ الشَّيءِ مُهلكًا له.

دلالةُ الاستعارةِ التَّصريحيَّة في ﴿طَآئِفٞ﴾:

العذابُ الطّائف مُهلكٌ لجميعِ المالِ وتالِفِه

استعارَ النَّظمُ القرآنيُّ لفظَ (الطّائف)، في قولِهِ تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٞ مِّن رَّبِّكَ﴾ للعذابِ[3]، فيكونُ النَّظمُ قد شبَّه العذابَ بالطّائف بجامعِ أنَّ الطّائفَ يغلبُ استعمالُهُ في الشَّرِّ وفي الَّذي يطرقُ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 81.

(2) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 233.

(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 10/ 147.

ليلًا، ثمَّ حذفَ المشبَّهَ، وأبقَى المشبَّهَ به، ويدلُّ عليه ما أصبحَتْ عليه الجنَّةُ من حالةِ الصَّريم، والغرضُ منَ الاستعارةِ توصيفُ ذلك العذابِ وبيانُ إحاطتِهِ بالجنَّةِ إحاطةً تامَّةً، بحيثُ لم يستثنِ منها شيئًا، كما عَزَموا على صَرْمِها من دونِ أن يَستثنوا شيئًا منها للفُقراء والمُعوِزين.

(الطّائفُ) بينَ الخصوصِ والعُموم:

مصائبُ اللَّيلِ عذابٌ ووَيل

أسندَ النَّظمُ القرآنيُّ فعلَ الطَّوافِ إلى (الطّائف)، في قولِهِ تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٞ مِّن رَّبِّكَ﴾؛ للدَّلالة على حدوثِ بلاءٍ وأمرٍ طافَ بالجنَّة، فدمَّرَها، وجرى خلافٌ في عموم (الطّائف) وخُصوصِه، قالَ أبو حيّان: "قالَ الفرّاءُ: والطّائِفُ: الأَمْرُ الَّذي يَأتي بِاللَّيْلِ، ورُدَّ عَلَيْه بِقَوْلِه: ﴿إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ [الأعراف: 201]، فَلَمْ يَتَخَصَّص بِاللَّيْلِ"[1]، أي: وذلك لا يختصُّ بليلٍ ولا نهارٍ[2]، وتظهرُ ثمرةُ الخلافِ أنَّه على العُموم، ويكونُ قوله: ﴿وَهُمۡ نَآئِمُونَ﴾ تَقْييدًا لِوَقْتِ الطّائِفِ، وعلى الخصوصِ يكونُ تأكيدًا لهُ، وفائِدَتُهُ تَصْويرُ الحالَةِ[3].

الفعلُ المَبنيُّ للمَعلوم بمَنزلةِ المَجهول:

عَظَمَةُ الطّوفان هو الواعِظُ والمُذَكِّرُ للإنسان

أسندَ النَّظمُ القرآنيُّ الفعلَ المبنيَّ للمعلوم إلى الفاعلِ المشتقِّ من لفظِهِ، في قولِه: ﴿فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٞ﴾؛ للدَّلالة على حُدوثِ الفعل ووقوعِهِ دونَ التَّنصيصِ على الفاعلِ بعينِه، فيكونُ بمنزلةِ الفعل المبنيِّ للمجهول، كما في قولِه: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ [الكهف: 42]، قالَ ابنُ عاشور: "وَلَم يُعَيِّن جِنْسَ الطّائِفِ؛ لِظُهورِ أَنَّهُ مِن جِنْسِ ما يُصيبُ الجَنّاتِ مِنَ الهَلاكِ، ولا يَتَعَلَّقُ غَرَضٌ بِتَعْيينِ نَوْعِهِ؛ لأَنَّ العِبرَةَ في الحاصِلِ بِهِ، فَإِسْنادُ فِعْلِ (طافَ) إِلَى ﴿طَآئِفٞ﴾ بِمَنْزِلَةِ إِسْنادِ الفِعْلِ المَبْنِيِّ لِلمَجْهولِ، كَأَنَّهُ قيلَ: فَطيفَ عَلَيها، وهُم نائِمونَ"[4].

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 242.
(2) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 19/ 286.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 82.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 81.

أسرارُ التَّنكيرِ في ﴿طَآئِفٞ﴾:

التَّدميرُ الخَفيُّ رعبٌ حقيقيٌّ

نكَّرَ النَّظمُ القرآنيُّ لفظَ ﴿طَآئِفٞ﴾، في قولِهِ تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٞ﴾؛ للدَّلالة على التَّعظيمِ والتَّفخيمِ من شأنِ ذلك الطّائف الغريبِ المجهولِ الأسباب، قال ابن عاشور: "وتَنْوِينُ ﴿طَآئِفٞ﴾ لِلتَّعْظِيم، أي: أمرٌ عظيمٌ، وقَدْ بَيَّنَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿فَأَصۡبَحَتۡ كَٱلصَّرِيمِ﴾، فَهوَ طائِفُ سوءٍ، قيلَ: أصابَها عُنُقٌ مِنْ نارٍ، فاحْتَرَقَتْ"[1]، كما أفادَ التَّنكيرُ إغماضًا مقصودًا للخطاب، والإغماضُ من مقاصِدِ البُلَغاء، إذ يتخيَّلُ الذِّهنُ عذابًا ونِقمةً مُحيطة لا تُدرَكُ حقيقتُها، ولا يُتوصَّلُ إلى تحديدٍ شافٍ لطبيعتها، فيزدادُ خوفُهُ، ويعظُمُ وجَلُه من قُدرة اللّه تعالى الكاملة المُحيطة، وفي تنكيرِ الفاعلِ يكونُ التَّركيزُ على الحَدَث، وهو طَوَفانُ العذابِ بالجنَّة قصدَ تدميرها، فلا يكونُ ذِكرُ ماهيَّةِ الطّائفِ مَقصودًا لذاته، بل المقصودُ هو الحَدَثُ الَّذي حصلَ بأمرٍ مجهولٍ لا تُدرَك حقيقتُهُ لخفاءِ سببِه، فكأنَّ التَّنكير يُشيرُ إلى أنَّ ذلك التَّدميرَ لا يُعرَفُ سببُهُ، ولا يُحاط بكُنهه؛ لما فيه من غرابةٍ أسفرَ عنها تنكيرُ الفاعل.

مَعنى حرفِ الجرِّ ﴿مِّن﴾ في ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾:

تحديدُ جهةِ الصُّدور لبيانِ عَظَمةِ المصدرِ المَذكور

عبَّر النَّظمُ الكريمُ بحرفِ الجرِّ ﴿مِّن﴾، في قوله تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٞ مِّن رَّبِّكَ﴾؛ للدَّلالة على الابتداء، أي: ابتدأ مجيءُ العذابِ من اللّه تعالى، فليسَ قدومُهُ من أحدٍ سِواه، ولا يُرادُ بالابتداءِ في مثل هذا التَّعبيرِ المكانُ حقيقةً، بل الإشارةُ إلى مصدريَّةِ ذلك العذابِ، وهو اللّهُ تعالى؛ تمييزًا لجهةِ الصُّدور لبيانِ عظمةِ ذلك العذابِ المذكور، قال ابن عاشور: "و﴿مِّن رَّبِّكَ﴾، أي: جائيًا من قِبَلِ رَبِّكَ، فَـ ﴿مِّن﴾ لِلابتِداءِ، يَعني: أنَّهُ عَذابٌ أُرْسِلَ إلَيْهِم، عِقابًا لَهُمْ على عَدَمِ شُكْرِ النِّعمَةِ"[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 82.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 82.

نُكْتَةُ استعمالِ لفظِ (الرَّبِّ):

الرَّبُّ العظيم عقابُهُ للمُجرمينَ أليم

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بلفظِ (الرَّبِّ)، في قولِه تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٞ مِّن رَّبِّكَ﴾؛ للدَّلالة على السَّيطرةِ والقوَّة والعَظَمةِ؛ لما في لفظِ (الرَّبِّ) من السّيادةِ والتَّصرُّفِ المُطلَق التّامِّ، فناسَبَ ذِكرُهُ مقامَ الفعلِ المُحيط المُؤثِّر في الجنَّة التَّأثيرَ العَجيب.

دلالةُ الإضافةِ في ﴿رَّبِّكَ﴾:

تخصيصُ النَّبيِّ ﷺ بالخطاب إكرامٌ لشأنِهِ

أضافَ النَّظمُ الكريم لفظَ (الرَّبِّ) إلى ضميرِ المُخاطَب العائد إلى النَّبيِّ ﷺ، في قولِهِ تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٞ مِّن رَّبِّكَ﴾؛ للدّلالة على أنَّه المقصودُ بالتَّسليةِ ودَفْعِ الهَمِّ النّاجمِ عن تكذيبِهم للحقِّ، ولذا لم يقُلِ النَّظمُ: (مِن ربهم) أو (مِن ربكم)؛ للدَّلالة على أنَّ أربابَ هؤلاء لا يستطيعونَ فعلَ شيءٍ من ذلك، ومع ذلك هم يَعبدونَها مِن دون اللّه، ولذا خَصَّ النَّبيَّ ﷺ بالخطاب؛ إكرامًا لشأنِه، وإجلاءً لحقيقةِ ما يدعو له من الحقِّ، وأنَّ فعلَ ربِّهِ هو الفعلُ الحقيقيُّ، وأربابُهُم لا تفعَلُ شيئًا.

دلالةُ النَّعتِ بشبهِ الجُملة ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾:

تمييزُ العَذاب كما مُيِّزَ ربُّ الأرباب

نعتَ النَّظمُ الكريم النَّكرةَ بِشِبهِ الجُملة ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾، في قولِهِ تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٞ مِّن رَّبِّكَ﴾؛ لتحديدِ جهةِ صُدورِ ذلك الطّائف المجهولِ الغريب، أي: كائنًا من ربِّك وجائيًا منه ونازلًا من عندِه، وفي هذا النَّعت بيانٌ لغرابتِهِ وتعليلٌ لنَكارتِهِ؛ إذ أفعالُ اللّه تعالى لا تُضارِعُ شيئًا من أفعالِ مَخلوقاته، فيكونُ النَّعتُ مُشيرًا إلى فداحة ذلك التَّدميرِ الحاصلِ بذلك العذابِ، ولا يُستغربُ ذلك؛ لأنَّه من اللّهِ تعالى.

دلالةُ (الواو) في ﴿وَهُمۡ﴾:

عينُ الظّالِم تنامُ وعينُ اللّه لا تغفَلُ ولا تنام

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بـ(الواو) في قولِه تعالى: ﴿وَهُمۡ نَآئِمُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على مَعنى الحال؛ ووظيفةُ الحالِ تقييدُ فعلِ الطَّوَفان بوقتِ

نومِهم، مع بيانِ هَيئتِهم عندَ نزولِ العذاب؛ لبيانِ مَدى غَفلتِهم عن عظيم فعلِ اللّه؛ إذ ظنّوا بتصميمِهم أنَّهم غالبون، وغَفَلوا عن عَجزِهم وقُصورِهم؛ إذ نزلَ العذابُ بهم، وهُم لا يَدرونَ أصلًا، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ عينَ الظّالمِ تنامُ، وعينُ اللّه تعالى لا تغفلُ، ولا تنامُ.

دلالة الضَّمير (هُم):

سَخافةُ الإدراكِ تُؤدّي إلى الغَيْبَةِ والإبعاد

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بلفظِ الضَّمير (هُم)، في قولِه تعالى: ﴿وَهُمۡ نَآئِمُونَ﴾؛ للدَّلالة على الذَّوات الَّتي أقسَمَتْ على الصَّرم، وتعمَّدتِ ارتكابَ الإثم، وصمَّمَتْ على الجُرم، ويُشعِرُ لفظُ الغَيْبَة بمدى بُعدِهم عن جنابِ الحقِّ، وضآلةِ مَكانتِهم، وصِغَرِ شأنِهم، وسَخافةِ عَقلِهم.

دلالةُ الخبرِ ﴿نَآئِمُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

النَّومُ والغَفلة عَن لُحوقِ العَذاب بالجنَّة

أخبرَ النَّظمُ الكريمُ بلفظِ اسم الفاعل ﴿نَآئِمُونَ﴾، في قولِه تعالى: ﴿وَهُمۡ نَآئِمُونَ﴾؛ للدَّلالة على اتِّصافِهم بالنَّوم المُستغرِق الَّذي لابَسَهُم، بحيثُ لا يَشعرونَ بوجودِ نارٍ أحدقَتْ بجنَّتِهم، فقد ناموا نَوْمًا عميقًا أذهلَهُم، وأنساهُم قُدرةَ اللّه تعالى عليهم وعظيمَ مَكرِه، والَّذي دلَّ على النَّوم الثَّقيل أنَّهم أقسَموا على صَرْمِها في الصَّباح، ممّا يدلُّ على أنَّهم يُباشِرونَ الصَّرمَ في أجزاءٍ من اللَّيل، لكنَّهم ما استفاقوا إلّا كانَ الصَّباح قد بدأ، فقالوا: ﴿أَنِ ٱغۡدُواْ عَلَىٰ حَرۡثِكُمۡ﴾، والغداةُ أوَّلُ النَّهار وباكرُه، وهذا شأنُ العُصاةِ في نَومِهم الثَّقيل، وغفلَتِهم العَميقة، وأفادَتْ صيغةُ الجمعِ شمولَ النَّوم جميعَهم بلا استثناء، كما عزَموا على الفعلِ من دونِ استثناءٍ.

دلالةُ الجملةِ الاسميَّة ﴿وَهُمۡ نَآئِمُونَ﴾:

العَجزُ الثّابت الباهِر دليلُ الافتقارِ للقويِّ القادِر

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بالجملةِ الحاليَّة الاسميَّة، في قولِه تعالى: ﴿وَهُمۡ نَآئِمُونَ﴾؛ للدَّلالة على ثُبوتِ النَّوم واستقرارِه ودَوامِه لهم، فقدِ ارتختْ مفاصلُهم، وتعِبتْ قواهم بعدَما أضمَروا السّوءَ؛ استعدادًا لقطفِ الأثمارِ والاستئثارِ بالأموال، فنزلَ العذابُ بهم، وهم غافِلون

بالنَّوم، عاجزونَ عن الشُّعور بحقيقةِ الأمرِ، قال أبو السُّعود: "غافِلونَ عمّا جرَتْ بهِ المَقاديرُ"[1]، فالغرضُ من هذه الجملة: الإخبارُ بعجزِهم وضَعفِهم وحاجتِهم، وفيها شيءٌ من التَّهكُّم على حالِهم؛ إذ نزلَ العذابُ بأموالِهم، وهُم لا يشعرونَ، بعدَ أن ظنّوا أنَّهم غالبونَ صاروا مَغلوبينَ بالعَجْزِ والضَّعف.

دلالةُ (الفاءِ) في ﴿فَأَصۡبَحَتۡ﴾:

سُرعةُ الحُصولِ بسُرعةِ النُّزولِ

عطفَ النَّظمُ الكريمُ بـ(الفاء) في قولِهِ تعالى: ﴿فَأَصۡبَحَتۡ كَٱلصَّرِيمِ﴾ على ما قبلَها؛ للدَّلالة على سُرعةِ التَّحوُّلِ والتَّبدُّلِ بطَوَفان ذلكَ الطّائفِ العجيب؛ إذ (الفاءُ) للتَّعقيبِ بلا مُهلةٍ، كما تدلُّ على التَّسبُّبِ عمّا قبلَها، وفي ذلك إشارةٌ إلى آثارِ نُزولِ عذابِ اللّه؛ فليُحذَرْ، وليُخشَ غضبُهُ وعِقابُهُ تعالى.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالفعلِ الماضي النّاقص: ﴿فَأَصۡبَحَتۡ﴾:

بينَ الصُّبحينِ خطّانِ غيرُ مُتوازيينِ

عبَّر النَّظمُ الكريمُ بالفعلِ الماضي النّاقص (أصبحَ)، في قولِهِ تعالى: ﴿فَأَصۡبَحَتۡ كَٱلصَّرِيمِ﴾؛ للدَّلالةِ على الاتِّصافِ بالخبرِ في وقتِ الصَّباحِ وأوَّلِ النَّهار، والغرضُ من تصديرِها للجُملة الاسميَّة تحديدُ زمنِ ثبوتِ الصَّريم للجنَّة تحديدًا ثابتًا مُتمكِّنًا مُحقَّقًا على تلك الشّاكلة في ذلك الوقتِ الباكِر، وفي حصولِ ذلك الاتِّصاف بوقتِ الصَّباح إشارةٌ إلى ما أقسَموا عليه منَ الانتهاءِ من جَنْيِ الثِّمار والصَّرم في أوائلِ الصَّباح؛ تخلُّصًا مِن إعطاءِ الفقراء حقوقَهم، ويكونُ بين قولِه تعالى: ﴿مُصۡبِحِينَ﴾ وقوله: ﴿فَأَصۡبَحَتۡ﴾ توافقٌ في وقتِ الصَّباح على حُصولِ شيء، معَ اختلافٍ فيه؛ إذ وقتُ الصَّباح عندَهم رِبحٌ، ووقتُ الصَّباح في الواقعِ خسارةٌ ومحقٌ، فلم يَرضَوا بدفعِ القليل، فدفعوا القليلَ والكثيرَ.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/ 14.

دلالةُ (الكاف) في ﴿كَٱلصَّرِيمِ﴾:

التَّشبيهُ باللَّيل لتصوير القَهْر والوَيْل

عبَّرَ النَّظمُ بـ(الكاف) في قولِهِ تعالى: ﴿فَأَصۡبَحَتۡ كَٱلصَّرِيمِ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّشبيه، أي: صارتِ الجنَّةُ في وقتِ الصَّباح بعدَ أنْ كانتْ جنَّةً نضيرةً، كأنَّها اللَّيلُ البهيمُ الموحِشُ من شدَّة الاحتراقِ والدُّخانِ الأسودِ المُتصاعِد منها، بحيثُ مَن يَدخلُها يكونُ داخلَ ليلٍ مُظلِمٍ، قال الهرريُّ: "صارَتْ كاللَّيل في اسودِادِها؛ لأنَّ اللَّيلَ يقال له: الصَّريم، أي: صارتْ سوداءَ كاللَّيل لاحتراقِها، أوْ كالنَّهار في ابيضاضِها من فَرْطِ اليَبَسِ"[1]، والغَرضُ من التَّشبيهِ التَّحوُّلُ في اللَّونِ والشَّكلِ معًا، قال النّيسابوريُّ: "شبَّهَ سوادَها بسوادِ اللَّيل الدّامس، وهو آخرُ ليالي الشَّهر، وهو أشدُّ ما يكونُ ظُلمةً"[2]، وأُطلِقَ (الصَّريم) على القطعة الضَّخمةِ التي تَنصرِمُ عن سائرِ الرَّمل، وعلى هذا شُبِّهَتِ الجنَّةُ، وهي محترقةٌ لا ثمرَ فيها ولا خيرَ بالرَّملةِ المُنقطعة عن الرِّمال، وهي لا تُنبت شيئًا يُنتفَعُ به"[3]، أو: "شبيهةٌ بالبُستانِ الَّذي صُرِمَتْ، وقُطِعَتْ ثمارُهُ، بحيثُ لم يبقَ منها شيءٌ؛ لأنَّ النّار السَّماويَّةَ أحرَقَتْها"[4].

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بلفظِ (الصَّريم) مادَّةً وصيغةً:

تَحوُّلُ الجنَّة إلى سَوادٍ مِن جرّاءِ ظُلمِ العِباد

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بلفظِ (الصَّريم) في قولِهِ تعالى: ﴿فَأَصۡبَحَتۡ كَٱلصَّرِيمِ﴾، الدّالِّ على اللَّيل باعتبارِ إظلامِهِ وسَوادِهِ ووَحشتِه، وإنَّما سُمّيَ اللَّيلُ صريمًا؛ لأنَّه ينقطعُ بالنَّهار، كما يَنقطِعُ النَّهارُ باللَّيل، ولذا كانَ منَ المشترَكِ الضِّدّيِّ، فيُطلَقُ على كلٍّ من اللَّيلِ والنَّهار، وتدلُّ الصّيغةُ (فعيل) على الشِّدَّةِ والمبالغةِ في الانصرام؛ ليُصوِّرَ

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 94.
(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 22/ 98.
(3) الواحديّ، التّفسير البسيط: 22/ 99.
(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 94.

عتمةً خانقةً وهَلاكًا مُحكمًا، فيكونَ فعيلًا بمعنى فاعِل[1]، ويحتمل أنْ يكونَ الصَّريمُ فعيلًا بمعنى المفعول[2]؛ للدَّلالة على أنَّها أصبحَتْ مصرومةً من الثِّمار بفعلِ الإحراقِ النّازلِ عليها، وضعَّفه ابنُ عبّاس بقوله: "وليسَ يعني المَصرومة، وذلك أنَّ النارَ تُحرِقُ الأشجارَ، فلا تُشبِهُ ما في ثمرِه، وإنِ احترقتِ الثِّمارُ دونَ الأشجارِ - وهو بعيدٌ - أشبهَ المقطوعَ ثمَرُهُ"[3]، "وَإيثارُ كَلِمَةِ (الصَّريم) هُنا؛ لِكَثْرَةِ مَعانيها وصَلاحيَّةِ جَميعِ تِلْكَ المَعاني لِأنْ تُرادَ في الآيَةِ"[4].

دلالةُ الطِّباقِ بينَ (أصبَحَتْ) و(الصَّريم):

المُتضادّانِ يَكشِفانِ عنِ البُؤسِ والحِرمان

عبَّر النَّظمُ القرآنيُّ عن المشبَّهِ به بلفظِ (الصَّريم)، في قولِه تعالى: ﴿فَأَصۡبَحَتۡ كَٱلصَّرِيمِ﴾، ومن دلالاتِه: السَّوادُ واللَّيلُ والاحتراقُ، فيكونُ بينَهُ وبينَ الفعلِ ﴿فَأَصۡبَحَتۡ﴾ مُحسِّنُ الطِّباق[5]، إذِ الفعلِ (أصبحَ) من الصُّبحِ، ويعني الضِّياءَ والإشراقَ والبَياض، فيقعُ الطِّباق بينَهما، والغرضُ من إيرادِ الطِّباق هو اجتماعُ المُتضادّينِ في الخيال؛ إذِ الجنَّةُ انقلبَتْ إلى سَوادٍ وليلٍ بهيم، وذلك لا يَبينُ، ولا يظهرُ إلّا مع خيوطِ الصَّباح، فكان الصَّباحُ كاشفًا عن ذلك السَّواد، وهم قد ظنّوا أنَّ الصَّباحَ يكشفُ لهم عن غنيمةٍ بالمال واستئثارٍ به بعدَ الصَّرم، وإذا به يكشفُ عن كمالِ البُؤسِ والحِرمان.

دلالةُ الجِناس في (يَصرِمُنَّها) و(الصَّريم):

الامتناعُ مِنَ المكرُماتِ دخولٌ في الظُّلُمات

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بلفظِ (الصَّريم)، في قولِه تعالى: ﴿فَأَصۡبَحَتۡ كَٱلصَّرِيمِ﴾؛ ليكونَ جناسًا اشتقاقيًّا معَ لفظِ ﴿لَيَصۡرِمُنَّهَا﴾[6]؛ فإنَّهما وإنْ كانا بمعنى الانقطاع، لكنَّ الصَّرمَ أُطلِقَ في كلامِهم على قطعِ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 235.
(2) الحنبليّ، فتح الرّحمن: 7/ 128.
(3) الواحديّ، التّفسير البسيط: 22/ 99.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 82.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 82.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 82.

الأثمار منَ الأشجار، وأُطلِقَ الصَّرمُ في الآية على اللَّيل البَهيم الحالكِ السَّواد، والغرضُ من الجناس أنَّ مَن أرادَ إغضابَ اللّٰهِ تعالى بعملٍ يقطعُ العَلاقات معه؛ دخلَ في ظلماتٍ وظلامٍ دامسٍ يَنقطِعُ فيهِ عن الضّياء.

دلالةُ التَّقديمِ والتَّأخيرِ بينَ الآيتينِ المُتقابلتين:

الـجـزاءُ على الأعـمـال بتبديلِ الأفعالِ والأقوال

عبَّرَ النَّظمُ الكريم عن نُزولِ العذابِ بجنَّتِهم، بقولِه تعالى: ﴿فَأَصۡبَحَتۡ كَٱلصَّرِيمِ﴾؛ لمُقابلةِ إقسامِهم في قولِهم: ﴿لَيَصۡرِمُنَّهَا مُصۡبِحِينَ﴾، لكنْ جرى تقديمٌ وتأخيرٌ مقصودٌ؛ إذِ الانتهاءُ من الصَّرمِ وجني الأثمارِ في وقتِ الإصباح والدُّخولِ في الصَّباح صارَ وقتًا يَرَونَ فيه ما آلَتْ إليه جنَّتُهم، فقد كانَ في قسَمِهم مَوعِدًا، وصارَ في الرَّدِّ عليهم أصلًا يَرونَ فيه الأمورَ، وقدَّمَ الصَّرمَ في قَسَمِهم للاهتمامِ به، فصارَ نتيجةً لأعمالِهم، لكنَّه صرمٌ بقطعِ اللّٰه تعالى له بالنّار، فلا يَنتفعونَ منه بشيءٍ.

مَعنى (الفاءِ) والغَرضُ منها:

التَّـفـريـعُ على الإقـسـام بالتَّنادي للإقدام

عطفَ النَّظمُ الكريمُ بـ(الفاء) قولَه تعالى: ﴿فَتَنَادَوۡاْ مُصۡبِحِينَ﴾، على قولِهِ قبلُ: ﴿إِذۡ أَقۡسَمُواْ﴾؛ للدَّلالة على التَّفريع والتَّسبُّب، فقد كانَ العزمُ والتَّصميمُ على التَّنفيذ أمرًا مؤكَّدًا لا يَقبلُ التَّراجُعَ والتَّباطُؤ؛ فما إن استيقَظوا من نومِهم إلّا شَرعوا في مُناداة بعضِهم البعض من أجلِ الغُدوِّ إلى الزَّرع للتَّنفيذ، قال ابن عاشور: "فاءُ ﴿فَتَنَادَوۡاْ﴾ لِلتَّفْرِيعِ عَلَى ﴿أَقۡسَمُواْ لَيَصۡرِمُنَّهَا مُصۡبِحِينَ﴾، أي: فَلَمّا أَصْبَحوا؛ تَنادَوا لإنجازِ ما بَيَّتوا عَلَيهِ أمرَهُم"(1).

دلالةُ الفعلِ (تَنادَوا) مادَّةً وصيغةً:

الاشـتـراكُ في النِّداء من أجلِ تنفيذِ سيِّئ الآراء

عبَّرَ النَّظمُ القرآنيُّ بالفعلِ الماضي (تَنادَوا)، في قولِه تعالى: ﴿فَتَنَادَوۡاْ مُصۡبِحِينَ﴾؛ للدَّلالة على وُقوعِ ذلك التَّنادي والمُناداةِ على

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 82.

سبيلِ القطعِ بالحُصول، كما تدلُّ الصّيغةُ على المشاركةِ والاتِّفاق على التَّنادي، قال ابنُ عاشور: "والتَّنادي: أن يُناديَ بَعْضُهُم بَعْضًا، وهوَ مُشعِرٌ بِالتَّحْرِيضِ على الغُدوِّ إِلَى جَنَّتِهِم مُبَكِّرِينَ"[1]؛ إذ صيغةُ (تفاعَلَ) موضوعةٌ للدَّلالةِ على المُشاركة، فيكونونَ قد نادَى بعضُهم بعضًا حتَّى طاوَعوا، فوقعَ التَّنادي بينهم، وفي ذلك دليلٌ على التَّوافُقِ والاجتماعِ على القَرار.

دلالةُ الإسنادِ إلى ضَميرِ الجَمعِ في ﴿فَتَنَادَوۡاْ﴾:

التَّـوافُـق على الفعلِ الشَّنيع

أسندَ النَّظمُ القرآنيُّ الفعل الماضي إلى ضميرِ الجَمع (الواو)، في قولِه تعالى: ﴿فَتَنَادَوۡاْ مُصۡبِحِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على صُدور ذلك التَّنادي من كلِّهم أوْ مِن أغلبِهم؛ ممّا يُفيدُ حالةً من التَّوافُقِ والتَّواطُؤِ على ذلك الجُرمِ الشَّنيع.

الموقعُ الإعرابيُّ لـ﴿مُصۡبِحِينَ﴾ ودلالتُه:

تلبُّسُهم بالصَّباح وهُم عازِمونَ على المَعصيةِ بالصِّياح

عبَّرَ النَّظمُ القرآنيُّ بلفظِ (الحال)، في قولِه تعالى: ﴿فَتَنَادَوۡاْ مُصۡبِحِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على تقييدِ وقتِ التَّنادي بالصَّباحِ والدُّخولِ فيه، قال الشَّربينيُّ: "في حالِ أوَّلِ دُخولِهم في الإصباح"[2]، كما بيَّن الحالُ هيئَتَهُم عندَ التَّنادي، وهُم يدخلونَ في الصَّباح، والغرضُ من الحالِ بيانُ نشاطِهم في اقترافِ ما صمَّموا على فعلِه، وأنَّهم لم يتريَّثوا عنه، فقد كانَ دخولُهُم في الصَّباحِ مُقترنًا بحالةِ التَّنادي من أجلِ تنفيذِ ما أقسَموا عليه، مع أنَّ ذلك الوقتَ ممّا يصعُبُ القيامُ فيه لشِدَّةِ وطأةِ النَّوم، ويُفيد التَّنادي الصّادرُ منهُم - بعدَ أنْ دخَلوا في الصَّباح - أنَّ استيقاظَهُم كان قبلَهُ بليلٍ أوْ ظلمةٍ، ومعَ دُخولِهم في الصَّباحِ وقعَ التَّنادي، قالَ الواحديُّ: "لمّا أصبَحوا؛ قالَ بعضُهُم لبعضٍ"[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 83.
(2) الشّربينيّ، السّراج المنير: 4/ 359.
(3) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 4/ 337.

دلالةُ المَجاز في ﴿مُصۡبِحِينَ﴾:

استحضارُ الماضي لِرَبْطِه بالحاضِرِ والآتي

عبَّر النَّظمُ القرآنيُّ بلفظ اسمِ الفاعلِ في قولِه تعالى: ﴿فَتَنَادَوۡاْ مُصۡبِحِينَ﴾؛ لتحديدِ وقتِ تَناديهم، ومِن المعلوم أنَّ اسمَ الفاعل حقيقةٌ في الحال، فيكونُ التَّحديدُ به عن تنادٍ وقعَ في الماضي منهم؛ استحضارًا للماضي بلفظٍ يدلُّ على الحال، فهو مجازٌ مرسَلٌ من إطلاقِ الحالِ على الماضي بغيةَ استحضارِه، كقولنا: (جاز زيد راكبًا).

مَعنى ﴿أَنِ﴾ والغَرضُ مِنها في ﴿أَنِ ٱغۡدُواْ﴾:

تحقيقُ الوقوع دليلُ الرَّغبةِ العارِمةِ بالوُصولِ إلى المطموع

عبَّرَ النَّظمُ القرآنيُّ بـ﴿أَنِ﴾، في قولِه تعالى: ﴿فَتَنَادَوۡاْ مُصۡبِحِينَ ٢١ أَنِ ٱغۡدُواْ عَلَىٰ حَرۡثِكُمۡ﴾؛ للدَّلالة إمّا على التَّفسيرِ بمعنى (أيّ)[1]؛ لأنَّها مسبوقةٌ بما فيه معنى القولِ دونَ حُروفِه[2]، كقولِه تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ﴾ [القصص: 7]، والغرضُ من التَّفسير الإجلاءُ والبيانُ لما تنادَوا فيه، وإمّا أنَّها مصدريَّةٌ تُؤَوَّلُ هي وما بعدَها بمصدر، وتكونُ منصوبةً بنزعِ الخافض المُطَّرِد فيها، والتَّقديرُ: (فتنادَوا بالغُدوِّ)، وتفيدُ أيضًا بسببِ (الباء) تصويرَ ما تنادَوا فيه، والَّذي يظهر أنَّها مصدريَّةٌ؛ إذ طَلبوا حقيقةَ الغُدوِّ؛ لدلالةِ المصدرِ عليه معَ تقويةِ وقوعِه؛ بسببِ لفظِ الفعلِ وارتباطِه بالزَّمن، وتلك فائدةٌ للعُدولِ من المصدرِ الصَّريح إلى المُؤَوَّل، فيكون الغُدوُّ مُتأكِّدًا لديهم حتّى تنادَوا بحقيقتِه المَحضةِ.

دلالةُ فعلِ الأمرِ ﴿ٱغۡدُواْ﴾ مادَّةً وصيغةً:

الأمـرُ بالفعلِ يُنبئُ عنِ الرَّغبةِ بلا مَهلٍ

عبَّرَ النَّظمُ القرآنيُّ بفعلِ الأمر ﴿ٱغۡدُواْ﴾، في قولِه تعالى: ﴿أَنِ ٱغۡدُواْ عَلَىٰ حَرۡثِكُمۡ﴾؛ للدَّلالة على التَّحرُّكِ في وقتِ الغَداة وأوَّلِ خُيوطِ الصَّباح إلى البُستان، إذِ " الغُدوُّ: الخُروجُ ومُغادَرَةُ المَكانِ في غَدۡوَةِ النَّهارِ، أي: أوَّله"[3]، ففي الفعلِ دلالةٌ على التَّحرُّكِ والمُضيِّ

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 22/ 100.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 123.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 83.

والذَّهاب المُقترنِ بوقتِ الغَداة، بخلافِ ما لو قالَ مثلًا: (أنِ اذهبوا، أو أنْ تحرَّكوا...)؛ لاشتقاقِ الفعلِ من لفظٍ يرتبطُ بوقتٍ معيَّن، مثلُ: (أمسَوا، وأصبَحوا)، قالَ القونويُّ: "فاغدوا معناهُ: اخرُجوا غُدوةً"[1]، وفي صيغةِ الأمرِ ما يدلُّ على الطَّلبِ المُنبئِ عنِ الاهتمامِ بالأمرِ والإسراعِ فيه.

أثرُ حرفِ الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾ في تعدُّدِ التَّوجيه:

الإقبالُ الشَّديد على القَصْدِ غيرِ السَّديد

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بحرفِ الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَنِ ٱغۡدُواْ عَلَىٰ حَرۡثِكُمۡ﴾، مع أنَّ الفعلَ (غدا) إنَّما يتعدَّى بـ(إلى)، وقيلَ: يتعدَّى بـ(على) أيضًا إذا كانَ بمعنى (الغارة)، فإمّا أنْ يكون هنالك تضمينٌ في الفعل (غدا) مَعنى (أقبلَ)، وهو يتعدَّى بـ(على)[2]، ويُشيرُ هذا التَّوجيهُ إلى مَجازٍ مرسَلٍ في الفعلِ، و(عَلى) مُستعملةٌ في المعنى الحقيقيِّ، أوْ أنَّ حرفَ الجرِّ (على) نابَ عن حرفِ الجرِّ (إلى)؛ إذ شُبِّهَ الانتهاءُ بالشَّيءِ بالاستعلاءِ عليه، ثمَّ استُعير حرفُ الاستعلاءِ له، فتكونُ هنالك استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ بالحرف، قال ابنُ عاشور: "و﴿عَلَىٰ﴾ مِن قَوْلِهِ: ﴿عَلَىٰ حَرۡثِكُمۡ﴾ مُستَعمَلَةٌ في تَمَكُّنِ الوُصولِ إلَيه، كَأنَّهُ قيلَ: اغدوا تَكونوا عَلَى حَرْثِكُم، أي: مُستَقِرّينَ عَلَيهِ"[3]، أو شُبِّهَ الإقبالُ والخروجُ لقطعِ الثِّمار بالغُدوِّ والغارةِ على الأعداءِ، بجامعِ مُطلقِ الإتيانِ ومُطلقِ القطعِ؛ فالجيشُ يقصِدون قطعَ العَدوِّ وإهلاكَهم، وأصحابُ الجنَّةِ يَطلبونَ قطعَ الثِّمار، ثمَّ حُذِفَ المشبَّهُ، وأُبقي المشبَّهُ به على سبيلِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّة أوِ التَّمثيليَّةِ، قال القونويُّ: "فشبَّه [غُدوَّه لقطعِ الثِّمار بغُدوِّ] الجيشِ للغارة، فيكون استعارةً تبعيَّةً أو تمثيليَّةً، وهذا بناءً على أنَّ (غدا) يتعدَّى بـ(إلى)، دون (عَلَى) إلّا في معنى (الغارة)، وهذا

(1) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 234.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 590، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 95.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 83.

معنى (غدا) المتعدّي بـ(على)؛ إذ تعديةُ الفعْل بحروفٍ متعدِّدةٍ إنَّما هي بمعانٍ متعدِّدة في الأغلب"[1]، وأيًّا مّا كانَ نوعُ المجاز، فإنَّ تعديةَ الفعل بـ(على) دون (إلى)؛ للدَّلالة على التَّمكُّنِ والاستعلاءِ عندَ القدوم على الحَرْثِ، فيُفيدُ التَّصميمَ الجازمَ لقطعِ الزَّرع، حتَّى كأنَّهم استعلَوا عليه، وتمكَّنوا منهُ بمُجرَّدِ القدوم إليه.

دلالةُ العُدول عنِ (الزَّرعِ) إلى (الحَرْثِ):

أوَّلُ النَّهار يَتناسَقُ معَ أوَّلِ الأعمال

عدلَ النَّظمُ الكريمُ في التَّعبيرِ عنِ المُضاف بلفظِ (الزَّرع) إلى لفظ (الحرثِ)، في قولِهِ تعالى: ﴿أَنِ ٱغۡدُواْ عَلَىٰ حَرۡثِكُمۡ﴾؛ للدَّلالة على الجدِّ والاجتهادِ في الكسب، والعمَلِ من أجلِ حُصولِ الزَّرعِ؛ إذ لفظُ (الحرث) - مع دلالتِهِ على الزَّرع والجنَّة - يُشيرُ إلى دلالةِ الكسبِ والتَّحصيل؛ إذِ الحرثُ يُنبئُ عن الحراثة والعمَلِ الدَّؤوب من أجلِ تحصيلِ الزَّرع واستصلاحِ الأرضِ، قال ابنُ عاشور: "والحَرْثُ: شَقُّ الأرْضِ بحَديدَةٍ ونَحْوِها؛ ليوضعَ فيها الزَّريعَةُ أو الشَّجَرُ، وليُزالَ منها العُشْبُ"[2]، وإنْ كان المرادُ بها هنا الجنَّةَ والضّيعةَ والزَّرع[3]؛ إذِ الغُدوُّ لا يكونُ إلى الفعل بل إلى الجنَّة، بخلافِ لفظِ (زرعِكم)؛ فإنَّه لا يُشيرُ إلّا إلى الزِّراعة ووضع النَّبت، بخلافِ (الحَرث) الدّالِّ على أوَّلِ الجُهد وأوَّلِ التَّعب في الزِّراعة، ويتناسَبُ لفظُ (الحرث) مع لفظِ (الغُدوِّ) الدّالِّ على أوَّلِ النَّهار، فيكون أوَّلُ النَّهارِ معَ أوَّلِ الأعمالِ الزِّراعيَّة، كما أنَّ الزَّرع قد يخرجُ بلا زارعٍ أصلًا، بخلافِ (الحرثِ) الدّالِّ على عملِ الحراثة للأرضِ تقليبًا وتهيئةً للزَّرع.

نوعُ الإضافةِ في ﴿حَرۡثِكُمۡ﴾:

العُنجهيَّةُ والاستكبار أصلُ كلِّ ذنبٍ وبَوار

أضافَ النَّظمُ الكريم لفظ (الحَرث) إلى ضميرِ المُخاطَبينَ، في قولِهِ تعالى: ﴿أَنِ ٱغۡدُواْ عَلَىٰ حَرۡثِكُمۡ﴾؛ للدَّلالة على المُلْكيَّة؛

(1) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 234.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 83.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 95.

والإضافةُ من إضافةِ المصدرِ إلى فاعلِه، فيَدلُّ على نِسبتهم الحرثَ والزَّرعَ لهُم، فكيفَ يُشاركُهم الفقراءُ في الرِّبح؟ وفي عدم إسنادِ الحَرث والزَّرع إلى خالقِهِ الحقيقيِّ غرورٌ وذنبٌ كبيرٌ، قادَهم إلى العَطَب والهَلاك.

معنى ﴿إِن﴾ والغرضُ منها في ﴿إِن كُنتُمۡ﴾:

الإحساسُ بالذَّنب والخَلَل دافعٌ لبيانِ رغبةِ أهلِ الخَطَل

عبَّرَ النَّظمُ بالحرفِ ﴿إِن﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰرِمِينَ﴾؛ للدَّلالة على الشَّرط، ويُفيدُ أنَّ الأمرَ بالغُدوِّ مُتعلِّقٌ ومقيَّدٌ بثبوتِ إرادةِ الصَّرم للأثمار، ممّا يُشيرُ إلى رغبةِ المُتنادين بحصولِ التَّوافُقِ الاجتماعيِّ على الصَّرم، ومن ثَمَّ يكون إقبالُهم على ذلك الفعلِ أمرًا تصميميًّا ثابتًا لا تراجُعَ فيه، في حينِ ذهبَ ابنُ عاشورٍ إلى تعليلِ إيراد ﴿إِن﴾ بالقول: "ولَيسَ قَوْلُه: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰرِمِينَ﴾ بِشَرْطِ تَعْليق، ولَكِنَّهُ مُستَعمَلٌ في الاستِبطاءِ، فَكَأَنَّهُم لِإبطاءِ بَعضِهِمْ في الغُدوِّ؛ قَدْ عَدَلَ عَنِ الجَذاذِ ذَلِكَ اليَوْمَ"[1]، فأُريدَ تهييجُهم وتحريضُهم على الإقدام وتركِ الإبطاء.

دلالةُ فعلِ الشَّرطِ النّاقص ﴿كُنتُمۡ﴾:

إظهارُ الرَّغبة بكُلِّ ثباتٍ وقوَّة

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بفعلِ (الكَون)، في قولِهِ تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰرِمِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ اتِّصافَ الاسم بالخبرِ على سبيلِ التَّمكُّنِ والثُّبوت، ولذا لم يقُل: (إنْ تَصرموا)؛ لأنَّ الكونَ يُفيدُ الوجودَ والحصولَ على تلك الحالة، وهي الصَّرم، فيفيدُ تمكُّنًا في الرَّغبةِ بالصَّرم وثباتًا فيه، واتِّصافًا به على سبيلِ الاستقرار.

دلالةُ الخبر ﴿صَٰرِمِينَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

العملُ الصّارم إنجازٌ له بشكلٍ حاسِم

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بلفظِ اسم الفاعل ﴿صَٰرِمِينَ﴾ خبرًا لاسم (كانَ)، في قولِهِ تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰرِمِينَ﴾؛ للدَّلالة على الاتِّصافِ بالصّارميَّة على سبيلِ الحدوثِ المُستمرِّ من (الصَّرم)، بمعنى القطعِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 83.

والجَنْي للأثمار، وإمّا منَ الصَّرامة على التَّنفيذِ والمُضيِّ في الأمرِ مِن غيرِ تراجُعٍ، معَ شدَّةٍ وانقطاعٍ عنِ التَّوجُّهِ لغيره من الأعمال، ولذا نقول: (هذا قرارٌ صارم)، أي: حاسمٌ لا تراجُعَ فيه لانقطاعِهِ عمّا عداه من التَّوجُّهات، والتَّعبير بلفظِ الجمعِ دالٌّ على التَّوافُقِ الجمعيِّ بين المُتنادينَ على الإقدام على الفعل والاتِّصافِ به، قال الهرريُّ: "قاصِدينَ للصَّرم وقطعِ الثَّمرة وجمع المَحصول، وقيل: معنى ﴿صَٰرِمِينَ﴾، أي: ماضينَ في العَزْمِ، مِن قولِهم: (سَيفٌ صارِمٌ)"[1].

مَعنى (الفاءِ) في ﴿فَٱنطَلَقُواْ﴾ والغرَضُ منها:

تعقيبُ الأمرِ بالانطلاق دليلُ الرَّغبة والاشتياق

عطفَ النَّظمُ الكريم بـ(الفاء) قولَه تعالى: ﴿فَٱنطَلَقُواْ وَهُمۡ يَتَخَٰفَتُونَ﴾ على ما قبلَه؛ للدَّلالة على التَّعقيبِ والتَّسبُّب، وفي ذلك العطفِ إشارةٌ إلى حصولِ الهياج لهُم بعدَ سماعِهم الأمرَ بالغُدوِّ والإقبالِ على الحرْثِ.

دلالةُ الفعلِ الماضي (انطلقوا) مادَّةً وصيغةً:

الدَّفعُ والإطلاق هيَّجَهُم للانطلاق

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بالفعلِ الماضي (انطلقَ)، في قولِه تعالى: ﴿فَٱنطَلَقُواْ وَهُمۡ يَتَخَٰفَتُونَ﴾؛ للدَّلالة على حصولِ الفعلِ لهُم على سبيلِ الوُقوعِ والقطعِ بالصُّدور منهم، وتدلُّ مادَّةُ الفعلِ على شدَّةِ السُّرعة في الحركةِ، وكأنَّهم كانوا مَحبوسينَ، فأُطلِقوا، ومَمنوعينَ فأُرسِلوا، وتُفيدُ صيغةُ المطاوعة في الانطلاقِ قبولَ الإطلاقِ لهم؛ إذِ التَّنادي هيَّجَهم، والشَّرطُ ألهبَ مشاعرَهُم، فتحرَّكوا بكلِّ إصرارٍ وقوَّةٍ.

دلالةُ الإسنادِ إلى ضميرِ الجَمع في ﴿فَٱنطَلَقُواْ﴾:

الانطلاق إلى الجُرم مع الاتِّفاق

أسندَ النَّظمُ الكريمُ فعلَ (الانطلاق) إلى ضميرِ الجمعِ (الواو)، في قولِه تعالى: ﴿فَٱنطَلَقُواْ وَهُمۡ يَتَخَٰفَتُونَ﴾؛ للدَّلالة على صُدورِ الفعل منهُم على سبيلِ التَّوافُقِ والتَّواطُؤِ والاجتماع؛ إذ لم يتخلَّف منهم أحدٌ، أو يتردَّدْ في الإقدامِ على الفعلِ مُتردِّد.

---

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 95.

مَعنى (الواو) في ﴿وَهُمۡ﴾ والغرضُ منها:

الحركةُ الغاشمةُ تمتزجُ بها أصواتٌ هامِسة

عبَّرَ النَّظمُ بـ(الواو) في قولِه تعالى: ﴿وَهُمۡ يَتَخَٰفَتُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على الحال، قال ابنُ عادِل: "﴿وَهُمۡ يَتَخَٰفَتُونَ﴾ جملةٌ حاليَّةٌ من فاعلِ (انطَلقوا)"(1)، فيكونُ الانطلاقُ مُتقيِّدًا بحالةِ التَّخافُتِ والهَمْس في الكلام، وتكونُ حركةُ الذَّهاب إلى الجنَّة بكلِّ سرعةٍ، معَ امتزاجِها بأصواتٍ هامِسة لا تعلو، ولا ترتفع، كما أنَّ الحالَ تُبيِّنُ هيئةَ المُنطلقينَ، وقد عَلَتْهُم خشيةٌ من الجَهر بالصَّوت، فقيَّدَتْ طريقةَ نُطقِهم حتَّى صاروا في انطلاقِهم يَتهامَسونَ بكلِّ عُسْرٍ وصُعوبة.

دلالةُ ضميرِ الجَمع (هُم):

استحضارُ المُنطلِقين بكلِّ أوصافِ المُعتدين

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بضميرِ الجَمع (هُم) في قولِه تعالى: ﴿فَٱنطَلَقُواْ وَهُمۡ يَتَخَٰفَتُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على الذَّواتِ المُتلبِّسة بالتَّصميم على الصَّرم للأثمارِ وعدم استثناءِ شيءٍ منها، والمُتَّصفةِ بالتَّنادي عندَ الإصباح بغيةَ تهييجِ المَشاعر وتحريكِ الخَواطر لتنفيذِ ما أقسَموا عليه؛ إذِ الضَّمير يَرجِعُ إلى الذّاتِ بكلِّ ما اتَّصفَتْ، وتقيَّدَتْ به من صِفاتٍ وقُيود.

دلالةُ الإخبارِ بالمُسنَدِ الفعليِّ ﴿يَتَخَٰفَتُونَ﴾:

تخصيصُ الإخبار وتقويةُ الانحِصار

أخبرَ النَّظمُ القرآنيُّ بالجُملةِ الفعليَّة، في قولِه تعالى: ﴿وَهُمۡ يَتَخَٰفَتُونَ﴾؛ للدَّلالة بتقديمِ المُسند إليه على المسندِ الفعليِّ على الاختصاصِ والانحصارِ والتَّوكيد؛ إذِ انحصرَ التَّخافُتُ فيهم، وتأكَّدَ الكلامُ، وتقوَّى الإسنادُ والحصولُ من خلالِ تكرُّرِ الإسناد وإعادتِه في الإخبار، وعندَ إسنادِ الفعل إلى ضميرِ (الواو).

دلالةُ الفعلِ المُضارع ﴿يَتَخَٰفَتُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

اختارَ النَّظمُ القرآنيُّ الفعلَ المضارعَ ﴿يَتَخَٰفَتُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على

(1) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 19/ 289.

إفادة التَّجدُّدِ الاستمراريِّ لحالةِ التَّخافُتِ

الهَمْسِ عندَ الحديثِ والكلامِ في قولِه تعالى: ﴿وَهُمۡ يَتَخَٰفَتُونَ﴾؛ لإفادةِ التَّجدُّدِ الاستمراريِّ لحالةِ التَّخافُتِ وإخفاضِ الأصواتِ، وكأنَّ كلَّ كلامٍ كانَ أخفضَ جَرْسًا ممّا قبلَه، وكلَّ حديثٍ كان أخفى ممّا قبلَهُ، حتَّى دَخلوا في حالةِ تشارُكٍ وتوافُقٍ على إغضاءِ الأصواتِ وإخفاتِها، حتّى تكاد لا تَبينُ من شدَّةِ التَّهامُسِ؛ إذ صيغةُ (التَّفاعل) تدلُّ على المشاركةِ دلالةً مُطابقيَّة، وفيها مطاوَعةٌ تقديريَّة، فكأنَّهم طَلَبوا الإخفاتَ، فتَخافَتوا، ونلمحُ دلالةَ (المُجانبةِ) في الصّيغة أيضًا، أي: يَتجَنَّبونَ رفعَ الصَّوتِ بالإسرارِ، ويتشاورون سِرًّا حتَّى لا يَسمعَ بهم أحدٌ، كما دلَّتِ المادَّةُ على حالةِ الخَفت للصَّوتِ بشكلٍ مُبالغٍ به، قال الزَّمخشريُّ: "﴿يَتَخَٰفَتُونَ﴾ يَتسارّونَ فيما بينَهُم، و(خفيَ وخَفَتَ وخَفَدَ) ثلاثتُها في مَعنى: الكَتْم، ومنهُ: الخُفدود للخُفّاش"[1]، حتّى يكاد النَّفَسُ ينقطِعُ عندَ الحديث معَ شدَّةِ الحركةِ والانطلاق، فتكون هنالك شدَّةٌ في الانطلاقِ يقابلُها تهامُسٌ ضعيفٌ يشعرُ بالإعياءِ والتَّعَب، وجوّزَ الهرريُّ أنَّ معنى ﴿يَتَخَٰفَتُونَ﴾: "يُخفونَ أنفسَهُم منَ النّاسِ حتَّى لا يَرَوْهُم، فَيَقصِدوهم، كما كانوا يَقصِدونَ أباهُم وقتَ الحَصاد"[2].

الأصواتُ المُتخافتة صورةٌ لغيابِ النُّفوسِ النّاطِقة

دلالةُ الكناية في ﴿يَتَخَٰفَتُونَ﴾:

كنَّى النَّظمُ القرآنيُّ في قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ يَتَخَٰفَتُونَ﴾ عن التَّخفّي وعدمِ الإحساسِ بالمُتكلِّمين؛ إذِ التَّخافُتُ في الحقيقةِ قائمٌ بالأصواتِ القائمةِ بالمتكلِّمين، فيلزَمُ من تخافُتِ أصواتِهم تخافُتُهم واختَفاؤهم وعدمُ الشُّعورِ بهم.

دلالةُ الطِّباق بينَ ﴿فَتَنَادَوۡاْ﴾ و﴿يَتَخَٰفَتُونَ﴾:

عبَّرَ النَّظمُ القرآنيُّ بأسلوبِ الطِّباق في قولِه تعالى: ﴿فَتَنَادَوۡاْ﴾

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 590.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 95.

البُخلُ والشُّحُّ يجمعُ الضِّدَّين بكلِّ قُبح

﴿وَهُمۡ يَتَخَٰفَتُونَ﴾؛ للدَّلالة على اجتماعِ الضِّدَّين في كلامِهم، فقدِ ارتفعَت أصواتُهم عندَ التَّنادي وقتَ الإصباحِ من أجلِ إلهابِ المشاعِرِ وتهييجِ القلوب نحوَ الفعلِ الشَّنيع، وانخفضَتْ أصواتُهُم، وخَفتَتْ عندَ الحديث في الطَّريق؛ خَوفًا من سَماع الفقراء لحديثِهم بُخلًا وشُحًّا، وهكذا حالُ البخيل الشَّحيح، يرفَعُ صوتَهُ للمُطالبةِ بحقوقه كاملةً، لكنَّه يَبلعُ لسانَهُ عندَ المُطالبةِ بأداءِ واجباتِهِ.

مَعنى ﴿أَن﴾ في ﴿أَن لَّا﴾ والغرضُ منها:

تفسيرُ التَّخافُتِ بما يُفيد الشُّحَّ الثّابِت

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بـ﴿أَن﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَهُمۡ يَتَخَٰفَتُونَ ٢٣ أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا﴾؛ للدَّلالة إمّا على التَّفسيرِ بها، فتكونُ بمعنى (أي)؛ لأنَّها مسبوقةٌ بجملةِ ﴿يَتَخَٰفَتُونَ﴾ الَّتي فيها مَعنى القولِ دونَ حُروفِهِ، قال الهرريُّ: "﴿أَن﴾ هي المُفسِّرةُ للتَّخافُت المَذكور؛ لما فيه من مَعنى القول"[1]، فـ: "كانَ لفظُهم الَّذي يَتَخافَتونَ به ﴿أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكُم مِّسۡكِينٞ﴾"[2]، وإمّا للدَّلالة على المصدريَّة المَنصوبةِ بنَزْعِ الخافض[3]، أي: يَتخافتونَ بألّا يُدخلنَّها[4]، أي: بعدمِ الدُّخول، وعلى كلٍّ منهما يكونُ هنالك تعلُّقٌ بما قبلَهُ، سواءٌ كانَ تعلُّقَ التَّفسير بالمُفسَّرِ، أوْ تعلُّقَ المتعدَّى إليه بالمتعدّي، فيتحقَّقُ توضيحٌ لذلك التَّخافُتِ والإسرارِ به، أي: "قائلًا بعضُهم لبعضٍ: لا يُمكِّنَ أحدٌ منكم اليومَ مسكينًا من دُخول الجنَّةِ عليكم"[5]، ويظهر أنَّ احتمالَ التَّفسيريَّة أقوى؛ لأنَّه قُرِئَ بحذفِ (أنْ) - في قراءة شاذة - والمشهورُ حذفُ المفسِّرةِ دونَ المصدريَّة، ولذا اقتصرَ ابنُ عاشورٍ عليها[6].

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 96.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 239.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 123.
(4) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 4/ 337.
(5) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 10/ 1534.
(6) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 235، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 83.

مَعنى ﴿لَّا﴾ في ﴿لَّا يَدۡخُلَنَّهَا﴾ والغرضُ منه:

دلالةُ الكِناية تُعمِّقُ النَّهيَ بالعِناية

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بـ﴿لَّا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا﴾؛ للدَّلالة على النَّهي الكنائيِّ؛ إذ ليسَ المرادُ نهيَ المساكينِ عن دُخولِ جنَّتِهم، بل المرادُ نهيُ بعضِهم بعضًا عن قَبولِ دخولِ أحدٍ من المَساكينِ إلى جنَّتِهم، "فالنَّهيُ عن الدُّخولِ للمسكين نهيٌ عن تمكينِهِ منه، حتّى لا ينالَه من الثِّمار شيءٌ"[1]، فأوقعَ: "النَّهيُ على دخولِ المساكين؛ لأنَّه أبلغُ؛ لأنَّ دخولَهم أعمُّ من أنْ يكونَ بإدخالِهم أو بدونِه"[2]، فتوجَّهَ النَّهيُ إلى الحَدَثِ المسنَد إلى المسكين، وأُريدَ به نهيُ أنفسِهم، بعدم تَركِ أحدٍ من المساكينِ يدخلُ جنَّتَهم، والغرضُ من العدولِ عن نَهيِ بعضِهم بعضًا إلى نَهْيِ غيرِهم، حتَّى تكونَ دلالةُ النَّهيِ أقوى أثرًا؛ إذ يَلزمُ من نَفْيِ اللّازم نفيُ المَلزوم بخلافِ العَكس، ولذا قالَ الهرريُّ: "والمرادُ بِنَهْيِ المسكينِ عنِ الدُّخول المبالغةُ في النَّهي عن تمكينِه من الدُّخول، كقولهم: (لا أرَيَنَّك هاهُنا)، فإنَّ دخولَ المسكينِ عليهم لازمٌ لتمكينِهم إيّاه من الدُّخول، كما أنَّ رُؤيةَ المتكلِّم المُخاطَبَ لازمٌ لحضورِه عندَهُ، فذَكَرَ اللّازمَ؛ لينتقلَ منهُ إلى المَلزوم"[3].

مَعنى الفعلِ المُضارعِ (يدخلُ) مادَّةً وصيغةً:

النَّهيُ عن مُجرَّدِ الدُّخول أبلغُ في مَنعِ الرِّفدِ المَسؤول

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بالفعلِ المضارعِ (يدخلُ)، في قولِهِ تعالى: ﴿أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ﴾؛ للدَّلالة على عدمِ تركِ أحدٍ منَ المساكينِ يدخلونَ الجنَّة على سبيلِ التَّجدُّدِ والاستمرار، بحيثُ كلَّما تكرَّرَ منهم الدُّخولُ؛ تكرَّر في مُقابلِهِ النَّهيُ وعدمُ التَّرك والسَّماح لهم بذلك، وتفيدُ مادَّةُ الفعلِ الولوجَ للجنَّةِ بحركةٍ طبيعيَّةٍ يتَّصفُ صاحبُها بالدُّخول إلى باطِنِها بعدَ أنْ كان خارجًا عنها، فيكونُ

(1) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 10/ 1534.
(2) القنوجيّ، فتح الرّحمن: 14/ 266.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 590، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 96.

النَّهيُ مِن شدَّته أنَّهم لا يُريدونَ الدُّخولَ إليها، فضلًا عن طلبِ المُساعدةِ والتَّجوُّلِ فيها، ولذا قال الحنبليُّ: "وهذا مبالغةٌ في النَّهي عن التَّمكينِ منَ الثَّمرة"(1).

دلالةُ التَّوكيد بالنّونِ الثقيلةِ في ﴿يَدۡخُلَنَّهَا﴾:

المُبالغةُ المُؤكَّدة تـدلُّ عـلى المُمانعةِ المُشدَّدة

أكَّدَ النَّظمُ الكريم بـ(النّون) المؤكِّدة الثَّقيلةِ للفعلِ المُضارع، في قولِه تعالى: ﴿أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ﴾؛ للدَّلالة على المبالغةِ في النَّهي والشِّدَّةِ في المنع، بحيثُ لا يُتصوَّرُ بعدَ النَّهي عن الدُّخول ولوجُ أحدٍ إلى الجنَّة، فضلًا عن الطَّلب وإظهارِ الحاجةِ والفاقة، قال ابنُ عاشور: "وَتَأْكِيدُ فِعْلِ النَّهْيِ بِنونِ التَّوْكِيدِ لِزِيادَةِ تَحقيقِ ما تَقاسَموا عَلَيهِ"(2).

دلالةُ التَّعريفِ بـ(أل) في ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾:

تقييدُ الدُّخول بـ(اليوم) للانتهاءِ مـنَ الـحَـصـاد والصَّرم

عرَّفَ النَّظمُ الكريم لفظَ (اليوم) بـ(أل)، في قولِه تعالى: ﴿أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ﴾؛ للدَّلالة على العهدِ الحُضوري، أي: الكفُّ عن الدُّخولِ في هذا اليوم الحاضرِ المُخصَّص للحصادِ والجَنْي للأثمار، والغرضُ من تقييدِ منعِ الدُّخول بذلك اليوم الحاضِرِ؛ ليَنتهوا فيه من الصَّرم، فإنْ دخلوا بعدَها؛ فهو مباحٌ.

دلالةُ تقديمِ المفعولِ في ﴿يَدۡخُلَنَّهَا﴾ على الفاعل:

تـخـصـيـصُ المنعِ بجنَّتِهم دلـيـلٌ عـلى شدَّةِ جَشَعِهم وحرصِهم

قدَّمَ النَّظمُ الكريم المفعولَ به، وهو ضميرُ الغائب في ﴿يَدۡخُلَنَّهَا﴾، من قولِه تعالى: ﴿أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكُم مِّسۡكِينٞ﴾ على الفاعل؛ للدَّلالة على الاختصاصِ والانحصار، أي: حصرُ منعِ المساكينِ الدُّخولَ لتلك الجنَّة، ويُؤذَنُ لهم بدخولِ ما سِواها، والغرضُ من الحصرِ بيانُ شدَّةِ مَنعِهم، لتقديمِ أيةِ معونةٍ تخصُّهم دونَ مَن سِواهم.

دلالةُ تقديمِ الظَّرف ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾:

قدَّمَ النَّظمُ الكريم لفظَ الظَّرف (اليوم)، في قولِه تعالى: ﴿أَن

(1) الحنبليّ، فتح الرّحمن: 7/ 130.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 83.

﴿لَّا يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكُم مِّسۡكِينٞ﴾؛ للدَّلالةِ على الاهتمام بالزَّمن المقيِّد لحدثِ الدُّخول بالنِّسبة للدّاخلِ المسكين؛ إذِ المهمُّ أَنْ ينتهيَ الدُّخول للجنَّةِ في ذلك اليوم.

الاهتمامُ بالزَّمان يفيدُ التَّقديمَ على الدّاخل في المكان

دلالةُ الاستعارةِ لحرفِ الجرِّ (على):

عبَّر النَّظمُ الكريم بحرفِ الجرِّ (على)، في قولِه تعالى: ﴿أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكُم﴾؛ للدَّلالة على الاستعلاءِ المجازيِّ، إذِ الفعلُ (دخلَ) يتعدَّى بحرفِ الجرِّ (في)، لكنَّ النَّظمَ عدّاه بـ(على) على سبيلِ الاستعارةِ التَّصريحيَّة التَّبعيَّة؛ لإظهارِ مَدى انزعاجِهم بالفقراءِ الثُّقلاء، وكأنَّهم يدخلونَ عليهم، ويتمكَّنونَ منهم، ويأخذونَ ما يحتاجونَهُ من جنَّتِهم، وهُم له كارهون.

تشبيهُ الظَّرفيَّة بالاستعلاء لبيانِ حقيقةِ الدّاخلينَ الثُّقَلاء

دلالةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور ﴿عَلَيۡكُم﴾:

قدَّمَ النَّظمُ الكريمُ الجارَّ والمجرورَ ﴿عَلَيۡكُم﴾ على الفاعلِ ﴿مِّسۡكِينٞ﴾، في قولِه تعالى: ﴿أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكُم مِّسۡكِينٞ﴾؛ للدَّلالة على الاهتمام بعدمِ المدخولِ عليه أكثرَ من الاهتمام بالدّاخل؛ لأنَّهم كارهونَ لدخولِهم مانعونَ من إعطائهم، وأمّا دخولُهم على غيرهم؛ فهو خارجٌ عن مضمونِ كلامِهم، ولا موقفَ لهم بإزائِه إلّا السَّماحُ والإذنُ.

تقييدُ المنعِ بالدُّخول عليهم مُؤذِنٌ بالسَّماح لهم معَ غيرِهِم

دلالةُ التَّنكيرِ في ﴿مِّسۡكِينٞ﴾:

نكَّرَ النَّظمُ الكريم لفظَ ﴿مِّسۡكِينٞ﴾، في قولِه تعالى: ﴿لَّا يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكُم مِّسۡكِينٞ﴾؛ للدَّلالة على العُموم؛ إذِ النَّكرة في حيِّزِ النَّهي أوِ النَّفي تدلُّ على العُموم الصّادقِ بأيِّ مسكينٍ كان، كما أنَّ النَّهيَ عن دُخول ﴿مِّسۡكِينٞ﴾ واحدٍ بلفظِ الإفرادِ يُفيدُ النَّهيَ عن دخولِ (المَساكين) بلفظِ الجمعِ من بابِ الأَوْلى، ويكونُ النَّهي مُتلبِّسًا بالوصفِ العُنوانيِّ للفظ ﴿مِّسۡكِينٞ﴾، الدّالِّ بمادَّتِه على شدَّةِ الحاجةِ وعدمِ القُدرة على الحركةِ والكسبِ لهَرَمٍ أوْ عَجْزٍ أوْ مرضٍ؛

منعُ الصَّدقاتِ للمساكين دالٌّ على منعِ بقيَّةِ المُحتاجين

إذِ المسكينُ منَ السُّكون، وهو من خواصِّ الفُقراء العاجزينَ عن الحركة، ويُفهَمُ منه أنَّ النَّهيَ المتعلِّقَ بالمساكينِ العاجزينَ عن الفعل والمُقعَدينَ عنِ الكَسب يُفيدُ منعَ ما عداهُم من بابِ الأَوْلى.

دلالةُ (الواوِ) في ﴿وَغَدَوۡاْ﴾:

الغُدوُّ والانطِلاق لمَنْعِ المِسكينِ عن المَذاق

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بـ(الواو) في قولِه تعالى: ﴿وَغَدَوۡاْ عَلَىٰ حَرۡدٖ قَٰدِرِينَ﴾؛ للدَّلالة إمّا على الحالِ مِن ضميرِ ﴿فَٱنطَلَقُواْ﴾، أي: انطَلَقوا، وقد غدَوا، أي: غادينَ، قال ابنُ عاشور: "وَجُمْلَةُ ﴿وَغَدَوۡاْ عَلَىٰ حَرۡدٖ قَٰدِرِينَ﴾ في مَوْضِعِ الحالِ بتَقديرِ (قَدْ)، أيِ: انطَلَقوا في حالِ كَونِهم غادينَ قادرينَ عَلَى حَرْدٍ"[1]، ووظيفةُ الحال تقييدُ انطلاقِهم، وبيانُ هيئةِ المُنطلقينَ عند تلبُّسهم بالانطلاقِ، وهي هيئةُ الغادينَ الغائرينَ على الجنَّةِ بكلِّ قوَّةٍ ونَشاط، وإمّا للعطفِ على جملة ﴿فَٱنطَلَقُواْ﴾ أيضًا[2]؛ للدَّلالة على الجمعِ بينَ الانطلاقِ والغُدوِّ، فالانطلاقُ كانَ مُتقيِّدًا بحالةِ التَّخافُت، والغُدوُّ كانَ مُتقيِّدًا بحالةِ القُدرة، أي: انطلقوا مُتسارّين، وغَدَوا قادرينَ، فقد جَمَعوا بينَ هيئتَين في انطلاقِهم وفي غُدوِّهم.

دلالةُ الفعلِ الماضي (غَدَوا) مادَّةً وصيغةً:

انطَلَقوا إلى المَنْعِ، ونَوَوا، وإلى ضَلالِهم غَدَوا

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بالفعلِ الماضي ﴿وَغَدَوۡاْ﴾، في قولِه تعالى: ﴿وَغَدَوۡاْ عَلَىٰ حَرۡدٖ قَٰدِرِينَ﴾؛ للدِّلالة على تحقيقِ غُدوِّهم، وأنَّ ذلك قد صدرَ منهم على سبيلِ القطعِ بالحصولِ والصُّدورِ منهم، وتفيدُ مادَّةُ الفعلِ الدَّلالةَ على الذَّهابِ والمضيِّ المُرتبطِ بوقتِ الغداةِ وأوَّلِ الصَّباح، كالغارةِ والهُجوم على الشَّيءِ بقَصْدِ الاستيلاءِ والمُباغَتة، قال الهرريُّ: "مَشَوا بُكرةً مُصمِّمينَ"[3]، كما تكرَّرت مادَّةُ الفعلِ الَّتي عُبِّرَ عنها بصيغةِ الأمرِ في قولِه: ﴿أَنِ ٱغۡدُواْ عَلَىٰ حَرۡثِكُمۡ﴾،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 84.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 123.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 96.

فاستجابوا لذلك التَّنادي بالغُدوِّ، وبصيغةِ الماضي، وفي إيقاعِ فعلِ الغُدوِّ بعدَ فعلِ الانطلاقِ تقييدٌ أنَّ ذلك الانطلاقَ السَّريع كان استجابةً لطلبِ الغدوِّ، وأنَّه مُرتبطٌ بوقتِ الغَداة، وأشارَ ابنُ عاشور إلى عِلَّةِ التَّعبير بفعلِ الغُدوِّ في جملةِ الحالِ بالقول: "وذُكِرَ فِعْلُ (غَدَوا) في جُمْلَةِ الحالِ؛ لِقَصْدِ التَّعْجِيبِ مِنْ ذَلِكَ الغُدوِّ النَّحْسِ"[1].

دلالةُ الإسنادِ إلى ضميرِ الجَمْعِ في (غَدَوا):

الاتِّفاق على الضَّلالِ بالإطلاق

أسندَ النَّظمُ الكريم فعلَ (الغُدوِّ) إلى ضميرِ الجمع (الواو)، في قولِه تعالى: ﴿وَغَدَوۡاْ عَلَىٰ حَرۡدٖ قَٰدِرِينَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ الغُدوَّ قد صدرَ منهم على سبيلِ التَّوافُقِ والإجماع، حتّى إنَّه لم يتخلَّفْ واحدٌ منهم عن ذلك، ممّا يُفيد حالةَ الإطباقِ على الضَّلال الَّذي هُم فيه.

مَعنى حرفِ الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾، والغرضُ منه:

التَّمكُّنُ والاستقواء دليلُ الغُرورِ والاستِعلاء

استعملَ النَّظمُ الكريمُ حرفَ الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾، في قولِه تعالى: ﴿وَغَدَوۡاْ عَلَىٰ حَرۡدٖ قَٰدِرِينَ﴾؛ للدَّلالة على الاستعلاءِ المجازيِّ، سواءٌ فُسِّرَ (الحرد) بالقَصدِ للمنع أوِ الغَضَبِ أوِ السُّرعة، وسواءٌ تعلَّقَ الحرفُ بالفعلِ (غَدَوا)، أو تعلَّقَ باسمِ الفاعلِ ﴿قَٰدِرِينَ﴾؛ إذ الغُدوُّ لا يَستعلي استعلاءً حقيقيًّا على المنعِ والقصدِ والغضَبِ والسُّرعة، كما أنَّ القدرةَ لا تعلوها عُلوًّا حقيقيًّا، فيكونُ الاستعلاء مَجازيًّا دالًّا على التَّمكُّنِ من ذلك الحَرْدِ في الغُدوِّ والقدرة، حتّى إنَّه صارَ مستعليًا عليه.

تحديدُ مُتعلَّقِ ﴿عَلَىٰ حَرۡدٖ﴾:

تعدُّدُ الاحتمالات تنجُمُ عنها الكثيرُ منَ الدِّلالات

يحتملُ الجارُّ والمجرورُ ﴿عَلَىٰ حَرۡدٖ﴾، في قولِه تعالى: ﴿وَغَدَوۡاْ عَلَىٰ حَرۡدٖ قَٰدِرِينَ﴾ أنْ يكونَ مُتعلِّقًا بالفعلِ (غدَوا) على أنَّه ظرفٌ لَغْوٌ، وأنْ يكونَ مُتعلِّقًا بحالٍ محذوفةٍ على أنَّه ظرفٌ مُستقرٌّ، أي: وغدَوا مُتلبِّسينَ بحَرْدٍ، كما يحتملُ الجارُّ والمجرورُ ﴿عَلَىٰ حَرۡدٖ﴾

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 84.

أَنْ يكونَ مُتعلِّقًا باسم الفاعل ﴿قَٰدِرِينَ﴾، فيكونَ إمّا ظرفًا لَغْوًا أو ظرفًا مُستقِرًّا، والتَّقديرُ: وغَدَوا قادرينَ على حَرْدٍ أَوْ مُتلبِّسينَ بحَرْدٍ، كما أنَّ (الحَرْدَ) يتعدَّدُ مَعناهُ المُعجميُّ على ثلاثةِ احتمالات، فهو إمّا الغضَبُ، أوِ القصدُ بالمَنع، أوِ السُّرعة[1]، وتعدُّد الاحتمالاتِ الإعرابيَّة والمعنويَّة تنجُمُ عنها الكثيرُ منَ الدَّلالات والعلاقاتِ التَّركيبيَّة المختلفة، حتّى إنَّ ابنَ عاشور قال: "وَفي إيثارِ كَلِمَةِ ﴿حَرْدٍ﴾ في الآيَةِ نُكْتَةٌ مِنْ نُكَتِ الإعجازِ المُتَعَلِّقِ بِشَرَفِ اللَّفظ ورَشاقَتِهِ مِن حَيثُ المَعْنَى، ومِن جِهَةِ تَعَلُّقِ المَجْرورِ بِهِ بِما يُناسِبُ كُلَّ مَعْنًى مِن مَعانيهِ"[2].

تعلُّقُ ﴿عَلَىٰ حَرْدٍ﴾ بالفعلِ (غَدَوا):

تبيينُ الغُدوِّ، توضيحٌ لحقيقةِ العُتوِّ

الجارُّ والمجرور ﴿عَلَىٰ حَرْدٍ﴾ يحتملُ أنْ يكونَ مُتعلّقًا بالفعلِ (غَدَوا)، في قولِهِ تعالى: ﴿وَغَدَوۡاْ عَلَىٰ حَرۡدٖ قَٰدِرِينَ﴾، فهو إمّا ظرفٌ لغوٌ منه، وإمّا ظرفٌ مُستقِرٌّ في موقِعِ الحال، وبناءً على هذا الاحتمالِ الإعرابيِّ، وعلى أنَّ معنى الحَرْدِ (السُّرعةُ والقصدُ والغضَبُ)، فإنَّ المعنى على الظَّرف اللَّغْوِ يكون: (وَغدَوا على سُرعةٍ وعلى قصدٍ بالمنع)، وعلى الظَّرفِ المُستقِرِّ يكونُ المَعنى: (وَغدوا على غَضَب)، والغرضُ من التَّعلُّق: بيانُ نوعِ الغُدوِّ بالسُّرعة والقصد بالمنع على اللغويَّة، ومن الحاليَّةِ بيانُ هيئةِ الغادي، أي: وغَدَوا غاضِبينَ، وبناءً عليها تكونُ ﴿عَلَىٰ﴾ مُستعارةً للباء استعارةً تصريحيَّةً تبعيَّةً؛ إذِ الغُدوُّ بالسُّرعة وبمُصاحبةِ المَنع وبمُلابسة الغضبِ يكونُ الاستعلاءُ عليها مجازيًّا، ويكون ﴿قَٰدِرِينَ﴾ حينَئذٍ حالًا من (الواو) في ﴿وَغَدَوۡاْ﴾ مقدَّرةً، أي: مُقدِّرينَ أنَّهم قادرونَ على تحقيقِ ما أرادوا، أي: غَدَوا قادرينَ

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 22/ 101 - 102.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 84.

على نيلِ مُرادِهم وحُصولِ بُغيتهم، وهم إنَّما حَصَلوا على الخَيبة والحِرمان[1]، أوْ حالًا من حالٍ.

تعلُّقُ ﴿عَلَىٰ حَرۡدٖ﴾ بـ﴿قَٰدِرِينَ﴾:

دلالةُ الانحصار تدلُّ على ضَعفِ الأحوال

الجارُّ والمجرور ﴿عَلَىٰ حَرۡدٖ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَغَدَوۡاْ عَلَىٰ حَرۡدٖ قَٰدِرِينَ﴾، يحتمل أن يكون مُتعلِّقًا بـ﴿قَٰدِرِينَ﴾، وبناءً عليه يكونُ تقديمُ الجارِّ والمجرور دالًّا على الاختصاصِ والانحصار؛ لتقديم المعمولِ على العاملِ[2]، ومعنى (الحَرْدِ) هو المنعُ بقَصْد، أو الغضبُ، أوِ السُّرعة، ويكونُ المعنى: قادِرينَ على المَنْعِ، أي: مَنْعِ الخَيرِ أو مَنْعِ ثَمَرِ جَنَّتِهِم غَيْرَ قادِرِينَ عَلَى النَّفْعِ"[3]، وإنْ أُريدَ بالحردِ الغضبُ والحَنَق والسُّرعةُ، فالتَّقديم للانحصارِ أيضًا، ويكونُ المَعنى: وغَدَوا لا قُدرةَ لهُم إلّا على السُّرعةِ، و"لا قُدْرَةَ لَهُم إلّا على الحَنَقِ والغَضَبِ على المَساكينِ؛ لِأنَّهُم يَقتَحِمونَ عَلَيهِم جَنَّتَهُم كُلَّ يَوم، فَتَحَيَّلوا عَلَيهِم بِالتَّبكيرِ إلى جِذاذِها، أي: لَمْ يَقْدِروا إلّا عَلَى الغَضَبِ والحَنَقِ، ولَمْ يَقْدِروا عَلَى ما أرادوهُ مِن اجتِناءِ ثَمَرِ الجَنَّةِ"[4]، وعلى كلِّ التَّوجيهات للمَعاني، فإنَّ تخصيصَ قُدرتِهم بالمنعِ أوْ بالغضَب أو بالسُّرعةِ يفيدُ ضعفَ قُدرتِهم وقلَّةَ حيلتِهم؛ إذ جُلُّ هَمِّهم المنعُ، وعظيمُ قدرتِهم الغضَب، وكبيرُ إنجازِهم السُّرعةُ.

سرُّ العدولِ:

العدولُ في الكلام للدَّلالة على هَوانِ الأحوالِ والأحلام

لمّا كان الجارُّ والمجرورُ مُتعلِّقًا بـ﴿قَٰدِرِينَ﴾، في قولِه تعالى: ﴿وَغَدَوۡاْ عَلَىٰ حَرۡدٖ قَٰدِرِينَ﴾، وكان المعنى: وغَدوا حالَ كونِهم قادرينَ على حَرْدٍ، أي: غضَبٍ وسُرعةٍ وقصدٍ بالمنعِ؛ فلِمَ عدلَ النَّظمُ عن (وَغَدَوا حاردينَ) إلى ما ذكرَ؟ أجابَ ابنُ عاشور بقولِه: "والتَّعبيرُ بـ

(1) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 585.
(2) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 585.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 84.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 85.

﴿قَدِرِينَ﴾ عَلَى ﴿حَرۡدٖ﴾ دونَ أن يَقول: (وغدوا حاردين) تَهَكُّمٌ؛ لأنَّ شأنَ فِعْلِ القُدْرَةِ أن يُذْكَرَ في الأفْعالِ الَّتي يَشُقُّ عَلَى النّاسِ إتْيانُها، قالَ تعالَى: ﴿لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ﴾ [البَقَرَة: 264]، وقالَ: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ٤﴾ [القيامَة: 4]، فَقَوْلُهُ: ﴿عَلَىٰ حَرۡدٖ قَٰدِرِينَ﴾ على هَذا الاحتِمالِ مِنْ بابِ قَولِهِم: (فُلانٌ لا يَمْلِكُ إلّا الحِرْمانَ، أو لا يَقدِرُ إلّا عَلَى الخَيْبَةِ)"[1].

دلالةُ المَوقِعِ الإعرابيِّ لـ ﴿قَٰدِرِينَ﴾:

القدرةُ الظّالمة أمامَ قدرةِ الله عاجزة

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بلفظِ ﴿قَٰدِرِينَ﴾، في قولِه تعالى: ﴿وَغَدَوۡاْ عَلَىٰ حَرۡدٖ قَٰدِرِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على الحاليَّة من ضميرِ (الواو) في (غَدَوا)، والغرضُ منها تقييدُ غُدوِّهم إلى جنَّتِهم بالقُدرةِ، وبيانُ هيئتِهم عندَ الغُدوِّ بكونِهم قادرين، لكنَّهم لم يكونوا قادرينَ على شيءٍ يُذكَر، سِوى أنَّهم قادرونَ على الغضَبِ والمَنعِ والسُّرعة، واللّه تعالى كان قادِرًا على تدميرِ جنَّتِهم بمَنْعِهم من المَنْعِ، وبِسُرعةٍ خاطفةٍ إذ أُحيطَ بها، وكانوا نائمينَ، وكانَ قَدَرُه دالًّا على غضَبِه مِنهم لسوءِ طَويَّتِهم وخَباثةِ سَريرتِهم، قال الزَّمخشريُّ: "لمّا قالوا ﴿ٱغۡدُواْ عَلَىٰ حَرۡثِكُمۡ﴾ وقد خَبُثَتْ نيَّتُهم؛ عاقبَهم اللّه بأنْ حارَدَتْ جنَّتُهم، وحُرِموا خيرَها، فلم يَغدوا على حَرْثٍ، وإنَّما غَدَوا على حَرْد، و﴿قَٰدِرِينَ﴾ من عكسِ الكلامِ للتَّهكُّم، أي: قادرينَ على ما عَزَموا عليهِ منَ الصِّرامِ وحرمانِ المساكين"[2].

دلالةُ لفظِ ﴿قَٰدِرِينَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

العَجزُ التّامُّ أمامَ قُدرةِ الله المَلِكِ العلّام

اختارَ النَّظمُ القرآنيُّ لفظَ ﴿قَٰدِرِينَ﴾، في قولِه تعالى: ﴿وَغَدَوۡاْ عَلَىٰ حَرۡدٖ قَٰدِرِينَ﴾؛ للدَّلالة على الاتِّصافِ بطريقِ اللُّزوم بالقدرةِ القاصِرةِ الحادثةِ المَحدودة، لكنَّهم في الحقيقة كانوا عاجزينَ أمامَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 84.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 591.

هولِ ما رَأوهُ ممّا أحدَثتْهُ القدرةُ التّامَّة والمُطلقة لله ربِّ العالَمين، ومادَّةُ القدرةِ تدلُّ على أنَّ صاحبَها يعمَلُ بقوَّةٍ ممّا يصعُبُ على غيره إنجازُهُ، وإذا بهم قد عَمِلوا عمَلًا يُظهِرُ مَدى عَجزِهِم وهَوانِهِم، ومن ثَمَّ كانَ وصفُهُم بالقُدرة والاقتدار تهكُّمًا بهِم وبِقواهُم المَحدودةِ الضَّعيفة، قالَ أبو حيّان: "قيلَ: ويُحتَمَلُ أن يَكونَ من التَّقدير بِمَعنَى التَّضْييقِ؛ لِقَولِه تَعالَى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ﴾ [الطّلاق: 7]، أي: مُضَيِّقِينَ عَلَى المَساكِينِ؛ إذْ حَرَموهُم ما كانَ أبوهُم يُنيلُهُم مِنها"(1).

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإبلاء والبلاء والاختبار والامتحان والافتتان:

(الإبلاءُ): الإصابةُ بالبَلوى، وغالبًا تكونُ في الشَّرِّ والمكروه، و(الابتلاء): مُبالغةٌ في الإصابةِ بهما، فالابتلاءُ لا يكونُ إلّا بتحميلِ المَكارِهِ والمشاقِّ، وأمّا (الاختبارُ)؛ فيكونُ بذلك وبفعلِ المَحبوب، ألا ترى أنَّه يقالُ: اختبَرَهُ بالإنعامِ عليه، ولا يقالُ: ابتلاهُ بذلك، ولا هو مُبتلًى بالنِّعمة، ويجوزُ أنْ يقال: إنَّ (الابتلاءَ) يَقتضي استخراجَ ما عندَ المُبتلى من الطّاعةِ والمعصية، و(الاختبارَ) يَقتضي وقوعَ الخبرِ بحالِهِ في ذلك(2)، فالاختبارُ يُلاحظُ فيه تحصيلُ الخبرِ والاطِّلاعُ بأيِّ وسيلةٍ كانَ، قال الكفويُّ: "الابتلاءُ في الأصلِ التَّكليفُ بالأمرِ الشاقِّ مِنَ البلاءِ، لكنَّه لمّا استلزمَ الاختبارَ بالنِّسبة إلى مَن يجهلُ العواقبَ؛ ظُنَّ ترادُفُهما"(3)، وفي (الإبلاء) توجُّهٌ مخصوصٌ إلى جهةِ صدورِ التَّحويلِ منَ الفاعلِ، ونظرٌ خاصٌّ إلى قيامِهِ به، وفي (الابتلاءِ) توجُّهٌ مخصوصٌ إلى صدورِ الفعلِ بالطَّوعِ والرَّغبة والإرادةِ الخاصَّة، وأمّا (الامتحانُ)؛ فهو اختبارٌ وتحصيلُ

الابتلاءُ مبالغةُ البَلاء، والاختبارُ أعمُّ مطلقًا منَ الابتلاءِ، والامتحانُ أخصُّ مطلقًا منَ الاختبارِ، والافتتانُ إيجادُ اختلالٍ لتحصيلِ النَّتيجة

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 243.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 216.

(3) أبو البقاء الكفويّ، الكلّيّات، ص: 34.

نتيجةٍ بالدَّأبِ والجِدِّ في العمَل، فالقيدانِ: (الاختبار، وبالدَّأب) مَنظورانِ في الأصل، والتَّعبيرُ بالامتحانِ دونَ الاختبار: إشارةٌ إلى لزوم دقَّةٍ وتحقيقٍ وجهدٍ شديدٍ، فإنَّ التَّسامُحَ فيه وفي أمثالِهِ يوجِبُ خَلَلًا وفسادًا، و(الافتتانُ): يُلاحظُ فيه إيجادُ اختلالٍ واضطرابٍ حتّى يتحصَّلَ المطلوبُ والنَّتيجةُ[1]، ولذا اختارَ النَّظمُ الابتلاء لما فيهِ منَ التَّقليبِ والتَّحويلِ في نَظْمِ الأمورِ وبَرنامَجِ العَيشِ؛ إذ ابتلى أهلَ قريشٍ بالنِّعمة، فبطروا، فابتلاهُم بالجَدْبِ والقَحْط، كما ابتلى أصحابَ الجنَّة بالجنَّة النَّضيرةِ، ثمَّ ابتلاهُم بإحراقِها وتَدميرِها.

الصَّرم والقطعُ والجَذُّ والقَطْفُ:

الـصَّـرمُ أخـصُّ مـنَ الـقـطـعِ، والـجَـذُّ أشـدُّ مـن الـقـطـعِ، والقطفُ القطعُ بانتظامٍ

(الصَّرمُ) هو القَطْعُ القويُّ الَّذي يَظهرُ عندَ رُؤيتِهِ بالعُيون من شدَّةِ الفَرْقِ والفَصْلِ والجَنْي، ومِن ثَمَّ اقترنَ بالصَّباح الَّذي يُعلَمُ بضوئِهِ أنَّه قد قُطِعَ، بخلاف (القطعِ) الذي يكونُ ظاهرًا، وقد يكونُ خافيًا، قالَ المصطفويُّ: "الصَّرمُ: الفَرْقُ بالقطعِ، وليسَ بمُطلقِ فَرْقٍ ولا قَطْعٍ، فيقالُ: صرمَ النَّخلَ والجبلَ والعِذق؛ إذا قطعَ جُزءًا منها، وفرَّقَها عن الأصلِ، والقطعُ مُطلقُ إيجادِ حَيلولةٍ وفصلٍ في الارتباطِ والاتِّصالِ بينَ الأجزاء"[2]، وعندَ العسكريِّ: "القطعُ يكونُ ظاهرًا وخافيًا"[3]، "ويُطلقُ القطعُ أيضًا على فَصْلِ الجِسْم بنفوذِ جسمٍ آخرَ فيهِ، فَيَحتاجُ إِلَى آلَةٍ نفّاذة فاصلةٍ بالنُّفوذ"[4]، "وأمّا (الجذُّ)؛ فهو الاستئصالُ وتفريقُ الأجزاء حتّى تَنمحيَ الهيئةُ التَّركيبيَّة"[5]، "و(القطفُ) قطعٌ بانتظامٍ لغرضِ الاستفادةِ منه، ولذا يغلبُ في

(1) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 1/ 299، 11/ 40.
(2) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 9/ 278.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 151.
(4) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 730.
(5) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 2/ 59.

قَطْفِ الثِّمار"[1]، ولذا ذكرَ النَّظمُ (الصَّرم)؛ لما فيه من مُبالغةٍ في القطع حتَّى لا يُبقي القاطعُ منه شيئًا يَأخذُهُ الفُقراءُ.

التَّخافُتُ والتَّهامُس:

الخَفْتُ أخفضُ منَ الهَمْسِ

(الهمسُ): هو قولٌ أوْ عملٌ يَخفى صوتُهُ، ولا يَصِلُ إلى حدِّ الخُفوت، ومِن مَصاديقِهِ: الهمسُ في الكلام، والهمسُ في الوَطْءِ والمشيِ بحيثُ يَخفى صوتُهُ، وفي الأكلِ بحيثُ لا يُسمَعُ صوتُ المَضْغِ[2]، وأمّا التَّخافُتُ؛ فمِن خفتَ الصَّوتُ خُفوتًا: سكنَ، ولهذا قيل للميِّت: خفتَ، أي: انقطعَ كلامُهُ، وسكتَ، فهو خافِتٌ، والمُخافتةُ والتَّخافُتُ: إسرارُ المَنطِق، والخَفتُ مثلُهُ[3]، فظهرَ أنَّ الأصلَ الواحد في هذه المادَّة: هو خفضُ الصَّوت إلى حدٍّ يَقرُبُ من السُّكون والإسرار، وهذا المعنى في مُقابلِ الجَهر، فإنَّ الجهرَ هو رفعُ الصَّوت والإظهار بحيثُ يَسمعُ كلُّ أحدٍ يقربُ منهُ علنًا، ومن ثَمَّ ذَكرَ النَّظمُ (التَّخافت) دونَ (التَّهامُس)؛ لأنَّهم بالغوا في خفضِ الصَّوت صيانةً عن الإظهارِ، بحيثُ يسمَعُ بأصواتِهم الفقراءُ، فيَتبعونَهُم.

المِسكينُ والفَقير:

العَلاقةُ بينَهُما العُمومُ والخُصوصُ الوجهيُّ

السَّكنُ أصلٌ واحدٌ مُطَّردٌ يدلُّ على خِلافِ الاضطِراب والحَركة، يقالُ: سكَنَ الشَّيءُ يَسكُنُ سُكونًا، فهو ساكِنٌ[4]، وقال ابنُ السِّكّيت: المِسكينُ الَّذي لا شيءَ له، والفقيرُ الَّذي له بُلغةٌ منَ العَيش، وقال الأصمعيُّ: المسكينُ أحسنُ حالًا منَ الفقير، وهو الوَجيهُ، والمِسكينُ أيضًا الذَّليلُ المقهورُ، وإنْ كانَ غنيًّا[5]، فالمسكينُ: هو الَّذي بلَغَ في السُّكونِ إلى أقصاهُ، وتجاوَزَ حدَّهُ، ويُعبِّرُ هذا عمَّنْ يكونُ مَحدودًا

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قطف).
(2) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 11/ 266.
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (خفت).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سكن).
(5) الفيوميّ، المصباح المنير: (سكن).

قُدرةً وقوَّةً وتمكُّنًا، بحيثُ يَعجَزُ عنِ السَّعْيِ والجَهد في توسِعةِ المَعيشة، إمّا لمرضٍ أوْ لهَرَمٍ أوْ لضعفٍ في البَدَنِ أوْ في المال، والفقرُ ما يقابلُ الغِنى، وهو الحاجةُ، وبينهُما عمومٌ وخصوصٌ من وجهٍ، فقد ذُكِر في مَوردِ الإطعام عنوانُ المسكين دونَ الفقير، فإنَّ الفقيرَ له حاجةٌ، ولكنَّه ليس محصورًا ومَحدودًا كالمُقعَد، فهو يتمكَّنُ من الجهد وتحصيلِ الطَّعام وتهيئةِ الوسائلِ وتوسِعة المَعيشة، وهذا بخلافِ (المسكين) غيرِ المتمكِّن العاجزِ المَحدود، وقد يُذكَرُ المسكينُ معَ الفقيرِ فيُلاحظُ في كلٍّ منهما معناه الخاصُّ به، ويُرادُ من المسكين جهةُ كونِه محصورًا ومحدودًا، ومن الفقير جهةُ فقرِه وحاجتِه[1]، والحاصلُ: أنَّهما يجتمعانِ في المُحتاج العاجِز، وينفردُ المسكينُ في العاجزِ غيرِ المُحتاج، وينفردُ الفقيرُ في المُحتاج الَّذي ليسَ بعاجزٍ، وآثَر النَّظم ذِكرَ المسكين دون الفقير؛ لأنَّهم عاجزونَ عنِ الكسبِ لهَرَمٍ أوْ مرَضٍ أوْ شَيخوخةٍ، فهُم مُحتاجونَ بدليلِ الطَّلب والسُّؤالِ وعاجِزونَ معًا.

الحَرْدُ والحِدَّةُ والغَضَب:

الحَرْدُ أخصُّ مُطلقًا مِنَ الغضَبِ والحِدَّة

الحَرْدُ: هوَ أن يَغْضَبَ الإنْسانُ، فيبعُدَ عَمَّن غضِبَ عَلَيه، وهوَ من قَوْلك: كَوْكَبٌ حريدٌ، أي: بعيدٌ عَن الكَواكِب، وحيٌّ حريدٌ، أي: بعيدُ المحلِّ، ولِهَذا لا يوصَفُ اللّه تَعالَى به، ويجوز أن يُقال: إنَّ الحَرْدَ هوَ القَصْد، وهوَ أن يبلغَ في الغضَبِ أبعدَ غايَةٍ[2]، والحَرْدُ: المنعُ عن حِدَّةٍ وغضَبٍ[3]، فهو التَّنحّي على حِدَّة، وبتناسُبِ هذا المفهوم تُستعمَلُ في الغَضَبِ والمنعِ والعُدولِ والاعوجاجِ والنَّكَدِ، وهو قِلَّةُ الخيرِ والمنعُ عنِ الدَّرِّ، وأمّا الحِدَّةُ؛ فمأخوذٌ فيها معنى الشِّدَّةِ دونَ التَّنحّي[4]، والغضبُ مأخوذٌ فيه تشدُّدٌ في قِبالِ شيءٍ آخَرَ[5].

(1) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 5/ 170.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 130.
(3) الرّاغب، المفردات: 2/ 175.
(4) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 2/ 165.
(5) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 7/ 244.

﴿فَلَمَّا رَأَوۡهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ٢٦ بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ ٢٧ قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ لَوۡلَا تُسَبِّحُونَ ٢٨ قَالُواْ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٢٩ فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَلَٰوَمُونَ ٣٠ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ٣١ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبۡدِلَنَا خَيۡرٗا مِّنۡهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ٣٢﴾ [القلم: 26 - 32]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الرُّجوعُ والإنابة بعدَ الضَّلالِ والظُّلامَة

لمّا ذكرَ النَّظمُ الكريمُ النّيَّةَ المُؤكَّدة لأصحابِ أهلِ الجنَّة، بحِرمانِ الفُقراء والمساكينِ منَ العَطاء والصَّدقة؛ ناسَبَ أنْ يذكُرَ نتيجةَ تلك النّيَّةِ الظّالمة، والحِرمانَ الَّذي أوقعوا أنفسَهم فيه لمّا رأوا ما حلَّ بجنَّتِهم من دَمارٍ وخَراب، وأثرِ ذلك في نفوسِهم الَّتي رجعَتْ إلى ساحةِ الإيمان، ونَدِمَتْ على ما فرَّطَتْ في جَنبِ اللّه ﷻ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَضَآلُّونَ﴾: (ضلَّ) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على معنًى واحدٍ، وهو ضياعُ الشَّيءِ وذهابُهُ في غيرِ حقِّهِ، وكلُّ جائرٍ عن الحقِّ والقصدِ ضالٌّ[1]، وضلَّ الرَّجلُ الطَّريقَ، وضلَّ عنهُ يَضِلُّ - من بابِ (ضَرَبَ) - ضَلالًا وضلالةً: زلَّ عنهُ، ولم يَهتدِ إليه، فهو ضالٌّ[2]، والضَّلال: العدولُ عن الطَّريقِ المُستقيم، ويُضادُّهُ الهداية، ويقالُ: الضَّلال لكلِّ عدولٍ عنِ المَنهَجِ عَمْدًا كانَ أو خطأً، يَسيرًا كانَ أَوْ كثيرًا[3]، والمرادُ به في الآية: إمّا منَ الضَّلال عن طريقِ الجنَّة، فيكونُ معنًى حقيقيًّا، وإمّا منَ الضَّلالِ عن سبيلِ اللّه تعالى، وعدمِ الاهتداءِ إليه، فيكونُ معنًى مَجازيًّا.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ضلّ).
(2) الفيوميّ، المصباح المنير: (ضلّ).
(3) الرّاغب، المفردات: (ضل).

2) ﴿مَحْرُومُونَ﴾: (حرم) أصلٌ واحدٌ، وهو المَنْعُ والتَّشديد[1]، وحَرَمْتُ الرَّجُلَ العَطيَّةَ أَحْرِمُهُ حِرمانًا، وحَرُمَتِ الصَّلاةُ على المرأة تحرُمُ حُرومًا، وحَرُمَتِ المرأةُ على زَوْجها تحرُمُ حَرْمًا وحَرامًا، وحريمُ الدّار: ما دخلَ فيها ممّا يُغلَقُ عليهِ بابُها، وما خرجَ مِنها؛ فهو الفَناءُ، والمَحرومُ الَّذي حُرِمَ الخيرَ[2]، وحَرَمْتُ زيدًا كذا أَحْرِمُهُ من بابِ (ضربَ) يتعدّى إلى مَفعولينِ، فهو مَحرومٌ[3]، والمَحرومُ مَن حُرِمَ عنِ الخير والعطاءِ والمالِ، وهو أقوى احتياجًا منَ المِسكينِ والفقيرِ[4]، وهو المرادُ بهِ في الآيةِ.

3) ﴿أَوْسَطُهُمْ﴾: (وسط) بناءٌ صحيحٌ يدلُّ على العَدلِ والنِّصْفِ، وأعدَلُ الشَّيءِ: أوسَطُهُ ووَسَطُهُ[5]، والوسْطُ مُخفَّفًا يكونُ موضِعًا للشَّيء، فإذا نَصَبْتَ (السّينَ)؛ صارَ اسمًا لما بينَ طرَفَي كلِّ شيءٍ، والوَسَطُ من النّاس وكلِّ شيءٍ: أعدَلُه وأفضَلُهُ، ليسَ بالغالي ولا المُقصِّر[6]، يقالُ: شيءٌ وسَط، أي: بينَ الجيِّدِ والرَّديءِ، واليومُ الأوسَط، واللَّيلة الوُسْطى[7]، والمرادُ به في الآية: أعْدَلُهم، وخَيْرُهُمْ عَقْلًا ودينًا، أو مَن كانَ في مرتبةٍ مُتوسِّطة من جهةِ المالِ والمُلك فيما بينَ هؤلاءِ من أصحابِ الجنَّة.

4) ﴿يَتَلَوَمُونَ﴾: (لوم) له دلالتان، إحداهُما: العَتَب والعَذْل، والأخرى: الإبطاء[8]، ولامَهُ لَوْمًا - من بابِ (قالَ) -: عَذَلَهُ، فهو مَلومٌ على النَّقص، والفاعلُ لائمٌ، والجمعُ لوَّمٌ[9]، فهو انتقادٌ على حالةٍ أَوْ عمَلٍ واقعٍ مُشافهةً، وإنْ كان في الواقعِ حُسنًا إلّا أنَّه بنظَرِ المُنتقِدِ غيرُ صالحٍ، وعلى خلافِ صَلاحِ العامِلِ، ففيهِ قيدانِ: انتقادٌ مُطلَقٌ، وفي المُشافهة[10]، والمرادُ به في الآية: إلقاءُ اللَّومِ والتَّعنيف بعضِهم على بعضٍ، معَ شُعورٍ بالتَّقصيرِ والخَطَأ.

5) ﴿يَٰوَيْلَنَآ﴾: الويلُ: حلولُ الشَّرِّ، والوَيلةُ: الفضيحةُ والبليَّة، وإذا قالَ: (وا ويلَتاه)

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حرم).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (حرم).
(3) الفيوميّ، المصباح المنير: (حرم).
(4) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 2/ 190.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وسط).
(6) الخليل، العين: (وسط).
(7) الفيوميّ، المصباح المنير: (وسط).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لوم).
(9) الفيوميّ، المصباح المنير: (لوم).
(10) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 10/ 244.

معناه: وا فضيحتاه، ويجمَعُ على ويلات، وتقولُ: ويَّلتُ فلانًا؛ إذا أكثرتَ لهُ من ذِكرِ الوَيلِ[1]، والوَيل: كلمةٌ مثلُ ويْح، إلّا أنَّها كلمةُ عذابٍ، يقالُ: ويلَهُ ووَيلَكَ ووَيلي، وفي النُّدبةِ: ويلاه، وتقولُ: ويلَ زيدٍ، وويلًا لزيدٍ، فالنَّصبُ على إضمارِ الفعلِ، والرَّفعُ على الابتداءِ، هذا إذا لم تُضِفْه، فأمّا إذا أضفتَ؛ فليسَ إلّا النَّصبُ، لأنَّك لو رَفعتَهُ؛ لم يكُن لهُ خبرٌ"[2]، والكلمةُ تُستعمَلُ في مقامِ إنشاءِ ذَمٍّ شديدٍ وقَدْحٍ أكيدٍ أوْ دُعاءٍ على ضَرَرٍ وشرٍّ، وهذا هو الأغلبُ في استعمالِها[3]، والمرادُ به في الآية: دُعاءُ الثُّبور والهَلاك مع التَّحسُّر والتَّندُّم.

6) ﴿طَٰغِينَ﴾: (طغى) أصلٌ صحيحٌ مُنقاس، وهو مُجاوزةُ الحدِّ في العِصيان، يقالُ: هو طاغٍ[4]، والفعلُ طَغَوْتُ، وطَغَيْتُ، وكلُّ شيءٍ جاوزَ القَدرَ فقد طَغا[5]، وطغا طَغْوًا من بابِ (قال)، وطغَى من بابِ (تعِبَ)، ومن باب (نفَعَ) لغةٌ أيضًا، والطّاغوت: تاؤُها زائدةٌ، وهي مُشتقَّةٌ مِن طَغا، والاسمُ الطُّغيان، وهو مُجاوزةُ الحَدِّ، وكلُّ شيءٍ جاوزَ المِقدارَ والحدَّ في العِصيان فهو طاغٍ، وأطغَيتُهُ: جعلتُهُ طاغيًا، وطغَى السَّيل: ارتفعَ حتّى جاوزَ الحدَّ في الكثرة[6]، فهو الارتفاعُ والتَّجاوُزُ عن الحَدِّ المُتعارَف، مادّيًّا أوْ معنويًّا، والمعنى الجامعُ في مَنشأِ الطُّغيان هو الاستغناءُ، وهو يُتصوَّرُ على أنحاءٍ، فكلَّما كانَ الاستغناءُ في سَعَةٍ يكونُ الطُّغيان شديدًا[7]، والمرادُ به في الآية: مُتجاوزينَ الحَدَّ في العِصيان.

7) ﴿رَٰغِبُونَ﴾: (رغب) أصلانِ، أحدُهما: طلَبُ الشَّيء، والآخرُ: سَعةٌ في شَيءٍ[8]، ورَغِبْتُ في الشَّيءِ ورَغِبْتُهُ، يَتعدّى بنفسِهِ أيضًا؛ إذا أردتَهُ، رَغَبًا[9]، ورَغِبتُ عنِ الشَّيءِ؛ إذا لم تُرِدْهُ، وزَهِدتَ فيهِ[10]، فهو الميلُ الأكيدُ، كما أنَّ الشَّوق هو الرَّغبةُ الأكيدةُ، ثمَّ إنَّ المادَّة إذا استُعمِلَتْ بحرفِ (عن)؛ تكونُ بمعنى الإعراض، أي: تدلُّ على ميلٍ عن شيءٍ

(1) العين، الخليل: (ويل).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (ويل).
(3) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 14/ 211.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طغو).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (طغو).
(6) الفيوميّ، المصباح المنير: (طغو).
(7) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: (طغو).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رغب).
(9) الفيوميّ، المصباح المنير: (رغب).
(10) الجوهريّ، الصّحاح: (رغب).

وانصرافٍ، فيقالُ: رَغِبَ عن السُّنَّةِ مالَ عنِ الحقِّ[1]، والمرادُ بهِ في الآية: مائِلونَ بالميلِ الأكيدِ إلى جانبِ اللهِ المُتعال، ومُشتاقونَ إلى السَّير والسُّلوك إليه تعالى.

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

ضـربُ الأمـثـال لرَدْعِ أهلِ الكُفرِ والضَّلال

والمَعنى: أنَّ أوَّلَ ما وقعَ نظرُهُم عليها، ورأَوْها أنكَروها، وقالوا مُضطربينَ مُتحيِّرين: إنّا لضالّون طريقَ جنَّتِنا، ثمَّ قالوا ذلك بعدَ ما تأمَّلوا، ووقَفوا على حقيقةِ الأمر، وتيقَّنوا ما فُعِل بجنَّتِهم مُضربينَ عن قولهم الأوَّل: (لَسْنا ضالّين بل نحن محرومونَ، حُرِمنا خيرَها بِجِنايتنا على أنفُسِنا وسوءِ نيَّتِنا وقصدِنا حِرمانَ الفقراءِ)، قال أعدَلُهم وخيرُهم: (هلّا تذكرونَ اللّهَ، وتتوبونَ إليه من خُبث نيَّتِكم؟)، فعَصَوه، فوبَّخَهم فيما بعدُ، وقالوا بعد أنْ ثابوا إلى رُشدِهم، ورَجَعوا إلى عُقولهم: نُسبِّحُ اللّه، ونُنَزِّهُهُ عن الظُّلم وعن كلِّ قبيح، ثمَّ اعترفوا بظُلمهم ومنعِ المعروفِ عن مُستحقّيه، والبخلِ بما كان يُعطيهِ والدُهم للفقراءِ والمَساكين، فأقبلَ بعضُهم على بعض، يلومُ كلٌّ منهم الآخرَ في القَسَم والحَلف على منعِ المساكين، أي يقولُ: بل أنتَ أشرتَ علينا بهذا، فإنَّ مِنهم مَن أشارَ بذلك، ومنهم مَن استحسَنَهُ، ومِنهم مَن سكت راضيًا، ومِنهم مَن أنكرَهُ، قالوا: يا عَذابَنا وهَلاكَنا إنّا كنّا طاغين، ونرجو اللّه أنْ يُعوِّضَنا خيرًا من جنَّتنا، ويُعطينا بدلًا منها ببركةِ التَّوبةِ والاعترافِ بالخطيئة، إنّا إلى ربِّنا لا إلى غيرِهِ راغبونَ، راجونَ العفوَ، طالبونَ الخيرَ[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مَعنى (الفاء) في ﴿فَلَمَّا﴾ والغرضُ منها:

رؤيـةُ الـدَّمـارِ الشَّنيع بإضمارِ العمَلِ الفَظيعِ

عطفَ النَّظمُ الكريم الجملةَ الفعليَّة، في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا

(1) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 4/ 160.
(2) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 10/ 1534 - 1536.

﴿قَالُوٓاْ﴾ على ما قبلَها؛ للدَّلالة على التَّعقيبِ والتَّسبُّب؛ إذ أعقبَ الغُدوَّ على الجنَّة رؤيةُ ما حلَّ بها، وما صدرَ منهم من قولٍ بعدَ الرُّؤيةِ، كما تسبَّبَتْ عن إضمارِ العملِ الشَّنيع الرُّؤيةُ للدَّمارِ العَنيف.

مَعنى (لمّا) والغرضُ مِنها:

رَبْطُ القَول برُؤْيةِ الهَول

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بـ(لمّا) الموضوعةِ؛ للدَّلالة على الشَّرطيَّة الظَّرفيَّة الحينيَّة، في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهَا قَالُوٓاْ﴾؛ للدَّلالةِ على ربطِ القولِ بالرُّؤيةِ ربطَ الجوابِ بالشَّرط، وربطَ المسبَّب بالسَّبب، وأنَّ قولَهم ذلك ارتبطَ بزمنِ الرُّؤية، وفي ربطِه بزمَنِ الرُّؤية بطريق الشَّرط والمشروط ما يدلُّ على سُرعةِ تسبُّبِ القولِ عن تلك الرُّؤية، قال ابنُ عاشور: "وأفادَتْ (لَمّا) اقتِرانَ جَوابِها بِشَرْطِها بِالفَوْرِ والبَداهَةِ"[1]، ويفيدُ الصَّدمةَ الشَّديدة والهولَ المُرافق لتلك المُشاهدةِ وما حَمَلَتْهُ من عُنصُرِ المُفاجأةِ والإيلام.

دلالةُ فعلِ (الرُّؤية) مادَّةً وصيغةً:

الرُّؤيةُ البصريَّة تـدلُّ عـلى الحقيقةِ دلالةً قطعيَّة

عبَّر النَّظمُ الكريمُ بفعلِ (الرؤية) الماضي، في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهَا قَالُوٓاْ﴾؛ للدَّلالة على وقوعِ الرُّؤيةِ البصريَّة[2] والمُشاهدةِ العينيَّة اليقينيَّة على سبيلِ التَّحقُّق، وأنَّه قد صدرَ منهم الفعلُ بما لا سبيلَ للشَّكِّ فيه، وتدلُّ مادَّةُ الرُّؤيةِ على الاقترابِ من الجنَّةِ؛ اقترابًا سمحَ لهُم بمُشاهدتها عن كثَبٍ؛ إذِ البصرُ إنَّما يُدرِكُ ما يقَعُ تحتَ مَرأى العينِ لقُربِهِ ووُضوحِهِ، فلم يكُنْ عِلمُهم بالمآل عن طريق حاسَّة السَّمع الَّذي يحتملُ الصِّدقَ والكذب، بل اقترَبوا، ورَأوا بأمِّ أعيُنِهم نتيجةَ تلك الأفعالِ والنِّيّات السَّيِّئة.

نُكْتَةُ إسنادِ فعلِ الرُّؤية إلى ضَميرِ الجَمْع (الواو):

أسندَ النَّظمُ الكريمُ فعلَ الرُّؤيةِ إلى ضميرِ الجَمع (الواو)،

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 85.

(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 124.

وقوعُ الرُّؤيةِ مِنَ الجميع يدلُّ على التَّصميمِ الجماعيِّ الشَّنيع

في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهَا قَالُوٓاْ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ تلك الرُّؤيةَ قد صدرَتْ من جميعِهِم، وأنَّهم قد تحقَّقوا ذلك بطريقِ التَّوافُق على تلك الرُّؤية، ممّا يُفيدُ حضورَ الجميعِ للصَّرم وتنفيذِهم ما اتَّفقوا عليه، وبيَّتوهُ، قال ابنُ عاشور: "وإسنادُ هَذِهِ المَقالَةِ إلَى ضَميرِ أصحابِ الجَنَّةِ يَقتَضي أنَّهُم قالوهُ جَميعًا، أي: اتَّفَقوا على إدراكِ سَبَبِ ما أصابَهُم"(1).

سرُّ التَّعبيرِ بضَميرِ الغائِبِ في ﴿رَأَوۡهَا﴾:

رُؤْيَةُ الخراب دالٌّ على سوءِ العَذاب

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بضَميرِ الغَيبة المَنصوب في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهَا قَالُوٓاْ﴾؛ للدَّلالةِ على الجنَّةِ الَّتي هُم بصَدَدِ صَرْمِها وحَرمِ الفُقراءِ من عطائِها، والضَّميرُ وإنْ عادَ إلى لفظِ الجنَّة، لكنَّه أُريدَ به: مَوقِعُها ومَكانُها؛ لأنَّ الجنَّةَ قدِ استحالَتْ إلى خرابٍ مُحترِقٍ، لكنَّه حذفَ الموقِعَ والمكانَ، وأبقَى قولَه: ﴿إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ دليلًا عليه؛ بناءً على أنَّ الضَّلال بمعنى: عدمِ الاهتداءِ إلى طريقِها ومَكانها ومَوقِعِها، أو أنَّ الضَّميرَ عادَ إلى الجنَّة بدلالةِ ما آلَتْ إليه، وانقلبَتْ إلى صِفتِه في قولِه: ﴿فَأَصۡبَحَتۡ كَٱلصَّرِيمِ﴾، ولذا لم يقُلِ النَّظمُ: (فلمّا رأوْا الجنَّة)؛ إذ لم تعُدْ كذلك بعدَ ذلك الدَّمارِ الَّذي حلَّ فيها.

دلالةُ فعلِ (القولِ) مادَّةً وصيغةً:

إلقاءُ الكلام للتَّخلُّص من هَوْلِ الاصطِدام

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بفعلِ (القَوْل) ماضيًا، في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهَا قَالُوٓاْ﴾؛ للدَّلالة على صُدورِ ذلك القولِ منهُم على سبيل التَّحقُّقِ والحُصول، وأنَّه صادرٌ منهم بشكلٍ متحقَّق الوقوع، وتفيدُ مادَّةُ القولِ أنَّهم تلفَّظوا بذلِك المَقول، وطاوَعَتْهُم ألسنَتُهُم مُطاوعةً ظاهرةً، حتَّى انسالَ منهم الكلامُ بكلِّ انسيابٍ وهُدوء؛ إذ لم يَجِدوا مُتنفَّسًا إلّا بالحديث، خُروجًا من تلك الصَّدمةِ وهَوْلِها، وقدِ اختارَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 85.

النَّظمُ مادَّةَ القولِ؛ لبيانِ أنَّهم تركوا أُسلوبَ التَّخافُتِ والتَّهامُسِ في الحديث، فانطَلَقوا بكلِّ حرّيَّةٍ للحديثِ المَسموع، وقدَّر البيضاويُّ صدورَ القولِ منهم أوَّلَ ما رَأوها؛ لدفعِ التَّخالُفِ بما قالوه فيما بعدُ معترفينَ بالحرمانِ، لكونِه بعدَ التَّأمُّلِ والنَّظر(1).

دلالةُ الجُملةِ الفعليَّة الجوابيَّة على التَّعريض ﴿قَالُوٓاْ﴾:

حدوثُ القولِ والمَقولِ بعدَ رُؤيةِ ذلك المَهول

أوقعَ النَّظمُ الكريم الجملةَ الفعليَّةَ جوابًا للشَّرط، في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾؛ للدَّلالة على حدوثِ ترتُّبِ القولِ والمَقول وتسبُّبِه عن تلك الرُّؤيةِ الصّادمة، وأنَّ القولَ صدر منهم عقيبَهُ بكلِّ مُسارعة دونَ تأخُّرٍ أوْ مُهلةٍ، قال ابنُ عاشور: "والمَقْصودُ مِنْ هذا التَّعْريضُ لِلْمُشْرِكينَ؛ بِأن يكونَ حالُهُم في تَدارُكِ أمْرَهِم وسُرْعَةِ إنابَتِهِمْ كَحالِ أصْحابِ هَذِهِ الجَنَّةِ؛ إذ بادَروا بِالنَّدَم، وسَألوا اللّه عِوَضَ خَيْرٍ"(2).

نُكْتَةُ التَّوكيدِ بـ(إنَّ واللّام):

تنزيلُ المُتكلِّمِ المُخبِرِ منزلةَ المُخاطَبِ المُنكِر؛ إظهارًا للنَّدامةِ والتَّحسُّر

أكَّدَ النَّظمُ الكريمُ المقولَ في قولِه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ باللّام وإنَّ والجُملة الاسميَّة؛ للدَّلالة على نفي كلِّ شكٍّ في ضَلالهم، ولمّا كان المقولُ صادرًا منهم لأنفُسِهم، فقد نزَّلوا أنفسَهم منزلةَ المُنكرينَ، فخاطَبوا أنفسَهُم بالتَّوكيدِ؛ ردًّا على إنكارِهم التَّنزيليِّ، قال ابن عاشور: "وأكَّدوا الكَلامَ لِتَنزيلِ أنْفُسِهِم مَنْزِلَةَ مَن يَشُكُّ في أنَّهُمْ ضالّونَ طَريقَ الخَيْرِ؛ لِقُرْبِ عَهْدِهِم بِالغَفْلَةِ عَن ضَلالِهِم، فَفيهِ إيذانٌ بِالتَّحَسُّرِ والتَّنَدُّم"(3)، ويظهر في دلالةِ (التَّوكيد) رغبتُهُم القويَّةُ في توكيدِ ضَلالهم، ولا سيَّما إنْ كان بمَعنى: التِّيهِ عن طريقِ الجنَّة؛ رغبةً منهم في تحقيقِ أنَّهم تائهونَ، وقد دخَلوا من طريقٍ آخَر، وأنَّ الموقعَ الَّذي رَأوهُ لا يعودُ إلى مكانِ جنَّتِهم بِصِلةٍ.

(1) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 237.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 85.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 86.

تحديدُ أوصافِ مَرجِعِ ضميرِ المتُكلِّمين (نا):

الـحُـكْـمُ على الضَّمير بمُحتواهُ الكثير

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بالضَّمير الموضوعِ للمتكلِّم ومعَهُ غيرُهُ، في قولِه تعالى: ﴿إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾؛ للدَّلالةِ على تعيينِ الذَّواتِ وتشخيصِها، بغيةَ إسنادِ الضَّلالِ إليها، والضَّميرُ يعودُ إلى مَرجِعِه بكلِّ حُمولتِه الوصفيَّة، مِن كونِهم قد أقسَموا على الصَّرم وحِرمانِ الفقراء، والانطلاقِ إلى الحرث، وهم يَتخافتونَ في الحديثِ، ومِن ثَمَّ يترجَّحُ كونُ (الضَّلال) المُسندِ إليهم بمعنى: عدمِ الاهتداءِ إلى الحقِّ، والاعوجاجِ عنِ الصِّراطِ المُستقيم.

دلالةُ صيغةِ اسمِ الفاعل (ضالّون) مادَّةً وصيغةً:

اتِّـصـافُـهُـم بالضَّلال دائمٌ بِلا زَوال

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بلفظِ اسم الفاعلِ، في قولِه تعالى: ﴿إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾؛ الدّالِّ بصيغتِه على الاتِّصافِ بالضَّلال على الدَّوام؛ إذِ المُرادُ به هنا مدلولُ الصِّفةِ المشبَّهة، التي تُفيدُ ثبوتَ الوصفِ لموصوفِها بالدَّوام، فقد قامَ وصفُ الضَّلال بهم، وتلبَّسَ بدواخِلِهم، ولازمَهُم مُلازمةً فعليَّةً على سبيلِ الثُّبوت بلا زَوال، كما أفادَتِ المادَّةُ دلالةَ التّيهِ والضَّياع عن الطَّريق والصَّواب، ولذا كانَ مقابلُه الهُدى والاهتداء.

(ضالّون) بينَ الحقيقةِ والاستعارة:

الـضَّـلالُ عـنِ الـحـقِّ المُـبـيـن تضييعٌ للطَّريقِ المُستقيم

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بلفظِ (ضالّون)، في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾؛ للدَّلالةِ إمّا على الحقيقةِ اللُّغويَّةِ المُتبادِرةِ من إطلاقِ لفظِ (الضَّلال)، وهو إضاعةُ الطَّريقِ الحسّيِّ الموصِلِ إلى جنَّتِهم؛ إذ لمّا صُدِموا برُؤية ما آلَتْ إليه من خراب واحتراقٍ ودمارٍ، أخبروا أنَّهم قد أضاعوا الطَّريقَ الحقيقيَّ الَّذي يوصِلُ إلى جنَّتِهم؛ إذْ من شدَّةِ الاحتراقِ والاختلالِ اعتقَدوا أنَّهم قد تاهوا في الطَّريق، وإمّا على المجازِ الَّذي تدلُّ عليه القرائنُ، فيكونُ (الضَّلالُ) بمعنى: عدمِ الاهتداءِ إلى طريقِ اللّه ودينِه القَويم، والاعوجاجِ والانحرافِ عنِ الدّين وأوامِره ونَواهيه، فيكون لفظُ (الضَّلال) مُستعارًا بعدَ

تشبيهِ الضَّياعِ عن الطَّريقِ الحسّيِّ بعدمِ الاهتداءِ إلى الحقِّ المعنويِّ، فحذَفَ النَّظمُ المشبَّهَ، وأبقَى المشبَّهَ به على سبيل الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّة، والقرينةُ على المجازِ حالُهُم منَ الإقسامِ على الاستئثارِ بالخيراتِ، وحِرمان الفُقراء من أدنى الصَّدقات، ومُعتقِدُ ذلك ضالٌّ مُبين.

دلالةُ الجُملةِ الاسميَّة ﴿إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾:

الضَّالُّ المُستمِرُّ مُـؤذِنٌ بخَرابٍ مُستعِر

عبَّر النَّظمُ الكريم عَن مَقولهم بلفظِ الجُملة الاسميَّة، في قولِهِ تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾؛ للدَّلالةِ على ثبوتِ هذا الوصفِ فيهم على سبيلِ الاستقرار والدَّوام، فقد تلبَّسوا بالضَّلال، ولازَموه مُلازمةً واقعيَّةً لم ينفكّوا عَنها، ولم تتخلَّ الضَّلالة عنهُم فيها، والجملة تحتملُ الخبريَّةَ احتمالًا راجحًا، ولا يبعدُ أنْ تكونَ إنشائيَّةً للاستفهام؛ إذ لمّا رأوْها سَوداءَ مُحترقةً؛ صدرَ منهم القولُ بالاستفهام الحقيقيِّ، هل نحنُ ضالّون؟ أي: أضَلَلْنا أم لم نَضِلَّ في الطَّريق؟ فأجابوا أنفُسَهم بعدَ التَّأمُّل: إنَّهم مَحرومونَ.

دلالةُ الكنايةِ في ﴿إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾:

الاعـترافُ بعدمِ الاهتـداء يَلزَمُه الإقـرارُ بسببِ الابتلاء

كنَّى النَّظمُ القرآنيُّ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ عن كونِ ما أصابَهم جرّاء إهمالِهم فضيلةَ الشُّكرِ على النِّعمة واقترافَهم البَطَر عليها، وغمطَ الحُقوق، والتَّكبُّرَ على الشَّرع الموصي بحُقوقِ الفُقراء؛ إذِ الإخبارُ عنِ النَّفس بأنَّها في ضَلال ليسَ فيه إلّا الاعترافُ بعدم الاهتداء، فيكونُ اللّازمُ منه، وهو وقوعُ العقاب بسببِ تركِ الشُّكر، وعُقوق الحقِّ وجَحْدِ الواجِب، قال ابنُ عاشور: "وهوَ كِنايَةٌ عَن كَوْنِ ما أصابَهُمْ عِقابًا عَلَى إهمالِ الشُّكْرِ"[1].

تأثُّرُ دلالةِ ﴿بَلْ﴾ بالمَعنى الحقيقيِّ والمَجازيِّ للضَّلال:

يتأثَّرُ تحديدُ دلالةِ (الحرف) بسياقِهِ؛ لتوقُّفِ فهْمِ مَعناهُ على

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 85.

أثرُ المَجازِ والحَقيقةِ في الإضرابِ عن سوءِ الطَّريقة

غيرِهِ، وذلك يظهَرُ في قولِهِ تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ٢٦ بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ﴾؛ إذ عبَّر النَّظمُ بالحرفِ ﴿بَلۡ﴾ الموضوعِ للإضرابِ، لكنَّهُ يحتملُ أنْ يكونَ إضرابًا انتقاليًّا، أو إضرابًا إبطاليًّا، وكِلتا الدَّلالتينِ الاستعماليَّتَينِ تَرتبطانِ بمعنى (الضَّلال) في قولِه: ﴿إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ حقيقيًّا كانَ أو مَجازيًّا؛ فإنْ كانَ (الضَّلال) بالمعنى الحقيقيِّ، وهو التّيهُ عنِ الطَّريقِ الحسّيِّ الموصِلِ إلى جنَّتِهم، فإنَّ ﴿بَلۡ﴾ تكونُ حينَئذٍ للإضرابِ الإبطاليِّ(1)؛ إذ أبطَلوا تيهَهُم وضياعَهم الحسّيَّ، وأثبتوا أنَّهم ليسوا تائهينَ، بل هُم على الطَّريقِ الصَّحيح، وواقفونَ أمامَ جنَّتِهم، لكنَّ النَّظمَ عدلَ بالإبطالِ عنِ القول: (بل نحنُ أمامَ جنَّتِنا) مثلًا، إلى القولِ: ﴿بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ﴾؛ ليكونَ منَ التَّعبيرِ عن ذلك بطريقِ الكِناية؛ إذ يَلزمُ من وقوعِ الحِرمان منَ الخيراتِ بعدَ إثباتِ ضلالِهم الحسّيِّ أنَّهم واقفونَ أمامَها من دونِ انتفاعٍ بخَيراتِها، فذَكرَ النَّظمُ اللّازمَ؛ لاستلزامِهِ ذلك مع دلالةِ الحِرمان، وإنْ كانَ (الضَّلال) بالمعنى المجازيِّ، وهو عدمُ الاهتداءِ إلى الحقِّ المعنويِّ؛ فإنَّ ﴿بَلۡ﴾ تكونُ للإضرابِ الانتقاليِّ؛ إذِ انتقَلوا من وصفِ أنفسِهم بعدمِ الاهتداءِ، إلى وصفِ أنفسِهم بوقوعِ الحِرمانِ عليهِم.

دلالةُ ضميرِ المتكلِّم ﴿نَحۡنُ﴾:

ضلالُ المُتكلِّمين جالبٌ لهُمُ الحِرمانَ المُبين

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بلفظِ الضَّميرِ المُنفصِلِ الموضوعِ للمُتكلِّم ومعَهُ غيرُهُ، في قولِهِ تعالى: ﴿بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على تعيينِ الذَّواتِ وتشخيصِها بقرينةِ التَّكلُّم، حاملةً تلك الذَّواتُ صفةَ (الضَّلال)، وحينَئذٍ يكونُ إثباتُ الحِرمان لها إثباتًا بالعِلَّةِ؛ إذ ضلالُهُم أوقعَهُم في المَحروميَّة.

دلالةُ تقديمِ المُسنَدِ إليه ﴿نَحۡنُ﴾:

قدَّمَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ المُسندِ إليهِ ﴿نَحۡنُ﴾ على المُسنَدِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 86.

الحِرمانُ الكثير مُناسِبٌ للجُرمِ الكَبير

﴿مَحۡرُومُونَ﴾، في قولِهِ تعالى: ﴿بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على تقويةِ الحُكم لا للحصرِ، وإنْ صحَّ بالإضافةِ إلى بساتينِ غيرِهم[1]، وقيلَ للدَّلالةِ على التَّخصيصِ، وأوضحَهُ ابنُ عاشور بقوله: "فالحِرْمانُ الأَعْظَمُ قَدِ اخْتُصَّ بِهِمْ؛ إذْ لَيْسَ حِرْمانُ المَساكينِ بِشَيْءٍ في جانِبِ حِرْمانِهِم، والكَلامُ يُفيدُ ذَلِكَ؛ إمّا بِطريقِ تَقديمِ المُسْنَدِ إلَيْهِ بِأنْ أُتِيَ بِهِ ضَميرًا بارِزًا، مَعَ أنَّ مُقْتَضى الظّاهِرِ أنْ يَكونَ ضَميرًا مُسْتَتِرًا في اسمِ المَفْعولِ مُقَدَّرًا مُؤَخَّرًا عَنهُ؛ لأنَّهُ لا يُتَصَوَّرُ إلّا بَعدَ سَماعِ مُتَحَمَّلِهِ؛ فَلَمّا أُبْرِزَ الضَّميرُ، وقُدِّمَ؛ كانَ تَقْديمُهُ مُؤْذِنًا بِمَعنَى الاخْتِصاصِ، أي: القَصْرِ، وهوَ قَصْرٌ إضافيٌّ، وهذا مِن مُستَتْبَعاتِ التَّراكيبِ والتَّعْويلِ على القَرائِنِ"[2]، وإنَّما عدلَ النَّظمُ عن القصرِ الواضحِ بطريقِ التَّعريفِ بالقول: (بل نحنُ المَحرومونَ)؛ للدَّلالة على أنَّ عقابَ الحِرمان متجدِّدٌ ومُتكرِّرٌ؛ ليرتدعَ المُخاطَبونَ من أهلِ مكَّةَ وغيرِهم عن ضَلالِهُم المُبين.

دلالةُ الجُملةِ الاسميَّة ﴿نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ﴾:

مُلازَمةُ الضَّلالِ والبُهتان موصِلٌ للحِرمان

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بالجُملةِ الاسميَّة، في قوله تعالى: ﴿بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ﴾؛ للدَّلالة على الثُّبوتِ والدَّوام، وفي ذلك إشارةٌ رادعةٌ إلى أنَّ كلَّ منِ اتَّصف بالضَّلال على سبيلِ الدَّوام والثُّبوت فإنَّه محرومٌ من الخيرِ على سبيلِ الثُّبوت والدَّوام أيضًا؛ إذِ الضَّلال عن الحقِّ حِرمانٌ وضيق.

سرُّ تركِ التَّأكيدِ في ﴿نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ﴾:

توكيدُ الكلام على حَسْبِ مُقتضى المَقام

لم يُؤكِّدِ النَّظمُ الجملةَ الاسميَّةَ في قولِهِ تعالى: ﴿بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ﴾، كما أكَّدَ الجملةَ الاسميَّة في قولِه: ﴿إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾؛ لأنَّ إثباتَ ضَلالهم محلُّ إنكارٍ لهم، ومن ثَمَّ كانَ التَّأكيدُ مطابقًا للحال،

(1) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 237.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 86.

وأمّا الاعترافُ بالحرمان بعدَ ﴿بَلۡ﴾ الإضرابيَّة، فليس في محلِّ الإنكار والرَّفض؛ لأنَّهم أبطَلوا، وانتقلوا من الضَّلال إلى الاعتراف، ومن ثمَّ كانَ عدمُ التَّوكيد هو اللّائق بمُقتضَى الكَلام.

دلالةُ لفظِ ﴿مَحۡرُومُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

خَسارةُ الأغنياءِ المنعَّمين أشدُّ مِن خَسارة الفُقراءِ الممنوعين

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بلفظِ ﴿مَحۡرُومُونَ﴾، في قولِه تعالى: ﴿بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ﴾؛ للدَّلالة على وقوعِ الحِرمان عليهم؛ إذ (محرومٌ) اسمُ مفعولٍ وُضِعَ؛ ليَدُلَّ على وقوعِ الفعل على مَفعوله، وهو دالٌّ على ثبوتِ الاتِّصاف بالحِرمانِ على سبيلِ اللُّزوم وعدم الانفكاك بمعونةِ المقام، كما تُفيدُ مادَّةُ الفعلِ المنعَ من الإفادةِ مِن خيراتِ جنَّتهم، وكأنَّها حُرِّمَتْ عليهم؛ إذ حَرَصوا على حِرمانِ الفُقراء القليلَ مِنَ العَطاءِ، فخَسِروا همُ القليلَ والكثير معًا، ومن ثمَّ كانت خسارتُهم أشنعَ مِن خَسارة الفُقراء؛ إذ كانَ حِرمانُهم أعظمَ وأنكى[1].

دلالةُ حذفِ مُتعلِّقِ ﴿مَحۡرُومُونَ﴾:

المَحرومُ منَ الخيرِ واقعٌ في كلِّ شرٍّ وضَيْرٍ

حذفَ النَّظمُ الكريم متعلِّقَ اسم المفعولِ ﴿مَحۡرُومُونَ﴾، في قولِه تعالى: ﴿بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ﴾؛ لأنَّ الفعلَ (حَرَمَ) يتعدّى إلى مفعولين، والتَّقديرُ: إمّا مَحرومونَ خيرَها ونعيمَها، أوْ مَحرومونَ رحمةَ اللّه تعالى، ولعلَّ حذفَ المتعلِّقِ لتحقيقِ تينِك الدَّلالتين، قال الهرريُّ: "وفي الآيةِ دليلٌ على أنَّ العزمَ على المعصيةِ ممّا يُؤاخَذُ به الإنسان؛ لأنَّهُم عَزَموا على أن يفعَلوا، فعوقِبوا قبلَ فعلِهم، والعزمُ: قوَّةُ قصدِ الفعلِ والجَزم بِه، والمُحقِّقونَ على أنَّهُ يُؤاخَذُ به، وأمّا الهمُّ - وهو ترجيحُ قصدِ الفعلِ - فمَرفوعٌ"[2].

سرُّ الفصلِ في ﴿قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ﴾:

فصلَ النَّظمُ الكريم قولَهُ تعالى: ﴿قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ﴾؛ لأنَّه جارٍ على

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 609.

(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 97.

طريقةِ المُحاورة، والأصلُ فيها العطفُ، لكن لمّا كان الحوارُ جاريًا ودالًّا عليه تُرِك العاطفُ لدلالةِ المُحاورة، والغرضُ من نقلِ هذا الحوار بيانُ موقفِ أحدِ الإخوة المعارضِ لشرِّ إخوته من أوَّلِ الأمر، لكنَّ النَّظمَ لم يَذكُره في بدايةِ القصَّة عندما أقسَموا، وتنادَوا؛ لأنَّه لم يكن لكلامِه أثرٌ في تغييرِ موقفِهم، حتّى إذا شعَروا بالضَّلال، وعَلِموا الحِرمان؛ جاءَ البيانُ كاشفًا عن ذلك الموقفِ الرّافضِ لموقفِهم، الدّاعي لهم بعدمِ الإقدام على تلك الشَّناعة؛ لأنَّهم سَيتأثَّرونَ بكلامِه ووَعظِه، قال الرّازيُّ: "إنَّ القَوْمَ حينَ عَزَموا على مَنْعِ الزَّكاة، واغتَرّوا بِمالِهم وقوَّتِهم؛ قالَ الأَوْسَطُ لَهُم: توبوا عَن هَذِهِ المَعْصيَةِ قَبْلَ نُزولِ العَذابِ، فَلَمّا رَأَوُا العَذابَ؛ ذَكَّرَهُم ذَلِكَ الكَلامَ الأوَّلَ، وقال: ﴿لَوۡلَا تُسَبِّحُونَ﴾، فَلا جَرَمَ اشتَغَلَ القَوْمُ في الحالِ بِالتَّوبَةِ"[1].

تأخيرُ الموقفِ الرّافضِ لحينِ الوُقوعِ في الشَّرِّ الفاضِح

دلالةُ فعلِ (القولِ) مادَّةً وصيغةً:

الصَّدحُ بالقَولِ عندَ شُعورِ الظّالمِ بعدَمِ الحَوْلِ

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بفعلِ (القول) ماضيًا، في قولِه تعالى: ﴿قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ﴾؛ للدَّلالة على صُدورِ ذلك القولِ وتحقُّقِ حُصوله منه؛ إذِ الفعلُ الماضي يدلُّ بصيغتِه على إنجازِ الحدثِ في الزَّمنِ الغابِرِ، ودلَّتْ مادَّةُ (القولِ) على التَّلفُّظ بكلامٍ مناسِبٍ لحالِ حِرمانهم، وفي تلك المادَّة شيءٌ من الشِّدَّةِ المُناسِبةِ في حديثِه؛ تَنديمًا لهم على سوءِ اختيارهم وشُرورِ نيّاتهم؛ إذ توجيهُ القولِ للظّالم بعدَ شعورِهِ بالحِرمان يكونُ مؤنِّبًا ومُعنِّفًا له على سوءِ الاختيار.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ باسمِ التَّفضيلِ ﴿أَوۡسَطُهُمۡ﴾:

الأخُ الأوسَطُ الفاضِل، كالنَّبيِّ الكريمِ الكامِل

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بصيغةِ (اسم التفضيل)، في قولِه تعالى: ﴿قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ﴾؛ للدَّلالة على أنَّه يَنتمي لهُم بالأخوَّة، لكنَّهُ أفضَلُهم وأعدَلُهم و"أرجَحُهم رَأيًا، وأحسَنُهم تدبيرًا"[2]، واسمُ التَّفضيل على

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 609.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 97.

غيرِ بابِه؛ إذ هو الفاضلُ والعادلُ والعاقلُ من بينِهم، ولا يَعني أنَّه الأخُ الأوسطُ في ترتيبِهم العدديِّ، كما يتبادرُ لأوَّلِ وهلة، بل الوسطيَّةُ هنا بمعنى العَدالةِ في كلِّ أمرٍ، والأفضليَّةِ في كلِّ قرارٍ يُتَّخَذ، وفيه رمزٌ خفيٌّ للنبيِّ الكريم ﷺ؛ إذ هو المُنتمي لقومِه، وهو أوسَطُهم وأعدَلُهم وأحسَنُهم؛ إذ طلبَ منهم شُكرَ النِّعمة، فلم يَلتفِتوا، ولم يَسمعوا لوَعْظِه، وهو يريدُ خيرَهُم مثلَ ذلك الأخِ معَ إخوتِه، حتّى إذا عَلِموا الحِرمانَ؛ ذكَّرَهُم بسببِه وما كانوا عليهِ من بُهتان وظُلمٍ وإجرامٍ.

دلالةُ الاستعارةِ في ﴿أَوۡسَطُهُمۡ﴾:

المُعتدِلُ في الأوصافِ وسَطٌ في الأعراف

استعارَ النَّظمُ الكريم لفظَ (الأوْسط)، في قولِه تعالى: ﴿قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ﴾؛ إذ شبَّه المُعتدلَ بينَ الإفراط والتَّفريط بالوسَط، بجامع أنَّ كلًّا منهما ليسَ على طرَفِ الشَّيء، ثمَّ حذفَ المشبَّه، وهو المُعتدل، وأبقَى المشبَّه به على سبيلِ الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة، والغرضُ من الاستعارة إظهارُ المعتدِلِ بمظهر الواقِعِ في المُنتصَف، فلا يميلُ إلى الإفراط ولا إلى التَّفريط، قال السَّمين: "والوسَطُ تارةً يقالُ فيما له طرفانِ مَذمومان، كالجودِ الَّذي بينَ البُخل والسَّرَف، فيُستعمَلُ استعمالَ القصدِ المَصونِ عن الإفراطِ والتَّفريط، فيُمدَحُ به، نحوَ السَّواءِ والعَدْل، وتارةً يقالُ فيما له طرفٌ محمودٌ وطرفٌ مذمومٌ كالخير والشَّرِّ، ويُكنَّى به عن الرَّذل، نحوُ قولهم: وسَطٌ بينَ الرِّجال؛ تنبيهًا على أنَّه قد خرجَ من حدِّ الخَير"[1].

دلالةُ الإضافةِ في ﴿أَوۡسَطُهُمۡ﴾:

الدّاعيةُ ذو طبعٍ مُستقيم وعَقلٍ سَليم

أضافَ النَّظمُ الكريم اسمَ التَّفضيلِ إلى ضميرِ الإخوةِ، في قولِه تعالى: ﴿قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ﴾؛ للدَّلالة على أنَّه بعضٌ منهم ومُنتمٍ لهُم وواحدٌ فيهم، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ النّاصِحَ الأمين يكونُ من جنسِ القومِ، وأخًا رَؤومًا بهم مُشفِقًا عليهم، يشعُرُ بشُعورِهم، وفي ذلك

(1) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 4/ 309.

إبطالٌ لما يعتقدونَهُ من كونِ مدَّعي النُّبوَّة ملَكًا، وليس بشرًا، ففيهِ ردٌّ بليغٌ بأنَّ النَّبيَّ هو المُنتمي لقومه، لكنَّه يسمعُ لنداءِ اللهِ المستقيم، ويعمَلُ بمقتضَى العقلِ السَّليم، قال السَّمرقنديُّ: "والعَرَبُ تقولُ: فلانٌ من أوسَطِ قومِهِ، أي: خيارِهم وأعدلِهم، ومنه قيلَ للنَّبيِّ ﷺ: هو أوسَطُ قريشٍ حَسَبًا"[1].

دلالةُ الاستفهامِ بالهَمزة في ﴿أَلَمۡ﴾:

الإلجاءُ والإقرارُ بما أرشدَهُم إليهِ من وعظٍ واعتبار

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بـ(همزة الاستفهام) في مطلَعِ مقولِ القولِ، من قولِهِ تعالى: ﴿قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ﴾؛ للدَّلالةِ على الاستفهامِ التَّقريريِّ، الَّذي يُلجِئُ سامِعَهُ إلى الاعترافِ والإقرارِ، بما يأتي بعدَ الاستفهام ممّا يَقتضيهِ المقام، فهو لا يُقرِّرُهم على النَّفي الواقعِ بعدَ الهمزة، وإنَّما يُقرِّرُهم على المنفيِّ الصّادر منهُ، فيَعترفونَ بما قالَهُ لهم، وطَلَبَهُ منهُم أثناءَ تخطيطِهم على الإجرام، قالَ القونويُّ: "إنكارٌ للنَّفي وإثباتُ المنفيِّ، أي: قد قُلْتُ لكم، ولم تَقبلوا"[2].

مَعنى (لم) والغرضُ مِنها:

صدورُ النُّصحِ الماضي دالٌّ على تعنُّتٍ بقرارٍ قاضٍ

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بحرفِ النَّفي (لم)، في قولِهِ تعالى: ﴿قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ﴾؛ للدَّلالة على قلبِ زمنِ الفعلِ المضارعِ إلى الماضي ونفيِهِ، وبانتفاءِ صدورِ القولِ في الزَّمن الماضي يكونُ التَّقريرُ على المنفيِّ صدورُهُ، فيكون تقريرًا على صدورِ القول منه في الماضي، والغرضُ من ذكرِ النّافي تحصيلُ دلالةِ القولِ الماضي بعدَ دخولِ الاستفهام، وإنَّما لم يوردِ النَّظمُ الفعلَ الماضيَ من أوَّلِ الأمر؛ ليُقرِّرَهُم عليه؛ لما في المضارعِ مِن تَكرارٍ وتجدُّدٍ واستمرار.

دلالةُ الفعل المضارع ﴿أَلَمۡ أَقُل﴾:

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بلفظِ (القول) فِعلًا مُضارعًا، في قولِه تعالى:

(1) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/ 100.

(2) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 238.

استغراقُ الأزمنةِ الماضية بالنُّصْحِ والدَّعوةِ النّافِعة

﴿قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ﴾؛ للدّلالة على التَّجدُّدِ الاستمراريِّ في الوَعظ والإرشادِ والنُّصح، ومن ثَمَّ لم يُقرِّرْهُم على وقوعِ ذلك في الزَّمن الماضي بالصّيغةِ المَوضوعةِ له، بل اختارَ لفظَ المضارعِ، وقرنَهُ بـ(لم) القالبةِ له للمضيِّ، ثمَّ قرَّرهم دالًّا بذلك على استغراقِ أزمنةِ الماضي بالنُّصحِ والإرشاد والوَعْظ.

دلالةُ المتُعلِّق ﴿لَّكُمۡ﴾:

المــواجَــهــةُ بالتَّذكيرِ أفضلُ وسيلةٍ لـلـرَّدعِ والتَّحذير

علَّقَ النَّظمُ الكريم بفعلِ القولِ الجارَّ والمجرورَ ﴿لَّكُمۡ﴾، في قولِه تعالى: ﴿قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ﴾؛ للدَّلالة بـ(اللّام) على الاهتمام بالمَقول لهُم؛ فاللّام للاختصاصِ والغَرض، ويكونُ صدورُ القول النّاصحِ لأجلِكم ومُختصًّا بكم؛ لفَرطِ الاهتمام وشدَّةِ الشَّفقةِ وعظيم الخوفِ على مآلِ الكفرِ والإجرام والذَّنب، وأفادَ ضميرُ المُخاطَبين دلالةَ المواجهةِ في الحديثِ والخِطاب، والمواجهةُ بالتَّذكير أفضلُ وسيلةٍ للرَّدعِ والتَّحذير.

معنى ﴿لَوۡلَا﴾ والغرضُ منها:

التَّحضيضُ عندَ الإرشـــادِ كـافٍ في الاتِّهامِ لهُم بالعِناد

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بـ﴿لَوۡلَا﴾، في قولِه تعالى: ﴿أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ لَوۡلَا تُسَبِّحُونَ﴾؛ للدَّلالة على الحثِّ والتَّحضيض بقوَّةٍ وشدَّةٍ، فإنَّ الفرقَ بينَ (ألا، و﴿لَوۡلَا﴾) أنَّ كلَيهما للطَّلب؛ إلّا أنَّ (ألا) للطَّلَبِ برِفْقٍ ولين، و﴿لَوۡلَا﴾ للطَّلبِ بشدَّةٍ وعُنف، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ أخاهم كان يَدعوهم أوَّلًا بالرِّفق واللّين حتَّى وصلَ به المطاف إلى الطَّلب بشِدَّةٍ وقوَّة، لكنَّهم بطروا النِّعمة، ولم يُصغوا للوعظِ والإرشاد، فصمَّموا على الجُرم حتّى حُرموا الخيرَ كلَّه، ويدلُّ التَّحضيض على نفيِ اللّائمة عنه بشكلٍ واضِح، فلا مجالَ لهم أنْ يُلقوا باللّائمةِ على وعظِه وإرشاده؛ إذِ التَّحضيضُ كافٍ في الرَّدِّ على اتِّهامهم له بالتَّقصيرِ في النُّصح.

طَلَبُ التَّنزيه والتَّسبيح دالٌّ على جهلهم القبيح

دلالةُ الفعلِ المُضارع ﴿تُسَبِّحُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بالفعلِ المُضارع ﴿تُسَبِّحُونَ﴾، في قولِه تعالى: ﴿لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ أخاهم الأوسطَ طلبَ منهم التَّسبيحَ والتَّنزيهَ للّه تعالى؛ لأنَّ إقدامَهم على هذا العملِ دالٌّ على جهلٍ بحقيقةِ غضَبِ اللّه عندَ انتهاكِ حُرُماتِه والاشتطاطِ على أوامرِه والتَّعدّي على عبادِه، وفعلُ التَّسبيح يدلُّ بمادَّتِه على التَّنزيهِ والتَّقديسِ للّه تعالى منَ الظَّنِّ السّيّئَ به، بأنَّه لا ينتقمُ منهم على تلك الفعلةِ الخاطِئة، واختارَ النَّظمُ صيغةَ الفعلِ المضارع؛ للدَّلالة على طلَبِه التَّسبيحَ والتَّقديسَ منهُم بشكلٍ متكرِّرٍ ومُبالغٍ فيه؛ إذِ الصّيغةُ بالتَّضعيف دالَّةٌ على المُبالغةِ والكَثرة، قال ابنُ الجَوزيِّ: "وفيه ثلاثةُ أقوال، أحدُها: هلا تَستَثنونَ عند قولكم: ﴿لَيَصۡرِمُنَّهَا مُصۡبِحِينَ﴾، قاله ابنُ جُريج والجمهور، والمعنى: هلّا قلتُم: (إن شاءَ اللّه). والثّاني: أنَّه كان استثناؤُهُم قولَ: (سبحان اللّه) قالَه أبو صالح. والثّالث: هلّا تُسبِّحونَ اللّه، وتشكرونَهُ على ما أعطاكُم"[1]، ولعلَّ النَّظم اختارَ الفعلَ المضارع بعدَ دلالةِ الماضي في ﴿أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ﴾؛ للتَّوبةِ من الذَّنب السّابق المتمثِّل بالعزم على المعصيةِ، والتَّوبةِ منَ الذَّنب اللّاحقِ في نسبةِ الظُّلم له تعالى، في قولهم: ﴿بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ﴾.

استثناءُ حِصَّةِ الفُقراء تعظيمٌ لرَبِّ السَّماء

دلالةُ الاستعارةِ في ﴿تُسَبِّحُونَ﴾:

استعارَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ ﴿تُسَبِّحُونَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾؛ للدَّلالة على (تَستثنونَ)، فـ: "معنى التَّسبيح ها هنا الاستثناء، وهو أنْ يقولوا: إنْ شاءَ اللّه، فإنْ قيل: التَّسبيحُ أنْ تقول: سبحانَ اللّه، والجوابُ في ذلك: أنَّ كلَّ ما عظَّمتَ اللّهَ به؛ فهو تسبيحٌ؛ لأنَّ التَّسبيح تنزيهُ اللّه عن السّوء، والاستثناءُ تعظيمُ اللّه

(1) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 4/ 324.

والإقرارُ بأنَّه لا يقدر أحدٌ أنْ يفعلَ فِعلًا إلّا بمشيئةِ اللّه ﷻ"[1]، فقد شبَّه النَّظمُ لفظَ (الاستثناء) بقولِ: إنْ شاءَ اللّه بلفظِ (التَّسبيح) بجامِعِ التَّعظيمِ فيهما للّه تعالى، ثمَّ حذفَ المشبَّه، وأبقَى المشبَّهَ بهِ على سبيلِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّة، "قالَ النَّحّاس: أصلُ التَّسبيحِ التَّنزيهُ للّه ﷻ، فجعلَ (التَّسبيحَ) في موضع (إنْ شاءَ اللّه)؛ لأنَّ المعنى تنزيهُ اللّه أنْ يكون شيءٌ إلّا بمشيئتِه، وقال ابنُ الخطيب: التَّسبيحُ عبارةٌ عن تنزيهِهِ عن كلِّ سوءٍ، فلو دخلَ شيءٌ في الوجودِ على خلافِ إرادةِ اللّه تعالى؛ لوجبَ عودُ النَّقص إلى قدرةِ اللّه تعالى، فقولك: (إنْ شاء اللّه) مُزيلٌ هذا النَّقصَ، فكانَ ذلك تسبيحًا"[2]، وقال الحنبليُّ: "وقيل: تَستثنونَ، وسُمّي الاستثناءُ تسبيحًا؛ لأنَّه تعظيمُ اللّه"[3]، ويكونُ حينَئذٍ بينَهُ وبينَ قولِهم: (سبحان اللّه) جناسٌ، وليسَ تضعيفًا لوجهِ الاستعارةِ كما ظُنَّ[4].

دلالةُ المَجازِ المُرسَلِ في ﴿تُسَبِّحُونَ﴾:

التَّسبيحُ لصاحِبِ الأمرِ فردٌ من أفرادِ مُطلَقِ الذِّكْر

عبَّرَ النَّظم الكريمُ بفعلِ (التَّسبيحِ) مُضارعًا، في قوله تعالى: ﴿لَوۡلَا تُسَبِّحُونَ﴾؛ للدَّلالة على التَّحضيضِ على الذِّكر للّه تعالى والتَّوبةِ له، فيكونُ مَجازًا مرسلًا، قال القونويُّ: "والتَّسبيحُ بمعنى الذِّكر والتَّوْبَة مَجازًا بذِكرِ المقيَّدِ وإرادةِ المُطلق ثمَّ المقيَّد الآخرِ؛ لكونه أفرادًا من المُطلَق"[5]، والغرضُ من التَّجوُّزِ بذكرِ التَّسبيح الدَّلالةُ على أنَّ أوَّل التَّوبةِ والذِّكرِ يَبدأ بالتَّسبيحِ والتَّنزيهِ للّه عن النَّقص حتّى يصحَّ الذِّكرُ، وتنفعَ التَّوبةُ صاحبَها.

(1) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 5/ 209، والواحديّ، التّفسير البسيط: 22/ 106.

(2) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 19/ 292.

(3) الحنبليّ، فتح الرّحمن: 7/ 130.

(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 350.

(5) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 238.

سرُّ الفَصْلِ في ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَ﴾:

فصلَ النَّظمُ الكريمُ قولَه تعالى: ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ﴾؛ للدَّلالة على الاستئنافِ البيانيِّ؛ إذ دلَّ الاستفهامُ السّابق على طَلَبِه الإقرارَ منهُم بما قالَهُ لهُم من الحثِّ على التَّسبيحِ والتَّنزيهِ والتَّقديس، فنشأ سؤالٌ عن إقرارِهم بما قالَه لهم من طلبِ التَّسبيح، لكنَّ النَّظمَ بدلًا من أنْ يُفصِحَ بالإقرارِ على ما قالَهُ لهُم بأنْ يقولَ مثلًا: (لقد قلتَ لنا ذلك)، عبَّر بلازمِه كنايةً عن تحقُّقِ الإقرارِ بما قالَهُ لهم، وطلبَهُ منهُم؛ إذ شَرَعوا بالتَّسبيح، وفي ذلك اعترافٌ منهُم وإقرارٌ بما قالَهُ لهُم مُسبقًا من طلبِ التَّسبيح، فقد: "قالوا مُعترفينَ بالذَّنب، والاعترافُ بِه يُعدُّ منَ التَّوبة"[1].

التَّسبيحُ والتَّقديسُ دالّانِ كِنايةً على الإقرارِ بالمَطلوبِ الرَّئيس

دلالةُ إسنادِ فعلِ (القَول) إلى ضميرِ الجمعِ:

أسندَ النَّظمُ الكريم فعلَ (القول) الماضي إلى ضميرِ الجمعِ (الواو)، في قولِه تعالى: ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ﴾؛ للدَّلالة على صُدور القولِ منهم على سبيلِ الاتِّفاق والاجتماعِ صُدورًا مُنجَزًا مُحقَّقًا؛ ليكونَ الإقرارُ جماعيًّا بالتَّسبيحِ للّه تعالى والتَّوبةِ إليه، كما كانَ التَّخطيطُ والشُّروعُ بالتَّنفيذِ للمَعصيةِ جماعيًّا منهم.

التَّسبيحُ الجماعيُّ في مُقابلةِ العِصيانِ الاتِّفاقيِّ

دلالةُ المصدرِ ﴿سُبۡحَٰنَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

عبَّرَ النَّظمُ الكريم عن مَقولِ القولِ بالمَصدر المنصوبِ ﴿سُبۡحَٰنَ﴾، في قولِه تعالى: ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ﴾؛ للدَّلالة بمادَّته على تَنزيههم للّه تنزيهًا تامًّا مَحضًا؛ إذِ المصدرُ موضوعٌ للدَّلالةِ على الحقيقةِ والماهيَّة، فيكونُ التَّسبيحُ مُتحقِّقًا بماهيَّته فيهم للدَّلالة على الكمالِ فيه، والمصدرُ منصوبٌ بفعلٍ محذوفٍ وجوبًا، تقديرُهُ: (نُسبِّحُ سُبحانَ)، فيفيدُ التَّأكيدَ والمبالغةَ في التَّنزيهِ والتَّقديسِ مع

المَعصيةُ جُرأةٌ على العَظيم فلا بدَّ منَ التَّسبيحِ للقَديم

---

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 97.

دلالةِ التَّجدُّدِ والحدوث، وإنَّما لجؤوا إلى التَّوبةِ بلفظ (التَّسبيح)؛ لأنَّ المعصيةَ في حقيقتها جهلٌ بغضبِ اللّه تعالى عندَ انتهاكِ حُرُماتِه، أو يُجرِّئُ على المعصية ضَعْفُ الاعتقادِ بقُدرة اللّه تعالى على الظّالمين، أوِ تُنبئُ عن الغَفْلةِ عن ذلك، فتكونُ التَّوبةُ بلفظِ (التَّسبيح) دالَّةً على تصحيحِ الاعتقادِ والاعترافِ؛ بسببِ العصيانِ والإقلاعِ عنه من خلال معرفة اللّه تعالى المعرفةَ الحَقَّة بالتَّنزيه والتَّعظيم والتَّبجيل، قال الهرريُّ: "أي: تَنَزَّهَ مالكُ أمرِنا عن كلِّ سوءٍ ونُقصانٍ سيَّما عَن أن يكونَ ظالمًا فيما فعلَ بِنا"[1]، وفي هذا الجوابِ بالتَّسبيحِ دليلٌ على أنَّه كان يقولُ لهم: سبِّحوا اللّهَ، وتوبوا إليه، لكنَّهم لم يفعلوا، ولم يرضَوا، فكانَ جوابُهم بعد اعترافِهم بخطَئِهم قبولَ ما أمرَهُم به مُسبَقًا.

دلالةُ إضافةِ المَصدرِ ﴿سُبۡحَٰنَ﴾:

إحاطةُ العَذاب بالجنَّةِ الأرضيَّة دليلٌ على كمالِ التَّصرُّفِ والرُّبوبيَّة

أضافَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ ﴿سُبۡحَٰنَ﴾ إلى لفظِ (الرَّبِّ)، في قولِه تعالى: ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ السُّبحانَ والتَّنزيهَ مستحقٌّ ومختصٌّ بالرَّبِّ تعالى، والإضافةُ من إضافة المصدرِ لمفعولِه، فالرَّبُّ مضافٌ إليه لفظًا منصوبٌ تقديرًا، وإنَّما اختارَ النَّظم لفظَ (الرَّبِّ) دونَ لفظ الجلالةِ؛ لمُناسبتِهِ للمَقام؛ إذ نزولُ العذاب وإحاطتُهُ بجنَّتِهم دليلُ ربوبيَّتِهِ وسَيطرتِهِ وتحكُّمِهِ بالكونِ وظَواهره، فكانَ الأنسبُ لفظَ (الرَّبِّ) دونَ اسم الجلالة (اللّه)، ويحتملُ أنَّهم كانوا يُسمّونَ الذّاتَ الجليلة بلفظِ (الرَّبِّ) دونَ الاسمِ الجليلِ؛ لعدمِ مَعرفتِهم به.

دلالةُ الإضافةِ في ﴿رَبِّنَآ﴾:

الشُّعورُ بالتَّقصير يَمحوهُ الخضوعُ للجَليل

أضافَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ (الرَّبِّ) إلى ضميرِ المتكلِّمين، في قولِه تعالى: ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ﴾؛ للدَّلالة على الاعترافِ بربوبيَّة اللّه

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 97.

تعالى لهم، ومُقتضى الاعترافِ الشُّعورُ بالتَّندُّم على ما فرَّطوا في جنبِ اللّه، وفي الإضافةِ إعلانٌ صريحٌ عنِ الخُضوع للعَظَمةِ الإلَهيَّة وعدم الإقدام مُجدَّدًا على ما يُغضبُهُ، ولا يُرضيه؛ إذ مِن شروطِ التَّوبةِ الاعترافُ والنَّدمُ والخضوعُ لعظمةِ اللّه تعالى.

دلالةُ تقديمِ التَّسبيحِ على الإقرارِ بالظُّلم:

مفتاحُ التَّوبة بتنزيهِ صاحبِ النِّعمة

قدَّمَ النَّظم الكريمُ في ذِكرِ مَقولهم التَّسبيحَ على الاعترافِ بالظُّلم، في قولِه تعالى: ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على ما يجبُ على التّائبِ منَ الابتداءِ بالتَّسبيح والتَّنزيهِ للّه عن النَّقص الَّذي لابسَ قلبَهُ، فأقدمَ على مَعصيته، أوْ غفلَ عن قُدرتِه، فعزمَ على الظُّلم، ثمَّ الاعترافُ بالذَّنبِ وما يَستلزمُهُ من النَّدامة وما يَقتضيهِ من العزم على عدَم العَوْد، قال القونويُّ: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾: "اعترافٌ بالذَّنب إظهارًا للنَّدامة، والنَّدامةُ ركنٌ أعظمُ للتَّوبة، ويُفهَمُ منه العزمُ على عدمِ العَوْدِ، وذُكِرَ التَّسبيحُ؛ لأنَّه مفتاحُ التَّوْبَة"[1].

نُكْتَةُ التَّصديرِ للجُملةِ الاسميَّة بـ (إنَّ):

توكيدُ المُتكلِّم لفعلِه مُستلزمٌ شعورَهُ بذنبِه

أكَّدَ النَّظمُ الكريم الجملةَ الاسميَّة في قولِه تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾؛ لتنزيلِهم أنفسَهُم منزلةَ المنكِر لظُلمهم؛ إذِ المُتكلِّم لا يُؤكِّدُ فعلَ نفسه إلّا للكنايةِ عن أمرٍ، فأقدَموا على توكيدِ نسبةِ الظُّلم لأنفُسِهم في الماضي؛ إشعارًا بالنَّدامة، واعترافًا بالقصورِ وإعلانًا للخُضوع، وحرفُ التَّوكيد مُفيدٌ دلالةَ التَّعليلِ والسَّببيَّة؛ إذِ اعترافُهُم وإقرارُهُم بطَلبِ التَّسبيح، وتسبيحُهُم بسببِ ظُلمِهم وسوءِ فِعلهم، فيكونُ التَّسبيح توبةً عنِ اعترافٍ بالظُّلم وندَم عليه، قال ابنُ عاشور: "والتَّأكيدُ لِتَحقيقِ الإقْرارِ والاهْتِمامِ بِهِ، ويُفيدُ حَرْفُ (إنَّ) مَعَ ذَلِكَ تَعْليلًا لِلتَّسْبيحِ الَّذي قَبْلَهُ"[2].

---

(1) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 238.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 87.

سرُّ تقديمِ المُسندِ إليهِ في ﴿إِنَّا﴾:

التَّقديمُ للانحصار مُستلزِمٌ للاتِّصاف بالظُّلم على سبيلِ الاستِمرار

قدَّمَ النَّظمُ الكريم ضميرَ المتكلِّم على خبرِه الفعليِّ، في قولِه تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾؛ للدَّلالة على حَصرِ الظُّلم فيهم حَصرًا إضافيًّا ادِّعائيًّا، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ كلَّ مَن يتجرَّأُ على أوامر الذّات الإلَهيَّة؛ فإنَّه ينحصرُ فيه وصفُ الظُّلم، وكفى به رادِعًا لكلِّ مَن يُلقي السَّمعَ، وهو شهيد.

دلالةُ الفعلِ النّاقصِ (كانَ):

الاعترافُ بالذَّنب يُيَسِّرُ قبولَ التَّوْب

عبَّر النَّظمُ الكريم بالفعلِ النّاقص (كانَ)، في قولِه تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ دون القول (إنّا ظالمون)؛ للدَّلالة على أنَّ اتِّصافَ المُتكلِّمين بالظُّلم على سبيلِ التَّمكُّنِ والاستقرار، مع الاستمرارِ في ذلك إلى زمنِ رُؤيةِ الجنَّة ونسبةِ الحِرمان إلى اللّٰه تعالى ظُلْمًا لهم؛ إذ فِعْلُ الوجود مُنبِئٌ عنِ استقرارِ حُكم الخَبَر للمبتدأ استقرارًا تامًّا، وحُصولًا ثابتًا، وفي الاعترافِ بثبوتِ الظُّلم ووُجودِه فيهم دلالةٌ على النَّدامةِ الَّتي هي شرطٌ أساسيٌّ لقَبول التَّوبة.

دلالةُ تَكرارِ ضميرِ المتكلِّم ومعَهُ غيرُهُ:

تكرارُ الضَّمير للشُّعور بالتَّقصير

كرَّرَ النَّظمُ الكريمُ ضميرَ المتكلِّم ومعه غيرُهُ، في قولِه تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾؛ للدَّلالة على أهمِّيَّة تقديمِ المسندِ إليه في تحقيقِ دلالة الانحصارِ والتَّقويةِ للاتِّصاف بالحُكم والخبرِ، فقد وقعَ ضميرُ المتكلِّمين (نا) الأوَّل مُسندًا إليه؛ للإخبارِ عنه بثبوتِ الظُّلم فيهم، ووقعَ مُسندًا إليه أيضًا في جملةِ (كانَ)؛ للإخبارِ عنه بالظُّلم على سبيلِ الحصولِ والتَّمكُّن والاستقرار، فيكونُ التَّكرارُ دالًّا على تأصُّلِ الظُّلم فيهم تأصُّلًا دفعَهُم للاعترافِ به وطلبِ التَّوبةِ منهُ.

دلالةُ الإخبارِ بـ ﴿ظَٰلِمِينَ﴾ مادَّةً وصيغةً ومَوقعًا:

مُجاوزةُ الحُقوق ظُلْمٌ وعُقوق

أخبرَ النَّظمُ الكريمُ بلفظِ ﴿ظَٰلِمِينَ﴾ عن ضميرِ المتكلِّمين، في قولِه تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾؛ للدَّلالة على اتِّصافِهم بالظُّلم على

سبيلِ الثُّبوتِ والدَّوام؛ إذ (الظّالم) هنا صارَ وصْفًا متأصِّلًا فيهم، فيكون ثابتًا لهم ثبوتَ اللَّوازم في مَلزوماتها، كما تدلُّ مادَّةُ الظُّلم على القيام بتصرُّفاتٍ تُخالفُ الأوامرَ والنَّواهي؛ إذِ الظُّلْمُ تصرُّفٌ واعتداءٌ على حقٍّ، وأوامرُ اللّه ونواهيهِ حقٌّ لا يجوزُ مُجاوزتُها البتَّة.

نُكْتَةُ حذفِ مُتعلِّقِ ﴿ظَٰلِمِينَ﴾:

الـدَّلالـةُ على العُموم بحَذْفِ متعلِّقِ الظُّلمِ الغَشوم

حذفَ النَّظمُ الكريم مُتعلّقَ ﴿ظَٰلِمِينَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾؛ بناءً على إرادةِ مَعنى التَّعديةِ والتَّعلُّقِ بالآخر، لتحقيق دلالةِ العُموم، قال ابنُ عاشور: "وَحُذِفَ مَفْعولُ ﴿ظَٰلِمِينَ﴾؛ لِيَعُمَّ ظُلْمَهُم أنفُسَهُمْ بما جَرّوهُ على أَنْفُسِهِم مِنْ سَلْبِ النِّعْمَةِ، وظُلْمِ المَساكين بِمَنْعِهِم من حَقِّهِمْ في المالِ"[1]؛ إذ يحتملُ أنَّهم ظلَموا أنفسَهُم؛ بسببِ العِصيان الَّذي حَرَمَهُم خيراتِ جنَّتِهم، أو ظلَموا أنفسَهُم باستحقاقِ غضَبِ اللّه تعالى عليهم، كما يحتملُ أنَّ المتعلِّق هو الآخر، فيكونونَ قد ظلَموا غيرَهم؛ بسببِ ما أقدَموا عليه من حِرمانِ الفُقراء والمساكينِ حقوقَهُم، قالَ الطَّبريُّ ﴿كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾: "في تَرْكِنا الاستثناءَ في قَسَمِنا وعَزْمِنا على تَرْكِ إطعامِ المَساكينِ من ثمَرِ جنَّتِنا"[2].

دلالةُ التَّعريضِ في مَقولِ القَول:

توبـةُ الظّالمين تعريضٌ بالباقين

عرَّضَ النَّظمُ الكريم بأهلِ مكَّةَ في قولِه تعالى: ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾؛ إذ أقبل أصحابُ الجنَّة على التَّسبيحِ والاستغفارِ، والاعترافِ بالظُّلم وإظهارِ النَّدَم على ما فرَّطوا في جنبِ اللّه، فيكون تعريضًا بقوم النَّبيِّ ﷺ وما يَنبغي أنْ يُقدِموا عليه من طاعةٍ واستغفارٍ وخُضوعٍ للّه تعالى ربِّ العالَمين، كما أفادَ الإخبارُ بكونِهم الظّالمينَ تنزيهَ اللّهِ تعالى عن ظُلمهم، كما يُشَمُّ من صريحِ إضرابِهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 87.
(2) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 551.

السّابق: ﴿بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ﴾؛ إذ يدلُّ على أنَّ الحِرمان وقع عليهم منَ اللّه تعالى، ففيه شائبةُ نسبةِ الظُّلم له تعالى، فتابوا عمّا صدرَ منهم من العَزمِ على الفعل، وعمّا صدرَ منهُم عندَ رُؤيةِ الجنَّة وادِّعائهم أنَّ ما فعلَ اللّهُ بهم حِرمانٌ لهم.

معنى (الفاءِ) والغرضُ منها في ﴿فَأَقۡبَلَ﴾:

بعد الخسارة تقع الملَامة

عطفَ النَّظمُ الكريم بـ(الفاء) في قولِه تعالى: ﴿فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾؛ للدَّلالة على التَّعقيب والتَّفريع، إذ أعقبَ شعورَهُم بالخسارةِ والحِرمان مع اعترافِهم بالظُّلم والبهتان إقبالُ بعضِهم على بعضٍ، بإلقاءِ اللَّوم والمَلامة والعِتابِ والمُحاسبةِ؛ وذلك شأنُ الخاسِرينَ الَّذين يَتمنَّونَ وجودَ صادٍّ لهم ومانعٍ من تلك الخَسارةِ الثَّقيلة، والذي يظهرُ لنا أنَّ التَّلاوُمَ كانَ يشمَلُ الجميعَ من دونِ الأوسط الَّذي نصحَهم، فأعرَضوا، حتَّى أجبروهُ على الموافقةِ لهم والمُسايرةِ في مُخطَّطهم، قال ابنُ عاشور: "وَلَمّا استَقَرَّ حالُهُم عَلَى المُشارَكَةِ في مَنْعِ المَساكينِ حَقَّهُم؛ أخَذَ بَعْضُهُمْ يَلومُ بَعْضًا على ما فَرَطَ مِنْ فِعْلِهِم، كُلٌّ يَلومُ غَيْرَهُ بِما كانَ قَدْ تَلَبَّسَ بِهِ في هَذا الشَّأْنِ، مِنِ ابتِكارِ فِكْرَةِ مَنْعِ المَساكينَ ما كانَ حَقًّا لَهُمْ مِن حَياةِ الأبِ، ومِنَ المُمالاةِ على ذلك، ومِنَ الاقتِناعِ بِتَصْميمِ البَقيَّةِ، ومِن تَنْفيذِ جَميعِهِم ذَلِكَ العَزْمَ الذَّميمَ"(1).

دلالةُ فعلِ (الإقبالِ) مادَّةً وصيغةً:

الإقبـالُ يصوِّرُ الاهتمامَ بالأقوال

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بفعلِ (الإقبالِ) ماضيًا، في قولِه تعالى: ﴿فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾؛ للدَّلالة على تحقُّقِ وقوعِ الفعل، وأنَّه قد صدرَ منهم بشكلٍ محقّقٍ مقطوعٍ به، قال الهرريُّ: "التَّعبيرُ عنهُم بصيغةِ الماضي للتَّأكيد، والدَّلالةِ على تحقُّقِ الوُقوعِ حَتمًا"(2)، وزيدتِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 87.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 24/ 189.

الهمزةُ للدَّلالة على الصَّيرورة، أي: صارَ بعضُهُم مُتحرِّكًا إلى الآخرِ من جهةِ الأمام، بحيثُ تتحقَّقُ بينهم المقابلةُ والمواجهة، ولذا كانَ الإقبال ضدَّ الإدبار، وهو الذَّهابُ والتَّولّي من جهةِ الدُّبُرِ والخَلف، ولا يَنشَطُ الشَّخصُ للإقبالِ؛ إلّا إنْ كان الأمرُ مستحَقًّا للمُقابلةِ والحديثِ، فتراهُ يقبلُ باندفاعٍ من أجلِ ما عزمَ عليه.

دلالةُ الاستعارةِ التَّمثيليَّةِ في ﴿فَأَقۡبَلَ﴾:

إضفاءُ الحَركة لتَصويرِ الرَّغبة في الحديثِ بكلِّ شدَّة

استعارَ النَّظمُ الكريم اللَّفظَ الدّالَّ على الحركةِ، والتَّوجُّهِ إلى الأمام من أجلِ الحديثِ واللَّوم؛ اهتمامًا بالأمرِ في قوله تعالى: ﴿فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ﴾؛ لتصويرِ هيئةٍ معنويَّةٍ تُنبِئُ عنِ الاهتمامِ والإحساسِ بالأهمّيَّة في الحديثِ، والرَّغبةِ في الكلامِ لعُمقِ الخَسارة، ثمَّ حذفَ المشبَّهَ، وأبقى المشبَّهَ به على سبيلِ الاستعارةِ التَّمثيليَّة؛ إذ لمّا تحدَّثوا، واعترَفوا بالظُّلم؛ كانوا مُتقابلينَ ومُتواجهينَ أيضًا بالحديثِ، فإقبالُهم بالتَّلاوُمِ لم يكُنْ عن تفرُّقٍ وإدبار، بل استُعيرَ لتصويرِ الاهتمامِ بالموضوع، وإضفاءِ الحركةِ عليه بغيةَ توضيحِ اهتمامِهم بالمَلامة بعدَ تحقُّق الخَسارة، قال ابنُ عاشور: "والإقبالُ: حَقيقَتُهُ المَجيءُ إلى الآخر مِن جِهَةِ وَجْهِه، وهو مُشْتَقٌّ مِنَ القُبُلِ، وهوَ ما يَبْدو مِنَ الإنْسانِ مِنْ جِهَةِ وجْهِه، ضِدَّ الإدْبارِ، وهوَ هُنا تَمْثيلٌ لِحالِ العِنايَةِ بِاللَّوْمِ"(1).

دلالةُ المُسندِ إليه ﴿بَعۡضُهُمۡ﴾ مُضافًا:

التَّفصيلُ لفاعلِ الإقبال دالٌّ على الانحصار

عبَّرَ النَّظمُ الكريم عن فاعلِ الإقبالِ بلفظِ (البعض) مُضافًا في قولِه تعالى: ﴿فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ البعضَ من الكلِّ قد صارَ مُقبِلًا على بعضٍ آخرَ منه، والبعضُ الآخرُ الَّذي أُقبِلَ عليه قد صارَ هو أيضًا مُقبِلًا على مَن أقبلَ عليه، فيكونُ الإقبالُ صادرًا من الكلِّ إلى الكلِّ؛ ولذا عدلَ النَّظمُ عن إسنادِ الفعلِ إلى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 88.

الكلِّ بالقولِ: (فأقبلوا) إلى هذا التَّفصيلِ؛ لتصويرِ وقوعِ التَّلاوُم فيما بينَهم، بخلافِ (أقبلوا يتلاومون)؛ إذ يَحتمِلُ أنَّهم أقبلوا على غيرِهم لإظهارِ التَّلاوُم فيما بينَهُم، فكان تفصيلُ الكُلِّ دالًّا على انحصارِ الإقبالِ والمواجهةِ فيما بينَهُم.

مَعنى حرفِ الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾ والغرضُ منهُ:

الاستعلاءُ المَوهوم دالٌّ على التَّسفُّلِ المَجزوم

عدَّى النَّظمُ فعلَ الإقبالِ بحرفِ الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾، في قولِه تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾؛ للدَّلالةِ على الاستعلاءِ المجازيِّ، والغرضُ منه تصويرُ كلٍّ من المُقبِلَينِ على الآخرِ بهيئةِ المُرتفعِ على الآخَر، ممّا يدلُّ على هَوانِ أمرِ الفريقينِ وتوزُّعِ الخسارةِ فيما بينهُما على السَّويَّة بدلالةِ المقامِ والسّياق، ولذا كانُ إقبالُ المؤمنينَ بعضِهم على بعضٍ دالًّا على ارتفاعِ شأنِ الفريقَين، وإنَّما لم يُعَدِّ النَّظمُ فعلَ الإقبالِ بحرفِ الجرِّ (إلى) الدّالِّ على الانتهاء؛ لأنَّ الغرضَ لم يكُن بيانَ تحديدِ نهايةِ الإقبالِ وجهتِه، بل تحديدُ ارتفاعِ المُقبل الصّادق بكلِّ واحد منهما على الآخرِ؛ للدَّلالةِ على الهَوانِ والتَّسفُّلِ المشترَك.

دلالةُ التَّنكيرِ في ﴿بَعْضٍ﴾:

التَّقليلُ والتَّحقيرُ لكلِّ آثِمٍ أمرٌ جَدير

نكَّرَ النَّظمُ الكريم لفظَ (البعض)، في قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾؛ للدَّلالة على التَّحقيرِ والتَّقليلِ منَ الشَّأن مَع الإبهام؛ إذ لمّا اشترَكوا في الجُرم والإقبالِ؛ لم تكن هنالك فائدةٌ للتَّعيين؛ ولا يعني هذا أنَّ اللَّفظ المُعرَّف في ﴿بَعْضُهُمْ﴾ خارجًا عن دائرةِ التَّنكير بالكلّيَّة؛ إذ تعريفُهُ دلَّ على أنَّه بعضٌ منهم فحسبُ، ولم يدلَّ على شرفٍ فيه أوْ رفعةٍ على غيره بتعيينِه؛ فيكونُ الجميعُ داخلًا تحت سياقِ الإبهامِ والتَّحقير والتَّقليل، وإنَّما عرَّف الأوَّلَ، وتركَ الثّاني؛ للدَّلالة على حالةِ المُشاركة في الإقبالِ والتَّلهُّف للحديثِ بينَهم دونَ مَن عداهُم، ولذا لم يقُل: (فأقبلَ بعضٌ على بَعضٍ)، وليسَ هنالك إقبالٌ حقيقيٌّ؛ إذِ الصّورة بكلِّ مكوِّناتِها دالَّةٌ

على المشاركةِ، ومستعارةٌ لصورةِ المهتمِّ والمُغتمِّ بالخسارةِ المُلجِئة له إلى التَّلاوُمِ والمَلامة.

دلالةُ الفعلِ المضارعِ ﴿يَتَلَٰوَمُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

عُمقُ الحِرمان يُنمّي تكرارَ المَلامةِ والخُسران

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بفعلِ (التَّلاوُم) مُضارعًا، في قولِه تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ﴾؛ للدَّلالة على تجدُّدِ حدثِ التَّلاوُمِ بينَهم على سبيلِ الاستمرارِ والتَّكرار، ممّا يدلُّ على شدَّةِ الشُّعور بالخَسارة والحِرمان؛ نتيجةَ ما اقترفوهُ، وأساؤوا الظَّنَّ فيه بالدّيّان، كما أفادت صيغةُ (التَّلاوُم) وقوعَ المَلامة منهم على سبيلِ المشاركةِ؛ إذ كلُّ واحدٍ منهُم بدأ يوجِّهُ اللَّومَ والتَّأنيبَ والتَّعنيفَ للآخَر، بما يفيدُ حالةً منَ التَّوافُقِ على المَلامة موازيةً لحالةِ التَّوافُقِ على المَعصية والإثم، قال الحنبليُّ مُعلِّلًا وقوعَ التَّلاوُمِ بينهم: "فإنَّ منهم مَن أشار بذلك، ومِنهُم مَنِ استصوبَهُ، ومِنهم مَن سكتَ راضيًا، ومِنهُم مَن أنكره"[1]، ونفى الماتريديُّ أنْ يكونَ التَّلاوُمُ بهذا المعنى الَّذي نقلَهُ المُفسِّرون، فقال: "لأنَّ هذا يوجِبُ تبرئةَ كلِّ واحدٍ منهم عنِ ارتكابِ الذُّنوب، وقد سبقَ منهم الإقرارُ بالذَّنب بقولهم: ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾، وبقولهم: ﴿يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾، فكيف يُبرِّئونَ أنفسَهم عن الذّنوب، وقدِ اعترَفوا بها؟ فهذا تأويلٌ لا معنى له، بل معناه: فأقبلَ بعضُهم على بعضٍ يَتلاوَمون على إدخالِ كلٍّ منهم نفسَه في ذلك القولِ، فأقبلَ كلُّ واحد منهم باللّائمةِ على نفسِه حتّى يكونَ هذا موافقًا لقولِه: ﴿إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾"[2]، والَّذي يبدو أنَّ هذا النَّفيَ بعيدٌ؛ لأنَّ اختيار مادَّة اللَّوم الدّالَّة على: "إنْكارٍ مُتَوسِّطٍ عَلَى فِعْلٍ أَوْ قَوْلٍ، وهو دونَ التَّوْبيخِ وفَوْقَ العِتابِ"[3]، تُشيرُ إلى أنَّهُم لا يمتلكونَ التَّوبيخَ؛ لمعرفتِهم بعدمِ وجاهةِ

(1) الحنبليّ، فتح الرّحمن: 7/ 131.

(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 10/ 149.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 88.

إلقاءِ المَلامة، لكنَّ ذلك شأنُ الخاسِرينَ في عملٍ ما؛ إذ يُقدمونَ على التَّلاوُمِ لعظيمِ الخَسارةِ اللّاحقةِ بهم.

لُحوقُ النَّدمِ بالبُغاة واستجلابُ المَلامةِ للعُصاة

دلالةُ مَوقعِ جُملةِ ﴿يَتَلَٰوَمُونَ﴾:

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بالجملةِ الحاليَّةِ[1]، في قولِه تعالى: ﴿فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَلَٰوَمُونَ﴾؛ للدَّلالة على تقييدِ الإقبالِ المُسنَدِ إليهم بحالةِ التَّلاوُمِ وبيانِ هَيئةِ المُقبلينَ؛ لإفادةِ أنَّهم يُمارِسونَ اللَّومَ، وهم يتَّصفونَ بالإقبالِ والقُدوم، وفي ذلك تصويرٌ لحالةِ الأسفِ الشَّديد والشُّعورِ العَميق بالخُسران المُبين، وفيه تعريضٌ بحالِ كلِّ مَن لا يَرتدِعُ عنِ الإثم، ولا يتوقَّفُ عن الباطل؛ إذ مصيرُهُ إلقاءُ اللَّوم، ولاتَ ساعةَ مَندَم، وذكرَ النَّظمُ التَّلاوُمَ الصّادر منهم؛ لبيانِ أنَّهم لم يَمتلِكوا إلّا إيّاه، وذلك ناظرٌ لقولِه تعالى فيما قبلُ: ﴿وَغَدَوۡاْ عَلَىٰ حَرۡدٖ قَٰدِرِينَ﴾؛ إذ لم يَقدِروا إلّا على الغضبِ والحَنَق، وذلك الغضبُ خرجَ في صورةِ الإقبالِ على التَّلاوُمِ[2].

الجوابُ والبيان يُرشِدانِ لكَمالِ الخَيبةِ والعُدوان

سرُّ فصلِ جملةِ ﴿قَالُواْ﴾:

فصلَ النَّظمُ الكريمُ الجملةَ الواردةَ في قولِه تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ﴾ عمّا قبلَها؛ إمّا لكونِها مُبيِّنةً ما تلاوَموا به، مُنزَّلةً ممّا قبلَها منزلةَ البيانِ من المُبيَّن، أي: تلاوموا بالقول: ﴿يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾، وإمّا أنَّها مُستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا عمّا قبلَها؛ لكونِ مَضمونِ ما قبلَها يولِّدُ سُؤالًا ضمنيًّا مُفادُهُ: بماذا أجابَ بعضُهم بَعضًا عن إلقاءِ اللَّومِ والعِتاب؟ فقال: ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾، وسواءٌ كانت الجملةُ مبيِّنةً ماهيَّةَ ذلك التَّلاوُمِ وطبيعتَه، أم جوابًا عن ذلك التَّلاوُم، فإنَّ مَضمونَها دالٌّ على لومٍ عميقٍ وجوابٍ مُشيرٍ لفداحةِ تلك الخَيبة، وذلك الإحساسِ بالذَّنبِ والاعتداء، قال ابنُ عاشور: "فَجُملَةُ ﴿قَالُواْ

---

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 124.

(2) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 10/ 1534.

﴿يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾ يجوزُ أن تَكونَ مُبَيِّنَةً لِجُمْلَة ﴿يَتَلَٰوَمُونَ﴾، أي: يَلومُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِهَذا الكَلامِ، ولم تُعْطَف الجُمْلَةُ؛ لأَنَّها مُبَيِّنَةٌ، ويَجوزُ أَنْ تَكونَ جَوابَ بَعْضِهِم بَعْضًا عَنْ لَوْمِهِ غيرَهُ، فَكَما أَجْمَعوا عَلَى لَوْمِ بَعْضِهِم بَعْضًا، كَذَلِكَ أَجْمَعوا على إجابَةِ بَعْضِهِم بَعْضًا عَن ذَلِكَ المَلامِ، فَقالَ كُلُّ مَلومٍ لِلائِمِه: ﴿يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾؛ جَوابًا بِتَقْريرِ مَلامِهِ والاعْتِرافِ بِالذَّنْبِ"[1].

دلالةُ الإخبارِ بجُملةِ البيان: ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ﴾:

التَّعريضُ بالإخبار لِرَدْعِ الأشرار

بيَّنَ النَّظمُ الكريمُ طبيعةَ المَلامةِ بينَ أصحابِ الجنَّة بما أسندَهُ إليهم من قولٍ واعترافٍ في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾؛ ليكونَ البيانُ: "خَبَرًا مُستعمَلًا في التَّقْريعِ عَلَى طَريقَةِ التَّعْريضِ بِغَيرِهِ والإقْرارِ عَلَى نَفْسِهِ، مَعَ التَّحَسُّرِ والتَّنَدُّمِ بما أفادَهُ ﴿يَٰوَيۡلَنَآ﴾، وذَلِكَ كَلامٌ جامِعٌ لِلمَلامَةِ كُلِّها[2]، فكأنَّ النَّظمَ بهذا الإخبارِ عرَّفَ بـ(المَلامةِ) على أنَّها تقريعٌ للآخر، وإقرارٌ على النَّفسِ معَ تندُّمٍ وتحسُّرٍ.

دلالةُ إسنادِ فعلِ (القولِ) إلى ضميرِ الجَمعِ (الواو):

الشُّعورُ بالنَّدامة مُستغرِقٌ للجَماعة

أسندَ النَّظمُ الكريمُ فعلَ (القولِ) إلى ضميرِ الجمعِ (الواو)، في قولِهِ تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ﴾؛ للدَّلالة على صُدورِ اللَّومِ الدّالِّ على التَّقريعِ والشُّعورِ بالنَّدامةِ والحَسرةِ بالاتِّفاق إنْ كانت الجملةُ بيانيَّةً، أوْ للاتِّفاق على الجوابِ، كما اتَّفقوا على التَّلاوُمِ فيما بينَهُم، إنْ كانت الجملةُ استئنافًا بيانيًّا[3].

دلالةُ الاستعارةِ في نِداءِ (الوَيْلِ) في ﴿يَٰوَيۡلَنَآ﴾:

تنزيلُ الهَلاكِ مَنزلةَ العاقلِ تصويرٌ للبَلاءِ الكامِلِ

استعارَ النَّظمُ الكريم بنداءِ (الوَيل) في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ﴾؛ لأنَّ الويلَ والهَلاكَ والحُزنَ والثُّبورَ لا يُنادَى؛ لكونِه اسمَ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 87 - 88.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 88.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 88.

معنى لا اسمَ ذات، لكنَّ النَّظمَ الكريم شبَّهَ الويلَ والهلاك بذاتٍ يَصِحُّ نداؤُها، ثمَّ حذفَهُ، وأبقى من خواصِّه ولوازمِهِ (يا) النِّداءِ، والغرضُ منَ الاستعارةِ إضفاءُ العقلِ والاستجابة على هَلاكه وحُزنه؛ لكي يُقبلا، فيُغيثا، ويواسيا المُناديَ، كما أنَّ في نداءِ (الويل) وهلاكِ النَّفس وحُزنِها إشارةً إلى أنَّه لم يَبقَ مَن يُجيب نداءَ المُنادي إلّا الويلُ والحُزن والخسارةُ، قال القنّوجيُّ: "هذا وقتُ حُضورك إلينا ومُنادمتِكَ لنا، فإنَّه لا نديمَ لنا الآنَ غيرُك"[1]، ففيه كمالُ الفقرِ والاحتياجِ للمُعين، وذلك المعينُ لا يُقدِّمُ له إلّا الشُّعورَ بالخَسارة والحُزن والهَلاكِ، وقال الهرريُّ: "نادَوا على أنفسِهم بالوَيلِ والثُّبور: (يا هَلاكَنا أقبِلْ إلينا؛ لنتعجَّبَ منك)، أي: قالوا: أقبِلْ أيُّها الهلاكُ، فلا نَستحِقُّ غيرَك"[2].

دلالةُ الإضافةِ في ﴿يَٰوَيۡلَنَآ﴾:

إضافةُ الحُزنِ والهَلاكِ يُفيدُ عظيمَ البَلاءِ بالمُلاك

أضافَ النَّظمُ الكريمُ (الوَيل) إلى ضميرِ المُتكلِّمين، في قولِهِ تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ﴾؛ للدَّلالة على تعيينِ ذلك الويلِ المُنادَى بإضافتِهِ إلى أنفُسِهم، فهُم يُنادونَ ويْلًا مُتعلِّقًا بهم، مُنتسِبًا إليهم، وذلك الويلُ هو حُزنُهُم الكبير، وهلاكُهُم الخَطير، وفي النِّسبة إليهم بالإضافةِ إشارةٌ إلى تجرُّدِهم من كلِّ مُعينٍ يُنسَبُ إليهم إلّا وصفُ الويلِ بدلالاتِهِ على الخَسارة والهَلاك.

دلالةُ الكنايةِ في نِداءِ (الويل) في ﴿يَٰوَيۡلَنَآ﴾:

استعظامُ الذَّنب مفتاحٌ لكشفِ الكَرْب

كنَّى النَّظمُ القرآنيُّ بنداءِ (الوَيل) - وهو لا يَعقلُ - في قولِهِ تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ﴾ عن استعظامِ الجُرمِ الَّذي اقترفوهُ؛ إذ يَلزَمُ من النِّداءِ للهَلاك أنْ يُغيثَهُم، أوْ يُقبِلَ إليهم، أوْ يَتعجَّبوا مِن فَخامتِهِ أنَّهُم استعظَموا ذَنبَهُم، وخشوا منه أنْ يكونَ مُعرِّضًا لهم للتَّلَف، كما أُتلِفَتْ جنَّتُهُم.

---

(1) القنوجيّ، فتح الرّحمن: 14/ 268.

(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 98.

دلالةُ التَّوكيدِ بـ (إنَّ):

توكيدُ الإقرار لإظهارِ التَّوبةِ بالإشهار

أكَّدَ النَّظمُ الكريم الجملةَ الاسميَّةَ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾؛ للدَّلالة على تقريرِ حالِهم وتأكيدِ طَغواهُم وظُلمِهم لأنفسِهم، فهم وإنْ كانوا لا يَشكّونَ في ظُلمهم وطَغواهم، إلّا أنَّهم أكَّدوا ذلك لمزيدِ التَّقريرِ والاهتمام بما يُسندونَهُ لأنفسِهم في مقام الاعتراف وتأنيبِ الضَّمير، وتوكيدُ الإقرار بالذَّنب من أركانِ التَّوبةِ وأعمَدتِها الرَّئيسة، ويصحُّ أنْ يكون تعليلًا لجوابهِم بنداءِ (الويلِ) والهَلاك؛ إذ لا يُناديهِ إلّا الطُّغاةُ والمُتجاوزون على مَقام الأوامرِ والنَّواهي الإلَهيَّة، قال الهرريُّ: "بيَّنوا علَّةَ هذا الدُّعاء بقولِهم: ﴿إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾، أي: عاصينَ مُتجاوزينَ حُدودَ اللّٰه بمَنعِ الفُقراء وتركِ الاستثناء"[1]، وقدَّم النَّظمُ الكريمُ المُسندَ إليه (نا) على الجملةِ الفعليَّةِ الواقعةِ خبرًا؛ للدَّلالة على التَّوكيد والتَّقويةِ للحُكم على حدِّ (أنا فعلتُ كذا).

دلالةُ الإخبارِ بجملةِ الفعلِ النّاقص (كان):

تأصُّلُ الطُّغيان مُؤذِنٌ بالحِرمان

أخبرَ النَّظمُ الكريم بجملةِ الفعلِ النّاقص (كانَ) ماضيًا، في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾؛ للدَّلالة على الاتِّصافِ بالطُّغيان على سبيلِ الثُّبوت والتَّمكُّن والاستقرارِ والتَّحقُّق، ولذا لم يقُلِ النَّظمُ: (إنّا طاغونَ)؛ إذ لا يُفيدُ حينَئذٍ إلّا الاتِّصافَ بالطُّغيان، وأمّا تصديرُ ذلك بالفعلِ النّاقصِ الدّالِّ على الوجودِ والثُّبوت؛ فإنَّه يُفيدُ أنَّ الطُّغيانَ مُتحقِّقٌ فيهم، وموجودٌ ومُتأصِّلٌ داخلَهُم.

دلالةُ ﴿طَٰغِينَ﴾ مادَّةً وصيغةً ومَوقِعًا:

التَّجاوُزُ في الرَّغَبات يَقضي بوُقوعِ الاختلالات

جاء خبر (كانَ) بلفظِ ﴿طَٰغِينَ﴾، في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على الاتِّصاف بالطُّغيان في أزمنةِ الماضي على سبيلِ الثُّبوتِ والاستمرار؛ إذ اسمُ الفاعلِ في هذا المقامِ الدّالِّ على

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 98.

الاعترافِ بمجاوزةِ الحَدِّ دالٌّ على الاتِّصاف بالطُّغيانِ على سبيلِ الثَّبات على ذلك، وفي الإخبارِ عن الماضي بلفظِ (اسم الفاعل) الدّالِّ على الحاضِرِ في الحقيقةِ ما يفيدُ استحضارَ الماضي وحكايتَهُ، وكأنَّه يقعُ الآن، والطُّغيانُ يفيدُ مُجاوزةَ الحدِّ مُجاوزةً عميقةً، وأصلُهُ من طُغيانِ الماء ومُجاوزتِهِ حدًّا يُؤدّي إلى الإتلافِ والتَّخريبِ والاختلال، "أي: اعتَدَينا، وبَغَينا، وطَغَيْنا، وجاوَزْنا الحَدَّ حَتَّى أصابَنا ما أصابَنا"[1]، وكلُّ شيءٍ جاوزَ حدَّهُ أوقعَ في الإفراطِ والتَّخريب، فيكونُ ظُلمُهُم مُؤدّيًا إلى الإتلاف، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ ما حلَّ بجنَّتهم من تلفٍ واحتراقٍ ودمارٍ طغيانٌ في الاختلالِ؛ لأنَّهم تجاوَزوا في ظُلمهم، وطغَوا فيه، فحدثَ الاختلالُ في رغَباتهم ممّا أحدثَ الاختلالَ في حَرْثِهم، والتَّعبيرُ بـ(الطُّغيان) بعدَ التَّلاوُم في التَّفريطِ بحقوقِ الفُقراء يَرسُمُ صورةً من صوَرِ الطِّباق الخفيِّ، معناها: الإفراطُ في التَّفريطِ.

دلالةُ الفعلِ ﴿عَسَىٰ﴾ والغَرَضُ مِنهُ:

الجمعُ بينَ الخوفِ والرَّجاءِ لتحقيقِ التَّوبةِ الغرّاء

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بفعلِ التَّرجّي ﴿عَسَىٰ﴾، في قولِهِ تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبۡدِلَنَا﴾؛ للدَّلالة على إنشاءِ التَّرجّي وإيجادِهِ، فهو وإنْ كانَ فعلًا ماضيًا باعتبار وضْعِهِ، إلّا أنَّه بسببِ دلالتِهِ على الإنشاءِ صارَ حالًا بالنِّسبةِ لزمنِ الكلام، وبذلك جمَعوا بينَ الخوفِ المُتمثِّلِ بتسبيحِ اللّه والاعترافِ بالظُّلم والطُّغيان، وبينَ التَّرجّي من اللّه ذي المَنِّ والفضلِ والإحسان أن يُعوِّضَهم خيرًا عمّا خَسِروه من أموالٍ وخَيرات.

نُكْتَةُ فصلِ جملةِ الرَّجاء ﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ﴾:

التّائبُ إلى الله لا يَقنَطُ مِن رَحمةِ مَوْلاه

لمّا كانَ الفعلُ ﴿عَسَىٰ﴾ دالًّا على الإنشاءِ، في قولِهِ تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبۡدِلَنَا﴾، فصلَ النَّظمُ الكريمُ بينَ جُملتِهِ وما قبلَها؛ لتخالُفِهما

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 197.

خبرًا وإنشاءً، لفظًا ومعنًى، وإنْ كان التَّرجّي متَّصِلًا بما قبلَهُ من جهةِ كونِ التّائبِ لا يقنَطُ من رَحمة اللّه، وقَبولِهِ وتعويضِهِ خيرًا ممّا عاقبَهُ به، فهو استِئنافٌ لتحقيقِ مَعنى الرَّجاء بعدَ الاعتراف بوقوعِ الظُّلم والطُّغيان، قال ابن عاشور: "ثُمَّ استَأنَفوا عَن نَدامَتِهِم وتَوبَتِهِم رَجاءَهُم مِنَ اللّه أنْ يَتوبَ عَلَيْهِم، فَلا يُؤاخِذَهم بِذَنْبِهِم في الآخِرَةِ ولا في الدُّنيا، فَيَمْحو عِقابَهُ في الدُّنيا مَحْوًا كامِلًا، بِأن يُعَوِّضَهُم عَن جَنَّتِهِمُ الَّتي قُدِّرَ إتلافُها بِجَنَّةٍ أُخْرَى خيرٍ مِنها"[1].

عِلَّةُ التَّعبيرِ بلفظِ (الرَّبِّ):

الرُّبوبيَّةُ تُناسِبُ سياقَ المُترجّي للخيريَّة

عبَّر النَّظمُ الكريمُ بلفظِ (الرَّبِّ)، في قولِهِ تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ﴾ دونَ اسم الجَلالة؛ للدَّلالة على التَّوافُقِ بينَ لفظِ (الرَّبِّ) الدّالِّ على التَّربيةِ والتَّبليغِ للشَّيءِ من النُّقصانِ إلى الكمالِ شَيئًا فشيئًا، والسّيادةِ ومُطلَقِ التَّصرُّف في الأشياءِ، وبينَ مَطلوبِهم منَ التَّعويضِ بالخيرِ عمّا فقدوه، فيكونُ معناه أنسبَ بحالِهم المُترجّي من صاحبِ العَظَمة وكاملِ الرُّبوبيَّة، وأعادَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ (الرَّبِّ) بعدَ ذكرِهِ في مقامِ التَّنزيهِ والتَّخلية من قوله: ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ﴾؛ ليكونَ ذكرُهُ في مقامِ التَّحليةِ والتَّعويض، فيكون اعترافًا بالرَّبِّ الحقيقيِّ المُنزَّهِ عن سِماتِ النَّقص، والواهبِ للعَطايا والخَيرات معًا.

دلالةُ الإضافةِ في ﴿رَبُّنَآ﴾:

دلالةُ الافتقار أدعى لتحقيقِ المُرَجَّى المُختار

أضافَ النَّظمُ الكريم لفظَ (الرَّبِّ) إلى ضميرِ المتكلِّمينَ، في قولِهِ تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبۡدِلَنَا﴾؛ للدَّلالةِ على التَّخصيصِ والتَّعيينِ للرَّبِّ الحقيقيِّ المُتميِّزِ عن الأربابِ الباطلة؛ إذ في مقامِ الاعترافِ والنَّدامة والتَّوبةِ والتَّحسُّر يَلجأُ العبدُ إلى الرَّبِّ الحقيقيِّ الكاملِ التَّصرُّف، فتكونُ الإضافةُ للتَّخصيصِ والتَّعيينِ للرَّبِّ الحقيقيِّ عمّا عداهُ، كما يكتسبُ المضافُ إليه من المضافِ شُعورًا بالعبوديَّة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 88.

والافتقار، وذلك أدعى لتحقيقِ المُترجَّى منه، ولفظُ (الرَّبِّ) مُعلِّلٌ للتَّرجّي منه، ففيهِ تعليقُ رَجاءِ الإبدالِ بالخيرِ من الجنَّة بكونِهِ ربًّا.

مَعنى ﴿أَن﴾ والغرَضُ مِنها:

التَّرجّي في المُستقبَل لتحقيقِ المُتأمَّل

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بلفظ ﴿أَن﴾ في قولِه تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا﴾؛ للدَّلالة على الاستقبالِ المَطموعِ في تحقُّقِه المترجَّى حصولُهُ، وهي حرفٌ مصدريٌّ تؤوَّلُ هي وما بعدَها بمصدرٍ خبرٍ لاسم ﴿عَسَىٰ﴾، تقديرُه: (إبدالَنا)، وإنَّما عبَّر بالمؤوَّل دونَ الصَّريح؛ للدَّلالةِ على أنَّ الإبدال المطلوبَ تحقُّقُه واقعٌ على سبيلِ التَّحقُّق؛ لما في لفظِ الفعلِ الذي تدخلُ عليه ﴿أَن﴾ من دلالةٍ على الحدَثِ دلالةً فعليَّةً، بخلافِ دلالةِ المصدرِ عليه؛ لوجودِ عُنصُرِ الزَّمن.

دلالةُ الفعلِ المُضارع ﴿يُبْدِلَنَا﴾ مادَّةً وصيغةً:

الكَرَمُ الإلهيُّ لا يُحَدُّ، والنِّعمةُ منهُ لا تُعَدُّ

عبَّرَ النَّظم الكريم بالفعلِ المُضارع (يُبدِلُ)، في قولِهِ تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا﴾؛ للدَّلالة على حدوثِ الإبدالِ على سبيلِ التَّجدُّد والتَّكرُّرِ في المستقبل؛ إذ ما مِن إبدالٍ بنعمةٍ إلّا وهنالك إبدالٌ أعَلى منهُ كرامةً وحبورًا، والفعلُ المضارع مزيدٌ بالهمزةِ؛ للدَّلالة على المبالغةِ في تغييرِ الأحوالِ والذَّوات، والتَّعويضِ بأفضلَ من المَأخوذ، ويدلُّ الفعل (يُبدِلُ) على أنَّ الحالَ التي لابَسوها من الحِرمان والخَسارة للأموالِ تُؤخَذُ بالإزالةِ لها، والتَّعويضِ بالرِّبح والنِّعمة في موسِمٍ آخرَ.

تنوُّعُ القراءاتِ في ﴿يُبْدِلَنَا﴾:

الإبدالُ رفعٌ بالجُملة، والتَّبديلُ تغييرٌ بالذّاتِ أوِ الصِّفة

قُرِئَ فعلُ الإبدالِ من قولِهِ تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ﴾ بزيادةِ الهَمزة على الثُّلاثيِّ المجرَّدِ مِنَ (الإبدال)، أَوْ بالتَّضعيف ﴿يُبَدِّلَنَا﴾ مِنَ التَّبديل، "فقد قرأ الجمهور بالتَّخفيف: ﴿يُبْدِلَنَا﴾، وقرأ نافعٌ وأبو عَمرٍو بالتَّشديد: ﴿يُبَدِّلَنَا﴾[1]، وهُما لُغتانِ"[2]، والفرقُ

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 314.

(2) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 10/ 18، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 351.

بينَهُما على ما قالَهُ الهرريُّ أنَّ: "الإبدالَ: رفعُ الشَّيءِ جُملةً، ووضعُ آخرَ مَكانَهُ، والتَّبديلَ: تغييرُ ذاتِ الشَّيءِ أو تغييرُ صِفتِهِ"[1]، وقال ابنُ الجوزي: "التَّبديلُ: تغييرُ حالِ الشَّيءِ وصفتُهُ والعَينُ باقيةٌ، والإبدالُ: إزالةُ الشَّيءِ ووضعُ غيرِهِ مَكانَهُ"[2]، والَّذي يتبيَّنُ لنا أنَّ التَّبديلَ والإبدالَ يُستعملانِ في التَّغييرِ الذّاتيِّ والوصفيِّ والإزالةِ، لكنَّ التَّبديلَ على وجهِ السُّرعةِ، والإبدالُ قد يتأخَّرُ.

دلالةُ حذفِ المُضاف لضميرِ المتكلِّم في ﴿يُبۡدِلَنَا﴾:

مِن شدَّةِ الشَّرِّ العاتي تعلَّقَ الإبدالُ بالذّواتِ

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بضميرِ المتكلِّم ومعَهُ غيرُهُ، في قولِهِ تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبۡدِلَنَا خَيۡرٗا﴾؛ للدَّلالة على الحالِ السَّيِّئ والحِرمان المتلبِّسِ بهم أو الجنَّةِ المُحترقة؛ إذِ الإبدالُ لا يكونُ لذواتهم بالخيرِ، وإنَّما يتعلَّقُ بإبدالِ حالِهِم بحالٍ خيرٍ منها، أو جنَّتِهم المُحترقة بجنَّةٍ أُخرى، فيكونُ هنالك مضافٌ محذوفٌ دلَّ عليه المُبدَلُ به، وإنَّما حذفَ حالَ الشَّرِّ وحالَ الجنَّة مُبالغةً بقيامِ الشَّرِّ بهم وبها، وكأنَّهم مُحتاجونَ إلى إبدالٍ لذَواتِهم.

دلالةُ ﴿خَيۡرٗا﴾ تنكيرًا وصيغةً:

الاتِّصافُ بالخيريَّة دليلُ قَبولِ التَّوبةِ النَّقيَّة

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بلفظِ (الخير) نكرةً، في قولِهِ تعالى: ﴿أَن يُبۡدِلَنَا خَيۡرٗا مِّنۡهَآ﴾؛ للدَّلالة على التَّعظيم والتَّفخيم لذلك الخيرِ المُرتجَى حصولُهُ، والمطموعُ نيلُهُ، وقد وقعَ ﴿خَيۡرٗا﴾ مفعولًا به ثانيًا؛ ليكونَ بديلًا عن جنَّتِهم الَّتي خَسِروها، فالخيريَّة إمّا بتبديلِ حالِها بحالٍ خيرٍ منها، أوْ بتبديلِ ذاتِها بذاتِ جنَّةٍ أُخرى، وعلى كلٍّ فإنَّ ﴿خَيۡرٗا﴾ اسمُ تفضيل، لتفضيلِ الجنَّةِ البديلةِ على الجنَّة قبلَ الاحتراق، لا بعدَ الاحتراق، وإلّا لزِمَ تحقُّقُ خيريَّةٍ فيها، واختارَ النَّظم لفظَ (الخيريَّة)؛ للدَّلالة على معنًى جامعٍ لصوَرِ الخيرِ

---

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 98.

(2) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 4/ 324.

ومَصاديقِهِ العَديدة؛ إذ كلُّ مالٍ وربحٍ وأثمارٍ، بل وجنَّةٍ في الآخرةِ يصدقُ عليها أنَّها خيرٌ.

دلالةُ تعلُّقِ الجارِّ والمَجرور ﴿مِّنۡهَآ﴾:

استمرارُ الخيريَّةِ إلى صورٍ لا نهائيَّة

علَّقَ النَّظمُ الكريم الجارَّ والمجرورَ من قولِهِ تعالى: ﴿أَن يُبۡدِلَنَا خَيۡرٗا مِّنۡهَآ﴾ بلفظِ ﴿خَيۡرٗا﴾؛ لبيانِ المفضَّلِ عليه، وهي جنَّتُهم قبلَ الاحتراق، وفائدةُ التَّعبير بـ(مِن) الدَّلالةُ على أنَّ الخيريَّةَ تبدأُ من جنَّتِهم ولا تَنتهي إلى حدٍّ في الخيريَّة.

سرُّ فصلِ جُملةِ: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا﴾:

التَّرجّي المُعلَّل بالرَّغَبِ إلى العَطاءِ المُدَّلِّ

فصلَ النَّظمُ الكريم الجملةَ الاسميَّة في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّعليلِ لحُكمِ ما قبلَها؛ إذ ترجّي تبديلِ الجنَّةِ بجنَّةٍ أفضلَ منها مُعلَّلٌ بكونِهم راغبينَ إلى عطاءِ اللهِ ومِنَّتِهِ وفضلِهِ؛ فالجملةُ الثّانية استئنافٌ تعليليٌّ مُسبَّبٌ عمّا قبلَها، في حين رأى ابنُ عاشورٍ أنَّ: "جُمْلَةَ ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ بَدَلٌ من جُمْلَةِ الرَّجاءِ، أي: هو رَجاءٌ مُشتَمِلٌ على رَغبةٍ إليهِ بِالقَبولِ والاستِجابَة"[1].

دلالةُ التَّوكيدِ بـ(إنَّ):

توبة المفتقرين بالتَّذلُّل لعطاء ربِّ العالَمين

أكَّدَ النَّظمُ الكريم الجملةَ الاسميَّةَ بـ(إنَّ)، في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾؛ للدَّلالة على الاهتمامِ بالحُكم المُتضمِّنِ رغبتَهُم بعطاءِ اللهِ تعالى، وتحقيقِ صحَّةِ توبتِهم بإعلانِ افتقارِهم إلى عطاءِ اللهِ، بعدَ أنْ تجاسَروا، وبَخِلوا بالعطاءِ للفقراءِ، وظنّوا أنَّ ذلك عطاؤُهم، مع أنَّ صاحبَ المالِ مُسخَّرٌ في منحِ الفُقراءِ حصَّتَهم مِن عطاءِ اللهِ تعالى لَهُ.

معنى حرفِ الجرِّ ﴿إِلَىٰ﴾، والغرضُ منه:

انحصارُ النِّهاية بما لا يُحَدُّ بِغاية

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بحرفِ الجرِّ ﴿إِلَىٰ﴾، في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾؛ للدَّلالة على الانتهاءِ والغاية، فتكونُ غايةُ رَغبتِهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 88.

مُنتهيةً باللّه تعالى، وفي النَّظم طباقٌ بينَ (مِن) و(إلى) في قوله: ﴿خَيۡرٗا مِّنۡهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا﴾؛ إذ تبدأُ رغبةُ الخيرِ من جنَّتهم؛ لتنتهيَ بعطائِهِ الواسِعِ العَميم؛ لتمتدَّ الخيريَّةُ إلى ما لا نهايةَ له؛ إذ كرمُه لا ينحصِرُ، ولا يحدُّ، ولا يُعَدُّ.

دلالةُ الإضافةِ في ﴿رَبِّنَا﴾:

تعليلُ الرَّجاءِ والرَّغبةِ بالرَّبِّ ذي السِّيادةِ والنِّعمَة

أضافَ النَّظمُ الكريم لفظَ (الرَّبِّ) إلى ضميرِ المتكلِّمين مرَّةً ثالثةً، في قولِه تعالى: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾؛ لمُناسبتِه لمقام الرَّغبة بالعَطاء؛ إذِ الرَّبُّ هو الَّذي يتولَّى التَّربيةَ والإحسانَ لعبادِه، والعطاءُ من خصائصِ التَّربيةِ والتَّكميلِ للنُّقصان وسدِّ الحاجةِ، وليَكتسبَ المضافُ إليهِ منَ المضافِ تشريفًا وتكريمًا، وليكون تكرارُ الرَّبِّ بعدَ الرَّجاءِ منه والرَّغبةِ إليه؛ توكيدًا لحالةِ الاحتياجِ وتَعليلًا؛ إذ كلٌّ من العِلَّة والمعلول مُستندانِ إلى الرَّبِّ تعالى، فيكونُ من تعليقِ الحُكم بالمشتقِّ؛ للدَّلالةِ على عِلِّيَّةِ مَبدأِ الاشتقاقِ.

نُكتَةُ تقديمِ المتعلِّق ﴿إِلَىٰ رَبِّنَا﴾:

انحصارُ العَطاء بكرَمِ ربِّ الأرضِ والسَّماء

قدَّمَ النَّظمُ الكريمُ الجارَّ والمجرورَ المُتعلِّقَ بالخبرِ ﴿رَٰغِبُونَ﴾، في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾؛ للدَّلالة على الحصرِ الحقيقيِّ لصفةِ الرَّغبة في المَوصوف، بمعنى أنَّ الرَّغبةَ منحصرةٌ باللّه تعالى لا بأحدٍ ممّا سواه، قال البقاعيُّ: "أي: المُحسِنُ إلينا والمُربّي لنا بالإيجادِ ثمَّ الإبقاءِ خاصَّةً، لا إلى غيرِهِ سُبحانه"[1]، ومعنى انتهاءِ الرَّغبة باللّه وانحصارِها فيه في مقام تَرجّي الإبدالِ الرَّغبةُ في العطاء والفضلِ الإلهيِّ؛ إذ أظهَروا حاجتَهم إلى عطاءِ اللّه تعالى وفضلِه دونَ عطاءِ غيره، فهو المُتفضِّلُ والمُعطي على سبيلِ الحقيقة، قال الماتريديُّ: إنّا "إلى ما عندَ ربِّنا منَ العَطايا والمِنَنِ لراغِبونَ"[2].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 315.
(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 10/ 149.

دلالةُ الخبرِ ﴿رَٰغِبُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

لله تعالى المَيلُ الأكيدُ والحُبُّ الشَّديد

أخبرَ النَّظمُ الكريمُ عنِ اسمِ (إنَّ)، بقولِه تعالى: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾؛ للدَّلالة على الميلِ الأكيدِ والسَّيرِ الحثيث إلى جنابِ اللّٰه وعطائِهِ دونَ ما سِواه، وفي الرَّغبة محبَّةٌ واشتياقٌ بعدَ هِجران مِنهم وقطيعةٍ، فتكونُ المحبَّةُ أكيدةً، ويكونُ الشَّوقُ أعمقَ، ودلَّتْ صيغةُ الفاعلِ على الاتِّصاف بالرَّغبة اتِّصافًا ثابتًا ودائِمًا.

دلالةُ التَّضمينِ في ﴿رَٰغِبُونَ﴾، أوِ الكنايةِ في جُملتها:

السَّيرُ لكرَمِ المَحبوب بالشَّوقِ المَرغوب

ضمَّنَ النَّظمُ الكريم لفظَ ﴿رَٰغِبُونَ﴾ معنى السَّيرِ الممتزج بالحُبِّ والشَّوق، في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾؛ إذِ الفعلُ (رَغِبَ) يتعدَّى بنفسه وبالحرفينِ (في وعن)، وأمّا تعديتُهُ بـ(إلى)؛ فيكون بتضمينِهِ معنى السَّيرِ إلى المحبوبِ بالشَّوقِ المَرغوب، فكأنَّه قال: إنا سائرونَ ومائلونَ بحُبٍّ وشوقٍ لعطاءِ ربِّنا وجنابِهِ الكريم، وقالَ البيضاويُّ جامِعًا بينَ الكنايةِ أوَّلًا والتَّضمينِ ثانيًا: "راجونَ العفوَ، طالِبونَ الخيرَ، و(إلى) لانتهاءِ الرَّغبة، أوْ لتضمُّنِها معنى (الرُّجوع)"[1]، فيجوز أن تكون الجملة: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ كنايةً عن رجاءِ العَفو وطَلَبِ الخير، "وهذا معنى الرَّغبةِ إلَى اللّٰه تعالى، لا سيَّما إذا كانت الرَّغبةُ نُسِبتْ إليه تعالى بلا تعيينِ المَرغوبِ فيه"[2]، فلو عُيِّنَ المرغوبُ فيه بتقديرِ المُضاف كـ(العطاءِ)، فإنَّ الرَّغبة تكونُ حقيقيَّةً، وأمّا عندَ عدم تقديرِ المُضاف المَحذوف، فإنَّ الرَّغبةَ إلى اللّٰه تكونُ كنايةً عمّا ذُكِرَ، والحاصلُ: أنَّ (الرَّغبة) إمّا أنْ تتضمَّنَ معنى الرُّجوع، أو أنْ تبقَى بلا تضمينٍ؛ فإنْ قُدِّرَ مضافٌ في ﴿إِلَىٰ رَبِّنَا﴾، أي: عطائِهِ، فلا كنايةَ، وإنْ لم يُقدَّر؛ فالكنايةُ حاصلةٌ.

---

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 236.

(2) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 239.

دلالةُ الانتقالِ عندَ الاعتِراف:

الخَوفُ والرَّجاء وسيلتانِ للتَّوبةِ مـنَ الـذُّنـوبِ العَوجاء

تنقَّلَ النَّظمُ القرآنيُّ في حكايةِ اعترافهم أوَّلًا بالظُّلم والطُّغيان، وإنابتِهم ورُجوعِهم ثانيًا إلى ساحةِ الرَّحمةِ والرِّضوان، في قولِه تعالى أوَّلًا: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾، وقولِه ثانيًا: ﴿إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾، وقولِه ثالثًا: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾؛ إذ بدأ بالاعترافِ بالظُّلم مُطلقًا، وهو يتعلَّقُ بجانبِ تركِ الأوامرِ الإلهيَّة مطلقًا، ثمَّ قدَّموا اعترافًا بالمُجاوزة والتَّعدّي، فكانوا طُغاةً ومُستكبرين ومُتجاوزينَ كلَّ الحدود، ثمَّ أنهَوا ذلك بالرُّجوع والميلِ والرَّغبة بما عند اللّٰه قولًا وعملًا، وهذا ما ينبغي أن يكون عليه حالُ التّائب، فيَجْمعُ بين الخوفِ مِن ظُلمه وطُغيانه، وبينَ رجائِه بقَبولِ توبتِه وإنابتِه.

دلالةُ (الإطنابِ) في عرضِ القصَّة:

الـتَّـعـريـض بإكمالِ القصَّةِ للتَّحضيض

أطنبَ النَّظمُ الكريم في حكايةِ المثلِ بأصحابِ الجنَّة، فذكرَ بعدَ نزولِ العذابِ بهم نتيجةَ إعراضِهم عن الحقِّ - وهي غايةُ التَّمثيل- حِوارَهُم واعترافَهُم وتوبتَهُم ورَجاءَهُم في قولِه تعالى: ﴿قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ﴾ ... ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾؛ للدَّلالة على التَّحريضِ والوَعْظِ لأهلِ مكَّة، بأنَّهم إن تابوا، وأصلَحوا؛ فإنَّ اللّٰه تعالى يرفَعُ عنهم البلاءَ، ويَقيهم من السَّيّئات، ويَمنحُهم البُلدان والخيرات، قال ابن عاشور: "والمَقصودُ مِنَ الإطنابِ في قَولِهم بَعدَ حُلولِ العَذابِ بِهِمْ تَلْقينُ الَّذينَ ضُرِبَ لَهُم هذا المَثَلُ، بِأنَّ في مُكْنَتِهِمُ الإنابَةَ إلَى اللّٰه بِنَبْذِ الكُفرانِ لِنِعْمَتِه؛ إذْ أشْرَكوا بِهِ مَنْ لا إنْعامَ لَهُمْ عَلَيهِ"[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الحَرامُ والمنعُ والرَّدُّ:

الأسـبـقـيَّـة واللّاحقيَّة

الحرامُ: هو المنعُ مِنَ الأصلِ وقبلَ أنْ يوجَدَ، ويبدوَ، فمعنى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 88.

(حُرمةِ الرِّبا) ممنوعيَّةُ ظهورِهِ ووُجودِهِ، والمحرومُ مَن كانَ من الأصلِ مَمنوعًا لم يَصِلْ إلى الخير.

وأمّا المنعُ؛ فهو ناظرٌ إلى ما بعدَ الظُّهورِ والوُجود، يقال: مُنِعَ عن مَشيِهِ أو تحصيلِهِ أو كلامِهِ؛ إذا وُجِدَ المُقتضي لها، وإنْ لم تكُن مُتحقَّقةً.

وأمّا الرَّدُّ؛ فهو المنعُ بعدَ الجَرَيان والعمَل[1].

ولذا عبَّرَ النَّظمُ بلفظِ ﴿مَحۡرُومُونَ﴾ دونَ (مَمنوعونَ أوْ مَردودونَ)؛ للدَّلالة على المَنع مِن أوَّلِ الأمر، فلم يَصِلْ لهُم الخيرُ منذُ البداية، وذلك أعلى في عدمِ التَّمتُّعِ بالخيراتِ والحِرمان الأعظمِ الَّذي أصابَهُم.

الذَّمُّ واللَّوم والعَتَب:

اللَّومُ بينَ العتاب والتوبيخ، وأعمُّ مُطلقًا منَ الذَّمِّ

الفرقُ بينَ (الذَّمِّ واللَّوْم): أنَّ اللَّومَ هو تنبيهُ الفاعلِ على مَوقِعِ الضَّررِ في فعلِهِ وتهجينِ طريقتِهِ فيه، وقد يكونُ اللَّوم على الفعلِ الحسَن، كاللَّوم على السَّخاء، والذَّمُّ لا يكونُ إلّا على القبيح، واللَّومُ أيضًا يواجَهُ به المَلوم، والذَّمُّ قد يواجَهُ بِهِ المذمومُ، ويكونُ دونَه، تقول: حَمَدتُ هذا الطَّعامَ، أوْ ذممتُهُ.

والفرقُ بينَ (العِتاب واللَّوم): أنَّ العتابَ هو الخطابُ على تضييعِ حقوقِ المَودَّة والصَّداقة في الإخلالِ بالزّيارة وتركِ المَعونةِ وما يُشاكِلُ ذلك، ولا يكونُ العتابُ إلّا ممَّن له مَواتٍ يَمُتُّ بها، فهو مفارقٌ للَّوم مُفارقةً بيِّنةً[2]، وفرَّقَ ابنُ عاشور بينَ (اللَّوْم) من جهةٍ، و(العتابِ والتَّوبيخ) من جهةٍ أُخرى، بأنَّ اللَّومَ حالةٌ مُتوسِّطةٌ، فلا يرقَى إلى التَّوبيخ، ولا يَنزِلُ إلى العِتاب[3]، ولذا عبَّر النَّظمُ في الآيةِ بالتَّلاوم في قولِه: ﴿فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَلَٰوَمُونَ﴾، دونَ (يَتذامّونَ أوْ

(1) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 2/ 189.
(2) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 10/ 244.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 88.

يُعاتِبونَ أوْ يوبِّخون)؛ لأنَّ الَّذي وقعَ منهم تنبيهٌ على موقعِ الضَّرر الَّذي أدّى إلى الحِرمان، وكانَ بالمواجهةِ، ولم يصل إلى التَّوبيخ، ولم يَهبِطْ إلى العتاب.

الرَّغبةُ والميلُ والشَّوق:

المَيلُ ثمَّ الرَّغبةُ ثمَّ الشَّوق

(الرَّغبةُ): المَيلُ الأكيدُ، و(الشَّوقُ): هو الرَّغبةُ الأكيدة، و(المَيلُ) مُجرَّد رغبةٍ من دونِ وكادةٍ، فظهر أنَّ (الميلَ والرَّغبة والشَّوق) تختلفُ من جهةِ الشِّدَّةِ والضَّعف، ويجمعُها التَّمايُلُ، وهو عامٌّ في المكروهِ والمَمدوح، وفيما يُرى، وما لا يُرى[1]، وعبَّر النَّظمُ في قوله: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾، بالرَّغبة دونَ المَيل والشَّوق؛ لأنَّهم أرادوا ميلًا أقوى من دونِ دلالةِ الشَّوق؛ لأنَّ الرَّغبة هنا في العوَضِ والبدَل عن تلك الجنَّة.

البَدلُ والعِوَضُ:

العوضُ أخصُّ مُطلقًا من البَدَل

قال العسكريُّ: "الفرقُ بينَ العِوَض والبدَل: أنَّ العِوَضَ ما تعقَّبَ بِهِ الشَّيءُ على جهةِ المُثامَنة، تقولُ: هذا الدِّرهمُ عوضٌ من خاتمِك، والبدلُ ما يقامُ مُقامَهُ، ويوقَعُ مَوقِعَهُ على جهةِ التَّعاقُبِ دونَ المُثامَنة، يقالُ: إنَّه بدَّلَ نعمتَهُ كُفرًا؛ لأنَّه أقامَ الكُفر مقامَ الشُّكر، ويجوز أن يُقال: العِوَض هوَ البَدَل الَّذي ينْتَفع بِهِ، وإذا لم يَجْعَل على الوَجْه الَّذي ينْتَفع بِهِ؛ لم يسمَّ عِوَضًا، والبَدَل هوَ الشَّيء المَوْضوع مَكان غَيره؛ لينْتَفع بِهِ أوْ لا"[2].

(1) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 4/ 160.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 238.

﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡعَذَابُۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٣٣﴾

[القلم: 33]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

مَغزى القِصَّة والمثَل بالاتِّعاظ وأخذِ العِبَر

لمّا ذكرَ اللّهُ تعالى عذابَ أصحابِ الجنَّة، وما أصابَهم من حِرمانٍ في الدُّنيا وتلفٍ في الأموالِ والحَرْث بعدَ صُدورِ المعصيةِ منهم؛ ناسَبَ أنْ ينتقِلَ بالحديثِ إلى المُخاطَبين بالقرآنِ الكريم من أهلِ مكَّةَ ومَن جاءَ بعدَهم، واتَّصف بصِفاتهم، وتحلَّى بالجُحود والاستكبارِ والغُرور؛ منبِّهًا على شدَّةِ العذاب، ومُذكِّرًا بالعذابِ الأكبرِ بعدَ البَعثِ والنُّشور؛ وذلك هو المَغزى من ضَرب الأمثال، لمَن ينتفِعُ بالمَواعظ وسَدادِ الأقوال، في حين أرجعَ الرّازيُّ المناسبةَ لأحدِ احتمالين، فقال: "إنَّهُ تعالى قالَ: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٖ وَبَنِينَ ١٤ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، والمعنى: لِأَجْلِ أن أعْطاهُ المالَ والبَنينَ كَفَرَ باللّه، كَلّا، بَلِ اللّه تَعالَى إنَّما أعْطاهُ ذَلِكَ لِلابتِلاءِ، فَإذا صَرَفَهُ إلَى الكُفْرِ؛ دَمَّرَ اللّه عَلَيه، بِدَليلِ أنَّ أصحابَ الجَنَّةِ لَمّا أتَوا بِهَذا القَدْرِ اليَسيرِ مِنَ المَعْصيَةِ دَمَّرَ اللّه عَلَى جَنَّتِهم؛ فَكَيْفَ يَكونُ الحالُ في حَقِّ مَن عانَدَ الرَّسولَ، وأصَرَّ عَلَى الكُفْرِ والمَعْصيَةِ؟ والثّاني: أنَّ أصْحابَ الجَنَّةِ خَرَجوا؛ لِيَنتفِعوا بِالجَنَّةِ ويَمْنَعوا الفُقَراءَ عَنها، فَقَلَبَ اللّه عَلَيهِمُ القَضيَّةَ، فَكَذا أهْلُ مَكَّةَ لَمّا خَرَجوا إلَى بدرٍ؛ حَلَفوا على أن يَقْتُلوا مُحَمَّدًا وأصحابَهُ، وإذا رَجعوا إلى مَكَّةَ؛ طافوا بِالكَعْبَةِ، وشَرِبوا الخُمورَ، فَأخْلَفَ اللّه ظَنَّهُم، فَقُتِلوا، وأُسِروا كَأهْلِ هَذِهِ الجَنَّةِ"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡعَذَابُۖ﴾: عذُبَ الماءُ عُذوبةً: ساغَ مَشرَبُهُ، فهو عَذْبٌ،

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 610.

واستعذبْتُهُ رأيتُهُ عَذْبًا، وعذَّبتُهُ تعذيبًا: عاقبْتُهُ، والاسمُ العَذاب، وأصلُهُ: الضَّربُ، ثمَّ استُعمِلَ في كلِّ عُقوبةٍ مُؤلِمةٍ، واستُعيرَ للأمورِ الشّاقَّة[1]، والعذابُ: هو الإيجاعُ الشَّديد، وقد عذَّبَهُ تعذيبًا، أكثرَ حبسَهُ في العَذاب، واختُلِفَ في أصلِه، فقيلَ: هو مِن قولِهم: عذَبَ الرَّجلُ؛ إذا تركَ المأكَلَ والنَّوم، فالتَّعذيبُ في الأصل هو حملُ الإنسانِ أنْ يُعَذَّب، أي: يجوع، ويَسهَر، وقيلَ: أصلُهُ من العَذْبِ، فعذَّبتُهُ، أي: أزلتُ عَذْبَ حياتِهِ[2]، فهو في الأصلِ ما يُلائمُ الطَّبع، ويَقتضيهِ الحالُ، كما في الماءِ العَذْب، ومن البابِ العذابُ، والألفُ يدلُّ على الامتدادِ، ويُستعمَلُ في المكروهِ والعُقوبةِ الَّتي يَقتضيها حالُ الرَّجل[3]، والمرادُ بالأوَّل في الآيةِ ﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡعَذَابُۖ﴾: العذابُ الدُّنيويُّ بكلِّ ما يُؤلِمُ من فُقدانٍ وحرمانٍ وجوعٍ وجَدْبٍ ومرَضٍ، وبالثّاني ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾: العذابُ الأُخرويُّ، وهي جهنَّمُ.

المَعنى الإجْماليُّ:

التَّـخـويـفُ بالعَذابينِ للفَوْزِ بالجنَّتين

أي: مثلُ ذلك العذابِ الَّذي بَلَونا به أهلَ مكَّة من الجَدْبِ الشَّديد، ومثلُ ما قصَّهُ اللهُ علينا ممّا أصابَ أهلَ هذه الجنَّة عذابُ الدُّنيا، والكلامُ واردٌ لتحذيرِ أهلِ مكَّة، في أنَّ تمرُّدَهم هو بسببِ ما أوتوه من المالِ والبنينَ، وعقَّبَ بأنَّهم إذا لم يَشكُروا المُنعِمَ عليهم؛ يؤولُ حالُهم إلى حالِ أصحابِ الجنَّة؛ فإنَّ إنكارَ الحقِّ أَوْلى بأن يُفْضيَ بأهلِ مكَّة إلى البَوارِ والخُسرانِ والعِقاب، ثمَّ ذكرَ عذابَهُم في الآخرة بأنَّه أعظمُ وأشدُّ وأشقُّ، وهو تحذيرٌ من العنادِ، ولو كانوا من أهلِ العِلْم؛ لعَلِموا أنَّه أكبرُ، ولأخذوا منهُ حِذْرَهُم.

(1) الفيوميّ، المصباح المنير: (عذب).
(2) الرّاغب، المفردات: (عذب).
(3) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 8/ 70.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الفصلِ في ﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡعَذَابُۖ﴾:

التَّهديدُ للمُشركين مَقصودٌ أساسيٌّ للنَّظمِ المُبين

استأنفَ النَّظمُ الكريم الجملةَ، من قولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡعَذَابُۖ﴾؛ للدَّلالةِ على تهديد المُشركينَ عندَ نهايةِ القصَّة والمثالِ المَسوقِ لقوم ابتُلوا بالنِّعمة، فاستكبروا، فحاقَ بهم العذابُ، ثمَّ تابوا، فتابَ اللّهُ عليهم، وحالُكم كحالِهم عندَ اللّه تعالى، فقدِ ابتُليتم بالأموالِ والبنينَ، فصَرَفتُموها إلى التَّكذيبِ غُرورًا بها واستكبارًا على اللّهِ تعالى، فإنَّ العذابَ يحيقُ بكم عاجلًا أم آجلًا، كما حاقَ بأولئكم، لكنَّهم تابوا، وأصلحوا، فهل أنتم تائبونَ مُصلِحون مثلَهم؟ قال ابن عاشور: "رُجوعٌ إلَى تَهديدِ المُشْرِكينَ المَبْدوءِ مِن قَوْلِه: ﴿إِنَّا بَلَوۡنَٰهُمۡ﴾، فالكَلامُ فَذْلَكَةٌ وخُلاصَةٌ لِما قَبْلَهُ، وهوَ استِئْنافٌ ابتدائيٌّ"[(1)]، وظهرَ جليًّا أنَّ المقصود من القصَّةِ التَّرهيبُ أوَّلًا، والتَّرغيبُ بالتَّوبةِ ثانيًا، وأنَّ المقصودَ من هذه الخُلاصةِ مجرَّدُ التَّرهيبِ والتَّهديد.

مَعنى (الكافِ) والغرضُ منها في ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

سَرَيانُ العَذابِ المُؤلِمِ بكلِّ هُدوءٍ وانسياب

استعملَ النَّظمُ الكريمُ حرفَ الجرِّ (الكاف)، في قولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡعَذَابُۖ﴾؛ للدَّلالة على التَّشبيهِ للعذابِ بمدلولِ المُشارِ إليه، وهو العذابُ أيضًا، أو جزئيٌّ من جزئيّاته، قال الحنبليُّ: "أي: مثل عذابِ أولئك ﴿ٱلۡعَذَابُۖ﴾ الَّذي نُعذِّبُ به أهلَ مكَّةَ بالقتلِ والأسرِ والهزيمةِ في الدُّنيا؛ لشِركِهم وكُفرِهم"[(2)]، بناءً على أنَّ مَرجعَ اسم الإشارة عذابُ أصحابِ الجنَّة، والمقصودُ بـ﴿ٱلۡعَذَابُۖ﴾ المشبَّه عذابُ أهلِ مكَّة، فوقعَتْ مغايرةٌ بينَ المشبَّه والمشبَّه به، فليس هذا من تشبيه الشَّيءِ بنفسِه المقصودِ به الكنايةُ عن عدمِ وجودِ مشبَّهٍ به يُشبَّهُ به إلّا نفسُهُ، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا﴾

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 89.
(2) الحنبليّ، فتح الرّحمن: 7/ 132.

[البقرة: 143]، بل المرادُ تشبيهُ حقيقةِ العذابِ على أنَّ (أل) للجنسِ، أو حصَّةٍ من العذابِ على أنَّها عهدٌ ذهنيٌّ، أوِ العذاب الدُّنيويِّ على أنَّها عهدٌ علميٌّ، والمشبَّه به عذابُ أصحابِ الجنَّة، وما ترتَّبَ على ذلك العذابِ من تلَفٍ بالحَرثِ، وحِرمانٍ وتحسُّرٍ لأصحابِهِ، والغرضُ من التَّشبيهِ بتلك الصّورةِ الجزئيَّة تفخيمُ صورةِ العذابِ المُؤلم السّاري بكلِّ هُدوءٍ وانسياب، فقد وقعَ لأصحابِ الجنَّة الَّذين تأكَّدوا بالتَّنعُّم بها مُنفردين، فصارتْ كالصَّريم، وهُم نائِمونَ غافِلونَ، وقال ابن عاشور: هو من "التَّشبيهِ المُتعارَفِ؛ لِوُجودِ ما يَصْلُحُ لِأن يَكونَ مُشَبَّهًا بِهِ العذابُ، وهوَ كَوْنُ المُشَبَّهِ بِهِ غيرَ المُشَبَّه، والمُماثَلَةُ بَيْنَ المُشَبَّه والمُشَبَّه بِهِ مُماثَلَةٌ في النَّوْعِ، وإلّا فَإنَّ ما توُعِّدوا بِهِ مِنَ القَحْطِ أشَدُّ مِمّا أصابَ أصْحابَ الجَنَّةِ وأطْوَلُ"[1]، والمقصودُ بالمماثلةِ النَّوعيَّة نوعُ وجهِ الشَّبه، وهو نزولُ العذابِ خِلْسةً من دونِ شعورٍ به، وما يترتَّبُ عليهِ مِن التَّحسُّرِ الكامِل، ولذا قالَ الماتريديُّ: "كأنَّه يخاطبُ أهلَ مكَّة أنْ ﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡعَذَابُۖ﴾ في الدُّنيا في أنْ يأخُذَ أهلَه، آمنَ ما كانوا، أوْ أغفلَ ما كانوا، كما أخذَ أصحابَ الجنَّةِ عندَ الأمن؛ إذ كان عندَهم أنَّهم يَقدِرونَ على صَرْمِ تلك الثِّمار، ولا يأخذُهُم"[2].

دلالةُ اسمِ الإشارة (ذلك):

شِدَّةُ العَذاب رادِعةٌ لذَوي الألباب

عبَّرَ النَّظمُ الكريم عن المشبَّه به بلفظِ اسم الإشارةِ (ذلك)، في قولِهِ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡعَذَابُۖ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّفخيم من شأنِ ذلك المُشارِ إليه؛ إذ اسمُ الإشارة (ذلك) موضوعٌ للبعيدِ حسًّا، وأُريدَ به هنا البعيدُ مكانةً؛ لفخامتِهِ وصُعوبتِهِ وشدَّته، وعدمِ وجودِ شبيهٍ له بعذاباتِ النّاسِ المَعروفة؛ إذ نزلَ بالجنَّة، فجعلَها صَريمًا سَوداءَ مُحترقةً، بعدَ أنْ كانت نضيرةً مُثمِرةً بهيَّةً.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 90.
(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 10/ 149.

سرُّ إيرادِ (كافِ) الخطابِ في (ذلك):

محوريَّةُ الرَّسولِ في ضَرْبِ الأمثالِ وإيرادِ القَول

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بـ(الكاف)، بعدَ اسم الإشارةِ، في قولِهِ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡعَذَابُۖ﴾؛ للدَّلالة على توجيهِ الكلامِ إلى مُخاطَبٍ بـ(الكافِ) الحرفيَّة الموضوعةِ للخطاب، وذلك المُخاطَبُ هو النَّبيُّ ﷺ[1]، والغرضُ من خطابِهِ تسليتُهُ وتطمينُه ﷺ بعدَ التَّكذيب الذي واجهَهُ، ورفعُ الحُزنِ عن قلبِهِ الشَّريف، والهمِّ عن نفسِهِ الطَّيّبةِ لتكذيبِهم باللّه وآياتِه، وكان ذِكرُهُ في جملةِ تمام القصَّةِ بيانُ مِحوريَّته في ضربِ الأمثال للكفّار لعلَّهم يَحترزونَ بها عن الكُفرِ والإصرارِ على التَّكذيب.

تعيينُ مَرجعِ اسمِ الإشارةِ:

الاخـتـلافُ في التَّعيينِ يوضِّح حقيقةَ التَّشبيه والتَّعريف

اختلفَ المفسِّرون في تحديدِ المُحالِ عليه باسم الإشارة، في قولِهِ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡعَذَابُۖ﴾، فمنهم مَن قصَرَه على عذابِ أصحابِ الجنَّة، ومِنهم مَن جعلَهُ راجعًا إلى عذابِ أصحابِ الجنَّة وعذابِ أهلِ مكَّة، ورأى ابنُ عاشور أنَّه راجعٌ إلى مشارٍ إليه، هو العذابُ وما نجمَ عنهُ من آثار، فقال: "والمُشارُ إليه باسم الإشارَة هوَ ما تَضَمَّنَتْهُ القِصَّةُ مِنْ تَلَفِ جَنَّتِهِم، وما أَحَسّوا بِهِ عِندَ رُؤْيَتِها على تِلْكَ الحالَة، وتَنَدُّمِهِمْ وحَسْرَتِهِمْ، أي: مِثْلُ ذَلِكَ المَذْكورِ يَكونُ العَذابُ في الدُّنْيا"[2]، وهو أرجحُ الأقوالِ؛ لأنَّ المَرجِعَ يعودُ إلى ما تقدَّمَهُ بأوصافِهِ وخصائصِهِ وما يتعلَّقُ به، ولدلالةِ السّياقِ الَّتي تُفيدُ تضخيمَ العذابِ وتفخيمَهُ، فيعودُ إليه وإلى كلِّ ما اتَّسمَ به مِن مواصفات.

دلالةُ تقديمِ الخبرِ ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

كلُّ عذابٍ وإيلامٍ دونَ عذابِ الله اللّاحِقِ باللِّئام

قدَّمَ النَّظمُ الكريمُ الخبرَ - وهو المشبَّهُ به - على المبتدأ - وهو المشبَّهُ - في قولِهِ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡعَذَابُۖ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّخصيصِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 244.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 89.

والانحصار، أي: إنَّ حقيقةَ العذابِ؛ بناءً على أنَّ (أل) للجنس مثلُ ذلك العذابِ الجزئيِّ الذي نزلَ بأصحابِ الجنَّة وأهل مكَّة، لا مثلُ غيرِهِ مِن صوَرِ العذابات المَعروفة، أوْ مثلُ ذلك العذابِ الَّذي نزل بأهلِ الجنَّةِ عذابُ أهلِ مكَّة؛ بناءً على أنَّ (أل) للعهد، وأنَّ المشارَ إليه خصوصُ عذابِ أهلِ الجنَّة، ولا يَخفى على هذا التَّوجيهِ للمَرجعَينِ ضعفُ إرادةِ الحَصْر؛ لأنَّ التَّقديمَ دالٌّ على أنَّ كلَّ عذابٍ وإيلامٍ لا يُشبِهُ عذابَ اللّٰه من جهةِ كمالِهِ وتمامِهِ وحِكمتِهِ ودقَّتِهِ وجلالِهِ، قال الهرريُّ: "خبرٌ مقدَّمٌ لإفادةِ القَصْرِ"[1]، في حين جعلَ ابنُ عاشور التَّقديمَ لمُجرَّد الاهتمامِ دونَ القصر، فقال: "تَقديمُ المُسْنَدِ للاهتِمام بإحْضارِ صورَتِهِ في ذِهْنِ السّامِعِ"[2]، وهو توجيهٌ يمكنُ أنْ يُضاف لدلالةِ القصرِ لكنْ لا يلغيها.

دلالةُ (أل) في ﴿ٱلۡعَذَابُۖ﴾:

عرَّفَ النَّظمُ الكريم لفظَ ﴿ٱلۡعَذَابُۖ﴾، في قولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡعَذَابُۖ﴾؛ للدَّلالةِ إمّا على الجنسِ والحَقيقة، والغرضُ من التَّعريفِ بيانُ الكمالِ لذلك العَذاب، حتّى إنَّه صارَ عينَ الماهيَّة من كمالِه، وانحصَرَ في ذلك الجُزئيِّ من عذاب أهل الجنَّة الذي حلَّ بالمنعَّمين، فحوَّلَهم في بُرهةٍ من الزَّمان إلى بائسينَ مَحرومينَ مُتلاومينَ مُعترفينَ راجينَ للتَّوبة، ودلالةُ القصرِ النّاشئةُ من التَّقديم تدلُّ عليه؛ إذ تُصوِّرُ الحقيقةُ، وتمثُّلُ بالمثالِ الجزئيِّ، وتُقصَرُ على مثالِهِ دونَ بقيَّةِ صورِ العذاباتِ المعهودةِ البشريَّةِ النّاقصة، وقريبٌ من هذا ما ذهبَ إليه ابنُ عاشور بقوله: "والتَّعْريفُ في ﴿ٱلۡعَذَابُۖ﴾ تَعْريفُ الجِنْسِ، وفيهِ تَوجيهٌ بِالعَهْدِ الذِّهنيِّ، أي: عَذابُكُمُ المَوْعِدُ مِثْلُ عَذابِ أولَئِكَ، والمُماثَلَةُ في إتلافِ الأَرْزاقِ والإصابَةِ بِقَطْعِ الثَّمَراتِ"[3]، وإمّا للعَهْدِ العلْميِّ بينَ المُتخاطبين: "أي: مثلُ ذلك العذابِ الَّذي بلوْنا به أهلَ مكَّة وأصحابَ الجنَّة المذكورة العذاب، أي: عذابُ الدُّنيا النّازلُ فيها على مَن طَغَى بمنعِ حُقوقِ اللّٰه تعالى"[4]، فجُعِلَ المشارُ إليه مثالينِ جزئيَّينِ، والمشبَّهُ هو عذابُ الدُّنيا المعهود تمييزًا له عن عذابِ الآخرة، وجعلَ أبو حيّان عذابَ أهلِ الجنَّة هو

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 98.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 89.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 89.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 592، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 99.

كمالُ الحقيقة مُبينٌ عن جَسامةِ المُصيبَة

مدلولُ (ذلك)، و(أل) عهديَّة في عذابِ أهلِ مكَّة[1]، ودلالةُ القصرِ في الثّاني أوضحُ منها في الثّالث، كما تضعفُ الثّالثَ دلالةُ المقابلةِ في قولِه: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ﴾، ولعلَّ دلالةَ المقابلة جعلتَهُم يذهبونَ إلى أنَّ (أل) للعهد فيه، كما صرح به ابنُ عاشور بقوله: "وقولُهُ: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ دالٌّ على أنَّ المُرادَ بقَولِه: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ﴾ عَذابُ الدُّنْيا"[2]، لكنْ عند تأمُّل المقابلة بينَ العذابينِ؛ فإنَّ التَّفاوتَ بالأكبريَّةِ دونَ الحقيقةِ.

نُكْتَةُ الوصلِ في ﴿وَلَعَذَابُ﴾:

رفعُ التَّوهُّم عمَّن أرادَ حُسْنَ التَّفهُّم

عطفَ النَّظم الكريمُ الجملة الاسميَّةَ في قولِه تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ على ما قبلَها بـ(الواو)؛ للدَّلالة على أنَّ هذا العذابَ بكمالِه وجلالهِ شيءٌ صغيرٌ من عذابِ جهنَّمَ في الآخرة، فيندفعُ توهُّم مَن يعتقدُ بانحصارِ العَذاب في مثلِ تلك المُصيبةِ، فيَهونُ عليه تصوُّرُ كمالِ العذاب في الآخِرة، فأوضحَ النَّظمُ أنَّ هذا الكمالَ في العذابِ شيءٌ حقيرٌ من ذلك العذابِ في الآخرة، وبينَ الجُملتَينِ اتِّحادٌ ذاتيٌّ، فالجامعُ بينَهُما عقليٌّ، أوْ أنَّ (الواو) للاستئناف[3]؛ إذِ انتهَت قصَّةُ المَثلِ به، ثمَّ استأنفَ بذِكرِ العذابِ الأكبر لمَنْ لم يَتُب، ويَرجِعْ عن ظُلمِهِ واستكبارِهِ وتكذيبِه، قال الرّازيُّ: "وهاهنا تَمَّ الكَلامُ في قِصَّةِ أصْحابِ الجَنَّةِ"[4].

مَعنى (اللّام) في ﴿وَلَعَذَابُ﴾:

تأكيدُ نسبةِ الكلام للرَّدِّ على مُنكِرِ الأحكام

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بـ(اللّام) في قولِه تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَكْبَرُ﴾؛ للدَّلالة على التَّوكيدِ؛ فاللّامُ هي لامُ الابتداءِ دالَّةٌ على توكيدِ الحُكم وتقريرِهِ في ذهنِ السّامع، فيكونُ ردًّا على مَن يُشكِّكُ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 244.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 90.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 591.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 610.

في شدَّةِ العذابِ الإلهيِّ، أوْ يَراهُ هيّنًا لهجومِهِ على المَعاصي، فهو وإنْ لم يَهُنِ العذابُ عندهُ، لكنَّه بهُجومِهِ على المعاصي كانَ كالهيِّن عليه، ففيه تنزيلُ غيرِ المُنكِر منزلةَ المُنكِر.

سرُّ تكرار لفظ (العذاب):

عــذابُ الآخِــرة بــلاءٌ وشـنـاعـةٌ ظاهِرة

كرَّرَ النَّظمُ الكريم لفظَ (العَذاب)، في قولِهِ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡعَذَابُۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ﴾؛ للدَّلالة على المُباينةِ بينَ العَذابين في الحقيقةِ والوَصف، **فالأوَّلُ**: هو العذابُ الدُّنيويُّ الكاملُ الحقيقةِ والماهيَّة، **والثّاني**: هو العذابُ الأُخرويُّ الأكبرُ منه، فإن كان الدُّنيويُّ عظيمًا؛ فما بالُك بالأعظم؟ كما أنَّ المشتركَ بينَ أصحابِ الجنَّة وأهلِ مكَّة في العذابِ الأدنى، وانفردَ أهلُ مكَّة بالعذابِ الأكبر؛ لأنَّهم لم يَرتدِعوا، ولم يُؤمنوا، ولم يتوبوا، كما فعلَ أصحابُ الجنَّة، قال الهرريُّ: "وهكذا عذابُ مَن خالفَ أمرَ اللهِ تعالى، وبخِلَ بما آتاهُ الله، وأنعَمَ به عليهِ، ومنعَ حقَّ البائسِ الفقير، وإذا كانت هذه حالَ مَن فعلَ الذَّنبَ اليسير كأصحابِ الجنَّة، فما بالُكُم بذنبِ مَن يُعانِدُ الرَّسول، ويُصِرُّ على الكُفر والمَعصية؟"[1].

دلالةُ الإضافةِ في (عَذاب الآخِرة):

الإضـافـةُ لـدار الـكـمـال مُنبئةٌ عـن عــذابٍ بِلا زَوال

أضافَ النَّظمُ الكريم لفظَ (العذاب) إلى لفظِ ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾، في قولِه تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ﴾؛ للدَّلالة على تعريفِ العذابِ وتعيينِهِ؛ إذ يكتسبُ المضافُ من المضافِ إليه التَّعريفَ والتَّعيين، ولمّا كانت الآخرةُ الدّارَ الحقَّ الَّتي فيها الكمالُ وعدمُ النُّقصان؛ كانتِ الإضافةُ إليها مُنبئةً عن كمالِ العَذاب وشدَّتِه وعظمتِهِ التّامَّة.

دلالةُ التَّعريفِ بـ(أل) في لفظِ ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾:

تـعـريـفُ الآخِـرة للدَّلالة على أنَّها الحياةُ الحقيقيَّةُ الدّائمة

عرَّف النَّظمُ الكريمُ لفظَ ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾، في قولِه تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ﴾؛ للدَّلالة على العهدِ المَعلومِ في الحياةِ الَّتي تقابلُ

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 99.

الحياةَ الدُّنيا، وصارتْ مثلَ العلَم في الدَّلالةِ على الحياةِ الكامِلة الخالِدةِ، نَعيمًا أو شَقاءً، وأنَّها حياةُ الجَزاء بلا عمَل، ونيلُ الحقوق والاقتصاصِ منَ الظّالمين، وتنعيمُ الطّائعين، فتكون الإضافةُ إليها نَعيمًا أو عَذابًا؛ للدَّلالة على الدَّوام والخُلودِ مَعَ الجَلال والكَمال.

دلالةُ اسمِ التَّفضيل ﴿أَكۡبَرُۚ﴾:

العذابُ الأكبَر لِمَن صمَّمَ على الجُحودِ وأنكَر

عبَّر النَّظمُ الكريم عن الخبرِ باسم التَّفضيلِ ﴿أَكۡبَرُۚ﴾، في قولِه تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ عذابَ الدُّنيا - وإنْ كان كبيرًا جَليلًا - لا يُشبِهُ عذاباتِ الدُّنيا المَعلومة؛ إلّا أنَّ عذابَ الآخرة أكبرُ منهُ، وحذفَ النَّظمُ الجارَّ والمجرور (منه)؛ لكونِه مَعلومًا من السّياق، والغرضُ من الحذفِ بيانُ أنَّ كِبرَ ذلك العَذاب يمتدُّ من عذابِ الدُّنيا الكبيرِ إلى ما لا نهايةَ له في التَّوسُّعِ والامتداد.

سرُّ الاستعارةِ في لفظِ ﴿أَكۡبَرُۚ﴾:

زيادةُ المِقدار تُنبئُ عن سيّئِ العذابِ وجَليل الأخطار

استعارَ النَّظمُ الكريم لفظَ ﴿أَكۡبَرُۚ﴾ عندَ الإخبارِ عنِ العذاب، في قولِه تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ﴾؛ إذ شبَّه النَّظمُ العذابَ بجسم يمتدُّ مقدارُهُ، ويتوسَّعُ حجمُهُ، ثمَّ حذفَ المشبَّهَ به، وأبقَى لفظَ ﴿أَكۡبَرُۚ﴾ دالًّا عليه، فالاستعارة مكنيَّةٌ، أوْ أنَّه شبَّه العظَمةَ بالكِبَر بجامعِ العرضيَّةِ في كلٍّ من الكَيف والكمِّ، ثمَّ حذفَ المشبَّهَ، وأبقَى المشبَّهَ به، فالاستعارةُ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ، والغرضُ منهما تصويرُ امتدادِ العَذابِ وتوسُّعِه وعدمِ انحصارِهِ بمقدارٍ ثابتٍ.

نُكْتَةُ الفصلِ في جُملة ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾:

التَّوضيحُ والبيان لإزالةِ الإبهام وتحقيقِ الإفهام

فصلَ النَّظمُ الكريمُ الجملةَ من قوله تعالى: ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ عمّا قبلَها؛ لكَونِها استئنافًا بيانيًّا ناشئًا عن الجملةِ السّابقة؛ إذ ذلك الوعيدُ بالعذابِ الدُّنيويِّ وبالعذابِ الأكبرِ يومَ النُّشور يُثيرُ في نفوسِ السّامعين سؤالًا مفادُهُ: كيفَ لا يَرتدعونَ عن التَّكذيب، ويَبقَونَ على الكفرِ مع ذلك التَّهديدِ والتَّخويف؟ فتقعُ جملةُ: ﴿لَوۡ كَانُواْ

﴿يَعۡلَمُونَ﴾؛ بيانًا لذلك الاستبهامِ في نفوسِ السّامعين، وقيل: إنَّها استئنافيَّةٌ ابتدائيَّةٌ(1).

مَعنى ﴿لَوۡ﴾ والغرضُ مِنها:

امتناعُ الارتداع لامتناعِ التَّصديقِ والإيقاع

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بـ﴿لَوۡ﴾، في قولِه تعالى: ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾؛ للدَّلالة على امتناعِ جوابِها لامتناعِ شَرْطِها، فهي حرفٌ لما سيقعُ لوقوعِ غيره، لكنَّه لا يقعُ، فيكونُ التَّعبيرُ بها مُقتضيًا لنفي العِلْم وامتناعِ تحقُّقِهِ فيهم، أي: امتنعَ ارتداعُهُم بما نُخوِّفُهم به من العذابِ لعدمِ علمِهم واعتقادِهم وتصديقِهِم، وهذا: "نَعيٌ عليهم بالغَفلة، وأنَّهم ليسوا من أربابِ النُّهى والمَعرفة"(2).

دلالةُ الفعلِ النّاقِصِ (كانَ):

امتناعُ تمكُّنِ العلمِ أبلَغُ في تحقُّقِ الجهلِ والوَهْم

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بالفعلِ النّاقص شرْطًا لـ﴿لَوۡ﴾، في قولِهِ تعالى: ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ دونَ القولِ: (لو علموا)؛ للدَّلالة على تمكُّنِ امتناعِ العِلْم منهم، واستقرارِ الاتِّصاف بانتفاءِ العلْم وثُبوتِهِ لهم على سبيلِ التَّحقُّقِ والوُجود، فهُم لم يَرتَدِعوا عن التَّكذيبِ؛ بسببِ انتفاء وجودِ العلْم واستقرارِهِ فيهم، وذلك أبلغُ في إثباتِ الجهالةِ المستقرَّة الَّتي دَعتْهُم إلى عدمِ الارتداعِ والخَوف.

دلالةُ تكرارِ ضميرِ (الواوِ) في ﴿كَانُواْ﴾، ﴿يَعۡلَمُونَ﴾:

انتفاءُ العلْم وُجودًا ثابتٌ للجميعِ اتِّفاقًا

كرَّرَ النَّظمُ الكريمُ ضميرَ الجمعِ الغائبِ (الواو)، في قولِهِ تعالى: ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾؛ للدَّلالة على تحقُّقِ امتناعِ العلْم وثبوته منهم على سبيلِ الاجتماعِ والتَّوافُق، فقد انتفَى عنهم العلمُ ووجودُهُ فيهم جميعًا، ومن ثَمَّ لن يَرتدِعوا بالتَّخويفِ وآياتِ العذاب وما حلَّ بالأُمَم السّالفة من نزولِ ألوانِ العَذابِ بهم، قال ابن عاشور: "وَهُمُ المُشْرِكونَ، فَإِنَّهُم كانوا يُنكِرونَ عَذابَ الآخِرَةِ، فَهُدِّدوا بِعَذابِ الدُّنيا"(3).

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 125.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 99.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 90.

دلالة الفعل المضارع ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

انتفاءُ التَّصديقِ والإذعانِ لتعلُّقِ العلْمِ المُنتفي بالنِّسَبِ والأحكامِ

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بالفعلِ المضارعِ ﴿يَعۡلَمُونَ﴾، المُمتَنِعِ تحقُّقُه، والثّابتِ انتفاؤُه، في قولِهِ تعالى: ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾؛ للدَّلالة على امتناعِ تحقُّقِ العِلْمِ ووجودِهِ فيهم على سبيلِ الاستمرارِ والتَّجدُّدِ التَّكراريِّ، ولمّا كان امتناعُ تحقُّقِ العلْمِ فيهم بالعذاب؛ فإنَّ العلْمَ المنفيَّ عنهم بمعنى التَّصديقِ والاعتقاد، فيكونُ التَّقدير: (لم يَرتدِعوا لامتناعِ تحقُّقِ التَّصديقِ بوجودِ العذابِ الأكبر).

دلالةُ حذفِ المفعولِ لـ ﴿يَعۡلَمُونَ﴾:

امتناعُ العلْمِ بالغَيبِ قادَهُم إلى كلِّ رَيبٍ

حذفَ النَّظمُ الكريم مفعولَ ﴿يَعۡلَمُونَ﴾، في قولِهِ تعالى: ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾، أي: العذابَ الأكبرَ ووجودَه وثبوتَه؛ لدلالةِ ما قبلَه عليه من التَّكذيبِ والإنكارِ لفَحوى التَّخويفِ بالعذاب والاستهزاءِ بذلك التَّخويف، ولا يبعُدُ كونُ الفعلِ مُرادًا به اللُّزوم، فلا يحتاجُ لتقديرِ المفعول، أي: لو كانَ لهم عِلمٌ أصلًا؛ لثبتَ ارتداعُهم، لكنَّه لم يثبتْ، وذلك أبلغُ؛ لامتناعِ أصلِ العلْمِ فيهم، ولذا قالَ الإيجيُّ: "أو لو كانوا من أهلِ العلْمِ؛ لعَلِموا أنَّ عذابَ الآخرة أشدُّ"[1].

دلالةُ حذفِ جوابِ الشَّرطِ لـ ﴿لَوۡ﴾:

الاستغناءُ بالدَّليلِ عن ذِكرِ كلِّ عناصِرِ التَّكوين

كما حذفَ النَّظمُ الكريم مفعولَ (العلْم) للعلْمِ به من السِّياق؛ حذفَ جوابَ الشَّرط في قولِهِ تعالى: ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾، والتَّقديرُ: لو كانوا يعلمونَ أنَّ عذابَ الآخرةِ أكبرُ؛ لارتدَعوا عن ذلك التَّكذيب، وكفّوا عن ذلك الإنكارِ، أو لاحتَرزوا عمّا يُؤدّيهم إليه[2]، لكنَّهم لم يَعلموا، قال الهرريُّ: "وجوابُ ﴿لَوۡ﴾ محذوفٌ، دلَّ عليه سياقُ الكلام، تقديره: (لو كانوا يعلمونَ أنَّه أكبرُ؛ لما فرَطَ منهُم ما سلَفَ من ظُلمٍ وإحجامٍ عن الاستثناءِ)"[3].

(1) الإيجيّ، جامع البيان في تفسير القرآن: 4/ 355.
(2) الحنبليّ، فتح الرّحمن: 7/ 132.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 125.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العذابُ والعِقاب:

العقابُ أخصُّ من العَذاب مُطلقًا

يُطلَق (العقابُ) على العذابِ المُستعجَلِ الَّذي يكونُ في نهايةِ الفعلِ، على أنَّه جزاءٌ سريعٌ لذلكَ العمَل، فهو من العَقِبِ الَّذي يكونُ خلْفَ الشَّيءِ وتوابعِهِ، ويأتي بعدَه، بخلافِ (العَذاب)، فإنَّه يكونُ على الإيلام المُتعجِّل والمُتأخِّر، ويكونُ خلفَ الفعلِ بسُرعة ومُتأخِّرًا عنه، ومن ثَمَّ فإنَّ العذابَ هو أعمُّ مطلقًا من العِقاب.

الكبيرُ والعَظيم:

العلاقةُ بينَهُما العُموم والخُصوصُ الوجهيُّ

قد يجتمعُ العظيمُ والكبيرُ في شيءٍ واحد، فيكونُ كبيرًا باعتبار مِقدارِهِ وحجمِهِ، وعَظيمًا باعتبارِ نوعِهِ وقيمتِهِ، وقد ينفردُ الكبيرُ في الشَّيءِ الكبيرِ الحَجم الكثيرِ الأجزاء، لكنَّه بلا قيمةٍ ومكانةٍ، وقد ينفردُ العظيمُ في الصَّغير المقدارِ، لكنَّه عظيمُ القيمةِ والاعتبار، فالعلاقةُ بينهما العمومُ والخصوصُ الوجهيُّ.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٣٤﴾ [القلم: 34]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

لمّا ذكرَ اللّه تعالى المُكذّبينَ وصفاتِهم وأحوالَهم ومصيرَهم، وضربَ لهم المثلَ بالمُعذَّبين في الدُّنيا وحِرمانَهُم من الخيراتِ نتيجةَ غُرورهم، وأنَّ عذابَ اليومِ الأكبرِ أكبرُ لو كانوا يعلمونَ ذلك؛ ناسَبَ أنْ يذكرَ أضدادَهم من المتَّقينَ وما هُم فيهِ من نعيمٍ مُقيم هنا؛ ليَحُضَّهم على الاتِّباعِ بمَعرفةِ أحوالِهم من أهلِ التَّصديقِ والتَّقوى، قال بعضهم: "لمّا ذكرَ تعالى حالَ أهلِ الجنَّة الدُّنيويَّة وما أصابهُم فيها من النِّقمة حينَ عصَوا، وخالفوا؛ بيَّن أنَّ لَمَن اتَّقاه، وأطاعَهُ في الدّار الآخِرة جنّاتِ النَّعيم، أي: جنّات ليس فيها إلّا النَّعيمُ الخالصُ من شائبةِ ما يُنغِّصُهُ من الأكدار وخوفِ الزَّوال"(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عِندَ﴾: ظرفُ مكانٍ للشَّيءِ الحاضر، تقول: عندي مصحفٌ؛ إذا كان في البيتِ الَّذي أنتَ فيه، وللشَّيء القريب، وللشَّيء الغائب، تقول: عندي مصحفٌ؛ إذا كنتَ تملكُهُ، وهو غائبٌ عنك، كأن يكونَ مُستعارًا، ومن هنا استعمل (عند) في المعاني، فقيل: عنده أخبار، وعندَهُ خيرٌ أو شرٌّ، ويكون بمعنى الحُكم أوِ الظَّنِّ، فتقول: هذا عندي أفضل من هذا، أي: في حُكمي أو ظَنّي، وهو مُعْرَب منصوبٌ على الظَّرفيَّة، وقد يُجَرُّ بِـ (مِنْ) وحدَها، فتقول: سأخرج من عندِك ظهرًا(2)، والمرادُ بهِ في الآية: القُربُ المعنويُّ مِنَ اللّه تعالى، والكرامةُ في دارِ كَرامتِهِ.

2) ﴿ٱلنَّعِيمِ﴾: (نعم) فروعُهُ كثيرةٌ، وعلى كَثرتِها راجعةٌ إلى أصلٍ واحدٍ، يدلُّ على ترفُّهٍ وطيبِ عَيْشٍ وصلاحٍ(3)، والنَّعمة بالفتح: اسمٌ مِنَ التَّنعُّمِ والتَّمتُّعِ، وهو النَّعيمُ، ونَعِمَ عيشُهُ ينعَمُ: اتَّسعَ، ولانَ(4)، فهو طيبُ عيشٍ وحُسنُ حالٍ، وهذا في قِبالِ البُؤْسِ والشِّدَّة

(1) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 10/ 1538.
(2) مجموعة من المؤلّفين، المعجم الوسيط: (عند).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نعم).
(4) الفيوميّ، المصباح المنير: (نعم).

والضّيقة، والنَّعيم فعيلٌ صفةٌ، وتدلُّ على صفةٍ ثابتةٍ، فالنَّعيم ما يثبُتُ فيه طيبُ عيشٍ وحُسنُ حالٍ من حيثُ هو، والمرادُ به في الآية: جنّاتُ السَّعادةِ، وراحةُ البالِ، ورغَدُ العَيش، وسَعَةُ النِّعمة، وهَناءةُ النَّفس، ومن يدخلُها لا يتعرَّضُ للإخراجِ منها.

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

عِبادُ الله المتَّقين جزاؤُهم النَّعيمُ خالدين

أي: إنْ كانَ جزاءُ أصحابِ الجنَّة الخرابَ والدَّمار لمَعصيتِهم؛ فإنَّ اللّه تعالى وعدَ المتَّقينَ بجنّات لا مُنغِّصَ فيها، ولا تتعرَّض للتَّلَفِ والخَراب، وإنْ كانَ العذابُ الأكبرُ في الآخرةِ للمُكذِّبين من أهلِ قُريش، فإنَّ جزاء المتَّقينَ جنّاتُ النَّعيم الَّذي هو أكبرُ حالاتِ النَّعيم والرَّفاهيَة في العَيش.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الفصلِ في ﴿إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ﴾:

إبرازُ حالِ المتَّقين تعريضٌ بحالِ المعذَّبين

فصلَ النَّظمُ الكريم قولَه تعالى: ﴿إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ عمّا قبلَهُ؛ للدَّلالة على الاستئنافِ البيانيِّ؛ إذ ينشأُ عن ذِكرِ أحوالِ المُجرمين - من العذابِ المُبين، والإيلام الدُّنيويِّ، وأنَّ الأخرويَّ أكبرُ - سؤالٌ في نفوسِ السّامعينَ عن أحوالِ المتَّقين، الَّذين آمنوا باللّه ورسولِه، واتَّقَوا الشِّركَ والإثمَ الخطيرَ، فجاءَ الجوابُ ببيانِ جَزائهم المضادِّ لجزاءِ أولئك المُكذِّبين المُعاندين، فالمتَّقي هنا بقرينةِ المُقابلة ضِدُّ المُكذِّب العاصي، والجزاءُ بجنّات النَّعيم ضدُّ الجزاءِ لأولئكَ المعذَّبين في الدُّنيا والآخِرة، قال ابنُ عاشور: "استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ من شَأنِ ما ذُكِرَ من عَذابِ الآخِرَةِ للمُجْرِمينَ أنْ يَنْشَأ عَنهُ سُؤالٌ في نفس السّامع، يَقول: فَما جَزاءُ المُتَّقينَ؟ وقَد أشْعَرَ بِتَوَقُّعِ هذا السُّؤالِ قَولُهُ بَعدَهُ: ﴿أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾"[1]، وقال

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 90.

الهرريُّ: "وجملةُ ﴿إِنَّ﴾ مُستأنفةٌ مسوقةٌ؛ لبيانِ ما أعدَّ اللّهُ للمتَّقينَ يومَ القيامةِ"[1].

مَعنى ﴿إِنَّ﴾ والغرضُ منها:

توكيدُ حُكمِ الكلامِ للرَّدِّ على اللِّئامِ

أكَّدَ النَّظمُ الكريمُ بـ﴿إِنَّ﴾، قولَه تعالى: ﴿إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتِ﴾؛ لتقريرِ الحُكمِ وإثباتِهِ بشكلٍ لا مجالَ للشَّكِّ فيه أوْ إنكارِهِ وردِّه، والغرضُ منهُ الرَّدُّ على أولئكَ المُنكرينَ منَ المُكذِّبينَ أنَّ اللّه تعالى أعدَّ للمُصدِّقينَ والعاملينَ بأوامرِ الشَّرعِ الحكيمِ جنّاتِ النَّعيمِ، وأمّا المتَّقونَ؛ فهُم مُؤمنونَ إيمانًا قاطعًا بأنَّ وعدَ اللّهِ لا يتخلَّفُ، وأنَّه يَجزي بفضلِهِ وكرمِهِ العظيمينِ عبادَهُ المتَّقينَ بجنّاتِ النَّعيمِ.

معنى (اللّامِ) في ﴿لِلۡمُتَّقِينَ﴾:

الاستحقاقُ والانحصارُ بدُخولِ الجنّاتِ للأخيارِ

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بـ(لامِ الجرِّ) الدّاخلةِ على الخبرِ المُقدَّمِ، في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتِ﴾؛ للدَّلالةِ على الاستحقاقِ أوَّلًا، وعلى الاختصاصِ والانحصارِ ثانيًا؛ إذ دخولُها على المُسَندِ المتقدِّمِ يُفيدُ الحصرَ والقصرَ الإضافيَّ، في حينِ اقتصرَ ابنُ عاشورٍ على دلالةِ الاستحقاقِ[2]، فهُم مُستحَقّونَ لها بفضلِ اللّهِ عليهِم، ومُختصَّةٌ بهم اختصاصًا إضافيًّا بالنِّسبةِ لأولئكَ المُكذِّبينَ المُعذَّبينَ، وليسَ بالنِّسبةِ لجميعِ الدّاخلينَ لتلكَ الجنّاتِ.

دلالةُ تقديمِ الخَبرِ ﴿لِلۡمُتَّقِينَ﴾:

جنّاتُ النَّعيمِ مُنحصِرةٌ بعبادِ اللّهِ المتَّقينَ

قدَّمَ النَّظمُ الكريمُ المُسندَ ﴿لِلۡمُتَّقِينَ﴾، في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتِ﴾؛ للدَّلالةِ على الحصرِ والقصرِ الإضافيِّ؛ إذِ المُتَّقونَ بقرينةِ المُقابلةِ هم المُصدِّقونَ والعاملونَ بالأمرِ والنَّهيِ الإلهيَّينِ، قال الطَّبريُّ: "الَّذينَ اتَّقوا عُقوبةَ اللّهِ بأداءِ فرائضِهِ،

---

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 125.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 90.

واجتنابِ مَعاصيه"(1)، فيُفيدُ أنَّ جنّاتِ النَّعيم لهم لا لغيرهِم منَ المُكذِّبين العُصاة، وأمّا دخولُ العُصاة من المؤمنينَ فيها؛ فليس الحصرُ في حقِّهم، واقتصرَ ابنُ عاشور على أنَّ التَّقديم للاهتمام بشأنِ المُتَّقين على جزائِهم الموعودِ؛ ليَسبقَ ذكرُ صفتِهم العظيمة ذِكرَ جزائِها(2)، مع أنَّ الأنسب بشأنِ الاستئنافِ البيانيِّ أنَّ محطَّ السُّؤال والاهتمام على الجزاءِ دونَ المُجازينَ به، ولذا فإنَّ دلالة الاهتمام بذكر (المُتَّقين) مُنصبَّةٌ على تحقيقِ المقابلةِ مع المكذِّبين العُصاة.

دلالةُ تقديمِ المتُعلِّق ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾:

التَّشويقُ للجَزاء والحصرُ الدّالُّ على الاعتناء

لم يكتفِ النَّظمُ الكريم بتقديم المُسنَدِ على المُسنَدِ إليه، بل قدَّم مُتعلِّق الاستقرارِ الدّالِّ عليه حرفُ الجرِّ (اللّام)، في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾، والتَّقدير: (إنَّ جنّاتِ النَّعيم مستقرَّة للمتَّقينَ عندَ ربِّهم)، فالظَّرفُ متعلِّقٌ بالاستقرارِ الَّذي يَستلزمُهُ الجارُّ، والغرضُ من تقديمِه أيضًا تحديدُ مكانِ الاستقرارِ المعنويِّ؛ نظرًا لما في تحديدِه من إغاظةٍ للمُكذِّبين الأشرار، وسُرورٍ للمُتَّقينَ الأخيار، قال ابنُ عاشور: "وَلِذَلِكَ قُدِّمَ مُتَعَلَّقُهُ مَعَهُ عَلَى المُسْنَدِ إلَيهِ؛ لِأجلِ ذَلِكَ الاهْتِمامِ، وقَدْ حَصَلَ مِنْ تقديمِ المُسْنَدِ بِما مَعَهُ طولٌ يُثيرُ تَشْويقَ السّامِعِ إلَى المُسْنَدِ إليهِ"(3)، بل ولأجلِ الانحصار الحقيقيِّ هنا، فهي عندَ ربِّهم لا عندَ غيرِه من الأربابِ المَزعومة، وجوَّزَ الهرريُّ أنْ يكونَ مُتعلِّقًا بنفسِ العاملِ المقدَّر على أنَّه حالٌ وليسَ ظرفًا لَغْوًا، فقال: "ويجوزُ أن يكونَ مُتعلِّقًا بمحذوفٍ منصوبٍ على الحاليَّةِ من المَنويِّ في قوله: ﴿لِلۡمُتَّقِينَ﴾، ولا يجوزُ أن يكون حالًا من ﴿جَنَّٰتِ﴾؛ لعدَمِ العامِلِ"(4).

(1) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 552.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 90.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 90.
(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 100.

دلالةُ الإضافةِ في ﴿رَبِّهِمْ﴾:

التَّمييزُ والتَّكريمُ لائقانِ بالرَّبِّ العَظيم

أضافَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ (الرَّبِّ) إلى ضميرِ (المتَّقينَ)، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾؛ للدَّلالة على تعيينِ الرَّبِّ وتمييزه عن بقيَّةِ الأربابِ الباطِلة، كما دلَّتِ الإضافةُ على تشريفِ المتَّقين وتكريمِهم بإضافةِ الرَّبِّ لهم إضافةً لاميَّةً دالَّةً على الاختصاصِ بهم، فهو ربُّ جميعِ العالَمين عمومًا، وربُّ المتَّقين تشريفًا وتكريمًا وتعظيمًا لهم على سبيلِ الخصوص.

دلالةُ ﴿جَنَّٰتِ﴾ مادَّةً وصيغةً وموقعًا:

الحاصلُ بعدَ الطَّلب أعزُّ منَ المُساقِ بلا تَعَب

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بلفظِ ﴿جَنَّٰتِ﴾ الواقعِ مُسندًا إليهِ مُؤخَّرًا، في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾؛ للدَّلالة بهذا التَّأخيرِ على وصولِ الشَّوقِ إلى غايتِهِ، ببيانِ جَزائِهم ودرجتِهم ومَقامِهم، وبذلك تحقَّقَ الانحصارُ بهم مع تحقُّقِ التَّشويقِ إلى مَعرفةِ جزائهم، واختارَ النَّظمُ الجمعَ منكَّرًا؛ للدَّلالة على الاتِّساعِ والامتدادِ النّاجم من التَّنكيرِ التَّعظيميِّ، والكثرةِ والتَّنوُّعِ النّاجم من صيغةِ الجَمع، فهي جنّات فسيحةٌ نضيرةٌ بهيَّةٌ، تختلفُ عن الجنّات الأرضيَّة التي يَشوبُها التَّلفُ والخَراب، ووقعَ التَّقابلُ بينَ لفظِ ﴿ٱلْجَنَّةِ﴾ المفردِ، في قولِه قبلُ: ﴿كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾، ولفظِ (الجنّات) الجمعِ هنا؛ للدَّلالة على أنَّ نعيمَ الآخرة أكبرُ وأعظمُ، كما أنَّ عذابَ الآخرة أكبرُ وأعظمُ من عذابِ الدُّنيا، وتدلُّ مادَّةُ (الجنات) على الاستتارِ؛ لما فيها من كثرةِ أشجارِها وأغصانِها، فهي تُخفي ما في داخلِها من أشياءَ.

دلالةُ الإضافةِ والحصرِ في ﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾:

الجنّاتُ مُستحَقَّةٌ للمتَّقينَ، والنَّعيمُ مُستحَقٌّ للمُكْرَمين

أضافَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ ﴿جَنَّٰتِ﴾ إلى ﴿ٱلنَّعِيمِ﴾، في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾؛ للدَّلالة على تعريفِ الجنّاتِ بوصفِها اللّازمِ لها بطريقِ الاستحقاق، فالإضافةُ من

إضافةِ المَلزومِ إلى لازمِه، قال ابنُ عاشور: "وإضافةُ ﴿جَنَّٰتِ﴾ إلَى ﴿ٱلنَّعِيمِ﴾ تُفيدُ أنَّها عُرِّفَتْ بِه، فَيُشارُ بِذَلِكَ إلى مُلازَمَةِ النَّعيم لها؛ لأنَّ أصْلَ الإضافةِ أنَّها بِتَقْديرِ (لامِ الاستِحْقاقِ)؛ فَـ ﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ مُفيدٌ أنَّها استَحَقَّها النَّعيمُ؛ لِأنَّهَا لَيسَ في أحوالِها إلّا حالُ نَعيمِ أهلِها، فَلا يَكونُ فيها ما يكون في جَنّاتِ الدُّنْيا مِنَ المَتاعِبِ، مثلُ الحَرِّ في بَعضِ الأوْقاتِ أو شِدَّةِ البَرْدِ، أو مثلُ الحشرات والزَّنانير، أوْ ما يُؤْذي مِثْلُ شَوْكِ الأزْهارِ والأشْجارِ وروثِ الدَّوابِّ وذرْقِ الطَّير"[1].

واستُفيدَ الحصرُ من الإضافةِ اللّاميَّة الاختصاصيَّة[2]، ووجه أنه تحقَّقَ بذلك استحقاقانِ ونتيجةٌ من علاقةِ التَّلازُم؛ فالأوَّلُ منهما أنَّ الجنّات مُستحَقَّةٌ للمتَّقين، والثّاني أنَّ النَّعيمَ مستحَقٌّ للجنّات، فينتج أنَّ النَّعيمَ مُستحَقٌّ للمتَّقين؛ لأنَّهم داخِلوا تلك الجنّاتِ ومُستقرّونَ فيها، فتكونُ الجنّاتُ حدًّا أوسَط موصِلًا لإثباتِ النَّعيم للمتَّقين.

دلالةُ ﴿ٱلنَّعِيمِ﴾ مادَّةً وصيغةً:

استعملَ النَّظمُ الكريم لفظَ ﴿ٱلنَّعِيمِ﴾، في قولِه تعالى: ﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾؛ للدَّلالة بمادَّته على رفاهيةِ العَيش والسَّعادة المُطلقة والرّاحة التّامَّة والهَناء التّامِّ، فلا يُشوبُ النَّعيمَ مُنغِّصٌ، ولا يُمازِجُه قلقٌ أوِ انزعاجٌ؛ إذ داخلُ تلك الجنّات يتنعَّمُ برغيدِ العَيش وراحةِ البالِ والخُلودِ المُستمرِّ، والدّالُّ بصيغةِ المُبالغة (فعيل) على النَّعيم الكثيرِ والكَبير، أوْ أُريدَ به الصِّفةُ المشبَّهة الدّالَّةُ على الثُّبوتِ والدَّوام والاستمرارِ للنَّعيم المُلازِم لتلك الجنّات.

كرمُ الله بِلا حُدود لمُلكِه المُطلَقِ بِلا قُيود

دلالةُ التَّعريفِ بـ(أل) في ﴿ٱلنَّعِيمِ﴾:

عرَّفَ النَّظمُ القرآنيُّ لفظَ ﴿ٱلنَّعِيمِ﴾ بـ(أل) في قولِه تعالى: ﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾؛ للدَّلالة على الجنسِ المُفيدِ أنَّه نعيمٌ كاملٌ خالصٌ

نعيمُ الآخِرة كاملٌ بلا موارَبة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 90.

(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 100.

دائمٌ لا يَشوبُهُ أيُّ مُنغِّصٍ، كما في نعيم الدُّنيا، الذي يكونُ من أبرزِ مُنغِّصاتِه عدمُ الخلودِ فيه، قال الهرريُّ: "﴿ٱلنَّعِيمِ﴾ الخالصُ الَّذي لا يشوبُهُ كدَرٌ، ولا يُنغِّصُهُ خوفُ زَوالٍ"(1).

تكرُّرُ ألفاظِ الاستحقاقِ في الآية:

تَـوالي الاستحقاقاتِ يدلُّ على كَمالِ الكَرامات

تكرَّرتْ في الآية علاقاتُ الاستحقاقِ، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾؛ وذلك بسببِ تكرُّرِ اللّامِ ظاهرةً ومقدَّرةً، فقدِ اختيرتِ (اللّامُ)؛ للدَّلالة على استحقاقِ الجنّات للمتَّقين، وأُضيفتِ العنديَّةُ إلى الرَّبِّ؛ للدَّلالة على استحقاقِ القُربِ المعنويِّ منَ الرَّبِّ، وأُضيفَ الرَّبُّ إلى ضميرِ المتَّقين؛ للدَّلالة على استحقاقِ المتَّقينَ للتَّكريم، وأُضيفتِ الجنّات للنَّعيم للدَّلالةِ على استحقاقِ النَّعيم لتلك الجنّات؛ وذلك باللّام المقدَّرة، فالآيةُ بكلِّ مكوِّناتها دلَّتْ على الاستحقاقِ والاختصاصِ المُلائم لكمالِ الإكرام، والمُعرِّفِ بأحوالِ المتَّقين وجَزائِهم المُستحَقِّ لهم؛ فضلًا من اللّه ورحمةً بمَنْ يُحبُّهم.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المتَّقونَ والمؤْمِنونَ:

المتَّقي أخصُّ منَ المؤْمنِ خُصوصًا مُطلقًا

(المتَّقي) في عُرفِ الشَّرع هو المؤمنُ المُلتزمُ بأداءِ الواجباتِ وتَركِ المنهيّات، أي: الَّذي يجمَعُ بينَ الإيمانِ بما يجبُ الإيمانُ به مَعَ أداءِ العمَلِ الصّالح وتركِ المُحرَّمات، قالَ الهرريُّ: "﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ما يوجِبُ سُخْطَهُ من الكُفر والمَعاصي"(2)، فهو يتَّقي بإيمانِهِ وعملِهِ معًا أداءً وتركًا غضبَ اللّهِ تعالى وعقابَهُ، وأمّا المؤمنُ في عُرفِ الشَّرع؛ فهو المصدِّقُ باللّه تعالى، وقد يتهاوَنُ في أداءِ الأعمال وتركِ المَنهيّات، مع تصديقِهِ بما يجبُ الإيمانُ به، ولذلك يجوزُ أنْ يوصَفَ

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 99.

(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 99.

المؤمنُ بأنَّه عاصٍ وطائعٌ، بخلافِ المُتَّقي المطلقِ الَّذي لا يوصَفُ بالعِصيان المطلَقِ للتَّباينِ حينَئذٍ بينَ المَفهومين، ولذا آثرَ النَّظمُ في الآية: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ تخصيصَ المتَّقين بالذِّكر دونَ المؤمنين؛ لأنَّ مُقابل المتَّقي هو المُكذِّبُ من أهلِ قريش، والعاصي من أصحاب الجنَّة الَّذين تابوا فيما بعدُ، فذَكرَ المتَّقينَ؛ ليكونَ مُقابِلًا لهم، وقد يُطلَقُ المُتَّقي على المؤمنِ مُطلقًا؛ لأنَّه يتَّقي بإيمانهِ النّارَ، وحينَئذٍ يكونُ المتَّقي في الآية مُقابِلًا للمُكذِّبِ فقط.

النَّعيمُ والعَدَنُ:

العَدنُ: من الإقامةِ في المكانِ على سبيلِ الثُّبوت والاستقرارِ وعدمِ التَّحوُّلِ، ولذا تُطلَقُ المَعادنُ على المُمتزجِ بالأرض امتزاجًا يحتاجُ إلى استخراجٍ من شدَّةِ التَّلاصُقِ والتَّداخُلِ بأجزاءِ الأرض.

العَـدْنُ ملـزومٌ جـزئيٌّ للنَّعيم اللّازمِ الكليِّ

والنَّعيمُ: من النِّعمة التي تدلُّ على الرَّفاهية والرّاحة والرَّغَد، ولمّا كان العَدْنُ في الجنّاتِ من أسبابِ تحقُّقِ النَّعيم فيها، فإنَّ العَدْنَ جزئيٌّ وملزومٌ للنَّعيم، والنَّعيمُ كليٌّ شاملٌ للعَدنِ وغيره ولازمٌ له، ومن ثَمَّ كان القرآنُ يُضيفُ الجنّات إلى العَدنِ عندَ إرادةِ دلالةِ الخلودِ ومن لوازمِه النَّعيم، وتارةً يُضيفُ الجنّات إلى النَّعيم؛ تعبيرًا باللّازم الكليِّ؛ ليَصدُقَ على العَدْنِ وغيرِهِ من أنواعِ الرَّفاهيَةِ وأفرادِها التي لا تقبلُ الحصرَ والعَدَّ.

﴿أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ ٣٥ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ٣٦﴾ [القلم: 35 - 36]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

النِّعم المُسداة على الكافرين ليست دليلًا على رضا ربِّ العالَمين

كان صناديد كفّار قريش يَرون وفورَ حظِّهم في الدُّنيا وقِلَّةَ حظوظِ المسلمين فيها، فإذا سمعوا ذِكرَ الآخرة وما وعد اللّه المسلمين فيها؛ قالوا: إنْ صَحَّ أنّا نُبعث - كما يزعم محمَّد ومَن معه - لم يكن حالُنا وحالُهم إلّا مثلَ ما هي في الدُّنيا، وإلّا لم يزيدوا علينا، ولم يفضِّلونا، وأقصى أمرِهم أن يساوونا، فقيل لهم: أَنَحيف، ونُظلم في الحُكم، فنجعل المسلمين كالكافرين؟[1].

المَعنى الإجماليُّ:

مِنَ الظُّلم المُبين مساواةُ المسلمين بالمُجرمين

أي: أفنجعلُ، ونحكمُ، ونصيِّر - أيُّها النّاسُ - في كرامَتي ونِعمتي في الآخرة الَّذين خَضَعوا لي بالطّاعة، وذلّوا لي بالعبوديَّة، وخشَعوا لأمري ونَهْيي، كالمُجرمينَ الَّذينَ اكتَسبوا المآثم، وركِبوا المعاصيَ، وخالَفوا أمري ونَهْيي؟ أتجعلونَ المُطيعَ للّه من عبيده، والعاصيَ له منهُم في كرامتِهِ سواء، لا تُسوّوا بينهما، فإنَّهما لا يستويانِ عندَ اللّه، بلِ المُطيعُ له الكرامةُ الدّائمة، والعاصي له الهوانُ الباقي[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الهمزة في ﴿أَفَنَجۡعَلُ﴾ والغرض منها:

منعُ الدَّعوى الضِّمنيَّة الَّتي يَدلُّ عليها سياقُ القضيَّة

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بـ(الهَمزةِ) في قولِهِ تعالى: ﴿أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾؛ للدَّلالة على الاستفهام الإنكاريِّ؛ إذ حقيقةُ الاستفهامِ لما كان مجهولًا غيرَ معلومٍ للمتكلِّم، وذلك غيرُ مراد؛

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 100، ومجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 10/ 1538.

(2) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 553.

لعدم مُناسبتِهِ للّه تعالى الصّادرِ منه الخطابُ، وهو يعلَمُ كلَّ واجبٍ ومُمكنٍ ومُستحيل، فيكونُ المرادُ منه الإنكارَ والنَّفيَ لذلك المَدخول؛ ويحتمل - كما جاءَ في سبب النُّزولِ - "إنكار ما دارَ بينَ المشركينَ من القولِ عندَ نُزول الآيةِ السّابقة أوْ عندَ نزولِ ما سبقَها من آيِ القرآنِ، الَّتي قابلَتْ بين جزاءِ المُؤمنين وجزاءِ المُشركين، بقرينةِ قولِه تعالى صَريحًا: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾"[1]، أوْ أن يكونَ مُفرَّعًا لإنكارِ التَّساوي بين المسلمينَ والكافرينَ على ما سبقَ من اختلافِ جزاءِ الفريقَين، ولمَحَ الحنبليُّ إرادةَ التَّوبيخِ معَ الإنكار، وأنَّ: "فيه إضمارَ (أفلا تعقلونَ)، معناه: مَن كانَ له عقلٌ يعلمُ أنَّه لا يكون ثوابُ المسلمينَ كثوابِ المُجرمين"[2]، وهذا الاستفهامُ المنفيُّ يُعبَّرُ عنه بصنعةِ المناظرةِ بـ(المنع)؛ لأنَّه يقابلُ دعوى ضمنيَّةً مفهومةً من الإنكارِ بالتَّساوي أوْ بالجزاءِ الأفضلِ لهم على المُسلمين، فهو استفهامٌ يمنَعُ، ويُنكرُ التَّساويَ فضلًا عن الأفضليَّة؛ مُطالبًا لهم بتقديمِ الدَّليل العقليِّ أوِ النقليِّ الَّذي ينصُّ على ذلك؛ إذ هم غيرُ مُؤمنينَ بالبعثِ أصلًا، فلو افترضوا وجودَ البعث؛ فإنَّهم يُمنَحونَ الأفضليَّةَ أوِ المُساواة، وذلك في حدِّ ذاته إنكارٌ لقدرةِ الباعث على إحيائِهم، فكيف يكون جزاؤُهم - وهم كافرونَ - مثلَ جزاءِ المؤمنينَ أوْ أفضلَ منهم؟ وذهب الزَّجّاج إلى أنَّ الاستفهامَ للتَّوبيخِ والتَّقرير[3]، وهو بعيدٌ، ولعلَّه أرادَ التَّقريعَ، وصُحِّفَتِ الكلمةُ، قال الدَّرويش: "وهذا أوَّلُ توبيخٍ وتقريعٍ للكافرينَ، وسَتتلوه خمسةُ توبيخاتٍ أُخرى"[4].

دلالةُ (الفاءِ) في ﴿أَفَنَجْعَلُ﴾ والغرضُ منها:

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بـ(الفاء) في قولِهِ تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾؛ للدَّلالة أوَّلًا: "على التَّفريعِ على ما قَبْلَهُ مِن استِحْقاقِ المُتَّقينَ جَنّاتِ النَّعيم، ومُقابَلَتِهِ بِتَهْديدِ المُشْرِكينَ بِعَذابِ الدُّنْيا والآخِرَةِ، ولَكِنَّ ذَلِكَ غَيْرُ مُصَرَّحٍ فيه بما يُناسِبُ أنْ يَتَفَرَّعَ عَلَيهِ هذا الإنْكارُ والتَّوْبيخُ، فَتَعَيَّنَ تَقْديرُ إنْكارٍ مِنَ المُعَرَّضِ بِهِم؛ لِيَتَوَجَّهَ إلَيْهِم هذا الاستِفهامُ المُفَرَّعُ، وهو ما أشَرْنا إلَيْهِ آنِفًا من تَوَقُّعٍ أوْ وُقوعِ سُؤالٍ[5]، وثانيًا: على العطفِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 91.
(2) الحنبليّ، فتح الرّحمن: 7/ 132.
(3) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 5/ 209.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 179.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 91.

الـعـطـفُ والتَّعقيب للرَّدِّ على كلِّ مُنكِرٍ عَنيد

على مُقدَّرٍ يقتضيهِ المقامُ، فـ"الفاءُ عاطفةٌ على ذلك المَحذوفِ، والتَّقديرُ: أنَحيفُ في الحُكم، فنجعل المؤمنينَ كالكافرينَ في حُصولِ النَّجاة والوصولِ إلى الدَّرجات، فنُسوّي بينَ هؤلاءِ وهؤلاءِ في الجَزاء؟ كلّا وربِّ الأرضِ والسَّماء[1]، أوِ التَّقديرُ: "ألا نُفضِّلُ المسلمينَ المُطيعينَ على المُجرمينَ، فنجعل المُسلمينَ كالمُجرمينَ[2]؟ ففي ذلك المحذوفِ إشارةٌ أخرى إلى سندِ المنع؛ إذ كيفَ تتحقَّقُ المساواةُ في الجزاءِ بينَ المُؤمنِ والكافر، وبينَ المُطيعِ والعاصي، كما أنَّ تعليقَ حُكم النَّفي للمُساواة على مبدأٍ وصفَيِ (الإسلامِ والإجرام) يدلُّ على عِلّيَّةِ ذلك.

دلالةُ الكنايةِ في الاستفهامِ الإنكاريِّ:

إنكارُ التَّساوي مُقتضِ الحِرمانَ للكافر والخَيرَ للمؤتسي

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بالاستفهامِ الإنكاريِّ التَّوبيخيِّ، في قولِهِ تعالى: ﴿أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾؛ لنفي التَّساوي بينَ الجزاءَين؛ ردًّا على دَعواهم الأفضليَّة لهُم على المسلمينَ الفقراءِ - كما في الدُّنيا - أوِ التَّساويَ معَهُم على الأقلِّ، وذلك: "يوجِبُ إنكارَ تفضيل المُجرمينَ بالطَّريقِ الأَوْلى"[3]، فهو: "كِنايَةٌ عَن إعْطاءِ المُسْلِمينَ جَزاءَ الخَيرِ في الآخِرَةِ وحِرْمانِ المُشْرِكينَ مِنْهُ؛ لِأنَّ نَفْيَ التَّساوي وارِدٌ في مَعْنَى التَّضادِّ في الخَيْرِ والشَّرِّ في القُرْآنِ وكَلامِ العَرَبِ، قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ لَّا يَسۡتَوُۥنَ ١٨﴾ [السَّجدَة: 18]، وقالَ: ﴿لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ﴾ [الحَشر: 20]، وقالَ: ﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ ٢٨﴾ [ص: 28]، وقالَ السَّمَوْءَلُ أوِ الحارثيُّ:

سَلي إنْ جَهِلْتِ النّاسَ عَنّا *** وعَنْهُمْ فَلَيْسَ سَواءً عالِمٌ وجَهولُ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/ 17، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 100.
(2) المظهريّ، التّفسير المظهريّ: 10/ 38.
(3) المظهريّ، التّفسير المظهريّ: 10/ 38.

وَإذا انتفَى أنْ يَكونَ لِلْمُشْرِكينَ حَظٌّ في جزاء الخَيْر؛ انتفَى ما قالوهُ مِن أنَّهُم أفْضَلُ حَظًّا في الآخِرَةِ مِنَ المُسْلِمينَ - كَما هوَ حالُهُم في الدُّنْيا - بِطَريقِ فَحْوَى الخِطابِ"(1).

دلالةُ (نجعلُ) مادَّةً وصيغةً:

النَّفيُ للحدَثِ الاستمراريِّ يُفيدُ الدَّوامَ التَّكراريَّ

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بالفعلِ المُضارع (نجعلُ)، في قولِه تعالى: ﴿أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على إنكارِ ذلك الجَعْل، ونفي تلك التَّسويةِ بينَ جَزاءِ المُسلمين وجزاءِ الكافرينَ على سبيلِ الاستمرار التَّجدُّديِّ، فيُفيدُ إنكارَ ذلك الجَعْل على سبيلِ الدَّوام المستقبليِّ، واللّٰهُ يحكمُ في مَملكتِه كما يريدُ لا موجِبَ عليه تعالى؛ إذ كلُّ أفعالِه عدلٌ محضٌ، وتدلُّ مادَّةُ (الجعل) على التَّحويلِ والتَّصيير، والمعنى: فلا نُصيِّرُ المسلمينَ كالمجرمينَ في الحُكم بأيَّة حالٍ من الأحوالِ.

دلالةُ التَّعريفِ بـ(أل) في ﴿ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾:

شَرَفُ الإسلام يَقتضي عدمَ التَّساوي في الجَزاءِ والأحكام

عرَّفَ النَّظم الكريمُ لفظَ ﴿ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ بـ(أل) في قولِه تعالى: ﴿أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾؛ للدَّلالة على الجنسِ الصَّادقِ بجميعِ المُسلمين على سبيلِ الاستغراقِ والشُّمول؛ إذ كلُّ فردٍ فردٍ من المُسلمين لا يكونُ في الحُكم والجزاءِ عليه كالكافرينَ فردًا فردًا؛ لشرفِ الإسلام والانقيادِ للّٰه تعالى على الجَحدِ والإنكارِ لهُ تعالى.

دلالةُ ﴿ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

تعليقُ الحُكم بالمُشتقِّ دالٌّ على أنَّ المبدأ هو المُستحَقُّ

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بلفظِ ﴿ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾، في قولِه تعالى: ﴿أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾؛ للدَّلالة بمادَّتِه على الاستسلامِ والانقيادِ والإذعانِ للّٰه ربِّ العالَمينَ، بعدَ نظرٍ وتأمُّلٍ في الدَّلائل والبراهين، وتسليم بصحَّتِها وما فيها من نورٍ مُبين، وللدَّلالة بصيغتِه على الاتِّصافِ بتلك المادَّة على سبيل الثُّبوتِ والاستمرار، لا ينبو، ولا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 92.

يتحوَّلُ عنه مهما جاءَتْ، وعرَضَتْ عليه من شكوكٍ ورُدود؛ فاسمُ الفاعلِ هنا يدلُّ على ما تدلُّ عليه الصِّفةُ المُشبَّهة من معنى الرُّسوخِ والثُّبوتِ واللُّزوم على سبيلِ الدَّوام؛ خاصَّةً أنَّه تحوَّلَ إلى شعارٍ ولقَبٍ مختصٍّ بالمؤمنينَ؛ تمييزًا لهم عن الكافرينَ باللهِ تعالى، وتعليقُ الحُكم بالمشتقِّ يدلُّ على عليَّةِ مبدأ الاشتقاق، أي: لا نجعلُ الجزاءَ للمسلمينَ مثلَ جزاءِ الكافرينَ بالله تعالى ورسولِه؛ لأنَّهم متَّصفونَ بالإسلام منقادونَ لنا بالكلّيَّة، ونلمحُ أنَّ هؤلاءِ المدَّعينَ من الكافرينَ عبَّروا عن أنفسِهم وعن المسلمينَ بما يدلُّ على مُجرَّدِ الذَّوات، فقالوا: إنَّنا على فرض بأنَّ بعْثَنا أفضلُ منهُم أوْ مُساوونَ لهم، فكان الرَّدُّ بالوصفِ؛ ليَدُلَّ على عدمِ التَّساوي بينَ الفريقين.

دلالةُ العُدول عن (المتَّقينَ) إلى ﴿ٱلْمُسْلِمِينَ﴾:

تحقُّقُ الأخصِّ يستلزمُ تحقُّقَ الأعمِّ، ونفيُ الأعمِّ يستلزمُ نفيَ الأخصِّ

عدلَ النَّظمُ القرآنيُّ عن لفظِ (المتَّقين) الواردِ في الآيةِ السّابقة، إلى لفظِ ﴿ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾؛ للدَّلالة على العموم المُناسِبِ لسياقِ نفيِ التَّماثُلِ في الجزاءَين، بخلافِ ما تقدَّم من إرادةِ خصوصِ المتَّقين؛ انتقاءً لهم على كافَّة المسلمين، فكلٌّ منهما مُناسِبٌ لسياقِه؛ إذِ العلاقةُ بينَ المتَّقين والمُسلمين عمومٌ وخصوصٌ مُطلقٌ، فإنْ ذُكِرَ الأخصُّ على سبيلِ الثُّبوت؛ فلا يستلزمُ الأعمَّ، ومن ثمَّ فإنَّ قولَه: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ دالٌّ على عُلوِّ مَنزلتِهم على سائرِ المُؤمنين، في حين إذا ذُكِرَ الأعمُّ نفيًا؛ فإنَّه يلزمُ منهُ انتفاءُ الأخصِّ، فإنْ كانَ المُسلمونَ غيرَ مُماثلينَ للكافرينَ، فإنَّ المتَّقينَ من بابِ الأَوْلى كنايةً، ومنه يُعلَمُ سرُّ العدولِ في مقامِ النَّفيِ إلى الأعمِّ، وأنَّ المُسلمين يدخلُ فيهم الأتقياءُ وغيرُ الأتقياء، وليكونَ ذكرُ ﴿ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ قرينةً على تخصيصِ (المجرمينَ) بالكافرينَ والمشركين بالله تعالى بقرينةِ التَّقابُل؛ إذ لمّا كان المسلمونَ أعمَّ من (المتقينَ)، فقد يكونُ المسلمُ

غير مُتقٍّ ومُجرم قد اقترفَ، ولابسَ إيمانَه بعضُ الجُرم والحَرام، لكنَّه ليس ملابسًا لجُرم الكافرِ باللّهِ تعالى ورسولِه، قال ابن عطيَّة: "فإنْ قلتَ: هلّا قيلَ: (أفنجعلُ المتَّقين كالمُجرمين)؟ قلتُ: كلَّما ناقضَ الأعمُّ شيئًا؛ ناقضَهُ الآخرُ"[1].

معنى (الكاف) في ﴿كَٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ والغرَضُ منها:

التَّكنيةُ بنفي التَّسويةِ عن نَفْيِ الأفضليَّة

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بـ(الكاف) في قولِه تعالى: ﴿أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾؛ للدَّلالة على نفيِ المُشابهة بينَ الفريقين؛ إذ (الكافُ) واقعةٌ في مَعرضِ الاستفهامِ الإنكاريِّ، والمعنى: لا يكونُ جزاءُ المُسلمينَ مثلَ جَزاءِ الكافرين، ولا يكونُ حالُ المسلمينَ يومَ الجَزاءِ مثلَ حالِ المجرمينَ، وانتفاءُ المُماثلةِ يَستلزمُ بالكنايةِ عدمَ أفضليَّةِ المُجرمين على المسلمينَ بطريقِ الأوْلى وفَحوى الخِطاب.

دلالةُ (أل) في (المُجرمينَ):

الاستغراقُ الشُّموليُّ تهديدٌ بالرَّدعِ الكُلّيِّ

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بلفظِ (المجرمين) مُعرَّفًا بـ(أل)، في قولِهِ تعالى: ﴿أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾؛ للدَّلالة على الجنسِ الصّادق بالاستغراقِ الكلّيِّ لجميع أفرادِ المُجرمينَ، المُتحقِّق فيهم الجُرمُ الأكبرُ، وهو الكفرُ والشِّركُ باللّه تعالى، بقرينةِ مُقابلتِهِ بلفظِ ﴿ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾، الَّذي صارَ شِعارًا للمؤمنينَ باللّه تعالى ورسولِهِ الكريم ﷺ، من دون أن يُخالطَهُ كفرٌ أوْ شركٌ البتَّةَ، فيكون المعنى: أنَّ كلَّ فردٍ من المُسلمين لا يتماثلُ جزاؤُهُ مع كلِّ فردٍ منَ المُجرمين المُشركين والكافرينَ؛ إذِ الإجرامُ الأكبرُ مانعٌ من تلك المُماثلة والمُساواة، واللّه تعالى يفعلُ في مَملكتِهِ ما يَشاءُ، في حين ذهبَ الرّازيُّ إلى أنَّ (أل) للعهدِ بقولِه: "لمَ لا يَجوزُ أن يَكونَ المُرادُ مِنَ المُجْرِمينَ هُمُ الكُفّارَ الَّذينَ حَكَى اللّه عَنهُم هَذِهِ الواقِعَةَ؟ وذَلِكَ لِأنَّ حَمْلَ الجَمْعِ المُحَلَّى بِـ(الألِفِ واللّامِ) عَلَى المَعْهودِ السّابِقِ مَشْهورٌ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 273.

في اللُّغَةِ والعُرْفِ"[1]، فيكونُ مؤدّى الحَملينِ الاستغراقيِّ والعَهديِّ واحدًا من حيثُ إنَّ المُرادَ به الجَمعُ الاستغراقيُّ؛ إمّا بدلالة (أل) أوْ بدلالةِ مَرجعِها الكليِّ المعهودِ الصّادقِ بالكافرينَ النّاطقينَ بذلك الحُكم، ويحتملُ أنَّ (أل) للجنسِ مُطلقًا؛ فالمُرادُ المُجرمونَ الكاملونَ في الإجرام، الصّادقِ بالكافرينَ والمشركينَ فحسبُ، قال الهرريُّ: "والمرادُ بـ(المجرمينَ) الكافرونَ على ما دلَّ عليه سببُ النُّزول، وهم المجرمونَ الكاملونَ الَّذين أجرَموا بالكفرِ والشِّرك"[2].

دلالةُ (المُجرمينَ) مادَّةً وصيغةً:

الجُرمُ الخَطير هو الجُحودُ بعدَ معرفةِ سوءِ المَصير

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بلفظِ (المُجرمين)، في قولِه تعالى: ﴿أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾؛ للدَّلالة بمادَّتِه على اقترافِ الجُرمِ والخَطأ والذَّنب أيًّا كان واكتسابِه، ففيه وعظٌ أيضًا للمسلم العاقلِ، وزجرٌ للمتبصِّر من المسلمينَ عن اقترافِ الجُرم، فالمسلمُ المُطيع ليسَ كالمسلم الفاسِقِ والعاصي في المَصير[3]، وفي تسميتِها جُرمًا دلالةٌ على تشبيهٍ لها بما له جسمٌ وحيِّزٌ وتأثيرٌ؛ إذِ الذَّنبُ والخَطَأ جُرمٌ ثقيلٌ يشينُ النَّفسَ والرّوحَ وسموَّهما، ففيه استعارةٌ تصريحيَّةٌ للتَّنفيرِ من الخطايا والمَعاصي والآثام، كما تدلُّ الصّيغةُ على الاتِّصافِ بالإجرام حتَّى صارَ شعارًا لهم، يُعرفونَ به في مقابلِ المُسلمين، فيكون الإجرامُ بقرينةِ المقابلةِ هو اقترافُ الجُرمِ الأكبرِ الَّذي تميَّزوا به عن المُسلمين، وهو الكفرُ باللّٰه تعالى ورسولِه والشِّرك به تعالى، ويُلاحَظ في دلالةِ (المجرمين) أنَّهم لم يَكفروا، ويُشركوا جَهلًا أوْ عدمَ معرفةٍ، بل أجرَموا، واكتسبوا الجُرمَ بعدَ أن رأوُا الدَّلائلَ البيِّنةَ والحَقَّة على أنَّ ما هُم عليه خطأٌ وإجرامٌ؛ إذ مَن لم يتوصَّلْ إلى الحقِّ لعدمِ وجودِ الدّالِّ عليه، أو عدمِ القُدرة

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 611.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 100.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 100.

على فهم الدَّليلِ النّاصعِ لا يكونُ مُجرمًا قدِ اكتسبَ جُرْمًا، وهو يَعي، ويعرفُ أَنَّه جُرمٌ يُؤدّي بمُرتكبِهِ إلى سوءِ المَصير.

دلالةُ العُدولِ عنِ المُشركينَ والكافرينَ أوْ ضميرِ المُخاطَبينَ:

العـــدولان في النَّظم الكريم يـخـصِّصـان المـجـرمـين بالكافرين

عدلَ النَّظمُ القرآنيُّ عنِ التَّعبيرِ في مقابلِ ﴿ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ عن لفظِ (المشركينَ والكافرينَ)، إلى لفظِ (المجرمين)، في قولِه تعالى: ﴿أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ الذي يستحِقُّ وصفَ الإجرام هو المشركُ والكافرُ، فيكونُ تنبيهًا للمُسلمين على التَّحرُّزِ من الذُّنوبِ والخَطايا والكبائر الَّتي ينبغي ألّا تصدُرَ منهم بعدَ إسلامِهم؛ إذِ المشركُ والكافرُ قد أقدمَ على أعظم صوَرِ الإجرام، وهو الجَحْدُ باللّه تعالى ورسالةِ رسولِه ﷺ بعدَ أنْ علمَ أنَّهما حقٌّ مُبين، فلا يُستغرَبُ صدورُ الإجرام منه، بخلافِ المُسلم الَّذي اقتنع بالأدلَّة والبراهينِ الحَقَّة، فينبغي أن يتحرَّزَ منها، وقد دلَّ الكلامُ بقرينةِ التَّوجيهِ إلى المُخاطَبينَ بالآيةِ: أنَّ المرادَ بهم المشركونَ والكافرونَ باللّهِ تعالى ورسولِهِ ﷺ، كما عدلَ النَّظمُ عن ضميرِ المُخاطَبِ إلى الظّاهر: "لِما في وصْفِ (المُجْرِمينَ) مِنَ المُقابَلَةِ؛ ليَكونَ في الوَصفَيْنِ إيماءٌ إلَى سَبَبِ نَفْيِ المُماثَلَةِ بَيْنَ الفَريقَيْنِ"[(1)].

دلالةُ إنكارِ التَّسويةِ أوِ التَّشبيهِ للمسلمين بالمجرمينَ دونَ العَكس:

التَّشبيهُ المقلوب ردٌّ بليغٌ على كلِّ شَغوب

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بنَفْيِ مُماثلةِ المُسلمين للمُجرمينَ في الجزاءِ والحُكم، في قولِه تعالى: ﴿أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾، مع أنَّ سببَ النُّزول يُفيدُ أنَّه كانَ ردًّا على كلامِ المُشركين، بأنَّهم على فَرَضِ بَعْثِهم أنَّهم أفضلُ حالًا عندَ اللّه تعالى من المُسلمين، كما رُزقوا في الدُّنيا بالمال والبنين، أوْ مُساوونَ لهم في أقلِّ تقديرٍ، ومقتضى ذلك نفيُ المماثلةِ للمُجرمينَ بالمُسلمين دونَ العَكس، ولذا وصفَ الهرريُّ التَّشبيهَ بـ: "المقلوبِ بجَعْلِ المُشبَّهِ به مُشبَّهًا والعكسُ؛ لأنَّ الأصلَ:

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 92.

(أفنجعلُ المجرمينَ كالمُسلمين في الأجرِ والمَثوبة)، فقلبَ التَّشبيهَ؛ ليكونَ أبلغَ وأروعَ"[1]، والحاصلُ: أنَّ نفيَ المُماثلةِ من أحدِ الطَّرفين تستلزمُ نفيَ مُماثلةِ الطَّرف الآخَرِ أيضًا؛ إذِ المُماثلةُ مفاعلةٌ، لكنَّ النَّظم قلبَ التَّشبيهَ؛ ليكونَ نفيُ المماثلةِ متوجِّهًا من المسلمينَ إلى المُجرمين، فيفيدَ أنَّهم هم الَّذين لا يُماثلونَهم، ويُخالفونهم في الجزاءِ؛ إذ نفيُ المماثلةِ تستلزمُ المخالفةَ، والمخالفةُ تكون من جانبِ المسلمين إزاءَ المُجرمين، تلك التي اقتضَتْ عدمَ المُساواةِ بينَ الجزاءَين، ولمّا استشكلَ ابنُ عرفةَ ظاهرَ التَّشبيه، ولم يَجعلْهُ من (المقلوب)؛ رأى أنَّه غيرُ متفرِّعٍ عن قولِ المشركينَ، بل مُتفرِّعٌ عن وعيدِ المشركينَ بالعذابِ ووعدِ المتَّقينَ بالنَّعيم، فدفعَ بالتَّفريع توهُّمَ كونِ بعضِ المتَّقين ينالُهُ العذابُ[2]، في حينِ ذهبَ القونويُّ إلى أنَّ هذا من نفيِ التَّشابُهِ والتَّسويةِ لا من نفْيِ التَّشبيهِ، فقال: "والظّاهرُ: (أفنجعلُ المُجرمين كالمُسْلمينَ)، لكنَّ المُراد التَّشابُهُ، وإنَّ المُجرمينَ لمّا اعتقدوا أنَّ المُجرمين كانوا عَلَى الحقِّ؛ قيل هكذا؛ إنكارًا للتَّسوية بَينَهُما في الآخرَة لا في الدُّنْيا"[3].

مَعنى ﴿مَا﴾ في ﴿مَا لَكُمْ﴾:

لمّا أشارَ النَّظمُ القرآنيُّ إلى علَّةِ عدمِ تَساوي جزاءِ (المُسلمينَ والمُجرمينَ)، وهو الإسلامُ والشِّرك والكفرُ؛ كرَّرَ الاستفهامَ مجدَّدًا في قولِهِ تعالى: ﴿مَا لَكُمْ﴾، والغرضُ منه هنا التَّعجيبُ من شَأنِهم، حتّى إنَّه يحتاجُ إلى شرحٍ وتوضيحٍ؛ إذ ﴿مَا﴾ الاستفهاميَّةُ يُطلبُ بها شرحُ الدَّليل، وبيانُهُ الَّذي دفعَهُم إلى ذلك التَّصوُّرِ الخاطئ بأنَّهم إنْ بُعثوا؛ فهُم أفضلُ حالًا أو مُساوونَ للمسلمينَ في الثَّواب والأجرِ والنَّعيم، فالاستفهامُ منعٌ آخرُ قُصِدَ بهِ شرحُ الدَّليلِ، وحيثُ لا شرحَ لهُ عقلًا؛ خرجَ الاستفهامُ إلى التَّعجُّبِ من حُكمِهم الخاطئ، ففيه تهكُّمٌ وتعجيبٌ واستخفاف؛ إذ تَهاوي الدَّليلِ معَ الإصرارِ على المَدلول يَستدعي التَّعجيبَ والاستخفافَ والتَّهكُّمَ[4]، وذهبَ أكثرُ المفسِّرين إلى أنَّه استفهامٌ إنكاريٌّ آخرُ لحالةِ حُكمِهم، كما رأى ابنُ عاشور[5]، معَ أنَّ ذلك راجعٌ في الحقيقةِ إلى قولِه: ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾، أوْ لإنكارِ

---

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 137.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 273 - 274.

(3) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 241.

(4) الحنبليّ، فتح الرّحمن: 7/ 133، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/ 17.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 92.

أن يكونَ لهم وجهٌ مقبولٌ يُعتَدُّ به في دَعواهم، حتَّى يُتمسَّكَ بهِ، كما قرَّرَه الهرريُّ[1]؛ إذ ليسَ الاستفهامُ عنِ الدَّليل وقد فُنِّدَ بوصفي (المُسلمين والمُجرمين)، وإنَّما عن الإصرارِ على المدلولِ، فيكون تَعجيبًا من الموقفِ وتهكُّمًا بهِ، قالَ القونويُّ: "يعني: أنَّ الاستفهامَ وهو ﴿مَا لَكُمۡ﴾ [للتَّعجُّب] مَجازًا، وقولُهُ: (واستبعادًا له) لازمٌ للتَّعجيب، فلا إشكالَ بأنَّ فيه جمعًا بين المعنَيَيْن المجازيّين؛ إذِ المُراد أحدُهما، والآخَرُ لازمٌ له"[2]، قالَ الدَّرويش: "وهذا هو التَّفريعُ الثّاني"[3].

تَهاوي الدَّليل مـعَ الإصرار يوجِبُ التَّهكُّمَ والتَّعجيبَ منَ القرار

دلالةُ (اللّام) في ﴿لَكُمۡ﴾:

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بـ(اللّام) الجارَّة المتعلِّقة بالاستقرارِ والثُّبوتِ، الواقعِ خبرًا مَحذوفًا في الجملةِ الاستفهاميَّةِ الاسميَّةِ، من قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمۡ﴾، والتَّقدير: (ما استقرَّ، وثبتَ لكم)؛ للدَّلالة على الاختصاصِ بذلك الشَّيءِ الَّذي دفعَكُم إلى قولِ ما تصوَّرتموهُ خَطأً، والغرضُ الذي ساقَكُم إليه، وبما أنَّه ليس لهُ رصيدٌ في الحقِّ والحقيقةِ، فإنَّه مثارُ تعجيبٍ وتهكُّم به، في حين قدَّرَ الهرريُّ الكلامَ بقولِهِ: "و﴿مَا﴾ الاستفهاميَّة في مَوضِع رفع بالابتداء، والاستفهامُ للإنكار، أي: و﴿لَكُمۡ﴾ خبرُها، والمعنى: أيُّ شيءٍ ظهرَ لكُم حتَّى حكَمتُم هذا الحُكمَ القبيحَ، كأنَّ أمرَ الجزاءِ مُفوَّضٌ إليكم، فتحكُمونَ فيهِ بما شِئتُم"[4]، ولا يخفى أنَّ هذا التَّقديرَ وبيانَ المَعنى يَنسجِمُ معَ الاستفهامِ الثّالثِ في قولِهِ: ﴿كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾.

لامُ الاختصاصِ والاقْـتِـصـار تفيدُ التَّهكُّمَ بالاستِقْرار

دلالةُ الالتفاتِ في ضميرِ الخطابِ ﴿لَكُمۡ﴾:

ذهبَ أكثرُ المفسِّرين إلى أنَّ النَّظمَ الكريمَ التفتَ من سياق الغَيبة إلى سياقِ الخطابِ في قولِهِ تعالى: ﴿أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ

استحضارُ الغائبين لسَماعِ التَّهكُّم والتَّعجيبِ المُبين

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 100.

(2) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 241.

(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 179.

(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 100.

﴿٣٥ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾؛ إذِ المناسبُ معَ تقدُّمِ المُظهَرِ - أعني: (المجرمين) - أنْ يكونَ النَّظم: (ما لهُم كيفَ يحكمونَ)؛ إذِ الضَّمير الغائبُ هو الَّذي يعودُ إلى الاسم الظّاهر، وعلَّلوا ذلك بقولهم: "فيه تعجيبٌ من حُكمِهم، واستبعادٌ له"[1]، مع أنَّ الاستبعادَ والتَّعجيبَ ليسَ ناجِمًا منَ الالتفاتِ، بل مِن دلالةِ الاستفهامِ، ولذا قالَ ابن التَّمجيد: "أقول: معنى [التَّعجُّب] والإشعار بالمَعْنَى المَذْكور لا يَخْتَصُّ بالالتفات، فإنَّه ﴿كَيْفَ﴾، وما يفيدُ أنَّ هذَين المعنيينِ - سواءٌ عُبِّر عن المقصودِ بصيغةِ الغَيبة والخطابِ - [لا دخلَ] للالتفاتِ في ذلك؛ فإنَّه إذا قيل: (ما لهم كَيْفَ تحكمون؟) بطَريق الغَيبة يحصلُ ذلك المقصودُ، نعم؛ في التَّعْبيرِ بلفظِ الخطاب مَزيدُ توبيخٍ لهم وتقريع"[2]، في حينِ علَّل آخرونَ بأنَّه: "قيلَ لهم بطريقِ الالتفاتِ؛ لتأكيدِ الرَّدِّ وتشديدِه"[3]، مع أنَّ تأكيدَ الرَّدِّ حاصل بطريقِ تكرُّرِ الاستفهام، في حين أنكرَ ابنُ عاشور وجودَ التفاتٍ في النَّظم بقوله: "لَمْ يَكُنْ ضَميرُ الخِطابِ في قَوْلِه: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ التِفاتًا عَن ضَمائِرِ الغَيْبَةِ مِن قَوْلِه: ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾، وقوله: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ﴾، وإنَّما تَغَيَّرَ الضَّميرُ إلَى ضَميرِ الخِطابِ؛ تَبَعًا لِتَغيُّرِ تَوْجيهِ الكَلامِ؛ لأنَّ شَرْطَ الالتِفاتِ أنْ يَتَغَيَّرَ الضَّميرُ في سياقٍ واحِدٍ"[4]، مع أنَّ الجمهورَ لمّا حكموا بالالتفاتِ؛ جعلوهُ منَ الاسم الظّاهرِ دونَ الضَّمائر السّابقةِ المُتقدمة، والَّذي يتبيَّن أنَّ هنالك عدولًا والتفاتًا، تمثَّل الأوَّلُ في العدولِ عن ضميرِ المُخاطَب إلى الاسم الظّاهر في (المُجرمين)؛ إذ الأصلُ: (أفنجعلُ المسلمينَ مثلكُم)، لكنَّه عدلَ إلى الظّاهر المنزَّل منزلةَ الغائبِ؛ للدَّلالة على علَّةِ عدمِ المُماثلة، وتمثَّلَ الثّاني بالالتفاتِ من ضميرِ الغائبِ الرّاجع إلى (المُجرمين) إلى ضميرِ المخاطَبِ؛ للدَّلالة على التَّقريعِ والتَّعجيبِ من عنادِهم، وهم حاضِرونَ مُخاطَبون؛ ليكونوا على تصوُّرٍ؛ بسببِ التَّعجُّبِ منهم والتَّهكُّم بحالِهم، فيكون التَّعجيبُ والازدراءُ واضحًا لدَيهم.

دلالةُ الحاليَّةِ أوِ الظَّرفيَّة في الاستفهامِ بـ ﴿كَيْفَ﴾:

أردفَ النَّظمُ القرآنيُّ الاستفهامَينِ السّابقينِ باستفهامٍ ثالثٍ، في قولِه تعالى: ﴿كَيْفَ

(1) الحنبليّ، فتح الرّحمن: 7/ 133.
(2) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 241.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 100.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 92.

استقلالُ الاستفهام هو الأنسَبُ بالمقام

﴿تَحۡكُمُونَ﴾؛ إذ: "﴿كَيۡفَ﴾ حالٌ من فاعلِ ﴿تَحۡكُمُونَ﴾؛ قُدِّمَ عليه لاقتضائِهِ صدْرَ الكلام، و﴿تَحۡكُمُونَ﴾ حالٌ من معنى ﴿مَا لَكُمۡ﴾، تقديرُهُ: (ما تصنعونَ حالَ كونِكم حاكمينَ كائنينَ على كيفيَّةٍ عجيبةٍ مُستبعَدةٍ جدًّا على خلافِ العقل، فإنَّ العقلَ يحكُمُ أنَّ المطيعَ يكونُ أحسنَ حالًا من العاصي[1]، فيكونُ ﴿كَيۡفَ﴾ حالًا من حالٍ، وهو المُسمّى بـ(الحالِ المُترادفة)، في حين جعلَ ابنُ عاشور جملةَ: ﴿كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾ بتمامِها حالًا للإنكارِ بقوله: "و﴿كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾ استِفهامٌ إنكاريٌّ ثانٍ في مَوضِعِ الحالِ مِن ضَميرِ ﴿لَكُمۡ﴾، أي: انتَفَى أن يَكونَ لَكُم شَيءٌ في حالِ حُكْمِكُمْ، أي: فَإنْ ثَبَتَ لَهُمْ؛ كان مُنْكَرًا بِاعتِبارِ حالَةِ حُكْمِهم، والمَعْنَى: لا تَحْكُمونَ أنَّكُمْ مُساوونَ لِلْمُسْلِمينَ في جَزاءِ الآخِرَةِ أوْ مُفضَّلون عَلَيْهِم"[2]، وبهذه التَّقاديرِ يكونُ هنالك ارتباطٌ بينَ جملةِ الاستفهامِ الثّانيةِ وجُملةِ الاستفهامِ الثّالثة، وهو مُحتمِلٌ ووجيهٌ، لكنَّ الأنسبَ استقلالُ كلِّ استفهامٍ عن الآخَر، **فالأوَّلُ**: إنكاريٌّ مرفقٌ بالدَّليلِ على الإنكارِ، **والثّاني**: تعجيبيٌّ تهكُّميٌّ لعدمِ القُدرةِ على تقديمِ الدَّليلِ معَ التَّمسُّكِ بالمَدلولِ، **والثّالثُ**: استبعاديٌّ للحُكمِ حالًا أوْ وقتًا، وبذلك يتسلسَلُ الاستفهامُ، ويتطوَّرُ من نفيٍ إلى تهكُّمٍ وتعجيبٍ؛ لينتهيَ هنا في الآيتينِ بالاستبعادِ والاستغرابِ من الحُكمِ المُخالفِ للعقلِ السَّليمِ والمَنطقِ المُستقيم، قالَ أبو حيّان: "ثُمَّ قالَ: ﴿كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾، وهوَ استِفهامٌ ثالِثٌ عَلَى سَبيلِ الإنْكارِ عَلَيْهِم، استَفْهَمَ عَنْ هَيْئَةِ حُكْمِهِم؛ فَفي قَوْلِهِ: ﴿مَا لَكُمۡ﴾ استِفْهامٌ عَنْ كَيْنونَةٍ مُبْهَمَةٍ، وفي ﴿كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾ استِفْهامٌ عَنْ هَيْئَةِ حُكْمِهِم"[3]، وقال الهرريُّ مُجوِّزًا النَّصبَ في ﴿كَيۡفَ﴾ على

(1) المظهريّ، التّفسير المظهريّ: 10/ 38.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 92.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 245.

الحاليَّةِ أوِ الظَّرفيَّة: "ومعنى ﴿كَيۡفَ﴾: في أيِّ حالٍ حَكَمتُم، أفي حالِ العِلْم حكمتُم أم في حالِ الجَهل؟ فيكون ظرفًا، أوْ: أعالمينَ حَكمتمُ أم جاهلين؟ فيكون حالًا"[1]، وهذا هو التَّفريعُ الثّالثُ.

دلالةُ الفعلِ المضارعِ ﴿تَحۡكُمُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

الاستبعادُ والاستغراب منَ الحُكمِ المُخالِفِ للصَّواب

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بالفعلِ المُضارع في قولِه تعالى: ﴿كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾؛ للدَّلالة على الاستبعادِ والاستغرابِ من تكرُّرِ حُكمِهم وتجدُّدِ مَوقفِهم، واستمرارِهِم على سوءِ تصوُّرِهم من كونِهم أفضلَ حالًا من المسلمينَ أوْ مُساوينَ لهم، ودلَّتْ مادَّةُ الفعل على أنَّ ذلك الحُكمَ الصّادرَ منهم كان قولًا حَكَموا به، وجاءَ الاستفهامُ نافيًا لذلك القولِ والحُكمِ المحذوفِ، من أنَّهم أفضلُ حالًا أو مساوونَ للمُسلمين على فرضيَّةِ النَّشر والحَشر والجَزاء.

دلالةُ تكرُّرِ الاستفهامِ في الآيتين:

تنوُّعُ الاستفهامات توقيفٌ على ضَلالةِ التَّصوُّرات

وقعَ الاستفهامُ مكرَّرًا في قولِه تعالى: ﴿أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ ٣٥ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾ ثلاثَ مرّات بثلاثِ أدوات للاستفهام، فكانتِ (الهمزةُ) التَّصديقيَّةُ نافيةً للمماثلة بينَ جزاءِ المُسلمينَ والمجرمين وموبِّخةً، قالَ أبو حيّان: "﴿أَفَنَجۡعَلُ﴾: أي: لا يَتَساوَى المُطيعُ والعاصي، هوَ استِفْهامٌ فيهِ تَوْقيفٌ على خَطَأِ ما قالوا وتَوْبيخٌ"[2]، وكانتْ ﴿مَا﴾ طالبةً شرحَ ما استقرَّ عندَهُم من دليلٍ، معَ أنَّهم مُصرّونَ على المَدلول؛ لتكونَ نتيجتُهُ ولازمُهُ تهكُّمًا واستخفافًا وتعجيبًا، وكانت ﴿كَيۡفَ﴾ الظَّرفيَّة أو الحاليَّة لمعرفةِ الوقتِ والحالةِ الَّتي دعتْهُم لذلك الحُكم، فيكون استبعادًا واستغرابًا للحُكم الصّادر منهم في الوقتِ والحالةِ، وتوالي الاستفهاماتِ مُعبِّرٌ عن عدمِ امتلاك المُجرمينَ لأيِّ شيءٍ يستندونَ إليه، أو يعمَدونَ إلى

---

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 100.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 245.

توضيحِهِ، أو يكون لهم حالٌ ووقتٌ دفعَهُم لذلك الكلامِ العجيبِ والحُكمِ الغريب من التَّسويةِ بين جزاءِ المُسلمين والمُجرمين، قال ابنُ عاشور: "والاستِفْهامُ وما بَعْدَهُ مِنَ التَّوبيخِ، والتَّخْطِئَةِ، والتَّهَكُّم على إدْلالِهِمُ الكاذِبِ، مُؤْذِنٌ بِأنَّ ما أُنْكِرَ عليهم، ووُبِّخوا عليه، وسُفِّهوا عَلَى اعتِقادِهِ، كانَ حَديثًا قَدْ جَرَى في نَواديهم، أو استَسخَروا بِهِ على المُسْلِمينَ في مَعْرِضِ جُحودِ أنْ يَكونَ بَعْثٌ، وفَرْضِهِمْ أنَّهُ عَلَى تَقْديرِ وُقوعِ البَعْثِ والجَزاءِ لا يَكونُ لِلمُسْلِمينَ مَزِيَّةٌ وفَضْلٌ عِندَ وُقوعِهِ"[1].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

نجعل ونُصيِّر:

الجَعْلُ أخصُّ مُطلقًا من التَّصيير

التَّصييرُ: هو تحويلُ الشَّيءِ من حالةٍ إلى حالةٍ أخرى، فنقولُ: صيَّرتُهُ غنيًّا، بمعنى: حوَّلتُهُ من حالةِ الفقرِ إلى حالةِ الغنى، والجَعْلُ: هو تصييرٌ فيه معنى التَّقدير والتَّدبير، الَّذي يكونُ عن حكمةٍ وإتقانٍ[2]، ولذا عبَّرَ النَّظمُ به في قوله: ﴿أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾، أي: أنُقَدِّرُ، ونحْكُمُ بتساوي جزاءِ المُسلمينَ والمُجرمين وتماثُلِه؛ فإنَّ ذلك مُخالفٌ للحِكمة، وأفعالُ اللّه تعالى لا تَخلو من الحِكَمِ والمَصالح، قال الماتريديُّ: "أفيزعُمُ أعدائي أن أُسوّيَ بينهم وبينَ الأخيار، والجمعَ بينهم، لا يُفعَلُ ذلك؛ لأنَّ فيه تضييعَ الحِكمة؛ لأنَّ الحِكمةَ توجِبُ التَّفرقةَ بينَ العدوِّ والوَليِّ، وفي الجمعِ بينَهُما تضييعُها"[3].

المُسلمونَ والمتَّقون:

المُسلمونَ أعمُّ مُطلقًا مِنَ المتَّقين

المُسلِمُ: من التَّسليم والانقياد، "وأسلمَ للّه، فهو مُسلِمٌ، وأسلَمَ: دخلَ في دينِ الإسلام، وأسلَمَ: دخل في السِّلم، وأسلمَ أمرَهُ للّه، وسلَّمَ أمرَهُ للّه"[4]، ويُطلَقُ في عُرفِ الشَّرعِ على كلِّ مَنِ اعتقدَ بدينِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 91.
(2) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 2/ 81.
(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 10/ 150.
(4) الفيوميّ، المصباح المنير: (سلم).

الإسلام ظاهِرًا، ولم يُقدِمْ على إنكارٍ لأصولِ الدّين وأحكامِهِ المعلومةِ مِنَ الدّينِ بالضَّرورة[1].

وأمّا المتَّقي؛ فهو من الوِقايةِ والتَّجنُّب، ويُطلَقُ في عُرف الشّارع على المُسلِم الَّذي يتَّقي المُحرَّمات، ويؤدّي الواجبات؛ وقايةً لنفسِهِ من غضَب اللّه تعالى، وحَذَرًا مِن عقابِه[2]، ومن ثَمَّ فإنَّ (المُتَّقي) أخصُّ مُطلقًا من (المُسلم)، الذي قد يكونُ تقيًّا، وقد لا يكونُ كذلك، ولأجلِ هذا الاختلاف عمومًا وخصوصًا اختيرَ لفظُ (المتَّقين) في مقامِ الوعدِ بجنّات النَّعيم، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾، واختير لفظُ ﴿ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ في مقامِ عدم التَّماثُل مع (المشركينَ) في الجزاءِ يومَ الدّين في قوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

المجرمونَ والكافرون:

المجرمونُ أعمُّ مُطلقًا من الكافرينَ

المُجرِمُ: هو الَّذي يكتسبُ، ويقترفُ أمرًا فيه جُرمٌ وثِقل، قال الفيوميُّ: "أجرمَ إجرامًا: أذنَبَ، واكتسبَ الإثمَ"[3]، واستُعير للذُّنوبِ والكَبائرِ، فيُطلق (المجرمونَ) في عُرف الشَّرع على كلِّ مَن اقترفَ جُرمًا وذَنبًا عظيمًا؛ إذ "الجُرمُ والإجرام هو الاكتسابُ عن طريقِ الانقطاعِ والذَّنب، أي: قطعُ النَّفَسِ باكتسابِ الإثم"[4]، وأعظمُ الكبائرِ على الإطلاقِ الكفرُ باللّه تعالى ورسولِهِ ﷺ أوِ الشِّركُ باللّه تعالى، ومن ثَمَّ يُطلَقُ المُجرمُ على العاصي والكافر، في حينِ أنَّ (الكافر) هو الجاحدُ والمُغطّي للحقيقة[5]، ثمَّ أُطلِقَ في عُرفِ الشَّرعِ على الجاحدِ باللّه تعالى ووحدانيَّته، والجَحدِ برسولِهِ، أوِ الجَحدِ لما

(1) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 5/ 197.
(2) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 13/ 176.
(3) الفيوميّ، المصباح المنير: (جرم).
(4) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 2/ 68.
(5) الفيوميّ، المصباح المنير: (كفر).

عُلِم من الدّين بالضَّرورة، فيكون الكافرُ أخصَّ مُطلقًا من المُجرم؛ إذِ المسلمُ قد يكونُ مُجرِمًا بالمعاصي دونَ الكُفر والشِّرك بالله تعالى، ونتيجةً لكونِ المجرم أعمَّ مُطلقًا؛ اختيرَ لفظُ (المُجرمين) في مُقابلةِ ﴿ٱلْمُسْلِمِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ الجُرم يَنبغي ألّا يصدُرَ من المسلم العاقل، وأنَّ ﴿ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ مفسِّرٌ لدلالةِ (المجرمينَ)، بأنَّهم الكافرونَ والمُشركونَ بالله تعالى فحسبُ.

(تحكمون) و(تقضون):

القضاءُ أعمُّ مُطلقًا من الحُكم

الحُكمُ أصلٌ واحدٌ، وهو المَنع، وأوَّلُ ذلك الحُكم، وهو المَنعُ من الظُّلم[1]، فهو ما يُحمَلُ على موضوعٍ، ويلحقُهُ وما بهِ يتحقَّقُ الأمرُ والنَّهي، إذا كان عن بتٍّ ويقين، وبمناسبةِ الأمرِ والنَّهي تُطلَقُ على القَضاء، والفرقُ بين الحُكم والقضاء أنَّ الملحوظَ في (القضاء) هو إظهارُ النَّظر من جانبِ القاضي في موردٍ خاصٍّ، وليس القطعُ والبتُّ منظورًا فيه بخلاف الحُكم، ولذا عبَّر به النَّظم في قوله: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾، أي: كيفَ تُبدونَ رأيًا قطعيًّا فيما تجهلونَهُ[2]؟ دون (تقضونَ).

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حكم).

(2) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 2/ 248.

﴿أَمۡ لَكُمۡ كِتَٰبٞ فِيهِ تَدۡرُسُونَ ۝٣٧ إِنَّ لَكُمۡ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ۝٣٨﴾

[القلم: 37 - 38]

بعدَ تفنيدِ الدَّليلِ العقليِّ يَجري إسقاطُ الدَّليلِ النَّقليِّ

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

لمّا أبطلَ النَّظمُ القرآنيُّ دليلَهم العقليَّ على أنَّ لهم جَزاءً أوفَرَ مِن جَزاءِ المُسلمينَ أوْ مُساويًا لهم على فرضِ صحَّةِ الحشرِ والنَّشرِ؛ ناسبَ أنْ يُبطِلَ دليلَهم النَّقليَّ على أنَّ لهم ما يَشتهونَ، ويَتخيَّرونَ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَدۡرُسُونَ﴾: (درس) أصلٌ واحدٌ يدلُّ على خَفاءٍ وخفضٍ وعَفاء، فالدَّرس: الطَّريقُ الخفيُّ، يقالُ: درسَ المنزلُ، أي: عفا[1]، مِن بابِ (قعَدَ)، ودرسَ الكتابُ: عَتقَ، ودرَسْتُ العلمَ دَرْسًا من بابِ (قَتَلَ)، ودراسةً: قرأتُه، والمَدرَسَةُ: موضِعُ الدَّرس[2]، فهو جَرَيان العملِ والاستعمالِ بقصدِ الاستفادةِ والاستنتاج، وحقيقةُ المادَّة: مزاولةٌ في عمَلٍ حتّى يتحصَّلَ أثَرُهُ وما يترتَّبُ عليه، والمرادُ به في الآية: تكريرُ المُراجعةِ للكتاب وتحقُّقُ الجرَيان والعمل في طريقِ حُصولِ الأثَرِ والنَّتيجةِ المَطلوبةِ المُناسبةِ[3].

2) ﴿تَخَيَّرُونَ﴾: (خير) أصلُهُ العَطفُ والمَيلُ، ثمَّ يُحمَلُ عليه، فالخيرُ خِلافُ الشَّرِّ؛ لأنَّ كلَّ أحدٍ يميلُ إليه، ويُعطَفُ، ويَعْطِفُ على صاحبِهِ[4]، والخيَرَةُ: اسمٌ منَ الاختيارِ، مثلُ الفِديةِ منَ الافتداء، والخيَرَة بمعنى الخيار، والخيار هو الاختيارُ، ومنه يقالُ له: خيار الرُّؤيةِ، ويقالُ: هي اسمٌ مِن تخيَّرتُ الشَّيءَ[5]، فهو انتخابُ شيءٍ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (درس).
(2) الفيوميّ، المصباح المنير: (درس).
(3) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 3/ 191.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خير).
(5) الفيوميّ، المصباح المنير: (خير).

واصطفاؤُهُ وتفضيلُهُ على غيره، ففيه قيدانِ: الانتخابُ والاختيارُ والتَّفضيلُ، وهذانِ القيدانِ ملحوظانِ في جميع صيغ اشتقاقِها، والمُرادُ بِهِ في الآيةِ: تَتَخيَّرونَ، فإنَّ التَّفعُّلَ لمُطاوعةِ التَّفعيل، يقالُ: خيَّرهُ، أي: جعلَهُ ذا اختيارٍ، فتَخَيَّرَ[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الأحكام الصّادرة عن هوًى بلا دليل قائدةٌ إلى ضلالِ سواء السَّبيل

أي: أفبأيديكم كتابٌ مُنَزَّلٌ من السَّماءِ تقرؤونَهُ، وتدرسونَهُ، وتَحفظونَهُ، وتَتَداولونَهُ بنقلِ الخَلَف عنِ السَّلَف، يتضمَّنُ أنَّ ما تختارونَهُ، وتشتهونَهُ لكم[2]؟ قال الهرريُّ: "أفَسَدت عقولُكم حتّى حكمتم بهذا؟ أم جاءكم كتابٌ فيه تخييركم، وتفويضُ الأمر إليكم"[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

مَعنى ﴿أَمۡ﴾ والغرضُ منها:

الإضرابُ والإنكار في تفنيدِ مكتوبٍ يُؤيِّدُ حقَّ الاختيار

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بلفظِ ﴿أَمۡ﴾ المُنقطعةِ، في قولِه تعالى: ﴿أَمۡ لَكُمۡ كِتَٰبٞ فِيهِ تَدۡرُسُونَ﴾؛ للدَّلالة على الإضرابِ عنِ الاستفهام السّابق والانتقالِ إلى استفهام آخرَ؛ لتضمُّن (أمْ) مَعنى (بلْ والهمزة) هنا، وإلّا لزمَ أنَّ لهم كتابًا يَدرسونَهُ، وفيه حقُّ الاختيار لهُم، فالتَّقديرُ: (بلْ ألكُم)، فـ(أم) فيه مُنقطعةٌ بمعنى (بل) الإضرابيَّة، والهمزةُ للإنكارِ[4]، وهذا هو التَّقريعُ الرّابعُ[5]، والمنعُ لأنْ يكونَ لهم دليلٌ نقليٌّ يَعتمدونَ عليه في أنَّ لهم أفضليَّةً أوْ مُساواةً للمُسلمين في الجزاءِ يوم القيامة، بعدَ أنْ نفى دَعواهم بالسَّند على عدمِ التَّساوي بينَ المُسلمينَ والمُجرمينَ عند الله في الجَزاء، قال ابنُ عاشور: "إضْرابُ انتقالٍ من تَوْبيخٍ إلى احْتِجاجٍ على كَذِبِهِمْ، والاستِفْهامُ المُقَدَّرُ مَعَ (أمْ) إنْكارٌ لأنْ

(1) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 3/ 153.
(2) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 10/ 1538.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 38، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 102.
(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 101.
(5) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 125.

يَكونَ لَهُمْ كِتابٌ إنْكارًا مَبْنيًّا عَلَى الفَرْضِ، وإنْ كانوا لَمْ يَدَّعوهُ[1]، لكنَّ المانعَ يسدُّ كلَّ الطُّرقِ على المدَّعي، ويَعمَدُ على تفنيدِها الواحدةَ تِلوَ الأُخرى؛ لإقامةِ الحُجَّةِ على سُقوطِ دَعواهم بطريقِ السَّبرِ والتَّقسيم، قال القونويُّ في تفسيرِ إضرابِ الانتقالِ دونَ الإبطال: "هذا مقابلٌ لما قبلَهُ؛ نظرًا إلَى المآل، أي: أختلَّ فكرُكم، وفسَدَ رأيُكم حتّى حكمتُم بهذا؛ قياسًا بأمرِ الآخرَة عَلَى أمرِ الدُّنْيا؟ أم لكُم كتابٌ ربانيٌّ نازلٌ منَ السَّماء، فأْتوا بكتابِكم إنْ كُنْتُمْ صادقينَ"[2]، قال الدَّرويش: "وهذا هو التَّقريعُ الرّابع"[3].

معنى (اللّام) في ﴿لَكُمْ﴾:

التَّمليكُ للكِتاب لتفنيدِ أيِّ جَواب

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بـ(اللّام) الجارَّة، في قولِهِ تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ﴾؛ للدَّلالة على الملكيَّةِ والاختصاص، والغرضُ من تمليكِهم الكتابَ المطالبةُ بإخراجِهِ وقراءتِه على أنَّ لهم وعْدًا حسَنًا يومَ القيامةِ بالجَزاء الأوفرِ دونَ المُسلمين.

سرُّ تقديمِ شِبهِ الجُملة ﴿لَكُمْ﴾:

تمايزُ الفريقينِ بوجودِ كتابٍ وعدمِهِ بينَ الطَّرفين

قدَّمَ النَّظمُ الكريم الجارَّ والمجرورَ المتعلِّقَ بالخبرِ المحذوفِ وجوبًا من مادَّةِ الاستقرار، في قولِه تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ﴾، والتَّقدير: (بل ألَكم كتابٌ استقرَّ) أي: أُنكِرُ أنْ يكونَ لكم كتابٌ ثبتَ فيه شيءٌ ممّا تقولونَ؛ والتَّقديمُ للدَّلالة على الحصرِ والقَصر، أي: كتابٌ لكم دونَ غيرِكم تَدرسونَهُ، وتقرؤونَ فيهِ أنَّ لكم حقَّ الاختيار والتَّشهّي، والغرضُ من التَّقديمِ صرفُ الاهتمامِ إلى أنَّ للمُسلمينَ كتابًا يُحدِّدُ فيه الأجرَ للمُسلمين دونَ المُجرمين، وأنتم لا تمتلكونَ كتابًا مثلَهُ، في حين رأى ابنُ عاشور أنَّ تَقْديمَ ﴿لَكُمْ﴾ على المُبْتَدَأ، وهوَ ﴿كِتَٰبٌ﴾؛

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 93.

(2) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 241.

(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 180.

لِأنَّ المُبتَدَأ نَكِرَةٌ، وتَنكيرُهُ مَقصودٌ لِلنَّوعيَّة، فَكانَ تَقديمُ الخَبَرِ لازِمًا"[1]، مع أنَّه سيأتي عنه أنَّ ﴿فِيهِ﴾ يحتملُ أنْ يكونَ صفةً للكتاب، وحينَئذٍ فإنَّ التَّقديمَ غيرُ لازمٍ، ويُعلَّلُ بإرادةِ الانحصار.

سرُّ التَّنكيرِ في ﴿كِتَٰبٌ﴾:

إسنادُ الكتابِ للأُمّيِّ تنبيهٌ للجاهِليِّ

نكَّرَ النَّظمُ الكريم لفظَ ﴿كِتَٰبٌ﴾، في قولِهِ تعالى: ﴿أَمۡ لَكُمۡ كِتَٰبٞ فِيهِ تَدۡرُسُونَ﴾؛ للدَّلالة على النَّوعيَّة، أي: كتابٌ من نوعٍ خاصٍّ يُذكَرُ فيه ذلك الحقُّ، ويحتملُ أن يكون التَّنكيرُ للتَّفخيم والتَّعظيم من شأنِ الكتابِ، على فَرَضِ وجودِهِ وتقديره، وفيه تهكُّمٌ بهم؛ لأنَّهم أُمّيون لا يَمتلكونَ كتابًا يَدرسونَهُ، ويَحفظونَهُ، وقد كُتِب لهم فيهِ ما يَشتهونَ، ويتخيَّرونَ.

تحديدُ مُتعلِّقِ الجارِّ ومَرجِعِ الضَّمير ﴿فِيهِ﴾:

أثرُ تحديدِ مُتعلِّقِ الجارِّ على تنوُّعِ المَعنى والاعتِبار

يحتملُ حرفُ الجرِّ (في) من قولِهِ تعالى: ﴿أَمۡ لَكُمۡ كِتَٰبٞ فِيهِ تَدۡرُسُونَ﴾ أنْ يكونَ مُتعلِّقًا بـ(كتاب)، و(في) حينَئذٍ: لِلتَّعْليلِ أوِ الظَّرْفيَّةِ المَجازيَّة، كَما تَقولُ: (وَرَدَ كِتابٌ في الأَمْرِ بِكَذا، أو في النَّهْيِ عَن كَذا)، والضَّميرُ حينَئذٍ عائدٌ إلى الحُكمِ المُستفادِ من قولِهِ فيما سبقَ: ﴿كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾، ويكونُ ﴿فِيهِ﴾ ظَرفًا مُستَقِرًّا صِفَةً لِـ ﴿كِتَٰبٌ﴾، وجملةُ ﴿تَدۡرُسُونَ﴾ حالًا، والتَّقديرُ: (بلْ أَستَقرَّ لكم كتابٌ ثبتَ في الحُكْمِ حالَ كونِكم تدرسونَهُ، وتحفظونَهُ، وتُرَدِّدونَه؟)، ويَجوزُ أَنْ يَكونَ الضَّميرُ في ﴿فِيهِ﴾ عائِدًا إلَى ﴿كِتَٰبٌ﴾، ويَتَعَلَّقُ المَجْرورُ بِفِعْلِ ﴿تَدۡرُسُونَ﴾ على أنَّه ظرف لغوٍ، وتكون جملةُ ﴿فِيهِ تَدۡرُسُونَ﴾ بِرُمَّتِها صفةً أَوْ حالًا من ﴿كِتَٰبٌ﴾، وجُعِلَت الدِّراسَةُ العَميقَةُ بِمَزيدِ التَّبَصُّرِ في ما يَتَضَمَّنُهُ الكِتابُ بِمَنْزِلَةِ الشَّيءِ المَظْروفِ في الكِتابِ، كَما تَقولُ: لَنا دَرْسٌ في كِتابِ سيبَوَيْهِ، وفي هَذا إِدْماجٌ بِالتَّعْريضِ بِأَنَّهُم أُمّيّونَ لَيسوا أَهْلَ كِتابٍ، وأَنَّهُمْ لَمّا جاءَهُمْ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 93.

كِتابٌ لِهَدْيِهم وإلْحاقِهِمْ بالأُمَمِ ذاتِ الكِتابِ؛ كَفَروا نِعْمَتَهُ، وكَذَّبوهُ، قال تعالى: ﴿لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٠﴾ [الأنبياء: 10]، وقال: ﴿أَوۡ تَقُولُواْ لَوۡ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمۡۚ فَقَدۡ جَآءَكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞۚ﴾ [الأنعام: 157][1]، ورجَّحَ القونويُّ الثّانيَ بقوله: "و﴿فِيهِ﴾ صِلةُ ﴿تَدۡرُسُونَ﴾ قُدِّمَ عليهِ لرعايةِ الفاصلة، فحينَئِذٍ الضَّميرُ للكتاب، ويجوزُ تعلُّقُه بمتعلَّقِ الخبرِ، والضَّميرُ لـ(حُكمِهم)؛ فحينَئِذٍ ﴿تَدۡرُسُونَ﴾ استِئْنافٌ، وكونُه حالًا ضعيفٌ؛ إذِ المقارنةُ تحتاجُ إلَى التَّمحُّل، والظّاهر هوَ الأوَّلُ؛ إذِ الثّاني يَحتاجُ إلَى تقديرِ المُضاف، أي: في بيانِ حُكمِهم"[2]، وجوَّزَ الهرريُّ الظَّرفيَّةَ الحقيقيَّةَ، بإرجاعِ ضميرِ ﴿فِيهِ﴾ إلى: يوم القيامة[3].

مَعنى الفعلِ المُضارِع ﴿تَدۡرُسُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

إنكارُ كتابٍ يَتدارسونَهُ تعريضٌ بعميقِ ما يَجهلونَهُ

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بالفعلِ المضارع ﴿تَدۡرُسُونَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَمۡ لَكُمۡ كِتَٰبٞ فِيهِ تَدۡرُسُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على الإنكارِ لامتلاكِهم كتابًا، فيه ذلك الحُكمُ المُدّعى حالَ كونِهم يتدارسونَهُ فيما بينَهُم، على سبيلِ التَّجدُّدِ والتَّكرارِ والمُراجعةِ المُستمرَّة، قالَ القونويُّ: "أي: على الدَّوام، ولذا لم يَجِئِ الماضي"[4]، وتُفيدُ المادَّةُ المتابعةَ بالقراءة والاعتناءَ بالمُراجعةِ الدّائبةِ من أجلِ الضَّبط والإتقانِ للمادَّة المدروسةِ فيه، والأحكام المُشتمِل عليها الكتابُ، وفيه تعريضٌ بأُمّيَّتِهم وجَهلِهم بالكتبِ، فضلًا عن المُدارسةِ والمُتابعةِ والمُراجعةِ.

مَوقِعُ جُملةِ ﴿تَدۡرُسُونَ﴾:

تعدُّدُ التَّوجيهات وأثرُهُ في الدَّلالات

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بالجملةِ الفعليَّةِ ﴿تَدۡرُسُونَ﴾، من قولِه تعالى: ﴿أَمۡ لَكُمۡ كِتَٰبٞ فِيهِ تَدۡرُسُونَ﴾؛ للدَّلالة على التَّجدُّدِ والحدوثِ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 93.

(2) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 242.

(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 101.

(4) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 241.

لعمليَّة المُدارسَة والمُتابعة، لكنَّ هذه الجملة تحتملُ أنْ تكونَ حاليَّةً مقيَّدةً؛ إنْ جعلنا ضميرَ ﴿فِيهِ﴾ راجعًا إلى الحُكم المدَّعى، والتَّقدير: (كتابٌ في الحُكم المدَّعى حالَ كونِكُم تدرسونَهُ)، أوِ استئنافٌ للدَّلالة على إنكارِ الكتاب المتضمِّن للحُكم المدَّعى فقط، ثمَّ استأنفَ، فقالَ: ﴿تَدۡرُسُونَ﴾[1]، وإنْ جعلنا ضميرَ ﴿فِيهِ﴾ راجعًا إلى (الكتاب)، فإنَّ جملةَ ﴿فِيهِ تَدۡرُسُونَ﴾ تحتملُ أنْ تكونَ حالًا مُقيِّدةً لاستقرارِ الكتابِ لهُم، وتحتملُ أنْ تكونَ صفةً للكتاب بأنَّه مدروسٌ، ولا يحتملُ الاستئنافَ حينَئِذٍ؛ لأنَّ الضَّمير لا يرجعُ إلى ما انفصلَ الكلامُ عنهُ.

مَعنى ﴿إِنَّ﴾ والغرضُ مِنها:

تنزيلُ المَعدوم منزلةَ الموجود للرَّدِّ على المُفترضِ المَوهوم

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بـ﴿إِنَّ﴾، في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ لَكُمۡ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّأكيدِ للحُكم المُنكَر عليهم، على جهةِ التَّهكُّم بهم؛ والاستخفافِ بدَعواهم؛ إذِ المعترضُ عليهم يُنزِّلُ منعَهُ على وفقِ دَعواهم أنَّ لهم سندًا حقيقيًّا، ويفترضُ أنَّ هذا السَّند مؤكَّدٌ عندَهم، ثمَّ يُكرُّ عليه بالرَّدِّ والتَّفنيد.

سرُّ تقديمِ الخبرِ في ﴿إِنَّ لَكُمۡ﴾:

التَّهكُّمُ بالجاهلين لينظُروا للحقيقةِ بطريقِ المُعتبرين

قدَّمَ النَّظمُ الكريم شبهَ الجُملة ﴿لَكُمۡ﴾ المتعلِّقَ بالخبرِ المحذوفِ وجوبًا من مادَّة (الاستقرار)، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكُمۡ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾؛ للدَّلالة على الحَصْرِ والقَصْر، فيكونُ التَّخيُّرُ لكم دونَ غيرِكم، وبذلك يتناسَقُ التَّقديمانِ في الدَّلالةِ على الحَصْرِ، فيكونُ الكتابُ الذي تدرسونَ فيه لكم لا لغيرِكُم، والتَّخيُّرُ لكُم دونَ مَن سِواكم، وكلُّ هذا التَّقديم يفيدُ التَّعريضَ والتَّهكُّمَ بحالِهم؛ ليَنظروا نظرةَ مُعتبِرٍ في حقائقِ الأمور، ويُقلِعوا عن الأوهامِ والرَّجمِ بالغَيب.

مَعنى الجارِّ والمجرورِ ﴿فِيهِ﴾:

عبَّر النَّظمُ الكريم بالجارِّ والمجرورِ ﴿فِيهِ﴾، في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ

---

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 126.

الظَّرفيَّةُ الحقيقيَّةُ والمَجازيَّةُ ردٌّ على ادِّعائِهم الاختياريَّة

﴿لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾؛ إمّا للدَّلالةِ على التَّأكيدِ اللَّفظيِّ لـ﴿فِيهِ﴾ في ﴿فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾، وقد أُعيدَ لمزيدِ الرَّبط بين الجُملتين، الدّارسة في الكتابِ والمَدروسةِ الَّتي هي لفظُ ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾؛ بناءً على أنَّ ضميرَ ﴿فِيهِ﴾ الثّانيةِ راجعٌ إلى (الكتاب)، وأمّا إنْ عادَ الضَّميرُ في ﴿فِيهِ﴾ إلى يومِ القيامةِ، فلا يكونُ توكيدًا، بل يدرسونَ في الكتابِ أنَّ لهم في يومِ القيامةِ تخيُّرًا، ولا تكون الجملةُ محكيَّةً بلفظِها، والظَّرفيَّةُ على الأوَّل مجازيَّةٌ؛ إذ التَّخيُّرُ لا يكونُ في الكتاب حقيقةً بل باعتبارِ ما في الكتاب، وعلى الثّاني فالظَّرفيَّةُ حقيقيَّةٌ لوقوعِ التَّخيُّرِ في يومِ القيامة، وعلى كلتا الظَّرفيَّتينِ يحصلُ النَّفيُ لتخيُّرِهم باعتبارِ ما في الكتابِ أو بالنَّظرِ إلى يومِ القيامة.

معنى (اللّام) في ﴿لَمَا﴾:

تَوالي المُؤكِّدات لرفضِ جميعِ الادِّعاءات

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بـ(اللّام) في قولِه تعالى: ﴿لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾؛ للدَّلالة على التَّوكيدِ؛ بناءً على أنَّها لامُ الابتداءِ الواقعةُ في حيِّز ﴿إِنَّ﴾، سواءٌ كانَ موقِعُ جملةِ ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ مفعولًا به محكيَّ اللَّفظِ على أنَّها جملةٌ، أوْ كانتْ واقعةً موقِعَ المفردِ على أنَّها مفعولٌ به، وفُتِحتْ (إنَّ) بسببِ وقوعِ (لام الابتداءِ) في حيِّزِها، كما تحتملُ أنْ تكونَ (اللّام) زائدةً للتَّوكيد؛ بناءً على فتحِ همزةِ (أنَّ)، وعلى كلا التَّوجيهينِ فإنَّ (اللّام) تفيدُ التَّوكيدَ كما تفيدُهُ ﴿إِنَّ﴾، والتَّوكيدانِ مَعَ التَّوكيدِ المُستفادِ من ثُبوتِ الجُملةِ الاسميَّة، وتقديمِ الخَبرِ على المبتدأ، مَسوقٌ للتَّهكُّمِ بحالِهم والتَّقريعِ على أوهامِهم وظنونِهم؛ إذ كلُّ هذه المؤكِّدات واردةٌ في سياقِ النَّفيِ والإنكارِ والرَّدِّ والمَنع، ولذا قال الطَّبريُّ: "وهذا أمرٌ من اللّه، توبيخٌ لهؤلاءِ القومِ وتقريعٌ لهم فيما كانوا يقولونَ منَ الباطل، ويتمنَّونَ من الأمانيِّ الكاذبة"[1].

(1) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 553.

معنى (ما) والغرضُ منِها في ﴿لَمَا﴾:

عمومُ المُتخيّرات إبـطـالٌ لظُـنـونِ الخُرافات

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بـ(ما) الموصولةِ في قولهِ تعالى: ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾؛ للدَّلالة على العُموم والشُّمول للمُتخيَّر، الصّادقِ بكلِّ صوَرِ التَّشهّي؛ استخفافًا بعقولِهم وازدراءً لأوهامِهم؛ إذ كلُّ ذلك على سبيلِ الفَرْض المَنفيِّ وقوعُهُ وحصولُه، ويُلمَح في (ما) هذه دلالةُ التَّفظيعِ والتَّفخيم والتَّهويلِ لذلك الحُكم؛ لافتئاتِهم بِه على اللّهِ تعالى.

مَعنى الفعلِ المُضارعِ ﴿تَخَيَّرُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

إبـطـالُ الـتَّـخـيُّرِ دعوةٌ للتَّفكُّر

عبَّر النَّظمُ الكريمُ عن صدرِ جُملة الصِّلة بالفعلِ المُضارعِ ﴿تَخَيَّرُونَ﴾، في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّجدُّدِ الاستمراريِّ للتَّخيُّرِ بحيثُ يَتخيَّرونَ ما يشاؤونَ في الكتابِ أو في يوم القيامة، كما تُفيدُ صيغةُ التَّفعُّلِ المُطاوعةَ، فيكونُ الكتاب قد أعطاهُم حقَّ التَّخيُّر، فيَتخيَّرونَ ما يشاؤونَ في ذلك اليوم أو في ذلك الكتاب، كما تحتملُ الصّيغةُ دلالةَ التَّكلُّف، ولذا قال ابنُ عاشور: "﴿تَخَيَّرُونَ﴾ أصلُهُ تَتَخَيَّرونَ بتاءَيْن، حُذِفَتْ إحْداهُما تَخفيفًا، والتَّخَيُّرُ: تَكَلُّفُ الخَيرِ، أي: تَطَلُّبُ ما هوَ في أخْيَرَ، والمَعْنَى: إنَّ في ذَلِكَ الكِتابِ لَكُمْ ما تَختارونَ من خيرِ الجَزاءِ"[1].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الدَّرسُ والعلمُ والمَعرفة:

الـدَّرسُ أعـمُّ منهُما عُمومًا مُطلَقًا

(الدَّرسُ) أعمُّ من (العِلْم والمَعرفةِ)، فإنَّ الملحوظَ في الدَّرسِ جهةُ تكريرِ النَّظر وإدامةِ العمَل، وأمّا حصولُ العِلْم والمَعرفة؛ فغيرُ مأخوذٍ في مَفهومِه، وهذا لطفُ التَّعبيرِ بالمادَّة في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾ دونَ (العلْم والمَعرفة)، فإنَّ النَّظر في الآياتِ إلى هذه الجهةِ الظّاهريَّة من دونِ حُصولِ علْمٍ ويَقينٍ[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 94.

(2) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 3/ 191.

﴿أَمۡ لَكُمۡ أَيۡمَٰنٌ عَلَيۡنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمۡ لَمَا تَحۡكُمُونَ ٣٩﴾ [القلم: 39]

استمرارُ التَّسخيفِ والتَّقريع على ذلك القولِ الوَضيع

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

لمّا وبَّخَهم اللهُ تعالى، وأنكرَ عليهم امتلاكَ الدَّليلِ العقليِّ والنَّقليِّ على صحَّةِ تخيُّرِهم جزاءً أفضلَ أوْ مُساويًا لجزاءِ المُؤمنين؛ ناسَبَ أن يوبِّخَهم على سبيلِ الفَرْض أيضًا امتلاكَهُم قَسَمًا من اللهِ تعالى ويَمينًا صادقةً على صحَّةِ ما يَحكُمونَ، ويدَّعونَ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَيۡمَٰنٌ﴾: جمْع يمين، وله إطلاقات، فاليَمينُ يمينُ اليدِ، ويقالُ على: القوَّة والبَركة والحَلف، وكلُّ ذلك منَ اليدِ اليُمنَى، وسُمّيَ الحَلفُ يَمينًا؛ لأنَّ المُتحالفَينِ كأنَّ أحدَهما يَصفِقُ بيمينِه على يمينِ صاحبِه[1]، والمُيمَّن: الَّذي أتى باليُمن والبركة[2]، ويمينُ الحَلف أُنثى، وتُجمَعُ على أيمُنٍ وأيمانٍ أيضًا[3]، فهو قوَّةٌ في خيرٍ معَ زيادةٍ، وهذا في قِبالِ الشُّؤْم، وهو ضَعفٌ وضَعَةٌ في شرٍّ، والمرادُ بهِ في الآيةِ: الحَلفُ والقَسَمُ.

2) ﴿بَٰلِغَةٌ﴾: (البلوغُ) أصلٌ واحدٌ، وهو الوُصول إلى الشَّيء، بلغْتُ المكانَ؛ إذا وصلتَ إليهِ[4]، والبُلوغ والبلاغُ: الانتهاءُ إلى أقصى المَقصَد والمُنتهَى مَكانًا كانَ أو زمانًا أو أمرًا منَ الأمورِ مُقدَّرًا، وربَّما يُعبَّرُ به عنِ المُشارفةِ عليه، وإنْ لم يَنتهِ إليه[5]، فهو الوصولُ إلى الحَدِّ الأعلى والمَرتبةِ المُنتهَى[6]، وهو المُرادُ بهِ في الآيةِ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (يمن).
(2) الخليل، العين: (يمن).
(3) الفيوميّ، المصباح المنير: (يمن).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بلغ).
(5) الرّاغب، المفردات: (بلغ).
(6) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 1/ 296.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

نَفْيُ العُهودِ عَن كلِّ ظالمٍ جَحود

المعنى: بلْ أَلَكُم عُهودٌ علَينا، ومَواثيقُ مؤكَّدةٌ بالأيمان باقيةٌ ثابتةٌ إلى يوم القيامة، مقتضاها أنَّ لَكُم ما تَحكمونَ به، وتَقضونَ، وأنَّه سيَصِلُ إليكُم ما تُحبّونَ، وما تَشتهون؟[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مَعنى ﴿أَمْ﴾ والغرَضُ مِنها:

الغَرَضُ الاستدلاليُّ لسَدِّ صوَرِ الاختلال

عبَّر النَّظمُ الكريمُ بـ﴿أَمْ﴾ المُنقطِعة في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا﴾؛ للدَّلالة على الإضراب مَعَ تضمُّنِ همزةِ الاستفهام للإنكار[2]، وهذا الإضرابُ انتقاليٌّ لا إبطاليٌّ لما قبلَه، ولذا قالَ ابنُ عاشور: "﴿أَمْ﴾ لِلانتِقالِ إلَى دَليلٍ آخَرَ، وهوَ نَفْيُ أنْ يَكونَ مُسْتَنَدُ زَعْمِهم عَهْدًا أخَذوهُ عَلَى اللهِ لِأَنْفُسِهِم أنْ يُعامِلَهُمْ يَوْمَ القيامَةِ بِما يَحْكُمونَ بِهِ لِأَنْفُسِهِم، فالاسْتِفهامُ اللّازِمُ تَقْديرُهُ بَعْدَ (أمْ) إنْكاريٌّ"[3]، وذلك الإنكارُ لأمرٍ افتراضيٍّ؛ إذ لم يدَّعوا أنَّ ما حكَموا به من أفضليَّةِ جَزائِهم على المُسلمينَ أوْ مُساواتِهم لهُم مبنيٌّ على أيمانٍ وعُهودٍ قُطِعَتْ لهم، بل يفترضُ الحِجاجُ القرآنيُّ بطريقِ السَّبرِ والتَّقسيم صوَرًا للادِّعاء، ويعمَدُ إلى تفنيدها لبيانِ سُقوطِ الدَّعوى بكلِّ ما يُمكِنُ أنْ تقومَ عليه، قالَ الدَّرويش: "وهذا هو التَّقريعُ الخامسُ"[4].

دلالةُ شبهِ الجُملةِ ﴿لَكُمْ﴾ وسِرُّ تقديمِها:

اعتقادُهم بمدلولِ (اللّامُ والتَّقديم) جَرَّأهم على الكذب المُبين

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بشبهِ الجُملة ﴿لَكُمْ﴾ المُتعلِّقة بخبرٍ مَحذوفٍ وُجوبًا من مادَّةِ (الاستقرار)، في قولِه تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ﴾؛ للدَّلالة بـ(اللّام) الجارَّة على الاختصاصِ والتَّملُّكِ، وبالتَّقديم

(1) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 10/ 1538.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 102.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 94.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 180.

لمُتعلّقِ الخبرِ على الاختصاصِ والانحصار، ويكونُ التَّقدير: (الأيمانُ والعُهود لكم دونَ مَن سِواكم)، وهذا الَّذي جرَّأهُم على الحُكمِ بأنَّهم يتخيَّرونَ أفضلَ الجزاءِ وأحسَنَهُ يومَ القيامةِ.

دلالةُ الجمعيَّةِ والتَّنكيرِ في ﴿أَيۡمَٰنٌ﴾:

الأيمانُ المُتكاثِرة أورثَـتْـهُـم تـنـاقُـضـاتٍ مُتوهَّمة

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بلفظ ﴿أَيۡمَٰنٌ﴾ نكرةً مَجموعًا، في قولِهِ تعالى: ﴿أَمۡ لَكُمۡ أَيۡمَٰنٌ﴾؛ للدَّلالة على التَّكثيرِ المُتأتّي من دلالتَي التَّنكيرِ والجمعيَّة؛ حتّى إنَّ كثرَتَها قد أعطَتْكُم ذلك الادِّعاءَ الأجوف، ولمّا كان ذلك مُغلَّفًا بدَعوى الإنكارِ والتَّوبيخ؛ فإنَّه يلزمُ منه دلالةُ الاستخفافِ بعقولهم، الَّتي أقدمَتْ على حُكمٍ لا مُستنَدَ له ولا دليلَ عليهِ.

دلالةُ المَجازِ المُرسَلِ في ﴿أَيۡمَٰنٌ﴾:

الاقـتـصـارُ على الأيمـانِ القويَّة للرَّدِّ على الأفكارِ الوهميَّة

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بلفظِ (الأيمانِ)، في قولِهِ تعالى: ﴿أَمۡ لَكُمۡ أَيۡمَٰنٌ عَلَيۡنَا﴾؛ للدَّلالة على العُهودِ المُؤكَّدةِ بالأيمان، وعلَّقَ القونويُّ في إطارِ توجيهِهِ دلالةَ (المجازِ المرسَل) عندَ تأويلِ البيضاويِّ لـ(الأيمان) بقوله: "عهودٌ مؤكَّدة بالأيمان"[1] ما نصَّهُ: "ولمّا كانتِ الأيمان دالَّةً على العُهودِ بمعونةِ المَقام، أشارَ المُصَنِّفُ إلى أنَّ المُراد بالأيمانِ: عهودٌ... إلخ؛ مَجازًا بذِكرِ الجُزءِ القويِّ وإرادةِ الكُلِّ، لا بذِكرِ اللّازم وإرادةِ المَلزوم؛ فإنَّه لا لزومَ بَيْنَهُما"[2]. فالأيمانُ هي الجُزءُ القويُّ من الحقيقةِ المركَّبة من (العُهود والأيمان)، التي يدلُّ على إرادتِها المَقام، واقتصرَ النَّظمُ على الجزءِ الأقوى، وهو الأيمانُ، ولا تلازمَ بين (العُهود والأيمان)؛ إذ كثيرًا ما يكون تعاهدٌ خالٍ من التَّوكيدِ بالأيمان، والحاصلُ: أنَّ النَّظمَ ذكرَ الجزءَ القويَّ (الأيمان)، وأرادَ به الكلَّ (العهدَ المتقوّي بالأيمان)؛ إذ في ذِكرِ القويِّ استغناءٌ عن الضَّعيف، خاصَّةً إنْ كانَ اللَّفظُ دالًّا عليه بمَعونةِ المَقام.

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 236.

(2) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 243.

افتقادُ الدَّليلِ الكتابيِّ معَ افتقادِ الدَّليلِ الشفاهي على السَّبيلِ الافتراضيِّ

دلالةُ الفَرقِ بينَ (الكِتاب والأيمان):

عبَّر النَّظمُ الكريم في مقام الحِجاج على إنكارِ دليلٍ مِن (الكتابِ)، في قولِه تعالى قبلُ: ﴿أَمۡ لَكُمۡ كِتَٰبٞ فِيهِ تَدۡرُسُونَ﴾، أو من (الأيمانِ) على صحَّةِ حُكمِهم الفاسِدِ هُنا في قولِه تعالى: ﴿أَمۡ لَكُمۡ أَيۡمَٰنٌ﴾، مع أنَّ الأيمانَ أو العهودَ تكونُ في كتابٍ باعتبارِ الظّاهر، ولذا توقَّفَ ابنُ عرفةَ عندَ الفرقِ بين التَّعبيرينِ بقوله: "والمرادُ بـ(الكتابِ الّذي فيه يَدرسونَ): ما اشتملَ عليه الكتابُ من الألفاظِ الظّاهرةِ الدَّلالة، والمرادُ بـ(الأيمانِ البالغة): الألفاظُ الدّالَّةُ [اقتضاءً]، أوِ المرادُ بالأوَّلِ: النَّصُّ، وبالثّاني: تركيبُ الخُصوص، أوِ المرادُ بالأوَّلِ: الدَّليلُ السَّمعيُّ المُعجزيُّ، وبالثّاني: الدَّليلُ السَّمعيُّ غيرُ المُعجزيِّ، فإنَّ الوحيَ قسمانِ، فالقرآنُ مُعجزٌ، والسُّنَّةُ غيرُ مُعجزة"[1]، والَّذي يبدو: أنَّ (الأيمانَ) والعهودَ المقطوعة لم تكُن في (الكتاب)؛ إذِ الأصل فيها أنْ تكونَ مُشافهةً، بل ذُكِرَ كلٌّ من (الكتاب والأيمان) على سبيلِ الفَرْضِ؛ لاستكمالِ صوَرِ الرَّدِّ فحسبُ.

تقويةُ الأيمانِ والعُهودِ لتأكيدِ المَواثيقِ والبُنود

دلالةُ الاستعارةِ في ﴿عَلَيۡنَا﴾ والغرضُ منها:

استعارَ النَّظمُ الكريمُ حرفَ الجرِّ (على)، في قولِه تعالى: ﴿أَمۡ لَكُمۡ أَيۡمَٰنٌ عَلَيۡنَا﴾؛ للدَّلالة على الاستعلاءِ المجازيِّ، والأصلُ أنَّ اليمينَ يكونُ في ذِمَّةِ الحالفِ، أو يقومُ به، وليسَتْ عليه، لكنَّه أرادَ الدَّلالةَ على تمكُّنِ اليمينِ من الحالفِ تمكُّنَ المُستعلي من المُستعلَى عليه، فشبَّهَ القيامَ لليمينِ أو الظَّرفيَّةَ المَجازيَّةَ في الذِّمَّة بالاستعلاءِ بجامعِ الاستقرارِ والحُصول، ثمَّ حَذفَ المشبَّه، وأبقَى المشبَّهَ به على سبيل الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّة، والغرضُ من الاستعارةِ شدَّةُ اليمينِ وقوَّتُه، حتَّى إنَّه صار أعلى من الحالفِ مَجازًا؛ للدَّلالة على الالتزامِ لو وقعَ، لكنَّه أمرٌ منكَرٌ وغيرُ واقعٍ إلّا على سبيل الفَرْضِ والحِجاج.

---

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 274.

دلالةُ الكِنايةِ في ﴿لَكُمۡ أَيۡمَٰنٌ عَلَيۡنَا﴾:

اليَمينُ على اليَمين تشديدٌ للعَهْدِ القَويم

كنَّى النَّظمُ القرآنيُّ في قولِه تعالى: ﴿لَكُمۡ أَيۡمَٰنٌ عَلَيۡنَا﴾ عن إجراءِ اليمينِ على يمينِ الوفاءِ بالأمر، فيكونُ التَّركيب مُستعملًا في لازم مَعناه، قال الرّازيُّ: "يُقالُ: لِفُلانٍ عَلَيَّ يَمينٌ بِكَذا؛ إذا ضَمِنتَهُ منه، وحلَفْتَ لهُ على الوفاءِ بِهِ، يَعْني: أم ضَمِنّا مِنكُمْ، وأقْسَمْنا لَكُم بِأيْمانٍ مُغَلَّظَةٍ مُتَناهيَةٍ في التَّوْكيدِ"[1]، فيكون الحالفُ قد حلفَ أوَّلًا يمينًا على الوفاءِ بالعهدِ، ثمَّ أجرى حَلفًا آخرَ على الالتزام بتلكَ اليمينِ، قال أبو إسحاق: "أي: حلفَ لكُم على ما تدَّعونَ في حُكمِكُم"[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بضميرِ المُتكلِّمينَ ﴿عَلَيۡنَا﴾:

تقويةُ الأيمان لتثبيتِ العَهْدِ المُصان

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بضميرِ المتكلِّم ومعَهُ غيرُهُ، في قولِه تعالى: ﴿أَمۡ لَكُمۡ أَيۡمَٰنٌ عَلَيۡنَا﴾؛ للدَّلالة على عظمةِ صاحبِ اليَمين، فيستمدُّ اليمينُ منه قوَّةَ التَّأكيدِ والثَّبات؛ إذ يتأكَّدُ الحلَفُ، ويتقوّى بالجهةِ الَّتي تصدرُ عنها تلك الأيمان.

الموقعُ الإعرابيُّ لشبهِ الجُملة ﴿عَلَيۡنَا﴾:

الالتزامُ بثبوتِ حُقوقِ للمحلوفِ لهُ في الكَلام

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بشبهِ الجُملة ﴿عَلَيۡنَا﴾، في قولِه تعالى: ﴿أَمۡ لَكُمۡ أَيۡمَٰنٌ عَلَيۡنَا بَٰلِغَةٌ﴾ الواقعةِ نعتًا للأيمان، والتَّقدير: (أيمانٌ ثابتةٌ علينا)، والغرضُ من ثُبوتها: إثباتُ حقِّ المَحلوفِ لهُ على الحالفِ؛ ليكونَ مُلتزِمًا بحقوقٍ للمحلوفِ له، لا يتنازلُ عنها، ولا يَتركُها.

دلالةُ تقديمِ النَّعتِ الثّاني على الأوَّل ﴿عَلَيۡنَا﴾:

تقديمُ جهةِ الصُّدور لبيانِ أنَّه القَسَمُ المَبرور

قدَّمَ النَّظمُ الكريم النَّعتَ الثّاني ﴿عَلَيۡنَا﴾ على النَّعتِ الأوَّلِ ﴿بَٰلِغَةٌ﴾، في قولِه تعالى: ﴿أَمۡ لَكُمۡ أَيۡمَٰنٌ عَلَيۡنَا بَٰلِغَةٌ﴾؛ للدَّلالة على الاهتمامِ بجهةِ مَن يقعُ عليهِ الحَلفُ على كونِ الأيمانِ مؤكَّدةً؛ لأنَّه

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 612.

(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 22/ 110.

عندَما يعلَمُ أنَّ الجهةَ الَّتي صدر منها العهدُ المؤكَّدُ بالأيمان المغلَّظة هو اللّه تعالى، يتيقَّنُ المحلوفُ له أنَّه لا يتركُهُ من دونِ أداءٍ وإنجازٍ.

دلالةُ ﴿بَٰلِغَةٌ﴾ مادَّةً وصيغةً وموقِعًا:

البلوغُ نِهايةُ الجَودَة وغايةُ الصِّحَّة

نعتَ النَّظمُ الكريمُ بلفظِ ﴿بَٰلِغَةٌ﴾ الأيمانَ، في قولِه تعالى: ﴿أَمۡ لَكُمۡ أَيۡمَٰنٌ عَلَيۡنَا بَٰلِغَةٌ﴾؛ للدَّلالة على أنَّها "متناهيةٌ في التَّوكيدِ والصِّحَّة؛ لأنَّ كلَّ شيءٍ يكونُ في نِهايةِ الجَودة وغايةِ الصِّحَّة يوصَفُ بأنَّه بالغٌ"[1]، فالبالغةُ: متناهيةٌ في التَّوكيدِ، أي: تأكيدًا لا فوقَهُ تأكيدٌ، وهذا معنى (متناهيةٌ في التَّوكيد)، وهو مَعنى ﴿بَٰلِغَةٌ﴾؛ فإنَّ معناهُ: بالغةٌ أقصى ما يُمكِنُ، فحُذِفَ منهُ؛ لدلالة البلوغِ عليهِ معَ الاختصارِ"[2].

دلالةُ الاستعارةِ المَكنيَّةِ في ﴿بَٰلِغَةٌ﴾:

اليمينُ المُغلَّظة كأنَّها إلى هَدَفِها واصِلة

استعارَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ ﴿بَٰلِغَةٌ﴾، في قولِه تعالى: ﴿أَمۡ لَكُمۡ أَيۡمَٰنٌ عَلَيۡنَا بَٰلِغَةٌ﴾؛ لليمينِ المغلَّظةِ والمؤكَّدة؛ إذ شبَّه ضميرَ ﴿بَٰلِغَةٌ﴾ العائدَ إلى اليمينِ المغلَّظة المؤكَّدة المقصودِ إنجازُها بالشَّيءِ الَّذي بلغَ نهايةَ السَّير، واكتملَ وصولُهُ لهدفِه، ثمَّ حذفَهُ، وأبقى من خواصِّه ولوازمِه ﴿بَٰلِغَةٌ﴾، وأسندَها إلى ضميرِ ﴿أَيۡمَٰنٌ﴾ تخييلًا، فالاستعارة مكنيَّة، قال ابن عاشور: "وأصلُ البالِغَة: الواصِلَةُ إلى ما يُطْلَبُ بها، وذَلِكَ استِعارَةٌ لِمَعنى مُغَلَّظَة، شُبِّهَتْ بِالشَّيْءِ البالِغِ إلى نِهايَةِ سَيْرِه، وذَلِكَ كَقَولِه تعالى: ﴿قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ﴾ [الأنعام: 149]"[3].

تحديدُ متعلِّق ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ﴾ ودلالتُهُ:

الحفاظُ على الاستعارة والمُغيّا مُرجِّحانِ للتَّعلُّق بالفعل المَنْوي

جوَّزَ المفسِّرونَ تعلُّقَ الجارِّ والمجرورِ ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، بالاستقرارِ المقدَّرِ في ﴿لَكُمۡ﴾، أوْ بلفظِ ﴿بَٰلِغَةٌ﴾، أوْ بلفظِ ﴿أَيۡمَٰنٌ﴾، في قولِه

---

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 102.

(2) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 243.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 94.

تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، وبعضُهم رجَّحَ - لقرائنَ معنويَّةٍ - أحدَ الوجوهِ على الأخرى، وفقَ التَّفصيلِ الآتي:

ذهبَ الكسائيُّ إلى أنَّ ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ متعلِّقٌ بـ﴿بَٰلِغَةٌ﴾، أي: مُتناهيةٌ في التَّأكيدِ تَنتهي إلى يومِ القيامةِ، قال الهرريُّ: "مُتعلِّقٌ بـ ﴿بَٰلِغَةٌ﴾، أي: أيمانٌ تبلُغُ ذلك اليومَ، وتَنتهي إليه وافرةً لم تبطُلْ منها يمينٌ إلى أنْ يحصُلَ المُقْسَمُ عليه، الَّذي هو التَّحكيمُ واتِّباعُنا لحُكمِهم[1].

وذهبَ الفرّاءُ إلى أنَّه يجوزُ أنْ يكونَ صلةَ (الأيمان)، أي: أيمانٌ إلى يومِ القيامة[2]، وقال الهرريُّ: "وقوله: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ متعلِّقٌ بالمقدرِ في ﴿لَكُمْ﴾، أي: ثابتةٌ لكم إلى يومِ القيامةِ لا نخرُجُ من عُهدتِها حتّى نُحكِّمَكُم يَومئذٍ، ونُعطيَكُم ما تَحكمونَ"[3].

واستحسنَ ابنُ عاشور تعلُّقَ ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بالاستقرارِ "الَّذي في الخَبَرِ في قَولِهِ: ﴿لَكُمْ أَيْمَٰنٌ﴾، ولا يَحْسُنُ تَعَلُّقُهُ بـ ﴿بَٰلِغَةٌ﴾ تَعَلُّقَ الظَّرْفِ اللَّغْوِ؛ لِأَنَّهُ يُصَيِّرُ ﴿بَٰلِغَةٌ﴾ مُسْتَعْمَلًا في مَعْنَى مَشهورٍ قَريبٍ مِنَ الحَقيقَةِ، ومَحْمَلُ ﴿بَٰلِغَةٌ﴾ على الاستِعارَةِ الَّتي ذَكَرْنا أجْزَلُ[4]؛ لأنَّ تعلُّقَ ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بلفظ ﴿بَٰلِغَةٌ﴾ تجعلُها بمعنى: تبلُغُ، وتنتهي إلى يومِ القيامة، فلا تكونُ ﴿بَٰلِغَةٌ﴾ بمعنى مغلَّظة ومؤكَّدة كما قُرِّرَ في وجهِ الاستعارة، والاستعارةُ أبلغُ من الحقيقة، في حين رجَّحه القونويُّ أيضًا من جهةٍ أُخرى بقوله: "هو مُتعلِّقٌ بالمُقدَّر في ﴿لَكُمْ﴾، أي: ثابتةٌ لكم علينا إلى يومِ القيامةِ، وثابتةٌ أيضًا في يَومِ القيامَةِ؛ بناءً على أنَّ الغايةَ داخلةٌ في حُكمِ المُغيّا، أو مُتعلِّقٌ بـ﴿بَٰلِغَةٌ﴾، أي: أيمانٌ تبلغُ ذلك اليومَ، أي: واصلةٌ إليه، فـ[حينئذٍ] تفوتُ المُبالَغَة المَذْكورة"[5].

ونتيجةً للاختلافِ في تحديدِ المتعلَّقِ اختلفَ تأويلُ الكشّافِ للنَّظم، وعلَّلَهُ الطِّيبيُّ بقوله: "فإنْ قلتَ: لمَ قال في الوجهِ الأوَّل: "لا تخرج عن عُهدتها إلّا يومئذٍ"، وفي الثّاني: "وافرة لم تبطُلْ منها يمين"؟ قلتُ: لأنَّه إذا عُلِّقَ ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بالمقدَّر في ﴿لَكُمْ﴾،

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 102.
(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 22/ 110.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 102.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 95.
(5) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 243.

يدخلُ الأجلُ في حكمِ الوجوبِ المُستفاد من نفسِ الخبرِ ومُتعلَّقِه، أعني ﴿لَكُمۡ﴾ أصالةً، وإذا عُلِّقَ بـ﴿بَٰلِغَةٌ﴾، وهي صفةٌ للأيمان يكونُ الكلام أصالةً في الأيمان وبلوغِها إلى ذلك اليوم، بأن تكونَ محفوظةً من النُّقصان، مُؤدّاةً وافيةً تامَّةً، ألا ترى كيف أهملَ معنى ﴿بَٰلِغَةٌ﴾ في الأوَّلِ، واعتبرَهُ في الثّاني؟"(1).

دلالةُ الإضافةِ في ﴿يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾:

تعظيمُ اليَوْمِ بالحَدَثِ المُهِمِّ

أضافَ النَّظمُ الكريم لفظَ ﴿يَوۡمِ﴾ إلى ﴿ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، في قولِه تعالى: ﴿أَمۡ لَكُمۡ أَيۡمَٰنٌ عَلَيۡنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾؛ للدَّلالة على التَّعيينِ والتَّعريفِ لذلك اليوم، وقد اكتسبَ المضافُ من الإضافةِ دلالةَ الاهتمامِ والفخامةِ؛ لأنَّ حدثَ القيامةِ أمرٌ عجيبٌ وعظيمٌ، فيكونُ اليومُ المضافُ إليه مُتميِّزًا بعَظَمتِهِ وغَرابتِهِ.

الموقعُ الإعرابيُّ لشِبهِ الجُملة ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾:

كنايةُ النَّعتِ عن الحَدَثِ الأَبَدِ

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بشبهِ الجُملةِ نَعْتًا ثالثًا للفظِ ﴿أَيۡمَٰنٌ﴾، في قولِهِ تعالى: ﴿أَيۡمَٰنٌ عَلَيۡنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾؛ للدَّلالة بالكنايةِ على التَّأبيدِ وطولِ الأمَد، قال ابنُ عاشور: "أي: أيمانٌ مُؤَبَّدَةٌ لا تَحِلَّةَ مِنها، فَحَصَلَ مِنَ الوَصفَينِ أنَّها عُهودٌ مُؤَكَّدَةٌ ومُستَمِرَّةٌ طولَ الدَّهرِ، فَلَيسَ ﴿يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ مُنْتَهَى الأخْذِ بِتلكَ الأيْمانِ، بَلْ هوَ تَنْصيصٌ عَلَى التَّأبيدِ، كَما في قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [الأحقاف: 5]"(2)، ولذا اعتمدَ ابنُ عاشور في ترجيح تعلُّقِ ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ بمتعلِّق ﴿لَكُمۡ﴾ دونَ ﴿بَٰلِغَةٌ﴾ على اختفاءِ الاستعارة دونَ دخول الغايةِ في المغيّا؛ لأنَّ التَّأقيتَ الغائيَّ بيومِ القيامة أُريد بها الكنايةُ عن التَّأبيدِ دونَ حقيقةِ الغايةِ.

(1) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 593.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 94.

لا يَلزَمُ مِن بُطلانِ المَلزومِ بُطلانُ اللّازمِ

دلالةُ فصلِ الجُملةِ ﴿إِنَّ لَكُمۡ﴾:

فصلَ النَّظمُ الكريمُ قولَهُ تعالى: ﴿إِنَّ لَكُمۡ لَمَا تَحۡكُمُونَ﴾ عمّا قبله؛ إمّا لكونِ الجملة بيانًا لـ﴿أَيۡمَٰنٌ﴾؛ إذ يحتاجُ العهدُ المُؤَكَّدُ بالأيمانِ بيانَ تلكَ الأيمانِ والأقسامِ، فحكاها بلَفْظِها، وهو ﴿إِنَّ لَكُمۡ لَمَا تَحۡكُمُونَ﴾، فتكونُ ﴿إِنَّ﴾ مكسورةَ الهمزةِ؛ لكونِ المرادِ بالجملةِ حكايةَ لفظِها نفسِه، وهو ما ذهبَ إليه ابنُ عاشور[1]، وإمّا لكونِها جوابَ القَسَم كما قرَّرَهُ الزَّمخشريُّ بقوله: "لمّا تضمَّنَ ﴿أَمۡ لَكُمۡ أَيۡمَٰنٌ عَلَيۡنَا﴾ معنى القَسَمِ؛ أجابَهُ بقوله: ﴿إِنَّ لَكُمۡ لَمَا تَحۡكُمُونَ﴾، أي: لأقسَمنا لكم أيمانًا موثَّقةً بما تَحكُمونَ به لأنفُسِكم، فيجبُ علينا الوفاءُ بها[2]، وإمّا لكونها مستأنفةً ابتداءَ كلامٍ، أي: إنَّ لكُم لحُكْمًا إذا كان ذلك، والغرضُ أنَّه لم يكُن، فلا حُكمَ لكُم[3]، ويرى الطَّبريُّ أنَّها جملةٌ واقعةٌ موقعَ المفرد، فيكونُ كسرُ همزتِها لوقوعِ (اللّام) في حيِّزها، ولذا قالَ: "بأنَّ لكم ما تحكُمونَ، أي: بأنَّ لكم حُكمَكُم، ولكنَّ الألفَ كُسِرتْ من ﴿إِنَّ﴾ لمّا دخلَ في الخبرِ اللّام، أي: هل لكُم أيمانٌ علينا بأنَّ لكُم حُكمَكُم"[4]، وهو وجيهٌ للغايةِ.

تأكيدُ الكَلامِ لمُجاراةِ الأوْهامِ

مَعنى ﴿إِنَّ﴾، والغرضُ منها:

أكَّدَ النَّظمُ الكريم بـ﴿إِنَّ﴾ الجملةَ الاسميَّة في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ لَكُمۡ لَمَا تَحۡكُمُونَ﴾؛ للدَّلالة على تثبيتِ الحُكم وتقويتِه، والغرضُ منه معَ كونِه داخِلًا في حيِّزِ الإنكارِ والنَّفي تقويةُ الفَرْضِ عندَ الحِجاجِ، بالنَّظر للمخاطَب المُتوهِّم، ولا يبعدُ إرادةُ الاستخفاف والتَّهكُّمِ والاستغرابِ، من خلالِ إثباتِ الحُكم لهم بشكلٍ مؤكَّد.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 95.
(2) الحنبليّ، فتح الرّحمن: 7/ 133.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 274.
(4) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 553.

دلالةُ شبهِ الجُملة ﴿لَكُمۡ﴾ وتقدُّمِها:

استغرابُ الاختصاص واستبعادُ الامتياز

قدَّمَ النَّظمُ الكريم شبهَ الجُملة المُتعلِّقة بالخبرِ المَحذوف وجوبًا من مادَّةِ الاستقرار في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ لَكُمۡ لَمَا تَحۡكُمُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على إرادةِ الحَصْرِ والقَصْرِ، والمعنى: إنَّ الحُكم مختصٌّ ومقصورٌ عليكم دونَ غيرِكُم وسِواكم، والغرضُ من القصر الاستغرابُ والاستخفافُ مِن تصوُّرِهم حقَّ الحُكم لهم، حتَّى تميّزوا به عن غيرِهِم.

دلالةُ (اللّام) في ﴿لَمَا﴾:

سَلْبُ حقِّ الاختيار بطريقِ الاستبعادِ والاستغرابِ للقَرار

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بـ(اللّام) في قولِه تعالى: ﴿لَمَا تَحۡكُمُونَ﴾؛ للدَّلالة إمّا على التَّوكيدِ؛ بناءً على أنَّها (لامُ ابتداءٍ) قد زُحلِقتْ إلى المتأخِّر من مَدخولَي ﴿إِنَّ﴾، وإمّا على أنَّها (لامٌ زائدةٌ)؛ بناءً على أنَّ ﴿إِنَّ لَكُمۡ﴾ مفتوحةُ الهمزة، وقد كُسِرتْ بسببِ اللّام الزّائدة، وأيًّا ما كانت (اللّام) ابتدائيَّةً أوْ زائدةً، فإنَّها داخلةٌ لتوكيدِ حُكم الكلام، والغرضُ من التَّوكيدِ الاستبعادُ والاستغرابُ مِن تصوُّرِهم منْحَ حقِّ الحُكم لهُم.

دلالةُ (ما) والغَرَضُ مِنها:

عمومُ الأحكامِ المؤكَّدة لعُمومِ الأيمانِ المُغلَّظة

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بـ(ما) الموصولةِ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ لَكُمۡ لَمَا تَحۡكُمُونَ﴾؛ للدَّلالة على العُموم والشُّمولِ لكلِّ ما يصدرونَ بِهِ من أحكامٍ، ويُصرِّحونَ به من حُقوقٍ، وأهمُّها حقُّ التَّشهّي في الجَزاء الأوفَرِ عندَ اللّه تعالى، وبذلك يتناسقُ العمومُ في (ما) مع كثرةِ (الأيمان) المؤكَّدة لهم بإنجازِ ما يَحكمونَ به وإيفاءِ ما يُريدونَهُ.

دلالةُ الفعلِ المُضارع ﴿تَحۡكُمُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

صدورُ الأحكامِ الجَوْريَّة دونَ تفكيرٍ ورويَّة

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بالفعلِ المُضارع ﴿تَحۡكُمُونَ﴾، في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ لَكُمۡ لَمَا تَحۡكُمُونَ﴾؛ للدَّلالة على وقوعِ الحُكم منهم على سبيلِ الاستمرارِ المُتجدِّد، فيتكلَّمون به في نَواديهم وأمكنتِهم بأنَّهم على فرضِ نُشورهم، فإنَّ لهم حقَّ الحُكم والاختيارِ في الجزاءِ الأوفر

على المُسلمين، كما تدلُّ مادَّةُ الحُكم على الأمرِ دونَ مُراجعةٍ وتلبُّثٍ، ممّا يدلُّ على أنَّها أحكامٌ غيرُ خاضِعةٍ للتَّأمُّلِ والتَّريُّثِ والتَّأكُّدِ من صحَّتِها؛ لأنَّهم من شدَّةِ غُرورهم لا يجدونَ مَن يَعترضُ عليهم في تلك الأحكامِ، فيُقرِّرونها من دونِ تفكيرٍ ومَليَّة.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

البلوغ والوُصول:

البُلوغُ أشدُّ مِنَ الوُصول

البلوغُ: هو الوُصولُ إلى الحدِّ الأعلى والمَرتبةِ المُنتهَى، وهذا هو الفرقُ بينها وبينَ مادَّةِ الوُصول، فلا يقالُ: وصَلَتِ الثِّمار، ولا وصلَ الصَّبيُّ، ولا وصلَ أشُدَّهُ، وبهذا يظهرُ اللُّطفُ في اختيارِ هذه المادَّة في جميعِ مَوارد استعمالاتها، فإنَّ هذا القيدَ منظورٌ ومحفوظٌ في كلِّ واحدٍ منها[1]، ومِن ثَمَّ استعملَ النَّظمُ لفظَ ﴿بَٰلِغَةٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمۡ لَكُمۡ أَيۡمَٰنٌ عَلَيۡنَا بَٰلِغَةٌ﴾ في توصيفِ الأيمان؛ للدَّلالة على أنَّها قد بلغتْ أعلى دَرجاتِ المُنتهى في التَّوكيدِ والتَّوثيق.

(1) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 1/ 296.

﴿سَلۡهُمۡ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ٤٠﴾ [القلم: 40]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

استمرار التَّقريع والإنكار على الكذب الجِهار

لمّا قرَّعهم، وأنكر دَعواهُم وعدمَ امتلاكِهم الدَّليلَ العقليَّ والنَّقليَّ والأيمانَ والعُهودَ المؤكَّدةَ على صحَّةِ ما يَحكمونَ به من نَيلِهم الجَزاءَ الأوفَرَ أوِ المُساويَ للمسلمينَ يومَ القيامة؛ ناسَبَ أن يُقرِّعَهم على وجودِ كفيلٍ وزعيمٍ، يتكفَّلُ لهم على ذلك الكذبِ المُبينِ(1).

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿زَعِيمٌ﴾: (زعم) أصلانِ، أحدُهما: القولُ من غيرِ صِحَّةٍ ولا يقينٍ، والآخرُ: التَّكفُّلُ بالشَّيءِ(2)، ويُطلَقُ بمعنى القولِ والظَّنِّ، وزَعَمتُ بالمالِ زَعْمًا (من بابِ قتلَ ونفَعَ): كفَلتُ به، والزَّعمُ والزَّعامة: اسمٌ منه، فأنا زعيمٌ به(3)، فهو اعتقادٌ لا يُبتنى على أساس موثَّق، وليسَ بمأخوذٍ مِن مُقدِّمات وأصولٍ يقينيَّة، وأمّا مفهومُ الكفالة؛ فهو يُستفادُ مِن استعمالِها بـ(الباء) الدّالَّة على الشِّدَّةِ في الارتباطِ والتَّأكُّدِ في الحُكم، والمُرادُ به في الآية: الكفيلُ والضّامنُ.

❁ المَعنى الإجماليُّ:

انتفاءُ الكَفيل عَن كلِّ مُجرمٍ ضِلّيل

والمعنى: سَلِ المُشركينَ يا محمَّد مُبَكِّتًا لهم: أيُّهم بذلك الحُكمِ الَّذي يحكمونَ به لأنفُسِهم - مِنْ أنَّهُم يُعطَونَ في الآخرةِ أفضلَ من المُؤمنينَ - كفيلٌ وقائمٌ بتنفيذِه وإمضائِه وبالاحتجاجِ لصحَّتِه، كما يقومُ الزَّعيمُ المُتكلِّمُ عن القومِ المُتكفِّلِ بأُمورهم، فضلًا عن أنَّه حكمٌ جائرٌ، خارجٌ عن دائرةِ المَعقول(4).

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 322.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زعم).
(3) الفيوميّ، المصباح المنير: (زعم).
(4) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 10/ 1539.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الفَصلِ في ﴿سَلۡهُمۡ﴾:

التَّكميلُ والبَيانُ لما يتمُّ بهِ الاستدلالُ والبُرهان

فصلَ النَّظمُ الكريمُ قولَه تعالى: ﴿سَلۡهُمۡ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾؛ للدَّلالة على الاستئنافِ البيانيِّ: "عَنْ جُمْلَةِ ﴿أَمۡ لَكُمۡ أَيۡمَٰنٌ عَلَيۡنَا بَٰلِغَةٌ﴾؛ لأنَّ (الأيْمانَ) - وهي العُهودُ - تَقتَضي الكُفَلاءَ عادَةً، فَلَمّا ذُكِرَ إنكارُ أنْ يَكونَ لَهُم عُهودٌ؛ كُمِّلَ ذَلِكَ بِأنْ يَطْلُبَ مِنْهُم أنْ يُعَيِّنوا مَن هُمُ الزُّعَماءُ بِتِلْكَ الأيمانِ"[1].

دلالةُ فعلِ الأمرِ (سَلْ) مادَّةً وصيغةً:

سؤالُ الإلجاءِ للاعترافِ بالكذبِ والأهْواء

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بفعلِ الأمر (سَلْ)، في قولِه تعالى: ﴿سَلۡهُمۡ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾؛ للدَّلالة على استخراجِ الإنكارِ مِن أفواهِهم والكذبِ مِن شِفاهِهم، فهو سؤالُ توبيخٍ وتقريعٍ[2]؛ إذ عدمُ وجودِ الزَّعيم والكفيلِ والضّامن على وجودِ تلك الأيمان الموثَّقة بما يحكمونَ به تشهّيًا يكونُ صادرًا منهم بطريقِ الاعترافِ والإقرار، والغرضُ من الأمر الإلجاءُ إلى الاعترافِ المُستلزم كذبَ ذلك الحُكم، ولعلَّ اختيارَ الأمرِ بصيغةِ (سَلْ) دونَ (اسأل) "مِن سألَ يسألُ بحذفِ العينِ وهَمزةِ الوَصْل"[3]؛ للدَّلالةِ على أنَّ هذا الأمرَ لا يحتاجُ إلى تجشُّم عَناء لمعرفةِ جَوابه؛ فالسُّؤال لمُجرَّدِ الإحراجِ والاعترافِ السَّريع دونَ التَّقصّي والتَّعَب في تحصيلِ جَوابه؛ إذِ الهَمزُ الثَّقيلُ يُؤذِنُ بالكسبِ والتَّعب في السُّؤالِ لإدراكِ الجَواب.

دلالةُ تلوينِ الخِطاب في ﴿سَلۡهُمۡ﴾:

إسقاطُ المُجرمين عنِ الاعتبارِ لما فيهم مِن غُرورٍ واستكبار

التفتَ النَّظمُ الكريم مِن خِطاب المُجرمين إلى توجيهِ الخِطابِ للنَّبيِّ ﷺ، فقال تعالى: ﴿سَلۡهُمۡ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾، فهو: "تلوينٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 95.
(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 327.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 103.

للخطابِ وتوجيهٌ له إلى رسولِ اللّه ﷺ بإسقاطِهم عن درجةِ الخِطاب، أي: سلْ يا محمَّدُ هؤلاءِ المُشركين مُبكِّتًا لهم"[1]، وإهمالًا لهم[2].

دلالةُ مَرجِعِ الضَّميرِ في ﴿سَلۡهُمۡ﴾:

الاستكبارُ الشَّديد يُناسِبُهُ التَّبعيدُ والتَّغييب

عبَّرَ النَّظمُ الكريم عنِ المُجرمينَ العاصين الَّذين يَحكمونَ، ويدَّعون دَعاوى جَوفاءَ بضميرِ الغَيبة، في قولِهِ تعالى: ﴿سَلۡهُمۡ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾؛ للدَّلالة على تعيينِ الذَّوات التي يتوجَّهُ إليها السُّؤال بتلك الأوصافِ الَّتي اشتملَتْ عليها، حتّى شاعَ الحكمُ الكاذبُ لدى جميعهم، فصاروا محطَّ السُّؤالِ والاستفهام، فقد عمَدوا بكلِّ غُرور واستكبارٍ إلى إطلاقِ تلك الأحكام الجائرةِ بالجزاءِ الأوفَر يومَ القيامةِ، كما هو حالُهُم وغِناهم في الدُّنيا على تقديرِ وُقوع الحَشْرِ والنَّشر.

دلالةُ الاستفهامِ بـ ﴿أَيُّهُم﴾:

الإنكارُ والتَّهكُّم توبيخٌ وتقريعٌ مُبكِّم

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بلفظِ (أيّ) الاستفهاميَّة، في قولِهِ تعالى: ﴿سَلۡهُمۡ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾؛ للدَّلالة على توجيهِ السُّؤال للكلِّ بتحديدِ الجهةِ الكفيلةِ والضّامنة منهُم بتلك المَواثيق والأقسام؛ إذ (أيُّ) الاستفهاميَّةُ يُطلَبُ بها تعيينُ الشَّيءِ وتمييزُهُ من غيرِه، والمطلوبُ تعيينُ الزَّعيم المتكفِّل والضّامن بذلك العهدِ المَقطوع لهُم، ولمّا كان السُّؤالُ في مَعرضِ التَّوبيخ والتَّقريع؛ قالَ ابنُ عاشور: "فالاستِفهامُ في قَوْلِه: ﴿سَلۡهُمۡ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾ مُستَعملٌ في التَّهَكُّم زيادَةً عَلَى الإنْكارِ عَلَيهم[3]، كما أنَّ: "جَعْلَ الزَّعيم أحَدًا مِنْهُم زيادَةٌ في التَّهَكُّم، وهوَ أنْ جَعَلَ الزَّعيمَ لَهُمْ واحِدًا مِنْهُم؛ لِعزَّتِهم ومُناغاتِهم لِكبْرياءِ اللّه تعالى"[4]، قال الدَّرويش: "وهذا هو التَّقريعُ السّادسُ"[5].

---

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 103.

(2) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 10/ 1539.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 95.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 95.

(5) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 180.

دلالةُ العُدول عن هَمزةِ الاستفهام إلى (أيّ):

دقّةُ اختيارِ أداةِ الاستفهام لتحقيقِ المُراد منَ الكلام

عدلَ النَّظمُ الكريم عن لفظِ هَمزةِ الاستفهام - الَّتي يُطلَبُ بها إمّا تعيينُ أحدِ الأشياءِ، وهي التَّصوُّريَّة، أوِ الحُكمُ بالوجودِ والعدم، وهي التَّصديقيَّةُ - إلى (أيّ) التي يُطلَبُ بها تمييزُهُ من غيرِهِ بمُميَّزٍ ذاتيٍّ أوْ عَرَضيٍّ، في قوله تعالى: ﴿سَلۡهُمۡ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾، ممّا يدلُّ على أنَّ السّائل يبحثُ عن مواصفاتِ ذلك المتعهِّد بتلك الأيمان فيهم بغيةَ التَّمييز؛ مُنكِرًا وجودَ ذلك المتميِّز منهم ضِمْنًا، وليسَ مجرَّدَ إثباتٍ له وتعيينٍ؛ لأنَّ الهمزةَ التَّصوُّريَّة تُفيدُ أنَّ السّائل مُتردِّدٌ في تعيينِ واحدٍ ممَّن يشكُّ في كَفالتهم، ويُريدُ تعيينَهُ بذاتِهِ، مع أنَّ ذلك خلافُ الواقعِ والمُرادِ، وكذلك الهمزةُ التَّصديقيَّة تُفيد أنَّه إمّا موجودٌ أو معدومٌ، فيكونُ الجوابُ عنه بـ(نعم) أو (لا)، وليس ذلك مُرادًا للنَّظم الباحثِ عنِ التَّمييزِ لذلك الكفيلِ منهم بمُمَيِّزٍ يجعلُهُ قادرًا على التَّكفُّلِ والضَّمان بذلك الحُكم الخَطير، وبناءً على هذا ناقشَ ابنُ عرفةَ طبيعةَ الاستفهام بالهمزةِ التَّصديقيَّة و(أيّ)، وأثرَهما في تحديدِ طبيعةِ السُّؤال حقيقةً ومجازًا، فقال: "لو قيل: (أفيهِم أوْ هل فيهم زعيمٌ بذلك؟)؛ لكانَ المعنى السُّؤالَ عن وجودِ الزَّعيم فيهم بالأصالة، وإنَّما قيل: ﴿سَلۡهُمۡ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾، فإمّا أن يكون المعنى أنَّهم ادَّعَوا أنَّ فيهم زعيمًا بذلك، أي: ضامِنًا مُتكفِّلًا بتصحيحِ ما قالوه، فيُسألوا عن تعيينِ ذلك الشَّخص الزَّعيم، فالسُّؤالُ حقيقةٌ، وإمّا ألّا يكونوا ادَّعَوا أنَّ فيهم زعيمًا بذلك، فيكونَ السُّؤالُ مَجازًا من بابِ نفيِ الشَّيء بإيجابِهِ، والمعنى: ليسَ لهُم زعيمٌ، فيُسألونَ عن تعيينِه، فالسُّؤالُ تعجيزٌ لهم، أو من بابِ انتفاءِ الشَّيءِ لانتفاءِ مَلزومِهِ؛ لأنَّه [تعالى] أمرَهُ ﷺ أن يسألَهُم عن تعيين"[1]، والظّاهرُ أنَّ (أيّ) مُعجِّزةٌ لهم عن التَّعيينِ

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 274.

للكفيلِ المُتميِّز، فينتفي وجودُ العهدِ الموثَّق تبعًا لذلك، فيكونُ السُّؤال التَّهكميُّ الإنكاريُّ إثباتًا للإنكارِ السّابق بوجودِ العهودِ المؤكدة.

دلالةُ حرفِ الجرِّ (الباء) في ﴿بِذَٰلِكَ﴾:

تمييزُ الزَّعيم كونُهُ مُرتبطًا بالحُكمِ بشكلٍ حَميم

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بلفظِ (الباء)، في قولِه تعالى: ﴿أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾؛ للدَّلالة على التصاقِ الزَّعيم والكفيلِ الضّامن لذلك الأمر المُدَّعى؛ إذِ الفعلُ (زعمَ) إمّا مُتضمِّنٌ معنى (الكفيل)، والباءُ تُفيدُ ارتباطَهُ بذلك الأمرِ على جهةِ الإلصاقِ والمُلازمة، بحيثُ يكونُ بينَ الكفيل والمكفولِ ارتباطٌ، وإمّا أنْ يكونَ بمعنى (الضّامن)، فهو مُتعدٍّ بنفسِه، و(الباءُ) لمُجرَّدِ التَّقويةِ والارتباط، وعلى كلٍّ منهما، فالمُرادُ تحديدُ (الزَّعيم والكفيل والضّامن) المُرتبطِ بذلك الأمرِ المُدَّعى ارتباطًا ظاهرًا جعلَهُ مُتميِّزًا منهم.

دلالةُ اسمِ الإشارةِ (ذَلك):

تعظيمُ المَكفول بيانٌ لشَناعةِ المَقول

عبَّرَ النَّظمُ باسم الإشارة (ذلك) المَوضوعِ للمُشارِ إليه البعيد، في قولِه تعالى: ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾؛ للدَّلالة على التَّعظيم والتَّفخيم لذلك الأمرِ المَكفولِ والحُكم الخطيرِ، والشَّناعة لذلك القولِ الغَريب، الذي كذَبوا به على اللَّه تعالى وعلى النّاس، بأنَّ لهم الجزاءَ الأوفرَ والمَكانةَ العُليا على فَرَضِ الحَشرِ والنَّشر، قال الشَّربينيُّ: "﴿أَيُّهُم بِذَٰلِكَ﴾، أي: الأمرِ العظيمِ الَّذي يَحكمونَ به لأنفُسِهم"[1]، "الخارج عن العُقول"[2].

دلالةُ تقديمِ المُتعلِّق ﴿بِذَٰلِكَ﴾:

الحصرُ والاهتمام لفَضحِ ما زلَّتْ بهِ الأقدام

قدَّمَ النَّظمُ الكريم الجارَّ والمجرور المتعلِّقَ بـ﴿زَعِيمٌ﴾، في قولِه تعالى: ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾؛ للدَّلالة على إرادةِ الحَصر والقَصر، أي: يزعُمُ ذلك الحُكمَ دونَ غيرِه؛ إذِ الغَرَضُ التَّهكُّم من

(1) الشّربينيّ، السّراج المنير: 4/ 362.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/ 18.

حُكمِهم، فافتُرِضَ ادِّعاؤُهم وجودَ زعيمٍ به، حتَّى يَصحَّ ذلك الحُكمُ المُتلقّى المَسموع، فيكون المطلوبُ تعيينَهُ؛ ليكونَ زعيمًا مُتميِّزًا منهم، بكونِه كَفيلًا بذلك دونَ غيره، مع دلالةِ (الاهتمامِ) بالأمرِ المَزعوم؛ لكونِه سببَ السُّؤال والمُحرِّك له.

دِلالةُ ﴿زَعِيمٌ﴾ مادَّةً وصيغةً:

المُطالبةُ بتحديدِ المُصحِّح نافيةٌ للحُكْمِ المُجرَّح

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بلفظِ ﴿زَعِيمٌ﴾، في قولِه تعالى: ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾؛ للدَّلالة بمادَّتِه على (الكفيلِ الضّامن)، المُتصدّي لتصحيح تلك الدَّعوى القائلةِ بأنَّ لهم في الآخرةِ ما للمُسلمين فيها أوْ أعلى[1]، فالزَّعيم: هو القائمُ بالدَّعوى وإقامةِ الحُجَّة عليها، أي: قُلْ لهم: مَنِ الكفيلُ لهم بتنفيذِ هذا الحُكم الخارجِ عن الصَّواب[2]، ورجَّحَ القونويُّ أنَّ المرادَ به هنا: الرَّئيس الَّذي يتكلَّمُ في أمورِ قومِه، ولذا قالَ البيضاويُّ: (قائمٌ يدَّعيه)؛ إذِ الكفالةُ تستلزمُ دَعوى أداءِ ما يَلزَمُ المكفولَ عنه وتصحيحَهُ، وقولُهُ: (ويُصحِّحُه) إشارَةٌ إِلَى أنَّ المُراد تصحيحُ تلك الدَّعوى، لا الدَّعوى نفسِها؛ إذ الدَّعوى صادرةٌ عنهم بأسرِهِم، فلا سُؤالَ عنها بل السُّؤالُ عن تصحيحِها، ولهذا عبَّرَ بـ(الزَّعيم)[3]، وصيغة ﴿زَعِيمٌ﴾ على وزنِ (فعيل) تُفيدُ ثبوتَ وصفِ الزَّعامة والرِّئاسة في الموصوفِ على سبيلِ الثُّبوتِ والدَّوام، فيكون مُؤدّيًا معنى الصِّفة المُشبَّهة، وإنْ كان بمعنى اسمِ الفاعل؛ لأنَّ المُتصدّيَ لتصحيحِ الدَّعوى قد تميَّزَ بشيءٍ راسخٍ جعلهُ ثابتًا فيه، ودائمَ الاتِّصافِ به على سبيلِ الاستمرارِ.

(1) الحنبليّ، فتح الرّحمن: 7/ 134.

(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 103.

(3) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 244.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الزَّعيمُ والكَفيلُ:

الـزَّعـيـمُ قـوَّةٌ نافذة، والكفيلُ قوَّةٌ داعِمة

الكفيلُ والكافلُ: الَّذي ألزمَ نفسَهُ بتأمينِ معيشةِ عائلتِهِ أوْ غيرِهم، وكفالةِ دَينٍ أوْ غرامةٍ من إنسانٍ والتزامه بأن يُؤدّيَه، فهو ينتقلُ إلى ذمَّتِهِ من الآن، والكِفلُ الَّذي يُلقَى على ظهرِ البعيرِ، وهو مُؤمِّنٌ لراكبِهِ وحافِظٌ له، فالكفيلُ والكِفلُ بمعنى: المُؤمِّن والقائمِ بالأمرِ والحافِظ.

وأمّا الزَّعيمُ؛ "فهو الضّامنُ والمتكلِّم عنِ القوم"[1]، وهو في الأصلِ من (الزَّعم)، وهو اعتقادٌ لا يُبتنَى على أساسٍ موثَّق، وليس بمأخوذٍ مِن مُقدِّماتٍ وأصولٍ يقينيَّة، وأمّا دلالتُهُ على مفهوم (الكفالةِ)؛ فيُستفادُ من استعمالِها بـ(الباءِ) الدّالَّةِ على الشِّدَّة في الارتباطِ والتَّأكُّدِ في الحُكم، فقولُهُم: (زعمْتُ بالمال): يدلُّ على تأكُّدٍ وشِدَّةٍ في تعلُّقِ الزَّعم والاعتقادِ بالنِّسبة إلى المال، وهذا المَعنى يُستفادُ منه التَّكفُّلُ وتحقُّقُ تأكُّدِ إجراءِ الحُكم، وعبَّر النَّظمُ القرآنيُّ بهِ في قولِهِ تعالى: ﴿أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾؛ للدَّلالةِ على الاعتقادِ غيرِ المُستندِ إلى أساسٍ مُحكَم"[2].

والحاصلُ: أنَّ الكفيلَ قوَّةٌ داعمةٌ مُؤمِّنَةٌ حافِظة، وأمّا الزَّعيم إنْ تعدّى بالباءِ؛ فهو قوَّةٌ متصدّيةٌ مُنفِّذةٌ مُصحِّحة، قال الزَّمخشريُّ: "﴿زَعِيمٌ﴾ أي: قائمٌ به وبالاحتجاجِ لصحَّته، كما يقومُ الزَّعيمُ المتكلِّمُ عن القومِ المُتكفِّلُ بأمورِهِم"[3].

---

(1) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 553.

(2) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 4/ 313، 10/ 81.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 593.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ٤١﴾ [القلم: 41]

المُجرمونَ لكلِّ مَعاييرِ الحُكم فاقِدونَ

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

لمّا فنَّد اللّهُ تعالى دَعواهُم بحقِّ التَّخيُّر في الجزاءِ الأوفَر على فَرَضِ وُقوعِ النُّشور بالدَّليل العقليِّ والنَّقليِّ، ومنحَهُم الأيمان المُؤكِّدة على صحَّة كلامِهم، وسلبَهم المُتصدّي الزَّعيمَ المتولّيَ إنفاذَ ذلك الحُكم؛ ناسَبَ أنْ يَنفيَ عنهُم الشَّريكَ المُساعِدَ الَّذي يوافقُهم في مَطلَبهم، ويَنصُرُهم عندَ إرادةِ إنجازِهِ وتحقيقِهِ يومَ القيامةِ، قال الهرريُّ: "كما ليسَ لهم دليلٌ عقليٌّ في إثباتِ هذا المَذهب، وهو التَّسويةُ بينَ المُحسِن والمُسيءِ، ولا دليلٌ نقليٌّ، وهو كتابٌ يَدرسونَهُ، ولا عهودٌ موثَّقةٌ بالأيمان؛ فليسَ لهُم من يوافقُهُم منَ العُقلاء على هذا القولِ حتّى يُقلِّدوهم، وإنْ كان التَّقليدُ لا يُفلحُ مَن تشبَّثَ بذيلِه؛ فثبتَ أنَّ ما زَعَموا باطلٌ مِن كلِّ الوُجوه"(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿شُرَكَآءُ﴾: (شرك) أصلانِ، أحدُهما: يدُلُّ على مُقارنةٍ وخِلافِ انفرادٍ، والآخرُ: يدلُّ على امتدادٍ واستقامةٍ(2)، وشَرِكْتُهُ في الأمر أشرَكُه (من بابِ تعِبَ) شِركًا وشِركةً؛ إذا صِرتَ له شريكًا، وجمعُ الشَّريك شُرَكاءُ وأشراك(3)، فهو تقارنُ فَردَينِ أو أفرادٍ في عمَلٍ أوْ أمرٍ، بحيثُ يكونُ لكلِّ واحدٍ منهُم نصيبٌ فيهِ أوْ تأثيرٌ، والمُرادُ بهِ في الآية: المُعينُ والنّاصِرُ.

المَعنى الإجماليُّ:

فُقدانُ الشَّريك المُساعِد عندَ الإنفاذِ للحُكم البائد

أي: بلْ ألَهُم أناسٌ يُشاركونَهُم في هذا القولِ، ويوافقونَهُم عليه،

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 104.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شرك).
(3) الفيوميّ، المصباح المنير: (شرك).

ويَذهبونَ مَذهبَهُم فيه؟ فليأتوا بشُركائِهم؛ إنْ كانوا صادقين في دَعْواهُم، يعني: أنَّ أحدًا لا يُسلِّم لهم هذا، ولا يساعدُهم عليه، كما أنَّهم لا كتابَ لهم يَنطق به، ولا عهدَ لهم به عندَ اللّٰه، ولا زعيمَ لهم يقومُ به، ويتصدَّى لإنفاذه[1]، فقد "نبَّهَ ﷻ في هذه الآيات على نفي جميع ما يُمكِنُ أنْ يَتشبَّثوا به لدَعوتِهم، مِن عقلٍ أوْ نقلٍ أوْ وعدٍ أوْ مَحضِ تقليدٍ على التَّرتيب؛ تنبيهًا على مراتبِ النَّظر، ودَفعًا لما لا سَندَ له"[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ (أمْ) والغَرَضُ مِنها:

إحصاءُ صوَرِ الإبطالِ بيانٌ لشِدَّةِ الاختلال

عبَّرَ النَّظمُ الكريم مُجدَّدًا بلفظ ﴿أَمۡ﴾، المُنقطِعة في قوله تعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَآءُ﴾؛ للدَّلالة على الإضرابِ الانتقاليِّ عمّا قبلَهُ دونَ الإبطاليِّ لهُ، فهي بمَعنى (بَلْ) متضمِّنةٌ معنى الهَمزة الَّتي للإنكارِ والنَّفي؛ لاستكمالِ صوَرِ الحِجاج بإبطالِ مُستنَدٍ آخرَ لهم على سبيلِ الفَرْض والتَّصوُّر، ولذا قالَ ابنُ عطيَّة: "وقَّفَهُم على أمرِ الشُّركاء عسَى أنْ يَظنّوا أنَّهم يَنفعونَهُم في شيءٍ مِن هذا"[3]، والمانعُ للدَّعوى والحُكم الصّادرِ منهم قد يعمدُ إلى سَبْرِ مُستنداتِ ذلك الحُكم وتلك الدَّعوى، ويبدأُ ببيانِ المطالبةِ بتلك المُستندات من خلالِ السُّؤال عنها سؤالَ المُفترِض صحَّتَها، ولمّا يُمتنعُ الجوابُ من المُحاجَج؛ يثبتُ تَهاوي تلك الدَّعوى بالكليَّة، ولذا قال ابنُ عاشور: "﴿أَمۡ﴾ إضرابٌ انتِقاليٌّ ثالِثٌ إلَى إبْطالِ مُسْتَنَدٍ آخَرَ مَفْروضٍ لَهُمْ في سَنَدِ قَوْلِهِمْ: (إنّا نُعْطَى مِثْلَ ما يُعْطَى المُسْلِمونَ أوْ خَيْرًا مِمّا يُعْطَوْنَهُ)، وهوَ أن يُفْرَضَ أنَّ أصْنامَهُمْ تَنْصُرُهُمْ، وتَجْعَلُ لَهُمْ حَظًّا مِن جَزاءِ الخَيْرِ في الآخِرَةِ"[4]. والمعنى الإنكاريُّ في هذا دالٌّ على

(1) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 10/ 1539.
(2) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 594، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 104.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 352.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 96.

نَفْيِ الشَّيء بإيجابِهِ؛ إذ ليسَ لهم شُركاءُ أصلًا، فكيفَ يأتونَ بهم؟ قال القونويُّ: "لكن ليسَ لهم شُركاءُ في هذا القَول حتَّى يقلِّدوهم؛ فلا تقليدَ أيْضًا، بل هو كذبٌ محْضٌ يَخترعونَهُ مِن تِلقاءِ أنفُسِهم"[1]، قال الدَّرويش: "هذا هو التَّقريعُ السّابعُ"[2].

دلالةُ الجارِّ والمَجرورِ ﴿لَهُمْ﴾، وتقدُّمِه:

التَّعزُّزُ بالشُّركاء شأنُ الضُّعفاء

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بالجارِّ والمجرورِ مُقدَّمًا في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ﴾؛ للدَّلالة بـ(اللّام) إمّا على الاختصاص أوْ على الغَرَضِ والعِلِّيَّة؛ وقدَّمَ شبهَ الجملةِ المتعلِّقة بالخبرِ المَحذوف وجوبًا من مادَّة الاستقرار؛ للدَّلالة على ثُبوتِ الشُّركاء لهم دونَ مَن سواهم، والمعنى: "بَلْ أَثْبَتَتْ لَهُمْ - أي: لأجْلِهِم ونَفعِهم - شركاءَ"[3]، وهذا الاختصاصُ والانحصارُ دفعَهُم إلى النُّطق بذلك الحُكم العجيب، وجَرَّأهُم على الادِّعاء الغريب؛ إذ لا يقدُمُ على مثلِ ذلك إلّا إنْ كانَ الشُّركاءُ مُختصّينَ به يَنصرونَهُ، أو مُنحصرينَ به يَدفعونَهُ لمثلِ هذا الحُكم الشَّنيع، فيَستنصِرُ بهم مُعتقدًا نفعَهُم وقُدرتَهم على نَصرِهِم، ولذا قالَ ابنُ عاشور: "واللّامُ في ﴿لَهُمْ﴾ لامُ الأَجْلِ، أي: لِأَجْلِهِمْ، بِتَقْديرِ مُضافٍ، أي: لِأَجْلِ نَصْرِهِمْ"[4].

دلالةُ الالتفاتِ في ﴿لَهُمْ﴾:

الانتقالُ في الخطاب للتَّعريض بضعفِ العقلِ والصَّواب

عبَّر النَّظم الكريم بضمير الغيبة في ﴿لَهُمْ﴾، من قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ﴾ دون ضمير المخاطَب (لكم)؛ مُلتفتًا عنهم بذلك إلى توجيه الكلام للنَّبيِّ ﷺ الذي سألهم عن الزَّعيم، ولذا قال ابن عاشور: "وَقَد نُقِلَ أُسلوبُ الكَلام مِنَ الخِطاب إلى الغَيْبَةِ؛ لِمُناسَبَةِ وُقوعِهِ بَعدَ ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾؛ لأَنَّ أَخَصَّ النّاسِ بِمَعْرِفَةِ

(1) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 244.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 180.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 96.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 96.

أحَقِّيَّةِ هذا الإبْطالِ هوَ النَّبيُّ ﷺ، وذَلِكَ يَستَتْبِعُ تَوْجيهَ هذا الإبْطالِ إلَيْهِم بِطَريقَةِ التَّعْريضِ"[1].

تحديدُ المُرادِ بـ (الشُّرَكاءِ):

سَلْبُ الشُّركاء تفنيدٌ للادِّعاء

اختلفَ المفسِّرون في المُراد بـ(الشُّركاء)، في قولِهِ تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ﴾ على قولين؛ الأوَّل: الشُّركاءُ في الألوهيَّة، وهو المتبادرُ من إطلاقِ لفظ (الشَّريك) عندَ الحديثِ معَ المُخاطَبينَ المشركينَ، وهو رأيُ ابنِ عطيَّة والحنبليِّ[2]، واقتصرَ عليه ابنُ عاشورٍ بقوله: "أي: شُرَكاءَ لَنا في الإلَهيَّةِ في زَعْمِهِم، فَحُذِفَ مُتَعَلَّقُ شُرَكاءُ؛ لِشُهْرَتِه عِنْدَهُم، فَصارَ ﴿شُرَكَآءُ﴾ بِمَنْزِلَةِ اللَّقَبِ، أي: أمْ آلِهَتُهُمْ لَهُمْ؛ فَلْيَأْتوا بِهِمْ؛ لِيَنْفَعوهُم يَوْمَ القيامَةِ"[3].

والثّاني: الشُّركاءُ مِن النّاس المُؤازرينَ الموافقينَ لهم بالعبادةِ والحُكم بالجزاءِ الأوفرِ يومَ القيامة، وهو ما اعتمدَهُ الزَّمخشريُّ، واقتصَرَ عليهِ أبو السُّعود[4]، أي: بلْ ألَهُم ناسٌ يُشاركونَهُم في هذا الرَّأيِ والقولِ الفاسِد، ويذهبونَ مذهبَهم، وهو التَّسويةُ بينَ المسلمينَ والمُجرمينَ في الآخرة[5]، وضعَّفه ابنُ عرفةَ بقوله: "والظّاهرُ الأوَّلُ؛ إذ ليس ثَمَّ كُفّارٌ ولا لهُم نظائرُ في شِركِهم، وأيضًا فيَعكِسونَ هُم، ويَقلِبونَ النُّكتةَ، فيقولونَ: (هلْ لكُم أنتم مَن يوافقُكُم في توحيدِكم وعِبادتِكم؟)"[6]، وكِلا التَّضعيفينِ لا يَصلُحان وجهًا مقبولًا كما لا يخفى، فقد كانَ لهم نظائرُ من المشركين، وقد يوافقونَهم الرَّأيَ نفسَه، على أنَّ ذلك كلَّه على سبيل الفَرْضِ، من بابِ استكمالِ صوَرِ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 96.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 352، والحنبليّ، فتح الرّحمن: 7/ 134.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 96.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/ 18.
(5) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 103.
(6) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 275.

الرَّدِّ، وأمّا أنَّهم يعكسونَ السُّؤال؛ فغيرُ وارد؛ لأنَّ الَّذي يَدَّعي ذلك الحُكمَ يخرجُ عن سننِ العقل بالتَّسويةِ بينَ الطّائع للّه والمجرِم، وليسَ له دليلٌ نقليٌّ بخلافِ المُسلمين.

وذهبَ الرّازيُّ إلى تجويزِ الوجهينِ معًا بنقلِهما، وهو المتبادرُ من التَّنكيرِ في سياقِ النَّفي الصّادقِ بكلِّ ناصرٍ ومُعين وموافِقٍ لهم في الحُكم فَرَضًا وتقديرًا، سواءٌ كان من الآلهةِ الباطِلة أو منَ النّاس[1]، وهذا هو الأَوْلى بالصَّواب؛ إذِ المُرادُ نفيُ كلِّ شريكٍ بالمَعنى اللُّغويِّ والمعنى اللَّقبيِّ.

دلالةُ التَّنكيرِ في ﴿شُرَكَآءُ﴾:

النَّكرةُ في سياقِ الاستفهامِ الإنكاريِّ تفيدُ عمومَ السَّلبِ الكلّيِّ

نكَّرَ النَّظمُ الكريم لفظَ ﴿شُرَكَآءُ﴾، في قولِهِ تعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَآءُ﴾؛ للدَّلالة على انتفاءِ أيِّ شريكٍ لهم من الأصنامِ والآلهةِ المَزعومة تنفعُهُم، وتنصُرُهم في قولِهم، أو أيِّ شريكٍ من النّاسِ يوافقهم في حُكمِهم واعتقادِهم، قال ابنُ عاشور: "وَتَنْكِيرُ ﴿شُرَكَآءُ﴾ في حَيِّزِ الاستِفْهامِ المُسْتَعْمَلِ في الإنْكارِ يُفيدُ انتِفاءَ أن يكونَ أحَدٌ مِنَ الشُّرَكاءِ - أيِ: الأصْنام - لَهُمْ - أي: لِنَفْعِهِمْ - فيَعُمُّ أصْنامَ جَميعِ قَبائِلِ العَرَبِ المُشْتَرَكِ في عِبادَتِها بَيْنَ القَبائِلِ والمخصوصةِ بِبَعْضِ القَبائِلِ"[2].

دلالةُ (الفاءِ) في ﴿فَلۡيَأۡتُواْ﴾:

تنزيلُ المَعدوم منزلةَ الموجود ردٌّ على كلِّ ذي وهْمٍ مَحدود

عبَّر النَّظمُ الكريم بـ(الفاءِ) في قولِه تعالى: ﴿فَلۡيَأۡتُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ﴾؛ إمّا للدَّلالة على التَّفريع عن المنفيِّ، وهو وجودُ شريكٍ لهم يَنفعُهم، أَوْ ينصُرُهم في دَعواهم، لكنْ على فَرَضِ وجودِه يتفرَّعُ طلبُ الإتيانِ منه؛ تنزيلًا للمعدوم منزلةَ الموجودِ؛ استكمالًا للرَّدِّ، وبيانًا لسوءِ النَّظر والحُكم الصّادر منهُم، فيكونُ العجزُ عن الإتيانِ به

(1) البغويّ، معالم التّنزيل: 5/ 139، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 612.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 96.

لكونِهِ مَعدومًا؛ دليلًا على انتفاءِ أيِّ شريكٍ لهُم في ذلك النَّفع أوْ ذلك الحُكْم، وإمّا لأنَّها الفصيحةُ التي أفصَحَتْ عن شرطٍ مُقدَّرٍ، والتَّقديرُ: إنْ كان ذلك كذلك؛ فليأتوا(1).

دلالةُ (اللّامِ) في ﴿فَلۡيَأۡتُواْ﴾:

الأمـرُ المَـجـازيُّ والحقيقيُّ نافٍ للإتيانِ بالشَّريكِ

عبَّر النَّظمُ الكريم بـ(اللّام) في قوله تعالى: ﴿فَلۡيَأۡتُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ﴾؛ للدَّلالة على الأمر، وهو إمّا أمرٌ حقيقيٌّ؛ بناءً على أنَّ (الفاء) للتَّفريعِ عن المنفيِّ، وهو وجودُ شريكٍ؛ ليؤدّيَ عدمُ القدرةِ على الإتيانِ به في الواقعِ على انتفاءِ ذلك الشَّريك نفيًا بالاستلزام الواقعيِّ، كما انتفى بدلالةِ الاستفهام، وإمّا أمرٌ مجازيٌّ للتَّعجيز؛ بناءً على أنَّ (الفاء) مُتفرِّعةٌ عن النَّفي، وهو عدمُ وجودِ الشَّريك، فتكونُ المطالبةُ بالإتيانِ به تعجيزًا، قال ابنُ عاشور: "والتَّفريعُ في قولِه: ﴿فَلۡيَأۡتُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ﴾ تَفْريعٌ على نَفْيِ أنْ تَنْفَعَهُمْ آلِهَتُهُمْ، فَتَعَيَّنَ أنَّ أمْرَ ﴿فَلۡيَأۡتُواْ﴾ أمْرُ تَعْجِيزٍ"(2).

دلالةُ الفعلِ المُضارعِ (يَأتوا):

الـعَـجْـزُ عـنِ الإتـيـانِ مُـثـبِـتٌ للبُطلانِ

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بالفعلِ المُضارع (يأتوا)، في قوله تعالى: ﴿فَلۡيَأۡتُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ﴾؛ للدَّلالة على الإتيانِ بالشَّريك بكلِّ يُسرٍ وسُهولة؛ تهكُّمًا بهم وسخريةً بتصوُّراتهم، فعلى فَرَضِ وجودِ شريكٍ يُطلبُ منهم إحضارُهُ بكلِّ يُسرٍ؛ لأنَّ امتناعَهُ عن الإتيانِ دليلُ عَجزِهِ عن النُّصرة والنَّفعِ والموافقة، ولذا عبَّرَ النَّظمُ بلفظ الإتيانِ دونَ المَجيء، واختارَ صيغةَ المضارعِ المقترنةَ بـ(لام الأمر)؛ للدَّلالة على الأمرِ بتجدُّدِ الإتيانِ به، وذلك التَّجدُّدُ دليلٌ على العجزِ عن الإحضارِ له والإتيانِ بِهِ، والغَرَضُ مِنَ الإتيانِ بالشُّركاء أنْ "يُثبِتوا كونَهُم شُركاءَ

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 180.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 96.

اللّه تعالى، مُماثِلًا له في العِلْم والقُدرة والإرادةِ والتَّكوينِ"[1]، وأنّى لهُم ذلك الإثباتُ.

دلالةُ (الباءِ) في ﴿بِشُرَكَآئِهِمۡ﴾ والغرضُ منها:

الاستخفافُ في المُصاحَبة تهشيمٌ للدَّعوى الفادِحة

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بحرفِ الجرِّ (الباء)، في قولِه تعالى: ﴿فَلۡيَأۡتُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ﴾؛ للدَّلالة على التَّعديَةِ والمُصاحَبة؛ إذِ الفعلُ (أتى) فعلٌ لازمٌ يتحوَّلُ بـ(الباء) إلى معنى (الجَعل والتَّصيير)، فتكونُ الباءُ مُعدّيةً له، والتَّقدير: فليُصيِّروا الشُّركاءَ آتينَ لنُصرتِهم ونفعِهم، كما تُفيدُ (الباءُ) دلالةَ المُصاحبةِ بين الشُّركاءِ والمُشركينَ بهم، وهي مصاحَبَةٌ وهميَّةٌ استخفافيَّةٌ؛ لعدمِ وجودِ شريكٍ مُؤازِرٍ لهم في ذلك الحُكم.

دلالةُ الإضافةِ في (شُركائِهم):

الإضافةُ الإبطاليَّة لدَعوى تعدُّدِ الألوهيَّة

أضافَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ (الشُّرَكاء)، في قولِه تعالى: ﴿فَلۡيَأۡتُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ﴾؛ للدَّلالة على التَّعيين والتَّخصيص، إذ يكتسبُ المضافُ من المضافِ إليه المعرفةَ تَعيينًا، لكنَّ الغرضَ البلاغيَّ من الإضافة المُخصِّصة "إبطالُ صِفَةِ الشِّرْكَةِ في الإلَهيَّةِ عَنهُم، أي: لَيْسوا شُرَكاءَ في الإلَهيَّةِ إلّا عِنْدَ هَؤُلاءِ؛ فَإنَّ الإلَهيَّةَ الحَقَّ لا تَكونُ نِسْبيَّةً بِالنِّسْبَةِ إلى فَريقٍ أوْ قَبيلَةٍ، ومِثْلُ هذا الإطْلاقِ كَثيرٌ في القُرْآنِ، ومِنهُ قَوْلُهُ: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ١٩٥﴾ [الأعراف: 195]"[2]، في حين علَّل الواحديُّ وكذا الرّازيُّ الإضافةَ قريبًا من ذلك لكنْ بالاعتمادِ على دلالةِ التَّعديةِ السّابقة، الَّتي هي الجَعْلُ والتَّصييرُ، فقال: "وإنَّما أضافَها لهُم؛ لأنَّهُم جَعَلوها شُرَكاءَ للّه، وهذا كَقَوْلِهِ: ﴿هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفۡعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيۡءٖۚ﴾ [الرّوم: 40]"[3]، فلمّا صيَّروهُم شُركاءَ - وهُم ليسوا كذلك في الواقعِ - نُسِبوا إليهم.

(1) المظهريّ، تفسير المظهريّ: 10/ 39.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 96.
(3) الواحديّ، التّفسير البسيط: 22/ 111، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 612.

دلالةُ وضعِ الظّاهر مَوضِعَ المُضمَر:

مِن ضَلالِ العُقولِ القولُ بالشُّركاءِ بلا دليلٍ مَقبول

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بلفظِ (الشُّركاء) ظاهرًا في قوله تعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَآءُ فَلۡيَأۡتُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ﴾، ولم يقل: (فليأتوا بهِم)؛ للدَّلالة على التَّنصيصِ على وصفِ الشِّركة وتأكيدِها معَ أنَّها عاجزةٌ عن دفعِ ضُرٍّ أوْ نيلِ نَصرٍ أوْ نفعٍ منها، أو لأنَّ الشُّركاءَ في سياقِ الاستفهامِ أعمُّ من الشُّركاءِ في سياقِ الإتيان؛ فيكونُ السُّؤال عن مُطلَقِ الشُّركاءِ، والإتيانُ بالشُّركاءِ الَّذين لهُم بهِم خصوصيَّةٌ، وفيهِ تنبيهٌ لهم إلى ضحالةِ أفهامِهم الَّتي تركتِ الخالقَ الحقيقيَّ، وتوجَّهتْ إلى الشُّركاءِ الجَعليّينَ آلهةً من دونِ الله معَ أنَّها يُؤتَى بها، وهو عجزٌ ظاهِرٌ.

تحديدُ متعلّقِ الإتيانِ الزَّمنيِّ:

العجزُ الكلّيُّ عن الإتيانِ بالشُّركاءِ أمرٌ جليٌّ

يحتملُ النَّظمُ الكريمُ من قولِه تعالى: ﴿فَلۡيَأۡتُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ٤١ يَوۡمَ يُكۡشَفُ﴾ أنْ يكونَ الظَّرفُ ﴿يَوۡمَ﴾ متعلِّقًا بالإتيان بالشُّركاء، فيكونَ الإتيانُ بالشُّركاء المُساعدينَ والموافقينَ يومَ القيامة، ويحتملُ أن يكونَ ظرفُ الإتيانِ محذوفًا، تقديرُهُ: (في أيّام الدُّنيا)، وعلى كِلا الاحتماليْنِ هُم عاجِزونَ عن الإتيانِ بالشُّركاءِ، وعجزُهُم في الدُّنيا أوضحُ لإقامةِ الحُجَّة عليهم، قال ابنُ عطيَّة: "قيل: هو استدعاءٌ وتوقيفٌ في الدُّنيا، أي: ليُحضِروهُم حتّى يُرى هل هُم بحالِ مَن يضُرُّ، وينفَعُ أم لا؟ وقيل: هو استدعاءٌ وتوقيفٌ على أنْ يَأتوا بهم يومَ القيامة"[1].

دلالةُ ﴿إِن﴾ والغرضُ مِنها:

الشَّكُّ في الخِطاب منظورٌ فيهِ لحالِ أهلِ الشِّغاب

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بلفظِ ﴿إِن﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ﴾؛ للدَّلالة على الشَّرط، فيكونُ من تعليقِ حُصولِ الجَواب على حُصولِ شَرْطِه؛ فيتعلَّقُ الإتيانُ بالشُّركاءِ؛ ليَنصُروهُم، ويوافقوهُم على دَعواهُم بصدقِهِم في ذلك، ولكنَّ كَذِبَهم مقطوعٌ به، فالشَّكُّ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 352.

الَّذي تدلُّ عليه ﴿إِن﴾ الشَّرطيَّة منظورٌ فيه لاعتقادِ المُخاطَب، ولذا قال ابنُ عاشور: "وبُطلانُ هذه الدَّعوى بدهيٌّ ومقطوعُ الانتفاء، والتَّعْبيرُ بكلمةِ الشَّكِّ؛ بناءً عَلَى اعتقادِ المُخاطَبِ"(1)، وجوابُ الشَّرطِ محذوفٌ، دلَّ عليه ما قبلَهُ.

دلالةُ الفعلِ النّاقصِ (كانَ):

المُناقشةُ والخِصام بالنَّظرِ لما لهُم من أفهام

عبَّر النَّظمُ الكريم بالفعلِ النّاقصِ (كانَ) ماضيًا، في قولِه تعالى: ﴿إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ﴾ دونَ القولِ: (إنْ صَدَقوا)؛ للدَّلالة على التَّمكُّنِ والثُّبوتِ في جانبِ الصِّدق، حتّى إنَّ الصِّدق متحقِّقٌ فيهم، ومُتَّصفونَ به بكلِّ ثَباتٍ واستقرارٍ على سبيلِ القَطْع بالحُصول؛ لأنَّ فعلَ الوُجود يُعطي ثبوتَ الحُكم للمحكوم عليه بصورةٍ مُتمكِّنة وثابتةٍ، وذلك أسلوبٌ قرآنيٌّ فريدٌ في مناقشةِ الخُصوم بالمُجاراةِ لعقولِهم وأفهامِهم.

سرُّ التَّعبير بـ ﴿صَٰدِقِينَ﴾ صيغةً:

انتفاءُ الصِّدق بعدَمِ القُدرة على الإتيانِ بالشَّريكِ المُحقِّ

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بلفظِ ﴿صَٰدِقِينَ﴾، في قولِهِ تعالى: ﴿إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على رُسوخِ صفةِ الصِّدق في دَعواهُم له على سبيلِ الثُّبوتِ والدَّوام؛ إذِ اسمُ الفاعلِ الدّالُّ على الذّاتِ المُتَّصفةِ بالحدثِ على سبيلِ الصُّدورِ والاتِّصافِ في السّياق يَنصَرِفُ هنا إلى دلالةِ الثُّبوت، ولذا قالَ الشَّربينيُّ: "أي: عَريقينَ في هذا الوَصْف، كما يدَّعونَهُ"(2)، لكنَّ هذا الثُّبوتَ والتَّمكُّنَ في جانبِ الصِّدق يُخالفُهُ الواقعُ؛ لعدمِ القُدرة على الإتيانِ بالشُّركاء، فكانَ تعليقُ صدقِهِم الرّاسِخِ على جوابِ الشَّرط، وهو مُمتنِعٌ، فيُفيدُ امتناعَ صدقِهِم وانتفاءَهُ.

سرُّ حذفِ مُتعلِّقِ ﴿صَٰدِقِينَ﴾:

حذفَ النَّظمُ الكريمُ مُتعلِّقَ ﴿صَٰدِقِينَ﴾، في قولِهِ تعالى: ﴿إِن كَانُواْ

(1) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 244.
(2) الشّربينيّ، السّراج المنير: 4/ 362.

﴿صَٰدِقِينَ﴾، والتَّقديرُ: إمّا في أنَّها شُركاءُ للّه[1]، وذلك لدلالةِ الكلامِ عليهِ؛ إذ يلزمُ مِنَ الاستفهامِ الإنكاريِّ عن جَعْلِهم شُركاءَ لهم من دونِ اللّه يَنصرونَهُم، وإضافةِ الشُّركاءِ إليهم أنَّهم يدَّعونَ الشُّركاءَ لأنفُسِهم، فأرادَ أنْ يُكذِّبَهم في تلك الدَّعوى، وذلك الادِّعاء، وإمّا في دَعواهُم بأنَّ لهُم ما للمُسلمينَ من الجزاء[2]، وجمعَ الإيجيُّ بينَ التَّقديرينِ في قولِهِ: "يعني: أنَّ هذا الدَّعوى مُهمَلٌ لا يُشارِكُهُم أحدٌ، أوْ معناه: أم لهُم آلهة غيرُ اللّهِ تُصحِّحُ لهم ما يدَّعونَ، وتُثبتُ، فليأتوا بها حتّى تُصحِّحَ"[3].

اتِّخاذُ الشُّركاءِ يُفيدُ دلالةَ الادِّعاء

بلاغةُ تَوالي الاستفهاماتِ الإنكاريَّة:

الحِجاجُ الاستفهاميُّ تزييفٌ للمُتوهَّمِ مِنَ الدَّعاوي

تعاقبت الاستفهاماتُ الإنكاريَّة، وتوالت التَّوبيخات التَّقريعيَّة، من قوله تعالى: ﴿أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ إلى قوله: ﴿إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ﴾، فقد: "وردتْ في هذه الآيات سبعةُ استفهاماتٍ، وخرجَتْ عن معناها الأصليِّ إلى الإنكارِ والتَّوبيخِ والتَّقريع على ما أرجَفوا بهِ مِن زَعْمِهِم أنَّ اللّه تعالى فضَّلنا عليكُم في الدُّنيا، فلا بدَّ مِن أنْ يُفضِّلَنا عليكم في الآخرة، أوْ على الأقلِّ إنْ لم يحصُلِ التَّفضيل؛ فلا أقلَّ من المُساواة، ففنَّدَ اللّهُ مَزاعِمَهُم مُقرِّعًا وموبِّخًا، وجاءتْ متعاقبةً، أوَّلُها: ﴿أَفَنَجۡعَلُ﴾، والثّاني: ﴿مَا لَكُمۡ﴾، والثّالث: ﴿كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾، والرّابعُ: ﴿أَمۡ لَكُمۡ كِتَٰبٌ﴾، والخامسُ: ﴿أَمۡ لَكُمۡ أَيۡمَٰنٌ﴾، والسّادس: ﴿أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾، والسّابع: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَآءُ﴾، وقد انتظمَتْ في سِلْكٍ مِنَ الفصاحةِ والبيان يَعنو لهُ كلُّ بَيان"[4].

عدمُ الإبطالِ للقياسِ المُعتبَرِ عندَهُم:

الاكتفاءُ بالدَّليلِ العقليِّ عن ردِّ القياسِ البالي

عبَّرَ النَّظمُ القرآنيُّ في الانتقالاتِ الإبطاليَّةِ السّابقة عن انتفاءِ

---

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 22/ 111.

(2) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 10/ 1539.

(3) الإيجي، جامع البيان: 4/ 357.

(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 181 - 182.

الدَّليلِ العقليِّ والنَّقليِّ والتَّقليديِّ، لكنَّه لم يَتعرَّضْ لإبطالِ قياسِهِم البالي حالَ الآخرةِ، وما هُم فيه من سَعَةٍ على حالِ الدُّنيا، الَّتي أصابوا فيها الأموالَ والبَنين، ومِن ثَمَّ نبَّهَ القونويُّ إلى سرِّ ذلك بقوله: "ولم يَتعرَّضْ لإبطالِ قياسِهم حالَ الآخرَة على حالِ الدُّنْيا، مع أنَّه مُتمسَّكُهُم - قالَ قائلُهم في قولِهِ تَعالَى: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: 50]، وذلك لاعتقادِهِم أنَّ ما أصابَهُ من نِعَمِ الدُّنْيا، فلِاستحقاقِهِ لا ينفكُّ عنهُ - لأنَّه داخلٌ في الدَّليل العقليِّ، وقد أُشير إلَى ردِّهِ في قوله تَعالَى: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [العنكبوت: 62]"[(1)]، ووجهُ دخولِه في البُرهانِ العقليِّ، وهو عدمُ التَّسويةِ يومَ القيامةِ بينَ المُسلمينَ الطّائعينَ والمُجرمينَ العاصينَ، ومُقتضاهُ: الانفكاكُ عنهُ وعدمُ الاستحقاقِ؛ إذِ التَّسويةُ خِلافُ مُقتضَى العقلِ والنَّقلِ، و"حاصِلُ هَذهِ الانتِقالاتِ، وهيَ: ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾، و﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا﴾، و﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾، و﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ﴾، أنَّ حُكْمَكُم هذا لا يَخْلو مِن أنْ يَكونَ سَنَدُهُ كِتابًا سَماويًّا نَزَلَ مِن لَدُنّا، وإمّا أنْ يَكونَ سَنَدُهُ عَهْدًا مِنّا، بِأنّا نُعْطيكُمْ ما تَقْتَرِحونَ، وإمّا أنْ يَكونَ لَكُمْ كَفيلٌ عَلَيْنا، وإمّا أنْ يَكونَ تَعْويلًا عَلَى نَصْرِ شُرَكائِكُمْ"[(2)]، وكلُّها مُنتفيةٌ ومُنكَرةٌ.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الشَّريك والظَّهير:

الشَّريكُ مُصاحِبٌ له نصيبٌ، والظَّهيرُ مُعاوِنٌ بلا رَصيد

الظَّهير: البعيرُ القويُّ، والظَّهيرُ: المُعينُ، كأنَّه أسندَ ظهرَهُ إلى ظَهرك[(3)]، وإذا استُعمِلَ متعدّيًا بلا حرفٍ يدلُّ على الموافقةِ والمُعاونةِ في الظُّهورِ، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ

(1) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 244 - 245.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 93.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ظهر).

ٱلۡكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمۡ﴾ [الأحزاب: 26]، أي: ظاهَروا الأحزابَ من الكفّار، وهم بَنو قُريظة[1]، فالمُظاهَرَةُ: التَّعاوُنُ، يُقالُ: ظاهَرَهُ، أي: أيَّدَهُ، وأعانَهُ[2].

وأمّا الشِّركُ؛ فيتحقَّقُ باشتراكٍ مُستقيم في العمَل، وهذا أشدُّ تأثيرًا مِن كونِهِ ظهيرًا، فالظَّهيريَّةُ مَرجِعُها إلى المُعاونة، وهي في المَرتبةِ اللّاحقة[3]، ومِن ثمَّ فرَّقَ النَّظمُ الكريمُ بينَهُما في قولِه: ﴿وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ٢٢﴾ [سبأ: 22]، فالشَّريكُ يستمدُّ قوَّتَهُ من نصيبِهِ فيما يشتركُ به، وأمّا الظَّهيرُ؛ فليس له رصيدٌ بل يَأتي مُعينًا ومُؤيِّدًا، ولذا عبَّر النَّظمُ الكريمُ بـ(الشُّركاءِ) في قولِه: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَآءُ فَلۡيَأۡتُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ﴾؛ للدَّلالةِ على المُصاحبِ القويِّ الَّذي يَستطيعُ تقديمَ النُّصرةِ بما لهُ مِن حُقوقٍ في الأُلوهيَّة، أوِ الموافقِ من النّاسِ في الرَّأي حتَّى يتحقَّقَ به الحُكمُ المَزعومُ.

(1) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 7/ 226.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 357.

(3) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 6/ 47.

﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ وَيُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ٤٢ خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ وَقَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمۡ سَٰلِمُونَ ٤٣﴾ [القلم: 42 - 43]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

ذِكرُ يومِ القيامة تحمُّلٌ للمسؤوليَّة ودفعٌ للمَلامة

لمّا ذكرَ اللّهُ تعالى أنَّ عاقبةَ المُكذِّبين والعُصاة العذابُ الأكبر، وعاقبةَ المُتقينَ جنّاتُ النَّعيم؛ ناسَبَ أنْ يُبيِّنَ وقتَ وقوعِ ذلك الوعيدِ والوَعْد، وهو يومُ القيامة، وما فيهِ من أهوالٍ وخُطوبٍ وشدائدَ رادعةٍ، قال ابنُ كثير: "لَمّا ذَكَرَ تعالى أنَّ لِلمُتَّقينَ عِندَهُ جَنّاتِ النَّعيم؛ بَيَّنَ مَتَى ذَلِكَ كائِنٌ وواقِعٌ، فَقالَ: ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ﴾ يَعْني: يَوْمَ القيامَةِ"[1]، أوْ أنَّه لمّا فنَّد دعواهُم الجزاءَ الأوفَرَ يومَ القيامةِ أوِ المساويَ للمُسلمينَ بناءً على صحَّةِ وقوعِ القيامةِ؛ ناسَبَ أنْ يُبيِّنَ لهم ذلك اليومَ الَّذي لا يَنفعُهُم فيه إجرامُهُم، بل لا يَستطيعون في ذلك اليومِ السُّجودَ والخُضوعَ وإعلانَ الطّاعةِ بعدَما أجرَموا في الدُّنيا، ونابَذوا الدّين الحقَّ العَداءَ؛ تحميلًا لهم للمسؤوليَّة ودَفْعًا للمَلامَة، وذهبَ الواحديُّ إلى أنَّ وجهَ المُناسبةِ يكمُنُ في أنَّ: "﴿يَوۡمَ﴾ ظرفٌ لهذا الأمر، أي: فَلْيَأتوا بالشُّركاء في ذلك اليوم، وذلك أنَّها تبطُلُ، وتزهَقُ، فلا تَنفعُهُم بشيءٍ، يقول اللّه: ﴿إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ﴾ في أنَّها شُركاءُ، فلْيَأتوا بها يومَ القيامةِ؛ لِتنفعَهُم، وتشفَعَ لهُم"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَاقٖ﴾: (سوق) أصلٌ واحدٌ، وهو حَدْوُ الشَّيءِ، يقالُ: ساقَهُ يَسوقُهُ سَوْقًا، والسّاقُ للإنسانِ وغيرِه، والجمعُ سوْقٌ، وإنَّما

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 198.

(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 22/ 111.

سُمّيت السّاقُ بذلك؛ لأنَّ الماشيَ يَنساقُ عَليها[1]، والسّاق منَ الأعضاء: أُنثى، وهو ما بينَ الرُّكبةِ والقَدَم، وتصغيرُها: سوَيقةٌ[2]، فالسَّوْقُ حَثٌّ على سَيرٍ مِن خَلْفٍ، في ظاهرٍ أوْ مَعنًى[3]، والمُرادُ به في الآيةِ: العضوُ المَعروف، وأُريدَ به في السّياق اشتدادُ الأمرِ وصعوبةُ الخَطب وعِظَمُ الهَول؛ إذ "أصلُهُ أنَّ المَرْءَ إذا هَلِعَ أنْ يُسْرِعَ في المَشْيِ، ويُشَمِّرَ ثيابَهُ، فَيَكْشِفَ عَن ساقِهِ"[4].

2) ﴿خَٰشِعَةً﴾: (خشع) أصلٌ واحدٌ يدلُّ على التَّطامُن، يقالُ: خشعَ؛ إذا تطامَنَ، وطأطأ رأسَهُ، وهو قريبُ المَعنى منَ الخُضوع، إلّا أنَّ الخُضوعَ في البدن، والخُشوعَ في الصَّوت والبَصَر[5]، وخَشَعَ يخشَعُ خُشوعًا؛ إذا خَضَعَ، وخشَعَ في صَلاتِهِ ودُعائِهِ أقبلَ بقلبِهِ على ذلك، وهو مأخوذٌ من خَشَعَتِ الأرضُ؛ إذا سَكَنَتْ، واطْمأنَّت[6]؛ فهو حالةٌ تحصلُ من اللّينة والوَضيعة والقَبول والأخذ، وهذه الحالةُ تحقُّقُها في المرتبةِ الأولى في القلب، ثمَّ تتجلّى ثانيًا في البَصَر والسَّمع، فإنَّهما وسيلتا القَبول والتلقّي، والمُرادُ به في الآية: جَعْلُ البصرِ في مَقام الانقيادِ والطّاعةِ مُقابلَ حِدَّةِ البَصَر الدّالِّ على الاستكبار[7].

3) ﴿تَرۡهَقُهُمۡ﴾: (رهق) أصلانِ مُتقاربانِ، فأحدُهما: غَشَيانُ الشَّيءِ الشَّيءَ، والآخرُ: العَجَلةُ والتَّأخيرُ[8]، ورَهِقْتُ الشَّيءَ رَهَقًا - من بابِ (تَعِبَ) -: قَرُبتُ منه، ورَهِقَهُ الدَّينُ: غَشيَهُ، ورَهِقَتْنا الصَّلاةُ رُهوقًا: دخلَ وقتُها، وأرهقْتُ الرَّجلَ أمرًا - يتعدّى إلى مَفعولين -: أعجلتُهُ وكلَّفتُهُ حِمْلَهُ[9]، ورَهِقَهُ الأمرُ: غَشيَهُ بقَهْرٍ[10]، فهو غَشيانٌ بما يُكرَهُ، لا مُطلقُ الغَشيانِ[11]، والمُرادُ به في الآيةِ: تَغشاهُم، وتَحِلُ بِهِمُ الذِّلَّةُ المَكروهةُ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سوق).
(2) الفيوميّ، المصباح المنير: (سوق).
(3) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 5/ 284.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 97.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خشع).
(6) الفيوميّ، المصباح المنير: (خشع).
(7) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 3/ 58.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رهق).
(9) الفيوميّ، المصباح المنير: (رهق).
(10) الرّاغب، المفردات: (رهق).
(11) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 4/ 236.

4) ﴿ذِلَّةٌ﴾: (ذلل) أصلٌ واحدٌ يدلُّ على الخُضوع والاستكانةِ واللّين، فالذّلُّ ضدُّ العزِّ[1]، وذلَّ ذُلًّا - من باب (ضربَ) - والاسمُ الذُّلُّ والذِّلَّةُ والمَذلَّة؛ إذا ضعُفَ، وهانَ، فهو ذليلٌ[2]، والذُّلُّ ضدُّ العزِّ، ورجلٌ ذليلٌ: بيِّنُ الذُّلِّ والذِّلَّة والمَذلَّة، من قوم أذلّاءَ وأذِلَّة، والذُّلُّ: اللّينُ، وهو ضدُّ الصُّعوبة[3]، والذُّلُّ ما كانَ عن قَهْرٍ، يقالُ: ذلَّ يَذِلُّ ذُلًّا، والذِّلُّ ما كانَ بعدَ تصعُّبٍ وشِماسٍ من غيرِ قَهْر، يقال: ذلَّ يَذُِلُّ ذُلًّا[4]، فهو الهَوانُ والصَّغار في مُقابل مَن هو أعلى منهُ، كما أنَّ العِزَّةَ هي التَّفوُّقُ والاستعلاءُ بالنِّسبة إلى غيرِه الَّذي هو دونَهُ[5]، والمُرادُ به في الآيةِ: الخِزْيُ والضَّعفُ والهَوانُ.

❁ المَعنى الإجماليُّ:

نتيجةُ الغُرورِ والاستكبارِ عدمُ القُدرةِ على الخُضوعِ للجبّار

أي: فليَأتوا بهؤلاءِ الشُّركاءِ؛ ليُعاوِنوهُم؛ إذا اشتدَّ الهولُ يومَ القيامة، ويُدعَونَ إلى السُّجودِ؛ توبيخًا لهم على تركِهم إيّاه في الدُّنيا، فلا يَستطيعونَ، فتزدادُ حسرتُهُم ونَدامتُهم على ما فرَّطوا فيه حينَ دُعوا إليه في الدُّنيا، وهُم سالِمونَ أصحّاء، فلم يَفعلوا، وتكونُ أبصارُهُم خاشِعةً، وتغشاهُم ذِلَّةٌ في ذلك اليوم، وقد كانوا في الدُّنيا مُتكبِّرينَ مُتجبِّرين، فعوقبوا بنقيضِ ما كانوا عليه في الدُّنيا، وذلك بعدمِ قُدرتِهم عليهِ[6].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ التَّعلُّقِ في ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ﴾:

الانتقالُ منَ الاستدلالِ إلى ذِكرِ الأهوالِ

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بلفظِ الظَّرف ﴿يَوۡمَ﴾، في قولِه تعالى: ﴿يَوۡمَ

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذل).
(2) الفيوميّ، المصباح المنير: (ذلّ).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (ذلّ).
(4) الرّاغب، المفردات: (ذل).
(5) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 3/ 311.
(6) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 108.

﴿يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ﴾؛ ويَحتمِلُ أنْ يكونَ "مُتَعَلِّقًا بِقَولِه: ﴿فَلۡيَأۡتُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ﴾، أي: فَلْيَأتوا بِالمَزْعومينَ يَوْمَ القيامَةِ، وهَذا مِنْ حُسْنِ التَّخَلُّصِ إلَى ذِكْرِ أهْوالِ القيامَةِ عَلَيْهِم"[1]، فقد أرادَ النَّظمُ الانتقالَ من الاستدلالِ على بُطلان أراجيفِهم ودَعاويهم بالجزاءِ الأوفَر يومَ القيامة على فَرَضِ صحَّةِ وقوعِه، إلى بيان أهوالِ ذلك اليوم الَّذي هو محلُّ شكٍّ لديهم، فَرَبطَ بينَ الإتيان بالشُّركاء وذِكرِ الأهوالِ؛ للدَّلالة على أنَّ تلك الأهوالَ لا يُنجي منها إلّا الجميلُ منَ الأفعالِ والأقوالِ.

دلالةُ الاستئنافِ في ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ﴾:

استقلالُ الكلامِ لِرَدعِ اللِّئام

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بالجملةِ الفعليَّةِ ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ﴾، من قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ﴾، ويَحتملُ أنْ تكونَ استئنافًا بتقدير: (اذكُرْ يومَ يُكشَفُ) أوْ (يومَ يُكشَفُ حدثَ كيتَ وكيتَ)، والغرضُ من الاستئنافِ التَّذكيرُ بأهوالِ ذلك اليوم الَّذي هو محلُّ الشَّكِّ لديهم، والتَّخويفِ ممّا سينالهم فيه؛ قَلْبًا لما يَظنّونَهُ منَ التَّمتُّعِ بالجزاءِ الأوفَر فيه[2].

حَذْفُ عاملِ الظَّرفِ ﴿يَوۡمَ﴾:

الحذفُ للتَّهويل مِن شدَّةِ اليومِ وما فيهِ منَ الوَيل

عبَّرَ النَّظم الكريمُ بلفظِ الظَّرف ﴿يَوۡمَ﴾ مَنصوبًا، في قولِه تعالى: ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ﴾، وناصبُهُ إمّا ﴿فَلۡيَأۡتُواْ﴾ أوْ محذوفٌ؛ بتقدير: (اذكرْ، أو كانَ كذا وكذا)، وإنَّما حُذِفَ العاملُ وما بعدَهُ للتَّهويلِ والتَّعظيم بما يكونُ فيه منَ الحوادثِ[3]، حتَّى إنَّه من شدَّتِها لا يُصرَّحُ بها؛ ليَذهبَ الذِّهنُ كلَّ مَذهبٍ في تصوُّرِ عظَمةِ أهوالِها وشدَّةِ ويلاتها، قال الرّازيُّ: "أنْ يَكونَ التَّقْديرُ: (يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ ساقٍ كانَ كَيْتَ وكَيْتَ)، فَحُذِفَ لِلتَّهْويلِ البَليغِ، وأنَّ ثَمَّ مِن الكوائنِ ما لا يوصَفُ لِعَظَمَتِهِ"[4].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 97.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 97.

(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 595، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 104.

(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 613.

مِمّا يورثُ الحَسرةَ العجزُ عن تقديمِ المَعذِرة

تحديدُ المُرادِ بلفظ ﴿يَوۡمَ﴾:

يحتملُ لفظُ ﴿يَوۡمَ﴾ الواردُ في قولِه تعالى: ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ﴾ أنْ يكونَ المرادُ به (يوم القيامة)؛ إذِ الإتيانُ بالشُّركاءِ النّاصرينَ إنَّما يَنفعُهم في ذلك اليوم، كما أنَّ التَّخويفَ من أهوالِ ذلك اليوم يتحقَّقُ فيه، لكنْ ذهبَ بعضُهم إلى أنَّ المرادَ يومٌ من أيّام الدُّنيا قبلَ الوَفاة وحينَها، بقرينة: ﴿وَيُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾؛ إذ في القيامةِ لا يكونُ هنالك تكليفٌ بالعبادات.

تمييزُ المُضاف بما للسّاق من انكِشاف

دلالةُ الإضافةِ في ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ﴾:

أضافَ النَّظمُ الكريم لفظَ ﴿يَوۡمَ﴾ إلى الجملةِ الفعليَّة: ﴿يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ﴾، في قولِه تعالى: ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ﴾؛ للدَّلالة على تخصيصِ ذلك اليوم بأمرٍ يتميَّزُ به عن غيرِه منَ الأيّام، فاختارَ النَّظمُ الكريم (كشفَ السّاق)؛ بيانًا وتحديدًا لذلك اليوم، لكنَّ المضافَ إليه المُبيَّنَ يُثيرُ دلالةَ الشِّدَّةِ والهَولِ والغَرابة، فيكونُ مُلقيًا بظِلالِه على المضافِ تلك الغرابة العَجيبة.

تجليةُ الأمورِ الخفيَّة والإسفارُ عنِ الأهوالِ المُرديَة

دلالةُ الفعلِ المضارعِ ﴿يُكۡشَفُ﴾ مادَّةً وصيغةً:

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بلفظِ الفعلِ المُضارعِ في قولِه تعالى: ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ﴾؛ للدَّلالة على التَّجليةِ للأُمور الخفيَّة، والظُّهورِ للعوالمِ المُنطوية، والإسفارِ عن الأهوالِ المُرديَة؛ إذِ الكشفُ إزالةُ الغِطاء والحَواجب المانعةِ من رُؤية الحقائقِ أوِ الأهوال أوِ الخفيّات، ويدلُّ الفعلُ بصيغتِه على الاستمرارِ التَّجدُّديِّ لذلك الكشفِ المُتواصِل، الذي لا يتوقَّفُ وُضوحًا وظُهورًا وبُروزًا.

تجاوُزُ المَكشوفِ السّاقَ للاستعدادِ للحدثِ الشّاقِّ

دلالةُ ﴿عَن﴾ والغرضُ مِنها:

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بحرفِ الجرِّ ﴿عَن﴾ في قولِه تعالى: ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ﴾؛ للدَّلالة على المُجاوزة؛ إذِ الكشفُ جاوزَ السّاقَ،

وتخطّاها، والغرضُ منه الدَّلالةُ على وقوعِ الكشفِ الكبير للسّاقِ؛ تهيُّؤًا للأمرِ الخطيرِ والشّاقِّ.

دلالةُ الاستعارةِ التَّصريحيَّة في لفظِ ﴿سَاقٖ﴾:

حقائقُ الأُمور سيقانٌ وأُصول

استعارَ النَّظمُ الكريم لفظَ (السّاق)؛ إمّا للدَّلالة على الأصلِ والحقيقةِ، أو للدَّلالةِ على الأمرِ العظيم مِن أهوالِ القيامةِ، وذلك في قولِه تعالى: ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ﴾، فقد قيلَ: إنَّ "ساقَ الشَّيءِ أصلُهُ الَّذي به قوامُهُ، كـ(ساقِ الشَّجر وساقِ الإنسانِ)، فإنَّ ساقَ الشَّجرِ مثلًا أصلُهُ، والأغصانُ تنبُتُ على ذلك الأصلِ، وتقومُ به، والمعنى عليه: يومَ يُكشَفُ عن ساقِ الأمورِ وأُصولها وحقائقِها بحيثُ تظهرُ، وتصيرُ عَيانًا"[1]، فقد شبَّه أصولَ الأمورِ وحقائقَها بالسّاق، ثمَّ حذفَ المشبَّهَ، وأبقى المشبَّهَ به على سبيلِ الاستعارةِ التَّصريحيَّة، وقد قيل: السّاق الَّتي كُشِفتْ لهم عبارةٌ عن أمرٍ عظيم من أهوالِ يوم القيامة، تقولُ العربُ: كَشَفتِ الحربُ عن ساقِها؛ إذا عَظُمَ أمرُها، وتقولُ لِمَن وقعَ في أمرٍ عظيم شديدٍ يحتاجُ فيه إلى جَهدٍ ومُقاساة: شمِّرْ عن ساقِك، وكذلك ﴿وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ٢٩﴾ [القيامة: 29]، أي: دخلتِ الأهوالُ والأمورُ العظامُ بعضُها إلى بعضٍ يومَ القيامة، والمعنى عليه: يومَ يُكشَفُ عن أمرٍ عظيم مِن أهوالِ يوم القيامة[2]، فقد شُبِّهَ الأمرُ العظيمُ الهائلُ بالسّاقِ أيضًا، ثمَّ حُذِفَ المشبَّهُ، وأُبقيَ المشبَّهُ به على سبيلِ التَّصريحيَّةِ أيضًا.

دلالةُ التَّنكيرِ في ﴿سَاقٖ﴾:

التَّعظيمُ والتَّهويل والإبهام تهديدٌ وإلجام

نكَّرَ النَّظمُ الكريم لفظَ ﴿سَاقٖ﴾، في قولِه تعالى: ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ﴾؛ إمّا للدَّلالة على التَّعظيم؛ بناءً على استعارةِ (السّاق) للأصلِ والحقيقةِ، أو للدَّلالة على التَّهويلِ؛ بناءً على استعارتِها للأمرِ العظيمِ

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 106.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 106.

المَهول، أوْ للدَّلالة على الإبهام، قال الهرريُّ: "وتنكيرُهُ للتَّهويل؛ لأنَّ يومَ القيامة يومٌ يقعُ فيه أمرٌ فظيعٌ هائلٌ مُنكَرٌ خارجٌ عن المَألوف"(1)، وقال أيضًا: "تنكيرُ (السّاق) لغرضِ الإبهام؛ مُبالغة في الدَّلالة على أنَّه أمرٌ مُبهَمٌ في الشِّدَّة، مُنكَرٌ خارجٌ عن المألوفِ المُعتاد(2).

دلالة الكناية أو الاستعارة التَّمثيليَّة في ﴿يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ﴾:

شدائد الأهوال تستدعي تغيُّر الأحوال

كنّى النَّظمُ القرآنيُّ بقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ﴾ عن "شِدَّةِ الحالِ وصُعوبَةِ الخَطْبِ والهَوْلِ، وأصْلُهُ: أنَّ المَرْءَ إذا هَلَعَ أنْ يُسْرِعَ في المَشْيِ، ويُشَمِّرَ ثيابَهُ، فَيَكْشِفَ عَنْ ساقِه، كَما يُقالُ: شَمِّرْ عَنْ ساعِدِ الجِدِّ، فَإذا قالوا: كَشَفَ المَرْءُ عَنْ ساقِهِ؛ فَهوَ كِنايَةٌ عَنْ هَوْلٍ أصابَهُ، وإنْ لَمْ يكُنْ كشفَ ساقَهُ"(3)، يعني: هو من الكناية الإيمائيَّة، الَّتي تُؤخَذُ فيها الزُّبدةُ والخُلاصة من المَجموع، ولا يُنظَرُ إلى مُفردات التَّركيبِ حقيقةً ومَجازًا(4)، وذهبَ بعضُهم إلى أنَّها استعارةٌ تمثيليَّةٌ، "وتأويلُ الآية: يومَ يشتدُّ الأمرُ، كما يشتدُّ ما يحتاجُ فيه إلى أن يُكشَفَ عن ساقٍ، وقد كثُر هذا في كلامِ العرب حتّى صار كالمَثَلِ في شدَّةِ الأمر"(5)، أي: شُبِّهت حالُ مَنِ اشتدَّ عليه الأمرُ في الموقف بالمُخدَّرات اللّاتي اشتدَّ عليهنَّ الأمرُ، فاحتجْنَ إلى تفسيرِ سوقِهنَّ في الهَرَبِ بسببِ وقوعِ أمرٍ هائلٍ بالغٍ إلى نهايةِ الشِّدَّة، مَعَ أنَّهنَّ لا يَخرُجْنَ مِن بُيوتهنَّ، لغايةِ خَوْفِهنَّ، وزوالِ عقلِهنَّ مِن دهشتِهنَّ وفِرارِهنَّ لخلاصِ أنفُسِهنَّ، فاستُعمِل في حقِّ أهلِ الموقفِ مِنَ الأشقياءِ، ما يُستعمَلُ في حقِّهنَّ من غيرِ تصرُّفٍ في مفرداتِ التَّركيب، بل التَّصرُّفُ إنَّما هوفي الهيئة التَّركيبيَّة"(6).

---

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 106.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 138.
(3) الحنبليّ، فتح الرّحمن: 7/ 134، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 97.
(4) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 596.
(5) الواحديّ، التّفسير البسيط: 22/ 115.
(6) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 138.

دلالةُ الوَصلِ والإدماجِ في ﴿وَيُدۡعَوۡنَ﴾:

عطفَ النَّظمُ الكريم بـ(الواو) في قولِهِ تعالى: ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ وَيُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾؛ للدَّلالةِ على الرَّبط بين ذكرِ ذلك اليوم، وما يَحدُثُ فيه من أهوالٍ بالدَّعوة لهُم إلى السُّجودِ والتَّضرُّع، ووجهُ المناسبةِ أنَّ مُعاينةَ تلك الأهوالِ واقتحامَ تلك الأخطارِ تدلُّ على رغبةٍ كامنةٍ فيهم بالتَّضرُّع والسُّجود رهبةً ورغبةً، وتتحقَّقُ رغبتُهم بطلبِ السُّجودِ والضَّراعة منهم، وبذلك كشفَ العطفُ عن تلبيةٍ لِمَرغوبِهم الَّذي كانوا يأنَفونَ منهُ في الدُّنيا استكبارًا، لكن بعدَ المُعاينة والانكشافِ أرادوا ذلك، وطُلِبَ منهم؛ تذكيرًا لهم بما كانَ يُطلَبُ منهم في الدُّنيا منَ السُّجود، قال ابنُ عاشور: "فَيَكونُ قَوْلُهُ تعالى: ﴿وَيُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ إدْماجًا؛ لِذِكْرِ بَعْضِ ما يَحْصُلُ مِنْ أحْوالِ ذَلِكَ اليَوْمِ"(1).

طَلَبُ السُّجودِ رغبةً ورهبةً بعدَ مُعاينةِ اليومِ المَوعودِ

دلالةُ الفعلِ المضارعِ المبنيِّ للمفعولِ (يُدعَونَ):

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بالفعلِ المُضارعِ المبنيِّ للمجهول، في قولِه تعالى: ﴿وَيُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾؛ للدَّلالةِ على الاهتمام بالدُّعاء لهم بالسُّجود؛ لأنَّه محطُّ الاهتمام وموطِنُ المُفارقة بينَ طلبِه في الدُّنيا وطلَبِهِ في الآخِرة، دونَ التَّركيزِ على الدّاعي لهم إلى السُّجود، فقد قيل: "المَلائِكَةُ المَوَكَّلونَ بِالمَحْشَرِ بِأمْرِ اللَّه تعالى، كَقَوْلِهِ تَعالَى: ﴿يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ ٦﴾ [القمر: 6]، إلَى قَوْلِه: ﴿مُّهۡطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ﴾ [القمَر: 8]، أوْ يَدْعو بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِإلهامٍ مِنَ اللَّه تعالى"(2)، ودعوتُهم إلى السُّجود في الآخرةِ وطلبُه منهُم - وهي دارُ جزاءٍ بلا عَمَلٍ - أُريدَ به التَّوبيخُ والتَّقريعُ دونَ الطَّلبِ الحقيقيِّ، ومِن ثَمَّ فلا حاجةَ إلى القولِ بأنَّ: ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ﴾ مِن أيّامِ الدُّنيا،

مَحَطُّ الاهتمام الدَّعوةُ بالسُّجودِ لأهلِ القيام

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 98.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 98.

وليسَ يومَ القيامة، قال الهرريُّ في بيانِ المرادِ بالدَّعوة إلى السُّجود: "توبيخًا وتعنيفًا لهم على تركهم إيّاه في الدُّنيا، وتحسيرًا لهم على تفريطِهِم في ذلك، لا على سبيل التَّكليفِ والتَّعبُّدِ؛ لأنَّ يومَ القيامة ليس دارَ تعبُّدٍ وتكليفٍ"[1].

مَرجِعُ (الواو) في ﴿وَيُدۡعَوۡنَ﴾:

الكُفّارُ والمُنافقون لِلطَّلَبِ التَّوبيخيِّ، بالسُّجودِ مَدعوّون

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بضميرِ الغَيبة للجمعِ (الواو)، في قولِهِ تعالى: ﴿وَيُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾؛ للدَّلالة على الكفّار والمُشركينَ الَّذين كانوا يأنَفونَ من السُّجود للّه تعالى استكبارًا وغُرورًا، وعلى المُنافقينَ الَّذين كانوا يَسجدونَ زورًا وبُهتانًا، فيُطلَبُ منهم السُّجودُ توبيخًا وتقريعًا، وهم في ذلك اليوم وبعدَ المُعاينة يرغبونَ، لكنَّهم لا يَستطيعونَهُ، ورأى ابنُ عاشور أنَّ ضميرَ: "﴿وَيُدۡعَوۡنَ﴾ لَيْسَ عائِدًا إلَى المُشْرِكينَ مِثْلَ ضَميرِ: ﴿إِنَّا بَلَوۡنَٰهُمۡ﴾؛ إذْ لا يُساعِدُ قَوْلُهُ: ﴿وَقَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾؛ فَإنَّ المُشْرِكينَ لَمْ يَكونوا في الدُّنْيا يُدعَوْنَ إلَى السُّجودِ، فالوَجْهُ أنْ يَكونَ عائِدًا إلى غَيْرِ مَذْكورٍ، أي: ويُدْعَى مَدْعوّونَ، فَيَكونُ تَعْريضًا بِالمُنافِقينَ بِأنَّهُم يُحْشَرونَ مَعَ المُسْلِمينَ، ويُمْتَحَنُ النّاسُ بِدُعائِهِم إلَى السُّجودِ؛ لِيَتَمَيَّزَ المُؤْمِنونَ الخُلَّصُ عَنْ غَيْرِهِمْ تَمَيُّزَ تَشْريفٍ، فَلا يَسْتَطيعُ المُنافِقونَ السُّجودَ، فَيُفْتَضَحُ كُفْرُهُمْ"[2].

والَّذي يبدو أنَّ عدمَ دعوة المشركينَ إلى السُّجودِ قضيَّةٌ تحتاجُ إلى نظَر، فقد كانَ يُطلَبُ منهُم السُّجودُ للّه والصَّلاةُ أيضًا بدلَ السُّجودِ والصَّلاةِ لآلهتِهِم المَزعومة، كما يُطلَبُ منهُمُ التَّوحيد، ثمَّ إنْ لم يَدخُلِ المشركونَ؛ بقيَ في الدُّعاءِ للسُّجود المسلمونَ والمُنافقون، فيكونُ التَّعريضُ مرتبطًا بالمنافقين، فكيفَ ينسجِمُ معَ قوله: ﴿وَقَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمۡ سَٰلِمُونَ﴾، معَ أنَّ المنافقينَ كانوا

---

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 104.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 98.

يَسجدونَ في الدُّنيا؟ والَّذي يتبيَّنُ أنَّ الدَّعوة للسُّجودِ والضَّراعةِ في الآخرةِ للتَّوبيخِ والتَّقريع وإنْ كانوا يَرغَبونَ به، والمشركونَ والكُفّار يتناسَبُ معهُم الطَّلبُ التَّوبيخيُّ.

مَعنى الحرفِ ﴿إِلَى﴾ والغرضُ منهُ:

السُّجودُ غايةُ الطَّلب، والضَّراعةُ مَقْصِدُ الأرب

عبَّر النَّظمُ الكريم بحرفِ الجرِّ ﴿إِلَى﴾، في قولِهِ تعالى: ﴿وَيُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾؛ للدَّلالة على انتهاءِ غايةِ الطَّلَبِ منهم بأنْ يَسجُدوا، ويَتضرَّعوا، وهو في ذلك اليومِ مرغوبٌ لهم، فيكونُ السُّجودُ محطَّ النِّهاية للطَّلب المُتوجِّهِ إليهم، وغايةَ الطَّلب ومَقصودَهُ الأساسيَّ.

دلالةُ التَّعريفِ بـ (أل) في ﴿ٱلسُّجُودِ﴾:

السُّجودُ المَعهود وضعُ الجَبهةِ على الأرضِ بلا قُيود

عرَّفَ النَّظمُ الكريم لفظَ ﴿ٱلسُّجُودِ﴾ بـ(أل)، في قولِهِ تعالى: ﴿وَيُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾؛ إمّا للدَّلالةِ به على السُّجودِ المَعهودِ شَرْعًا، وهو وضعُ الجَبهةِ على الأرضِ، فتكونُ (أل) عهديَّةً، وإمّا لإرادةِ المَعنى اللُّغويِّ، وهو: "سُجودُ الضَّراعَةِ والخُضوعِ لِأجْلِ الخَلاصِ مِنْ أَهْوالِ المَوْقِفِ"[1]، فتكونُ (أل) فيه للجنسِ المُتحقِّق بصورةِ الخُضوعِ والتَّذلُّل، وبذلك يندفِعُ أيضًا أنَّ دارَ الآخرة ليستْ دارَ تكليفٍ وعِبادة، والدَّعوة للسُّجود وإنْ كانت للتَّوبيخِ والتَّحسيرِ على ما فرَّطوا في جنبِ اللّه تعالى، لكنَّهم يَرغَبونَ به في ذلك اليوم، ويُحاولونَ لهُ دونَ جَدوى، قال البقاعيُّ: "يُدعَونَ توبيخًا على تَرْكِهِ الآنَ، وتَنديمًا وتعنيفًا لا تعبُّدًا وتكليفًا، فيُريدونَه؛ لينصروا أنفسَهم ممّا يَرونَ منَ المَخاوِفِ"[2].

دلالةُ (الفاءِ) والغرضُ منها:

المُسارعةُ للتَّطبيق تدلُّ على خوفٍ عَميق

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بـ(الفاء) في قولِهِ تعالى: ﴿وَيُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾؛ للدَّلالة على التَّعقيبِ والتَّفريعِ بِلا مُهلة مع

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 98.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 324.

التَّسبُّب، قال البقاعيُّ: "أي: فيتسبَّبُ عن ذلك أنَّهم لا ﴿يَسْتَطِيعُونَ﴾، أي: لأنَّهم غيرُ سالمِين، لا أعضاءَ لهم تنقادُ به مع شدَّةِ مُعالجتِهم لأنفُسِهم على أنْ تُطوِّعَ لهم أعضاؤُهم، بما تُفهِمُهُ هذه الصّيغةُ من أنَّ الإنسانَ منهم إذا أرادَ الفعلَ، وعالجَهُ بقوَّةٍ؛ فلم يُطِقْهُ"[1]؛ إذ بمُجرَّدِ سَماعِهم دعوةَ السُّجودِ والخُضوعِ والضَّراعة يُحاولونَ رَهبةً ورغبةً، لكنَّهم لا يستطيعونَ ذلك، فقد أفادتِ (الفاءُ) المُسارعةَ على الإقدامِ إلى الفعلِ والسُّجود، والمسارعةَ في عدمِ الاستطاعةِ بعدَ التَّوجُّهِ للفِعل.

دلالةُ (لا) والغرضُ منها:

الاستطاعةُ المَنفيَّة تدلُّ على امتناعِ النَّجاةِ الفِعليَّة

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بلفظِ (لا)، في قولِه تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾؛ للدَّلالة على النَّفي الحاليِّ والاستقباليِّ، ممّا يفيدُ استمرارَ عدمِ القُدرة على الطّاعة والضَّراعة؛ فلا أملَ لهُم بالنَّجاةِ منَ الوَضاعَة، قال ابنُ عاشور: "وَعَدَمُ استِطاعَتِهِمُ السُّجودَ لِسَلْبِ اللّه مِنْهُمُ الاستِطاعَةَ عَلَى السُّجودِ؛ لِيَعْلَموا أنَّهُم لا رَجاءَ لَهُم في النَّجاةِ"[2].

دلالةُ الفعلِ المُضارع ﴿يَسْتَطِيعُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

سَلْبُ الاستطاعةِ على سبيلِ الاستمرار نِكايةٌ بالكَفَرةِ والفُجّار

عبَّر النَّظمُ الكريمُ بالفعلِ المضارعِ ﴿يَسْتَطِيعُونَ﴾، في قولِه تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾؛ للدَّلالة على عدمِ التَّمكُّنِ من الإطاعة، معَ الرَّغبةِ بالمُحاولةِ المتجدِّدة المُستمِرَّة، الَّتي تُقابَلُ بتجدُّدٍ مُستمِرٍّ بعدمِ القُدرةِ على الفِعل، وقد أفادتِ (السّينُ والتّاءُ) طلبَ حُصولِ ذلك، لكنَّه لا يُستطاعُ، ولا يُطلَبُ إطاعتُه، فمهما حاوَلوا؛ مُنِعوا منهُ، ورُدّوا بعدمِ التَّمكُّن[3].

دلالةُ الموقعِ الإعرابيِّ لـ ﴿خَٰشِعَةً﴾:

تقييدُ الدَّعوةِ بالخُشوعِ لتصويرِ أقسى حالاتِ الذُّلِّ والخُضوع

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بلفظِ ﴿خَٰشِعَةً﴾، في قولِه تعالى: ﴿خَٰشِعَةً

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 20/ 324.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 99.

(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 105.

﴿أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾؛ للدَّلالة على الحالِ، الَّذي يُقيِّدُ عامِلَه، ويُبيِّنُ هيئةَ صاحبِه، فيكونُ المَدعوّونَ للسُّجود، ولا يَتمكَّنونَ منه خاشِعينَ وخاضِعينَ ومُنقادين انقيادَ الذُّلِّ والهَوان، وأنَّ دعوتَهُم للسُّجود وعدمَ استطاعَتِهم لهُ كانت مُرتبطةً بتلك الحالةِ مُقترنةً بها، ممّا يدلُّ على أنَّ خطابَهم ودعوتَهم إلى السُّجود وعدمَ التَّمكُّنِ منه في حالةٍ مُزريةٍ وسيِّئةٍ، ولذا كان طلبُ السُّجود منهم تحقيرًا لشأنِهم وإذلالًا لهم وتَحسيرًا على ما فاتَهُم، وفيه إشارةٌ إلى أنَّهم لا يستطيعونَ السُّجود معَ أنَّهم في حالةِ خشيةٍ حقيقيَّةٍ؛ تنبيهًا إلى أنَّهم كانوا يَستطيعون السُّجود في الدُّنيا، لكنْ لم يفعلوهُ فضلًا عنِ الاتِّصافِ بالخُشوع فيه.

دلالةُ لفظِ ﴿خَٰشِعَةً﴾ مادَّةً وصيغةً:

عبَّر النَّظمُ الكريم بلفظِ ﴿خَٰشِعَةً﴾، في قولِه تعالى: ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾؛ للدَّلالة على ثبوتِ وصفِ الخُشوع في أبصارِهم ثُبوتًا عَريقًا ودائمًا، فقد تمكَّنَ الخشوعُ منهم حتَّى استقرَّ وصفًا في جوارِحِهم، فكانوا خاشعي الأبصارِ والأبدان، كما تدلُّ مادَّةُ الخُشوع على الخُضوع للهَيبة والقوَّة معَ الشُّعور بالضَّعف أمامَ الآخر، وفي ذلك تعريضٌ بهم في أيّام الدُّنيا؛ إذ كانتْ أبصارُهم وجوارحُهم شاخِصةً بالباطلِ ناهِضةً بالاستكبار، مُستعليةً على الحقِّ، لكنَّها بعد المُعاينة والانكشافِ زالَ الغُرور منها، فأعقبَهُ النَّدمُ والتَّحسُّرُ والخُضوع والخُشوع والخَوف.

المُستكبرونَ يخشَعون في يومِ الكَربِ يَخضَعون

دلالاتُ المَجازِ في ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾:

أطلقَ النَّظمُ القرآنيُّ لفظَ ﴿خَٰشِعَةً﴾، في قوله تعالى: ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾؛ للدَّلالة على الذُّلِّ والخَوف، فقد شبَّهَهُما بالخُشوع، ثمَّ حذفَ المشبَّهَ، وأبقى المشبَّهَ به، واشتقَّ منه وصفَ ﴿خَٰشِعَةً﴾ على سبيلِ الاستعارةِ التَّصريحيَّة التَّبعيَّة، قال ابنُ عاشور: "وَخُشوعُ

الصّوَرُ التَّشبيهيَّة والمَجازيَّة مُجسِّدةٌ للحالاتِ المَعنويَّة

الأبْصارِ: هَيْئَةُ النَّظَرِ بِالعَيْنِ بِذِلَّةٍ وخَوْفٍ، اسْتُعيرَ لَهُ وصْفُ ﴿خَٰشِعَةً﴾؛ لِأنَّ الخاشِعَ يَكونُ مُطَأْطِئًا مُخْتَفيًا"[1]، ويحتملُ أن تكونَ الاستعارةُ مكنيَّةً بتشبيهِ الأبصار بذواتٍ خائفةٍ، ثمَّ حذفَ المشبَّه به، وأبقى من خواصِّه ولوازمِهِ ﴿خَٰشِعَةً﴾ تدلُّ عليه، ثمَّ أسندَه إلى المشبَّه تَخييلًا، كما يحتملُ أنْ يكون إسنادُ الخشوعِ للأبصارِ على طريقةِ المَجازِ العقليِّ؛ إذِ الخشوعُ إنَّما يكون لأصحابِ الأبصار؛ لأنَّ نسبةَ الخُشوعِ إلى الأبصار مجازٌ عقليٌّ؛ لأنَّ ما في القلبِ يُعْرَف من العَين، كما يحتملُ أيضًا المجازَ المُرسَل في (الأبصار)؛ إذ أطلقَ النَّظمُ الجُزء، وأرادَ به خُشوعَ الكلِّ، فـ"المُراد: أربابُها، وخصَّ الأبصارَ بالذِّكر؛ لأنَّ الخشوع فيها أبينُ منه في كلِّ جارحةٍ"[2]، لكنَّه اقتصرَ على الأبصارِ؛ لما يظهَرُ بها الخشوعُ على الوجهِ والبدنِ بالكلِّيَّة، فنِسبةُ الخشوعِ إلى الأبصارِ لظهورِ أثَرِهِ فيها، وإلّا فالأعضاءُ أيضًا خاشعةٌ ذليلةٌ مُتواضِعةٌ، بل الخاشعُ في الحقيقة هو القلبُ؛ لكونِه مَبدأ الخُشوعِ"[3].

سرُّ التَّعبيرِ بـ(الأبصار) جَمْعًا:

تقلُّبُ الأبصارِ الخاشِعةِ لما عايَنوا مِنَ الأهوالِ القاطِعةِ

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بلفظِ (الأبصار) مَجموعًا، في قولِه تعالى: ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾؛ للدَّلالة على حالةِ التَّوافُقِ البدنيِّ والنَّفسيِّ الَّذي أصابَهم بشكلٍ كليٍّ بعدَ مُعاينتِهم حقيقةَ الموقفِ وشدَّةَ الخَطب، فعدلَ عنِ القول: (خاشعًا بَصَرُهم)؛ لما فيه من دلالةٍ على الذُّلِّ المتَّحِد لمصدريَّتِه، فقد كانوا في جميعِ حالاتِ الإبصارِ ومواقِفِ الرُّؤية قد علَتْهُم الذِّلَّةُ والمَسكَنة.

نُكْتَةُ الإضافة في ﴿أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾:

الأبصارُ المُطَأْطِئَة يوم الدِّين محلُّ تهكُّمٍ وازدراءٍ مُبين

أضافَ النَّظمُ الكريم لفظَ (الأبصار) إلى ضميرِ الجَمعِ الغائبِ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 99.
(2) الحنبليّ، فتح الرّحمن: 7/ 134.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 107.

في قولِهِ تعالى: ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾؛ للدَّلالة على التَّعيينِ والتَّعريف والتَّمييزِ لتلك الأبصارِ بإضافتِها إلى ضميرِ غيرِ المُستطيعينَ للسُّجود، والغرضُ من التَّعريفِ بها التَّهكُّمُ بهم، فقد كانوا في الدُّنيا لا يخشَعونَ لعَظمة اللّه، وعندَما عاينوا، وشاهَدوا؛ صارَتْ أبصارهُم المختصَّةُ بهم وقلوبُهم خاشعةً، ففيه توبيخٌ لهم على عدم التَّصديقِ في الدُّنيا، مع كمالِ الانقياد يومَ لا ينفَعُ فيه الخُشوعُ والخُضوع، وأمّا المؤمنون؛ فقد كانوا خاشِعينَ في الدُّنيا والآخِرة لعَظَمةِ اللّه تعالى.

دلالةُ المَوقعِ الإعرابيِّ لجُملةِ ﴿تَرۡهَقُهُمۡ﴾:

تصويرُ الكَرْبِ الشَّديد ببيانِ حالِ الجاهلِ العَنيد

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بالجُملة الفعليَّةِ المُضارعيَّة، في قولِهِ تعالى: ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ﴾؛ للدَّلالةِ على حالٍ ثانيةٍ من أحوالِ المَدعوّين للسُّجود، الَّذين لا يتمكَّنونَ من الأداءِ له مع رغبتِهم بإظهارِ الطّاعة والانقياد، والغرضُ من بيانِ الهيئةِ بشكل مُفصَّلٍ تصويرُ كَربِ ذلك اليوم وشِدَّته عليهم، فقد خشعَتْ فيه الأبصارُ وعَلَتْهم الذِّلَّة والهَوان، كما تفيدُ الحالُ تقييدَ الدَّعوةِ وعدمِ الاستطاعة بتلك الحالةِ المُزرية، الَّتي آلَ إليها أمرُهم[1].

دلالةُ التَّغايرِ في الحاليَّة بينَ الاسميَّة والفعليَّة:

مُلازمةُ الخُشوع للأبصار وحدوثُ الذِّلَّةِ بالتَّجدُّد والاستمرار

عبَّر النَّظمُ الكريم عن الحالِ الأولى بلفظِ الاسم ﴿خَٰشِعَةً﴾، وعنِ الحال الثّانيةِ بلفظِ الجُملة الفعليَّة ﴿تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ﴾، في قولِهِ تعالى: ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ الأبصارَ اتَّصفَتْ بالخُشوع والتَّواضُع على سبيلِ الدَّوام والاستقرار والثُّبوت، حتّى صارتْ صفةً مُميَّزةً لهم للزوم وصفِ (الخُشوع)، بخلاف ما اعتلاهُم من رَهَقٍ وذلَّةٍ وهَوان، فقد حدثَتْ لهم الذِّلَّة، وغشَتْهم، وأتعبَتْهم على سبيلِ التَّجدُّدِ والحُدوث؛ إذ غَشَيانُ الذِّلَّةِ لا يكونُ صفةً مُلازمةً لهُم.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 99.

دلالةُ الفعلِ المُضارع ﴿تَرۡهَقُهُمۡ﴾ مادَّةً وصيغةً:

غشيانُ الذِّلَّة بعدَ رُؤيةِ الشِّدَّة

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بلفظِ الفعلِ المُضارع (تَرهَقُ)، في قولِه تعالى: ﴿تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٌۖ﴾؛ للدَّلالة على حُدوثِ الغَشيان للذِّلَّة لهم على سبيلِ التَّجدُّد والاستمرار، فيكونُ تعَبُ الهَوان هيئةً مُقارِنةً لدعوتِهم للسُّجود وعدمِ تمكُّنِهم منه، وتفيدُ مادَّةُ الرَّهق الحلولَ والاقتراب بكلِّ تمكُّنٍ من المَغشيِّ عليه، قال ابنُ عاشور: "وتَرهَقُهُم: تَحِلُّ بِهِم، وتَقْتَرِبُ مِنْهُم بِحِرْصٍ عَلَى التَّمَكُّنِ مِنْهُم، ورَهِقَ مِنْ بابِ (فَرِحَ)، قالَ تعالى: ﴿تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝٤١﴾ [عبس: 41]"[1].

دلالةُ تقديمِ المفعولِ على الفاعلِ في ﴿تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٌۖ﴾:

انحصارُ المَذلَّةِ بهم تخييبٌ لوَقاحتِهم

قدَّمَ النَّظم الكريم المفعولَ به - وهو ضميرُ الغائب - على الفاعلِ - وهي (الذِّلَّة) - في قولِه تعالى: ﴿تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٌۖ﴾؛ للدَّلالة على الاختصاصِ والانحصار، فكما أنَّ أبصارَهم بدلالةِ الإضافة تكونُ خاشعةً في ذلك اليوم، وخاضعةً خضوعَ الذُّلِّ والهوان دونَ مَن سواهُم؛ فإنَّ غَشَيان المَذلَّة يكونُ مُنحصِرًا فيهم مُقتصِرًا عليهم، وفي ذلك إزراءٌ واستخفافٌ بحالِهم يومَ الجَزاء، بعدَ أنِ ادَّعَوا التَّخيُّرَ بالجزاءِ الأوفَر والتَّميُّزَ على المُسلمين بالأجرِ العظيم.

دلالةُ التَّنكيرِ في ﴿ذِلَّةٌۖ﴾:

تعظيمُ المَذلَّة تصويرٌ لكَمالِ المِحنَة

نكَّرَ النَّظمُ الكريم لفظَ (الذِّلَّة) في قولِه تعالى: ﴿تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٌۖ﴾؛ للدَّلالة على التَّعظيم من شأنِ تلك الذِّلَّة؛ لأنَّها ذلَّةٌ بعدَ استكبار، وهَوانٌ بعدَ غُرور، ومَسكنةٌ بعدَ شمَم، وممّا لا شكَّ فيه أنَّها عظيمةُ الوقعِ فيهم، شديدةُ التَّأثيرِ في مُحيّاهُم، قال البقاعيُّ: "﴿ذِلَّةٌۖ﴾، أي: عظيمةٌ؛ لأنَّهم استعمَلوا الأعضاءَ الَّتي أعطاهُموها ﷻ؛ ليتقرَّبوا بها إليهِ في دارِ العمَلِ في التَّمتُّعِ بما يُبعِدُ منه"[2].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 99.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 325.

دلالةُ الاستعارةِ المكنيَّة في ﴿تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۗ﴾:

الذِّلَّةُ المُرهِقة للنُّفوسِ المُستكبِرةِ القَلِقَة

وقعت الاستعارةُ المكنيَّةُ في قولِه تعالى: ﴿تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۗ﴾؛ فقد شبَّه الذِّلَّةَ، وهي أمرٌ معنويٌّ بشيءٍ حسّيٍّ يَغشى صاحبَه، ويَحُلُّ فيه بكلِّ اقتراب، ثمَّ حذفَ المشبَّه به، وأبقى من خواصِّه ولوازمِه (ترهَقُ)، وأسندَهُ إلى المشبَّه تخييلًا، والغرضُ من الاستعارة: بيانُ عظَمةِ تلك الذِّلَّة الَّتي حلَّتْ بهم وشدَّتِها بعدَ مُعاينتِهم الكَربَ العظيم والهولَ المُخيف.

دلالةُ (الواو) في ﴿وَقَدۡ﴾:

ربطُ الحاضِرِ بالماضي مُحقِّقٌ للأهدافِ والأغراضِ

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بلفظِ (الواو) في قولِه تعالى: ﴿وَقَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾؛ للدَّلالة على الحالِ الماضية الَّتي اقترنَتْ بهم في الدُّنيا؛ إذ كانوا يُدعَونَ من الرُّسُل للسُّجود، ولا يَخضعونَ لهم، ولا يُطيعونَهم، لكنَّهم اليومَ بعدَ رُؤيةِ القيامة وهولِها يُريدونَ السُّجودَ، ولا يتأتَّى لهم، فـ(الواوُ) رابطةٌ بين حالِهم الماضية في الدُّنيا، وما كانوا عليه من غُرورٍ وأنفَةٍ، وحالِهم الحاضِرة في يوم البعثِ والنَّشر وما هُم عليه من مذلَّةٍ ومَسكنةٍ، قال ابنُ عاشور: "وَجُملَةُ ﴿وَقَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمۡ سَٰلِمُونَ﴾ مُعْتَرِضَةٌ بَيْنَ ما قَبْلَها وما تَفَرَّعَ عَنْها، أي: كانوا في الدُّنْيا يُدعَوْنَ إلَى السُّجودِ للّه وحْدَهُ، وهُمْ سالِمونَ مِنْ مِثلِ الحالَةِ الَّتي هُمْ عَلَيْها في يَوْمِ الحَشْرِ، و(الواوُ) لِلحالِ ولِلاعْتِراضِ"[1].

دلالةُ (قدْ) والغرضُ منهُ:

تحقيقُ دَعوةِ السُّجودِ وتقريبُ زمنِها بِلا قُيود

عبَّر النَّظمُ الكريم بلفظِ (قد)، في قولِه تعالى: ﴿وَقَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾؛ للدَّلالة على التَّحقيقِ والتَّقريب؛ إذ دَعوتُهُم إلى السُّجود أمرٌ محقَّقٌ صدورُهُ، وهي دعوةٌ مقتربةٌ من زمنِ الحالِ الحاضِر، والغرضُ من التَّقريبِ الزَّمنيِّ الإشارةُ إلى سُرعةِ انقضاءِ الدُّنيا وغُرورِها، وبدايةِ الشُّعور بالخَيبة والحِرمان الدّائمين.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 99.

ثبوتُ الدَّعوة القاطِعة لإقامةِ الحُجَّة البالِغة

دلالةُ الفعلِ الماضي النّاقص (كانَ):

عبَّر النَّظمُ الكريم بالفعلِ النّاقص ماضيًا، في قولِه تعالى: ﴿وَقَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ﴾؛ للدَّلالة على تحقيقِ دَعوتِهم للسُّجود بشكلٍ ثابتٍ ومُستقِرٍّ ومتمكِّن، فقد طُلِب منهم السُّجودُ على جهةِ الوُجود والثُّبوت، ولذا لم يقلِ النَّظم: (وقد دُعوا إلى السُّجود)؛ لما في الكَينونة من مَعنى التَّمكُّنِ والاستقرار.

الاهــتــمــامُ بـالـدُّعـاء بيانٌ لتغايُرِ مَوقفِهم منَ الابتلاء

دلالةُ الفعلِ المضارعِ المبنيِّ للمفعولِ ﴿يُدۡعَوۡنَ﴾:

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بالفعلِ المُضارع المبنيِّ للمفعول، في قولِه تعالى: ﴿يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾؛ للدَّلالة على التَّركيزِ على حدثِ الدُّعاء دونَ الاهتمامِ بالفاعلِ الدّاعي أيًّا كان؛ لأنَّ المقصود للخطابِ بيانُ الفرقِ بينَ دُعائهم للسُّجودِ في الدُّنيا ونُفورهم منه، ودُعائِهم للسُّجود في الآخرةِ ورغبتِهم فيه، ولذا قال البقاعيُّ: "مِن كلِّ داعٍ يَدعو إلينا"(1).

امتدادُ العِبارة لـلـدَّلالـة على الإلحاحِ في طَلَب العِبادة

دلالةُ ﴿إِلَى﴾ والغرضُ منها:

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بحرفِ الجرِّ ﴿إِلَى﴾، في قولِه تعالى: ﴿يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾؛ للدَّلالة على انتهاءِ غايةِ الدُّعاء بالوصولِ إلى السُّجود والعبادة، فيكونُ السُّجودُ غايةً لدعوتِهم المُمتدةِ إليه، وتفيدُ امتداديَّة الدُّعاء بالوصولِ إلى نهايتِهِ الإلحاحَ من الدّاعي على المَدعوِّ بتحقيقِ غايتِهِ والتَّنفيذِ لأمرِه.

السُّجودُ عُمدةُ الصَّلاة وأساسُ الصِّلاتِ

دلالةُ التَّعريفِ بـ (أل) في ﴿ٱلسُّجُودِ﴾:

عرَّفَ النَّظمُ الكريم لفظَ ﴿ٱلسُّجُودِ﴾، في قولِه تعالى: ﴿وَقَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾؛ للدَّلالة على الصَّلاة، فتكون (أل) عهديَّةً في الحقيقةِ المعلومةِ ذهنًا، المَعروفةِ شرْعًا، ولذا فُسِّرتْ بالصَّلاةِ(2).

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 325.

(2) الحنبليّ، فتح الرّحمن: 7/ 135.

دلالةُ وضعِ الظّاهر مَوضِعَ المُضمَر ﴿ٱلسُّجُودِ﴾:

التَّقريرُ والمُغايرة كاشِفانِ عن تغايُرِ الدُّعاءَين في الدُّنيا والآخِرة

عبَّر النَّظمُ الكريم بلفظ ﴿ٱلسُّجُودِ﴾ ظاهرًا، معَ تقدُّم ذكرِه في قولِه تعالى: ﴿وَيُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ٤٢ خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ وَقَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾؛ إمّا لزيادةِ التَّقرير بطلَب السُّجودِ مكرَّرًا، أو للدَّلالة على المغايرةِ بينَ السُّجودين؛ فيكونُ الأوَّلُ بالمعنى اللُّغويِّ من الضَّراعة والخُضوع، ويكون الثّاني بالمعنى الشَّرعيِّ بوضعِ الجَبهة على الأرضِ أوِ الصَّلاةِ، والتَّركيب الفعليِّ بمتعلِّقِه وقعَ فيه تكرارٌ؛ للدَّلالة على المفارقةِ بينَ الدُّعاءينِ امتثالًا ونُفورًا[1].

دلالةُ المَجازِ المُرسَل في ﴿ٱلسُّجُودِ﴾:

السُّجودُ ركنٌ أعظم، فيَنبغي الإتيانُ به على الشَّكل الأقوَم

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بلفظ ﴿ٱلسُّجُودِ﴾، في قولِه تعالى: ﴿وَقَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾؛ للدَّلالة إمّا على السُّجود المعلوم شَرْعًا، فيكون حقيقةً شرعيَّة، وإمّا للدَّلالة على الصَّلاة بأكملِها، فيكونُ مَجازًا مرسَلًا من ذِكرِ الجُزءِ وإرادةِ الكلِّ، وخصَّ السُّجودَ بالذِّكرِ دونَ غيرِه من أفعالِ الصَّلاةِ؛ لأنَّه روحُ الصَّلاةِ وقوامُها وركنُها الأعظَم.

دلالةُ (الواو) والغرضُ منها في ﴿وَهُمۡ﴾:

الدَّعوةُ في حالِ السَّلامة مَرغوبٌ بها عندَ أهلِ الاستقامة

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بـ(الواو) في قولِه تعالى: ﴿وَهُمۡ سَٰلِمُونَ﴾؛ للدَّلالة على الحاليَّة، فتكونُ قيدًا لعاملِها، وبيانًا لهَيئةِ صاحبِها؛ إذ يُدعَونَ في وقتِ السَّلامة وبشرطِها، والدّاعي مُتَّصفٌ بهيئةِ السَّلامةِ أيضًا، وفي ذلك التَّقييدِ والبيانِ يكونُ الدُّعاءُ ممتازًا في حالِ الدُّنيا عن الدُّعاءِ في الآخِرة، وفي ذلك إقامةٌ للحُجَّة وتحسيرٌ على ما فاتَهم أيّامَ السَّلامة.

دلالةُ الجُملة الاسميَّة ﴿وَهُمۡ سَٰلِمُونَ﴾:

عبَّرَ النَّظمُ الكريم عن الحالِ بالجُملة الاسميَّة، في قولِه تعالى:

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 107.

ثبوتُ السَّلامة مع تركِ الرُّضوخِ والقَناعة

﴿يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمۡ سَٰلِمُونَ﴾؛ للدَّلالة على ثبوتِ وصفِ السَّلامة لهم، وتحقُّقه فيهم بشكلٍ دائم، فـ"لا عِلَّةَ تَعوقُهُمْ عَنْهُ في أَجْسادِهِمْ، والسَّلامَةُ: انتِفاءُ العِلَلِ والأمْراضِ بِخِلافِ حالِهِم يَوْمَ القِيامَةِ؛ فَإنَّهُم مُلجَؤون لعدم السُّجود"[1].

دلالةُ ضمير الغائبِ (هم):

الـذَّواتُ المُستكبِرة بالحقِّ مُسْتَسْخِرة

عبَّر النَّظمُ الكريم بضميرِ الغَيبة للجمعِ المُذكَّر، في قولِه تعالى: ﴿وَهُمۡ سَٰلِمُونَ﴾؛ للدَّلالة على الذَّواتِ المتَّصفة بالغُرور والاستكبار؛ إذِ الضَّميرُ يعودُ إلى الذوات بجميع أوصافِها، الَّتي تحقَّقتْ فيها عندَ عدمِ القرينةِ الدّالَّة على التَّخصيصِ بالذَّوات.

دلالةُ ﴿سَٰلِمُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

الاستطاعةُ لـلآلات مُعلَّلةٌ بالسَّلامة من الآفات

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بلفظِ اسم الفاعلِ ﴿سَٰلِمُونَ﴾ مَجموعًا في قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ سَٰلِمُونَ﴾؛ للدَّلالة على الاتِّصاف بالسَّلامة من الأمراضِ والعِلَلِ والآفات على سبيلِ التَّحقُّق والثُّبوت؛ والسَّلامة منها استطاعةٌ على تحقيقِ المطلوبِ منهم، فيكونُ ﴿سَٰلِمُونَ﴾ بمعنى: مُستطيعونَ أداءَ ذلك؛ إذِ الاستطاعةُ متعلِّقة بالسَّلامة والصِّحَّة من الآفاتِ والموانِع، وفي تعليقِ دعوتِهم بشرطِ السَّلامة تعليلٌ للمنعِ من القدرةِ على السُّجود في الآخرة.

دلالةُ التَّقابُل بينَ ﴿فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ و﴿سَٰلِمُونَ﴾:

الإلـجاءُ في الآخِرة وحُرّيّةُ الاختيار بالقُدرة الحادِثة

قابلَ النَّظمُ الكريم بينَ عدمِ الاستطاعةِ في الآخرة والسَّلامة في الدُّنيا، من قولِه تعالى: ﴿وَيُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ و﴿يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمۡ سَٰلِمُونَ﴾؛ إذ ذَكرَ عدمَ الاستطاعةِ على السُّجود في حالِ الآخِرة، ولم يذكُرِ الاستطاعةَ له في حالِ الدُّنيا، بل ذكرَ السَّلامة في حالِ الدُّنيا، ولم يذكُرْ عدمَ السَّلامة في حالِ الآخرة؛

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 99.

للدَّلالة على أنَّهم في حالِ الآخرة، فَقَدوا القدرةَ على السُّجود إلجاءً وقهرًا[1]، فهُم راغبونَ مُريدونَ، لكنْ من دونِ إنجازٍ وتمكُّنٍ، ولذا عبَّر بالمُسبَّب، وهو عدمُ الاستطاعة؛ ليكونَ السَّببُ إلجائيًّا ومعنويًّا لا يظهرُ، فهُم وإنْ كانوا سالمينَ أيضًا لكنَّهم لا يتمكَّنونَ من السُّجود منعًا لهم، بخلافِ حالِ الدُّنيا فقد تركَ لفظ الاستطاعة؛ لأنَّ القدرة على الفعلِ والاختيارَ في الإنجاز ممنوحٌ للعبد في دارِ التَّكليف، فلم يُعبِّر بالاستطاعة، وهي المسبَّب، بل ذكرَ السَّبب الممنوحَ لهم، وهي السَّلامة من العِلَلِ والأمراض؛ لأنَّها التي تُمنَح للعباد من اللّه تعالى، وأمّا القدرة على الأفعال الاختياريَّة؛ فهي أمرٌ مفروغٌ منه في دار التَّكليف، فذَكرَ السَّلامةَ المؤدّية للاستطاعة والإنجاز دونَ الاستطاعة نفسِها؛ فيكون قد ذكرَ في كلِّ حال ما يُناسبُه، قال البقاعيُّ: "فالآيةُ منَ الاحتباك، ذِكرُ عدمِ الاستطاعةِ أوَّلًا دالٌّ على حذفِ الاستطاعةِ ثانيًا، وذِكرُ السَّلامةِ ثانيًا دالٌّ على حذفِ عدمِ السَّلامة أوَّلًا"[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الخُشوعُ والخُضوعُ والإخبات:

الخشوع أخصُّ مطلقًا من الخضوع

الخُشوع: فعلٌ يرى فاعلُهُ أنَّ مَن يخضَعُ له فوقَهُ، وأنَّه أعظمُ منه، والخُشوعُ يكونُ في الكلامِ خاصَّة بخلاف (الخضوع)، وقيل: الخُشوع لا يكونُ إلّا مع خوفِ الخاشِعِ المَخشوعَ لهُ، ولا يكونُ تكلُّفًا، ولهذا يُضافُ إلى القلب، بخلافِ الخضوع الَّذي هو التَّطامُنُ والتَّطأطؤ، ولا يقتضي أنْ يكونَ معَهُ خوفٌ، ولهذا لا يَجوزُ أنْ يُضافَ إلى القلب، فيقالَ: خضعَ قلبُهُ، وقد يجوزُ أنْ يخضعَ الإنسانُ تكلُّفًا من غيرِ أنْ يعتقدَ أنَّ المخضوعَ له فوقَه[3].

(1) الحنبليّ، فتح الرّحمن: 7/ 135.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 325.
(3) الفروق اللّغويّة، العسكريّ، ص: 248، والمصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 3/ 57.

الذُّلُّ والتَّذلُّلُ:

المُتذلِّلُ صفةُ مَدح، والذَّليل صفةُ ذَمٍّ

التَّذلُّلُ: فعلُ الموصوفِ به، وهو إدخالُ النَّفس في الذُّلِّ، كـ(التَّحلُّم) إدخالُ النَّفسِ في الحِلْم، والذَّليل: المفعولُ به الذُّلُّ من غيرِهِ في الحقيقة، وإن كان من جهةِ اللَّفظ فاعلًا، ولهذا يُمدَحُ الرَّجل بأنَّه متذلِّل، ولا يُمدَحُ بأنَّه ذَليلٌ؛ لأنَّ تذلُّلَهُ لغيره اعترافُهُ له، والاعترافُ حَسنٌ، ويقالُ: العلماءُ مُتذلِّلون للّٰه تعالى، ولا يقالُ: أذلّاء له سبحانه[1].

(1) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 3/ 310.

﴿فَذَرۡنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِۖ سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٤٤ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ۝٤٥﴾ [القلم: 44 - 45]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

التَّخويفُ بأهوالِ الآخِـرةِ يُلائِمُهُ التَّخويفُ بقهْرِ الأولَى

إنَّ اللّه ﷻ لمّا خوَّف الكفّارَ مِن هولِ يوم القيامة؛ ناسَبَ أن يخوِّفَهم ممّا في قدرتِه من القهرِ، فقال لرسولِه ﷺ مُؤنِّبًا لهم وموبِّخًا: خلِّ بيني وبينَ مَن يُكذِّبُ بهذا القرآن، فإنّي عالمٌ بما يَنبغي أنْ أفعلَ بهم، فلا تُشغِلْ قلبَك بهِم، وتوكَّلْ عليَّ في الانتقامِ منهم[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَذَرۡنِي﴾: (وذر) كلمتانِ، إحداهما: الوَذْرةُ، وهي القطعةُ من العَظم لا لحْمَ فيها، والتَّوذيرُ: أنْ يُشرَطَ الجرحُ، فيقالُ: وذَرتُه، والأُخرى: قولهم: ذَرْ ذا[2]، ووَذَرْتُه أَذَرُهُ وذْرًا: تركتُهُ، قالوا: وأماتتِ العربُ ماضيَهُ ومَصدرَه، فإذا أُريدَ الماضي؛ قيل: تركَ، وربَّما يُستعمَلُ الماضي على قِلَّة، ولا يُستعمَلُ منه اسمُ فاعل[3]، فهو تركُ التَّوجُّهِ والنَّظر إلى شيءٍ[4]، والمرادُ به في الآية: التَّركُ للتَّفرُّغ إلى أمرٍ آخَر.

2) ﴿سَنَسۡتَدۡرِجُهُم﴾: (درج) أصلٌ واحدٌ يدلُّ على مُضيِّ الشَّيْءِ[5]، ودَرَّجتُه إلى الأمر تدريجًا، فتدرَّجَ، واستدرجتُهُ: أخذتُه قليلًا قليلًا[6]، والدَّرْجُ: طيُّ الكتاب والثَّوب، واستُعير الدَّرجُ للمَوت،

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 78.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وذر).
(3) الفيوميّ، المصباح المنير: (وذر).
(4) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 13/ 74.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (درج).
(6) الفيوميّ، المصباح المنير: (درج).

كما استُعيرَ الطَّيُّ له، يقال: طَوَتْهُ المَنِيَّة، وقوله: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾، قيل: سَنَطويهم طيَّ الكتاب، وقيل: نأخذُهم درجةً فَدَرَجةً[1]، فهو الحركةُ المخصوصةُ، أي: معَ دقَّةٍ واحتياطٍ وبالتَّدريجِ شيئًا فشيئًا، ويُلاحَظ في مفهومِها التَّرقّي مكانًا أَوْ عَمَلًا أَوْ معنًى، والمرادُ به في الآية: سَنفتحُ لَهُمُ الأَرْزاقَ، ليَغْتَرّوا، ثُمَّ نُباغِتُهُم بالعُقوبَةِ.

3) ﴿وَأُمْلِي﴾: (ملو) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على امتدادٍ في شيءٍ، زمانٍ أَوْ غيرِه[2]، وأمليتُ له في غَيِّهِ؛ إذا أطلتَ لهُ، وأملى اللّه له، أي: أمهَلَهُ، وطوَّلَ لهُ[3]، وأمليتُ له: أمهلتَهُ طويلًا، وأمليتُ القيدَ للبعير: أرخيتَهُ، وأوسَعْتَهُ[4]، فهو: الإمهالُ والتَّأخيرُ[5]، والمرادُ به في الآية: الإمهالُ في الأخذِ والعِقاب.

4) ﴿كَيْدِى﴾: (كيد) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على مُعالجةٍ لشيءٍ بشِدَّةٍ، هذا هو الأصلُ، ثمَّ يُسمّونَ المكرَ كيدًا[6]، وكادَهُ كَيدًا (من بابِ باعَ) خدعَهُ، ومكرَ بِه، والاسمُ المَكيدةُ[7]، فهو تدبيرٌ وفكرٌ حتّى يَعقُبَه عملٌ في مَورِدِ الإضرارِ على الآخر، ففيه قيودٌ ثلاثةٌ: التَّدبيرُ، والعملُ، وكونُهُ في مَوردِ الإضرارِ، والمرادُ به في الآية: تدبيرٌ على وفقِ تقديرِ اللّهِ التّامِّ الثّابتِ الَّذي يكونُ في قبالِ كيدِهم وبعدَه، فكَيدُ اللّه تعالى هو المُتمِّمُ للنِّظام الأصلَحِ للعالَم، والمانِعِ عَن حُدوثِ الاختلال، والدّافعِ المُبطِلِ مَكايدَ الخائنين.

5) ﴿مَتِينٌ﴾: (متن) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على صلابةٍ في الشَّيءِ معَ امتدادٍ وطولٍ[8]، ومَتُنَ الشَّيءُ مَتانةً: اشتدَّ، وقَوِيَ، فهو مَتينٌ[9]، والمَتينُ في صفةِ اللّه: القويُّ، قال ابنُ الأثير: "هو القويُّ الشَّديد الَّذي لا يَلحَقُهُ في أفعالِه مشقَّةٌ ولا كُلفةٌ ولا تَعَبٌ، والمَتانة: الشِّدَّةُ والقوَّة، فهو من حيثُ إنَّه بالغُ القُدرة تامُّها قويٌّ، ومن حيثُ إنَّه شديدُ القوَّةِ مَتينٌ، فهو إحكامٌ معَ

---

(1) الرّاغب، المفردات: (درج).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ملو).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (ملو).
(4) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (ملو).
(5) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 11/ 168.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كيد).
(7) الفيوميّ، المصباح المنير: (كيد).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (متن).
(9) الفيوميّ، المصباح المنير: (متن).

ثبوتٍ"[1]، والمُرادُ به في الآية: أنَّ كيدَهُ فيهِ إحكامٌ وثبوتٌ، ولا تزلزُلَ ولا تهاوُنَ ولا ضَعفَ فيهِ بوجهٍ، وهو قاطِعٌ نافِذٌ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

استدراجُ المُكذِّبين كيدٌ مَتين

والمعنى: كِلْ أيُّها الرَّسولُ أمرَ هؤلاءِ المُكذِّبين بالقرآن إليَّ، ولا تُشغِلْ قلبَكَ بشأنِهم، فأنا أكفيكَ أمرَهُم، فسوفَ نأخذُهُم بالعذاب على غَفْلةٍ، ونَسوقُهم إليه درجةً فدَرَجةً؛ حتّى نوقعَهم فيه من حيثُ لا يعلمونَ أنَّ ذلك استدراجٌ؛ لأنَّهم يظنّونَهُ إنعامًا، ولا يُفكّرونَ في عاقبتِهِ، وما سيَلقَونَ في نهايتِهِ، وأُمهِلُهُم، وأُؤَخِّرُهُم، وأُنسِئُ في آجالهم مُدَّةً من الزَّمان على كُفرهم، وتمرُّدِهم عليَّ؛ لتتكاملَ حُجَجي عليهم، وإنَّ كيدي لأهلِ الكُفر لقويٌّ شديدٌ"[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ (الفاء) والغرضُ مِنها:

التَّفريعُ والإفصاحُ عن مَآل المُكذِّبين بالحقِّ الصُّراح

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بـ(الفاء) في قولِهِ تعالى: ﴿فَذَرۡنِي وَمَن يُكَذِّبُ﴾؛ إمّا للدَّلالة على عطفِ مَدخولِها المُتفرِّعِ عمّا قبلَه: "لِكَونِ الكَلامِ الأوَّلِ سَبَبًا في ذِكْرِ ما بَعْدَهُ، فَبَعْدَ أنِ استوفيَ الغَرَضُ مِنْ مَوْعِظَتِهِمْ ووَعيدِهِمْ وتَزْييفِ أوْهامِهِم؛ أعْقَبَ بِهَذا الاعْتِراضِ؛ تَسْلِيَةً لِلرَّسولِ ﷺ بِأنَّ اللَّه تَكَفَّلَ بِالانْتِصافِ مِنَ المُكَذِّبِينَ ونَصْرِهِ عَلَيْهِمْ"[3]، أو"لترتيبِ الأمرِ على ما قبلَها من أحوالِهم المحكيَّة، أي: وإذا كانَ حالُهم في الآخرةِ كذلكَ، ﴿فَذَرۡنِي وَمَن يُكَذِّبُ﴾ بهذا القرآنِ، وتوكَّلْ عليَّ في الانتقامِ منْهُ"[4]، ولك "أنْ تجعلَها فصيحةً؛ لأنَّها جوابُ شرطٍ مُقدَّر، والتَّقدير: (إذا كانتْ أحوالُهم كذلك؛ فذَرْني)"[5].

(1) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 11/ 18.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 110.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 100.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/ 19، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 108.
(5) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 184.

دلالةُ الأمرِ (ذَرْني) مادَّةً وصيغةً:

التَّهديدُ والوَعيدُ لِمَن حادَ عن الطَّريقِ المَجيد

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بصيغةِ (الأمر) في قولِه تعالى: ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ﴾؛ للدَّلالة على التَّهديدِ والوَعيد؛ إذ ليسَ المُرادُ منه حقيقتَهُ، وهو أنْ يَتركه النَّبيُّ ﷺ معَ مَن يُكذِّبهُ، وإنَّما أُريد به: اتركْني، وسوفَ ترى ما أصنعُ بالمُكذِّبين، "فَهيَ كَلِمَةٌ يَقولُها المُغْتاظُ؛ إذا اشتَدَّ غَيْظُهُ، وغَضَبُهُ، وكَرِهَ أنْ يَشْفَعَ لِمَن اغتاظَ عَلَيه، فَمَعْنَى الكَلام: لا شَفاعَةَ في هذا الكافِرِ"[1]، فهو تهديدٌ ووعيدٌ ونكالٌ بالمُكذِّبين الَّذين لن يَجدوا مَن يُعينهم، ويَنصُرُهم منَ اللّه تعالى بالشَّفاعة، وتسليةٌ للنَّبيِّ ﷺ عمّا يُلاقيه من تكذيبٍ وإيذاء، قالَ الزَّمخشريُّ: "فكأنَّه يقول: حَسبُكَ إيقاعًا بهِ وعقابًا لهُ أنْ تكِلَ أمرَهُ إليَّ، وتُخَلّي بيني وبينه، فأنا عالمٌ بما يجبُ أنْ يُفْعَل به، مُطيقٌ له وقادرٌ عليه"[2].

دلالةُ الانتقالِ إلى ضَميرِ الخِطابِ في (ذَرْني):

خَوفُ القيامةِ وأهوالِها مرتبطٌ بالعُقوبةِ في الدُّنيا وصُروفِها

انتقلَ النَّظمُ بشكلٍ مُباغتٍ من الغَيبة إلى الخِطاب، في قولِه تعالى: ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ﴾؛ للدَّلالة بهذا الالتفاتِ على المُباغتة والمُفاجأة، كما تُنبئُ عنها (فاءُ) المُسارعة؛ إذِ استغرقَ وصفُ أحوالِ المُكذِّبينَ يومَ القيامةِ وما هُم فيه من هولٍ وشدائدَ شَرْحًا، فكانتِ الانتقالةُ منه إلى الخطابِ المُباغتِ؛ لبيانِ اقتصاصِ اللّه تعالى منهُم في الدُّنيا قبلَ الآخِرة، وقال البقاعيُّ: "لافتًا القولَ إلى التَّكلُّم بالإفرادِ؛ تنصيصًا على المُراد؛ زيادةً في تسكينِ القلبِ وشَرح الصَّدر"[3].

دلالةُ الاستعارةِ التَّمثيليَّة في ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ﴾:

مُخاطبةُ العِبادِ بما يَتداوَلونَهُ أثناءَ الخِطاب

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بالاستعارةِ التَّمثيليَّة، في قولِه تعالى: ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ﴾، فقد أفادَ: "تَمْثيلًا لِحالِ مَفْعولِ (ذَرْ) في تَعَهُّدِهِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 100.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 595.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 326.

بِأن يَكْفي مؤونة شَيْءٍ دونَ اسْتِعانَةٍ بِصاحِبِ المؤونة بِحالِ مَنْ يَرَى المُخاطَبَ قَدْ شَرَعَ في الانْتِصارِ لِنَفْسِه، ورَأى أنَّهُ لا يَبْلُغُ بِذَلك مَبْلَغَ مَفْعولِ (ذَرْ)؛ لأنَّهُ أقْدَرُ مِنَ المُعْتَدَى عَلَيْهِ في الانْتِصافِ مِنَ المُعْتَدي، فَيَتَفَرَّغُ لَهُ، ولا يَطْلُبُ مِنْ صاحِبِ الحَقِّ إعانَةً لَهُ على أخْذِ حَقِّه، ولذلكَ يُؤْتَى بِفِعْلٍ يَدُلُّ على طَلَبِ التَّرْك، ويُؤْتَى بَعْدَهُ بِمَفْعولٍ مَعَهُ"[1]، وهذا هو مَعنى قَوْلِ القائل: اترُكْني عليه، وأنا أكفيكَ شرَّهُ، أو: "كِلْ يا محمَّد أمرَ هؤلاءِ المُكذِّبين بالقرآن إليَّ، وهذا كقولِ القائلِ لآخرَ غيرِه يتوعَّدُ رَجُلًا: (دَعْني وإيّاه، وخلّني وإيّاه)"[2].

دلالةُ (الواو) والغرَضُ منها:

التَّركُ المقيَّد أرجَحُ من التَّرك الإطلاقيّ

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بلفظِ (الواو)، في قولِهِ تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ﴾؛ إمّا للدَّلالة على العطفِ المُفيد مُطلقَ الجمع الصّادقِ بالأسبقيَّة واللّاحقيَّة والمعيَّة؛ وإمّا للدَّلالة على المعيَّة وحدَها؛ وعلى كلا التَّوجيهين يكونُ الاسمُ الموصول (مَن) في محلِّ النَّصب معطوفًا على ضمير المتكلِّم المنصوب في ﴿فَذَرْنِي﴾ أوْ مَفعولًا معَه[3]، والرّاجحُ في توجيهِ (الاستعارة التَّمثيليَّة) السّابقة وظاهرِ دلالةِ الخطابِ المعيَّةُ، قال ابن عاشور: "والواوُ واوُ المَعيَّةِ وما بَعْدَها مَفْعولٌ مَعَهُ، ولا يَصِحُّ أنْ تَكونَ الواوُ عاطِفَةً؛ لِأنَّ المَقْصودَ: اتْرُكْني مَعَهُم"[4]، وهو ظاهرُ كلامِ الطَّبريِّ في قولِهِ: "و(مَن) في قوله: ﴿وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ في موضِعِ نصبٍ؛ لأنَّ معنى الكلامِ ما ذكرتُ، وهو نظيرُ قولهم: (لو تُرِكتَ ورأيَك ما أفلحتَ)، والعربُ تنصِبُ: (ورأيَك)؛ لأنَّ معنى الكلامِ: لَو وكلتُكَ إلى رأيِك لم تُفلِحْ[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 100.
(2) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 561.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 109.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 100.
(5) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 561.

سرُّ التَّعبير بالاسمِ الموَصولِ (مَنْ):

مُعاقبةُ المُكذِّبين على سبيل العمومِ إلى يومِ الدِّين

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بالاسمِ الموصول (مَن) في قولِه تعالى: ﴿فَذَرۡنِي وَمَن يُكَذِّبُ﴾؛ للدَّلالة على العُموم والإبهام، ممّا يُفيدُ أنَّ طلبَ التَّركِ التَّمثيليِّ بأنْ يتفرَّغَ لهم المُعاقِبُ، يكونُ في كلِّ مَن يُكذِّبُ دونَ اقتصارٍ على بعضٍ دونَ بعض، فيكونُ العمومُ الكليُّ مُحققًّا لغرض الخطاب، وهي القدرةُ الكاملةُ على مُعاقبةِ جميعِ المُكذِّبين.

دلالةُ جملةِ الصِّلة ﴿يُكَذِّبُ﴾:

علّةُ العقاب الحَثيث التَّكذيبُ بهذا الحَديث

عبَّر النَّظمُ الكريم بالجُملة الفعليَّة المُضارعيَّة صلةً للموصولِ، في قولِه تعالى: ﴿فَذَرۡنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِۖ﴾؛ للدَّلالة على علَّةِ طلبِ التَّرك والتَّفرُّغ للمُعاقبة الجماعيَّة، وهو التَّكذيبُ بالحَديث، ويُفهَمُ من الصِّلة أنَّها الحكمةُ الحافزةُ على المُعاقبة، فيكون رَدْعًا وتعريضًا بكلِّ المُكذِّبين أنْ يكفّوا أنفسَهم عنه حتَّى لا يقَعوا في دائرةِ المُعذَّبين.

دلالةُ الفعلِ المُضارع ﴿يُكَذِّبُ﴾ مادَّةً وصيغةً:

التَّعذيبُ الكَؤود للتَّكذيبِ المبنيِّ على الجُحود

عبَّر النَّظم الكريمُ بلفظِ الفعلِ المُضارع المضعَّف، في قولِه تعالى: ﴿فَذَرۡنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِۖ﴾؛ للدَّلالة بصيغتِه على الاستمرارِ التَّجدُّديِّ في تكذيبِ ما يمتُّ إلى الحقِّ تعالى، قال البقاعيُّ: "أي: يوقِعُ التَّكذيبَ لِمَن يتلو ما جدَّدْتُ إنزالَهُ من كلامي القديم على أيِّ حالةٍ كانَ إيقاعُهُ"[1]، واختارَ صيغةَ التَّضعيفِ؛ لإفادةِ معنى (التَّعدية)؛ إذ (يَكذِبُ) لازمٌ و﴿يُكَذِّبُ﴾ متعدٍّ، والغرضُ من التَّعدية توصيفُهم بالمُكذِّبين للحقِّ دونَ وصفِهم بالكاذِبين، وإن كانوا في تكذيبِهم للحقِّ كاذبونَ في نفس الأمرِ أيضًا بالاستلزام؛ لأنَّ مَن كذَّب بالصِّدق جُحودًا للحقائق، فهو كاذبٌ في تكذيبه، ونفيدُ من هذا أنَّ المُكذِّبَ من دونِ جُحود بالحقِّ، لا يكونُ داخلًا في هذه

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 326.

الزُّمرة، ومادَّةُ التَّكذيب تدلُّ على خَصْلةٍ شنيعةٍ تقومُ على نِسبة الموافق للواقِعِ للمُخالفةِ له، وتلك الخصلةُ ظُلمٌ للحقيقةِ عميق.

دلالةُ (الباء) في ﴿بِهَٰذَا﴾:

مُلاصقةُ التَّكذيب تَستدعي مُلاصقةَ التَّعذيب

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بلفظِ (الباء) في قولِه تعالى: ﴿يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾؛ للدَّلالة على السَّببيَّة للمُكذَّب به، والفعلُ (كذَّب)، وإنْ كان مُتعدّيًا بنفسه إلّا أنّه لمّا اقترنَ بـ(الباءِ)؛ احتملَ أنَّ المُكذَّبَ به معلومٌ من السّياق، وهو (الرَّسول) مثلًا، فيكونُ التَّقدير: (يُكذِّبُ الرَّسولَ بهذا الحديثِ)، فتدلُّ (الباءُ) حينَئذٍ على السَّببيَّة، ويكونُ الحديثُ دافعًا لتكذيبِ الرَّسول عندَهم، وإمّا للدَّلالة على تقويةِ التَّعدية؛ للدَّلالة على المُلاصقة الشَّديدة بين التَّكذيبِ والمُكذَّبِ به، وهو الحديثُ، حتّى إنَّه من شدَّةِ التَّكذيب يصاحبُهُ على المعيَّة، فيكون مُشيرًا إلى دلالةِ المُصاحبة والمعيَّة، فكما صاحبوا، ولاصَقوا بين التَّكذيبِ والحديث، فإنَّ العقوبة ملاصقةٌ للمُكذِّبين كما مرَّ في توجيهِ دلالةِ المفعولِ معَهُ.

دلالةُ اسمِ الإشارةِ (هذا):

احتمالُ المَجاز والحقيقة إظهارٌ لسوء النّيَّة والطَّريقة

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بلفظِ اسم الإشارةِ القَريب (هذا)، في قولِه تعالى: ﴿وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾؛ إمّا للدَّلالة على القرآنِ القريبِ منَ المُخاطَبين، فيكونُ استعمالًا حقيقيًّا، قال ابن عاشور: "واسمُ الإشارَةِ على هذا لِلإشارَةِ إلى مُقَدَّرٍ في الذِّهْنِ مِمّا سَبَقَ نُزولُهُ مِنَ القُرآنِ"[1]، وإمّا المرادُ منه خصوصُ هذا الحديث المتعلِّق بالسّورة المُهدِّدة للمُكذِّبين، وما هُم عليه من ضلالٍ مُبين، وما يَستحقّونه من عقوباتٍ يومَ الدّين، فيكونُ استعمالًا حقيقيًّا أيضًا، ولا يبعُدُ أنْ يكونَ استعمالُ الإشارة للقريب بناءً على معتقدِهم الاستخفافيِّ بالحديث الَّذي يُتلى عليهم، فيكونَ مَجازًا، وهو يتَّسقُ، وينسجِمُ مع دلالةِ التَّكذيب؛ لأنَّ الاستخفاف صورةٌ من صوَره.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 100.

دلالةُ التَّعريفِ بـ(أل) في ﴿ٱلۡحَدِيثِۖ﴾:

جميعُ الاحتمالات مُسفِرةٌ عن شدَّةِ الضَّلالات

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بلفظ ﴿ٱلۡحَدِيثِۖ﴾ مُعرَّفًا بـ(أل)، في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِۖ﴾؛ إمّا للدَّلالة على العَهْدِ العِلْميِّ؛ بناءً على أنَّ المُراد به القرآنُ، وإمّا أن يكون المُرادُ بالحديث الإخبارَ عن البعثِ وتهديدِ الظّالمين في السّورة، فتكون (أل) للعهدِ الخارجيِّ الحضوريِّ، والغَرضُ من التَّعريف العهديِّ بيانُ شدَّة انحرافِهم عن الحقِّ؛ إذِ القرآنُ بنظمِهِ دالٌّ على الحقِّ، والإخبارِ عن البعث[1]، وما فيه أمرٌ ممكنٌ قريبٌ من الذِّهن والخارج، فيكون التَّكذيب به إنكارًا للحقائقِ الظّاهرة.

دلالةُ المَجازِ المُرسَل في ﴿ٱلۡحَدِيثِۖ﴾:

القرآنُ حديثٌ لهدايةِ النّاس بشكلٍ حَثيث

يحتملُ لفظُ ﴿ٱلۡحَدِيثِۖ﴾ في قولِه تعالى: ﴿يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِۖ﴾ أن يكونَ دالًّا على القرآن[2]، فتكونَ هنالك تسميةٌ للمَقروءِ ولهذه الحقيقة باسم غايتِهِ وما يؤولُ إليه، وما يَستلزمُهُ من كونه حديثًا يخبرُ فيه عن أخبارٍ وحقائق، قال ابنُ عاشور: "وتَسميَتُهُ حَديثًا لِما فيهِ مِنَ الإخْبارِ عَنِ اللّه تعالى، وما فيهِ مِن أخْبارِ الأُمَمِ وأخْبارِ المُغَيَّباتِ، وقَدْ سُمّيَ بِذَلِكَ في قَوْلِهِ تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ ١٨٥﴾ [الأعراف: 185]، وقَوْلِهِ تعالى: ﴿أَفَمِنۡ هَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ تَعۡجَبُونَ ٥٩ وَتَضۡحَكُونَ﴾ [النجم: 59 - 60]، وقَوْلِهِ: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ٨١﴾ [الواقعة: 81]"[3].

دلالةُ الفَصلِ في ﴿سَنَسۡتَدۡرِجُهُم﴾:

بيانُ كيفيَّةِ التَّعذيب بالاستدراجِ الوَئيد

فصلَ النَّظمُ الكريم قولَهُ تعالى: ﴿سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ عمّا قبلَه؛ لكونِهِ بَيانًا له وتوضيحًا؛ إذ فُهِمَ من الأمر بالتَّرك معَهُم أنَّ العذابَ نازلٌ بهم، فأُريد بيانُ: "ذلك التَّعذيب

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 10/ 155.
(2) الحنبليّ، فتح الرّحمن: 7/ 135.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 100.

المُستفادِ إجمالًا من الكلامِ السّابق، فقال: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾؛ فهذه جملةٌ مستأنفةٌ؛ لبيان كيفيَّةِ التَّعذيب لهم، المُستفادِ من قوله: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾[1]، قال ابن عاشور: "والجُمْلَةُ بَيانٌ لمضمونِ ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾، باعتِبارِ أنَّ الاستدْراجَ والإمْلاءَ يَعْقُبُهما الانْتِقامُ، فَكَأنَّهُ قالَ: سَنَأْخُذُهُمْ بأعمالهم، فلا تستبطِئِ الانْتِقامَ؛ فَإنَّهُ مُحَقَّقٌ وُقوعُهُ، ولَكِنْ يُؤَخَّرُ لِحِكْمَةٍ تَقْتَضي تَأْخيرَهُ"[2].

دلالةُ (السّين) في ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾:

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بلفظِ (السّين)، في قولِه تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾؛ للدَّلالةِ على الاستقبالِ والتَّوكيدِ معَ دلالةِ الوعدِ بالحُصول؛ وأنَّ ذلك الاستدراجَ واقعٌ لا محالة؛ لأنَّه وعدٌ بالوقوع، ووعدُ الله تعالى لا يتخلَّفُ.

الوعدُ بالاستدراج مُتحقِّقٌ كالانبِلاج

دلالةُ الفعلِ المُضارع ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ مادَّةً:

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بلفظِ الفعلِ المُضارع (نَستدرِجُهُم)، في قولِهِ تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ للدَّلالة بمادَّته إمّا على: "استِنْزال الشَّيءِ مِنْ دَرَجَةٍ إلَى أُخْرَى في مِثْلِ السُّلَّم، والقَرِينَةُ تَدُلُّ عَلَى إرادَةِ النُّزولِ؛ إذِ التَّنَقُّلُ في الدَّرَجِ يَكونُ صُعودًا ونُزولًا، ثُمَّ شاعَ إطْلاقُهُ عَلَى مُعامَلَةٍ حَسَنَةٍ لِمُسيءٍ إلَى إبّانٍ مُقَدَّرٍ، عِنْدَ حلولِ عقابِه"[3]، فالاستدراج: "هو الحملُ من رُتبةٍ إلى رُتبة، حتّى يصيرَ المحمولُ إلى شرٍّ، وإنَّما يُستعمَلُ الاستدراجُ في الشَّرِّ، أي: نجعلُهُم كلَّما أحدَثوا خطيئةً؛ جدَّدْنا لهم نعمةً، ونُنسيهُم الاستغفارَ"[4]، وإمّا معناهُ: "سَنُطويهم طيَّ الكتابِ؛ عبارةٌ عن إغفالِهِم"[5].

الاستنزالُ والطَّوي إغفالٌ وهَوْيٌ

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 109، ومجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 10/ 1542.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 100.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 101.

(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 353، والحنبليّ، فتح الرّحمن: 7/ 135.

(5) المظهريّ، التّفسير المظهريّ: 10/ 42.

اســتــمــرارُ الاستنزال يَنتهي عندَ خَيبة الآمالِ

دلالةُ الفعلِ المُضارع ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ صيغةً:

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بصيغةِ الفعلِ المُضارع، في قوله تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ للدَّلالة على وقوعِ الاستدراج على سبيلِ التَّجدُّدِ الاستمراريِّ، الذي لا يتوقَّفُ إلّا عندَ حُلول العقابِ والانتقام منهم، ودَلَّتِ (السّين والتّاءُ) فيه على الطَّلب، أي: يُطلَبُ تدرُّجُهم ونزولُهم من الأعلى إلى الأسفل، قال الهرريُّ: "فاستدراجُ الشَّخص إلى العذابِ عبارةٌ عن هذا الاستنزالِ والاستدناءِ، يقالُ: استدرجَهُ إلى كذا؛ إذا استنزلَهُ إليه درجةً درجةً حتَّى يورِّطَهُ فيه"[1].

التَّـعـامُـلُ بالحُسنى وُصولًا إلـى العُـقـوبةِ القُصوى

دلالةُ الاستعارةِ التَّصريحيَّة في ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾:

استعارَ النَّظمُ الكريم فعلَ (الاستدراج)، في قولِه تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ للدَّلالة على تعامُلٍ حسَنٍ يَنتهي بخسارةٍ كبيرةٍ؛ إذ شبَّه ذلك التَّعامُل الحسنَ المُنتهي بالعقوبةِ باستنزالِ شخصٍ من أعلى إلى قاعٍ ليَنتهيَ بتسفُّلٍ، ثمَّ حذفَ المشبَّه، وأبقى المشبَّه به على سبيلِ الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة، قال الهرريُّ: "أي: سَنُنزِلُهم إلى العذابِ درجةً فدرجةً بالإحسانِ وإدامةِ الصِّحَّةِ وازديادِ النِّعمة حتَّى نوقعَهُم فيه"[2].

كـلُّ الأفـعـالِ مَخلوقةٌ لذي الجَلال

دلالةُ (النّون) في ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ بينَ الحقيقةِ والمَجاز:

عبَّرَ النَّظم الكريم بـ(النونِ) للمتكلِّم، ومعَهُ غيرُهُ في قولِه تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾؛ للدَّلالة على الذّاتِ الإلَهيَّة والملائكةِ الموكَّلين، قال ابنُ عاشور: "وَ(نونُ) ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ نونُ المُتكلِّم المُشارِك، والمُرادُ: اللّه ومَلائِكَتُهُ المُوَكَّلونَ، بِتَسْخيرِ المَوْجوداتِ ورَبْطِ أحْوالِ بَعْضِها بِبَعْضٍ على وجْهٍ يَتِمُّ بِهِ مُرادُ اللّه، فَلِذَلِكَ جيءَ بِـ (نونِ المُتَكَلِّم)

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 109.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 109.

المُشارِكِ[1]، فتكونُ (النونُ) مُستعملةً في المعنى الحقيقيِّ، ولا يبعُدُ أنْ يكونَ الاستدراجُ مختصًّا باللّه تعالى، ولا فعلَ للملائكة الموكَّلينَ في الحقيقة، فتكون (النّون) مجازًا في العَظَمة والهَيبة على عادةِ المُلوك في التَّعبيرِ بها.

مَرجعُ ضميرِ الغَيبة في ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾:

التَّكذيبُ مُتوحِّدٌ والاستدراجُ مُتعدِّدٌ

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بضميرِ جمعِ الغائب في قولِهِ تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾، العائدِ إلى المَوصول (مَن)، المُنكشِفِ بصِلتِه الدّالَّة على التَّكذيبِ بالحقِّ والحديث، والموصولُ (مَن) لفظُهُ مذكَّرٌ، ومعناه عامٌّ؛ ولذا يجوزُ مُراعاةُ لفظِهِ ومُراعاةُ معناه، وقد وقعَتِ المراعاةُ للَّفظِ في مَرجعِ ضميرِ ﴿يُكَذِّبُ﴾، والمراعاةُ للمعنى في ضميرِ ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾، والسِّرُّ في هذا التَّلوين أنَّ التَّكذيبَ واحدٌ لا يختلفُ، ولا يتفاوتُ، لكنَّ الاستدراجَ متعدِّدٌ متنوِّعٌ باعتبارِ أحوالِهم وظُروفهم، فروعيَ اللَّفظ الإفراديُّ في التَّكذيب، وروعيَ المعنى الجَمعيُّ في الاستدراجِ المُختلفِ باختلافِ أنواعِهِ وصوَرِه، قال البقاعيُّ: "وأفردَ الضَّميرَ نصًّا على تهديدِ كلِّ واحدٍ من المُكذِّبين، وأجابَهُ جامِعًا الضَّمير؛ ليكونَ الواحدُ مهدَّدًا من بابِ الأوْلى"[2].

دلالةُ ﴿مِّنۡ﴾ المُستعارةِ على الابتداءِ المَجازيِّ:

تحريكُ المُستدرَجِ الثّابِتِ دالٌّ على النُّزولِ المُتساقِط

عبَّر النَّظمُ الكريم بحرفِ الجرِّ ﴿مِّنۡ﴾، في قوله تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ﴾؛ للدَّلالة على الابتداءِ المجازيِّ؛ إذِ الاستدراجُ لا يكونُ له ابتداءٌ من مكانٍ حسّيٍّ، مثلُ (سافرتُ من الموصل)؛ فإنَّ السَّفر ابتدأ من مكانٍ مَحسوس، بل يتحقَّقُ في صورٍ معنويَّةٍ مُحبَّبة ولطيفةٍ؛ فيُخيَّلُ الاستدراجُ آتيًا منها، فتكونُ هنالك استعارةٌ في الحرفِ ﴿مِّنۡ﴾ تبعيَّةٌ؛ إذ شبَّه الظَّرفيَّة التي يتحقَّقُ فيها

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 101.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 327.

الاستدراجُ بالابتداء؛ تصويرًا للاستدراجِ بصورةِ القادمِ من جهةٍ مكانيَّة، وكأنَّه أمرٌ محسوس، فعبَّرَ بحرفِ الابتداء؛ تصويرًا لتلك الحركةِ والنَّقلة، قال ابن عاشور: "ومَعْنَى ﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنَّ استِدْراجَهُمُ المُفْضيَ إلَى حُلولِ العِقابِ بِهِمْ يَأْتيهِمْ مِنْ أحْوالٍ وأسْبابٍ، لا يَتَفَطَّنونَ إلَى أنَّها مُفْضيَةٌ بِهِمْ إلى الهَلاكِ، وذَلِكَ أجْلَبُ لِقوَّةِ حَسْرَتِهِمْ عِندَ حُلولِ المَصائِبِ بِهِمْ، فَـ ﴿مِّنْ﴾ ابتِدائيَّةٌ"[1].

دلالةُ ﴿حَيْثُ﴾ على المكانِ المَجازيِّ:

تصويرُ الاستدراجاتِ بالأمكنةِ المَجهولاتِ

عبَّر النَّظم الكريمُ بلفظِ ﴿حَيْثُ﴾، في قولِه تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ للدَّلالة على المكانِ المجازيِّ، فـ "﴿حَيْثُ﴾ لِلمَكانِ المَجازيِّ، أي: الأسْباب والأفْعال والأحْوال الَّتي يَحْسَبونَها تَأتيهِمْ بِخَيْرٍ، فَتَنْكَشِفُ لَهُمْ عَنِ الضُّرِّ"[2]؛ إذِ الأصلُ في ﴿حَيْثُ﴾ أنَّها ظرفُ مكانٍ؛ لكنَّ الاستدراجَ لا يبدأُ بالتَّحرُّك من مكانٍ محسوسٍ، بل يظهَرُ الاستدراجُ في أحوالٍ وأفعالٍ وأسبابٍ، فيكونُ الاستدراجُ من تلك الأحوال الَّتي يجهلونَ أنَّها أحوالٌ استدراجيَّةٌ وأسبابٌ إتلافيَّة دالًّا على حيثيَّةٍ مجازيَّةٍ استعاريَّة؛ فقد شبَّهَ الأسبابَ والأحوالَ المُهلكة بالمكانِ والجهة، بجامعِ التَّحقُّق فيها والمُلابسةِ لها، ثمَّ حذفَ المشبَّهَ، وأبقَى المشبَّهَ به على سبيل الاستعارةِ التَّصريحية، والغرضُ منها تصويرُ الاستدراج قادِمًا من جهاتٍ مَجهولة لا يمكنُ إدراكُها لخَفائها، قال الهرريُّ: "أي: من الجهةِ الَّتي لا يشعرونَ أنَّه استدراجٌ، وهو الإنعامُ عليهم؛ لأنَّهم يَحسبونَهُ إيثارًا لهم وتفضيلًا على المؤمنينَ، وهو سببٌ لهلاكِهم في العاقبة"[3].

دلالةُ الاستعارةِ التَّمثيليَّة في ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ ﴿يَعْلَمُونَ﴾:

تشبيهُ الحالاتِ مُفسِّرٌ لشَناعةِ المآلاتِ

تحتملُ الجملةُ بمتعلَّقاتِها في قوله تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 101.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 101.
(3) الهررِيّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 109.

﴿حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، أنَّها مستعارةٌ استعارةً تمثيليَّة؛ إذ شَبَّهَ حالَ مَن تُقدَّمُ له معاملةٌ حسنةٌ بقصدِ إيقاعِهِ بالعذابِ توريطًا، بحالِ مَن يُستدرَجُ من مكانٍ مجهولةٍ بقصدِ إقبالِهِ أوْ نُزولِهِ، وهو لا يَعرِفُ أنَّه استدراجٌ وتنزُّلٌ، ثمَّ حذفَ المشبَّه، وأبقى المشبَّهَ به على سبيل الاستعارةِ التَّمثيليَّة.

دلالةُ ﴿لَا﴾ والغرضُ مِنها:

الـعَـجْـزُ عـن إدراكِ التَّعذيب لـخـفـاءِ الأخـذِ الشَّديد

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بـ﴿لَا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ﴾؛ للدَّلالة على نفيِ عِلمِهم حالًا واستقبالًا، والغرضُ من النَّفي بيانُ عجزِ المُستدرَجين عن إدراكِ وجهِ الأخذِ لهُم بالتَّعذيب.

دلالةُ الفعلِ المُضارع ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

انـعـدامُ العِلم دلـيـلُ الـعَـجـز وزَوالِ الفَهْم

عبَّر النَّظمُ الكريم بالفعلِ المضارعِ ﴿يَعۡلَمُونَ﴾، في قولِهِ تعالى: ﴿مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ﴾؛ للدَّلالة على انتفاءِ علمِهم وإدراكِهم جهةَ الاستدراجِ لخفائِها، وإنَّما نفى (العلم) دونَ المَعرفة؛ لسلبِ أصلِ العِلم عنهم، فضلًا عن المعرفةِ بالتَّفاصيل، بخلافِ نفيِ المعرفةِ التَّفصيليَّة الَّذي لا يستلزمُ نفيُهُ نفيَ العِلْم والإدراك، واختارَ صيغةَ المضارع للدَّلالة على استمرارِ انتفاءِ عِلْمِهم على سبيل التَّجدُّدِ دونَ انقطاعٍ.

حذفُ متعلّقِ الفعل ﴿يَعۡلَمُونَ﴾:

جهةُ الاستدراج غـريـبـةٌ لكونِها مُبهمةً عَجيبة

حذفَ النَّظمُ الكريمُ متعلِّقَ الفعلِ ﴿يَعۡلَمُونَ﴾، والتَّقديرُ: (يعلمونه) من قوله تعالى: ﴿مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، أي: لا يعلمونَ جهةَ الاستدراج، والضَّمير المحذوفُ يعود إلى الحيثيَّة بمعنى (الجهة)، فهم عاجزونَ عن معرفةِ جهةِ الاستدراج؛ لخفائِها وغُموضِها.

دلالةُ (الواوِ) في ﴿وَأُمۡلِي﴾:

تـصـبـيرُ الـنَّـبـيِّ بالفِعل الحِكْميِّ

عطفَ النَّظمُ الكريم فعلَ (الإملاء)، في قولِهِ تعالى: ﴿وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ﴾ على فعلِ الاستدراج؛ للدَّلالة على الإمهالِ للمُكذِّبين، والصَّبر

عليهم، وعدَم مُعاجلتِهم بالعُقوبة، حتّى تقومَ عليهم الحُجَّة، وتثبتَ لهم الإدانةُ بشكل قطعيٍّ، وفي ذلك تصبيرٌ للنَّبيِّ ﷺ بأنَّ إبقاءَهم مُرادٌ للّه تعالى لا يَخلو ذلك من حِكمةٍ ومَصلحةٍ.

دلالةُ الفعلِ المُضارِعِ (أُملي) مادّةً وصيغةً:

الإمـلاءُ توسِعةٌ وإمـهـال، فلا تـغـترَّ بـالـبَـنيـنَ والأموال

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بفعلِ (الإملاءِ) مُضارِعًا، في قولِه تعالى: ﴿وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ﴾؛ للدَّلالة على الاستمرارِ التَّجدُّديِّ لفعلِ الإملاءِ والإمهال، الدّالِّ بمادَّتِه على التَّوسِعة والإطالةِ والامتداد، يقالُ: أمليتُ القيدَ للبعيرِ: أرخيتُهُ ووسَّعتُه، وأصلُه منَ (المَلا)، وهو المتَّسَعُ منَ الأرض، كما أفادتِ الهمزةُ فيه دلالةَ المُبالغةِ في فعلِ الإمهال مع التَّعديةِ، وفيه دلالةٌ رادعةٌ للمُكذِّبين، بأنَّ ما هم فيهِ من أموالٍ وبنينَ هو استدراجٌ واستمهال، ولا يُنبِئُ عن محبَّةٍ وإكرام.

دلالةُ تقديم فعلِ (الاستدراج) على فعلِ (الإمْلاء):

تقديمُ المقصودِ الـــذّاتيِّ على المقصودِ التَّبعيِّ

قدَّمَ النَّظم الكريمُ - عند بيانِ كيفيَّة التَّعذيب للمُكذِّبين - فعلَ (الاستدراج) على فعلِ (الإملاءِ)، فقال تعالى: ﴿سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ٤٤ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ﴾؛ للدَّلالة على تقديم الأسبابِ المؤدّية للاستنزالِ والاقترابِ من إلحاق العقابِ، ويتحقَّقُ ذلك بالإملاءِ والإمهال، فلو قُدِّمَ الإملاءُ عليه؛ لكانَ الإملاءُ مقصودًا لذاته، ولا تحصلُ منه تسليَةُ النَّبيِّ ﷺ، في حين لمّا جعلَ الإملاءَ تابعًا للاستدراج؛ صارَ الاستدراجُ مقصودًا لذاتِه، والإملاءُ وسيلةٌ تتحقَّقُ في ذلك الاستدراج.

تغايرُ المُسند إليه في فعلَي (الاستدراج والإملاء):

غايرَ النَّظمُ الكريم بينَ المُسند إليهِ في فعلَي (الاستدراج والإملاء)، في قولِه تعالى: ﴿سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ٤٤ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ﴾؛ إذ أسندَ الاستدراجَ لضميرِ المتكلِّم، ومعَهُ غيرُهُ، في حين أسندَ فعلَ الإملاءِ للمُتكلِّم الواحد، وذهبَ ابنُ عاشور إلى

تعدُّدُ طرائقِ الاستدراج تقتضي الجمعيَّة، وتوحُّدُ صورة الإمهالِ تَستلزمُ الفرديَّة

أنَّ الاستدراجَ مسندٌ إلى الله تعالى والملائكةِ الموكَّلينَ، في حين أنَّ الإمهال: "هوَ عِلْمُ الله بِتَأْجيلِ أَخْذِهِمْ، وتَعَلُّقُ العِلْمِ يَنْفَرِدُ بِهِ الله؛ فَلِذَلِكَ جيءَ مَعَهُ بِضَميرِ المُفْرَدِ، وحَصَلَ في هذا الاخْتِلافِ تَفَنُّنٌ في الضَّميرَيْنِ"[1]، والَّذي يبدو أنَّ (الاستدراج) يتحقَّقُ بصورٍ عديدة وأسبابٍ متكثِّرة، فناسَبَ أنْ يُسنَدَ إلى الجمع؛ تعبيرًا عن العظَمةِ للقوَّة الإلهيَّة المُستدرَجة، وأنَّ الإملاءَ إمهالٌ ذو صورةٍ واحدة، وهو تمكيث وإطالةُ مُدَّة، فيُناسبُهُ الإفراد.

دلالةُ الجارِّ والمجرورِ ﴿لَهُمۡ﴾ والغرضُ منه:

الإمــلاءُ الأثبتُ الأطـول بزيادةِ الـلّام الأبعـدِ الأكمَل

علَّقَ النَّظمُ الكريم فعلَ (الإملاءِ) بالجارِّ والمجرور ﴿لَهُمۡ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأُمۡلِي لَهُمۡ﴾؛ للدَّلالة على تقويةِ التَّعدية ورَبطِها بالمعمولِ رَبْطًا مُحكَمًا قويًّا؛ إذِ الفعل (أمليتُهُ) يتعدَّى بالهمزة، فيكونُ إدخال اللّام الزّائدةِ تقويةً للتَّعديةِ مع التَّوكيد، مثلُ: (شكرتُهُ، وشكرتُ لهُ، ونصحتُهُ، ونصحتُ لهُ)، وسمّاها ابنُ عاشور: "لامَ التَّبْيِين، وهيَ الَّتي تُبَيِّنُ اتِّصالَ مَدْخولِها بعامِلِهِ لِخَفاءٍ فيهِ، فَإِنَّ اشتِقاقَ فِعْلِ (أَمْلَى) مِنَ (المَلْوِ) - وهوَ الزَّمانُ - اشتِقاقٌ غَيْرُ بَيِّنٍ لِخَفاءِ مَعْنَى الحَدَثِ فيهِ"[2]، ولذا عدلَ النَّظمُ عن (أمليتُهُم) إلى ﴿وَأُمۡلِي لَهُمۡ﴾؛ ليكونَ الإملاءُ المتحقِّقُ أطولَ وأثبتَ.

دلالةُ ﴿إِنَّ﴾ والغرضُ منها:

تـعـلـيـلُ الاستدراج والاستمهال مُقتضٍ كمالَ الحكمةِ في الأفعال

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بالحرفِ المشبَّه بالفعلِ ﴿إِنَّ﴾، في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ﴾؛ للدَّلالة على تحقيقِ الحُكم وثبوتِه، كما تُفيدُ دلالةَ: "التَّسَبُّبِ والتَّعْليلِ"[3]، والغرضُ من توكيدِ مَتانة الكيدِ وإحكامِهِ أنَّ هنالك مَصالحَ في الاستدراجِ والاستمهالِ للمُكذِّبين.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 102.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 101.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 102.

ففي التَّوكيدِ له بـ﴿إِنَّ﴾ رفعٌ لشكٍّ مَن يتوهَّمُ أنَّ الاستمهالَ غيرُ مُشتملٍ على الحِكَم والمصالح الجَمَّة؛ إذ متانةُ الكيدِ تدلُّ على فعلٍ مُحكَمٍ مُتقنٍ، يَنطوي على مصالحَ وحِكمٍ عظيمةٍ.

دلالةُ الاستعارةِ في (كَيد):

المُشابهةُ الصّوريَّةُ بينَ الكيدِ والإحسانِ المُذيَّلِ بالعُقوبةِ

استعارَ النَّظمُ الكريم لفظَ (الكَيد)، في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ﴾؛ للدَّلالة على الاستدراجِ والاستمهالِ الصّادق بفعلِ الإحسانِ المُؤدّي إلى التَّوريطِ والغُرور، وُصولًا إلى إنزالِ العقوبة، فكانَ كيدًا، ولذا كانَ "إطلاقُ (الكَيْدِ) عَلَى إحْسانِ اللَّه لِقَوْم مَعَ إرادَةِ إلحاقِ السّوءِ بِهِمْ إطْلاقًا عَلَى وجهِ الاستِعارَةِ؛ لِمُشابَهَتِه فِعْلَ الكائِدِ مِن حَيْثُ تَعْجيلُ الإحْسانِ وتعقيبُهُ بالإساءَةِ"[1]، فهنالك مُشابهةٌ صوريَّةٌ بينَ الإحسانِ المستوجِبِ للعُقوبة وبين الكَيد، فسَمّى "إحسانَه وتمكينَهُ وإمهالَهُ لهم (كيدًا)، كما سمّاه (استدراجًا) فيما سبقَ؛ لكونِه في صورةِ الكَيد والاستدراج؛ إذ كان ذلك سببًا لتورُّطِهم في الهَلاك والوُقوع فيه، واللّه سبحانَه يفعلُ بهم ما هو نفعٌ لهم ظاهرًا، وهو ضَرَرٌ لهُم في الحقيقة؛ لِما عَلِمَ من خُبْثِ نيَّتِهم، وفَسادِ طبيعتِهم، وتماديهم في الكُفر والعِصيان"[2].

دلالةُ الإضافةِ في ﴿كَيۡدِي﴾:

الكَيدُ المُعيَّنُ بالعظيم حافزٌ للصَّبر على المُكذِّبين

أضافَ النَّظمُ الكريم لفظَ (الكَيد) إلى ضميرِ المتكلِّم، في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ﴾؛ للدَّلالة على تعيينِ ذلك الكَيد وتحديدِه، بأنَّه كيدُ مَن لا يخفَى عليه شيءٌ، وهو خالقُ كلِّ الأسباب والأحوال، ولا يفعلُ إلّا ما فيه مصلحةٌ وإتقان، فيكون دالًّا على شدَّةِ ذلك الكيدِ وعظَمةِ ذلك الاستدراجِ وإحكامِ ذلك الاستمهالِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 102.

(2) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 10/ 1542.

دلالةُ ﴿مَتِينٌ﴾ مادَّةً وصيغةً:

وصفُ الكيدِ بالمتين لقوَّةِ أثرِهِ في إهلاكِ المُكَذِّبين

أخبرَ النظمُ الكريمُ عن كيدِ اللّه تعالى بأنَّه ﴿مَتِينٌ﴾، في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ كَيۡدِى مَتِينٌ﴾؛ للدَّلالة على الإحكام في الكَيد والقوَّة والمَتانةِ في المَكر، وتفيدُ الصِّيغة (فعيل) صفةَ الثُّبوت والمُلازمةِ والدَّوام، حتّى استقرَّتِ المتانةُ في ذلك الكيدِ، وثبتَتْ فيه، قالَ ابنُ عاشور: "ووصفَ كيدَهُ بالمتانةِ؛ لقوَّةِ أثرِهِ في التَّسبُّب للهَلاك"[1].

دلالةُ الاستعارةِ في ﴿كَيۡدِى مَتِينٌ﴾:

تجسيدُ الكَيدِ والإمهالِ بيانٌ لشِدَّةِ الوَيلِ والأهوالِ

استعارَ النَّظمُ الكريم ﴿كَيۡدِى مَتِينٌ﴾، في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ كَيۡدِى مَتِينٌ﴾ استعارةً مكنيَّة؛ إذ شَبَّهَ الكيدَ بحبلٍ مثلًا، ثمَّ حذفَه، وأبقى من خواصِّه ولوازمه لفظَ ﴿مَتِينٌ﴾، وأسندَهُ إلى (الكيدِ) تخييلًا، والغرضُ من الاستعارةِ تجسيمُ الكيد وإبرازُهُ بصورةِ القويِّ القادر على الإهلاكِ والتَّأثيرِ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الخَدْعُ والكَيدُ:

الخَدعُ أعمُّ مُطلقًا منَ الكيدِ

الخَدعُ: هو إظهارُ ما يَنطِقُ خلافَهُ؛ لإرادة اجتلاب نفع أَوْ دفع ضرَرٍ، ولا يَقتضي أنْ يكونَ بعدَ تدبُّرٍ ونظرٍ وفكرٍ، ألا ترى أنَّه يقالُ: (خَدَعَهُ في البيع)؛ إذا غشَّهُ من جُشاءٍ، وهمُّه الإنصافُ، وإنْ كان ذلك بديهةً من غيرِ فكرٍ ونظرٍ.

والكيدُ: لا يكونُ إلّا بعدَ تدبُّرٍ وفِكرٍ ونظرٍ، ولهذا قال أهلُ العربيَّة: الكيدُ: التَّدبيرُ على العدوِّ وإرادةُ إهلاكِه، وسُمّيت (الحيَلُ) الَّتي يفعلُها أصحابُ الحروبِ بقصدِ إهلاكِ أعدائِهم مكائدَ؛ لأنَّها تكونُ بعدَ تدبُّرٍ ونظَرٍ[2].

(1) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 10/ 1542.

(2) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 10/ 132.

الكيدُ والمكَرُ:

الكيد أقوى وأعمُّ مطلقًا من المكر

(المَكرُ) مثلُ (الكيد) في أنَّه لا يكونُ إلّا مع تدبُّرٍ وفِكرٍ، إلّا أنَّ (الكَيد) أقوى من (المَكر)، والشّاهد أنَّه يتعدّى بنفسِه، والمَكرُ يتعدّى بحرفٍ، فيقال: كادَهُ يَكيدُهُ، ومكرَ به، ولا يقالُ: مَكَرهُ، والَّذي يتعدّى بنفسِه أقوى.

و(المكرُ) أيضًا: تقديرُ ضررِ الآخر من أنْ يَفعَلَ به، وإنَّما يكونُ مَكْرًا؛ إذا لم يُعلمْهُ به، و(الكيدُ): اسمٌ لإيقاعِ المكروهِ بالآخر قهرًا؛ سواءٌ علِمَ أم لا، والشّاهدُ قولك: فلانٌ يُكايِدُني، فسمّى فعلَهُ كيدًا وإنْ علِمَ به، وأصلُ الكيد المشقَّةُ، ومنه يقالُ: فلانٌ يَكيدُ لنفسِه، أي: يُقاسي المشقَّة، ومنه الكيدُ؛ لإيقاعِ ما فيه من المَشقَّة[1].

(1) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 10/ 133.

﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ ٤٦ أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ ٤٧﴾ [القلم: 46 - 47]

تَـوالي الإنكارات لِقَمْعِ الضَّلالات

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

لمّا ذكرَ المولى تعالى العِقابَ الأُخرويَّ يومَ القيامة، وربطَ به عذابَ الاستدراجِ في الدُّنيا بمَدِّهم فيها بالأموالِ والبنينَ؛ ليَزدادوا إثمًا وطغيانًا؛ ناسَبَ أنْ يذكُرَ شُبَهًا لهم مَنعَتْهُم من الإيمانِ، ودَعَتْهُم إلى التَّكذيبِ وعدمِ الإذعان[1]، ويحتملُ أنَّه لمّا أنكرَ عِلْمَهم بمُساواةِ أُجورهم للمُسلمين، واعترضَهُ بالتَّذكيرِ والتَّهديدِ بحالِهم يومَ القيامةِ وما هُم فيه الآنَ مِن استدراجٍ واستمهال؛ عادَ الكلامُ إلى سلسلةِ الإنكاراتِ السّابقةِ بإنكارِ مَوانعَ دفعَتْهُم إلى عدمِ التَّصديقِ والإيقانِ، قال ابن عاشور: "فَإِنَّهُ بَعْدَ أَنْ نَفَى أَنْ تَكونَ لَهُمْ حُجَّةٌ تُؤَيِّدُ صَلاحَ حالِهِمْ، أَوْ وعْدٌ لَهُمْ بِإِعْطاءِ ما يَرْغَبون، أَوْ أَوْلياءُ يَنْصُرونَهُمْ؛ عَطَفَ الكَلامَ إلَى نَفْيِ أنْ يَكونَ عَلَيْهِم ضُرٌّ في إجابَةِ دَعْوَةِ الإسْلامِ؛ اسْتِقْصاءً لِقَطْعِ ما يُحْتَمَلُ مِنَ المَعاذيرِ بِافْتِراضِ أَنَّ الرَّسولَ ﷺ سَأَلَهُمْ أَجْرًا عَلَى هَدْيِهِ إِيّاهُمْ، فَصَدَّهُمْ عَنْ إِجابَتِه ثقلُ غُرْمِ المالِ على نُفوسِهِمْ"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَجۡرٗا﴾: (أجر) له أصلانِ، فالأوَّلُ: الكِراءُ على العَمَلِ، والثّاني: جَبرُ العَظمِ الكسير[3]، وأجرَهُ اللّٰه أجرًا، وآجَرَهُ؛ إذا أثابَهُ، وأجَّرتُ الدّارَ والعبدَ[4]، والأجرُ والأُجرَة: ما يعودُ من ثوابِ العملِ دُنيويًّا كانَ أو أخرويًّا[5]، والمُرادُ به في الآية: هو الأجرةُ، وما يُقابَلُ بالعمَل.

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 111.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 102.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أجر).
(4) الفيوميّ، المصباح المنير: (أجر).
(5) الرّاغب، المفردات: (أجر).

2) ﴿مَّغۡرَمٖ﴾: (غرم) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على مُلازمةٍ وملاصقةٍ، من ذلك الغَريمُ، سُمّي غَريمًا لِلُزومِهِ وإلحاحِهِ[1]، وغَرِمْتُ الدّيَةَ والدَّينَ وغير ذلك، أغرَمُ، (من بابِ تعِب)؛ إذا أدَّيتَهُ غَرْمًا ومَغرَمًا وغرامةً[2]، ورجلٌ مَغرَمٌ: من الغَرم والدَّين[3]، فهو الالتزامُ أوِ التَّعهُّدُ في أداءِ شيءٍ أوْ في عمَلٍ، لم يكُن واجبًا عليه[4]، والمَغرَمُ: مصدرٌ ميميٌّ بمعنى الغَرامة، والمُراد في الآية: الغرامةُ لإسلامِهم وقَبولِهم للدّين، والغرامةُ ثقيلةٌ عليهم.

3) ﴿مُّثۡقَلُونَ﴾: (ثقل) أصلٌ واحدٌ يتفرَّعُ منه كلماتٌ مُتقاربة، وهو ضِدُّ الخفَّة[5]، والثَّقَلُ: المَتاع، والجمعُ أثقالٌ، مثلُ: سَبَبٍ وأسباب، والثَّقَلُ: متاعُ المُسافر وحَشَمُه، والثَّقَلان الجِنُّ والإنس، وأثقلَه الشَّيء: أجهدَهُ[6]، والمُرادُ به في الآية: الإجهادُ والتَّعَبُ بالغَرامة.

المَعنى الإجْماليُّ:

تفنيدُ الدَّعاوى ونـفيُ الـحُجَج والقَضايا

أي: بلْ أتَلْتَمِسُ، وتطلبُ منهم على هدايتِكَ لهُم، وإرشادِهم إلى الإيمان أجرًا دنيويًّا وثوابًا ماديًّا، فهم من غرامةِ ذلك مُثقَلونَ؛ لِما يَشقُّ عليهم من بذلِ المال، فيُعرضون عنك، وهل عندَهم عِلمُ الغيبِ، فهم يكتبونَ عنهُ ما يحكمونَ به لأنفُسِهم مِنْ أنَّهم أفضلُ منك، وأنَّهم لا يُعاقبونَ وغيرُ ذلك ممّا يدَّعونَ، واستغنَوا بذلك عن عِلمِك؟ وقيل: المَعنى: أينزلُ عليهم الوحيُ بهذا الَّذي يَحكمون؟ ليس عندَهم شيءٌ من ذلك.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غرم).
(2) الفيوميّ، المصباح المنير: (غرم).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (غرم).
(4) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 7/ 225.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ثقل).
(6) الفيوميّ، المصباح المنير: (ثقل).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الوصلِ بـ ﴿أَمْ﴾ والغرضُ مِنها:

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بلفظِ ﴿أَمْ﴾ المُنقطِعة، في قولِه تعالى: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا﴾؛ للدَّلالة على الإضرابِ الانتقاليِّ، فـ﴿أَمْ﴾ هنا عاطفةٌ في المَعنى على قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ﴾، أي: بل أتسأل أيُّها الرَّسولُ هؤلاءِ المُكذِّبينَ لك ﴿أَجْرًا﴾، أي: ثوابًا دُنيويًّا، وتلتمسُ منهم مُكافأةً على ما تدعوهُم إليه من الإيمانِ باللهِ سُبحانه[1]، فهي بمعنى: بلْ والهمزة، والتَّقديرُ: (بل أتسألهم)، والغرَضُ من الإضرابِ بـ(بل) الانتقالُ إلى: "إبْطالٍ آخَرَ مِن إبْطالِ مَعاذيرِهِمْ في إعْراضِهِم عَنِ استِجابَةِ دَعوَةِ النَّبيِّ ﷺ المُبتَدِئ مِن قَوْلِه: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۞ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾، إلى قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ﴾"[2]، فـ﴿أَمْ﴾ هنا: "تتضمَّنُ الإضرابَ عن الكلامِ الأوَّل لا على جهةِ الرَّفض له، لكنْ على جهة التَّركِ والإقبالِ على سِواه"[3]، والغَرضُ منَ الاستفهام الإنكارُ على سبيلِ الفَرْضِ والتَّقديرِ؛ إذ لم يصدُرْ منهم ادِّعاءُ ذلك، قال ابن عاشور: "فالاستِفْهامُ الَّذي تُؤْذِنُ بِهِ ﴿أَمْ﴾ استِفهامُ إنْكارٍ؛ لِفَرْضِ أنْ يَكونَ ذَلِكَ مِمّا يُخامِرُ نُفوسَهُمْ فَرْضًا اقْتَضاهُ استِقْراءُ نيّاتهم مِنْ مَواقِعِ الإقْبالِ على دَعْوَةِ الخَيْرِ والرُّشْدِ"[4]، لكنَّ المُبطِلَ يَسعَى لسَبرِ أسبابِ الدَّعوى ويقومُ بإبطالها، فإذا انتفى أنْ يكونَ قد طلبَ منهم أجرًا مقابلَ الدَّعوة والنُّصح؛ تحقَّقتْ دلالتا التَّوبيخِ والتَّقريع، قال ابنُ عطيَّة: "والمرادُ به توبيخُ الكفّار؛ لأنَّه لو سألَهُم أجرًا، فأثقلَهم غُرمُ ذلك؛ لكانَ لهم بعضُ العُذر في إعراضِهم وقرارِهم"[5].

دلالةُ الفعلِ المُضارعِ ﴿تَسْـَٔلُهُمْ﴾ مادَّةً وصيغةً:

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بالفعلِ المضارع (تسألُ)، في قولِه تعالى: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا﴾؛ للدَّلالة بصيغتِه على وقوعِ فعلِ السُّؤال بطريقِ الإنكارِ والنَّفي على جهةِ التَّجدُّدِ الاستمراريِّ، أي:

---

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 111.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 102.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 354.
(4) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 526، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 102.
(5) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 5/ 354، والحنبليّ، فتح الرّحمن: 7/ 136.

تبرئةُ النَّبيِّ المُختار مِن طلَب الأجرِ عندَ إبراز الأنوار

لا تسألُهم كلَّما دعوتَهُم أجرًا ومالًا مقابلَ النُّصحِ والإرشاد، وللدَّلالة بمادَّتِه؛ لكونهِ متعلِّقًا بالأجر والمال على الطَّلب، أي: لا تطلبُ منهم ذلك، والغرضُ: نفيُ وقوعِ ذلك الطَّلبِ منه ﷺ وإنكارُهُ.

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المبنيِّ للفاعلِ ﴿تَسْـَٔلُهُمْ﴾:

الغَويُّ المُبطِل يَدفعُ الأجرَ للباطلِ المُضلِّل

عبَّر النَّظم الكريمُ بالفعل المضارع بصيغةِ المبنيِّ للفاعلِ خطابًا للنَّبيِّ ﷺ، في قولِه تعالى: ﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا﴾، دونَ صيغةِ المبنيِّ للمفعولِ بالقول: (أم يُسألونَ أجرًا)؛ للدَّلالةِ على "تَسْلِيَةِ قَلْبِ النَّبيِّ ﷺ؛ وذَلِكَ لِأَنَّهُمْ لَمّا امْتَنَعوا مِنَ الاسْتِماعِ، واسْتَنْكَفوا مِنَ الاتِّباعِ، صَعُبَ عَلَى النَّبيِّ ﷺ، فَقالَ لَهُ رَبُّهُ: أنْتَ أتَيْتَ بِما عَلَيْكَ، فَلا يَضيقُ صَدْرُكَ حَيْثُ لَمْ يُؤْمِنوا، فَأنْتَ غَيْرُ مَلومٍ، وإنَّما كُنْتَ تُلامُ لَوْ كُنْتَ طَلَبْتَ مِنْهُمْ أجْرًا، فَهَلْ طَلَبْتَ ذَلِكَ، فَأثْقَلَهُمْ؟ لا، فَلا حَرَجَ عَلَيْكَ إذًا، وأنَّهُ لَوْ قالَ: (أمْ يُسْألونَ)؛ لَزِمَ نفيُ أجْرٍ مُطْلَقًا، ولَيْسَ كَذَلِكَ؛ وذَلِكَ لِأنَّهُمْ كانوا يُشْرِكونَ، ويُطالِبونَ بِالأجْرِ مِنْ رُؤَسائِهِمْ، وأمّا النَّبيُّ ﷺ، فَقالَ لَهُ: أنْتَ لا تَسْألُهُمْ أجْرًا، فَهُمْ لا يَتَّبِعونَكَ، وغَيْرُكَ يَسْألُهُمْ، وهُمْ يُسْألونَ، ويَتَّبِعونَ السّائِلينَ، وهذا غايَةُ الضَّلالِ"[1]، ويمكنُ أنْ يكونَ توجيهُ السُّؤالِ إلى النَّبيِّ المختار دونَهُم؛ للدَّلالة على صدقِهِ في الجوابِ والاعتناءِ بشأنِهِ وتبرئةِ ساحتِهِ.

سرُّ التَّعبيرِ بـ (أجر) مادَّةً وتنكيرًا:

الدَّعوةُ العَظيمة تَستحِقُّ الأجرَ العَظيم

نكَّرَ النَّظمُ الكريم لفظَ (الأجر)، في قولِه تعالى: ﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا﴾؛ للدَّلالة على التَّعظيم والتَّكثير لذلكَ الأجر؛ بدلالة أنَّه يُثقِلُ كاهلَهم، ولا يبلغُ حدَّ الإثقال إلّا ما كانَ كثيرًا فخمًا، وفيهِ إشارةٌ إلى أنَّ ما يدعوهم إليه ممّا يَنبغي أنْ يُؤخذَ عليه الأجرُ العظيمُ؛ لعظمتهِ وعِزَّتِهِ وكمالِهِ ونَفاستِهِ، لكنَّه لا يطلبُ، ولا يريدُ الأجرَ عليه، ونبَّه الرّازيُّ إلى دقَّةِ اختيارِ مادَّةِ (الأجرِ) دونَ المالِ أوْ أيِّ مُقابلٍ آخر.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 219.

بقوله: "والَّذي يَظْهَرُ هاهُنا أنَّ ذَلِكَ إشارَةٌ إلَى أنَّ ما يَأْتي بِهِ النَّبيُّ ﷺ فيهِ مَصْلَحَتُهُمْ، وذَلِكَ لِأنَّ الأجْرَ لا يُطْلَبُ إلّا عِنْدَ فِعْلِ شَيءٍ يُفيدُ المَطْلوبُ مِنْهُ الأجْرَ، فَقالَ: أنْتَ أتَيْتَهُمْ بِما لَوْ طَلَبْتَ عَلَيْهِ أجْرًا، وعَلِموا كَمالَ ما في دَعْوَتِكَ مِنَ المَنْفَعَةِ لَهُمْ وبِهِمْ؛ لَأتَوْكَ بِجَميعِ أمْوالِهِمْ، ولَفَدَوْكَ بِأنْفُسِهِمْ، ومعَ هذا لا تطلُبُ مِنْهُمْ أجْرًا، ولَوْ قالَ: (شَيْئًا أوْ مالًا)؛ لَما حَصَلَتْ هَذِهِ الفائِدَةُ"[1].

دلالةُ (الفاء) والغرضُ منها:

ثبوتُ افتراضِ السُّؤالِ يَتفرَّعُ عنهُ الإعذار

عطفَ النَّظمُ الكريمُ بـ(الفاءِ) في قوله تعالى: ﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على "التَّفْريعِ والتَّسَبُّبِ، أي: فَيَتَسَبَّبُ على ذَلِكَ أنَّكَ شَقَقْتَ عَلَيْهِم، فَيكونُ ذَلِكَ اعْتِذارًا مِنْهُمْ عَنْ عَدمِ قَبولِ ما تَدْعوهُمْ إلَيْهِ[2]، ولمّا كان الاستفهامُ إنكاريًّا على سبيلِ الفَرْضِ، فالَّذي يتفرَّعُ عليه عدمُ الالتزامِ بأيَّةِ غرامةٍ، أو أداءِ أيِّ مُقابل، وكأنَّه إشارةٌ إلى قياسٍ شَرْطيٍّ مُفادُهُ: لو ثبتَ ثِقلٌ كاهلِهم بالغرامةِ؛ لكنتَ قد سألْتَهُم الأجر، لكن التّاليَ باطلٌ، فالمُقدَّمُ مثلُهُ؛ فلا عُذرَ لهُم.

نُكْتَةُ ذِكرِ المُسندِ إليه (هُم) بعدَ الفاءِ:

إفادةُ الانحصار في الكلامِ بدلالةِ الفحوى عندَ ذَوي الأفهام

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بالمُسند إليهِ ضميرًا في قولِهِ تعالى: ﴿فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ﴾؛ للدَّلالة على تخصيصِ الإثقالِ بالغَرامةِ بهم دونَ غَيرهم، وإنَّما أفادَ ذِكرُ المُسندِ إليه مقدَّمًا دلالةَ الانحصار؛ لوقوعِه بعدَ (الفاءِ) التَّسبُّبيَّة، التي يترتَّبُ ما بعدَها على ما قبلَها، فيكونُ هذا التَّرتُّبُ دالًّا على اختصاصِ المسندِ بالمسندِ إليه بدلالةِ فحوى الخطاب وسياق الكلام.

دلالةُ الاستعارةِ في ﴿مِّن﴾ والغرضُ منها:

مَنشأُ الغَرامة وأثرُها في سببيَّةِ دَفْعِ المَلامَة

عبَّر النَّظمُ الكريم بـ﴿مِّن﴾ الجارَّةِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَهُم مِّن

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 220.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 102.

﴿مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ﴾؛ للدَّلالة على الابتداءِ المَجازيِّ؛ إذ يبدأ الثِّقلُ من الغَرامة؛ لينتهيَ إلى كاهلِ المُثقَلِ بها، ولمّا كانت الغرامةُ أمرًا لا يتحقَّقُ الابتداءُ منها، بل يتحقَّقُ الثِّقلُ بسببِ الغرامة، فتكونُ هنالك استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ؛ إذ شَبَّه السَّببيَّة والتَّعليلَ بالابتداءِ، بجامعِ أنَّ كِليهما يبدأان وينشأان عن أمرٍ، ثمَّ حُذِفَ المشبَّهُ، وأُبقيَ المشبَّهُ به، والغرضُ من استعارةِ دالِّ الابتداءِ للتَّعليلِ بيانُ حركةِ السَّببِ من الغَرامةِ إلى كاهلِ المُثقَلين بها، قال ابن عاشور: "و﴿مِّن مَّغۡرَمٖ﴾ مُتَعَلِّقٌ بـ﴿مُّثۡقَلُونَ﴾، و﴿مِّن﴾ ابتدائيَّةٌ، وهوَ ابتِداءٌ مَجازيٌّ بِمَعْنَى التَّعْليلِ"[1].

دلالةُ ﴿مَّغۡرَمٖ﴾ مادَّةً وصيغةً:

المصدرُ الميميُّ يدلُّ على الحدثِ بشكلٍ تحقيقيٍّ وتأكيديٍّ

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بلفظِ المصدرِ الميميِّ ﴿مَّغۡرَمٖ﴾، في قولِه تعالى: ﴿فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ﴾؛ للدَّلالة على الغُرْم الَّذي: "يُفْرَضُ عَلَى المَرْءِ أداؤُهُ مِنْ مالِهِ لِغَيْرِ عِوَضٍ ولا جِنايَةٍ"[2]، ويكونُ الثِّقلُ في هذا النَّوعِ من المالِ المُؤدَّى أثقلَ ما يكون، ومن ثَمَّ يُعدُّ الامتناعُ عن دفعِه حقًّا مَشروعًا وكرامةً أبيَّةً، لكنَّه لم يَطلُبْ منهم أجرًا البتَّةَ حتّى يَثْقُلَ عليهم الدَّفعُ، فلا عذرَ لهم في القَبولِ والإذعان، وفي المصدرِ الميميِّ يكون الحَدَثُ أقوى تأكيدًا وأعمقَ تحقُّقًا من المصدرِ العاديِّ.

دلالةُ الاستعارتين في ﴿مُّثۡقَلُونَ﴾:

الواقعُ في مَشقَّة مُثقَلٌ لا يَستطيعُ الحَرَكة

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بلفظِ ﴿مُّثۡقَلُونَ﴾، في قولِه تعالى: ﴿فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ﴾؛ للدَّلالة بصيغتِهِ على ذاتٍ وقعَ عليها ثِقلٌ جعلَها متعبةً نتيجةَ تلك المشقَّة، التي أصابَتْها من الغرامةِ التي تدفعُها بلا جِنايةٍ، وبمادَّته على اتِّصافه بثقلٍ كبير نتيجةَ تلك الغرامة، مع أنَّ الغرامة لا تُثقلُ صاحبَها، فهنالك استعارةٌ مكنيَّة؛ إذ شبَّه الغرامة بجسمٍ يَثقُلُ حملُه ورفعُه، ثمَّ حذفَهُ، وأبقى من خواصِّه الثِّقل، قال

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 102.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 102.

السَّمين: "ويُستعمَلُ في المعاني، نحو: أثقله الدَّين، والثَّقيلُ: غلبَ في الذَّمِّ، يقولونَ: ثقيلُ الرّوح"[1]، أوْ يكون استعارةً تصريحيَّةً تبعيَّة؛ إذ شبَّه المُصابَ بالمشقَّة أوِ المُشفق، ممّا يخافُ بالحاملِ للثَّقيل بجامع المُشابهة بينهما، ثمَّ حذفَ المشبَّه، وهو المصابُ بالمشقة، وأبقى المُشبَّه به على سبيلِ الاستعارة التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّة، قال ابن عاشور: "والمُثْقَلُ: الَّذي حُمِلَ عَلَيهِ شَيْءٌ ثَقيلٌ، وهوَ هُنا مَجازٌ في الإشفاقِ"[2]، أي: مُشفِقونَ من الغَرامة.

دلالة ﴿أَمۡ﴾ والغرض منها:

من أسباب التَّكذيب والاتِّهام بالعيب الاستغناءُ بما عندهم من الغيب

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بـ﴿أَمۡ﴾ المُنقطعةِ مجدَّدًا في قوله تعالى: ﴿أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ﴾؛ للدَّلالة على مَعنَيَي: الإضرابِ والاستفهام، والتَّقدير: (بلْ أعندَهُم الغيبُ)، والغرضُ من الإضرابِ أوَّلًا هو الانتقالُ عنِ المفروضِ المُنكَر السّابق دونَ الإبطالِ له إلى إنكارِ مفروضٍ لاحِق، والغرضُ منه دفعُ مُستندٍ آخرَ يدفعُهم إلى التَّكذيب والصُّدود؛ إذ بعدَ أنْ أبطلَ عُذرهم فيه بوقوعِ الغرامةِ عليهم إنْ آمَنوا، وصدَّقوا؛ كرَّ عليهم بإبطالِ استغنائِهم عمّا فيهِ من عظيم الأمر والإخبارِ عن الله، وما يريدُهُ منهم ممّا هو غيبٌ قبلَ مَجيءِ الرَّسول ﷺ، قال الرّازيُّ: "فالنَّبيُّ ﷺ لا يَطْلُبُ مِنْكُمْ أجرًا، وأنْتُمْ لا تَعْلَمونَ؛ فَلا عذر لَكُمْ؛ لِأنَّ العُذْرَ إمّا في الغَرامَةِ وإمّا في عَدَمِ الحاجَةِ إلَى ما جاءَ بِهِ، ولا غَرامَةَ عَلَيكُم فيهِ ولا غِنًى لَكُمْ عَنْه"[3]، فالغرضُ من الإضراب إبطالُ الاستغناءِ عن هذا الإخبارِ بالغيب بما عندَهُم مِن اطِّلاع عليه، قال ابنُ عاشور: "وقَد جاءَتِ الإبْطالاتُ السّالِفَةُ مُتَعَلِّقَةً بِما يُفْرَضُ لَهُمْ مِنَ المَعاذيرِ، الَّتي هيَ مِنْ قَبيلِ مُسْتَنَداتٍ مِنَ المُشاهَداتِ، وانْتُقِلَ الآنَ إلَى إبْطالٍ مِنْ نَوْعٍ آخَرَ، وهوَ

(1) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 1/ 279.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 102.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 221.

إبْطالُ حُجَّةٍ مَفْروضَةٍ يَسْتَنِدونَ فيها إلَى عِلْمِ شَيْءٍ مِنَ المعلوماتِ المُغَيَّباتِ عَنِ النّاسِ، وهيَ مِمّا استَأْثَرَ اللّه بعِلْمِهِ، وهوَ المُعَبَّرُ عَنْهُ بـ ﴿ٱلْغَيْبُ﴾، وقَدِ استَقَرَّ عِنْدَ النّاسِ كُلِّهِم أنَّ أُمورَ الغَيْبِ لا يَعْلَمُها إلّا اللّه، أوْ مَن أطْلَعَ مِنْ عِبادِهِ عَلَى بَعْضِها"[1]. والاستفهامُ إنكاريٌّ لما هو مفروضٌ، ومقدَّرٌ صدورُهُ منهم بسببِ التَّكذيب؛ إذ عادةُ المُبطلِ لأمرٍ أنْ يَستقريَ أسبابَ الإنكارِ والإبطالِ والتَّكذيب، ويعمدَ إلى تفنيدِها وإنكارِ صحَّتِها، ووقوعِها الواحدةَ تلوَ الأُخرى.

دلالةُ النَّفيِ بطريقِ الاستفهام:

إيرادُ المُنكَراتِ على أنَّها مُستفهَماتٌ لإلجاءِ الخَصْمِ إلى الإقرارات

عبَّرَ النَّظمُ القرآنيُّ عن الإنكارِ والنَّفيِ في آياتٍ عديدةٍ من السّورة بطريقِ الاستفهامِ الإنكاريِّ، بُدِئتْ بقوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾؛ لتنتهيَ بقوله تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ﴾، والغرضُ من إبرازِ النَّفيِ بصورةِ الاستفهام؛ ليكونَ دعوةً للعقولِ للتَّفكيرِ في الجوابِ الدّافعِ إلى إدراكِ الصَّواب، وليَحظى المخاطَبُ بمزيدِ الإقناع، وليتأمَّل فيما يذهبُ إليه من دَعاوى وأوهام؛ لعلَّه يرتدعُ عنها بعد ذلك، ويعودُ إلى الإيقانِ والإذعان، وليُظْهِرَ المُنكَرَ والمَنفيَّ بصورةِ المسؤول عنه؛ إلجاءً للخصمِ حتَّى يُقِرَّ بكونِ المفروضِ أوِ المُنكَر غيرَ قابلٍ للإثباتِ أوِ القَبول.

دلالةُ التَّعبيرِ بالظَّرفِ (عندَ):

عذرُ عدمِ الاستسلامِ استقرارُ الغيبِ عندَ اللِّئام

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بالظَّرف (عند) في قولِهِ تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ﴾؛ للدَّلالةِ على الحُضورِ والقُربِ الشَّديد للغيبِ منهم، حتّى كأنَّ الغيب اقتربَ منهُم، وجلسَ عندَهم وفي حَضرتهم، لكنَّه قُربٌ مجازيٌّ؛ إنْ أريدَ بـ﴿ٱلْغَيْبُ﴾ الأخبارُ المتناقلةُ، أو قُربٌ حقيقيٌّ؛ إن أُريد بـ﴿ٱلْغَيْبُ﴾ الكتبُ السَّماويَّةُ الَّتي خُصّوا بها، ويَكتبونها، وفي ذلك تهكُّمٌ بهم واستخفافٌ بمداركِهم؛ إذ عُذرُ التَّكذيبِ الاستغناءُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 103.

عمّا في الإسلام والقرآنِ من إخبارٍ بالغيب، بحُجَّة استقرارِ الغَيب بشكلٍ قريب منهم، حتّى إنَّهم يَكتبونَهُ، ويُدوِّنونَه، مع أنَّهم في الواقع لا يَملكون شيئًا من الغيبِ، فضلًا عن كونِهم يكتبونَهُ، ويَسطُرونَهُ، وفي ذلك أيضًا تعريضٌ بجهلِهم الكبير وحاجتِهم لما في هذا الغيبِ الَّذي جاءَهم بِهِ الرَّسولُ ﷺ، وعدمِ استغنائِهم عنه بما لدَيهم.

سرُّ تقديمِ شبهِ الجُملة ﴿عِندَهُمُ﴾:

الافتراضُ من أجلِ الإنكار والدَّفعِ إلى الإقرار

قدَّمَ النَّظم الكريم المُسنَدَ - وهو شبهُ الجملةِ الواقعةُ خبرًا والمتكوِّنة منَ الظَّرف المتعلِّق بمادَّة الاستقرارِ وجوبًا - على المُسنَد إليه في قولِه تعالى: ﴿أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ﴾؛ للدَّلالة على الحصر والقَصْر؛ إذِ المُقدِمُ على التَّكذيبِ بالغيبِ وإخباراتِ الرَّسول ﷺ بالمُغيَّبات والمُدَّعي للباطل، لا بدَّ أنْ يكونَ مُدَّعيًا في الوقتِ نفسه بانحصارِ الغَيب عندَهُ دونَ مَن سواه، وإلّا كان تكذيبُهُ بذلك باطلًا؛ إذ يكونُ الغيبُ مُشتركًا بينَهُ وبينَ غيره، فلا مَجالَ للتَّكذيب بغيرِه بحُجَّةِ امتلاكِه الغيبَ، لكنْ إنِ ادَّعى حصْرَ الغيبِ فيه؛ سهُلَ عليه التَّكذيبُ بغيره، ولذا قدَّمَ النَّظمُ الظَّرفَ؛ لتقومَ به الحُجَّة للمنكِر، وإن كان في الواقع لا يمتلكُ غيبًا أصلًا، لكنَّه افتراضٌ من أجلِ الإنكار والدَّفع إلى الإقرارِ، قال ابن عاشور: "وتَقْديمُ ﴿عِندَهُمُ﴾ عَلَى المُبْتَدَأ - وهوَ مَعْرِفَةٌ - لِإفادَةِ الاخْتِصاصِ، أي: صارَ عِلْمُ الغَيْبِ عِندَهُمْ لا عِندَ اللّه"[1].

دلالةُ التَّعريفِ بـ(أل) في ﴿ٱلۡغَيۡبُ﴾:

القُرآنُ مَعدِنُ الغيب، ومُبرَّأٌ من كلِّ عَيْب

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بلفظِ ﴿ٱلۡغَيۡبُ﴾ مُعرَّفًا بـ(أل)، في قولِه تعالى: ﴿أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ﴾؛ إمّا للجنسِ الصّادقِ بالاستغراقِ الكلّيِّ، والتَّقديرُ: (بل أعندهم كلُّ أفرادِ الغَيب)؛ حتّى استغنَوا عن الإخبارِ بالغَيب في القُرآن الكريم، فكذَّبوه، أوِ الصّادق بالعهدِ الذِّهنيِّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 103.

المُتحقِّق في بعضٍ غيرِ معيَّن داعٍ إلى التَّكذيب، وهو ما ذهبَ إليه الرّازيُّ[1] بقوله: "الألفُ واللّامُ في ﴿ٱلۡغَيۡبُ﴾ لِتَعْريفِ ماذا؟ ألِجِنْسٍ أَوْ لِعَهْدٍ؟ نَقولُ: الظّاهِرُ أنَّ المُرادَ نَوْعُ الغَيْبِ، كَما يَقولُ القائِلُ: (اشْتَرِ اللَّحْمَ) يُريدُ بَيانَ الحَقيقَةِ، لا كلَّ لَحْمٍ ولا لَحْمًا مُعَيَّنًا"[2]، والتَّقديرُ: (بل أعندهم بعضٌ مبهَمٌ من الغيب) يَستندونَ إليه في تكذيبهم لإخباراتِ القرآنِ بالغَيب، وإمّا للعهْد العِلْميِّ الصّادق باللَّوحِ المَحفوظ - وهو ما ذكرَهُ البيضاويُّ[3] - بحيثُ اطَّلعوا عليه، ويكتبونَ ما فيه، فاستغنَوا عن علْم الرَّسول ﷺ وإخبارِه بالغيب، وأيًّا ما كانت (أل)؛ فإنَّ الواقع يُكذِّبهم، والحالَ التي هم عليها من الجهلِ لا تصدِّقُهم، وفي ذلك إشعارٌ بأنَّ ما جاء به الرَّسولُ صلَّى اللّه وسلَّم ممّا أطلعه اللّه عليه بالوَحْي غيبٌ عجيبٌ يشتمل على الصِّدق العظيم.

دلالةُ المجازِ المُرسَل في ﴿ٱلۡغَيۡبُ﴾:

تسميةُ اللَّوح بالغيب مِن تسمية المَحلِّ باسم الحالِّ بلا رَيب

عبَّر النَّظم الكريمُ بلفظ ﴿ٱلۡغَيۡبُ﴾، في قولِه تعالى: ﴿أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ﴾؛ للدَّلالة على (اللَّوح المحفوظ)؛ بناءً على أنَّ (أل) فيهِ للعَهْدِ العِلْميِّ؛ إذ يُطلَقُ الغيبُ في العهد المعلوم بينَ المُتخاطِبين على ذلك اللَّوحِ المَحفوظ الَّذي تُسجَّلُ فيه الأخبارُ الغيبيَّة، وحينَئذٍ يكونُ إطلاقُ ﴿ٱلۡغَيۡبُ﴾ عليه: "مَجازًا؛ لأنَّه محلُّ المُغيَّبات، فذُكِرَ الحالُّ، وأُريدَ المَحلُّ"[4].

دلالةُ حذفِ المُضافِ في ﴿ٱلۡغَيۡبُ﴾:

المبالغةُ في الاطِّلاع تَستلزمُ الاستغناءَ والاقتناع

حذفَ النَّظمُ الكريم المضافَ في قولِه تعالى: ﴿أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ﴾؛ سواءٌ فُسِّرَ ﴿ٱلۡغَيۡبُ﴾ بالمعنى الحقيقيِّ، وهي تلك الحقيقةُ

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 221.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 221.

(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 237.

(4) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 249.

المتحقَّقة بما غابَ عن الحِسِّ، أوْ فُسِّرَ باللَّوح المحفوظِ؛ فإنَّ الَّذي عندَهم ليسَ الحقيقةَ نفسَها ولا اللَّوحَ المَحفوظ ذاتَه، بل عِلْمُهما ومَعرفتُهما والاطِّلاعُ عليهما، ولذا قالَ ابنُ عاشور: "والكَلامُ هُنا على حذفِ مُضافٍ، أي: (أعِنْدَهُمْ عِلْمُ الغَيْبِ)، كما قال تعالى: ﴿أَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡغَيۡبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ٣٥﴾ [النَّجم: 35]، فالمُرادُ بِقَوْلِه: ﴿عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ﴾: أنَّهُ حَصَلَ في عِلمِهِمْ ومُكْنَتِهِمْ، أي: بِاطِّلاعِ جَميعِهِمْ عَلَيْه، أوْ بِإبلاغِ كُبَرائِهِمْ إلَيْهِم، وتَلَقِّيهم ذَلِكَ مِنْهُم"[1]، والغرضُ من الحذفِ للمُضاف المبالغةُ في الاطِّلاع عليهِ حتَّى كأنَّه بذاتِهِ عندَهم.

سرُّ التعبير بـ(الفاء) والغرضُ منها:

بـطـلانُ الـتّـالي يستلزمُ بُطلانَ المقدَّمِ الَّذي هو المنفيُّ

عطفَ النَّظمُ الكريم بـ(الفاء) في قولِهِ تعالى: ﴿فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ﴾؛ للدَّلالة على التفريعِ والتسبُّبِ عمّا قبلَه؛ إذ العلمُ بالغيب تتفرَّعُ عليه كتابتُهُ وتدوينُه، فيكون صاحبُهُ مُستغنيًا بما يكتبُهُ عن القرآن الكريم، ومنَ المؤكَّد أنَّ ذلك العلمَ بالغيب الذي يُدوَّن فيه النصُّ على كذبِ القرآن، فهُم يُكذِّبونه؛ بناءً على علمٍ بالغيبِ الَّذي يَكتبونه، ولذا قالَ ابنُ عاشور: "وَمَجيءُ جُمْلَةِ ﴿فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ﴾ متفرِّعةً عَنْ جُمْلَةِ ﴿أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ﴾؛ بناءً عَلَى أنَّ ما في الغَيْبِ مَفْروضٌ كَونُهُ شاهِدًا عَلَى حُكْمِهِمْ لِأنْفُسِهِمُ المُشارِ إلَيْهِ بِقَوْلِهِ: ﴿مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾"[2]، ولمّا كان جوابُ الاستفهام الإنكاريِّ قائمًا على عدم معرفتِهم بالغيب وعلمِه؛ ثبتَ أنَّ المتسبَّب عنه غيرُ واقعٍ أصلًا، فيكونُ النظمُ مشيرًا إلى قياس شرطيٍّ مفاده: لو ثبتَتْ كتابتُهم؛ ثبتَ اطِّلاعهم على الغيب، لكنَّ التاليَ باطلٌ، فالمُقدَّمُ مثلُه.

دلالةُ تقديم المُسندِ إليه ﴿فَهُمۡ﴾:

لا يـثـبـتُ الاسـتـغـنـاءُ إلّا بـعـدَ تـقـرُّرِ الاستقواء

قدَّمَ النَّظمُ الكريمُ المسندَ إليه على الخبرِ الفعليِّ، في قولِه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 103.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 104.

تعالى: ﴿فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ﴾؛ للدَّلالة على تقويةِ الحُكم بتكرُّر الإسنادِ مَعَ إرادةِ الحَصر والاختصاص، فكما اختصَّ عِلمُ الغيب بهم، انحصرَتِ الكتابةُ فيهم، فتكونُ الكتابة منحصرةً فيهم لا تثبتُ لغيرهم، فهو تعريضٌ بأُمّيَّتِهم وجَهْلِهم بالعلوم والصّنائع فضلًا عن علمِ الغيب، واستخفافٌ بعقولِهم التي أقدمَتْ على التَّكذيبِ بالغيب، وهي لا تمتلكُ علمًا به فضلًا عن كتابتِهِ؛ إذ لا يتحقَّقُ الاستغناء إلّا بعدَ الاستقواء.

دلالةُ الجملةِ الاسميَّة ﴿فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ﴾:

إثباتُ الكتابة للأُمّيِّ تجهيلٌ وتهكُّمٌ قويٌّ

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بالجملةِ الاسميَّة ذاتِ الخبرِ الفعليِّ، في قولِهِ تعالى: ﴿فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ﴾؛ للدَّلالة على ثبوتِ الكتابة فيهم على سبيلِ الاستقرار والدَّوام، مع كونِ الكتابةِ حاصلةً لهم على سبيلِ التَّجدُّدِ الاستمراريِّ، والغرضُ من دلالتَي الثُّبوت والتَّجدُّد الاستخفافُ بهم والتَّهكُّمُ بأحوالهم؛ إذ هم أُمَّةٌ أمّيَّةٌ جاهلةٌ لا تعرفُ القراءة ولا الكتابة، ولا تُدوِّنُ في الصُّحف الأخبارَ والقوانينَ والأنظمةَ، فكيف يكتبونَ الغيب، ويطَّلعون على علمِهِ؟.

دلالةُ الفعلِ المضارعِ ﴿يَكۡتُبُونَ﴾ مادَّةً:

كتابةُ العِلم تدلُّ على قطعيَّةِ الفَهم

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بالفعلِ المُضارع (يكتبُ)، في قولِهِ تعالى: ﴿فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ﴾؛ للدَّلالة بمادَّتِه إمّا على حدثِ الكتابةِ المعروفِ؛ بأنْ يتلقّوا علْمَ الغيب، فيقوموا بكتابتِهِ وتدوينِه، وهو ما مالَ إليه الرّازيُّ، وبيَّنَ فائدةَ التَّعبيرِ به بقولِه: "وإشارَةٌ إلَى أنَّ ما عِنْدَ النَّبيِّ ﷺ مِنْ عِلمِ الغَيْبِ هوَ جازِمٌ بها، ولَيْسَ كَما يَقولُ المُتَفَرِّسُ: الأمْرُ كَذا وكَذا، فَإنْ قيلَ: اكْتُبْ بِهِ خَطَّكَ أنَّهُ يَكونُ يَمْتَنِعُ، ويَقولُ: أنا لا أدَّعي فيهِ الجَزْمَ والقَطْعَ، ولَكِنْ أذْكُرُهُ كَذا وكَذا على سَبيلِ الظَّنِّ والاسْتِنْباطِ، وإنْ كانَ قاطِعًا يَقولُ: اكْتُبوا هَذا عَنّي، وأثْبِتوا في

الدَّواوينِ أنَّ في اليَوْمِ الفُلانيِّ يَقَعُ كَذا وكَذا، فَقَوْلُهُ: ﴿أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ﴾، يَعْني: هَلْ صاروا في دَرَجَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ حَتَّى استَغْنَوا عَنْهُ، وأعْرَضوا[1]، وإمّا للدَّلالة على الفَرْضِ والتَّعيينِ، وهو ما ذهبَ إليه ابنُ عاشور بقوله: "ومَعْنَى: ﴿يَكۡتُبُونَ﴾ يَفْرِضونَ، ويُعَيِّنونَ، كَقَوْلِهِ: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ﴾ [البَقَرَة: 178]، وقولِهِ: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ [النِّساء: 24]، أي: فَهُمْ يَفْرِضونَ لِأَنْفُسِهِمْ أنَّ السَّعادَةَ في النُّفورِ مِنْ دَعْوَةِ الإسْلامِ، ويَفْرِضونَ ذلك على الدَّهْماءِ مِنْ أتْباعِهِمْ"[2]، والَّذي يبدو أنَّ المراد بالكتابة الكتابةُ المعهودةُ التي تكونُ بالقلَم، فهي الَّتي تُناسِبُ العِلمَ الغَيبيَّ المُطَّلَعَ عليه؛ إذ أنفَتُهُم من القرآنِ وتكذيبُهم لهُ يكون مُبتنًى على معرفةٍ بالغيبِ وكتابتِهِ؛ فلا حاجةَ لهم حينَئذٍ للقُرآن الكريم، واختار النَّظمُ الكريمُ فعلَ الكتابة هنا دون فعلِ السَّطْر، كما في أوَّل السّورة من قوله: ﴿وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾؛ للدَّلالة على الفرقِ بينَ كتابتهم للغيبِ وتسطيرِ الملائكةِ أو كَتَبةِ الوحي للقرآن؛ إذِ الكتابةُ تدلُّ على الجمعِ والضَّمِّ بنظامٍ أوْ بلا نِظام، بخلاف السَّطر الَّذي يدلُّ على انتظامِ المكتوب، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ كتابتهم المفروضةَ إنْ وقعتْ؛ فليست بنظامٍ سويٍّ، بخلاف تسطيرِ القرآن فهو مكتوبٌ منظَّمٌ.

نُكْتَةُ تقديمِ الإنكارِ الأوَّلِ على الثّاني:

المالُ أكثرُ تأثيرًا من البديلِ الَّذي يُغني عنهُ كثيرًا

قدَّمَ النَّظم الكريم الإنكارَ الأوَّلَ في قوله تعالى: ﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ﴾، على الإنكار الثّاني في قولِهِ تعالى: ﴿أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ﴾؛ لأنَّ المانعَ من الإيمانِ بالقرآنِ والدّاعيَ للتَّكذيبِ بهِ على سبيلِ الفَرْض - إنْ كان تعويضًا ماليًّا - أكثرُ تأثيرًا في تحقُّقِه من الاستغناءِ عنه بوجودِ مُغنٍ وبديلٍ يقومُ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 221.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 104.

مُقامَه؛ إذ النُّفوسُ تتعلَّقُ بالمال والحِرصِ عليه، فيكون تأثيرُهُ في عدمِ الإيمان وداعيتُه للتَّكذيب أعظمَ أثرًا من وجودِ بديلٍ يُغني عنهُ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الغُرْم والدَّين:

الغَرامةُ يُقصَدُ بها التَّعويضُ والتَّأديب والدَّينُ يُقصَدُ بِهِ السَّداد

الغرامةُ: أداءُ شيءٍ بسببِ جِنايةٍ تُفضي إلى خسارةٍ، أوْ لزومُ المَرء ما لا يلزمُ عليه سدادُهُ، فهو الالتزامُ أوِ التَّعهُّدُ في أداءِ شيءٍ أوْ في عمَل، لم يكن واجبًا عليه[1]، ويُؤدَّى على سبيلِ التَّعويض والتَّأديب، ولذا يقالُ: غَرِمَ في تِجارتِهِ؛ إذا خَسِرَ[2]، ويُطلقُ على العَذاب والعِشق أوِ الشَّرِّ اللّازم[3]، بخلاف (الدَّين) فهو أداءُ شيءٍ واجبٍ مقابلَ استدانةٍ، لا بقصدِ التَّعويض أوِ التَّأديب، فلا يكونُ تخسيرًا للدّافع، وإنَّما هو سَدادُ ما بذِمَّتِه من التزام، ومِن ثَمَّ عبَّر عنه النَّظمُ في قولِهِ: ﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ﴾، أي: ما سألتَ منهم أجرًا للتَّعليم والتَّربية حتّى يحسَبوه غرامةً لإسلامهم من دونِ استدانةٍ.

(1) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 7/ 225.
(2) الفيوميّ، المصباح المنير: (غرم).
(3) الأزهري، تهذيب اللّغة: (غرم).

﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ٤٨ لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ ٤٩ فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٥٠﴾ [القلم: 48 - 50]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الأمـرُ بالصَّبرِ والثَّباتِ بعدَ الانتصارِ للحقِّ بالآياتِ

لَمّا أبطلَ اللّهُ تعالى أسبابَ التَّكذيبِ ومنشأ عدمِ التَّصديق، ورَدَّ على الكافرينَ، وانتصرَ للمُسلمينَ؛ ناسَبَ أنْ يعقب ذلك الانتصارَ الأمرُ لنبيِّه الكريم ﷺ بالصَّبر عليهم وعلى تكذيبِهم وظُلمِهم، وألّا يَهجُرَهم، ويُفارقَهم من دونِ أمرٍ إلهيٍّ، وإلّا كان حالُهُ حالَ أخيهِ صاحبِ الحوت الَّذي افتقرَ لرَحمةِ ربِّه، فأدركَتْهُ العنايةُ بالتَّنجية، قال ابنُ عاشور: "تَفْريعٌ عَلَى ما تَقَدَّمَ مِنْ إبْطالِ مَزاعِمِ المُشْرِكِينَ ومَطاعِنِهِم في القُرْآنِ والرَّسولِ ﷺ، وذَلِكَ أنَّ شِدَّتَهُ عَلَى نَفْسِ النَّبِيِّ ﷺ، مِنْ شَأْنِها أنْ تُدْخِلَ عليه يَأْسًا مِنْ حُصولِ رَغْبَتِهِ ونَجاحِ سَعْيِهِ، فَفَرَّعَ عَلَيْهِ تَثْبِيتَهُ، وحَثَّهُ على المُصابَرَةِ، واستِمْرارَهُ على الهَدْيِ، وتَعْريفَهُ بِأنَّ ذَلِكَ التَّثْبِيتَ يَرْفَعُ دَرَجَتَهُ في مَقامِ الرِّسالَةِ؛ لِيَكونَ مِنْ أولي العَزْمِ، فَذَكَّرَهُ بِمَثَلِ يونُسَ عليه السلام؛ تَذْكيرًا مُرادًا بِهِ التَّحْذير"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡحُوتِ﴾: (حوت) أصلٌ صحيحٌ، وهو مِنَ الاضطرابِ والرَّوغان، فالحوت: العظيمُ مِنَ السَّمَك، وهو مُضطرِبٌ أبدًا غيرُ مُستقرٍّ[2]، والحوتُ: السَّمكة، والجمعُ الحيتان، وحاتَ الطّائرُ على الشَّيءِ يحوتُ، أي: حامَ حولَهُ، وحاوتَني فلانٌ؛ إذا راوغَكَ[3]، فهو

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 104.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حوت).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (حوت).

الرَّوغانُ، ولمّا كان السَّمك يتحرَّك، ويَجري، ويَميل في الماءِ، يُريدُ صيدًا وغِذاءً، ويَحتالُ في تحصيلِهِ دائمًا، سُمّيَ بذلك[1]، والمرادُ به في الآية: السَّمكةُ العَظيمة.

2) ﴿مَكۡظُومٞ﴾: (كظم) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على مَعنًى واحد، وهو الإمساكُ والجمعُ للشَّيءِ، من ذلك اجتراعُ الغَيظ والإمساكُ عن إبدائِه، وكأنَّهُ يَجمَعُهُ الكاظِمُ في جَوفِهِ[2]، وكظَمْتُ الغيظَ كَظْمًا (من بابِ ضرَبَ) وكُظومًا: أمسكتَ على ما في نفسِكَ منهُ على صَفْحٍ أوْ غَيظ[3]، فهو ضَبطُ شيءٍ وحبسُهُ في الباطنِ عن أن يَبدوَ، كالحُزن والغَمِّ والغَيظِ والابتلاءِ[4]، وأمّا اسمُ المفعول منها، وهو (المكظوم)؛ فهو مَن يُضبَطُ، ويُحبَسُ في باطنٍ حتّى لا يَبدوَ، والمرادُ به في الآية: المَحبوسُ في بَطْنِ الحوت الممنوعُ عنِ الخُروج.

3) ﴿بِٱلۡعَرَآءِ﴾: (عري) يدلُّ على خُلوٍّ ومُفارقةٍ، من ذلك العُريانُ، يقالُ منه: قد عَرِيَ منَ الشَّيءِ يَعرَى، وجمعُ عارٍ: عُراة[5]، والعَراءُ: المَكانُ المُتَّسِعُ الَّذي لا سُترةَ بِهِ[6]، والمرادُ به في الآية: المكانُ الَّذي لا سترةَ فيهِ مِن جدارٍ أوْ سَقفٍ أوْ شَجَرٍ.

4) ﴿مَذۡمُومٞ﴾: (ذمم) أصلٌ واحدٌ يدلُّ كلُّهُ على خلافِ الحَمْدِ، يقالُ: ذَمَمْتُ فلانًا أذُمُّهُ، فهو ذَميمٌ ومَذموم؛ إذا كانَ غيرَ حَميد[7]، وذممتُهُ أذُمُّهُ ذَمًّا: خلافُ مَدَحْتُهُ، فهو ذَميمٌ ومَذموم، أي: غيرُ مَحمود[8]، فهو ما يُقابِلُ الحمدَ والمَدح، وهو مرتبةٌ شديدةٌ من اللَّوم، يقالُ: ذَمَّهُ يَذُمُّهُ ذَمًّا ومَذمَّةً، فهو ذامٌّ وذَمّامٌ، والصِّفة منه ذَمٌّ وذَميم[9]، والمرادُ به في الآية: مَلومٌ على أعمالِهِ، بعيدٌ من رَحمةِ ربِّه.

5) ﴿فَٱجۡتَبَٰهُ﴾: (جبي) أصلٌ واحدٌ يدلُّ على جَمْعِ الشَّيءِ والتَّجمُّع[10]، وجَبَيتُ الماءَ في الحَوض وجَبَوتُهُ: جَمَعْتُهُ، والجابية: الحَوضُ الَّذي يُجبَى فيه الماءُ للإبلِ[11]، وجَبيتُ

(1) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 2/ 284.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كظم).
(3) الفيوميّ، المصباح المنير: (كظم).
(4) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 10/ 62.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عري).
(6) الفيوميّ، المصباح المنير: (عري).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذمم).
(8) الفيوميّ، المصباح المنير: (ذمم).
(9) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 3/ 316.
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جبي).
(11) الصّحاح، الجوهريّ: (جبي).

المال والخَراج أُجبيهِ جِبايةً: جَمَعتُهُ[1]، فهو الجمعُ بقيدِ الانتخابِ والاستخراج، وأمّا الاجتباءُ؛ فمعناهُ الجَبْيُ باضافةِ خصوصيَّةِ الصّيغة، فإنَّها تدلُّ على الدِّقَّة والامتيازِ الخاصِّ والاختيار[2]، وهو المُرادُ بهِ في الآيةِ.

المَعنى الإجْماليُّ:

الـصَّـبرُ علـى الكافرين طاعةٌ لربِّ العالَمين

أي: فاصبرْ يا محمَّد لحُكم ربِّك بإمهالِهم وتأخيرِ نُصرتِك عليهم، معَ ما تُعانيهِ منهُم من أذًى وكَرْبٍ، ولا يكُنْ حالُك كحالِ صاحبِ الحوت يونسَ ﷺ وقتَ ندائِه، ولا يوجدُ منك ما وُجِد منه منَ المُغاضَبة والدُّعاءِ على قومِهِ بالعذاب، فتُبتلَى بنحو بلائه، فلولا أنْ تداركَتْهُ نعمةٌ من ربِّه - وهي توفيقُه للتَّوبة وقبولِها - لطُرِحَ من بطنِ الحوتِ بالأرضِ الخاليةِ من الأشجارِ وغيرِها، مَذمومًا مُعاقبًا على ما صدرَ منه، ولكنْ أدركَتْهُ رحمةُ ربِّه، فَطُرِحَ سَقيمًا غيرَ مُبعَدٍ عن كلِّ خير، فتداركَهُ نعمةٌ من ربِّه، فاجتباه، واصطفاهُ، فَجَعَلَهُ مِنَ الكاملينَ في الصَّلاح[3].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ (الفاء) في ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾:

الـصَّبرُ للحُكم من واجباتِ أهلِ العِلْم

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بـ(الفاءِ) العاطفة، في قولِه تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾؛ للدَّلالة على التَّفريعِ عمّا قبلها والتَّسبُّب عنه، أوْ أنَّها (فاءُ الفصيحةِ) الدّالَّةُ على شرطٍ محذوفٍ؛ إذ أنكرَ المولى الكريمُ كلَّ الدَّعاوى والفروضَ المتصوَّرةَ والعِللَ الدّافعةَ للتَّكذيبِ بالقرآنِ والنَّبيِّ ﷺ، وانتصرَ للحقِّ وأوليائِهِ والصِّدق وأهلِه، فتفرَّعَ عليه، وتسبَّبَ عنه الصَّبرُ على الدَّعوة العظيمةِ وإيذاءِ الكافرينَ؛

(1) الفيوميّ، المصباح المنير: (جبي).
(2) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 2/ 48.
(3) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 10/ 1545.

والاستمرار في عمليَّة التبليغ؛ لأنَّهم مع إيذائِهم لا يمتلكونَ أيَّ سببٍ مُقنعٍ للكُفران والإنكار سوى الغُرور والاستكبار، فلا بدَّ للمَولى العظيم من حكمةٍ في تأخيرِهم وإمهالِهم، أهمُّها تزوُّدُ أهلِ العِلْم بالصَّبر من أجلِ اللّه وأحكامِه، وهو من أعظَمِ الفَضائل.

دلالةُ فعلِ الأمرِ (اصبِر) مادَّةً وصيغةً:

إدامةُ الصَّبر مِن أعـظَـمِ أبــوابِ الشُّكر

عبَّر النَّظمُ الكريم بفعلِ (الصَّبر) أمرًا في قولِه تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾ الدّالِّ بمادَّتِه على التَّحمُّلِ للإيذاءِ والتَّكذيب، والاستمرارِ في شُؤون الدَّعوة والتَّبليغ؛ إذْ في الإمهالِ لهم حِكَمٌ لا تُحصى، وفي الاستمرارِ بدَعوتهم والصَّبر على إيذائِهم تربيةٌ للنَّفس وترويضٌ لها، قال الرّازيُّ: "﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾ وفيهِ وجهانِ؛ الأوَّلُ: فاصبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ في إمْهالِهِمْ وتَأْخِيرِ نُصْرَتِكَ عَلَيْهِم، والثّاني: فاصبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ في أنْ أوْجَبَ عَلَيْكَ التَّبْلِيغَ والوَحْيَ وأداءَ الرِّسالَةِ، وتَحَمَّلْ ما يَحْصُلُ بِسَبَبِ ذَلِكَ مِنَ الأذى والمِحْنَةِ"[1]، ولا مانعَ من إرادتِهما معًا؛ إذ كِلاهما حُكمٌ للّه تعالى، وقد دلَّ بصيغتِه على الوجوبِ دونَ النَّدب والإباحة؛ لكنْ بمعنى الاستمرارِ على الصَّبر وإدامتِهِ وعدمِ قَطعِهِ؛ إذْ شأنُ النَّبيِّ ﷺ الصَّبرُ والتَّحمُّلُ، فيكونُ الأمرُ دالًّا على الاستمرارِ في الصَّبر والمُداومةِ عليه.

دلالةُ (اللّام) في ﴿لِحُكۡمِ﴾:

الـصَّبر الـواجب لأجـلِ أمـرِ اللّه الثابت

عبَّرَ النَّظم الكريم بـ(اللّام) في قولِه تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾؛ للدَّلالة على التَّعليلِ والغرض؛ إذِ الصَّبرُ المأمورُ بإدامتِهِ والاستمرار عليه يكونُ لأجلِ اللّه وقضيَّتِهِ وحُكمِهِ وأمرِه، فهذا هو الصَّبر الَّذي يُريده اللّه تعالى، ويأمُرُ به، كما تُفيدُ (اللامُ) أيضًا دلالةَ الاختصاصِ الَّتي تفرَّعت عنها الغَرضيَّةُ، بحيثُ يكونُ الصَّبرُ مختصًّا بالحُكم الإلهيِّ دون ما سِواه.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 616.

دلالةُ المضاف (حُكْم):

الحُكمُ الإلهيُّ هو الأمرُ التَّشريعيُّ

اختلفَ المفسِّرون في تحديدِ دلالةِ (الحُكم)، في قولِه تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾، فمِنهم مَن جعلَهُ بالمعنى الكلّيِّ وهو القضاءُ الإلهيُّ، الَّذي قد قضاهُ في سابقِ عِلمِه[1]، ومِنهم مَن أرادَ تحديدَ خصوصِ ذلك القَضاءِ، فقيلَ: هو تأخيرُ عذابِ الكافرين وإمهالُهم، الدّالُّ عليه: ﴿سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ٤٤ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ﴾[2]، أوْ هو الأمرُ بتبليغِ الرِّسالةِ وأدائِها، وهو ما نصَرَهُ ابنُ عاشور بقوله: "والمُرادُ بِحُكْم الرَّبِّ هُنا: أمْرُه، وهوَ ما حَمَّلَهُ إيّاهُ مِنَ الإرْسالِ والاضْطِلاعِ بِأعْباءِ الدَّعْوَةِ، وهَذا الحُكْمُ هوَ المُسْتَقْرَأُ مِنْ آياتِ الأمْرِ بِالدَّعْوَةِ، الَّتي أوَّلُها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ٢﴾ [المدثر: 1 - 2]، إلَى قَوْلِه: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ٧﴾ [المدثر: 7]، فَهَذا هوَ الصَّبْرُ المَأْمورُ بِهِ في هَذِهِ الآيَةِ أيْضًا، ولا جَرَمَ أنَّ الصَّبْرَ لِذَلِكَ يَسْتَدْعي انتِظارَ الوَعْدِ بِالنَّصْرِ وعَدَمَ الضَّجَرِ مِن تَأخُّرِهِ إلَى أمَدِهِ المُقَدَّرِ في عِلْمِ اللَّه"[3].

دلالةُ الإضافةِ في (حُكْمِ رَبِّك):

تعليلُ الأمرِ بالصَّبرِ بكونِهِ صادِرًا ممَّنْ لهُ الأمر

أضافَ النَّظمُ الكريم لفظَ (الحُكم) إلى لفظِ (الرَّبِّ)، في قولِه تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾؛ للدَّلالة على تعليلِ الأمرِ بالصَّبر على الحُكم؛ لأنَّه صادرٌ منَ الرَّبِّ، الدّالِّ بمادَّته على السّيادة والقوَّة والتَّربية والسَّيطرة، ومَن كان هذا شأنُهُ فإنَّ حُكمه لا بدَّ من أن يكونَ نافذًا، وواجبُ المؤمن بالرُّبوبيَّة الصَّبرُ على ذلك الحُكم وعدمُ الضَّجَرِ أوِ الشُّعورِ بالعَجْزِ.

دلالةُ الإضافةِ في ﴿رَبِّكَ﴾:

تخفيفُ مَرارة الصَّبر بتأنيس قلبِ النَّبيِّ البَرِّ

أضافَ النَّظمُ الكريم لفظَ (الرَّبِّ) إلى ضميرِ المخاطَب المأمورِ بالصَّبر، في قولِه تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾؛ للدَّلالة على تأنيسِ

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 112.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/ 19.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 104.

قلبِهِ الشَّريف للصَّبرِ والتَّحمُّل؛ إذِ الإضافةُ تفيدُ تشريفَ المنسوبِ إليه الرَّبُّ الجليل بالرُّبوبيَّة، وفيه تعظيمٌ لقدرِ النَّبيِّ ﷺ ومكانتِه عندَ ربِّه ﷻ؛ إذِ الإضافةُ له تُفيد أنَّ الرَّبَّ الَّذي يتولَّى تربيتَه وتنميتَهُ لن يتركَهُ وحيدًا في طريقِ الدَّعوة، بل سيكونُ معه، ويُؤيِّدُه، وينصُرُه، وذلك مُؤنِسٌ للنَّبيِّ، ووعدٌ له بصنوفِ التَّأييد.

دلالةُ (الواوِ) في ﴿وَلَا﴾ والغرض منها:

الأمـرُ بالصَّبر والثَّبات، والنَّهيُ عنِ العَجلةِ قبلَ تحقيقِ المُراد

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بـ(الواوِ) في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ﴾؛ للدَّلالة على العطفِ والرَّبط بينَ الأمرِ بالصَّبر لحُكم اللّه وقضائِه، والنَّهي عن ثبوتِ الحالِ المُشابهة لحالِ يونُسَ عليه السلام، فكِلتا الجُملتين مُتفقتانِ في الإنشائيَّة لفظًا ومعنًى، لكنَّهما مُختلفتان في خصوصِ الطَّلب؛ فالطَّلبُ الأوَّلُ أمريٌّ والطَّلبُ الثَّاني نَهيٌ، وفي الجمعِ بينَهما دلالةٌ على التَّوكيد؛ إذِ الأمرُ بالشَّيء نهيٌ عن ضدِّه، والنَّهيُ عن الشَّيء أمرٌ بضدِّه، فالجمعُ بينهما يُؤكِّدُ الطَّلبَ، ويُقرِّره، وهو الصَّبرُ على الدَّعوة وعدمُ العجَلة والضَّجَرِ من المَدعوّينَ بحُجَّة التَّكذيب، قال الحنبليُّ: "ثمَّ أمرَ اللّه تعالى نبيَّهُ بالصَّبر لحُكمِهِ، وأنْ يَمضيَ لما أُمِرَ به من التَّبليغ، واحتمالِ الأذى والمشقَّة، ونُهيَ عن الضَّجَرِ والعَجَلة الَّتي وقعَ فيها"[1].

دلالةُ (لا) في ﴿وَلَا تَكُن﴾ والغرضُ منها:

النَّـهـيُ عن العَجَلة والضَّجَر للـوُصـول إلى النَّصرِ المُؤزَّر

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بـ(لا) في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ﴾؛ للدَّلالة على النَّهي المُقابلِ للأمر، فكما أمرَ المَولى الكريم رسولَه ﷺ بالصَّبر على الدَّعوة والثَّباتِ في التَّبليغ، نَهاهُ عن الضَّجَر والعَجلة في تبليغِ الدَّعوةِ للمُخاطَبين بحُجَّةِ التَّكذيبِ وعدمِ اليَقين.

(1) الحنبليّ، فتح الرّحمن: 7/ 136.

دلالةُ الفعلِ النّاقص ﴿تَكُن﴾ والغرضُ منه:

عدمُ الاتِّصاف بحالةِ الضَّجَر على سبيل الثُّبوتِ المُستقَرِّ

أدخلَ النَّظمُ الكريم حرفَ النَّهي على الفعلِ المُضارع النّاقص، في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾؛ للدَّلالة على النَّهي عنِ الاتِّصاف بصفةِ يونس ﵇، وهي العَجَلةُ والضَّجَرُ من التَّبليغ للمُكذِّبينَ على سبيلِ الثُّبوتِ والتَّمكُّنِ؛ إذِ الفعلُ النّاقصُ يُفيد دلالةَ الاتِّصاف بالخبرِ على سَبيلِ التَّمكُّنِ والاستقرارِ والوُجود.

دلالةُ (الكاف) في ﴿كَصَاحِبِ﴾:

النَّهيُ عنِ التَّشابُهِ الحالي لغرضِ الاتِّصاف بالمَعالي

عبَّرَ النَّظمُ بحرفِ الجرِّ (الكاف)، في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾؛ للدَّلالةِ على المُشابهةِ والمُماثلة، فالنَّهيُ مُتسلِّطٌ على المُشابهةِ بينَ الحالينِ في العَجلةِ والضَّجر من الدَّعوة؛ إذ وجْهُ الشَّبهِ هو العَجَلةُ والغضبُ[1]، والغرضُ من عدم الاتِّصافِ بصفتهِ الوصولُ إلى المَعالي، وبلوغُ أعلى درجاتِ الشَّرف المتلألِئ.

دلالةُ الإضافةِ في (صاحبِ الحوت):

شُهرةُ المَعنى الإضافيِّ تدلُّ على إرادةِ المَعنى اللَّقبيِّ

أضافَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ (صاحب) إلى ﴿ٱلْحُوتِ﴾، في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾؛ للدَّلالة على التَّعيينِ والتَّخصيص؛ إذِ الصّاحبُ اكتسبَ تعريفًا بإضافتِهِ إلى المعرَّفِ بـ(أل)، والإضافةُ عهديَّةٌ في النَّبيِّ يونُس ﵇، ثمَّ انتقلَ التَّركيبُ الإضافيُّ من التَّعيُّنِ الإضافيِّ إلى المعنى اللَّقبيِّ، فصار بتكوُّنِه الإضافيِّ دالًّا على عَلَم ولقَبٍ مُعيَّن، وهو النَّبيُّ يونس ﵇، قال ابنُ عاشور: "والصّاحِبُ: الَّذي يَصْحَبُ غيْرَهُ، أي: يكونُ مَعَهُ في بَعْضِ الأَحْوالِ أوْ في مُعْظَمِها، وإطلاقُهُ على (يونُسَ)؛ لِأنَّ الحوتَ التَقَمَهُ، ثُمَّ قَذَفَهُ، فَصارَ (صاحِبُ الحوتِ) لَقَبًا لَهُ؛ لِأنَّ تِلْكَ الحالَةَ مَعيَّةٌ قَويَّةٌ"[2].

---

(1) الحنبليّ، فتح الرّحمن: 7/ 137.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 105.

التَّغايُرُ الاستعماليُّ كاشِفٌ عن التَّغايُرِ العلَميِّ واللَّقَبيِّ

نُكْتَةُ العُدولِ عن الاسمِ العَلَم إلى اللَّقَب:

عدلَ النَّظمُ الكريم عن الاسمِ العلَم (يونُس) إلى اللَّقَب (صاحبِ الحوت)، في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ﴾؛ للدَّلالة بالوصفِ اللَّقبيِّ على ما حلَّ به؛ نتيجةَ التَّعجُّل في النُّصح، والضَّجَرِ من التَّبليغ، والهِجرةِ عن قومِهِ قبلَ الإذنِ لهُ بذلك، ولذا كان الأسلوبُ القرآنيُّ يذكرُ هذا النَّبيَّ الكريم باسمِهِ العلَم عند إرادةِ التَّكريمِ والتَّفخيم، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٣٩﴾ [الصّافات: 139]، فإن أرادَ الإشارةَ إلى ما حلَّ به نتيجةَ العجَلة والضَّجَر؛ ذكرَهُ بالوصفِ اللَّقبيِّ، قال تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧﴾ [الأنبياء: 87].

لا تَكُن مُناديًا مِن كَرْبِ الضَّجَرِ بَلْ نادِ وقتَ السَّحَرِ

دلالةُ الموقعِ الإعرابيِّ لـ﴿إِذۡ﴾:

عبَّر النَّظمُ القرآنيُّ بـ﴿إِذۡ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ﴾؛ للدَّلالة على الظَّرفِ الماضي؛ فالنَّهيُ مُسلَّطٌ على كونِ حالِ النَّبيِّ ﷺ مثلَ حالِ ذلك النَّبيِّ عليه السلام مُقيَّدًا بظرفٍ ماضٍ خُصِّص بالنِّداء وطَلَبِ الغَوثِ والإعانةِ بعدَ الوقوعِ في الكَربِ نتيجةَ التَّعجُّل والضَّجَر، فيكونُ الظَّرف منصوبًا على الحاليَّة مُتعلِّقًا بـ(الاستقرار) المحذوفِ وجوبًا، وليس ظرفًا للفعلِ ﴿تَكُن﴾[1]؛ إذ يَلزمُ منه نهيُ النَّبيِّ ﷺ أنْ يكونَ طالبًا للعَونِ مثلَ يونس عليه السلام وليس ذلك مُرادًا، بل المرادُ النَّهيُ عنِ الاتِّصاف بتلك الحالةِ الَّتي نادى فيها يونس، وهي حالةُ العَجَلة التي ألجأتْه إلى طلبِ الغوث والنُّصرة، فالعامِلُ في ﴿إِذۡ﴾ مَعنَى قَوْلِهِ: ﴿كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ﴾، يُريدُ: (لا تَكُنْ كَصاحِبِ الحوتِ حالَ نِدائِهِ)، وذلك لِأنَّهُ في ذَلِكَ الوَقْتِ كانَ مَكْظومًا، فَكَأنَّهُ قيلَ: (لا تَكُنْ مَكْظومًا، ولا يَكُنْ مِنْكَ ما يُلجِئُك

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 22/ 119.

إلَى مِثْلِ نِدائِهِ)[1]، والحاصلُ: أنَّ النَّهيَ عن مُشابهةِ حالك بحالِهِ وقتَ ندائه، وتلك الحالُ حالةُ ضجَرٍ ومُغاضبةٍ أوْ حالةُ استغاثةٍ بعدَ كربٍ وشدَّةٍ، وليس النَّهي عن المشابهةِ بالتَّضرُّعِ والإنابةِ فحسبُ.

دلالةُ الفعلِ الماضي ﴿نَادَىٰ﴾ صيغةً ومادَّةً:

من قاعِ الحوت والبَحر نداءٌ بالاستغفارِ عمّا صدَرَ مِن أمْر

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بالفعلِ الماضي ﴿نَادَىٰ﴾، في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ﴾؛ للدَّلالة على وقوعِ النِّداء في زمنِ الماضي على سبيلِ التَّحقُّقِ والحصول، وأنَّ ذلك الواقعَ أمرٌ مقطوعٌ بِهِ لا سبيلَ للرَّدِّ أوِ الشَّكِّ فيه، واختيرتْ مادَّةُ النِّداءِ دونَ (الدُّعاء)؛ لما في النِّداء من صوتٍ قويٍّ، بخلافِ الدُّعاءِ الَّذي قد يكونُ سرًّا لا جهرًا، وفي ذلك تصويرٌ لشدَّةِ الحاجةِ وعظيمِ الافتقار حتَّى صارَ في قاعِ الحوتِ والبحرِ يُنادي بأعلى صوتِهِ مُستغيثًا طالبًا للعَونِ والإنقاذ.

دلالةُ (الواوِ) والغرضُ منها في ﴿وَهُوَ﴾:

بيانُ هَيئةِ المُنادي لتصويرِ دَرَجةِ الاحتياج

عبَّر النظمُ الكريم بـ(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَكۡظُومٞ﴾؛ للدَّلالة على الحالِ، فيكونُ النِّداءُ مُتقيِّدًا بحالةِ الكَظْم والغيظِ والغمِّ والكربِ والحبسِ داخلَ الحوت والبَحر، وبذلك يتقيَّدُ نداؤُهُ بتلك الحالةِ الفَظيعة الَّتي يكون فيها العبدُ بأمسِّ الحاجة وأشدِّ الافتقار إلى النُّصرة والعَون، فالغرضُ من التَّقييدِ بيانُ حالِ يونسَ عليه السلام وقتَ النِّداء، وتقييدُ ندائه بتلك الحالة وذلك الوَضْعِ.

دلالةُ الجُملةِ الاسميَّة ﴿وَهُوَ مَكۡظُومٞ﴾:

تقييدُ النِّداء بالكَظْم موضِّحٌ لعِلَّةِ النَّهي عنِ المُشابهةِ في النَّظْم

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بالجملةِ الاسميَّة في قولِهِ تعالى: ﴿وَهُوَ مَكۡظُومٞ﴾؛ للدَّلالة على الثَّبات؛ لأنَّ مَن كانَ في بطنِ الحوت لا يُرجى لهُ فِكاكٌ من ذلك الهَلاك، ففائدةُ التَّعبير بها بيانُ عظيم قُدرة اللّٰه تعالى على الإنقاذِ من أشدِّ حالات اليأسِ الَّتي لا يُتوقَّعُ فيها نَجاة، قالَ ابن عاشور: "وجيءَ بِهَذِهِ الحالِ جُمْلَةً اسميَّةً؛ لِدلالَتِها على

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 616، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 105.

الثَّباتِ، أي: هو في حَبْسٍ لا يُرْجَى لِمِثْلِه سَراحٌ، وهذا تَمْهيدٌ لِلامْتِنانِ عليه بِالنَّجاةِ مِنْ مِثْلِ ذَلِكَ الحَبْسِ"[1]، ووقعت الجملةُ الاسميَّةُ حالًا لتقييدِ حالةِ النِّداء، فيُتقيَّدُ بها النَّهيُ عن مُشابهةِ حالِ النَّبيِّ ﷺ لحالِ النَّبيِّ يونُس عليه السلام؛ إذ قيدُ القيدِ قيدٌ آخرُ موضِّحٌ لعِلَّةِ النَّهي عن المُشابهة، قال الهرريُّ: "والجملةُ حالٌ من فاعلِ ﴿نَادَىٰ﴾، وعليها يدورُ النَّهي؛ لأنَّها عبارةٌ عن الضَّجرة والمُغاضبة المذكورةِ صريحًا في قوله: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا﴾ [الأنبياء: 87] لا على النِّداء؛ فإنَّه أمرٌ مُستحسَنٌ، ولذلك لم يُذكرِ المُنادى"[2].

دلالةُ ﴿مَكۡظُومٞ﴾ مادَّةً وصيغةً:

أثرُ المَعنى اللُّغويِّ في الإسنادِ الحقيقيِّ والمَجازيِّ

عبَّر النَّظمُ الكريم بصيغةِ اسم المفعولِ ﴿مَكۡظُومٞ﴾، في قولِه تعالى: ﴿إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ﴾؛ إمّا للدَّلالة بمادَّته على المَحبوس؛ إذِ الكظْمُ هو الحبسُ للشَّيءِ عنِ الخُروج، فيقولونَ: يكظِمُ غيظَه، أي: يَحبِسُهُ، فـ: "المَكْظومُ: المَحْبوسُ المَسْدودُ عَليه، يُقالُ: كَظَمَ البابَ: أَغْلَقَهُ، وكَظَمَ النَّهْرَ؛ إذا سَدَّهُ، والمعنى: نادَى في حالِ حَبْسِه في بَطْنِ الحوتِ[3]، وبناءً على هذا التَّفسيرِ فالصّيغةُ مستعملةٌ على سبيلِ الإسنادِ الحقيقيِّ، أوْ للدَّلالة على الغيظ والحُزن والنَّدَم، فيكون مَعدولًا عن (كاظم) إلى ﴿مَكۡظُومٞ﴾ تجوُّزًا للمُبالغة، حتّى إنَّه من شِدَّةِ صُدورِ الحُزن منه وقعَ عليه، فيكونُ في الإسناد مجازٌ عقليٌّ لعلاقةِ المفعوليَّة، كقولِهم: (سيلٌ مُفعَمٌ)، وهو فاعِمٌ، قال الهرريُّ: "﴿وَهُوَ مَكۡظُومٞ﴾، أي: غيظُهُ في صَدرِه، وحقيقةُ الكَظْم: هو الغَيَظُ والحُزنُ والنَّدَمُ، فحُمِلَ المَكظومُ عليه تجوُّزًا، وهو في الحقيقةِ: كاظِم"[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 105.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 112.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 105.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 354.

دلالةُ الفصلِ في جُملة ﴿لَّوۡلَآ﴾:

بيانُ غايةِ التَّحذير بقبولِ الرَّبِّ أوبةَ العبدِ الفقير

فصلَ النَّظمُ الكريمُ قولَه تعالى: ﴿لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ عمّا قبله؛ لأنَّه: "استِئْنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عَنْ مَضمونِ النَّهْيِ مِنْ قَوْلِه: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ﴾ إلى آخره؛ لأنَّهُ يَتَضَمَّنُ التَّحْذيرَ مِنَ الوُقوعِ في كَرْبٍ مِنْ قَبيلِ كَرْبِ (يونُسَ)، ثُمَّ لا يَدْري كَيْفَ يَكونُ انفراجُهُ"[1]، فجاءَ بيانًا للسُّؤالِ المقدَّرِ عن كيفيَّةِ الانفراجِ ووقوعِه، وذلك بقَبولِ الرَّبِّ نداءَ العبدِ الفَقيرِ وتضرُّعِهِ إليه.

معنى ﴿لَّوۡلَآ﴾ والغرضُ منها:

انتفاءُ النَّبذِ بالعَراءِ لوُجودِ التَّوبةِ والدُّعاء

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بالحرفِ ﴿لَّوۡلَآ﴾، في قولِه تعالى: ﴿لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ﴾؛ للدَّلالةِ على امتناعِ الجوابِ لوُجودِ الشَّرط، فقدِ امتنعَ النَّبذُ بالعَراء حالةَ كونِه مَذمومًا لوجودِ النِّعمة التي تداركَتْه، وأنقذَتْهُ من محنتِه، وفائدةُ التَّعبيرِ بها بيانُ كرامةِ التَّسبيح للهِ تعالى، والنِّداءُ بالثَّناءِ عليه عندما تَدْلَهِمُّ الظُّروفُ، وتتغيَّرُ الأحوال.

دلالةُ ﴿أَن﴾ والغرضُ منها، وفائدة التَّعبير بالمصدر:

التَّوكيدُ والقَطْعُ بالحُصول يَدُلّانِ على تعظيمِ ذلك الرَّسول

عبَّر النَّظمُ الكريم بـ﴿أَن﴾ في قولِه تعالى: ﴿لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ﴾؛ إمّا للدَّلالةِ على التَّوكيدِ؛ لكونِها مخففَّةً منَ الثَّقيلة، واسْمُها ضَميرُ شَأْنٍ مَحْذوفٌ، وجُمْلَةُ ﴿تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ خَبَرُها[2]، فيكونُ توكيدًا لحُكمِ الخبرِ؛ ردًّا على مَن يَشُكُّ بحُصولِ تلك النِّعمةِ الرَّبّانيَّةِ له، وإمّا للدَّلالة على المصدريَّة؛ لكونِها سابكةً مع مدخولِها مَصدرًا مؤوَّلًا، والتَّقديرُ: (ولولا تداركُ نعمةٍ من ربِّه حاصلٌ)[3]، وفائدةُ التَّعبيرِ بالمصدرِ المُؤوَّل دون الصَّريحِ إفادةُ الوقوعِ على سبيل القطعِ بالحُصول؛ لكونِ الفعل ماضيًا.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 105، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/ 19.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 105.

(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 113.

دلالةُ التَّنكيرِ في ﴿نِعۡمَةٞ﴾:

التَّنجيةُ من الهَلاكِ التّامِّ نعمةٌ تليقُ بذي الجَلالِ والإكرام

عبَّر النَّظمُ الكريم بلفظِ ﴿نِعۡمَةٞ﴾ منكَّرةً، في قولِه تعالى: ﴿لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ﴾؛ للدَّلالة على التَّعظيم والتَّفخيم لشأنِ تلك النِّعمة التي أدركَتْهُ؛ إذ كان في ظُلماتِ البَحر داخلَ جَوفِ الحوت، قال ابنُ عاشور: "وَتَنْكِيرُ ﴿نِعۡمَةٞ﴾ لِلتَّعْظيمِ؛ لِأَنَّها نِعْمَةٌ مُضاعَفَةٌ مُكَرَّرَةٌ"(1).

دلالةُ (النِّعمة) بينَ المعنى المصدريِّ واسمِ المفعول:

إنعامُ الجَليل لا يَسَعُهُ إدراكُ العبدِ الضَّئيل

يحتملُ لفظُ ﴿نِعۡمَةٞ﴾ في قولِه تعالى: ﴿لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أنْ يكون مصدرًا بمعنى الإنعام والإكرام، فيُفيد أنَّ عينَ الإنعام وحقيقتَه قد أدركاهُ، ويحتمل أنْ تكون بمعنى اسم المفعول، أي: المُنعَم به، وهو الشَّيء الذي وقعَ عليه، فيصدقُ بنعمةِ التَّنجية من بطنِ الحوت، كما يصدُقُ بنعمةِ التَّوبة والتَّوفيقِ للإنابة، قال الرّازيُّ: "المُرادُ مِنْ تِلْكَ (النِّعْمَةِ) هوَ أنَّهُ تعالى أنْعَمَ عليه بالتَّوْفيقِ لِلتَّوْبَةِ، وهذا يَدُلُّ على أنَّهُ لا يَتِمُّ شَيْءٌ مِنَ الصّالِحاتِ والطّاعاتِ إلّا بِتَوْفيقِهِ وهِدايَتِهِ"(2).

دلالةُ الاستعارةِ المكنيَّةِ في ﴿تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ﴾:

لَحاقُ النِّعمة بإدراكِ صاحِبِ الغُمَّة

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بالاستعارةِ المَكنيَّة في قولِه تعالى: ﴿لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ﴾؛ إذ شَبَّهَ النِّعمةَ بشيءٍ يُحاوِلُ الإدراكَ واللَّحاقَ بـ(يونسَ) عليه السلام، ثمَّ حذفَهُ، وأبقى من خواصِّهِ ولوازمِه فعلَ (التَّدارُك)، وأسندَهُ إلى (النِّعمة) تخييلًا، والغرضُ من الاستعارةِ إظهارُ النِّعمة الرّبّانيَّة، وهي تلحَقُ يونسَ عليه السلام مسرعةً؛ لتُنجدَهُ ممّا هو فيه من كَربٍ عظيم، وتحاولُ الوصولَ إليه، وقد بلغَ منه الجهدُ كلَّ مَبلَغٍ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 107.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 617.

دلالةُ الجارِّ والمجرور ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾:

تحديدُ مصدَرِ النِّعمة كاشِفٌ عن جليلِ المِنَّة

نعتَ النَّظمُ الكريم النَّكرةَ بشِبه الجملةِ، في قولِه تعالى: ﴿لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، أي: (كائنةٌ مِن ربِّه)؛ للدَّلالة على التَّقييدِ والتَّخصيص وتحديدِ المَصدر؛ إذ ﴿مِّن﴾ دالَّةٌ على أنَّ تلك النِّعمة تبتدئُ الصُّدورَ من الله تعالى؛ لتصلَ إلى يونُس ﵇، واقتصَرَ النَّظمُ على ذِكرِ مَنبعِ صُدورِ النِّعمة دونَ ذِكرِ نِهايتها؛ لأنَّ الغرضَ بيانُ تعظيمِها وتشريفِها بكونها مقضيَّةً من ذي الجَلال والإكرام، وقال البقاعيُّ في بيانِ فائدةِ النَّعت: "أي: مِن ربِّه الَّذي أرسلَهُ وأحسنَ إليهِ بإرسالِه وتهذيبِه للرِّسالة والتَّوبةِ عليهِ والرَّحمة له"(1).

دلالةُ (اللّام) في ﴿لَنُبِذَ﴾:

دلالـةُ الـرَّبـطِ والـتَّـوكـيـد بـينَ الامـتـنـاعِ والوُجودِ الوَثيق

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بـ(اللّام) في قولِه تعالى: ﴿لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ﴾؛ للدَّلالة على جوابِ الشَّرط؛ إذ تقعُ (اللامُ) في الجواب دالَّةً على تأكيدِ امتناعِ الجوابِ بوُجودِ الشَّرط، وبذلك يتحقَّقُ المعنى، ويتأكَّدُ.

دلالةُ الفعلِ المبنيِّ للمفعول (نُبِذَ) مادَّةً وصيغةً:

عـدمُ إدراكِ النِّعمةِ يُؤدّي إلى النَّبذِ معَ المَذَمَّة

عبَّر النَّظمُ الكريم بالفعلِ الماضي المبنيِّ للمفعول (نُبِذَ)، في قوله تعالى: ﴿لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ﴾؛ للدَّلالة بمادَّتِه على الطَّرح والتَّرك طَرْحًا فيه شيءٌ من التَّرفُّع والتَّنزُّه عن المنبوذِ معَ استنقاصٍ له، ويدلُّ بصيغته على الاهتمامِ بالحدث دونَ التَّركيز على فاعلِه، سواءٌ كان الحوتَ أوِ البحرَ، لكنْ على الاحتمالِ الأوَّلِ يكونُ الإسنادُ حقيقيًّا، وعلى الثّاني يكونُ مَجازًا عقليًّا؛ والعالَمُ بأسرِه خاضِعٌ للأمرِ الإلهيِّ، ومقصد الخطابِ بيانُ أثرِ النِّعمة ووجودِها على امتناعِ وقوعِ الجواب، وذلك يتحقَّقُ بجعلِ الحدث محورًا رَئيسًا دون الاهتمامِ بذِكر الفاعل؛ ليكونَ درسًا لعدمِ العَجلة في الدَّعوة وتركِ الصَّبر عند التَّبليغِ لها.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 332.

سرُّ التَّعدية بـ(الباءِ) في ﴿بِٱلۡعَرَآءِ﴾:

أفادتِ (الباءُ) ملاصقةً قويَّة بينَ المَنبوذ والعَراء لتصويرِ حالِه الضَّعيفةِ

عدّى النَّظمُ الكريم فعلَ (النَّبذ) بـ(الباءِ)، في قولهِ تعالى: ﴿لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ﴾؛ للدَّلالة على التَّعديةِ إلى المكان، فيُفيدُ أنَّ الحوتَ أوِ البحرَ طرحَهُ على أرضِه، واجتازَه بالرُّجوعِ إلى مَكمنِه، ولذا لم يُعَدِّه بالحرف (في)؛ لما يدلُّ عليه منَ الهويِ للمَطروح داخلَ المكانِ فحسب، أوْ بـ(على) لما فيها من استعلاءٍ فقط، وأمّا (الباءُ)؛ فإنَّها تدلُّ على أنَّ النّابذ ألقاهُ على الأرض، وعادَ إلى مكانِه؛ لما فيها من مَعنى الاجتيازِ للشَّيءِ المَنبوذ، وقد أفادتِ (الباءُ) ملاصقةً قويَّة بينَ المَنبوذ والعَراء؛ لتصويرِ حالِه الضَّعيفةِ بعدَ خُروجه من الحوتِ.

دلالةُ التَّعريف بـ(أل) في لفظ ﴿بِٱلۡعَرَآءِ﴾:

الخروجُ منَ الحوت للتَّركِ في أرضٍ بلا حُقوق

عرَّفَ النَّظمُ الكريم لفظَ ﴿بِٱلۡعَرَآءِ﴾ بـ(أل) في قولهِ تعالى: ﴿لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ﴾؛ للدَّلالة على العهدِ الذِّهنيِّ المُتحقَّق في بعضٍ مبهمٍ، وذلك البعضُ هو أرضٌ فضاءٌ لا نباتَ فيها ولا بناء، وتلك أعلى درجاتِ النَّبذ الاستنقاصيِّ؛ وذلك لحاجةِ الخارج مِن في الحوت إلى أرضٍ مَعمورةٍ تحميه أوْ نباتٍ من لهيبِ الشَّمسِ يقيه، وجوَّز الرّازيُّ أن يكونَ (العراءُ) هو أرضَ القيامة، فقال: "لَوْلا هَذِهِ النِّعْمَةُ؛ لَبَقِيَ في بَطْنِ الحوتِ إلى يَوْمِ القيامَةِ، ثُمَّ نُبِذَ بِعَراءِ القيامَةِ مَذْمومًا، ويَدُلُّ على هذا قَوْلُهُ: ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ١٤٣ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٤٤﴾ [الصّافّات: 143 - 144]، وهذا كما يُقالُ: عَرْصَةُ القيامَةِ وعَراءُ القيامَةِ"(1).

دلالةُ (الواو) في ﴿وَهُوَ﴾:

النَّبذُ الكاملُ بالإهمالِ والذَّمِّ الوابل

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بـ(الواو) في قولهِ تعالى: ﴿لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ﴾؛ للدَّلالة على الحالِ، والغرضُ من الحاليَّةِ تقييدُ حَدَثِ النَّبذ بحالةِ المَذمَّة، وبيانُ هيئةِ المَنبوذ بكونِه مَذمومًا مُعابًا غيرَ مُكرَّمٍ ولا

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 617.

مَمدوح، وبذلك القيدِ يكونُ النَّبذ في أعلى درجاتِ الإهمال للمَنبوذ، فقد تُرِكَ على أرضٍ بلقَعٍ في حالةِ مَذمَّةٍ واستنقاصٍ قوليٍّ وفعليٍّ.

دلالةُ تقييدِ جَوابِ الشَّرط بالجُملةِ الحاليَّة ﴿وَهُوَ مَذۡمُومٞ﴾:

قيَّدَ النَّظمُ الكريم جوابَ الشَّرط بالجملةِ الحاليَّة، في قولِهِ تعالى: ﴿لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ﴾، والغرضُ منَ التَّقييد تحديدُ أنَّ النَّبْذ كانَ مَصحوبًا بحالةِ المَذمَّة ومُقترنًا بها؛ للاحترازِ عن مُصاحبةِ المدحِ حالةَ الطَّرح والتَّرك، ولمّا كان جوابُ شرطِ ﴿لَّوۡلَآ﴾ مُمتنعًا لوجودِ الشَّرط وتحقُّقِه، وهو تداركُ نعمةِ ربِّه لهُ بالتَّوبةِ والصَّفح والمُسامحة؛ يكونُ الجوابُ وقيدُهُ غيرَ مُتحقِّقَينِ معًا، أي: لوجودِ النِّعمة الرَّبّانيَّة امتنعَ الطَّرحُ بالعراء المُقترنُ بالذَّمِّ له، قال الرّازيُّ: "تَقْديرُ الآيَة: لَوْلا هذه النِّعْمَةُ؛ لَنُبِذَ بِالعَراءِ مَعَ وصْفِ المَذْمومِيَّة، فَلَمّا حَصَلَتْ هَذِهِ النِّعْمَةُ؛ لا جَرَمَ لَمْ يوجَدِ النَّبْذُ بِالعَراءِ مَعَ هَذا الوَصْفِ؛ لِأنَّهُ لَمّا فَقَدَ هَذا الوَصْفَ؛ فَقَدْ فَقَدَ ذَلِكَ المَجْموعَ"(1)، وهذا التَّوجيهُ هو المَقبولُ دونَ ما ذهبَ إليه الزَّمخشريُّ من أنَّه نُبِذَ بالعراءِ لكنْ معَ عدمِ المذموميَّة، وجَعْلُ مَحطِّ الامتناعِ الجملةَ الحاليَّة دونَ النَّبذ، فقال: "وقد اعتُمِدَ في جوابِ ﴿لَّوۡلَآ﴾ على الحالِ، أعني قوله: ﴿وَهُوَ مَذۡمُومٞ﴾، يعني: أنَّ حالَهُ كانت على خِلافِ الذَّمِّ حينَ نُبِذَ بالعَراء، ولولا توبتُهُ؛ لكانتْ حالُهُ على الذَّمِّ"(2)، وهو ضعيفٌ؛ لأنَّ (النَّبذَ) في حَدِّ ذاته - فضلًا عن كونِهِ بالعَراء - لا ينسجمُ معَ مَن تداركَتْهُ النِّعمةُ الرَّبّانيَّة، وكونُ الحالِ محطَّ الامتناع دونَ الحالِ وعاملِها تحكُّمٌ محضٌ، وشايَعَهُ على ذلك الطَّيبيُّ والقاضي البيضاويُّ بقوله: "الحالُ هو الَّذي اعتمدَ عليه الجوابُ؛ لأنَّها المنفيَّة دونَ النَّبذ"(3)، وإنَّما قصَروا حالةَ الامتناعِ على الحالِ دونَ النَّبذ بالعَراء؛ لأنَّهم توهَّموا أنَّ النَّبذ تنجيةٌ، وهي نعمةٌ، لكنَّ لفظَ (النَّبذ) لا يليقُ بمَن أدركَتْهُ النِّعمة، ولذا فإنَّه أُخرجَ من الحوت مُعزَّزًا مكرَّمًا، فوُضِعَ على أرضٍ، وأُنبتت عليه اليقطينُ إكرامًا معَ عدمِ الذَّمِّ، وهو اللّائقُ بكرامةِ الأنبياء والمُرسَلين، لهم من اللّه أزكى الصَّلوات وأتمُّ التَّسليمات.

ولابنِ عاشور تحليلٌ آخرُ لتركيبِ النَّظم تخلُّصًا من ذلك التَّحكُّم أبانَ عنهُ بقوله: "ويَلوحُ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 617.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 596.

(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 603، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/ 19.

امتناعُ كلٍّ من النَّبذ والمَذمَّة لوجودِ النِّعمة والمَرْحَمةِ

لي في تَفْصيلِ النَّظْم وجْهٌ آخَرُ، وهوَ أنْ يكونَ جوابُ ﴿لَّوۡلَآ﴾ مَحْذوفًا دَلَّ عليه قَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ مَكۡظُومٞ﴾ مع ما تُفيدُهُ صيغَةُ الجُمْلَةِ الاسْميَّةِ مِنْ تَمَكُّنِ الكَظْم، فتِلْكَ الحالَةُ إذا اسْتَمَرَّتْ؛ لَمْ يَحْصُلْ نَبْذُهُ بالعَراءِ، ويَكونُ الشَّرْطُ بـ ﴿لَّوۡلَآ﴾ لاحِقًا لجُمْلَةِ: ﴿إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ﴾، أي: لَبَقيَ مَكْظومًا، أي: مَحْبوسًا في بَطْنِ الحوتِ أبَدًا، وهو معنى قَوْلِهِ في سورَةِ الصّافّات: ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ١٤٣ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٤٤﴾ [الصافات: 143 - 144]، وتَجْعَلُ جُمْلَةَ: ﴿لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ﴾ استِئْنافًا بيانيًّا ناشِئًا عَنِ الإجْمالِ الحاصِلِ مِنْ مَوْقِعِ ﴿لَّوۡلَآ﴾، و(اللّامُ) فيها لامُ القَسَمِ للتَّحْقيقِ؛ لِأنَّهُ خارِقٌ لِلعادَةِ فَتَأْكيدُهُ لِرَفْعِ احْتِمالِ المَجازِ، والمَعْنَى: لَقَدْ نُبِذَ بالعَراءِ، وهوَ مَذمومٌ"[1]، والَّذي يبدو أنَّ فيه تكلُّفًا ظاهرًا، وأظهرُهُ جَعْلُ اللّامِ في ﴿لَنُبِذَ﴾ للقَسَم.

دلالةُ الإدماج في ﴿لَنُبِذَ﴾ ﴿مَذۡمُومٞ﴾:

أثـرُ التَّوبة في إحلال الفضلِ والنِّعمة

أدمجَ النَّظمُ الكريم ذِكرَ التَّوبةِ وفضلِها والضَّراعةِ وأثرِها مع ذِكرِ إنجاءِ اللّه تعالى نبيَّهُ يونُس عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد حالةِ الكَربِ الشَّديد، فقال تعالى: ﴿لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ﴾، قال ابنُ عاشور: "وأُدْمِجَ في ذَلِكَ فَضْلُ التَّوْبَةِ والضَّراعَةِ إلَى اللّه، وأنَّهُ لَوْلا تَوْبَتُهُ وضَراعَتُهُ إلى اللّه، وإنْعامُ اللّه عليهِ نِعْمَةً بَعْدَ نِعْمَة؛ لَقَذَفَهُ الحوتُ مِنْ بَطْنِهِ مَيِّتًا، فَأَخْرَجَهُ المَوْجُ إلَى الشّاطِئ؛ فَلَكانَ مُثْلَةً لِلنّاظِرينَ، أو حَيًّا مَنْبوذًا بالعَراءِ لا يَجِدُ إسْعافًا، أوْ لَنَجا بَعْدَ لَأْيٍ، واللّه غاضِبٌ عَلَيْه، فَهوَ مَذْمومٌ عِنْدَ اللّه، مَسْخوطٌ عليه، وهيَ نِعَمٌ كَثيرَةٌ عليه؛ إذْ أنْقَذَهُ مِنْ هَذِهِ الوَرَطاتِ كُلِّها إنْقاذًا خارِقًا لِلعادَة، وهذا المَعْنَى طويَ طَيًّا بَديعًا، وأُشيرَ إليهِ إشارَةً بَليغَةً بِجُمْلَةِ: ﴿لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ﴾"[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 106.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 106.

دلالةُ ﴿مَذۡمُومٞ﴾ مادَّةً وصيغةً:

المُذنِبُ ذو العَيب مذمومٌ بلا رَيب

عبَّر النَّظمُ الكريمُ بلفظِ اسمِ المَفعول ﴿مَذۡمُومٞ﴾، في قولِه تعالى: ﴿لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ﴾؛ للدَّلالةِ بصيغتِه على وقوعِ الذَّمِّ عليه على سبيلِ الثَّباتِ والاستمرار؛ لأنَّ مَن لم يوفَّقْ للتَّوبة فإنَّه يُنبَذُ، ويُذَمُّ ذمًّا ثابتًا، ولذا عُبِّرَ عنه بصيغةِ الاسم، ويدلُّ بمادَّته إمّا على معنى: المُذنِب؛ لأنَّ الذَّنبَ يَقتَضي الذَّمَّ في العاجِلِ والعِقابَ في الآجِلِ، فيكونُ مَجازًا مُرسَلًا من تسميةِ الشَّيءِ بما يَؤولُ إليه، وهو معنى قولِه في آيةِ الصّافّات: ﴿فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٞ ١٤٢﴾ [الصّافات: 142]، وإمّا بمَعْنَى العَيْبِ، وهو كَوْنُه عاريًا جائعًا، فَيَكونُ في معنى قولِه: ﴿۞فَنَبَذۡنَٰهُ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٞ ١٤٥﴾ [الصّافات: 145]؛ فَإنَّ السُّقْمَ عَيْبٌ أيْضًا"[1].

دلالةُ الجُملة الاسميَّة ﴿وَهُوَ مَذۡمُومٞ﴾:

مَن لَم تُدرِكْهُ العِنايةُ؛ استمرَّتْ، وثبتتْ لهُ الغواية

عبَّر النَّظمُ الكريم بالجُملة الاسميَّة في قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ مَذۡمُومٞ﴾؛ للدَّلالة على ثُبوتِ الذَّمِّ ودَوامِه للمُسنَدِ إليه؛ لأنَّ مَن لم تُدرِكْه نعمةُ ربِّه وعنايتُه ورحمتُه؛ فإنَّه يستمرُّ ذَمُّه، ويدومُ قَدحُه.

دلالةُ (الفاءِ) في ﴿فَٱجۡتَبَٰهُ﴾ والغرضُ منها:

تَفرَّعَ على التَّخليةِ إثباتُ التَّحلية

عبَّر النَّظم الكريمُ بـ(الفاءِ) في قولِه تعالى: ﴿فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾؛ للدَّلالةِ على عطفِ المُثبَتِ على المَنفيِّ؛ إذ عُلِمَ من ﴿لَّوۡلَآ﴾ أنَّ الله تعالى لم يَنبِذْهُ بالعَراء، ولم يَذُمَّهُ؛ لوجودِ النِّعمة المُحيطةِ به من ربِّه الكريم، وبعدَ التَّخلية بالنَّفي لساحتِه؛ أثبَتَ له النَّظمُ بـ(الفاءِ) التَّفريعيَّة على ذلك النَّفي الاصطفاءَ والاختيارَ؛ ليكونَ من عبادِ الله المُقرَّبين، قال ابنُ عاشور: "فُرِّعَ على هذا النَّفي الإخبارُ بأنَّ الله اجْتَباهُ، وجَعَلَهُ مِنَ الصّالِحينَ"[2]، في حين جعلَ الهرريُّ قولَه:

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 107.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 107.

﴿فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ مَعطوفًا على مُقدَّر، أي: (فَتَدارَكَتْهُ نعمةٌ ورحمةٌ مِن ربِّه، فاصطفاهُ، وجمَعَهُ إليه)[1].

دلالةُ الفعلِ ﴿فَٱجۡتَبَٰهُ﴾ مادَّةً وصيغةً:

تلاحُقُ التَّوبات والتَّسبيحات أفرَزَتْ تواليَ الانتخاباتِ والاجتباءات

عبَّر النَّظمُ الكريم بالفعلِ الماضي في قولِه تعالى: ﴿فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾؛ للدَّلالةِ بمادَّتِه على الاصطفاءِ والانتخاب؛ لأنَّ الجَبْيَ هو الجَمْعُ بقيدِ الانتخاب، وسُمّيَ مَن يجمعُ المالَ الزّكويَّ جابيًا؛ لأنَّه يجمَعُ المالَ، وينتخبُ أوسطَه وأعدَلَه، فيكونُ الاجتباءُ انتخابًا واصطفاءً واختيارًا إلهيًّا، كما تُفيدُ صيغةُ (الافتعال) دلالةَ المُبالغة والحُصول بطريقِ التَّحوُّلِ التَّدريجيِّ حتّى كانَ منَ المُصطفَيْنَ الأخيار.

دلالةُ الإضافةِ في ﴿رَبُّهُۥ﴾:

التَّشريفُ والتَّربيةُ لِمَن تابَ وكانَ ذا تَبصِرة

أضافَ النَّظمُ الكريم لفظَ (الرَّبِّ) إلى ضميرِ الغائبِ العائدِ إلى (يونسَ) عليه السلام في قولِه تعالى: ﴿فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾؛ للدَّلالة على التَّشريفِ للمُضاف إليه؛ إذِ اكتسبَ مرجعُ الضَّميرِ شَرَفًا وفخامةً من نسبةِ الرَّبِّ لهُ إليه؛ إذِ الأشياءُ إنَّما تعظُمُ بانتسابِها لِمَولاها الغنيِّ، كما دلَّ المضافُ على علَّةِ الاجتباء؛ إذِ الرَّبُّ هو المُربّي والمُكمِّل للآخرين؛ فيكونُ ذلك تعليلًا للاجتباءِ، ودالًّا على تربيةٍ عميقةٍ لذلك المُجتبَى.

دلالةُ (الفاءِ) في ﴿فَجَعَلَهُۥ﴾:

الصَّيرورةُ من الصّالحين بالتَّوبةِ لربِّ العالَمين

عطفَ النَّظمُ الكريم بـ(الفاء) قولَه تعالى: ﴿فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ على ما قبلَه؛ للدَّلالة على التَّفريعِ والتَّسبُّب؛ إذ صيرورتُهُ من الصّالحين مُسبَّبَةٌ عن الاجتباءِ والاصطفاءِ الإلهيِّ، وفي ذلك إشارةٌ إلى إكرام ذلك النَّبيِّ العظيم بعد أنْ تعرَّضَ لابتلاءٍ شديد، لكنَّه استغفرَ ربَّهُ، وسبَّح له، وتاب، حتّى قرَّبَهُ، وجعلَه من عبادِه الصّالحين.

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 114.

دلالةُ الفعلِ الماضي (جَعَلَهُ):

الانتقاءُ منَ العامَّة والإدخالُ في الخاصَّة

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بالفعلِ (جَعَلَ)، في قولِه تعالى: ﴿فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ للدَّلالة على التَّصييرِ والتَّحويل؛ إذ فعلُ (الجَعْل) يدلُّ على التَّقديرِ والخَلقِ والإيجادِ والتصيير، فقد صيَّره من الصّالحين، وتلك نعمةٌ أخرى بعدَ نعمةِ الاجتباء، فكما اختارَه، واصطفاهُ من بينِ عامَّةِ النّاس رسولًا جعلَه في ديوانِ الصّالحين، فهو تكريمٌ بعد تكريم، تمثَّلَ التَّكريمُ الأوَّل بالانتقاءِ والاستخراجِ، والتَّكريمُ الثّاني بالإدخال.

دلالةُ ﴿مِنَ﴾ والغرضُ منها:

عبَّر النَّظمُ الكريمُ بحرفِ الجرِّ ﴿مِنَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ للدَّلالة على التَّبعيض، فقد صيَّرَهُ ربُّه بعدَ الاجتباءِ صالِحًا من الصّالحينَ وواحدًا من جُملتهم الطَّيّبين.

دلالةُ التَّعريفِ بـ (أل) في ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾:

علَّةُ الاجتباءِ والاختيار كونُهُ من الصّالحينَ الأخيار

عبَّر النَّظمُ الكريم بلفظِ ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ مُعرَّفًا بـ(أل)، في قولِه تعالى: ﴿فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ للدَّلالة على الجنسِ الصّادق بالاستغراقِ الكلّيِّ، وفيهِ إشارةٌ إلى أنَّ الصّالحين معروفونَ بحقيقتِهم القائمةِ على الصَّلاح والإصلاح ضِدَّ الفسادِ والإفساد، وهنالك إشارةٌ إلى عِلَّة الاجتباء والجَعْلِ، وهي الصَّلاح، فإنَّ صيرورتَه منهم دالَّة على اتِّصافِه بالصَّلاح.

دلالة ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

أصلُ الخير الصَّلاح، وثمرتُهُ الفَلاح

عبَّر النَّظمُ الكريم بلفظِ اسم الفاعل في قولِه تعالى: ﴿فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على الذَّوات المتَّصفة بالصَّلاح، وأُريد به دلالةُ الثُّبوتِ والدَّوام لوصفِ الصَّلاح في تلك الفئةِ من النّاس، وهم الأنبياء والرُّسُل الكرام، أي: "الَّذين رَسَخوا في رُتبةِ الصَّلاح، فَصلحوا في أنفُسِهم للنُّبوَّةِ والرِّسالة، وصلح بهم غيرُهُم"[1]، وقال

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 333.

ابن عاشور: "والمُرادُ بـ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: المُفَضَّلونَ مِنَ الأنْبياءِ، وقَدْ قالَ إبْراهيمُ عليه السلام: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ٨٣﴾ [الشُّعراء: 83]؛ وذَلِكَ إيماءٌ إلَى أنَّ الصَّلاحَ هوَ أصْلُ الخَيْرِ ورَفْعُ الدَّرَجاتِ"[1].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

النَّبذُ والقَذفُ والطَّرحُ:

النَّبذُ أخصُّ مُطلقًا من القَذفِ والطَّرح

النَّبذُ: يُلاحَظُ فيهِ تركُ الشَّيءِ، وجَعْلُهُ طريحًا في مَحلٍّ آخَر على جهةِ الذَّمِّ والاستنقاص، قال الرّاغب: "النَّبذُ: إلقاءُ الشَّيءِ وطرحُهُ لِقلَّةِ الاعتدادِ به، ولذلك يقالُ: نَبَذْتُهُ نَبْذَ النَّعلِ الخَلِقِ، قال تعالى: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ﴾ [آل عمران: 187]؛ لقِلَّةِ اعتدادِهِم به، و﴿نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ﴾ [البقرة: 100]، أي: طرَحوه لقلَّةِ اعتدادِهِم به"[2]، ولذا قال العسكريُّ: "الفرقُ بينَ (النَّبذ) و(الطَّرح): أنَّ النَّبذَ اسمٌ لإلقاءِ الشَّيءِ؛ استهانةً به واستغناءً عنه، والطَّرحُ: اسمٌ لجنسِ الفعل، فهو يكونُ لذلك ولغيرِهِ"[3]، وأمّا القذفُ؛ فهو ما يُلاحَظُ فيه مُطلَقُ الرَّمي مِن دونِ قيدِ نيَّةِ سوءٍ، والطَّرحُ: هو مُطلَقُ تبعيدِ الشَّيءِ عن نفسٍ[4].

الكَظْمُ والحَبْسُ:

الكَظْمُ أخصُّ مُطلقًا مِنَ الحَبْس

الكَظْمُ: هو ضَبطُ شيءٍ وحبسُهُ في الباطنِ عن أنْ يَبدوَ، كالحُزنِ والغَمِّ والغَيظِ والابتلاءِ، وتُستعمَلُ فيما يكونُ إظهارُهُ غيرَ مَطلوب[5]، قال ابنُ فارس: "كظَمَ أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على معنًى واحدٍ، وهو الإمساكُ والجمعُ للشَّيءِ، من ذلك الكظمُ: اجتراعُ الغَيظِ والإمساكُ عن إبدائه، وكأنَّه يَجمَعُهُ الكاظِمُ في جوفِهِ[6]، ويكونُ صفةَ حُسْنٍ عندما لا يقومُ الغاضبُ بإخراجِ غضَبِهِ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 107.

(2) الرّاغب، المفردات: (نبذ).

(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 297.

(4) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 4/ 230.

(5) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 10/ 62.

(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كظم).

وأمّا الحَبْسُ؛ فهو التَّوقيفُ في مكانٍ، أوْ على منظورٍ وبرنامجٍ مُعيَّن حتّى لا يتعدّاه[1]، ولهذا عبَّرَ بِه النَّظمُ في قولِه تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾؛ للدَّلالة على أنَّه محبوسٌ ممنوعٌ منَ الخروج، وقدِ امتلأَ بالغضَب الَّذي لا يُفَرَّجُ عنه إلّا بالتَّسبيح والنِّداء والثَّناء على اللّه تعالى.

العَراء والأرض:

العراءُ أخصُّ مطلقًا من الأرضِ

العَراءُ: المكانُ المُتَّسِعُ الَّذي لا سُترة بِه[2] مِن جدارٍ أوْ سقفٍ أوْ شجَرٍ[3]؛ لأنَّ أصلَ العَراء من العُرْيِ، وهو فُقدان السُّترة، ومِن الباب: رجلٌ عارٍ منَ اللِّباس السّاترِ لبدنِه، وفرسٌ عَريٌّ من السَّرج، وهو عَريٌّ من العيوبِ؛ إذا لم تَستُرْهُ العُيوب، فاستعمالُه في الأرضِ التي لا نباتَ فيها ولا بناءَ يسترُ الأرضَ على سبيلِ التَّجوُّزِ الاستعاريِّ.

وأمّا الأرضُ؛ فهي ما سَفَل وما يُقابِلُ السَّماء، وهو اسمُ جنسٍ يصحُّ إطلاقُهُ على كلِّ ما يُقابلُ السَّماء، فإذا أُطلِقت في مُقابل السَّماء: تشمل جميعَ ما سفَلَ من الجَماد والنَّبات والحَيوان[4]، قال تعالى: ﴿أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ [يوسف: 9]، أي: مكانًا وقطعةً من الأرض، سواءٌ كانت عَراءً أوْ غيرَ عَراء، وبهذا يظهَرُ لطفُ التَّعبير بالعَراء دونَ الأرض في قولِه تعالى: ﴿لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾.

الاجتباءُ والاختيارُ والاصطفاء:

العنصرُ المشتركُ فيها الانتخابُ، والفروقُ في الخصوصيّات والقيودِ المُلاحَظة

الاجتباءُ: هو الجمعُ بقيدِ الانتخابِ والاستخراج، يقال: جَبَيْتُ الخَراجَ؛ إذا حصَّلتُهُ، وأخرجتُهُ منْ أموالِهم، وجبيتُ المالَ؛ إذا استخرجتُهُ، وجمعتُهُ من الأموال؛ فمعناه الجبيُ بإضافةِ خصوصيَّةِ الصّيغة وهي (الافتعالُ)؛ فإنَّها تدلُّ على الدِّقَّة والامتيازِ الخاصِّ والاختيار[5].

---

(1) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 2/ 143.
(2) الفيوميّ، المصباح المنير: (عري).
(3) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 8/ 109.
(4) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 1/ 61.
(5) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 2/ 48.

وأمّا الاصطفاءُ؛ فيُلاحَظُ فيه الخلوصُ عن الكُدورة.

والاختيارُ: يُلاحَظُ فيه الرَّغبةُ إلى شيءٍ وانتخابُهُ مع تفضيلِهِ.

ولذا عبَّر النَّظمُ بالاجتباء في قولِهِ تعالى: ﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، دونَ الاصطفاءِ والاختيار؛ لأنَّ يونُس عليه السلام كان في ظرفٍ عصيبٍ، ونُجّيَ منه بالنِّعمة الرَّبّانيَّة، فيحتاجُ إلى جمعٍ بعدَ تفرُّقٍ، وتحصيلٍ بعدَ شعورٍ بالانفراد داخلَ الحوت.

﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ ۝٥١ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝٥٢﴾

[القلم: 51 - 52]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَها:

دفاعُ اللهِ عنِ الحقِّ المُبينِ إعانةٌ للصَّبرِ على الكافرين

لمّا أمرَ المولى تعالى نبيَّهُ الكريمَ ﷺ بالصَّبرِ على الدَّعوة، وعدمِ التَّعجُّل فيها والضَّجَر من المُكذبين؛ ناسبَ أنْ يُبيِّن له شدَّةَ عداوتِهم له وللقرآنِ الكريم، وأنْ يدافعَ عنهُما؛ ليكونَ ذلك إعانةً له على التَّكليفِ بالصَّبر عليهم، وأنَّ اللهَ تعالى هو الَّذي يدافعُ عن النَّبيِّ الكريمِ والقرآنِ ذي النّور المبين، قال أبو حيّان: "وَلَمّا أَمَرَهُ تعالى بِالصَّبْرِ لِما أرادَهُ تعالى، ونَهاهُ عَنْ ما نهاه؛ أخبر بِشِدَّةِ عَداوَتِهِم؛ لِيَتَلَقّى ذَلِكَ بِالصَّبْرِ، فقال: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ﴾"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَيُزۡلِقُونَكَ﴾: (زلق) أصلٌ واحدٌ يدلُّ على تزلُّجِ الشَّيءِ عَن مَقامِهِ، من ذلك الزَّلَقُ[2]، وزَلِقَتِ القَدمُ زَلَقًا (من بابِ تعِبَ): لم تَثبُتْ حتّى سقطَتْ، ويُعدّى بالألفِ والتَّشديد، زلَّقتُهُ، وأزلقتُهُ، فتزلَّقَ[3]، فهو الزَّلَّةُ والسُّقوط[4]، والمُرادُ بهِ في الآية: يَجعلونَكَ مُتنَحّيًا عنِ الثُّبوت، وساقطًا بنظَرِهِمُ الحادِّ.

2) ﴿ٱلذِّكۡرَ﴾: (ذكر) أصلانِ عنهُما يتفرَّعُ كَلِمُ الباب، الأوَّلُ: قِبالُ الأُنثى، والآخَرُ: ذكَرْتُ الشَّيءَ خِلافُ نَسيتُهُ، ثمَّ حُمِلَ عليه الذِّكرُ باللِّسان[5]، وذكرتُهُ بلساني وبقلبي، والاسمُ ذِكْرٌ، وبالكسر نصَّ عليه

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 249.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زلق).
(3) الفيوميّ، المصباح المنير: (زلق).
(4) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 4/ 330.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذكر).

جماعةٌ، وأنكرَ الفرّاء الكسرَ في القَلب، وقال: اجعَلْني على ذُكْر منك بالضَّمِّ لا غير، ويتعدّى بالتَّضعيفِ وبالألف، فيقالُ: أذكرتُهُ، وذكَّرتُهُ ما كانَ، فتذكَّرَ[1]، فهو التَّذكُّرُ في قِبالِ الغَفلةِ والنِّسيان، وهذا المَعنى أعمُّ من التَّذكُّرِ بالقلبِ أوْ باللِّسان، وقد يُطلقُ (الذِّكرُ) على ما يُذكَّرُ به مُبالغةً، فكأنَّه وجودٌ خارجيٌّ عن الذِّكر ومَظهَرٌ له، كما في (زيد عدلٌ)[2]، والمرادُ به في الآيةِ: التَّذكيرُ والتَّنبيهُ.

المَعنى الإجْماليُّ:

الاتِّهامُ بالجُنون قولٌ ساقِطٌ غيرُ مَصون

والمَعنى: إنَّهم لشدَّةِ عَداوتِهم يَنظرونَ إليك أيُّها النَّبيُّ الكريم شَزَرًا، بحيثُ يكادونَ يُزلّونَ قدمَكَ، أوْ يُهلكونَك، أوْ أنَّهم يكادونَ يُصيبونَك بالعَين، ويَقولونَ حينَما يَسمعونَ القرآنَ منهُ: إنَّك أيُّها القارئُ للقرآنِ لمصابٌ بمَسٍّ من الجِنِّ، أوْ إنَّك لمُختَلُّ العقل مُغيَّبُهُ؛ حَيرةً في أمرِهِ وتنفيرًا عنه، وما القرآنُ ولا النَّبيُّ إلّا تذكيرٌ عامٌّ لجميعِ الثَّقلينِ، لا يُدركهُ، ولا يتعاطاهُ إلّا مَن كان أكملَ النّاسِ عقلًا، وأميزَهُم رَأيًا[3].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الوصل في ﴿وَإِن﴾:

العَداوةُ السّارية مِنَ القلبِ إلى الباصِرَة

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بـ(الواو) في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ للدَّلالة إمّا على الاستئناف بذِكرِ خصلةٍ أُخرى من خِصال الكافرين؛ زيادةً على تلك الصِّفات التي اتَّصفوا بها في ذَواتهم، من قولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ﴾، إلى قوله: ﴿زَنِيمٍ﴾، أوْ تلك الَّتي صدرَتْ عنهم في قوله: ﴿قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، أوْ تلك الَّتي أضمرَها النَّظمُ من دعواهُم أنَّ لهم ما للمُسلمينَ من جنّات النَّعيم

(1) الفيوميّ، المصباح المنير: (ذكر).
(2) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 3/ 306.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 238.

على فَرضِ النَّشر والبَعث، فذكرَ هنا خصلةً تتعلَّقُ بأبصارِهم لمّا كانوا يَسمعونَ القُرآن الكريم، تلك الخصلةُ التي تدلُّ على عَداوةٍ عظيمةٍ للنَّبيِّ الكريم والذِّكر الحكيم معًا؛ إذ بيَّنَ سُبحانه بالغَ عَداوتِهم له ﷺ، فذكرَ أنَّها سَرَتْ من القلبِ إلى النَّظر[1]، وإمّا على: "العَطف عَلَى جُمْلَة: ﴿فَذَرۡنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِۖ﴾؛ إذ عَرَّفَ اللّه رَسولَهُ ﷺ بَعْضَ ما تَنْطَوي عَلَيْهِ نُفوسُ المُشْرِكينَ نَحْوَ النَّبي ﷺ مِنَ الحِقْدِ والغَيْظِ وإضمار الشَّرِّ عندما يَسْمَعونَ القُرْآنَ"[2]، والَّذي يبدو: أنَّها استئنافيَّةٌ لإنهاءِ السّورةِ بما بدأتْ به من اتِّهام للنَّبيِّ ﷺ بالجنونِ بسببِ نعمةِ ربِّه عليه بالقرآنِ الحكيم، وذلك بالدِّفاع عنه وعن القرآنِ الَّذي هو نعمةٌ لكونِهِ ذكرًا للعالَمين، والسَّببَ في ذلك الاتِّهامِ الشَّنيع.

دلالةُ (إنْ) والغرضُ منها:

توكيدُ مُقاربةِ الإزلاقِ لِشِدَّةِ الكَراهيةِ وعَظيمِ الافتراق

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بـ(إنْ) في قولِه تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ للدَّلالة على التَّوكيدِ والتَّثبيتِ لمُقاربةِ الذينَ كفروا أنْ يُهلكوا النَّبيَّ ﷺ لشِدَّةِ العَداوة في قلوبِهم له، وقوَّةِ نظرِهم الحاقدِ الشَّزرِ لهُ، فـ(إن) هنا كما قال الأخفش: "مُخفَّفةٌ من الثَّقيلة، كما تقولُ: (إنْ كانَ عبدُ اللّه لَظريفًا)؛ فمعناهُ: إنَّ عبدَ اللّه لظريفٌ قبلَ اليوم"[3]، والدَّليلُ على أنَّها مُؤكِّدةٌ لا نافيةٌ: اتِّصالُ اللّامِ الفارقةِ بما في حَيِّزِها: ﴿لَيُزۡلِقُونَكَ﴾، وسُمّيت بذلك؛ لكونِها فارقةً بينَها وبينَ النَّفي، ولا حاجةَ لتقديرِ اسمِها ضميرَ الشَّأنِ والحالِ، كما فعلَ الهرريُّ[4]؛ لأنَّ إهمالَها أكثرُ من إعمالِها.

دلالةُ فعلِ المُقاربة ﴿يَكَادُ﴾ مادَّةً وصيغةً:

مُقاربةُ الإيذاءِ مُسفرةٌ عن شِدَّةِ العَداوة

عبَّر النَّظمُ الكريم بفعلِ المُقاربة مُضارِعًا في قولِه تعالى: ﴿وَإِن

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 114.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 107.
(3) الأخفش، معاني القرآن: 2/ 547، والواحديّ، التّفسير البسيط: 22/ 120.
(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 114.

﴿يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ﴾؛ للدَّلالة بمادَّتِه على مُقاربة الخبرِ الَّذي هو الإزلاقُ من الوجودِ والتَّحقُّق في الخارجِ، لكنْ لم يوجَدْ، ولم يتحقَّقِ الإزلاق، لكنْ تحقَّقتِ العَداوة التي استحكمَتْ في قلوبهم، حتّى إنَّهم لفَرْطِها يكادونَ يُؤَثِّرونَ فيه بالواقع، قال القونويُّ: "فإنَّ (كادَ) من أفعالِ المُقاربة، وُضِعَتْ لمقاربةِ الخبرِ مِن الوُجود؛ لعُروضِ سببِه، لكنَّه لم يوجَدْ إمّا لفقدِ شَرطٍ أوْ لعروضِ مانعٍ، وهنا لم يوجَدْ لفقدِ شَرْطِه معَ عُروضِ سببِه، وهو النَّظرُ المَذْكور بفرضِ إمكانِ سببيَّتِه، وهنا يقال: إنَّه لو أمكنَ بالنَّظرِ إزلاقُ القَدَمِ؛ لفعلوهُ، وفيه بيانُ كمالِ شدَّةِ عَداوتهم، وهو من ألطفِ المَعاني وأفصَحِها"[1]، وللدَّلالة بصيغتِه على "استِمْرارِ ذَلِكَ في المُسْتَقْبَلِ"[2].

دلالة الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

الإبهامُ المُعقَّبُ بالتَّفصيل مشوِّقٌ للإصغاءِ إلى التَّكميل

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بالاسم الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾، في قولِه تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ للدَّلالة على العُموم والإبهام الَّذي يَعقبُهُ التَّفصيل والتَّوضيحُ بجملةِ الصِّلة، فيكونُ من قبيلِ التَّفصيل بعد الإجمال، وهو مقصِدٌ بلاغيٌّ مهمٌّ، كما يدلُّ الموصولُ على جمعٍ معهودٍ في الذِّهن يتحقَّقُ مدلولُه بعدَ النُّطقِ بجملةِ الصِّلة.

دلالةُ جُملةِ الصِّلة ﴿كَفَرُواْ﴾ مادَّةً وصيغةً:

الإشعارُ بجنسِ الخَبَرِ يُقوّي الحَدْسَ والنَّظَر

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بالجملةِ الفعليَّة الماضيَة صلةً، في قولِه تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ للدَّلالة على تحقُّقِ مَضمونِ الصِّلة تحقُّقًا ثابتًا مَقطوعًا بحصولِه، كما تومِئُ الصِّلةُ بمضمونِ الخبر بأنَّه من جنسِ العمَلِ السَّيّئ؛ إذِ الاتِّصاف بالكفرِ يُنبِئُ عن كونِ الفعل قبيحًا لا يليقُ إلّا بالكافرين، كما تفيدُ الصِّلةُ تعليلًا لكونهم قريبينَ من إزلاقِ النَّبيِّ الكريم ﷺ.

(1) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 252.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 108.

دلالةُ (اللّام) في ﴿لَيُزۡلِقُونَكَ﴾:

توكيدُ الإزلاق لشِدَّةِ الشِّقاق

استعملَ النَّظمُ الكريمُ (اللّام الفارقةَ)، في قولِه تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ﴾؛ للدَّلالة على التَّوكيدِ للحُكم والتَّثبيتِ لمضمون ثُبوتِ الإزلاقِ للَّذين كفروا؛ لأنَّ "اللّامَ في ﴿لَيُزۡلِقُونَكَ﴾ لامُ الابْتِداءِ، الَّتي تَدْخُلُ كَثيرًا في خَبَرِ (إن المَكْسورَةِ)، وهي أيْضًا تُفرِّقُ بَيْنَ (إن) المُخَفَّفَةِ وبَيْنَ (إن) النّافيَةِ"[1].

دلالةُ الفعلِ المُضارع (يُزلقونَك) مادَّةً وصيغةً:

الدَّحْضُ والإسقاطُ لشخصِ النَّبيِّ ودينِهِ الحقِّ

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بالفعلِ المُضارع في قولِه تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ﴾؛ للدَّلالة بمادَّتِه على "زَلَلِ الرِّجْلِ مِنْ مَلاسَةِ الأرْضِ مِنْ طينٍ عليها أو دُهْنٍ، وأريد به هنا السُّقوطُ والاندحاضُ، أي: يُسْقِطونَكَ، ويَصْرَعونَكَ، وعن مُجاهِد: يَنْفِذونَكَ بنَظَرِهِم، وقال القُرْطُبيُّ: يُقالُ: زَلَقَ السَّهْمُ، وزَهَقَ: إذا نَفِذَ"[2]، وللدَّلالة بصيغتِه على وقوعِ ذلك منهم على سبيلِ الاستمرارِ والتَّجدُّد.

فعلُ (الإزلاق) بينَ الحقيقةِ والمجَاز:

المجازُ والحقيقة يدلّانِ على الكراهةِ الشَّديدة

عبَّرَ النَّظم الكريمُ بفعلِ (الإزلاق)، في قولِه تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ﴾؛ للدَّلالة إمّا على المعنى الحقيقيِّ، وهو الإصابةُ بالعَين والحسَدُ بالبصرِ للنَّبيِّ ﷺ، "وصُرِفَ ذلك إلى قوم بأعيانِهم قد عُرِفوا بخُبثِ الأعيُن وحلولِ الآفات بمَن يُعينونَهُ من أهل الشَّرفِ والتَّبجيل، ثمَّ اللّه تعالى بفضلِه عصَمَ رسولَه ﷺ، فلم يتهيَّأ لهم أنْ يُعينوه، فكانَ فيه تقريرُ رسالته وآية نبوَّته عند أولئك الكفرة"[3]، قالَ الواحديُّ: "والمُفسِّرون بعضُهم على أنَّ هذه الآيةَ نزلَتْ في قَصْدِ الكُفّار أنْ يُصيبوا رسولَ اللّه ﷺ بالعَين، وكانوا ينظرونَ إليه نظرًا شديدًا، ويقولونَ: ما رَأينا مثلَهُ ولا مثلَ حُجَجِه،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 108.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 107.
(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 10/ 161، والواحديّ، التّفسير البسيط: 22/ 121.

يُريدونَ أنْ يُصيبوهُ بالعَين، وهذا قولُ الكلبيِّ ومَن تابعَهُ[1]، وإمّا على المعنى المجازيِّ وهو قولُ المُحقِّقين من المُفسِّرينَ وأهلِ العربيَّة، بأنَّهُم "مِنْ شِدَّةِ تَحْديقِهم ونَظرِهم إلَيْكَ شَزْرًا بعُيونِ العَداوَةِ والبَغْضاءِ، يَكادونَ يُزلّونَ قَدَمَكَ، مِن قَوْلِهِمْ: (نَظَرَ إلَيَّ نَظَرًا يَكادُ يَصْرَعُني، ويَكادُ يَأْكُلُني)، أي: لَوْ أَمْكَنَهُ بِنَظَرِهِ الصَّرْعُ أوِ الأكْلُ؛ لَفَعَلَهُ، قال ابنُ قتيبة: "ليس يريدُ اللّهُ ﷻ في هذا الموضِع أنَّهم يُصيبونَكَ بأعيُنِهم كما يُصيبُ العائنُ بعينِهِ ما يُعجبُهُ، وإنَّما أرادَ أنَّهم يَنظرونَ إليك إذا قرأتَ القرآنَ نظَرًا شديدًا بالعَداوة والبَغضاء، يكادُ يُزلِقُكَ، أي: يُسقِطُكَ[2]، ويدلُّ: "على صحَّة هذا المعنى أنَّه قرنَ هذا النَّظر بسَماعِ القرآن، وهو قوله: ﴿لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ﴾؛ لأنَّهم كانوا يَكرهونَ ذلك أشدَّ الكَراهة، ويُحدّون النَّظرَ إليه بالبغضاء"[3]، والإصابةُ بالعَين إنَّما تكونُ مع الإعجاب والاستحسان، ولا تكونُ مَعَ الكراهيَةِ والبُغض، ويدلُّ أيضًا قولُهُ: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ﴾، أي: يَنسبونَهُ إلى الجُنون؛ إذا سَمِعوه يقرأُ القرآنَ[4]، وعلى كلا الاحتمالينِ فإنَّ الإزلاقَ بالأبصار دالٌّ على الكراهةِ الشَّديدة والعَداوةِ المُستحكِمة؛ إذِ الإصابةُ بالعينِ تجتمعُ مَعَ الكراهيَةِ والبُغض بينَ العائنِ والمَعيون.

دلالةُ الكِناية في (يُزلقونَك):

الصَّرعُ والإسقاطُ مِن لوازمِ زَلَلِ الرِّجْلِ والإزلاق

كنَّى النَّظمُ القرآنيُّ بفعلِ (الإزلاق) الدّالِّ وضْعًا على زَلَلِ الرِّجلِ لمَلاسةِ الأرضِ الواردِ في قولِه تعالى: ﴿لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ عنِ الإسقاطِ والصَّرع والإدحاض؛ إذِ الزَّلَقُ يُفضي إلى السُّقوطِ غالبًا[5]، ولعلَّ الدّافعَ إلى (الكناية) إظهارُ رغبةِ الأعداءِ بزلَلِ قدمِه

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 22/ 121.
(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 22/ 121.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 115.
(4) الواحديّ، التّفسير البسيط: 22/ 121.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 107.

ﷺ، كما فعلَ أصحابُ السَّفينة بالنَّبيِّ يونُس عليه السلام، عندَما زَلَقوه، وأسقَطوه من السَّفينة؛ ليكونَ في عُرْض البَحر وفم الحوت، ويحتملُ أن يكونَ الدّافع إلى (الكناية) أنَّ الأبصارَ لا يصِلُ تأثيرُها إلى الإسقاطِ، بل جلُّ تأثيرِها في الزَّلَقِ والانزلاق، حتّى تكون المقاربةُ معقولةً ومقبولةً، قال السَّمين: "فيكونُ ﴿لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ كنايةً عن الإهلاكِ أوْ مَجازًا عنه"[1].

دلالةُ الاستعارةِ المكنيَّة في ﴿لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ﴾:

أبصارٌ كالسِّهام تـريـدُ إسـقـاطَ أكرَمِ الكِرام

استعارَ النَّظمُ القرآنيُّ السِّهام للأبصارِ في قولِه تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ﴾؛ للدَّلالة على شدَّة تلك الأبصارِ وقوَّةِ تأثيرها، حتّى إنَّها لتكادُ تُسقِطُ، وتصرَعُ المُبصَرَ لِحِدَّتِها، قال ابنُ عاشور: "وعلى جَميعِ الوُجوهِ، فَقَدْ جَعَلَ الإزْلاقَ بِأبْصارِهِمْ على وجْهِ الاسْتِعارَةِ المَكْنيَّة، شُبِّهَتِ الأبْصارُ بِالسِّهام، ورُمِزَ إلى المُشَبَّهِ بِهِ بِما هوَ مِن رَوادِفِه، وهوَ فِعْلُ (يُزْلِقونَكَ)"[2].

تعدُّد القراءاتِ في ﴿لَيُزۡلِقُونَكَ﴾:

المُـزلَـقُ أكـثرُ مُـبـالـغـةً من المَزْلَق

قرأ الجمهورُ ﴿لَيُزۡلِقُونَكَ﴾ بضَمِّ (الياءِ) في قولِه تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ﴾، من (أزلقَهُ) المَزيدِ بالهَمزة للتعدية؛ إذا أزلَّ رِجلَهُ، وقرأ نافعٌ وأهلُ المدينة بفَتحِها: ﴿لَيَزۡلِقُونَكَ﴾[3]، من (زَلَقَ عن مَوضعِهِ يَزلَقُ) متعدّيًا؛ إذا نحّاهُ عن مَكانِه، فتَنَحَّى، يقالُ: زَلَقَ هو، وزَلَقْتُهُ، مثلُ: حَزَنَ وحَزَنْتُهُ، والأوَّلُ أكثرُ وأوسَعُ؛ لأنَّه يقال: زَلَقَ مِن مَوضعِه، وأزلقتُهُ أنا، فيُنقَلُ الفعلُ بالهمزة[4]، والَّذي يَظهرُ أنَّ القراءةَ بمضارع (أزلق) يَلزمُها اسمُ المفعول (مُزلَقٌ)، في حين

(1) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 252.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 107.

(3) ابن الجزري، النشر: 2/ 389.

(4) الواحديّ، التّفسير البسيط: 22/ 121، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 108، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 114.

أنَّ لازمَ قراءةِ الفتحِ المُطاوِعُ (مُنزلِقٌ)، وممّا لا شكَّ فيه أنَّ وقوعَ الفعلِ عليه أشدُّ معنًى من قَبولِهِ الانزلاقَ والتَّنحّي؛ إذ لا يُتصوَّرُ الانزلاقُ في حقِّه ﷺ.

دلالةُ ضميرِ الجَمعِ (الواو) في ﴿لَيُزۡلِقُونَكَ﴾:

التَّوافُقُ في الحِقدِ والبَغضاءِ للتَّكذيبِ والإيذاء

أسندَ النَّظمُ الكريمُ فعلَ (الإزلاق) إلى ضميرِ الجمعِ الغائبِ العائدِ إلى ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ﴾؛ للدَّلالة على توافُقِهم في البَغضاء والحِقد على النَّبيِّ الكريم ﷺ، وأنَّهم كانوا جبهةً موحَّدةً ضِدَّهُ في التَّكذيبِ والإيذاءِ والرَّغبةِ أن يُهلكوهُ بأنظارِهِم الحاقدةِ الغاضِبة.

نُكْتَةُ إيرادِ (الباء) في ﴿بِأَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ والغرضُ منها:

الاستعانةُ بالأبصارِ لإهلاكِ النَّبيِّ المُختار

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بحرفِ الجرِّ (الباء) في قولِهِ تعالى: ﴿لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ﴾؛ للدَّلالة على آلةِ الإزلاقِ وسبَبِه، أي: مُستعينينَ بأبصارِهم من أجلِ تحقيقِ ذلك، والغرضُ من ذِكرِ الآلةِ المُستعمَلة في الإزلاقِ الاحتراسُ عن مُقاربَتِهم لإهلاكِهِ بأدواتِ القتلِ المَعروفة، وفي ذلك تشخيصٌ لآلةِ الإزلاق، وهو البَصَر، ومن المعلوم أنَّها آلةٌ غيرُ جارحة، فتكونُ دالَّةً على شدَّةِ البغضاء، حتّى إنَّهم قارَبوا من إهلاكِهِ ﷺ بأنظارِهم الحادَّة كالسِّهام القاتلةِ؛ ليكونَ أكثرَ إبانةً للعَداوة والبغضاءِ لهُ.

دلالةُ الإغراقِ والمبالغةِ في ﴿لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ﴾:

الإغراقُ والمُبالغة تعبيرٌ عن شدَّةِ المُفارقة والمُباينة

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بأسلوبِ (الإغراقِ البديعيِّ) في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ﴾؛ للدَّلالة على شِدَّةِ العَداوة والكراهيَة من الكافرينَ للنَّبيِّ ﷺ، وهذا التَّوجيهُ البديعيُّ مبنيٌّ على إرادةِ المعنى المَجازيِّ دونَ الحقيقة في ﴿لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ﴾؛ إذ من المعلوم أنَّ (الأبصارَ) ليستْ آلةً للصَّرْعِ والقتلِ والإزهاقِ، لكنَّ النَّظمَ بالَغَ في تصويرِ (العداوة)، حتَّى كأنَّ الأبصارَ

من شدَّةِ حِدَّتها ونظَرها الحاقدِ تقتُلُ، وتُزلِقُ، وتُزهِقُ، وهذا من الإغراقِ "المُستحيلِ عَقْلًا وعادةً، لكنْ يُقرِّبُه إلى الصِّحَّة لفظُ (يكادُ)، وذلك مثلُ قولِه تعالى: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ﴾ [النّور: 35]"[1]، ولذا قالَ البيضاويُّ: "أي: لو أمكنَهُ بنظَرِه الصَّرْعُ؛ لفعلَهُ"[2].

دلالة الإضافة في (أبصارهم):

أضافَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ (الأبصار) في قولِه تعالى: ﴿لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ﴾؛ للدَّلالة على التَّعريفِ والتَّعيينِ والتَّشخيص؛ إذ يكتسِبُ المضافُ من المضافِ إليه المعرفةِ التَّعيُّنَ والامتياز، وفي تشخيص الأبصار إشارةٌ إلى أنَّها أبصارٌ كافرةٌ جاحدةٌ مثلَ أصحابها، فلم تعُدْ ترى، ولا تنظُرُ إلّا بعينِ الكراهيَةِ والحِقدِ والغِلِّ.

الإشارةُ إلى أنَّها أبصارٌ كافرةٌ جاحدةٌ مثلَ أصحابها

دلالةُ ﴿لَمَّا﴾ والغرَضُ منها:

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بـ﴿لَمَّا﴾ في قولِه تعالى: ﴿لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ﴾؛ للدَّلالة على الظَّرفيَّةِ الحينيَّة، أي: إنَّهم يَكادونَ أنْ يَقتلوك بأبصارِهم عندَ سَماعِ آياتِ القرآن منك، وفي تقييدِ كراهيتِهم الشَّديدةِ بحينِ سَماعِ الآياتِ المتلوَّةِ إشارةٌ إلى أنَّ كراهيتَهم لهُ في الأحوالِ العاديَّةِ مُستحكِمةٌ، إلّا أنَّها تزدادُ قوَّةً، وتكبُّرُ عندَ سماعِهم آياتِ القرآن، فكانَ تأشيرُ إزلاقِ الأبصار بحالةِ السَّماعِ تأكيدٌ على أنَّ تلك الكراهيةَ تزدادُ في ذلك الظَّرف؛ لِتَعودَ إلى حالتِها الاعتياديَّةِ المُستحكِمة عندَ عدمِ السَّماع.

أشنعُ الأحوالِ كونُ الهُدى مُؤَثِّرًا في زيادةِ الضَّلالِ

دلالةُ الفعلِ الماضي (سَمِعَ) مادَّةً وصيغةً:

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بفعلِ (السّماع) ماضيًا في قولِه تعالى: ﴿لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ﴾؛ للإشارةِ بصيغتِهِ "إِلَى أَنَّهُ قَدْ حَصَلَ مِنْهُمْ ذَلِكَ، ولَيْسَ مُجَرَّدَ فَرْضٍ"[3]، وبمادَّته على أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يُسمِعُهم

السَّمعُ آلةُ الانتفاعِ تتحوَّلُ لآلةِ عدمِ الاقتناعِ

(1) القونويّ، حاشية القونويّ على تفسير البيضاويّ: 19/ 252.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 238.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 108.

القرآنَ لعلَّهم يُبصِرونَ الحقَّ، فيؤمنوا، إلّا أنَّهم كانوا يَسمعون، فتزدادُ الكراهيَةُ حتّى تكادَ الأبصارُ تقتلُهُ، وجمع النَّظمُ بينَ (السّمع والأبصار) للكافرين؛ للدَّلالة على أنَّ سمعَهُم صار مُعطَّلًا عنِ الانتفاع، وأنَّ أبصارَهُم تحوَّلتْ لسِهامٍ تريدُ القتلَ والإيذاء، فلا أملَ بإيمانهم، ولا ترجّيَ لهِدايتهم.

دلالةُ التَّعريفِ بـ(أل) في ﴿ٱلذِّكۡرَ﴾:

تِـلاوةُ الـذِّكـر الحَكيم لهِدايةِ المتَّقين

عرَّفَ النَّظمُ الكريم لفظَ ﴿ٱلذِّكۡرَ﴾ بـ(أل) في قولِهِ تعالى: ﴿لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ﴾؛ للدَّلالة على العهدِ المَعلوم في ذِكرٍ مُعيَّنٍ يُسمَعُ من النَّبيِّ ﷺ، وهو القرآنُ الحكيم؛ إذ كانَ يتلوهُ عليهم بقَصْدِ هدايتهِم وإرشادِهم وتذكيرِهم باللّه تعالى، وبما يَنبغي عليهم القيامُ به، فتكون (أل) للعَهْدِ العِلْميِّ في ذكرٍ مَخصوصٍ، وهو القرآنُ الكريم.

دلالةُ المجازِ المُرسَل في ﴿ٱلذِّكۡرَ﴾ ووظيفتُهُ:

وظيفةُ سماعِ الـقـرآنِ الـذِّكـرُ والـتَّـذكـيرُ بالرَّحمن

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بلفظِ ﴿ٱلذِّكۡرَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ﴾ مُرادًا به القرآنُ الكريم، فهو مجازٌ[1] مُرسَلٌ علاقتُهُ الجُزئيَّة؛ إذِ القرآنُ العظيم يشتملُ على ذِكرِ اللّه تعالى، والغرضُ منَ العُدول في التَّسميةِ الإشارةُ إلى أنَّ القرآن وظيفتُهُ الذِّكرُ للّه تعالى والتَّذكيرُ به.

حَذْفُ جوابِ ﴿لَمَّا﴾ الشَّرطيَّة:

الحذفُ للجَواب تصويرُ لشِدَّةِ الحِقد العُجاب

حذفَ النَّظمُ الكريمُ جوابَ ﴿لَمَّا﴾ بناءً على أنَّها شرطيَّةٌ في قولِهِ تعالى: ﴿لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ﴾؛ وتقديرُهُ إمّا: (لم يملِكوا أنفسَهُم حسَدًا)[2]، أو (ينبعثُ عندَ سماعِهِ بغضُهُم وحَسَدُهم)[3]، والغَرضُ منَ الحذف تصويرُ شدَّةِ الكراهيَةِ المُنبعثةِ من سَماعهِم للذِّكر الحَكيم، حتّى إنَّها لا تُكشَفُ، ولا يُعبَّرُ عنها بخصوصِها،

(1) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 253.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 597.

(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 238.

وإنْ كانتْ تُفهَمُ بقرينةِ المَقام أنَّها من جنسِ الحسَد والبغضِ النّاشئ عن السَّماع.

دلالةُ (الواوِ) في ﴿وَيَقُولُونَ﴾ والغَرضُ منها:

تكذيبهم كان واقعًا بأبصارهم وأسماعهم وألسنتهم

عبَّرَ النظمُ الكريم بـ(الواو) في قولِه تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾ بالعطف على ما قبلَهُ؛ للدَّلالة على الرَّبطِ والجمع بينَ مُقاربتهم إزلاقَهُ بأبصارِهم، وبينَ قولِهم واتِّهامِهم له بالجُنونِ بألسنتهم، فكانَ التَّكذيب واقعًا منهم بالأبصارِ والسَّماع والألسنة، ولا توجدُ كراهيةٌ قلبيَّةٌ أعظمُ من اجتماعِها على هذه الحَواسِّ.

دلالةُ الفعلِ (يَقولونَ) مادَّةً وصيغةً:

يتجدَّدُ الاتِّهام بتجدُّدِ سَماعِ الآياتِ والكَلام

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بفعلِ (القولِ) مُضارعًا في قولِه تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾؛ للدَّلالةِ بصيغتِه على التَّجدُّدِ الاستمراريِّ؛ إذ يَستمِرُّ القولُ الاتِّهاميُّ الشَّنيعُ للنَّبيِّ الكريم ﷺ، ويَتجدَّدُ كلَّما سَمِعوا القرآنَ، ويزدادُ حَنَقُهم وبُغضُهم، وللدَّلالة بمادَّته على صدورِ ألفاظٍ نابعة مِن اعتقادٍ قلبيٍّ، ويقولونَهُ بشكلٍ سهلٍ ومُستساغ، وما ذلك إلّا دليلُ موتِ قلوبِهم الصّمّاء.

علّة تصعيد الاتّهام بشخصه الشريف ﷺ:

توقَّف المفسِّرون عندَ علَّةِ القول وسببِ الاتِّهام للنَّبيِّ ﷺ دونَ الذِّكرِ الحكيم، فقال ابن عاشور: "والمَعْنَى: يَقولونَ ذَلكَ اعتِلالًا لِأَنْفُسِهم؛ إذ لَمْ يَجِدوا في الذِّكْرِ الَّذي يَسْمَعونَهُ مَدْخَلًا للطَّعْنِ فيه، فانصَرَفوا إلَى الطَّعْنِ في صاحِبِه ﷺ، بِأَنَّهُ مَجنونٌ؛ لِيَنْتَقِلوا مِنْ ذَلِكَ إلى أنَّ الكَلامَ الجاريَ على لِسانِه لا يوثَقُ بِه؛ لِيَصْرِفوا دَهْماءَهُمْ عَن سَماعِه، فَلِذَلِكَ أَبْطَلَ الله قَوْلَهُمْ: ﴿إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾ بِقَوْلِه: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾، أي: ما القُرْآنُ إلّا ذِكْرٌ لِلنّاسِ كُلِّهِمْ، ولَيْسَ بِكَلامِ المَجانين، ويَنْتَقِلُ مِنْ ذَلِكَ إلى أنَّ النّاطِقَ بِهِ لَيْسَ مِنَ المَجانينِ في شَيْءٍ"[1].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 108.

سرُّ تَوالي المُؤَكِّدات في ﴿إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٌ﴾:

الغرور والاستكبار يُعمي القُلوبَ والأبصار

أكَّدَ النَّظمُ القرآنيُّ مقولَ القولِ الّذي افتراه الكافرُ بثلاث مُؤكِّدات في قولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٌ﴾؛ إذِ اجتمعَتْ فيه: (إنَّ واللّامُ واسميَّةُ الجملة)، وذلك ليدلَّ على جَزمِهم بذلك الحُكم، وردِّهم لكلِّ مَن يُنكره أوْ لا يُقرُّ به، فقد بالغوا في الغُرور والاستكبار، وأصمّوا العقولَ والأبصار، ووجهٌ آخر يُستنبط من التَّأكيد وهو أنّه في قرارة أنفسهم ريبٌ لوجودِ ما يُناقض اتِّهامَهم، حتّى لَجؤوا إلى التَّوكيدِ إقناعًا لأنفُسِهم ولِمَنْ يَسمَعُ منهُم بعدَما قامَتِ الدَّلائلُ، وبعد أن كانوا قد اعترَفوا بأنَّه الأتمُّ عَقلًا والأكملُ رأيًا فيهم.

مَرْجِعُ الضَّمير في ﴿إِنَّهُۥ﴾ ودِلالتُهُ:

الاتِّهامُ بالجُنون افتراءٌ وفُتون

عبَّر النَّظمُ الكريم بضميرِ الغَيبة في قولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٌ﴾؛ إمّا لأنَّه راجعٌ إلى النَّبيِّ ﷺ المذكورِ في سياق كلامِهم أوْ مَن يتحدَّثون عليه غالبًا في مَجالسِهم، فهو مُنْصَرِفٌ إلَى مَنْ يَتَحَدَّثونَ عَنْهُ في غالِبِ مَجالِسِهِمْ[1].

أوْ راجعٌ إلى (الذكر) مجازًا، ووصفُهُ بـ(المجنون) حينَئذٍ باعتبارِ وصفِ ذاكِره، فيكونُ تسميةً للشَّيءِ باسمِ فاعلِه، كقولنا: (هذا قولٌ مجنونٌ)، أي: صادرٌ من مَجنونٍ مبالغةً؛ فهو مجازٌ عقليٌّ من إسنادِ الوصفِ لما صدرَ منه دونَهُ، ويُقوّي هذا ظاهرُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾، وسواءٌ عادَ الضَّمير إلى النَّبيِّ ﷺ - كما هو الظّاهرُ - أوْ عادَ إلى (الذكر) مَجازًا؛ فإنَّ الغرضَ ربطُ اتِّهامِ الجُنونِ بالنَّبيِّ ﷺ وبما جاءَ به من عندِ ربِّه "تَنْفيرًا عَنْهُ، وقد عَلِموا أنَّهُ ﷺ أتَمُّهُمْ فَضْلًا وأرْجَحُهُمْ عَقْلًا"[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 108.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 250.

دلالةُ لفظِ (مَجنون) مادَّةً وصيغةً:

منشأُ الاتِّهام بالاضطِراب تلاوتُهُ آياتِ الكتاب

عبَّر النَّظمُ الكريم بلفظِ اسمِ المفعول (مَجنون)، في قولِه تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ﴾؛ للدَّلالة بمادَّتِه على أنَّه مسَّهُ الجانُّ، وآذاه، فجعلَ كلامَهُ مُختلًّا وتصرُّفاتِه غيرَ مُنضبِطة، ويدلُّ بصيغتِه على وقوعِه تحتَ تأثيرِ الجُنون، وهذا الاتِّهامُ منشؤُهُ سَماعُهم الذِّكرَ الحكيم والقرآنَ العظيم وتحيُّرُهم في أمره[1]، فاتِّهامُهم في الحقيقةِ مُتوجِّهٌ إلى النَّبيِّ ﷺ من جهةِ تلاوةِ آيِ القرآنِ عليهم؛ إذ كلامُ القرآنِ عن الغَيبيّات واليومِ الآخِرِ والملائكةِ والكتبِ والأنبياء السّابقين في عُرفِهم الَّذي لم يعتادوا الحديثَ فيه عن ذلك، أشبهُ بكلامِ مَن وقعَ تحتَ تأثيرِ الاضطِراب الذِّهنيِّ والفكري؛ إذ تُشَكِّلُ الجملةُ الظَّرفيَّةُ ﴿لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ﴾؛ عِلَّةً لإزلاقِهِ بأبصارِهم ولاتِّهامِهم له بالجُنون.

ردُّ الأعجازِ على الصُّدورِ في ﴿لَمَجۡنُونٞ﴾:

نعمةُ القرآنِ تذكيرُهُ للعالَمين بالبُرهان

ردَّ النَّظمُ القرآنيُّ عَجُزَ السّورة في قولِهِ تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ﴾ على صَدرِها في قولِه تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾؛ وبذلك يتحقَّق ارتباطٌ بين الصَّدر والعجُز في الدِّفاعِ عن النَّبيِّ ﷺ وعن القرآنِ العظيم، الذي هو نعمةٌ من نِعَمِ اللّه تعالى على العالَمين، وعلَّلَ النِّعمة بأنّه الذِّكرُ والمُذكِّرُ للعالَمين، قال ابن عاشور: "وفي قَوْلِه: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ﴾ مع قَوْلِهِ في أوَّلِ السّورَة: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾ مُحَسِّنُ ردِّ العَجُزِ على الصَّدْرِ"[2].

دلالةُ (الواوِ) في ﴿وَمَا﴾:

ذكرُ العالَمين لا يَصدُرُ إلّا مِن أحكَمِ الحاكِمين

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بحرفِ (الواو) في قولِه تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ للدَّلالة على الحالِ المُفيدِ للرَّدِّ والتَّفنيدِ لدَعواهمُ

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 597.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 108.

الجنونَ للنَّبيِّ ﷺ بعدَ سَماعِهم لآياتِ الذِّكر الحَكيم، والتَّعجيبِ مِن حُكْمِهم الباطلِ بإظهارِ أنَّه ذكرٌ وتذكيرٌ للعالَمين، وكلُّ مَن هذا شأنُهُ؛ فهو حقٌّ مُبين ونورٌ للعقلِ مُستقيم، والمُرسَلُ به من أعظَمِ العاقلين، وقائلُهُ تعالى أحكمُ الحاكِمينَ.

وقال الهرريُّ: "والجملةُ حاليَّةٌ من فاعلِ ﴿وَيَقُولُونَ﴾، مفيدةٌ لغايةِ بُطلانِ قولِهم، وتعجيبٌ للسّامعينَ من جَراءتِهم على التَّفوُّهِ بتلك الجريمةِ العظيمةِ، أي: يقولونَ ذلك، والحالُ أنَّ القرآنَ ذِكرٌ للعالَمينَ من الثَّقلينِ، أي: تذكيرٌ وعِظَةٌ لهم، وبيانٌ لجميعِ ما يَحتاجونَ إليهِ مِن أمورِ دينِهم، فأينَ مَن أُنزِلَ عليه ذلك، وهو مُطَّلعٌ على أسرارِهِ طُرًّا، ومُحيطٌ بجميعِ حَقائقه خَبرًا، ممّا قالوا في حقِّهِ منَ الجنون، أي: إنَّ هذا القرآنَ من أَوْلى الأمورِ الدّالَّةِ على كمالِ عقلِهِ وعُلوِّ شأنِهِ، فمَن نسبَ إليهِ القصورَ؛ فإنَّما هو مِن جَهْلِهِ وجِنَّتِهِ، فإنَّ الفضلَ لا يعرفُهُ إلّا ذَووه"[1].

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بـ(ما) و﴿إِلَّا﴾ والغرضُ منهُ:

القــرآنُ ذكــرٌ للعالَمين ونــورٌ للمُـهـتـديـن وهدًى للمُتَّقين

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بأسلوبِ الحصْرِ بـ(ما و﴿إِلَّا﴾)، في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على قَصْرِ القرآنِ الكريم والذِّكرِ الحَكيم على الذِّكر للعالَمينَ والتَّذكيرِ والعِظةِ لهُم بما يَهمُّهُم في أمورِ دينِهم ودُنياهم، "فالقَصْرُ قصرُ المَوْصوف على الصِّفَة، فهو إضافيٌّ"[2]، وأفادَ الحصرُ والقصرُ الرَّدَّ على دَعواهمُ الجنونَ بأسلوبِ التَّوكيد في قولِهم: ﴿إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾، فأبطلَ ذلك ببيانِ قَصرِهِ على كونِهِ ذِكرًا للعالَمين، ومَن كان هذا شأنَهُ؛ فهو حكمةٌ للعالَمين؛ فكيفَ يوصَفُ قائلُهُ بأنَّه مَجنون؟.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 108.

(2) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 253.

دلالة الاحتباك في ﴿ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾:

الاختزالُ في الدَّعوى والجواب من دقائقِ فصلِ الخِطاب

عبَّر النَّظم بأسلوب الاحتباك البديعيِّ في قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ لأنَّه "إبطالٌ لِقَوۡلِهِم: ﴿إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ﴾؛ لِأَنَّهُم قالوهُ في سياقِ تَكۡذيبِهِمۡ بِالقُرۡآنِ؛ فَإِذا ثَبَتَ أَنَّ القُرۡآنَ ذِكۡرٌ؛ بَطَلَ أَنۡ يَكونَ مُبَلِّغُهُ مَجۡنونًا، وهَذا مِنۡ قَبيلِ الاحۡتِباكِ؛ إِذِ التَّقۡديرُ: (وَيَقولونَ: إِنَّهُ لَمَجۡنونٌ، وإِنَّ القُرۡآنَ كَلامُ مَجۡنونٍ، وما القُرۡآنُ إِلّا ذِكۡرٌ، وما أَنۡتَ إِلّا مُذَكِّرٌ"[1]، والغرضُ من الاحتباكِ الاختزالُ في الإبطالِ على الاتِّهامِ الصَّريح ولازمِهِ الضِّمنيِّ معًا؛ لأنَّه إنۡ ثبتَ أنَّ القرآنَ ذِكرٌ؛ فُهِم منهُ أنَّ المُنَزَّلَ عليهِ ذِكرٌ وتذكيرٌ لهم أيضًا، وأنَّ المُتَّهمينَ للرَّسول ﷺ بالجُنون؛ بسببِ سَماعهم للقرآنِ يتَّهمونَ القرآنَ بذلك الجنونِ أيضًا، واقتصر النَّظمُ الكريمُ في دَعواهم على اتِّهامِ الرَّسول ﷺ دونَ اتِّهامِ القرآنِ صَريحًا؛ لبيانِ عَجزِهم عن اتِّهامِ القرآنِ صراحةً بالجنون؛ إظهارًا لعَجۡزِهم عن مُعارضتِهِ ومُقارعتِهِ، واقتصرَ في الرَّدِّ بالدِّفاعِ عن القرآن دونَ المتَّهَم صَريحًا بالجُنون؛ لأنَّه مَنشأُ غلَطِ الخَصۡم، والسَّببُ في تلك الدَّعوى الظّالمة، وهو أظهرُ في الرَّدِّ؛ إذ ذلك الكلامُ المُعجِزُ لا يصدُرُ إلّا مِن مُنَزِّلٍ عليه حكيم.

دلالةُ الضَّمير ﴿هُوَ﴾:

التَّأويلُ بالمَذكور يَجعَلُ المثنَّى كالواحدِ في المَنظور

وقعَ خلافٌ بينَ المُفسِّرين في تحديدِ مَرجِعِ الضَّمير، في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ فقيلَ: هو (القرآنُ الكريم)؛ لأنَّه السَّبب عندَ سماعِهِ باتِّهامِ الرَّسولِ ﷺ بالجُنون، فيكون إبطالًا للسَّبب، وحينَئذٍ يبطُلُ المُسبَّبُ استلزامًا.

وقيلَ: الضَّميرُ يرجعُ للرَّسول ﷺ؛ إذِ الاتِّهامُ الصَّريح كان

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 109.

مُتوجِّهًا له، فيكون الإبطالُ والتَّفنيدُ كذلك، والرَّسولُ ﷺ كالقرآنِ ذِكْرٌ ومُذكِّرٌ للعالَمين معًا، فهو الدَّليلُ على الله تعالى(1).

كلُّ واحدٍ منهما ذِكْرٌ

ولا مانعَ مِن كونِ الضَّميرِ عائدًا إلى الاثنين معًا، خاصَّةً بعدَ أنْ فُكَّ النَّظمُ بأسلوبِ الاحتباك، فيجوزُ أنْ يعودَ إليهما معًا بعدَ التَّأويلِ لهُما بـ(المذكور)، أي: كلٌّ من المَذكورِ أعني القرآنَ والرَّسولَ ﷺ ذِكرٌ للعالَمين(2).

سرُّ الإخبارِ بلفظِ المصدرِ ﴿ذِكۡرٞ﴾:

القـرآنُ عـينُ الماهيَّة والرَّسولُ هو تلكَ الهويَّة

أخبرَ النَّظمُ الكريم بلفظِ المصدرِ ﴿ذِكۡرٞ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ القرآنَ الكريمَ أوِ الرَّسولَ ﷺ عينُ الماهيَّة الَّتي هي الذِّكر، فلم يُبقِ شيئًا من الذِّكر لغيرِه، وذلك أبلغُ من الإخبارِ بـ(ذاكر) لدلالتِه على حِصَّةٍ من الذِّكر دونَ كمالِه؛ فهو دالٌّ على المُبالغة؛ إذ يُصبِحُ المسنَدُ إليه عينَ الحقيقة والماهيَّة، فيكونُ مَجازًا عقليًّا على حدِّ: (جَدَّ جِدُّهُ).

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بلفظِ (الذِّكر):

القـرآنُ تـذكيرٌ بالله، والرَّسولُ رفعةُ شأنِ خَلْقِ الله

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بلفظِ (الذّكر) في قولِه تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ إمّا للدَّلالة به على أنَّه يَذْكُرُ ما للخَلْقِ من حُقوق، وما عَليهم مِن واجبات، أوْ منَ الذِّكر وهو النَّباهةُ ورِفعةُ الشَّأن، ولا شكَّ أنَّ القرآنَ الكريم والرَّسولَ ﷺ رفعةٌ لجميع العالَمين، وتاجٌ على رؤوسِ المخلوقات، أو لإرادةِ معنى التَّذكير، فـ"الذِّكْرُ: التَّذكيرُ بالله، والجَزاء هوَ أشْرَفُ أنْواعِ الكَلام؛ لِأنَّ فيه صَلاحَ النّاسِ"(3)، وقيلَ معناه: "وما هو إلّا فضلٌ وشرَفٌ للعالَمينَ؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ﴾ [الزخرف: 44]"(4).

(1) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 10/ 1547.
(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 10/ 162.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 108.
(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 116.

دلالةُ التَّنكيرِ في ﴿ذِكۡرٞ﴾:

نكَّرَ النَّظمُ الكريم لفظَ ﴿ذِكۡرٞ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ للدَّلالة على التَّعظيم والتَّفخيم لشأنِ القرآنِ الكريم والرَّسولِ ﷺ في كونهما ذكرًا عظيمًا ومُذكِّرًا فخمًا باللّه تعالى؛ لأنَّ ذكرَهما ما للخلقِ في دينهِم ودُنياهم، وما فيه سَعادتُهُم وشَقاؤُهُم لا يُعادِلُهُ أيُّ ذكرٍ وأيُّ كلام.

أفضلُ الذِّكر كلامُ الله، وأعلى المُذكِّرين رسولُ الله ﷺ

دلالةُ (اللّام) الجارَّةِ في ﴿لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ والغرضُ مِنها:

عبَّرَ النَّظم الكريمُ بـ(اللّام الجارّة) في قولِه تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ للدَّلالة على الاختصاصِ معَ الإيحاءِ بالغرضيَّة؛ إذ هذا الذِّكرُ الحكيمُ مُختصٌّ بالثَّقلينِ من الإنسِ والجنِّ، وقد جاءَ لأجلِهم ولِمَنفعتِهم في دينهم ودُنياهم، ومن شأنِ المُختصِّ به الآتي لأجلِه أنْ يُهتَمَّ به، ويُعتَنى بشأنِه.

الذِّكرُ لأجلِ العالَمين ليَستجيبَ لهُ جميعُ الثَّقَلَين

دلالةُ التَّعريفِ بـ(أل) في (العالَمين):

عرَّفَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ (العالَمينَ) بـ(أل) في قولِه تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على الاستغراقِ العُرفيِّ بأفرادِ الثَّقلينِ منَ الجنِّ والإنسِ أجمعين، وشأنُ المُعرَّفِ بـ(أل) الدّاخلة على لفظِ الجَمْعِ الدَّلالةُ على الاستغراقِ الكلّيِّ، والذي يبدو لنا أنَّ المرادَ بـ(العالَمين): جميعُ العوالم منَ الثَّقلينِ وغيرِها؛ إذِ القرآنُ الكريم ذاكرٌ لأخبارِ أجناسِ الخلائقِ أجمعين، وأمّا إنْ فُسِّرَ (الذِّكر) بالمُذكِّر والتَّذكير؛ فإنَّهُ يختصُّ بعالَمَي الإنسِ والجنِّ فحسبُ، قال ابن عاشور في تفسيرِ (سورةِ الفاتحة): "وَإِنَّما جُمِعَ (العالَم)، ولَم يُؤْتَ بِهِ مُفْرَدًا؛ لِأَنَّ الجَمْعَ قرينَةٌ على الاستغراقِ؛ لِأَنَّهُ لَوْ أُفْرِدَ؛ لَتُوُهِّمَ أَنَّ المُرادَ مِنَ التَّعْرِيفِ العَهْدُ أوِ الجِنْسُ، فَكانَ الجَمْعُ تَنْصيصًا عَلَى الاستِغْراقِ، وهَذِهِ سُنَّةُ الجُموعِ مَعَ (أل) الاستِغْراقِيَّةِ عَلَى التَّحْقيقِ"[1].

كلُّ الأفرادِ مُخاطَبةٌ بالذِّكر المُهتمِّ بشؤونِ العِباد

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 169.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بـ(العالَمين) مادَّةً وصيغةً:

المُنتفِعونَ بالذِّكْر أهلُ العِلْم والفِكْر

عبَّر النَّظمُ الكريمُ بلفظِ (العالَمين) في قولِه تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾؛ للدّلالة بمادَّتِه على "الجنْسِ من أجْناسِ المَوْجودات، وقَد بَنَتْهُ العَرَبُ على وزْنِ (فاعَل) بِفَتْحِ العَيْن، مُشْتَقًّا مِنَ العِلْم أوْ مِنَ العَلامَة؛ لِأنَّ كُلَّ جِنْسٍ لَهُ تَمَيُّزٌ عَنْ غَيْرِه، فَهوَ لَهُ عَلامَةٌ، أوْ هوَ سَبَبُ العِلْمِ بِه، فَلا يَخْتَلِطُ بِغَيْرِه"[1]، ويدلُّ بصيغتِه على الاتِّصاف بمبدأ الاشتقاقِ مِنَ (العَلامة والعالميَّة) على سبيل الاستمرار، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ هذا الذِّكرَ مختصٌّ بمَن يتَّصِفُ بالعِلْمِ على سبيل الاستمرار؛ لكي يَنتفِعَ بآياته، وأمّا مَن فارقَهُ العِلمُ، وجَهِلَ فهْمَ أسرارِ العَوالم؛ فإنَّهُ بعيدٌ عن فَهْمِ هذا الذِّكرِ الحكيم.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الزَّلَقُ والزَّلَّةُ:

الـزَّلَـقُ أخـصُّ مطلقًا منَ الزَّلَّة وأشدُّ منها قوَّةً

الزَّلَقُ: هي الزَّلَّةُ بقيدِ السُّقوط، وهذا القيدُ هو الفارقُ بينها وبينَ الزَّلَّة، فإنَّ الزَّلَّةَ استرسالٌ لطيفٌ من دونِ نَظَرٍ إلى السُّقوط، وإنْ كانَ واقعًا، قال ابن عاشور: "والزَّلَلُ: تَزَلُّقُ الرِّجْلِ وتَنَقُّلُها مِنْ مَوْضِعِها دونَ إرادَةِ صاحِبِها؛ بِسَبَبِ مَلاسَةِ الأرْضِ مِنْ طينٍ رَطْبٍ أوْ تَخَلْخُلِ حَصًى أوْ حَجَرٍ مِنْ تَحْتِ القَدَم، فَيَسْقُطُ الماشي عَلَى الأرْضِ"[2]، والتَّعبيرُ بهذه المادَّة إنَّما هو في مَوردٍ يَتحقَّقُ فيه تزلُّقٌ لطيفٌ وانحرافٌ بعدَ التَّثبُّت، سواءٌ كانَ حصولُ الزَّلَل في عمَلٍ أم قولٍ أم رَأي[3]، وأمّا الزَّلَقُ؛ فهو استرسالٌ بعدَ الثُّبوتِ إلى أنْ يَنتهيَ إلى السُّقوط"[4]، فالزَّلَقُ أشدُّ منَ الزَّلل، ومِن ثَمَّ آثرَ النَّظمُ القرآنيُّ ذِكرَهُ في موطنِ بيانِ حسَدِهم العميق وحِقدهِم، في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 168.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 268.

(3) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 4/ 326.

(4) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 4/ 330.

سُورَةُ الحَاقَّةِ

سُورَةُ الحَاقَّةِ

التعريف العام بالسورة:

المكّيُّ والمدنيُّ وعَدَ الآيِ:

هذه السّورة مكّيَّة اتّفاقًا، وقد ذَكَرَ ابنُ عطيَّة[1] والسُّيوطيُّ[2] الإجماعَ على ذلك، وتبعهم في ذلك كثيرٌ من المفسِّرين[3]، وقد رويَ أنَّ عمر بن الخطّاب ﷺ قال: "خرجتُ أتَعَرَّض رسولَ اللّه ﷺ قبل أن أُسْلِمَ، فوجدتُه قد سبقَني إلى المسجد، فقمتُ خَلفَه، فاستَفتَح سورةَ الحاقَّة، فجَعلتُ أَعْجَبُ مِن تأليف القرآن، قال: فقلت: هذا واللّه شاعرٌ، كما قالت قريشٌ، قال: فقرأ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾، قال: قلت: كاهنٌ، قال: ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٤٢ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٣ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ إلى آخر السّورة، قال: فوقع الإسلامُ في قلبي كلَّ موقعٍ"[4].

وأمّا عدد آياتها؛ فهيَ إحْدى وخَمْسونَ آيَةً في العدِّ البَصْريِّ والشّاميِّ، واثنَتانِ وخَمسون في عدِّ الباقينَ؛ وقد وقَع اختلافُهم في آيتين ﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾ الأولى، فقد عدَّها الكوفيُّ، ولم يعدَّها الباقونَ، وكذا اختلفوا في قوله: ﴿كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾، فعدَّها المدنيّان والمكّيُّ، ولم يعدَّها الباقونَ[5].

ترتيب النُّزول وترتيب المصحف:

سورة الحاقَّة هي التّاسعة والسُّتّون في التَّرتيب المصحفيِّ الشَّريف، وهو التَّرتيب الثّابت والمُعوَّل عليه عند أهل النَّظر والتَّحقيق، وقد جاء ترتيبُها بين سورتي القلَمِ والمعارج، وأمّا

---

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 356.
(2) السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 1/ 43.
(3) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 29/ 7.
(4) رواه أحمد في مسنده، برقم: (107)، وضعَّفه العلامة أحمد شاكر في تعليقه على المسند ويُنظر: الألباني، سلسلة الأحاديث الضعيفة: 14/ 74.
(5) الداني، البيان في عدّ آي القرآن، ص: 253.

ترتيبُها النُّزوليُّ؛ فقد ذهب بعضُ أهل العلم إلى أنَّها السّورَةُ الثّامنة والسَّبعون نزولًا[1]، وذهب آخرونَ إلى أنَّها السّابعة والسَّبعون، وأنَّها نَزَلَتْ بَعْدَ سورَةِ المُلكِ وقَبْلَ سورَةِ المعارجِ[2].

جاء ترتيبُها المُصْحَفيُّ بين سورَتَي القلَمِ والمَعَارج

فضائل السّورة:

هذه السّورة الكريمةُ من طوال المفصَّل الذي قال فيه النَّبيُّ ﷺ فيما رواه عنه واثلة بن الأسقع رضي الله عنه: "أُعطيتُ مكانَ التَّوراةِ السَّبعَ الطِّوالَ، وأُعطيتُ مكانَ الزَّبورِ المِئينَ، وأُعطيتُ مكانَ الإنجيلِ المثانيَ، وفُضِّلتُ بالمُفصَّل"[3].

سورة الحاقَّة من سوَرِ المفصَّل

اسم السّورة ومناسبة تسميتها:

وردَت تسميَتُها بسورة ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾ في كثيرٍ من المصاحف، وفي صحيح البخاري[4]، وفي جامع التِّرمذيِّ[5]، وقد ذكر بعضُ أهل العلم أنَّ تسميتها بهذا الاسم إنَّما كانت لِورود هذه الألفاظِ في أوَّلها، وهذا الرَّأي ليس بشافٍ ولا كافٍ، فقد وردت ألفاظٌ في أوائل كثيرٍ من السّور، ومع ذلك لم تُسَمَّ باسمها، إلّا أن يُجاب عن هذا بأنَّ من القواعد المتقرّرة أنَّ علَّةَ التَّسمية لا توجِبُ التَّسميَةَ، وقد ذكر الفيروزابادي تسميتَها بسورة (السِّلسلة)؛ لقوله تعالى: ﴿فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ﴾[6]، وذكر ابنُ عاشور أنَّ من أهل العلم مَنْ سمّاها سورة (الواعية)؛ لقوله تعالى فيها: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ﴾[7].

سورةُ الحاقَّة اشتهرت بهذا الاسمِ دونَ غيره

وقد قام البقاعيُّ بالرَّبط بين اسْمِها ومقصودِها خيرَ ربطٍ،

(1) دروزة، التّفسير الحديث: 5/ 384.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 111.
(3) أخرجه أحمد في المسند، برقم: (16982)، والطبراني في المعجم الكبير: (22/ 76، برقم: 187)، والبيهقي في شعب الإيمان، برقم: (2192)، وهو مخرَّج في سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني، برقم: (1059).
(4) البخاري، صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة الحاقة: 6/ 159.
(5) التّرمذيّ، جامع التّرمذيّ، أبواب تفسير القرآن، باب وَمِنْ سورَةِ الحاقَّةِ: 5/ 424.
(6) الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز في لطائف الكتاب العزيز: 1/ 478.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 111.

فقال: "ومقصودُها: تَنزيهُ الخالِق بِبَعْثِ الخلائق؛ لإحقاق الحقِّ، وإزهاق الباطل، بالكشف التّامِّ بشمولِ العِلْم للكلّيّات والجزئيّات، وكمالِ القُدرة على العُلْويّات والسُّفليّات، وإظهار العدل بين سائر المخلوقات، فيُمَيَّز المسلمُ مِن المجرم، بالمُلَذِّذ والمُؤْلِم، وتسميتها بالحاقَّة في غاية الوضوح في ذلكَ، وهو أدلُّ ما فيها عليه"[1].

وما قرَّره البقاعيُّ مرتبطٌ بمِحْوَرِها العامِّ الذي يقومُ على تقرير وقوع يوم القيامةِ، وبيان أحوال النّاسِ فيهِ، ولا سيَّما مِنَ المكذِّبين، فتَسْميَتُها بهذا الاسمِ ظاهرُ الدَّلالةِ دونَ أدنى تكلُّفٍ.

المحور العامِّ للسورة:

مِحور السّورة يقوم على إثبات حقيقة يوم القيامةِ، وبيان أهوالِه وأحوال النّاس فيهِ

يقوم محور السّورة على بيان حقيقة البَعْثِ يوم القيامة وما يَجْري فيه مِن أحداثٍ، وبيان حالِ المكذِّبين به في يومِ وُقوعِهِ، فجاء فيها ذكر الأمور الآتية:

أولًا: ذكرت السّورة ما لَحِقَ المكذِّبين السّابقين، من عادٍ وثمودَ وفرعونَ وقومِ لوطٍ وقوم نوحٍ، وأن يُبيِّنَ لهُم بعضَ أحداث السّاعةِ.

ثانيًا: بيّنت السورة أحوالَ النّاس وانقسامَهم عند البعثِ يوم القيامة.

ثالثًا: بينت السورة أنَّ ما جاء به النَّبيُّ ﷺ هو الحقُّ، فليس شعرًا ولا كِهانَةً، بل هو ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وأنَّ النَّبيَّ ﷺ لو فرضْنا مُحالًا أنَّه تقوَّل على ربِّه بعضَ الأقاويل، فإنَّ اللّه تعالى سَيَقْبِضُه إليه دون أن يتمَكَّنوا من ردِّ ما سيلحق به: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾.

رابعًا: اخْتُتِمت السّورة الكريمة بوعيد المكذِّبين، وبوصيَّة النَّبيِّ ﷺ بالتَّسبيح: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم

(1) البقاعي، مصاعد النّظر: 3/ 116.

مُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾.

موضوعاتُ السّورة وخصائصها:

تدورُ موضوعاتُ السّورةِ على ذِكْرِ أهوالِ السّاعةِ وأحوالِ النّاسِ فيها

سورةُ الحاقَّة كغيرها من السّور المكّيَّة التي عُنيَت بأصول العقيدة، وتحدَّثت عن أهوال القيامة، وصِدْقِ الوحي، وكون القرآنِ كلامَ اللّهِ تَعالى، وتبرئةِ الرَّسول ﷺ من افتراءاتِ الكفّار واتِّهاماتِ الضّالّين، وركزت على ما يأتي:

أولًا: بُدِئت السّورة بتفخيم شأن القيامةِ وتعظيمِ هَوْلِها، وتكذيبِ الأقوام السّابقينَ بها، مثل: ثمودَ، وعادٍ، وقومِ لوط، وفرعونَ وأتباعه، وقومِ نوحٍ، وذِكْرِ إهلاكُهُم؛ بسبب تكذيبهم بها، وتكذيب رُسُلِهم، ثمَّ وصْفِ وقائعِ عذاب الآخرة جزاءً على إنكاره في الدُّنيا، وأُرْدِفَ ذلك ببيان حال السُّعداء والأشقياء يومَ القيامة.

ثانيًا: صرَّحت السورة بصدق الوحي والقرآنِ، وأنَّه كلامُ اللّهِ تعالى المنزَّلُ على قلبِ رسولِه ﷺ، وأنَّه ليس بقول شاعرٍ ولا كاهنٍ.

ثالثًا: خُتِمَت السّورة ببيان البُرْهان القاطع على صِدْقِ الرَّسول ﷺ، وأمانته في تبليغ الوحي، وأنَّ القرآنَ تذكرَةٌ وعظَةٌ وخبَرٌ حقٌّ لا مريةَ فيه، ورحمةٌ للمؤمنين وحسرةٌ على الكافرين[1].

الخصائص الموضوعيَّة للسّورة:

تميَّزت سورة الحاقَّة بخصائصَ موضوعية أفردَتْها عن غيرها من السّور

أوَّلًا: امتازت السّورة الكريمة ببراعة الاستهلالِ؛ إذ إنَّها انْفَرَدَت في وصْفِ ذلك اليوم بالحاقَّةِ ثلاثَ مرّات دون غيرها مِن السّور، فقد وردَت تَسْمياتٌ أخرى ليوم القيامةِ في غيرها من السّورِ، مثل: الطّامَّةِ، والصّاخَّة، ويوم التَّغابن، والقارعة، ويوم الدّين، وغيرِ ذلكَ.

(1) الزحيليّ، التّفسير المنير: 29/ 80.

ثانيًا: تميَّزتِ السّورة الكريمةُ بحديثها عن الرّيح الصَّرصر التي أرسلها الله تعالى على قوم عاد، وذلك في قوله تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: 7 - 8]؛ إذ لم يَرِدْ مثل هذا الوصف الدَّقيق لمكوثِ الرّيح في سورَةٍ أخرى.

ثالثًا: تميَّزتِ السّورة الكريمة بخصوصيَّةِ تَشبيهِ قومِ عادٍ بعد أن جاءَتْهُم الرّيحُ الصَّرصر، وذلك في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾، بينَما شُبِّهت حالُهُم في سورة القمَر بقوله سُبحانَهُ: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ۝٢٠﴾ [القمر: 20]، وقد جَعَل الرُّمّانيُّ تشبيهَهُم في سورة القمر مِن بابِ إخراجِ ما لَم تَجْرِ به العادَةُ إلى ما جرت به العادةُ، وقد اجتمعا في قلع الرّيح لَهُما، وإهلاكها إيّاهما، وفي ذلك الآيةُ الدّالَّة على عظيم القدرة والتَّخويف من تعجيل العقوبة، وقال أيضًا عن تشبيههم في سورة الحاقَّة: "وهذا تشبيهٌ قَد أخْرَج ما لا يُعْلَم بالبديهةِ إلى ما يُعْلَم، وقد اجتمعا في خلوِّ الأجساد من الأرواح، وفي ذلك الاحتقارُ لكلِّ شيءٍ يؤول به الأمر إلى ذلك المآل"(1)، فكلُّ تشبيهٍ مِنَ التَّشبيهيْن جاء من نوعٍ آخرَ مختلفٍ، يتَّسق مع السّياق الذي جاء فيه.

رابعًا: تميَّزتِ السّورة الكريمة بحديثها عن إغراق قوم نوحٍ، بقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ۝١١ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ [الحاقة: 11 - 12]؛ إذْ لم يَرِد مثلُ هذا الوصف لسفينة نوحٍ في سورةٍ أخرى.

خامسًا: انفردت بتصويرِ بعضِ مشاهد السّاعة وحَمَلة العرشِ، وكذا في وصف أحوال النّاس في ذلك اليوم العظيمِ، وفي الحديثِ عَن السِّلسلة التي ذَرْعُها سبعون ذراعًا.

سادسًا: انفردت السّورة الكريمة بقسَمٍ عجيبٍ في آخر السّورة، وبِالحديث عن قطع الوتين في معرض نفي تقوُّل الأقاويل عن النَّبيِّ ﷺ، وذلك في قوله سُبحانَهُ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: 44 - 47].

---

(1) الرّمّاني، النّكت في إعجاز القرآن: (مطبوع ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، ص: 83 - 84.

تميّزت سورة الحاقّة بخصائصَ أسلوبية أفردَتْها عن غيرها من السّور

الخصائص الأسلوبيّة للسّورة:

أولًا: تميَّزتِ السّورة الكريمة بأنَّها أكثرت مِن أسلوبِ جناسِ الاشتقاقِ في آياتِها، من مثل: ﴿فَأَخَذَهُمۡ أَخۡذَةٗ رَّابِيَةً﴾، ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ﴾، ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾، ﴿فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾، ﴿وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ﴾، ﴿لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ﴾، ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ﴾، وغيرها.

ثانيًا: امتازَتِ السّورةُ الكريمة بأنَّها حَوَت معجمًا لأسماءِ يوم القيامة، فقَدۡ وردَت تسميتُها بالحاقّة ثلاثَ مرّاتٍ في الآياتِ الثَّلاث الأولى، ووَرَدت تسميَتُها كذلك بالقارعةِ والواقعَةِ.

ثالثًا: تميَّزت السّورة الكريمة بوفرة المشتقّات اللُّغويَّة وتنوُّعها، فقد حوت شتّى أنواع الأفعال الماضيَة والمضارعة وأفعال الأمر، وحوت أسماءً كثيرةً كذلكَ بصيَغٍ متنوِّعةٍ، ومنها عدد كبيرٌ من صيغةِ اسْمِ الفاعل، مثل: الحاقَّة، والقارعة، والطّاغية، وعاتية، وخاوية، وباقية، والمؤتفكات، والخاطئة، ورابية، والجارية، وواعية، والواقعة، وواهية، وخافية، وراضية، وعالية، والقاضية.

رابعًا: بَرزتۡ في السّورة الكريمة ظاهرةُ التَّقابل في الأحوالِ والصِّفاتِ، مثل: المقابلة بالإهلاكِ بين ثمودَ وعادٍ، وبين من أوتي كتابَهُ بيمينه ومَن أوتيَهُ بشماله، وبين الجنَّة العالية والقطوف الدّانية، وبين ما تُبۡصِرون وما لا تبصرون، وبين المتَّقين والمكذِّبين، وبين التَّقوُّل وتنزيل ربِّ العالمين، وبين مَن قال: اقرؤوا كتابيَه، ومَن قال: ليتني لم أوتَ كتابيَه، وغير ذلكَ.

خامسًا: تمـيَّزت السّـورة الكريمة بأنَّها حوت ألفاظًا بأبنيةٍ صـرفيَّةٍ لم تأتِ في غـيرها من السّـور، مثل لفظ ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾ الـذي ورد فـي هـذه السّورة ثـلاث مـرّات، و﴿بِٱلطَّاغِيَةِ﴾، و﴿عَاتِيَةٖ﴾، و﴿ٱلۡخَٰطِـُٔونَ﴾، و﴿ٱلۡأَقَاوِيلِ﴾، و﴿بِٱلۡخَاطِئَةِ﴾، و﴿رَّابِيَةً﴾،

و﴿ٱلۡجَارِيَةِ﴾، و﴿وَتَعِيَهَآ﴾، و﴿وَٰعِيَةٞ﴾، و﴿فَدُكَّتَا﴾، و﴿دَكَّةٗ﴾، و﴿أَرۡجَآئِهَاۚ﴾، و﴿خَافِيَةٞ﴾، و﴿حَٰجِزِينَ﴾، و﴿سِلۡسِلَةٖ﴾، وغيرها.

سادسًا: امتازَتِ السّورة الكريمة بوفرَةِ الأنساق التَّعبيريَّة التي لم تتكرَّر في غيرها، حتّى تكاد تكون كلُّ أنساقها كذلك، ومِنْ ذلك قوله تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗاۖ﴾ [الحاقة: 7]، وقوله سُبحانَهُ: ﴿فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ﴾ [الحاقة: 7]، وقوله ﷻ: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: 11]، وقوله ﷻ: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ﴾ [الحاقة: 12]، وقوله تعالى: ﴿فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ [الحاقة: 14]، وقوله سُبحانَهُ: ﴿فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ﴾ [الحاقة: 16]، وقوله: ﴿وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ﴾ [الحاقة: 17]، وقوله: ﴿هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ﴾ [الحاقة: 19]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ﴾ [الحاقة: 32]، وغيرها.

مناسبة السّورة لما قبلها:

يقول الغرناطيُّ في وجه اعتلاقها بسورة القلم: "لمّا بُنِيَت سورة ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ﴾ [القلم: 1] على تقريع مُشْركي قريشٍ وسائر العربِ وتوبيخهم، وتنزيه نبيِّ الله ﷺ عن شنيعِ قولِهم وقبيح بَهْتِهم، وبيَّن حسدَهُم وعداوتَهُم: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ [القلم: 51]؛ أُتْبِعَت بسورة الحاقَّة وعيدًا لهم وبيانًا أنَّ حالهم في سوء ذلك المُرْتَكَبِ، قد سبق إليهِ غيرُهم: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ ۝٤ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗاۖ فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ ۝٧ فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ﴾ [الحاقة: 4 - 8]، فسورةُ الحاقَّة جاريَةٌ مَجرى هذه الآيِ المعقَّب بها ذِكْرُ عنادِ مُشْرِكي العرَبِ؛ ليتَّعِظ بها مَن رُزِقَ التَّوفيق: ﴿لِنَجۡعَلَهَا لَكُمۡ تَذۡكِرَةٗ وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ﴾ [الحاقة: 12].

ولمّا ذُكِرَ حالُ مَن هلك من الأمم السّالفة بسوء تكذيبهم وقبيح عنادهم؛ أُتْبِعَ ذلك بذِكْرِ الوعيد الأخرويِّ: ﴿يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ﴾ [الحاقة: 18]، ثمَّ عاد الكلامُ إلى ما بُنِيَت عليهِ سورة ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ﴾ [القلم: 1] من تنزيهِهِ ﷺ وتكريمه، مُقْسِمًا على ذلك: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ۝٤١ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا

سورةُ الحاقَّة متَّصلة تمامًا بسورة القلم مضمونًا وأسلوبًا

مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الحاقة: 40 - 43]، وانتهى نَفْيُ ما يقولونه منصوصًا على نزاهته عن كلِّ جملة منها في السّورتين: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ﴿٢﴾﴾ [القلم: 2]، أي: ما الذي جئتَ به بقولِ شاعر ولا بقول كاهنٍ، بل هو تنزيلٌ من رب العالمينَ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعۡلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ﴾ [الحاقة: 48 - 51]، فنَزِّهْ ربَّك، وقدِّسه عن عظيمِ ما ارْتَكَبوهُ"[1].

ومِن أوجُه اعتلاقِ هذه السّورةِ بما قبلَها:

أولًا: أنَّهُ وقع في سورة (ن والقلم) ذِكْرُ يوم القيامة مُجْمَلًا، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ﴾ [القلم: 42]، وفي سورة الحاقَّةِ أوضح اللّه تعالى نَبَأ هذا اليوم وشأنَه العظيم، بقوله ﷻ: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾ [الحاقة: 1 - 3].

ثانيًا: أنَّ اللّه سُبحانَهُ هدَّد في سورة القَلَم كلَّ من كذَّب بالقرآنِ، وتوعَّدهُ بقوله: ﴿فَذَرۡنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِۖ﴾ [القلم: 44]، وفي سورة الحاقَّةِ ذَكَرَ أحوالَ الأمم التي كذَّبت الرُّسلَ وما عوقِبوا به، مِنْ أجل العِظَةِ والزَّجر والعبرةِ للمُعاصِرينَ[2].

(1) الغرناطيّ، البرهان في تناسب سور القرآن، ص: 345 - 346.
(2) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 29/ 79.

﴿ٱلۡحَآقَّةُ ١ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ٣﴾ [الحاقة: 1 - 3]

مناسبةُ الآياتِ لِخواتيمِ سورةِ القَلَم:

ظهورُ الحقائق يوم القيامة هو المقصودُ الأعظم من التَّذكيرِ القرآنيِّ، والحاقَّة تجسيدٌ لتلك الغايةِ

لمّا خُتِمت سورة القلَم بذِكْر وعيد الآخرة وتهديد المكذِّبين بيوم يُكشف فيه عن ساقٍ، وتُظْهَر فيه حقائقُ القرآن ونتائجُ التَّذكير، وتُفرز فيه المراتب بين المُسيء والمحسن؛ افتُتِحت سورة الحاقَّة بتصويرٍ رهيبٍ لذلك اليوم نفسِه، فوصفَتْهُ باسمِه المُزَلْزِل: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾، أي: القيامة التي تُحَقُّ فيها الحقائقُ، وتظهر فيها النَّتائج بلا مِرية، فهي أعظم واعظٍ وزاجرٍ للخلق، والمقصودُ الأعظم من إنزال القرآن تذكيرُ النّاس بها؛ لأنَّها مآل كلِّ شيء، ومصبُّ كلِّ وعد ووعيد.

تهويلُ القيامة باستفهامٍ تعظيميٍّ يتجاوَزُ حدود التَّصوُّر

ولمّا كانَ لفظُ ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾ يهزُّ القلوب، ويوقِظ العقول، لِما فيه من الرَّهبة والتَّفخيم؛ انتقل السّياق إلى أسلوب الاستفهام بقوله: ﴿مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾، وهو استفهامٌ يُقْصَدُ به تعظيم الأمر وتهويلُه، لا طلب حقيقتِه؛ إشارةً إلى أنَّ حقيقتها فوق ما يُدْرِكُه الوصف، وأنَّ الخبرَ عنها لا يغني عن مُشاهَدَتِها، ممّا يُرسِّخ أثرَها في النَّفس، ويُثير التَّهيُّؤ لاستيعاب بشاعَتِها.

تصعيدُ التَّهويل لاستحضار مشهدِ القيامةِ

ولمّا كان المقصودُ من السّياق هو تهيئةَ النَّفس لمشهد القيامة المزلزِل الذي يُكشَف فيه عن ساقٍ؛ زاد التَّهويل والتَّشويق بعبارة ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾، وهي صيغةٌ تقطَع بأنَّ أمر الحاقَّة يفوق الإدراك والتَّصوُّر، وأنَّ عاقبَتَها أعظمُ مِن أن تَبْلُغَها علومُ البشَر أو خيالاتُهُم[1].

شَرْحُ المُفْرَدات:

1) ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾: أصلُ (حقق) يدلُّ على إحكام الشَّيءِ وصحَّته.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 337 - 339.

فالحقُّ: نقيضُ الباطلِ، ثمَّ يرجع كلُّ فرعٍ إليه بجَودة الاستخراج وحُسْنِ التَّلفيق، فيُقالُ: حَقَّ الشَّيءُ: وجَبَ[1]، وحقَّقْتُ الأمرَ، وأحققتُه؛ إذا كنتَ على يَقينٍ منْهُ، وأحقَقْتُ عليه القَضاءَ؛ إذا أوجبتَه، والحاقَّةُ: السّاعةُ والقيامةُ، وسُمّيت القيامة حاقَّة؛ لأنَّها تَحُقُّ كلَّ مُحاقٍّ في دين الله تعالى بالباطِلِ، أي: كلَّ مُجادِلٍ ومُخاصِم، فتَحُقُّه، أي: تَغْلِبه، وتَخْصِمه، من قولك: حاققْتُه أُحاقُّه حِقاقًا ومحاقَّةً، فحقَقْتُهُ أحُقُّه، أي: غلبته، وفَلَجْتُ عليه[2]، وقيل: لأنَّها تُبْدي حقائقَ الأشياء[3]، والمعنى هنا: القيامَةُ الصّادقة، الواجبةُ الوُقوعِ، سُمّيت بذلك؛ لأنَّ فيها حواقَّ الأمورِ، وقيل غيرُ ذلك[4].

2) ﴿أَدۡرَىٰكَ﴾: (دري) تدلُّ اشتِقاقاتُه على تَغَلْغُل الشَّيء بدِقَّة وقوَّة خلالَ جِرْمٍ كثيفٍ فيَصِل إلى عُمقه، ومنه: المُداراةُ، وهي: المُلايَنة وحُسْنُ الخُلُق، ويكون ذلك بالتَّغاضي عن سوءِ الفِعْلِ اتِّقاءً للشَّرِّ، فهو تَسَتُّرٌ ليَعْلم المُداري باطنَ مَنْ يُداريه، ومنهُ الدِّراية، وهي: علمٌ فيه نفاذٌ إلى ما خفيَ[5]، وقولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾، أي: أيُّ شيءٍ أعْلَمَكَ ما هي؟ أيْ: كأنَّك لستَ تعلَمُها؛ إذْ لم تُعايِنْها، وتُشاهِد ما فيها من أهوالٍ، فكأنَّها خارجة عن دائرة عِلْمِ المخلوقين، لا تَبْلُغُها درايةُ أحدٍ منهُم[6].

المَعْنى الإجْماليُّ:

افتُتِحت السّورة بالتَّنويه بشأن القيامة وتهويلِ أمْرِها، فسُمّيت "الحاقَّة"، أي: التي يحقُّ فيها الجزاء، وتتحقَّق فيها الوعودُ الإلهيَّة،

تعظيمُ شأنِ القيامةِ وتهويلُ أمرِها

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حق).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (حقق)، فَلَجَ عليه: ظفر بما طلب، وفلج بحجته أثبتها، وأفلج الله حجته - بالهمزة -: أظهرها، يُنظر: الفيومي، المصباح المنير: (فلج).
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 356.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (حق)، وابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 483، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 257.
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (درى).
(6) القنّوجي، فتح البيان: 14/ 284.

وتُظهر الحقَّ والعدلَ، ثُمَّ جاء تَكرارُ الاسمِ مع الاستفهام: ﴿مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾؛ تعظيمًا لقدرها، ولفتًا للقلوب إلى هَوْلِها العظيم(1).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سِرُّ الاستهلالِ بجُمْلَةِ: ﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾:

مطلَعُ السورة يُحقِّق مقصودَها ويُشيرُ إليهِ

افتُتِحت هذه السّورة الكريمةُ بجملة: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾؛ للإيماءِ ابتداءً إلى غرضِها ومقصودِها، وهو بيانُ أهوالِ القيامَة، وذِكْرُ حالِ النّاسِ فيها، والنَّصُّ على جَزائِهم. واختيارُ هذه المادَّة وهذه الصّيغة يُؤَهِّل لاندراجِ معانٍ لائقَةٍ بهَذا السّياق، فيكون هذا من الإيجازِ البديع البليغ؛ إذ تَذْهَب نفوسُ المتَلَقّين كلَّ مذهَبٍ مُمْكِنٍ من مذاهِبِ الهَوْلِ والتَّعظيم والتَّخويف بما يَحِقُّ حلولُه بهم(2).

﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾: بين الحقيقةِ والمَجازِ:

ثبوتُ القيامةِ على وجْهِ القَطْع واليَقين، ووقوعُ الجزاءِ فيها

الحاقَّةُ اسمٌ من أسماءِ يوم القيامَة، كالقارعَةِ والواقعةِ ونحوِ ذلك، وقد كَثُرَت أسماؤُها؛ لفخامَةِ شأنِها وعظيم خطَرِها، فإنَّ كثرة الأسماءِ دليلٌ على عِظَم المسمّى، وسُمّي يوم القيامة: الحاقَّةَ، من حقَّ الشَّيءُ؛ إذا ثبتَ، ووجبَ؛ لأنَّ القيامةَ يحقُّ مجيئُها، أي: يثبتُ، ويجب وقوعُها، كما قال الله ﷻ: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ [الحج: 7]، وعلى هذا فإسنادُ الحَقِّ إليها إسنادٌ حقيقيٌّ.

ويجوزُ أن تكون تسميتُها بذلك؛ لأنَّه يحقُّ فيها الجزاءُ، وعلى هذا فالإسنادُ مجازيٌّ، وهو من بابِ قولهم: نهارُهُ صائمٌ(3).

ولا مانعَ من حَمْلِ اللَّفظ على حقيقتِه ومَجازِه؛ لأنَّ ذلك ضربٌ من ضُروب حَمْلِ اللَّفظ المُشْتَرَكِ على مَعْنَيَيْهِ أو مَعانيه، وهو جائزٌ

---

(1) أبو بكر الجزائري، أيسر التفاسير: 5/ 420.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 112.

(3) إسماعيل حقي، روح البيان: 10/ 130.

عند الجَماهير، فتكون القيامةُ حاقَّةً، بمعنى آتيةٍ وثابتةٍ على وجهِ القَطْعِ واليَقين، ويكونُ الجزاءُ فيها حاقًّا أيضًا.

دلالة التَّردُّد بين المصدريَّة والوصفيَّة والاسميَّة في: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾:

تقويةُ الوَقْعِ النَّفسيِّ بتَكْثيفِ المَعْنى في لفظٍ واحدٍ مَهولٍ

كلمة ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾ على زِنَةِ (فاعلة) من الفعل (حقّ)، وهي تدلُّ في أصلها على الثُّبوت والتَّحقُّق، يقال: حقَّ الشَّيءُ؛ إذا ثبتَ، ووقَعَ، وصدَقَ.

وفي بنية الكلمة احتمالانِ:

أحدها: أن تكون اسمَ فاعلٍ مؤنَّثًا من (حَقّ)، فتدلَّ على واقعةٍ تحقُّ بِالنّاس، وتثبُت، وتكون الهاءُ للتَّأنيث اللَّفظيِّ.

والآخَرُ: أن تكون مصدرًا مؤنَّثًا على وزن (فاعلة)، مثل: (الطّاغية) للطُّغيان، و(الباقية) للبقاءِ، أي: بمعنى (الحقِّ المَحْض)، وجاءت الهاءُ هُنا كأصل تاءِ المَرَّة، لكنَّها استُعملت للمصدريَّة، مثل كثير مِن المصادر التي على وزن فَعْلَة غيرَ مُرادٍ بها المرَّة، مثل قولهم: (ضربَةٌ لازِبٍ).

وهذا التَّعدُّد الدَّلاليُّ بين كونِها حدثًا يقَعُ أو حقًّا ثابتًا، أو وصفًا ليوم القيامة، أو صِفة للقرآن، يمنح الكلمة كثافةً معنويَّة، ويوسِّع أفقَ التَّلقّي عند السّامع، فهي حقٌّ لا شكَّ فيه، في إشارةٍ إلى يَقينِ وقوعِ القيامَةِ، كما قال اللّه تعالى: ﴿وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ﴾ [الشورى: 7].

والحاقَّةُ حادثةٌ تحِقُّ بالكافرين، فيكون فيها تهديدٌ ووعيدٌ، كقوله: ﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ﴾ [الأنبياء: 97]، وهي الواقعة الكُبرى التي تُحَقُّ فيها الحقوقُ، ويُفصل فيها بين النّاس، كما قال اللّه تعالى: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: 7 - 8]، واختزال هذه الدَّلالات في لفظةٍ واحدةٍ في مبتدأ السّورة له وقعٌ صاعق ومُباغتٌ، ثُمَّ مجيء السُّؤال التَّعجُّبيِّ بعدها ﴿مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾، ثُمَّ السُّؤال الأشدُّ تهويلًا: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾، كلُّ ذلك يسوِّق للمُتلقّي حدثًا

مهولًا غامضًا مزلزلًا لم يُكشف بعدُ، لكنَّه قادمٌ بثِقَلِ لفظِه وبلاغةِ موقعِه، فجاءت الكلمةُ كأنَّها مستودعٌ بلاغيٌّ يتضمَّن تحقيقَ الوُقوعِ، وتحقُّقَ الوعدِ والوعيدِ، واستيفاءَ الجَزاءِ، وهيمنَةَ الحقِّ على الباطلِ(1).

دلالة (أل) في ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾:

كمالُ ثبوتِ يومِ القيامَةِ وتحقُّقهُ

(أل) في ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ ١ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾ للعهدِ العلميِّ، والمرادُ بها يومُ القيامَةِ، ويجوزُ أن تكون (أل) للكمالِ، أي: الأمرِ الكاملِ في الثُّبوتِ، بحيث لا يتطرَّق إليه ريبٌ بوجهٍ مِنَ الوجوهِ. ولا تنافيَ بين المعنَيَيْن، فإنَّ الحاقَّة التي هي يوم القيامةِ كاملةٌ في ثبوتِها ووقوعِها.

نُكتة الإيجاز في التَّعبير بلفظِ ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾:

توسيعُ دلالاتِ اللَّفْظ وتعظيمُ شأنِ السّاعة

﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾ في مطلع السّورة يجوزُ أن تكونَ وصفًا لموصوفٍ محذوفٍ، على تقدير: (السّاعة الحاقَّة) أو (الواقعةُ الحاقَّة)، وهذا الحذفُ مقصودٌ بلاغيًّا لسَبَبَيْن:

أوَّلهما: إرادةُ التَّهويل والتَّفخيم، فكأنَّ ذات اللَّفظة ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾ قد استقلَّت بمعناها؛ لكثرة ما تُسمع، وتُتداول في أذهان المخاطَبين، حتّى لم يُحْتجْ معها إلى ذِكْرِ مَوْصوفِها.

والآخَرُ: الإيجازُ المنفتِح على احتمالاتٍ عِدَّةٍ، وهو من خصائصِ البيانِ القرآنيِّ؛ إذ تُلقى الكلمةُ ذاتُ الدَّلالات المتعدِّدة؛ لتَتَّسع لكلِّ أوجُهِ التَّفسير الممكنة، فتكون موصِلَةً لأعظَم قَدْرٍ مِنَ المَعْنى بأقلِّ قَدْرٍ مِنَ اللَّفظ(2).

بلاغَةُ اصْطِفاءِ لَفْظِ: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾:

افتتاحُ السّورة بلفظ ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾ يحمل ترويعًا مقصودًا، يتَّسق مع مقصد السّورة في الإنذار والتَّخويف، ويُعدُّ مِن البلاغة العاليَةِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 111.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 21، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 113.

في إحداث الأثَر النَّفسيِّ العاجل عند السّامع؛ إذ السّورة مكيَّة، والمخاطَبونُ هُم مُشْركو قريشٍ الذين كذَّبوا بالبعث، فجاءت هذه الكلمةُ في صدر السّورة كالصَّوتِ الرّاعِدِ في آذانهم، تُربِكُهم، وتُفزعهم، وتُرغِمهم على الانتباه.

(الحاقَّة) كلمةٌ غامضة المأتى عندَ أوَّل السَّماع، لكنَّها مشبعَةٌ بالإيحاء بالهلاكِ والثُّبوتِ والجزاء

بلاغَةُ التَّرويع المضاعَف بتواتُرِ السّياق:

الافتتاحُ بلفظ ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾ له وقْعٌ صوتيٌّ ثقيل، ويُراد منه الإرباكُ والإرعابُ، حتّى إنَّ السّياق نفسَهُ يعزِّز هذه الحالَ في التَّرويع، فلم يأتِ النَّظمُ بعدَها ببيانٍ وتفسيرٍ لها، بل جاءَ استفهامٌ مكرَّر في قوله: ﴿مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾، وقوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾، وهذا التَّكرار يُعَمِّق الغموضَ والرَّهبة، ويَسوق السّامعَ إلى الخوفِ والترقُّب. وبعد هذا الاستفتاح المُزَلْزِل، تبدأ السّورة بسَرْدِ مَصائر عادٍ وثمودَ وغيرِهم، بِوَصْفِها شواهدَ مرعبَةً لِما تقتضيه ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾، فكان الافتتاحُ تمهيدًا نفسيًّا لاستيعابِ هذا المصير المفزع، الذي بدأ بلفظٍ مجمَلٍ تلاه تفصيلٌ لآثارِه النَّكراء على المكذِّبين به والمنكرينَ له.

التَّمهيد إلى المصير المُفزِع بالاستهلالِ الصّادمِ

دلالَةُ الاستفهامِ في قوله: ﴿مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾:

جاء قولُهُ تعالى: ﴿مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾ استفهامًا، فظاهرُه سؤالٌ، وحقيقتُهُ تهويلٌ وتفخيمٌ لشأن الأمر، وهي بلاغةٌ قرآنيَّةٌ معروفَةٌ، يُستعمَل فيها الاستفهامُ لا لطلَبِ العلم بشيءٍ لم يكُن معلومًا من قبلُ، بَل لإثارةِ الخَوْفِ، وتعظيمِ الحدَث، ولَفْتِ الانتباهِ إلى هَوْلِه.

توظيفُ الاستفهامِ لتَعْظيمِ الهَوْلِ وتكثيف الرَّهْبَة في النُّفوس

فـ ﴿مَا﴾ هنا ليست استعلامًا حقيقيًّا، وإنَّما هي على وجهِ التَّهويل والتَّعظيم؛ لأنَّ الأمر المَهولَ يُستفهَمُ عنه؛ تعبيرًا عن عِظم شأنِه، وكأنَّ السّامع لم يُدرك مدى فظاعَته، ولا يُمكِنُه أن يَتَصوَّر كُنْهَه. وهذا الاستفهامُ يُشْبِهُ ما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ ٢٧﴾ [المدثر: 27]، وقوله: ﴿مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٨﴾ [الانفطار: 17]، وهي صيَغُ إثارةٍ وإنذارٍ وتهويلٍ.

والاستفهامُ في مثل هذا الموضع يُفيد الإنكارَ أو التَّعجُّب أو التَّفخيم، وكلُّها تُؤَدّي إلى تكوينِ صورةٍ ذهنيَّة ضخمَةٍ مُرْعِبَة لدى السّامع.

ويجوز حَمْلُ الاستفهام على الإنكارِ أيضًا، أي: لا يدري أحدٌ كُنْهَ هذا الأمر، فالمعنى: أن (الحاقَّة) أعظمُ مِن أن تُعرَف حقيقتُها، وأخطرُ مِن أن تُدرَك ماهيَّتُها، وهذا أشدُّ في التَّخويف. وعلى كِلا الوجهينِ - سواءٌ أكان للتَّعظيم أم للإنكار - فإنَّ المقصود منه التَّهويلُ البالغ في نفوسِ المشركين؛ لإرغامهم على التَّوقُّف والتَّفكُّر، وهم يَسْمَعون هذا اللَّفظ المُفْزِع المجهولَ المَصير[1].

بلاغَةُ الإظهارِ في مقامِ الإضمار في قولِه: ﴿مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾:

تَـكـرارُ الاسْـمِ الظّاهر لترسيخ الفزَعِ وتَعْظيم الـخـطَـرِ في الأذهانِ

في قوله تعالى: ﴿مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾ وضعٌ للمُظهَرِ موضع المضمر؛ إذ لَم يُستعمَل الضَّمير، كما هو المألوفُ في الحوارِ والسّياق المُتتابِع، فلم يَرِد في النَّظم القرآنيِّ: (الحاقَّةُ ما هي؟)، بل أُعيد الاسمُ الظّاهر: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾، وهذا الأسلوبُ له أثَرٌ بلاغيٌّ مقصود، وهي هنا زيادَةُ التَّهويل والتَّفخيم بتحقيقِ التَّكرار المُرعِب؛ إذْ إنَّ إعادة الاسْم ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾ يُرسِّخُ حضورَ الكلمةِ في السَّمع والذِّهن، ويُبقي وقْعَها قائمًا، ويُثبِّت رَهْبَتَها في القلب، بدلَ أن يُستعاض عنها بضميرٍ قد يُخفِّف وطأة اللَّفظة، ويُضْعِفُ أثرها الصَّوتيَّ والنَّفسيَّ، وهذا التَّكرار في المقام الإنذاريِّ يزيد من الرُّعب والتَّهويل، ويُدخل المعنى إلى النَّفس إدخالًا لا يُنسى، فكان في الإظهارِ هنا ملمَحٌ مِنَ التَّهويل الصَّوتيِّ والمعنويِّ معًا[2].

---

(1) الواحدي، الوسيط: 4/ 343، والزمخشري، الكشاف: 4/ 598، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 239، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 21، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 113، ودرويش، إعراب القرآن: 10/ 191.

(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 598، وأبو حيان، البحر المحيط: 10/ 254، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 21، والدرويش، إعراب القرآن وبيانُه: 10/ 191.

بلاغَةُ تتابُعِ الجُمَلِ الاستفهاميّة بالعطفِ في قوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾:

تصعيدُ التَّهويل بعَطْفِ الجُمَلِ وتكثيفُ وقْعِها في نفسِ السّامع

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾ جُملةٌ معطوفَةٌ على الجملة السّابقة: ﴿مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾، وكلاهما في موقع الخبَرِ عن المبتدأ ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾ في صَدْرِ السّورة.

وهذا التَّتابع بين الجُمْلَتَين الاستفهاميَّتين لا يُراد به مجرَّد الاستفهام، بل هو أسلوب تراكميٌّ في التهويل، فالجملة الأولى: ﴿مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾ تَفْتَحُ باب الغموض والتَّساؤُل في النَّفس، ثُمَّ تأتي الجملة الثّانية: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾؛ لتُغْلِقَ بابَ التَّصوُّر، وتُفجِّر الهَوْلَ، وتُثبت في النَّفس أنَّ ما سيأتي أعظمُ مِن أن يُدرَكَ أو يُتصوَّرَ.

ليسَ العطفُ وصلًا لُغويًّا مجرَّدًا، بل له دلالاتٌ معنويّةٌ بليغةٌ

فالعَطْفُ هنا ليس مجرَّدَ وصلٍ لغويٍّ، بل هو ربطٌ تصعيديٌّ يزيد من حِدَّة الإنذار، ويُضاعف من إحكام الجوِّ النَّفسيِّ الذي تُشيرُ إليهِ السّورة، فالجملةُ الثّانية تُعدُّ توكيدًا بلاغيًّا وتعظيمًا لما في الأولى، وهي بمَنزِلة تصديقٍ على أنَّ ما يُسأل عنهُ ليسَ شيئًا هيِّنًا.

التَّأثير النَّفسيُّ مقصودٌ

والمتَلَقّي يُقاد بهذه الجُمَل خطوةً خطوَةً نحوَ حالٍ مِن الارتياب والرُّعب والتَّشويق، فلا يكاد يلتَقِطُ أنفاسَهُ مِن وقْعِ الكلمة الأولى حتّى تُلقى عليه جملةٌ أشدُّ وقعًا؛ لتُثْبِتَ في ذِهنه عِظَمَ ما يُنْذَرُ به[1].

الدَّلالة البلاغيَّة لأسلوبِ الاستفهامِ في قولِه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾:

تعظيمُ الغَيْبِ بإظهارِ عَجْزِ العُقول عن تَصوُّره

قول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾ يُعدُّ مِن أقوى أساليب التَّهويل في القرآنِ الكريم، وهو استفهامٌ مقرونٌ بعبارَةِ ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾، وهذه العبارة كثيرًا ما يُراد بها في السّياق القرآني بيانُ عِظم الأمر واستحالتِه عَلى الفَهْم البشريِّ، فكان في ذلك إيماءٌ إلى عَظَمةِ الغَيْبِ الذي يُخْبَرُ عَنْهُ، ببيانِ فَوَقانِه عن مُدركات العقولِ.

الكنايةُ عن تعذُّر العِلْمِ

وفي هذه الصّيغة أيضًا كِنايَةٌ بلاغيَّة عن أنَّ (الحاقَّة) فوقَ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 21، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 113.

الإدراك البشريِّ، وأنَّك - أيُّها السّامع - لَن تُدرِك كُنْهَها مَهما حاولْتَ تصوُّرَها، فهي ليسَت مِن جنسِ ما ألِفْتَه، أو عايَشْتَهُ، بَل هيَ مِن أمور الغَيْبِ العَظيم.

الـخُـروجُ عن الحدِّ المألوفِ

فالقيامَةُ خارجَةٌ عَن حدودِ المَعْهودِ والمألوف، وما خَرَج عَنِ المألوف تعذَّر تصوُّره إلّا عبر التَّهويل والتَّمثيل، فجاء هذا الأسلوبُ؛ ليُقرِّر أنَّ عقول النّاس عاجزةٌ عن الإحاطة بحقيقةِ (الحاقَّة)، ممّا يزيدُها رهبَةً في النُّفوس.

الإيحاءُ بعِظَمٍ لا يُبلَغ

فَصَوْغُ الآية على هذا التَّركيب: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾ تنبيهٌ إلى أنَّ ما ستُخبر به لاحقًا عن الحاقَّة ليس إلّا قَطراتٍ من بَحْرِها، وأوصافُها لا تُدرك بالحَصْر، فهيَ أعظَمُ مِن أن تُحدَّ، أو توصَفَ.

بَـلاغَـةُ هـذا التدرُّج

وقد بدأت السّورة بلفظةِ ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾، ثُمَّ أعقبها استفهامٌ بقوله: ﴿مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾، ثُمَّ ارتقى إلى استفهام مقرونٍ بـ﴿مَآ أَدۡرَىٰكَ﴾، ممّا يدلُّ على تصاعُدٍ في التَّهويل والتَّقريع والتَّهْيِئَة النَّفسيَّة للحدَثِ المَهولِ(1).

دِلالَةُ جُمْلَةِ الاستفهامِ المَعْطوفَةِ عَلى وجْهِ الاعتِراضِ:

الاعتراضُ لتأخيرِ ذِكْـرِ المَـصيرِ وتكثيفِ التَّرقُّبِ والرُّعْبِ

يجوزُ أن تُعدَّ جملةُ: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾ جملةً معترضَةً بين قولِه: ﴿مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾، وبين الانتقالِ إلى أوَّلِ مشاهدِ العذاب والجزاء في قوله: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ﴾، وهذا الاعتراضُ لَهُ وظيفَةٌ بلاغيَّة دقيقةٌ، فمن جهةِ التَّركيب: تقطَعُ الجملةُ الاعتراضيَّة السّياقَ الظّاهريَّ؛ لتزيدَ مِنَ التَّمهيد النَّفسيِّ لِما سيأتي بعدَها، فيجوزُ أن يكون التَّقدير: (الحاقَّة، ما الحاقَّة؟ كذَّبت ثمود وعاد بالقارعة...)، ثُمَّ جاءت جملةُ: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾ اعتراضًا بين الجُمْلَتَيْن.

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 598، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5239، وأبو حيان، البحر المحيط: 10/ 254، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 21، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 113، والدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 191.

ومن جهة الأَثَرِ البَلاغيِّ لهذا الأسلوب؛ فهو يُؤخِّر المفاجأةَ، ويُبقي السّامع معلَّقًا مشدودًا في حالٍ من التَّرقُّب والقلق، فبدل أن يُنتَقل إلى تفصيلِ مشاهدِ التَّكذيب والعذاب؛ تُدخَل جملة: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾؛ لتزيدَ مِنَ الرَّهبة، وتُؤَجِّج الفضولَ والتَّخويف، قبل كَشْفِ النِّقاب عنِ المَصيرِ.

فالمَقصد من هذا الأسلوبِ هو تعليقُ الفِكْرَةِ الرَّئيسةِ، وهي ما سَيَحْدُثُ للمكذِّبين، مِن أجل ترسيخِ وقْعِ اللَّفظ المُرعب (الحاقَّة) في النَّفس، ثُمَّ الانتقال إلى الأمثلة الواقعيَّة التي تدلُّ على هذا الهول، مثل ما وقعَ لعادٍ وثمودَ، فَتَرَكَّبَ المعنى تركيبًا تصعيديًّا بديعًا[1].

دلالَةُ جَريانِ التَّركيب مجرى الأمثالِ في: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾:

استقرارُ تركيبِ (ما أدراك) لتثبيتِ الرَّهبةِ كلَّما وردَ

جاء التّركيبُ القرآنيّ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾ مِن صيغٍ بلاغيَّةٍ استقرَّت على هيئة مخصوصةٍ، حتّى صارت ممّا جرى مجرى الأمثالِ في فصيح الكلام، أي: صارت تُستعمل بصيغَتِها الثّابتة كُلّما أُريدَ التَّعبير عن أمرٍ عظيمٍ يتجاوَزُ طاقةَ الإدراك البشريِّ.

وأصلُ هذا التَّركيب مِنْ قولهم: دَرَيْتُ الأمرَ، أي: علمتُه، ثُمَّ يُقال: أَدْراني فلانٌ الأمرَ، أي: أعلَمَني به، فالتَّقدير: (أدراني اللّهُ الحاقَّةَ، وهي أمرٌ عظيم)، لكِنْ حينَ صيغَت العبارةُ في القرآن: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾، صارت جملةً مركَّبةً مُشَبّعةً بالتَّفخيم والتَّهويل، واستُعملت بصيغَتِها الثّابتة في مواطِنِ الغَيب العظيم والشَّدائد الهائلة.

ثباتُ الصّيغة يُكسبها طابعَ الأمثالِ

وهذا التَّركيب لا يتصرَّف فيه القرآنُ الكريمُ، بل يَجيءُ دائمًا بهذه الهَيْئَةِ، كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٧﴾ [الانفطار: 17]، وقوله سُبحانَهُ: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ ٢٧﴾ [المدثر: 27]، وقوله ﷻ: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ٢﴾ [الطارق: 2] إلى آخرِ ذلك، وهذا الثَّبات

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 113.

في الصّيغة يُكسبُها طابع الأمثالِ، فيُستَحضَر في الذِّهن فورًا معنى العظمةِ والرُّعب والغيبِ الذي لا يُحيطُ بهِ عَقلٌ"[1].

بلاغةُ الإطناب الاستفهاميّ في: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾:

تكريرُ الاستفهام وتطويلهُ لتَصْويرِ الهَوْلِ الذي يَفوقُ الوَصْفَ

جاء السّياق في مطلَعِ السّورة في الكلام عن (الحاقَّة) على وجْهِ الإطناب، وذلكَ مِن خلال تَكرار لفظِ الحاقَّة ثلاثَ مرّات ﴿ٱلۡحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾، ثُمَّ تَكرار الاستفهام مرَّةً بالأسلوبِ العامِّ: ﴿مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾، ومرَّةً بالخطابِ الخاصِّ: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾؛ لأنَّه لمّا كان أمرُ ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾ أمرًا يهزُّ القلوبَ، ويُرعب النُّفوس، ويُذْهِلُ العقول، وكان مِن شأن بعضِ النّاس - لا سيَّما الجلف الجافي - أن يتوقَّف في التَّصديق به، أو يَستَبْعِد حقيقتَه؛ جاء الخطابُ القرآنيُّ بأسلوبٍ مركَّب من التَّأكيد والتَّهويل والإطناب؛ ليدفَعَ التَّردُّد، ويملأ النَّفس بالرَّهبة التي تستحقُّها الحقيقَةُ المَوصوفَةُ.

واستُعمل الاستفهامُ لا لإرادَةِ طلبِ العلمِ بشيءٍ لم يكُنْ معلومًا مِنْ قبلُ، بل لإرادَةِ التَّعظيم والتَّهويل، وهذا مِن أعراف البيانِ العربيِّ: أن يُساق الاستفهامُ حينَ يُراد تعظيمُ الشَّيء، فيكون الاستفهامُ نفسُه وسيلةً للإيحاء بالعظمةِ والرُّعب.

فـ ﴿مَا﴾ في قوله تَعالى: ﴿مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾ مبتدأٌ، وخبره ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾، لكنَّ المعنى المقصودَ ليسَ مجردَ السُّؤال، بل بعثَ الهَوْلِ مِن خلال السُّؤال، أي: أيُّ شيءٍ مهول هذه الحاقَّة؟ ثمَّ تكرَّر الاسمُ الظّاهر، وعُدِلَ إليه عن الضَّميرِ؛ لكونِهِ أقوى في تثبيتِ الرَّهبة وتعظيم الشَّأن؛ لأنَّ اللَّفظ المُرعب حين يُكرَّرُ؛ يُرسِّخُ في الذِّهن الهيبَةَ ويُضاعِفُها. ومِنْ حكمةِ الإطنابِ والتَّهويل هنا: أنَّ هذا المشهدَ ليسَ مجرَّدَ خبَرٍ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 113.

يُلْقَى، بل هو شأنٌ مصيريٌّ، وأمر يفوقُ الوصف البشريَّ، ومن هنا كان لزامًا أن يُؤتى له بأسلوبٍ يهزُّ المستمع، ويقطَعُ تردُّده، وهذا ما تحقَّق بتراكيب: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾، فكلُّ جملةٍ تَصعَدُ بالسّامعِ درجةً في سُلَّم الفزع والتَّوقُّع، حتّى يَصِلَ به إلى ذروة الإنذار قبل أن يُفتَح عليه مشهَدُ العذاب في قوله: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ﴾[1].

دلالة الخِطابِ في قوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾:

تعظيمُ شأنِ السّاعَةِ

الكافُ في ﴿أَدْرَىٰكَ﴾ من قول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ دالَّةٌ على الخطابِ، والأصلُ في الخطابِ أن يكونَ لِمُعيَّنٍ مشاهَدٍ، والمرادُ هُنا النَّبيُّ ﷺ، ويُلْحَقُ به غيرُهُ بطريقِ الأولويَّةِ والأحرويَّةِ. ويجوزُ أن يكون الضَّميرُ - الكافُ - دالًّا على العموم ابتداءً، فيكون ضميرُ الخطابِ خارجًا عن أصلِهِ من إرادةِ المعيَّنِ المشاهَد إلى معنى الشُّمول دفعةً واحدةً.

والوجهانِ متآيلانِ كما هو بيِّن، والمقصودُ تهويلُ شأنِ القيامَةِ وتعظيمُ قدرِها عِنْدَ كُلِّ أحدٍ.

الدَّلالةُ البَلاغيَّة لتقديمِ الخبَر على المُبْتَدَأ في قولِهِ: ﴿مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾:

المقصودُ ليسَ تعريفَ اللَّفْظِ، بل المرادُ إبهارُ السّامعِ بكونِها أمرًا يفوقُ الإدراكَ

ذهبَ بعضُ أهل العلم إلى أنَّ مقتضى التَّحقيق في نَظْمِ الجُمْلَةِ أن تكون ﴿مَا﴾ الاستفهاميَّة، في قوله تعالى: ﴿مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ هي الخبر، و﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾ هي المبتدأ، على خلاف القولِ الشّائع المشهورِ بأنَّ ﴿مَا﴾ مبتدأ و﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾ خبرُها، والسِّرُّ في هذا الوجهِ يَكْمُن في تركيزِ المعنى البلاغيِّ على هَوْلِ الحدَثِ لا على تعريفِ الاسم.

والفَرْقُ بينَ التَّقديرَيْن، أنَّهُ إذا قيل: ﴿مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ على أنَّ ﴿مَا﴾ مبتدأ و﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾ خبر؛ صارتِ العنايةُ بتفسير كلمَةِ (الحاقَّة) بوصفها أمرًا عجيبًا، أمّا إذا قُدِّرت الجملةُ على أنَّ ﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾ مبتدأ،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 339.

و﴿مَا﴾ خبر؛ كان المعنى: الحاقَّة شيءٌ عجيبٌ، وفظيعُ الشَّأن، ومبهَمُ الكُنْه، وهذا أنسَبُ بالمقام الذي يُراد فيه إثارَةُ الرَّهبة لا مجرَّد تعريفِ المُفْرَدَة.

وفي هذا التَّقدير تتَّجه العينُ أوَّلًا إلى ﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾ بوصفِها الشَّيءَ المُرادَ تهويلُه، ثُمَّ تأتي ﴿مَا﴾ لتَجْعَل السّامع كأنَّه يقِفُ أمام عالَمٍ مجهولٍ عظيم لا يُدرَك إلّا بتعظيم شأنِه، فهو أعظمُ مِن أن يُحدَّ، وهذا أوفَقُ للمَقام، فالمقامُ مقامُ إنذارٍ وتهويلٍ لا مقامُ تعليمٍ وتعريفٍ[1].

توجيهُ المُتشابِهِ اللَّفظي بين ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ و(وما يدريك):

تمييز الأسلوبِ لكَشْفِ الغَيْبِ المحقَّق أو حَجْبِه وفْـــقَ مقتضى المقامِ

يفترِق التَّركيب القرآنيُّ ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ عن نظيرِه (وما يدريك) في المقصد البلاغيِّ والدَّلالة النَّفسيَّة، على الرُّغم مِنَ التَّشابه الظّاهريِّ بينَهُما، فتركيبُ ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾: أسلوبُ تهويلٍ وتفخيم، يُستعمَل في سياق إثباتِ غيبٍ عظيم واقعٍ لا محالة، فالمعنى: ستُعلَم به، وسيُبيَّن لك، لكنَّك لا تبلغُه بنفسك، فهو محقَّق الوقوع، ولكنَّه خارج عن حدودِ الإدراك العقليِّ؛ ولذلك يُعقَّب هذا التَّركيب دائمًا ببيانٍ يشرَحُ حقيقةَ الأمرِ المَهول، كقوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ١٠ نَارٌ حَامِيَةُۢ ١١﴾ [القارعة: 10 - 11]، وقوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ٢ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ٣﴾ [القدر: 2 - 3]، وقوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ٣ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ﴾، فالمقصودُ: تهيئةُ السّامع لبيانٍ مهولٍ، لا إنكارَ لوُقوعِه.

وأمّا تركيبُ (وما يدريك)؛ فهو أسلوبٌ إنكاريٌّ، يُستعمَل لنَفْي العِلْم وعدَم الجَزْم بوُقوع الشَّيء، فالمعنى: لا عِلْمَ لكَ بذلك، ولا دليلَ لكَ عليه، وهذا نَجِدُه في مثل قوله: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ٦٣﴾ [الأحزاب: 63]، وقوله: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 21.

﴿١٧﴾ [الشورى: 17]، ففي هذه المواضعِ يُنكَر العلمُ بوُقوع الشَّيء أو توقيته، ويُترَكُ في طيِّ الغيب.

وبلاغة هذا التَّمايز في الاستعمالِ، أنَّ استعمالَ ﴿أَدۡرَىٰكَ﴾ مع ما سيتحقَّق يقينًا، يوجِد وقعًا نفسيًّا ثقيلًا ومُزلزلًا، واستعمالَ (يدريك) مع ما لا يُدْرَى وقوعُه، فيه تأديبٌ للنَّفس وتفويضٌ للعلم إلى اللّهِ تَعالى.

فكلَّما ورد ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ في القرآن الكريم، تلاهُ بيانٌ؛ لأنَّه أسلوبُ تمهيدٍ للكَشْفِ عن غيبٍ مَهول محقَّق، وأمّا (وما يدريك)؛ فلا يُذكر بعدها بيانٌ؛ لأنَّها في مقام نَفي الدِّراية وبقاء الغيبِ مُغْلَقًا[1].

توجيهُ المُتشابِهِ اللَّفظي بين طالعَةِ سورة الحاقَّةِ وصدْرِ سورةِ القارعَةِ:

بـراعَـةُ الـبـيـانِ القُرآنيِّ في انتقاءِ الألفاظِ المُلائِمَةِ لِسياقاتِها

قال اللّهُ ﷻ: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ ١ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾، وقال سُبحانه: ﴿ٱلۡقَارِعَةُ ١ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ٣﴾ [القارعة: 1 - 3]، فاشْتَمَل كِلا الموضعَيْن على اسم من أسماءِ يوم القيامة. ووَجْهُ تخصيصِ كلٍّ من الاسمَيْنِ بمَوْضِعِه، أنَّ آياتِ سورة الحاقَّة تقدَّمها في خِتام سورةِ (ن والقلم) قولُ اللّه تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ ٥١﴾ [القلم: 51]، ولمّا كان يومُ القيامَةِ للفَصْلِ بينَ هَؤُلاءِ الكُفّار وبينَ النَّبيِّ ﷺ؛ وذلك بإحقاقِ الحقِّ على أتَمِّ وجهٍ وأكْمَلِه؛ ناسبَهُ قولُه تعالى: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ ١ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾، وأمّا سورَةُ القارِعَةِ؛ فقَد تقدَّمها قولُ اللّهِ سُبحانَهُ في أواخر سورةِ العاديات: ﴿۞أَفَلَا يَعۡلَمُ إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ ٩ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ١٠﴾ [العاديات: 9 - 10]، فلمّا كان أمثالُ هذا الغافل اللّاهي في حاجةٍ إلى ما يَقْرَعُ سمعَهُ بشِدَّةٍ؛ ناسبه اختيارُ لفظ (القارعة)، فقال تعالى: ﴿ٱلۡقَارِعَةُ ١ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ٣﴾[2].

(1) الراغب، المفردات: (درى)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 114.

(2) سعد عبد العظيم محمد، استدراك ما فات من بلاغة الآيات المتشابهات، ص: 871.

﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ ۝٤ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗاۖ فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ ۝٧ فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ ۝٨﴾ [الحاقة: 4 - 8]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

تقريب هول القيامة بأمثلةٍ من عذاب المكذِّبين

لمّا عَظُم التَّهويل بذِكْرِ الحاقَّة واستفهامِها المعَظَّم؛ أُرْدِفَ ذلك بذِكْرِ مشاهِدَ مِن أحوالها وشواهدَ مِن آثارها، ممّا شاهدَهُ النّاس، أو بلَغَهُم مِن عذاب الأمم المكذِّبة، فبدأ بثَمودَ وعادٍ؛ ليُقرِّب صورةَ الحاقَّة بما وقع مِن قوارِعِها في الدُّنيا على مَن كذَّب بِها[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِٱلۡقَارِعَةِ﴾: أصل (قرع) يدلُّ على ضَرْبِ الشَّيء[2]، يُقالُ: قَرَعْتُ الشَّيءَ أقرَعُه: ضربتُه، والمُقارَعةُ: مُضاربةُ القومِ في الحَرْبِ، وكلُّ شيءٍ ضَرَبْتَه بشيءٍ، فقد قَرَعْتَه، وقَرَعَهُ بالحقِّ: رَماه به، قَرْعًا، والمِقْرَعَة: حَديدةٌ مُطَوَّلَةٌ يُقْرَعُ بها الباب[3]، والقارِعة: الشَّديدة من شدائد الدَّهر، وسمّيَتْ بذلك لأنَّها تَقْرَع النّاس، أي: تضرِبُهم بشدَّتها، وقَوارِعُ القرآنِ: الآياتُ التي مَنْ قَرأها لم يُصِبْه فزَع، وكأنَّها سمّيت بذلك لأنَّها تَقْرَع الجنَّ[4]، والقارِعةُ في الآية مُرادٌ بها الحادثةُ العظيمةُ، وهي يومُ القيامة، وسمّيَ بذلك لأنَّه يقرع القلوب، ويزجُرُها لشِدَّة أهوالِه[5].

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 882.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قرع).
(3) ابن عباد، المحيط في اللغة: (قرع).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قرع).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 510، وطنطاوي، التفسير الوسيط: (قرع).

2) ﴿بِٱلطَّاغِيَةِ﴾: أصلُ (طغي) يدلُّ على تجاوُزِ الحَدِّ، يُقالُ: هو طاغٍ[1]، وطَغى البحرُ: هاجَتْ أمواجُه، وطَغَى الدَّمُ: تَبَيَّغَ، وطَغَى السَّيْلُ: إذا جاءَ بماءٍ كثيرٍ، وكلُّ شيءٍ يجاوز القَدْرَ؛ فقد طَغَى، مثلَما طَغَى الماءُ على قَوْمِ نوحٍ، وكَما طغتِ الصَّيحةُ على ثَمودَ[2]، وتقولُ: سمعتُ طَغْيَ فلانٍ، أي: صَوْتَه، وسمعتُ طَغْيَ القوم وطَهْيَهم ووَغْيَهم، أيْ: صَوْتَهم، وطَغَتِ البقرةُ تَطْغَى: صاحَتْ[3]، والمراد بالطّاغية هنا: الصّاعقة أو الصَّيحة الَّتي أهلكت قوم ثمود[4].

3) ﴿صَرۡصَرٍ﴾: أصل (صرر) يدلُّ على بردٍ وصوت، ومنه: الصِّرُّ: البَرْد، والصَّرَّة: شدَّة الصّياح[5]، والصَّرْصَر: الرّيحُ العاصِفَةُ التي يكونُ لها صَرْصَرَة، أي: دَوِيٌّ في هُبوبِها، من شِدَّةِ سُرْعَةِ تَنَقُّلِها، والتَّضْعيفُ فيه للمُبالَغَةِ في شِدَّتِها[6]، مأخوذٌ من الصِّرِّ: وهو البَرْدُ الذي يَصُرُّ، أي: يَجمَعُ، ويَقبض، فيجعل الأشياءَ تتقبَّض، وتتجمَّد[7]، والمراد هنا: ريحٌ شَديدةُ البَردِ والصَّوت والعُصوفِ، حَتّى كانَتْ تُجَمِّدُ البَدَنَ بِبَرْدِها، فَتَكونُ كَأنَّها تَصُرُّهُ - أيْ تَجْمَعُهُ - في مَوْضِعٍ واحِدٍ، فَتَمْنَعُهُ التَّصَرُّفَ بِقوَّتِه[8].

4) ﴿عَاتِيَةٍ﴾: أصل (عتو) يدلُّ على استكبار[9]، ومنه العُتوُّ، وهو التَّجبُّر والتَّكبُّر، يُقالُ: عَتا يَعْتو عُتوًّا وعِتيًّا: استكبرَ وجاوزَ الحَدَّ[10]، والعاتي: الشَّديدُ الدُّخول في الفساد، المُتَمَرِّدُ الَّذي لا يقبلُ موعِظة، وعَتَتِ الرّيحُ: جاوَزَتْ مقدارَ هُبوبِها، ولَيْلٌ عاتٍ: شَديدُ الظُّلْمَةِ[11]، والمراد بالعاتيةِ في الآية: الرّيحُ الشَّديدة العَصْف[12].

5) ﴿سَخَّرَهَا﴾: أصلُ (سخر) يدلُّ على احتقارٍ واستِذلالٍ، ومن ذلك قولُنا: سَخَّرَ اللّه

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طغي).
(2) الخليل، العين: (طغي).
(3) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (طغي).
(4) طنطاوي، التفسير الوسيط: 15/ 70.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صر).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 259.
(7) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 9، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (صرصر).
(8) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 163، 19/ 114.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عتو).
(10) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (عتا).
(11) الزبيدي، تاج العروس: (عتو).
(12) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 116.

ﷻ الشَّيءَ، وذلك إذا ذَلَّلَهُ لأمْرِهِ وإرادته[1]، وسخَّر اللّٰهُ لفُلان كَذا وكَذا، أي: سهَّله لَهُ[2]، والتَّسخير في الآية معناه: سياقَةٌ إلى الغرض المُختصِّ قهرًا، أو: استعمال الشَّيء على وجه الاستعلاء والاقتدار[3].

6) ﴿حُسُومًاۖ﴾: أصلُ (حسم) يدلُّ على قطع الشَّيء عن آخره[4]، ومنه الحَسْم، وهو إزالةُ أثَرِ الشَّيء، يقال: قَطَعه فحَسَمَهُ، أي: أزال مادَّته، وبه سُمّي السَّيف حُسامًا، وقيل للشُّؤم المزيل لأثرِ مَن نالَهُ: حُسوم[5]، تقول: هذه ليالي الحُسوم؛ تَحسِم الخَيرَ عن أهلها[6]، ويأتي بمعنى التِّباعِ؛ إذا تَتابع الشَّيءُ فلَم يَنْقَطِع أوَّلُه عن آخِره، وإنَّما أُخِذَ من حَسْم الدّاء؛ إذا كويَ صاحِبُه؛ لأنَّهُ يُحْمَى، ويُكْوى بالمِكواة، ثمَّ يُتابع ذلك عليه[7]، وعليه فالمقصود بالحُسوم في الآية: الرّيح الدّائمة القاطعةُ بعذابِ الاستئصال، التي لم تَدَعْ مِن عادٍ أحدًا إلّا هلك[8].

7) ﴿صَرْعَىٰ﴾: أصلُ (صرع) يدلُّ على سقوط شيءٍ إلى الأرض[9]، ومنه الصَّرْعُ، وهو الطَّرْحُ بالأرض، وخَصَّه الأزهريُّ بالإنسان[10]، يُقال: صارَعَهُ فصَرَعَه يَصْرَعُه صَرْعًا وصِرْعًا، فهو مصروعٌ وصريعٌ، والجَمْعُ: صَرْعى، والمُصارَعةُ والصِّراعُ: مُعالَجَتُهما أيُّهُما يَصْرَعُ صاحِبَه[11]، والصَّريعُ مِن الأغْصانِ: ما سَقَطَ إلى الأرْضِ[12]، والمراد بالصَّرْعى في الآية: جَمْعُ صريعٍ، وهو المُلْقى على الأرضِ مَيِّتًا[13].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سخر).
(2) ابن دريد، جمهرة اللغة: (سخر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (سخر)، وأبو المظفر السمعاني، تفسير القرآن: 6/ 35، وعز الدين الرسعني، رموز الكنوز: 8/ 251.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حسم).
(5) الراغب، المفردات: (حسم).
(6) الخليل، العين: (حسم).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة: (حسم).
(8) الواحدي، التفسير البسيط: 22/ 140، وابن عطية، المحرر الوجيز: 2/ 419.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صرع).
(10) الأزهري، تهذيب اللغة: (صرع).
(11) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (صرع).
(12) الجوهري، الصحاح، وابن سيده، المحكم: (صرع).
(13) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 118.

8) ﴿أَعْجَازُ﴾: أصلُ (عجز) يدلُّ على مُؤَخَّرِ الشَّيءِ وأسفَلِه، واحِدُه: عَجُزٌ[1]، ومنه: عَجُزُ الإنسانِ، وهو مُؤَخَّرُهُ، وبه شُبِّهَ مُؤَخَّرُ غَيْرِهِ، وفلانٌ عِجزَةُ ولَدِ أبَوَيْهِ، أي آخِرهم، وصار في التَّعارف اسمًا للقُصور عن فِعْل الشَّيء[2]، وهو ضدُّ القُدرَة، وعَجُزُ النَّخلة: ساقُها الذي يتَّصلُ بالأرضِ منها، وهو أغلظُ النَّخلَةِ وأشدُّها[3]، وهو المرادُ في الآية الكريمةِ.

9) ﴿خَاوِيَةٍ﴾: أصل (خوي): يدلُّ على الخُلوِّ والسُّقوط[4]، يُقالُ: خَوَتِ النُّجوم تَخْوي خَيًّا: أمْحَلَتْ، وذلك إذا سقطتْ، ولم تُمطر في نَوْئِها، وأخْوَتْ مِثْلُه[5]، وخَوَّتِ الإبلُ تخويةً؛ إذا خَمُصت بُطونُها وارْتَفَعَتْ[6]، والخاوي: الخالي، يُقال: خَوَى البيتُ يَخْوي خَواءً؛ إذا خَلا من أهْلِهِ[7]، فالخاوي في الآية معناه: الخالي ممّا كانَ مالِئًا له وحالًّا فيه[8]، والمراد: السّاقِطة التي قد خلَت أعجازُها بِلًى وفسادًا[9].

10) ﴿بَاقِيَةٍ﴾: أصلُ (بقي) يدلُّ على ثباتِ الشَّيء على حالِهِ الأولى، يُقال: بَقيَ الشَّيءُ يبقى بقاءً، وهو ضِدُّ الفناء[10]، ويُقالُ: ما بقيَت مِنْهُم باقيةٌ، ولا وقاهُم من اللّهِ واقية[11]، والباقي ضربان: باقٍ بنَفسِهِ لا إلى مُدَّةٍ، وهو الباري تعالى، ولا يَصحُّ عليه الفَناء، وباقٍ بِغَيْرِهِ وهو ما عَداه، ويَصحُّ عليه الفَناء[12]، ونَفْيُ البقاءِ في الآية مقصودٌ بهِ الفناء والاندثار، أي: فما تَرى لهُم بقاءً، أي: هلكوا عن بَكْرَةِ أبيهم.

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

جاءت الآياتُ تَسوقُ شواهدَ من التّاريخ؛ لتُبَيِّن عاقبةَ مَن كذَّب بهذه الحقيقةِ الكُبْرى، وكيف نَزَلَ بهِم العذابُ في الدُّنيا قبل الآخرة، فكانوا عِبرةً لِمَن بعدَهُم، فقومُ ثمودَ كذَّبوا

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عجز).
(2) الراغب، المفردات: (عجز).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 118.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خوي).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (خوي).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن سيده، المحكم، والزبيدي، تاج العروس: (خوي).
(7) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (خوي).
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 118.
(9) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 357.
(10) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (بقي).
(11) الأزهري، تهذيب اللغة: (بقي).
(12) الراغب، المفردات: (بقي).

بالبعث والنُّشور، فعاقبهم اللّهُ تَعالى بصاعقةٍ شديدةِ الصَّوت والبرق قَضَتْ عليهم في لحظةٍ خاطفَةٍ.

وأمّا قومُ عادٍ فقد سلَّط اللّهُ تَعالى عليهم ريحًا شديدةَ البُرودةِ والعَصْفِ، استمرَّت ثمانيةَ أيّام متواصلَةً بلا انقطاع، كانَت ترفَعُهُم وتَطْرَحُهم، حتّى تَمزَّقت أجسادُهُم، فصاروا كأنَّهم جذوعُ نخلٍ فارغةٍ مِن الدّاخل، ساقطةٍ على الأرض، في صورةٍ مؤلمَةٍ تدلُّ على شدَّة التَّدمير[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

موقع جملة: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ﴾:

استـــئـــنـــافُ العذاب القديمِ لتقويةِ التَّهديد الجديدِ وتعميق التَّهويل في القلوبِ

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ﴾ استئناف بليغٌ يُرادُ به بيانُ حالٍ مِن أحوال ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾، وذلك بعد أن تقرَّر في صَدْرِ السّورة أنَّها أمرٌ لا تُدرِكه العقول، ولا تبلغه العبارات، فحين قيل: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾؛ أُغلق باب التَّصوُّر، وأُحكِمَتْ دائرة الغَيْبِ والرَّهبة، فجاء هذا الاستئنافُ؛ ليَكْشِفَ نموذجًا سابقًا للهلاك، يُنذر الحاضر بما يُشبهه[2].

ومن جهة التَّركيب والسّياق، على اعتبار أنَّ جملة ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾ ختامٌ مستقلٌّ؛ فإنَّ جملة: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ﴾ تأتي بعدها استئنافًا يُذكِّر به ما أصاب الأممَ السّابقة، مِن أجْلِ الاعتبار والتَّهديد، وليس لمجرَّد القصِّ والتّاريخ[3].

دلالة التَّعبير بالجملة الفعليَّة ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ﴾:

تحقُّق التَّكذيب منهم، مع بيانِ شَناعَتِه

جاءَ التَّعبيرُ بالجملةِ الفعليَّةِ ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ﴾؛ لدلالة

(1) أبو بكر الجزائري، أيسر التفاسير: 5/ 420.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 22، ودرويش، إعراب القرآن: 10/ 189.

(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 598، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 239، والطيبي، فتوح الغيب: 15/ 608، وأبو حيان، البحر المحيط: 10/ 254، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 21، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 115.

الفِعْلِ على الحُدوثِ مقرونًا بزمَنِ الفعلِ، وهو هنا الزَّمَنُ الماضي، فيُفيدُ تحقُّقَ صدورِ التَّكذيبِ مِنْهم، فكانوا أَحْرياءَ بما ذُكِرَ بعدُ من عقوبةٍ حلَّت بِهِم، كما أنَّ بناءَ الجملةِ الفعليَّةِ يقتضي تقديمَ الفِعْلِ، وهو هنا: ﴿كَذَّبَتْ﴾، فيكون دالًّا على شناعَةِ صنيعِهم وفظاعَتِه.

بلاغة التَّصعيد في الوعيدِ والتَّحذير:

التَّرَقِّي في الوعيدِ أشَدُّ أثَرًا في نفسِ المُتَلَقِّي

يأتي قول اللّه ﷻ: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ تمهيدًا نفسيًّا وهزًّا وجدانيًّا قبل هذا العَرْضِ المفاجئ للعذاب، فالسّياقُ كلُّه مَبْنِيٌّ على تصعيدٍ متقَن في الرَّهبة والتَّحذير، ثُمَّ يُلقَى المثالُ العَيْنيُّ بما حدَثَ لثَمودَ وعادٍ؛ لتكتمِلَ الصَّدمة النَّفسيَّة في نفس السامع[1].

نُكتة التَّعبير بالتَّكذيب مادَّةً وصيغةً:

الإمعانُ في الباطِلِ بالمُبالغَةِ في التَّكذيبِ

انتقى البيانُ القرآنيُّ فعل التَّكذيب في قول اللّه ﷻ: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ﴾ دون غيرِه؛ لِما في التَّكذيبِ من مَعْنًى زائدٍ على مُطلق الإنكارِ والجحودِ، إلى نسبة الكذب إلى الأمر المُكذَّب بِهِ، فيكونُ في التَّكذيبِ جحودٌ وإنكارٌ مع اتِّهامِ الحقِّ بكونِهِ باطلًا.

واختيرَت صيغَةُ التَّفعيلِ (كذَّب)؛ لدلالَتِهِ على الكثرةِ والمبالغَة، فهُم لَم يُنكِروا شأنَ الآخرةِ إنكارًا عارضًا، بل أمعنوا في هذا الإنكارِ حتّى صار تكذيبًا شديدًا مع كثرة الآياتِ الدّالَّة على صِدْقِ ما كذَّبوا بِهِ، كما أنَّ صوغَ الفِعْلِ ماضيًا يدلُّ على تحقُّقِ وقوعِ التَّكذيبِ مِنْهُم.

نُكْتَةُ ذِكْرِ الأقوامِ المكذِّبينَ:

التَّذكيرُ بما كانَ؛ للإنذارِ بما سَيَكونُ

ذُكِرَ القومُ المكذِّبونَ في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ﴾ وما بعدها؛ للتَّعريضِ بالمشركين من أهل مكَّة، الذين يُشابهونَهُما

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 598، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 239، والطيبي، فتوح الغيب: 15/ 608، وأبو حيان، البحر المحيط: 10/ 254، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 21، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 115.

في تكذيبهم بالبعْثِ والجزاء، فالقرآن الكريمُ يذكِّر بما كانَ؛ ليُنذر بما سيكونُ، والمعنى: أنَّهُ إذا أصرَّ هؤلاءِ على التَّكذيب؛ فإنَّ العذابَ سيَقَعُ بِهِم كما وقعَ بأشباهِهِم(1).

نكتةُ الابتداءِ بعادٍ وثمودَ في السَّرد القصصيّ:

الابتداءُ بالأقْرَبِ إلى الذّاكرة والعِرق والمكانِ، أمكَنُ في الاعتبارِ والاستِحضارِ

الابتداءُ بعادٍ وثمودَ في سَرْدِ الأمم المكذِّبة في قوله تَعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ﴾، مرتبِطٌ بحكمة الخطابِ وسياق التَّأثير، وذلك من حيثُ الأثرُ النَّفسيُّ في المخاطَبين، فإنَّ ثمودَ وعادًا كانا أشهرَ الأمم الهالكة في ذاكرةِ العرب، وأكثرَها تداولًا في أشعارِهِم وأمثالهم وسيَرِهم، فكثيرٌ مِن أهل مكَّة كانوا يمرّون بديارهم، ويعرفون آثارَهُم، فذِكْرُهُم هنا أقربُ إلى نُفوسِهِم وأشدُّ إيقاعًا في وجدانِهم، كما قال اللّه ﷻ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ١٣﴾ [فصلت: 13].

وَكذا مِن حيثُ الانتماءُ اللُّغويُّ والعِرقيُّ، فإنَّ ثمود وعادًا من الأمم العربيَّة البائدة، فالعرب يشعرونَ بقُرب عرقيٍّ وثقافيٍّ مِنْهم، فيكتَسبُ التَّحذير من مصيرهم بُعدًا ذاتيًّا أشدَّ وقعًا من ذِكْرِ أممٍ بعيدةِ الزَّمان أو النَّسب.

وكذا من حيثُ الموقِعُ الجُغْرافيُّ، فإنَّ ثمودَ كانت في الشَّمال (الحِجر)، وعادًا في الجنوبِ (الأحقاف)، فهما يُحيطان بأرض الحجاز، فيصير التَّذكيرُ بهما إحاطَةً رمزيَّة بالجزيرة كلِّها من شمالها إلى جَنوبِها، وكأنَّ هذا تهديدٌ بأنَّ الهلاك قد أحاط بالمكانِ، ولَم يبقَ إلّا أن ينقضَّ على مَن في الوسَط.

وبلاغة هذا التَّخصيص تَظْهَر في الابتداءِ بالأقرب فالأقرب في

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 598، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 239، والطيبي، فتوح الغيب: 15/ 608، وأبو حيان، البحر المحيط: 10/ 254، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 21، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 115.

الوقْعِ والتَّأثير، لا تخصيص تنقيصٍ أو استثناء، بل يُراد به توجيهُ الموعظة إلى مَن يعرِفُ، ويتَّصل، لا إلى مَن يَجْهَل، ويبتَعِدُ[1].

سِرُّ تقديمِ ﴿ثَمُودُ﴾ على (عادٍ):

براعَةُ البيانِ القرآنيِّ في التَّصرُّف بالألفاظ تقديمًا وتأخيرًا

قُدِّم ذِكْرُ ﴿ثَمُودُ﴾ على (عادٍ) في قول اللّه تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلْقَارِعَةِ﴾؛ لأنَّ العذابَ الذي أصابهُم مِنْ جنسِ القَرْعِ، وذلك أنَّه قد أصابَتْهم الصَّواعِقُ المسمّاةُ في بعضِ المواضعِ القرآنيَّةِ بالصَّيحَةِ، ولأنَّ منازلَهم كانت في طريقِ أهلِ مكَّةَ في رحلتِهِم إلى الشّام، فهُم يرونَها رؤيةً متجَدِّدَةً[2].

دلالةُ الواوِ في ﴿ثَمُودُ وَعَادُۢ﴾:

مآلُ كلِّ مكذِّبٍ بالبعثِ هو العذابُ الأليمُ

الواو في قول اللّه تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلْقَارِعَةِ﴾ عاطفةٌ دالَّةٌ في أصلِها على مطلَقِ الجَمْعِ، وهي هنا تدلُّ على اشتراكِ ثمودَ وعادٍ في التَّكذيب والعنادِ، مع إبرازِ اتِّحادِهما في المصيرِ، على الرُّغم من اختلاف مكانَيْهما وزمانَيْهما، وفي ذلك إيماءٌ إلى أنَّ المكانَ والزَّمان لا مدخَلَ لهُما في العذابِ، وإنَّما سببُ عذابِهما هو التَّكذيبُ، فكلُّ من اشتركَ معهما في التَّكذيبِ، فقد اتَّحدَ معهما في المآلِ، وهذا تعريضٌ بكفّار مكَّةَ وغيرِهِم منَ المكذِّبينَ.

بلاغة المجازِ في قوله: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلْقَارِعَةِ﴾:

ما آمَن من عادٍ وثمودَ إلّا قليلٌ

نُسِبَ التَّكذيبُ في قول اللّه سُبحانَهُ: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلْقَارِعَةِ﴾ إلى القومَيْنِ جميعًا، مع أنَّ فيهما مَنْ آمَنَ، كما قال اللّه تعالى في سياق ذِكْرِ قصَّة ثمودَ: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُواْ نَٰدِمِينَ ١٥٧ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ١٥٨﴾ [الشعراء: 157 - 158]، وقال سُبحانَهُ عن نبيِّهم صالح عليه السلام: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ إِنَّ رَبَّكَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 115.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 116.

﴿هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ٦٦﴾ [هود: 66]، وقال الله ﷻ عن قوم عادٍ: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهۡلَكۡنَٰهُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩﴾ [الشعراء: 139]، وقال سُبحانَهُ عن نبيِّهم هودٍ ﵇: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ٥٨﴾ [هود: 58]، فنُسِبَ التَّكذيب في آيةِ الحاقَّة إليهم جميعِهم؛ للدَّلالة على أنَّ المكذِّبين مِنْهم كانوا هم الأكثرينَ، كما أنَّ نسبةَ التَّكذيب إلى ثمودَ وعادٍ فيه ضربٌ مِنْ ضروبِ الإيجازِ، فبدلًا مِن أن يَرِد في النَّظم القرآنيِّ: (كذَّبت أكثر ثمود وعاد)؛ عُدِلَ عن ذلك إلى نسبةِ التَّكذيبِ إليهم على وجهِ العموم، ويُفْهَمُ الاستثناءُ من آياتٍ أُخرى؛ إذ قصصُ القرآنِ لا تُفْهَمُ إلَّا بضمِّ بعض آياتِها إلى بعضٍ.

دلالة الباء في قوله: ﴿بِٱلۡقَارِعَةِ﴾:

لزومُ عادٍ وثمودَ التَّكذيبَ بالحقِّ

الباء في ﴿بِٱلۡقَارِعَةِ﴾ من قول الله ﷻ: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ﴾ دالَّةٌ على الإلصاقِ، على ما هوَ الأصل في دلالةِ الباءِ، ونُكْتَةُ الإلصاقِ ههنا: الإيماءُ إلى شدَّةِ تكذيبهم بالقارعةِ، ولزومِهم هذا التَّكذيبَ بحيث لم يَنْفَكّوا عَنْهُ إلى أن حلَّ بهم العذابُ ونزَلَ.

دلالة (أل) في (القارعة):

عِظَمُ أهوالِ يوم القيامةِ وكمالُها

(أل) في (القارعة) من قول الله تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ﴾ للعهدِ العلميِّ، والمرادُ بها يوم القيامَةِ، ويجوزُ أن تكون (أل) للكمالِ، أي: الكاملةُ في هولِها وما فيها من ضروبِ المصائبِ والبلايا، ولا تنافيَ بين المعنَيَيْن، فإنَّ القارعةَ التي هي يوم القيامةِ، هي أيضًا كاملةٌ في قرْعِها النّاسَ، أي: ضربِهم وإصابتِهم إيّاهُم بأهوالِها.

نكتةُ المجازِ في (القارعة):

شِـدَّةُ الأهـوالِ يومَ القيامَةِ

القارعةُ اسمٌ من أسماءِ يوم القيامَةِ، كالحاقَّة والواقعةِ وغيرِهما، وقد كَثُرَت أسماؤُها لفخامَةِ شأنِها وعظيمِ خطَرِها، فإنَّ كثرة الأسماءِ دليلٌ على عِظَمِ المُسَمَّى، وسُمّي يوم القيامة: القارعة؛

لأنَّها تقرعُ النّاسَ، وتصيبُهم بأهوالها، وعلى هذا فإسنادُ القَرْعِ إليها إسنادٌ مجازيٌّ؛ لأنَّ الأهوالَ تقعُ في زمانِها.

بلاغة العدولِ عن الضَّمير إلى الاسمِ الظّاهر:

تهويلُ المَوْقِفِ وتفخيمُ الحدَثِ

في قول اللّه تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ﴾ وضعٌ للمُظْهَرِ مَوضِعَ المضمرِ، وذلك أنَّ مقتضى الظاهر أن يَرِدَ في البيان القرآنيِّ: (كذَّبت ثمودُ وعادٌ بها)، أي: بالحاقَّة، لكنَّ القرآنَ الكريمَ عدلَ إلى الاسمِ الظّاهر، فقال سُبحانَهُ: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ﴾، والسِّرُّ في ذلك: أنَّ (القارعة) مرادِفٌ جزئيٌّ لـ (الحاقَّة)، وفيها زيادةُ معنى القَرْعِ والضَّرب الشَّديد، ممّا يَزيد من تهويلِ المَوْقِف وتفخيم الحدَث، ولأنَّ إظهارَ الاسمِ يزيدُ في استحضارِ هَوْلِ المصير أمامَ السّامع، بخلافِ الضَّمير؛ فقد يُقَلِّلُ شيئًا مِنَ التَّأثير، ويُضْعِفُهُ[1].

دلالَةُ اصْطِفاء القارعَةِ دونَ غيرها مِن أسماء يوم القيامَةِ:

تصْويرُ ما تُحْدِثه القارعةُ مِن فزعٍ عـامٍّ واختـلالٍ كونيٍّ شامِلٍ

في قول اللّه تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ﴾ وصفٌ شديدُ الوَقْعِ، اخْتيرَ دونَ غيره من أسماء يوم القيامة؛ لِما يَحْمِلُه مِن معاني الصَّدمة والرُّعب، ولِما في لفظِ (القارعة) من تصوير ما تُحدثُه من فَزَعٍ شاملٍ واضطرابٍ كونيٍّ، فهو مِن مادَّة (قرع)، وهي تدلُّ على الضَّرب العنيفِ الذي يُحدِثُ صوتًا مفاجئًا يُزْعِجُ السَّمع، ويُرْهِقُ النَّفسَ، فهي قارعةٌ للنُّفوسِ وللوجودِ.

فأمّا مِنْ جهة المعنى النَّفْسيِّ؛ فإنَّ (القارعة) تُشعر السّامع بحدثٍ مفاجئٍ مدمِّرٍ يهزُّ الكيان، فهي تقرعُ القلوب بالأهوال، حتّى لا يثْبُتَ معَها عقلٌ، ولا يطمئن فؤادٌ، فتكون القيامَةُ قاصمةً لا مهربَ مِنْها، ولا تَمْهيدَ لها.

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 598، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 239، والطيبي، فتوح الغيب: 15/ 608، وأبو حيان، البحر المحيط: 10/ 254، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 21، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 115.

وأمّا من جهة المَعْنى الكَوْنيِّ؛ فإنَّ القارعة لا تُصيب النّاس وحدَهُم، بل تقَعُ على الموجوداتِ جميعًا، فتُدَمَّرُ الجبالُ، وتُدَكُّها، كأنَّها قُرِعت بمطرقَةٍ سَماويَّة لا قِبل لها بها، وتُخْسَفُ الأرضُ، وتُطْمَسُ النُّجوم، وتَنْكَدِرُ الكواكِبُ، وتُكَوَّر الشَّمس والقمَر؛ كلُّ ذلك يُصوَّر بضربٍ هائلٍ يصيب الكونَ في نظامِه، وبهذا كانت (القارعة) تعبيرًا عن تَهْشيم نظامِ العالَم، كما يُهشَّم الشَّيء بالقَرْعِ الشَّديد.

القارعةُ تَقْرَعُ النُّفوس، وتقرَعُ الوُجودَ

فبينَما تدلُّ أسماءُ يوم القيامَةِ - مثل الطّامَّة والصاخَّة - على جانِبٍ مِن جوانبِ القيامة؛ فإنَّ القارعة تختصُّ بوصفِ أثَرِها النَّفسيِّ والكونيِّ معًا، فهي قرعٌ للنُّفوس، وقرعٌ للوجود[1].

معنى الفاءِ ودلالَتُها في قولِه: ﴿فَأَمَّا﴾:

بيانُ عاقِبَةِ التَّكذيبِ

الفاءُ في ﴿فَأَمَّا﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ عاطِفَةٌ تفريعيَّةٌ[2]، فهي تُفرِّعُ على التَّكذيب المذكورِ في قوله تعالى قبلُ: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلْقَارِعَةِ﴾، فكأنَّ المعنى: كذَّبت ثمودُ وعادٌ بالقارعةِ، فكان جزاءُ ثمودَ على هذا التَّكذيب أنَّهم أُهلكوا بالطّاغية.

كما أنَّ الفاءَ تُعْطي معنى التَّعقيبِ أيضًا، وذلك يقتضي أنَّ إهلاكَهُم جاءَ بعد إمعانِهِم في التَّكذيبِ مِنْ غيرِ مهلةٍ، والمرادُ أنَّهم لم يُمْهَلوا في تعذيبِهم إلى يوم القيامَةِ، بل عُجِّل لهم نصيبٌ من العذابِ في الدُّنيا، مع ما ادَّخره اللّه تعالى لهم من النَّكالِ في الآخِرةِ.

دلالة (أمّا) في قوله: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ﴾:

كمالُ عَدْلِ اللهِ تعالى وشديدُ بطشِهِ وانتقامِه

(أمّا) من قول اللّه سُبحانَهُ: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ حرفُ شرطٍ وتفصيل[3]، فهي تفصِّل حالَ المكذِّبين في العقوبة، وتُفرِّق بين المجموع المذكورِ قبلُ في قوله: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلْقَارِعَةِ﴾، فَلم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 115.
(2) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 29/ 58.
(3) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 29/ 58.

يذكُر النَّظم القرآنيُّ أنَّهم عوقبوا على وجهِ الإجمالِ، بل فرَّق بينَهم في جنسِ العقابِ ونوعِهِ؛ إظهارًا لكمال عَدْلِ اللّه تَعالى وشديدِ بطشِهِ، فإنَّه سُبحانَهُ يُجازي كُلًّا على عَمَلِهِ، وله ﷻ مِنْ أنواعِ النَّكالِ والعذابِ ما يكونُ عِبرةً وعظةً لكلِّ مكذِّبٍ.

نُكْتَةُ تقديمِ ثمودَ في النَّظم في قوله: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ﴾:

تقـديـم ثـمـودَ لـقُـرْبِ الـعِـبْرَة ومُـنـاسَـبَـة الصَّيحَة لمعنى القَرْعِ التَّهْويليِّ

قُدِّمت ثمودُ على عادٍ في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ لنُكَتٍ بلاغيَّة دقيقة، تتعلَّق بقُرْبِ المكان، وشدَّة المُشابهَة، وتنظيم عَرْضِ العذابِ في السّياق.

فأمّا التَّقديم اعتبارًا بقُرب الدّيار؛ فقد بَدَأت الآية بثمودَ؛ لأنَّ ديارهم أقربُ إلى أرض قريش، فهُم أهل الحِجْر، تقَع مساكِنُهم شَمالَ الحِجاز، ويعرفُها العرب، بل يمرّون بها في أسفارهم، وقد رأوا آثارَها، وشَهدوا رُسومَها، وهذا القُرْبُ يجعَلُ العبرة أقربَ أثرًا في النَّفس، وأشدَّ تذكيرًا بهلاكٍ ممكنِ الحُدوث.

وأمّا التَّقديم لِمناسبةِ صيحةِ ثمودَ لمعنى (القارعة)؛ فإنَّ الصَّيحة التي أهْلَكَت ثمودَ تُماثِلُ (القارعةَ) في شدَّة صَوْتِها وفَجْأتِها، بل قد وُصفت في مواضعَ أُخْرى بالصّاعقة، وفي بعضها ارتبطَت بالرَّجفة، ممّا يجعلها أشبهَ بنفخة الصّور التي تُبعثر ما في القبور، وتَقْرَعُ الوُجود بقرعٍ مُزَلْزِلٍ، وهذا التَّناسُقُ يَجْعَلُ ذِكْرَهُم هُنا متلائمًا مع التَّهويل الصَّوتيِّ الذي توحي به لفظَةُ (القارِعَة).

وأمّا التَّقديم لترتيبِ التَّفصيل بحسب المقام، فقد أوجز الحديثُ عَن ثمودَ بذِكْرِ (الطّاغية) دونَ تفصيل، وأُخِّر ذِكْرُ عادٍ؛ ليُفصَّل في مصيرِهِم تفصيلًا: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ﴾ إلى آخر البيان، فكان في تقديم ثمودَ تمهيدٌ سريعٌ، وفي تأخير عادٍ تدرُّجٌ في التَّهويل والتَّفصيل؛ ليَبْلُغَ الغَرَضُ قمَّة الإنذار عند انتهاءِ مَشْهَدِهِم[1].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 342، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 116.

أسلوبُ التَّقسيم يُبرِزُ وحدةَ الجَريمَةِ وتعدُّدَ أهوالِ العُقوبَة

بلاغَةُ أسلوبِ التَّقسيمِ في قوله: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ﴾، ﴿وَأَمَّا عَادٌ﴾:

في عَرْضِ عذابِ ثمودَ وعادٍ في قوله: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ﴾، جاء الأسلوب القرآنيُّ على طريقةِ أسلوبِ التَّقسيم، وليس هذا من اللَّفِّ والنَّشْرِ؛ لِما تقرَّر أنَّ من شرط اللَّفِّ والنَّشْرِ تَرْكَ الرَّبْطِ إلى فِطْنَة المتلقّي، أمّا ههنا؛ فقد رُبِطَ كلُّ تفصيلٍ بإجمالِه، فكان هذا من أسلوب التَّقسيم، وأسلوبُ التَّقسيم - في بعضِ صورِه - كأسلوب اللَّف والنَّشر، "في ذِكْرِ مُتَعدِّدٍ أوَّلًا مفصَّلٍ أو مجملٍ، وإتباعِهِ بمُتَعَدِّد آخرَ يتعلَّق كلُّ واحدٍ من أعدادِه بواحدٍ من المتعدِّدِ السّابق، باستثناء قَيْدٍ واحدٍ، فالتَّقسيم فيه تعيينُ كلِّ واحدٍ من المتعدِّدِ اللّاحق بصاحبه من المتعدِّد السّابق، بخلاف اللَّف والنَّشر؛ إذِ القَيْدُ فيه أن يكون بدونِ تعيينٍ، وأن يكون الاعتمادُ فيه على فهْمِ المتلقّي، وهذا هو الفرقُ بينَها"[1].

ففي قول الله تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ﴾ جُمِع بين الأمَّتَين في التَّكذيب، ثُمَّ فُصِّلَ ذلك على طريقة التَّقسيم في قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ﴾، ففُصِّل في نوع العذابِ الذي لَحِقَ كلَّ أمَّةٍ.

وبلاغة هذا الأسلوبِ ههنا: أنَّ الجَمْعَ في البدءِ يوحي بأنَّ المصير واحدٌ للتَّكذيب الواحد، فيُشْعِرُ السّامعَ أنَّ كلَّ مكذِّب مهدَّدٌ بمثل ما سبَق، ثُمَّ يأتي التَّفصيل؛ ليُظهر اختلافَ وسيلة العذاب، لا أصلِهِ، فثمودُ عُذِّبوا بالصّاعقة (الطّاغية)، وعادٌ بالرّيح الصَّرْصَرِ العاتيَة، وهكذا يتوزَّع التَّهويل على جهتين: توحيدٍ في الجريمة، وتنوُّعٍ في الهلاك، فيتَحقَّق أقصى أثرٍ مِنَ التَّخويف والاعتبار.

وعلَّة اختيار هذا الأسلوب: أنَّه يُبقي الذِّهنَ منتبهًا، لا يستقرُّ

(1) حبنّكة، البلاغة العربية: 2/ 408 - 409.

على نمَطٍ واحِدٍ، بل يتلقّى التَّهديد العامَّ أوَّلًا، ثُمَّ يتفاجَأُ بالتَّفصيل المروِّع ثانيًا، وهذا أبلغُ في الزَّجر، وأقوى في دفع النَّفس إلى اليقظة والانتباه، قبلَ أن يَنْزِلَ بها ما نَزَلَ بالأوَّلين(1).

معنى الفاءِ في ﴿فَأُهۡلِكُواْ﴾ ودلالَتُها:

تعجيلُهم بالعقوبَةِ الماحقَةِ

الفاءُ في ﴿فَأُهۡلِكُواْ﴾ من قول الله سُبحانَهُ: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ رابطةٌ لجوابِ (أمّا)؛ إذ فيها مَعنى الشَّرْطِ والتَّفصيل، فهي تدلُّ على أنَّ الهلاكَ مرتبِطٌ بثمودَ ولازِمٌ لها؛ جزاءً على تكذيبِهم بالحقِّ الذي جاءَهُم، وفي الفاءِ أيضًا معنى التَّعقيبِ، فهي تقتضي أنَّ إهلاكَهُم كان سريعًا عاجِلًا؛ لأنَّ العذاب واقعٌ عليهم في الدُّنيا، والدُّنيا مهما طالَ وقتُها؛ فإنَّ زمنَها مقارنَةً بالدّار الآخرةِ قليلٌ.

سِرُّ التَّعبير بفعل الإهلاكِ مادَّةً وصيغَةً:

إهلاكُ ثمودَ إهلاكَ استِئصالٍ

عُبِّر بفعل الإهلاك في قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾؛ لدلالتهِ على الاستئصالِ التّامِّ، وفي اختيار فعل الإهلاك دون الهلاكِ - إذ لم يَرِد في النَّظم القرآنيِّ: (فأمّا ثمود فهَلَكوا) - دَلالَةٌ على أنَّ ما حلَّ بهم كان عقوبةً مقصودةً لا أمرًا عارضًا وقع اتِّفاقًا، وهذا يقتضي شدَّةَ هذه العقوبةِ وعِظَمَها.

نُكْتَةُ بناء الفِعْلِ (أُهْلِكوا) للمفعول:

توجيهُ الانتباهِ إلى نَوْعِ العَذابِ لا إلى مُجْريه

بُنِيَ فعلُ الإهلاكِ لِما لَم يُسَمَّ فاعلُهُ في قول الله سُبحانَهُ: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ للعِلْم به، وتعظيمًا لشأنِهِ، وتهويلًا لأمر الإهلاكِ، ولتوجيهِ العنايةِ إلى نوعِ العذابِ لا إلى خصوصِ المعذِّبِ المُهْلِكِ لَهُم.

نوعُ الباءِ ودلالَتُها في ﴿بِٱلطَّاغِيَةِ﴾:

الباءُ في ﴿بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ من قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ

(1) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 425، والسيوطي، الإتقان: 3/ 320، وحبنّكة، البلاغة العربية: 2/ 403، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 116.

﴿بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ باءُ السَّبَبِيَّةِ[1]، أي: إنَّ الصَّيحةَ العظيمةَ كانت سببًا في إهلاكِهِم وإفنائِهِم.

دلالَةُ (أل) في (الطّاغية):

أُهْلِكَت ثمودُ بالصَّيحة العظيمةِ

(أل) في (الطاغية) من قول اللّه تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ دالَّةٌ على العَهْد العلميِّ، والمرادُ الأمرُ المُجاوِزُ للحدِّ في الإهلاكِ، وهي الصَّيحَةُ أو الصّاعقة التي اسْتُؤْصِلوا بها، ويجوز أن تكون (أل) للكمالِ، أي: أُهلكوا بالأمر الكاملِ في الطُّغيانِ بحيث أبادَهُم، واستأصلَ شأفتَهُم، ولا تنافيَ بين المعنَيَيْنِ، كما لا يخفى.

سِرُّ التَّعبير بالطّاغية مادَّةً وصيغَة:

وصْفُ الصَّيحة بالطّاغية يُجسِّدُ تجاوُزَها حدودَ المألوف في الفَتْك والرُّعب

في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾، سُمّيَتِ الصَّيحةُ بالطّاغية؛ لِما انطوت عليه من شدَّة خارقة، وبأسٍ متجاوزٍ حدَّ المُعتاد، حتّى خرجت عن مقاييسِ الهلاك المألوف في تصوُّر البشر.

بلاغَةُ استعمالِ (الطّاغية) بدل (الصَّيحة)

ولذلك لم يُصرِّح باسم العذاب، بل وُصف بأثرِهِ وهَيْئَته النَّفسية، فجاء بلفظ (الطّاغية) الذي يُطلَق عادةً على الإنسان الجائر في بطشه، فشبَّه اللّهُ تَعالى الصَّيحة بذلك؛ لشدَّة ما أحدثته من الهلاك المُفاجئ الصّاعق، وهذا من الاستعارة؛ إذ شُبِّه أثر الصَّيحة في بطشها بما يفعله الطّاغي؛ إذا انفردَ بالعُدْوان.

التَّعبير بالقوَّة لا بالوسيلَةِ

فالصَّيحة أداةٌ، لكنَّها هنا ليست المخصوصَةَ بالذِّكر، بل المخصوصُ هو ما أحدثَتْهُ من طُغيانٍ وُجوديٍّ، أي: الذي تجاوز كلَّ مقياسٍ في قوَّة الصَّوت وأثَرِه، فهي صيحة، ولكنْ ليسَت كأيِّ صيحة، بل هي (الطّاغية)، أي: الصَّيحة التي تجاوزت الحدَّ حتى ما عاد لها مثيلٌ.

أثَرُ هذا الإطلاقِ في التَّهويل

فحين يسمَعُ السّامع أنَّ ثمودَ قد أُهلكوا ﴿بِٱلطَّاغِيَةِ﴾، يتَّسِع ذِهْنُه

(1) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 29/ 58.

لتَصوُّر كلِّ ما هو بالغٌ في العذابِ شدَّةً عظيمةً، دون أن يُحصَر في صورةٍ واحدة، فيزيد ذلك من سعَةِ التَّخييل وعُمْق التَّأثير(1).

وقد ذهب بعضُ أهل التَّفسير إلى أنَّ المرادَ بالطّاغيةِ ههنا هو عاقِرُ النّاقة(2)، فتكونُ التّاءُ في (الطّاغية) للمبالغَة، والمقصودُ: أنَّ إهلاكَهُم كان بسبب عاقِرِ النّاقةِ؛ لكونِهم رَضوا بصنيعِه. وفي هذا تحذيرٌ شديدٌ من مخالفةِ أمرِ الله تعالى، فإنَّ العقوبةَ قد تَعُمُّ بسبب واحدٍ؛ إذا رضيَ الباقونَ، أو لم يُنكروا عليه، كما قال الله تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٧٩﴾ [المائدة: 78 - 79].

مِـن مـعـاني الطّاغيـة ههنا عاقِرُ النّاقة

نوعُ الواوِ ودلالَتُها في ﴿وَأَمَّا عَادٞ﴾:

الواو في ﴿وَأَمَّا﴾ من قول الله تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ﴾ عاطفةٌ الجملةَ بعدها على جملةِ: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾؛ وذلك لِما بينَهما مِنَ التَّوسُّط بين الكمالَيْن، فإنَّ الجملتَيْنِ اتَّحَدَتا في الخَبَريَّة، وبينَهما تناسُبٌ في اللَّفظ والمعنى، أمّا في اللَّفْظِ فاشتمالُهما على حرف الشَّرْطِ والتَّفصيل (أمّا)، وتَكرارُ فعل الإهلاكِ وبناؤهِ للمفعول، وأمّا في المعنى فاتِّحادُهما في العاقبة السَّيِّئَةِ والجزاءِ القبيح.

بيانُ اشتراكِهما فـي الـعـاقـبَـةِ القَبيحَةِ

دلالَةُ (أمّا) في قوله: ﴿وَأَمَّا عَادٞ﴾:

(أمّا) من قول الله سُبحانَهُ: ﴿وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ﴾ حرفُ شرطٍ وتفصيلٍ(3)، فهي تُفَصِّل حالَ المكذِّبين في العقوبةِ، وتُفرِّق بين المجموعِ المذكورِ قبلُ في قوله: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ

بـيـانُ كـمـالِ عَدْلِ الله تعالى وشديدِ بَطْشِه

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 598، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 239، وأبو حيان، البحر المحيط: 10/ 254، وأبو السعود، إرشاد العقل: 9/ 22، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 116.

(2) ابن الجوزي، زاد المسير: 4/ 328.

(3) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 29/ 58.

﴿وَعَادٌ بِٱلۡقَارِعَةِ﴾، فذُكِرتْ قَبْلُ عقوبةُ ثمودَ وإهلاكُهم بالطّاغية، وهي الصَّيْحة والصّاعقة، وذُكِرَ هنا إهلاكُ عادٍ، فلَم يَذكُر النَّظم القرآنيُّ أنَّهم عوقبوا على وجهِ الإجمالِ، بل فرَّق بينَهم في جنسِ العقابِ ونوعِه؛ إظهارًا لكمال عَدْلِ اللّه تَعالى وشديدِ بطشِه، فإنَّه سُبحانَهُ يُجازي كُلًّا على عَمَلِه، وأنَّ له ﷻ مِنْ أنواعِ النَّكالِ والعذابِ ما يكونُ عبرةً وعظةً لكلِّ مكذِّبٍ.

دلالَةُ الفاءِ في قوله: ﴿فَأُهۡلِكُواْ﴾:

بيانُ لزومِ الهلاكِ بِهِم

الفاءُ في ﴿فَأُهۡلِكُواْ﴾ من قول اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ﴾ رابطةٌ لجوابِ (أمّا)؛ إذ فيها مَعنى الشَّرْطِ والتَّفصيل، فهي تَدُلُّ على أنَّ الهلاكَ مرتبِطٌ بعادٍ ولازِمٌ لهم؛ جزاءً على تكذيبِهم بالحقِّ الذي جاءَهُم، وفي الفاءِ أيضًا معنى التَّعقيبِ، فهي تقتضي أنَّ إهلاكَهُم كان سريعًا عاجِلًا؛ لأنَّ العذاب واقعٌ عليهم في الدُّنيا، والدُّنيا مهما طالَ وقتُها؛ فإنَّ زمنَها مقارنَةً بالدّارِ الآخرةِ قليلٌ.

نوعُ الباءِ ودلالَتُها في ﴿بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ﴾:

الباءُ في ﴿بِرِيحٖ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ﴾ باءُ السَّبَبيّة[1]، أي: إنَّ الرّيحَ الشَّديدةَ البرودةِ المفرطةَ في القوَّة كانت سببَ إهلاكِهِم.

نكتةُ تنكيرِ لفظِ (ريح):

بيانُ عظمَةِ العَذابِ الحالِّ بِعادٍ

نُكِّر لفظُ (ريح) من قول اللّه ﷻ: ﴿وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ﴾؛ للدَّلالَة على التَّعظيم والتَّفخيم، فهي ريحٌ عظيمةٌ شديدةٌ، وفي التَّنكيرِ مَعْنى النَّوع أيضًا، أي: هي ضَربٌ مِن الرّيح غيرُ معتادٍ، وهذا المعنى والذي قبلَهُ متآيلانِ.

(1) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 29/ 58.

سِرُّ إيثار التَّعبير عَنِ الرّيح بالإفرادِ:

الرّيحُ للعَذاب والرّياح للرَّحْمَة، في غالِب الاستعمالِ القُرآنيِّ

اختار النَّظمُ القرآنيُّ التَّعبير عن الرّيح مفردةً، في قول اللّه تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ﴾؛ جريًا على غالب الاستعمال القرآنيِّ في إطلاق الرّيح مفردةً على ما كانت عذابًا، والمجموع منها على ما كان رحمةً وامتنانًا، ووجهُ ذلك - كما قال ابنُ عطيَّةَ - "أنَّ ريحَ العذاب شديدةٌ ملتئمَةُ الأجزاءِ كأنَّها جِسْمٌ واحِدٌ، وريحَ الرَّحمة ليِّنة مُتَقَطِّعة، فلذلك هي رياحٌ"[1].

سِرُّ وصفِ الرّيح بـ ﴿صَرۡصَرٍ﴾:

اجتماعُ شدَّةِ الرّيح في ذاتِها وشدَّةِ صَوْتِها

وُصِفت الرّيحُ بكونِها صرصرًا في قول اللّه تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ﴾؛ زيادةً في تعظيمِها وبيانِ شدَّتِها، وأنَّها جمَعت مع ذلك كونَها صرصَرًا، أي: بالغةً في البرودةِ حدًّا عظيمًا، كما أنَّ فيها دلالةً على شدَّة صوتِها وإزعاجِهِ، وأنَّه صوتٌ متكرِّرٌ كما يُشْعِرُ به تَكرار المقطَع الصَّوتيِّ لـ ﴿صَرۡصَرٍ﴾.

بلاغة الاستعارة في وصف الرّيح بالعتوِّ: ﴿بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ﴾:

الرّيحُ المهلكةُ رمزٌ للطُّغيان الكونيِّ؛ إذا غضِب اللهُ تَعالى

وُصِفت الريح بـ (العاتية) في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ﴾؛ للدَّلالة على تجاوُزِها الحدَّ في القوَّة والبطش، لا على مجرَّد شدَّتها الطبيعيَّة، فلفظة ﴿عَاتِيَةٖ﴾ مأخوذة من العتوِّ، وهو في الأصلِ: التَّكبُّر والتَّجبُّر[2]، فشُبِّهت الرّيحُ في شدَّتها بإنسانٍ متكبِّرٍ لا يَخضَعُ لقيدٍ، ولا يسمَعُ لأمْرٍ، فهي ريحٌ طاغيَةٌ متمرِّدة على نظام الطَّبيعة المألوف، لا تسير برِفْقٍ واعتدالٍ، بل تندَفِعُ بقوَّة، كأنَّها تُمارس العصيان والعنادَ ضدَّ القوم المُهْلَكينَ، ففي التَّركيب الوصفيِّ استعارةٌ تمثيليَّة، وهذه الاستعارة تُصَوِّر الرّيح وكأنَّها ذات إرادة متمرِّدة، فيكون

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/ 233.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والسمين، عمدة الحفاظ: (عتو).

الهلاكُ بها أبلغَ وأرعبَ؛ لِما تحملُه من دلالة على بطشٍ غير مسبوقٍ وانفلاتٍ كونيٍّ شديدٍ[1].

بلاغةُ الكناية في وصف الرّيح بالعُتوّ: ﴿بِرِيحٍ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ﴾:

خـروجُ الرّيـح في شِـدّتها عن المألوف

ذكرَ بعضُ أهل العلْم في تفسير قول اللّه تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ﴾ أنَّ معناه: عَتَتْ على خُزّانها، أي: على الملائكة الموكَّلين بها، وهذا القول يُراد به الكناية عن شِدَّتها المُفْرطة وخروجها عن المألوف في القَدْرِ والنِّظام، لا أنَّ الرّيح عصتْ أمرَ اللّهِ تَعالى حقيقةً؛ إذ كلُّ شيء في الكون يجري بأمره، بل المعنى: أنَّ هذه الرّيح جاءت بلا ضَبْطٍ ولا تقييد، ولا رفق في التَّقدير، بل خرجت من نطاقِ الرَّحمة إلى دائرة النِّقمة، وهذا التَّعبير من المجاز التَّمثيلي الذي يصوِّر الفظاعةَ بأبلغ صورة[2]، فدارَ وصفُ الرّيح بالعُتوِّ بين الكنايةِ والاستعارةِ، ولكلٍّ منْهُما وجهُهُ وتوجيهُهُ.

موقِعُ جملةِ: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ﴾ ممّا قبلها:

الـهلاكُ لا يأتي مِنَ الطَّبيعة بَل مِن تسخير اللهِ تَعالى حينَ يَشاءُ

جاء التَّركيبُ في قوله تَعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗاۖ﴾؛ استئنافًا يُفصِّل كيفيَّةَ الهلاك بالرّيح، بعد أن وُصف نوعُها بكوْنِها ﴿صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ﴾، فجاءت هذه الجملةُ بيانًا يُظهر مدَّة تَسْخيرها، واستمرار عذابِها فيها بِلا انقطاعٍ.

وذهبَ بعضُ أهل العلم إلى أنَّ هذه الجملةَ واردَةٌ لرَفْعِ توهُّم؛ إذْ رُبَّما يُخَيَّل إلى متوهِّم ما أنَّ تلك الرّيح العاتية كانَت حادِثَةً طبيعيَّة، أو اضطرابًا فلكيًّا دوريًّا، فجاء النَّصُّ ليَرْبِطَها بالتَّسخير الإلهيِّ المباشر، أي: أنَّ اللّهَ تَعالى هو مَن أطْلَقَها عليهم بِقَصْدِ الإهلاكِ والتَّأديب، لا بموجِبِ الطَّبيعة ولا بِحُكْمِ الكَواكِبِ[3].

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 599، وأبو حيان، البحر المحيط: 10/ 255، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 116.

(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 599، والطيبي، فتوح الغيب: 15/ 610، وأبو السعود، إرشاد العقل: 9/ 22.

(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 239، وأبو السعود، إرشاد العقل: 9/ 22.

بلاغةُ استعمال مادَّةَ (سخر) في قوله: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ﴾:

اختصاصُ هذه الرّيحِ بالإهلاكِ والتَّدمير

جاء فعل (سخَّر) في قوله تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗاۖ﴾، لا ليُبيِّن مجرَّد الإرسال، بل ليُصوِّر ما هو أبلغُ من ذلك، وهوَ أنَّ الريح كانت مأمورةً بِالإهلاك، لا تَمْلِكُ خيارًا في الانصرافِ أو الهدوء. وأصل التَّسخير في اللُّغة يدلُّ على الإلزام والإجبارِ على الفعل، فهو غَصْبٌ على العمل، فجاء هنا ليَدُلَّ على أنَّ اللّه تَعالى كوَّن الرّيح الصَّرصر تكوينًا مخصوصًا، جعلَها تتجاوَزُ ما يُعرف مِن خَصائِصِ جِنْسِ الرّياح، حتّى كأنَّها خرجَت عَن طِباعِها وصارَت آلَةً نازلَةً للعَذابِ فَقط.

فقوله تَعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ﴾ فيه معنًى ضمنيٌّ للإرسال، لكنِ اخْتيرَ فعلُ (سخَّر) بدلًا من (أرسل)؛ لأنَّ في التسخير تخصيصًا واستدامةً وتقييدًا باتِّجاه واحدٍ، وهو العدوان لا الرَّحمة، والهَدْمُ لا الإحياء، وهذا أبلَغُ في التَّهويل وأشدُّ في الوصف، فليس الأمرُ مجرَّدَ ريحٍ عاتيَةٍ، بل هيَ ريحٌ مُسخَّرة عليهم بالضّيق والإحاطة والإلحاح، كما يُسخَّر السَّوط للجلد، أو النّار للإحراق، فلا تملِك أن تُراعي، ولا أن تتصرف[1].

دلالة التَّعبير بفعل التَّسخير ماضيًا في: ﴿سَخَّرَهَا﴾:

حين تُسخَّر أدواتُ الرَّحمة للعذاب، يكون الهلاكُ مقصودًا لا عارضًا

في التَّعبير بفعل التَّسخير ماضيًا في قول اللّه تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ﴾ دلالةٌ على قصد التَّدميرِ وتحقُّقِه، فهي ريحٌ موجَّهة مأمورةٌ، لا عاصفَةٌ عَمْياءُ، وهذا فيه إشارة إلى أنَّ الكونَ مسخَّر بإرادةِ اللّهِ تَعالى وحده، لا بعشوائيَّة المدارات أو حتميَّة الأجرامِ.

بلاغةُ الاستعارة في قوله: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ﴾:

أصلُ التَّسخيرِ: الغصبُ على عملٍ ما، وقد استعيرَ في قول اللّه تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ﴾؛ "لتكوين الرّيح الصَّرصرِ تكوينًا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 117.

تهويلُ شأنِ العذابِ وبيان عظمَةِ القوَّة الإلهيَّة

متجاوِزًا الحدَّ المتعارَفَ في قوَّة جِنسِها، فكأنَّها مُكرهةٌ عليهِ"[1]، والمعنى: أنَّ الرّيح لم تأتِهم على النَّحو المعهودِ المعروفِ، بل جاءَتهم على وجهِ القَسْرِ والقَهْر، وفي هذا تهويلٌ لشأنِ العذاب، وبيانٌ لعظمة القوَّة الإلهيَّة.

دلالَةُ حَرْفِ الجَرِّ (على):

تسخيرُ الرّيح وتَسْليطُها عَلى المُكَذِّبينَ

عُلِّقَ فعل التَّسخير بحرف الجرِّ (على)، في قول اللّه تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ﴾، وهو حرفٌ دالٌّ في أصلِه على الاستعلاء، وهو هنا دالٌّ على الاستعلاءِ الحقيقيِّ؛ وذلك بأنْ كانت هذه الرّيح تأتيهم مِن كلِّ جانبٍ، فأحاطَت بِهم، واستَعْلَتْ عليهم، كما أنَّ تعليقَ فعل التَّسخيرِ بالحرف (على) فيه إيماءٌ إلى تَضْمينِهِ فعلَ (سلَّط)، والمعنى: سَخَّرها، وسلَّطها عليهم على وجْهِ التَّعذيب والإهلاكِ.

دلالَةُ التَّنصيص على مُدَّة التَّسْخيرِ:

مِن جُمْلَةِ تحقيقِ الأمورِ وإيضاحِ الخَفيِّ تحقيقُ زمَنِ عَذابِهِم

لما كان اسمُ هذه السورة الحاقَّة، وكان من مقاصدها تحقيقُ الأمور، وكشف المشكل وإيضاح الخَفيّ؛ ذُكِر زمنُ عذابِهم على وجه التَّحقيق بما لم يرد في مواضِعَ أخرى، فذُكِرَتِ الأيام والليالي، فقال سُبحانَه: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ﴾[2].

نُكْتَةُ تقديم اللَّيالي على الأيّام:

المصائبُ في اللَّيل أشَدُّ وأفظَعُ لقلَّة المُغيث وخَفاء المَنَافِذ

قُدِّمت اللَّيالي على الأيّام في قول اللّه تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ﴾؛ لأنَّ المصائبَ فيها أشدُّ وأفظَعُ وأقبح؛ لقلَّة المغيث والنّاصر، وعدم العِلْم بالمآخِذ وخفاءِ المَقاصد والمَنافذ، ولأنَّ العددَ معَها يُذكَّر في اللَّفظ؛ لكونِ واحدِها مؤنَّثًا (ليلة)، وتذكيرُ اللَّفظ أدَلُّ على القوَّة في المعنى، وقُدِّمتِ اللَّيالي أيضًا؛ لأنَّها سبعٌ، والسَّبْع أجمَعُ العدَدِ، وبهِ تَحْصُلُ المُبالغَةُ في الآحاد، وليس في تقديم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 117.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 344.

اللَّيالي دلالَةٌ على أنَّ ابتداءَ العَذابِ كانَ فيها؛ لأنَّ ذلك يلزَمُ مِنْهُ أن تكونَ اللَّيالي بعدد الأيّام(1).

بلاغَةُ تَنْكير ﴿لَيَالٍ﴾ و﴿أَيَّامٍ﴾:

عدَمُ انقِطاعِ الرّيحِ مُدَّةَ تعذيبِهِم

نُكِّر لفظُ ﴿لَيَالٍ﴾ و﴿أَيَّامٍ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ﴾؛ تعظيمًا للزَّمن الذي وقع فيه التَّعذيبُ والإهلاكُ، وللإيماءِ إلى أنَّ الرّيحَ لم تَفْتُر لحظةً خلالَ هذا الزَّمَنِ جميعِهِ(2).

دلالاتُ اصْطفاء لفظِ ﴿حُسُومًا﴾:

إيثار لفظ (حسومًا) لتكثيف معاني الاستئصال والدَّوام والعذاب المُسْتَرْسِل

جاءت كلمةُ ﴿حُسُومًا﴾ في قوله تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾؛ جامعةً وجوهًا متعدِّدة من العذابِ المُتَّصل والاستئصالِ المُحْكَم، ممّا يكشف عن براعة البيانِ القرآنيِّ في اختيار اللَّفظ الجامع لأقصى الأثر، ومِنْ ذلك:

أوَّلًا: إذا حُمِلَ لفظُ ﴿حُسُومًا﴾ على أنَّهُ جمع (حاسم)، كما في نظائرها من جمع الصِّفات، كقُعود، وشُهود، فإنَّه يكون قد غُلِّبت (الأيّام) على (اللّيالي) في اللَّفظ؛ لكونها أكثرَ عددًا، فيكون المعنى: أنَّها أيّامٌ متتابعة لا ينقَطِعُ فيها العذابُ لحظَةً، وهي من الدَّوام المُرْعِب الذي لا يترك فرصةً للتَّنفُّس ولا أملًا في النَّجاة.

ثانيًا: يجوز أن تكونَ ﴿حُسُومًا﴾ من (الحَسْم) بمعنى: القَطْع، فالوصفُ يشيرُ إلى أنَّ تلك الأيّام كانت قاطعة، تستأصِلُ بلا رحمة، كما يُحْسَمُ الدّاءُ بالمِكْواة، فيكون فيه استعارةٌ تصريحيَّةٌ تَبَعيَّةٌ(3)، وهذا مِن أبلَغِ ما يُقال في الإبادة، حتّى شُبِّه العذابُ بالسَّيف أو الكَيِّ المُسْتَأْصِل.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 344.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 344.
(3) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 243.

ثالثًا: ﴿حُسُومًا﴾ يَحتمِلُ أن تكون مصدرًا لا جمعًا، وهو منصوبٌ على أنَّهُ مفعولٌ لأجله، أي: سُخِّرت لأجل الحَسْم والاستئصال، والمعنى: أنَّ اللّه تَعالى أرسلها لهدفٍ محدَّد، لا عرضٍ طارئ، وهو القَطْعُ التّامُّ لأصلهم وبقاياهُم.

وكل هذه المعاني تَحْتَمِلُها هذه اللَّفظة الواحدة، ممّا يدلُّ على أنَّ اختيار ﴿حُسُومًا﴾ من الإعجاز البيانيِّ؛ إذ حَمَلَت في طيّها مَعْنى التَّتابعِ، والاستئصالِ، والقصديَّةِ في الإهلاك، وكلُّ ذلك في موضعٍ واحدٍ يقتَضي الرَّهبة والاعتبارَ[1].

دلالةُ الفاءِ في قوله: ﴿فَتَرَى﴾:

بيانُ حالِهم في الهلاك بعدَ انقِضاء زمَنِ الرّيح المُدَمِّرة

الفاءُ في ﴿فَتَرَى﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ﴾ حرفٌ دالٌّ على الاستئنافِ[2]، والجملةُ بعده مستأنَفَةٌ لبيانِ ما آلَ إليهِ أمْرُهم بعد الرّيح التي دامَت سبعَ ليالٍ وثمانيةَ أيّام كاملاتٍ.

ويجوزُ أن تكون الفاءُ عاطفةً[3]، وهي دالَّةٌ على التَّعقيب، وذلك مفيدٌ أنَّ الرّيحَ بمجرَّد انقضاءِ زمانِها الذي قدَّره اللّه تعالى لعصْفِها عليهم إهلاكًا وتدميرًا؛ صار أمْرُهم على النَّحو المذكور في الآيةِ، مِنْ كونِهم مَوْتى وهَلْكى.

مَعْنى الرُّؤية في: ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ﴾:

بيانُ تَحقُّقِ هَلاكِهم

الرُّؤية في قوله تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ رؤيةٌ بصريَّةٌ، والمعنى أنَّ الرّائيَ يراهُم لو كان حاضرًا تلكَ الحال[4]، ويُؤيِّدُ هذا المعنى التَّعبيرُ بالفعل المضارعِ الدّالِّ على

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 599، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 239، وأبو حيان، البحر: 10/ 255، وأبو السعود، إرشاد العقل: 9/ 22، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 117، ودرويش، إعراب القرآن: 10/ 190.

(2) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 29/ 58.

(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 190.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 118.

الحالِ، وهذا يُفيدُ تحقُّقَ هلاكِهم وإدراكَ ذلك على وجهِ الضَّرورةِ بحيث لا تُخطئهم العينُ.

ويَجوزُ أن تُحْمَلَ الرُّؤية على كونِها عِلْميَّةً، أي: تَعْلَمُهُم صَرْعى فيها، كما لو أنَّك تَراهُم بأمِّ عينك؛ إذْ لَمْ يُكتَب للنَّبيِّ ﷺ أن يُشاهِدَهُم عندَ وُقوعِ الهلاكِ، ويكون هذا من أساليب القرآن البديعة؛ إذ ينقل الإدراكَ العقليَّ إلى مستوى الإبصار؛ ليُجسِّد الصّورة، ويُقرِّبها إلى الذِّهن، فيصير الخبَرُ عنهم أقربَ إلى الحسِّ والمشاهدة منه إلى الغَيْبِ والسَّماع.

تصويرُ عِلْمِ النَّبيِّ ﷺ بهَلاكِهم كالمُشاهِدِ

وتَكمُن البلاغة هنا في أنَّ السّياق سياقُ تهويلٍ وإنذار، فناسَبَ أن يُصاغ العِلْمُ بصيغة الرُّؤية؛ لأنَّ المُشاهدَةَ أبلغُ أثرًا في النَّفس، وأشدُّ إيقاظًا للقلب، وكأنَّ الله تعالى يقول لنبيِّه ﷺ: ستَعْرِفُ ما فعلتِ الرّيح بهم كأنَّك واقفٌ على أجسادِهِم الممدَّدة تحتها.

تحويلُ العِلْمِ إلى المُشاهدَة؛ لتَقريب هولِ الهَلاك وشدَّة المصيرِ

وبهذا يتحقَّق أثر تربويٌّ وبلاغيٌّ مزدوج، أوَّلهما: تصوير الهلاك تصويرًا حسّيًّا يُقارب الحقيقة، والآخَرُ: بثُّ الرَّهبة في نفوس السّامعين حتّى كأنَّهم يُشاهدون تلك الجُثَثَ المُلقاة في العراءِ[1].

دلالة الخطابِ في قوله: ﴿فَتَرَى﴾:

بلوغُ حالِهم في السّوءِ والفَظاعَةِ حدًّا ظاهرًا لكلِّ أحدٍ

فاعِلُ الفعلِ (تَرى) مِنْ قولِ الله تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ﴾ ضميرٌ مستترٌ وجوبًا تقديرُهُ: أنْتَ، وهذا الخطابُ يجوزُ أن يكون لغيرِ مُعَيَّن، فيكون ضميرُ الخطابِ خارجًا عن أصلِهِ مِنْ إرادَةِ المعيَّنِ المشاهَدِ إلى إرادَةِ العُموم، والمقصودُ ليسَ توجيهَ الخطاب إلى شخصٍ بعَيْنِه، وإنَّما المعنى: لو أنَّ رائيًا رأى ذلك؛ لرأى منظرًا مَهولًا يفوق الوصف، فيُرادُ بالضَّمير المستتر (أنْتَ) كلُّ من يصحُّ خطابُهُ، فيكونُ عمومًا بدليًّا.

(1) زكريا الأنصاري، فتح الرحمن، ص: 578.

وهذا الأسلوب من أدقِّ أساليب العربيَّة في استحضار الأمور العظيمة الغائبة؛ إذ يُخيَّل للسّامع كأنَّه يشهَدُ الواقعَة أمامه، ويُلقى إليه الكلامُ على هيئةِ مَن يُشاهِدُ الحدَث، حتّى تتجاوز الكلماتُ حدودَ الغَيْبِ، وتُلقى في حيّز التَّصوير الواقعيِّ.

وهذا ليس من باب الالتفات؛ لأنَّ الالتفات انتقالٌ مِن الخِطاب إلى الغَيْبَة، أو التَّكلُّم إلى الخطاب، ونحو ذلك، وليس هو كذلكَ هنا، بل هو خطابٌ لكلِّ مَن يتأتّى خطابُهُ، والمقصودُ تحفيزُ التَّخييل وإيقاظ المشاعر، لا إسناد الخطاب لشخص بعينِه، والمعنى: أنَّ حالَهُم في السّوءِ والفظاعَةِ بلغَ حدًّا مِنَ الظُّهورِ لو وجَّهَ أيُّ أحدٍ بصرَهُ إليهم؛ لرأى ذلك.

وهذا من وجوه إعجاز القرآن؛ إذ يتحوَّل الغيبُ إلى مشهَدٍ، ويتحوَّل التَّهديد إلى حضورٍ حيٍّ، فيؤدّي الأسلوبُ غايتَهُ في إيقاعِ الوجَلِ، وتخويف القُلوب، وتنبيه الغافِلين[1].

دلالَةُ التَّعبير بلفظ ﴿ٱلْقَوْمَ﴾:

القبيلةُ الكاملة تَـنْـدَثِـر حـينَ يَعُمُّها التَّكذيب وتُـعـرِض عن الحقِّ

لفظ ﴿ٱلْقَوْمَ﴾ في اللُّغة يُطلق على الجماعَةِ والقَبيلَةِ، خُصوصًا في مقام القوَّة والتَّناصر، واستعماله هنا في قول اللّه تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ﴾ يُراد به جميعُ قَبيلَتِهم برجالِها وكيانها وقوَّتها، لا مجرَّد بعضِ أفْرادِها، والمقصودُ به: المكذِّبونَ جميعُهم لا مَن آمَنَ مِنْهُم؛ إذ مِنَ المتقرِّر أنَّه قد آمَنَ من قوم هودٍ جماعَةٌ، كما دلَّ عليه قولُ اللّه تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝٥٨﴾ [هود: 58].

فالتَّعبير بلفظِ ﴿ٱلْقَوْمَ﴾ لا يترك مجالًا لظنِّ البقاءِ أو النَّجاة لأحدٍ منهم، بل المشهد يُجسِّد سقوطَ كيانٍ بأسره، لا أشخاصٍ

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 239، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 22، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 118.

متفرِّقين، وكأنَّ الرّيح قد أطاحت بهويَّتهم الجَمْعيَّة وتاريخِهم وبُنْيانهم الإنسانيِّ بالكامل.

وهذا مِن التَّهويل الموجَّه إلى المخاطَبين، أي: أنَّ عذابَ اللّه تعالى لا يَستَثْني قوَّةً ولا قبيلة، ولا تَشفَعُ فيه كثرةٌ ولا جاهٌ، فحين ينزلُ العِقابُ الإلهيُّ، يَطْوي صفحةً كاملةً من قومٍ كانوا يومًا عُمَدَ الأرضِ ومهابَها[1].

نُكْتَةُ الإظهارِ في مقام الإضمارِ:

لا يُغني شيءٌ مِن عذابِ اللهِ تعالى

في قول اللّه سُبحانه: ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ﴾ إظهارٌ في مقام الإضمارِ، فإنَّ مقتضى الظّاهِرِ أن يَرِد النَّظمُ القرآنيُّ: (فتراهم فيها صرعى)؛ لأنَّه تقدَّم ذِكْرُهم في قوله: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾، وعُدِلَ عن الإضمار إلى الإظْهارِ؛ تنبيهًا على أنَّ قوَّتهم واجتماعَهم - الذي يدلُّ عليه لفظُ (القوم) - لم يُغْنِ عنهم مِنْ عذابِ اللّه تَعالى شيئًا.

دلالة الظَّرفيَّة في قوله: ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا﴾:

انْحِباسُهم في العذابِ ودَوامُه عليهم في جميع أيّامه ولَياليه

الضَّميرُ في ﴿فِيهَا﴾ من قول اللّه ﷻ: ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ﴾ راجعٌ إلى الرّيح أو إلى اللَّيالي والأيّام[2] الواردة قبلُ في قول اللّه تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾، أمّا على احتمالِ رجوعِ الضَّمير إلى الرّيح؛ فيُفيدُ حرفُ الظَّرفيَّة أنَّ الرّيح التي سُلِّطت لتَعذيبِهم صارت بمنزلةِ المستقَرِّ لَهُم، أي: أنَّهم غارقونَ فيها، تدور بهم في الجوِّ، وترمي بهم صَرْعى هَلْكى، فتكون الظَّرفيَّة دالَّةً على أنَّهم كانوا محبوسين في هذا العذاب، وأمّا على عَوْدِ الضَّمير إلى اللَّيالي والأيّام؛ ففيها إشارةٌ إلى استمرارِ العذابِ في هذا الزَّمَنِ كُلِّه، لم يَفتُر عَنهم لحظةً حتّى أرْداهُم هَلْكى.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 118.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 22.

نكتةُ تقديم ﴿فِيهَا﴾:

هَلاكُهُم جميعًا في مدّة التّعذيب

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ ﴿فِيهَا﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ﴾؛ لإفادَةِ الحصرِ والقصْرِ، والمقصودُ أنَّ هلاكَهُم كان في تلك المُدَّة لم يتجاوَزْها، بحيثُ لمّا سَكَنَت ريحُ العذابِ؛ كانوا كلُّهم صَرْعى موتى، لم يُبْقِ العذابُ مِنْهم باقيَةً لم تَهْلِكْ بعدُ.

دلالة التّعبير بـ ﴿صَرْعَىٰ﴾:

هلاكُ عادٍ بأشَدِّ أنواعِ الإهلاكِ

الصَّرْعى في قول اللّه تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ﴾ يُراد بهم الهَلْكى، وأصلُ ﴿صَرْعَىٰ﴾ جمعُ صريعٍ، وهو المُلْقى على الأرضِ ميِّتًا[1]، وفي هذا اللَّفْظِ مع ذِكْرِ أنَّ تعذيبَهم كان بالرّيحِ إيماءٌ إلى أنَّهم قد أُلْقوا على الأرض بقوّة وعنفٍ وشدَّةٍ.

نُكْتَةُ صَوْغِ لفظِ ﴿صَرْعَىٰ﴾ على زِنَة (فَعْلى):

اجتماعُ المادَّة والصّيغة في (صَرْعَى) للدَّلالةِ على الهلاكِ

﴿صَرْعَىٰ﴾ على زِنَة (فَعْلى)، وهو مِنْ جموع التَّكسير الدّالَّةِ على الكثرةِ، ففي التَّعبير بِهِ في قول اللّه تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ﴾ دلالةٌ على هلاكِ عددٍ ليس بالقليلِ، بل إنَّ الرّيح سُلِّطت على جميع عادٍ، فأهلكَتْهم إلّا مَنْ آمَنَ بنبيِّ اللّه تعالى هودٍ عليه السلام.

ثمَّ إنَّ وزنَ (فَعْلى) يطَّردُ في العربيَّةِ في جمع الأوصافِ الدّالَّةِ على الهلاكِ أو التَّوجُّع أو التَّشتُّتِ، ومِنْه: قتيل وقَتْلى، وجريح وجَرْحى، وأسير وأسْرى، ومريض ومَرْضَى، ونحو ذلك[2]، فاستعمالُ هذه الصّيغَةِ (فَعْلى) في ﴿صَرْعَىٰ﴾ مشعِرٌ بالهلاكِ بمادَّتِه وصيغتِه معًا.

بلاغَةُ التَّشبيه في قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾:

الكاف في (كأنَّ) مِنْ قول اللّه تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ حرفٌ دالٌّ على التَّشبيهِ، و(أنَّ) للتَّوكيد، وذهب جماعةٌ من

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 118.
(2) أحمد الحملاوي، شذا العرف في فن الصرف، ص: 89.

أهل العربيَّة إلى أنَّ (كأنَّ) برُمَّتها حرفٌ دالٌّ على التَّشبيهِ، والتَّشبيه في الآيةِ تشبيهٌ مرسَلٌ؛ إذ شُبِّه القوم بعد أن صَرَعَتْهُم الرّيح بجذوع النَّخل الملقاة على الأرض؛ لِما في هذه الصّورة من دقَّة في توصيف الهلاك وشناعة المنظَر.

تشبيهُهُم بأعجازِ النَّخل الخاويةِ؛ لاستحضارِ صورةِ الجُثَثِ الطِّوالِ المُهْمَلَة بعدَ انقضاءِ فائِدَتِها

وأعجازُ النَّخل الخاويةُ: هي أصولُها المقطوعة الخاليَةُ مِنَ الحياة، وقد شُبِّه بها هؤلاء المكذِّبون، إمّا لطول قاماتِهم وضَخامة أجسادِهم، فإنَّ عادًا كانَتْ مشهورَةً بذلك، أو لأنَّ جُثَثَهُم الطِّوالَ بَدَتْ كالأعمدةِ المُلْقاة، بلا حياةٍ ولا حركةٍ، كما تُترك أعجازُ النَّخل بعد قطعها[1].

العتاة إذا سَقَطوا في العذابِ؛ بَدَوْا كجذوعٍ خاويةٍ لا نَفْعَ فيها ولا حياةَ

وثمَّةَ وجهٌ آخر في التَّشبيه، وهوَ أنَّ أعجاز النَّخل تُقطع لأغراضٍ نافعَةٍ، فتُترك لتَجِفَّ، وتَذهَبَ رطوبتُها؛ استعدادًا للانتفاع بها، بينَما هؤلاء قد قُطِعَت حياتُهم، ثُمَّ تُركوا بلا غايةٍ ولا قيمة ولا نفْعٍ، فكأنَّهم بقايا ساقطَةٌ لَم تَعُد صالحةً لشَيْءٍ، بعدما ظنّوا في أنفسِهم القوَّة والعظمَةَ[2]. وهذا التَّشبيه بديعٌ يهزُّ النَّفس بمشهد مهيبٍ، يجمَعُ بين الطّول والفراغ، والهيبةِ والخِذلان، والقيام والسُّقوط، فتكون العِبرةُ أبلَغَ مِن مجرَّد صورةِ جُثَّة، بل صورة مجتمَع ساقِطٍ بعد كِبْرٍ وغُرورٍ.

دلالَةُ أسلوبِ الاستِخْدامِ في قوله: ﴿أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٍ﴾:

من براعة البيانِ القُرآنيِّ النَّقْلُ الخفيُّ في المَعنى مِن غير تغييرٍ في اللَّفْظِ

في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٍ﴾ ذُكر لفظُ ﴿نَخۡلٍ﴾ أوَّلًا باعتبار جُذوعِها ﴿أَعۡجَازُ نَخۡلٍ﴾، وهذا هو المعنى الأوَّل، والمقصود به: بقايا الجذوعِ المُلْقاة، فقد شُبِّه بها القومُ بعد الهلاكِ، ثُمّ وُصِفَت بأنَّها ﴿خَاوِيَةٍ﴾، ولا يُقصد به أنَّ الجذوعَ نفسَها خاويَةٌ مِن الدّاخل، بل يُراد أنَّ الحديقةَ أو البستانَ التي كانت فيها النَّخل خاويَةٌ، أي

(1) درويش، إعراب القرآن: 10/ 191.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 118.

خاليَةٌ مِن النّاس والحياة، فصار لفظُ ﴿نَخْلٍ﴾ يُراد به معنيان، في أوَّل السّياق: الجذوعُ المُنْطَرِحَة، وفي آخرِه ﴿خَاوِيَةٍ﴾: الحديقةُ أو المكانُ الذي كانت فيه.

إذًا أُجريَ على لفظٍ واحدٍ - وهو ﴿نَخْلٍ﴾ - معنيان مختلفانِ في جُمْلَتَين متعاقبتَيْن دونَ تغييرِ اللَّفظ، بل تغيير مرجِع الضَّمير المستكِنِّ في الوصْفِ، فلفظ ﴿نَخْلٍ﴾ مُستخدم أوَّلًا بمعناه الأصليِّ الذي يُراد به جذوع النخل في قوله: ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ﴾، ثُمَّ استُخدم عليه وصف ﴿خَاوِيَةٍ﴾؛ ليدلَّ على معنًى آخر، وهو مكان النخل أو بستانُه، وهذا التَّبديل الدَّقيق للمعنى هو الذي يُسمّى في البلاغة: استخدامًا، والبلاغة فيه: في الجَمْعِ بين معنيين مختلفين لِلَّفظ نفسِه في سياق واحد دون تصريحٍ بذلك، بل عن طريق الإشارة والضَّمير والوصف[1].

دلالَةُ الإضافةِ في قوله: ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ﴾:

تخصيصُ جِنْسِ الأعْجازِ ونَوْعِها

الإضافة في ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ إضافةُ اختصاصٍ وتمييزٍ، فإنَّ لفظَ ﴿أَعْجَازُ﴾ يَصْدُق على أفرادٍ كثيرينَ مختلفينَ في الحقائقِ، فكانت الإضافةُ تمييزًا لجنسِ الأعجاز ونوعِها، وخُصَّت النَّخْلُ دون غيرِها من الأشجار؛ لصلابتِها وطولها، وعادٌ كانوا كذلك قومًا طوالًا أقوياءَ.

دلالَةُ التَّعبير بالجملةِ الاسميَّةِ في قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ﴾:

لُـزومُ الهلاكِ لَهُم، فلا تُرْجى لهم حياةٌ

جاءَ التَّعبير في قول اللّه تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ بالجملةِ الاسميَّةِ؛ لإفادَةِ معنى الثُّبوت والاستمرارِ، وأنَّ حالَهُم المذكورةَ بعد الهلاكِ، هي وصفٌ لازِمٌ لهم، لا يزولُ ولا يتبدَّلُ، فلا تُرجى لهم حياةٌ، ولا يُرْتَقَبُ مِنْهُم نهوضٌ.

(1) الهاشمي، جواهر البلاغة، ص: 301، والمراغي، علوم البلاغة، ص: 239، ودرويش، إعراب القرآن: 7/ 498، وحبَنَّكة، البلاغة العربية: 2/ 401.

الــــدِّقَّـــــة في التَّصوير مبالغة في التَّحذير مِن مَصيرِ المُكذِّبين

دلالَةُ الوَصْفِ ﴿خَاوِيَةٍ﴾ في التَّشبيهِ:

الوَصْفُ بـ ﴿خَاوِيَةٍ﴾ في قول الله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٍ﴾ ليس مقصودًا في التَّشبيه ذاته، بل المقصودُ منهُ تشويهُ صورةِ المُشبَّهِ به بتشويه مكانه، أي: أنَّ جذوع النَّخل التي شُبِّهوا بها هي في مكانٍ قَفْرٍ مهجورٍ، لا ظلَّ فيه ولا حياة، وهذا الأسلوب البلاغيُّ - وهوَ تشويه المشبَّه به - يُرادُ به زيادةُ أثَرِ المُشبَّه، فيتحوَّل التَّشبيه مِن مُجَرَّد تمثيلٍ لطولِ القامَةِ أو امتدادِ الأجْسادِ، إلى تصويرِ مصيرٍ بائسٍ ومهلكة مظلمَةٍ، كأنَّ هذه الأجساد سقطت في مكان خالٍ لا حياة فيه ولا أثر، أشبه بمقبرةٍ منسيَّة، وبهذا يكون التَّشبيه قد تحوَّل من صورةٍ جماليَّة إلى مشهد وعظيٍّ مُرعب، يخدم الغرضَ الأساسَ من السّياق، وهو التَّحذير من مصير المُكَذِّبين، والتَّخويف من أسبابِه[1].

التَّـفـريـع على مَـــجْـــمـــوعِ القِصَّتَيْن

معنى الفاءِ في ﴿فَهَلۡ﴾ ودِلالَتُها:

الفاءُ في ﴿فَهَلۡ﴾ من قول الله تعالى: ﴿فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ عاطفةٌ[2]، وهي دالَّةٌ على التَّفريعِ، فهي تُفرِّع على مجموع الخبرَيْنِ عن قومَيْ ثمودَ وعادٍ، وتُبْرِزُ شدَّة التَّلازُم بين المقدِّماتِ ونتائجِها.

تلخيصُ مصير المُكذِّبين وتعميقُ العِبْرَة بالخاتِمَة القاطِعَة

دلالةُ الفَذْلَكَة البلاغيَّة في جملة: ﴿فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾:

جاء قول الله تعالى: ﴿فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ تفريعًا ختاميًّا على قِصَّتي ثمودَ وعادٍ، فكانت فذلكةً جامعة لِما سبقَ تفصيلُه من حالِ الإهلاك، ببيانِ أنَّ النِّهاية الحتميَّة للمُكَذِّبين أنَّكَ لا ترى لهم باقيةً في الأرض ولا في القلوبِ، وهذا الأسلوبُ صيغَ على طريقة الجَمْعِ بعدَ التَّفريق.

فالسّياق ابتدأ بذكر الهلاك مجملًا، ثُمَّ فُرِّق في التَّفصيل بين

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 119.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 29/ 119.

ثمودَ وعادٍ، ثُمَّ أُعيد الجَمْعُ مِن جديد بهذه الجملةِ الواحدة الموحيَةِ بالانقراض الكامل، وكأنَّ القرآن الكريمَ يُرينا مشهدًا مفصَّلًا، ثُمَّ يُغلقهُ بكلمةٍ واحدةٍ تختصر المصيرَ كلَّه[1].

دلالَةُ الاستفهامِ في قوله: ﴿فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ﴾:

إبرازُ صورة الفَناء بوجهٍ أوقعَ وأبلغَ في القلْبِ

جملة ﴿فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ﴾ استفهامٌ خرجَ عن أصلِه مِنْ إرادَةِ طلب العلم بشيءٍ لَمْ يكُنْ معلومًا مِنْ قبلُ إلى مَعْنَى النَّفْي[2]، والمقصود: لا ترى لهم باقيةً قطُّ، لكنَّه لم يُصرِّح بالنَّفي، بل جيءَ بصيغة استفهاميَّةٍ تهويليَّة؛ لِما في ذلك من إثارة نفس السّامع، واستحضار صورةِ الفَناء الكلّيِّ، فكأنَّك تُخاطَب بما يَسْتَدْعي النَّظَر والتَّفتيش، ثُمَّ تُفاجأ بأنَّك لا ترى شيئًا أصلًا، لا ناجيًا ولا أثرًا. وهذا أعظمُ وقعًا في النَّفس من صيغة النَّفي الصَّريح، مثل: (فلم يبقَ منهم أحدٌ)؛ لأنَّ النَّفي هنا ليس مجرَّد خبَرٍ عن الهَلاك، بل هو استدعاءٌ للتَّأمُّل في آثار الفناء والغياب الكُلّي، وكأنَّ السّامع يُدعى للبَحْثِ، ثُمَّ يُقرُّ بعجزه عن أن يَجِدَ شيئًا، ولذا صيغَ النَّفي على صورةِ الاستفهام: ﴿فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ﴾[3].

دلالةُ التَّعبير بفعل الرُّؤية في قوله: ﴿فَهَلۡ تَرَىٰ﴾ مادَّةً وصيغةً:

بيانُ تَحَقُّق هَلاكِهم

الرُّؤية في قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ﴾ رؤيةٌ بصريَّةٌ، والمعنى أنَّهُ لو قُدِّر وجودُ باقٍ مِنْهُم؛ لأُدْرِكَ بالبصَر، فلمّا لم يُدْرَك شيءٌ مِنْ ذلك بالبصَرِ؛ عُلِمَ أنَّهم قد أُبيدوا، وأُهْلكوا عن بكرةِ أبيهِم، وهذا يدلُّ على تحقُّقِ فنائهم، وأنَّ إدراكَ ذلك حاصلٌ على وجهِ الضَّرورةِ؛ بحيث لو كان مِنْهُم أحدٌ باقيًا؛ لأبصرتْهُ العينُ.

المبالغةُ في بيانِ فنائِهم وهلاكِهم

ويَجوزُ أن تكون الرُّؤية عِلْميَّةً، أي: هل تَعْلَمُ أحدًا مِنْهُم باقيًا؟ وهذا أبلغُ وأدلُّ على فنائِهم؛ لأنَّ العَيْنَ قَد تُخطئُ الموجودَ؛ إمّا لبُعْدِه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 119.

(2) عبد الكريم محمود يوسف، أسلوب الاستفهام في القرآن الكريم، غرضه وإعرابه، ص: 155.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 119، ودرويش، إعراب القرآن: 10/ 191.

في المكانِ، أو لوجودِ حائلٍ بينَهُ وبين الرّائي، أو لضعفٍ في الرّائي نفسِهِ، ولكنَّ العِلْمَ أشملُ وأعمُّ؛ لأنَّه يشمَلُ ما أُدْرِكَ بالنَّظر وما بلغَهُ السَّمعُ، فيكون أدلَّ على فنائِهم من حمل الرُّؤية على كونِها بصريَّةً.

معنى اللام في: ﴿تَرَىٰ لَهُم﴾:

أثَرُ تعدُّد معاني الحروف في إثراءِ النَّصِّ القرآنيِّ وتكثيف دلالاتِه

اللّامُ في ﴿لَهُم﴾ مِنْ قول اللّه تعالى: ﴿فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ﴾ جاءت محمَّلة بدلالات دقيقة متعدِّدة، كلُّها تخدم مقصدًا بلاغيًّا واحدًا، وهوَ التَّأكيد على استئصالِ القوم وإفناء كلِّ ما يُتصوَّر مِن بقائهم أو آثارِهم، فاللّام يجوزُ أن تكون لِشِبْهِ الملك، أي: باقية تعود إليهم، وتنفعُهُم، أو تُنسب إليهم، أي: لم تبقَ لهم نفسٌ أو فرقَةٌ أو بقيَّة فيها نفع أو نسبة، وهذا أبلغُ في النَّفْيِ؛ لأنَّ الباقيَ أحيانًا قَد لا يُنتفع به، أمّا هُنا فنُفيَ عَنْهُم ذلك فضلًا عمّا فيه النَّفْعُ، ويجوز أن تكون اللّام بمعنى (من)، كقولهم: سمعتُ لَه صراخًا، أي: سمعتُ منه، فالمعنى: هل ترى مِنْهُم مِن باقية؟ فيكون التَّركيب أبلغَ في العموم والاستغراقِ، كما يَحتَمِلُ أن تكون اللّام هي اللّام المقدَّرة في الإضافة، والأصل: فهل ترى باقيتَهم؟ فلمّا اقتضى المقامُ التَّنصيص على العموم الكامل؛ أُتي بـ (مِن) الدّاخلة على النَّكرة، فاقْتَضى تركَ الإضافة الظّاهرة، وأظهرت اللّام التي كان الشَّأن فيها أن تُضمَر، كما في قوله: ﴿بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ﴾ [الإسراء: 5] أي: عبادَنا[1].

وهذه الاستعمالاتُ مِن دقائق نظم القرآنِ الكريم؛ إذْ كلُّ تركيب من هذه المذكوراتِ يَخْدُمُ التَّهويل وتأكيدَ الهلاك، فلا يترك في ذِهْنِ المُتَلَقّي أدنى تردُّد في حقيقةِ الفَناء التّامِّ.

نُكْتَةُ تقديم شِبْهِ الجُمْلَة ﴿لَهُم﴾ في: ﴿فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ﴾:

تخصيصُهم بالإفناءِ يَقْتَضي تهويلَ عُقوبَتِهِم

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ ﴿لَهُم﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ﴾؛ للعنايَةِ بأمر المكذِّبينَ في ذواتِهم، وأنَّهم هم المقصودونَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 119.

في بيانِ إهلاكِهم وفنائِهم ابتداءً، كما أنَّ في التَّقديم دلالةً على الحصْرِ والقصْرِ، أي: لا يوجَدُ لهم وحدَهُم باقية، دون سواهُم، وذلكَ يَقْتَضي تهويلَ عقوبتِهم؛ إذ خُصِّصوا بها.

وفي تقديم الجارِّ والمجرورِ أيضًا مراعاةٌ لتناسُبِ فواصِلِ الآيِ، فإنَّ قبلَها: ﴿كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ﴾.

معنى ﴿مِّنۢ﴾، ودلالةُ تنكير ﴿بَاقِيَةٖ﴾:

التَّنصيصُ على عُموم إهْلاكِهم وإفْنائِهم

﴿مِّنۢ﴾ في قول اللّٰه ﷻ: ﴿فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ﴾ صِلَةٌ يُرادُ بها توكيدُ النَّفْيِ، وإخراجُهُ من كونِهِ ظاهرًا في العموم إلى كونِهِ نصًّا فيه؛ وذلك لأنَّ ﴿بَاقِيَةٖ﴾ نكرةٌ في سياق الاستفهام المرادِ به النَّفي، وهو من ألفاظِ العموم، وهذا العمومُ يجوزُ أن يدخُلَهُ تخصيصٌ، إلّا أنَّه لمّا جيءَ بـ ﴿مِّنۢ﴾؛ أفادَت التَّنصيص على العمومِ، فلا يدخُلُه شيءٌ مِنَ التَّخصيص، وهذا أبلغُ في بيانِ إفنائِهم وإهلاكِهم جميعِهم.

التَّحليل البلاغيّ لكلمة ﴿بَاقِيَةٖ﴾ في النَّظم:

حين يُنفى البقاءُ بكلِّ وجوهه، تتجلّى عاقبة المكذِّبين في أتَمِّ معانيها وأشدِّ صوَرِها

جاءت كلمة ﴿بَاقِيَةٖ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ﴾ محتمِلةً لأوجُهٍ بلاغيَّة متعدِّدة، كلُّها تشترك في ترسيخ معنى الفناءِ الشّامل، لكنَّها تتنوَّع في التَّركيب لتعمِّق الصّورة، وتوسِّع الموعظة، وذلك أنَّ ﴿بَاقِيَةٖ﴾ يجوز أن تكون اسمَ فاعِلٍ على حقيقَتِها، أي: نفسٌ باقية، والهاءُ حينئذٍ للتَّأنيث، إمّا باعتبار المحذوفِ المُؤَنَّث، وهو لفظُ (نَفْس) أو (فرقة)، والمعنى: لا ترى فردًا منهم نجا، ولا طائفةً سَلِمَت، كما يجوز أن تكون ﴿بَاقِيَةٖ﴾ مصدرًا على وزن (فاعلة)، كـ(العاقبة) و(الخاتمة)، فيكون المعنى: لا ترى لهم بقاءً أصلًا، لا في الذُّرّيَّة، ولا في الذِّكر، ولا في الأثر، أي: انمَحَوا من الأرض بالكلّيَّة، فكأنَّ الزَّمن نفسه طوى صفحتَهم، ولم يُبقِ لهم ظلًّا.

وتعدُّد هذه الأوجه لا يوقِعُ في التردُّد، بل يزيدُ في الإيحاء والبلاغة؛ لأنَّ كلَّ احتمال منها يُضيف بُعدًا جديدًا للهلاك(1).

توجيهُ المتشابِهِ اللَّفْظيِّ بين آيةِ الحاقَّةِ وآيةِ القمَر:

دقَّة البيان القرآنيِّ في التَّصرُّف بالألفاظ تذكيرًا وتأنيثًا بما يُلائِمُ سياقاتِها

قال الله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ﴾، وقال سُبحانَهُ: ﴿كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ ٢٠﴾ [القمر: 20]، فأُنِّث الصِّفة في آية الحاقَّة، وذُكِّرت في آية القمر.

ومِنَ المعلوم المتقرِّر عند علماء العربيَّة أن لفظ (النَّخل) اسم جنسٍ، يُذكَّر ويُؤنَّث، فيُذكَّر مراعاةً للَّفْظِ، ويُؤنَّث مراعاةً للمعنى.

وفي اختيار اللَّفظِ المؤنَّث ﴿خَاوِيَةٖ﴾ في سورة الحاقَّة، واللَّفظ المذكَّر في سورة القمر نِكاتٌ:

أوَّلًا: أنَّ في ذلك مراعاةً لتناسب فواصل آي السّورتين، فإنَّ قول الله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ﴾ يُلائمُ الآياتِ قبلها، كقوله: ﴿وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ﴾، وقوله: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾، وقوله سبحانه: ﴿كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ ٢٠﴾ [القمر: 20] يناسب الآياتِ قبلَها وبعدَها، كقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ ١٩﴾ [القمر: 19]، وقوله سُبحانه: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ٢١﴾ [القمر: 21].

ثانيًا: أنَّ اللَّفظ المؤنَّث دالٌّ على الكثرة، والمذكَّر دالٌّ على القِلَّة، وذلك في الموضعين المَذْكورَيْن، وقد تقرَّر أنَّ العرب قد تُؤَنِّث لإرادة الكثرة، وتُذَكِّر لقصد القِلَّة، كما في قول الله تعالى: ﴿۞وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ﴾ [يوسف: 30]، وقال سُبحانَهُ: ﴿۞قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ﴾ [الحجرات: 14]، فالنِّسوة قلَّةٌ، ولذا ذُكِّر الفعلُ مَعها، والأعراب كثرةٌ، ولذا أُنِّث الفعل مَعهم.

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 600، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 239، وأبو حيان، البحر المحيط: 10/ 255، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 22، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 119.

وهذا ما نجده في آيتَي الحاقَّة والقمر، فإنَّ النَّخل في آية الحاقَّة أكثرُ منهُ في آية القمر، كما يدلُّ على ذلك السّياق، فإنَّ الله تعالى قال في الحاقَّة: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾، وقال ﷻ في سورة القمر: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝١٨ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ۝١٩ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ۝٢٠﴾ [القمر: 18 - 20]، ويتَّضح من خلال سياق الآياتِ أمورٌ:

أحدُها: أنَّه قال في القمر: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ [القمر: 19]، وقال في الحاقَّة: ﴿فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾، فزاد في وصف الرّيح المذكورة في الحاقَّة، فقال: ﴿عَاتِيَةٍ﴾، فكان وصفُها أشدَّ ممّا وُصفت به في القمَر، وإذا كان كذلك فما يَتْبَعُها من التَّدمير يكون أكبرَ وأبلَغ، ويكون اقتلاعُها أشدَّ وأكثر.

ثانيها: أنَّه قال في القمر: ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ۝١٩﴾ [القمر: 19]، وقال في الحاقَّة: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾، فذُكِرَ في سورة القمر أنَّ الرّيح أُرْسِلَت عليهم في يوم، وذُكر في الحاقَّة أنَّها سُخِّرت عليهم سبعَ ليالٍ وثمانية أيّام، فزيد في بيان وقتِ العذاب والتَّدمير، ولا رَيْبَ أنَّ امْتِداد الزَّمن يقتضي تدميرًا أكثرَ وأشدَّ، فالرّيح تقتَلِعُ وتُدمِّر في سبع ليالٍ وثمانيةِ أيّامٍ أكثرَ ممّا تَفْعَلُهُ في يوم، فكان فيه دلالةٌ على كثرةِ النَّخل المقتلَع في سورة الحاقَّة.

ثالثها: أنَّ الرّيح لَمّا زادت عُتوًّا وزمنًا في سورة الحاقَّة؛ ذُكر أنَّ الرّيح استَأْصَلَتْهُم جميعَهم، فلم تَذَرْ منهُم أحدًا، فقال سُبحانه: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾، ولم يأتِ ذلك في سورة القمر.

رابعها: أنَّ النَّخلَ المُنْقَعِر هو المُنْخَلِع عن مَغارِسِه السّاقطُ على الأرض، وأمّا ﴿خَاوِيَةٍ﴾؛ فمعناها: خَرِبَة، أو التي خلَت أعجازها بِلًى وفسادًا، وذهب بعضُ أهل العربيَّة إلى أنَّ الخاويَة معناها معنى المُنْقَلِع، وإنَّما قيل للمُنقلِعة: خاويَةٌ؛ لأنَّها خوَت مِن مَنْبِتِها الذي كانت تَنْبُت فيه، وخَوى مَنبِتُها منها، فالنَّخل الخاوية تشمَلُ النَّخل المنقعرَ وزيادةً، فكلُّ نخلٍ منقعرٍ هو خاوٍ، وليس كلُّ خاوٍ منقعرًا.

فأُنِّث الوصفُ في الحاقَّة، فقال سبحانه: ﴿خَاوِيَةٍ﴾؛ لأنَّه أكثرُ مِنَ المُنْقَعِر، ودَمارُهُ أشدُّ وأبلغ.

وبهذا يتبيَّنُ أنَّ الخاويَ أكثَرُ مِنَ المنقعِر، وأنَّ تأنيث الخاوي - وهو خاوية - للدَّلالة على الكثرة والمبالغة؛ لأنَّ التَّأنيث قد يَرِدُ مرادًا به الكثرةُ والمبالغةُ، وممّا يتَّضح أيضًا أنَّه قد وُضِعَ النَّخل الكثير المُدَمَّر مع الرّيح المتَّصفة بزيادة التَّدمير، وهو وصفُ العُتوِّ، وذلك في قوله: ﴿بِرِيحٍ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾، وقد وُضِعَ هذا التَّدمير الأقوى مع زيادةِ وقْتِ التَّدمير، وهو سبعُ ليالٍ وثمانيةُ أيّامٍ، بخلاف ما دُمِّر في يوم. ومِن المعاني أيضًا: أنَّه قد وُضع مع استئصالِ القوم، فلَمْ يَنْجُ أحدٌ منهم.

فكان لفظ ﴿خَاوِيَةٍ﴾ أنسبَ شيءٍ وأبلغَهُ في سياقِه، ولفظُ ﴿مُّنقَعِرٖ ٢٠﴾ [القمر: 20] أحسنَ شيءٍ وأرفعَهُ في مقامِه[1].

۞ الفروقُ المُعْجَميَّةُ:

الرّيح والرّياح:

الرّيحُ للعذابِ، والرّياحُ للرَّحمة في غالبِ الاستعمالِ القُرآنيِّ

(الرّياحُ): جَمْعٌ، و(الرّيحُ): مُفْرَدٌ، وكِلاهُما وارِدٌ في القُرْآنِ الكَريم، والغالِبُ في الاستِعمالِ القُرْآنيِّ: استِعْمالُ (الرّياح) لِلرَّحْمَةِ والامْتِنانِ، و(الرّيح) لِلعَذاب، ووَجَّهَهُ ابْنُ عَطيَّةَ بِأنَّ "ريحَ العَذاب شَديدَةٌ مُلْتَئِمَةُ الأجْزاءِ، كَأنَّها جِسْمٌ واحِدٌ، وريح الرَّحْمَةِ لَيِّنَةٌ مُتَقَطِّعَةٌ، فَلِذَلِكَ هيَ رياحٌ، وهوَ مَعْنَى (بُشْرًا)، وأُفْرِدَتْ مَعَ الفُلْك؛ لأنَّ ريحَ إجْراءِ السُّفُنِ إنَّما هيَ واحِدَةٌ مُتَّصِلَةٌ، ثُمَّ وُصِفَتْ بِالطّيبِ، فزالَ الاشتراكُ بَيْنَها وبَيْنَ ريح العَذابِ"[2].

وَذَكَرَ عَبْدُ الفَتّاحِ لاشين أنَّ هَذا مُقْتَضى استِقْراءِ أساليبِ القُرْآنِ

(1) فاضل السامرائي، بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، ص: 97 - 100.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/ 233.

الكَريم، وأنَّ هَذا شَيْءٌ مُطَّرِدٌ في القُرْآنِ إلّا في مَوْضِعِ سورَةِ يونُسَ[1]، وثمَّةَ مواضعُ اختلفَ فيها القُرّاءُ جمعًا وإفرادًا.

وأقْدَمُ مَنْ يَرْجِعُ إليهِ هَذا التَّفريقُ هوَ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ ﷺ، فقَدْ قالَ: "كُلُّ شَيْءٍ في القُرآنِ مِنَ الرّياحِ فهيَ رَحْمَةٌ، وكُلُّ شَيْءٍ في القُرْآنِ مِنَ الرّيح فهوَ عَذابٌ"[2].

وَأمّا حَديثُ "اللهمَّ اجْعَلْها رياحًا، ولا تَجْعَلْها ريحًا"؛ فلا يَصِحُّ[3]، ولَوْ صَحَّ لَكانَ أصْلًا في التَّفْريقِ.

الصِّرّ والصَّرصر:

الـصِّـرُّ الـبَرْدُ، والصَّرْصَرُ البردُ المضاعَفُ

أصلُ اللفظتين واحد، وهو من قولهم: صرَّ البابُ يصرُّ؛ إذا امتدَّ، فإذا كان فيه ترجيعٌ في إعادةٍ ضوعِفَ الفعلُ، والصِّرُّ - بالكسْرِ - هو البَرْدُ الذي يُصيبُ كلَّ شيءٍ، ومنه قول اللّه تعالى: ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ [آل عمران: 117]، وأمّا الصَّرُّ - بالفتح - فهو شدَّة الصّياح، والصَّرَّةُ كذلك.

و(الصِّرُّ) مؤلَّفٌ مِنْ مقطع واحدٍ، وفيه تضعيفُ الرّاءِ، وهذا اللَّفْظُ يُعبَّرُ به عن العذاب والعقاب المناسب للأقوام الظّالمي أنفُسِهم، كما قال اللّه تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ١١٧﴾ [آل عمران: 117]، وأمّا (الصَّرْصَرُ)؛ فهو مؤلَّفٌ من مقطعين اثنين، فكأنَّه صِرٌّ يتعبهُ صِرٌّ آخرُ، ويُعبَّر به عن العذاب والعقاب المضاعَفَيْنِ؛ ليُناسِبَ ذنبَ من ضاعفوا ظُلْمَهم وطغيانَهُم، كما قال اللّه تعالى عن قوم عاد: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ

(1) عبد الفتاح لاشين، صفاء الكلمة، ص: 141.
(2) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره: 1/ 275، (برقم: 1475).
(3) الطحاوي، شرح مشكل الآثار: 2/ 379.

هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ١٥ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ ١٦﴾ [فصلت: 15 - 16]، وقال عنهم: ﴿وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ٦ سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗاۖ فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ﴾[1].

---

(1) عبد الجبار فتحي زيدان، الفروق اللغوية في القرآن الكريم، ص: 675 - 676.

﴿وَجَآءَ فِرۡعَوۡنُ وَمَن قَبۡلَهُۥ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ بِٱلۡخَاطِئَةِ ٩ فَعَصَوۡاْ رَسُولَ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَهُمۡ أَخۡذَةٗ رَّابِيَةً ١٠﴾ [الحاقة: 9 - 10]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

تنويعُ العَذابِ لتَفْنيدِ دَعاوى الطَّبائِعيّين والمُنكِرين للبَعْثِ

بعد أن ذكَر اللهُ تعالى مَن أهلكَهُم بالطّاغية المُهْلِكة، ثُمَّ ذكر مَنْ أهلكَهُم بالرّيح الصَّرْصَرِ العاتيةِ؛ انتقل النّظم القرآنيّ إلى ذِكْرِ مَن أُهلكوا بسببِ الماء، وهم: فرعونُ ومَن قَبلَه والمؤتفكات؛ تنويعًا في صوَرِ العذاب، وتأكيدًا لأنَّ المُكَذِّبين يُطابقهم الهلاكُ، وإنِ اختلفَتْ أسبابُه، وقد اجتمع في هؤلاء كفرٌ عميقٌ بالتَّعطيل والاعتماد على الطَّبائع، فجاء ذِكْرُهُم توبيخًا على عِنادِهم ومُخالَفَتِهم للفِطْرَةِ[1].

شَرْحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ﴾: أصلُ (أفك) يدُلُّ على قَلبِ الشَّيءِ وصَرفِه عن جِهَتِه[2]، ومنه الإفكُ، وهو كلُّ مصروف عن وجهه الَّذي يحقُّ أن يكون عليه، ومنه قيل للرّياح العادِلَة عن المَهابِّ: مُؤْتَفِكَة[3]، والائتِفاكُ: الانقِلابُ، وأرْضٌ مَأْفوكَةٌ، أي: لم يُصِبْها مَطَرٌ[4]، يُقالُ: إذا كثرت المؤتفكاتُ زكَتِ الأرْض، أي: زكا زَرْعُها[5]، والمُؤْتَفِكات في الآية: جَمْعُ مُؤْتَفِكة، وهي مدائن لوطٍ على نبيِّنا وعليه السلام، سُمّيَتْ بذلك لانقلابها بالخَسْف[6]، والمُرادُ بها هنا: سكّانُها، وهُم قوم لوط الَّذين أتَوْا بفاحشةٍ ما سبَقَهم إليها أحدٌ مِنَ العالمين[7].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 346.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أفك).
(3) الراغب، المفردات: (أفك).
(4) ابن عباد، المحيط في اللغة: (أفك).
(5) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (أفك).
(6) الزبيدي، تاج العروس: (أفك).
(7) طنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 72.

2) ﴿بِٱلْخَاطِئَةِ﴾: أصْلُ (خطأ) يدلُّ على المَيْلِ عَنِ المَقصودِ، تَقولُ: أخْطأ الطَّريقَ، أي: مالَ عنه إلى غيره[1]، والخطأ: الغَلَطُ والزَّلَلُ، يُقالُ: أخطأْتُم، أي: غلِطتُم وزَلَلْتُم، وضِدُّهُ: الصَّوابُ[2]، ويأتي الخَطأُ والخِطْءُ بمعنى: الإثْم والذَّنْب، يُقالُ: خَطِئَ في دينه خَطأً وخِطْأً؛ إذا أثِمَ فيه، والخِطْءُ: ما تُعمِّدَ، والخَطأ: ما لم يُتَعَمَّدْ، والاسْمُ: الخَطيئَةُ[3]، ويُسمَّى الذَّنب العظيمُ خاطِئةً[4]، وفيه وجهانِ، أحدهما: أنَّ الخاطِئةَ مصدرٌ كالخطأ، والآخَرُ: أنْ يكون المُرادُ بها الفِعْلَةُ أوِ الأفعال ذات الخطأ العظيم، والأخير هو المراد في الآية[5].

3) ﴿رَّابِيَةً﴾: (ربو) أصْلٌ واحِدٌ، يدلُّ على الزِّيادةِ والنَّماءِ[6]، تَقولُ مِن ذلكَ: رَبا الشَّيءُ يَرْبو رَبْوًا، أيْ: زادَ وكَثُرَ، ومنه سُمّيَ أخْذُ الرَّجُلِ أكثَرَ ممّا أعطى: رِبًا[7]، ويُطْلَقُ بمعنى النَّماءِ، يُقالُ: أرْبَى الزَّرْعُ: نَما وعَلَتْ سيقانُهُ، وأرْبَيْتُ المالَ؛ إذا نَمَّيْتَهُ[8]، وقوله تعالى: ﴿رَّابِيَةً﴾ مأخوذ من رَبا الشَّيء؛ إذا زادَ وتضاعَفَ، والأَخْذَةُ الرّابيَةُ هنا معناها: أخذةٌ زائدة في الشِّدَّة - لزيادة قبائحِهِم - على الأخَذاتِ التي أُخِذَ بها غيرُهم[9].

المَعْنى الإجْماليُّ:

مَصارِعُ المكذِّبين عِبرَةٌ للسّامعين

تنتقل الآياتُ إلى أنموذجٍ آخَرَ مِن مصارع المكذِّبين، ومنهم الطّاغية فرعونُ الذي جاء ومَن سبقَهُ مِنَ الأمم التي كفَرَت برُسُلِها،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خطأ).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (خطأ).
(3) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (خطأ).
(4) الراغب، المفردات: (خطأ).
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 623.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ربى/ أ).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة: (ربو).
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 266.
(9) طنطاوي، التفسير الوسيط: 15/ 73.

بالأفعالِ الخاطئة، وكذلك أهلُ قُرى قومِ لوطٍ الذين انقلبَت بِهِم ديارُهم؛ بسببِ الفعلة المُنْكَرة مِن الكفر والشِّرك والفواحش، فعَصَت كلُّ أمَّةٍ مِنْهُم رسولَ ربِّهم الذي أرسلَهُ إليهم، فأخذهُم اللّهُ تَعالى أخذةً بالغَةً في الشِّدَّة[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

الموقع البياني لجملة: ﴿وَجَآءَ فِرۡعَوۡنُ﴾:

اختيارُ أشهَرِ المُكَذِّبين في الذّاكرة العربيَّة؛ لتَقْوية أثَرِ التَّهديد وتحريك الاستجابَة

جملة: ﴿وَجَآءَ فِرۡعَوۡنُ وَمَن قَبۡلَهُۥ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ بِٱلۡخَاطِئَةِ﴾ معطوفة على ما سبَقَ مِن ذِكْرِ المُكَذِّبين بالعقاب، فيكونُ هذا امتدادًا للتَّذكير بمصائر الأمم السّابقة الذين كذَّبوا، فحقَّ عليهم العذابُ، وفي هذا استِثارةُ المعرفة السّابقة عند السّامع، وبها تُستدعى الصّوَرُ الهائلَةُ مِنَ الذّاكرة.

وقد ذُكر - هنا - فرعونُ ومَن قبلَهُ والمُؤْتَفِكاتُ، ففرعون: ممثِّلٌ للجبروتِ في الحُكْم والكُفْرِ الواضح، ومَن قبله، أي: مَن تقدَّمه من المُكَذِّبين، والمؤتفكاتُ: هُم قوم لوطٍ الذين انقلبت بهم قُراهُم.

وذُكِرَ هؤلاءِ بالاسم؛ لأنَّهم مِن أشهر الأقوام المكذِّبة الهالكة في الذّاكرة الدّينيَّة المشترَكة، سواءٌ أكان ذلك عندَ العرَبِ أم عند أهل الكتاب الذين جاوَروا العرب، وحدَثَ بينَهُم اختلاطٌ، ولأنَّ سيَرهم كانت مشهورة متداولة، ممّا يُقوّي أثر العبرةِ في نفوسِ المخاطَبين، فيستحضرون شناعَةَ الكُفْرِ وبشاعَة العُقوبَة[2].

دلالةُ التَّعبير بفعل المجيءِ:

بيانُ إمعانِهم في الانحرافِ والضَّلالِ

عُبِّر بالمجيءِ في قول اللّه تعالى: ﴿وَجَآءَ فِرۡعَوۡنُ وَمَن قَبۡلَهُۥ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ بِٱلۡخَاطِئَةِ﴾؛ لِما يُشْعِرُ به لفظُ المجيءِ مِنَ الصُّعوبةِ والعُسْرِ، بخلافِ الإتيانِ ففيه ضربٌ من السُّهولة، وفي ذكر مجيئِهم

---

(1) نخبة من علماء التفسير، التفسير الميسر، ص: 567.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 120.

بالخاطئة إيماءٌ إلى تكلُّفِهم إيّاها مبالغةً في إمعانِهم في الضَّلالِ؛ إذ الخاطئةُ خلافُ ما تقتضيهِ الفِطَرُ السَّليمَةُ.

دلالةُ البدءِ بفرعونَ في ذِكْرِ أهلِ الضَّالِ:

عِـظَـمُ جناية فرعونَ

بُدِئَ بذِكْرِ فرعونَ في سياق ذِكْرِ مَن جاءَ بالخاطئةِ، في قول اللّه تعالى: ﴿وَجَآءَ فِرۡعَوۡنُ وَمَن قَبۡلَهُۥ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ بِٱلۡخَاطِئَةِ﴾؛ لأنَّ فرعونَ كان مخاطَبًا ابتداءً بالرِّسالَةِ، وبتحرير بني إسرائيلَ من رقِّ العبوديَّةِ، وبالخضوع لأمر اللّه تعالى، لكنَّه عصى، وتمرَّد عن ذلك، فناسبَ أن يُقدَّم ذِكرُه في مقام تَعْداد أهل الخطيئةِ، وفي تصديرِهِ في هذا السّياقِ إيماءٌ إلى عَظَمةِ جنايَتِه.

دلالةُ لفظِ ﴿فِرۡعَوۡنُ﴾ بين التَّخصيص والتَّعميم:

كـلُّ مَـنْ مَـلَـكَ مـصـرَ كـافـرًا يُسمّى فرعون، ويُـــرادُ بـه في الـقـرآنِ فرعونُ الذي أُرسِلَ إليه موسى عليه السلام

لفظُ ﴿فِرۡعَوۡنُ﴾ هو علَمٌ على كلِّ مَنْ مَلَكَ مَصْرَ كافرًا[1]، وفي قول اللّه تعالى: ﴿وَجَآءَ فِرۡعَوۡنُ وَمَن قَبۡلَهُۥ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ بِٱلۡخَاطِئَةِ﴾ يُرادُ به فرعونُ الذي أُرسِلَ إليه موسى عليه السلام؛ لأنَّ هذا هو الشّائعُ في الاستعمالِ القرآنيّ، فيُحْمَلُ عليه، ولا يُرادُ به كلُّ فرعونٍ، وإن كان كلُّ فرعونٍ له نصيبٌ مِنَ العذابِ؛ إذ لفظُ ﴿فِرۡعَوۡنُ﴾ لا يُطلق إلّا على الكُفّار مِنْ ملوكِ مصْرَ.

دلالةُ إسنادِ الخاطِئَةِ إلى ﴿فِرۡعَوۡنُ﴾ دونَ قَوْمِه:

إسناد الخَطَأ إلى الـرَّأس الطّاغي لتأكيد مسؤوليَّة الـقـادةِ عَـن إضلالِ الأُمَم

جاء التَّعبير بفرعون نفسه في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ فِرۡعَوۡنُ وَمَن قَبۡلَهُۥ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ بِٱلۡخَاطِئَةِ﴾، مع أنَّ معَهُ جيشًا وقومًا وأتباعًا، وذلك لإبراز مسؤوليَّته القياديَّة في العصيان، فهو الذي تلقّى رسالةَ موسى عليه السلام، وهو الذي طَغى وتجبَّر وكذَّب، والقرآن كثيرًا ما يحمِّل القادةَ وِزْرَ الأتْباع؛ لأنَّهم مصدَرُ القَرار والتَّوجيه، ويَمْتَلِكون أدواتِ التَّأثير، وقد أغْوَوُا الأتباعَ، واستدرَجوهم إلى العناد والتَّكذيب، وتبعًا له؛ كذَّب القِبْطُ بموسى عليه السلام، وأعْرَضوا عن دَعْوَتِه، لكِنْ يَبْقى فرعونُ هو

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/ 258.

المُتَصدِّرَ والمتحمِّل الأوَّل للخطَأ، ولهذا قال اللّه تعالى في موضع آخر: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [القصص: 40]، فذَكَرَه أوَّلًا ثمَّ أتباعَه؛ لأنَّ الطُّغيان ابتدأ من رأسِه، وامتَدَّ بأمره، وهذا الأسلوبُ يُعَزِّز في ذِهْنِ السّامع خطَرَ القيادَةِ الفاسِدَة، وشُؤْمَ اتِّباع الباطل تحت سُلطان الجبابرة، ويحثُّ على التَّبصُّر وعدم الانقيادِ للأهواء السّياسيَّة أو الطُّغيان الاجْتِماعيِّ[1].

معنى الواوِ في ﴿وَمَن قَبْلَهُۥ﴾ ودلالتُها:

الإجْـرام والطُّغيانُ من أسباب الهلاكِ

الواوُ في ﴿وَمَن﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ﴾ عاطفةٌ، وهو عطفٌ مرتَّب في الجناية والهلاك، وفيه إشارةٌ إلى اندراج فرعونَ في سِلْكِ الطُّغاة قبلَهُ، فاستحقّوا العقوبةَ والإهلاكَ بسبب جُرْمِهم وطُغيانِهم، وفيه أيضًا إشارةٌ إلى أنَّ سنَّة اللّه تعالى في أهل الفسادِ واحدةٌ لا تتخلَّف.

دلالة التَّعبير بالاسمِ الموصول (مَنْ):

التَّنبيهُ على جنسِ الطُّغاة لا على أفرادٍ مَخْصوصينَ

جاءَ التَّعبير بالاسم الموصول (مَنْ)، في قول اللّه تعالى: ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ﴾؛ لِما في الاسم الموصولِ مِنَ الإبهام الصّالِحِ لإرادَةِ جنسِ الطُّغاةِ المُفسدينَ، من غير تعيين واحدٍ مِنْهم أو جماعةٍ مخصوصينَ، فكلُّ مَنْ كان طاغيًا قبلَ فرعونَ؛ فهو داخلٌ في مثل هذا.

دلالة الإضافَةِ في ﴿قَبْلَهُۥ﴾:

الإيماءُ إلى ارتباطِ التَّبَعيَّة والتَّشابُه

أضيفَ الظّرف (قبل) إلى الضَّمير الرّاجِعِ إلى فرعونَ، في قول اللّه ﷻ: ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ﴾؛ للدَّلالَة على ربْطِ مَنْ سبقَهُ به ارتباطَ تبعيَّةٍ وتشابُه، لا مجرَّد بيان سبْقٍ في الزَّمَنِ، فهُمْ أسلافُهُ في الطُّغيانِ، وقُدوَتُهُ في أصلِ الكُفْرِ، وإن زادَ عليهم ضلالًا وانحرافًا.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 120.

توجيهُ عَوْدِ الضَّمير في قوله: ﴿قَبۡلَهُۥ﴾:

شِدَّةُ انحرافِ فِرْعَون، حتّى صار أهلُ الشَّرِّ يُنسبون إليه

الضَّميرُ في ﴿قَبۡلَهُۥ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿وَجَآءَ فِرۡعَوۡنُ وَمَن قَبۡلَهُۥ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ بِٱلۡخَاطِئَةِ﴾ راجعٌ إلى فرعونَ المذكورِ في صدرِ الآيةِ، وفي عَوْدِ الضَّمير إليهِ إشعارٌ بأنَّ فرعونَ صارَ محورًا للكلام عَنْ أهلِ الفسادِ والطُّغيانِ، فتعلَّقت الإضافةُ إلى ضميرِهِ؛ لبيانِ أنَّ جميعَ مَن تقدَّمَهُ من الطُّغاةِ إنَّما يُذْكَرون باعتبارِ نسبتِهم إليه.

بلاغةُ الكنايَةِ في قولِهِ: ﴿قَبۡلَهُۥ﴾:

بيانُ تَداوُلِ طُغْيانِ الفراعنَةِ

في قول اللّه تعالى: ﴿وَمَن قَبۡلَهُۥ﴾ كنايةٌ عن تداولِ طغيانِ الفراعنةِ، فالطُّغيان كان فيهم متوارَثًا جيلًا بعد جيلٍ، مع اختلافِ درجاتِ ذلك فيهم، وفي ذلك تهويلٌ لشأنِ الطُّغيانِ، وأنَّه ممّا يُمكِنُ تداولُهُ وتوريثُه، وهذا يقتضي مِن أهل الصَّلاح استمرارًا على مُحاربَته.

توجيهُ القراءاتِ في قوله: ﴿قَبۡلَهُۥ﴾:

التَّكامُلُ الدّلاليُّ بين القراءات القرآنيَّة

قرأ أبو عمرٍو ويعقوبُ والكسائيُّ ﴿وَمَن قِبَلَهُۥ﴾، وقرأ الباقونَ ﴿وَمَن قَبۡلَهُۥ﴾[1]، والمعنى على الأوَّل: وجاءَ فرعونُ ومَن هو في جِهَتِهِ من أتباعِهِ، وذلك لأنَّ الأصل في (قِبَل) أن تُستعمَلَ لِما ولي الشَّيءَ، والمعنى على قراءة الجمهور: وجاءَ فرعونُ ومَن تقدَّمَهُ مِنَ الأُمم الماضيةِ[2]، فالقراءتانِ متكاملتانِ؛ إذْ تُبْرزانِ باجْتماعِهما وجودَ الطُّغيان قبلَ فرعون وبعدَهُ، وأنَّ العذاب يشْمَلُ السّابقين واللّاحقينَ.

معنى الواو في ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ﴾ ودلالتُها:

الإهلاكُ سنَّةُ اللّه تعالى في الطُّغاةِ جميعِهم

الواو في ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿وَجَآءَ فِرۡعَوۡنُ وَمَن قَبۡلَهُۥ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ بِٱلۡخَاطِئَةِ﴾ واوُ العَطْفِ، وهي تدلُّ على مطلق الاشتراكِ، فيكون فيها دلالةٌ على أنَّ المؤتفكاتِ - وهم قومُ لوطٍ -

(1) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 389.
(2) محمد سالم محيسن، الهادي شرح طيبة النشر: 3/ 297.

قد شارَكوا فرعونَ ومَن قَبْلَهُ في الخطيئةِ والطُّغيانِ، فلمّا اجتَمَعَ لهم ذلك استحقّوا الإهلاكَ والعقوبةَ.

المؤتفكاتُ قُرى قومِ لوطٍ عليه السلام

دلالةُ (أل) في (المؤتفكات):

المؤتفكاتُ جمعُ: مؤتفكةٍ، وهي المنقَلِبةُ، و(أل) في (المؤتفكات) مِنْ قول اللّه سُبحانهُ: ﴿وَجَآءَ فِرۡعَوۡنُ وَمَن قَبۡلَهُۥ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ بِٱلۡخَاطِئَةِ﴾ للعَهْدِ العلميِّ، والمرادُ بها قُرى قومِ لوطٍ، فإنَّ حالَهم آلَ إلى ما ذكرهُ اللّه تعالى في قوله: ﴿فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ ۝٧٤﴾ [الحجر: 74].

فُشوُّ الفاحشةِ جَعلَ المكانَ مَعْروفًا بِها

بلاغة المجاز المرسل في التَّعبير بـ (المؤتفكات):

في لفظ (المؤتفكات) مِنْ قول اللّه تعالى: ﴿وَجَآءَ فِرۡعَوۡنُ وَمَن قَبۡلَهُۥ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ بِٱلۡخَاطِئَةِ﴾ مجازٌ مرسَلٌ، وعلاقتُهُ المحلّيَّةُ؛ إذ أُطْلِقَ المحلُّ، وأُرِيدَ الحالُّ فيه[1]؛ وذلك أنَّ الذي يوصَفُ بالخطيئةِ هُم أهل القريةِ لا القريةُ نفسُها، وبلاغة هذا المجاز تكمُنُ في الدَّلالَةِ على فشوِّ الفاحشةِ فيهم وتغَلْغُلِها وتجذُّرها في أفعالِهم حتّى كأنَّ المكانَ نفسَهُ صارَ علامةً على الفِسْقِ والفجورِ.

إنذارُ اللّاحِقِ بِما حصَلَ للسّابقِ أوْكَدُ في إنْذارهِ وأبلَغُ في تَرْهيبِهِ

نُكْتَةُ تَخْصيص المُؤْتَفِكات بالذِّكر:

خُصَّتِ (المؤتفكات) بالذِّكر في قوله: ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ﴾؛ لشهرة جَريمَتِهم في الفُجور والمجاهرة بالمعصيَةِ، وهي جريمَةٌ مستَنْكَرَةٌ بالفِطْرَة ومُمْعِنَةٌ في الانحرافِ، ولأنَّ قُراهم كانت تقع على طريق العرب إلى الشّام، فكانوا يمرّون بآثارهم، ويُشاهِدونَ أنقاضَهُم، ممّا يجعَلُ العِبْرَة حِسّيَّة بصريَّة ملموسَةً.

وهذا التَّذكير يُضاعِفُ أثَرَ الإنذار؛ لأنَّ المُشْرِكين في مكَّة يَرَوْنَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 121.

آثارَ العذاب، ولكنَّهم لا يَعْتَبِرون، كما في قوله: ﴿أَفَلَمْ يَكُونُواْ يَرَوْنَهَاۚ﴾ [الفرقان: 40]، وقوله: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٣٨﴾ [الصافات: 138][1].

دلالةُ وصف هذه القرى بـ (المؤتفكات):

وصف المُهلَكين بما جرى عليهم تشهيرًا بهم

تسميةُ قُرى قومِ لوطٍ بـ (المؤتفكات) فيه تجسيمٌ لعُقوبَتِها، فهي قُرًى انقلبَت، وانْقَلَب بها أهلُها، فيكون الاسمُ مُشْبَعًا بالرُّعب والهَوْلِ، جامعًا بين الذَّنب والعُقوبَةِ في صيغَةٍ واحدَةٍ.

دِلالَةُ الاحتباكِ في عطفِ ﴿وَجَآءَ فِرۡعَوۡنُ﴾ على ما قبله:

تشابُهُ المُكَذِّبين في الجَريمَةِ والجَزاء يوحِّدُهُم في سياقِ الهلاكِ والعِبْرَة

في عطف قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ فِرۡعَوۡنُ وَمَن قَبۡلَهُۥ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ بِٱلۡخَاطِئَةِ﴾ على ما سبَقَ مِن قوله: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ﴾ نكتَةٌ بلاغيَّة بديعَةٌ، وهيَ الإيماءُ إلى اشْتِراك الجميعِ في التَّكذيب بالقارِعَةِ والمُجاهَرَة بالخَطيئَةِ.

فقدِ اقْتَصَر في الأولى على التَّصريح بـ (التَّكذيب)، وفي الثّانية على (المجيءِ بالخاطئة)، لكنَّ ثمودَ وعادًا كذَّبوا بالقارعةِ، وفرعونُ ومَن قبلَهُ والمؤتفكاتُ جاؤوا بالخاطئة، وهذا من أسلوبِ الاحتباك البلاغيِّ، فقد حُذِف في كلِّ موضعٍ ما ذُكِرَ في نظيرِه، واعتُمِدَ على المقابلَةِ الذِّهنيَّة بين الطَّرفين[2]، فالمعنى أنَّ الجميع كذَّبوا، وجاؤوا بالخاطِئَةِ، وقد ذُكِرَ كُلُّ فِعْلٍ في مجموعةٍ، وسُكِت عن الآخَر؛ ليُفهَم من السّياق، فيتحقَّق بذلك إيجازٌ بديعٌ موحٍ بالتَّشابه الكاملِ في الجُرْأة والمُخالفَة[3].

دِلالَةُ (الخاطئة) بينَ المَصْدَريَّة والفاعليَّة:

وصف الذَّنب بالخاطِئَةِ يَجْمَعُ بين بشاعَةِ الفِعْلِ وحَتْميَّة العقوبة في صيغةٍ واحدَةٍ بليغَةٍ

في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَجَآءَ فِرۡعَوۡنُ وَمَن قَبۡلَهُۥ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ بِٱلۡخَاطِئَةِ﴾، جاءَت لفظَةُ (الخاطئة) بصيغة (فاعلة)، وهي محتمِلة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 121.

(2) السيوطي، الإتقان: 3/ 204، وحبَنّكة، البلاغة العربية: 1/ 347.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 120.

لأمرينِ بلاغيَّين دقيقَيْن، كلاهما يُؤَدّي إلى تصوير الذَّنْبِ تصويرًا مهولًا جامعًا بين المَعْنى الدِّلاليِّ والجرس الصَّوتيِّ.

أحدُهما: أن تكون (الخاطئة) مصدرًا على وزن (فاعلة)، والهاءُ فيه هاء المرَّة، أي: جاؤوا بخطيئة واحدةٍ مُهْلَكَةٍ عظيمَةٍ، ثُمَّ قُطع النَّظر عن المرَّة، فأصبحَت مَصْدَرًا مطلقًا.

والآخَرُ: أن تكون (الخاطئة) اسمَ فاعلٍ، والتَّأنيث فيها باعتبار فَعلةٍ ذاتِ خِطْءٍ، والمعنى: جاؤوا بفَعلة مُتَّصِفَةٍ بأنَّها خاطئة بكلِّ وجْهٍ، مُتَلَبِّسة بالقُبْحِ والمُروقِ عَن الحدِّ المَقْبولِ.

معنى (أل) في (الخاطئة):

تنوُّعُ الخَطيئاتِ مَعَ اتِّحاد الجزاءِ بالإهلاكِ

على اعتبار (الخاطئة) مصدرًا أو اسمَ الفاعل، فإنَّ (أل) في (الخاطئة) للجنس، لا للعهدِ، أي: لم تكُن خطيئةً خاصَّة أو ذنبًا معيَّنًا، بل المرادُ جنسُ الذَّنْبِ الذي يستوجبُ الهلاكَ والمَحْقَ، أيًّا كانت صورتُهُ، ولأنَّ المذكورينَ في الآيةِ تنوَّعت خطيئاتُهُم التي اقتضَت إهلاكَهُمْ.

فالمعنى المستفاد: أنَّ هؤلاء جاؤوا بفعلٍ قبيحٍ فاحِشٍ، تستحقُّ كلُّ أمَّةٍ بسببِهِ أن تُؤْخَذَ بالعذاب، فلفظُ (الخاطئة) هنا يحْمِلُ وعيدًا وتهويلًا وتشنيعًا بالفعل وأهلهِ[1].

ويجوزُ أن تكون (أل) في (الخاطئة) للكمال، أي: الذين جاؤوا بالخطيئةِ الكاملَةِ، وهو اشتراكُهُم في أصلِ الكُفْرِ، ثمَّ اختصَّ كُلٌّ مِنْهم بأصنافٍ مِنَ المخالفاتِ والموبقات.

معنى الفاءِ في قوله: ﴿فَعَصَوۡاْ رَسُولَ رَبِّهِمۡ﴾ ودلالَتُها:

العصيان المحقَّق يستتْبِع الأخذَ المضاعَف في شدَّته واستئصالهِ

الفاءُ في ﴿فَعَصَوۡاْ﴾ من قول الله تعالى: ﴿فَعَصَوۡاْ رَسُولَ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَهُمۡ أَخۡذَةً رَّابِيَةً﴾ تفريعيَّةٌ، والجملةُ بعدها جاءت على وجهِ

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 240، وأبو حيان، البحر: 10/ 256، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 22، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 121.

التَّفريع على ما سبق من الذَّنب العظيم المشار إليه بلفظ (الخاطئة)، أي: لمّا جاؤوا بالخاطئة التي هي عنوانُ كلِّ معصية مجاهَرٍ بها؛ تفرَّع عن ذلك أنَّهم عصَوا رسولَ ربِّهم.

وهذا التَّفريع يُظهر العلاقة السَّببيَّة بين الخاطئة، والعصيانِ والأَخْذِ، فالخاطئَةُ - وهي الشِّرك الأكبر والكفر المحض - كانت سببًا في عِصْيانِهم رسولَ ربِّهم بالعنادِ والتَّمرُّد على دعوةِ الحقِّ، والمجيءُ بالخاطِئَة وعصيان رسولِ ربِّهم، كلاهما سببٌ في أخذهم بالعقوبة التي لا مثيلَ لها[1].

دلالة التَّعبير بفعل العصيانِ مادَّةً وصيغةً:

تَجَذَّرَ العصيانُ فيهم حتّى صار بمنزلَةِ السَّجايا

عُبِّر بفعل العصيانِ في قول اللّه تعالى: ﴿فَعَصَوۡاْ رَسُولَ رَبِّهِمۡ﴾؛ لدلالَتِه على الانحرافِ المقصودِ عن الحقِّ، فكان ذلك مِنْهم إعراضًا وعنادًا واستكبارًا، ولم يقَعْ ذلك منهم على سبيلِ العَرَضِ، وفي اختيار صيغةِ الماضي إيحاءٌ بتحقُّقِ العصيانِ مِنْهم واستقرارِه فيهم، حتّى صار أشبهَ بالطَّبائعِ والسَّجايا.

بيانُ مرجِعِ الضَّمير في: ﴿فَعَصَوۡاْ﴾:

تنوُّع المعاني باختلافِ مرجِعِ الضَّمير

الضَّمير في (عَصَوْا) مِن قول اللّهِ تَعالى: ﴿فَعَصَوۡاْ رَسُولَ رَبِّهِمۡ﴾ عائد إلى ﴿فِرۡعَوۡنُ وَمَن قَبۡلَهُۥ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ﴾، وهذا هو الظّاهِرُ، وتكون الإضافة في ﴿رَسُولَ رَبِّهِمۡ﴾ دالَّةً على العموم؛ إذ المفرد المضافُ مِن صيغِ العموم، والمعنى: فعصوا رُسُلَ ربِّهم، وذلك على وجهِ التَّوزيع، أي: عصى كلُّ واحدٍ منهم الرَّسولَ الذي أُرسل إليه.

ويحتَمِلُ أن يكون راجعًا إلى فرعون وقومه خاصّةً، باعتباره رأسَ الطُّغيان والضَّلالة فيهم، وإن تأخَّر زمنًا عن بعضِهم، ولا يرجِعُ الضَّميرُ إلى جميع من سبقَ ذِكْرُهم، وعلى هذا الوجه: يكون ﴿رَسُولَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 121.

﴿رَبِّهِمْ﴾ هو موسى عليه السلام، فتكون الإضافةُ دالَّةً على العَهْدِ العلميِّ، وليست دالَّةً على العموم؛ لِما تَقَرَّر مِنْ أنَّ الإضافةَ تنقسِمُ إلى ما تنقسِمُ إليه (أل)، فكما تكون (أل) عهديَّةً؛ كذلك تكون الإضافة للعَهْدِ، ويكون هذا التَّعبير - ﴿فَعَصَوْاْ رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ - مشبعًا بالتَّقريع والتَّوبيخ؛ لأنَّ فيه تذكيرًا ضمنيًّا بقولهم لفرعون: ﴿فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ۝٤٧﴾ [المؤمنون: 47]، أي: جعلوه ربًّا، فأنكروا ألوهيَّة اللّهِ تَعالى وعبادتَه، ولهذا جاء التَّعبير بـ ﴿رَبِّهِمْ﴾ مضافًا إلى ضميرهم، لا (ربّك) أو (رب العالمين)؛ وذلك لإبطال دعوى ألوهيَّة فرعون عليهم، وتثبيت أنَّ موسى عليه السلام مرسل من ربِّهم الحقِّ، لا من مدَّعٍ زائف[1].

نكتَةُ الإفرادِ في كلمَةِ ﴿رَسُولَ﴾:

إفراد (الرَّسول) مع تعدُّد الأقوام تنويعٌ بليغ يوجِّه الذِّهن إلى وحدة المرسل وتَكرار الجريمَةِ

الضَّمير في ﴿فَعَصَوْاْ﴾ مِنْ قوله تعالى: ﴿فَعَصَوْاْ رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ عائد إلى جماعةٍ، وهم: ﴿فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ﴾، ومع ذلك جاء ﴿رَسُولَ﴾ مفردًا، وهذا من روائع التَّفنُّن البلاغي، ويُخرَّج هذا الإفرادُ على وجهَيْن مُتَداخِلَيْن:

أحدُهما: الإفراد مع إرادة الجمع، أي: كلُّ أمَّة من هؤلاء عصَت رسولَها الخاصَّ بها، فإفراد ﴿رَسُولَ﴾ يُراد به التَّوزيع، أي: عصت كلُّ أمَّةٍ رسولَ ربِّها.

والآخَرُ: القرينة السّياقيَّة واضحةٌ، فمِن السّياق نعلم أنَّ الحديث عن أمم مختلفَةٍ - فرعون ومن قبله، وقوم لوط - وكلُّهم أُرسل إليهم نبيٌّ خاصٌّ، فالإفراد لا يوقِع في لبْس، ولذا كان أفصحَ وأسهلَ من قول: (فعصوا رُسُل ربِّهم)؛ لِما في الجمع من ثِقَلٍ إيقاعيٍّ وتتابُعٍ للجُموع في عبارةٍ واحدَةٍ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 121، 122.

وهذا الأسلوب من الإفرادِ الدّالِّ على الجمع، هو من ضروب الاتِّساع في النَّظم القرآنيِّ، وقد يَرِدُ العكسُ، وهو الجَمْعُ المرادُ به واحدٌ، كما في سورة الفرقان: ﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغۡرَقۡنَٰهُمۡ﴾ [الفرقان: 37]، مع أنَّهم كذَّبوا رسولًا واحدًا، لكنَّه تكذيب للرُّسُل جميعًا باعتبار وحدةِ الرِّسالة، وفي سورة الشُّعراء أيضًا: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٠٥﴾ [الشعراء: 105]، وهكذا في قَصص الأقوام الأخرى، وهذا التَّبادُل بين الإفراد والجمع يكشِف عن مرونة أسلوبِ القرآن وتفنُّنه بما يلائم المَقام، فالإفرادُ في آية الحاقَّةِ أبلغُ وأخفُّ وأدقُّ في إيقاعه البلاغي، خاصَّةً بعد تعدُّد الجموع(1).

سِرُّ إيثار التَّعبير بـ ﴿رَسُولَ﴾:

كلُّ رسول نبيٌّ، وليس كلُّ نبيٍّ رسولًا

اصطفى البيانُ القرآنيُّ لفظ ﴿رَسُولَ﴾ دون (نبي)، في قول اللّه تعالى: ﴿فَعَصَوۡاْ رَسُولَ رَبِّهِمۡ﴾؛ لِما يدلُّ عليه لفظُ (الرسول) من التبليغ والأمر والنَّهي الذي أُمِرَ به، ثُمَّ إنَّ (الرَّسول) أخصُّ مِنَ النَّبيِّ وأشرفُ مقامًا، فتعليقُ عصيانِهم على وصفِ الرِّسالَة أدلُّ على شناعَةِ صنيعِهم وعظيمِ كُفْرِهم، مِن تعليقِهِ على وصف النُّبوَّة.

دلالَةُ الإضافة في: ﴿رَسُولَ رَبِّهِمۡ﴾:

بيانُ شناعَةِ العِصْيان وفَظاعَتِه

الإضافةُ في ﴿رَسُولَ رَبِّهِمۡ﴾ فيها إشارةُ تهويلٍ؛ إذْ لم يَرِدْ في البيان القرآنيِّ: (فعصوا الرسول)، بل أُضيف إلى ﴿رَبِّهِمۡ﴾، أي: المُرْسِل مِن قِبل الذي يَمْلِكهم ويُرَبّيهم ويقوم على أمرِهم، فمعنى العصيان هنا أشنَعُ؛ لأنَّه تمرُّدٌ على رسُلِ الذي يملكُ الأمرَ كلَّه.

دلالَةُ الإضافة في: ﴿رَبِّهِمۡ﴾:

مِن أشنَعِ صوَرِ العِصْيان عِصيانُ المُحسِن إليكَ

أُضيفَ لفظُ (الرَّبِّ) إلى ضميرِ العُصاةِ في قول اللّه تعالى: ﴿فَعَصَوۡاْ رَسُولَ رَبِّهِمۡ﴾؛ لتصوير شناعَةِ مخالفتِهم؛ إذ كان عصيانُهم متعلِّقًا بمَن أحسَنَ إليهم، وربّاهُم بنِعَمِه، بل بمَن خصَّهم بالإحسانِ،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 121، وما بعده.

فكان الواجبُ مقابلةَ ذلك بالطّاعة والانقيادِ للشّرع المنزَّلِ، لكنَّهم عدلوا عن ذلك إلى المعصيَةِ والمخالَفةِ.

دلالَةُ الفاءِ في ﴿فَأَخَذَهُمْ﴾:

التَّفريع بالجزاءِ عَلى ارتِكابِ العِصيانِ

الفاء في ﴿فَأَخَذَهُمْ﴾ من قولِ اللّٰهِ تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ حرفٌ دالٌّ على التَّفريعِ، والجملةُ بعدها واردةٌ تفريعًا بالجزاء على ارتكاب الخاطئَةِ والعصيان، وذلك في صيغة موحيَة بالانتقام العظيم: ﴿فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾، أي: أخذًا زائدًا متفاقمًا في الشِّدَّة والعذاب، و﴿رَّابِيَةً﴾ من ربا يربو، أي: تجاوزت الحدَّ المعروف في الأخذ والعقابِ[1].

وهذه الآية تُمَثِّل ذروة الإنذار؛ لأنَّها تُبَيِّن الذَّنْب الذي هو أصلُ كلِّ شر (الخاطئة)، ثُمَّ تُصَرِّح بالمعصية ﴿فَعَصَوْاْ﴾، ثمَّ تتوعَّد بالعقوبةِ الصّارخة، وهي الأخذَةُ الرّابيةُ.

نُكْتَةُ إيثار الفعل (أخذ) على غيرِه:

بيانُ إحاطةِ الهلاكِ بِهم، فلَم يكُن لَهُم مِنهُ مفرٌّ

آثر البيانُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بفعل الأخذِ دون غيرِه، في قول اللّٰه تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾؛ لِما في لفظ الأخذِ مِنْ مَعنى القبض الشَّديدِ المقرونِ بالهيمَنَةِ والقَهْرِ والغلبَةِ، وذلك يقتضي أنَّهم أُهْلِكوا هلاكًا لا مفرَّ لهم مِنْهُ ولا مهربَ.

دِلالَةُ إسنادِ الأخذ إلى الضَّمير في ﴿فَأَخَذَهُمْ﴾:

تفرُّد اللّٰه ﷻ بالعظمَةِ الكاملةِ والقُدْرَةِ المطلقَةِ

أُسنِدَ فعل الأخذ في قول اللّٰه تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾، إلى الضَّمير المستتر العائدِ إلى اللّٰهِ تَعالى، دون الإسنادِ إلى صريح الاسم (اللّٰه)؛ وذلك للإيماء إلى عظمةِ الفاعلِ وجلالِه؛ لِيُفْهِمَ السّياقُ أنَّ المتفرِّدَ بالعظَمَةِ، القادرَ على الأخذِ هذا الأَخْذَ الشَّديدَ، لا يكونُ إلّا ربَّ العزَّة والجلالِ، فلم يَحْتَجِ الأمرُ إلى تَعيينِهِ بالاسمِ الصَّريحِ.

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 600، وأبو السعود، إرشاد العقل: 9/ 23، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 122.

بلاغة المجازِ في ﴿فَأَخَذَهُمْ﴾:

المبالغةُ في التَّخويف والتَّرهيب

في قول اللّه تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ مجازٌ عقليٌّ؛ إذْ أُسْنِدَ الأخذُ إلى الضَّمير العائدِ إلى اللّهِ تعالى، مع أنَّ الأخذ وقعَ بواسطةِ الإغراق بالماء، أو بقَلْبِ قُراهُم مع رَمْيِهم بالحجارة، إلّا أنَّ البيانَ القرآنيَّ تجاوَزَ الوسائطَ إلى الفعّالِ الأعلى سُبحانَهُ، فيكونُ ظاهرُ العبارةِ القرآنيَّة دالًّا على أنَّ اللّهَ تَعالى باشرَ عقابَهُم، وهذا أقوى في التَّخويفِ وأبلغُ في التَّرهيبِ.

دلالَةُ التَّأكيد بالمَصْدَرِ ﴿أَخْذَةً﴾:

بيانُ كمالِ القُدْرَةِ الإلهيَّة في الإهْلاكِ

أُكِّدَ فعلُ الأخذِ بالمصدرِ الدّالِّ على المرَّةِ، في قول اللّه تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾؛ للإشارة إلى أنَّ الهلاكَ وقعَ عليهم بضربةٍ واحدةٍ، لا تَكرار فيها، فلم يُحْتَج إلى تكرارِ العقوبةِ أو تنويعِها؛ لأنَّ ما حلَّ بهم كان مستأصِلًا لَهُم، وفي هذا إبرازٌ لكمالِ القُدرةِ الإلهيَّةِ وتمامِ العَدالةِ في الإهْلاكِ.

نُكْتةُ الوصفِ بـ ﴿رَّابِيَةً﴾:

مَن يتألَّهُ على النّاس؛ لا يُؤخَذ إلّا بأخذَةٍ رابيَةٍ تَمحو مُلْكَهُ وأثَرَهُ

لفظُ ﴿رَّابِيَةً﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ اسمُ فاعِلٍ مِن ربا يربو، أي: زاد وارتفع، فالعذاب الذي أصابهم كان زائدًا عن العذابِ المعتاد، متفاقمًا في شدَّته وقهره، وهذا يعمِّق صورة الجبروتِ الفرعونيِّ والعقاب الإلهيِّ الماحق، ويبيِّن أنَّ من يتألَّه على النّاس، ويكذِّب رُسلَ اللّهِ؛ لا يُؤخذ إلّا بأخذة رابية تمحو مُلْكَهُ وأثرَهُ[1].

وفي التَّعبيرِ بالأخذة الرّابيةِ دلالةٌ على عقوبةِ الاستئصالِ مبالغةً في الإهلاكِ، فكأنَّها ربَتْ، أي: ارتفعَتْ حتّى استوعبَت كلَّ شيءٍ ممّا أُمِرَت بإهلاكِهِ وإفنائِه.

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 600، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 240، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 23، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 122.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الخاطِئ والمُخْطِئ:

الـخـاطِـئُ معاقَبٌ مُؤاخَذٌ، والمُـخْـطِـئ غيرُ مُؤاخَذٍ

الخاطئ والمخطئ كلاهما اسمُ فاعلٍ، إلّا أنَّ الخاطئَ اسمُ فاعل من الفعل الثلاثي المجرَّد (خَطِئ)، والمُخطئَ اسمٌ من الفعل الثلاثيّ المزيد (أخطأ)، والخاطئُ: مَن تعمَّد ما لا ينبغي، والمخطئ: مَن أرادَ الصوابَ فصار إلى غيرِه[1]، والخاطئُ معاقَبٌ مؤاخذٌ، والمخطئُ غير مؤاخذٍ[2]، ومِنَ الأوَّل قول الله تعالى: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنۡ غِسۡلِينٖ ٣٦ لَّا يَأۡكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡخَٰطِـُٔونَ﴾، ومن الثّاني قول الله سُبحانَهُ: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ﴾ [البقرة: 286].

(1) الجوهري، الصحاح: (خطأ)، والعكبري، شرح ديوان المتنبي: 1/ 80.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 32/ 225.

﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَـٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ۝١١ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ۝١٢﴾ [الحاقة: 11 - 12]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

إهلاكُ المُخالِفين وإنجاءُ الموافِقين

لمّا ذكر اللَّه تعالى أنَّه أهلك فرعون وقوم لوطٍ، وأنَّه أهلك مَن قَبلَ فرعون، وكان لفظ (مَنْ) مفيدًا العمومَ، فقد يُتوهَّمُ أنَّ الإهلاكَ وقع على جميع مَن كان قبلُ، فدُفِعَ ذلك ببيانِ أنَّه سبحانه إنَّما أهلك جميع المخالفين، وأنجى جميع الموافقين، فقال سُبحانَهُ: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَـٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿طَغَا﴾: (طغى) أصلٌ صحيحٌ مُنقاسٌ، وهو مُجاوزةُ الحَدِّ في العصيانِ[2]، يُقالُ: طَغى السَّيلُ؛ إذا جاء بماءٍ كثيرٍ يتجاوَز حدَّ ما كان يجري عليه، وطغى البَحرُ؛ إذا هاجَت أمواجُه[3]، فالطُّغيانُ: تجاوُزُ الحَدِّ في التَّعاظُم والظُّلم والكُفرِ، وفِعلُهُ يائيٌّ وواويٌّ، يُقالُ: طَغيَ يَطْغَى، كَرَضيَ، وطَغا يَطْغو كدَعا[4]، وأمّا المُراد بطغيان الماءِ هنا؛ فهو: تَجاوزُه في الارتفاعِ والعُلوِّ، وخروجُه عن الحدِّ حتَّى علا كلَّ شَيءٍ، وارتفَع فوقَه[5]، وهو المعروف بالطّوفانِ.

2) ﴿ٱلْجَارِيَةِ﴾: أصلُ (جري) يدُلُّ على انسياحِ الشَّيءِ[6]، ومن ذلك الجَرْيُ: المَرُّ السَّريع، وأصلُه كَمَرِّ الماء، ولما يجري بجَرْيِه، يُقالُ:

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 349.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طغي).
(3) ابن دريد، جمهرة اللغة: (طغي).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 314.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (طغى)، والواحدي، البسيط: 22/ 148، والكفوي، الكليات، ص: 584.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جري).

جَرى يَجْري جِرْيَة وجَرَيانًا[1]، والجارية: الشَّمْس، سُمّيَت بذلك لجَرْيها من القُطر إلى القطر، وقوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ١٦﴾ [التكوير: 15 - 16]، يَعْني: النُّجوم[2]، والجارية هنا مُرادٌ بها: السَّفينة الَّتي تَجري في البَحرِ، وهي صفَةٌ غالبة، وقد شاع هذا الوصفُ حتَّى صار بمنزلةِ الاسم[3].

3) ﴿وَتَعِيَهَآ﴾: أصلُ (وعي) كلمة تدلُّ على ضمِّ شيءٍ[4]، ومنه الوَعْيُ: مصدر وعَى العلمَ يَعيه وعْيًا؛ إذا حفظه[5]، تقول: وعَيْتُ الحديثَ أعيه وعْيًا، وأذنٌ واعيَةٌ[6]، وأوْعَيْتُ المتاعَ في الوِعاء أوعيه[7]، ومنه الإيعاءُ: حفظ الأمتعة في الوِعاءِ، قال تعالى: ﴿وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ ١٨﴾ [المعارج: 18][8]، والوَعْيُ المُرادُ به هنا: العِلْمُ بالمَسموعاتِ، أي: ولِتَعْلَمَ خَبَرها أُذُنٌ موصوفةٌ بالوَعْي، أي: مِن شأنها أن تعيَ[9].

المَعنى الإجْماليُّ:

إهلاكُ أهْلِ الكُفْرِ وإنجاءُ أهْلِ الإيمانِ

إنّا لمّا تجاوزَ الماءُ حدَّه في الارتفاعِ؛ حملنا مَن كُنْتُم في أصلابِهِم في السَّفينةِ الجاريةِ التي صنعَها نوحٌ عليه السلام بأمْرِنا، فكان حَمْلًا لكم؛ لنَجْعَلَ تلك السَّفينة الجاريةَ وقِصَّتَها موعظةً يُسْتدلُّ بها على إهلاكِ أهلِ الكفر، وإنجاء أهلِ الإيمان، وتَحْفَظها أذنٌ حافظةٌ لِما تَسْمَعُ[10].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ قول الله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ﴾:

بيانُ حَقيقَةِ المُهْلَكين

فُصِلَ قولُ اللّه تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ﴾ عمّا

(1) الراغب، المفردات: (جرى).
(2) ابن سيده، المحكم: (جرى).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 123.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وعي).
(5) ابن دريد، جمهرة اللغة: (وعي).
(6) الجوهري، الصحاح: (وعي).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وعي).
(8) الراغب، المفردات: (وعي).
(9) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 123.
(10) نخبة من علماء التفسير، التفسير الميسر، ص: 567.

قبلَهُ؛ لوقوعِه استئنافًا بيانيًّا، فبين الجملتين شبهُ كمالِ الاتِّصالِ؛ إذ جملة: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ واردةٌ جوابًا عن سُؤالٍ يُفْهَمُ مِنَ الجملة المتقدِّمَة: ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ۝٩ فَعَصَوْاْ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾، وحاصلُ السُّؤالِ: هَلْ أُهْلِك جميعُ مَن تقدَّم فرعونَ، كما هو ظاهرُ الاسم الموصول (مَنْ)، في قوله: ﴿وَمَن قَبْلَهُۥ﴾؟ فجاء الجوابُ مبيِّنًا أنَّ الهلاكَ عامٌّ لجميع المخالفين للرُّسُلِ، لا لِعموم العبادِ، بل أنجَى اللّٰهُ تعالى أهلَ الإيمانِ[1].

عظمَةُ اللهِ ﷻ وسعَةُ قُدْرَتِه

دلالة الإسناد إلى ضمير العَظَمَةِ في قوله: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾:

في التَّعبير عن المسندِ إليه بضمير العظمَةِ (نا)، في قول اللّٰه تَعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ إيماءٌ إلى أنّ إنجاءَ المؤمنينَ وإهلاكَ الكافرينَ حاصلٌ بعظمةِ اللّٰه تعالى وسعَةِ قُدْرَتِه وجليل إحاطتِه[2].

بيانُ رحمةِ اللهِ تعالى بإنْجاءِ أهلِ الإيمانِ

غرضُ استعمالِ ﴿لَمَّا﴾:

﴿لَمَّا﴾ في قول اللّٰه تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ يجوزُ أن تكون ظرفيَّةً أو شرطيَّةً[3]، فعلى كونِها ظرفيَّةً زمانيَّةً، فإنَّها تُشير إلى أنَّ رحمةَ اللّٰه تعالى بإنجاءِ أهل الإيمان لم تتأخَّر لحظةً عند طغيان الماء، فكأنَّ طغيان الماء كان إيذانًا بالنَّجاة، وعلى كونِها شرطيَّة؛ فإنَّها تفيد تحقُّقَ الجوابِ، وهو الحمل في الجاريةِ عند تحقُّقِ شرطِه، وهو طغيان الماء، ففي وقتِ عُموم الغرقِ واشتدادِ الطّوفان؛ تجلَّت رحمةُ اللّٰه سُبحانَه بإنجاء أهل الإيمان بحَمْلِهم في السَّفينة، والمعنيان متقاربانِ مُتَآيِلانِ.

إدماجُ النِّعمة في سياق العِظَةِ تذكيرٌ بأنَّ الهلاكَ رحمَةٌ لمَن اعتبَرَ ونَجا

بلاغةُ الإدماجِ في قولِه: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾:

انتقل النَّظم القرآنيُّ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 349.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 350.

(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 194.

﴿فِى ٱلۡجَارِيَةِ﴾، من سرد نماذجِ العذاب إلى نموذجِ النَّجاة؛ تذكيرًا بنعمة إلهيَّةٍ عظيمةٍ على البشر، وذلك بأسلوب بلاغيٍّ راقٍ يُسمّى الإدماج؛ إذ كان في الآيةِ إدخالُ معنى الامتنانِ والنِّعمة ضمنَ سياق العِظَة والتَّخويف(1).

والسِّرُّ البلاغيُّ في هذا الانتقال: أنَّه لمّا ذَكَرَ الأممَ الهالكة إجمالًا في قوله: ﴿وَمَن قَبۡلَهُۥ﴾، وكان ذلك يشمَلُ قومَ نوحٍ؛ أراد أن يَخُصَّهم بالتَّذكير لا على وجه التَّخويف فقط، بل ليَدمِج فيه الامتنانَ على ذرّيَّة النّاجين، فجاء الفعلُ الشَّرطي ﴿لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ﴾، مبنيًّا على حدثٍ شهيرٍ في الذِّهن البشريِّ، وهو الطّوفان، فكأنَّ السّياق يقول: اذْكُروا حينَ طغى الماء، وهو وقتٌ معروف لا يحتاج إلى إعادةِ ذِكْرِ القوم فيه، ثمَّ جاء الجوابُ بقوله: ﴿حَمَلۡنَٰكُمۡ فِى ٱلۡجَارِيَةِ﴾، أي: حملنا آباءكم الذين نجوتُم بهم في السَّفينة الجارية، وفي هذا تذكيرٌ بفضل اللّهِ تَعالى في زمَنِ الهلاك العامِّ، وهو - أيضًا - إدماجٌ للنِّعمة في مقام التَّخويف، بما يُحَفِّز على الاتِّعاظ والاعتراف بالجميل، وهذا المسلَكُ البلاغيُّ البديع يُحوِّل مشهدَ الهَلاك إلى مَعْبَرٍ نحوَ النَّجاة لمن اعْتَبَر، ويُهَيِّئ النَّفس لتلقّي الغاية القادمة من قوله: ﴿لِنَجۡعَلَهَا لَكُمۡ تَذۡكِرَةً﴾(2).

نُكْتَةُ التَّعبير بلفظ الطُّغيان:

جاء التَّعبير عن فيَضانِ الماء وعموميَّتِه بلفظ (الطُّغيان)، في قوله تعالى: ﴿لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ﴾، وهو اختيارٌ بلاغيٌّ مؤثِّر يرسُمُ صورةً حسّيَّة عنفوانيَّةً لحالِ الماء، وذلك على سبيل التَّشبيه التَّقريبيِّ، فالطُّغيان في الأصل: هو تجاوُزُ الحدِّ مع ظُلْمٍ وسَطْوَةٍ، وغالبًا ما يُستعمَل في وصف الجبابرَةِ والطُّغاة، فحين يُقال: ﴿طَغَا ٱلۡمَآءُ﴾، فالقرآنُ يشبِّه الماء الجارف بجبّار متسلِّطٍ، فيُستَحضَر في الذِّهن مشهدُ الماء لا باعتبارِهِ ظاهرةً طبيعيَّةً، بل كأنَّه كائنٌ جبّار، يقتَحِمُ، ويغمُرُ، ويُفني. وهذا التَّشبيه أبلغ من مجرَّد التَّعبير بلفظِ (الفيض) أو (الكثرة)؛ لأنَّ (الطُّغيان) يوحي بقَهْرٍ وعُدْوان وإهلاك جماعيٍّ، وهو أقوى وقعًا في التَّخويف والتَّهويل من طغيان الإنسان نفسِه، بل

---

(1) السيوطي، الإتقان: 3/ 298، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/ 339، والمراغي، علوم البلاغة، ص: 344، وحبنّكة، البلاغة العربية: 2/ 427.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 358، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 122، وما بعدها.

إنَّ المقارنة الضِّمنيَّة تقول: إذا كان طغيانُ البشَرِ يُخيفُ؛ فطُغْيان الماء في الطّوفان أشدُّ وأقسى؛ لأنَّ البشر قد يُدْفَعونَ، أمّا هذا الطُّغيان؛ فلا يردُّه شيءٌ[1].

تَجْسيدُ العذاب فـي هيئةٍ مُتَسَلِّطةٍ تَقْتَلِعُ بلا رحمَةٍ

بلاغة الاستعارةِ في قوله: ﴿طَغَا ٱلۡمَآءُ﴾:

في قول اللّهِ تَعالى: ﴿طَغَا ٱلۡمَآءُ﴾ استعارة تمثيليَّة؛ لأنَّ المقصود ليس تشبيهَ ﴿ٱلۡمَآءُ﴾ بذاته بـ (جبّارٍ)، بل المرادُ تشبيهُ حالِ الماء في اندفاعهِ وشُمولِه وغمْرِه المُهلِك، بحال جبّارٍ طاغٍ في اقْتحامه وسَطْوَتِه وبَطْشِه، أي: أنّ التَّشبيه يقَعُ على هيئةٍ ومشهدٍ مركَّب، لا على مُفْرَدٍ.

وصْفُ الطّوفانِ بالطُّغيان يُلْبِسُ ثوبَ الجَبروت؛ ليَرى السّامع في الماء سيفًا ربّانيًّا يبطِش بأمْرِ اللهِ تَعالى

دلالةُ (أل) في ﴿ٱلۡمَآءُ﴾:

(أل) في ﴿ٱلۡمَآءُ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ﴾ للعَهْدِ العلميِّ، والمرادُ به ماءُ الطّوفانِ، لا كلُّ ماءٍ خَلَقَهُ اللّهُ تَعالى، فكان في تعريفِ لفظ الماء بـ (أل) إشارةٌ إلى ذلك الماء المخصوصِ المعروفِ عند العبادِ، حتّى صار مضربَ مثلٍ في الغلَبَةِ والإهلاكِ، وصار علامَةً على غضب اللّهِ تَعالى وعقابِهِ الاستئصاليِّ.

صيرورةُ الطّوفان مثلًا في الإهلاكِ والإفْناءِ

نُكْتَةُ التَّعبير عن الطّوفانِ بلفظِ ﴿ٱلۡمَآءُ﴾:

عُبِّر عن الطّوفانِ بلفظِ الماءِ في قول اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ﴾ دون التَّصريح بلفظِ الطّوفانِ أو وصْفِ أمواجِه، بل اكْتُفيَ بلفظ ﴿ٱلۡمَآءُ﴾ وهو اسمٌ عامٌّ؛ للإشارةِ إلى أنَّ الماءَ - على لطافَتِه وكونِه من أسبابِ الحياةِ - قد يُصَيِّرُهُ اللّهُ تَعالى مِنْ أعظمِ أسباب العَطَبِ والهلاكِ، وهذا من أظْهَرِ أدلَّةِ قدرة اللّهِ تَعالى وعظيمِ سُلطانِهِ.

بيانُ عظمَةِ قُدْرَةِ الله تعالى وسُلْطانِهِ

دلالَةُ إيثارِ فِعْلِ الحَمْلِ مادَّةً وصيغَةً:

آثَرَ البيانُ القرآنيُّ فِعْلَ الحَمْلِ في قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ﴾؛ لِما يُشْعِرُ به لفظُ الحَمْلِ من العنايةِ والرِّفْقِ؛ إذ

جميلُ لُطْفِ اللهِ تعالى بعبادِهِ المؤمنينَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 123، ودرويش، إعراب القرآن: 10/ 195.

لفظُ الحَمْلِ يُستعمَلُ كثيرًا فيما يحتاجُ إلى حفظٍ ورعايةٍ، فيكون اختيارُه ههنا إيماءً إلى أنَّ اللّهَ سُبحانَهُ تولّى المؤمنين بعنايتِه، وحمَلَ ضعيفَهُم، فلم يكن حمْلهُم في السَّفينةِ إنجاءً مجرَّدًا، بل كان نجاةً مقرونَةً باللُّطْفِ والعنايةِ.

وفي التَّعبير عَنْ فِعْلِ الحَمْلِ بصيغَةِ المُضيِّ دلالَةٌ على تحقُّقِ الحَمْلِ وانقضائِه، فكانَتِ النَّجاةُ متحقِّقةً مستقرَّةً.

سِرُّ الإسنادِ إلى ضَمير العظمَةِ ﴿حَمَلۡنَٰكُمۡ﴾:

تعظيمُ شأنِ النِّعمة وتفخيمُ مَقامِ المِنَّة

أُسنِد فعل الحَمْلِ إلى ضمير العظمة (نا)، في قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ﴾؛ للدلالة على تعظيم شأن نعمة الإنجاء وتفخيم مقام المنَّة بها، وفيه أيضًا دلالةٌ على عظمة قدرة اللّهِ تعالى؛ إذ إنَّ هذا الحَمْلَ الواسِعَ العريضَ لا يُمكِنُ لأحدٍ أن يُحقِّقَهُ أو يتولّاهُ إلّا ربُّ العباد ﷻ.

دلالةُ خِطاب الموجودينَ في: ﴿حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ﴾:

نجاةُ الآباء من الطّوفان سبَبٌ في وُجودِ الأبناءِ

قال اللّه سُبحانَهُ: ﴿حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ﴾، ولم يَرِد في النَّظم القرآنيِّ: (حملناهم)، بل خوطب الموجودونَ وقتَ نزول القرآنِ الكريم بضمير الخطابِ الجَمْعيِّ، مع أنَّ الواقع أنَّ اللّه تَعالى أنجى آباءَهُم في سفينة نوحٍ عليه السلام، وهذا مِن روائعِ البلاغة في التَّوجيه والتَّذكير، والسِّرُّ البلاغيُّ في هذا الخطاب: أنَّ المنَّة بإنجاءِ الآباء منَ الغرق تعود إلى الأبناءِ وُجودًا ومعنًى، فكأنَّ اللّه سُبحانَهُ يقول: لولا أنّي حَمَلْتُ آباءَكُم في السَّفينةِ لَهَلكوا، وما كنتُم أنتُم الآن موجودين، فصارت نعمَةُ النَّجاة الأولى كأنّها حاصلةٌ لكُم كذلك. وهذا النَّمط من الخطاب ضربٌ مِنْ ضروبِ المجازِ، وفيه إشعارٌ بالقُرْبِ والارتباط بين الحدَثِ والنّاس، بما يُعينُ على استحضارِ مَعْنى التَّقدير والامتنان، وكأنَّ النَّجاة حصلَتْ للسّامعين أنْفُسِهِم، لا لآبائِهم فقط.

دلالَةُ حرفِ الظَّرفيَّة في قوله: ﴿حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ﴾:

المرادُ بِالحمْل في قوله تعالى: ﴿حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ﴾ أعمُّ من مجرَّد الإركاب، بل هو رفعٌ لهم فوق الماءِ وحفظٌ تامٌّ أثناءَ الطّوفان، ويدُلُّ لذلكَ الاستعمالُ الدَّقيق لحرف الظَّرفيَّة ﴿فِي ٱلۡجَارِيَةِ﴾، فالحرفُ ﴿فِي﴾ لا يتعلَّق بالفعل ﴿حَمَلۡنَٰكُمۡ﴾ في المعنى، بل يتعلَّق بحالٍ محذوف، والتَّقدير: حملناكُم مَرْفوعينَ حالَ كونِكُم في السَّفينة الجارية، وهذا يدلُّ على أنَّ المقصود بالحَمْلِ هو حفظهُم في حالِ الطّوفان، لا مجرَّدُ إدخالهم السَّفينةَ، وبهذا يكون (الحمْل) المذكورُ رحلةَ نجاةٍ شاملة، بدأت من ركوبهم إلى السَّفينة، وامتدَّت إلى بقائهم آمنين فيها فوقَ الماء الطّاغي وهبوطِهم مِنْها، وهذا المعنى من دقائق المَعْنى؛ إذ لو قيل: حملناكم إلى الجارية أو على الجارية؛ لتغيَّر المَعْنى[1].

الـسَّـفـيـنـة صارت كالكَنَف الرَّحيم، تُحيط بِهم وتَحْمِلُهُم فـوقَ المـوت الزّاحف تَختَهُم

نُكتة التَّعبير بالصِّفة ﴿ٱلۡجَارِيَةِ﴾ دون ذِكْرِ السَّفينة:

لم يُصَرَّح بلفظ (السَّفينة) في قوله تعالى: ﴿حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ﴾، بل اكتُفيَ بالصِّفة ﴿ٱلۡجَارِيَةِ﴾، وهذا من أساليبِ الإيجاز البليغِ في القرآنِ الكريمِ؛ إذ يُذكر الوصفُ الدّالُّ على الموصوف تَغْليبًا لمعناهُ ومقصدِه،

العـنـايـةُ بـأثَـر الـنَّـجـاة أكـثَرُ مِـن الـعـنـايَـةِ بوَسيلَتِها

ووجهُ البلاغَةِ في هذا التَّركيب: أنَّ لفظ ﴿ٱلۡجَارِيَةِ﴾ صفةٌ لمَوْصوفٍ محذوفٍ، والتَّقدير: في السَّفينة الجاريةِ، لكنْ حُذِفَ الموصوفُ؛ لتكون العنايةُ بِالفِعْلِ المُدْهِش، وهو جريانُ السَّفينة وسَطَ الطّوفان المُهلِك، فصارت ﴿ٱلۡجَارِيَةِ﴾ كأنَّها اسمُ عَلَمٍ عليها؛ لما فيها مِن عظمَةِ الفِعْلِ ونَجاة الرُّكّاب.

وهذا الحذف يحملُ دلالاتٍ عدَّةً، منها: إبرازُ قدرة الله تَعالى، فجَرَيانُ السَّفينة وقتَ الغرقِ الشّامل ليس بالأمرِ العاديِّ، ومِنْها

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 23.

أيضًا: ترسيخُ صورةِ النَّجاة الحيَّة؛ إذ يُذْكَر من السَّفينة ما يدلُّ على الحركة والسَّلامة، ومنها: إيحاؤُها بالرَّحمة والرِّفق، فـ﴿ٱلْجَارِيَةِ﴾ توحي بانْسيابٍ لا عُنْفَ فيه، بخلاف الطّوفان العنيفِ مِن حَوْلِها، وأيضًا: وصفُ السَّفينة بـ ﴿ٱلْجَارِيَةِ﴾ يُشعِر بَحَرَكَتِها وانقيادِها بأمْرِ اللّه تَعالى في وسطِ الماء الطّاغي، مع أنَّ الرّيح والمَوْجَ كانا مُهْلِكَيْن[1].

مَعْنى اللّام في ﴿لِنَجْعَلَهَا﴾:

اللّامُ في ﴿لِنَجْعَلَهَا﴾ مِنْ قول اللّه تعالى: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ دالَّةٌ على التَّعليلِ، فالمذكورُ هنا هوَ علَّةُ إنجاء المؤمنين في السَّفينة، وهي أن تظلَّ تلك النَّجاة عَبْرَ الأجيال وسيلةَ تذكيرٍ واعتبارٍ وشُكْرٍ[2].

العِبرة مِن النَّجاة أعظمُ مِنَ النَّجاة نفسِها؛ لتكون ذِكْرى تَهْدي اللّاحقين إلى الشُّكر والاعتبار

دلالة التَّعبير بفعل الجَعْلِ في قوله: ﴿لِنَجْعَلَهَا﴾:

يَرِدُ فعلُ الجَعْلِ مرادًا به الصَّيرورةُ، كما في قول اللّه تعالى: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾، والصَّيرورةُ في الأصل: نقل الشَّيءِ مِن حالٍ إلى أخرى، وهي هنا تحويلُ هذا الإنجاءِ من صورةٍ حسّيَّةٍ واقعيَّةٍ إلى كونِه مَعْنًى باقيًا في الأذهانِ يعتبرونَ به، ويتَّعظونَ.

بيانُ حِكْمةِ اللهِ تعالى في إنجاءِ المؤمنين

نُكْتَةُ إسنادِ فِعل الجَعْلِ إلى ضمير العَظَمَةِ:

أُسنِدَ فعل الجَعْلِ إلى ضمير العظَمةِ المستترِ (نَحْن)، في قول اللّه تعالى: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾؛ لِتفخيم أثر النِّعمة وإعلاء شأنِ الغايةِ؛ إذْ لم يكُن تحويلُ حادثةِ الطّوفانِ إلى تذكرةٍ بقدرةِ أحدٍ مِنَ الخَلْقِ، بل بقدرةِ اللّهِ تَعالى وحْدَهُ، فهو وحدَهُ القادرُ على تصييرِ الوقائعِ العابرةِ ذِكْرى، وتحويلِ الهلاكِ إلى آيةٍ باقيةٍ خالدةٍ، فكان في إسنادِ فعل الجَعْلِ إلى ضمير العَظَمَةِ تعظيمٌ للفعْلِ والغايةِ مَعًا.

تَفْخيمُ أثَرِ النِّعمةِ وإعلاءُ شأنِ الغايَةِ

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 600، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 240، وأبو حيان البحر المحيط: 10/ 256، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 23، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 123.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 123.

بيانُ مرجِعِ الضَّمير في: ﴿لِنَجۡعَلَهَا﴾:

الضَّمير في قوله: ﴿لِنَجۡعَلَهَا﴾ يعود إلى الحادثةِ كُلِّها أو إلى الجاريةِ أو إلى النَّجاة. وكلُّها معانٍ سائغَةٌ؛ ليكونَ المعنى: لِنَجْعَل الطوفان وما فيهِ مِن عذابٍ ونجاةٍ عظةً دائمَةً.

دلالة تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿لَكُمۡ﴾:

العنايةُ بشَأْنِ المُخاطَبين رجاءَ اعْتِبارِهم

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ ﴿لَكُمۡ﴾ في قولِ اللّه تعالى: ﴿لِنَجۡعَلَهَا لَكُمۡ تَذۡكِرَةٗ﴾؛ لإفادَةِ مَعْنى القَصْرِ والاختصاصِ؛ إذ أصلُ التَّركيب: لنجعلها تذكرةً لكم، فقُدِّم ما حقُّه التَّأخير، والمعنى: أنَّ هذه التَّذكرة مخصوصةٌ بكُم - أنتُم معشر المخاطَبين - لا تتعدّاكم، ولا تُصْرَفُ إلى غيركُم، وهو قصرٌ مجازيٌّ؛ لأنَّ العبرةَ بالطّوفانِ كانَت لهُم ولغيرِهم ممَّن كان قبلَهُم وممَّن جاءَ بعدَهُم، إلّا أنَّ إيثارَ أسلوبِ القصْرِ يُشْعِرُ بعنايةٍ خاصَّةٍ بالمخاطَبينِ، فيكون ذلك أدْعى للاعتبارِ وسُلوكِ سبيلِ الشَّرْعِ المنزَّل.

دلالةُ المَصْدَرِ ﴿تَذۡكِرَةٗ﴾ ونُكْتَةُ تنكيرِه:

الحكمَةُ ليسَت في النَّجاة فحسب، بل أن تُروى القِصَّةُ، ويُتَعلَّم منها

كلمة ﴿تَذۡكِرَةٗ﴾ مصدَرٌ عُبِّر بِه ليدلَّ على الدَّوام والثُّبوت، أي: نَجْعَلُها موضِعَ تذكيرٍ لا ينقَطِعُ، بَلْ يُتناقَل بين الأمم، فالحكمة ليست في النَّجاة فحسب، بل أن تُروى القِصَّة، ويُتَعلَّم منها، ويُعتبَرُ بها؛ لتكون سُلَّم نجاةٍ لِمَنْ بعدَهُم.

وجيءَ بلفظِ ﴿تَذۡكِرَةٗ﴾ نكرةً؛ لإفادةِ التَّعظيم والتَّفخيم، وفي التَّنكير أيضًا مَعْنى التَّنويع؛ إذ هي تَحْمِلُ وجوهًا مِنَ العبرةِ؛ إذ فيها تذكيرٌ بالقُدرةِ، والرَّحمةِ، والبطشِ، والنَّجاةِ، وغير ذلك.

دلالةُ الواو في ﴿وَتَعِيَهَآ﴾:

بيانُ وجْهِ كمالِ الانتفاعِ بالتَّذْكِرَةِ

الواو في ﴿وَتَعِيَهَآ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿لِنَجۡعَلَهَا لَكُمۡ تَذۡكِرَةٗ وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ﴾ عاطفةٌ للفعلِ بعدها على فعل (نجعلها)، وفي هذا العَطْفِ جَمْعٌ بينَ إظهار فضلِ اللّهِ تَعالى في جعلِ القصص

تذكرةً وعبرةً، وبين المطلوبِ مِنَ العبْدِ في قَبولِها ووَعْيِها، وفي الجَمْعِ بينَهما إيماءٌ إلى كمال الانتفاعِ بالتَّذكرة لا يكونُ إلّا باجتماعِ أمرينِ، أحدهما: توفيقُ اللّهِ تعالى، والآخرُ: اجتهادُ العبدِ في وعيها.

نُكْتَةُ التَّعبير بالوَعْيِ دونَ السَّماع في: ﴿وَتَعِيَهَآ﴾:

جاءَ التَّعبيرُ بالوَعْي في قول اللّه تَعالى: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾، دون التَّعبير بالسَّماع، فلم يَرِد في النَّظم القرآنيِّ: (وتسمعَها أذن)، بل قال: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾؛ لأنَّ الوعي أعمَقُ مِن السَّماع وأخصُّ، فهو سماعٌ مع فَهْمٍ وحِفْظٍ[1].

لم يكن إنجاءُ السَّفينة لرُكّابها فقط، بل لكلِّ مَن وعاها قلبُه بعدَهُم

بلاغةُ المجازِ في قوله: ﴿أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾:

أُسْنِدَ الوعيُ - وهو الفَهْمُ والحفظُ والإدراكُ - إلى الأذن في قول اللّه تعالى: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾، وهو إسنادٌ مجازيٌّ، وذلك لأنَّ وظيفةَ الأذنِ هي السَّماعُ، والمرادُ بالواعي هوَ صاحبُها لا هيَ؛ إذ الوعيُ مِنْ وظيفةِ القَلبِ والعَقلِ، وآثر البيانُ القرآنيُّ نسبة الوعي إلى الأذنِ؛ لأنَّها المدخَلُ الأوَّل للعِلْم وتلقّي الوحي، كما أنَّ هذا الإسنادَ أضْفى تشخيصًا حيًّا على الأذن؛ إذْ جعلها كأنَّها ذاتٌ واعية تَحْفَظُ ما يَرِدُ عليها، وفي ذِكْرِ لفظِ الوعي مُشاكَلَةٌ لِلَفْظِ ﴿وَتَعِيَهَآ﴾، كما قال صدّيق حسن خان: "وجَعْلُ الأذنِ حافظَةً ومُسْتَمِعَةً ومُتَذَكِّرةً ومُتَفَكِّرة وعاملةً تَجَوُّزٌ؛ لأنَّ الفاعل لذلك صاحبُها، ولا يُنْسَب إليها غيرُ السَّمع، وإنَّما أُتِيَ به مُشاكلةً لقَوْلِه: ﴿وَٰعِيَةٌ﴾"[2].

الأُذنُ هيَ المَدْخَلُ الأوَّل للعِلْم وتَلَقِّي الوَحْيِ

نُكْتَةُ التَّقييد بـ ﴿أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾:

في تَقييدِ الأذنِ بوصفِ الوَعْيِ في قول اللّه تعالى: ﴿أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ دلالةٌ على أنَّ الانتفاع بالتَّذكرة مشروطٌ باستعدادِ النَّفس، فليس كلُّ مَن يَسْمَعُ يَعتَبِر، والأذن هي أداةُ حفظِ المسموع في النَّفْس، فإنْ أمسكتْهُ وحَفِظَتْهُ فهيَ الواعيَة، وإنْ فوَّتَتْهُ، وجاوزتْهُ فهي النّابيَة.

هي نَجاةٌ حيَّة تسري في ذاكرة البشريَّة ما بقيت آذانٌ واعيَةٌ تسمَعُ وتتَفَكَّر

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والسمين، عمدة الحفاظ: (وعي).

(2) القِنّوجي، فتح البيان: 14/ 290.

بلاغَةُ التَّعريض في قوله: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ﴾:

جاء التَّعبير في قول اللّهِ تعالى: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ﴾ تعريضًا بليغًا بالمشركين؛ إذ لم تَكُن آذانُهم واعيةً، ولا قلوبُهم مفتوحةً للتَّدبُّر، بل تَلَقَّوْا أخبار العذاب والنَّجاة، كما تُتَلَقّى مُطلقُ القصصِ والأخبارِ، لا باعتبارِ ما فيها مِنْ عِظاتٍ تهزُّ القلوب. وبلاغة التَّعريض ههنا أنَّ المشركين لم يُذكَروا صراحةً، لكنْ في الاقتصارِ على ﴿أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ﴾ إشارةٌ ضمنيَّة إلى أنَّ كثيرًا من الآذان ليست واعيةً، فكأنَّ المعنى: ليسَتْ كلُّ أذُنٍ تصلُحُ لتلقّي هذه التَّذكرة، بل أذنٌ واحدَةٌ فقط هي الواعية، وهذا إزراءٌ بحالِ مَن يسمَعُ القرآنَ وآياتِ التّاريخ فلا ينتفع، وفيه تقريعٌ للمشركين على بَلادَتِهم وغَفْلَتِهم، وهم يسمعونَ آيات اللّه تَعالى، كما يسمعونَ الشِّعر ونحوَهُ مِنَ أخبارِ السَّمَر، والعبارة تُشعِر بأنَّ العِبرة لا تتعلَّق بوفرة السَّماع، بل بجودة التَّلقّي، فقد يسمع الإنسانُ التَّذكير، لكنَّه لا يَعي، ولا يعتَبِرُ، فيضيعُ عليه الهُدى[1].

من لم تَعِ أذنُه آياتِ اللهِ تعالى؛ ضلَّ

فائدَةُ الإفراد والتَّنكير في لفظِ (الأذُن) في: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ﴾:

جاء التَّعبير عن لفظِ (الأذن) بالإفرادِ في قوله تعالى: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ الآذانَ الواعيَةَ قليلةٌ نادرَةٌ، وأنَّ أكثر النّاس لا يفقهون ولا يَعْتَبِرون، ونُكِّرت للإشادَةِ بعظَمَتِها وجلالةِ قدرِها، فكلمة ﴿أُذُنٞ﴾ جاءت نكرةً لتدلَّ على النُّدرة، والمقصود: أذُنٌ واحدة واعيةٌ من بينِ آذان كثيرةٍ ليسَت كذلك.

قِلَّة الوُعاة توبيخٌ للغافلين وتكريمٌ لقلوبٍ فتحت سمعَها للحقِّ

وفي الإفرادِ إشعارٌ بأنَّ الوعي الحقيقيَّ عمَلٌ فرديٌّ، خاصٌّ بمن تهيَّأ قلبُه للقَبول، وليس من دَأْبِ الأكثرينَ. وفي الآيةِ توبيخٌ لِمَن لا يفقهُ ولا يَعي، ووجهُ ذلك: أنَّ فيها لومًا ضمنيًّا على الجماعاتِ التي تسمع القصصَ والآياتِ، ولا تفقهُ منها إلّا ما يوافق هواها[2].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 123.

(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 600، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 240، وأبو حيان، البحر المحيط: 10/ 256، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 23.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ١٣ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ١٤ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ١٥ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ١٦ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَاۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ١٧ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ١٨﴾ [الحاقة 13 - 18]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الانتقال من تمهيد الهلاكِ الجُزئيِّ إلى مشهدِ القيامةِ الكُلّيِّ

لَمّا بَيَّن اللّهُ تعالى أهوالَ القيامة باسْمِها (الحاقَّة)، وضرَبَ أمثلةً مِن عذابِه في الدُّنيا بمَنْ أهلكَهُم بقُدْرَتِه في لحظات يسيرة، واختَتم بقصَّة الطّوفان الشّاملة التي تُشبه القيامةَ في عُمومِها وسُرْعَتِها وشدَّة وقْعِها؛ انتقل البيانُ القرآني من ذلك إلى التَّصريح بمشهد القيامة نفسها، ففصَّل أمْرَها ابتداءً من النَّفخة، كأنَّه يقول: ذلك كلُّه مقدِّمة وتمهيد، وأمّا الحقيقة الكبرى؛ فهي ما سيقَعُ عند النَّفخة العامَّة ووقوع الواقعة وشدَّة الانكِشاف[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلصُّورِ﴾: الصّور من قولهم: صارَ الرَّجلُ عنقَه إلى الشَّيء يَصوره ويَصيره؛ إذا أمالَهُ، وصَوِرَ: مالَ واعوجَّ، ومنه الصّور - بضَمّ الصّادِ -: القَرْنُ؛ لأنَّه معوجٌّ عادةً[2]، والصّورُ المذكور في الآية: قَرنٌ فيه أرواح العالَم، فإذا نفخ فيه إسرافيلُ طارت كلُّ روح إلى جسدِها، فلَبِسَتْه، وقال الرّاغب: هو مِثل قرنٍ يُنفخ فيه، فيجعل اللّهُ ذلك سببًا لِعَوْدِ الصّوَرِ والأرواح إلى أجسامِها[3]، ويقال: هو جمع صورةٍ، مثل بُسْر جمع بُسْرة، أي: يَنفُخ في صوَرِ الموتى الأرواح[4].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 352.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (صور).
(3) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (صور).
(4) الجوهري، الصحاح: (صور).

2) ﴿فَدُكَّتَا﴾: (دكك) أصلانِ، أحدُهما: يدلُّ على تطامُن وانسطاح، ومنه الأرضُ الدَّكّاءُ، وهي الأرض العريضة المستوية، كما قال الله تعالى: ﴿جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ﴾ [الكهف: 98]، والأصل الآخر يقرب من باب الإبدال، فكأنَّ الكافَ فيه قائمةٌ مَقام القاف، يُقالُ: دكَكْت الشَّيء، مثل دَقَقته، وكذلك دكَّكته، ومنه دُكَّ الرَّجُل، فهو مدكوكٌ؛ إذا مَرِض، ويجوز أن يكون هذا من الأوَّل، كأنَّ المرضَ مَدَّه وبَسَطَه، فهو محتملٌ للأمرين جميعًا[1]، ويُقاس عليه غيره، ومنه: دَكَّ الأرْضَ يدُكُّها دكًّا؛ إذا سوّى ارتفاعَها وهُبوطَها للزَّرْع أو غَيره[2]، والدَّكُّ كذلك: كَسْر الحائط والجَبَل[3]، والدَّكُّ في الآية معناهُ: الدَّقُّ الشَّديد الَّذي يترتَّب عليه التَّكسير والتَّفتيت للشَّيء[4].

3) ﴿ٱلْوَاقِعَةُ﴾: أصلُ (وقع) يدلُّ على سُقوطِ شيءٍ، يُقالُ: وقَعَ الشَّيءُ وُقوعًا، فهو واقِعٌ[5]، والواقِعَةُ لا تُقالُ إلّا في الشِّدَّة والمكروه، وأكثر ما جاء في القرآن من لفظ (وَقَعَ) جاء في العذاب والشَّدائد، نحو: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢﴾ [الواقعة: 1 - 2][6]، والمرادُ بالواقِعَةِ في الآية: القيامة والطّامَّة الكُبرى[7].

4) ﴿وَاهِيَةٌ﴾: أصلُ (وهى) يدلُّ على استرخاءٍ في الشّيء، يقال: وهَتْ عَزالِيُّ السَّحاب بمائِه، وكلُّ شيءٍ استرخَى رباطُهُ فهو واهٍ، والوَهْيُ: الشَّقُّ في الأديم وغيره[8]، والواهي: الضَّعيفُ، يُقالُ: وهَى البِناءُ يَهي وهْيًا فهو واهٍ؛ إذا ضَعُف جدًّا، ويُقالُ: كلامٌ واهٍ، أي: ضعيفٌ[9]، وفي المَثَلِ: (أَوْهى من بَيْتِ العَنكَبوتِ)، يُضْرَبُ لِعَدَمِ نُهوضِ الحُجَّةِ، والوَهْيُ: قَريبٌ مِنَ الوَهْنِ، والأكْثَرُ أنَّ الوَهْيَ يوصَفُ به غير العاقِلِ، والوَهْنُ يوصَفُ به النّاسُ، والمقصود بـ ﴿وَاهِيَةٌ﴾ في الآية: مسترخيةٌ ساقطةُ القوى ضعيفَةٌ[10].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دكّ).

(2) ابن دريد، جمهرة اللغة: (دكك).

(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (دكك).

(4) طنطاوي، التفسير الوسيط: 15/ 76، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 125.

(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وقع).

(6) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (وقع).

(7) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 359.

(8) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (وهى).

(9) الفراء، معاني القرآن: 3/ 181، والهروي، الغريبين، والراغب، المفردات: (وهى)، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 625، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 265.

(10) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 127، ومجمع البحوث، التفسير الوسيط: 10/ 1555.

5) ﴿أَرۡجَآئِهَاۚ﴾: أصلُ (رجى) يدُلُّ على ناحيةِ الشَّيءِ[1]، والرَّجاءُ - ممدودًا -: نَقيضُ اليَأْسِ، والرَّجا - مقصورًا -: ناحية البئر وحافَتاها، وكلُّ ناحيةٍ: رَجًا، يُقالُ منه: أرْجَيْتُ. والرَّجَوانِ: حافَتا البئر[2]، وفي المَثَل: (فُلانٌ لا يُرْمى بِهِ الرَّجَوانِ)[3]، أي: لا يُخْدَعُ، فيُزالُ عن وجْهٍ إلى وجْهٍ[4]، وأمّا المهموزُ؛ فإنَّه يدلُّ على التَّأخير، يُقالُ: أرجَأْتُ الشَّيءَ: أخَّرته، والمقصود بالأرجاءِ في الآيةِ: النَّواحي والجوانِبُ[5].

المَعنى الإجْماليُّ:

مشاهِدُ السّاعة الكبرى تَخلَعُ الكونَ، وتَكْشِفُ الخَفايا

تُصَوِّر هذه الآياتُ لحظةَ البَعْثِ، بدءًا من النَّفخة الأولى في "الصّور"؛ إيذانًا بخراب العالَم، وهي نفخةٌ واحدةٌ حاسمَةٌ لا تتكرَّر، يعقُبها حملُ الأرض والجبال، ثُمَّ دكُّهُما دكّةً واحدةً، أي: يُسْحَقان سحقًا عنيفًا، فيزول بهما تماسُكُ الكَوْنِ الأرضيِّ، عندها تقَعُ "الواقعة"، أي: القيامة الكبرى التي لا ريبَ فيها، وتتصدَّع السَّماء، وتتشقَّق حتّى تُصبح واهيةً ضعيفةً مُتَخَلْخِلَة، ثُمَّ يظهر مشهدُ الجلالِ؛ إذ تَقِفُ الملائكةُ على أطراف السَّماء، ويحمل ثمانيةٌ منهم عرشَ الرَّبِّ ﷻ في موقفٍ مهيب، ثُمَّ تُعرض الخلائقُ على اللّهِ تَعالى عرضًا لا خفاء فيه، ويُكشَف كلُّ ما أخفَوه في حياتهم، فلا يندُّ عن علمِ اللّهِ تَعالى شيءٌ، صغيرًا كان أو كبيرًا[6].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

التَّهويل السّابق يُمهِّد لمَشْهَدِ البَعْثِ المروِّع

دلالة الفاء في قوله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾:

الفاءُ في ﴿فَإِذَا﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ حرفٌ

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رجو).
(2) الجوهري، الصحاح: (رجو).
(3) أبو جعفر الجذامي، الانتخاب في شرح أدب الكتاب: 2/ 631.
(4) ابن عباد، المحيط في اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (رجو).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رجو)، وابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 484، وابن الجوزي، تذكرة الأريب، ص: 412.
(6) أبو بكر الجزائري، أيسر التفاسير: 5/ 421، ونخبة من علماء التفسير، التفسير الميسر، ص: 567.

دالٌّ على الاستئنافِ، والجملةُ بعدها مستأنفةٌ مَسوقةٌ للشُّروعِ في تفصيلِ أحوالِ الآخرةِ(1)، وفي الفاء أيضًا معنى التَّفريعِ، فيكون قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ تفريعًا بيانيًّا على التَّهويل الافتتاحيِّ في الآيات الأولى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾، فقد شُحن السّامع بمهابة ذلك الموعود المُبْهَم، وجاء الآن تفصيلُ هذا الوعيدِ في كيفيَّته، وهو عذاب الآخرةِ، فالآيات الأولى روَّعت المشركين بذِكْرِ الهلاك الدُّنيويِّ لقوم ثمودَ وعادٍ وغيرهم، وجاء هذا الموضعُ؛ ليفتَحَ أمامَهُم باب التَّهديد الأعظم، وهو العذابُ الأخرويُّ عند البعث، وابتداء ذلك كلِّه بنفخةِ الصّور التي تُحْيي الموتى، وتدكُّ الكونَ(2).

موقع جملة: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾:

الحاقَّة ليست وعدًا غامضًا، بل بداية مشهدٍ كونيٍّ مُزَلْزِلٍ يبتدئ بنفخةٍ واحدة تقلِبُ الوجود

قول اللّه تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ بدء تفصيليٌّ لمضمون الحاقَّة نفسِها، فما تقدَّم من الآيات كانَ تهويلًا للحدث، أمّا هنا فقد شَرَع البيان في وصْفِ حقيقة هذا الحدث العظيم، كيف يقَعُ؟ ومتى؟ وبأيِّ صورة؟ فهذا الانتقالُ من الإجمال إلى التفصيل بعد التَّهويل والتَّخويف، يُخرج (الحاقَّة) من كونها مجرَّدَ كلمَةٍ مُفْزِعَةٍ إلى كونِها واقعةً حقيقيَّةً موصوفةً بأهوالِها المُرَوِّعَة.

البَدْءُ بالنَّفخة تمهيدٌ واقعيٌّ لتجسيد حقيقةِ الحاقَّة

والبدء بالنَّفخ في الصّور هو إشارةٌ إلى أوَّل مشاهدِ القيامَة المَحْسوسَةِ الواقِعَة؛ إيذانًا بانقلابِ النِّظام الكونيِّ كلِّه، فهذه النَّفخَةُ هي التَّحوُّل الأوَّل من عالَم الحَياة إلى عالم البَعْثِ والمُحاسبَة.

فالسّياق يَمْضي في إطْلاعِ السّامع على هول الحاقَّة، لا عن طريق الوصف الذِّهنيِّ فحسبُ، بل عن طريق المَشاهِد المُتَتابعَة التي تُدْنيها من العيانِ(3).

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 194.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 124.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 23، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 194.

دلالةُ التَّعبير بـ (إذا):

تحقُّق اليومِ الآخِرِ وتحقُّق مقدِّماته

جاء التَّعبيرُ بـ (إذا) في قول اللّه تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾ وهي ظرفيَّةٌ شرطيَّةٌ[1]؛ لإفادَةِ تحقُّقِ النَّفْخِ في الصّور؛ إذ إنَّ (إذا) الشَّرطيَّةَ تُبايِنُ (إنْ) في كونِها مستعمَلةً فيما يُتحقَّقُ وقوعُه، ويُقْطَعُ به، فيكون في الآيةِ إخبارٌ عن تحقُّقِ القيامَةِ وتحقُّق مقدِّماتِها.

دلالةُ إسنادِ الفِعْلِ ﴿نُفِخَ﴾ إلى المصدر ﴿نَفۡخَةٞ﴾:

توكيدُ هولِ الحدَثِ وفخامَتِهِ

أُسنِدَ فعل النَّفْخِ مبنيًّا للمفعول ﴿نُفِخَ﴾ إلى المصدر ﴿نَفۡخَةٞ﴾، في قول اللّه تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾، وإنَّما حَسُن هذا الإسنادُ؛ لتأكيدِه وتقييده بالوحدةِ والمَرَّة، فالقصد ليس مُطْلَقَ النَّفخ، بل نفخةٌ واحدَةٌ قاضيَةٌ فاصلَةٌ، لا تتكرَّر، ولا يُتَوَهَّم معها غيرُها[2].

نكتة تذكيرِ الفِعْلِ في: ﴿نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ﴾:

جوازُ تذكيرِ الفِعْلِ وتأنيثِه مع المُؤنَّث المجازيِّ

جرى تذكيرُ الفِعْلِ ﴿نُفِخَ﴾، فلم يرد في البيان القرآنيِّ: (فإذا نُفِخَت في الصّور نفخةٌ)، على الرُّغم مِنْ أنَّ لفظَ ﴿نَفۡخَةٞ﴾ مؤنَّثٌ؛ وذلك لأنَّ تأنيثَها غيرُ حقيقيٍّ، ولوجود الفاصلِ بين الفعلِ ونائبِ الفاعلِ، ممّا أضعفَ توهُّم مخالفةِ المُطابقَة، فحَسُن التَّذكير بيانيًّا[3].

دلالَةُ الحَرْفِ ﴿فِي﴾:

قوَّةُ النَّفخ وشِدَّتُه

﴿فِي﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾، حرفُ جرٍّ دالٌّ على الظَّرفيَّةِ المكانيَّةِ، وهو يدلُّ على شدَّة الملابسةِ بين النَّفخِ وبينَ الصّورِ الذي يُنفَخُ فيه، كما أنَّ فيه دلالةً على قوَّة النَّفخ وعُمْقِهِ؛ إذ وقعَ النَّفْخُ فيه لا عِنْدَهُ.

(1) الدعّاس، إعراب القرآن: 3/ 375.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 601، وإسماعيل حقي، روح البيان: 10/ 137، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 50.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 601، وإسماعيل حقي، روح البيان: 10/ 137، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 50.

دلالة (أل) في ﴿ٱلصُّورِ﴾:

(أل) في ﴿ٱلصُّورِ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾ للعَهْدِ العلميِّ، وهو الصّورُ، أي: القَرْنُ الذي ينفُخُ فيه إسرافيلُ عليه السلام، كما جاء في قول النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم: "كَيْفَ أَنْعَمُ وصاحِبُ القَرْنِ قَدِ التَقَمَ القَرْنَ، واسْتَمَعَ الإذْنَ مَتَى يُؤْمَرُ بِالنَّفْخِ، فَيَنْفُخُ؟"[1].

الصّورُ هو القَرْنُ الذي ينفُخُ فيه إسرافيلُ عليه السلام

دلالةُ تنكيرِ ﴿نَفۡخَةٞ﴾:

نُكِّر لفظُ ﴿نَفۡخَةٞ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾؛ لإفادةِ مَعنى التَّفخيمِ والتَّهويل، أي: أنَّها نفخةٌ عظيمةٌ لا يُدْرَكُ كُنْهُها.

دلالةُ التَّقييد بالوحدةِ في قوله: ﴿نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾:

التَّقييد الوصفيُّ بالوحدة في قوله: ﴿نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾ يرسِّخ في ذهن السّامع أنَّ تلك النَّفخة واحدةٌ لا ثانيةَ لها، لكنَّها تُزلزل الوجودَ كلَّه، فهي مظهَرٌ من مظاهرِ قُدرة اللّهِ تَعالى، فحصل من ذِكْرِ ﴿نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾ تأكيدُ مَعْنى النَّفخ، وتأكيد معنى الوحدة؛ لأنَّ صيغة ﴿نَفۡخَةٞ﴾ في ذاتِها تدلُّ على الوحدة، فالوحدة حاصلةٌ من جهتين.

توكيدُ عظمَةِ أمرِ الله تَعالى ونُفوذِ كَلِمَتِه

وليس المراد بوصفها بواحدةٍ أنَّها غيرُ مُتْبَعَةٍ بثانية مُطلقًا؛ إذ قد جاء في آياتٍ أخرى أنهما نَفْختان، بل المراد أنَّه لا يُحتاجُ في حصول المراد منها إلى تكرُّرِها؛ كنايةً عن سرعةِ وقوعِ الواقعة، أي: يوم القيامَة، وأمّا ذِكْر كلمة ﴿نَفۡخَةٞ﴾؛ فليَتَأتّى إجراءُ وصفِ الوحدَةِ عليها، فذِكر ﴿نَفۡخَةٞ﴾ تَبَعٌ غيرُ مَسوقٍ لَهُ الكلامُ أصالةً، فتكون هذه النَّفخة هي الأولى - على قولٍ في التَّفسير - وهي المؤذِنةُ بانقراض الدُّنيا، ثُمَّ تقعُ النَّفخة الثّانية التي تكون عند بعث الأمواتِ[2].

نفخَةٌ واحدَةٌ تَكْفي لإقامةِ القيامَةِ، فأمْرُ الله تَعالى لا يُمانَع

(1) رواه أحمد في مسنده، برقم: (11039)، والترمذي في جامعه، برقم: (2431)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته، برقم: (4592).

(2) الطيبي، فتوح الغيب: 15/ 614، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 125.

بلاغة ردِّ العجُزِ على الصَّدْر:

في البيانِ القُرآنيِّ إحْكامٌ للَّفظِ والمَعْنى

في قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾ ردُّ العَجُزِ على الصَّدْرِ بين ﴿نُفِخَ﴾ في صدرِ الآيةِ و﴿نَفۡخَةٞ﴾ في عَجُزِها، وفي هذا الأسلوبِ إحكامٌ للَّفْظِ والمَعْنى، فهي تُحْدِثُ في اللَّفْظِ جَرْسًا حسنًا في السَّمْعِ، وتجْعَلُ السّامِعَ كأنَّهُ قد أُخِذَ مِنَ المُجْمَلِ إلى التَّفصيلِ ومِنَ المُبْهَمِ إلى المبيَّنِ، فيزداد المشهَدُ رَهبةً وحضورًا، وأمّا في المعنى؛ فإنَّ ردَّ العجُزِ على الصَّدْرِ يزيدُهُ تقويَةً وتوكيدًا.

سِرُّ بناء الأفعال في ﴿نُفِخَ﴾ و(حُمِلَت) و(دُكَّتا) لِما لم يُسمَّ فاعِلُهُ:

بناءُ أفعالِ القيامةِ للمفعولِ يُضخِّمُ وقْعَها ويُفزِعُ القلوبَ بِهَوْلِها

في قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ ١٣ وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ جاء أسلوب الإبهام في الفاعل ببناء الأفعال الثَّلاثَة ﴿نُفِخَ﴾ و(حُمِلَت) و(دُكَّتا) للمفعولِ؛ لأنَّ المقصود هو تهويلُ الأحداثِ ذاتِها وتعظيمُ أثرِها، لا بيانُ مَن قام بها، فالفعلُ صادرٌ عَن أمْرِ اللهِ تَعالى، وهذا معلومٌ بالضَّرورة، لكنَّ المعوَّل عليه في المقامِ هو تصويرُ حَجْمِ الفاجِعَةِ وهولِ ما يقَعُ، لا مَن يوقِعُه، وبهذا الأسلوب يتضاعف الأثَرُ في النَّفس؛ إذ لا يُلهيها فاعلٌ عَن هولِ الفِعْلِ، كما أنَّ ذلك أيضًا أسلوب عربيٌّ شائع في المواضع التي يُراد فيها التَّركيز على النَّتائج لا الأسباب، وعلى الرَّهبة لا التَّفاصيل[1].

علَّةُ وصل جملة: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ﴾ بما قبلَها:

الإخبارُ عَن أحوالِ القيامَةِ

وُصِلَ قول الله تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ بالجملة قبله، وهي قوله سُبحانَهُ: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾؛ لِما بين الجملتين من التَّوسُّط بين الكمالَيْن؛ وذلك لاتِّحادهما خبرًا، ولِما بينَهُما من التَّناسُبِ اللَّفْظيِّ والمعنويِّ، فأمّا في اللَّفْظِ؛ فاتِّحاد المسنَدِ وكونُهُ ماضيًا مبنيًّا للمفعولِ، وأمّا في المَعْنى؛ فاشْتِراكُهُما في الإخبار عن أحداث القيامَةِ المَهولةِ العظيمةِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 125، ودرويش، إعراب القرآن: 10/ 195.

دلالةُ التَّعبير بِفِعْلِ الحَمْلِ مادَّةً وصيغةً:

تهويلُ شأنِ الحَمْلِ وتعظيمُهُ

جاءَ التَّعبير بفعلِ الحَمْلِ في قول اللّه تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾؛ لِما تُشْعِرُ به المادَّة من الثِّقَلِ والعَظَمة، فهذه الأرض الواسعةُ والجبالُ الرّاسية تُحمَلُ في الآخرةِ بقوَّةٍ قاهرةٍ جبّارةٍ، وبُنِيَ الفعل للمفعول (حُمِلَت)؛ تهويلًا للأمْرِ، وتعظيمًا للآمِرِ بالحَمْلِ، وهو اللّهُ تَعالى.

دلالةُ (أل) في ﴿ٱلْأَرْضُ﴾:

إرادةُ عُمومِ الأرْضِ بالحَمْلِ

(أل) في ﴿ٱلْأَرْضُ﴾ من قول اللّه ﷻ: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ هي لامُ الجِنسِ المفيدَةُ عمومَ البقاعِ المندرجةِ في لَفْظِها، وهيَ شامِلَةٌ لكلِّ ما يقَعُ عليهِ هَذا اللَّفْظُ، فيدخُلُ في لفظِ ﴿ٱلْأَرْضُ﴾ الأرضونَ السَّبْعُ كُلُّها.

معنى الواو في ﴿وَٱلْجِبَالُ﴾:

خضوعُ الكَوْنِ كلِّه للقُدْرَةِ الإلهيَّة

الواو في ﴿وَٱلْجِبَالُ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ عاطفةٌ الجبالَ على الأرضِ، وهي تدلُّ على مُطلق الجمع والمصاحبة في وقوعِ الحَمْلِ عليهما، فالأرض على سعَتِها، والجبالُ على ثِقَلِها، كلاهما مُسخَّرٌ بقدرة واحدةٍ، وكلاهما تحت سلطانِ اللّه تعالى وقَهْرِه.

دلالةُ (أل) في (الجبال):

عظمَةُ قُدْرَةِ اللهِ تَعالى وسعَةُ سُلْطانِهِ

(أل) في (الجبال) من قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ هي لامُ الجنسِ التي تفيدُ عموم الجبالِ، فيدخلُ فيها كلُّ ما يندرجُ تحت هذا اللَّفْظِ من أفرادٍ، وهذا يقتضي أنَّ الجبالَ بما تشتملُ عليه من صِفَةِ الثَّباتِ والصَّلابةِ والضَّخامَةِ، تَحت قدرة اللّهِ تَعالى وسُلطانِه.

نُكْتَةُ تقديم ذِكْرِ الأرض على ذِكْرِ الجبالِ:

قُدِّمَ ذِكْرُ الأرضِ على ذِكْرِ الجبالِ في قول اللّه تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ

إبرازُ شِدَّةِ الهَوْلِ وإظهارُ كمالِ القُدْرَةِ

﴿ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾؛ لكونِ الأرضِ أشمَلَ، فهي كُلٌّ، والجبالُ جُزْءٌ مِنْ أجزائِها، فيكون عطفُ الجبالِ على الأرضِ من بابِ عطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ تنويهًا بشأن الفردِ الخاصِّ، وإبرازًا لشدَّةِ الهَوْلِ، وإظهارًا لتمام القُدْرةِ.

دلالةُ الفاءِ في ﴿فَدُكَّتَا﴾:

مظاهِرُ العظمةِ الإلهيَّة في دكِّ الأرض والجبال

الفاءُ في ﴿فَدُكَّتَا﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ عاطفةٌ[1]، وهي حرفٌ دالٌّ على التَّرتيب مع التَّعقيب، فيكون في التَّعبيرِ بها إيماءٌ إلى سُرْعَةِ دكِّهما، وهذا يستلزِمُ الدَّلالةَ على عظمةِ قدرة اللّهِ تَعالى في دكِّ هذه الأرضِ الواسعةِ والجبالِ الرّاسيَةِ ذاتِ الأوتادِ في زمنٍ يسيرٍ جدًّا.

نُكْتةُ التَّعبير بفعل الدَّكِّ:

تكسيرُ الجبال وتَفْتيتُها

اختير فعل الدَّكِّ في قول اللّه تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾؛ لِما فيه مِن الدَّلالةِ على الدَّقِّ الشَّديدِ الذي يترتَّب عليه التَّكسيرُ والتَّفتيتُ للشَّيءِ، وهذا ما يُشير إليه قول اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۝١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ۝١٠٧﴾ [طه: 105 - 107].

دلالَةُ الإضْمارِ بألَفِ الاثنَينِ في (دُكَّتا):

عَـدُّ الأرض والجبال بمنزلَةِ الشَّيئين المُتَقابِلَيْنِ

أُضْمِرَ ذِكْرُ الأرض والجبالِ بألف الاثنين في الفِعْلِ (دُكَّتا)، من قول اللّه تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾، مع أنَّ الأرض مفردٌ والجبالَ جَمْعٌ، فكان مقتضى الظّاهر أن يعودَ الضَّمير على الجميعِ بـ (فدُكَّتْ)، إلّا أنَّ البيانَ القرآنيَّ آثر التَّثنيةَ؛ للإيماء إلى أنَّ المقصود بالجبالِ كونُها جنسًا واحدًا مع اختلاف أفرادِها، فعُدَّت الأرض والجبالُ بمنزلةِ الشَّيئين المتقابِلَين.

---

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 194.

دلالة تَنكير لفظِ ﴿دَكَّةً﴾:

تفخيمُ الدّكِّ وتَهْويلُه

نُكِّر لفظُ ﴿دَكَّةً﴾ من قول الله تَعالى: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾؛ لإرادَةِ التَّفخيم والتَّعظيم والتَّهويلِ، وفي التَّنكير مَعنى النَّوعيَّةِ الآيلِ إلى التَّعظيم، أي: أنَّها نوعٌ مِنَ الدَّكِّ غير مألوفٍ، لبلوغِهِ في العَظَمَة والفخامة مبلغًا مهولًا، فلا يُدْرَكُ كُنْهُها.

بلاغةُ الجِناس في قوله: ﴿فَدُكَّتَا دَكَّةً﴾:

في قول اللّه تعالى: ﴿فَدُكَّتَا دَكَّةً﴾ جناسُ الاشتقاقِ، وفي تَكرارِ اللَّفظ بصيغَتين مُتباينَتَيْن إحكامٌ للمَعْنى وتوكيدٌ لَهُ، فهو يُرسِّخُ في الذِّهْنِ والخيالِ صورةَ الدَّكِّ.

غرض التَّنصيصِ على ﴿وَٰحِدَةً﴾:

دَفْعُ تَوَهُّم غير المَعْنى المُرادِ

وُصِفت الدَّكَّةُ بكونِها واحدةً في قول اللّه تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾؛ لتأكيدِ هَوْلِ الدَّكَّة وفخامَتها؛ إذ إنَّها بلغَت من العَظَمَةِ بحيث لا يُحتاجُ معها إلى تكرارِ الدَّكِّ، كما أنَّ في التَّنصيصِ على الوحدَةِ دَفْعًا لتوهُّم أنَّ المقصودَ بـ (دكَّة) الجنسُ، وذلك لِما يُرى من سَعَةِ الأرض وصلابةِ الجبالِ وضخامتِها، فيقعُ في الوهْم والخيالِ أنَّ هذا الخَلْقَ العظيمَ لا يُدَكُّ إلّا بدَكّاتٍ كثيرةٍ متتابعةٍ، فنُفِيَ ذلك بالتَّنصيص على الوحدة في قوله: ﴿دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾؛ تنبيهًا على عظمةِ هذه الدَّكَّة بحيث لا تفتقِرُ إلى ثانيةٍ، وهذا يقتضي عِظَمَ قدرة اللّهِ تَعالى، فيكون في وصف الدَّكَّة بالواحدةِ تنبيهٌ على التَّعجيب من تأثُّر جميعِ الأجسادِ بنفخةٍ واحدة دونَ تكرارٍ[1].

سِرُّ مجيءِ الدَّكِّ بعدَ النَّفْخِ:

النَّفخة إشعارٌ بانقِضاء الدُّنيا، والدَّكُّ مؤذِنٌ بحياةٍ جديدَةٍ

جيءَ بالدَّكِّ بعدَ النَّفْخِ في قول اللّه تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ١٣ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾؛ لِما

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 124 - 125.

تُشعِرُ به النَّفخةُ من انقضاءِ نظامِ الدُّنيا، بخلافِ الدَّكِّ فهو مُؤذِنٌ بانقلابٍ آخرَ مُمَهِّدٍ لحياةٍ جديدةٍ[1]، فلم تُغْنِ إحداهما عن الأُخرى.

دلالةُ الفاءِ في ﴿فَيَوۡمَئِذٖ﴾:

بيانُ تَسَلْسُلِ أحداثِ القيامَةِ وتَرابُطِها

الفاءُ في ﴿فَيَوۡمَئِذٖ﴾ من قول الله تعالى: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ﴾ رابطةٌ لجوابِ الشَّرْطِ، فالنَّفْخُ في الصّور، وحملُ الأرض والجبالِ ودَكُّهما، ليست أحداثًا منفصلةً، بل مقدِّماتٌ وشروطٌ لوقوعِ القيامَةِ، وفي الفاءِ أيضًا معنى التَّعقيبِ، فتكون القيامةُ أمرًا حتميًّا يعقُبُ تلكَ الأهوال فورًا مِنْ غير مهلةٍ.

مَوْقِعُ جملَةِ: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ﴾:

وقْعُ القيامةِ ليسَ مُفاجِئًا بل هو تتويجٌ مهولٌ لمُقَدِّمات عظيمةٍ

جملة: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ﴾ مؤكِّدة لِما سبَقَ مِن أهوالِ النَّفخِ والدَّكِّ، والتَّنوين في (يومئذٍ) عِوَضٌ عَن جملة، أي: في اليوم الذي نُفخ فيه في الصّور، ودُكَّت فيه الأرض والجبال دكَّة واحدة، عندئذ وقعت الواقعةُ، فليس في الكلام تكرارٌ بلا طائلٍ، بل هو توكيدٌ وتفصيلٌ لمشهد القيامة بأبعاده الزَّمنيَّة الدَّقيقة، ثُمَّ إنَّ وقوعَ الواقعة بَعْدَ كلِّ ما سبقَ، يُؤَكِّد أنَّ ذلك اليوم هو القيامةُ حقًّا، وقد جيءَ بلَفْظِ ﴿ٱلۡوَاقِعَةُ﴾؛ لتُناسِبَ الهَوْلَ والانهيار الكونيَّ، كما أنَّ فيه تأكيدًا لفظيًّا بمرادفِ المؤكَّدِ، وهو ما تقدَّم من أهوال، على طريقة المبالغة في تصوير الحدث العظيم[2].

غرضُ التَّقييد بالظَّرْفِ (يومئذٍ):

اجتماعُ نتائجِ الأحداثِ في يومٍ واحدٍ

في التَّقييد بالظَّرْفِ (يومئذٍ) من قول الله تعالى: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ﴾ زيادةٌ في إحكام المعنى، وإبرازٌ للتَّرابُطِ بين المقدِّمات - وهي النَّفْخُ والحَمْلُ والدَّكُّ - وبين النَّتيجة، وهي وقوع الواقعة، أي القيامَة، وفي التَّقييد بالظَّرفِ أيضًا إيماءٌ إلى مَعنى المباغَتَة؛ إذ الأحداث تَجْتَمع نتائجُها في يومٍ واحدٍ تُطوى فيه الدُّنيا وما فيها.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 125.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 126.

بلاغةُ الجناس في ﴿وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ﴾:

الإيمـاءُ إلى حتميَّة القيامَةِ وكمالِ تحقُّقها

في قول الله تعالى: ﴿وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ﴾ جناسُ الاشتقاقِ، وهو يُحْدِثُ جرْسًا قويًّا يقرعُ السَّمعَ بوقْعِ الحدَثِ، فيتطابَقُ اللَّفْظُ مع المعنى، وفيه إشارةٌ إلى حتميَّةِ هذا الوقوعِ وكمالِ تحقُّقِه.

بلاغَةُ استعمال الماضي في التَّعبير عن أمرٍ مستقبَليٍّ:

تهويلُ القيامَةِ بالتَّعبير عنها بصيغة المُضيِّ يؤكِّد حتميَّةَ وقوعِها

لم يُؤتَ بفعلِ الوقوعِ بصيغة المُسْتَقْبَل، في قوله تعالى: ﴿وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ﴾، مع أنَّ وُقوعَها لم يحصُلْ بعدُ، بل جيءَ به بصيغَةِ المُضيِّ؛ تنبيهًا على تحقُّق الوُقوعِ وثُبوتِه، حتّى كأنَّه أمرٌ قَد مَضى ووقَع وانتهى، وهذا من أبلغ أساليبِ التَّهويل والتَّأكيد في التَّعبير عن أهوال القيامة، وكأنَّ الله تعالى يقول: ما كنتم تُتَوَعَّدون به، يَقَعُ لا محالة، فتَهَيَّؤوا له[1].

سرُّ العدول عن الضَّمير إلى الاسم الظاهر:

إعـادةُ تسميَةِ يـومِ القيامَةِ باسْمٍ جديد بدلَ الضَّمير، تكثيفٌ للتَّهويل وتَعْديدٌ لأوجُهِ الفزَعِ

لفظُ الواقعةِ في قوله تعالى: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ﴾ هو مرادفٌ جزئيًّا لِما سبق من أوصافها في السّورة: الحاقَّة والقارعة، وكان مقتضى الظاهر أن يقال: (وقَعَت)، أيْ هيَ، ويكون الضَّميرُ راجعًا إلى الحاقَّة أو القارعةِ المذكورتَيْن قبلُ، لكن عُدل إلى إظهار الاسْمِ مكانَ الضَّمير لغايةٍ بلاغيَّة، وهي زيادة التَّهويل والتَّخويف، والإشعار بعِظَم ما تحويه هذه الواقعة من مشاهدَ وأهوالٍ، يُستدلُّ عليها بما في دلالة الاشتقاقِ من معنى السُّقوط والدَّكِّ والاضطراب المفزع[2]، كما أنَّ الإضمارَ قد يوهِمُ خلافَ المقصود؛ إذ لَفْظا الحاقَّة والقارعةِ قد بَعُدَ العَهْدُ بِذِكْرِهما، فقد يُتوهَّمُ - حالَ الإضمارِ - أنَّ الضَّمير يرجِعُ إلى أقربِ مذكورٍ يصلُحُ لعَوْدِ الضَّمير إليه، وهو لفظُ الأرض في قوله تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ﴾، فلا جَرَمَ كان الإظهارُ أنسبَ للمعنى وأبعدَ عن اللَّبْسِ.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 126.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 126.

كمالُ أوصافِ القيامَةِ

نوعُ (أل) في ﴿ٱلْوَاقِعَةُ﴾ ودلالَتُها:

(أل) في ﴿ٱلْوَاقِعَةُ﴾ من قول الله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ للعَهْدِ العلميِّ، والمرادُ بها يوم القيامَةِ، لا كلُّ شيءٍ يقَعُ، ويجوزُ أن تكون (أل) دالَّةً على الكمالِ، أي: هي الأمرُ الكاملُ في الوقوعِ، ولا تنافيَ بين المَعنَيَين، فإنَّ الواقعةَ المعروفةَ هي الكاملةُ في اتِّصافِها بالوقوعِ.

تأخير ذِكْرِ انْشِقاقِ السَّماء لتَتَقَدَّمَهُ مشاهِدُ العظمَةِ، يزيد مِن فزَعِ السّامع وخوفِهِ

موقِعُ جملةِ ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ في النَّظْمِ:

قولُه تعالى: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ يجوز أن يكون معطوفًا على جملة: ﴿نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾، فيكون مشمولًا في شرط (إذا) الواقعِ في أوّل السَّرد التَّصويريِّ للأهوال، فتكون هذه الجملة جزءًا من سلسلةِ الأحداث المتتابعَةِ التي تقَعُ حينَ النَّفخة الأولى أو الثّانية على أحد التَّفسيرين، وقد أُخِّر عطفُها إلى هذا الموضع لفائدة بلاغيَّة، وهي التَّمهيد لذِكْرِ ما يتَّصل بانشقاقِ السَّماء من مشهَدٍ عظيم آخَرَ، وهوَ إحاطَةُ الملائكةِ بأرجاءِ السَّماء، وحملهُم لعَرْشِ الرَّحمن، ممّا يُعَمِّق أثرَ الرَّهبة، ويوسِّع دائرةَ الهَوْلِ في تصويرِ القيامَةِ[1].

تصدُّع السَّماء وانْفِطارُها بعدَ شِدَّة تماسُكِها

غرضُ التَّعبيرِ بالانشقاقِ مادَّةً وصيغةً:

جاءَ التَّعبيرُ بمادَّةِ الانشقاقِ في قول الله تعالى: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾؛ لما تدلُّ عليه المادَّةُ مِنَ التَّصدُّعِ والتَّمزُّقِ والتَّفطُّر بعد تماسُكٍ عظيمٍ وارتباطٍ وثيق، وعُبِّر عن الانشقاقِ بصيغةِ الانفعالِ، وهي من صيَغِ المطاوعَةِ المفيدةِ التَّأثُّرَ بفعلٍ قبلها؛ للدَّلالة على أنَّه قد وقعَ عليه الشَّقُّ، فانشقَّت، وأنَّ هذا الشَّقَّ صادرٌ من قوَّةٍ عظيمةٍ وقدرةٍ مطلقةٍ، وهي القدرة الإلهيَّةُ والقوَّة الرَّبّانيَّةُ.

وجيءَ بالفعل ماضيًا؛ لإفادَةِ تحقُّقِ وقوعِه، فهو في الجَزْمِ به بمنزلةِ ما هو واقعٌ وحاصلٌ.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 126.

دلالة القيدِ الزَّمنيِّ ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾:

القَيْدُ الزَّمنيُّ ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾ في وصف السَّماء بالوَهْي وتغيُّر حالها، في قوله تعالى: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ﴾ يدلُّ على أنَّ الضعف والانفطار لم يكونا وصفًا دائمًا للسَّماء، بل طَرَأا عليها يوم القيامة بعد أن كانَت مُحْكَمَةَ البناء، شديدةَ التَّماسك، كما وصَفَها اللّهُ ﷻ في مواضعَ أُخَر بأنَّها ذاتُ حُبُكٍ، ففي هذا اليوم تتفَكَّك أجزاؤُها، وتَتلاشى قوَّتها، فكأنَّها تُفتَح، وتُطْرَق، وتصبح قابلَةً للنَّفاذ والاختراق بعد أن كانت منيعةً مُحْكَمَةً، وهو تصويرٌ لهَوْلِ ما يقَعُ في ذلك اليوم مِن انهيارِ نِظام الكَوْنِ[1].

السَّماء يوم القيامَةِ تَضْعُفُ بعدَ متانَتِها؛ إيذانًا بزوالِ نِظام العالَمِ بأمْرِ اللهِ تَعالى

سرُّ التَّعبير بـ ﴿وَاهِيَةٞ﴾ مادَّةً وصيغةً:

عُبِّر عن السَّماء بالوَهْيِ في قول اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ﴾ دون الوَهن؛ لأنَّ الأكثَرَ الغالبَ استعمالُ الوَهْي مَعَ ما لا يعقِلُ، بخلافِ الوَهن فإنَّه يوصَفُ به ما يَعْقِلُ ومتعلِّقاتُه، والأنسبُ في السَّماءِ - وهي بناءٌ مُحْكَمٌ عظيمٌ - وصفُها بالوهْيِ دون الوهن.

الغالِبُ في وصْفِ الـوَهْـيِ تَعلُّقه بما لا يَعْقِلُ

وصيغةُ فاعلة في لفظِ ﴿وَاهِيَةٞ﴾ مُشعِرَةٌ بأنَّ وصْفَ الوَهْي طارئٌ على السَّماء، وليس أصليًّا فيها.

دلالة الواوِ في ﴿وَٱلۡمَلَكُ﴾:

الواوُ في ﴿وَٱلۡمَلَكُ﴾ من قول اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ﴾ استئنافيَّةٌ، والجملةُ بعدها مستأنَفةٌ، لا محلَّ لها من الإعرابِ[2]، جيءَ بها لتصوير مشْهَدٍ جديدٍ مِنْ مشاهدِ الآخرَة، ويجوزُ أن تكون الواوُ حاليَّةً[3]، والمعنى: أنَّ السماء انشقَّت، والحالُ أنَّ الملائكة على

تصويرُ مَشْهَدٍ جديدٍ مِن مشاهِدِ يومِ القيامَةِ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 127.

(2) الدعاس، إعراب القرآن: 3/ 375.

(3) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 29/ 64.

أرجائها وجوانِبِها، فيكون دالًّا على انشقاق السَّماءِ وانفطارها من الدّاخِلِ، وإحاطةِ الملائكةِ على جوانبِها من الخارِجِ.

دلالة لفظِ (المَلَك) ونُكْتَةُ إيراده مفردًا:

التَّعبير بالمفرد في موضع الجَمْع يـصـوِّر جـمـوعَ الملائكة في هيبةٍ وجـلالٍ يليقانِ بمقام الـعَرْضِ الإلهيِّ

عبَّر بلفظ (المَلَك) مفردًا قوله تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ﴾، والمراد: جنس الملائكة، فهو اسم مفرد يُراد به العموم، أي: جماعات الملائكة المحيطون بأطراف السَّماء في ذلك اليوم المهيب، ويفيد هذا الأسلوبُ الاستغراقَ في تصوير المشهد وتهييب الأمر؛ إذْ جاءَ التَّعبير بالمفرد لإفادة الجمع مع التَّخفيف اللَّفظيِّ، وهذا أبلَغُ مِن التَّعبير هنا بلفظِ: (الملائكة)؛ لأنَّ المفردَ حين يُقْصَدُ به الجِنْس؛ يُفهَم منه استغراقُ أفراد الجنس بأصرح الوجوهِ وأخفِّها، كما تقول: (ما من مَلَكٍ إلّا وهو خاضِعٌ لأمر ربِّه)، وهذا أبلغُ من جَمْعِه[1].

دلالة التَّعبير بحرف الجرِّ ﴿عَلَىٰٓ﴾:

إبـرازُ هيمنَةِ المَـلائـكَـةِ وإحاطَتِهِم

آثَرَ البيانُ القرآنيُّ التَّعبير بحرف الجرِّ ﴿عَلَىٰٓ﴾، في قول الله تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ﴾؛ لِما تُفيده ﴿عَلَىٰٓ﴾ مِن مَعنى الاستعلاء، فيكون في قوله سُبحانَهُ: ﴿وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ﴾ إبرازٌ للسّيادَةِ والهيمنةِ والإحاطة، وفيه دلالةٌ على أنَّ الملائكةَ قد غطَّوا جوانِبَ السَّماءِ تغطيةً متمكِّنةً.

بيانُ مرجِعِ الضَّمير في ﴿أَرۡجَآئِهَاۚ﴾:

تـحـقـيرُ شـأن الـسَّـمـاءِ في الآخـرةِ مُقارنَةً بـعَـظَـمَـتِـهـا في الدُّنيا

الضَّمير في ﴿أَرۡجَآئِهَاۚ﴾ من قول الله تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ﴾ يعودُ إلى السَّماءِ المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ﴾، وفي التَّعبير عن السَّماءِ بالإضمارِ جريٌ على الأصْلِ؛ لتقدُّم ذِكْرِها، وليتناسَبَ اللَّفْظُ مَع المَعْنى؛ إذ السَّماءُ صارت واهيةً؛ فلم يكُن من المناسبِ التَّعبير عنها بالاسم الصَّريح، وجاء ذلك تحقيرًا

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 601، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 240، وأبو حيان، البحر: 10/ 259، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 127.

لشأنِها يوم القيامةِ مقارنةً مع عظمتِها في الدُّنيا، فالمقامُ ليس مقامَ إبرازٍ وإظهارٍ، وإنَّما مقامُ إظهارُ هيمَنَةِ الملائكةِ على أرجائِها.

معنى الواوِ في ﴿وَيَحۡمِلُ﴾ ودلالَتُها:

التَّرقّي في إظهار العظمَةِ الرَّبّانيَّة

الواوُ في ﴿وَيَحۡمِلُ﴾ مِنْ قول اللّه تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾ عاطفةٌ[1]، وفي هذا العطفِ انتقالٌ مِنَ المشهدِ العامِّ إلى المشهَدِ الأعظَمِ، ففي العطفِ تَرَقٍّ في إبرازِ العظمَةِ الإلهيَّةِ.

دلالة التَّعبير بِالحَمْلِ مادَّةً وصيغةً:

جلالُ العَرْشِ الإلهيِّ وجلالُ حامِليه

جاءَ التَّعبير بالحَمْلِ في قول اللّه تعالى: ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾؛ لِما تُشْعِرُ به مادَّةُ الحَمْلِ مِنَ الثِّقل والعظَمَةِ، فالحَمْلُ مناسبٌ لجلالِ العرشِ - وهو أعظمُ المخلوقاتِ - وملائمٌ أيضًا لجلالِ الحامِلينَ.

وفي التَّعبير بالفعلِ المضارعِ (يَحْمِلُ) تصويرٌ للمشْهَدِ الأُخرويِّ في صورةِ الحاصلِ وقتَ الخطابِ، وهو أشدُّ في ترهيبِ المتلقّي.

نوع الإضافةِ في ﴿عَرۡشَ رَبِّكَ﴾:

نسبة العَرْشِ إلى الله تَعالى تعظيمٌ لشأنه وتذكيرٌ بجلالِ ربِّهِ سُبحانَهُ

إضافة العرش في قوله تعالى: ﴿عَرۡشَ رَبِّكَ﴾ هي إضافة تشريفٍ وتكريمٍ وتعظيمٍ، لا إضافة ملكٍ مجرَّدة، فإنَّ العرشَ أعظم المخلوقات حجمًا وضخامَةً؛ فناسب أن يُضاف إلى اللّه تعالى لتأكيد علوِّ رُتْبَته وسُموِّ مكانته، كما في إضافة (بيت اللّه) و(ناقة اللّه) و(روح اللّه)، فكلها إضافاتٌ تشريفيَّة تهدف لإبراز شرف المضافِ ومكانته بانتسابِهِ إلى اللّه ﷻ، لا أنَّ ذلك المضافَ جزءٌ من ذاته أو قائمٌ به[2].

نكتة التَّعبير بالرُّبوبيّة، وسرُّ الإضافةِ إلى كافِ الخِطاب:

الجَمْعُ بينَ خوف الموقِفِ ورجاءِ العَفْوِ مِنَ الرَّبِّ الكريمِ

آثر النَّظمُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بالرُّبوبيَّةِ في قوله تعالى: ﴿وَيَحۡمِلُ

(1) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 29/ 64.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 128.

عَرۡشَ رَبِّكَ﴾؛ لتذكير العبادِ بأنَّ الرَّبَّ العظيمَ الذي كان يرعى العبادَ ويُربّيهم بنِعَمِهِ هو نفسُهُ الذي يُقيمُ القيامَةَ؛ ممّا يجمَعُ بين الخَوْفِ والرَّجاءِ: خوفِ المَوْقِفِ، ورجاءِ العفوِ من الرَّبِّ الكريم.

وإضافةُ اسم الرَّبِّ إلى ضمير الخطابِ فيه تشريفٌ للمضافِ إليه، وهو المخاطَبُ، أي النَّبيُّ ﷺ، وإذا حملنا ضمير الخطاب على إرادَةِ العمومِ لكلِّ من يتأتّى خطابُهُ، فإنَّ في الإضافةِ إدخالًا للرَّهبةِ على المتلقّي.

دلالة التَّعلُّقِ الظَّرفيِّ في قوله: ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ﴾:

علـوُّ العـرشِ فـوقَ الملائكةِ حملٌ وهيبَةٌ، تشهد بعظمة مَن استوى عليه

الظَّرف ﴿فَوۡقَهُمۡ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ﴾ متعلِّق بالفعل (يحمل)، وذِكْره هنا ليس لمجرَّد البيان، بل للتَّأكيد على علوِّ العرش وسموِّه، فالمعنى: أنَّ حمَلةَ العرش يحملونه، وهو عالٍ فوقهم علوًّا حقيقيًّا، وفي هذا تصويرٌ لعظمَةِ العَرْشِ وعُلوِّ قدره ومكانته فوقَ أعلى المخلوقاتِ مكانًا، وهُمُ الملائكَةُ[1].

وَجْهُ الانتقالِ إلى ذِكْرِ حملَةِ العَرْشِ وتناسُقُ السّياق البلاغيّ:

تـدرُّجُ السّياقِ إلى ذِكْرِ العَرْشِ وحمَلَتِه يَرْسُمُ عظمةَ الموقفِ بتَرْتيبٍ مهيبٍ

يُلحَظ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾ أنَّ الدّاعيَ إلى ذِكر حملةِ العرْشِ إجمالًا في هذا الموضع، إنَّما هو الانتقالُ التَّدريجيُّ مِنَ الحديثِ عن الملائكة المُحيطينَ بأرجاءِ السَّماء إلى ذكر العَرْشِ نفسِه؛ ليكون سياقُ العظمة متدَرِّجًا من السَّماء إلى الملائكة، ثُمَّ إلى العرشِ، ثُمَّ إلى حَمَلَتِه، دون أن يَبْدوَ ذِكرُ العَرْشِ مقتضبًا أو منفصلًا عن السّياق، وهذا يُبرز ترتيبًا بلاغيًّا بالغَ الإحكام؛ إذ يُستكمَل مشهد الهَيْبَةِ والرَّهبة في ذلك اليوم من جميعِ جِهاتِهِ[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 128.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 128.

نكتَةُ إبهامِ التَّمييز في ﴿ثَمَٰنِيَةٞ﴾:

في الإبــهــامِ تفخيمٌ للمَعْنى وتوسيعٌ له

أُبْهِمَ تمييزُ العدد ﴿ثَمَٰنِيَةٞ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾؛ للإبقاء على إبهام يليقُ بجلالِ المقام وعظمةِ القُدرة الإلهيَّةِ، كما أنَّ في الإبهامِ توسيعًا للمَعْنى بحيث يذهبُ الذِّهْنُ كُلَّ مذهبٍ في تصوُّر التَّمييز، ولذا اختلف العلماءُ في المعدودِ ههنا، فقال جماعةٌ: إنَّهم ثمانيةٌ مِنَ الملائكة، وقال آخرون: ثمانيةُ صفوفٍ مِنْهم، وقال بعضُ أهل العلم: ثمانيةُ أجزاءٍ منهم لا يَعْلَمُ عددَهُم إلّا اللّهُ تَعالى[1].

كما أنَّ في حذفِ التَّمييزِ إبقاءً على التَّناسُبِ الصَّوتيِّ لفواصلِ الآيِ قبلَها وبعدها، فإنَّ الآية قبلها هي قوله تعالى: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ﴾، والآيةَ بعدها قولُهُ سُبحانَهُ: ﴿يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ﴾.

موقع جملة ﴿يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ﴾ في السّياق البيانيِّ للآيات:

عــرْضُ الـنّـاس على اللهِ تَعالى يــومَ الـقـيـامَـةِ مــشــهَــدٌ مِــن أعظمِ مشاهِدِ الواقِعَةِ

الجملةُ في قول اللهِ تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ﴾ يَحْتَمِل أن تكون مستأنفةً؛ لبيانِ ما يقع يوم الواقعة من الأهوال، أو تكون بيانًا وتفسيرًا لجملة: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ﴾، أي: أنَّ وقوع الواقعة من جملة ما فيهِ عرضُ النّاس على اللهِ تَعالى، ويجوزُ أن تكونَ بدلَ اشتمالٍ من الجملة السّابقة؛ لأنَّ عرض النّاس يتَضمَّنه وقوعُ الواقعة، وهو من نتائجِها ولوازِمِها[2].

دلالةُ الظَّرف ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾:

إحضارُ المَشْهَدِ العَظيم في ذِهْنِ المُتَلَقّي

في التَّعبير بالظَّرفِ ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ من قول اللّه سُبحانَهُ: ﴿يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ﴾ إحضارٌ للموقفِ العظيم والمشهَدِ العصيبِ ابتداءً في ذهن السّامِعِ، ولذا وردَ مقدَّمًا، كما أنَّ فيه ربطًا

(1) ابن الجوزي، زاد المسير: 4/ 331.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 129.

لما يُذكر بعدُ من العرضِ على اللّهِ تَعالى بما ذُكِرَ قبلُ من النَّفْخ في الصّور وحمل الأرض والجبال ودكِّها، وحمل العرشِ، وكونِ الملائكةِ على أرجاءِ السَّماءِ.

دلالةُ الخطابِ في ﴿تُعۡرَضُونَ﴾:

عرضُ جميع العبادِ على اللهِ تَعالى في الآخرَةِ

الفعلُ في ﴿تُعۡرَضُونَ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ﴾ خطابٌ جمعيٌّ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ عرضَ العبادِ وأعمالهم على اللّه تَعالى يَعمُّ جميعَهُم لا يخرج عن ذلك أحدٌ.

دلالة (العرض) في سياق الآياتِ:

العرضُ الكامِل على اللهِ تَعالى يومَ القيامَةِ إيذانٌ بالعدالَةِ التّامَّة والمُساءلَةِ الدَّقيقة

المراد بقول اللّه تعالى: ﴿تُعۡرَضُونَ﴾ هو العرضُ على اللّه تعالى يوم القيامة، والمعنى الأصليُّ للعرض هو إمرار الأشياء على مَن ينظُر فيها ويَفْحَصُها، كما يُعرض الجيش على القائد، أو تُعرض السِّلعة على المشتري، وهنا استُعمِل على سبيل الكنايةِ عن المحاسبة؛ لأنَّها لازم من لوازم العرض، مع احتمالِ بقاء المعنى الصَّريح للعَرْض أيضًا، أي: أنَّ العباد يُعرضون حقيقةً على ربِّهم ليراهُم، ويُحاسِبَهم[1].

إيثار التَّعبير بالفعل ﴿تَخۡفَىٰ﴾ مادَّةً وصيغةً:

سَعَةُ عِلْمِ الله تعالى بالظّاهِرِ والخَفيّات

آثر البيانُ القرآنيُّ التَّعبير بالفعل ﴿تَخۡفَىٰ﴾، في قول اللّه تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ﴾؛ لِما تدلُّ عليه مادَّتُه مِنَ الاستتارِ، والخفاءُ يُستعمَلُ عادةً فيما دقَّ وغَمُضَ، فيكون في نفي استتارِ الغامضِ إيذانٌ لنفي استتارِ ما هوَ أعلى مِنْهُ في الوضوحِ وأظهَرُ.

واختيرَ التَّعبيرُ بالفعل المضارع ﴿تَخۡفَىٰ﴾؛ لدلالتِه على الاستمرار، فيكون النَّفيُ مسلَّطًا عليه، والمقصودُ: دوامُ نفي الخفاءِ واستمرارُهُ، لا نفي الدَّوام والاستمرارِ؛ إذ لو كان المرادُ نفيَ داوم الخفاءِ؛ لاستلزمَ ذلك الخفاء في بعض الأزمنةِ، وهذا غيرُ مرادٍ قطعًا.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 128.

سرُّ تقديم الجارِّ والمجرورِ ﴿مِنكُمۡ﴾:

شدَّةُ التَّخويف وقوَّةُ التَّرهيب

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ ﴿مِنكُمۡ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ﴾؛ لإفادةِ الاهتمام بالمقدَّم مراعاةً لمقام الخِطابِ، فهُم المقصودونَ بنفي الخفاءِ عَنۡهم وعن أعمالِهِم، فيكون هذا أشدَّ في التَّرهيبِ وأبلغَ في التَّخويفِ.

نُكْتَةُ تنكير ﴿خَافِيَةٞ﴾:

بيانُ سَعَةِ عِلْمِ اللهِ تَعالى

نُكِّرَ لفظُ ﴿خَافِيَةٞ﴾ مِنۡ قول اللّه سُبحانَهُ: ﴿يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ﴾ لإفادةِ العمومِ؛ لورودها في سياق النَّفۡي ﴿لَا تَخۡفَىٰ﴾، فلا يخفى على اللّهِ تعالى شيءٌ أيًّا كانَ، صغيرًا كان أو كبيرًا، ظاهرًا أو باطنًا، جليلًا أو دقيقًا، وفي هذا إبرازٌ لسعَةِ عِلْمِ اللّه سُبحانَهُ بكلِّ شيءٍ.

علَّة تأنيث لفظ ﴿خَافِيَةٞ﴾ في النَّظم:

لا مستورَ يومَ القيامَة، فكلُّ نفسٍ وأثَرٍ ظاهِرٌ للعَدْلِ الإلهيِّ

تأنيثُ لفظِ ﴿خَافِيَةٞ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ﴾ راجِعٌ إلى أنَّ الموصوف بها مقدَّر بشيءٍ مؤنَّث، هوَ (فِعلة)، أي: من أفعال العباد، أو يُقدَّر بـ(نفْس)، والمعنى: لا تخفى منكم فِعلةٌ خافيةٌ، أو نفسٌ خافيةٌ، فلا يوجَدُ شيءٌ يستَتِرُ عن علم اللّه تعالى؛ بحيث لا يلتَبِسُ كافِرٌ بمؤمن، ولا بارٌّ بفاجر، وكلُّ أحد يُكۡشَف على حقيقتِه[1].

بلاغة الجِناس في ﴿لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ﴾:

توكيدُ المعنى وترسيخُهُ

في قول اللّه تعالى: ﴿لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ﴾ جناسُ الاشتقاقِ بين ﴿تَخۡفَىٰ﴾ و﴿خَافِيَةٞ﴾، وهذا التَّقاربُ في اللَّفظِ يُحقِّقُ توكيدًا للمعنى وترسيخًا لَهُ؛ إذ يُظهِرُ أنَّ الخفاءَ بجميع صوَرِه مُحالٌ، فلا يوجَدُ شيءٌ ممّا مِن شأنِهِ أن يخفى إلّا وهو مكشوفٌ ظاهِرٌ.

بلاغة تَكرار لفظ (يومئذٍ) وأثرهُ في النَّظم:

كُرِّر لفظُ (يومئذٍ) أربعَ مراتٍ في هذا المقطع من السّورة:

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 129.

تكرار (يومئذٍ) يفتح مشاهدَ القيامَةِ مشهدًا مَشهدًا؛ لتَستيقظَ القلوبُ مِن غَفْلَتِها

﴿فَيَوۡمَئِذٖ وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ﴾، ﴿فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ﴾، وفي قوله: ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ ١٧ يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ﴾، وقد تكرَّر هذا اللَّفْظُ بعدَ ذِكْرِ زمانِ النَّفخِ في قوله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾، والمقصودُ به التَّهويل والتَّفخيم لذلك اليوم العَظيم، الذي يبدأ بالنَّفخ في الصّور، ثُمَّ يتتابَعُ فيه ما ذُكِرَ مِن أهوالٍ: حَمْلِ الأرضِ والجبال ودكِّهما، وانشقاق السَّماء، وظهور الملائكة، وحَمْل العرشِ، والوقوف للحسابِ، فجاء كلُّ تكرارٍ لـ (يومئذٍ)؛ للتَّركيز على مشهَدٍ مهيب بعَيْنِه، ويجعَلُ المُتَلَقّيَ كأنَّه ينتقل مِن هولٍ إلى آخرَ، ومِن مشهَدٍ إلى آخرَ؛ ليَعْظُمَ بذلكَ أثرُ اليومِ في النُّفوس[1].

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّةِ في ﴿تَخۡفَىٰ﴾:

تذكيرُ الفعل وتأنيثُه مع مجازيِّ التَّأنيث

قرأ جمهور القرّاء ﴿تَخۡفَىٰ﴾ بتاءٍ في أوَّلِه على التَّأنيث، وقرأ حمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ العاشرُ (يَخْفى) بالياءِ على التَّذكير[2]، وتذكيرُ الفعل وتأنيثه ههنا جائزٌ؛ لأنَّ تأنيثَ الفاعِلِ - وهوَ هنا ﴿خَافِيَةٞ﴾ - مجازيٌّ غيرُ حقيقيٍّ، ثُمَّ هو مفصولٌ من الفعل بالجارِّ والمجرور ﴿مِنكُمۡ﴾، وكلُّ واحدٍ مِنْ هَذَيْن كافٍ في إجازَةِ الوجهَيْن[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 129.
(2) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 398.
(3) محمد سالم محيسن، الهادي شرح طيبة النشر: 3/ 297.

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾
إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي
جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ
فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحاقة: 19 - 24]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

تفصيل الجزاء بعد العرض الشّامل يوم الحساب

لمّا انتهى السّياقُ إلى ذروة التّهويل والتّخويف بقوله: ﴿يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ﴾، وكان هذا العرْضُ شاملًا كلَّ أحدٍ؛ بيَّن أنَّ هذا الجمع العظيم ينقسِمُ عند الحساب إلى فريقين: من يُعطى كتابَهُ بيمينِه، ومَن يُعطاه بشمالِه، فجاء هذا الانتقالُ تمهيدًا لتفصيلِ الجزاء، وبيان ما يَنْتَظِرُ كلًّا مِنَ الفريقَيْن بحسب عملِه، فبدأ بحال السُّعداء، ووصَف فرحتَهُم ونَعيمَهُم؛ تمهيدًا للمقابلةِ اللّاحقة مع أهل الشَّقاء[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿هَآؤُمُ﴾: مُرَكَّبٌ مِن (هاءَ) مَمْدودًا ومَقْصورًا، والمَمْدودُ مَبْنِيٌّ عَلى فَتْحِ الهَمْزَةِ؛ إذا تَجَرَّدَ عَن عَلاماتِ الخِطابِ ما عَدا المَوَجَّه إلى امرَأةٍ، فَهو بِكَسْرِ الهَمْزَةِ دونَ ياءٍ، وإذا خوطِبَ بِهِ أكْثَرُ مِن واحِدٍ؛ التُزِمَ مَدُّهُ لِيَتَأتّى إلْحاقُ عَلامَةِ خِطابٍ، كالعَلامَةِ الَّتي تَلْحَقُ ضَميرَ المُخاطَبِ، وضَمّوا هَمْزَتَهُ ضَمَّةً كَضَمَّةِ ضَميرِ الخِطابِ؛ إذْ لَحِقَتْهُ عَلامَةُ التَّثْنِيَةِ والجَمْعِ، فيُقالُ: هاؤُما، كَما يُقالُ: أنْتُما، وهاؤُمْ، كَما يُقالُ: أنْتُمْ، وهاؤُنَّ، كَما يُقالُ: أنْتُنَّ، ومِن أهْلِ اللُّغَةِ مَن قالَ: إنَّ (هاؤُمُ) أصْلُهُ: (ها - أُمّوا) مُرَكَّبًا مِن كَلِمَتَيْنِ (ها) وفِعْلِ أمْرٍ لِلجَماعَةِ مِن فِعْلِ (أمَّ) إذا قَصَدَ، ثُمَّ خُفِّفَ لِكَثْرَةِ الاستِعْمالِ،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 360.

ولا يَصِحُّ هذا القولُ؛ لأنَّهُ لَمْ يُسمَعْ (هاؤُمَيْنَ) في خِطابِ جَماعَةِ النِّساءِ، وفيهِ لُغاتٌ أُخْرى واستِعْمالاتٌ في اتِّصالِ كافِ الخِطابِ بِهِ، و(هاؤُمُ) بِتَصاريفِهِ: اسْمُ فِعْلِ أمْرٍ، بِمَعْنى: خُذْ، وبِمَعْنى: تَعالَ أيضًا[1]، والمراد هنا: خُذوا، أو تعالَوا[2].

2) ﴿قُطُوفُهَا﴾: أصلُ (قطف) يدُلُّ على أخذِ ثَمرةٍ مِن شَجرةٍ[3]، والقَطْفُ: القَطْعُ، والقِطافُ: اسْمُ وقْتِ القَطْف، وأقْطَفَ الكَرْمُ: أتى قِطافُه، وما أحْسَنَ قُطوفَهم! أي: أعنابَهم[4]، والقِطفُ: اسم الثِّمار المَقْطوفةِ، والجميع: القُطوفُ[5]، والقُطوفُ في الآية: جَمْعُ قِطْفٍ، وهو الثَّمَرُ، سُمّيَ بذلك لأنَّه يُقْطَفُ[6].

3) ﴿ظَنَنتُ﴾: أصلُ (ظنَّ) يدلُّ على معنيينِ مختلفين: يقينٍ وشَكٍّ[7]، فالظَّنُّ: اسم لما يَحصل عن أمارة، ومتى قَوِيَتْ أدَّت إلى العِلْم واليقين[8]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ۝٢٨﴾ [القيامة: 28]، أي: عَلِمَ وأيقَنَ[9]، ومتى ضَعُفَت جدًّا؛ لم يتجاوز حدَّ التَّوهُّم، فيكون معناها الشَّكَّ والاعتقادَ والتَّرَدُّدَ، تقول: ظَنَنْتُ الشَّيْءَ؛ إذا شَكَكْتَ فيه ولم تَتَيَقَّنْهُ[10]، ويأتي الظَّن بمعنى الاتِّهام، والظِّنَّةُ: التُّهَمَةُ، وجَمْعُه: ظُنونٌ[11]، و﴿ظَنَنتُ﴾ هنا واقعةٌ موقع تيقَّنتُ، وهي في مُتيَقَّنٍ لم يقَعْ بعدُ ولا خرج إلى الحِسِّ، وهذا هو باب الظَّنِّ الَّذي يوقَعُ موقِعَ اليقين[12].

4) ﴿مُلَٰقٍ﴾: أصلُ (لقي) يدلُّ على تَوافي شَيئَينِ[13]، واللِّقاءُ: مقابلة الشَّيء ومصادفَتُه معًا، وقد يُعبَّر به عن كلِّ واحدٍ منهما، يُقالُ: لَقيَهُ يَلْقاهُ لِقاءً ولُقيًّا ولُقْيَةً، ويُقالُ ذلك في

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 130، 131.
(2) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 484، وابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 231.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قطف).
(4) ابن عباد، المحيط في اللغة: (قطف).
(5) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (قطف).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 133.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظنّ).
(8) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (ظن)، والمناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ص: 231.
(9) الواحدي، التفسير البسيط: 22/ 170، والقنوجي، فتح البيان: 14/ 295.
(10) ابن السكيت، إصلاح المنطق، ص: 62، وابن سيده، المخصص: 3/ 223.
(11) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (ظنن).
(12) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 360.
(13) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 360.

الإدراك بالحسِّ، وبالبَصر، وبالبصيرة[1]، ولَقيتُهُ لَقْوَةً، أيْ: مَرَّةً واحِدَةً، ولِقاءَةً، واللُّقْيَةُ: فُعْلَةٌ مِنَ اللِّقاءِ، والجَمْعُ: لُقًى[2]، والمُلاقاةُ: مُفاعلةٌ مَنْ لَقيَ، واللِّقاءُ الحُضورُ، ومعنى مُلاقٍ حسابِيَه: أنّي مُحاسَبٌ في الآخرة يقينًا.

5) ﴿عِيشَةٍ﴾: أصلُ (عيش) يدلُّ على حياةٍ وبقاءٍ، والعَيْشُ: الحَياةُ، والمَعيشَةُ: الَّذي يَعيشُ به الإنسانُ من مَطْعَمٍ ومَشْرَبٍ، وما تَكونُ بِهِ الحَياةُ، والمَعيشَةُ[3]، وهو في عيشَةٍ ومَعيشَةٍ صالِحَةٍ، والعَيْشُ: المَصْدَرُ الجامِعُ، والمَعاشُ يَجْري مَجْرَى العَيْشِ، تَقولُ: عاشَ يَعيشُ عَيْشًا ومَعاشًا، وكُلُّ شَيْءٍ يُعاشُ بِهِ أوْ فيهِ فَهوَ مُعاشٌ[4]، والمقصود بالعيشَةِ في الآيةِ: حالُ العَيْشِ وهيئَتُه[5].

6) ﴿عَالِيَةٍ﴾: أصل (علو) يدلُّ على السُّموِّ والارتفاع، لا يَشِذُّ عنه شَيءٌ[6]، والعَلاءُ الرِّفْعَةُ، وأمّا العُلُوُّ فالعَظَمَةُ والتَّجَبُّرُ[7]، فالعُلُوُّ ضدُّ السُّفْل، والعُلْويُّ والسُّفْليُّ: المنسوبُ إليهما، والعَليُّ: هو الرَّفيع القَدْرِ، مِنْ: عَليَ[8]، والعُلوُّ في الآية معناه: الارتفاعُ، وهو مِن مَحاسِنِ الجنّات؛ لأنَّ صاحبَها يُشرِفُ على جِهاتٍ مِن مُتَّسَعِ النَّظر، وذلك زيادة للبَهجة والمَسرَّة[9].

7) ﴿دَانِيَةٌ﴾: (دنو) أصلٌ واحد يُقاس بعضُه على بعض، وهو المقارَبَة، ومن ذلك: الدَّنيُّ، وهو القَريب، مِنْ دنا يدنو، وسُمّيت الدُّنْيا لدُنوِّها[10]، فالدُّنوُّ: القُربُ بالذّاتِ، أو بالحُكمِ، ويُستعمَلُ في المكانِ والزَّمانِ والمنزلةِ[11]، والمراد: قريبَةُ المتناوَلِ، تُنالُ على كلِّ حالٍ مِن قيامٍ وقعودٍ واضطجاعٍ، ولا يَمنَعُ منها بُعْدٌ ولا شوكٌ[12].

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 360.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 360.
(3) الخليل، العين، وابن عباد، المحيط في اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (عيش).
(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (عيش).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 132.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (علو).
(7) الخليل، العين: (علو).
(8) الراغب، المفردات: (علا).
(9) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 133.
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دنو).
(11) الراغب، المفردات: (دنو).
(12) أبو المظفر السمعاني، تفسير القرآن: 6/ 40.

8) ﴿هَنِيٓـَٔۢا﴾: أصلُ (هنأ) يدُلُّ على إصابةِ خَيرٍ مِن غيرِ مشَقَّةٍ، فالهَنْء: العَطيَّةُ، وهو مصدرٌ والاسم الهِنْء، والهَنيءُ: الأمر يأتيك من غير مشقَّة[1]، وأصلُه في الطَّعام، يُقالُ: هَنِئَ الطَّعامُ، فهو هَنيءٌ، وما كان هذا الطَّعامُ هنيئًا، ولقَد هَنُؤ، وهَنِئت الماشيةُ: أصابَتْ حَظًّا من بَقْل[2]، فالهَنيءُ هُنا معناه: ما لا تَنْغيص فيه ولا نكَد ولا كدَر، أي: لا تكديرَ عليكم، ولا تنغيصَ[3].

9) ﴿أَسۡلَفۡتُمۡ﴾: أصلُ (سلف) يدلُّ على تَقَدُّم وسَبْقٍ[4]، وكلُّ شيءٍ قَدَّمْتَه فهو سَلَفٌ، والفعل: سَلَفَ يَسلُفُ سُلوفًا[5]؛ إذا مضى وانقضى وتقدَّم وسَبق، فهو سالِفٌ، والإسْلاف: تقديمُ ما يرجو أن يعود خيرًا، فهو كالإقراض، ومن هذا يُقال: أسلف في كذا؛ إذا قدَّم فيه ماله[6]، وسَلَفُ الرَّجلِ: آباؤه المتقدِّمون والرّاحلون، والأوَّلون السّابقون، وذوو قَرابة الرَّجل الَّذين هم فوقه في السِّن والفَضل[7]، والإسلاف هنا معناه: جَعْلُ الشَّيءِ سَلَفًا، أيْ: سابِقًا، والمُرادُ أنَّه مُقدَّمٌ سابقٌ لإبّانه؛ ليُنتَفَعَ به عند الحاجة إليه[8]، والمقصود هنا: ما قدَّمْتُم مِنْ أعمالٍ[9].

10) ﴿ٱلۡخَالِيَةِ﴾: أصلُ (خلو) يدُلُّ على تعَرّي الشَّيءِ مِنَ الشَّيءِ، يُقال: خَلا المَكانُ، يَخْلو خُلوًّا وخَلاءً؛ إذا لم يَكُن فيهِ أحَدٌ ولا شَيْءَ فيه، ويُقال: مَكانٌ خالٍ، أي: فارِغٌ[10]، وخَلا مكانُهُ: ماتَ، ومَضَى، والقُرونُ الخاليَةُ: الماضيَة[11]، ويأْتي الخُلوُّ بِمعنى الانفرادِ، تَقول: خَلا الرَّجُلُ بِنَفْسِه، أيِ انفرَدَ بِها[12]، والمقصودُ بالخلوِّ في الآية: ما مَضى من الزَّمان في الحياةِ الدُّنيا.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هنأ).
(2) الخليل، العين: (هنأ).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (هنأ)، وابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 611، والسمعاني، تفسير القرآن: 1/ 397.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سلف).
(5) الخليل، العين، وابن سيده، المحكم: (سلف).
(6) الواحدي، التفسير البسيط: 22/ 173.
(7) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (سلف).
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 134 - 135.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (سلف)، والكفوي، الكليات، ص: 116، وابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 234.
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (خلو).
(11) ابن عباد، المحيط في اللغة، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (خلى - خلو).
(12) ابن منظور، لسان العرب، والفيومي، المصباح المنير: (خلو).

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

فرحةُ النَّجاة تتفجَّر عند رؤيةِ الكِتاب بيمينِ صاحبِه

تُخْبِرُنا الآياتُ عن حالِ المُؤْمِن إذا أوتيَ كتابه بيَمينِه يومَ القيامة، فيُنادي مفتخرًا فرحًا: ﴿هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ﴾، أي: خُذوه، واقرؤوه، يقدِّمه للنّاس معتزًّا به؛ لأنَّه كان يوقِنُ في دنياه بلقاءِ اللّهِ تَعالى وحسابه، فتهيَّأ لذلك، فنجا، وهذا الظَّنُّ لَم يَكُن شكًّا، بل يقينًا راجحًا دفعَهُ للعمَل، فكانت النَّتيجة أنَّه في "عيشة راضية"، أي: مرضيٍّ عنها في ذاتها، ترضى بها النَّفس، ولا تملُّ منها؛ لأنَّها في "جنَّة عالية"، أي: رفيعة المنزلة والمكان، وثَمَرُها قريبُ التَّناول ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٞ﴾، لا كُلفة فيها ولا مشقَّة، ثُمَّ يُقال له: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا﴾، أي: بلا حساب ولا منغِّص، جزاءً لما قدَّمتم من الطّاعات في ﴿ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ﴾، أي: الماضية في الدُّنيا، فذاك الجزاءُ ثمرَةُ التَّقدُّم في العمَلِ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الفاء في جملة: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ﴾:

إيتاءُ الكتاب باليمينِ أوَّل بشائر النَّجاة بعد العرْضِ العظيمِ

الفاءُ في قوله: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ تفصيلٌ لما أُجْمِلَ في قوله السّابق: ﴿يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ﴾، فذلك العرْضُ يتضَمَّن الحسابَ والجزاء، وهذا التَّفصيل يُبيِّن مآلَ أحدِ الفريقين، وهو مَن أُعطي كتابَه بيمينه؛ إذْ مَعْناه: أوقِفَ على سجلِّ أعماله إيقافَ تكريمٍ لا توبيخ، فكان أوَّل مشهد من مشاهدِ الجَزاء بعد العَرْضِ[2].

غرَضُ افتتاحِ الجُملَةِ بـ (أما):

تفصيلُ مآلِ أهْلِ السَّعادة وأهلِ الشَّقاوَةِ

صُدِّر قول اللّه تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ بـ (أمّا)، وهي حرفٌ دالٌّ على الشَّرط والتَّفصيل، ففيه انتقالٌ إلى التَّفصيل

---

(1) أبو بكر الجزائري، أيسر التفاسير: 5/ 423، ونخبة من علماء التفسير، التفسير الميسر، ص: 567.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 241، وأبو حيان، البحر: 10/ 260، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 24، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 129، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 198.

بعد الإجمالِ؛ إذ بَعْدَ ذِكْرِ الحالِ العامَّةِ من عرضِ العبادِ إلى اللّهِ تَعالى؛ بُيِّن هنا على وجه التَّفصيل مآلُ كلٍّ من الفريقين: السُّعداءِ والأشقياءِ، وبُدِئَ بحالِ السُّعداءِ؛ لأنَّ ما تقدَّم كان في سياق الرَّهبةِ والتَّخويفِ، فكان في البدءِ بهم ترغيبٌ بعدَ ذلك التَّرهيبِ، وبعثٌ للطُّمأنينةِ قطعًا لعارِضِ اليأسِ.

سرُّ التَّعبير بالاسمِ الموصولِ ﴿مَنْ﴾:

عمومُ الأفرادِ المُتَّصفين بإتْيانِهم كتُبَهم بأيْمانِهم

جاءَ التَّعبيرُ بالاسمِ الموصولِ ﴿مَنْ﴾، في قول اللّه تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾؛ لإفادةِ عمومِ مَن اتَّصف بالوصفِ المذكورِ؛ إذ الاسمُ الموصولُ مِن الألفاظِ الدّالَّةِ على العمومِ، كما أنَّ التَّعبيرَ بهِ يُمهِّدُ لذِكْرِ الصِّلَةِ، وهي التي تربطُ مضمونَها بالجزاءِ المذكورِ بعدُ.

غرضُ بناءِ الفعلِ ﴿أُوتِيَ﴾ للمفعولِ:

العنايةُ بشَأْنِ الإيتاءِ، بقطعِ النَّظرِ عن المؤْتي

بُنِيَ الفعلُ ﴿أُوتِيَ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾؛ لِما لم يُسمَّ فاعِلُهُ؛ للعِلْمِ بالمُعْطي، وهو اللّه ﷻ، فكان في طيِّه عن الذِّكْرِ تعظيمٌ له وتفخيمٌ، كما أنَّ في تركِ التَّصريحِ به بيانًا للاعتناءِ بالإتيانِ المذكورِ بقَطْعِ النَّظرِ عن المُؤْتي؛ إذ المرادُ ههنا بيانُ حالِ الذين يُعرضون على اللّه تعالى.

نوعُ الإضافَةِ في ﴿كِتَٰبَهُۥ﴾:

اختصاصُ كلِّ كتابٍ بأعمالِ صاحِبِهِ

الإضافةُ في ﴿كِتَٰبَهُۥ﴾ مِنْ قول اللّه تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ للاختصاصِ؛ إذ الكتابُ الذي يُعطاهُ العبدُ هو كتابُ أعمالِهِ التي عَمِلَها هوَ، فلم يَشْرَكْهُ فيها أحدٌ، فلا يُزادُ فيه عملُ غيرِهِ، ولا يُنْقَصُ مِنْهُ، وفي هذا تقريرٌ لكمالِ العَدْلِ الإلهيِّ.

دلالة الباء في ﴿بِيَمِينِهِۦ﴾:

اليمينُ عُنْوانٌ للكَرامَةِ والخَيْرِ والشَّرَفِ

الباءُ في ﴿بِيَمِينِهِۦ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ دالَّةٌ على الملابَسَةِ، أي: يُؤتى كتابَه ملابسًا ليمينه، ويجوزُ أن تكون للاستعانَةِ، أي: يُؤتى كتابَهُ مستعينًا باليمين في تسلُّمِهِ وقبولِهِ.

دلالة الإيتاءِ باليمينِ في النَّظم:

التَّناول باليمين رمـزُ الـفـلاح والرِّضا، وله في السّياق القرآنيِّ إيحاءٌ بالقبول والتَّشريف

إيتاءُ الكتابِ باليمين في الآية ليس مجرَّد بيانٍ لجهةٍ في التَّناول، بل هو في لغة العرب وعاداتهم كنايةٌ عن الكرامةِ، والاعتزازِ بالمُعطَى، والفرَح به، وهو ما يُلائِمُ مقام البشرى والغبطة والسُّرور في الآية؛ ولذلك لم يُحتَجْ إلى التَّصريح بأنَّ هذا الكتابَ كتابُ فوزٍ، بل يكفي بيانُ أنَّهُ يُؤتى باليمين؛ ليفيدَ ذلك، على ما في عُرْفِهم وبَلاغَتِهم[1].

بلاغةُ الإيجاز بالحذف في: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ﴾:

حـذفٌ بليغٌ زادَ المشهدَ رهبةً، وأظهرَ تفاضُلَ المَصائر

في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ كلامٌ محذوفٌ اقتضاه مقامُ التَّفصيل، وتقديره: (فيُؤتى كلُّ أحدٍ كتابَ أعماله، فأمّا من أوتي...)، وهذا الحذفُ مِن دقائق الإيجاز القرآنيِّ؛ إذ طويَ ما يُفهَم ضمنًا؛ ليُبْنَى عليه تفصيلُ أحوالِ النّاس في الموقف، كلٌّ بحسَبِ مصيرهِ بَعدَ العَرْضِ[2].

نوع الفاء ودلالتها في: ﴿فَيَقُولُ﴾:

الإشعارُ بسُرْعَةِ الفرَحِ وامتلاءِ النَّفس بالسُّرور

الفاءُ في ﴿فَيَقُولُ﴾ من قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ﴾ رابطةٌ لجوابِ الشَّرطِ[3]، ولا تخلو مِن معنى التَّعقيبِ أيضًا، فيكونُ فيها إشعارٌ بترتُّبِ القولِ المذكورِ على إيتاءِ الكتاب باليمين، وذلك حاصلٌ من أوَّل زَمَنِ هذا الإيتاء؛ لما امتلأت به النَّفسُ مِنَ الفرَحِ والسُّرورِ بهذا الجزاءِ الجليل.

دلالةُ التَّعبير بالقَوْلِ مادَّةً وصيغَةً:

إظهارُ الفرَحِ والسُّرورِ

مادَّةُ القول دالَّةٌ على النُّطق[4]، ففيه مَعنى الإظهارِ والإعلانِ، والتَّعبيرُ به في قول الله سُبحانَهُ: ﴿فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ﴾ دالٌّ على إظهارِ الفَرَحِ والسُّرورِ القلبيِّ.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 130.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 130.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 199.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قول).

والتَّعبيرُ بفعل القولِ مضارعًا إشعارٌ بتكرُّرِ إظهارِهِ الفَرَحَ، كما أنَّ فيه تصويرًا لهذا القولِ في صورةِ الواقعِ الآنَ؛ تعظيمًا لَهُ وجلبًا للأذهانِ إلى العنايةِ به.

بلاغَةُ الكِنايَةِ في ﴿هَآؤُمُ﴾:

الفرحُ بقراءة الصَّحيفة كنايةٌ عن السَّعادة والظَّفر في الموقف الأعظم

في قوله: ﴿فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ﴾ كناية عن حال البهجة والسُّرور التي يعيشها صاحب الصَّحيفة، فجعل من قوله دعوةً للنّاس؛ ليقرؤوا كتابه، وهو لا يدعوهم إلّا افتخارًا واغتباطًا، كمن يعتَزُّ بثمرة جهده، ويُسَرُّ باطِّلاع النّاس عليها، فصار هذا القولُ دالًّا - على وجه الكنايةِ - على النَّعيم والسَّعادة والرِّضا، وهي المعاني المهمَّةُ في السّياق من مجرَّد ظاهر القول(1).

نُكتةُ التَّعبير بفعل القراءةِ في قولِه: ﴿ٱقۡرَءُواْ﴾:

كمالُ إكرامِ اللهِ تعالى للمُؤْمِن بمُجازاتِه على صالحِ أعمالِه وتَجاوُزِه عن قَبيحِها

آثر البيانُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بفعل القراءةِ في قول اللّه تعالى: ﴿فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ﴾؛ لِما يُشْعِرُ به لفظُ القراءة مِنَ التَّأمُّلِ والتَّفهُّمِ، فهو لا يدعوهُم إلى نظرٍ عابرٍ في كتابِ أعمالِهِ، بل إلى تمحيصِهِ والنَّظرِ الفاحصِ فيه، وذلك لِثِقتِهِ بإكرامِ اللّه تَعالى لَهُ، بأن جازاهُ على صالحِ أعمالِهِ، وستَرَ عليه ما زلَّ فيه، فدعْوَتُهُ لقراءةِ كتابِهِ يقينٌ مِنْهُ بخلوِّه ممّا يُعدُّ فضيحةً لَهُ.

سرُّ إثبات هاء السَّكت في ﴿كِتَٰبِيَهۡ﴾ وأخواتها:

إثباتُ الهاء تحقيقٌ لتناسب الفواصِل، ونقلٌ صادِقٌ للقول في مقام الفَخْرِ

الهاء في ﴿كِتَٰبِيَهۡ﴾ ونظائرها - ﴿حِسَابِيَهۡ﴾، و﴿مَالِيَهۡۜ﴾، و﴿سُلۡطَٰنِيَهۡ﴾ - هي هاءُ سَكْت تثبت عند الوقفِ، ولكنَّها أُثبِتت في هذه المواضع في القراءة والكتابة عند الوقف وعند الوصل كذلك - في قراءة الجمهور(2) - وذلك لاعتبارَيْن، أحدهما: أنَّ السّياق ينقل كلامًا محكيًّا كما نطقهُ القائل، فاعْتُمد فيه ما يَجْري على لسانهِ لا ما

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 130.

(2) ابن الجزري، النشر: 2/ 142.

يُختزل في الرَّسم العاديِّ. والآخَرُ: أنَّ هذه الكلماتِ جاءت فواصلَ، والفواصلُ في القرآن الكريمِ تُعامَل معاملة القوافي والأسجاع من حيثُ ضبطُ اللَّفظ وتناسق الختام، فلو سقطت الهاءُ لسقط بذلك جرْس الفواصلِ، وهو ما يُعدُّ تفريطًا في مُحسِّن بلاغيٍّ مقصودٍ(1).

الفرقُ بينَ الفاء والواو في تفصيلِ المَصيرَيْن: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ﴾، ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ﴾:

تعاقبَتْ أدواتُ الرَّبط بدقَّةٍ؛ لتُفْصِحَ عن تبايُنِ المَصيرَيْن في سياقٍ واحدٍ

جاءَ التَّعبيرُ بالفاءِ في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾؛ لدلالَتِها على التَّفريعِ مع ما فيها مِن مَعْنى التَّرتيب والتَّعقيب على ما سبق من عَرْضِ النّاس ومُحاسَبَتِهم، فناسبت سرعة الانتقالِ إلى بيان مصير الفريقِ الأوَّل بعد العرْضِ، وأمّا في قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ فجاءت الواو لا الفاء؛ للدَّلالة على مطلق الجمع دون ترتيب زمني؛ لأنَّه تفصيل لما ذُكِر قبله، لا تعقيب عليه؛ إذ هو مقابل لحال من أوتي كتابه بيمينه(2).

موقع جملة ﴿إِنِّي ظَنَنتُ﴾ ممّا قبلَها، ودلالة (إنّ):

مَن فرَّط في دنياه؛ خجل من كتابه، ومن استعدَّ؛ لقيَه بالبشر والرِّضا

قوله تعالى: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ واقع في موضع تعليلٍ للابتهاجِ والفخر الذي عبَّر عنه بقوله: ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ﴾، فهو يُفصح عن السِّرِّ الذي جعله آمنًا مطمئنًّا عند تسلُّمه كتابه.

وقد دخلت (إنَّ) على الجملة للاهتمام والتَّوكيد بهذا التَّعليل، وهي تفيد في هذا السّياق رابط السَّببيَّة، كأنَّ المعنى: فرحتُ وفخرتُ بذلك؛ لأنّي كنتُ على يقينٍ من الحساب، فأعددتُ له عدَّته، كما تصلح الجملة استئنافًا بيانيًّا لعلَّةِ تلك الحالِ التي سَبَقَتْ(3).

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 131.

(2) الكرماني، أسرار التكرار في القرآن، ص: 239، والفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 1/ 479.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 132.

بلاغة الكناية في ﴿إِنِّي ظَنَنتُ﴾:

مَن أيقن بالحسابِ، وأعدَّ له؛ كان لقاؤُه به بُشْرى

قوله: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ ليس مجرَّد إخبار عن ظنٍّ سابق، بل هو كناية عن استعدادِهِ في الدُّنيا للحساب، أي: أنَّه لم يغفل عن هذا اللِّقاء، بل كان يوقِنُ به، ويتهيَّأ له بإيمانِهِ وعملِهِ الصّالح، فهو لم يُفاجأ بالحِساب، بل لَقيَهُ كما توقَّع، فلمّا جاء يومُه؛ سَعِدَ بلقاء عملِه، كما يَسْعَدُ مَن كان ينتَظِرُ لقاءَ حبيبٍ(1).

دلالة الظَّنِّ في قوله تعالى: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾:

دقَّة التَّعبير القرآنيّ تتجلّى في اختلاف أدوات الظَّنِّ؛ لتَفصِلَ بين يقين المؤمن وشكِّ الكافر

الظَّنُّ في قوله تعالى: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ لا يتعيَّنُ معناهُ للشَّكِّ والرَّيبِ، بل (الظَّنُّ) في القرآن الكريم يأتي بمعنى اليقينِ في مواضعَ، كما في هذه الآية، فالمراد: (إنّي أيقنتُ أنّي ملاقٍ حسابيه)(2)، وقد ورد عن الضَّحّاك: (كل ظنٍّ في القرآنِ من المؤمن فهو يقين، ومن الكافر، فهو شكٌّ)(3).

وللتَّفريق بين الظَّنِّ المذموم والمحمود في القرآن ضابطان:

أحدهما: إن كان الظَّنُّ ممدوحًا أو مثابًا عليه؛ فهو يقين، وإن كان مذمومًا أو متوعَّدًا عليه؛ فهو شكٌّ.

والآخَرُ: إن اتَّصل الظَّنُّ بـ (أنْ) المخفَّفةِ فهو شكٌّ، كقوله تعالى: ﴿إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 230]، أمّا إن اتَّصل بـ (أنَّ) المشدَّدة فهو يقين، كقوله: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾، وذلك لأنَّ (أنَّ) المشدَّدة تؤكِّد المعنى، وتدلُّ على التَّحقُّق، بخلاف (أنْ) المخفَّفة التي توحي بالتَّرجّي أو التَّردُّد، ومثال ذلك في اليقين: ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ۝٢٨﴾ [القيامة: 28]، وقوله: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾، ومثال ذلك في الشَّكِّ: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ﴾ [الفتح: 12]، وقوله: ﴿وَحَسِبُوٓاْ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 131، وما بعدها.

(2) السمعاني، تفسير السمعاني: 1/ 75، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 628، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 241، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 25.

(3) الماوردي، النكت والعيون: 6/ 83.

﴿أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ [المائدة: 71]، وقد يُتوهَّم الاعتراض بآية: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾، ولكنَّ هذا مردود بأنَّ الاتِّصال فيها بـ (الاسم)، لا بـ (أنْ) المصدريَّة(1).

موقع جُمْلَةِ ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ﴾ ودلالَةُ الفاءِ فيها:

عيشَةُ المُؤْمِن في الجنَّة ليس مرضيًّا عنها فحسبُ، بل هي راضيَةٌ بهِ، مُلائمَةٌ لَه، كأنَّها أُعدَّت له خاصَّةً

قول اللّهِ تعالى: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ﴾ جاء تَفْريعًا على ما سبَقَ من إيتائِهِ الكتابَ بيمينه، وما تَبِعَهُ مِن البَهْجَةِ والفخر، أي: لمّا نال هذا الجزاءَ، وظَهَرَت عليهِ أماراتُ الرِّضا؛ كان مِن تمام ذلك أن يعيشَ في عيشة تَرْضى بها نفسُه، فهي عيشة قَد رَضيَت عنه، ورضي عنها.

والفاءُ في قولِهِ: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ﴾ تُفيدُ التَّفريع، وقد تُجعَل الجملة بدلَ اشتمالٍ من قوله: ﴿فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ﴾، أي: أنَّ ذلك القولَ كان يتضمَّن معنى هذه السَّعادة والنَّعيم، فجاءت الجملةُ التّالية لتَفْصيلِ ذلك المُجْمَلِ(2).

بلاغةُ الالتفاتِ في قوله: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ﴾:

المُبالغةُ في التكريم والتعظيم

في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ﴾ التفاتٌ من التَّكلُّم إلى الغَيبةِ، فإنَّ قبلَهُ: ﴿هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ١٩ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ﴾، فكان مقتضى الظّاهر أن يَرِدَ البيانُ القرآنيُّ: (فأنا في عيشة راضية)، ونُكْتَةُ هذا الالتفاتِ هي الإيماءُ إلى أنَّ كونَهُ في عيشة راضيةٍ ليس شيئًا يشعُرُ به المؤمنُ فحسبُ، وإنَّما هو حُكْمٌ إلهيٌّ، فيكون أبلغَ في التَّكريم وأعظمَ في التَّشريف.

ويجوزُ ألّا يكونَ في الجملةِ التفاتٌ؛ لأنَّ جُمَلَ الخطابِ محكيَّةٌ للقولِ في ﴿فَيَقُولُ هَآؤُمُ﴾، ثُمَّ لمّا تَمَّ القولُ المحكيُّ؛ ذُكِرَ الجزاءُ الإلهيُّ بقوله تعالى: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ﴾.

---

(1) الزركشي، البرهان: 4/ 156، والسيوطي، الإتقان: 2/ 237.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 132.

دلالةُ حرفِ الظَّرفيَّةِ ﴿فِي﴾:

﴿فِي﴾ مِنْ قول اللّه تعالى: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ حرفٌ دالٌّ على الظَّرفيَّةِ، وهو هنا يُفيدُ أنَّ المؤمنَ مغمورٌ في هذه العيشة الهنيَّة، غارقٌ في نعيمها.

نكتةُ التَّعبير باسْمِ الفاعِلِ دونَ المفْعول في ﴿رَّاضِيَةٍ﴾:

التَّعبير بـ ﴿رَّاضِيَةٍ﴾ أبلَغُ مِن (مرضيّ عَنها)؛ لأنَّ الرِّضا من جانب العيشة ذاتِها يوحي بصَفائِها ولذَّتها، وكأنَّها هي التي تَخْتارُ مَن يُقيمُ فيها.

توجيه معنى ﴿رَّاضِيَةٍ﴾، ودلالتها البلاغيَّة:

كَثْرَةُ الأوجُـهِ في اللَّفظ القُرآنيِّ تـوَسِّـع المَعْنى وتُثْريه

﴿رَّاضِيَةٍ﴾ مِنْ قول اللّهِ تعالى: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ وصْفٌ وُصِفت به العيشَةُ في الآخرة، وقد اختُلِفَ في تأويلها على ثلاثَةِ أوجُهٍ بلاغيَّة:

أوَّلُها: على جهة النَّسب، أي: عيشةٍ ذاتِ رضًا، كقولهم: تامِرٌ، ولابِنٌ، لِمَن يَمْلِكُ التَّمر واللَّبن، والمعنى: عيشةٍ مستقرٍّ فيها صفَةُ الرِّضا بذاتها، أي: أنَّ أهلها راضون بها تمام الرِّضا؛ لأنَّها قد بلغت مِنَ النَّعيم ما يُرضي كلَّ نَفْسٍ.

ثانيها: على جهة المجازِ العَقْليِّ، فكأنَّ العيشة نفسَها هي الرّاضية بمَن نَزَل فيها، فهي قد أُعطيت لِمُسْتَحِقِّها، وكأنَّها مختارة له دونَ غيرِه، ولو كانت ذاتَ عَقْلٍ لرَضيَتْ بما آلَ إليها.

ثالثُها: على جِهَةِ الفاعِلِ بِمَعْنى المفعول، أي: أنَّ العيشة يُرضى بها، فهي مرضيَّةٌ لَدى مَن يَعيشُها، وهذا من بابِ المَجاز اللُّغويِّ، مثل قوله: ﴿فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾، أي: يُرضى بها، ولا يَسْخَطُها صاحِبُها.

وهذه التَّوجيهات الثَّلاثة تجتَمِعُ في تصوير مقام الرِّضا التّامِّ - النَّفسيِّ والمقاميِّ - لأهل الجنَّة، فليست العيشةُ نعمَةً فحسبُ، بل هي نعمةٌ موصوفَةٌ بالكمال التّامِّ من كلِّ وجْهٍ[1].

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 603، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 241، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 25، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 133، ودرويش، إعراب القرآن: 10/ 200.

موقع شبهِ الجُمْلَة ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾:

قوله تعالى: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ بدلٌ من قوله: ﴿فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾[1]، والغرضُ منه بيانُ أنَّ العيشةَ ليسَت حالًا معنويَّةً، وإنَّما هي عيشةٌ راضيةٌ حسًّا ومعنًى.

دلالةُ تَنكيرِ ﴿جَنَّةٍ﴾:

نُكِّر لفظُ ﴿جَنَّةٍ﴾ في قول الله تعالى: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّفخيمِ والتَّعظيم، أي: هُم في جنَّة عظيمةِ الشَّأنِ رفيعةِ القَدْرِ.

دلالةُ العلوِّ في وصفِ الجنَّة بـ ﴿عَالِيَةٍ﴾:

جنَّة الآخرة عالية في مَوْضِعِها ومَعْناها

العلوُّ في قول اللّهِ تعالى: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ يَحْتَمِلُ معنَيَيْن، كلاهُما يُثْري صورةَ النَّعيم مِن حيثُ العلوُّ المكانيُّ الحقيقيُّ، أي: أنَّ الجنَّةَ مرتفعَةٌ في مَكانها، وهذا الارتفاعُ من محاسنِها؛ إذْ يَمْنَحُ أهلَها نظرةَ إشرافٍ وبصيرةٍ على اتِّساع جنانِهم، ويُريهم من محاسنِها ما لا يُرى لو كانت في مكانٍ مُنْبَسِطٍ، وهذا يَزيدُ بهجةَ النَّفس وسُرورها؛ إذِ المشهَدُ البهيُّ من علٍ مِن أعظم لذّاتِ النّاظرين، ومِنْ حيثُ العلوُّ المعنويُّ، أيْ علوُّ المنزلَةِ والقَدْرِ، كقولنا: (فلان رفيعُ المَكانةِ)، وهذا التَّفسير يُؤَكِّدُهُ ارتباطُ العلوِّ بالكرامةِ والاصطفاء، وقد جمَعَت الآيةُ بينَ علوِّ المكان وعلوِّ الشَّأن؛ لتُعطيَ صورةً كاملةً عَن جنَّةٍ لا يُدانَى قَدْرُها، ولا يُقاس نعيمُها، ولهذا كان قوله: ﴿عَالِيَةٍ﴾ في مقام أبلَغَ وأشرفَ مِن نظيره في وصف الجنَّة الدُّنيويَّة في قوله: ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ﴾ [البقرة: 265]، فالمقامُ هُنا مقامُ خلودٍ وكرامَةٍ نهائيَّةٍ[2].

دَرْءُ الإشكال عن وصفِ الجنَّة بـ(العالية) مع تفاوُتِ درجاتِ أهلِها:

قد يُتوهَّم من قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ أنَّ المراتبَ المُتفاوتةَ لأهل الجنَّة تُنافي إطلاقَ وصْفِ العلوِّ عليها؛ إذْ بعضُهُم دونَ بعضٍ في

(1) الدعاس، إعراب القرآن: 3/ 376.

(2) أبو حيان، البحر: 10/ 261، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 133.

المنازل، فهل يُقال عن الجميع: إنَّهم في ﴿جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾؟ والجوابُ: أنَّ كونَ بَعْضِ المنازل دونَ بعضٍ لا يُنافي كونَها جميعًا عالية، فهي عالية من حيثُ المَوْقِعُ فوقَ السَّماوات، ومن حيثُ الشَّرف والرُّتبة، وإن تفاوتت درجاتُ أصحابِها، بل إنَّ اختلافَ المراتب داخلٌ في الجنَّة العالية نفسِها، فهي عاليةٌ في الجُمْلَة، وكلُّ درجاتها مُكَرَّمة، وإن تفاوتَت في عُلوِّها، ومثلُ ذلك يُقال في العلوِّ الحسّيِّ؛ إذْ قد توصف القصورُ بالعلوِّ وإن كان بعضُها فوقَ بعضٍ، وكذلك إن أُريد بالعُلوِّ ارتفاعُ الأبنيَةِ وإشرافها، فالوصفُ باقٍ، ولا يُنافي تفاوتَ المَنازِل(1).

نُكتَةُ التَّعبير بجَمْعِ الكَثْرَةِ في ﴿قُطُوفُهَا﴾:

جاء التَّعبير بلفظ (قطوف) في قول الله تعالى: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ على وزنِ (فُعول)، وهو من جموعِ الكثرةِ؛ للدَّلالةِ على كثرة ما في الجنَّة مِنْ ثمارٍ، وتنوُّعها وعدَمِ انقطاعِها.

بلاغَةُ الكِنايَةِ في قوله: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾:

في قول الله سُبحانَهُ: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ دلالةٌ على قُرْبِ ثمار الجنَّة وتدلّيها، وذلك كناية عن سهولَةِ التَّناوُلِ وكمال الرّاحَةِ، بحيث ينالُ أهلُ الجنَّة ما يشتَهونَ بلا كدٍّ ولا تعبٍ، فكأنَّ نعيمَ الجنَّة قد انقادَ لَهُم، فلا يحتاجونَ إلى المبالغةِ في مدِّ الأيْدي ولا إلى صعودِ شجرٍ.

مَوْقِعُ جملة ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ﴾:

قوله تعالى: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ﴾ هو مقولُ قولٍ محذوف، والتَّقدير: يقال لهم: كلوا واشربوا... وهذا القولُ صفَةٌ للجنَّة، فيكون المعنى: في جنَّة يُقال لهم فيها كذا وكذا، ويجوز أيضًا أن تكون الجملةُ خبرًا ثانيًا عن قوله: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ﴾، أي: هو في عيشةٍ راضية، وفي جنَّة عالية، ويقال له فيها:

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 629.

تفاوت درجاتِ الجنَّة لا يُنافي علوَّها، بل هي عاليةٌ بشرَفِها ومَوْضِعها، وإن تفاوتَتْ منازِلُ أهلِها

كثرةُ ثِمارِ الجنَّة ووَفْرَتُها

كمالُ نعيمِ أهْلِ الجَنَّة وتمامُ راحَتِهِم فيها

الخطابُ الإلهيُّ لأهل الجنَّة نداءٌ تكريم يُعبِّر عن رضا اللهِ تعالى وتمام النَّعيم

كلوا، واشربوا هنيئًا، وهذا الأسلوبُ مِن الإضمار في التَّعبير - حذف القول - يفتَحُ للنَّصِّ بابًا من الإيجاز البيانيِّ، ويَجْعَلُ السّامع يتخيَّل المقام العظيمَ الذي يُقال فيه هذا القولُ الإلهيُّ الكريم[1].

دلالةُ التَّحوُّل في الضَّمائر من المفرد إلى الجمعِ في السّياق:

مِنَ التَّفرُّد في الحساب إلى الاجتماعِ في النَّعيم، تتبدَّل الضَّمائر لتُصَوِّرَ مقامَ الكرامةِ

أُفرِدت الضَّمائرُ في الآيات السّابقة عند الحديث عمَّن أوتي كتابَه بيمينه، فلم يرد في النَّظم القرآنيِّ: (فأمّا مَن أوتوا كُتُبَهُم بأيمانِهِم...)؛ لأنَّ تلك المواضع تتعلَّق بالموقف الفرديِّ لكلِّ أحد في الحساب والعرض، فكلٌّ يُحاسَب على حِدَة، ويأخذ كتابه منفردًا، ويُسأل وحده، ولهذا جاء الأسلوبُ بمُفْرَدٍ مذكَّر: ﴿أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ﴾، ﴿ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ﴾، ﴿ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾، لكنْ حينَ حُكي الخطابُ في الجنَّة؛ جاءَ بضمير الجمع: ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ﴾؛ لأنَّ الحال تغيَّرت من حالِ العرْضِ الفرديِّ على اللّه تَعالى إلى حالِ الإكرام الجماعيِّ في دار النَّعيم، فكأنَّ كلَّ مؤمن بعد أن ينفرد بموقفه؛ يلتَحِقُ بموكبِ النّاجين في الجنَّة، فإذا استقرّوا فيها؛ نودوا جميعًا بنداء الإكرام: ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا﴾، وهو أسلوبٌ يُشْبِهُ ما يَفْعَلُهُ المُضيف، يحيّي كلَّ ضيفٍ عند دُخولِه، فإذا اجتَمَعوا؛ توجَّه إليهم جميعًا بعباراتِ التَّكريم[2].

دلالةُ فعل الأمر في ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ﴾:

إكرامُ أهلِ الجنَّة وتَشْريفُهُم

صيغة الأمر في ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ﴾ خرجت عن أصل دلالتها من الإلزام بالفعلِ، إلى مَعنى الإكرام والتَّشريفِ، فهي دعوة إلهيَّةٌ إلى الانغماس في نعيم الجنَّة والتَّمتُّع بما فيها مِنْ غير حظرِ شيءٍ عليهم أو حسابٍ، ولذا عُطِف الشُّرب على الأكلِ لاستكمالِ صوَرِ النَّعيم.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 133، 134، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 201.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 134.

دلالة لفظ ﴿هَنِيٓـًٔا﴾:

تنوُّع المعاني النَّحويَّة والبلاغيَّة لكلمةٍ واحدَةٍ يعكسُ عُمْقَ الدِّقَّة في التَّعبير القُرآنيِّ وتكامُلِه

لفظ ﴿هَنِيٓـًٔا﴾ في قوله تعالى: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا﴾ يحتمل أوجهًا:

أحدها: أن يكون (فعيلًا) بمعنى فاعلٍ؛ إذا ثبتَ له الهناءُ، وهو منصوب على النّيابة عن المفعول المطلق؛ لأنَّه وصفٌ لِمَحْذوفٍ، والتَّقدير: كُلوا أكلًا هنيئًا، وفي إسنادِ الهناءِ إلى الأكل والشُّرب مجازٌ عقليٌّ؛ لكونهما مُتَلَبِّسَيْنِ بالهناءِ للآكِلِ والشّارِبِ.

ثانيها: أن يكون اسمَ فاعلٍ مِن غيرِ الثُّلاثي على صيغة: فعيل، والتَّقدير: مُهَنِّئًا، أي: سبب هناءٍ وراحةٍ.

ثالثها: أن يكون فعيلًا بمعنى: مفعولٍ، أي: مُهَنًّأً به.

وعلى كلِّ هذه الأوجُهِ؛ فإنَّ إفراد لفظ ﴿هَنِيٓـًٔا﴾ مع كونه وصفًا لشَيْئَيْنِ - الأكلِ والشُّربِ - سائغٌ؛ إمّا: لأنَّ فعيلًا بمعنى فاعل لا يطابقُ موصوفَهُ، أو لأنَّ الكلمة وُصِف بها مصدَرٌ محذوفٌ، والوصفُ بالمصدَرِ لا يُثنّى، ولا يُجمع، ولا يُؤنَّث[1].

دلالةُ الباء في قولِه: ﴿بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ﴾:

الأعمالُ الصّالحة أسبابٌ موصلَةٌ إلى النَّعيم، لكنَّها لا توجِبُه استحقاقًا

قولُه تعالى: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ﴾ قد يُتوهَّم منه أنَّ دخولَ الجنَّة هو جزاءٌ مستحقٌّ للعمل، على اعتبار أنَّ الباء للمقابَلَة في قوله: ﴿بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ﴾، أي أنّ الجنَّة معاوضَةٌ عنه وثمَنٌ له[2]، ويُعارضه ظاهرُ الحديث الصَّحيح: "لا يدخلُ أحدٌ الجنَّةَ بعمله..."[3]، والجواب عَن هذا: أنَّ الحديث ينفي أن يكون العملُ مقابِلًا أو مكافئًا للجنَّة، نافيًا باء المعاوَضة والمقابلة، لا باء السَّببيَّة، والسَّببيَّة في قوله: ﴿بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ﴾ هي المعنى الأوجَه في الباءِ، أي: لا يدخل أحدٌ الجنَّة؛ لأنَّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 134.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 54.

(3) أخرجه البخاريُّ في صحيحه، برقم: (5673)، ومسلمٌ في صحيحه، برقم: (2816)، وأحمدُ في المسند، برقم: (7479) واللَّفظ له، مِن حديث أبي هُرَيرة رضي الله عنه.

عمله يُعادلها أو يُساويها، فثمَنُ الجنَّة ليس هو العمل، بل هي محضُ فضلٍ من اللّه تَعالى، وأمّا الآية فإثباتها لباءِ السَّببيَّة في قوله: ﴿بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ﴾ لا يدلُّ على استحقاقٍ ذاتيٍّ، وإنَّما يدل على أنَّ العمل كان سببًا لتفضُّل اللّه تَعالى عليهم بهذا الجزاءِ.

فالجامع بين النَّصَّين: أنَّ العمل سببٌ في الظّاهر، لكنْ لا على وجهِ الاستحقاق، بل اللّهُ تَعالى هو المتفضِّل بالسَّبب والمُسَبَّب[1].

دلالةُ (ما) في قولِه: ﴿بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ﴾:

الجزاءُ في الآخرة عَلى جميعِ الأعمالِ

(ما) في ﴿بِمَآ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ﴾ اسمٌ موصولٌ، وهو دالٌّ على العموم، فيشملُ جميع ما قدَّموه من أعمالٍ صالحةٍ، صغيرةً كانت أم كبيرةً، ظاهرةً كانت أم باطنةً، قليلةً كانت أم كثيرةً، فإنَّ الجزاءَ الذي أعدَّه اللّه تعالى لهم كان بسبب مجموعِ أعمالِهم لا بخصوصِ واحدٍ مِنْها.

دلالةُ التَّعبير بالفعل ﴿أَسۡلَفۡتُمۡ﴾ مادَّة وصيغةً:

تقدُّم العملِ وبقاءُ أثرِه الحسنِ

جاء التَّعبير بالفعل ﴿أَسۡلَفۡتُمۡ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ﴾؛ لِما تُشْعِرُ به المادَّةُ من التَّقدُّم والسَّبقِ وبقاء الأثَرِ، ممّا يشير إلى أنَّ هذه الأعمالَ قد سبقَت مِنْهم، وتقدَّمت، وبقيَ أثرُها الحسَنُ جزاءً في الآخرةِ، وفي التَّعبير بالفعل الماضي دلالةٌ على تحقُّقِ هذه الأعمال وانقضائِها، فلم يبقَ إلّا الجزاءُ المرتَّبُ عليها.

نُكْتَةُ التَّعبير بالأيّامِ:

قِصَرُ الحياةِ الدُّنيا وسرعةُ انقِضائِها

آثر البيانُ القرآنيُّ التَّعبير بالأيّام في قول اللّه تعالى: ﴿بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ﴾؛ لِما تُشْعِرُ به الأيّام مِنْ سُرعة الانقضاء، وهكذا شأن الدُّنيا سريعُ الانقضاءِ، بخلاف ما لو جاءَ التَّعبيرُ بالسّنين؛ فهو يوهِمُ طول المدى وسعةَ الأجلِ، كما أنَّ التَّعبيرَ بالأيّامِ دالٌّ على قِصَرِ الدُّنيا مقارنةً بخلودِ الجنَّةِ.

(1) ابن رجب، مجموع الرسائل: 4/ 393، وابن تيمية، مجموع الفتاوى: 11/ 256.

سرُّ التَّعبير بلفظِ ﴿ٱلۡخَالِيَةِ﴾:

لفظُ الخاليةِ مُشْعِرٌ بالخُلوِّ من الشَّرِّ والفسادِ

لفظُ ﴿ٱلۡخَالِيَةِ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ﴾ معناه: الماضيةُ البعيدةُ، وهي مشتقَّةٌ من الخلوِّ، وهو الشُّغورُ والبُعْدُ[1]، وآثر البيانُ القرآنيُّ التَّعبير بها دون الماضية؛ لِما في لفظ ﴿ٱلۡخَالِيَةِ﴾ من الدَّلالة على انقضاء الزَّمَنِ، وفيها إيماءٌ إلى خلوِّ تلك الأيّامِ من الشَّرِّ والفسادِ والمعاصي، وإذا خلَت من ذلك؛ فقد عَمَرَتْ بطاعة اللّهِ تَعالى ولزومِ مرضاتِهِ.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

القطوف والجنى:

تُعْتَبَرُ في القطفِ جهةُ الأخْذِ، وفي الجَنى جهةُ المأخوذِ

الفرقُ بين القَطْفِ والجَنى: أنَّ القطفَ يُنظر فيه إلى جِهَةِ الأخْذِ، بخلاف الجَنى؛ فإنَّه يُنظر فيه إلى جِهَةِ المأخوذ، ولذا جاءَ التَّعبير عنه في القرآن مجموعًا، في قول اللّه تعالى: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٞ﴾، بخلاف قوله تعالى: ﴿وَجَنَى ٱلۡجَنَّتَيۡنِ دَانٖ ۝٥٤﴾ [الرحمن: 54][2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 135.

(2) الفروق اللغوية المستخرجة من كتاب (التحقيق في كلمات القرآن)، ص: 219.

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾﴾ [الحاقة: 25 - 29]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

ذِكرُ الأشقياء بعد السُّعداء للتَّنفير من طريقةِ أهل الباطلِ

لَمّا جرت سنَّة الله تَعالى في العرض والحساب أن يُقسِّم الخلقَ إلى مقبولٍ ومردود؛ بدأ بذِكْرِ السُّعداء وأحوالهم؛ تشويقًا لعاقبتهم وتغبيطًا بمآلهم، ثُمَّ أعقبهم بذِكْرِ الأشقياء؛ تنفيرًا من طريقهم وتحذيرًا من عاقبتهم، فافتتح حالَهُم بصَرْخَتِهِم النَّدميَّة: ﴿يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ﴾، وأتبعها بوصفِ عذابِهم الشَّديد وما استوجَبوهُ مِن عقابٍ، بِما كانوا عليه من جُحودٍ وكِبرٍ وغلظَةِ قَلْبٍ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْقَاضِيَةَ﴾: (قضي) أصلٌ صحيح يدلُّ على إحكام أمرٍ وإتقانِه وإنفاذه لجهته، ومنه القَضاءُ، وهوَ الحُكْمُ والفَصلُ، يُقالُ: قَضَى في الأَمْرِ، أيْ: حَكَمَ، وفَصَلَ فيه[2]، والانقضاءُ: ذَهابُ الشَّيْءِ وفَناؤه، وكذلكَ التَّقضّي[3]، والقاضيةُ: المَنِيَّةُ الَّتي تَقْضي وحيًا، أي: سريعًا[4]، وسمّيت المنيَّةُ قضاءً؛ لأنَّها أمر يُنْفَذُ في ابنِ آدم وغيرِه من الخَلْقِ[5]، فيقال: فلان قَضَى نَحْبَه، كأنَّه فُصِلَ أمرُه المختصُّ به من دنياه[6]، والقاضيَةُ هنا: الموتُ، وهو أيضًا مَعْنَى قولِه تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًا ﴿٤٠﴾﴾ [النبأ: 40][7].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 366.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قضي).
(3) ابن عباد، المحيط في اللغة: (قضي).
(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (قضي).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قضي).
(6) الراغب، المفردات: (قضي).
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 136.

2) ﴿سُلۡطَٰنِيَهۡ﴾: (سلط) أصلٌ واحدٌ، وهو القوَّةُ والقَهْرُ[1]، ومنه السُّلْطانُ: الحاكِمُ والوالي، ويأتي بمعنى: الوِلايَةِ والحُجَّةِ والبُرْهانِ[2]، ويأتي كذلك بمعنى: قدرةِ المَلِك، وقدرةِ من جُعِلَ ذلك له، وإنْ لم يكن مَلِكًا[3]، وسُمّيَ الدَّليل سُلطانًا؛ لأنَّهُ يُكسِبُ المُستدِلَّ به سُلطةً على مُخالفهِ ومُجادِله[4]، وأمّا المقصود به في الآية: فالحُجَّة، والمُراد بهلاك السُّلطانِ هنا: عدَمُ الانتفاعِ به يومئذٍ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

النَّدم في الآخرةِ لا يَنْفَعُ

تخبرنا الآياتُ الكريماتُ عن حالِ من يُؤتَى كتابَه بشِماله يوم القيامة، فيتَمَنّى ألّا يكون أُعطيَ كتابًا، ولا عرَفَ حسابًا، ويتحسَّر متمنّيًا لو أنَّ الموتةَ التي ماتها في الدُّنيا كانت هي النِّهاية، فلا بَعْثَ بعدَها، ثُمَّ يندبُ ضياعَ ما كان يملِكُه من مال، ويتأسَّف على زوال سُلطانه، أي: حُجَّته وقوَّته؛ إذْ لَم تُغنِ عنه شيئًا[5].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

الإيتاءُ بالشِّمال إشـارةٌ إلى بُعد القَبول، ومقامِ الذُّلِّ

موقِعُ جملة: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ ممّا قبلها:

المذكورُ في قول اللّهِ تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ هو القسم الثّاني المقابِلُ لقولِه: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾؛ إذِ انقسَم النّاس في مواقف الحساب إلى فريقَين: أهلِ السَّعادة الّذين يُؤتَوْن كُتُبَهُم بأيمانِهم، وأهلِ الشَّقاوةِ الذين يُؤتَوْنَها بشَمائِلِهم[6].

والواو في ﴿وَأَمَّا﴾ عاطفةٌ؛ لِما بين الجملتَين من التَّوسُّط بين

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سلط).

(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (سلط).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غل)، والواحدي، الوسيط: 4/ 347، وابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 361، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 272.

(4) الخليل، العين: (سلط)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/ 232.

(5) أبو بكر الجزائري، أيسر التفاسير: 5/ 426.

(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 135.

الكَمالَيْن؛ إذ الجملتانِ اتَّحدتا في الخبريَّةِ، وبينَهما تناسُبٌ في اللَّفظ والمعنى، أمّا في اللَّفْظِ فاتِّحادُهما في الابتداء بحرف الشَّرط والتَّفصيلِ (أمّا)، واتِّحادُ المسنَدِ إليه فيهما ﴿مَنۡ﴾ لفظًا - وإن اختلفا مَعْنًى - واتِّحادُ المُسنَدِ ﴿أُوتِيَ﴾، وبناؤُهُ للمفعولِ فيهما، وأمّا في المعنى؛ فلِما بينَهُما من التَّضادِّ، وهو جامعٌ وهْميٌّ.

ذلُّ أهـلِ الكُفْر وخِـزْيُـهُـم يـومَ الجزاءِ

وقد تناولَت الآياتُ السّابقةُ أحوالَ أهلِ السَّعادة بما يدلُّ على الكرامة والإكرام، فجاء ذِكْرُ الشِّمال هنا رمزًا لما يُقابله مِن الهوان والخسران؛ إذ ترتَبِطُ الشِّمال في عرف العرب بمقام الدّونِ والنَّقص، فجاء استعمالُها هنا لإظهار شناعة المقام الذي يُؤتى فيه الكافر كتابَه، وهذا الإيتاء بالشِّمال إشارةٌ إلى بُعد القَبول، ومقام الذُّل، ونُكوص صاحب الكتاب عن لقاء مصيره، حتّى لَيَتَمَنّى لو لم يُؤْتَ كتابَه أصلًا.

دلالةُ حرف التَّفصيل والشَّرطِ (أما):

تفصيلُ مآلِ أهلِ الشَّقاوَةِ

صُدِّر قول اللّه تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ بـ (أمّا)، وهي حرفٌ دالٌّ على الشَّرط والتَّفصيل، ففيه انتقالٌ إلى التَّفصيل بعد الإجمالِ؛ إذ بَعْدَ ذِكْرِ الحالِ العامَّةِ من عرضِ العبادِ على اللّهِ تَعالى؛ بُيِّن على وجه التَّفصيل مآلُ كلٍّ من الفريقين، فبُدِئَ بحالِ السُّعداءِ، ثُمَّ أُعقِبَ هنا بذِكْرِ حالِ الأشقياءِ.

سرُّ التَّعبير بالاسمِ الموصولِ ﴿مَنۡ﴾:

عـمـومُ الأفـراد المُـتَّـصـفـين بإتْيانِهم كتُبَهم بشمائلِهم

جاءَ التَّعبيرُ بالاسمِ الموصولِ ﴿مَنۡ﴾، في قول اللّه تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾؛ لإفادةِ عموم مَن اتَّصف بالوصفِ المذكورِ؛ إذ الاسم الموصول مِن الألفاظِ الدّالَّة على العموم، كما أنَّ التَّعبيرَ به يُمهِّدُ لذِكْرِ الصِّلَةِ، وهي التي تربطُ مضمونَها بالجزاءِ المذكورِ بعدُ.

غرضُ بناءِ الفعل ﴿أُوتِيَ﴾ للمفعول:

بُنِيَ الفعلُ ﴿أُوتِيَ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ

﴿بِشِمَالِهِۦ﴾ لِما لم يُسمَّ فاعِلُهُ؛ للعِلْم بالمُعْطي، وهو الله ﷻ، فكان في طيّه عن الذِّكْرِ تعظيمٌ له وتفخيمٌ، كما أنَّ في تركِ التَّصريح به بيانًا للاعتناءِ بالإتيانِ المذكورِ بقَطْعِ النَّظر عن المُؤْتي؛ إذ المرادُ ههنا بيانُ حالِ الذين يُعرَضون على الله تعالى.

العنايةُ بِشَأْنِ الإتيانِ بقطعِ النَّظرِ عن المُؤْتي؛ لاقتضاءِ المقامِ ذلكَ

دلالة الباء في ﴿بِشِمَالِهِۦ﴾:

الباءُ في ﴿بِشِمَالِهِۦ﴾ من قول الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ دالَّةٌ على الملابَسَةِ، أي: يُؤتى كتابَه ملابسًا لشِمالِهِ، ويجوزُ أن تكون للاستعانَةِ، أي: يُؤتى كتابهُ مستعينًا بالشِّمال في تسلُّمِه.

الشِّمالُ عُنْوانٌ للخِزْيِ والشَّرِّ

دلالةُ الإيتاءِ بالشِّمالِ في السّياقِ:

إيتاءُ الكتابِ بالشِّمالِ في الآية ليس مجرَّدَ بيانٍ لجهةٍ في التَّناول، بل هو في لغة العرب وعاداتِهم كنايةٌ عن الخِزْيِ والذُّلِّ، وذلك يُلائِمُ مقامَ الإذلالِ والحُزْنِ في الآية؛ ولذلك لم يُحتَجْ إلى التَّصريح بأنَّ هذا الكتابَ كتابُ خسارةٍ، بل يكفي بيانُ أنَّهُ يُؤتى بالشِّمالِ؛ ليفيدَ ذلك، على ما في عُرْفِهم وبَلاغَتِهم.

التَّناوُلُ بالشِّمالِ رمزُ الذُّلِّ والخسارةِ

بلاغةُ الإيجاز بالحذف في: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ كلامٌ محذوفٌ اقتضاه مقامُ التَّفصيل، وتقديره: (فيُؤتى كلُّ أحدٍ كتابَ أعماله، فأمّا من أوتيَ ... وأمّا من أوتي كتابَهُ بشماله)، وهذا الحذفُ من دقائق الإيجاز القرآنيِّ؛ إذ طويَ ما يُفهم ضِمْنًا؛ ليُبنى عليه تفصيلُ حالِ أهلِ الشَّقوَةِ بعد بيانِ حالِ أهلِ السَّعادةِ.

حذفٌ بليغٌ زادَ المشهَدَ رَهْبَةً

نوع الفاء ودلالتها في: ﴿فَيَقُولُ﴾:

الفاءُ في ﴿فَيَقُولُ﴾ من قول الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ﴾ رابطةٌ لجواب الشَّرطِ[1]، ولا

الإشعارُ بسُرْعَةِ الحُزْنِ وامتلاءِ النَّفس بالخَيْبَةِ والخِزْيِ

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 199.

تخلو مِن معنى التَّعقيبِ أيضًا، فيكونُ فيها إشعارٌ بترتُّبِ القولِ المذكورِ على إيتاءِ الكتاب بالشِّمالِ، وذلك حاصلٌ من أوَّل زَمَنِ هذا الإيتاء؛ لما امتلأت به النَّفسُ مِنَ الحُزْنِ والخِزْيِ بهذا الجزاءِ المستحَقِّ.

دلالةُ التَّعبير بالقَوْلِ مادَّةً وصيغَةً:

إظهارُ الخِزْيِ والنَّدامَةِ

مادَّةُ القول دالَّةٌ على النُّطْق[1]، ففيه مَعنى الإظهارِ والإعلانِ، والتَّعبيرُ به في قول اللّه سُبحانَهُ: ﴿فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ﴾ دالٌّ على إظهارِ النَّدامَةِ والخزْيِ.

والتَّعبيرُ بفعل القولِ مضارعًا، إشعارٌ بتكرُّرِ إظهارِه الحُزْنَ، كما أنَّ فيه تصويرًا لهذا القولِ في صورةِ الواقعِ الآنَ؛ زيادةً في التَّرهيبِ منْهُ، ومبالغةً في تبشيعِهِ.

توجيه المتشابه اللَّفظيِّ:

عاقبة الإعراض عَن الكتابِ أن يُؤتى المرءُ كتابَهُ بإهانَةٍ

قال اللّه تعالى هنا: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾، وقال في موضع آخرَ: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠﴾ [الانشقاق: 10]، فذُكِر مرَّةً أنَّه يُعطى كتابَه بشِماله، وأخرى من وراء ظهره، ولا تنافيَ بينَ المَوْضِعَين؛ ذلك أنَّ الشِّمال تَمدُّ إلى الوراء، فيكون التَّسلُّم بالشِّمال ومِن خَلْفِ الظَّهر معًا، فهما في موقعَيْ تصويرٍ لحالٍ واحدةٍ من الذُّلِّ والخذلان؛ إذ يُعطى كتابَه بطريقةٍ مُهينة تُظهر انقطاعَ الحولِ والقوَّة، ومن دقائقِ التَّناسب: أنَّ هذا المشهد الأُخْرَويَّ يوازي سلوكَه في الدُّنيا حين أعرض عن كتاب اللّهِ تَعالى، وجعله وراء ظهره، فجاء الجزاءُ من جنسِ العمَلِ؛ إذ عوقِبَ بأنْ أُعطيَ كتابَهُ من حيثُ وضَعَ هو كتابَ ربِّه، وهذا مِن تمام العدلِ الإلهيِّ، ومن بديع المُقابلة بينَ العمَلِ والجَزاء[2].

دلالَةُ افتِتاح مَقولِهِ بأسلوب التَّنبيه في: ﴿يَٰلَيْتَنِي﴾:

النِّداء يومَ الحَسْرَةِ يُجَسِّد انهيارَ الأمَلِ وانكِشافَ الخِزْيِ

قوله: ﴿يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ﴾ جيءَ به بأسلوب التَّنبيه المؤكِّد

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قول).

(2) ابن عثيمين، تفسير جزء عمّ، ص: 114.

للتَّمنّي في: (ليتني)[1]، وهو دالٌّ على شدَّة الحسرةِ والنَّدم وعِظَم الفجيعة، كما يدلُّ على استدعاءِ الانتباهِ والتَّهييج النَّفسيِّ، فعبارة ﴿يَٰلَيۡتَنِي﴾ توظَّف هنا بلاغيًّا؛ لتنبيه السّامع إلى ما سيأتي من تمنٍّ شديد، فهي بمنزلةِ صرخةٍ من الأعماق، تعكس الاضطرابَ النَّفسيَّ والفزع الذي يعيشه هذا الإنسانُ يومَ القيامة، فاستعمالُه لتلك الكلمة ﴿يَٰلَيۡتَنِي﴾ يدلُّ على انقطاع رجائه تمامًا، فهو لم يتمنَّ الهلاكَ فحَسْبُ، بل يتمنّى أنْ لم يؤتَ كتابه أصلًا؛ لِما يراه من شدَّة الخِزْي والفَضيحَة، وهذا الافتتاحُ بجملة: ﴿يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ﴾ هو مجرَّد تمهيدٍ لتصاعدِ الأماني المُرَّة، حيث بدأ هذا الأسلوب النَّدَميُّ بـ ﴿يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ﴾، ثُمَّ توالت بعده تَمَنّياتٌ أشدُّ وأفجعُ، بما يجعل هذا النِّداء بمنزلةِ مدخَلٍ شعوريٍّ إلى سلسلة من الصَّرخات العَقيمةِ التي تعكِس البُؤْسَ الكاملَ.

الـخـــزي مـن الـذّنـب لا يقلُّ وقْعًا عَن لهيبِ العذابِ

وهذه الأُمنيّةُ تكشف أنَّ ما يعتصره من ألم بسببِ الفضيحة والعار، أشدُّ في نفسه من حرِّ النّار نفسِها، حتّى تمنَّى العذاب بلا اطِّلاعٍ، لا لشيءٍ إلّا ليَهرُب من لحظةِ المواجهة المؤلمة مع ما اقترفَتْ يداه.

وهو إشارةٌ إلى أنَّ بعض صور العذاب الأخرويِّ ليست حسّيَّةً فقط، بل قد تكون معنويَّةً وروحيَّةً تتعلَّق بفضيحة الذّنب وشناعة الذكرى، وهذا من تمام عدل اللّهِ تَعالى؛ إذ يُعذَّب الإنسانُ بأثر عمله في نفسِه، كما يُعذَّب في جَسَدِه[2].

دلالَةُ التَّعبير بأسلوب التَّمنّي في: ﴿يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ﴾:

الاطِّـــــلاعُ على كـتـابِ الـسّـوءِ أشدُّ على النَّفسِ من وقْعِ العذابِ ذاتِه

إنَّ تَمَنّيَ مَن أوتيَ كتابَه بشِمالِه ألّا يُؤتاه أصلًا في قوله: ﴿فَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ﴾ صادرٌ من إدراكه الفوريِّ لمآلهِ المُؤْلم، وانكشافِ مصيرِه المُحْزِن، فهو حينَ نظَرَ في كتابِه، ورأى ما سطَّر

(1) الخطيب وآخرون، التفصيل في إعراب التنزيل: 29/ 135.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 630.

فيه من الجرائمِ والذُّنوب؛ عَلِمَ أنْ لا مَهْرَبَ مِنَ العذاب، فتمنّى لو أنَّ ما كُتِبَ له لَمْ يَعلَمْ بهِ أصلًا؛ طلبًا لراحةِ النَّفس من التَّرقُّب المُرعب؛ إذْ إنَّ مجرَّد انتظار البلاء عذابٌ يفوق أحيانًا شدَّة وقوعِه. وهذه الحالُ النَّفسيَّة تصوِّر لنا كيف أنَّ العذاب الرّوحيَّ - مِن خجلٍ وندمٍ وفزعٍ وترقُّبٍ - قد يكون أقْسى مِنَ العَذابِ الحِسّيِّ[1].

دلالة النَّفي بـ ﴿لَمۡ﴾ دون (ما):

نُفيَ الإيتاءُ في قول اللّه تعالى: ﴿فَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ﴾ بـ ﴿لَمۡ﴾ دون (ما)؛ لِما في ﴿لَمۡ﴾ من تأكيدٍ للنَّفي وتقويةٍ لَهُ، فتكون مفيدةً لنفي الفعل الماضي نفيًا قاطعًا.

دلالَةُ التَّعبير بالفِعل ﴿أُوتَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

الـدَّلالـة على معنى الإذعـانِ والقَهْرِ للإيتاءِ

عُبِّر بفعل الإيتاءِ في قول اللّه تعالى: ﴿فَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ﴾؛ لِما يدلُّ عليه فعلُ الإيتاءِ مبنيًّا للمفعولِ هنا من الإكراهِ والإجبارِ، وأنَّه لا اختيارَ للمُعطَى في عَدَمِ تلقّي كتابِه، فيكون فيه معنى الإذعانِ والقَهْرِ. وجيءَ بالفعلِ مضارعًا؛ للدَّلالةِ على الاستمرارِ والدَّوامِ، وهو دوامُ النَّفي واستمرارُهُ، لا نفيُ الاستمرارِ.

موقع جملة ﴿وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ﴾ ممّا قبلها:

التَّمنّي المتكرِّر صـورةٌ ناطقةٌ بشدَّة الحَسْرَة وعُمْق النَّدم

جاءت جملة: ﴿وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ﴾؛ تعبيرًا عن حال صاحبِ الشِّمال حين اطَّلع على كتابه، وهي إمّا حال معترضَةٌ بين جُمْلَتَي التَّمنّي؛ لتُظهِر أنَّه كان مُنْكِرًا للحساب في دنياه، فظهر كذِبُه بعد فوات الأوان، وإمّا عطفٌ على التَّمَنّي، أي: يتَمَنّى لو لم يعلم شيئًا عن حِسابه، ولم يُدرِكْ حقيقتَه؛ ترفُّقًا بنفسِه وتخفيفًا عن لوعةِ ما رأى. وإعادةُ التَّمنّي هنا في المعنى على وجهِ العَطْفِ، من التَّكرار البيانيِّ الذي فيه مبالغةٌ في تصوير الحُزن وتعميق الإحساس بالنَّدم والخِزي[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 135.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 135.

دلالة عطف جملة: ﴿وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ﴾ على ما قبلها:

محاسبة الكافر إقامةٌ للحجَّة وعدلٌ من اللهِ العظيم

جملة: ﴿وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ﴾ داخلة في حيِّز مقولِه وتندُّمه، وهي معطوفة على: ﴿يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ﴾، كأنَّه قال أيضًا: (وياليتني لم أدرِ ما حسابيه)، وإدخاله هذا المعطوف في حيِّز تمنّياته يدلُّ على أنَّ الكافر يُحاسَب يوم القيامة، وهو ما تؤكِّده خاتمة الآيات: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ﴾، فالحساب مذكورٌ مقرونًا بكفره، ممّا يدلُّ على أنَّ الكافر يوقَف ويُسأل عن أعماله، وإن لم يكُن له فيها مثقالُ ذرَّة من الإيمانِ تَنۡفَعُه. وهذا الحسابُ ليس على جهة التَّقرير لِثَوابه، بل على جهة إقامة الحجَّة عليه وبيان عظيم تقصيرِه وعُدۡوانه؛ ليكون جزاؤُهُ عن عِلۡم ويقينٍ مِنۡهُ، فكما أنَّ المؤمن يُحاسَبُ ليُكۡرَم، فالكافر يُحاسَبُ ليُهانَ، وكلٌّ يَلقى جزاءَه بعدۡلِ اللّٰهِ تَعالى وحكمته[1].

دلالة النَّفي بـ (لَمۡ) دون (ما):

تقويةُ النَّفي وتأكيدُهُ

نُفيَ فعل الدِّرايةِ في قول اللّٰه تعالى حكايةً عن مقالةِ الكافرِ في الآخرةِ: ﴿وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ﴾ بـ (لم) دون (ما)؛ لِما تدلُّ عليه (لَمۡ) من تأكيدِ النَّفي وتَقۡويَتِه، فتكون مفيدةً لنفي فعل الدِّرايةِ نفيًا لا تردُّدَ فيه.

دلالة التَّعبير بالفعل المضارع ﴿أَدۡرِ﴾:

دوامُ النَّفي واستمرارُهُ

عُبِّر بفعل الدِّرايةِ مضارِعًا في قول اللّٰه تعالى: ﴿وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ﴾؛ لِما في الفعلِ المضارعِ مِنَ الدَّلالةِ على الاستمرارِ والدَّوام، فقوله: ﴿وَلَمۡ أَدۡرِ﴾ دالٌّ على دوام النَّفي واستمرارِهِ لا نفيِ الاستمرارِ.

دلالةُ الاستفهامِ في: ﴿مَا حِسَابِيَهۡ﴾:

بيانُ شدَّةِ العذابِ وهَوۡلِهِ

الاستفهامُ في قوله: ﴿وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ﴾ ليس حقيقيًّا يُراد به طلبُ العِلۡم بشيءٍ لم يكن معلومًا مِن قبلُ، وإنَّما هو استفهامٌ يُرادُ به التَّهويلُ، وهو دالٌّ على أنَّ الحساب الذي اطَّلع عليه شديدٌ مُفزِع،

(1) القصاب، النكت الدالة على البيان: 4/ 396، وابن تيمية، مجموع الفتاوى: 4/ 305.

خارجٌ عن حدود التَّحمُّل، فهو يُعظِّم أمر حسابِه ويهوِّله، في محاولةٍ يائسَةٍ للهُروب من واقعٍ لا يُطاق، وكأنه يقول: (أيُّ حسابٍ هذا الذي لقيتُه؟) فالاستِفهام هنا يعبِّر عن رُعْبِ المُفاجأةِ ووقْعِ المصير، لا عن رغبةٍ في المعرفة[1].

دلالةُ الإضافةِ في: ﴿حِسَابِيَهۡ﴾:

توكيدُ حتميَّةِ الحسابِ

إضافةُ الحساب إلى ياءِ الضَّمير في ﴿حِسَابِيَهۡ﴾ مِن إضافة المصدرِ إلى مفعولِه، فإنَّ العَبْدَ محاسَبٌ، والمعنى: الحسابُ الواقعُ عليَّ، وهذه الإضافةُ تُؤكِّدُ اختصاصَ الجزاءِ بالعَبْد نفسِه دونَ غيرِه؛ لتعلُّقِ الحسابِ بأعمالِه هوَ، فكما أنَّ أعمالَهُ مُختصَّةٌ بِهِ، فكذلك الحسابُ على تلكَ الأعمالِ يختصُّ بِهِ.

بـلاغَـةُ المُقـابـلَةِ بـينَ ﴿وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ﴾ وبـين: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ﴾:

المقابلَةُ بينَ يَقينِ المُؤْمِنِ وغفلَةِ الكافِرِ

قوبِلَ بين ﴿وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ﴾؛ حكايةً لكلام الكافِرِ الشَّقيِّ، وبين ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ﴾؛ حكايةً لكلام المؤمِنِ السَّعيد، وذلك لِما يدلُّ عليه الأوَّلُ - ﴿وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ﴾ - مِنَ الغفلة، وما يُفيدُهُ الآخرُ من اليقينِ، فالسَّعيدُ كان في الدُّنيا على يقينٍ من لقاءِ اللّهِ تعالى للحسابِ، فعَمِلَ لذلكَ اليوم، واستعدَّ لهُ بالأعمال الصّالحاتِ، بخلاف الشَّقيِّ فإنَّه كان غافِلًا عنه مُنْكِرًا لَهُ، فأغرقَ في الباطِلِ حتّى وافى القيامَةَ بسيِّئاتٍ كأمثالِ الجبالِ، وليس لَهُ حسنَةٌ، فكان جهلُهُ وغفلتُهُ سببَ هلاكِه وحَتْفِه.

الموقع البيانيُّ لجملةِ: ﴿يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ﴾:

الـتَّـمـنِّـيـاتُ البائِسَةُ لا تُنْقِذُ مِـنَ الـعـاقـبـةِ الوخيمةِ

الجملةُ في قوله تعالى: ﴿يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ﴾ تمنٍّ ثانٍ يصدر عمَّن أوتيَ كتابَهُ بشمالِه، وقد أوتي به من غير عطفٍ على التَّمنّي الأوَّل: ﴿يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ﴾؛ لكون الغرضِ منهُما واحدًا، وهو

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 201.

شدَّة التَّحسُّر، لكنْ كأنَّ كلَّ تمنٍّ ينبعثُ مِن حُرْقَةٍ جديدة وندم أعمق، فالأوَّل تَمَنَّى فيه أنْ لو لم يُؤتَ الكتابَ أصلًا، والثّاني تَمَنَّى فيه لو كانت تلك الحياةُ الماضيَةُ القاضيَةَ على أمرهِ قد أنْهَت وجودَهُ نهائيًا، أي: ليت الموتةَ التي أماتَتْهُ كانت هي القاضيةَ بلا بعثٍ ولا نُشور، وتركُ العطف بين التَّمنّيَيْنِ يُبرز تتابع الحَسرات وتجدُّدَها بلا توقُّف، حتّى صارت كلُّ واحدة منها كأنَّها نازلةٌ قائمة بذاتِها، لا يلحَقُها ما قَبْلَها[1].

دلالة النِّداءِ في ﴿يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ﴾:

بلوغ الشَّقيِّ من اليأسِ مبلغًا عظيمًا

أسلوبُ النِّداءِ في ﴿يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ﴾ يُرادُ به التَّحسُّر والنَّدَم، وإخراجُ ذلك في صورة النِّداءِ أوقعُ في النَّفسِ، وأشدُّ تهييجًا للوجدانِ؛ إذ يُصوِّر النظمُ القرآنيُّ الشَّقيَّ في الآخرةِ في صورة مَن بلغَ مِنَ اليأس مبلغًا عظيمًا لم يبقَ مَعَهُ إلّا أن يُصدِرَ كلامًا محضًا.

دلالة (أل) في ﴿ٱلۡقَاضِيَةَ﴾:

عظيمُ الفَزَعِ الذي يَحمِلُه الشَّقيُّ في الآخِرَة

(أل) في ﴿ٱلۡقَاضِيَةَ﴾ مِنْ قول الله سُبحانَهُ حكايةً عن الشَّقيِّ: ﴿يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ﴾ دالَّةٌ على الكمالِ، فهو يتمَنّى أن لو كانت المَوْتَة التي ماتها في الدُّنيا هي الكاملة في القضاء عليه؛ بحيث لا يَحْيا بعدها لحسابٍ ولا جزاءٍ، وهذا دالٌّ على عظيم الفَزَعِ الذي يحمِلُهُ المجرِمُ الشَّقيُّ؛ إذ لم يتَمنَّ النَّجاةَ أو تخفيفَ العذابِ؛ لبُعْدِهِ عن ذلك، بل يتَمَنّى انعدامًا كاملًا.

دلالَةُ كون ﴿يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ﴾ من جوامع الكَلِم:

الحسرةُ تختزلُ العذابَ في أُمنيَّة الفناءِ

جملة: ﴿يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ﴾ من جوامع الكَلِم الصّالحة لأن تُضرَب مثلًا، لإيجازِها اللَّفظيِّ وغزارةِ مَعْناها، فهي في غايةِ البَلاغة في تَصْوير الحَسْرَة؛ إذ تُعبِّر عن أشدِّ ما يتمنّاه المرءُ حين يطولُ عليه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 135.

العذاب، ويشتدُّ عليه الهوان، فيقول بأوجز عبارةٍ وأشدِّها إيلامًا: ليت تلك الموتةَ كانت النِّهاية، بلا نشورٍ ولا حسابٍ، وهذا الأسلوبُ يَحْمِلُ طابعًا عربيًّا فصيحًا مألوفًا في مقام الحَسْرَة، فجاءت الآيةُ تعبِّر عن حالِ أهلِ الشِّمال بلغةٍ تتناسَبُ معَ ما يُقال في الدُّنيا عند شدَّة التَّحسُّر، ممّا يُقوّي التَّأثير، ويُظهر ما في النُّفوس مِنَ النَّدم[1].

دلالة ﴿مَآ﴾ في قوله: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ﴾:

التَّوبيخُ الذّاتيُّ يَجعلُ المالَ حَسْرَةً فوق العذابِ

قوله تعالى: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ﴾ يحتمل وجهين، أحدهما: أن يكون نفيًا محضًا، أي: لم يُغنِ عنّي شيئًا، فحُذِف المفعولُ به؛ تعميمًا في النَّفي، أي: لم يُغنِ عنّي مالي في نفعٍ قطُّ، لا في دفعِ الهلاك، ولا في تخفيفِ العذاب، فجاء ذلك على جهةِ التَّحسُّر والتَّأسُّف، والوجه الآخَرُ: أن يكون استفهامًا إنكاريًّا، أُريد به التَّوبيخ الذّاتيُّ والتَّقريع للنَّفس، فيقولها - حينئذٍ - على وجهِ اللَّوم لنَفْسِه التي اعتمدَتْ على المال وخَدَعَتْها زخارفُ الدُّنيا، فهو الآن يُذكِّرها بمآل اعتمادِها الخادع، كأنَّه يقول لها: أهَذا هوَ الذي كنتِ تَرْكَنين إليه[2]؟.

دلالة التَّعبير بـ ﴿أَغۡنَىٰ﴾ مادّةً وصيغةً:

لا يَنْفَعُ الكافرَ مالُهُ في الآخرة

مادَّةُ الغَناء تدلُّ على الكفايةِ، والتَّعبيرُ بها في قول اللّٰه ﷻ: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ﴾ مفيدٌ أنَّ الكفايةَ التي كانَ يعيشُها في الدُّنيا بمالِه، لَم يجدْ شيئًا مِنْها في الآخرةِ، كما أنَّ فيه إيماءً إلى انتفاءِ الغرضِ الذي مِنْ أجلِهِ يَجْمَعُ العبدُ المالَ، وفي إيثار الفِعْلِ الماضي دلالةٌ على تحقُّقِ نفيِ الإغناءِ عنهُ.

مَعنى (عَن) في ﴿عَنِّي﴾ ودلالتُها:

(عَنْ) في ﴿عَنِّي﴾ من قول اللّٰه تعالى: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ﴾

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 136.

(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 604، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 241، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 26، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 136، ودرويش، إعراب القرآن: 10/ 201.

حرفٌ دالٌّ على المجاوزَةِ، والمعنى: أنَّ المالَ لم يدفَع عنّي العذابَ، ولم يُبعِدْه منّي، ولم يتجاوَزْ بي مواضعَ الهلاكِ.

نُكْتَةُ تقديم الجارِّ والمجرورِ ﴿عَنِّي﴾:

الاهتمامُ بالمُقَدَّم والتَّشويق إلى المُؤَخَّر

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ ﴿عَنِّي﴾ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ﴾، وأصلُ التَّركيب: ما أغنى مالي عنّي؛ للاهتمام بشأنِ المقدَّم، وهو نفسُ الشَّقيِّ المجرم؛ ليُعْلَمَ أنَّه إذا لم يُغْنِ مالُهُ عَنْهُ؛ فعَدَمُ إغناءِ مالِهِ عن غيرِهِ مِنْ بابٍ أَوْلى وأحرى، كما أنَّ تقديمَ ﴿عَنِّي﴾ وتأخير ﴿مَالِيَهۡۜ﴾ أنسبُ لتناسُبِ الفواصلِ وتوافُقِها قبلُ في ﴿ٱلۡقَاضِيَةَ﴾ وبعدُ في ﴿سُلۡطَٰنِيَهۡ﴾.

دلالةُ الإضافة في ﴿مَالِيَهۡۜ﴾:

خذلانُ المالِ لصاحِبِه في أحوَجِ ما يكونُ إليهِ

الإضافةُ في ﴿مَالِيَهۡۜ﴾ من قول اللّه ﷻ: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ﴾ إضافة اختصاصٍ وتملُّكٍ، وفي هذه الإضافةِ إزراءٌ بحالِ الشَّقيِّ؛ إذ المالُ الذي جمَعَهُ، وتعِبَ في تحصيلِه، وافتخَرَ به؛ خذَلَهُ في أحوجِ ما يكونُ إليه، بل صارَ في الآخرةِ سببَ خِزْيِهِ وهلاكِهِ.

بلاغةُ التَّعريض بالمُوجودينَ في قولِهِ: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ﴾:

خيبةُ المتبوعينَ نارٌ فوق نارٍ لأتباعهم

قوله تعالى حكايةً عن الشَّقيِّ: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ﴾، تعيرُ يقولُه مَن كانَ في الدُّنيا ذا مالٍ وجاهٍ وسلطانٍ، وهذا التَّوجُّه يُبيِّن شدَّة الحسرة والانكسار التي تصيبُ هؤلاء المتكبِّرين عند انكشاف زَيْفِ ما كانوا يُعظِّمونه من زخارف الدُّنيا، وفيه تلميحٌ إلى سادة المشركين الذين كانت لهم الكلمةُ والسَّطوة، كأبي جهل وأميَّةَ بن خلَفٍ، فيصيرون عِبرةً وحسرةً لمَن اتَّبعهم واغترَّ بهم، ففي النَّظم الكريم تعريضٌ بهم وتسجيلٌ عليهم وتحذيرٌ لأتباعهم؛ إذ يرى التّابع حال المتبوع بعد أن كان يتوهَّم فيه العزَّ والمنَعَة، فإذا به ينهار بين يديه، فيزداد التّابع حسرةً على نفسه وعلى سوء اختياره، وفي هذا تلميح إلى قوله تعالى: ﴿وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ﴾ [المزمل: 11]،

أي: أصحاب المال والتَّرف الذين لم تَنْفَعْهُم دنياهُم شيئًا، فكيف بمَن كان تابعًا لهم[1]؟.

دلالةُ التَّعبير بِالهلاكِ مادَّةً وصيغةً:

زوالُ سُلطان الكافِرِ وفناؤُهُ

عُبِّر بفعل الهلاكِ في قول الله تعالى حكايةً لكلام الكافرِ: ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ﴾؛ لِما في الهلاكِ مِنْ دلالةٍ على الزَّوالِ والفناءِ التّامَّين، وذلك يدلُّ على اضمحلالِ سلطانِهِ وانعدامِهِ، لا على ضَعْفِهِ فحسبُ.

وفي التَّعبير بفعل الهلاكِ ماضيًا دلالةٌ على التَّحقُّق، وأنَّه شيءٌ قد تَمَّ وانْقَضى، ولا مجالَ لاستدراكِهِ واسترجاعِهِ.

بلاغةُ المجازِ في قوله: ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ﴾:

إبرازُ المعنويِّ في صورة الحِسّيِّ أبلَغُ في الإفهامِ وأزجَرُ في الوَعْظِ

هلاكُ السُّلطان المذكور في قول الله تعالى: ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ﴾ يُرادُ به عدمُ الانتفاعِ بهِ في الآخرةِ، فيكون الهلاكُ مَجازيًّا[2]، ووجهُ ذلك أنَّه شُبِّه السُّلطانُ بجسْمٍ مِنَ الأجسامِ التي مِن شأنِها الهلاكُ، فحُذِفَ المشبَّهُ به، وتُرِكَ شيءٌ يدلُّ عليه - وهو الهلاكُ - على طريقةِ الاستعارةِ المَكنيَّةِ الأصليَّةِ، ويجوزُ أن تُجْرَى الاستعارةُ بوجهٍ آخرَ، وهو أنَّه قد شُبِّه عدمُ الانتفاعِ بالسُّلطانِ، بالأمْرِ الهالِكِ الذي لا قيمةَ لَهُ، بجامِعِ عَدَمِ الاعتدادِ بكلٍّ، فحُذِف المشبَّهُ، وصُرِّح بالمشبَّه بهِ، على طريقةِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ، وفي كليهما تصويرٌ للمعنويِّ في صورةِ المحسوسِ؛ ليكونَ أدعى للفَهْمِ وأعلقَ بالذِّهْنِ وأبلغَ في الوَعْظِ والتَّخويف.

مَعْنى (عن) ودلالتُها في ﴿عَنِّي﴾:

عـدمُ انـتـفـاعِ الكافرِ بسُلْطانِه

(عَنْ) في ﴿عَنِّي﴾ مِن قول الله تعالى: ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ﴾ حرفٌ دالٌّ على المجاوزَةِ، والمعنى: أنَّ السُّلطانَ تجاوزَهُ وبَعُدَ عَنْهُ، فلم يبْقَ لَهُ أدنى صلةٍ بهِ، ولا قدرة على استعادته.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 136.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 136.

دلالة التَّضمين في قوله: ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ﴾:

غيابُ أسبابِ القوَّةِ عن الكافر في لحظةِ المصيرِ

في قوله تعالى: ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ﴾ تضمينٌ دقيق؛ إذ أُضمر في ﴿هَلَكَ﴾ معنى (غاب)، فعدّي الفعل بـ (عن) على غير القياس، والمعنى: لم يَحْضُرْني سُلْطاني الذي كنت أعتمِدُه، وأعتزُّ به في الدُّنيا، فهو لا يملك لي اليوم نفعًا ولا دفعًا، وقد غاب عنّي بالكُلّيَّةِ في وقتٍ أنا أحوَجُ ما أكون فيها إلى العونِ، وهذا التَّعبير يكشف المفارقة المهلكَة بينَ ما كان يظنُّه الكافرُ مِن ثبات النُّفوذ، وبين تلاشيهِ الكُلّيِّ حين يُعرَض على ربِّه ﷻ[1].

دلالة الإضافة في ﴿سُلۡطَٰنِيَهۡ﴾:

شـدَّةُ حَسْرَةِ الكافر وعظيمُ نَدامَتِه

الإضافةُ في ﴿سُلۡطَٰنِيَهۡ﴾ مِن قول اللّه تعالى: ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ﴾ إضافةُ ملكٍ واختصاصٍ، وهذه الإضافةُ تقتضي شدَّةَ الحسرةِ والنَّدَم؛ إذ كان هذا السُّلطانُ سلطانَهُ الخاصَّ به، وقد ضاعَ مِنْهُ وهلكَ، كما أنَّ فيه إيماءً إلى عدم إمكانهِ إلقاءَ الملامَةِ على غيرِهِ؛ إذ الذي هلَكَ إنَّما هوَ شيءٌ مختصٌّ بِهِ هوَ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 136.

﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ۝٣٢﴾ [الحاقة: 30 - 32]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

بيانُ ما تقولهُ مَلائِكَةُ العذابِ للكافِرِ الشَّقيِّ

لمّا ذَكَرَ اللّٰهُ تَعالى ما يقولُهُ الكافِرُ الفاجِرُ الشَّقيُّ مِن جُمل النَّدامة والتَّحسُّر؛ أعقبَهُ بذكر ما يُقال للزَّبانية تعذيبًا لروحه بالتَّوبيخِ، ولجسدِهِ بنارِ جهنَّم، فقال تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَغُلُّوهُ﴾: أصلُ (غلل) يدُلُّ على تخَلُّلِ شَيءٍ وثَباتِ شَيءٍ[2]، تقولُ: غَلَلْتُ الشَّيْءَ في الشَّيْءِ؛ إذا أَثْبَتَّهُ فيه، كأَنَّهُ غَرَزْتَهُ، ومنه سُمّي الغِلُّ؛ لأنَّ الحِقْدَ يَتَخلَّلُ الصَّدْرَ[3]، والغُلُّ مختصٌّ بما يُقيَّد به، فيجعل الأعضاءَ وسطَهُ، وجمعه: أغْلالٌ، وغُلَّ فلانٌ: قُيِّد به[4]، والمراد بالغلِّ في الآية: ما تُرْبَطُ به اليدانِ إلى العنُق على سبيل الإذلال[5]، ومعنى ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾: فشُدّوه بالأغلالِ، واجعَلوها في عُنقِه، وقَيِّدوه، أو: اجمَعوا يدَه إلى عُنقِه بالأغلالِ[6].

2) ﴿صَلُّوهُ﴾: أصلُ (صلي) النّارُ وما أشْبَهَها مِنَ الحُمّى[7]، يُقال: صَلَيْتُ العودَ بِالنّارِ، وصَلَيْتُ اللَّحْمَ - بالتَّخفيفِ - على وجْهِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 368.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غل).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن سيده، المحكم، وابن الأثير، النهاية، وابن منظور، لسان العرب: (غل/ غلل).
(4) الراغب، المفردات: (غل).
(5) طنطاوي، التفسير الوسيط: 15/ 81.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غل)، والواحدي، الوسيط: 4/ 347، وابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 361، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 272.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صلى).

الصَّلاحِ، مَعْناهُ: شَوَيْته، فأمّا أصْلَيْتُه، وصَلَّيْتُه؛ فَعَلى وجْهِ الفَسادِ والإحْراق[1]، فأصلاه النّارَ، وصلّاه إيّاها وفيها وعليها: أدخله إيّاها، وأثْواه فيها، وتصلّاها: قاسَى حرَّها، والصِّلاءُ: يُقالُ للوَقود وللشِّواء[2]، والصَّليُ في الآية معناه: الوُرودُ على النّار والغَمْسُ فيها، والمراد: بالِغوا في تَصْليَتِه النّار، بغَمْسِه فيها مرَّةً بَعْدَ أُخرى[3].

3) ﴿سِلۡسِلَةٖ﴾: أصلُ (سلل) أصلٌ واحد، وهو مَدُّ الشَّيء في رِفق وخَفاء، ثمَّ يُحمَل عليه، ومن ذلك السِّلْسِلَة، سُمّيت بذلك؛ لأنَّها مُمتدَّة في اتِّصال، قال بعضُ أهل اللُّغة: السِّلسلة اتِّصال الشَّيء بالشَّيء، وبذلك سُمّيَت سِلْسِلَة الحديد، وسِلسِلة البرق المستطيلة في عَرض السَّحاب[4]، والسَّلاسِلُ جمعُ سِلسِلة، ورَمْلٌ ذو سَلاسِل، وهو تَسَلْسُلُه الَّذي يُرى في التوائِه[5]، والسِّلْسِلَةُ: اسمٌ لمَجْموعَةٍ من حِلَق الحديد، يُربَط بها الشَّخص لكيْ لا يهرب، أو لكي يزاد في إذْلالِه، وهو المُرادُ هنا[6].

4) ﴿ذَرۡعُهَا﴾: أصلُ (ذرع) يدلُّ على امتدادٍ وتحرُّكٍ إلى قُدُم، ثمَّ تُرجع الفروعُ إلى هذا الأصل[7]، فالذِّراع: العضو المعروف، ويُعبَّر به عن المَذروع، أي: المسوح بالذِّراع، والرَّجلُ يُذَرِّعُ في ساحتِه تذريعًا؛ إذا اتَّسع، وكذلك يتذرَّع، أي: يتوَسَّع كيف شاء[8]، والذَّرْع يوضَعُ مَوضِع الطّاقَة، وحقيقتُه أنَّ يذرع البعير بيديه في سَيْرِه ذرعًا، على قدر سعَةِ خَطْوِه، فإذا حُمِلَ عليهِ أكثرُ من طاقَتِه ضاقَ عن ذلك وضَعُفَ، ومَدَّ عنقه، فضيقُ الذَّرع عبارةٌ عن ضيق الوُسْع[9]، والذَّرْعُ في الآية معناه: كَيْلُ طولِ الجِسْمِ بالذِّراعِ، وهو مِقْدارٌ مِنَ الطّولِ مُقَدَّرٌ بِذِراعِ الإنسانِ[10].

5) ﴿فَٱسۡلُكُوهُ﴾: أصلُ (سلك) يدلُّ على نُفوذِ شَيءٍ في شَيءٍ، والسَّلْكُ - بالفَتْحِ -:

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (صلى).
(2) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (صلى).
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 15/ 81.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سلّ).
(5) الخليل، العين: (سل).
(6) طنطاوي، التفسير الوسيط: 15/ 81.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذرع).
(8) الخليل، العين: (ذرع).
(9) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (ذرع).
(10) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 138.

مَصْدَرُ سَلَكْتُ الشَّيْءَ في الشَّيْءِ، فانْسَلَك، أي: أدخلته فيهِ فَدَخَلَ، واللّه يَسْلُكُ الكفّارَ في جَهَنَّمَ، أي يُدْخِلُهُمْ فيها(1)، والسُّلوكُ: النَّفاذُ في الطَّريق، يُقالُ: سَلَكْتُ الطَّريقَ، وسَلَكْتُ كذا في طريقه، قالَ تعالى: ﴿لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ٢٠﴾ [نوح: 20](2)، والسِّلْكُ: الخُيوطُ، والواحِدَةُ: سِلْكَةٌ، وجَمْعُه: سُلوكٌ(3)، والمقصود بالسَّلْكِ في الآية: الإدخالُ، وذلك بأنْ تُلَفَّ عليه السِّلْسِلَةُ، فيكونَ في وسَطها، والمرادُ: جَعْله في الجحيم مُكبَّلًا في أغلاله(4).

المَعْنى الإجْماليُّ:

فظاعَةُ العَذابِ في الآخِرَة

حين يُعْطى المجرمُ الشَّقيُّ كتابَه بشمالِه، ويندَم على ما بَدَرَ منهُ، تُؤمر الملائكة، فيُقال لَهُم: خُذوهُ فشدّوا يديهِ إلى عنُقه بالأغلال، ثُمَّ أَدْخِلوه الجحيم، وأَصْلوهُ حرَّها، ثُمَّ أَدْخِلوهُ في سلسلةٍ عظيمة الطّول تُقدَّر بِسَبْعينَ ذراعًا، تَسْلُك في جسدهِ دُخولَ الخَيْطِ في الخَرَزَةِ(5).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

موقع جملة: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ ممّا قبلَهُ:

أمْرُ اللهِ تَعالى الملائكةَ أن يُقَيِّدوه بَعدَ انكِشافِ مَصيرِه وهَوانِهِ

قوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ مقولُ قولٍ محذوفٍ يفيد الحالَ، تقديره: يُقالُ للملائكةِ الموكَّلين بالعذاب: خذوهُ، وهذه الجملةُ تبيِّن ما يَجري بعد تحسُّر الكافر وندمِه، وتجيب ضِمنًا عن سؤالٍ مقدَّر: ماذا يُفعَل به بعد هذا الاعترافِ والنَّدم؟ فالجواب: أنَّ الملائكة تُؤمَر بأخذه وتقييده بالأغلال، وعلى هذا فالجملة استئنافٌ بيانيٌّ، يصوِّر انتقالًا حاسمًا من مشهدِ التَّحسُّر إلى مشهد العقوبة، وفي الأمر الإلهيِّ المباشر بالقبض عليه توبيخٌ وإذلالٌ يجسِّد جزاءَهُ العادلَ(6).

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (سلك).
(2) الراغب، المفردات: (سلك).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة: (سلك).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 137.
(5) أبو بكر الجزائري، أيسر التفاسير: 5/ 426.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 137، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 202.

دلالةُ التَّعبير بفِعْلِ الأَخْذِ:

في التَّعبير بفعل الأَخْذِ من قول اللّه تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ إيماءٌ إلى القوَّة والقَهْرِ في التَّعذيبِ، وذلِّ المعذَّب وهوانِهِ، وعَجْزِه الكامِلِ، وانتفاءِ القُدرةِ على الدِّفاعِ عن نفسِهِ.

دلالَةُ الفاءِ في قولِهِ: ﴿فَغُلُّوهُ﴾:

الإسراعُ بِعُقوبَةِ الكافِرِ دلالَةٌ على هَوانِهِ عندَ الله تَعالى

قوله: ﴿فَغُلُّوهُ﴾ عُطف على قوله: ﴿خُذُوهُ﴾ بالفاء الدّالَّة على التَّعقيب؛ لإفادة التَّتابع السَّريع بين الأخذ والإغْلالِ، فلا مهلةَ ولا إمهالَ، بل يُبادَر بعقابه فَوْرَ القَبْضِ عليه، ممّا يدلُّ على سرعة الإهانة، وأنَّه لا يُنتظَر له قولٌ، وفي ذلك إشارة إلى أنَّ هذا الإنسان الذي كان في الدُّنيا متسلِّطًا متكبِّرًا، يُعامَل يوم القيامةِ بأقْصى صوَرِ المذلَّة والاحتقار، فالإغْلالُ يأتي فورًا بعد الأَخْذِ، جزاءً وفاقًا[1].

دلالَةُ التَّعبيرِ بالفعل (غُلّوه) مادَّةً وصيغةً:

شــدَّةُ إهـانَـةِ الـكـافـرِ وإذلالـهِ في الآخِرَة

في التَّعبير بالفعل (غُلّوه) من قول اللّه سُبحانَهُ: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ دلالةٌ على الإحاطَةِ والإحكامِ والإذلال؛ إذ الغُلُّ هو القَيْدُ الذي يُجْعَلُ في العُنُقِ محيطًا بهِ، وهذا يقتضي الإهانَةَ والإذلالَ الشَّديدَيْن.

وفي اختيار فعْلِ الأمرِ إيماءٌ إلى سرعةِ امتثالِ ملائكةِ العذابِ إلى فعل ما أُمِروا بِهِ من الأخذِ والإغلالِ.

سِرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿ثُمَّ﴾ في قولِه: ﴿ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾:

﴿ثُمَّ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ دالَّةٌ على التَّراخي الرُّتَبيِّ؛ وذلك لأنَّ مضمونَ هذه الجملةِ أشدُّ في العذابِ مِن أَخْذِه ووضعِهِ في الأغلالِ[2].

دلالَةُ (أل) في ﴿ٱلۡجَحِيمَ﴾:

عِـظَـمُ الـحَـرِّ والإحـراقِ في نارِ جَهَنَّم

(أل) في ﴿ٱلۡجَحِيمَ﴾ مِنْ قول اللّه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 137.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 137.

للعَهْدِ العلميِّ، والمرادُ بها نارُ جهنَّمَ المعهودةُ في النُّصوص الشَّرعيَّةِ كتابًا وسنَّةً، ويجوزُ أن تكون اللّامُ دالَّةً على الكمالِ، أي: الجحيمُ البالِغةُ في الشِّدَّةِ والحرِّ والإحراقِ الغايةَ، حتّى كأنَّ غيرَها ممّا فيه هذا الوصفُ ليسَ بشيءٍ بالنِّسبةِ إليها.

نكتَةُ تقديمِ المفْعولِ في قوله: ﴿ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾:

يُقدَّم ذِكْرُ العذابِ لإدخالِ الهَوْلِ قَبْلَ الوُقوعِ فيهِ

جاء تقديم المفعول به ﴿ٱلۡجَحِيمَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ على الفعل ﴿صَلُّوهُ﴾ لغرض بلاغيٍّ مؤثِّر، وهو تعجيل ذِكْرِ ما يسوء ويُفزع، فجاء ذِكْرُ الجحيم أوَّلًا لإدخال الرُّعب قبل أن يُذكَر الفِعْلُ، فيَتَهَيَّأ السّامع لفظاعَةِ المَآل، وهذا من أساليب القُرآن في رَسْمِ المَشْهَدِ النَّفسيِّ قبل المادّيِّ[1].

سرُّ التَّعبير بالفعلِ ﴿صَلُّوهُ﴾ مادَّةً وصيغةً:

الإدخالُ الكامِلُ في نارِ جَهَنَّم

اختيرَ الفعلُ ﴿صَلُّوهُ﴾ مِنْ قول الله سُبحانَهُ: ﴿ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾؛ لدلالَتِه على مباشرةِ النّارِ والإحراق بها، فهو إدخالٌ كاملٌ وغمرٌ تامٌّ في الجحيم، وفي التَّعبيرِ بفعْلِ الأمرِ إيماءٌ إلى سرعةِ امتثالِ ملائكةِ العذابِ إلى فعل ما أُمروا بِهِ من تصليةِ هذا الكافرِ في النّارِ.

دلالة ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ﴾:

تَصاعُدُ مراتِب العذابِ لإظهار شناعَةِ المَصير وكمال الإهانَةِ

جاءت ﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّراخي الرُّتبيِّ لا الزَّمنيِّ؛ إذ ليس المقصودُ التَّرتيبَ الزَّمنيَّ المحضَ، بَل بيانُ أنَّ ما سيأتي أعظمُ هولًا ممّا سبقه، فقوله: ﴿فَغُلُّوهُ﴾ يدلُّ على تقييده، و﴿صَلُّوهُ﴾ يدلُّ على إدخاله النّارَ، لكن حين يُسْلَك في سلسلةٍ طولُها سبعون ذراعًا، فهذا أفظَعُ وأشدُّ، لا من حيث الألم فقط، بل من حيثُ الإذلالُ والمهانة والاشتمال على العذاب الكامِل، فالتَّصعيد في وصف العذاب مقصودٌ به تهويلُ المشهد وإرهابُ السّامع[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 138.

(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 605، وأبو حيان، البحر: 10/ 262، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 26، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 137، ودرويش، إعراب القرآن: 10/ 202.

تنقُّل الكافر بين أطوار العذاب يزيدُ مِن شدَّة بلائه وعمقِ مَأساته

ويجوزُ إبقاء ﴿ثُمَّ﴾ على معناها الأصليِّ في التَّراخي الزَّمَنيِّ؛ إذ يُفهم من التَّرتيب أنَّ هذا الكافر لا يُعذَّب دفعةً واحدة، بل يُؤخذ أوَّلًا فيُغلُّ، ثُمَّ يُمهل لحظة قبل صَليه الجحيم، فينشأ له وهمُ الرّاحة المؤقتة؛ ليُفجَع بعدها بالتَّصلية، ثُمَّ بعد تَحَمُّله حرارة الجحيم يُنقل، وفي نقله شيءٌ مِنَ التَّنفُّس، فيُخيَّل إليه انفراجٌ، ليُسْلَكَ أخيرًا في سلسلةٍ لا حراك فيها ولا مهربَ، فيُحكم عليه بالعذاب التّامِّ المحيط، وهذا التَّدرُّج الزَّمانيُّ يزيد العذابَ وقعًا، ويجعل الرَّهبة تتضاعَفُ؛ إذ العذابُ حينَ يُقطَّع مراحلَ، يكون كلُّ طورٍ فيه أدهى مِن سابقه(1).

نكتةُ تقديمِ المتعلِّق على العامل في قولِه: ﴿فِى سِلۡسِلَةٍ﴾:

جاء التقديم في قوله تعالى: ﴿فِى سِلۡسِلَةٍ﴾ على العامل ﴿فَٱسۡلُكُوهُ﴾، إمّا تعجيلًا للمساءة، أو تخصيصًا بألّا تُسلِكوه في غيرها، دلالةً على أنَّ هذه السِّلسلة بعينها قد أُعدَّت له، فهي أداةُ عذابٍ مخصوصةٌ تليقُ بِمقامِه(2).

دلالةُ تنكير لفظِ ﴿سِلۡسِلَةٍ﴾:

نُكِّر لفظُ ﴿سِلۡسِلَةٍ﴾ من قول اللّه سُبحانَهُ: ﴿ثُمَّ فِى سِلۡسِلَةٍ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعًا فَٱسۡلُكُوهُ﴾؛ لإفادةِ التَّعظيم والتَّهويلِ، فهي سلسلة عظيمةٌ لا يُدرَكُ كنهُها، ولا يُحاطُ بحقيقَتِها.

موقِعُ جملة: ﴿ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعًا﴾:

الإخبارُ عَن ضِخام العذابِ يُرْهِبُ القلوب، ويُزلزل المكذِّبين

جملة: ﴿ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعًا﴾ جاءت وصفًا لسلسلةٍ عظيمة الشَّأن، لكنَّها لم تُذكر ضِمْنَ خِطاب التَّكليف للملائكة، بل جاءت معترضةً بين المجرور ﴿فِى سِلۡسِلَةٍ﴾ ومتعلَّقه ﴿فَٱسۡلُكُوهُ﴾،

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 262.

(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 604، وأبو حيان، البحر: 10/ 261، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 26، ودرويش، إعراب القرآن: 10/ 204.

والاعتراضُ هُنا مقصودٌ للتَّضْخيم والتَّهويل؛ فالهدف ليسَ مجرَّد وصفٍ فنّيٍّ للسِّلسلة، بل إنذار صاعِق للمكذِّبين، يقرع أسماعَهُم بفَظاعَةِ ما أُعدَّ لهم، ويذكِّرهم بقارعةٍ قد اسْتَهانوا بها[1].

دلالةُ العدَدِ في قولِهِ: ﴿ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا﴾:

تصوير ضخامة أدوات العذاب في النّار إنذارٌ يقضُّ مضاجع المكذِّبين

العدد ﴿سَبۡعُونَ﴾ في قوله: ﴿فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ﴾ يحمِل دلالة الكثرةِ على وجهِ الكِنايَةِ لا الحصر العدديِّ، كما هي عادة العرب في مثل هذا السّياق، فالمقصود بيانُ شدَّة الأمرِ لا تَعْدادُه[2].

تغليفُ الجسَدِ بسلسلَةِ العذاب تشديدٌ للعقوبَةِ وتضييقٌ على الرّوح والجسَد

ويحتمل أن يكون في تخصيصِ السِّلسلة بطول سبعين ذراعًا، إشارةٌ إلى المبالغة في الطّول المفضي إلى غاية الإرهاقِ والمهانة، فالسِّلسلة كُلَّما طالت ازدادَ التِفافُها على الجسَد، وتَضاعَفَ ضَغْطُها عليه، حتّى تَغْدوَ كأنَّها وعاءٌ شامل يُطْبِق عليه من كلِّ جهة، لا فُرجة فيه ولا مهرب منه، وهذا مِن أعظم ألوان العذاب حسًّا ومعنًى؛ إذْ يُحْبَس الإنسانُ في غلافٍ من الألم لا يتنَفَّس فيه ولا يتحرَّك، وليس المرادُ الحصرَ العدديَّ فقط، بل المراد تصويرُ الفظاعة بأقسى ما يتخيَّله الذِّهن من الشِّدَّة والضّيق والإحاطةِ[3].

دلالةُ الفاءِ في قولِهِ: ﴿فَٱسۡلُكُوهُ﴾:

تَتابُع أوامرِ العذاب إشعارٌ بسرعة العقوبة وقطع رجاء التَّخفيف

اقتران فعلِ ﴿فَٱسۡلُكُوهُ﴾ بالفاءِ بعدَ تقديم مَعْموله ﴿فِي سِلۡسِلَةٖ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَيْن بلا غيَّيْن:

أحدهما: أن تكون الفاءُ لتأكيدِ الفاءِ السّابقة في قوله: ﴿فَغُلُّوهُ﴾، فيجيء التَّتابع بالفاء إيذانًا بتوالي الأوامر دون تريُّث، واسترسال أفعال العذاب في تعاقبٍ سريع لا يتخلَّله فاصلٌ يخفِّف أو يُمهل.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 138.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 138.
(3) الطيبي، فتوح الغيب: 15/ 626، وأبو حيان، البحر المحيط: 10/ 262، ودرويش، إعراب القرآن: 10/ 204.

والآخَرُ: أنَّ هذه الفاءَ جاءت لتنزيل الفِعْلِ منزلَةَ جوابِ شَرْطٍ محذوفٍ يُفهم من تقديم المعمول، كأنَّ المعنى: مَهْما يكن مِن أمر هذا المُجْرِم، أو مهما تفعلوا به شيئًا؛ فاسلكوه في السِّلسلة، والغرض من هذا التَّقدير هو التَّأكيد على حتميَّة الفعل وشدَّة الجَزْمِ به، والإيحاء بعدم وجود خيارٍ آخر أو أدنى رجاء في التَّخفيف، فالجزاء صار مقرَّرًا محتومًا لا مدخل فيه للشَّفاعة أو الإرجاء[1].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 138.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ ٣٣ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ٣٤﴾ [الحاقة: 33 - 34]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

بيانُ أسبابِ عَذابِ أهْلِ الكُفْر

لمّا ذَكَر اللهُ تعالى عقابَ الكافِرِ وأنواعَه؛ أعقبَهُ ببيانِ أسبابه، مبتدئًا بأعْظَمِها، وهو الكُفْرُ باللّهِ تَعالى، وهو فسادٌ للقوَّة العِلْميَّة، ثُمَّ ذَكَر فسادًا في القوَّة العَمَليَّة، وهو احتقارُ هذا الكافِرِ للضُّعفاءِ(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَحُضُّ﴾: أصلُ (حضض) يدلُّ على البَعْثِ على الشَّيءِ، تقولُ: حضَضْتُه على كذا؛ إذا حضَضْتَه عليه وحَرَّضْتَه(2)، فالحَضُّ: ضَرْبٌ مِنَ الحَثِّ في السَّيْرِ والسَّوْقِ وكُلِّ شيءٍ، ومنه الحَثُّ على الخَيْرِ(3)، والمُحاضَّة: أن يَحُثَّ كلُّ واحِدٍ منْهُما صاحبَه، والتَّحاضُّ: التَّحاثُّ(4)، والحَضُّ في الآية معناه: أنْ يَطْلُبَ مِنْ أحَدٍ فِعْلَ شيءٍ، ويُلِحَّ في ذلك الطَّلَبِ، والمراد: لا يحثُّ نفسَهُ ولا غيرَه عَلى طَعامِ المِسْكينِ(5).

المَعْنى الإجْماليُّ:

أعظَمُ أسبابِ العَذابِ الكُفْرُ باللهِ تَعالى

بعد بيانِ عذابه؛ ذُكِرَ سببُ هذا العذاب: بأنَّه كان لا يؤمنُ باللّهِ العظيم، ولا يحثُّ على إطعام المِسْكين، فانْحَصَرَت جِنايَتُه في الكفر القلبيِّ والجحود العمَليِّ بمَنْعِ الحُقوقِ(6).

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 371.
(2) ابن دريد، جمهرة اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (حضض/ حض).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (حض).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (حضض).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 139، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 15/ 82.
(6) أبو بكر الجزائري، أيسر التفاسير: 5/ 426.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

موقِعُ جُمْلَةِ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ﴾:

الكُفْرُ باللهِ تَعالى أعظمُ موجِباتِ العذابِ وأخطَرُ أسبابِهِ

جاءت جملة: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ على وجه الاستئنافِ البيانيِّ؛ جوابًا عن سؤالٍ مُقدَّر يتبادر للذِّهن بعد سماع سلسلةِ الأوامر الرَّهيبَة: لماذا هذا العذابُ الشَّديد؟ فجاء الجوابُ: لأنَّه كان لا يؤمن باللّه العظيم، فالجملة تعليليَّةٌ أيضًا، فجَعَلَ اللّهُ تعالى الكفرَ بِهِ علَّةً كُبرى ومصدرًا أوَّلَ لكلِّ أنواع العذاب، وتقديمها على سائر الجرائم التي ذُكِرت بعدها من بابِ ترتيب المسبَّبات على أسبابِها، وفي ذلك دلالة على أنَّ الكُفْرَ باللّهِ تَعالى هو الذَّنب الأعظم، وأنَّ كلَّ عقوبةٍ بعدَهُ إنَّما هي فرعٌ عنه، وتبعٌ لَه، كما أنَّ اختيارَ صفةِ العَظيمِ تحديدًا بعد الاسْمِ الأحسَنِ (اللّه) يوحي بجريمة هذا الكافر في إعراضه عمَّن هو في غايةِ الجَلال والعظمة، ممّا يضاعف قُبح كفره وشناعَة جُرْمِه[1].

غرَضُ التَّوكيد بـ (إنَّ):

أُكِّدت الجملةُ في قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ﴾؛ لتثبيتِ عِلَّةِ العقابِ وتأكيدِ استحقاقِهِ.

دلالة التَّعبير بـ ﴿كَانَ﴾:

تَمَكُّنُ الكُفرِ منهُ وتَجَذُّرُه فيهِ

جاء التَّعبيرُ بفعلِ الكونِ ﴿كَانَ﴾ في قول اللّه سُبحانَهُ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ ليُفيدَ معنى تمكُّنِ الكُفرِ مِنْهُ وتجذُّرِهِ فيه، وأنَّ عدم إيمانِهِ قد صار وصفًا ملازمًا لَهُ.

سرُّ التَّعبير بالفعل المضارِع المنفيِّ ﴿لَا يُؤۡمِنُ﴾:

دوامُ الكُفْرِ واستِمْرارُه

اختارَ البيانُ القرآنيُّ الفعلَ المضارِعَ المنفيَّ ﴿لَا يُؤۡمِنُ﴾ مِنْ قول اللّه ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ﴾؛ لإفادَةِ الدَّوام

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 605، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 26، والشهاب، حاشية الشهاب: 8/ 239، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 138، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 202.

والاستمرارِ، وهو استمرارٌ للنَّفْي لا نفيٌ للاستمرار؛ إذ لم يُؤمِن باللّه تَعالى في زمنٍ من أزمنةِ حياتِه، بل استمرَّ على الكفرانِ والجحودِ لمقام الألوهيَّةِ.

سرُّ إيثار التَّعبير بالاسْمِ الأحسَن (الله):

جَـمْـعُ الاسْـمِ الأحسَـنِ (اللـه) لصفاتِ الجلالِ والـجـمـالِ والكمالِ

آثرَ النَّظم القرآنيُّ التَّعبير بعنوان الألوهيَّة في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ﴾؛ لما يتضمَّنه الاسم الأحسنُ (اللّه) من صفاتِ الجمالِ والجلالِ والكمالِ، وهذا يقتضي شناعةَ الكُفْرِ بِهِ، كما أنَّ التَّعبيرَ بعنوان الألوهيَّةِ يُشير إلى الإخلالِ بما جاءت به الرُّسُلُ أصالةً، وهو الدَّعوة إلى عبادة اللّه تعالى وحده دون ما سواهُ، ولم يردِ التَّعبيرُ بالرُّبوبيَّةِ؛ لأنَّ الكافِرَ قد يُقِرُّ بربوبيَّةِ اللّه سُبحانَهُ، ولكنَّه يَجْحدُ ألوهيَّتَهُ، أو يجعل له شريكًا فيها، كما قال اللّه تعالى: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٣١﴾ [يونس: 31].

دلالة وصف ﴿ٱلۡعَظِيمِ﴾:

عِـظَـمُ الـذَّنـبِ يـــوازي عِـظَـمَ العقابِ في عدلِ اللهِ تَعالى

وصفُ اللّهِ تعالى بـ ﴿ٱلۡعَظِيمِ﴾ في قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ ليس مجرَّد وصفٍ تعبُّديٍّ، بل فيه إيماءٌ بليغٌ إلى أنَّ عِظَم العذابِ المَسوقِ في الآياتِ إنَّما جاء جزاءً لذنبٍ عظيم، وهو الكُفْرُ بمَنْ هو عظيم ﷻ.

فالكافر لم يُعرِض عن حقٍّ عابر، بل أعرضَ عَنِ الإيمان بمن تجلَّت عظمتُه في آياته، وشرائعه، وأسمائه، وصفاته، وتدبيره، فكان جزاؤهُ على قدر كُفْرِهِ، ومن ثَمَّ فإنَّ هذه المناسبة بين الوصفِ الإلهيِّ بالعظمة وبين شدَّة العقابِ تُبْرِزُ كمالَ عدلِ اللّهِ تَعالى، وأنَّ العذاب الشَّديد ليس غلوًّا بل هو وفاءٌ دقيقٌ بمقتضى الذَّنب(1).

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 138.

معنى الواو في ﴿وَلَا يَحُضُّ﴾ ودلالتُها:

بيانُ جملةٍ من أسبابِ العذابِ في الآخِرَة

الواوُ في ﴿وَلَا﴾ مِنْ قول اللّه تعالى: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ عاطفةٌ للجملةِ بعدَها على جملةِ: ﴿لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ﴾؛ لِما بينَهما من التَّوسُّط بين الكمالَيْن؛ إذ الجملتانِ متَّحدتانِ في الخبريَّةِ، وبينَهما تناسبٌ لفظًا ومَعْنًى، فأمّا في اللَّفْظِ؛ فاشْتِراكُهُما في الفعليَّةِ والمضارِعيَّة، وتصديرُهما بالنَّفْيِ، واتِّحاد المسنَدِ إليه فيهما، وأمّا في المعنى؛ فاتِّحادهما في بيانِ أسباب العذابِ.

دلالةُ التَّعبير بالفعل المضارِع ﴿يَحُضُّ﴾:

دوامُ ازْدِرائِهِ للفُقَراءِ واحتقارِه لَهُم

آثَرَ النَّظمُ القرآنيُّ الفعلَ المضارِعَ المنفيَّ ﴿وَلَا يَحُضُّ﴾، مِنْ قول اللّه ﷻ: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾؛ لإفادَةِ الدَّوام والاستمرارِ، وهو استمرارٌ للنَّفْيِ لا نفيٌ للاستمرار؛ إذ المقصودُ بيانُ أنَّه لم يحضَّ على طعام المسكين في أيِّ زمنٍ من أزمنةِ عُمُرِه، بل استمرَّ على احتقارِ الفقراء وازْدِرائِهم.

دلالَةُ إضافَةِ الطَّعام إلى المِسْكين في قولِه: ﴿طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾:

مَن ضيَّعَ حقَّ المسكينِ؛ فقد خانَ أمانَةَ المالِ

أُضيفَ الطَّعامُ إلى المسكين في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾، مع أنَّ المِسْكينَ لا يملك الطَّعام حقيقةً؛ لأنَّ للمسكينِ حقًّا معلومًا في مالِ الغَنيِّ، ولو لم يُصرِّح به، فكأنَّ اللّه تعالى يَنْسِبُ الطَّعامَ إلى المسكينِ لِما له من الاستحقاقِ الفِطريِّ والشَّرعي فيه، ممّا يُحمِّل الموسِرين مسؤوليَّةً خُلُقيَّةً ودينيَّةً تُجاهه.

وهذه الإضافة تُنبِّه إلى أنَّ من ضيَّع هذا الحقَّ؛ فقد سلَبَ المُسْتَضْعَفَ قوَّتَه المعنويَّة قبل الماديَّة، وتجاهَل ما أوجبهُ اللّه تَعالى في الأموالِ[1].

نُكْتَةُ تَخْصيصِ الأمرَيْنِ بالذِّكْر: عدمِ الإيمانِ وعدَمِ الحَضِّ على طعامِ المسكينِ:

فسادُ الاعتقادِ وغلظةُ القلبِ أصلُ كلِّ شقاءٍ

تخصيصُ عدمِ الإيمانِ وعدَمِ الحضِّ على طعامِ المِسْكين

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 263.

بالذِّكر، في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ ٣٣ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾، يُشير إلى أنَّ هاتَيْن الخَصْلَتَيْن أصلٌ للفساد كلِّه، فالأولى تهدِمُ الدّين، والثّانية تُفْسِدُ الخُلُقَ والمُعاملَة، فالكفرُ باللّه تَعالى أعظمُ ما يُفسد القلبَ في علاقتهِ بخالِقِه، والقساوةُ المقرونة بالبُخْلِ أعظَمُ ما يُفسد القلبَ في علاقته بعباد اللّه تَعالى، فكأنَّما جُمع له خُبثُ العقيدة وخُبثُ الطَّبع، ولهذا كان ذِكرُ هاتَيْن الخَصْلَتَيْنِ إشارةً إلى أنَّ كلَّ فسادٍ عمليٍّ مردُّه إلى فسادٍ في الاعتقادِ، أو قسوةٍ في القَلْبِ[1].

بلاغَةُ الكِنايَةِ في قولِهِ: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾:

مَـن لا يحضُّ علـى الخيرِ، أبخلُ ممَّن لا يَفْعَلُه

لَم يُقْتَصَر في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ على بيانِ تَرْكِ البَذْل، بل صوَّر أقصى مراتبِ البُخل والشُّحِّ؛ إذ لم يكتفِ ذلك الكافرُ بأنِ امْتَنَع عنِ الإنفاقِ، بل بلغَ بِهِ الشُّحُّ أنْ لم يُشجِّع غيره على الإطعام ولو بمالٍ لا يَمْلِكُه هو، فكأنَّه أنكر حَقَّ المساكين أصلًا، وجعلهم خارجَ دائرة الاستحقاق، فالآيَةُ لا تُحَمِّلُه فقَط تقصيرًا في فعلٍ، بل تَكشِف عن خُلقٍ مُتأصِّل من البُخل والجحود، وتُشير الآيةُ كنايةً إلى أنَّه كان أشحَّ النّاس، فلا ينفَعُ، ولا يُحبُّ أن يُنتفعَ مِن غَيْرِه[2].

---

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 242، والطيبي، فتوح الغيب: 15/ 627، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 26.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 139.

﴿فَلَيۡسَ لَهُ ٱلۡيَوۡمَ هَٰهُنَا حَمِيمٞ ٣٥ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنۡ غِسۡلِينٖ ٣٦ لَّا يَأۡكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡخَٰطِـُٔونَ ٣٧﴾ [الحاقة 35 - 37]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

بيانُ ما ترتَّب على فَسادِ القوَّتَيْنِ العِلْميَّة والعَمَليَّة

لَمّا وصفَ اللّهُ تَعالى الكافرَ الشَّقيَّ بأقبَحِ الرَّذائل وأشْنَعِها؛ مِنْ فسادِ القوَّة العلميَّة وفساد القوَّة العَمَليَّة؛ سبَّب عنهما في مقابلةِ إفْسادِ تلك القوَّتَيْنِ قولَهُ تَعالى: ﴿فَلَيۡسَ لَهُ ٱلۡيَوۡمَ هَٰهُنَا حَمِيمٞ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حَمِيمٞ﴾: أصلُ (حمم) يدلُّ على الدُّنوِّ والحُضورِ[2]، والحَميمُ: القَرابةُ، يُقالُ: مُحِمٌّ مُقْرِبٌ، والحامَّةُ: خاصَّةُ الرَّجل مِن أهلِه ووَلَدِه وذي قَرابَتِه[3]، وقيل: هو القَريب المُشْفِق الَّذي يحتَدُّ حِمايةً لِذَويه[4]، وهو أيضًا الَّذي يَوَدُّك وتَوَدُّه[5]، والجمعُ: أحِمّاءُ، وقد يكون الحَميمُ للواحِد والجميع والمؤنَّث بِلَفْظ واحِد[6]، والمراد به في الآية: القريبُ، وهو هنا كنايةٌ عنِ النَّصير؛ إذِ المُتعارفُ عند العرَب أنَّ أنصارَ المَرء هُم عشيرتُهُ وقبيلَتُه[7].

2) ﴿غِسۡلِينٖ﴾: أصلُ (غسل) يدُلُّ على تطهيرِ الشَّيءِ وتَنْقيَتِه، يُقالُ: غَسلتُ الشَّيءَ غَسْلًا، والغُسْلُ: الاسمُ[8]، والغَسول: كُلُّ شَيْءٍ غَسَلْتَ بِهِ رأْسًا أو ثَوْبًا أو نَحْوَهُ، والمَغْسِل: ما غُسِل فيهِ الشَّيْءُ،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 372.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حم).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (حمم).
(4) الجوهري، الصحاح، والزبيدي، تاج العروس: (حمم).
(5) الخليل، العين: (حم).
(6) ابن سيده، المحكم: (حم).
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 140.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غسل).

وغُسالة الثَّوْبِ: ما خَرَجَ مِنْهُ بالغَسْل، وغُسالةُ كُلِّ شَيْءٍ: ماؤُه الَّذي يُغْسَل بِهِ، والغُسالة: ما غَسَلْت بِهِ الشَّيْءَ، والغِسْلينُ: ما يُغْسَلُ مِنَ الثَّوْبِ ونَحْوِهِ كالغُسالَة[1]، والمقصود بالغِسْلين في الآية: ما انْغَسَل من لُحوم أهلِ النّار ودمائهم، وما يسيلُ مِن جُلودِهم[2]، سُمّيَ غِسْلينًا؛ لسَيَلانِه من أبدانِهم، كأنَّه يَنغَسِلُ منهم[3].

3) ﴿ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾: أصلُ (خطأ) يدُلُّ على تَعَدّي الشَّيءِ، والذَّهابِ عنه[4]، والخَطَأُ: الغَلَطُ والزَّلَلُ، يُقالُ: أخطأتُم، أي: غَلِطْتُم، وزَلَلْتُم، وضِدُّهُ: الصَّوابُ، ويَأتي الخَطأُ والخِطْء بِمَعْنَى: الإثم والذَّنْب، يُقالُ: خَطِئَ في دينِه خَطَأً وخِطْئًا؛ إذا أثِمَ فيه[5]، والخاطِئُ هو القاصدُ الذَّنْبَ، يُقالُ: خَطِئَ الرَّجُلُ؛ إذا تعمَّدَ الذَّنْب، وأخْطَأ؛ إذا لم يَتعمَّدْ، وقيل غيرُ ذلك، والمرادُ: الآثِمونَ أصحابُ الخَطايا، وهُمُ الكافِرون[6].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

شَنـاعَـةُ مـآلِ الكافِرِ المُجْرِمِ

في نهاية أمْرِ المُجْرِمِ الشَّقيِّ، يُخَلّى وحيدًا بلا ناصِرٍ ولا شفيع، ولا طعام له إلّا من الغِسلين، وهو ما يخرج مِن أجواف أهل النّار مِنَ القَيّح والصَّديد، لا يأكله إلّا مَن كان من أهل الخطايا العِظام كالكُفْر باللّهِ تَعالى[7].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

موقع جملة: ﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ﴾:

لا شـافـعَ في الـقـيـامـة ولا نصيرَ لِمَنْ أضاعَ الـتَّـوحـيـدَ في الدُّنيا

جاء قوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ﴾ تتمَّةً للوعيد الذي

(1) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (غسل).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (غسل).
(3) ابن فارس، المقاييس: (غسل)، والواحدي، البسيط: 22/ 184، والبقاعي، نظم الدرر: 20/ 372.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خطأ).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (خطأ).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، والهروي، الغريبين: (خطوأ، خطأ)، وابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 241، وابن الجوزي، تذكرة الأريب، ص: 413، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 632، وابن الأثير، النهاية: 2/ 44، والفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 2/ 553.
(7) أبو بكر الجزائري، أيسر التفاسير: 5/ 426.

بُدِئ بقوله: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾؛ ليُعلِنَ يأسَ هذا الكافر مِن أن يَجِدَ شفيعًا أو مُدافِعًا، فهذا الحصر بـ ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ تنبيهٌ على تبدُّد أوهامه القديمة، التي خدعَه بها سدنَةُ الأصنام وشركاؤهم، حين وعدوه أن يشفعوا له، أو يَدفعوا عنه، فإذا هو اليومَ عارٍ من النَّصير، مقطوعُ الرَّجاء، مفضوحُ الحال، لا يملك أن يتوسَّل بأحد، وهذا ممّا يُضاعف حسرتَه؛ إذ يُقرِّره الله تَعالى بأنَّ مَن تزلَّف إليهم في الدُّنيا؛ خَذَلوه في الموقِفِ الحقِّ، كما في قوله: ﴿أَيۡنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ٢٢﴾ [الأنعام: 22][1].

معنى الفاء في ﴿فَلَيۡسَ لَهُ﴾ ودلالتُها:

بيانُ المآلِ الأُخْرَوِيّ

الفاء في ﴿فَلَيۡسَ﴾ مِنْ قول الله تعالى: ﴿فَلَيۡسَ لَهُ ٱلۡيَوۡمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ﴾ فصيحةٌ، وهي الدّاخلةُ على جوابِ شرطٍ مقدَّرٍ، والتَّقدير: إن أردتَ أن تَعرِفَ مآلَهُ بعدَ ما عرفتَ مِنْ حالِه؛ ﴿فَلَيۡسَ لَهُ ٱلۡيَوۡمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ﴾[2]، فهي تربطُ بين ما تقدَّم وبين مآلِهِ.

سرُّ تقديم الجارِّ والمجرورِ ﴿لَهُ﴾:

تعظيمُ مُصيبَةِ الكافِرِ في الآخِرَةِ

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ ﴿لَهُ﴾ في قول الله سُبحانَهُ: ﴿فَلَيۡسَ لَهُ ٱلۡيَوۡمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ﴾؛ لإفادةِ الحصْرِ والتَّخصيصِ، وأنَّ هذا الحرمانَ مقصورٌ عليهِ وحدَهُ دونَ غيرِهِ مِنَ العُصاةِ الموحِّدين، وهذا يجعل المصيبةَ أشدَّ هولًا والحرمانَ أعظمَ شدَّةً.

دلالةُ (أل) في ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾:

إحضارُ يومِ القيامَةِ في ذِهْنِ المُتَلَقّي

(أل) في ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ من قول اللهِ ﷻ: ﴿فَلَيۡسَ لَهُ ٱلۡيَوۡمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ﴾ للعَهْدِ الحضوريِّ، وهو اليوم الحاضرُ في مقام التَّخاطُبِ المتقدِّمِ، وهو يوم القيامَةِ، وفي هذا استحضارٌ لذلك اليوم العظيمِ وما فيه مِن أهوالٍ كأنَّه يُرى رأيَ العَيْنِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 139.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 203.

دلالةُ التَّعبير باسْمِ الإشارَةِ ﴿هَٰهُنَا﴾:

المـبـالـغـةُ في تَقْريبِ الحدَثِ العَظيمِ

اختارَ النَّظمُ القرآنيُّ اسمَ الإشارةِ (هنا) مسبوقًا بحرفِ التَّنبيه (ها) من قول اللّه تعالى: ﴿فَلَيۡسَ لَهُ ٱلۡيَوۡمَ هَٰهُنَا حَمِيمٞ﴾؛ مبالغةً في تقريبِ الحَدَثِ وإحضارِهِ في ذهن السّامِعِ، وأنَّ ذلك قريبٌ مِنْهُ حاضرٌ عِنْدَهُ؛ إذ اسم الإشارةِ (هنا) موضوعٌ أصالةً لِلقُربِ.

وحرفُ التَّنبيه (ها) يَستَدعي انتباهَ السّامِعِ إلى ما بعدَهُ؛ تأكيدًا لأهمّيَّتِهِ.

الدَّلالة البيانيَّة لكلمة ﴿حَمِيمٞ﴾:

لا تنفَعُ القَرابَةَ يومَ الحِساب إلّا بإيمانٍ يَسْبِقُها

قولُهُ تعالى: ﴿فَلَيۡسَ لَهُ ٱلۡيَوۡمَ هَٰهُنَا حَمِيمٞ﴾، وُصِف به مَن أوتي كتابَه بشِماله، والمراد بالحميم: القريبُ أو الصَّديق المُشْفِق، وقد جرت عادةُ العرَب أن يعتَمِدوا على النُّصرة مِن ذوي قَرابَتِهِم وعَشائِرِهم، فكان الحميمُ عندَهُم رمزًا للمُدافِع والنّاصر في الشَّدائد، لكنَّ السّياق هنا جَعَلَ الحَميم كنايَةً عَن كلِّ ناصر محتَمَل، وجاءَ النَّفي القاطعُ: ﴿فَلَيۡسَ لَهُ ٱلۡيَوۡمَ هَٰهُنَا﴾؛ ليؤكِّد أنَّ صلاتِ النَّسَبِ أو الصُّحبة لا تُغني شيئًا في يومِ الحِسابِ؛ إذا لَم يكُن معَها إيمانٌ وصِدْقٌ[1].

دلالةُ تنكيرِ لفظِ ﴿حَمِيمٞ﴾:

نفيُ أيِّ نفعٍ من صديقٍ أو قَرِيبٍ

نُكِّر لفظُ ﴿حَمِيمٞ﴾ من قول اللّه ﷻ: ﴿فَلَيۡسَ لَهُ ٱلۡيَوۡمَ هَٰهُنَا حَمِيمٞ﴾ لإفادَةِ العموم؛ إذ هو نكرةٌ في سياقِ النَّفي، وهو من ألفاظِ العموم، فلا يوجَدُ لهذا المُجْرِم الشَّقيِّ أيُّ صديقٍ ولا قريبٍ ينفعُهُ، وهذا غايةٌ في الخذلانِ.

مَعنى الواو في ﴿وَلَا طَعَامٌ﴾ ودلالتُها:

اجْتِماعُ الحِرْمانِ الحِسّيِّ والمعنويِّ

الواوُ في قول اللّه تعالى: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنۡ غِسۡلِينٖ﴾ عاطفةٌ لما بعدها على ما قبلها، وهي تربِطُ بين نَفيَينِ ونَوعينِ مِنَ الحرمانِ شديدَيْنِ، وهما جامعانِ بين الحرمانِ المعنويِّ في ﴿فَلَيۡسَ لَهُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 140.

﴿ٱلۡيَوۡمَ هَٰهُنَا حَمِيمٞ﴾، والحِرمانِ الحِسّيّ في قوله: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنۡ غِسۡلِينٖ﴾.

نُكْتَةُ تنكيرِ ﴿طَعَامٌ﴾:

نُكِّرت كلمةُ ﴿طَعَامٌ﴾ مِنْ قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنۡ غِسۡلِينٖ﴾؛ للدَّلالةِ على العمومِ[1]؛ لكونِها نكرةً واردةً في سياقِ النَّفْيِ، فنُفيَ عَنْهُم كلُّ طعامٍ نافعٍ.

بلاغةُ القَصْرِ في قوله: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنۡ غِسۡلِينٖ﴾:

انْحِصارُ طعامِ الكافِرِ في أخبَثِ أصنافِ الطَّعامِ

في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنۡ غِسۡلِينٖ﴾ أسلوبُ قصْرٍ، وطريقُهُ: النَّفْيُ والاستثناءُ، وهو أقوى طرقِ القصر، وذلك يُفيدُ تأكيدَ انحصارِ طعامِ الكافِرِ في أرذَلِ أنواعِ الطَّعامِ وأقذَرِها وأخبثِها.

مَعْنى ﴿مِنۡ﴾ ودلالتُها:

بشاعَةُ عَذابِ أهلِ النّارِ

﴿مِنۡ غِسۡلِينٖ﴾ في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنۡ غِسۡلِينٖ﴾ في موضعِ جرٍّ على أنَّه نعتٌ لـ ﴿طَعَامٌ﴾[2]، و﴿مِنۡ﴾ تبعيضيَّةٌ، والمعنى: ليس له طعامٌ يأكُلُهُ إلا بعضُ ما يسيلُ من أبدان أهلِ النّارِ مِنَ الدَّمِ والصَّديدِ[3].

دلالةُ لفظ ﴿غِسۡلِينٖ﴾:

مناسبَةُ العُقوبَةِ في الآخرةِ للذَّنْبِ

خُصَّ لفظُ الغِسلين بالذِّكْرِ ههنا في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنۡ غِسۡلِينٖ﴾؛ لتكون العقوبةُ ملائمةً لذنبِ صاحبِها، فإنَّ هذا الكافِرَ الشَّقيَّ لم يحضَّ على طعامِ المسكين، فلم يُطعِمْهُ من مالِ غيرِهِ فضلًا عن أن يُطعمَهُ من مالِهِ هوَ؛ احتقارًا لَهُ وبُخْلًا عليهِ بالطَّيِّبِ مِنَ الطَّعام، فجوزيَ بأن كان طعامُهُ في الآخرةِ أرذلَ طعامٍ وأخبثَهُ.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 372.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 302.

(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 30/ 170.

الجَمْعُ بينَ قولِه: ﴿غِسۡلِينٖ﴾ وبين قولِه: ﴿ضَرِيعٖ﴾:

مَـنْ طـعـامُـهُ الـغِـسـلـين والـضَّـريـعُ لا طعامَ لَهُ

قال اللّه ﷻ: ﴿فَلَيۡسَ لَهُ ٱلۡيَوۡمَ هَٰهُنَا حَمِيمٞ ٣٥ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنۡ غِسۡلِينٖ﴾، وقال سُبحانَهُ: ﴿لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٖ ٦﴾ [الغاشية: 6]، فَحُصِر طعامُهم في الموضع الأوَّل في الغِسلينِ، وقُصِرَ طعامُهُم في الموضِعِ الثّاني على الضَّريع، وبينَهُما تنافٍ في الظّاهرِ، إلّا أنَّ العلماءَ لهم أجوبةٌ عن هذا، منها: أنَّ العذابَ أصنافٌ، والمعذَّبونَ طبقاتٌ، فمِنْهم من لا طعامَ له إلّا الغِسْلين، ومِنهُم مَن لا طعامَ له إلّا الضَّريع.

ومِنْ أوْجُهِ الجمع بين الآيَتَيْن: أنَّ معنى الآيتينِ أنَّه لا طعامَ لهم أصلًا؛ إذِ الضَّريعُ لا يصدُقُ عليه أنَّه طعامٌ، ولا تأكلُهُ البهائمُ فضلًا عن الآدميّينَ، وكذلك الغِسلين ليس مِنَ الطَّعام، فمَنْ طعامُهُ الغِسلين لا طعامَ له، وكذلك مَن طعامُهُ الضَّريعُ، ومِنْهُ قولهم: فلانٌ لا ظِلَّ لهُ إلّا الشَّمس، يُريدونَ: لا ظلَّ له أصلًا، وعلى هذا فلا تنافيَ بين الموضعين.

دلالةُ التَّعبير بالأكْلِ مادَّةً وصيغة:

شَناعَةُ المأْكولِ وفَـظـاعَـةُ حـالِ التَّناوُلِ

جاءَ التَّعبيرُ بفِعْلِ الأكْلِ في قولِه: ﴿لَّا يَأۡكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡخَٰطِـُٔونَ﴾ - مع أنَّ الغِسلينَ سائلٌ - مشاكلَةً لذِكْرِ الطَّعام قبلُ في قوله: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنۡ غِسۡلِينٖ﴾، ولِما يدلُّ عليه لفظُ الأكْلِ مِنَ المزاولَةِ، بخلافِ الشُّرْبِ الذي يكونُ أسرَعَ مِنْهُ عادةً، وهذا أبلغُ في تصويرِ عذابِهم.

وفي اختيارِ الفعلِ المضارعِ ﴿يَأۡكُلُهُۥٓ﴾ دلالةٌ على التَّجدُّدِ الاستمراريِّ، وأنَّه يتناوَلُ الغسلينَ تناوُلًا مستمرًّا، فهو عذابٌ دائمٌ متجدِّدٌ.

بلاغة القصْرِ في قوله: ﴿لَّا يَأۡكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡخَٰطِـُٔونَ﴾:

تَقْبيحُ صَنيعِ الخاطِئينَ

في قول اللّه تعالى: ﴿لَّا يَأۡكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡخَٰطِـُٔونَ﴾ أسلوبُ قصرٍ، وطريقُهُ: النَّفي والاستثناء، وهو أقوى طُرُقِ القصْرِ، وفيه قصرُ

تناوُلِ الغسلين على الخاطئينَ، وفي هذا القصْرِ تقبيحٌ لصنيعِ هؤلاءِ؛ إذْ قُصِرَ هذا الطَّعامُ الخبيثُ عليهِم، حتّى صار علامةً لَهُم.

غرض التَّعبير بلفظ الخاطئين دون المُخطئينَ:

الخاطِئُ معاقَبٌ مُؤاخَذٌ، والمُخطِئ غيرُ مُؤاخَذٍ

جاءَ التَّعبيرُ بلفظِ الخاطِئين في قول اللّٰه تعالى: ﴿لَّا يَأۡكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡخَٰطِـُٔونَ﴾ دون المُخْطِئينَ؛ لأنَّ الخاطئَ: مَن تعمَّد ما لا ينبغي، والمُخْطِئَ: مَن أرادَ الصوابَ فصار إلى غيرِه[1]، فالخاطئُ معاقَبٌ مؤاخذٌ، والمخطئُ غير مؤاخذٍ[2].

نُكْتَةُ التَّعريف في قولِه: ﴿ٱلۡخَٰطِـُٔونَ﴾:

تمامُ الوصفِ يزيدُ في استحقاقِ العقاب

عُرِّف ﴿ٱلۡخَٰطِـُٔونَ﴾ في قوله تَعالى: ﴿لَّا يَأۡكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡخَٰطِـُٔونَ﴾؛ للدَّلالة على كمال الوَصْفِ فيهم، أي: الذين تلبَّسوا بأشدِّ مراتبِ الخَطَأ، وهو الإشراكُ باللّٰهِ العَظيم.

فهذا التَّعبير يدلُّ على أنَّهم لَم يُخْطِئوا مجرَّد خطأٍ عابرٍ، بل تعمَّدوا الكُفْرَ، وأقاموا عليه، فاستَحَقّوا بذلك أشدَّ العقوبةِ وأبشعَ طعامٍ، وهوَ الغِسْلين[3].

---

(1) الجوهري، الصحاح: (خطأ)، والعكبري، شرح ديوان المتنبي: 1/ 80.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 32/ 225.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 140.

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ٣٩ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ
رَسُولٖ كَرِيمٖ ٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ٤١ وَلَا
بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٤٢ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٣﴾

[الحاقة 38 - 43]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

استحالةُ تركِ الخَلْقِ همَلًا بعد إقامَةِ الحُجَّة وإنزالِ القُرآن

لمّا فُصِّلت أحوالُ القيامة التي هي دارُ الفَصْلِ بين الطّائع والعاصي، وأُقيمت الحُجَجُ الباهرة بهلاك المُكَذِّبين ونجاة المُؤْمنين؛ كان مِن تَمام ذلكَ أنْ يُبيِّن أنَّ هذا التَّفصيل والبيانَ لا يكون عبثًا، بل لتقرير الحقِّ وإنذار الخَلْق، وأنَّه لا يليق بحكمةِ اللّهِ تَعالى أن يُقِرَّ الكاذبَ، أو يُهمِل الخَلْق بعدَ إرسالِ الرُّسل، فجاء التَّوكيد الأعلى على صِدْقِ هذا البلاغِ العَظيم، وثباته على الحقِّ، وأنَّه ليس بكلام البشَرِ، وإنَّما هو قولُ رسولٍ كريمٍ موحًى إليه، فقال سُبحانَهُ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ﴾ الآيات(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كَرِيمٖ﴾: أصلُ (كرم) يدُلُّ على الجودِ وكَثْرَةِ الخَيْرِ، يُقالُ: كَرُمَ الرَّجُلُ؛ إذا جادَ وأعْطَى دون انتِظارِ مُقابِلٍ(2)، والكَرَمُ: الشَّرَفُ، يُقال: كَرُمَ الرَّجُلُ كَرَمًا وكَرامةً، أيْ شَرُفَ، ويأتي الكَرَمُ بمعنى العِزَّةِ والرِّفْعَةِ، وأكْرَمَ الشَّخْصَ؛ إذا رَفَعَ شَأْنَهُ وفَضَّلَهُ(3)، والكَريمُ: كَثيرُ الخَيْرِ حَميدُ الصِّفاتِ، وضِدُّه: البخيلُ واللَّئيمُ(4)، ومِن مَعانيه أيضًا: العَظيم، والنَّبيلُ، وذو الفَضْلِ، وذو الصَّفحِ، والمُحْسِنُ، وذو

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 373.
(2) ابن دريد، جمهرة اللغة، والأزهري، تهذيب اللغة: (كرم).
(3) ابن الأثير، النهاية: (كرم)، والمناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ص: 603، والجرجاني، التعريفات، ص: 236.
(4) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (كرم).

السّيادَة[1]، ووُصِفُ جِبْريلُ ﷺ بِـالكريم هنا؛ لأنَّه الكريمُ في صِنْفِه، أي النَّفيسُ الأفْضَلُ[2].

2) ﴿كَاهِنٍۚ﴾: أصلُ الكَهانَةِ من التَّكَهُّن، وهو: التَّخَرُّصُ والتَّخْمينُ والظَّنُّ والكَذِبُ[3]، والكاهِنُ: الشَّخْصُ الذي يَدَّعي مَعْرِفَةَ الغَيْبِ وخَفايا الأُمورِ، يُقال: كَهَنَ، يَكْهَنُ، ويَكْهُنُ، كَهانَةً، أي ادَّعى مَعْرِفَةَ ما غابَ وخَفيَ[4]، والكاهِنُ أيضًا: الذي يُخْبِرُ عن الأشياءِ المَخفيَّةِ والأسرارِ برَأْيِهِ وظَنِّه[5]، ومِن مَعانيه أيضًا: الفَطِنُ بالأشياءِ، والجَمْعُ: كَهَنَةٌ وكُهَّانٌ[6]، والكاهِنُ: الذي يُخبِر بالأخبارِ الماضيَةِ الخَفيَّة بضربٍ مِنَ الظَّنِّ، والعرّاف الذي يخبر بالأخبار المستقبلةِ عَلى نحوِ ذلك، وقد قال النَّبيُّ ﷺ: "من أتى عرّافًا أو كاهنًا، فصدَّقه بما يقول؛ فقد كفر بما أنزل على محمَّد"[7]، ويقال: كَهُنَ فلان كَهانَةً؛ إذا تعاطى ذلك، وكَهَنَ؛ إذا تخصَّص بذلك، وتَكَهَّنَ: تكلَّف ذلك[8].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

عَظَمةُ الوحيِ وبراءةُ الرّسولِ ﷺ وتَنْديمُ المُكَذِّبين

يُقسِم اللهُ سُبْحانه بما يُرى من الأشياءِ المَشهودَة، وما لا يُرى من الغُيوب؛ تأكيدًا على أنَّ هذا القرآن العظيم هو وحيٌ من اللهِ تَعالى، يبلِّغه رسولٌ كريمٌ شريفُ المنزلة، لا كما زعَمَ المشركون أنَّه شِعرٌ أو كِهانة؛ إذْ لا يكادون يُؤْمِنون، أو يتفكَّرون، بل هو تنزيلٌ من ربِّ العالمين، كلامٌ لا يُشبِهُ كلامَ البشَر[9].

---

(1) الزبيدي، تاج العروس: (كرم).

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 142.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم: (كهن).

(4) الزبيدي، تاج العروس: (كهن).

(5) الجرجاني، التعريفات، ص: 183، والكفوي، الكليات، ص: 1236.

(6) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (كهن).

(7) رواه أبو داود في سننه، برقم: (3904)، والترمذي في جامعه، برقم: (135)، والنسائي في الكبرى، برقم: (9017)، وابن ماجه، برقم: (639) مطولًا بنحوه، وأحمد في مسنده، برقم: (9536) باختلاف يسير، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته، برقم: (5939).

(8) الراغب، المفردات، وابن الأثير، النهاية: (كهن)، وابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 18/ 222.

(9) نخبة من علماء التفسير، التفسير الميسر، ص: 568.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

موقع جملة: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ﴾:

التَّكذيبُ بالبعثِ يَستَدعي إثباتَ صدقِ الرَّسولِ ﷺ وصدقِ القرآنِ بقَسمٍ جامعٍ لعوالِمِ الشَّهادةِ والغيبِ

جيءَ بالفاءِ في صدر الجُملَة في قول اللّهِ تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ﴾؛ لتَربط هذا القَسَمَ بما قبله من سياق التَّهديد والوعيد، فيكون القَسَمُ هنا تفريعًا على ما تقتضيه المكذِّبات السّابقة من جُرْأتِهم على نفي البعث، واستهزائهم بالرِّسالة، واستخفافهم بالقرآنِ نَفْسِه.

فكأنَّ السّياق يقول: إذا كانوا يُكذِّبون بالبعثِ - وقد أخبر به القرآنُ - ويُكذِّبون مَن جاء به، فدونَكُم هذا القسم العظيم على صدقِ ما جَحَدْتُموه، فالفاءُ إذًا تُفيد أنَّ هذا القسَمَ نتيجَةٌ ومقتضًى لازمٌ لذلك التَّكذيب، لا مقطوعٌ عنه ولا مستأنفٌ مِنْ غيرِ مناسبةٍ[1].

معنى هذا القسَمِ في سياقِ السّورة:

في القَسَمِ حُجَّةٌ قاطعَةٌ لدَفْعِ زَعْمِهِم ورَدِّ باطِلِهِم

هذا القسَمُ جاءَ في معرِض تَقْرير أنَّ القرآنَ الكريمَ مِن عِنْدِ اللّهِ تَعالى، لا هو قَول شاعرٍ، ولا قولُ كاهنٍ، بل هو تنزيلُ ربِّ العالمين، وهذا المعنى قد تكرَّر في السّورة بأشكالٍ مختلفة، فجاء القسَمُ هنا ليَرْبِطَ بينَ أمرَيْن، أحدهما: التَّكذيب بالبَعْثِ في أوَّل السّورة. والآخرُ: التَّكذيب بالوحي والرِّسالة والقرآنِ في هذا الموضع، فجمَعَ السّياقُ بين التَّكذيبَيْن، وجُعِلَ هذا القسَمُ بمثابَةِ حُجَّةٍ قاطعَةٍ يُدفَع بها زَعْمُهم، ويُرَدُّ بها باطِلُهُم.

دلالةُ (لا) في قولِه: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾:

(لا أقسمُ) أسلوبٌ قُرآنيٌّ يُراد به القسَمُ لا نَفْيُهُ

(لا) في قول اللّه تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ﴾ تحتَمِلُ وجهين:

أحدهما: أن تكونَ (لا) صِلَةً، والمعنى: (أقسم)، وهو أسلوبٌ يُرادُ به التَّوكيد، أي: (أقسم أيمانًا عظيمةً بما تُبصرون، وما

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 140، 141.

لا تبصرون)، أي: بكلِّ شيءٍ دالٍّ على عظمَةِ اللّٰهِ تَعالى مِن عالَمِ الشَّهادة والغَيْب.

والآخَرُ: أنَّ (لا) نافيةٌ، والمعنى: (لا أحتاج أن أُقْسِم)؛ لكثرة البراهينِ ووُضوحها، ممّا يجعل الحاجةَ إلى القسَم منفيَّة؛ لأنَّه غنيٌّ عن الإثبات بالقسَم، فدلَّ هذا التَّعبير على غاية التَّوكيد أيضًا، بأسلوبٍ أبلغَ في التَّحدي[1].

والأَوَّلُ أظهَرُ، وهو أنَّ هذا قسَمٌ لا نفيٌ للقسَم؛ لأنَّ مثلَ هذا وردَ في القرآنِ الكريم، وصُرِّحَ بكونِه قَسَمًا، كما في قول اللّٰه تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥﴾ [الواقعة: 75]، وقال عنه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ٧٦﴾ [الواقعة: 76].

وهذا الأسلوبُ لهُ أصلٌ في كلام العرَبِ؛ إذْ كانوا يَتَحَرَّجون أحيانًا من القَسَم بشيءٍ عظيمٍ خشيةَ أن يَحْنَثوا، فإذا أراد أحدُهُم أن يُؤكِّد القولَ تأكيدًا بالغًا دونَ أن يتحمَّل مسؤوليَّة الحِنْث، قال: (لا أقسم)، أي: أمتنع عن القسم تعظيمًا للمقسَم به، لا لأنَّني لا أومِن بالقول، ثُمَّ شاع هذا التَّركيب في لسانهم؛ دالًّا على القسم المؤكَّد، وأُغفِل فيه أصل النَّفي، فصارت (لا) في هذا السّياق كأنَّها زائدة في المعنى، وإن كانت ذاتَ وظيفة بلاغيَّة دقيقة تُشعر بعظمَةِ المقسَم به وقوَّة البيان[2].

بلاغَةُ افتِتاح الآياتِ بأُسْلوبِ القسَم:

الإيـذانُ بِعِظَمِ ما يُقال وتأكيدُ حقيقتِه

جاء افتتاحُ هذا المقطعِ مِنَ السّورة بِالقسَم؛ إمعانًا في تحقيق مَضْمونِ الوَحْيِ وصِدْقِ الرَّسول ﷺ وكون القرآن من عند اللّٰه تَعالى، في مَعْرِض الرَّدِّ على تَكْذيبِهِم، وكأنَّ السّياق يقول: (أقسم بكلِّ مرئيٍّ وغير مرئيٍّ، بكلِّ دليلٍ في الأرض أو في الغَيْب؛ أنَّ هذا

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 27، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 141.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 27، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 141.

القولَ هو حقٌّ من عند اللّه سُبحانَهُ)، فكان افتتاحُ الكلام بالقسَم بهذهِ الصّيغة إيذانًا بِعظم ما سيُقال، وتأكيدًا لحقيقتِه، وإبطالًا لإنكارِ المُنْكِرين[1].

دلالَةُ (ما) في ﴿بِمَا تُبْصِرُونَ ٣٨ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾:

عمومُ المُبْصَر وغيرِ المُبْصَرِ

(ما) في قول اللّه تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ٣٨ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ اسمٌ موصولٌ دالٌّ على العموم في الموضِعَيْنِ، فهي تشمَلُ كلَّ ما يقَعُ عليه البصَرُ، وكُلَّ ما لا يقعُ عليه البصَرُ.

بلاغةُ الطِّباقِ في ﴿بِمَا تُبْصِرُونَ ٣٨ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾:

تَقْويةُ القسَمِ وتعظيمُ المُقْسَمِ بِهِ

بين (ما تبصرون) و(ما لا تبصرون) من قول اللّه تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ٣٨ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ طباقُ سَلْبٍ، وفيه الجَمْعُ بينَ يقعُ تحت البصرِ وما يخفى عَنْهُ، فشَمِلَ ذلكَ الوجودَ كُلَّه شاهِدَهُ وغائبَهُ، وفي هذا التَّضادِّ استحضارٌ للقدرةِ الإلهيَّةِ المحيطةِ بالغَيْبِ والشَّهادةِ جميعًا، وتقويةٌ للقسَمِ الإلهيِّ وإظهارٌ لعظمةِ المُقْسَمِ بِهِ.

نُكْتَةُ حذفِ المفعولِ في ﴿تُبْصِرُونَ﴾:

طَيُّ ما دلَّ السّياقُ عليه إيجازًا واختصارًا

حُذِفَ المفعولُ في الفعلِ ﴿تُبْصِرُونَ﴾ من قَولِ اللّهِ تَعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ٣٨ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾، وهو العائدُ فيهما، والتَّقدير: بما تُبصرونَهُ، وما لا تُبصرونَهُ، وحَذْفُ العائدِ في مثلِ هذا كثيرٌ؛ لكونِهِ منصوبًا بالفِعْلِ، وفي هذا الحذْفِ ضربٌ من ضروبِ الاختصارِ بِطَيِّ ما دلَّ السّياقُ عليهِ.

البلاغةُ في تَوْكيدِ التَّركيب: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾:

التَّوكيدُ الشَّديد شهادةٌ على صِدْقِه ونقضٌ لتكْذيبِهِم

جاء توكيدُ الخبَرِ بـ (إنّ) واللّام معًا في قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾، وهو توكيدٌ ثقيلٌ يُستعمَل في معرِض الرَّدِّ على مَن أنكَرَ أو شكَّ، فهذا التَّركيبُ يُفيدُ الرَّدَّ الحازمَ على الذين أنكروا أن يكونَ القُرآنَ الكريمُ مِن عندِ اللّهِ تَعالى، أو زعموا أنَّه من قولِ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 27، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 141.

بشرٍ، فجاءت الآيةُ حجَّةً عليهم وتقريرًا لحقيقة ناصعَةٍ: أنَّ هذا القول صادرٌ عن رسولٍ كريم، لا عن شاعرٍ أوْ كاهِنٍ[1].

عَوْد الضَّمير وأثرهُ البلاغيُّ في: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ﴾:

القرآنُ الكريمُ صادرٌ عنِ الوَحْي، لا عَن بشَرٍ

الضَّمير في قول اللّهِ تَعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ عائدٌ إلى القرآنِ الكريم، وإن لَم يُذكر صراحةً، بل فُهِمَ من السّياق الذي تحدَّث عن الحَشْرِ والبعث، وهي مِنَ القَضايا الكُبْرى التي جاء بها القرآنُ، وكان تكذيبُهم بِها من أعظَمِ أسباب طَعْنِهم فيهِ.

وقد جرى في مواضعَ مِنَ القرآنِ أن يُراد بالضَّمير الغائب - غير المصرَّح بمَعادِهِ - القرآنُ الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣﴾ [الشعراء: 192 - 193]، وقوله سُبحانَهُ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١﴾ [القدر: 1]؛ لِما له مِن حُضورٍ في الذِّهن وغِنًى في الدَّلالة، فصار يُشار إليهِ بالضَّمير لاشْتِهارِهِ[2].

وجهُ الإضافةِ وأثَرُها في: ﴿لَقَوۡلُ رَسُولٖ﴾:

الإضافَةُ إلى لفظِ الرَّسول بيانٌ للواسِطَةِ في التَّبليغ، لا نفيٌ لكون القرآنِ وحيًا إلهيًّا خالصًا

إضافة (قول) إلى ﴿رَسُولٖ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ هي إضافةٌ لأدنى ملابسَةٍ، وهي إضافةٌ بيانيَّة، أي: لِبيانِ الصِّلة بين الرَّسول والقول، لا لإثبات إنشاء القولِ منهُ ابتداءً، فجبريلُ بلَّغ هذا القول إلى النَّبيِّ ﷺ، والنَّبيُّ ﷺ بلَّغه إلى الأُمَّة، لا أنَّ واحدًا مِنْهُما أنشأه مِن تلقاء نفسِه، وإنَّما هو مُبَلِّغٌ عمّا أوحي إليه.

إيضاحُ واسِطَةِ التَّبليغ، لا أصلِ المَصْدَرِ

فالنِّسبة هنا تُظهر واسطةَ التَّبليغ، لا أصلَ المصدر؛ إذ القرآنُ كلامُ اللّهِ تعالى أنزله بواسطة جبريلَ عليه السلام إلى النَّبيِّ محمَّد ﷺ، ثُمَّ بلَّغهُ النَّبيُّ ﷺ.

وهذا أسلوبٌ شائعٌ في لسان العرب، أن يُضاف القولُ لمن نقَلَهُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 141.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 141.

وبَلَّغه، وإن لم يكُن هو مُنشِئَه، كما يُقال: (قال فلانٌ في خطبته كذا)، وهو إنَّما تلا آياتِ اللّهِ تَعالى أو أحاديثَ نبيِّه ﷺ[1].

دلالَةُ التَّعبير بلفظ: ﴿رَسُولِ﴾:

التَّعبير بلفظ (رسول) دالٌّ على المرجعيَّة الإلهيَّة لِلقَوْلِ

اختير لفظ ﴿رَسُولِ﴾ دون (نبيٍّ)؛ لِما في لفظ الرِّسالة من الإيذانِ القويِّ بأنَّ المتكلِّم الحقيقيَّ هو مرسِلُ هذا الرَّسول، لا الرَّسول نفسُه، فالرَّسول لا يأتي بشيءٍ من قِبَله، بل يبلِّغ عن غيره، فهو واسطَةٌ في نَقْلِ القَوْلِ لا مصدرٌ لَهُ.

وتأكيدًا لهذا المعنى، وإزالةً للَّبْس؛ أعقب اللّهُ سبحانه هذا الإيذانَ بقولِهِ المؤكَّد: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، فصرَّح بأنَّ القرآن نزلَ من عندِهِ سُبحانَهُ، وأنَّ الرَّسول الكريم ليس إلّا مبلغًا، فانعقد بذلك المعنى من جهتين، من جهة الوصف بـ ﴿رَسُولِ﴾، ومن جهة التَّصريح في قولِهِ: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[2].

دلالة تنكير ﴿رَسُولِ﴾ ووصفِهِ بـ ﴿كَرِيمِ﴾:

إثباتُ تميُّزِ الرَّسول ﷺ وتفضيله

وصَفَ اللّهُ تَعالى الرَّسولَ هنا بـ﴿كَرِيمِ﴾ دون أن يخصَّ اسمَه، في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولِ كَرِيمِ﴾، فدلَّ الوصفُ مع التَّنكير على كمالٍ متميِّز في جِنْسِه، أي: أنَّه أشرفُ الرُّسل وأكملُهم، فالكريم في لسان العربِ هو الشَّيء النَّفيس في نوعه، فكما تقول: (فرس كريم)، أي: أشرَفُ ما في جِنْسِه، فكذلك ﴿رَسُولِ كَرِيمِ﴾ تعني الرَّسول الأفضلَ في صِنْفِ الرُّسُلِ.

إثباتُ الفَضْلِ المَحْضِ على غيره من الرُّسُل

ففي هذا الوصف الكريمِ إيماءٌ إلى رفعة منزلةِ النَّبي ﷺ عندَ اللّهِ تَعالى، وتفضيله على سائر الرُّسل والأنبياء، وهو من وجوه التَّنويه بشأنه وتعظيم مكانته، دون الحاجةِ إلى التَّصريح بالاسم[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 141.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 142.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 142.

أو فيه بيانُ منزلةِ جبريلَ عليه السلام وفَوَقانِه على سائرِ الملائكةِ، وهذان قولانِ في مَعْنى ﴿رَسُولٍ﴾.

الدَّلالة التَّركيبيَّة لجُمْلَةِ: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾:

توكيدُ النَّفي لتَفْنيدِ دَعاوى خُصوم الوَحْيِ

قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ يُنَزَّه فيه القرآنُ الكريمُ عن أن يكونَ مِن قولِ الشّاعرِ أو الكاهن، بنَفيَين مُؤَكَّدَيْن: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ﴾ و﴿وَلَا بِقَوْلِ﴾، فالجُمْلَةُ الثّانية معطوفَةٌ على الأولى لتأكيدِ الاستبعادِ ونَقْضِ التُّهم المتعدِّدة.

وقد دخلت (لا) لتأكيدِ نفي (ما)، وهذا مِن أساليبِ التَّوكيد التَّراكميِّ في اللُّغة؛ لردِّ مزاعم المُشْرِكين في شَتّى اتِّجاهاتِهم.

معنى الباء في ﴿بِقَوْلِ﴾ ودلالتُها:

تأكيدُ دَفْعِ الافتراءاتِ عَنِ القرآنِ الكريمِ

الباءُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍۚ﴾ صلةٌ يُرادُ بها التَّوكيدُ، فتكون الجملةُ نافيةً للشّاعريَّةِ عن القرآن الكريم على وجهٍ مؤكَّدٍ، وتقوّي مَعْنى النَّفْيِ دفعًا لأيِّ شُبْهَةٍ.

دلالةُ الإضافة في (قول شاعر):

ليسَ القرآنُ بشِعْرٍ ولا هو بقَوْلِ الشُّعراءِ

الإضافة في (قول شاعر) من قول اللّه جل جلاله: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍۚ﴾ من إضافة المصدَرِ إلى فاعلِه، وهي إضافةٌ يُرادُ بها التَّخصيصُ، وفي نفي أن يكون القرآنُ قولَ شاعرٍ مبالغةٌ في النَّفْيِ؛ إذ قطَعَ صِلَتَه بالشِّعرِ قطعًا باتًّا، فلا هو شعرٌ، ولا هو من مُنشَآتِ الشُّعراء، فهو أبلغُ من قولنا: (وما هو بشِعْرٍ)، وأعمُّ في النَّفْيِ.

موقعُ ﴿قَلِيلًا﴾ من الإعرابِ في قوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ ودلالتُها:

تكذيبُهم بأكثرِ ما جاءَ في الشَّرْعِ المُنَزَّلِ

لفظُ ﴿قَلِيلًا﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ صفةٌ لمصدَرٍ محذوفٍ، فيكون مفعولًا مطلقًا، أو هو صفةٌ لزمانٍ محذوفٍ، فيكون ظرفَ زمانٍ، والمعنى على الأوَّلِ: تؤمنونَ

إيمانًا قليلًا، وعلى الآخَر: تؤمنونَ زمانًا قليلًا[1]، والمقصودُ: أنَّهم يؤمنونَ بشيءٍ قليلٍ ممّا جاءَ به الرَّسولُ ﷺ، وليس المرادُ النَّفْيَ المحضَ[2]، قال أبو حيّان: "ولا يراد بـ﴿قَلِيلًا﴾ هنا النَّفي المحض، كما زُعِمَ، وذلك لا يكون إلّا في (أقل)، نحو: أقلُّ رجُلٍ يقول ذلك إلّا زيد، وفي (قَلَّ)، نحو: قلَّ رجلٌ يقول ذلك إلّا زيد، وقد تُستعمَل في (قليل) و(قليلة)؛ إذا كانا مرفوعين ... أمّا إذا كان منصوبًا، نحو: قليلًا ضربت، أو قليلًا ما ضربت، على أن تكون (ما) مصدريَّة؛ فإنَّ ذلك لا يجوز؛ لأنَّه في: قليلًا ضربتُ، منصوبٌ بـ: ضربت، ولم تَستَعمِل العربُ (قليلًا)؛ إذا انتصبَ بالفِعْلِ نفيًا، بل مقابلًا لـ: كثير"[3].

نكتَةُ المُغايرة بينَ نفي الإيمانِ ونَفْيِ التَّذكُّر:

دقَّـةُ الـنَّـظـم القرآنيّ في اختيار الألفاظِ المُناسِبَةِ لسياقاتِها

قال اللّه تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ۝٤١ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾، فنَفَى الإيمانَ عنهم عقِب تنزيه ما جاء به ﷺ من القرآن عن أن يكون شعرًا، ونفى التَّذكُّر عنهم عقِبَ تنزيهه عن أن يكون من قبيلِ قول الكُهّان؛ وذلك "لأنَّ نفيَ كون القرآن من أقوالِ الكهَنَةِ أمرٌ لا يحتاج إلى كبيرِ نظَرٍ ولا استعمال طولِ فِكْرٍ، بل يوصل إلى ذلك بأدْنى التِفات؛ فناسب هذا نفي التَّذَكُّر، وأمّا تنزيهه عن إلحاقِه بقَبيلِ الشِّعر وما يَرْجِع إلى نحوِ ذلكَ مِن أقوالِ الخُطباء وأسْجاعِهِم، فقد تَوَهَّم الجاحِدُ الظَّلوم المُتَعامي عن النَّظر وصرْفِ التَّفكير إلى تدَبُّره والإصغاء إلى سماعِه، المُترامي إلى التَّعلُّق بأدنى شُبْهَةٍ يَسْتَريحُ إليها رجوعه إلى ذلك؛ فناسَب هذا نفي التَّصديق؛ لأنَّه إنَّما يكون عن ركوبٍ إلى نظَرٍ وتَفَكُّر، فجاء كلٌّ على ما يُناسِبُ"[4].

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 205.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 59.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 265.
(4) ابن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل: 2/ 482.

بلاغةُ الكناية في دفع التُّهَم عن شخصيَّة النَّبيِّ ﷺ:

الـجَـمْـعُ بـينَ الذَّبِّ عن النَّبيِّ ﷺ والـذَّبِّ عن الوحي معًا

عدَلَ النَّظمُ القرآنيُّ عن نفي الصِّفة عن النَّبيِّ ﷺ مباشرَةً، إلى نَفْيِ كونِ القرآنِ قولَ شاعرٍ أو كاهنٍ في قول اللّهِ تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍۚ﴾... ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍۚ﴾؛ كنايَةً عَن تنزيهِ النَّبيِّ ﷺ عن هاتين الصِّفتين، فبدل أن يأتي النَّظمُ: (ما محمَّدٌ بشاعرٍ ولا كاهنٍ)، قال: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍۚ﴾ ... ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍۚ﴾؛ لأنَّ الطَّعن كان موجَّهًا إلى القرآن الكريم، فصار نفيُهما جامعًا بين الذَّبِّ عن الرَّسول ﷺ والذَّبِّ عن الوحيِ معًا.

الرَّدُّ على مزاعِمِ الخُصوم بلغَةٍ نَبيلَةٍ

وهذا النَّفي الكِنائيُّ أبلَغُ في الرَّدِّ؛ لأنَّه يُظهِر مكانة النَّبيِّ ﷺ السّامية، فلا يوجَّه إليه النَّفي بنصِّه، بل يوجَّه إلى ما يُنسب إليه من باطلٍ، كأنَّ التُّهمة في ذاتها لا تستحقُّ الالتفات، ممّا يعزِّز المقام، ويُبطل البهتانَ بلُغَةٍ رفعَةٍ وإجلالٍ[1].

نُكتَةُ الاقتِصار على مضمونِ النَّفيَينِ - الشِّعر والكهانة - دونَ غيرِهما:

اقـتَـصَـرَ الـنَّـفـي عــلـى أوصـــافٍ يَشْتَبِهُ شَرَفُها، أمّـا الـنَّـقـائـصُ الـمـحـضـةُ؛ فدَفَعَها وصفُ الرِّسالة بالكرَمِ

اقتَصَر النَّفْيُ على وصْفَي الشّاعر والكاهنِ في قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍۚ﴾... ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍۚ﴾، دونَ سِواهُما مِنَ الطُّعون، كقَوْلِهِم: (مجنون) أو (مُفْتَرٍ)؛ لأنَّ وصف ﴿رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ الذي سبقَ هذه الآياتِ يتضمَّن باللُّزوم نفي الجُنون والكذِب؛ إذِ الكريم منزَّهٌ عن مثل هذه النَّقائص، أمّا الشّاعر والكاهنُ فقد كانا يُعدّان في أعراف العرب من أصحابِ الشَّرف والنَّباهة، فاحْتيجَ إلى نفي مُشابهَةِ النَّبيِّ ﷺ لَهُما، لا من جِهَةِ الخِسَّة، بل من جهةِ كونِهِما لا يتلقَّيان وحيًا، ولا يُبَلِّغان عن اللّهِ تعالى.

التَّدرُّج في إبْطالِ الشُّبه بحسَبِ مَـوْقِـعِـهـا فـي العُقول

فالآيات تنفي أوَّلًا أوصافًا يَحْتَمِل أن تَلْتَبِس على السّامع؛ بسببِ مكانَةِ الشُّعراء والكُهّان في الجاهليَّة، ثُمَّ تُحيل على نفي بقيَّة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 142.

الأوصاف بالدَّلالة السّابقة في وصف ﴿كَرِيمٖ﴾، فيكون نفيُ الافتراءِ والجنونِ متضمَّنًا غيرَ مذكور، وهو أبلغُ في الرَّدِّ وأقوى في الحُجَّة(1).

دلالةُ الجَمْع بينَ نَفْيِ الشّاعريّة ونفي الكِهانة:

حَشْدُ الشُّبَهِ للطَّعْن في النُّبوَّة

نُفيَ كونُ القرآنِ الكريم قولَ شاعرٍ؛ لأنَّهم وصفوهُ تارةً بالشِّعر، ثُمَّ أُعْقِبَ بنفي الكِهانة التي اتَّهموه بها، فجُمِع في النَّفي بين الوَجهَين المُتقابِلَين عندَ العرَب؛ كنايةً عَن إفلاسِهم في تحديدِ مَصْدَرِ القُرآن، ممّا يَدلُّ على عَجْزِهم عَنِ الطَّعن فيه مِن جِهَةٍ واحدَةٍ ثابتَةٍ(2).

دلالَةُ التَّذييل بقولِه: ﴿قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾:

التَّعجُّب يُتمّم معنى النَّفي ويُدين الغَفْلة

التَّذييل بجملة: ﴿قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ يفيد قلَّة تذكُّرهم وتدبُّرهم لِما يُلقَى إليهم، وقد جاءت هذه الجملةُ على وجه التَّعجُّب من شدَّة غَفْلَتِهم، فكأنَّ المعنى: ما أَغْفَلَكُم عن هذا الحقِّ البَيّن، وهذا الرَّسولِ الكريمِ، وهذا القرآنِ المُنَزَّل من ربِّ العالمين!.

التَّناسب البلاغيُّ مع النَّفي السّابق

فبعد أن نُفي أن يكون القرآنُ مِن قول كاهنٍ، جاء هذا التَّذييل: ﴿قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾؛ ليُقرِّر أنَّ الذي يورِثكم هذه الشُّبهات هو غفلتُكم، لا ضعفُ البيان، ولا قلَّةُ الحجَّة، فلو تذكَّرتم وتدبَّرتم؛ لَمَا التَبَسَ عليكم الحقُّ.

بلاغَةُ أُسْلوبِ التَّعجُّب

وهذا التَّعبير فيه نَفَسٌ من التَّوبيخ المضمَّن بالاستغراب، وهو من أقوى الأساليبِ البلاغيَّة تأثيرًا؛ إذ يَحْمِلُ المَعْنى في صورةٍ شُعوريَّة تُثير الوعيَ، وتَكْشِفُ مقدارَ الانحرافِ عَن مُقتَضى العَقلِ(3).

بلاغَةُ الكناية في التَّعبير بالقلَّة في: ﴿قَلِيلٗا مَّا﴾:

فَضْحُ القرآنِ الكريم للمُعانِدين بأسلوبِ التَّهكُّم

لفظة ﴿قَلِيلٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ﴾ و﴿قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾، إمّا أن يُرادَ بها وُجود قليلٍ مِنَ الإيمانِ أو التَّذكُّر، أو

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 142.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 142.
(3) الطيبي، فتوح الغيب: 15/ 630.

يُقصَدُ بها نفيُهما أصلًا، وهذا مِنَ الأساليب البلاغيَّة المعروفةِ في الخِطاب؛ إذ يُذكَر (القليلُ)، ويُراد به (العدم)، ولا سيَّما إذا كان في سياقِ التَّوبيخ أو التَّقريع إلّا أنَّ الأظهرَ إرادَةُ القلَّة هنا على بابِها.

وهذا التَّعبير يتضمَّن نوعًا من التَّهكُّم اللّاذع، والتَّقريعِ لهم بطريقة أكثرَ إيلامًا وبلاغةً[1].

الدَّلالة الإعرابيَّة لِلَفْظِ ﴿قَلِيلٗا﴾:

انتصب لفظ ﴿قَلِيلٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ على أنَّه صِفَةٌ لمصدَرٍ محذوف أو ظرفُ زمان محذوف، والتَّقدير: (تذكَّرون تذكُّرًا قليلًا) أو (في زمن قليل)، وهذه التَّقديرات سائغَةٌ عند النُّحاة بحسَبِ السّياق.

تنويعُ المعنى بين القِلَّة الزَّمنيَّة والكمّيَّة

وإفادة ﴿قَلِيلٗا﴾ إمّا أن تكون من جهة الكمِّ، أي: القدر الضَّئيل من الإيمان والتَّذكُّر، أو من جهة الزَّمن، أي: أنَّكم لا تتذكَّرون إلّا نادرًا في الزَّمن، وكلا المعنيين يُصوِّر الواقع المُرَّ لحالهم، ويدلُّ على الغفلةِ البالغة والانقطاع عنِ الهُدى.

التَّنويع البلاغيُّ يَزِيدُ التَّأنيب

وهذا الوجهُ النَّحويُّ يفتح البابَ لفَهْمٍ أوسعَ في التَّوبيخ؛ لأنَّ فيه تقريرًا لِما هُم عليه من حالٍ سيِّئة، ولكن بطريقٍ لغويٍّ بليغٍ يتردَّد بين ضَعْفِ الكمِّ وضيقِ الزَّمان[2].

توجيهُ معنى ﴿مَّا﴾ في قوله: ﴿قَلِيلٗا مَّا﴾:

تنوُّع دلالة (ما) يُغني المَعْنى، ويُحْكِمُ التَّقرير

تعدَّدت احتمالاتُ ﴿مَّا﴾ إلى ثلاثةِ أوجُهٍ رئيسَةٍ، في قوله تعالى: ﴿قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ﴾ و﴿قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾، وكلُّ وجهٍ منها يُفْصِحُ عَن توجيهٍ بيانيٍّ مختلفٍ:

أوَّلُها: أن تكون ﴿مَّا﴾ نافيةً، والمعنى: (لا تؤمنون أصلًا)، فيكون ﴿قَلِيلٗا﴾ تمليحًا تهكُّميًّا، أي: أنَّكم لا تؤمنون بشيءٍ البتَّةَ.

---

(1) الزمخشري: 4/ 606، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 27، وابن عاشور: 29/ 142.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 242، وأبو حيان، البحر المحيط: 10/ 265، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 27، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 143، ودرويش، إعراب القرآن: 10/ 205.

ثانيها: أن تكون مصدريَّة، فيُؤَوَّل الكلام إلى (قليلًا إيمانُكم) أو (قليلًا تذكُّركم)، فيكون المصدر المؤوَّل (إيمانكم وتذكُّركم) فاعلًا لـ ﴿قَلِيلًا﴾، ويفيد هذا قِلَّةً حقيقيَّة في الإيمان والتَّذكُّر.

ثالثها: أن تكون صلةً للتَّوكيد؛ وهو الوجه الأقوى سياقًا، فيكون المقصودُ تأكيدَ قِلَّة إيمانهم وتذكُّرهم، لا نفيَها ولا مجرَّدَ الإخبار بها، وهذا أدخَلُ في باب التَّقريع والتَّوبيخ التَّقريريِّ[1].

الالتفاتُ بين الخِطاب والغَيْبَةِ في القراءات الواردة:

الالتفاتُ يعمِّق التَّوبيخ، ويُبقي السَّامع في مَرْمَى اللَّوم

قرأ الجمهورُ قولَهُ تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ و﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ بتاءِ الخطابِ، وقرأ ابن كثيرٍ ويعقوبُ وهشامٌ عن ابن عامرٍ: ﴿قَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ و﴿قَلِيلًا مَّا يَذَّكَّرُونَ﴾ بالياء، على الغَيْبَة بدَلَ الخِطاب[2]، وعلى قراءةِ الغَيبِ يكونُ هذا انتقالًا من الخطابِ في قوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾، إلى الغَيْبَة في (يؤمنون) و(يذكرون)، فيكونُ التفاتًا بلاغيًّا من الخطابِ إلى الغَيبةِ، وهذا التَّحوُّل يفيد تنويعًا في التوبيخ وزيادةً في الإعراض عَنْهُم، كأنَّ الخطاب لَمّا بلغ هذا الحدَّ من التَّقريع؛ استُثْقِل توجيههُ إليهم، فصُرِف إلى الغَيبة احتقارًا لهم، أو استكثارًا للحديثِ عَنْهُم بعدَ أنْ بانَ جُحودُهُم[3].

وجهُ مُناسبة خَتْمِ الجملتين بنَفْي الإيمانِ والتَّذكُّر:

إظهارُ عُمْقِ المُفارقة بينَ حال المدَّعين وحقائقِ البَيان

في قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝٤١ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ مناسبةٌ دقيقة بين كلِّ جُزْءٍ وما خُتِم به، فادِّعاؤهم أنَّ القرآنَ الكريمَ قولُ شاعرٍ يواجَه بقلَّة الإيمان؛ لأنَّ هذا الادِّعاء مردودٌ ببداهة الحِسِّ والذَّوق، وهو من البهتان البيِّن، ولا

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 265، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 27، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 143، ودرويش، إعراب القرآن: 10/ 205.

(2) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 390.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 143.

يقولُه إلّا مُكابِرٌ لا يُرتَجى منه إيمانٌ، بخلاف نفي كونهِ قولَ كاهن، فإنَّه يحتاج إلى قليلٍ مِنَ التَّأمُّلِ تُزالُ به الشُّبهة لِمَن تذكَّر وتَدَبَّر، ولذا ناسب أن يُختم هذا بنفي التَّذكُّر.

فهناك فوارِقُ بينَ الشّاعر والكاهن أَلْحَقَتْ كلَّ فاصلةٍ بما يُناسِبُها: فلا يُنتظر ممَّن نَسَبَ القُرآنَ إلى الشّاعريَّةِ إلّا الجحودُ، فناسب نفيَ الإيمان، وأمّا الكاهنُ فقد يَشْتَبِه على مَن لم يُمْعِن النَّظر؛ فناسبَ نَفْيَ التَّذكُّرِ لا الإيمانِ، وفي ذلك عدلٌ في توزيعِ اللَّوم بحسَبِ وُضوحِ الفَوارق[1].

توجيهُ المُتشابِهِ اللَّفظيِّ بين سورة الحاقَّة وسورة التَّكوير:

دقَّـــةُ الـبـيـان القرآنيّ في انتِقاء الألفاظِ المُلائِمَةِ لسياقاتِها

قال اللّهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ﴾، وقال سُبحانَهُ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ۝٢٠ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ۝٢١﴾ [التكوير: 19 - 21]، فخَصَّ كلَّ موضعٍ بما فيهِ بعد قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾؛ لأنَّ السّياق في سورة الحاقَّة كان أكثر تعلُّقًا بقوم النَّبيِّ ﷺ الذين قالوا عنه: شاعرٌ وكاهن؛ فناسَبَ نفيُ ذلك عنه بقوله: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ۝٤١ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾. بخلاف ما في سورة التَّكوير، فقد تقدَّمها قول اللّه تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۝١٥﴾ [التكوير: 15]، فلمّا كان السّياق أكثرَ تعلُّقًا بالأمور السَّماويَّة العلويَّة؛ ناسبَه ذكرُ صفاتِ جبريل عليه السلام، بما يدلُّ على علوِّ شأنه وكرامته عند اللّه تعالى، فقال عز وجل: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ۝٢٠ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ۝٢١﴾ [التكوير: 19 - 21][2].

موقِعُ جُملَة: ﴿تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾:

الـتَّـصـريـحُ بمصدَرِ القُرآنِ بـعـدَ نَـفْـيِ الشُّبهات يرسِّخ الـيـقـينَ عـنـدَ المُتَدَبِّر

قولُ اللّهِ تعالى: ﴿تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ يَحتَمِل وجهَين،

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 243، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 27، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 143.

(2) سعد عبد العظيم محمد، استدراك ما فات من بلاغة الآيات المتشابهات، ص: 871 - 872.

أحدهما: أن يكونَ خبرًا ثانيًا عن اسم (إنَّ)، فيكون المعنى: إنَّه لقول رسولٍ كريم، تنزيلٌ من ربِّ العالمين، وهذا تأكيدٌ صريحٌ للمراد، بعد التَّمهيد بالكناية. والآخرُ: أن يكون خبرَ مبتدأٍ محذوف، أي: هو تنزيلٌ من ربِّ العالمين، حُذِفَ للعلم بِه[1].

والجملَةُ في موقعِ الاستِئنافِ البيانيِّ؛ فإنَّه لمّا نُسب القرآنُ الكريمُ إلى ﴿رَسُولِ كَرِيمِ﴾، ثُمَّ نُفيَ كونُهُ مِن قول شاعِرٍ أو كاهن؛ نشأ سؤالٌ في ذهن السّامع عن مصدره الحقيقيِّ، فجاء الجوابُ استئنافًا بيانيًّا يُصرِّح بالمصدر: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فجاء التَّصريح بعد الكنايةِ؛ ليرفعَ كلَّ التِباسٍ، ويُقابل النَّفي السّابق بإثباتٍ قاطعٍ للحقِّ[2].

دلالة التَّعبير بالمَصْدَرِ في: ﴿تَنزِيلٌ﴾:

التَّعبير بالمصدر يُعْلي شأنَ الفِعْل، ويُضفي عليه صفةَ الاستمرارِ واليقينِ

جاء لفظُ ﴿تَنزِيلٌ﴾ مصدرًا في قوله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ وذلك لِما في التَّعبير بالمصدَرِ من قوَّةٍ في الدَّلالة، ومبالغةٍ في إثبات الحقيقَةِ، فإنَّ الوصف بالمصدَرِ يُشبه نسبةَ الشَّيء إلى ذاته، وفيه تصويرٌ للعمَلِ مِن حيثُ هو، لا مِن حيثُ فاعلُهُ أو مَفْعولُه فقط، ممّا يُعطي شعورًا بأنَّ التَّنزيل في غاية التَّحقُّق والرُّسوخ. ومن بلاغة المصدر في هذا الموضع أنَّه يُشير إلى تَكرار الفِعْلِ وتجدُّده، وكأنَّ التَّنزيل متتابع مستمِرٌّ، لا دفعة واحدة[3].

نكتة التَّعبير بوصفِ الرُّبوبيَّة المضافِ بدلًا مِنَ الاسم الأحسَنِ (الله):

إظهارُ وصفِ الرُّبوبيَّة العامَّة يُلغي كلَّ مرجعٍ بشريٍّ مزعومٍ في مقامِ التَّلقّي والتَّعظيم

التَّعبير بوصفِ الرُّبوبيَّة مضافًا إلى ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، في قول الله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ - بدلًا من الاسم العلَم (اللّه) - تنبيهٌ إلى أنَّ مُنزِّل هذا الكتاب ليس إلهًا خاصًّا بالمؤمنين، بل هو ربُّ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 347.

(2) الطيبي، فتوح الغيب: 15/ 630، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 144، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 206.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 144.

جميع الخَلْقِ، ومنهم المخاطَبون بهذا القرآنِ الكريمِ، وكذلك مَن يُعظِّمونهم من الشُّعراء والكهّان، ففيه تذكيرٌ بأنَّ المرجعيَّة الكبرى التي يُحتكم إليها هي ربوبيَّةُ اللّهِ تَعالى الشّاملةُ، لا مكانة الشُّعراء ولا منزلة الكهّان، ومِن ثَمَّ فإنَّ حُكْمَه وشرعَهُ المُتضمَّن في هذا التَّنزيلِ، أولى بالاتِّباع مِن كلِّ قولٍ بشريٍّ محدودٍ[1].

دلالةُ (أل) في ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾:

إظهارُ كمالِ ربوبيَّةِ اللهِ تَعالى وعظيمِ سُلْطانِه

(أل) في ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ مِنْ قول الله تعالى: ﴿تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ دالَّةٌ على الاستغراقِ والعموم، فهو ربُّ جميعِ الخلائق، مِن إنسٍ وجنٍّ وملائكةٍ وغيرهم، وهذا فيه إبرازٌ لكمال الرُّبوبيَّة؛ بحَيث لا يخرج عن سلطانِ اللّه تَعالى أحدٌ، وهذا يقتضي تعظيمَ شأنِ تنزيلِ القرآن الكريمِ ورفعةَ شأنِه.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 144.

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ۝٤٧﴾

[الحاقة: 44 - 47]

مُناسَبةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الرَّدُّ على افتراءاتِ المُشْرِكينَ

لمّا ردَّ اللّهُ تَعالى افتراءاتِ الكُفّار في قولهِم عنِ القُرآن الكريمِ بأنَّه شِعْرٌ أو كِهانة، وأثبت أنَّه تنزيلٌ من ربِّ العالمين، وكان قد بَقيَ مِنَ الأقوال التي قالوها، أنَّه ﷺ – وحاشاه – قد افترى في الرِّسالة، بمعنى أنَّه قد وجدَ بعضَ كتُبِ اللّه تعالى التي نزلَت على مَنْ قَبْلَهُ مِنَ الأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام، فانتَحَلَها مِن غيرِ أن يوحى إليه، نفى سُبْحانه أن يكونَ قَد افترى القرآنَ، وتقوَّله، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾[1].

شَرْحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿تَقَوَّلَ﴾: (قول) أصلٌ واحدٌ صَحيحٌ يَقِلُّ كَلِمُهُ، وهو القَوْلُ مِنَ النُّطْقِ، والمِقوَلُ: اللِّسانُ، ورَجُلٌ قوَلَةٌ وقَوّالٌ: كَثيرُ القَوْلِ[2]، والقَوْلُ: مَصْدَرُ قالَ، ومَعناهُ: الكَلامُ على التَّرتيبِ، أو كُلُّ لَفْظٍ نَطَقَ به اللِّسانُ، سواء أكان مُفيدًا أم لم يَكُن، والتَّقوُّل: تكلُّف القَول، ولا يُستعمَل إلّا في الكذب والباطل[3]، وتَقوَّلَ قَوْلًا: ابْتَدَعَه كذبًا، وتَقوَّلَ فُلانٌ عليَّ باطِلًا، أي: قال عَليَّ ما لَمْ أكن قلتُ، وكَذَبَ عليَّ[4]، والأقاويلُ: جَمْعُ الجَمْعِ، وهو أقوالٌ، كَبَيْتٍ وأبْياتٍ وأبابيتَ. وسُمّيت الأقوالُ المَنقولةُ أقاويلَ تصغيرًا لها وتحقيرًا، كقولِك: الأعاجيبُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قول).
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 380.
(3) ابن عباد، المحيط في اللغة: (قول).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (قول).

والأضاحيك، كأنَّها جَمْعُ أُفْعولَةٍ مِنَ القَوْلِ[1]، والتَّقَوُّلُ في الآية مُرادٌ به: نِسْبَةُ قَوْلٍ لِمن لم يَقُلْهُ، والأقاويل معناها هنا: الأقوال المُفتراة، واحدها: قولٌ، على غير قياس[2].

2) ﴿بِٱلۡيَمِينِ﴾: أصلُ (يمن) كلماتٌ مِنْ قياسٍ واحدٍ[3]، واليَمينُ: اليَدُ اليُمْنى، كُنّيَ بها عَنِ الاهتمام بالتَّمَكُّنِ مِنَ المأخوذ؛ لأنَّ اليَمينَ أقْوى عَمَلًا مِنَ الشِّمالِ لِكَثْرَةِ استخدامِها، فَنِسْبَةُ التَّصَرُّفِ إليها شَهيرَةٌ[4]، واليمين: القسَم، والجمع: أَيْمُنٌ وأيمانٌ، يُقالُ: سُمّي بذلك؛ لأنَّهم كانوا إذا تَحالفوا ضَرَبَ كلُّ امرئٍ منهم يَمينَهُ على يَمينِ صاحبِهِ. وإن جَعَلْتَ اليمينَ ظرفًا لم تَجْمَعْه؛ لأنَّ الظُّروف لا تكاد تُجمع؛ لأنَّها جهاتٌ وأقطار مختلفةُ الألفاظِ[5]، واليَمين في الآية معناه: القوَّة، والمُراد: دونَ إمهالٍ[6].

3) ﴿ٱلۡوَتِينَ﴾: أصلُ (وتن) يدُلُّ على ثباتٍ ومُلازَمةٍ، يُقال: واتَنَ الأمرَ؛ إذا لازَمَه، وماءٌ واتِنٌ: دائم[7]، ووتن الرَّجلُ بالمَكانِ يَتِن وُتونًا؛ إذا أقامَ به، وهو واتِنٌ[8]، ومنهُ: الوَتين، وهو نياطُ القَلْب، وهو حبلُ الوريد[9]، وهو عِرقٌ يَجري في الظَّهرِ حتَّى يتَّصِلَ بالقَلبِ، فإذا انقَطَعَ بطَلَتِ القوى، ومات صاحِبُه[10].

4) ﴿حَٰجِزِينَ﴾: (حجز) أصلٌ واحدٌ مطَّرد القياس، وهو الحَوْلُ بين الشَّيئين، وذلك قولهم: حَجَزْتُ بين الرَّجُلَين؛ وذلك أن يُمنَع كلُّ واحدٍ منهما مِنْ صاحبه[11]، والحاجزُ: الحائلُ بين الشَّيئين[12]، والحِجاز سُمّيَ بذلك؛ لكونه حاجزًا بين الشّام والبادية، وقيل غير ذلك[13]، والمُرادُ بالحاجز هنا: المانع[14]، أي: فما أحدٌ منكم يَمْنَعُنا عن عقوبتِهِ والتَّنكيل به[15].

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 607، وأبو حيان، البحر المحيط: 10/ 226.
(2) المراغي، تفسير المراغي: 29/ 62، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 145.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (يمن).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8 - ب/ 50، و29/ 146.
(5) الجوهري، الصحاح، والزبيدي، تاج العروس: (يمن).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 145.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وتن).
(8) ابن دريد، جمهرة اللغة: (وتن).
(9) الزمخشري، الكشاف: 4/ 607.
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (وتن)، وابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 484، والواحدي، البسيط: 22/ 191.
(11) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حجز).
(12) ابن منظور، لسان العرب: (حجز).
(13) الراغب، المفردات: (حجز).
(14) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 363.
(15) المراغي، تفسير القرآن: 29/ 63.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُقيم اللّهُ تَعالى الحُجَّة على صدق نبيِّه ﷺ، فيقول: لو كان مفتريًا على اللّه تَعالى؛ لعاجَلْناهُ بالعُقوبة، وأخذناهُ أخذًا شديدًا، وقَطَعْنا منه نياط قلبِه، فلا أحد منكُم يستطيع أن يَمْنَع ذلك، فدلَّ هذا على أنَّه صادقٌ فيما يبلِّغ، محفوظٌ بالعناية الرَّبّانيَّة[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

موقع جملة: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ﴾:

التَّعـليـق الاعـتراضيُّ تـوظيـفٌ بلاغيٌّ لتأكيدِ الرَّدِّ ونفيِ الاحتمالِ

قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ﴾ معطوفٌ على جملة: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ﴾ وما تلاها، وهي داخلةٌ في السّياق التَّفريعيِّ الذي جاءت به الفاءُ من قوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾، وهو تفريعٌ على تكذيبهم بالبَعْث، وما اسْتَلزَمه من تكذيبِهم بالقُرآن ومَن جاء به، فهذه الجملة تؤكِّد الرَّدَّ على تكذيبِهم، بنَفْي أقْوى الصّوَر التي قد تُتَوَهَّم في حقِّ الرَّسول ﷺ وهي تَقَوُّله - وحاشاهُ - على اللّه تَعالى.

جَريانُ الجُمْلَة مَجْرى الاعتراضِ البيانيِّ

وقد عُطِفت الجملةُ بطريقةٍ اعتراضيَّة، أي: أنَّها جَرَت مَجْرى الاعتراض البيانيِّ الذي لا يُراد به تتابعُ الحكاية، بل تقويةُ المَعْنى وتعميقُ الرَّدِّ، فدلَّت على أنَّ دعوى التَّقوُّل هي دعوى مردودةٌ من أصلِها، وأنَّ اللّه تعالى لا يُمْهِل مَن يفتري عليه، فكيف برسوله ﷺ الذي نصرَهُ، ورفَعَ قَدْرَه؟!! فالجملة تُقحَم إقحامًا مقصودًا لشدَّة أهمّيَّتها، وهذا من بديعِ الاستِطرادِ البلاغيِّ، وبهذا يصِحُّ اعتبارُ الواوِ هُنا واوًا اعتراضيَّةً، وهو معنًى معتبرٌ في الصِّناعة البلاغيَّة[2].

دلالَةُ (لو) في قوله: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا﴾:

مُفادُ قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ﴾ أنَّه استدلالٌ ثانٍ على أنَّ القرآنَ الكريمَ تنزيلٌ من عند اللّهِ تَعالى، جاء بعدَ

(1) نخبة من علماء التفسير، التفسير الميسر، ص: 568.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 145.

براءةُ النَّبيِّ ﷺ مِنَ التَّقوُّل دليلٌ قاطعٌ على أنَّ القرآن وحيٌ من عند اللهِ لا يُبدَّل، ولا يُفترى

الاستدلالِ الأوَّل المؤكَّد بالقَسَم وسائر أدوات التَّوكيد، وهو استدلالٌ مبنيٌّ على أمرٍ مقرَّرٍ في العقول: أنَّ اللّه سُبْحانه لا يقرُّ أحدًا يفتري عليهِ الكَذِبَ، بَل يُعجِّل بهلاكه، فلو أنَّ محمَّدًا ﷺ افترى هذا القول؛ لأهلَكَهُ اللّهُ تَعالى، فلمّا لَم يقَعْ ذلك؛ دلَّ على أنَّه صادِقٌ فيما بلَّغ، فاستعمال (لو) هنا لبيان امتناعِ التَّقوُّل؛ لأنَّ امتناعَ الجوابِ - وهو إهلاكُ النَّبيِّ ﷺ - يدلُّ على امتناع الشَّرط، وهو أن يكونَ تَقوَّل شيئًا، فتقرَّر بذلك صحَّةُ دعواهُ، وهذه طريقةٌ بلاغيَّة قويَّة، تَبْني الدَّليل من نفيِ لوازمِ الباطِلِ.

وقد تضمَّن هذا الموضعُ ثلاثةَ أغراضٍ بلاغيَّة ومعنويَّة:

أحدُها: توكيدُ بُطْلانِ دعوى أنَّ القرآنَ شعرٌ أو كِهانة؛ لأنَّ مِن شأنِ الشّاعر أو الكاهن ألّا يَنْسِبَ كلامَه إلى اللّه تَعالى، والنَّبيُّ ﷺ، إنَّما يزعُم - وهو صادقٌ - أنَّه رسولٌ من عندِ اللّه سُبحانَهُ.

ثانيها: إبطالُ دَعْوى الافتراءِ، كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ﴾ [الطور: 33]، فيُبيّن أنَّ دَعْوى الافتراء تَسْتَلْزِمُ تَرْكَ اللّهِ تَعالى نبيَّه ﷺ مع هذا الكذبِ، وهو محالٌ.

ثالثُها: قَطْعُ الطَّمع في تبديلِ القرآن، كما طَلَبَ بعضُهُم: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس: 15]، فإنَّ القرآن صادرٌ عن ربٍّ عظيم لا يُقِرُّ الكذبَ، ولا يبدِّل شرعَهُ لأهواءِ الخَلْقِ(1).

بلاغةُ صيغَةِ ﴿تَقَوَّلَ﴾ في قوله: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا﴾:

اشتقاق لفظ (تَقوَّل) يدلُّ على التَّكلُّف والافتراء

التَّقوُّل في قوله: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ﴾: نسبةُ قولٍ إلى مَن لَم يَقُلْه، وقد صيغ على وزن (تفعُّل) الدّالَّة على التَّكلُّف، وهي صيغةٌ تُستعمَلُ لبَيانِ أنَّ الفعلَ مُتعمَّدٌ مقصودٌ يُباشره صاحبُه بافتعالٍ وافتقارٍ إلى صُنْعٍ وتلفيق، كالتَّشدُّق والتَّصنُّع، وهذا يُعطي الكلمة شحنةً بلاغية تدلُّ على سوءِ القَصْدِ وشناعَةِ الفِعْلِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 145.

دلالَةُ تَعْدِيَةِ فِعْلِ التَّقوُّلِ بـ (على):

ترسيخُ صورَةِ الجِنايَةِ

لَمّا كان التَّقوُّلُ يتضمَّن اختلاقَ كلامٍ ونسبتَه زورًا إلى أحدٍ ما؛ فقَد قارَبَ في معناهُ الكَذِبَ، فعُدّيَ بـ (على)، كما يُعدّى فعلُ الكذبِ؛ إذ يُقال: كذَبَ على فلان، وهذا التَّعدّي يرسِّخ صورةَ الجِناية على المنسوبِ إليه القولُ، ويجعل الفعلَ أشنعَ[1].

سِرُّ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿عَلَيۡنَا﴾:

الكذبُ على اللهِ تَعالى ليسَ كالكَذِبِ عَلى غَيْرِهِ

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿عَلَيۡنَا﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ﴾؛ لإفادةِ القصر والاختصاص، وذلك أنَّ الوعيدَ المذكورَ لا يكونُ إلّا على التَّقوُّلِ على اللّهِ تعالى؛ لأنَّ تقوُّلًا عليه سُبحانَهُ ليس كتقوُّلٍ على غيرِه، وفي التَّقديم أيضًا معنى الاهتمامِ بالمقدَّم والعناية بِهِ؛ إذ فيه إبرازُ الجانبِ الأعظمِ في الإثمِ، وهو الكذبُ على اللّهِ تَعالى.

دلالةُ التَّبعيضِ في قوله تعالى: ﴿بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ﴾:

شناعَةُ الافتراءِ عَلى اللهِ تَعالى

التَّعبير بالبعضيَّة في ﴿بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ﴾ مِنْ قول اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ﴾ يُفيدُ تَهويلَ شأنِ الافتراء على اللّه تعالى وتعظيمَهُ، وأنَّ التَّقوُّلَ عليه بشيءٍ يسيرٍ من الأقوالِ كافٍ في استحقاقِ هذه العقوبةِ العظيمةِ، فكيفَ لو كان التَّقوُّلُ أكثرَ من ذلك؟.

دلالةُ الجَمْعِ في لفظ ﴿ٱلۡأَقَاوِيلِ﴾:

تعظيمُ جُرْمِ الافتراءِ، وتصويرُ الكذِبِ على اللهِ تَعالى بأشْنَعِ صورةٍ

لفظ ﴿ٱلۡأَقَاوِيلِ﴾ في قوله: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ﴾ جمعُ (أقوالٍ)، و(أقوالٌ) جمع (قول)، فصار لفظُ الأقاويل جمعًا للجَمْع، وهي صيغةٌ تدلُّ على بيان التَّعدُّد والتَّنوُّع والكثرة الكاثرة، فاختيارُ هذه الصّيغة يوحي أنَّ المقصودَ ليسَ قولًا مفردًا، بل ولا

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 606، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 243، وأبو حيان، البحر المحيط: 10/ 266، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 27، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 145.

أقوالًا معدودة، بل هي طائفةٌ كبيرةٌ من المُفتَرَياتِ المُختَلِفة، المتنوِّعة في صيَغِها ومَضامينِها.

مناسبة الجَمْع لِمَقام الزَّجر والتَّهديد

وقد جاء هذا الأسلوبُ في سياقِ قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ﴾، وفيه تهويلٌ وتضخيمٌ لفِعْلِ التَّقوُّل، فلو كذب، ولو بكلمةٍ واحدةٍ من تلك الكثرة المُتَخَيَّلة المُتَصَوَّرة؛ لأُخِذ على الفور، وهذا يدلُّ على خُطورَةِ الجِنايَة، ولو كانت في أدْنى صورَةٍ، مع ما في اختيارِ ﴿ٱلۡأَقَاوِيلِ﴾ مِن استِحْضارِ طَيْفٍ واسعٍ من الافتراءات؛ ليكون الزَّجر أشدَّ وأفظَعَ[1].

دلالَةُ صيغةِ ﴿ٱلۡأَقَاوِيلِ﴾ على زِنَة (الأفاعيل):

التَّعبيرُ عن الأقوالِ المُفْتَرَاةِ بـ(الأقاويلِ) يجمَعُ بينَ التَّهويلِ في الكَثْرَةِ والتَّهوين في القَدْر

يُفهَم من لفظ ﴿ٱلۡأَقَاوِيلِ﴾ أنَّ المقصودَ تَصغيرُ الأقوالِ المُفْتَراة وتحقيرُها، على جِهَةِ التَّهوين من شأنها لعَظيم فُحشها، كما يُقال في الأعاجيبِ والأضاحيك، فكأنَّها جمع (أُفْعولة) من القولِ، وإن لم تكُنْ هذه الصِّيغةُ مستعملةً، ورَبْطُها بلفظِ (أعاجيبِ) في الدَّلالة على التَّهوين، من باب التَّوسُّع في القياسِ اللُّغويِّ والبلاغيِّ لقرينة السِّياق، فالأحرى أنَّ التَّهوين والتَّصغير في الأقاويل مفهومٌ من جِهَةِ السِّياق لا من جهة الاشتقاق[2]، أو ذلك من بابِ الفَرْضِ والتَّقدير بجَعْلِ (أفاعيل) في (أقاويل) مفرَدُها على أفعولة، كأعاجيب، فيُقدَّر أن جمع أقاويل: أُقْوولة[3].

وأثر ذلك في بلاغة المعنى: تقريرُ أنَّ الكذبَ على اللّٰهِ تَعالى، وإنْ ظهَرَ بمَظْهَرِ التَّضخيم والافتراء؛ فإنَّ حقيقَتَهُ تافِهَةٌ لا وزْنَ لها عندَ اللّٰه تعالى، فلا تَعدو أن تكون (أقاويلَ) لا تقوم أمامَ الحَقِّ.

دلالةُ التَّركيب على نُكران القيمَةِ فيما قيلَ زورًا

وهذا الوجه البلاغيُّ يقابِل الوجهَ الآخر الذي يفيدُ كثرتَها،

(1) ابن المنير، حاشية الانتصاف على الزمخشري: 4/ 607، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 145.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 60.
(3) القونوي، حاشية القونوي: 19/ 283.

فيجتَمِعُ في اللَّفظة: تصويرُ كثرة المفتَرَياتِ مع كونِها لا تَزِن شيئًا من حيث القيمةُ والصِّدق، وهو من دقائق الجمع بين التَّهويل والتَّهوين في آنٍ واحد، وهو وجهٌ بلاغيٌّ بديع[1].

دلالَةُ اللّام في ﴿لَأَخَذۡنَا﴾:

رَبْطُ الجوابِ بِشَرْطِه على وجهِ القَطْعِ واليَقين

اللّام في ﴿لَأَخَذۡنَا﴾ مِنْ قول الله سُبحانَهُ: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ﴾ واقعةٌ في جواب (لو)، وهي تربطُ الجوابَ بالشَّرطِ على وجهِ التَّحقيقِ والتَّوكيدِ، أي: لو كان منه تقوُّلٌ على اللّهِ سُبحانَهُ - وحاشاهُ - لكان الأخذ منه باليمين أمرًا محقَّقًا لا ريبَ فيه.

دلالَةُ التَّعبير بالأخْذ مادَّةً وصيغةً:

شدَّةُ العُقوبَةِ وعَظَمَتُها

جاءَ التَّعبير بفعل الأَخْذِ من قول اللّه تعالى: ﴿لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ﴾؛ لِما في فعل الأخذِ من الدَّلالة على القبضِ بشدَّةٍ وإحكامٍ والتَّمكُّن مِنَ المأخوذ، وفي إسنادِ فعلِ الأَخْذِ إلى ضمير العظَمَةِ (نا) تعظيمٌ لشأنِ هذا الأخذِ، وأنَّه صادرٌ من العظيم ﷻ.

بيانُ وظيفةِ (مِنْ) في قوله: ﴿لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ﴾:

الإشارة إلى التَّبعيض تمهيدٌ للتَّهويل والتَّفصيل في صورة الانتقامِ

(مِنْ) في قوله تعالى: ﴿لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ﴾ فيها معنى التَّبعيض؛ للإشارة إلى أَخْذِ بعضٍ من ذاته، وهو تمهيدٌ لِما بعده: ﴿ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ﴾، أي: ما اكتَفينا بأخذٍ مُجْمَلٍ، بَل أَخَذْنا أخذًا تفصيليًّا مُهلكًا، وهذا التَّركيب يُضفي على صورة الأخذ شيئًا من التَّدرُّج، والتَّمليح البلاغيِّ، وكأنَّما الهلاكُ يأتي بقبضةٍ مُتَدَرِّجة تبدأ ببعضٍ، ولكنَّها لا تقفُ عندَهُ، بل تَنْتَهي بأشَدِّ صوَرِ النِّقمة، وهي: قَطع الوتينِ، أي: إهلاكُه من أصلِه[2].

---

(1) ابن المنير، حاشية الانتصاف بهامش الكشاف: 4/ 607، وأبو حيان، البحر المحيط: 10/ 266، وأبو السعود، إرشاد العقل: 9/ 27.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 146.

بلاغَةُ التَّعبير في أخذِ اليمينِ وقَطْعِ الوتينِ في قوله: ﴿لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ﴾:

تصويرُ تهديدِ اللهِ تعالى بالمجازاةِ بأفجعِ صورةٍ يُسقِطُ دعوى الافتراء

قولُ اللّهِ تعالى: ﴿لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ٤٥ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ﴾ يَنْطَوي على تصويرٍ مروِّعٍ لعقوبةِ مَن يَفتري على اللّه تَعالى؛ إذْ شبَّه اللّهُ تعالى العقوبةَ المترتِّبة على الكذب عليه بما تَفْعَلُهُ الملوكُ بالكذّابين على مَقامِهم؛ مِن إمساكِ المُجْرِم، ثُمَّ ضرب عنقه أمامَ أنظار النّاس؛ ليكون العقاب أشدَّ وقعًا عليه، وأعظم زجرًا لغيره. وهذا التَّصوير المهيب يُقصد منه التَّهويل على من يَتَجَرَّأ على الافتراء، ويؤكِّد أنَّه لو كان النَّبيُّ ﷺ كاذبًا في دعواه الرِّسالة - وحاشاه - لَمَا تَوانى ربُّه تَعالى في إنزال مثلِ هذا العقابِ عليه.

الغرَضُ من تخصيص اليمينِ بالذِّكر في قوله: ﴿لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ﴾:

تخصيصُ اليمينِ أبلغُ في التَّهديد

ذُكِرَ (اليمين) في قوله: ﴿لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ﴾؛ لقصد المبالغةِ في التَّهويل؛ لأنَّ الضَّرب على العنُقِ مِن جهة اليدِ اليُمْنى يواجهُ فيه المقتولُ السَّيفَ مواجهة مباشرة، وهذا أشدُّ على المصبورِ مَن أن يُضرَب في قفاهُ؛ لِما فيه من إذلالٍ ورهبةٍ، فيتماهى مشهَدُ الانتقام الملكيِّ مع تهديدِ اللّهِ ﷻ أبلغَ تمثيلٍ[1].

بلاغةُ العُدول عن التَّعبير الصَّريح بالإهلاكِ في: ﴿لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ﴾:

التَّهويل في التَّعبير عن الإهلاكِ لإثباتِ الرِّسالة والبراءة مِنَ الافتراءِ

لَم يرد النَّظمُ القرآنيُّ: (ولو تقوَّل علينا بعض الأقاويل لأهلكناه)، بل عَدَل عَن ذِكْر الإهلاك صراحةً إلى أخذِ اليمينِ وقَطْعِ الوَتين؛ لِقَصْدِ التَّفصيل في كيفيَّة الإهلاك، فهو لا يُصوِّر الفعلَ مجرَّدًا، بل يُجسِّد مراحلَ الإهلاكِ في هيئَةٍ ملكيَّةٍ صارمَةٍ، مِنَ القبض المباشر، إلى الضَّرب القاتل، إلى استهدافِ الوتين نفسه، وهو عِرق الحياةِ في القَلْب، فالمعنى المقصودُ يتحقَّق بعبارة (لأَهْلَكْناه)، لكنَّ التَّعبير بها لا يُحدث التَّأثير الهائلَ الذي تُحدِثه هذه الصّورة المركَّبة الشَّديدةُ

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 607، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 243، وأبو السعود، إرشاد العقل: 9/ 27.

الرَّهبةِ، وفي ذلك تقريرٌ أبلَغُ لِصِدْقِ النَّبيِّ ﷺ في دَعْواهُ؛ لأنَّه لو كان افترى على اللهِ تَعالى؛ لَمَا تَوانى الحقُّ سبحانه عن مُعاقبَتِه بهذِهِ الصّورة الفظيعَةِ[1].

الإشارةُ إلى تمامِ القُدْرَةِ في الأخْذِ توكيدٌ على استحالةِ الافتراءِ

بلاغةُ الكنايةِ في قولِه: ﴿لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ﴾:

يجوزُ أن يكونَ ذِكْرُ (اليمين) في قوله تعالى: ﴿لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ﴾ كنايةً عنِ القوَّة والتَّمكُّن والاهتمامِ بالأخذ؛ لأنَّ اليمينَ تُستخدم غالبًا فيما يحتاجُ إلى إحكام وتصميم، فهي أشدُّ فتكًا وأبلغ أثرًا من الشِّمالِ، فالإمساكُ باليمين إشارةٌ إلى أخذٍ قويٍّ محكم، لا تردُّدَ فيه، فاختيار هذا اللَّفظ في هذا السّياق لا يخدم دقَّة التَّصوير فحسبُ، بل يُؤَدّي وظيفةً بيانيَّةً كُبْرى، وهي بيانُ أنَّ هذا الافتراض المستحيلَ - افتراء النَّبيِّ ﷺ على اللّهِ تعالى - لو وقَعَ - وحاشاهُ - لاسْتَوْجَب أقسى العقوبةِ بأبلَغِ صوَرِها، لكنْ لمّا لم يقَعْ هذا الأخذُ؛ ثبَتَ صدقُهُ ﷺ[2].

معنى (ثُمَّ) في قوله: ﴿ثُمَّ لَقَطَعۡنَا﴾:

(ثمَّ) من قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ﴾ للتَّرتيبِ مع التَّراخي، وهو تراخٍ زمنيٌّ وَرُتَبيٌّ، وفيه معنى التَّرَقّي في العقوبةِ.

تصويرٌ مُروِّعٌ لإزهاقِ الحَياةِ

دلالةُ التَّعبير بفعلِ القَطْعِ مادَّةً وصيغةً:

جاءَ التَّعبيرُ بفعل القَطْعِ في قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ﴾؛ لِما تدلُّ عليهِ المادَّةُ من الانفصالِ التّامِّ والانقِطاعِ الكامل، وفي هذا تصويرٌ لإزهاقِ الحياةِ تصويرًا مروِّعًا عظيمًا.

وفي إسنادِ فعلِ القطْعِ إلى ضمير العظَمَةِ (نا) تعظيمٌ لشأنِ هذا القَطْعِ وأنَّه صادرٌ من العظيمِ ﷻ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 146.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 146.

بيانُ مَعْنى ﴿ٱلْوَتِينَ﴾ وأثَرُ اخْتيارِه:

قـطـع الـوتـين تصويرٌ لحسْمٍ قاطِعٍ يليقُ بِمَنْ يَفْتَري على اللهِ تَـعـالى عظيمَ الافتراءِ

الوتين: عِرقٌ رئيسٌ يتَّصل بالقلب، ويَسْقي الجسدَ بالدَّم، ويُعرف طبيًّا بالنّياط، وهو بِمَنزِلة النَّهرِ الذي يَمدُّ الحياة، وإذا قُطِعَ مات الإنسانُ لا محالةَ، فاختيار هذا التَّعبير في الآية: ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾، ينقُلُ صورةً دقيقةً مَهيبَةً للهَلاكِ المُحقَّق، كما في نَحْرِ الجَزور عند قطعِ وتينِها[1].

بلوغُ العُقوبَةِ جـوهـرَ الـقـوَّةِ وأصلَ الحَياةِ

والتَّعبير بكلمة ﴿ٱلْوَتِينَ﴾ بدلًا من (القلب) أو (الحياة) أدقُّ معنًى وأشدُّ وقعًا، فهو يُشير إلى مركزِ الإمداد الحيويِّ، ويوحي بالسَّيطرة الكاملة على حياة الإنسان، ومن جهة الاشتقاق؛ فإنَّ مادَّة (وَتَنَ) تدور على معاني المَتانَة والدَّوام، فكان ذِكْرُ هذا العِرْقِ موحيًا بأنَّ العقوبَةَ تبلُغُ جَوْهَرَ القوَّة وأصلَ البَقاء[2].

دلالةُ الفاءِ في ﴿فَمَا مِنكُم﴾، وموقع جملة: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾:

مَن تَقَوَّل على الـلـهِ تَـعـالى؛ فلا ناصِرَ لهُ ولا مدافِعَ عن عقابِ اللهِ العَظيمِ

الفاءُ في ﴿فَمَا مِنكُم﴾ مِنْ قولِ تعالى: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ حرفٌ دالٌّ على التَّفريعِ، وقد جاءتِ الجملةُ بعدَها تفريعًا عن افتراض التَّقوُّل الذي ورد لبيانِ استِحالَة صدور الكذبِ عن النَّبيِّ ﷺ، فهو تتمَّةٌ لتَصْويرِ المآل المَحْتوم لَمن يَفْتَري على اللهِ تَعالى، فلو وقع هذا منْهُ ﷺ - وحاشاهُ - لأُهلِك، ولن يملك أحدٌ من الخلق كائنًا مَن كان أن يمنَعَ عنهُ العقوبَةَ، أو يُؤَخِّرَها[3].

دلالةُ (ما) و﴿أَحَدٍ﴾:

بيانُ استحالَةِ النَّجاةِ مِن عِقابِ اللهِ تَعالى

(ما) في ﴿فَمَا مِنكُم﴾ قول اللهِ سُبحانَهُ: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ نافيةٌ، وقد وردَ بعدَها لفظُ ﴿أَحَدٍ﴾ نكرةً لإفادَةِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 146.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 381.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 147.

العمومِ، فيشمل كلَّ مَن يُظَنُّ فيه القوَّة أو القرب أو الولاء، وفي اختيارِ لفظِ ﴿أَحَدٍ﴾ تقويةٌ للعموم وترشيحٌ لَهُ، وهو مِن أقوى أدواتِ التَّوكيد؛ إذْ يَشْمَلُ الواحِدَ والجَمْعَ والمذكَّر والمؤنَّث على حدٍّ سواء[1].

دلالةُ ﴿مِّنْ﴾ في قَوْلِه: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾:

الخذلانُ المطلقُ لِمن يُريدُ صدَّ قضاءِ اللهِ تَعالى أو دفع بلائِهِ عن أحدٍ

﴿مِّنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ صلَةٌ لتقويةِ النَّفي وتوكيدِ شمولِه، وهذا من الأساليب العربيَّة المشهورة في تقوية المعنى وزيادةِ التَّوكيد، فنقلَتْ ﴿مِّنْ﴾ العمومَ مِنْ كونِه ظاهرًا إلى كونِه نصًّا فيه لا يحتَمِلُ التَّخصيصَ، فيكونُ مؤكِّدًا للاستغراقِ والعَجْزِ الكلّيِّ، أي: لا يوجد منكُم أحَدٌ أبدًا يمكِنُ أن يكون حائلًا بين محمَّد ﷺ وبين العقوبةِ لَو كان مفتريًا، وحاشاهُ! ففيه من الإحاطة والشُّمول ما يسدُّ كلَّ منافذ التَّوهُّم أو الاستثناء؛ ليصير المعنى: (ما من أحدٍ كائنًا مَن كان يستطيع أن يحجز عنه شيئًا مما قدَّره اللّهُ تَعالى)[2].

دلالةُ (عن) في قَوْلِه: ﴿عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾:

بيانُ شدَّة عَجْزِ الخَلْقِ عن صَرْفِ العقوبَةِ الإلهيَّة

(عن) في قول اللّه تعالى: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ حرفٌ دالٌّ على المجاوزةِ، والمعنى: لا يوجَدُ أحدٌ يُمكِنُهُ أن يمنَعَ العقوبةَ أن تَحُلَّ بِه، فتُجاوِزَهُ، وفي التَّعديةِ بالحرف (عَنْ) إيماءٌ إلى مَعْنى الصَّرْفِ، وأنَّ العَجْزَ واقعٌ على صَرْفِ العقوبةِ إلى جِهَةٍ أخرى، بَلْهَ مَنْعَها مِنَ الوقوعِ مطْلقًا؛ فإنَّ الخَلْقَ أشدُّ عجزًا عن ذلك.

دلالَةُ مُطابقَةِ الجَمْعِ للمَعْنى في قولِهِ: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾:

لا يمنَعُ أحدٌ عقابَ اللهِ تَعالى؛ إذا حلَّ

استُعمِل الخبَرُ ﴿حَٰجِزِينَ﴾ بصيغة الجمع مع اسم ﴿أَحَدٍ﴾ المفردِ، في قول اللّه تعالى: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾؛ وذلك لأنَّ لفظَ ﴿أَحَدٍ﴾ هنا ليس على بابه من الإفرادِ، بَل هو في معنى الجمع؛ إذ يُراد به نفيُ وجودِ أيِّ فردٍ من أفراد الخَلْقِ قادرٍ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 147.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 147، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 207.

على الحَجْزِ، فيدخل فيه كلُّ أحد، فصار ﴿أَحَدٍ﴾ اسمًا مفردًا في اللَّفظ، جمعًا في المعنى؛ لوقوعِهِ في سياق النَّفْي.

عموم سياق النَّفي وتكثيرُ العاجِزين

وقد جرت عادةُ العرَبِ أن تَستَعمِلَ بعضَ الألفاظ المفردةِ - كالنَّكرات المنفيَّة - للدَّلالة على الجَمْع والعموم، مثل (دَيّار) و(عَريب)، وكذلك لفظ (أحد) إذا كان بِمَعْنى ذاتٍ أو شخصٍ؛ لا يقَعُ إلّا في سياقِ النَّفيِ، فيعمُّ، وإذا كان اللَّفظ دالًّا على العموم صحَّ أن يُخبر عنه بالجمع؛ لتَصْوير كثرةِ العاجِزين وتَعَدُّدهم؛ تأكيدًا للمعنى وتفخيمًا لعدم وجودِ أيِّ مخلوق يحْجِزُ العقوبة[1].

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 607، وأبو حيان، البحر المحيط: 10/ 267، وأبو السعود، إرشاد، العقل السليم: 9/ 28، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 147، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 206.

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ٤٨ وَإِنَّا لَنَعۡلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ٤٩ وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٠ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ ٥١ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ٥٢﴾ [الحاقة 48 - 52]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

لمّا بيَّن اللهُ تَعالى أنَّ القرآنَ الكريمَ تنزيلٌ من ربِّ العالمينَ، وذكَرَ الأدلَّةَ على استحالةِ أن يكون النَّبيُّ ﷺ افتراهُ ونسبَهُ إلى الله تعالى كذِبًا؛ أعقبَهُ بما يُتمِّم المعنى ويُكمِّله، ويؤكِّد الغرض، فلم يَقْتَصِر البيانُ القرآنيُّ على بيان مصدر القرآنِ الكريم، بل بيَّنَ أثرَهُ وثمرتَهُ، فقالَ سُبحانَهُ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَحَسۡرَةٌ﴾: (حسر) أصلٌ واحدٌ، وهو دالٌّ على كَشْفِ الشَّيْءِ، يُقالُ: حَسَرْتُ عن الذِّراعِ، أي: كَشَفْتَهُ، والحاسِرُ: الَّذي لا دِرْعَ عليهِ، ولا مِغْفَرَ[1]، ومنَ البابِ: الحَسْرَةُ، وهي التَّلَهُّفُ على الشَّيْءِ الفائِتِ، وهي أشَدُّ حالاتِ النَّدَم حَتّى يبْقى النّادِمُ كالحَسيرِ من الدوابِّ الَّذي لا مَنْفَعَة فيهِ[2]، يُقالُ: بعيرٌ حسيرٌ؛ إذا أتْعَبَهُ السَّيْرُ، فلم تَبْقَ لَهُ قوَّةٌ[3]، والمرادُ بالحَسْرةِ في الآيةِ: شِدَّةُ النَّدمِ مَشوبًا بتلهُّفٍ على نفعٍ فائتٍ[4]، والمرادُ أنّ القرآنَ الكريمَ حسرَةٌ عليهِم في الآخرة؛ لأنَّهم يتأسَّفونَ إذا رأوا ثوابَ المُؤْمنينَ[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يبيِّن اللهُ تعالى أنَّ هذا القرآن تذكرةٌ يَنْتَفِعُ بها المتَّقون، مع أنَّه لا يخفى عليه مَن يكذِّب بها، وسيكون تكذيبُهم حسرةً ونقمَةً عليهِم يومَ القيامة، فهو الحقُّ الثّابت الذي لا مِرْيَةَ فيهِ، فلْيُسبِّح المؤمنُ ربَّه العظيمَ تنزيهًا له، وتعظيمًا لكلامهِ ووحيِهِ[6].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حسر).

(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (حسر).

(3) ابن منظور، لسان العرب: (حسر).

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 7.

(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (حسر)، والواحدي، البسيط: 3/ 481، وابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل: 2/ 408.

(6) نخبة من علماء التفسير، التفسير الميسر، ص: 568.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

موقع جملة: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾:

بلاغة العطفِ وتأكيدُ المعنى بما يعمُّ التَّبليغ والهدايةَ

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ عُطِف على ما قبلَه: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾، والضَّمير في الموضعين يعود إلى القرآن الكريم، وهذا العطفُ البلاغيُّ يحمل فائدة عظيمةً؛ إذ يجمَع بين التَّعريف بالقرآن من جهة مصدرهِ وطريق تبليغهِ في قوله: ﴿لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾، ومِن جهة أثره ووجهِ الانتفاع به في قوله: ﴿لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾، فيكون هذا العطف جامعًا للمعاني المتكامِلَة[1].

دلالة التَّوكيدِ بـ (إنَّ) واللّام:

أُكِّدت الجملةُ في قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ بـ (إنَّ) و(اللّام)؛ للمبالغَةِ في إثباتِ المنزلةِ العُليا للقرآنِ الكريم وعظيم أثرِهِ النّافع.

سرُّ تنكيرِ لفظِ (تذكرة):

نُكِّر لفظُ (تذكرة) في قول الله سُبحانَهُ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾؛ تعظيمًا وتفخيمًا لشأن التَّذكرةِ، فالقرآن الكريمُ تذكرةٌ عُظْمى؛ لجمعِه كلَّ خيرٍ ونورٍ وهدايةٍ.

بلاغَةُ التَّعبير بالمَصْدَرِ في قوله: ﴿لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾:

القرآنُ الكريمُ تذكرةٌ دائمةٌ، لا ينقَطِعُ أثرُها إلّا بإعْراضِ القُلوب عَنْها

أُخْبِرَ عن القرآن الكريم بالمصدرِ (تذكرة)، في قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ﴾، فلم يَرِد في البيان القرآنيِّ: (يذكِّر المتَّقين) أو (مذكِّرٌ للمُتَّقين)؛ تنبيهًا على المُبالغَةِ في الوَصْفِ، وكأنَّ القرآنَ الكريمَ نفسَهُ هو التَّذكير بعينِه، لا مجرَّدُ آلةٍ لَه، وهو من أساليبِ البَلاغَة التي تعمِّق المعنى وتكثِّف الأثَر، فالتَّعبير بالمَصْدَرِ يُرسِّخ كونَ القرآنِ الكريم مذكِّرًا بذاته، فمعنى كونهِ تذكرةً: أنَّه يُذكِّر العباد بما فُطروا عليه، ويوقظ الغافِلين من سُباتِهم، ويبيِّن لهم ما يليقُ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 148.

بجلالِ الرَّبِّ وعظيم أمْرِه، فمَهْما كانت حالُ المتلقّي؛ فإنَّ القرآن يبقى تذكرَةً في ذاته، ينتَفِعُ بها مَن شاء أن يتذكَّر، ويُعْرِض عنها مَن غَلَبَت عليه الغَفْلَة[1].

دلالَةُ عمومِ الزَّمن في لفظِ (تذكرة):

هدايةُ القرآنِ الكريمِ لا تنقَطِعُ؛ فمَنِ اتَّقى اللهَ تَعالى وجدَهُ مذكِّرًا له في كلِّ زمانٍ

وُصِفَ القرآن بأنَّه تذكرةٌ في قول الله ﷻ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾، أي: أنَّهُ مصدرُ تذكيرٍ، وذلك يَقْتَضي أنَّ تذكيره غيرُ مقيَّد بزمن، بخلاف ما لو عُبِّر بالفعل؛ إذ الفعل يُشْعِر بزمَنِ وقوعِه، بخلافِ المَصْدَرِ؛ فإنَّهُ لا يدلُّ على اختصاصِ بزمنٍ، ولذلك يَسَعُ الأزمنَةَ الثَّلاثة: الماضيَ، والحاضِرَ، والمستقبلَ.

أثَرُ القرآنِ الكريم ممتَدٌّ في كلِّ حينٍ

فهو تذكرةٌ للمتَّقين في كلِّ عصر، مَن آمن به أوَّل مرَّة، ومَن تأمَّله لاحقًا، ومن سَيَهْتَدي به بعد حينٍ، فكلُّ مَن اتَّقى، واستعدَّ لاستقبال الموعظةِ؛ يجدُ فيه ذِكْرى تهديه، وتنبيهًا يوقِظُه[2].

دلالَةُ اللّامِ في ﴿لِّلۡمُتَّقِينَ﴾:

اللّامُ في ﴿لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ مِنْ قول الله ﷻ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ حرفُ جرٍّ دالٌّ على الاختصاصِ، فهو يُفيدُ اختِصاصَ كمالِ التَّذكير بأهل التَّقوى دون غيرِهم.

دلالَةُ قيدِ نَفْعِ القرآن بالمتَّقين في قوله: ﴿لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾:

صلاحُ القَلْبِ بالتَّقوى شَرْطٌ لانتِفاعِهِ بتَذْكِرَةِ القُرآنِ الكريمِ

قُيِّد نَفْعُ القُرآن الكريم بطائفةٍ مخصوصَةٍ، وهُم المُتَّقون في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾، لا لأنَّ التَّذكير لا يتوجَّه إلى غَيْرِهم، بل لأنَّهُم وحدَهُم الذين أدركوا منزِلَتَهُ، وتأهَّلوا للانتفاعِ بهِ، فالتَّقوى تجعَلُ القَلْبَ موطَّنًا على التَّلقّي والخَشْيَةِ والاستجابة، فالتَّذكرة لا تقع موقعَها في القلب إلّا إذا كان القلب حيًّا بالتَّقوى، وإلّا فهي لا تتجاوَزُ الآذان، وهذا من سُنَنِ اللّه تَعالى

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 148.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 149.

في كتابهِ: أنَّ الهداية لا تكون إلّا لمن يستعدُّ لها، كما قال تعالى: ﴿هُدَى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة: 2][1].

دلالَةُ (أل) في (المتَّقين):

انتفاعُ عُموم أهلِ التَّقوى بالقُرآنِ الكَريم

(أل) في (المتَّقين) من قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ دالَّةٌ على العموم والاستغراقِ، فالقرآنُ الكريمُ تذكرةٌ وعِظَةٌ لكلِّ مَن اتَّصفَ بصفةِ التَّقوى.

ويجوزُ أن تكون (أل) للكمال، أي: أنَّ كمال التَّذكير بالقرآن الكريم إنَّما يكون لِمَن كَمُلت تقواهُ، وبحسب نقصِ التَّقوى يكون نقصُ التَّذكيرِ.

موقِعُ جملةِ: ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾ في النَّظم:

بيانُ عاقبةِ المتَّقين والمكذِّبين يزيدُ التَّذكرة أثرًا

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ۝٤٩ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ جملتانِ مترابِطَتان، جاءت الأولى تمهيدًا للثّانية وتوطئةً لها، وفيها التفاتٌ إلى حالِ المُكَذِّبين؛ تنبيهًا وتحذيرًا، وبيانًا أنَّ الله تَعالى لا يخفى عليه عِنادُهُم، ولا يردُّه علمُه عَن إقامة الحجَّة عليهم، والجملة الثّانية: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ﴾ معطوفة على ما قبلها من وصف القرآن بأنَّه تذكرةٌ ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ﴾، فجمعت الآيةُ بين وصفٍ نافعٍ للمتَّقين، ووصفٍ ضارٍّ بالكافرين، بطريق التَّضادِّ الذي يُبْرِزُ المعنى بقوَّة، ويزيدُ تأثيره، فبَيْنَ الجُمْلَتَين المتعاطِفَتَيْنِ محسِّن الطِّباق بين ﴿لَتَذْكِرَةٌ﴾ و﴿لَحَسْرَةٌ﴾، وعليه فإنَّ جملةَ: ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ﴾ معترضةٌ بينَ ما قَبْلَها وما بَعْدَها.

دلالَةُ إيرادِ الجُمْلَةِ المُعْتَرِضَة بينَ المُتعاطِفَيْن:

العنايَةُ بتنبيه المُكَذِّبين إلى حالِهِم الشَّنيعَةِ

جملَةُ: ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾ معترضَةٌ بينَ المَعْطوفَيْن: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾، وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾،

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 243، وأبو السعود، إرشاد العقل: 9/ 28، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 149.

وتقديمُ جملة الاعتراضِ على ما بَعْدَها اهتمامٌ بتنبيهِ المُكذبين إلى حالِهم، وكانت أيضًا بمنزلةِ التَّتميم لِما قبلها - ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ - والمعنى: إنّا بعثنا إليكم الرَّسولَ بهذا القرآنِ الكريم، ونحنُ نعلَمُ أنَّه سيكون منكم مكذِّبون له وبِهِ، وعِلْمُنا بذلك لَم يَصْرِفْنا عن توجيهِ التَّذكير إليكم وإعادتِه عليكم؛ ﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ﴾ [الأنفال: 42][1].

بلاغةُ التَّوكيدِ في قوله: ﴿وَإِنَّا لَنَعۡلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾:

تتابعَت المؤكِّداتُ في قول اللّه تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَعۡلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾، فقد أُكِّدت الجملة بـ (إنَّ) واللّامِ، و(أنَّ)، واسميَّة الجملةِ؛ وذلك لتأكيد سعةِ العِلْم الإلهيِّ وإحاطتِهِ.

الكنايَةُ في قولِه: ﴿لَنَعۡلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾:

التَّصريح بالعلم الإلهيِّ بالمُكذِّبين توطئةٌ للوَعيدِ الصّارم

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَعۡلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾ خبر صريح بإحاطةِ علم اللّهِ تَعالى بما في نفوسِهم من التَّكذيب والجحود، وهو علمٌ مقترنٌ بالعَدْلِ في المُحاسبَةِ والعِقاب، وليس علمًا يترتَّب عليه إهمالٌ أو إمهالٌ بلا جزاء، فالكلام كنايَةٌ عَن تهديدٍ ووعيدٍ؛ لأنَّ عِلْمَ اللّهِ تَعالى بالتَّكذيب يَسْتَتْبِعُ بالضَّرورة المجازاة عليه، فالجُمْلَةُ في ظاهِرها خبَرٌ، لكنَّها تَحْمِلُ بين طَيّاتها وعيدًا وإنذارًا شديدًا، وتذكيرًا بأنَّ هذا التَّكذيب لَم يَكُن غائبًا عن علم اللّهِ تَعالى، بل هو محفوظٌ ومؤجَّلٌ إلى يوم الجَزاء[2].

معنى (مِنْ) ودلالتُها في ﴿لَنَعۡلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾:

(مِنْ) في قول اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَإِنَّا لَنَعۡلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾ حرفُ جرٍّ دالٌّ على التَّبعيضِ، وهو مفيدٌ أنَّ صفةَ التَّكذيبِ لا تَعُمُّ المخاطَبينَ جميعًا.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 149.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 267.

أثَرُ القرآنِ الكريمِ: نَفْعًا لأهلِ الإيمانِ وخَسارَةً لأهلِ الكُفْرانِ

علَّةُ وصلِ قولِه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ بما قبله:

وُصِلَ قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ بالجملة قبله، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾؛ لِما بينهما من التَّوسُّط بين الكمالَيْن؛ إذ الجملتانِ متَّحدتان خبرًا، وبينَهما تناسبٌ لفظًا ومعنًى، فأمّا في اللَّفْظ فاشتراكُهُما في الاسميَّةِ، وتصديرِ كلٍّ مِنْهما بحرف التَّوكيد (إنَّ) ودخول اللّام على خبرها، وأمّا في المعنى فما بينَهُما من بيان أثرِ القرآنِ على صِنفَين متضادَّينِ، وهم المتَّقون المؤمنون، والكافرونَ المكذِّبونَ.

القرآنُ الكريمُ رحمَةٌ للمُؤْمنينَ وخسارٌ وحَسْرَةٌ على الكافرينَ

دلالةُ التَّوكيدِ بـ (إنَّ) واللّام في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ﴾:

أُكِّد قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ بـ (إنَّ) واللّام واسميَّة الجملةِ؛ للقطعِ والجزمِ بأنَّ القرآن الكريم الذي هو رحمةٌ للعبادِ؛ سيكونُ سببَ حسرةٍ وندَمٍ في قلوبِ أهل الكُفْر، فالقرآنُ الكريم هدايةٌ للمُقْبِلِ عليه، وحسرةٌ على المُعرِض عَنْهُ، كما قال الله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا ٨٢﴾ [الإسراء: 82].

عَظَمَةُ حَسْرَةِ الكافرينَ يومَ القيامَةِ

سرُّ تنكيرِ لفظِ (حسرة):

نُكِّر لفظُ (حسرة) في قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾؛ لإفادَةِ التَّعظيم والتَّهويل، فالقرآنُ الكريم سيكونُ حسرةً عظيمةً تملأُ القلبَ لا نظيرَ لها، ولا يُدرَكُ كُنْهُها، على أهل الكُفْرِ المعرضينَ عَنْهُ.

إحاطَةُ الحَسْرَةِ بالكُفّارِ وغَمْرُها لَهُم

دلالةُ حرفِ الجرِّ ﴿عَلَى﴾:

﴿عَلَى﴾ في قول الله سُبحانَهُ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ حرفُ جرٍّ دالٌّ على الاستعلاءِ، وهو استعلاءٌ مجازيٌّ؛ إذْ صوِّرتِ الحسرةُ في صورةِ شيءٍ حسّيٍّ يعلو أهلَ الكُفْرِ، ويُحيطُ بهم مِن كلِّ جانبٍ.

غرض إقامة الاسْمِ الظّاهر ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ بدلَ الضَّمير:

عُدِلَ عن الضَّميرِ في قول اللّهِ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، وذلك بعدَ أن سبقَ في الآيةِ قبلُ ﴿أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾ إلى الاسم الظّاهر ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، فلم يرد في النَّظم القرآنيِّ: (وإنَّه لحسرةٌ عليهِم)؛ وذلك لتوسيع دائرة المعنى، فالحَسْرَةُ هنا ليست مقصورةً على المكذِّبين الموجودين حالَ نزولِ الآية، بل هي شاملةٌ لكلِّ مَن اتَّصف بالكُفْرِ مِنَ الأمم قاطبَةً، ممَّن سبَق أو لَحِق، فالتَّعبير بـ ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ يُظهر عِلَّة الحَسْرَة، وهي كفرُهم، لا مجرَّدُ التَّكذيب الظّاهر؛ إذِ الحسرَةُ لا تكون على فَقْدِ شيءٍ يسيرٍ، بل على فواتِ الحَقِّ الذي لم يَقْبَلوهُ، ولَم يُقَدِّروهُ، فكان التَّعبير بهذا اللَّفظ أشدَّ وقعًا وأحكمَ دلالةً[1].

الـكُـفْـرُ سببُ الحَسْرَةِ الأبديَّة، والـتَّـكـذيـبُ أحـدُ مـظـاهِـرِه المُـسـتَـوجِـبَـة للعَذاب

دلالةُ (أل) في ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾:

(أل) في ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ دالَّةٌ على العموم والاستغراقِ، فالقرآنُ الكريمُ حسرةٌ وندامةٌ لكلِّ مَن اتَّصفَ بصفةِ الكُفْرِ.

ويَحْتَمِلُ أن تكون (أل) دالَّةً على الكمال، أي: أنَّ كمالَ الحسرةِ يكون لِمَن كَمُلَ كُفْرُهُ، وعَظُمَ.

عِـظَـمُ الـكُـفْـرِ مـوجِـبٌ لكمالِ الحَسْرَة

موقِعُ جملَةِ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ﴾:

قولُ اللّهِ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ﴾ معطوفٌ على ما قبله مِن قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، وهو عطفٌ يُتمِّم الصّورة البيانيَّة؛ لِما للقرآنِ الكريمِ مِن أثرَيْنِ مُتضادَّين، فهو رحمةٌ للمؤمنينَ، وحسرةٌ على الكافرينَ، وبينَ الجملتينِ تَوسُّط بين الكمالَيْنِ؛ إذ الجملتانِ متَّحدتان خبرًا، وبينَهما تناسبٌ لفظًا ومعنًى، فأمّا في

اليقينُ بالقرآنِ هـو الـنَّـجـاة، والتَّكذيب به هو الحَسْرَةُ التي لا تَنْقضي

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 149.

اللَّفْظِ فاشتراكُهُما في الاسميَّةِ، وتصديرِ كلٍّ مِنْهما بحرف التَّوكيد (إنَّ) ودخولِ اللّام على خبرها، وأمّا في المعنى فما بينَهُما من بيان أوصافِ القرآنِ الكريمِ.

مَرْجِعُ الضَّميرِ في قولِه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ﴾:

القـرآنُ حقٌّ لا ريـبَ فيـه، وحسرتُهم عليه حقٌّ متيقَّن

الضَّمير في ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ مِنْ قول اللّه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ﴾ يجوزُ أن يكون راجعًا إلى القرآن الكريم، والمعنى: أنَّ هذا القرآن نفسَهُ هو حقُّ اليقين، أي: أعلى مراتبِ الحقِّ، فهو صدقٌ لا مرية فيه، ويقينٌ لا يتطرَّق إليه وهْمٌ.

ويجوزُ أن يكون الضَّميرُ عائدًا على القرآن الكريم باعتبارِهِ حسرةً على الكافرين، والمعنى: إنَّ حَسْرَتَهُم بهِ ليست وهمًا أو تهويلًا، بل هي حقٌّ يقينيٌّ سيتحقَّق لا محالة، ولا مفرَّ لهم مِنْهُ[1].

ولا تنافيَ بينَ المعنَيَيْنِ؛ فالقرآن الكريم هو حقُّ اليقينِ في نفسِهِ، وكونُهُ حسرةً على الكافرينَ أمرٌ محقَّقٌ لا شكَّ فيه ولا ريْبَ.

دلالةُ التَّوكيدِ بـ (إنَّ) واللّامِ في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ﴾:

أُكِّد قول اللّه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ﴾ بـ (إنَّ) واللّامِ واسميَّة الجملة؛ للقطْعِ والجزم بأنَّ القرآن الكريم حقٌّ في نفسِهِ، بل في أعلى مراتب الحقِّ، أو أنَّ الجَزْمَ بكونِ القرآن حسرةً على الكافرينَ حقٌّ لا ريبَ فيه ولا مريةَ.

بلاغةُ التَّعبير بـ ﴿لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ﴾:

القرآنُ الكريمُ تجاوزَ اليقينَ إلى حقِّ اليقينِ

جاء التَّعبير بـ ﴿لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ﴾؛ ليبلُغ القَصْدُ غايتَه في التَّوكيد؛ إذْ ليسَ هو مجرَّد يقينٍ، بل هو حقُّ اليقين، أي: اليقين الذي لا يتعلَّق به احتمالُ النَّقيض من أيِّ جهةٍ كانَت، فهو تحقيقٌ فوقَ التَّحقيق، لا تردُّد فيه، ولا يلحَقُهُ أدْنى رَيْبٍ.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 150.

دلالَةُ الإضافَةِ في ﴿ٱلۡحَقُّ ٱلۡيَقِينِ﴾:

الإضافَةُ في قولِه: ﴿لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ﴾ من باب إضافةِ المَوْصوفِ إلى الصِّفة، أي أنَّ اليقينَ هو الموصوفُ، والحَقَّ هو صفتُه، والأصل: (اليقينُ الحقُّ)، أي الذي لا يُخالطه شَكٌّ، ولا يعتريهِ وهْمٌ، بل هو أعلى درجاتِ العِلْمِ والقَطْعِ والوُضوح(1).

القرآنُ الكريمُ حقٌّ في ذاته، وهو الثّابت الذي لا يعتريهِ وهْمٌ

ويَحْتَمِلُ أن تكونَ الإضافةُ في ﴿لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ﴾ ليست من إضافَةِ المَوْصوفِ إلى الصِّفة، بل هي من إضافةِ الجِنْسِ إلى نوعه، على طريقة قولهم: خاتمُ فضَّة أو ثوبُ خزٍّ، فالحقُّ أعمُّ من اليقين؛ إذ يشمَلُ أنواعًا متعدِّدة من الثُّبوت والصِّدق، واليقينُ نوعٌ مخصوصٌ منه، فأُضيف العامُّ إلى الخاصِّ؛ تنبيهًا على أنَّ هذا النَّوع - أي اليقين - هو حقٌّ لا شبهةَ فيه.

ومنشأُ الاحتمالِ في الإضافة: أنَّ المضافَ إليه قد يكون مغايرًا للمُضاف، ولا يَصْدُقانِ على ذاتٍ واحدة، وقد يُجانِسُهُ، فيَصْدُقان على مُسَمًّى واحِدٍ، فمَن اعتبَر أنَّ كِلا اللَّفظين - الحق واليقين - قد يصدقان على ذاتٍ واحدةٍ، كما في قولك: العينُ الحَقَّةُ، فهو من الإضافة بين الموصوفِ وصِفَتِه، ومَنِ اعتبر أنَّ الإضافةَ هُنا تُبيِّن نوعًا مِن جِنْسٍ، لا صفة مِن مَوْصوفٍ، فهو من إضافةِ الجِنْسِ إلى نَوْعِه(2).

وقد ذهَب الكوفيّون إلى أنَّ الإضافة من إضافة الشَّيء إلى نفسِه، قالوا: الأصلُ: الحقُّ اليقينُ، ثُم أُضيف المنعوتُ إلى نعتِه، أي: إنَّ الحقَّ هو اليقين بعَيْنِه، فجُعلت الإضافة لمجرَّد التَّوكيد، والنَّعت هو المنعوت في المعنى، كقولك: نفسُ الإنسانِ(3).

وهذا التَّنوع في التَّقدير البلاغيِّ يُبرز أنَّ العبارة القرآنيَّة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 150.

(2) ابن القيم، التبيان في أقسام القرآن: 1/ 286.

(3) مكي، الهداية إلى بلوغ النهاية: 12/ 7693، والشنقيطي، أضواء البيان: 7/ 537.

تستوعِبُ أكثرَ مِن وجه، وجميعها يدلُّ على مبالغةٍ في توصيف اليقين بأنَّه الحقُّ الخالص في ذاته، أو أنَّه أخصُّ أنواعِه، أو أنَّه هو عينهُ.

مَعْنى الفاءِ في قولِه: ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾:

افتُتِح قولهُ تَعالى: ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾ بحرفِ الفاءِ دلالةً على التَّفريع، فهو ثمرَةٌ لِما سبَقَ تقريرُهُ مِن حقائقَ كُبْرى، منها إثباتُ أنَّ هذا القرآنَ الكريمَ تنزيلٌ من ربِّ العالمين، ومنها: تنزيهُ النَّبيِّ ﷺ عَن أن يكون شاعرًا أو كاهنًا أو متقوِّلًا، ومنها: بيان حُجّيَّة هذا القرآنِ الكريم، وعاقبةِ المكذِّبين به، فبَعْدَ أن تبيَّن صِدْقُ هذا النّور، ودُحِضت شبهاتُهم؛ جاء الأمر بالتَّسبيح تعظيمًا للّهِ تَعالى، وشكرًا له على هذه النِّعمة العُظْمى[1].

من نِعَمِ اللهِ تَعالى إنزالُهُ القرآنَ وحفظُ نَبيِّه ﷺ، فكانَ التَّسبيحُ أعظمَ الشُّكر وأجملَ الوفاء

دلالة التَّعبير بالتَّسبيح في قوله: ﴿فَسَبِّحۡ﴾:

(التَّسبيح) في أصلِه تنزيهٌ عن النَّقائص، ويشمَلُ أوجهًا متعدِّدة: اعتقاديَّةً، وعمليَّةً، وقوليَّة، ولمّا كان المقامُ مقامَ بيانٍ وبلاغٍ وتسليم لِما أُنزل؛ كان التَّسبيحُ المطلوبُ هنا تسبيحًا لسانيًّا يصدِّقه الاعتقادُ، ويُتوَّج بالشُّكر والطّاعة، ولهذا جاء التَّعبير بـ: ﴿بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾[2].

التَّسبيح الجامِعُ للقَوْلِ والاعتقادِ والعَمَلِ

بلاغَةُ التَّعبير بـ (اسْمِ ربِّك) دون (سبِّح ربَّك):

جاء التَّعبيرُ بقوله: ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ دون (فسبِّح ربَّك) في قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾؛ تنبيهًا إلى أنَّ التَّسبيح القوليَّ لا يتحقَّق إلا بذكر الاسمِ اللَّفظيِّ للّهِ تَعالى، فلا يكفي فيه مجرَّدُ الاعتقاد القلبيِّ أو المعنى الذِّهنيِّ، بل لا بُدَّ من أن يَجْري الاسمُ على اللِّسان، وهذا أدقُّ في حراسة المقصودِ مِنَ التَّسبيح وإظهارِه.

لا يَكمُلُ تنزيهُ الله تعالى حتّى يُذكَرَ اسمُهُ على اللِّسان، ويُعظَّمَ بالقول والاعتقادِ والعملِ جميعًا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 151.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 151.

دلالَةُ وصْفِ ﴿ٱلۡعَظِيمِ﴾ في هذا المقام:

وَصْفُ الرَّبِّ بـ﴿ٱلۡعَظِيمِ﴾ في قوله تَعالى: ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾ لَفْتٌ إلى جلالِ المنزَّه، وشدَّة افتقار العباد إليه، وعِظم نِعَمِه الموجِبَةِ للتَّسبيح، والتَّسبيح عند العظيم أعظم في الأثر، وأجلُّ في تحقيقِ الواجبِ[1].

التَّسبيح عند العظيمِ أعظَمُ في الأثر، وأجلُّ في تحقيقِ الواجبِ

التَّناسُبُ بينَ خاتِمَةِ السّورةِ ومُفْتَتَحِها:

ذكر اللّه تعالى في أوَّل السّورةِ الحاقَّةَ، وذكر طرفًا من عقوبة المكذِّبين بها في الدُّنيا، فذكر ثمودَ وعادًا، فقال سُبحانَهُ: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ ۝٤ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗاۖ فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ ۝٧ فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ﴾، ثُمَّ ذكر جزاء المؤمنين بها والمكذِّبين بها في الدّار الآخرة، فقال سُبحانَهُ: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ﴾ الآيات، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ﴾ الآيات.

القرآنُ الكريم وحدةٌ متكامِلَةٌ متناسِبَةٌ

ثُمَّ ذكَر في خِتام السّورة المؤمنينَ والمكذِّبين، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾، وذكر أنَّ عاقبة المكذِّبين الحسرَةُ، فقال سُبْحانه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، ثُمَّ أمر المؤمنَ بتسبيح ربِّه في كلِّ ما يفعل، ومن ذلك ما يُجازي بِهِ عبادَهُ، فقالَ: ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾[2].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 385.

(2) فاضل السامرائي، التناسب بين السور في المفتتح والخواتيم، ص: 79 - 80.

سُورَةُ المَعَارِجِ

سُورَةُ المَعَارِجِ

التّعريف العامّ بالسّورة:

المكّي والمدنيّ وعدّ الآي:

هذه السّورة مكّيّة اتّفاقًا، وقد ذَكَرَ ابنُ عطيّة[1] والسّيوطيّ[2] الإجماعَ على ذلك، وتبعهم في ذلك كثيرٌ من المفسّرين[3].

وأمّا عدد آياتها؛ فهي أَرْبَعونَ وثَلاث آيات عند الشّاميّ، وأَرْبع وأربعون في عدد الباقينَ، واختلافهم في آيَة: ﴿فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ [المعارج: 4]؛ فلم يعدّها الشّاميُّ، وعدّها الباقونَ[4].

ترتيب النّزول وترتيب المصحف:

جاء ترتيبها المصحفيّ بين سورتي (الحاقّة) و(نوح)

هذه السّورة هي السّبعون في التّرتيب المصحفيّ الشّريف؛ وهو التّرتيب الثّابت والمُعوّل عليه عند أهل النّظر والتّحقيق، فجاء ترتيبها بين سورتي (الحاقّة) و(نوح)، وأمّا ترتيبها النّزوليّ؛ فذهب بعضُ أهل العلم إلى أنّها السّورَةُ التّاسعة والسّبعون نزولًا[5]، وذهب آخرونَ إلى أنّها الثّامنة والسّبعون، وقد نَزَلَتْ بَعْدَ سورَةِ الحاقّة، وقَبْلَ سورَةِ النَّبأ[6].

فضائل السّورة:

هذه السّورة من سور المفصّل

هذه السّورة الكريمة من طوال المفصّل الذي قال فيه النَّبيُّ ﷺ فيما رواه عنه واثلة بن الأسقع رضي الله عنه: "أُعطيتُ مكانَ التَّوراةِ السَّبعَ الطِّوالَ، وأُعطيتُ مكانَ الزَّبورِ المئين، وأُعطيتُ مكانَ الإنجيلِ المثانيَ، وفُضِّلتُ بالمُفصَّلِ"[7].

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 364.
(2) السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 1/ 43.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 152.
(4) الداني، البيان في عدّ آي القرآن، ص: 254.
(5) دروزة، التّفسير الحديث: 5/ 392.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 153.
(7) أخرجه أحمد في المسند، برقم: (16982)، والطبراني في المعجم الكبير: (22/ 76، برقم: 187)، والبيهقي في شعب الإيمان، برقم: (2192).

اسم السّورة ومناسبة تسميتها:

سورةُ (المعارج) اشتهرت باسم (سَألَ سائِلٌ)، و(الواقع)

ورد تسميتُها بسورة ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ﴾ في كثيرٍ من المصاحف، وفي صحيح البخاري[1]، وفي جامع الترمذي[2]. وسمّيت في معظم المصاحف المشرقيّة والمغربيّة وفي معظم التّفاسير سورة (المعارج)[3]. وذكر السّيوطيّ أنّها تسمّى سورة (الواقع)[4]، وسُمّيت هذه السّورة بهذه الأسماءِ؛ لورودها في أوّلها. ويُشكِلُ عليه أنَّه قد وردت ألفاظٌ في أوائل كثيرٍ من السّور ومع ذلك لم تُسمّ باسمها، ويُجاب عَنْهُ بأنَّ المتقرِّر في القواعد أنَّ سببَ التَّسمية لا يوجِبُ التَّسميةَ.

وقد قام البقاعيّ بالرّبط بين أسمائها ومقصودها خيرَ ربطٍ فقال: "ومقصودها: إثبات القيامة، وإنذار مَن كفرَ بِها، وتصويرُ عظمَتِها بعظمة ملكها، وطول يومها، وتسلية المُنْذِر بها لِمن كذّبه بما له مِن الصَّغار والذُّلّ والتّبار.

ودلّ على وجوب وقوعِها سابقًا بما ختمه بتسميتها في السّورة الماضية بالحاقّة؛ تنبيهًا على أنّه لا بدّ منها ولا محيد عنها. ودلّ على ذلك: القدرة في أوّلها، والعلمُ في أثنائها، والتّنزّه عمّا في إهمالها من النّقص في آخرها، ولا خَفاء بِما أخبر من أنّه أرسل جميع رسلِه بالتّحذير منها. وعلى هذا المقصد دلّ كلٌّ من أسمائها: سأل، والواقع، والمعارج. وهي أنسَبُ ما فيها للدّلالة على ذلك"[5].

المحور العامّ للسورة:

محور السّورة يقوم على إثبات حقيقة يوم القيامةِ، وبيانِ أهوالـه وبيان أحوال النّاس فيهِ

إذا كان محورُ سورةِ الحاقّة يقوم على بيان حقيقة البعث يوم القيامة وما يجري فيه من أحداث، وبيان حال المكذّبين به في يوم وقوعه؛ فإنّ موضوعات هذه السّورة مؤكّدةٌ لذلك المحور ومفصّلةٌ

(1) البخاري، صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ﴾، 6/ 159.
(2) التّرمذيّ، جامع التّرمذيّ، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة سأل سائل،5/ 426.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 152.
(4) السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 1/ 196.
(5) البقاعي، مصاعد النّظر: 3/ 119 - 121.

لما جاء فيه؛ حيث بيّنت السّورةُ ثبوتَ وقوع اليوم الآخر واستحقاق الكافرين للعذاب فيه، وبيّنت ما يُرافِقُه مِن أحداثٍ كونيّة في ظهور السّماء كالمهل والجبال كالعهن، وكيف أنّ الكافر يتمنّى لو كان يستطيع أن يفتديَ نفسَه من العذاب بأقرب النّاس إليه، فجاء بيان الأمور الآتية:

أولًا: بيَّنت السّورة للمنكرين أوصافَ العذاب الّذي أعدّه لهم للسّاعة: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ١٥ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ١٦ تَدۡعُواْ مَنۡ أَدۡبَرَ وَتَوَلَّىٰ ١٧ وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ﴾ [المعارج: 15 - 18].

ثانيًا: وضَّحت السورة لهم طبيعةَ الإنسان على وجه العموم، ثمّ ذكرت طبيعة المصلّين على وجه الخصوص، الّذين وصفهم بأنّهم على صلاتهم دائمون، ويُخْرِجون من مالهم حقّ الفقير والمسكين، وأنّهم يصدّقون بيوم القيامة ولا يكذّبونه، وأنّهم يخافون عذابَ ربّهم ويحفظون فروجهم إلّا على ما أحلّه لهم، وكذلك يحفظون أماناتِهم وعهودَهم ويقومون بشهاداتِهم ويُحافظون على صلاتهم، ووعدهم بعد ذلك أن يُكرّموا في الجنّاتِ.

ثالثًا: ختمت السورة ببيان أنّ اللّه تعالى قادرٌ على استبدال المنكرين، ثمّ توعّدتهم الآياتُ في ختام السّورة بيوم القيامة مرّة أخرى ولكن بأحوال جديدةٍ.

موضوعاتُ السّورة وخصائصها:

يــدورُ مـحـورُ الـسّـورة حـول أهـوال السّاعة وأحـوال النّاس يوم القيامةِ

جاءت السّورة لبيان أصول العقيدة الصّحيحة، وعلى رأسِها: إثباتُ البعث والنّشور، والجزاء والحساب، وأوصاف العذاب والنّار، وقد شرعت ببيان موقف أهل مكّة من دعوة رسول اللّه ﷺ واستهزائهم به، وسؤال الكفّار عن عذاب اللّه واستعجالهم به استهزاءً وسخرية وعنادًا.

ثمّ وصَفَت يومَ القيامة وأهوالَه، والنّارَ وعذابَها، وأحوالَ المجرمين

في ذلك اليوم الرّهيب، وناسب ذلك الحديث الاستطراديُّ عن طبيعة الإنسان وصفاته التي أوجبت له النّار، ومدارُها: الجزع عند الشّدّة، والبطرُ عند النِّعمة، والبخل والشُّحّ عند الحاجة والأزمة وعلاج الفقر. واستثنت من ذلك المؤمنين المصلّين الّذين يتحلّون بمكارم الأخلاق، فيؤدّون حقوقَ اللّهِ وحقوقَ العبادِ معًا فيستحقّون الخلودَ في الجنانِ[1].

الخصائص الموضوعيّة للسورة:

تـميّـزت سـورة المعارِجِ بأنساقٍ تـعـبـيريَّـةٍ وأسـالـيـبَ وألفاظٍ فريدةٍ

أوَّلًا: تميَّزت السّورة الكريمةُ ببراعة الاستهلال؛ حيث إنّها ابتدأت بالحديث عن سؤال سائلٍ بالإفراد والعموم عن العذاب الواقع، ولم تبدأ بسؤالٍ مباشر مثل سورة النّبأ والغاشية والشّرح والفيل والماعون، وإنّما شابهت سورة الأنفال في قوله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ﴾ [الأنفال: 1].

ثانيًا: امتازت السّورة الكريمة بتعانق مقطَعِها مع مطّلَعِها؛ حيث ابتدأت بالسّؤال عن موعد العذاب الواقع، واختتمت بقوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ [المعارج: 44].

ثالثًا: تميَّزت السّورة الكريمة أيضًا بوصفها اللّهَ تعالى بأنّه ذو المعارج، وبِحَديثِها عن مقدار يوم القيامةِ، وبحديثها عن افتداء الكافرِ نفسَهُ من العذاب بأقرب النّاس إليه.

رابعًا: انفردت السورة بحديثها عن أوصاف المصلّين المستثنين من العذاب.

خامسًا: انفردت كذلك بِوَصْفِها حالَ الكافرين عند بعثهم: ﴿يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ ٤٣ خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ﴾ [المعارج: 43 - 44]، بينَما وصَفَهُم في سورة يس:

(1) الزحيليّ، التّفسير المنير: 109/ 29 - 110.

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ ٥١﴾ [يس: 51]، ووصفهم في سورة القمر: ﴿خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ ٧﴾ [القمر: 7].

الخصائص الأسلوبيّة للسورة:

تميّزت سورة المعارِج بأنساقٍ تعبيريّةٍ وأساليبَ وألفاظٍ فريدةٍ

أولًا: امتازَت السّورة الكريمة كذلك بأنّها أكثرت من أسلوب الجناس الاشتقاقيّ في العديد من آياتها من مثل: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ﴾ [المعارج: 1]، ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ ٣ تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ﴾ [المعارج: 3 - 4]، ﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا﴾ [المعارج: 5]، ﴿إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا﴾ [المعارج: 6 - 7]، ﴿إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ ٢٢ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ﴾ [المعارج: 22 - 23]، وغيرها.

ثانيًا: تميّزت السّورة الكريمة بوفرة المشتقّات اللُّغويّة وتنوّعها، فقد حَوَت مختلف أنواع الأفعال الماضويّة والمضارعة والأمر، وحوت أسماءً كثيرة كذلك، ومنها عدد كبيرٌ بصيغةِ اسم الفاعلِ؛ مثل: سائل، دافع، المجرم، المصلّين، دائمون، السّائل، مشفقون، حافظون، العادون، قائمون، مهطعين، قادرون، خاشعة، وغيرها. وكذلك اسم المفعول؛ مثل: المحروم، ملومين، مكرمون، مسبوقين، معلوم، وغيرها. فضلًا عن صيغ المبالغة؛ مثل: نزّاعة، هلوعًا، جزوعًا، مَنوعًا، وغيرها.

ثالثًا: برزت في السّورة الكريمة ظاهرةُ الطّباق والتّقابل في الأحوال والصّفات، مثل: المقابلة بين حال المجرمين وحال المصلّين، وحالِ مَنْ مسّه الخير ومَن مسّه الشّرُّ، وبين مَنْ يرى العذاب بعيدًا ومن يراه قريبًا، وبين المشارق والمغارب، وغيرها.

رابعًا: تميّزت السّورة الكريمة بأنّها حوت أفعالًا وأوصافًا تتعلّق بالمشاعر الإنسانيّة المختلفة، مثل: ﴿يَوَدُّ﴾، ﴿هَلُوعًا﴾، ﴿جَزُوعٗا﴾، ﴿يُصَدِّقُونَ﴾، ﴿مُّشۡفِقُونَ﴾، ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ﴾، وغيرها.

خامسًا: تميّزت السّورة الكريمة أيضًا بكثرةِ ظاهرة التّقديم والتّأخير فيها، ولا سيّما في أشباه الجمل، من مثل: ﴿لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ﴾ [المعارج: 11]، ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ﴾ [المعارج: 23]، ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ﴾ [المعارج: 27]، ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ﴾ [المعارج: 33]، وغيرها.

سادسًا: اشتملَت السّورة الكريمة على أبْنيةٍ صرفيّة مميَّزة، مثل: ﴿ذِي ٱلۡمَعَارِجِ﴾، ﴿تَعۡرُجُ﴾، ﴿خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾، ﴿يُبَصَّرُونَهُمۡۚ﴾، ﴿يَفۡتَدِي﴾، ﴿وَفَصِيلَتِهِ﴾، ﴿يُنجِيهِ﴾، ﴿لَظَىٰ﴾، ﴿نَزَّاعَةٗ﴾، ﴿لِّلشَّوَىٰ﴾، ﴿فَأَوۡعَىٰٓ﴾، ﴿جَزُوعٗا﴾، ﴿مَنُوعًا﴾، ﴿دَآئِمُونَ﴾، وغيرها.

سابعًا: تميّزت السّورة الكريمة كذلكَ بأنّها حوت ألفاظًا فريدةً في مادّتها وبنائها الصّرفيّ، مثل: ﴿هَلُوعًا﴾، ﴿عِزِينَ﴾، ﴿يُوفِضُونَ﴾.

ثامنًا: امتازَت السّورة الكريمة أيضًا بوفرة الأنساق التّعبيريّة الّتي لم تتكرّر في غيرها، ونذكر بعضها على سبيل التّمثيل: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ﴾،﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ﴾، ﴿فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾، ﴿وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا﴾، ﴿يُبَصَّرُونَهُمۡۚ﴾، ﴿وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـٔۡوِيهِ﴾، ﴿نَزَّاعَةٗ لِّلشَّوَىٰ﴾، ﴿وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ﴾، ﴿۞إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾، وغيرها.

مناسبة السورة لما قبلها:

سـورة المعـارج متّصلة اتّصالًا وثيـقًا بسـورة الحاقّة مضمونًا وأسلوبًا

قال ابن الزُّبير الغرناطيّ مبيِّنًا وجه تناسُبِ سورةِ المعارِج مع سورة الحاقّة: "لمّا انطوت سورةُ الحاقّة على أشدّ وعيدٍ وأعظمِه؛ أُتبِعَت بجوابِ مَن استبطأ ذلك واستبعدَه؛ إذْ هو ممّا يَلْجَأ إليه المعاندُ الممتحن، فقال تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا﴾، ثمّ ذكر حالهم إذ ذاك: ﴿يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ﴾ الآية. ثمّ أتبع بأنّ ذلك لا يغني عنه ولا يفيده: ﴿كَلَّآۖ إِنَّهَا لَظَىٰ﴾. ثمّ خُتِمت السّورة بتأكيد

الوعيد وأشدّ التّهديد في قوله: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ إلى قوله ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾؛ أي: ذلك يومُ الحاقّة ويومُ القارعة"[1].

والحقّ أنّ ما قاله الغرناطيّ صحيحٌ تمامًا؛ فسورة المعارج متّصلة اتِّصالًا وثيقًا بسورة الحاقّة في تناولها موضوعَ يوم القيامةِ وأحداثِه، إلّا أنّها أضافت تفصيلاتٍ وأحداثًا لم تُذكر هناك، مثل الحديث عن افتداء الكافرِ نفسَه من العذاب، وعَن صِفات المصلّين المُستَثنَيْنَ مِن العذابِ.

(1) الغرناطيّ، البرهان في تناسب سور القرآن، ص: 345 - 346.

﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ١ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ ٣ تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ٤﴾ [المعارج: 1 - 4]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

سُوَرُ القرآن الكريم متناغمة الأغراض، متكاملة الدّلالات

لمّا خُتِم أمرُ الطامّة الكبرى في سورة الحاقَّة حتّى ثبت أمرُه وتساوى سِرُّه وجهرُه، ودلَّ عليها حتّى لم يَبق هناك نَوْعُ لَبسٍ في وجوب التَّفرقة في الحكمة بين المُحسِن والمسيء، وخُتِم بأنَّ تَرْك ذلك مُنافٍ للكمال فيما نتعارفُه من أمور العمّال بعد أن أخْبَرَ أنه يَعلم أنَّ منهم مكذِّبين، وكان السّائل عن شيءٍ يدلُّ على أنَّ السّائل لم يَفْهَمْهُ حقَّ فهْمه، ولا اتّصف بحقيقةِ عِلمه؛ عَجَّبَ في أوَّل هذه السّورة ممَّن سأل عنها؛ فقال سُبحانَهُ: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ﴾.

ومِنْ أوجُهِ التَّناسُبِ أيضًا أنَّهُ لمّا انطوت سورة الحاقَّة على أشدِّ وعيدٍ وأعظمِه؛ أُتْبِعَتْ بجوابِ مَن استبطأ ذلك واستبعدَهُ؛ إذْ هو ممّا يَلجأ إليه المعانِد المَحونُ، فقال تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾ إلى قوله ﴿إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا﴾[(1)].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَاقِعٖ﴾: (وقع) تدلُّ اشتقاقاتُها على سقوطِ شيءٍ. يقال: وقع الشَّيءُ وقوعا؛ فهو واقع. والواقِعَةُ: القيامة؛ لأنَّها تقعُ بالخلق فتَغْشاهم. والوَقْعة: صدمةُ الحرب. والوقائع: مناقِع الماء المتفرِّقة، كأنَّ الماء وقع فيها. ومواقِعُ الغَيْث: مساقِطُه[(2)].

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 389.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وقع).

والوُقوعُ: ثبوتُ الشَّيءِ وسقوطُهُ. والواقِعَةُ لا تقال إلّا في الشّدّة والمكروه، وأكثر ما جاء في القرآن من لفظ (وَقَعَ) في العذاب والشّدائد، نحو قوله: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢﴾ [الواقعة: 1 - 2]، وقال سُبحانَهُ: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾. ووُقوعُ القولِ: حصولُ مُضَمَّنِه، قال تعالى: ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُواْ﴾ [النمل: 85] أي: وجب العذابُ الذي وُعِدوا لِظُلمهم[1]. ومعنى قوله تعالى: ﴿بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾: شديدٍ، محقَّقٍ، نازلٍ بهم.

2) ﴿دَافِعٌ﴾: (دفع) أصلٌ واحدٌ مشهور، يَدُلُّ على تَنْحيَةِ الشَّيء. يقال: دفعتُ الشَّيءَ أدفعُه دفعا. ودافَعَ اللّهُ عنه السّوءِ دِفاعا. والمُدَفَّعُ: الفقيرُ؛ لأنَّ هذا يدافِعُه عند سؤاله إلى ذلك. وهو قوله[2]:

والنّاس أعداءٌ لكلِّ مُدَفَّعٍ*** صفرِ اليدين وإخوةٌ للمُكْثِرِ

والدّفْعَةُ من المطر والدَّم وغيره. وأمّا الدُّفّاعُ؛ فالسَّيل العظيم. وكلُّ ذلك مشتقٌّ من أنَّ بعضَهُ يَدفع بعضًا. والمُدَفَّعُ: البعيرُ الكريم؛ وهو الذي كلّما جيء به ليُحمَل عليه؛ أُخِّرَ وجيء بغيره إكرامًا له[3].

والدَّفْعُ إذا عدّي بـ (إلى)؛ اقتضى معنى الإنالة، نحو قوله تعالى: ﴿فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْۖ﴾ [النساء: 6]، وإذا عدّي بـ (عن)؛ اقتَضى معنى الحماية، نحو قوله تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ﴾ [الحج: 38]، وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٞ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾، أي: حامٍ[4].

3) ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾: (عرج) تدلُّ اشتقاقاتُها على معانٍ ثلاثة؛ أحدها: المَيل، والثّاني: عدد، والثّالث: سموٌّ وارتقاء[5]. والعَرَج - محركةٌ -: الظَّلَع، وفعلُهُ: عَرَج - مثلَّث الرّاء -؛ ومعناه: مَشَى مِشْيَة الأعْرجِ بِعرَضٍ فغَمَزَ من شيء أصابه. وانْعرَجَ الطَّريقُ: مالَ، وانْعَرَج الشَّيءُ: مال يَمْنَةً ويَسْرَةً؛ أي: انعطف. وعَرَج في الدَّرَجَة والسُّلَّم: رَقيَ، والمِعْراج - بكسر الميم وفتحها -: المِصْعد.

(1) الراغب، المفردات: (وقع).
(2) البيت لطُرَيْح كما في شعر طُريح بن إسماعيل الثقفي للدكتور بدر أحمد ضيف، ص: 90، وجاء فيه: (مُدقّع) بالقاف بدل الفاء.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دفع).
(4) الراغب، المفردات: (دفع).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عرج).

والعُروجُ: نُشوزٌ أو عِوَجٌ عن الاستواء في الاطِّرادِ إلى الأعلى أو الجانبِ كما يبدو في مشي الأعرج وفي الصُّعود في الدَّرَجَة، وكلاهما إلى أعلى، وكانْعِراجِ الطَّريق والوادي والبناء وكلّها إلى جانب. ومن العُروج بمعنى الصُّعود قولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ١٤﴾ [الحجر: 14]، وقوله: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾، وجمع المِعْرَج: معارج، وجمع المِعْراج: معارِج ومعاريجُ. وقول اللّه تعالى: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ فُسّر بالمصاعد والدَّرَج للملائكة أو للأعمال أو للأرواح. وكلُّ ما بقي في القرآنِ من التَّركيب؛ فهو مِنْ هذا العروج[1].

4) ﴿وَٱلرُّوحُ﴾: (روح) تدلُّ تصريفاتُها على سَعَة وفُسْحة واطِّراد. وأصلُ ذلك كلِّه: الرّيحُ. وأصل الياء في الرّيح الواوُ، وإنَّما قُلِبَتْ ياءً لِكسرةِ ما قبلها. فالرّوحُ: روحُ الإنسان، وإنَّما هو مشتَقٌّ من الرّيح، وكذلك الباب كلّه. والرَّوْح: نسيم الرّيح. ويقال أراحَ الإنسانُ؛ إذا تنفَّس. والرّوح: جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، كما قال اللّه جلَّ ثناؤه: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: 193 - 194][2]. وهو المراد بالرّوح كذلك في قول اللّه تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾، ولم يَحْكِ ابنُ جريرٍ خلافًا في هذه الآيةِ على أنَّ الرّوح هو جبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

عذاب الله تعالى للكافرين لاحقٌ بهم طُلِب أم لم يُطلَب

استفهَم مستفهِمٌ - واحدٌ أو جماعة - عن عذابِ اللّه تعالى - الّذي حدَّثتَهم به يا أيُّها النَّبيُّ الكريمُ - استفهامَ مستهزئٍ، أو طَلَبَه ودَعا به على نفسه ثقةً باستحالةِ نزوله عليه، أو سألَ رسولُ اللّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ربَّه سبحانه العذابَ للكافرين، وطلبَهُ لهم، ودعا به عليهم؛ فاعْلَمْ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (عرج).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (روح).
(3) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 601.

أنَّه واقعٌ بهم - يا نبيَّنا - لا محالة، في الدُّنيا أو في الآخرة، وسواءٌ أُطلِبَ أم لا.

ذلك العذابُ واقع بالكافرين قطعًا؛ لأنَّ اللّه تعالى سلَّطَهُ عليهم، وهو صاحبُ "المراقي إلى الكمالات، والمعارج الدّالَّة على عُلوِّ الذّات"(1)، صاحبُ الفضائل والنِّعم، وإنعامُه وأياديه جلّ شأنه درجاتٌ، وهي تصل إلى النّاس على مراتبَ مختلفةٍ، فَهُم في نِعَم اللّه عليهم متفاوتون(2)، وهو سبحانه ذو العلوِّ والجلال والعظمة، والتَّدبير لسائر الخَلق، الّذي تعرج إليه الملائكةُ بما دبَّرها على تدبيره، وتعرج إليه الأرواحُ كلُّها، بَرُّها وفاجرها، وهذا عند الوفاة"(3).

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

غرض الخبر في جملة ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾:

ليس من العقْل السَّديد الدُّعاءُ على النَّفس بالعذاب

في هذا المَطلع ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ﴾ تعجيبٌ شديد مِن أن يَطلب طالبٌ عذابًا يَقع عليه ويحلّ به من عند اللّه تعالى ذي القدرة الجبّارة، المُتصاعِدَةِ في درجاتِ الانتقام مِن المُعانِدين، وكان الأَوْلى بهذا السّائل بدلَ أن يدعوَ ربَّه سبحانه: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ۝٣٢﴾ [الأنفال: 32] أن يَدْعوَ: اللهمَّ إن كان هذا هو الحقَّ من عندك؛ فاهْدِنا إليه.

وقد "كان كفّار قريشٍ يستهزئون فيسألونَ النَّبيَّ ﷺ: متى هذا العذابُ الّذي تتوَعَّدنا به؟ ويسألونه تعجيلَهُ، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٤٨﴾ [يونس: 48]، وقال سُبحانَهُ: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ﴾ [الحج: 47]، وكانوا أيضًا يسألون

(1) حجازي، التفسير الواضح: 3/ 743.
(2) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 10/ 1571.
(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 885.

الله تعالى أنْ يوقِع عليهم عذابًا إن كان القرآنُ حقًّا من عنده، كما قال ﷻ: ﴿وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٢﴾ [الأنفال: 32]"[1]، وهذا مِنْهُم في غايةِ العِنادِ.

دلالة التَّعبير بمُفْرَدَة السُّؤال، ونُكْتَةُ صَوْغِه ماضيًا في قوله: ﴿سَأَلَ﴾:

مفردات القرآن الكـريـم ثـريَّة بالدّلالات

في التَّعبير بمفردة السُّؤال تربيةٌ للفائدة وتكثيرٌ لها؛ لأنّ "السُّؤال يكون تارة بمعنى طلَبِ الشَّيء واستدعائه، ويُعدَّى حينئذ بالباء، فتقول: سألتُ بكذا؛ أي: طلبتُه، وعليه قوله: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾، أو بمعنى الاستخبار عن الشَّيء اعتناءً به، ويُعدَّى عند ذلك بـ"عن" أو بالباء، تقول: سألتُ عنه وعن حاله، وسألتُ بهِ وبحاله، وعليه قوله تعالى: ﴿فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا ٥٩﴾ [الفرقان: 59]"[2].

ومعنى ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ﴾ أي: "استخبرَ مستخبرٌ عن العذاب متى يقع؟ على التَّكذيب، أو دعا داعٍ أنْ يقعَ البلاءُ بهم على وجه الاستهزاء، أو طلَبَ طالِبٌ ﴿بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾"[3]، و"يجوز أن يكون ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ﴾ بمعنى: استعجَل وألَحَّ"[4].

والتَّعبير عن سؤالهم بصيغة الماضي فيه دِلالَةٌ "على تَحقُّق وقوعه، إمّا في الدُّنيا؛ وهو عذابُ يوم بدرٍ، فإنّ النَّضْرَ - وهو المرادُ بالسّائِلِ في قولِ بعضِ أهل العلم - قُتِل يومئذ صَبْرًا، وإمّا في الآخرة؛ وهو عذابُ النّار"[5]. ثُمَّ إنَّ صَوْغَ السُّؤال فعلًا ماضيًا ﴿سَأَلَ﴾ يُسْهِمُ في تعظيم التَّعجيب، ويُقرِّر عظيمَ الإنكار؛ إذْ لا وجْهَ لسُؤالِ العذاب؛ لأنَّ المعنى:"دعا داعٍ على نفسِه بعذاب واقعٍ"[6].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 153.

(2) حجازي، التفسير الواضح: 3/ 743.

(3) الماوردي، النكت والعيون: 6/ 89.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 154.

(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 9/ 29.

(6) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 344.

جناس الاشتقاق يَدْعَمُ الدّلالة البلاغيَّة، مِنْ مِثْلِ الإنكار والتَّهديد

بلاغةُ الجِناس الاشتقاقيّ في ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ﴾:

في التَّعبير عن الفاعلِ ﴿سَآئِلُۢ﴾ المأخوذ من مادَّة الفعل ﴿سَأَلَ﴾ تحقيقٌ لِجِناس الاشتقاق، وذلك يَدعم إنكارَ سُؤالِه عليه، ويزيدُ في توبيخِه به، ويلفِتُ إلى ذلك، ويُجلّي مقصدَ التَّهديد والوعيد؛ ويُقَرِّر ذلك أيضًا ما في الفاعل ﴿سَآئِلُۢ﴾ مِن إيحاءاتِ التَّنكير والإفرادِ.

مِنَ الكلامِ ما يُسقِط صاحبَه، ويجعله أهلًا للإهمال

نكتَةُ تنكير ﴿سَآئِلُۢ﴾ لفظًا ومعنًى، ولطيفةُ إفرادِه:

التَّعبير عن الفاعل بلفظ ﴿سَآئِلُۢ﴾ يَدعم الإنكارَ والتَّوبيخ؛ إذ يَلفت إلى أنَّه سائلٌ نكرةٌ لا يُكتَرَث لِسؤاله، كما أنَّه لا وجْهَ لهذا السُّؤال الجهول؛ فجاء لفظُ ﴿سَآئِلُۢ﴾ مُبْهمًا منكَّرًا، غيرَ معيّنِ الاسمِ والصِّفة، كما أنَّه سائلٌ مُبْهمٌ نكرةٌ لا يُؤبَه لَه، ولا يُقام لسُؤاله وزن؛ و"لا يعدو أن يكون واحدًا من هؤلاء السُّفهاء، الرُّقعاء، الّذين رَكِبَهُم الجهلُ والغرور، حتّى لقد خُيِّل إليهم أنَّهم أوتادُ هذه الأرض، وأنَّهم لو أخْلَوْا مكانَهم منها؛ لفسَد نظامُ الكون، واضطرب أمرُ النّاس"[1].

وفي إفراد ﴿سَآئِلُۢ﴾ إيحاءٌ بأنَّه "لو لَم يَسأل عنها - أي: عنِ الآخرة وعذابها - إلّا واحدٌ مِن العباد؛ لكان جديرًا بالتَّعجُّب منه والإنكار عليه بالإفراد في قوله: ﴿سَآئِلُۢ﴾"[2].

وذهب بعضُ أهل العلم إلى أنَّ "السّائل هو نوحٌ عليه السلام؛ سأل العذابَ للكافرين، وقيل: هو رسولُ اللّٰه ﷺ دعا بالعقابِ عليهم"[3]، ووجهُ هذا القَولِ: أنَّ اللّٰه تعالى قال في آخر الآيات: ﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا﴾"[4]؛ فيكون تنكيرُ ﴿سَآئِلُۢ﴾ على هذا القولِ لإرادةِ التَّعظيم، والإيحاءِ بأنَّه سائلٌ ذو قَدْرٍ جليلٍ.

---

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 15/ 1156.

(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 389.

(3) القِنّوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 14/ 308.

(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 637.

غَرَضُ السُّؤال المفهوم من جُمْلَةِ ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾:

سؤالُ الاستهزاءِ موجِبٌ للعُقوبة؛ فيَجِبُ الحذَرُ منْهُ، بخلافِ سُؤالِ الاسترشادِ

قول اللّه تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾؛ تقديره: كيف يُعذِّبنا اللّهُ ونحنُ أقرَبُ إليه وأوْلى به، بدَليل ما حَبانا مِن أموالٍ وأولادٍ ونُفوذِ كلمَةٍ ورأيٍ وقرار؟ وغرَضُ صدور هذا السُّؤال منهم تكذيبُ الرَّسول ﷺ في دعوته، والتَّهكّمُ به والاستهزاء بدين الحقِّ، و"الواجب على مَن كثُرت عليه النِّعم مِن آخَرَ؛ أنْ يكون هو أشكَرَ للنِّعم، وأطوعَ له فيما يدعوه إليه مِن الّذي قلَّت نِعَمُه عليه، فإذا كانوا مُقرّين أنّ نِعم اللّه عليهم أكثر، وإحسانَهُ إليهم أوفَرُ؛ أوجبَ ما ذكروا أنْ يكونوا هُم ألزمَ لطاعته، وآخذَ لِما يأمرهم به"(1).

ولو كان سؤالُهم سؤالَ استرشادٍ واستعلام؛ لَعَلَّمَهم وأرشدهم، اطِّرادًا على مَنْهَج القرآن الكريم: "وَيَسْألونَكَ عن كذا"؛ فقُلْ: كذا وكذا.

معنى (الباءِ) في قولِهِ: ﴿بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾:

تكثيرُ معاني الفِعْلِ بتَعْدِيَتِه بغَيْر حرفِه الذي يتعدّى به أصالَةً

من بلاغة النَّظم القرآنيِّ هنا تعديةُ الفِعْلِ ﴿سَأَلَ﴾ بـ (الباء) في قوله تعالى: ﴿بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾، فيصلُح لمعنى الاستفهام والدُّعاء والاستعجالِ معًا؛ لأنَّ (الباء) تأتي بمعنى (عن)؛ وهو مِن معاني (الباء) الواقعة بعد فِعل السُّؤال، نحو قوله تعالى: ﴿فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا ٥٩﴾ [الفرقان: 59]، وقولِ علقمَةَ:

فإن تسألوني بالنِّساء فإنَّني *** خبير بأدواء النِّساء طبيبُ(2)

أي: إن تسألوني عن النِّساء، فـ (الباء) في قوله تعالى: ﴿بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾ بمعنى (عن)؛ أي: سأل سائلٌ عن عذاب واقع، فآثر النَّظمُ الكريمُ التَّعبير بالباءِ على التَّعبير بـ (عن) إلماحًا إلى وِجهة السُّؤال، وأنَّه بمَن يَقَعُ؟ والكفّار يَرَوْنَ أنفسَهُم الأبعدَ مِن وُقوعِه بهم، ونزولهِ عليهم(3).

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 195.

(2) علقمة بن عبدة، ديوانه، ص: 23.

(3) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 250.

و"ضُمِّنَ ﴿سَأَلَ﴾ معنى (دعا) فَعُدِّيَ تعْديتَه، كأنَّه قيل: دعا داعٍ بِعَذابٍ واقِعٍ؛ من قولك: دعا بكذا؛ إذا اسْتَدْعاهُ وطلبَهُ. ومنه قوله تعالى: ﴿يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾ [الدخان: 55]"(1).

لطيفَةُ التَّعبير بالسُّؤال على تأويل ﴿سَأَلَ﴾ بـ (سُئِلَ):

زيادةُ التَّعجيب مِن السُّؤالِ

قال ابنُ عاشور: "وقوله: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ﴾ بمنزلة (سُئِلَ)؛ لأنَّ مجيءَ فاعلِ الفِعْلِ اسمَ فاعلٍ مِن لفظِ فِعْلِه لا يُفيد زيادةَ علم بفاعلِ الفِعْلِ ما هو؟ فالعدولُ عَن أن يقولَ: سُئِل بعذابٍ إلى قوله: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ﴾؛ لِزيادة تصوير هذا السُّؤال العجيبِ، ومثله قول يَزيدَ بْنِ عمرِو بْنِ خوَيْلِدٍ يُهاجي النّابغَةَ:

وإنَّ الغَدْرَ قَد علِمَتْ مَعَدٌّ *** بَناهُ في بَني ذُبْيانَ باني"(2)

وفي حَمْل ﴿سَأَلَ﴾ المبنيِّ للمعلوم على معنى (سُئِل) المبنيّ للمفعولِ تربيَةٌ للفائدَةِ وتكثيرٌ لعطاء التَّركيب؛ وذلك بإضافةِ إشارَةٍ دلاليَّة جديدة؛ هي الإمعانُ في تحقير السّائل وتجاهُله؛ إذ يكون قَد طوي طيًّا وأُخفي إخفاءً.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿بِعَذَابٖ﴾، ولطيفةُ تنكيره:

عذابُ المستهزئِ بالدّين فظيعٌ مُنْكَرٌ نَكارةَ كُفْرِه

العذابُ: الوجَعُ الشّديد، وأصل التَّعْذيب: إكثارُ الضّرب بِعَذَبَةِ السّوطِ؛ أي: طَرَفِها، وقال بعض أهل اللّغة: التَّعْذيبُ هو الضّربُ(3)، وأُعذِب الحوضُ؛ أي: نُزِع ما فيه من العذَب؛ أي: الكَدَر، وعذُب الحوضُ: صار مُستَساغًا، والعذْبُ مِن الشَّراب والطَّعام: كلُّ مُسْتَساغ، ومنه "عَذْبٌ" في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ﴾ [الفرقان: 53]؛ أي: حُلوٌ شديد العذوبة؛ ففي التَّعذيب معنى الإزالةِ في التَّفعيل؛ فيكون معنى عذَّبه: أزال عَذْب حياته، كمرَّضه: أزال مرضَه(4).

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 608.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 155.
(3) الراغب، المفردات، (عذب).
(4) الجمل، معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن: (عذب).

وفي التَّعبير بـ (عذاب) في قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾ دلالَةٌ على شدَّة ما يُعانيه صاحبُه من الإيلام بإزالة عذوبةِ حياته الدُّنيا، وإيجاع الضَّرب والحرقِ والتَّلَظّي في ﴿لَظَىٰ﴾. والعذاب المقصودُ في الآية الكريمةِ إمّا عذابُ الآخرة، أو عذابُ يَوْمِ بدْرٍ بالقتل والأسْر(1).

وفي تنكير لفظِ (عذاب) دلالةٌ على التَّعظيم؛ أي: إنَّه عذابٌ عظيمٌ جدًّا(2)، فالتَّنكير للتَّهويل والتَّفظيع، وأنَّه عذاب لا يُحاط بخَطَرِه وصفًا. ومن رحمة الله تعالى بعباده أنَّه حذَّرهم من الكفر ولوازمِهِ وهُمْ لا يزالون في الدُّنيا، ولا يزالُ إمكانُ التَّوبة والأوْبة لهم لائحًا، فطوبى لِمَن خاف مقام ربِّه.

نكتةُ وصفِ العذاب بالواقع، ولطيفةُ صَوْغِهِ اسمَ فاعل:

ليس دينُ الله تعالى ممّا يجوز أن يُستهزأ ويُتهكَّم بِهِ

في تقييد (عذاب) بوصْفِ ﴿وَاقِعٖ﴾ تعجيلٌ للسّائل بالوعيد، وقطْعٌ له بالعقوبة؛ جرّاء استهزائه وتهكّمه؛ إذْ ليس ذلك ممّا يُستهزأ ويُتهكَّم به. ووَصْف ﴿وَاقِعٖ﴾ يُهيِّئ لذِكْرِ المتعلّق ﴿لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ ويُمَكِّنُ لربْطه بهم.

وقوله: ﴿وَاقِعٖ﴾ أي: حالٌّ بِهم لا محالَة في علم الله تعالى، أو أنَّ معناهُ سيقَعُ، كما يُقال: قابِل، بمعنى: سيقبَلُ(3).

وعُبِّر بصيغةِ اسم الفاعِلِ في الوصف ﴿وَاقِعٖ﴾ لما في صيغَةِ الاسْميَّة من دلالةِ الثُّبوتِ، وذلك يَقْتضي وقوعَهُ لا محالة، وبذلك تتآزر الصّيغة الصَّرفية (فاعل) مع المادَّة اللُّغويَّة -وهي الوقوعُ- على القَطْعِ بنُزول العذاب بهؤلاء الكافرينَ المُكَذّبين بالدّين المستهزئين بالعذابِ.

(1) الماوردي، النكت والعيون: 6/ 90.

(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 390.

(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 195.

دلالَةُ التَّعبير بالوُقوع في قولِه: ﴿بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾:

عذابُ الكافرين فتّاك، ولا يَدانِ لهم بِدَفْعه

في التَّعبير بِمُفْرَدَةِ الوُقوع في قوله تعالى: ﴿بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾ دلالة على قوّة إصابة العذاب هؤلاء الكافرين المُسْتَهْزِئين بالدّين؛ إذْ في مادَّةِ الوُقوع إشارةٌ إلى الهُبوط من عُلوٍّ، وسقوطُ الأجرام المحسوسَةِ مِن أعلى يَجْذِبُها إلى الأسفل بقوَّةِ الجاذِبيَّة الأرضيَّة، فكأنَّ عذابَهم - حِسّيا كان أو معنويًّا - سيَسْقُط علَيْهِم سقوطًا فاتِكًا لا يَدانِ لهم بِدَفْعه.

والعذابُ المُرْسَل منه تعالى إلى الكافرين عذابٌ يَسقط عليهم مِن سماواتٍ عاليَةٍ؛ فلا يُمْكِنُ لِقوّة أنْ تَحول بينه وبين أن يَهويَ على رُؤوس الكافرين؛ إنَّه أشبَهُ بالأحْجارِ الّتي تَهْوي مِن السَّماء على رُؤوس مَن هُم في دائرة سُقوطها[1].

بلاغةُ المَجازِ في قوله: ﴿بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾:

العذابُ وأسبابُهُ تَحْمِلُ للكافرين الغيظَ والبُغْضَ

في إسناد الوقوع إلى العذاب في قوله تعالى: ﴿بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾ مجاز عقليّ؛ إذِ العَذاب وأسبابُه لا تقع مِن تِلْقاء أنفُسِها، وإنَّما توقَع بأمرٍ من الله تعالى ومعالجةٍ من الملائكةِ الموكّلين به.

غير أنَّ إسناد الوقوع إلى العذابِ نفسِه يوحي بِشِدّة حنَقِه على الكفّار، ويدلُّ على أنَّ العذاب نفسَه ناقِمٌ عليهم، وكأنَّ له إرادةً، فيُريدُ مِن تِلْقائِه الوُقوعَ على الكفّار والحُلولَ بهم غيظًا وبغضًا، كما قال تعالى: ﴿إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا وَهِيَ تَفُورُ ٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ﴾ [الملك: 7 - 8]، والعياذ بالله تعالى من الكُفْرِ وعذابِ أهلهِ.

معنى (اللّام) في قوله: ﴿لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ﴾:

الجزاء مِنْ جنس العمَلِ

(اللّام) في قوله: ﴿لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ﴾ تدلُّ على التّعليل؛ والمعنى: أنَّ العذابَ نازلٌ لأجْلِهم. ويجوزُ أن تكونَ (اللّامُ) بمعنى

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 15/ 1158.

(على)؛ أي: بِعَذابٍ واقِعٍ على الكافرين[1]، وفي ذلك تَهَكُّمٌ بِهِم على وجه الاستعارةِ في الحروفِ؛ إذ شُبِّهَت (على) الّتي للمضرَّةِ باللّامِ الّتي للمنفعَةِ، فهي نظيرُ قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ﴾ [آل عمران: 21][2]، فقوبِلَ استهزاؤُهُم باستهزاءٍ؛ جزاءً وفاقًا.

دِلالةُ الإدماجِ في قوله: ﴿لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ﴾:

من مزايا النَّظم الكريم إدماجُ أغراضٍ في أغراضٍ أخرى بتخلُّصٍ بديعٍ

وَصْفُ العذاب بأنَّه ﴿وَاقِعٖ﴾ وما بعدَه مِن أوصافه إلى قوله: ﴿إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا﴾ إدماجٌ معترِضٌ؛ ليفيد تعجيلَ الإجابة عمّا سأل عنه سائلٌ بِكلا معنيَي السُّؤال؛ لأنَّ السّؤال لم يُحْكَ فيه عذابٌ معيَّن، فحُكي السُّؤال مُجْملًا ليُرتَّب عليه وصفُه بهذه الأوصافِ والتَّعلُّقات، وقد طويَتْ في طيّاتِ هذه التّعلُّقات جُمَلٌ كثيرة، فكان الكلامُ بذلك إيجازًا؛ إذْ حَصَل خِلالَها ما يُفهم منه جوابُ السّائل، واستجابةُ الدّاعي[3].

دلالة التَّعبير بالكُفر دون الشِّرك، ولطيفَةُ صَوْغِه اسمَ فاعلٍ في (الكافرين):

بيانُ حلولِ العذابِ بأصناف الكُفّارِ جميعًا

الشِّرْكُ أخصُّ مِنَ الكُفْرِ؛ إذ الكُفْرُ يكون بالتَّكذيبِ، وبالنِّفاقِ، وبغيرِهما، ويكون بالشِّرْكِ أيضًا، ولِذا يُذكر أهل الكتابِ في صِنْفِ الكافرينَ مقابَلًا بِهِم صنفُ المشركين، كما قال اللّه تعالى: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ١﴾ [البينة: 1]. وآثر النَّظم الكريم التَّعبيرَ بالكُفْرِ في قوله تعالى: ﴿لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ﴾؛ للدّلالةِ على أنَّ العذابَ يقَعُ عامًّا على جميعِ الكافرينَ؛ مشركينَ كانوا أو غيرَهُم.

وصيغةُ اسم الفاعلِ في (الكافرين) تدلُّ على كونِهم راسِخين في هذا الوصفِ، والمعنى: إنْ كان لَهُم في الآخِرَةِ شيءٌ؛ فهو العذابُ[4].

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 209.
(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 390.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 155.
(4) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 390.

بلاغةُ التَّعبير بأسلوب الحكيمِ في قوله: ﴿لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾:

مِن حكمة القرآن تَلَقّي السّائل بالجواب الأهمّ، بقطعِ النَّظر عن مطلوبِ سُؤالِه

في قوله تعالى: ﴿لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴾ جوابٌ عن سؤالِ السّائل بغيرِ ما يطلُبُه؛ فهو أسلوبٌ حكيم؛ حيثُ كان السّؤال عن طلَبِ نُزولِه استهزاءً وتهكُّما، فجاء الجواب عن أمرٍ آخَرَ ممّا عَدَّد مِن أوصاف العذاب، وهولِه ووَقْتِه، وأنَّ ذلك هو الأَوْلى لَهُم أنْ يسألوا عنهُ، فيَعْلَموه ليحذروهُ، دون أن يَخوضوا في تَعْيين وقتِه.

فحصل مِن هذا كلِّه معنى: أنَّهم سألوا سؤالَ استهزاء عن وقتِ العذاب الّذي هُدِّدوا به ووَصْفِه، ودَعَوا اللّه أنْ يرسل عليهم عذابًا إنْ كانَ القرآنُ حقًّا؛ إظهارًا لِقلَّة اكْتِراثِهم بالإنذار بالعذابِ، فأَعْلَمَهُم أنَّ العذاب الّذي استهزؤوا به واقعٌ لا يَدفعه عنهم تأخُّرُ وقته، فإن أرادوا النَّجاة فليحذروه[1].

دلالة ﴿لَيۡسَ﴾:

بيانُ تحقُّقِ وُقوعِ العذابِ بِالكُفّار

جاء نفيُ حلولِ العذاب بالكافرين بـ ﴿لَيۡسَ﴾ دون (لا) في قوله تعالى: ﴿لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴾ لأنّ النَّفي بـ ﴿لَيۡسَ﴾ يهيِّئُ لتقديم المتعلّق ﴿لَهُۥ﴾ في جملة ﴿لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴾، ووراء ذلك التَّقديم إشاراتٌ مهمَّة يأتي التَّنبيهُ عليها. بخلاف (لا)؛ فإنَّها لا تهيِّئُ لذلك التَّقديم، فلا يقال: لا لَهُ دافِعٌ؛ فتقرَّر أنَّ ﴿لَيۡسَ﴾ أحقُّ بالسّياق، وأدقُّ لتأدية الدّلالة المطلوبة.

كما أنَّ ﴿لَيۡسَ﴾ لنفي الحال عِندَ الإطلاقِ والتَّجرُّد عن القرائِن، فأفادَ النَّفيُ بها أنَّ العذابَ لتحقُّقِ وقوعِه كأنَّه ينزلُ بهم في الحالِ وهم لا طاقَةَ لهم بدفعِه.

معنى (اللّام)، وبيانُ مَرْجِعِ الضَّمير في: ﴿لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴾:

بيانُ شدَّة ارْتِباطِ عذابِ الكُفّار بهم، فلا يَنْفَكّون منه

(اللّام) في قوله: ﴿لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴾ لِشبه المِلك؛ أي: إنَّ عذاب الكافرين هو مِن خصائصهم، كما قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 156.

﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ٢٤﴾ [البقرة: 24][1]، فكأنَّه لقوَّة ارْتِباطِهِ بِهِم ونفاذِهِ إليهم مِلْكٌ لهم لا يُدفع عَنْهُم، ولا يَنْفكّون منه.

والضَّمير في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُۥ﴾ يرجع إلى العذابِ المذكور في قوله: ﴿بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾.

دلالة التَّعبير بالدَّفع، ولطيفة صوغه اسمَ فاعل في ﴿دَافِعٌ﴾:

في التَّعبير بمفردةِ الدَّفْع المنفيَّة عن عذاب الكافرين في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴾ - أي: رادٌّ[2] - تصويرٌ لِقوّة توجُّهه إليهم، وشِدَّة تصويبِه نحوَهم؛ لأنَّ مادَّة الدَّفع مُصَوِّرَةٌ بِطَبْعِها لِلمُقاوَمة الشَّديدة؛ فهي بخلافِ كَلِمَة الحَيْلولَةِ أو المَنْع مثلًا. ولو قيل في غير النَّظم الكريم: للكافرين ليسَ له حائِلٌ، أو مانِعٌ؛ لَما كان فيهِ ما يوحي بقوَّة المهاجِم وشدَّة انْدِفاعِهِ نحوَ المهاجَم كما في ﴿دَافِعٌ﴾.

النَّظم الكريم يَصْطَفي المفرداتِ المُصَوِّرَة بطَبْعِها

بلاغة الفواصل ﴿وَاقِعٍ﴾، ﴿دَافِعٌ﴾:

بين ﴿وَاقِعٍ﴾ و﴿دَافِعٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾، و﴿لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴾ تَناغُمٌ معنويّ بديع، وإيقاعٌ صوتيٌّ لافِت؛ إذْ مِن لوازم الوقوع السُّرعةُ والقوّة بِفِعْل الجاذبيَّة؛ فيَقْتَضيان - لِمنعهما - قوة دَفْع شديدة، ولا توجَد قوةٌ تَمنع أو تدفع عذابَ اللّه تعالى السّاقطَ على هؤلاء المستهزئين؛ وبذلك يتمُّ التَّناغم بين معنيَي ﴿دَافِعٌ﴾ و﴿وَاقِعٍ﴾، كما تَمَّ التَّناغُم بين إيقاعِ لَفْظَيْهِما، وذلك مِن خصائصِ الفَواصلِ القُرآنيَّة البديعيَّة.

مِن خصائصِ الفواصل القرآنيَّة تَناغُم معانيها إلى تناغُم أصواتِها

معنى ﴿مِّنَ﴾ في قوله: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾:

﴿مِّنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ للابتداءِ المَجازيِّ، وهو يتعلّق بـ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴾ كما يتعلّق بقوله: ﴿بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾؛ وذلك التَّنازُع يُحقِّق للتَّركيب الوثاقةَ وشِدَّة التَّرابُط اللَّفظيِّ والمعنويِّ.

من خصائص النَّظم الكريم تعدُّد جهاتِ التَّعلُّق؛ وذلك ممّا تُفعِمه بالدّلالات ويوثِّق عُراه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 155.

(2) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 3/ 535.

ووجْهُ تَعَلُّق القيد ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ بقوله: ﴿بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾ أنَّ العذاب محكومٌ به عليهم ﴿مِّنَ﴾ قِبَل اللّه تعالى، ومِنْ لدُنه ﷻ، وإنَّما يُنَفِّذُه الملائكةُ الموكّلون بالعذاب. وهو عذابٌ مرسَلٌ عليهم ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ﴾(1)، ولا ريب أنّ عذابًا واقعًا مِنَ اللّه تعالى؛ ليس له دافعٌ غيره سبحانه يستطيع دفعَه عنهم. كما أنَّه ليس لإيذائه احتمالٌ؛ فذلك وعيدٌ شديدٌ وتهديد مرعِبٌ مخيف.

ووجْهُ تَعَلُّق القيد ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ بـ ﴿لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ﴾ أنَّه ليس لذلك العذابِ الصّادرِ من اللّه تَعالى دافِعٌ مِن جِهَتِه ﷻ(2).

لطيفَةُ إيثار التَّعبير بالاسم الأحسن ﴿ٱللَّهِ﴾:

ذِكْرُ الاسم الأحسَنِ في مقام ذِكر العذاب جلالٌ يلائِمُ التَّرهيب ويعزّز التَّهديد

للتَّعبير بالاسم الأحسن ﴿ٱللَّهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ﴾ في مقام ذِكر العذاب جلالٌ يلائِمُ التَّرهيب ويعزّز التَّهديد المقصود؛ "أي: الملك الأعلى الّذي لا كُفْؤَ له، فلا أمْرَ لأحدٍ معه، وإذا لَم يكُن له دافِعٌ منه؛ لم يكن دافع مِن غيره"(3). ففي ذِكْرِ الاسم الأحسَنِ "ما يُدْخِل الخوف والرَّهبة في قلوب الكافرين؛ إذ إنَّ كلَّ المخلوقات تحت قَهْرِ سُلْطانه، والملائكة - ذلك الخلق العظيم - تَصعد إليه في معارج السَّماوات ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦﴾ [التحريم: 6]، فما أشدَّ بطشَهُ وما أعظم أخذَه ﴿إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ١٠٢﴾ [هود: 102]"(4).

أمّا وصْفُ الرَّبِّ ﷻ؛ فيُلائم مقاماتِ الامتنانِ بالتَّربية والعطاءِ، ولذا آثَرَ النَّظم الكريم هنا النَّصّ على أنَّه عذابٌ واقعٌ من اللّهِ تعالى؛ فتمّ للمَقام جلالُه وللسّياق امتلاؤُه.

---

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 15/ 1157.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 638.
(3) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 390.
(4) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 10/ 1572.

معنى ﴿ذِى﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾:

من خصائصِ التَّراكيب القرآنيَّة إعطاءُ المَعنى وضدِّه في آنٍ واحدٍ

﴿ذِى﴾ في قولِه تعالى: ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ أي: مَن لَهُ المعارج؛ كقوله ﷻ: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ١٥﴾ [البروج: 15]؛ أي: الّذي له العرشُ[1]. وفي وصفه تعالى: بـ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ إشعارٌ بكثرة مراتبِ القُرْبِ مِن رضاه وثوابه؛ فإنَّ المعارج مِن خصائصِ منازلِ العُظَماءِ، كذلك فيه مِن التَّهديد والوعيد للجاحِدين، الّذين استهزؤوا به وأنكروه[2]، وهكذا تتميَّز التَّراكيب القرآنيَّة بإعطاء التَّرغيب والتَّرهيب في آنٍ واحدٍ.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿ٱلْمَعَارِجِ﴾، وإشارةُ جَمْعِ ﴿ٱلْمَعَارِجِ﴾:

فواضِلُ الله تعالى على عِبادِهِ مزيدَةٌ، ومراتِبُ القُربِ منه سبحانه عديدَةٌ

إذا كان في وصفه تعالى بـ ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ إشعارٌ بكثرة مراتبِ القُرْب مِن رضاه سبحانه، وتهديد ووعيد للجاحِدين الّذين استهزؤوا به وأنكروه -؛ فإنَّ اصطفاء مفردةِ المعارجِ يُسهم في إضفاءِ مزيدٍ مِن الجلال على هذا المقام الجليل؛ وذلك أنّ المراقيَ والمصاعدَ المُطْلَقة غير المقيَّدة بخيرٍ ولا شرّ توحي بِتَصاعُد عذابِه، كما فيه دلالةٌ على مَراقي نَعيمه سبحانه. وجمعُ ﴿ٱلْمَعَارِجِ﴾ يَدْعَم تلك الدّلالاتِ المُنذرةَ للكافرين بتصاعُدِ درجات العذاب، المبشِّرةَ للمؤمنين بدرجاتِ النَّعيم والتَّكريم.

والمعارِج: الأماكِنُ المُرْتَفِعَةُ، الّتي يكون الصُّعود إليها دائريًا، كالصّعود إلى المِئْذَنة ونحوِها، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ٣٣﴾ [الزخرف: 33][3]، ومن معاني ﴿ٱلْمَعَارِجِ﴾ أيضًا أنَّها "مصاعد السَّماء للملائكة، جمْعُ: مِعرَج؛ وهو موضِع العُروج"[4]، أو "هي الدَّرجات التي يَصْعَدُ فيها الكَلِم الطَّيّب والعملُ الصّالح، أو يَرْقى فيها المؤمنون في سُلوكِهم، أو في دارِ ثَوابِهم"[5].

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 196.

(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 15/ 93.

(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 15/ 1157.

(4) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 3/ 535.

(5) الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 16/ 9.

أو هي السَّماوات؛ وسُمّيَت معارجَ؛ لأنَّ الملائكة تعرُجُ فيها، أو أنَّها أياديه ووجوه إنعامه؛ وهي تصل إلى النّاس على مراتبَ مختلفةٍ، أو هي الدَّرجات التي يُعْطيها أولياءَهُ في الجنَّة[1].

و﴿ٱلۡمَعَارِجِ﴾ هنا مُسْتَعارة في الرُّتَب والفواضل والصِّفات الحميدة[2]؛ فلمّا كان القادر يوصَفُ بالعلوّ، والعاجز يوصَفُ بالسُّفول والدُّنوّ، وكان ما يُصعَد فيه إلى العالي يسمّى درجًا، وما يُهبَط فيه إلى السّافل يُسَمّى دَرَكًا، وكانت الأماكنُ كلُّها بالنِّسبة إليه سبحانه على حدٍّ سواء؛ اختير التَّعبيرُ بما يدلُّ على العلوّ الّذي يُكنى به عن القُدْرَة والعظمة، وسُمّيَتْ بذلك لأنَّ الصّاعد في الدَّرَج يُشْبِهُ مِشية الأعرج، وروي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنَّها السَّماوات، ودلَّ على ما دلَّتْ عليه الكثرةُ مع الدّلالة على عجيب القُدرة في تخفيفها على الملائكة[3].

علَّةُ فصل جُمْلَةِ ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ﴾ عمّا قبلها:

تقريرُ ارْتِفاعِ المَعارجِ وتأكيدُ العُلوِّ البعيدِ

فُصِل قول الله تعالى: ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ﴾ عمّا قبله؛ لأنَّه استئنافٌ ورَد لبيان ارتفاع تلك المعارج، وبُعدِ مداها على جهَةِ التَّمثيل؛ أي: أنَّها بحيثُ لو قُدِّر قَطْعُها في زمانٍ؛ لَكان في زمانٍ يُقَدَّر بخمسين ألفَ سنَةٍ من سِني الدُّنيا[4]، فهو كلام مستأنَف مسوقٌ لِتأكيد العُلوِّ البعيد[5]؛ فلو عرفوا الله تعالى، وعرفوا عظمتَه، وسَعة سلطانه وكمال أسمائه وصفاته؛ لَما اسْتَعْجَلوا، ولاسْتَسْلَموا وتأدَّبوا[6].

نكتَةُ الاعتراضِ بجُمْلَةِ ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ﴾:

صَبْرُ الدّاعيةِ على سفاهةِ مدعوّيه سُلَّمٌ إلى مَراقي أهل الشَّرَف العاليةِ

جاء قوله تعالى: ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ اعتراضًا بين الإخبار عن سؤال المستهزئين، وبين

---

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 316.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 365.
(3) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 390.
(4) الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 16/ 9.
(5) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 209.
(6) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 885.

وصيّته ﷺ بالصَّبر على تكذيبهم - حتّى يحِلَّ بهم عقابُ اللّهِ تعالى الواقعُ لا محالةَ - للتَّعجيل بذِكْرِ ما يُعينه على الصَّبر، ويُسَلِّيه ﷺ به مِن بيان ضآلتِهم أمامَ عظمة الملكوت، والإيحاء بأنّ صَبْرَ الدّاعيةِ على سفاهةِ مدعوّيه سُلَّمٌ يَرتقي به إلى مَراقي أهل الشَّرَف العاليةِ.

دلالَةُ التَّعبير بالعروج في الفعل ﴿تَعۡرُجُ﴾، ونُكْتَةُ صَوْغِه مضارعًا:

دقَّــةُ اختـيـارِ الألفاظ القرآنيَّة فـي مـادَّتـهـا وصيغَتِها

في إيثار التَّعبير بالعروج دون الصُّعود في قوله تعالى: ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ﴾ دقّة دلاليَّة بالغة؛ إذْ فيه إلماحٌ إلى أنَّ عروج الملائكة والرّوح قد يكون صعودًا بالدّوران إلى جهة دائريّة لا عموديًّا، "في خطوط مُقَوَّسة داخلَ قُبَّة الفَلَك، الّتي تُمَثِّل دائرةً عظيمة لا نهاية لها"(1).

كما أنَّ في التَّعبير بالعروج في الفعل ﴿تَعۡرُجُ﴾ اتِّساقًا مع ذِكر ﴿ٱلۡمَعَارِجِ﴾ في وصفه تعالى ﴿ذِي ٱلۡمَعَارِجِ﴾؛ ممّا يُحقِّق للتّركيب جناسَ الاشتقاق، اللّافت إلى ارتباطِ عُروج الملائكة والرّوح بمَعارجِه وفواضله ﷻ.

و"يحتمل أن يكون معنى ﴿تَعۡرُجُ﴾ ليس عَن هبوطٍ يَصعَد ويَعرج، لكن أنشأهم كذلك معروجين؛ كقوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ [الزمر: 6]؛ أي: أنشأهم كذلك، وقوله ﷻ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾ [الرحمن: 7]، ليس أنَّها كانت في موضع منحطٍّ فرَفَعَها، لكنَّه كذلك خلقها مرفوعة؛ فعلى ذلك قوله ﷻ: ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾؛ أي: أنشأهُم كذلك ليَسْتَعْمِلَهُم ﴿فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾"(2).

وفي صوغ العروج فعلا مضارعًا؛ دلالةٌ على امتداد زَمنِه واتِّساعه؛ إذ الفعل المضارعُ يدلُّ على التَّجدُّد والاستمرارِ.

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 15/ 1157.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 197.

التَّكامُل الدّلاليُّ بين القراءاتِ القُرآنيَّة

توجيهُ القِراءات القرآنيّة في الفعل ﴿تَعۡرُجُ﴾:

قرأ الكسائيُّ (يَعْرُجُ المَلائِكَةُ) بالياءِ، وقرأ الباقون ﴿تَعۡرُجُ﴾ بالتّاء[1]؛ وذلك لأنَّ لفظَ ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ مؤنَّث، وتأنيثُهُ مجازيٌّ غيرُ حقيقيٍّ، ولذا يجوزُ تذكيرُ الفعل مَعَهُ وتأنيثُهُ. وبالياءِ المثنّاةِ مِن تحتُ كان يقرأ ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه؛ لأنَّهُ كان يُذَكِّر الملائكةَ، وهي كذلك قراءةُ الأعمشِ[2].

الملائكة أقدرُ الخلق على اختراق الطِّباق، وهم أعظَمُ مِن لمح البرق الخفّاق

دلالةُ اختصاصِ الملائكةِ بالعُروجِ ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾:

في التَّنصيص على عروج الملائكة كنايَةٌ عن بُعد المسافات، وعلوّ المقامات إلى فوق ما يُطيقهُ التَّصوُّر؛ لأنَّ قدرة الملائكة على قطع المسافات الأطول في الوقت الأقصر فوقَ قدرة غيرهم مِن خلق اللّه تعالى بمراحلَ؛ لأنَّهم "أشدُّ الخلق، وأقدرُه على اختراق الطِّباق، والإسراعِ في النُّفوذ حتّى يكونوا أعظمَ مِن لمح البرقِ الخفّاق"[3].

فإذا كان عُروجُهم في يوم يمتدُّ إلى ما مقداره بالنِّسبة إلى غيرهم خمسين ألفَ سنة؛ فإنَّ سعةَ ملكوتِ اللّه تعالى ممّا لا يُحاط به، ولا يُطيقُه خيالٌ.

للملائكة قدراتٌ لا تكونُ لغَيْرِهِم

معنى (ألْ) في ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾:

(أل) في ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ للعهدِ العلميِّ؛ والمرادُ بهم: الملائكة الموكَّلون بذلك، لاخْتِصاصِهِم بقُدرات لا تكونُ لغيرهم ممَّن لا يغادرون إلى تلك المسافات، ولا يُكَلَّفون بذلك العروجِ.

بيانُ شرفِ جبريلَ عليه السلام

معنى (الواو) في قوله: ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾:

(الواو) في قوله تعالى: ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾ عاطفَةٌ؛ حيث

(1) النيسابوري، المبسوط في القراءات العشر، ص: 446، وابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 390.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 365.

(3) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 391.

جَمَعَتْ عمومَ الملائكةِ الموكّلين بالعروجِ إلى خصوصِ الرّوح - وهو جبريلُ عليه السلام -؛ في العروجِ إلى اللّهِ عز وجل في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، وذلك من عطفِ الخاصّ على العامِّ؛ تنويهًا بشأن الفردِ الخاصِّ وهو جبريلُ عليه السلام، وبيانِ شرفه، وعلوِّ مرتبته.

دلالةُ الرّوح في قوله: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾:

الرّوح أعظمُ الملائكةِ قدرًا؛ وهو جبريلُ عليه السلام

الرّوح عند أكثر العلماء في قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ جبريلُ عليه السلام - بل إنَّ ابن جرير لم يَحْكِ خلافًا عن السَّلفِ في هذا الموضع[1] -، وقَد أُفرِدَ بالذِّكرِ مع اندراجِهِ في جملة الملائكة؛ لتميُّزه بفضله. وقيل: الرّوح خلقٌ؛ هم حَفَظَةٌ على الملائكة، كما أنّ الملائكةَ حفظة على النّاس[2]، أو هو روحُ الميِّت حين يُقْبَض[3]، أو روح العبد المؤمن إذا قُبِض[4].

وقال الرازيّ: "متى ذُكِر الملائكة في معرِض التّهويل والتَّخويف؛ أُفْرِدَ الرّوح بعدهم بالذِّكر، كما في هذه الآية، وكما في قوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾ [النّبأ: 38]، وهذا يقتضي أنَّ الرّوح أعظمُ الملائكةِ قدرًا. ثُمّ ههنا دقيقةٌ؛ وهي أنَّه تعالى ذَكَرَ عندَ العروج الملائكةَ أوّلًا والرّوح ثانيًا - كما في هذه الآية -، وذكَر عند القيام الرّوح أوّلًا والملائكة ثانيًا، كما في قوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾ [النبأ: 38]، وهذا يقتضي كونَ الرّوح أوّلًا في درجةِ النُّزول وآخرًا في درجةِ الصُّعود"[5].

معنى (إلى)، ونكتةُ تقييد العروجِ بالجارِّ والمجرور ﴿إِلَيْهِ﴾:

اللّه تعالى مُنْتهى غايةِ الملائكةِ والرّوح

(إلى) في قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ لانتهاء

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 391.
(2) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 601.
(3) الماوردي، النكت والعيون: 6/ 90.
(4) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 391.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 638.

الغايةِ؛ أي: أنَّ غاية عروجهِم المثولُ بين يدي جبروتهِ ﷻ، وعرض ما دوّنوه على العبادِ، كما جاء في قول النَّبيِّ ﷺ: "يَتَعاقَبونَ فيكُمْ مَلائِكَةٌ باللَّيْلِ، ومَلائِكَةٌ بالنَّهارِ، ويَجْتَمِعونَ في صَلاةِ الفَجْرِ وصَلاةِ العَصْرِ. ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذينَ باتوا فيكُمْ. فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ، وهوَ أعْلَمُ بِهِمْ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبادي؟ فَيَقولونَ: تَرَكْناهُمْ وهُمْ يُصَلّونَ وأتَيْناهُمْ وهُمْ يُصَلّونَ"[1].

بيانُ مرجع الضَّمير في ﴿إِلَيۡهِ﴾، ونكتةُ تأخير ذلك القَيْدِ:

عـروجُ الملائكَةِ إلــى مـوضِـعِ المُناجاةِ ومُنْتَهى مـا يُـمْـكِـنُـهُـم العلوُّ إليه

الضَّمير المجرور في القيد ﴿إِلَيۡهِ﴾ مِنْ قوله تعالى: ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ﴾ يرجع إلى الاسم الأحسَنِ في قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ﴾، وذلك على حذفِ مضافٍ، والتَّقدير: "محلّ مناجاته، ومنتهى ما يمكن مِن العلوِّ لمخلوقاته[2].

وفي تأخير القيد ﴿إِلَيۡهِ﴾ مِنْ قوله تعالى: ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ﴾ إشارةٌ إلى أنّ لِعروج الملائكة يومئذ غاياتٍ جانبيَّةً أيضا، يُؤْمَرون بتنفيذها في طريقِ عُروجِهم حتّى ينتهوا إلى غايَتِهم.

معنى ﴿فِي﴾ في قوله: ﴿فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ﴾:

يـــوم عـــروج الملائكة والـرّوح يومٌ متطاوِلٌ في زمانِه

قوله: ﴿فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ يَتنازَع تعلُّقَه كلٌّ مِن قوله: ﴿وَاقِعٖ﴾، وقوله: ﴿تَعۡرُجُ﴾"[3]. و﴿فِي﴾ مِنْ قوله تعالى: ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ ظرفيَّة زمانيَّة، تَدْعم القول بأنَّ تطاوُلَ ذلك اليومِ شديدٌ، وأنَّ كلَّ ما يجري: يكون فيه وفي حيزِّه.

المقصود باليوم، وثمرةُ تعلُّقِ القيد ﴿فِي يَوۡمٖ﴾ بكل من ﴿وَاقِعٖ﴾ و﴿تَعۡرُجُ﴾:

مـــن بـــراعـــة النَّظم القرآنيّ وفـرَةُ الوشائجِ المَعْنويَّة الرّابطة بــين عــنــاصــرِ تَراكيبِه

تعدَّدت آراء العلماء في تحديد يوم عروجِ الملائكة والرّوح في قوله تعالى: ﴿فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾، فمِن قائل: إنَّه "يومُ

(1) رواه البخاري في صحيحه، برقم: (555)، ومسلم في صحيحه، برقم: (632).
(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 391.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 157.

الدُّنيا كلِّها من أوّل ما خلق اللّه تعالى الخلقَ إلى آخر الفناء؛ فبيَّن تعالى أنَّه لا بدّ في يوم الدُّنيا من عروج الملائكة ونزولهم، وهذا اليومُ مقدَّرٌ بخمسين ألفَ سنةٍ. ثُمَّ لا يَلزم على هذا أنْ يصير وقتُ القيامة معلومًا؛ لأنّا لا ندري كم مضى منها وكم بَقي؟[1].

وذهب بعضُ أهل العلم إلى أنَّهُ يومُ الحِساب في عُرْف الخَلق، وأنَّهُ لَو تولَّى بعضُهم محاسبةَ بعضٍ؛ لكان مدَّةُ حسابِهم خمسين ألف سنَةٍ، إلّا أن اللّه تعالى يتولّاه في أسرع مُدَّة[2].

ومن براعة النَّظم القرآنيِّ وفرَةُ الوشائج المعنويَّة الرّابطة بين عناصِرِ تراكيبه ووثاقتُها، ومن ذلك هنا ارتباط القيدِ ﴿فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ﴾ بكلٍّ من اسم الفاعل ﴿وَاقِعٖ﴾؛ فيكون المعنى أنَّ ذلك العذابَ واقِعٌ في يوم عسيرٍ طويلٍ، طولُه خمسونَ ألف سنة، وبالفعلِ ﴿تَعۡرُجُ﴾؛ فيكونُ المَعْنى أنَّ عُروجَهُم في يومٍ هذا وصفُه، وكلاهُما مؤثِّر في تربية المعنى الكنائيِّ عن طول ذلك اليوم وشدّة التَّبعة فيه.

وهذا الطّول وتلك الشِّدَّةُ تكون على الكافرين فحسبُ، وأمّا المؤمنون فإنَّ اللّه يُخفِّف عَنْهُم؛ ويدلُّ لذلك قول اللّه تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ ٩ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ ١٠﴾ [المدثر: 9 - 10]، ويُستأنسُ لذلك أيضًا بما روي أنَّ رسول اللّه ﷺ سُئلَ عن يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ما أطول هذا! فقال: "والّذي نَفْسي بيده إنه لَيُخفَّفُ على المؤْمنِ حتى يكونَ أخَفَّ عليه من صلاةٍ مكتوبة يصلّيها في الدُّنيا"[3].

دلالة التَّعبير بالكونِ ماضيًا:

عُبِّر بفعل الكون ماضيًا في جملة الصِّفة ﴿كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ مع أنَّه لمّا يكن بعدُ؛ لإفادَةِ القَطْعِ والجَزْمِ بكونِه ووقوعِه، فما قدّره اللّه تعالى وقضاهُ كائنٌ لا محالةَ.

دلالَةُ التَّعبير بِمُفْرَدة (المِقْدار):

في التَّعبير بمفردةِ (المِقْدار) إيماءٌ إلى انْضِباط حركاتِ الأكوانِ انْضِباطًا دقيقًا مُحْكمًا، يَحْفَظُ للكون اتِّزانَه، كما يدلُّ عليه أيضًا قولُ اللّه تعالى: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 639.
(2) الماوردي، النكت والعيون: 6/ 90.
(3) رواه أحمد في مسنده، برقم: (11717).

حركاتُ الأكوان منضبطة انضباطًا دقيقًا

بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ [الرّحمن: 5]، والمعنى هنا: أنَّه "كان مقدار صعودهم ذلك في يوم - بالنِّسبة لغيرهم مِن الخلقِ - خمسين ألف سنة، وذلك أنَّها تصعد مِن منتهى أمره مِن أسفل الأرض السّابعة، إلى منتهى أمره مِن فوق السَّماوات السَّبع"[1].

دلالة العددِ ﴿خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ في السّياق:

تحقيقُ هولِ شأنِ القيامة والبعْثِ

وردَتْ جملةٌ مِنَ الأعداد في القرآن الكريم مستعمَلَةً - عند بعض أهل العلم - في الكناية عن معانٍ مهمّة في سياقاتها، ثُمَّ هي مع ذلك تحمِلُ دلالاتٍ دقيقةً على مقصودها في مواضعها.

ومن ذلك تحديدُ المدّة هنا بـ ﴿خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾، فبعض العلماء يقول في تأويلِه: إنَّه لو قُدِّر ذلك العروجُ بِعُروج البشر وسَيْرِهم؛ لَكان مقدارَ خمسين ألف سنة. وقد قال اللّه ﷻ: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾، وقال في موضعٍ آخَرَ: ﴿أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ [السَّجدة: 5]، فيحتمل أن يكون هذا الوقتُ وقتَ تقدير عروج الملائكة وصعودِهم؛ وهو أنَّ بعضَهُم ينزل ثُمَّ يَعرج في يوم واحد، مقدارُ ذلكَ المَسير ألفُ عام، وبعضهُم ينزِل ويعرُج في يوم واحدٍ مسيرة خمسين ألف سنة، فيكون في هذا تبيينُ قوَّةِ بعض الملائكة على بَعْضٍ، وأنَّ فيهم مَن يسير مسيرة خمسين ألفَ سنة في يوم واحدٍ، وفيهم مَن يسير مسيرة ألفِ سنَةٍ في يوم واحدٍ.

ومَن قَدَرَ على أن يَخْلُق في خلقٍ مِن خلائقه مِن القوَّة ما يَقطع هذه المسافة في يوم واحدٍ؛ لا يُعجزه شيءٌ ألبتَّة؛ فيكون في ذِكْرِ هذا تحقيقُ كونِ ما به هولُ أمر القيامة والبعث.

ويحتمل أن يكونَ المَعْنى أنَّه لو جُعِل حسابُ الخلق يومئذٍ إلى الخَلْقِ، فتكلَّفوا أنْ يَفْرَغوا من حسابهم؛ لن يفرغوا منه إلّا في

(1) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 251.

مقدار خمسين ألف سنة، لكنَّ اللّه تعالى بلُطفِه يُحاسِبُهُم حسابًا يَفْرَغون منه في أدنى وقتٍ حتّى يصير أهلُ الجنَّة إلى الجنَّة وأهلُ النّار في النّار؛ على ما جاء في الأخبار، وذلك قوله: ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝٢٠٢﴾ [البقرة: 202][1].

لطيفُ التَّعبير بلفظ ﴿سَنَةٍ﴾:

بيانُ شِدَّةِ شأنِ اليومِ الآخِرِ

آثر النَّظمُ الكريمُ التَّعبير هنا بـ ﴿سَنَةٍ﴾ دون عام؛ لما تقرَّر من أنَّ لفظ السَّنة يُستعمَلُ غالبًا فيما كان فيه شدَّةٌ، بخلاف لفظِ العام فإنَّه يُستعمَلُ غالبًا في الرَّخاءِ واللّين والخَيْر، ولمّا كان المقصودُ ههنا بيانَ شدَّة أهوال القيامَةِ والبَعْثِ؛ ناسبَهُ أن يُعبِّر بلفظ (السَّنَة)، كما قال البقاعيُّ: "بَيَّن المشقةَ في صعوده، أو الكون فيه - إنْ أُريد القيامةُ - بأنْ قال: ﴿سَنَةٍ﴾ ولم يقل: عامًا"[2].

وذكر بعضُ أهل العلم أنَّ "السَّنَةَ مِن أوَّل يوم عدَدْتَه إلى مثله، والعام لا يكون إلّا شتاءً وصيفًا"[3]، ولمّا كان الغرضُ هُنا بيانَ العددِ دونَ مراعاةِ صيفه وشتائه؛ كانَ التَّعبيرُ بالسَّنة أنسبَ.

بلاغةُ التَّمثيل في قوله: ﴿كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾:

بيانُ ارْتِفاعِ المَعارجِ وبُعْدِ مَداها، وطولِ يومِ القيامة بِشَدائدِهِ ومَكارِهِ

المقصود بالعددِ في قوله: ﴿كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ يحتَمِلُ أن يكون ذلك تحديدًا، ويجوزُ أن لا يكون المرادُ بالعدد المذكور حقيقتَه، بل مجرّد الاستطالة، وهكذا كل زمانِ شِدَّة، كما قيل:

تمتَّع بأيّام السُّرور فإنَّها *** قصارٌ، وأيّام الغموم طِوالُ[4]

فذِكر هذا المقدار - على هذا - بمُجرَّد التَّمثيل والتَّخييل لغايةِ ارتفاعِ تلك المعارج وبُعْدِ مَداها، أو لِطول يوم القيامة باعتبار ما فيه

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 197.
(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 391.
(3) الفيومي، المصباح المنير: (عوم).
(4) الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 241.

من الشَّدائد والمكاره، كما تصف العربُ أيّام الشِّدَّة بالطّول وأيّام الفرح بالقِصَر، ويُشَبِّهون اليومَ القصيرَ بإبهام القَطاة، والطويلَ بِظِلِّ الرُّمْح، ومنه قول الشاعر(1):

ويوم كظلِّ الرّمح قَصَّرَ طولَهُ *** دمُ الزِّقِّ عنّا واصْطِفاقُ المَزاهِرِ(2)

والمقصود: أنَّه يعدِل خمسين ألفَ سنة مِن أزمان الدُّنيا؛ أي: أنَّ ما يقطعه المَلَك في عروجه إلى السَّماء في يوم واحد؛ يَقطعه الإنسانُ في خمسين ألف سنة بأقوى ما يُمكن أن يَتوسَّل به مِن وسائلَ(3).

توجيه المُتشابه اللَّفظيّ في الآية الكريمَة:

اخْتِلافُ الأزمِنَةِ راجِعٌ إلى اخْتِلافِ مُتَعَلّقاتِها

ذَكَر اللّه ﷻ في سورة السَّجدة أنَّه ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥﴾ [السَّجدة: 5]، وقال في سورة الحجِّ: ﴿وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٤٧﴾ [الحجّ: 47]، وذَكَرَ هنا قوله: ﴿فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾.

و"الجمعُ بين هذه الآيات مِن وجهين؛ أوَّلهما: ما جاء عن ابن عبّاس مِن أنَّ يوم الألفِ في سورة الحجِّ هو أحَدُ الأيّام السِّتَّة التي خلقَ اللّه تعالى فيها السَّماوات والأرض، ويوم الألفِ في سورة السَّجدة؛ هو مقدار سَيْرِ الأمر وعروجِه إليه تعالى، ويومُ الخمسين ألفًا هُنا: هو يومُ القيامة. وثانيهما: أنَّ المراد بجَميعِها يومُ القيامة، وأنَّ الاختلافَ بِاعْتِبار حالِ المؤمن والكافر.

ويدلُّ لهذا الوجه قوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ ۝١٠﴾ [المُدَّثِّر: 9 - 10]؛ أي: أنَّ يوم القيامة يَتفاوت طولُه بحسَبِ اختلاف الشِّدَّة، فهو يُعادل في حالٍ ألفَ سنة من سِني الدُّنيا، ويعادل في حالٍ أخرى خمسين ألفَ سنَةٍ(4).

(1) هو يزيد بن الطثرية، يُنظر: حاتم الضامن، شعر يزيد بن الطثرية، ص: 73.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 345.
(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 15/ 1158.
(4) طنطاوي، التفسير الوسيط: 15/ 94.

وروى ابنُ جرير أنَّ رجلًا سأل ابنَ عبّاس عن قول اللّه تعالى: ﴿فِي يَوْمٖ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٖ﴾، قال: فاتَّهَمَهُ. فقيل له فيه، فقال: ما ﴿يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾؟ فقال: إنَّما سألتُكَ لتُخْبِرَني، فقال: هما يومانِ ذَكَرَهُما اللّهُ جلَّ وعزَّ، اللّه أعلمُ بِهما، وأكره أن أقولَ في كتابِ اللّه بما لا أعلَمُ[1].

❁ الفروقُ المُعْجَميَّة:

الوُقوع والنُّزول:

الوُقوعُ: ثبوتُ الشَّيءِ وسقوطُهُ[2]. والوقوع في قوله تعالى: ﴿بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾ يحتَمِلُ المَعْنَيَيْن؛ أي: أنَّ عذابه ﷻ ثابتٌ لِمُسْتَحقّيه، محقَّقٌ الحصول لهم مِن أيِّ جهة، أو ساقط عليهم من جهة العلوِّ. وأمّا النُّزول؛ فهو في الأصلِ انحطاطٌ من عُلوٍّ. يقال: نزَلَ عن دابَّته، ونزل في مكانِ كذا؛ إذا حطَّ رَحْلَهُ فيه، وأنزلَهُ غيره. قال اللّه تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلۡنِي مُنزَلٗا مُّبَارَكٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ٢٩﴾ [المؤمنون: 29]، ونزَلَ بِكذا وأنزله بِمَعْنًى واحدٍ، وإنزالُ اللّه تعالى نِعَمَهُ ونِقَمَهُ على الخلق: إعْطاؤُهُم إيّاها[3].

الوُقوعُ الحصول والسُّقوطُ، والنُّزول الانحطاطُ والحلولُ

الدّفع والرَّدّ:

الدَّفْعُ أعمُّ من الرَّدِّ مطلقًا؛ إذ الرَّدُّ يختصُّ بما كان إلى خلفٍ، بخلاف الدَّفْعِ فيشمَلُ ذلك وغيرَهُ، ولذا قال أبو هلال: "الرَّدُّ لا يكون إلّا إلى خلف، والدَّفْع يكون إلى قُدّام وإلى خلف جَميعًا"[4].

الرَّدّ إلى الخلف خاصّة، والدَّفع أعمُّ

العروج والصُّعود والارتفاع:

العُروجُ: نُشوزٌ أو عِوَجٌ عن الاستواء في الاطِّرادِ إلى الأعلى أو الجانبِ، والصُّعود في الدَّرَجَة، وكلاهما إلى أعلى. ومِنْهُ: انعراج

(1) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 254.

(2) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (وقع).

(3) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (نزل).

(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 114.

العروجُ الصّعود مع مَيْلٍ إلى جانب، والصّعود علوٌّ حِسّيٌّ، والارتفاعُ علوٌّ مطلَق

الطَّريق والوادي والبناء، وكلُّها إلى جانب[1]، فالعروجُ هو الصّعود على وجهٍ مائِلٍ[2].

والصُّعود مقصورٌ على الارتفاع في المكانِ، ولا يستعمل في غيره، فيُقال: صَعِدَ في السُّلَّم والدَّرجة، ولا يقال: صَعِدَ أمرُه. وأمّا الارتفاعُ والعلوُّ؛ فيُشْتَرَطُ فيهما جميعُ ذلك.

والصُّعود أيضًا: هو الذَّهاب إلى فوق فقط، وليس الارتفاعُ كذلك؛ ألا تَرى أنَّه يُقال: ارتَفَع في المجلس، ورَفَعْتُ مَجْلِسَه وإن لم يُذْهب به في علوٍّ، ولا يُقال: أصعدتُه إلّا إذا أَعْلَيْتَه[3].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عرج).

(2) الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 22/ 45.

(3) العسكري والجزائري، معجم الفروق اللغوية، ص: 314.

﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ۝٥ إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا ۝٧
يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ ۝٨ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ۝٩ وَلَا
يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا ۝١٠﴾ [المعارج: 5 - 10]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

لمّا أخبر اللّه تعالى في الآياتِ السّابقة عن حال السّائل، الّذي سأل رسولَ اللّه ﷺ عن عذابِ مُنْكِر الدّين، أو دعا بالعذابِ على نفسِه تحدّيًا واستهزاءً، أو أخبر تعالى أنَّه ﷺ سألَ اللّهَ تعالى العذاب للكفّار، ودعا بِهِ عَلَيْهِم، وأخبر اللّهُ تعالى أنَّ ذلك العذابَ المسؤولَ واقعٌ لا محالةَ بأمر اللّه تعالى ذي المعارج، وطَمْأن بذلك رسولَه ﷺ؛ آن للنَّظْمِ الكريم أن يوجِّه رسول اللّه ﷺ إلى التَّسلُّح بسلاح الصَّبر الجميلِ في دعوته إلى اللّه تعالى، فقال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا﴾.

يَحسُن التَّوطئةُ للأمر الثَّقيل بما يُعين على احْتِماله

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾: (صبر) تَدورُ تصريفاتُها حول تَراكُم الشَّيء أو تكَدُّسِه مع تزايدِه أو دَوامِه على حالِه[1]، ومِنْهُ قولُهم: صَبَرْتُ نَفْسي عَلَى كذا؛ أيْ: حَبَسْتُها عليه[2]، بِأنْ دامَ حالُهُ على ملازمته.

وحقيقةُ الصَّبْرِ شرعًا المأمورِ به في نحو قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا﴾: حبسُ النَّفس عَنِ الجَزَعِ، واللِّسان عَنِ التَّشَكّي، والجوارح عَنْ لَطْمِ الخدود وشَقِّ الثّياب ونحوِهِما[3].

2) ﴿جَمِيلًا﴾: (جمل) تدور اشتقاقاتُها على معنيين؛ أحدهما:

(1) محمّد حسن جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (صبر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (صبر).
(3) ابن القيّم، عِدَةُ الصّابرين، ص: 15.

تجمّع وعظم خَلْقٍ، والآخَرُ: الحُسن(1). ومِنْهُ: الجَمْلاء - بالفتح -: التامَّةُ الجِسم مِن كلِّ حيوان. والجَمول: المرأةُ السَّمينة. والجامل: الحيُّ العظيم. والجَمَل - محركةً -: الذَّكَر من الإبل إذا بَزَل في تاسِع سِنيِّه، والجُمَّلُ: الحَبْلُ الغليظ. ومن الجَمال: التَّناسُبُ المأخوذ من التجانُس في مقادير الأعضاء وهيئاتها بعضِها مع بعض، قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾ [النّحل: 6]، وقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾. والصَّبْرُ الجميلُ في قوله تعالى: ﴿صَبْرًا جَمِيلًا﴾ أي: صبرًا طويلًا مع عِظَم التّحمُّل(2)، فلا يكون فيه جَزَعٌ(3).

3) ﴿كَٱلْمُهْلِ﴾: (مهل) تدلُّ اشتقاقاتُها على معنيين؛ أحدهما: التُّؤَدَة، والآخر: جنس من الذّائبات. فالأوَّل - وهو التُّؤدة - تقول: مَهْلًا يا رجلُ، وما مَهْلٌ بمُغنيةٍ عنك شيئًا. والأصل الآخر: المُهل، وقالوا: هو خثارةُ الزّيت، وقالوا: هو النُّحاس الذّائب(4)، والمُهْلُ: الصَّديد والقيح(5)، ودُرْديُّ الزَّيت، أو عكر القَطِران، أو الفِضّة إذا أذيبَتْ(6).

ومن التَّميُّع يؤخذ معنى التَّراخي، والمَهَلُ والمُهلة: السَّكينة والتُّؤَدَةُ والرِّفْق والتَّباطؤ. وأمْهَلَه: أنْظَره ورفَق به، ولم يَعْجَل عليه، ومَهَّله: أجَّلَه، قال تعالى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ۝١٧﴾ [الطارق: 17](7).

ومعنى المهل في الآية هو تحَوُّلُ لون السَّماء يومَئِذٍ إلى لونٍ آخرَ قريبٍ من الحمرة(8).

4) ﴿كَٱلْعِهْنِ﴾: (عهن) تدور تصريفاتُها على لينٍ وسهولَةٍ وقلَّة غذاء في الشَّيءِ(9). ومنه قولهم: قضيب عاهِنٌ؛ إذا كان فيه انكسارٌ من غير بَيْنونة، تحسَبه صحيحًا، فإذا هززتَه انْثَنى. والعواهن: السَّعَفات اللّواتي يَلينَ قُلْبَ النّخلة، وجرائد النّخل إذا يَبِسَتْ، وعروقٌ في رحِم النّاقة، والعِهْن: الصّوف؛ لِما فيه من ضعفٍ ولُيونَة.

ومن ذلك: العاهِنُ؛ وهو الفَقيرُ الضَّعيف، والعاهِنُ أيضًا: الطَّعام الحاضرُ والشَّراب

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جمل).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (جمل).
(3) الواحدي، التفسير البسيط: 22/ 211.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مهل).
(5) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 346.
(6) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 352.
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (مهل).
(8) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 256.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عهن).

الحاضِرُ، يَسيرٌ سَهْلٌ لا كُلْفَةَ لَهُ. وأرسَلَ الكلامَ على عواهِنِه: ما حَضَر منهُ وعَجِلَ مِن خطأٍ أو صواب، وهو الكلام الضَّعيفُ؛ لأنَّه لا يُتَكَلَّف إحكامُه. والّذي في القرآن من التَّركيب هو (العِهن) والمرادُ به الصّوفُ في قوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾، وكذا في قوله سُبحانَهُ: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝﴾ [القارعة: 5][1].

5) ﴿حَمِيمٌ﴾: الحميم: القريب المُشْفِقُ، كما قال ﷻ: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ۝﴾ [الشُّعراء: 100 - 101]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾، فالحميمُ هو القريبُ المشفِق، فكأنَّه الّذي يحتدّ حمايةً لِذَويه، وقيل لخاصَّة الرّجل: حامّته، وقيل: الحامّة والعامّة، ويدلّ على ذلك أنَّه قيل للمُشْفِقين من أقاربِ الإنسانِ حزانتُه؛ أي: الّذين يَحْزَنونَ لَهُ، واحتمّ فلانٌ لفلان: احتدّ، وذلك أبلَغُ مِن "اهتمّ"؛ لِما فيهِ مِن مَعْنى الاحْتِمامِ[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

بيانُ شيءٍ مِنْ أحـوالِ يـوم القيامَةِ

أمَر اللّه تعالى نبيَّهُ ﷺ بالصَّبر فقال سُبحانَهُ: ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾، والمعنى: (اصبر - أيّها الرَّسول الكريمُ - على استهزائهم واستعجالهم العذابَ، صبرًا طويلًا مع عِظَمِ التَّحمُّل)، فلا يكون فيه جزعٌ، ولا شكوى منه لغيرِ اللّه تعالى.

ثُمَّ بيَّن سُبحانَهُ: أنَّ الكافرين يَسْتَبْعِدونَ العذاب ويَرَوْنَهُ غيرَ واقِعٍ، ونحنُ نَراهُ واقعًا قريبًا لا محالة.

ثُمَّ أخبر ﷻ أنَّ يوم القيامَةِ تكون السَّماء فيه سائلةً مثل حُثالة الزَّيت، وتكون الجبال كالصّوف المصبوغ المنفوش الّذي ذَرَتْه الرّيح. ولا يسأل قريبٌ قريبَهُ عَن حالِهِ وشأنه؛ إذ كلٌّ منهما مشغولٌ بنَفْسِه.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عهن).
(2) الراغب، المفردات: (حمم).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الفاء) في قوله: ﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا﴾:

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا﴾ تفريعيَّة؛ تُفرِّع أمرَه تعالى رسولَه ﷺ بالصَّبر على تَطْمينِه إلى كون السّائل المستهزئ في قَبْضَتِه تعالى، وأنَّ عذابَه واقعٌ بِهِ لا محالة. أو تُفَرِّع ذلك التَّوجيهَ الرَّفيق به ﷺ مِنَ اللّه تعالى على طلَبِه ﷺ العذابَ لهؤلاء الكافرينَ المكذِّبين.

مِنْ ضَروراتِ الدَّعوة إلى الله تعالى لزومُ الصَّبْرِ الجَميلِ

فـ (الفاء) تُعَلِّق توجيهَه ﷺ إلى الصَّبر على سؤالِ السّائل، والمعنى: إنْ سأل سائلٌ عن عذاب اللّه تعالى منكرًا مستهزئًا "فاصبر يا محمَّدُ صبرًا جميلًا لا قلَقَ معَهُ؛ فإنَّ الموعودَ به حاصلٌ"[1].

دلالةُ التَّعبير بالصَّبْر، وغرَضُ الأمْرِ في قوله: ﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا﴾:

الصَّبر في قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾ توجيهٌ لَهُ ﷺ إلى احتمالِ إيذاءِ المُكَذِّبين المستهزئين بالدّين، واحتمال سوء أدَبِهم بـ "حبْس النَّفْس عن الجَزَع، وحبْس اللِّسان عن الشّكوى، وحبْس الجوارح عن التَّشْويش"[2]، وحبْسُ النَّفْس على تجرُّع الأذى الحسّيّ أو المعنويّ؛ بغرض الوصول إلى غاية ساميَةٍ، و"الوقوف لِحُكم اللّه تعالى، والثَّبات مِن غير بَثّ ولا استكراه"[3]، وهو ما تحلَّى به فعلًا الرَّسول ﷺ وسلّم في حياته كلِّها.

الصَّبر مفتاحُ الفرَج، وسُلَّمُ الصّعود إلى قِمّة النَّجاح

وغرضُ أمره اللّه عليه وسلّم بالصَّبر تسليتُه، وتسريةُ الحُزنِ عنه ﷺ، وتوجيهه إلى المنهَجِ الأمثل في دعوة المُنكِرين، وألّا يُؤاخذهم بأساليبِهم الهابِطَة؛ فلكلٍّ أخلاقُه ووجهتُه، وتذكيرُه بأنَّ عاقبةَ الصَّبرِ النَّجاحُ، كما قال اللّه تعالى: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا

---

(1) حجازي، التفسير الواضح: 3/ 745.

(2) الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس: (صبر).

(3) القشيري، لطائف الإشارات: 3/ 402.

ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ﴿٣٤﴾ [فُصِّلت: 34]. وقد تحقَّق له ﷺ بالصَّبر ما أراد، وفتح اللّهُ تعالى به القلوبَ، فلم ينتَقِلْ إلى الرَّفيق الأعلى إلّا وقد تأسَّسَت له دولة الإيمان في المدينةِ ومكَّةَ، وأخذت في التَّوسُّع والانتشارِ.

وفي أمْرِه ﷺ بالصّبر "تهديدٌ للمشركين المكذِّبين بما سيقَعُ بِهِم وراءَ هذا الصَّبر الذي يلقاهُم النَّبيّ ﷺ به محتَمِلًا سفاهَتَهُم وسُخْرِيتهم، فهو كقوله تعالى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ﴿١٧﴾﴾ [الطارق: 17]"[1].

بيانُ مَرْجِعِ ضميرِ المُخاطَب في قوله: ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾:

خِطابُ النَّبيِّ ﷺ خِطابٌ لأمَّته مِنْ بَعْدِهِ في غير ما اخْتُصَّ به

المُخاطَب بضمير الخِطاب في قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾ هو الرَّسول ﷺ؛ فَهو الّذي سُئِل هذا السّؤال التّكذيبيّ المفهوم مِن قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾، أو هو الّذي سألَهُ وطلَبَهُ تأديبًا للكافرين.

ثُمَّ يُخاطَب بهذا الضَّمير في الأمْر ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾ كلُّ مَن يتصدّى للدَّعوة إلى اللّه تعالى؛ إذْ لا سبيلَ إلى الوصول إلى الغاية المرجوّة من الدَّعوة إلّا من سبيل الصَّبر على عنَتِ المدعوّين. فيكونُ فيه الإيماءُ إلى أنَّ التماسَ القُدْوَةِ الصّالحة والنّاجحة إنَّما يكون من الرَّسول ﷺ وسلّم، والتَّأسّي به في الصَّبْر مِن أهمِّ ذلك وأوْلاه.

نُكْتَةُ حذفِ متعلّق الصَّبر في قوله: ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾:

مُتَعَلّقات صَبْر الدّاعية كثيرةٌ؛ فَعِبْئُهُ كبيرٌ، وأجْرُهُ عظيمٌ

سكت النَّظم الكريم عن ذِكر متعلَّق الصَّبر في قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا﴾، وذلك لإطلاق جِهات ما يَصْبِرُ عنه وعليه الرَّسول ﷺ؛ فهي أمور كثيرة، منها ما قذفَهُ المُشْرِكون به من أنَّه مجنونٌ، وأنَّه ساحِرٌ، وأنّه شاعرٌ، ومِنْها الصَّبْرُ على كُفْرِهم وعِنادِهِم[2].

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 15/ 1159.
(2) الماوردي، النكت والعيون: 6/ 91.

ومن تقدير متعلّق الصّبر كذلكَ: اصبر على دَعْوَتِكَ لِقومك صبرًا جميلا لا تَضَجُّرَ فيه ولا مَلَل، بل استمرَّ على أمر اللّه تعالى، وادعُ عبادَه إلى توحيده، ولا يمنعك عنهم ما ترى من عدَم انقيادِهِم، وعدَم رَغْبَتِهم، فإنَّ في الصَّبْر على ذلك خيرًا كثيرًا[1]، واصْبِر على غُرورِهِم وجُحودِهِم وجَهالاتِهِم[2].

نكتةُ وصْفِ الصّبْرِ بـ ﴿جَمِيلًا﴾:

ورد وصْفُ الجميل في الذِّكر الحكيم لأربعة أشياءَ؛هي الصَّبر الجميل، والصَّفح الجميل، وتسريحُ الزَّوجات السَّراحَ الجميل، والهَجْر الجميلُ. والصَّبر الجميل هو الّذي ليس فيه جزع، ولا بَثَّ فيه ولا شَكْوى، والانتظارُ مِن غير استعجالٍ، والمجامَلَة في الظّاهر[3]، ثُمَّ يَتَرَقَّى الصَّبر الجميل إلى درجةِ أن يكون صاحبُ المصيبة في القوم لا يُدْرَى بأنَّه مصاب[4].

الصَّبر الجميلُ يَسْمو بالإنسانِ فـيَرى عظـائِمَ الهُمومِ صغائرَ

ففي الصَّبر الجميل يَسْمو الإنسانُ، فيرى عظائمَ الأمور ضئيلةً لا تستحقُّ الجَزَعَ والهَلَع، ولا تحتَملُ على الانتقام أو الظُّلم، فتأتي أفعالُه هادئةً لا مضرَّة منها لا في داخِلِ الصّابر ولا خارجَه.

وقد كان ﷺ كذلك؛ مُشْفِقا بهم رحيما، حتّى بلغَت شفقَتُه ورحمتُه وحُزْنُه على كفّار قومِه مبلغًا كادت نفسُه تهلك فيها، كما قال اللّه تعالى: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾ [فاطر: 8]، وقال: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ﴾ [الكهف: 6]، فالرُّسُل عليهم الصَّلاةُ والسَّلام كانوا إذا أوذوا لم يكونوا يحزنون لمكانِ أنفُسِهم بما أوذوا، بل كانوا يَحْزَنون لمكانِ مَن يُؤْذيهم؛ خوفًا مِن أن يَحِلَّ بهم الهلاك والبَوار بإيذائهم رُسُلَ اللّه تعالى، وإشفاقُهم على قومِهم؛ هو الّذي كان يُحْزِنُهم؛ ليس سوء صَنيعِهم ومعاملَتِهم معهم"[5].

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 886.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 15/ 95.
(3) الماوردي، النكت والعيون: 6/ 91.
(4) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 346.
(5) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 199.

علّة فصلِ قوله: ﴿إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا﴾ عمّا قبلهُ:

فُصلَ قول الله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا﴾ عن قوله: ﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا﴾ لفظًا؛ لِما بينَهُما مِن كمال الانقطاعِ؛ إذ الجملةُ الأولى إنشاءٌ - وهو أسلوبُ أمرٍ -، والثّانية خبَرٌ، ولا يُعطف الخبَرُ على الإنشاءِ غالبًا. ويُغني عن ذلك العَطْفِ أنَّ الجملة الثّانية؛ وهي قوله: ﴿إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا﴾ واردةٌ موردَ التَّعليل للأمر بالصَّبر[1]، والمعنى: فاصْبِر صبرًا جميلًا؛ لأنَّهم يرونه بعيدًا مع أنّه في الواقع قريبٌ.

ويَحْتَمِلُ الفصلُ بين الجملتين أن يكون لما بينَهما من شبه كمال الاتِّصال؛ فالجملةُ الثّانية مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ فإنَّ الله تعالى لمّا قال: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾؛ أنكرَ هذا الكافرُ، فأورث في نفس المتلقّي سؤالًا: لِماذا أنكرهُ الكفّار؟ فجاء الجوابُ: لأنَّهم يعتقدون خُلْفَ وعدِ الله تعالى، أو أنْ لا حَشر ولا نَشر، ويستبعدونَ إمكانَهُ[2]؛ فالرّابط الأسلوبيُّ المعنويُّ بين الجملتينِ وثيقٌ، فهو أقْوى مِنَ العاطفِ اللَّفْظيِّ.

الــــرَّوابــــط الأسـلـوبـيَّـة المـعـنـويَّـة في القـرآن الكريم أقـــوى مِـن اللَّفظيَّة

غرَضُ توكيد الخبَرِ في قوله: ﴿إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا﴾:

توكيدُ الخبَر في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا﴾ يقتضيه تطييبُ نفسِه صلى ﷺ، واستلالُ حُزنه ممّا لقي من سُؤالِهم المستهزئ المكذِّب، المذكور في قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾، وذلك لأنَّه إذا كان ذلكَ السُّؤال بمعنييه - الاستفهام والطَّلَب - استهزاءً وتعريضًا بالتَّكذيب؛ فشأنُه ألّا تصبر عليه النُّفوس في العُرْف[3]؛ فاقْتَضى ذلك توكيدَ الخبَر تطمينًا وتهدئةً لنَفْسِ الرَّسول ﷺ.

مِن رحمة الله تعالى برسولِه ﷺ تطييبُ نفسِه لما لقي من قومه

دلالةُ الخبَر في قوله: ﴿إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا﴾:

الخبر في قول الله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا﴾ يكشِفُ سفاهَةَ تفكيرِ الكافرين، وجهالةَ عُقولِهم؛ إذِ التَّفكير السَّديد

العَقْلُ الرَّشيد يُمَيِّز الحقَّ من الباطلِ؛ فعُقولُ الكفّارُ مطموسَةٌ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 9/ 30.
(2) الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 16/ 12.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 158.

الصّادر عن العقل الرَّشيد يُفضي إلى الوقوف على حقائق الأمور، ويُمَيِّز الحقَّ من الباطل، ويَعْرِف للمواقف مقاديرَها.

وهؤلاء المستهزئونَ بالحقِّ مجرَّدون من ذلكَ، فكانَ في الإخْبارِ بذلكَ استهزاءٌ وتجهيلٌ لهم إزاءَ اسْتِهْزائِهِم وتكذيبهم رسولَ الله ﷺ في سُؤالِهِم السّابقِ.

علمُ الله تعالى قطعيُّ الثُّبوت، أمّا علم غيرِه؛ فظنيُّ الحدوثِ

دلالَةُ الرُّؤية في الفِعْلَيْن ﴿يَرَوْنَهُۥ﴾ و(نَراهُ):

معنى الرُّؤية في قوله تعالى: ﴿يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا﴾ أي: يعتقدونَ العذابَ وحلولَ يوم القيامة بَعيدًا، مستحيلَ الوُقوع. ومعنى الرُّؤية في قوله تعالى: ﴿وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ أي: نَعْلَمُه كائنا قريبًا[1]، ففعل الرُّؤية الأولى بالنِّسبة للكفّار رؤيةُ اعتقادٍ واهمٍ مخدوعٍ جاهل، والرُّؤية الثّانية بالنِّسبة للسَّميع البصير علّام الغيوب رؤيةُ عِلْمٍ وحكمَةٍ صادِقَةٍ، فشتّان بين الرُّؤْيَتَين!.

وذُكِرتِ الرُّؤية الثّانية في معيَّة الرُّؤية الأولى؛ لتَبْعَثَ في نَفْسِ المتلقّي التَّدبُّرَ والتَّفكُّرَ في تبايُنِ معنى اللَّفظَتين لاختلاف مَن أُسنِدَت إليه. وذلك يوجب الوثوقَ وتَرْك الاستعجالِ[2].

تَنَوُّع مرجعِ الضَّمائر مِنْ غير تَعارُضٍ إثراءٌ للدّلالاتِ القُرآنيَّة

بيانُ مرجع الضَّمائر في قوله: ﴿إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ﴾:

الضَّمير المنصوبُ في ﴿إِنَّهُمۡ﴾ يرجع إلى الكافرين المذكورينَ قبلُ في قوله تعالى: ﴿لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ﴾، والضَّمير المنصوبُ في ﴿يَرَوۡنَهُۥ﴾ يحتَمِلُ أن يكون راجعًا إلى العذابِ المتقدِّم الذِّكْرِ في قوله: ﴿بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾، ويجوزُ أن يكون عائدًا إلى يوم القيامَةِ المفهوم من السّياق. ولا تنافيَ بينَهما؛ إذ العذابُ الأكبَرُ الأعظَمُ الذي يحلُّ بالكفّار يكون يومَ القيامَةِ؛ فإذا أنكروا يوم القيامَةِ؛ فقد أنكروا كلَّ ما يكونُ فيها تبعًا.

(1) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 346.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 66.

بلاغةُ الكِنايَةِ في لفظَتَي (البُعد) و(القُرب):

يُنكِرُ الكفّارُ العذابَ ويومَ القيامةِ؛ لكونِهِ مَجْهولًا؛ فلا يخشَونَ شرَّه ولا يرجونَ خيرَهُ

في التَّعبير بـ (البُعد) و(القُرب) في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا﴾ كنايَتان بليغَتان؛ أولاهُما في رُؤيَتِهم العذابَ ويومَ القيامة بعيدًا؛ إذِ البُعْدُ هنا مستعملٌ في الاستحالة وعدَمِ الإمكان؛ لأنَّهم يحسبون أنَّهم على الحقِّ، وأنَّ اللّه تعالى لا يُعَذِّبهم بما آتاهم مِن أموال وأولادٍ.

فقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا﴾ دالٌّ "على النَّفي والإنكار، وقد يُسْتَعْمَلُ هذا الحرفُ في موضِع النَّفي؛ يقولُ الرَّجل في المناظرة لصاحبه: أبْعَدْتَ في القول؛ إذا أجابَ بشيءٍ لا ثَبات له ولا صحّة، فيُريدُ بقوله: (أبعدتَ) النَّفيَ؛ أي: ليس كما تقولُ، وقال اللّه تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ٤٤﴾ [فُصِّلت: 44]، ومعناه على نفي النِّداء؛ أي: لا ينادون. أو أن يكون قوله: ﴿بَعِيدٗا﴾ أي: مستبعَدًا كونُه، فَبَعُدَ عن أوهامهم حتّى أنكروه"[1].

وهم "يرونه بعيدًا؛ لأنَّه إذا جاء فإنَّما يجيءُ يوم القيامة، الّتي لا يَدري أحدٌ مَتى تكونُ على فرضِ وقوعِها؛ فهذا الزَّمن المجهول يبدو بعيدًا بحيث يكون مِنَ العَبَث أن يرجو منه المرءُ خيرًا، أو يَخْشى منه شَرًّا، هكذا يقومُ حِساب هذا اليوم عند اللّاهينَ والغافلين، الّذين لا يَعيشونَ إلّا ليومهم: ﴿يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ١٢﴾ [محمد: 12]"[2].

والكنايَةُ الثّانية في رُؤْيَتِه ﷻ العذابَ ويومَ القيامة قريبًا؛ إذِ القُرب هنا مستعملٌ في الثُّبوت والتحقُّق، أي: "ونراه هيِّنًا في قُدرتنا، غيرَ متعسِّر ولا متعذِّر[3]، فـ "استُعمِل ﴿قَرِيبٗا﴾ كنايةً عن تَحَقُّق الوقوع

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 200.

(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 15/ 1159.

(3) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 346.

على طريق المشاكلة التَّقديرية والمبالغة في التَّحقُّق"[1]. فالمراد بالبعيدِ: البعيدُ مِنَ الإمكانِ، وبالقريبِ: القريبُ منهُ[2]؛ فالقُرب والبُعد على المَجازِ[3].

نكتَةُ إسْنادِ فِعلِ الرُّؤية في قوله: ﴿وَنَرَىٰهُ﴾ إلى ضمير العظمَةِ:

العظيم سبحانَهُ قديرٌ عليمٌ؛ لا يُعجزه شيءٌ، ولا يَغيب عنه شيءٌ

في إسناد فعلِ الرُّؤية في قوله: ﴿وَنَرَىٰهُ﴾ إلى ضمير العظمةِ - إذ التَّقديرُ: ونراهُ نَحْنُ - تقريرٌ لِلقَطْعِ بصحَّة الخبَرِ، وأنَّ العذابَ لاحِقٌ بهِم لا محالةَ، وأنَّ يوم القيامة مُلاقيهِم قَطْعًا، والمعنى: "﴿وَنَرَىٰهُ﴾ لِما لنا مِن العظمَةِ التي قَضَتْ بوُجودِهِ وهو علينا هَيِّن"[4].

بلاغَةُ الطّباق بين ﴿بَعِيدًا﴾ ﴿قَرِيبًا﴾:

تقريرُ أنَّ البُعد والقُرب عندَ اللهِ تعالى سواءٌ

جُمِعَ القُربُ إلى البُعد في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا﴾؛ لتحقيقِ الطِباق المعنويّ اللّافت، والمفيدِ بِقُرْبِ وُقوع العذاب في واقع الحالِ بقَدْرِ بُعده في وهْمِ الكُفّار؛ ممّا يَدْعَمُ الصَّبر الّذي أُرشد إليه رسولُ اللّه ﷺ.

و"سواءٌ أُريد بذلك قُربُ الزَّمان أو قُرب المكان؛ فهو هيِّنٌ على قُدْرَتِنا، وهو آتٍ لا محالة، وكلُّ آتٍ قريبٌ، والبعيدُ والقريبُ عِنْدَنا على حدٍّ سواءٍ"[5].

موقع جملة ﴿يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ﴾:

تنوُّعُ الدّلالات القُرآنيَّة بتنوُّعِ موقِعِ الإعرابِ

قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ﴾ ظرفٌ متعلّق بـ ﴿لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ﴾، أو بما يدلُّ هو عليهِ؛ أي: يقَعُ يومَ تكونُ السَّماء كالمُهْل[6]، وكأنَّهم سألوا رسولَ اللّه ﷺ عن الوقت الذّي وُعِدوا

(1) ابن عاشور التحرير والتنوير: 29/ 158.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 609.
(3) الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 16/ 11.
(4) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 393.
(5) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 393.
(6) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 9/ 30.

أنْ يقَعَ بِهِم العذابُ، مَتَى وقتُه؟ فنزلت هذه الآية: ﴿يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ﴾[1].

أو أن يكون الظَّرف ﴿يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ﴾ متعلّقًا بـ ﴿قَرِيبًا﴾، وجملة ﴿تَكُونُ﴾ في محلِّ جرٍّ بإضافة الظَّرف إليها[2]، أو بدل من (قريب)[3].

دلالةُ التَّعبير بفعلِ الكونِ مضارعًا في قوله ﴿يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ﴾:

استحضارُ المُستقبَلِ؛ كأنَّه ماثلٌ وقتَ التِّلاوة، وذلك أشدُّ في التَّأثير

في إيثار فعل الكونِ مضارعًا في قوله تعالى: ﴿تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ﴾ إيماءٌ إلى الحصول في المستقبل؛ أي: أنَّ وقوع العذاب الذّي سألوا عنه يكونُ حينئذ؛ فالمضارع يتَّسع للاستقبال كاتِّساعه للحال. ومِن لطائفه أنَّه يجعلُ ذلك اليوم مُسْتَحْضَرًا في الأذهان، ومصوَّرةً أحداثُه كأنَّها قائمةٌ وقتَ التِّلاوة؛ فيحصل به التَّأثُّر والخوف، ويتحقَّق به التَّوبُ والأوْبُ.

نُكْتَةُ اختصاصِ ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾ و﴿ٱلۡجِبَالُ﴾ بالذِّكر هنا:

أصلبُ الكائنات يُذاب يومَ القيامة مِن شِدَّته؛ فالإنسانُ به أولى

اختُصَّتْ ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾ و﴿ٱلۡجِبَالُ﴾ بالذِّكر في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ ٨ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ﴾؛ لأنَّ السَّماء أوثَقُ ما تَراه وأصلبُه مِن عِظَم ما يقَعُ فيه من الأهوال، والجبالَ أشدُّ الأرضِ وأثقَلُ ما فيها[4].

وإذا كان هذا القلَقُ والانزعاجُ لِهَذِهِ الأجرام الكبيرة الشَّديدة؛ فما ظنُّك بالعَبْدِ الضَّعيف؟ الّذي قد أثقلَ ظهرَه بالذُّنوب والأوزار؟ أليس حقيقًا أنْ يَنْخَلِعَ قلبُه، ويَنْزَعِج لُبُّه، ويَذهَل عن كلِّ أحد؟[5].

بلاغة التّشبيه في قوله: ﴿يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ﴾:

بيانُ شدَّةِ الأهوالِ وعِظَمِ العذابِ يومَ القيامَةِ

في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ﴾ تشبيهُ السَّماء في

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 200.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 210.

(3) العكبري، التبيان في إعراب القرآن: 2/ 1239.

(4) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 394.

(5) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 886.

تفكُّكِها وذَوبانِها وتحلُّل جُزَيئاتها برواسِبِ الزُّيوت المَغْليَّة، وشوائب المعادن المُذابة[1]؛ وفي تَسَيُّلِ جسم صُلبٍ من شدَّة الغليان حتّى يميل إلى الحُمْرة المغْبَرَّة.

وغرضُ التَّشبيه التَّعريضُ بهَوْلِ ما سَيَنالُ المُشْركين مِنَ الأخْذِ الشَّديد والعذاب الأليم، والتَّهديد بأنّ ذلك اليومَ الشَّديد لا تَقوم لِهَوْله السَّماوات والأرضون مع صلابتها وغِلَظِها في نفسِها، فكيف يقوم لِهَوْلِها الآدميُّ الموصوف بالضَّعف واللّين؟.

لا تـقـوم لـهَـوْلِ القيامةِ الـسَّـمـاواتُ والأرضـون مع صلابَتِها وغِلَظِها

دلالة التعَّبير بـ (المُهْل):

المُهْلُ: عَكَرُ الزَّيتِ؛ أي: تَتَحَوَّلُ السَّماء يومَئذٍ لونًا آخرَ إلى الحمرةِ[2]، ويكون المعنى على حقيقته أنّ السَّماء تذوب وتتفكّك وتتغيّر في ذلك اليومِ مِن لونٍ إلى لون، فتَحْمَرّ مرَّة، وتصفرّ أخرى؛ لِشدَّة هول ذلك اليومِ، فتكون كدُرْديِّ الزَّيت لينًا ولَوْنا متغيِّرا من حالٍ إلى حالٍ.

ويحْتَمِلُ مِنْ جِهَةِ اللُّغةِ ألّا يحلَّ بها التَّغيُّر، ولكنَّ شدَّةَ ما يَنْزِل بالمرءِ مِنَ الهول والفزع يُضعِف بصرَه حتّى يرى السَّماء على خلاف اللَّون الذّي هي عليه، وهو كما يَرى المرءُ إذا حلّ به الضَّعف والمرضُ في الشّاهد، ووجَدَ طَعْم الأشياء على خلاف ما هي عليها؛ فيكون في ذِكْرِ هذا تهويلٌ وتفزيعٌ أنَّ هول ذلك اليوم شديد لا تقوم لهَوْلِه السَّماوات والأرضون مع صلابتها وغلظها في نفسِها؛ فكيف يقوم لِهَوْلِها الآدميُّ الموصوف بالضَّعف واللّين؟[3].

وهذا وإن كان محتَمِلًا مِنْ جهةِ الصِّناعَةِ اللُّغويَّةِ؛ إلّا أنَّ حمل الآيةِ على التَّحقيقِ هو المتعيِّنُ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 159.
(2) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 256.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 200.

وفي تصوير ذوبان السَّماء حتّى تصير مثلَ الذّائب مِن الفِلِزّات، والدُّرْديِّ[1] من الزَّيت؛ كنايةٌ عن صعوبة ذلك اليوم، وشدَّة حرارته. كما أنَّ في التَّعبير عن ذلك بالمُهْل دلالةً على سوء مصيرهم، والمقصودُ من ذلك كُلّه بيانُ أن السَّماءَ تكونَ واهيةً[2].

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ﴾:

التَّناسبُ اللَّفظيُّ والمعنويُّ مُقْتَضٍ العطفَ بينَ الجُمَلِ

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ﴾ عاطفَةً الجملةَ بعدها على جملة ﴿تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ﴾؛ لِما بينَهما من التَّوسُّط بين الكمالين؛ إذ الجملتان متَّحدتان خبرًا، وبينهما تناسُبٌ في اللَّفظ والمعنى، فأمّا اللَّفظُ فاشتراكُهُما في الفعليَّة، واتِّحاد المسنَد فيهما، وما اشتملتا عليه من التَّشبيه، وأمّا المعنى؛ فلأنَّ الآيتين تجمعانِ بين صورتَيْن خَطيرَتَيْن، وحَدَثَيْن عظيمَيْن واقِعَين في ذلك اليوم، وقد حَسَّن الجمعَ بينَهُما أيضًا تناسُبُهما من حيث الضَّخامة؛ فالسَّماء أكبر جِرم عُلويٍّ يراه الإنسانُ، والجبال أكبر جِرْم أرضيٍّ يراه الإنسانُ.

دلالَةُ تَكْرار فِعْلِ الكونِ المضارعِ في قوله: ﴿وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ﴾:

خَبَرُ كلِّ حَدَثٍ مِن أحداثِ القيامة جديرٌ وحدَه بِالرَّدعِ عن التَّمرُّد على الدّين

في تَكْرار فعلِ الكونِ المضارع في قوله: ﴿وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ﴾ تنبيهٌ إلى خُطورَةِ كلِّ كونٍ منهُما على جهة الاستقلال، وأنَّ كونَ السَّماء كالمُهْل حَدَثٌ وحدَه مُريع، كافٍ في التَّرهيب والزَّجر عن تكذيب الرَّسول ﷺ والاستهزاء بالدّين، وأنَّ كون الجبال كالعِهن المنفوشِ حَدَثٌ وحدَه مُريعٌ كافٍ في الرَّدع عن إيذاء الرَّسول ﷺ، والتَّصدّي لدعوته.

معنى (أل) في ﴿ٱلۡجِبَالُ﴾:

الجبال الصُّلبة الشّامخة تتفتَّتُ وتتطاير خفَّةً يومَ القيامةِ

(أل) في ﴿ٱلۡجِبَالُ﴾ دالّةٌ على الاستغراقِ؛ أي: جميعُ الجبالِ

(1) "ما يَرْكُدُ في أسفلِ كُلِّ مائعٍ كالأشرِبة والأدْهان"، يُنظر: ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر: 2/ 112.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 67.

الأرضيَّة تكون كذلكَ، كما يدلُّ عليه قول الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ [طه: 105 - 107]. ويجوزُ أن تكون اللّام في (الجبال) مفيدةً الكمالَ، فهي توحي باكتمال خصائصِ الجَبَليَّة فيها، وأنَّها الجبالُ العِظام الصَّخريَّة المَتينَة، وعلى الرُّغم مِنْ ذلك؛ فإنَّها تصيرُ كالصّوف الهَشِّ المُتطاير، لا ثِقَل لها ولا صلابةَ فيها، وفي ذلك كنايةٌ عن شدَّة هول ذلك اليوم، وما سيعانيهِ الكفّار المستهزئون مِن صنوفِ العذابِ.

دلالة التَّعبير بـ (العِهْنِ):

مِن خصائصِ التَّشبيه القرآنيِّ الاتِّساقُ بين طرفَيْه

في تصوير الجبالِ بصورة العِهْن كما في قوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾ مراعاةٌ لِحَيْثيَّة اللَّون إلى حيثيَّة الكثافَة، فاللَّوْنُ أصباغٌ مختلِفَةٌ مُتَداخِلَةٌ، تُغَطّي كثافةً هشَّة متناثِرَةً مِن صوفٍ مُتَطايرٍ مُبَعْثَر، تلك صورة الجبالِ الّتي تكون عليها يوم القيامةِ، وقد قالوا: "لا يُقال عِهْنٌ إلّا للمصبوغ، وأوّل ما تتغيَّر الجبالُ تصير رملًا مهيلًا، ثُمَّ عِهنًا منفوشًا ثُمَّ هباء منثورًا"(1).

ومن دِقّة تصوير الجبال بالعِهْنِ: اتِّساقُ لونِ الطَّرفين؛ حيث إنّ الله سُبحانَهُ قال ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾﴾ [فاطر: 27]، فإذا بُسَّتْ وطُيِّرَتْ في الجوِّ؛ أشبَهَتْ العِهنَ المَنْفوش إذا طيَّرَتْه الرّيحُ(2).

بلاغَةُ التّشبيهِ في قوله: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾:

التَّنبيه بالأعلى عن الأدْنى

في قوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾ شُبِّهت الجبالُ بالصّوف المَصْبوغِ بألوانٍ مُخْتَلِطَةٍ مُتَداخِلَةٍ. ووجهُ الشَّبه بينَهُما تطايرُ شيءٍ هشٍّ مختلط الألوان؛ لذلك جاء تشبيهًا كاشفًا عن حال تلك الجبالِ،

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 394.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 609.

الّتي كانت في الأرضِ أوتادًا، شادّةً لَها مُثَبِّتَة إيّاها؛ فكانت لا تمورُ بأَهْلِها، وصارت إلى تلك الصّورة من الهَشاشَةِ والخفّة، وإذا كان ذلك حالَها؛ فحالُ الأرضِ عُمومًا أخطرُ، وحالُ البَشَر أشدُّ خطورةً بطريق الأولى، فيكون في هذا تنبيهٌ بالأعلى عن الأدْنى.

و"في تشبيهِ السَّماء بالمُهْل والجبال بالعِهْن، وما يَغْلِب على التَّشْبيهَيْن مِن لونِ الحمرة؛ في هذا إشارةٌ إلى تغيُّر طبيعة لونِ الجوّ في مَرْأى العَيْن، وذلك حينَ يكونُ مَوْقِعُ النَّظر من خارج الغلاف الجويِّ للأرض؛ حيث تبدو السَّماء والأرضُ مَكْسوّتَيْنِ بلونٍ أشبهَ بلَوْنِ الأفُقِ الدّاكن بعد الغروب، أو قبلَ الشُّروق"[1].

معنى (الواو):

ما كان مُتَماسِكًا في الدُّنيا يتهدّم يومَ القيامَةِ، حِسّيًّا كان أو مَعْنَويًّا

(الواو) في قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا﴾ عاطفةٌ جملة (لا يسأل حميمٌ حميمًا) على ما قبلها؛ لِما بينَهما من التَّوسُّط بين الكمالَيْن؛ فالجملتان خبريَّتانِ، وبينهما تناسبٌ لفظيٌّ لاتِّحادهما في الفعليَّةِ والمضارعيَّة، وتناسبٌ معنويٌّ؛ لأنَّ جملة ﴿وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا﴾ كاشفةٌ عن حالِ النّاس المسبَّب عن حالِ السَّماء والجبالِ، فالأهوالُ قَد تكاثَرَتْ على النّاس حتّى ذُهِلَ الأحبَّة عن بعضِهم بعضًا، بل وردَ أشدّ من هذا في قول الله تعالى: ﴿تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ [الحَجّ: 2].

وتلك الواواتُ في الحقيقةِ تعطِفُ المعانيَ لا مجرّد الألفاظ؛ فكلُّ شيءٍ كان مُتَماسِكًا مَتينًا في الدُّنيا يتهدّم في ذلك اليوم، حِسّيًّا كان كالسَّماء في العالم العلويِّ، وكالجبال في العالَم الأرضيّ، أو معنويًّا كالصّداقاتِ والمحبَّة، كالّتي تكون بين الأب وأبنائه، والزَّوج وزوجِه، والأصدقاء المُخْلصين.

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 15/ 1160.

كلُّ إنسانٍ يَنشغِلُ يومَ القيامَةِ بِنَفْسِه، ولا يُعْنَى بغيرِها

معنى (لا):

(لا) في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ نافيَةٌ، قاطعَةٌ بانْشِغال كلِّ إنسان بنفسِه، ومن جملتِهم السّائلُ المكذِّبُ الّذي تقدَّمَ ذِكْرُهُ في قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾، فلقد لفَّه الذُّهول إذ حلّ به العذابُ الّذي كان في الدُّنيا يُكَذِّب به، ويستهزئُ بأخبارِه.

انْقِطاعُ الصِّلاتِ يومَ القيامَةِ لشِدَّة هَوْلِه وعِظَمِ كَرْبِه

دلالة التَّعبير بلفظ ﴿حَمِيمٌ﴾، ولطيفَةُ تَنْكيره:

الحميمُ هو القريبُ، الّذي كان يَعطف ويَحْنو على قريبِه ويحتدّ حمايةً له[1]، والمعنى: "لا يسألُ قريبٌ مشفِقٌ قريبًا مُشْفِقا عن حاله، ولا يُكلِّمه؛ لابْتِلاءِ كلٍّ منهم بما يَشْغَلُه عن ذلك"[2]، والمقصودُ: أنَّ كلَّ صاحبِ صلةٍ متينَةٍ بحميمِه؛ مِنْ قريبٍ شفيقٍ، أو صديقٍ رفيقٍ، أو زوجٍ حبيبٍ، أو ابنٍ عطوفٍ، إلى غير ذلك من أصحاب الرّوابط المتينَةِ؛ ينشَغِلُ بنفسِه عن غَيْرِه مِنْ هَوْلِ ما يكونُ في القيامَةِ.

وفي إيثار التَّعبير بـ ﴿حَمِيمٌ﴾ فاعلًا ومفعولًا أوّلَ في جملة ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ دون (حبيب)؛ دلالةٌ على أنَّ صِلَتَهُ بحميمِه كانت في الدُّنيا أقوى الرَّوابط الإنسانيَّة حَميميَّةً، وأنّها تتفكّك وتذهَب، وتنتهي بالكلّيَّةِ يومَ القيامة؛ كنايةً عَن صُعوبَتِه، وثِقَل أحداثِه، وشِدَّة سَطْوَتِها على النّاس، فاللهمَّ حفظَك يا حفيظُ.

ويدعَم تلك الدّلالاتِ الخطيرةَ تنكيرُ لفظِ ﴿حَمِيمٌ﴾ و﴿حَمِيمًا﴾؛ إذْ إنَّ تنكيرَهُما يُفيد تعظيمَ الصِّلةِ بينَهما وتهويلَ أمْرِها، فكانَ حقُّها أن تبقى، أو يبقى على الأقلِّ قدرٌ منها. فدلَّ ذهابُها وذهولُ الحميم عن الحميم على بلوغ شدَّة يوم القيامة مبلغًا لا يمكنُ تصوُّره على ما يكون عليه.

ووراءَ تنكير ﴿حَمِيمٌ﴾ في الفاعل والمفعول كنايةٌ عن تقاطُع ما دون

(1) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 10/ 1574.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 67.

الحميميَّة من صلاتٍ بطريقِ الأَوْلى، وصدقَ اللّه العظيمُ؛ فقد قال: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس: 34 - 37].

دلالةُ اتِّحادِ لفظِ المَفْعول مع لفظِ فاعله في: ﴿حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾:

مـن بـراعـة النَّظم القرآنيّ اتِّحادُ الألفاظ المعبِّرة عن اتِّحاد الصِّلاتِ الإنسانيَّة

في إيثار لفظِ المفعولِ من حروفِ فاعله في قول اللّه تعالى: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ براعةٌ نظميَّة دقيقة؛ حيثُ يتَّسق اتِّحادُ الكلماتِ هُنا مع اتِّحاد الصِّلاتِ الإنسانيَّة لتصوير شدَّة الارتباط بين الحَميمَيْن، وكأنَّهما قد ذابا في بعضِهما، ومع ذلك يذهَب ذلك الاتِّحاد، ويذوبُ ذلك الارتباطُ، ولا يَذكرُ أحدُهما الآخرَ، ولا يسألهُ عن حالِه، ولا يسأله شيئًا مِنَ المَعونَة؛ لِعلمه بعجزِه عن نفعِه بشَيْءٍ.

بلاغةُ الكِنايَةِ في قوله: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾:

يـوم القيامَةِ يتملَّك هولُه جميعَ الكفّارِ

في عدم سُؤالِ الحميم - كائنًا مَن كان - الحميم - كائنًا مَن كان -: كنايَةٌ عن فظاعة أحداثِه حتّى يصير الكفّار في ذهولٍ شديد وكربٍ عظيم، وعَنْ شدَّة الهَوْلِ الّذي يتملّك الجميعَ، إلّا مَن كان مِن أهل الإيمانِ، كما قال اللّه تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزُّخرف: 67]، فإنَّهم يكونون في حفظِ اللّه تعالى وأمانِه ورعايتِه.

دلالَةُ حَذْفِ متعلّق ﴿يَسْـَٔلُ﴾:

حذفُ اللَّفظِ مِنَ النَّظم القرآنيِّ قَدْ يقابِلُ غيابَ مَعناهُ عَن الواقع

حُذِف متعلّق الفعل ﴿يَسْـَٔلُ﴾؛ لِظُهوره مِن المقام؛ أي: "لا يسألهُ نُصرةً، ولا منفعة؛ لِعلمه أنَّه لا يَجِدُها عندَهُ، ولا يسأله عن حالهِ لأنَّها ظاهرة، قد بُصِّرَ كلُّ أحدٍ حالةَ الجميع، وشُغِل بنفسه"[1].

وحذْفُ مفعولِ ﴿يَسْـَٔلُ﴾ يَتَّسق مع هولِ المَوْقِف وضيقِ المقام، ويُجَسّد انشغال كلِّ واحدٍ بِهُمومِهِ عَن غيره؛ فلا مجالَ لسُؤالٍ أصلا،

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 366.

فَضْلًا أن يكونَ سُؤالًا عَن شيءٍ مخصوص. وهكذا تبدو البَراعَةُ النَّظميَّة في القرآن الكريم في أنَّ حَذْفَ اللَّفْظِ مِنَ النَّظم القرآنيِّ قد يُقابِل غيابَ معناهُ عَنِ الواقع.

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّة في الفعل ﴿يَسْـَٔلُ﴾:

التَّكامُلُ الدّلاليُّ بين القراءات القرآنيَّة

قرأ ابنُ كثير (ولا يُسْألُ حَميم) بِضمِّ الياء، وقرأ الباقون ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ بفَتْحِها، فمَن قرأ بفتح الياءِ؛ فالمعنى: أنَّهم يَعْرِف بعضُهُم بعضًا، ويدلُّ عليه قولُه تعالى بعدُ: ﴿يُبَصَّرُونَهُمۡ﴾.

ومن قرأ ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ حَمِيمٌ﴾ - بضمِّ الياء - فالمعنى: لا يُسْأل قريبٌ عَن ذي قرابتِه. ويكون ﴿يُبَصَّرُونَهُمۡ﴾ مرادًا به الملائكة[1]؛ أي: لا يُسأل قريبٌ عن قريب، فلا يُطالَب به، ولا يُؤخذ بِذنبه[2]؛ لأنَّ ذلك اليوم هو يومُ العَدْلِ، وليس مِن العدل أن يؤخَذَ أحدٌ بذنب غيره. ومن قرأه بالفتْح؛ فتأويله: لا يَسأل حميمٌ حميمًا - من شدَّة ذلك اليوم وهولِه - النُّصرةَ والشَّفاعةَ، أو لا يَسْألُ عَن حالِه بما حلّ به مِن الشُّغل في نفسه[3]. والمعنيانِ يُكمِّلُ أحَدُهما الآخَرَ ويُقوّيه.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الحميم والحبيب:

الحميمُ القريبُ المشفِق، والحبيب المائل بِقلبه إلى سواه

الحميم هو القريبُ المشفِق، فكأنَّه الّذي يحتدّ حمايةً لِذَويه، واحتمّ فلانٌ لفلان: احتدّ[4]، والحميم: القريبُ الّذي تَوَدُّه ويودّك، وقريبُك الّذي تهتمّ لأمره، قال تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤﴾ [فُصِّلَت: 34]، ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٖ ١٠١﴾ [الشُّعراء: 100 - 101]، والخِلّ الحميمُ: الّذي يُكِنُّ لك حبًّا شديدًا[5].

(1) الهروي، معاني القراءات: 3/ 89.
(2) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 3/ 537.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 201.
(4) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (حمم).
(5) عمر، أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (حمم).

والحبيبُ؛ مِن قولهم: أحبَّ الشَّيءَ أو الشَّخصَ؛ أي: ودَّه ومالَ إليه، ضدّ: كَرِهَه، ومِنْهُ قول خالد بن الوليد ﵁: "لَآتيَنَّكُمْ بِقَوْم يُحِبّونَ المَوْتَ كَما تُحِبّونَ الحَياةَ"[1]؛ أي: يرغبون فيه ولا يخافونه، ومنه قولهم: "مَن أحبَّ شيئًا؛ أكثر من ذِكْره"[2].

(1) رواه سعيد بن منصور في سننه، برقم: (2482).
(2) عمر، أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (حبب).

﴿يُبَصَّرُونَهُمۡۚ يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ ١١
وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ١٢ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـٔۡوِيهِ ١٣ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ
جَمِيعٗا ثُمَّ يُنجِيهِ ١٤﴾ [المعارج: 11 - 14]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

تـركُ الحـميمِ سـؤالَ حميمه في الآخـرة؛ للـتَّشاغُل بأهـوالِـها لا لِغيابه عنهُ

لمّا كان مِن الوارد احتمالُ عدَمِ سُؤالِ الحميم حَميمَه لعدَمِ رُؤْيَة بعضِهم بعضًا لكثرةِ الجَمْعِ، وشِدّة الزِّحام، وتَفرُّق النّاس فيه على حسَبِ مَراتِبِ أعمالهم؛ استأنف النَّظمُ الكريمُ الجوابَ عَنْ سؤال محتمَلٍ حاصِلُه: لعلَّ ذلك يُترك لعَدَمِ رُؤْيَتِهم لَهُم؟ فقال تعالى: ﴿يُبَصَّرُونَهُمۡۚ﴾ أي: يُبَصِّرُهُم مُبَصِّرٌ؛ فلا يخفى أحدٌ على أحدٍ وإن بَعُدَ مكانُه[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُبَصَّرُونَهُمۡۚ﴾: (بصر) تدور أكثَرُ تَصاريفِها على مَعْنى العِلْم بالشَّيءِ[2]. والبَصَر يُقال للجارحة النّاظرة، نحو قوله تعالى: ﴿كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ﴾ [النّحل: 77]، وللقوّة الّتي فيها، ويقال لِقوَّةِ القلب المدركة: بَصيرَة وبَصَر، نَحو قوله تعالى: ﴿فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ٢٢﴾ [ق: 22]، وقال: ﴿مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ١٧﴾ [النّجم: 17]، وجمْع البصر: أَبْصار، وجمع البصيرة: بَصائِر، قال تعالى: ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾ [الأحقاف: 26]، ولا يكاد يقال للجارحة بصيرَةٌ، ويقال من الأوّل: أبصرتُ، ومن الثّاني: أبصرتُه وبَصُرْتُ به، وقلّما يُقال بَصُرْت في الحاسَّة؛ إذا لم تُضامّه رؤيةُ القلب.

ويصحّ أن يُستعار الاسْتِبْصار للإبْصار، نحو استعارة

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بصر).
(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 395.

الاستجابة للإجابةِ. وقول اللّه تعالى: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝١٠ يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ أي: يُجْعَلون بُصَراءَ بآثارهم[1].

2) ﴿يَوَدُّ﴾: الوُدُّ: محبّة الشَّيء[2]، وتمنّي وجودِه وحصولِه، ويُستعمل في كلّ واحدٍ من المعنيين؛ على أنَّ التّمنّيَ يتضمّن معنى الودّ؛ لأنّ التّمنّي هو تَشَهّي حصول ما تَوَدُّهُ، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الرّوم: 21]، وقوله: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ۝٩٦﴾ [مريم: 96]؛ إشارةٌ إلى ما أوقَع بينَهُم مِنَ الألفة المذكورة في قوله: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ [الأنفال: 63].

ومِنَ المودّة الّتي تقتضي معنى التّمنّي: ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾ [آل عمران: 69]، وقال: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ۝٢﴾ [الحجر: 2]، وقال: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ﴾[3]. فقوله تعالى: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ﴾ أي: يتمنّى لو يَقْدِرُ عَلى ذلك، ولا ينفعُه حينئذٍ التّمنّي.

3) ﴿يَفْتَدِى﴾: (فدى) تدور اشتقاقاتُها على أصلين متباينَيْن؛ أحدهما: أن يُجعَل شيءٌ مكانَ شيءٍ حِمًى له، والآخر: شيءٌ من الطَّعام. فالأوَّلُ قولك: فديتُه أفديه، كأنَّك تَحميه بِنفسك أو بشيء يُعَوِّضُ عنه. ومِنْهُ: الفديةُ؛ وهو ما يقي به الإنسانُ نفسَهُ مِن مالٍ يَبْذُلُه في عبادةٍ قَصَّر فيها[4]. والآخر: الفَداءُ - ممدودٌ -؛ وهو مِسْطَحُ التَّمر، ويُطلق على جماعةِ الطَّعام مِن الشَّعير والتَّمر ونحوها[5]. وقوله تعالى: ﴿لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ﴾ أي: يتمَنّى لو يَحْمي نفسَهُ بعِوَض يدفعُهُ هو هؤلاء جميعًا.

4) ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ﴾: (صحب) تدلُّ تصريفاتُها على مُقارنَةِ الشَّيء ومُقاربَتِه[6]، يقال: أَصْحَبَ الماءُ؛ أي: علاه الطُّحْلبُ. وأديمٌ مَصحوبٌ ومُصْحِبٌ: عليه صوفُه أو شعرُه أو وبَرُه. وعود مصحوبٌ ومُصْحَب: تُرِك لحاؤُه ولم يُقشَّر. والأصل في الصُّحبة: الملازمةُ، ثُمَّ قد

(1) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (بصر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ود).
(3) الراغب، المفردات: (ود).
(4) الراغب، المفردات: (فدى).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فدى).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صحب).

تُسْتَعْمَل في مجرَّد الاقتران. ومن الملازمة مدَّةَ الحياةِ قوله تعالى: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: 15]، وقوله تعالى: ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ﴾ أي: زوجته، وكذا كلُّ استعمالها في (صاحِبَة). والأخوّة رباطٌ قد يَخْلو من اللُّصوق[1].

5) ﴿وَفَصِيلَتِهِ﴾: (فصل) تدلُّ تصريفاتُها على تمييزِ شيءٍ من شيءٍ وإبانتِهِ عَنْه[2]، ومِنْهُ: المَفْصِل؛ وهو كُلّ مُلْتَقى عَظْمين من الجَسَد. والفَصْل: موضِعُه. وتَفْصيل الجَزور: تَعْضيَتُه. والفاصلَةُ: الخَرَزَة التي تفصِل بين اللُّؤلؤتَيْن أو نحوهما في النِّظام. والفصلُ: تميُّز الشَّيء عن غيره مع تمام أو ما هو مِن بابِه، كتميّز كلٍّ من عُضْوَي المَفْصِل، وكلٍّ من أعضاء الجَزور، وتفصيلُ الشَّيء: تبيينُه وجَعْله فُصولًا متمايزةً؛ تمييزَ أجزائهِ وتوضيحَ جزئيّاتهِ، ويُقال: فَصَل بين الخصمين؛ أي: حَكَم، فميّز بينَ المحقِّ والمبطل.

وفصيلةُ الرَّجل: عشيرتُه ورهطُه الأدنَوْن؛ أقربُ آبائه إليه، كالعبّاس ﵁، يقال له: فصيلةُ النَّبيِّ ﷺ، والمقصود بالفصيلة: القِسْم من القبيلة الّذي ينتمي إليه الشَّخص أقربَ انتماء، ولذا وصَف القرآنُ الفصيلةَ بالإيواء: ﴿وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـْٔوِيهِ﴾[3] أي: قبيلته تُقَرِّبُه وتحتَضِنُه.

6) ﴿تُـْٔوِيهِ﴾: (أوي) تدلُّ اشتقاقاتُها على معنَيَيْنِ كُلّيَّيْن؛ أحدُهما: التَّجمُّع، والآخر: الإشفاقُ. والمَأْوى: مصدرُ أوَى يَأْوي أويًّا ومَأْوًى، تقول: أوى إلى كذا؛ إذا انضمّ إليهِ. وآواهُ غيرُه يُؤْويهِ إيواءً. قال اللهُ ﷻ: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ [الكهف: 10]، وقال سُبحانَهُ: ﴿سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ﴾ [هود: 43]، وقال تعالى: ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ [يوسف: 69]، وقال: ﴿وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾ [الأحزاب: 51]، وقال سبحانَهُ تعالى: ﴿جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ١٥﴾ [النّجم: 15]، وقال: ﴿وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـْٔوِيهِ﴾[4]؛ أي: عَشيرَتِه الأقربينَ الذين يضُمّونَهُ في النَّسب أو عندَ الشَّدائد ويأوي إليهِمْ[5].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (صحب).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فصل).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (فصل).
(4) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (أوى).
(5) القنوجي، فتح البيان: 14/ 314.

7) ﴿يُنجِيهِ﴾: (نجى) تدور اشْتِقاقاتُها على الانفصالِ مِنَ الشَّيءِ[1]، ونَجْوَتا الوادي - بالفتح -: سَنَداه جميعًا مُسْتَقيمًا ومُسْتَلْقيًا، كلُّ سَنَد نَجْوةٌ. والنَّجْوة والنَّجاةُ: ما ارتفع من الأرضِ، فلم يَعْلُه السَّيل.

والنَّجاء: السُّرعةُ من خطَرٍ؛ أي: نفاذٌ بقوَّة خلالَ مسافةٍ وخلوصٌ، والخلاصُ من الشَّيء؛ فهو خلوصٌ بِصعوبة، والصّعوبة ثِقَل فهي من الكثافة، قال تعالى: ﴿نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٢٥﴾ [القصص: 25]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾ [الأنعام: 64]. وكلُّ ما في القرآن من هذا التَّركيب؛ فهو بمعنى الخُلوص مِن خطَرٍ مُحْدِقٍ أو عذابٍ أو غرَقٍ أو كرْبٍ، ونحو ذلك، ممّا عدا صيغَتَيْ (ناجَى) و(تَناجى)، وكلّ (نجيّ) و(نجوَى) فهُنَّ مِن معنى المُسارّة، وهي مِن خُلوص المتناجينَ بعضِهم إلى بعضٍ دون الآخرين. أو اختصاص المناجَى، وهو يعدّ استخلاصًا له من بين الآخرين[2]. ومعنى قوله تعالى: ﴿وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ أي: ثُمَّ يخلِّصه من العذاب.

المَعنى الإجْماليُّ:

فظاعةُ عذاب يوم القيامة تُهَوِّن على المُجْرِم تقديمَ كلِّ غالٍ ونفيسٍ فداءً لنفسِه

يُرَى كلُّ حميم حميمَه في الآخرة، ويُعَرَّف به؛ فلا يَهتمُّ لأمرِه لِشدّة ما هُم فيه جميعًا مِن أهوال، وحينَئِذٍ يودُّ الكافرُ المُجْرِمُ، ويتمَنّى أنْ لَو استطاعَ افْتِداءَ نفسِه من عذابِ يوم القيامةِ بِبَنِيه، وزَوْجَتِه الّتي صاحَبَتْهُ في الدُّنيا وخالطَتْه وخالَصَتْه، وبِأخيه الّذي عاضدَه، وقبيلَتِه الّتي حامَتْ عنه وذادتْ، وكلِّ مَن كان يعرف في الدُّنيا، بل وأن يقدِّم فداءً لنَفسه الثَّقلين جميعًا، وكلَّ ما في الأرض مِن ثَرَوات؛ ثُمَّ لعلَّ ذلك - لو استطاعه - يُقبل منه، فينجو ويَسْلَم من تلك الأهوالِ.

(1) الراغب، المفردات: (نجو).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (نجو).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّة فصلِ قولِه: ﴿يُبَصَّرُونَهُمۡۚ﴾ عمّا قبلَهُ:

فُصلَ قول اللّه تعالى: ﴿يُبَصَّرُونَهُمۡۚ﴾ عمّا قبلهُ؛ لما بينَهما من شبْهِ كمال الاتِّصالِ، فالجملةُ الثّانيةُ مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ فهي تُجيب عن سؤالٍ سائلٍ متوقَّعٍ، حاصِلُهُ: لماذا لا يَسأل حميمٌ حميمًا؟ ألِجَهْلِهِم بهم يومئذٍ؟ أم لأنَّهم لا يَلقونهم في الزِّحام؟ أم لأسبابٍ أخرى لا نَعْلَمُها؟ فجاءَ الجوابُ كاشفًا عن أنَّ هولَ الموقف يَطغى على الجميع فيَنْشَغِلُ بهُمومِه، على الرُّغم مِنْ أنَّ أهله الأقربين أمامه، يَراهُم ويَعْرِفُهم بِتعريف اللّه تعالى إيّاه؛ فليس إهمالُهم شأنَ أحْمائِهِم عدمَ بَصَرِهِم بهم حينئذٍ.

ويجوز أن تكون قد فُصِلت جملة ﴿يُبَصَّرُونَهُمۡۚ﴾؛ لكونها "صفةً؛ أي: ﴿حَمِيمٗا﴾ مبصَّرين معرَّفين إيّاهم"(1)، ولا تُعْطَف الصِّفة على الموصوفِ لنزولها منها منزلةَ نفسِها؛ إذ هي نفسُها في المعنى.

كلُّ حبيبٍ يَرى حبيبَهُ يومَ القيامَةِ ولا يوليهِ اهْتِمامًا؛ لِفرْطِ انْشِغالِهِ بنَفْسِه

دلالة التَّعبير بالتَّبصير في قوله: ﴿يُبَصَّرُونَهُمۡۚ﴾:

التَّبصير في قول اللّه تعالى: ﴿يُبَصَّرُونَهُمۡۚ﴾ يعني التَّعريف والمشاهدةَ؛ أي: يُعَرَّفونَهُم، ويَرَوْنَهُم، فيُعَرَّف الحميمُ حميمَه حتّى يَعْرِفه، ومع ذلك لا يَسأل عن شأنه؛ لِشُغله بنفسه(2)، فيُشاهدونهم(3)، ولا يَخْفى منهم أحَدٌ على أحَدٍ، وليس في القيامةِ مخلوقٌ إلّا وهو نُصْبَ عينِ صاحبه، ولا يتساءَلون ولا يُكَلِّم بعضُهُم بعضًا؛ لاشتغال كلِّ أحدٍ منهُم بنَفْسِه(4).

في الآخرة لا ينفَعُ المرءَ إلّا إيمانُه الصّادق وعمله الصّالح

ويحتمل أن يُعَرَّف بعضُهم بعضًا؛ أنَّ هذا أبوك وابنُك وحميمك؛

(1) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 3/ 537.
(2) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 352.
(3) الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 242.
(4) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 347.

إذْ لا يعرِفُه إلّا بالتَّعريف؛ لِما حلَّ به من شدَّة الهَوْلِ والفزَع[1]، وعن السُّدّيِّ أنَّهم يُعَرَّفونهم؛ أمّا المؤمن فبِبَياض وجهِه، وأمّا الكافر فبِسوادِ وجهه[2].

ووراء التَّعبير بمفردة التَّبصير دلالةٌ على انْكِشافِ الحقائِق، وبَصَرِ كلِّ حميم بمكانتِه الحقيقيَّة من حميمه، وأنَّ عافيةَ الحَميميّة صارت مزريَةً بينَهُم، وحينئذٍ لا ينفع المرءَ إلّا إيمانُه الصّادق وعمله الصّالح.

يتضاعَفُ حُزْنُ الكافِرِ حين يرى حبيبَهُ يومَ القيامة يُعذَّب ولا يَملِكُ له نُصرة

وضمير الرَّفع (الواو) وضميرُ النَّصب (الهاء) في ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ يعودان إلى ﴿حَمِيمٌ﴾ و﴿حَمِيمًا﴾؛ لأنَّ كلّا منهما في معنى الجمع وإن كان في اللَّفْظِ مُفْردًا؛ لأنَّه نكرةٌ تفيد الاستغراقَ في سياقِ النَّفي، والتَّقدير: أنَّه لا يَسأل الأصدقاءُ أصدقاءَهم؛ لأنّ كلّا مِن طَرَفَي التَّساؤل على حالٍ واحدة من الوُجوم والاشتغال بالنَّفس عن غيرِهم، فالجميع في هذا اليوم على حدٍّ سواء فيما يُذهِلُهم من هموم، فلا سائلَ ولا مسؤولَ[3].

ولَفَت ابنُ عاشور إلى لطيفةٍ وراء هذا التَّبصير؛ فقال: "يُكشف لهم عنهم ليروا ما هم فيه من العذاب؛ فيَزْدادوا عذابًا فوق العذاب"[4]. فما أشدّ أن يرى الرَّجلُ أصلَ وجودِه أو فلذة كبدِه أو حبيبة روحه يُعذَّبُ؛ ولا يملك لَهُ نُصرَةً!.

بيانُ مرجِعِ الضَّميرين في قوله: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾:

ثـراءُ المعاني ووَفْرَتُها بتعدُّد مرجِعِ الضَّمائر

تعدَّدت أقوال العلماء في المبصَّرين والمبصَّرين بهم في قوله: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ إلى أربعة أقوال؛ فمنها: أنّ الأَقْرِباء يُعَرَّفون أَقْرِباءَهم، ويُعَرَّفُ كُلُّ إنسانٍ قريبَه، فذلك تَبْصيرُ اللّهِ تعالى إيّاهم؛ يُعَرَّفُ بعضُهم بعضًا، ويَتَعارَفون بينَهم، ثم يَفِرُّ بعضُهم مِن بعضٍ،

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 201.

(2) الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 16/ 14.

(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 15/ 1161.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 160.

كما قال الله سُبحانَهُ: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ٣٧﴾ [عبس: 37]، وذكر الطبريُّ أنَّ هذا أولى الأقوال بالصِّحّة. ومِنْها: أنَّ المؤمنين يُبَصَّرون الكافرين، أو أنّ الكفّار يُبَصَّرون الّذين أضَلّوهم في الدُّنيا في النّارِ[1]، أو يبصَّر المظلومُ ظالمَه، والمقتولُ قاتِلَه[2].

وذهب بعضُ أهل العلم إلى أنَّ قوله تعالى: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ يَرْجِعُ إلى الملائكَةِ؛ أي: يُعَرَّفون أحوالَ النّاس لا يَخْفَوْنَ عليهم[3]، أو يكون معناه: أن يُبَصَّروا ما سبَقَ مِنْهُم من الذُّنوب والجرائم فيَعْرِفونَها، وتصير لهم حاضِرَة[4]. وهذا القولُ فيه بُعْدٌ؛ لأنَّ ضمير (هم) في قوله: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ للعقلاءِ، وما تقدَّم منهُم مِن الذُّنوب والإجرام ليس كذلكَ.

دلالةُ الفعلِ المضارِعِ في قوله: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾:

استِحضارُ مشاهدِ الآخرةِ الأليمةِ في تصورّ الإنسانِ يَهُزُّه من الأعماقِ

في التَّعبير بالفعل المضارعِ ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ استحضارٌ لتلك الأحداث، فتُقيمُها حيَّةً في تَصوُّر المتَلَقّي؛ فتمور بتلك الصّورةِ الأليمة نفسُه، وينفَعِلُ لها عقلُه، وذلك من شأنه مراجعَةُ النَّفس ومناقشة العقل في قضيَّة الإيمان، والأخذ بهما إلى سُلوك سبيل النَّجاة، فينتهي الكافرُ عَنِ الاستهزاءِ بعذابِ الله تعالى، ويسارع إلى اعْتِناقِ دينِه الحقِّ، والانضمام إلى رَكْبِ الإيمانِ معَ الأبرار الأطهارِ.

دلالة إسنادِ الفِعْلِ (يُبَصَّرُ) إلى مفعوله:

الكافر في الآخرة لا يحتاج إلى إقناعٍ ليُصَدِّق، بخلافِهِ في الدُّنيا

في إسناد فِعْلِ التَّبصير لغير فاعلِه، وبنائه إلى ضمير المفعولِ الأوَّل في قول الله تعالى: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ تلك التَّبصرة تكون حينئذٍ ذاتيَّةَ المَنْبَعِ، أصيلَةَ القناعَة، لا تحتاج إلى جُهْدٍ للتَّصديق بها بخلافها في الدُّنيا.

(1) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 257.
(2) الماوردي، النكت والعيون: 6/ 92.
(3) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 347.
(4) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 202.

وفي الفعل ﴿يُبَصَّرُونَهُمۡۚ﴾ ما ليس في الفعل (يُبْصِرونَهُمْ)؛ وذلك لأنّ ﴿يُبَصَّرُونَهُمۡۚ﴾ يفيد أنَّ أهل الموقف - لِما هم فيه مِن بلاء - لا يكادون يُبصِرون شيئًا، ولكنْ كأنَّ قوَّةً خارجة عنهم تَحملهم حملًا على أنْ يفتحوا أعيُنَهُم على هذا المكروه الّذي يُحيط بهم، ويهجُم عليهم، وأنَّ قوله: ﴿يُبَصَّرُونَهُمۡۚ﴾ يُفيدُ أنَّ المبصَّرين والمبصَّرين بهم على حدٍّ سواء، فكلٌّ منهم يُبْصِر ويُبْصَر، في حالٍ مِن الفزع والهلع، لا تدع لأيٍّ سبيلًا إلى الاختيار فيما ينظُرُ إليه[1].

لطيفةُ جَمْعِ ضميرَي الحَميمَيْنِ في قوله: ﴿يُبَصَّرُونَهُمۡۚ﴾:

كـلُّ حـمـيـم في الآخـــرة يـرى حـمـيـمَـهُ، ولا يـولـيـه عـنـايَـةً لِشدّة الموقفِ

وجَمْعُ ضميري الحميمَيْن في قوله: ﴿يُبَصَّرُونَهُمۡۚ﴾ ناظرٌ إلى عمومِهما؛ لأنَّ المقصودَ ليس صَديقَيْن مَخْصوصَيْن، وإنَّما المقصودُ كلُّ صديقٍ معَ صديقِه[2]؛ وأُخِذ ذلك العمومُ مِن أنَّهما نكرتان في سياق النَّفي[3]؛ فيعمّان كلَّ حَميمَيْن.

سرّ حذف الجارّ المُعَدّى به الفعلُ في قوله: ﴿يُبَصَّرُونَهُمۡۚ﴾:

كلُّ حميمٍ قريبٌ مِنْ حَميمِهِ يومَ القيامَةِ، ولا يتكلَّمان لِهَوْلِ المُوْقِفِ

الفعل في قول اللّه تعالى: ﴿يُبَصَّرُونَهُمۡۚ﴾ مضارعُ بصَّرَهُ بالأمر؛ إذا جعلَهُ مُبْصِرًا له؛ أي: ناظرًا، فأصله: يُبَصَّرون بهم، فوقعَ فيه حذفُ الجارِّ وتعدية الفعل[4] بنفسه. ومن لطائف ذلك الحذفِ الإيحاءُ بقوة بَصرهم بهم، فيحكي حذفُ الجارّ (الباء) مدى القُرب المكانيِّ بين كلِّ حميمَيْن يومئذ، حتّى لكأنَّهما مُلْتَصِقان بلا فاصِلٍ ماديٍّ يحولُ بينَهُما، ومع ذلك لا يتكلّمان، ولا يَهُمّانِ بالتَّعاوُن على الخلاصِ ممّا هُما فيه؛ ممّا يدلُّ على هَوْلِ المَوْقِف وشدَّة المعاناة.

غرَضُ الخَبَرِ في قوله: ﴿يُبَصَّرُونَهُمۡۚ﴾:

شدَّةُ انْدِهاشِهِم ممّا نزَلَ بِهِم مِن هولِ الموقفِ

في الإخبار بتَبْصير كلِّ حميمٍ بِحَميمِه في قوله: ﴿يُبَصَّرُونَهُمۡۚ﴾ "بيانٌ

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 15/ 1161.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 15/ 96.
(3) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 347.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 160.

للحال الّتي يكون عليها النّاسُ يومَ القيامة، وأنَّ كلّ إنسانٍ مَشْغولٌ بِنَفْسِه، لا يسألُ عَن أحَدٍ، ولا يَسْأل عنه أحَدٌ، إن كان مِن النّاجين مَضَى إلى مرفأِ النَّجاة، ناجيا بنَفْسِه، دون أن يَلْتَفِت إلى وراء، أو عن يمين أو شمال، وحسبُه أنَّه نجا. وإن كان مِن الهالكين؛ فحسبُه ما يُعاني مِن شدّة وبلاء: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۝٣٧﴾ [عبس: 37][1].

كذلك في هذا الخبر بيانُ أنَّه "ما يَمْنَعُهُم من المُساءلَةِ أنّ بعضَهُم لا يُبْصِر بعضًا، وإنَّما يَمْنَعُهُم التَّشاغُل"[2]؛ فـ "المانعُ مِن هذا السُّؤال هو الاندهاشُ ممّا نزَل، لا احتجاب بعضِهم مِن بعضٍ"[3].

بيانُ نتيجةِ عَظَمةِ يوم القيامَةِ

علَّة فَصْلِ قوله: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ﴾ عمّا قبلهُ:

فُصِلَ قول اللّه تعالى: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ﴾ عن قوله: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾؛ لأنّ الثّانية المفصولةَ "حالٌ من ضميرَي الرَّفع والنَّصب في جُمْلَة ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾؛ أي: أنَّه يُبَصَّر بعضُهم بعضا، ويَكشِف بعضُهم حالَ بعض، في حالٍ يودّ فيها المجرِمُ لو يَفْتَدي من عذاب هذا اليوم بِبَنيه..."[4]، والأصلُ في الحالِ أن لا تُعْطَفَ؛ لأنَّها بمنزلةِ الصِّفةِ مِنَ الموصوفِ، أو الخبرِ من المبتدأ.

أو فُصِل قوله تعالى: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى﴾؛ لكونه استئنافًا بيانيًّا، فبينَ الجملتين شبهُ كمال الاتّصالِ؛ إذ إنَّهُ "لمّا تناهى الإخبارُ بعظمَةِ ذلك اليوم إلى حدٍّ لا تَحتمِلُهُ القلوبُ؛ ذَكَر نتيجةَ ذلكَ، فقالَ مستأنفًا: ﴿يَوَدُّ﴾"[5].

عِظَمُ انْشِغالِ كُلِّ مُجْرِمٍ بِنَفْسِهِ يومَ القيامَةِ

دلالة التَّعبير بالودّ، ونُكْتَةُ صوغهِ مُضارِعا في الفعلِ ﴿يَوَدُّ﴾:

﴿يَوَدُّ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى﴾ أي: يُحِبُّ

---

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 15/ 1161.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 609.
(3) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 318.
(4) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 15/ 1162.
(5) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 15/ 1162.

أو يتمَنّى؛ إذ يُقالُ: ودَّ الأمرَ؛ أي: أحبَّه[1]، فالمعنى هنا أنَّ الكافر "يَتَمَنَّى أنه يَفْتَدي مِن عذابِ اللّهِ إيّاه ذلك اليومَ ببَنِيه، وصاحبته - وهي زوجتُه -، وأخيه، وفَصيلتِه؛ وهم عَشيرتُه"[2]، وفي ذلك بيانُ "أنَّ اشتغالَ كلِّ مجرم بنَفْسِه بلَغَ إلى حيثُ يتمَنّى أن يفتديَ بأقرَبِ النّاس إليه وأعْلَقِهِم بقَلْبِه، فضلًا أن يَهْتَمَّ بحالِه ويسألَ عَنْها"[3].

وهذا البيان المرعب يُقَدَّم له هنا في الدُّنيا نُصحًا شفيقًا رفيقًا؛ لعله يتدارك نفسه فيكفّها عن الكفر، ويأخذ بيديها إلى الإيمان.

ويودُّ ذلك "إما بخاطر يخطر في نفسه عند رؤية العذاب، وإما بكلام يصدر منه نظير قوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا ٤٠﴾ [النبأ: 40] وهذا هو الظّاهر، أي يَصرخ الكافر يومئذ فيقول: أفتدي من العذاب ببنيّ وصاحبتي وفصيلتي، فيكون ذلك فضيحةً له يومئذ بين أهله"[4].

معنى (أل) في ﴿ٱلۡمُجۡرِمُ﴾:

الكُفر إجرامٌ كبيرٌ مكتمِلَةٌ خصائصُهُ

و(أل) في ﴿ٱلۡمُجۡرِمُ﴾ لبيان الجِنْسِ المُسْتَغرِق كُلَّ مُجرم، "سواءٌ أكانَ كافرًا أو مسلمًا عاصيًا علم أنه يُعذَّب بعصيانه، وقُيِّد به لأنّ المسلمَ الطّائع يَشْفَعُ فيمَن أُذن له فيه، ولا يَهُمُّه شيءٌ من ذلك"[5]، فالكافرُ هو الأصلُ، وقد يَدخُلُ فيه المسلم العاصي تبعًا.

والمعنى: أنّ كلَّ مجرم يومئذ تبلُغُ منهُ النَّدامة، ويبلُغُ بهِ العذابُ حالًا عجيبَةً، ليس العجَبُ فيها من أنَّه يَقبل أو يوافقُ على الافتداءِ بأهلِه الأدنَيْن، بل أن يتمنّى أن لو استطاعَ ذَلِكَ، ويَتَمَلّكه الحُزْنُ والنَّدَمُ على فَواتِه، وذلكَ كنايةٌ عن قسوة العذابِ يومئذ وفظاعَتِه.

(1) أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (و د د).
(2) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 606.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 9/ 31.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 160.
(5) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 395.

وتوحي (أل) في ﴿ٱلۡمُجۡرِمُ﴾ أيضًا بفَظاعَةِ الإجرام؛ فيتقرَّر بذلك ذُلُّه، وذهابُ عُتوِّه وظُلْمِه، وفقدانُه مُقوِّماته، وانقلاب حالِه؛ إلى حدٍّ يتمَنّى فيه أن لو يَتَمَكّن مِن افتداءِ نَفْسِه بأبنائه وزوجِه وأهلِه وعشيرتِه أجمعينَ.

و﴿ٱلۡمُجۡرِمُ﴾ في هذه الآية الكافر؛ بدليلِ شدّة الوعيد وذِكْرِ ﴿لَظَىٰ﴾، وقد يَدخل مجرم المعاصي فيما ذُكِرَ مِنَ الافتداءِ تبعًا[1].

دلالَةُ التَّعبير بـ ﴿ٱلۡمُجۡرِمُ﴾ دون (الكافر)، ودلالةُ صَوْغِه اسمَ فاعِلٍ:

الكفرُ إجرامٌ في حقِّ النَّفس وفي حقِّ الله تعالى، وهو أعظَمُ صوَرِ الإجرامِ

في إيثارِ التَّعبير بالإجرام دونَ الكُفْرِ إيحاءٌ بأنَّ الكفر إجرامٌ في حقِّ النَّفس، كما هو إجرامٌ في حقِّ اللّه تعالى، وأنَّ الكفرَ أعظَمُ إجرامًا مِن كُلِّ جُرم، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النّساء: 48]؛ فدلّ على أنَّ الكُفْرَ أعظَمُ صوَرِ الإجرام، وأنَّ الكفّار جميعًا مجرمونَ.

كذلك يوحي إيثارُ التَّعبير بالإجرام بأنَّ الكُفْرَ يُجَرِّئُ على ارتكابِ صوَرِ الإجرام كُلِّها، فلا يَتَوَرَّع الكافِرُ ممّا يتوَرَّعُ منهُ المُؤْمِنُ، وأنَّ الإيمانَ يَمْنَعُ مِن أنواعِ الإجرام، كما قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ٦٣﴾ [الفرقان: 63].

معنى ﴿لَوۡ﴾ في قوله: ﴿لَوۡ يَفۡتَدِي﴾:

أماني الكافِرِ يومَ القيامة لا تَعْدو حدودَ التَّمَنّي النّادمِ

﴿لَوۡ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ﴾ "مصدريَّة، فما بعدها في حُكْم المفعول لـ ﴿يَوَدُّ﴾؛ أي: يودُّ الافتداءَ مِن العذابِ بِبَنِيه ... إلى آخره"[2]، "فلا يكون لها جَوابٌ، ويَنْسَبِكُ منها وممّا بعدَها مصدَرٌ يقَعُ مفعولًا لـ ﴿يَوَدُّ﴾، والتَّقدير: يَوَدُّ افتداءَهُ بِبَنِيه ... إلخ"[3].

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 367.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 161.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 67.

وهي تَقطع باستحالةِ افتداءِ الكافِر نفسَه أصلًا، وتدلّ على أنّ تحقيقَ هذه الوَدادَةِ مجرَّدُ تَمَنٍّ[1].

لطيفَةُ إيثارِ التَّعبير بالمَصْدَرِ المؤوّل ﴿لَوۡ يَفۡتَدِى﴾ على الصَّريح:

تَـتراكـم عَـلى الـكـافـرِ يـومَ القيامةِ أسبابُ العذابِ الحسّيِّ والمعنويّ

أوثِر التَّعبيرُ بالمَصْدَرِ المؤوّل ﴿لَوۡ يَفۡتَدِى﴾ على الصَّريح، فلم يَرِدِ النَّظمُ القرآنيُّ: يودُّ المُجْرِم الافتداءَ يومِئذٍ ببَنيه ... إلى آخرِه؛ وفي ذلك إتاحَةٌ للتَّصريح بأداةِ التَّمنّي المُحيلة ﴿لَوۡ﴾، وعطاءِ المُضارعة في ﴿يَفۡتَدِى﴾ المفيدَة تجدُّدَ تلك الأمنية عندَ المُجْرِم، واستمرار تعلُّقِه بما لا يكون؛ فيترَتَّب عليها تجدُّد أسبابِ العذابِ النَّفْسيِّ المُذِلّ علاوةً على العذابِ الحسّيِّ المؤلِم.

دلالَةُ التَّعبير بالافْتِداء، ولطيفةُ صَوْغِه مُضارِعًا في الفعلِ ﴿يَفۡتَدِى﴾:

تـمـنّـي الـكـافِـر الافـتـداءَ بـأهـلِـهِ خِـسّـةٌ وانـحـطـاطٌ، أو ذهـولٌ عن وجْهِ الـصَّـواب في درجاتِ الافتداءِ

في التَّعْبير بالافتداءِ في قوله: ﴿لَوۡ يَفۡتَدِى﴾ إشارةٌ إلى أنَّ إجرامَ المُجْرِم أفْقَدَهُ المعاني الإنسانيَّة - بل والمعانيَ الحيوانيَّة - النَّبيلة؛ إذ بلَغَ به الإجرامُ أن يتَمَنّى لو استطاعَ تقديمَ مُهْجَة نفسِه وفلذة كبدِه؛ وهم بنوهُ، بل ويبدأُ بهم تفريطًا فيهم اسْتِسْقاطًا للعذاب استنقاذًا لنفسِه؛ خِسّةً وانحطاطًا، أو ذهولًا عن وجهِ الصَّواب في درجاتِ الافتداء؛ لذلك تُعَدّ هذه الحالُ أقْوى كنايةً عَن شدَّة هولِ ما يَلْقاهُ يومئذ، والعياذ باللّه من حال أهلِ الكُفْرِ والإجرام.

معنى ﴿مِنۡ﴾ في قوله: ﴿مِنۡ عَذَابِ﴾:

إيـجـازُ الـعِـبـارَةِ ووفْرَةُ الدّلالة

﴿مِنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَوۡ يَفۡتَدِى مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذٍۭ﴾ حرفُ ابتداءٍ مجازيٌّ، وكأنَّه يَنْطَلِقُ في سبيلِ استنقاذِ نفسِه مِن العذاب من هُنالِك؛ حيثُ يُقَدِّم بَنيهِ فِدْيَةً لنَفْسِه.

وتَعْدِيَةُ ﴿يَفۡتَدِى﴾ بـ﴿مِنۡ﴾ يُضَمِّنُه معنى الفعلِ (يتخلّص)[2] و(ينجو)، فالتَّعدية بـ﴿مِنۡ﴾ تُحقِّق الإيجازَ في العبارة والغزارةَ في الدّلالة.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 396.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 161.

دلالَةُ التَّعبير بـ ﴿عَذَابِ﴾:

العذابُ: الإيجاعُ الشّديد، وأصلُ التَّعذيب: إكثارُ الضّرب بِعَذَبَةِ السّوطِ؛ أي: طرفِها، وقال بعضُ أهل اللّغة: التَّعذيبُ هو الضّربُ[1]؛ فتمنّي المجرمِ أنْ ﴿لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ﴾ تمنّي التَّخلُّص من الإيجاعِ المتنوّعِ، ضربًا بمَقامِعَ مِن حديد، أو حرقًا بِلَظى الجحيمِ، أو غير ذلك.

عـذابُ المُـجْـرِم يــومَ الـقـيـامـةِ متنوِّعَةٌ أصنافُهُ

لطيفَةُ الإضافَةِ، وبيانُ إيجازِ الحذفِ في ﴿يَوۡمِئِذِۭ﴾:

التَّنوينُ في ﴿يَوۡمِئِذِۭ﴾ عِوَضٌ عن جملةٍ، وهي تعودُ إلى قولهِ قبلُ: ﴿يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ ٨ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ﴾، فيكون في قوله: ﴿يَوۡمِئِذِۭ﴾ إيجازُ حذفٍ؛ حيثُ ضَغَطَت الجملتينِ في التَّنوينِ؛ تعجيلًا إلى مَكْمَنِ الكناية عن هولِ ذلك اليوم بافتداء المجرمِ ببَنيهِ... إلخ.

إيـجـازُ الـعـبـارة تعجيلًا للفائِدَةِ المقْصودَةِ

و(يومئذٍ) ظرفٌ مضافٌ إلى آخرَ؛ لإرادَةِ التَّخصيصِ؛ "وهو يوم تكونُ السَّماء كالمهل؛ فإن كان قولُه: يوم تكون السّماءُ متعلّقا بـ ﴿يَوَدُّ﴾؛ فقوله: ﴿يَوۡمِئِذِۭ﴾ تأكيدٌ لـ ﴿يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ﴾، وإن كان متعلِّقا بقوله: ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾؛ فقوله: ﴿يَوۡمِئِذِۭ﴾ إفادةٌ لكون ذلك اليوم هو يوم يوَدُّ المجرم لَو يفتدي من العذابِ بِمَن ذُكِرَ بعدَهُ"[2].

معنى (الباء) في القيد ﴿بِبَنِيهِ﴾:

(الباء) في القيد ﴿بِبَنِيهِ﴾ باء العِوَض؛ حيث يتمَنّى المُجْرِم يومئذٍ أن لَوِ اسْتَطاع أن يُعَوِّض افتداءَهُ بعوض غير متوقَّع وهو بنوهُ وصاحبتُه وأخوه وفصيلتُه، ومَن في الأرض كُلّهم. والباء بعد مادَّة الفداء تَدْخُل على العِوَضِ المَبْذولِ[3].

تـقـديمُ الأعِـزّاء بقَصْدِ الفداءِ

(1) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (عذب)، ص: 455.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 160.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 161.

بلاغة الكِناية في افتداء المُجْرِم ببَنيهِ ومَنْ ذُكِر معَه:

فـظـاعَـةُ ما يُقاسيهِ الكافرُ مِـن أصـنـافِ العذابِ

في تَمَنّي المُجْرِم التّمكُّنَ مِن افتداء نفسِه من عذابِ يومئذٍ ببنيهِ ومَن دونَهُم؛ أبينُ كنايةٍ عَن فظاعة ما يُعالِجُه الكافر يومئذٍ مِن صُنوفِ العَذاب وأهوالِه، وهو كنايةٌ عَن هَوْلِ المَوْقِف وقَسْوَة العذاب؛ إذْ لا أغْلى عندَ الإنسان ولا أعزَّ عليهِ من بنيهِ وصاحِبَتِه وأخيهِ وفَصيلَتِهِ.

دلالَةُ التَّرْتيبِ:

أحـوالُ الآخِـرَةِ لا تُـقـاس على أحوالِ الدُّنْيا

رُتِّبت المجروراتُ في قول الله تعالى: ﴿بِبَنِيهِ ⑪ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ⑫ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـْٔوِيهِ ⑬ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ من بابِ التَّدَلّي من الأَغْلى الأَعْلى إلى الأدنى؛ بحسَبِ طَبائع الصِّلاتِ الرّوحيَّة، فالأبناء أعزّ، وبِهِم يُبْدَأ؛ إذِ النَّفسُ أعزُّ مِنْهُم، ثُمّ الصّاحبة، ثُمّ الأخ، وهكذا حتّى تُفْقَدَ الصِّلةُ بالنِّسبة لـ (مَن في الأرض) عمومًا.

و"بدَأ جلَّ ثناؤُه بذكرِ البنينَ، ثُمّ الصّاحبةِ، ثُمّ الأخِ، إعلامًا منه عبادَه أنَّ الكافرَ من عظيم ما يَنْزِلُ به يومَئذٍ من البلاءِ يَفْتَدي نفسَه - لو وجَد إلى ذلك سبيلًا - بأحبِّ النّاسِ إليه كانَ في الدُّنيا، وأقربِهم إليه نسبًا"[1].

ولعَبْدِ الكريم الخطيبِ مقالٌ بارِعٌ تحت تفسير هذه الآية الكريمة بعنوان: (مِن الإعجاز النَّفسيّ في القرآن)[2]؛ حاصِلُ ما قرَّرَهُ: أنَّهُ قَد يَبْدو غريبًا في ظاهِر الأمر أن يُقدّم الإنسانُ أوَّلَ ما يُقدم للفداءِ والتَّضحية أعزَّ شيءٍ لديهِ وهُم أبناؤُه، وقد كان المتوقَّع أن يَجْعَلَهم آخرَ سَهْم يَرْمي بهِ في وجه هذا الهلاكِ الّذي يحتَويه! وهذا الحساب إنَّما يَجْري على هذا الوجهِ حينَ تكونُ الأمور على ما ألِفَ النّاس، وحينَ يكون في الأمْرِ شيءٌ مِنَ السَّعة، ولو كان بِمِقْدارِ سَمِّ الخياط، أمّا والعذابُ هو عذابُ جهنَّم؛ فإنَّ المعايير تَختلّ والموازينَ

(1) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 259.
(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 15/ 1162 ملخَّصًا.

تضطربُ. فإنَّ أقربَ شيءٍ للإنسان في هذا الموقفِ هو دِرعه التي يتَّقي بها لَفْح العذاب، ولو كان هذا الشَّيء عضوا من أعضائه! ولكن انظر حين يكون في الأمر شيءٌ من السَّعة، وحين يكون الإنسانُ خارجَ دائرةِ العذاب؛ لَم يقَعْ فيهِ بَعْدُ، ولَم تُغْلَق عليه أبوابُ جهنَّم. إنَّه هنا يَمْلِكُ شيئًا مِنَ الاختيار؛ ولهذا فإنَّه في ابتداءِ مُنْطَلَقِه مِن وجهِ الخَطر يتخفَّف مِن المُهمِّ فالأهمّ، ويتخلّى عن العزيز فالأعزّ. إنَّه لا يُقَدِّم فدية، ولكنَّه يحلّ نفسَه مِن الرّوابط التي تَرْبِطُه بالولد، والصّاحبة، والأب والأمّ، والأخ؛ تلك الرّوابط التي تجعل مِنْهُ ومِن هؤلاء الأقربين كيانًا واحدا أشبهَ بالجسَدِ وأعضائه: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس: 34 - 37].

فهنا حركَةُ فِرارٍ مِن خطَرٍ داهِم، وهنا لا يلتَفِتُ الإنسانُ إلّا إلى نَفْسِه لينجوَ بها، فإنْ نازَعَتْهُ نفسُه إلى حَمْلِ شيءٍ معَهُ؛ كانَ نظرُه إلى أعزّ شيءٍ عندَهُ، فإنْ وجَدَ فُرْصَةَ النَّجاة ضَيِّقةً؛ تَخفَّف ممّا حَمَل، ورَمَى بالعزيز دونَ الأعزّ. ثُمَّ إذا ضاقت الدّائرة بحيث لا تتَّسع إلّا لنَفْسِه؛ رمى بكلِّ شيء، وطلبَ السَّلامة لنفسِه، والفرارَ بجِلْدِه.

إنَّ هذه الدّقَّة البالغة غايةَ الإحْكام في تصوير الحقائقِ وانْتِزاعها مِن أغوارِ النَّفس ومساربِ الفِكْرِ لا تكون في غيرِ القرآن الكريم، ولو ذهَب كاتِبٌ أو شاعِرٌ يُصَوِّرُ هذه الأحوالَ؛ لَما أمكنَ أن يُقاربَ هذا التَّصوير القرآنيّ، ولا أن يقَعَ في ظِلالِه.

نكتةُ إيثار التَّعبير بالبنينِ على الأولادِ، ولطيفَةُ جَمْعِهِ وإضافتهِ إلى ضميره:

آثر النَّظم الكريم التَّعبير بالبنينَ دون الأولاد؛ لأنَّ الابن يُفيد الاختصاصَ ومُداوَمَة الصُّحبة، والابن في كلِّ شيء صغيرٌ، فيقول الشَّيخ للشّاب: يا بُنَيّ، ويسمّي المَلِكُ رعيَّته الأبناءَ. والابْنُ يُقال للذَّكر، بخلاف الولد؛ فإنَّهُ يقَعُ على الذَّكر والأُنثى[1].

ومِنَ المعلوم أنَّ مُجْتَمَعَ الجاهليَّة - الذّي خوطِب أوّلًا بالقرآن - كان يُحبُّ الذُّكورَ ويَئِدُ الإناثَ؛ لاعتباراتٍ مختلّة تخصُّهم؛ ولذا فإنَّ الافتداءَ بالذُّكور على نُفوسِهم شديد، بل لا يكادُ يُتصوَّر. فكان في إيثارِ التَّعبير بالبنينِ دونَ الأولادِ في قوله تعالى: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ﴾ مراعاةٌ لتلك اللّفتَةِ النَّفسيَّة الدَّقيقة، تكشِفُ جانبًا مِن إعجازِ النَّظم القرآنيِّ الكريم.

(1) العسكري والجزائري، معجم الفروق اللغوية، ص: 12.

وفي إضافةِ البَنين إلى ضميرِ المُفْتَدي في قوله: ﴿بِبَنِيهِ﴾ تنبيهٌ إلى شدَّة ارتباطه الرّوحي وتعلّقه النَّفسيِّ بهم، فإذا تمنَّى لو استطاع افتداءَ نفسِه بهم، وسهُل عليه تقديمُهم فداءً له - لو أمكنه -؛ كان ذلك دالًّا على أنَّ العذاب اللّاحق به يومئذ خارجَ حدودِ التَّصوّر.

التَّضحيَةُ بالإناثِ يسيرٌ عَلى نُفوسِ الكُفّار، بخلافِ البَنينِ؛ فإنَّهُ لا يَكاد يُتصوَّر

معنى (الواو):

(الواو) في قوله تعالى: ﴿بِبَنِيهِ ١١ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ١٢ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـْٔوِيهِ ١٣ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ عاطفةٌ؛ حيث تُسْهِم في بيان الكِنايَةِ عَن شدَّة هول ذلك اليوم؛ إذْ تَجْمَعُ كُلَّ مَن سوى المجرم فداءً له في أمنيَّته، ولكن هيهاتَ له ذلك؛ فاليومُ يومُ العدل، ولا تَزِرُ وازرةٌ وِزْرَ أُخْرى.

بيانُ شدَّة هول يومِ القيامَةِ

لطيفَةُ إيثارِ التَّعبير بالصّاحبةِ على الزَّوجة:

لا يزال النَّظم الكريم يَصطفي من بين البَدائِلِ اللُّغويَّة ما يدعَمُ الكِنايَةَ عَن فظاعَةِ أهوالِ ذلك اليوم، فيُعَبِّر عن الزَّوجة بالصّاحبة؛ تأكيدًا على أنَّ طول العِشْرَةِ وامتدادَ الصُّحبة لَم يَعُد له أهمّيّة عند المجرم إزاءَ أهوالِ يومئذٍ، وذلك يكشِفُ عَن طبائِعِ نفوسِ المُجْرمين، وأنَّهم لا يُبقون على شيءٍ في سبيل اسْتِنْقاذِ أنفُسِهم عند التَّورّط في المُعْضِلاتِ.

لا يُبْقي المُجْرِم على شيءٍ في سبيلِ اسْتِنْقاذِ نَفسِهِ عند التَّورّط في المُعْضِلات

دلالَةُ التَّعبير بِلفْظِ الفصيلَةِ:

في التَّعبير بالفصيلَةِ إجْمالًا إيجازٌ مُبْهَم للآباء والأمَّهات والعُمومَة والخُؤولَة والجوارِ وما إليها ممَّن فُصِلَ عنهم[1]، ومَن فُصل عنهم أقربُ إليه ممَّن عاشَرَهُم عِشرة مُطلقةً. وهكذا يُعمِّم النَّظم الكريمُ بعد أن خَصَّص بنيه وصاحبَتَه وأخاه. وأصلُ "الفصيلة: القِطْعَةُ من أعضاء الجسد؛ وسُمّيت عشيرةُ الرَّجل فصيلةً؛ تشبيهًا لها بالبَعْضِ منه. وقال مالكٌ: إنَّ الفصيلة هي الّتي تُربّيه"[2].

فصيلةُ الإنسان أقرباؤه الأدنَوْن

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 610.

(2) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 347.

ومِنَ اللّافت أنَّ المجرم لا يُبدي يومئذ تَمَنّيَهُ افتداءَ نفسِه بأمِّه وأبيه؛ وذلك لدُخولِهما في الفَصيلَةِ قَصْدًا للإيجاز[1] عند بعض العلماءِ. وللدُّكتور فاضل السامرّائي لمحَةٌ رائقَةٌ هُنا؛ هي أنَّ المُجْرِم يتَحاشى ذلك؛ لأنَّ الافتداءَ يُغضب اللّه تعالى على المجرم أشدَّ الغضب؛ فنزّه المجرمُ والدَيْه عنِ الافتداءِ بِهما، وإن كانا قد طويا في قوله: ﴿وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـْٔوِيهِ﴾؛ لأنَّ أباه وأمَّه ليسا أعزّ على نفسِه ولا أقرب وشيجةً إليه من بنيهِ، فالفَرْعُ غالبًا أقربُ مِنَ الأصلِ.

فصيلَةُ الرَّجُلِ وعشيرتُه سَنَدُهُ في الشَّدائد

نكتةُ تقييدِ (فَصيلَتِهِ) بالصِّفة، وعلَّة التَّعبير بها اسمًا موصولًا:

في تقييد (فَصيلَتِهِ) بالصِّفة ﴿ٱلَّتِي تُـْٔوِيهِ﴾ مبالغَةٌ في وصفِ حالِ الافتداءِ بكُلِّ غالٍ ونفيس، وأنَّ المُجْرِم إزاءَ أهوال يوم القيامة لا يَدَّخر شيئًا يظنُّ أنّه يعودُ عليه بالنَّفع إلّا وتمنّى تقديمَه فِداءً؛ استنقاذًا لنفسِه من ذلك العذاب، وهاهو يوَدُّ لو تمكّن مِن تقديمِ فَصيلَتِهِ الَّتي تُؤْويه، فماذا بَقِي؟.

والتَّعبير عن صفةِ الفصيلَةِ بالاسم المَوْصول ﴿ٱلَّتِي﴾ هو الّذي هيَّأ للنَّصّ على جملة الصِّلة وإيرادِه فعلًا مضارعًا ﴿تُـْٔوِيهِ﴾؛ فالتَّعرُّضُ لهذا لا يتأتّى بالاسم الصَّريح، كما لو قيل في غير القرآن الكريم: وأهله الأقْرَبين، أو وقبيلتِه أجمعين، أو غير ذلك سِوى الموصولِ.

وفي وصف (فَصيلَتِهِ) بالموصول ﴿ٱلَّتِي تُـْٔوِيهِ﴾ إلماحٌ إلى ما يَنْبَغي للمَرْءِ إزاءَ أهلِه أجمعين، فإليهم مأواهُ في النَّوازل، ولديهم أسبابُ الذَّوْدِ عنهُ وحمايَته في المُلِمّات، وفي المَثَلِ العرَبيِّ الذّائع: أهلَكَ لا تهلَك؛ أي: الزم أهلكَ؛ تتَحَصَّن وتحتمي بهم ولا يَطالُك الهلاكُ.

دلالة التَّعبير بفعل الإيواء ﴿تُـْٔوِيهِ﴾، ونُكْتَةُ صَوْغِه مُضارِعا:

قوله تعالى: ﴿وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـْٔوِيهِ﴾ أي: تَضُمُّه انتماءً إليها،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 161.

أو لياذًا بها في النَّوائب[1]، ويأوي إليها في نسَبِه، أو يأوي إليها في خَوْفِه[2]، وتَنْزِلُ فيه امرأتُه لقرابةِ ما بينَها وبينَه[3]؛ فهم مِنْهُ بمكانٍ.

ففي فِعْلِ الإيواءِ كنايَةٌ عَنِ الحمايَةِ والنُّصرة، فهُمْ فَصيلَتُه الّتي كانت تَحْميهِ وتَذودُ عنهُ وتَنْتَصِرُ له، فهاهو المجرم يَوَدّ بإزاءِ ذلك لو يَفْتَدي بهم، مِمّا يدُلُّ على فظاعَةِ الأهوالِ التي يُباشِرُها جرّاء استهزائهِ بالدّينِ الحقِّ ورسولهِ الكريم ﷺ.

استهانَةُ الكافرِ بأهْلِ نُصرته وحِمايَتِه مُقابِلَ النَّجاة بنَفْسِه

وصيغَةُ المُضارعَةِ في جملة ﴿تُـْٔوِيهِ﴾ تَسْتَحْضِرُ الحالَ، كالواردِ في قوله: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ [فاطر: 9] أي: يوَدُّ لو يَفْتَدي بأمِّه - على تفسيرِ (فصيلته) بها -، مع شدَّة تعلّق نفسِه بها إذ كانَت تُؤْوِيه. فإيثار لفظِ الفصيلَةِ وفِعْلِ الإيواءِ هُنا من إيجازِ القرآنِ وإعجازه؛ ليَشْمَلَ هذهِ المعانيَ[4].

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾:

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ عاطفَةٌ، تكشِفُ عن تعدُّد الفِدَى العزيزةِ على المجرم، الّتي كانت له في الدُّنيا حصانَةً حين كان يهزأُ ويتهكَّم بسُؤالِه عن العذابِ. فتَجمع (الواوُ) بينَ فَصيلَتِه على ما فيها مِن عموم الأقربينَ، وبينَ مَن في الأرض جميعًا على ما فيهم مِن عمومِ العُقلاءِ الكائنينَ في مُحيطِه.

أهـوالُ القيامَةِ تَدْفَعُ المُجْرِمَ إلى تَـمـنّـي تعديد الـفِـدى بقصد النَّجاةِ، وليس هوَ بناجٍ

علّةُ التَّعبير بالموصول (مَن) دون (ما) في قوله: ﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾:

(مَن) في قوله تعالى: ﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ اسم موصولٌ، وصلَتُهُ: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾، والمعنى: أنّ المجرم يودُّ لو يفتدي نفسَهُ يومئذ بمَن هو كائِنٌ في الأرض مِنَ الخَلقِ"[5]. فالتَّعبيرُ بـ (مَن) للتَّغليب[6]، فقد

دلالَـةُ المَوْصـولِ عـلى الـعـمـوم والاسـتـغـراقِ بِـأخْـصَـرِ لَـفْـظٍ وأوجَزِه

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 610.

(2) الماوردي، النكت والعيون: 6/ 93.

(3) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 259.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 161.

(5) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 259.

(6) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 9/ 31.

غُلِّب العقلاءُ على غيرِهم لشَرَفِهم. أو "ممّا يعزُّ عليه مِن أخلّاء، وقرابة، ونفائسِ الأموال ممّا شأن النّاس الشُّحُّ ببذله والرّغبة في استبقائه، على نحو قوله تعالى: ﴿فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ﴾ [آل عمران: 91]"(1).

والاسمُ الموصولُ - كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ - من الألفاظِ الدّالَّةِ على العموم؛ فالموصولُ هنا لَمْلَمَ كلَّ ما نراه في الأرض وكلَّ ما لا نراه، وكلَّ ما نَعْلَمُه وكلَّ ما لا نعلمه، وجُعِلَ ذلك كُلُّه في لفظٍ يسيرٍ مِن حرفين (مَنْ)، ولا يُمْكِنُ تعديدُ أسماءِ ذلك، ولا الإحاطة بها أصلًا.

مَعْنى ﴿فِي﴾ في قولِه: ﴿وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

تمنّي المُجْرِم افتداءَه بما على الأرضِ وما في بَطْنِها

﴿فِي﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ حرفٌ دالٌّ على الظَّرفيَّة، وفيها دلالةٌ على تَمَنّي الكافر لو يَفْتَدي بما على الأرض جميعًا، وما في بَطْنِها مِن كنوزٍ. والمقصودُ ما فيها ومَن فيها؛ إذْ إنّ (مَن) هنا للتَّغليب(2)، فتشمَلُ العقلاءَ وغيرَهُم، وما في الأرضِ مِن كنوزٍ مِن العِظم والكثرة والتَّنوُّع ما لا يعلَمُه إلّا اللّه تعالى.

وقد أوثِرَ التَّقييد بالظَّرفيَّة ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ على الاستعلاء (على الأرض) في النَّظم الكريم؛ حيث وردَ ذِكْرُ الظَّرفيَّة في نحو مائةٍ وسبعينَ موضعًا، ولَمْ يُذكر حرفُ الاستعلاء مَعَ الأرض صراحةً (على الأرض) إلّا في أربعةِ مواضِعَ، ولها مقاماتُها الخاصّة، الجليّة في سياقاتِها.

معنى (أل) في ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

كلُّ ما في الأرضِ مِن ثَرَواتٍ ومعادنَ نَفيسةٍ يَوَدُّ المُجْرِمُ لو يُمْكِنُه بَذْلُها فداءً لنَفْسِه

(أل) في ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ لتعريفِ العهد العلميِّ؛ أي: الأرض التي عهِدها المُجْرِمُ، وعاش عليها في الدُّنيا، وعرف مَن عايَش فيها،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 162.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 9/ 31.

وعرَف كثيرا عَن ثرواتِها؛ مِن ذهبٍ، وفِضَّة، وألماسٍ، ونحوِها مِن معادنَ نفيسَةٍ شَتّى.

فالمُجْرِم يتَمَنّى لو يَمْلِكُ ذلك كلَّه، فيَبْذُله رخيصًا في سبيل افتداء نفسِه من العذاب، وقد كان أَمْرُ نجاته أيسرَ من ذلك لو آمَن واستقام، فقد جاءَه داعي الله تعالى يقول: ﴿مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ﴾ [الفرقان: 57]، لكنَّ المجرم رَكِبَ حِصانَ العِناد، حتّى بلغ به العذابُ ذلك المبلغَ الشَّنيعَ.

نُكْتَةُ التَّقييد بالتَّوكيد ﴿جَمِيعٗا﴾:

يـودُّ المُـجْـرِم الـفـداءَ ولَـوْ بالثَّقلَيْنِ جميعًا

﴿جَمِيعٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ في موضع الحالِ، وهو في المعنى توكيدٌ؛ وهو يدعم الكنايةَ الكُبْرى الكامِنَةَ وراء هذا التَّركيب كلِّه، وهي شدَّة هولِ يوم القيامة، وشدّةُ عذابِه على المجرمِ؛ إذْ يَزهَد المُجْرِم في كلِّ مَن كان له به صلةٌ وفي كلِّ ما كان له عندَه قيمَةٌ، وفي كل مَن وما لَم يكُن، ويتمنّى افتداءَ نفسه من عذابِ يوم القيامة بجَميعِهِم، وهي من أبلغِ الكناياتِ في هذا السّياق.

والمقصود بـ ﴿وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: "مِن الثَّقلَيْن وغيرهم، سواءٌ كان فيهم صديقٌ لا صبْرَ عنه ولا بُدَّ في كلِّ حالٍ منه، أو لا. ولمّا كان ربَّما خُصَّ ذلك بغيره؛ قال محقِّقًا لإرادة الحقيقة في معنى (مَنْ): ﴿جَمِيعٗا﴾"[1].

مَعْنى ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ يُنجِيهِ﴾:

يأسُ المُجْرِم في الآخرة مِن فداءِ نَفْسِه يُضاعِفُ الحَسْرَةَ في قلبِهِ

﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ دالَّةٌ على التّراخي الرُّتبيّ، فغاية غاياتِ المُجْرِم النَّجاةُ من العذاب، ولا تَطَلُّعات له بعد ذلك مِن التَّضحية بتلك الفِدَى الثَّمينة العزيزة.

وفي ﴿ثُمَّ﴾ كذلك "استبعادُ الإنجاء؛ أي: يتمَنّى المُجْرِمُ لَو كان هؤلاءِ جميعًا تحت يدِهِ وبَذَلَهم في فداءِ نَفْسِه ثُمَّ يُنْجِيهِ ذلك، ولكِنْ هيهاتَ

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 397.

أن تكون له نجاةٌ"[1]؛ ممّا يَكْشِفُ عن عُمْقِ اليأس في نفسه، ويُعمِّق فيها الحسرَةَ والنَّدامة.

والعَجَبُ كلَّ العجَبِ ممَّن يستمِعُ إلى هذا البيانِ المُخيف ثُمَّ لا ينتهي عن أسبابه مِن الكُفْر بالدِّين والاستهزاء بعذاب اللّه تعالى!.

دلالَةُ العُدولِ عن (الفاء) إلى ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ يُنجِيهِ﴾:

تَراخي اليأسِ مِن النَّجاة يتملَّك نفسَ المجرِم؛ وذلك لتوارُدِ العقباتِ دونَها

في العُدول عن العَطْفِ بـ (الفاء) إلى العطف بـ ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ إيحاءٌ بـ "شدَّة اهتمام المُجْرِم بالنَّجاة بأيَّة وسيلَةٍ"[2]، وتطلُّعِه إلى ذلك، وتراخي اليأسِ في نفسِه مِن حُصولِها.

وذلك أنّ ﴿ثُمَّ﴾ تدلّ على أنَّ المجرمَ يتملَّكه اليأسُ من النَّجاة؛ إذ يَسْتَشْعِرُ توالي العقباتِ الحوائل دونَ تحقيقِها له؛ وأنَّه لو تحقَّقت له واحدةٌ - وذلك محالٌ -؛ اسْتَشْكَلَت عليه الأخرى.

والعقبَةُ الأولى هي استحالَةُ وجودِ الفِدْيَة، ولو كانت بنيه وصاحبتَه وأخاهُ ومَن في الأرض جميعًا، وذلك قَطْعًا لا يكونُ، لكنَّها الأماني تُخالط نفسَه المأزومة هنالك.

ثُمَّ على فَرْضِ حُصولِها تَطْرَأُ له العقبة الثّانية؛ وهي قبولُ تلك الفِدْيَة منه؛ فيحصُل على النَّجاة، وتلك العقبةُ أيضًا مجرّد فَرْضٍ مبنيّ على آخرَ، ولا تُستفاد تلك الإشارةُ إلّا من سبيل ﴿ثُمَّ﴾؛ لذلك لا تصحّ (الفاء) مكانَها لأداء تلك الدَّقيقة الّتي عبَّر عنها أبو السّعود بقوله: "يودّ لو يَفتدي ثُمّ لو يُنْجيهِ الافتداءُ"[3].

بيانُ مَرْجِعِ الضَّمائر في ﴿يُنجِيهِ﴾:

تحقيقُ التَّماسُكِ للأسلوبِ واليقَظَةِ للمُتَلقّي

في جملة ﴿يُنجِيهِ﴾ ضميرا الفاعلِ والمفعول؛ أمّا الفاعلُ فيَرْجِع إلى الفِداءِ المفهومِ من جملة ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ

---

(1) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 10/ 1575.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 162.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 9/ 31.

﴿بِبَنِيهِ﴾، والمعنى: "ثُمَّ يُنْجِيه ذلك الفداءُ"[1]. وتلخيصُ هذا الفاعلِ في ضمير الفِعْلِ (يُنْجي) يُحقق للأسلوب التَّماسُك، وللعقول المتلقّية اليَقْظَةَ إلى التِقاطِه مِن جملةِ تلك التَّفاصيل.

وأمّا ضميرُ المفعول في جملة ﴿يُنجِيهِ﴾؛ فيعودُ إلى المُجْرِم نفسِه؛ فإنَّه المعنيُّ بالنَّجاة، الوادُّ حُصولَها.

دلالَةُ التَّعبير بالإنْجاءِ، ونُكْتَةُ صوغِهِ مُضارِعًا في الفعل: ﴿يُنجِيهِ﴾:

أغْـلى غـايـةٍ وأعـلاهـا لـلـمُـجْـرمين في الآخِرَةِ الخلوصُ مِـنَ الـعـذابِ والسَّلامةُ مِنْهُ

الإنجاءُ في جملة ﴿يُنجِيهِ﴾ يعني: سلامةَ المُجْرِمِ وخُلوصَهُ مِن العذاب الّذي سقَط فيه هُنالكَ في الآخرة، فيُقال: نَجا الشّخصُ من الشَّرِّ، أي: سَلِمَ وخَلص من أذاه، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنۡهُمَا﴾ [يوسف: 45][2]، فغايَةُ المُجْرِم مجرَّد السَّلامة، ولا مَطْمَحَ له وراءَ ذلك؛ ولا يقدِّر عذابَ الآخرة حقَّ تقديره إلّا مَن عالجَهُ.

ففي حديث آخِر أهل النّار خروجا منها؛ يقول ﷺ: "آخِرُ مَنْ يَدْخُلُ الجَنَّةَ رَجُلٌ، فَهوَ يَمْشي مَرَّةً، ويَكْبو مَرَّةً، وتَسْفَعُهُ النّارُ مَرَّةً، فَإذا ما جاوَزَها التَفَتَ إلَيْها، فَقالَ: تَبارَكَ الَّذي نَجّاني مِنْكِ، لَقَدْ أعْطانيَ اللّهُ شَيْئًا ما أعْطاهُ أحَدًا مِنَ الأوَّلِينَ والآخِرِينَ"[3]، والشّاهد أنَّ خروجه من النّار عطيَّة من الله تعالى غالية لا يرى فوقَها عطيّة: "لَقَدْ أعْطانيَ اللّهُ شَيْئًا ما أعْطاهُ أحَدًا مِنَ الأوَّلِينَ والآخِرِينَ"، فغايةُ غاياتِ المُجْرِمِ الخلوصُ والسَّلامة من العذاب.

والمُضارَعَة في الفعل ﴿يُنجِيهِ﴾ تُسهم في بيانِ حالِ المُجْرِم؛ إذ "يَوَدُّ لَو يكونُ له بذلك الفداء نجاةٌ تتجدَّد له في وقتٍ مِنَ الأوقات"[4]، ولكن هيهات!.

(1) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 352.
(2) أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (نجو).
(3) رواه مسلم في صحيحه، برقم: (187).
(4) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 397.

دلالَةُ ذِكْرِ الأبْعَدينَ في الفداءِ بعدَ الأقْرَبين وهُم يُغنونَ عَنْهُم:

مَن ودَّ الفداءَ ليَتَخلَّص من العذابِ؛ لا يعزّ عليهِ ما فدى وإن كان ملءَ الأرضِ ذهبًا

في بَدْءِ النَّظم الكريم بذكْرِ ودِّ الكافِر الافتداءَ ببنيهِ وصاحبته وأخيهِ وفَصيلَتِه الأقربين غناءٌ وكفايَةٌ عَن ذِكْرِ الأبعدينَ ممّا في الأرض جميعًا، ومَع ذَلكَ ذُكِرَ الأبعدون بَعْدَهُم؛ وذلك "أنَّه إنَّما يُتَوَصَّل إلى فداء أهل الأرض إذا كانَ لَهُ عليهم ملكٌ وكانوا بأجْمَعِهم له، وإذا كانوا جميعًا له ملكًا؛ كانت شفَقَتُه على ملكِه وأولادِه واحدةً أو أكثر، فكما يَضِنّ ببذل أولاده وأن يكونوا عنه فداءً، فكذلك يَضِنُّ بالأباعِد إذا كانوا جميعًا ملكًا له؛ فلذلك استقامَ أن يَبْدَأ بذِكْرِ الأقربين قبلَ الأبعدين؛ إذْ كلُّ ذلك يَسْتَوي في التَّهويل والتَّفْزيع.

وجائزٌ أن يكون ذِكْرُ الأقربين وذكرُ أهلِ الأرض ليس على جهة الأوْلَى، ولكنَّه ذُكِر الآحادُ أوَّلا، ثُمَّ ذُكِرَتِ الجماعةُ، ثُم ذُكِرَ جماعَةُ الجماعَةِ؛ ليعلموا أنّه لا ينفعُهم الفداءُ في ذلك اليوم، وأنَّ الّذين ودّوا الفداءَ ليَتَخَلَّصوا من عذاب اللّه تعالى لا يشتدّ عليهم ما فدوا وإن كان ذلك ملءَ الأرض"[1].

توجيهُ المُتشابِهِ في الآيةِ الكريمَةِ:

وفاءُ المُتَشابِهِ اللّفظيِّ بحقِّ المقاماتِ

لَمّا كان السّياق هنا للافتداءِ؛ بدأ النَّظم الكريمُ بأعزِّهم في ذلك، بخلافِ ما في سورةِ (عبس)؛ فقال هنا: ﴿بِبَنِيهِ﴾؛ أي: لِشدَّة ما يرى. ولَمّا كانت هذه الآيةُ في الفدية؛ قدّم الألصَق فالألصق، والأعلَق في الأُنْسِ فالأعلق. بخلاف ما في سورة عبس؛ فإنَّها في سياق الفرار والنُّفرة؛ فقُدِّم الأبعد عَن ذلك فالأبعد من جِهَةِ النَّفع والمعرَّة[2].

بلاغَةُ الكِنايَةِ بذِكْرِ فِرارِ الكافِرِ من هؤلاء جميعًا:

هَوْلُ الآخِرَةِ للكافِرِ ممّا لا عَهْدَ لأحَدٍ بمِثْلِه

في ذِكر فِرار الكافر من هؤلاء جميعًا في قول اللّه تعالى: ﴿بِبَنِيهِ ١١ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ١٢ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـٔوِيهِ ١٣ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا﴾

---

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 202.

(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 396.

"أنَّه يَسْتَقْبِلُهم في ذلك هولٌ وفزعٌ لم يَكُن لَهُم بمِثْلِه عَهْدٌ في الدُّنيا، ولا كان خطَر ببالِهم ذلك؛ لأنَّ المَرْءَ لا يَبْلُغ بِهِ الهول في الدُّنيا مبلغًا يوَدُّ أن يفتديَ به ببنيه وصاحبته، وأخيه، وأقربائه، وجميع مَن في الأرض؛ فيكون فيه إخبارٌ عن شدَّة هول ذلك اليوم؛ ليَحْمِلَ النّاسَ على الإنابةِ إلى الله تعالى والانتهاء عمّا نهاهُم عنهُ"(1).

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الحُبّ والودّ:

الودّ أعمُّ معانيَ مِنَ الحبِّ

الحُبُّ - في حقِّ المخلوقِ - يكون فيما يوجبه ميلُ الطِّباع والحكمة جميعًا، والوُدُّ من جِهَةِ ميلِ الطِّباع فقط؛ ألا ترى أنَّك تقولُ: أُحِبُّ فلانا وأوَدُّه، وتقول: أُحِبُّ الصَّلاة ولا تقول أودُّ الصَّلاة؟ وتقول أودُّ أنّ ذاك كان لي؛ إذا تمنيتَ ودادَه، وأودُّ الرَّجل وُدًّا ومَودّةً، والوُدُّ والوديد، مثل الحِبِّ؛ وهو الحبيبُ(2).

ويرِدُ الودّ بمعنى محبَّة الشَّيء وتمنّي كونِه، ومن المودّة المقتضيةِ للتّمنّي قول الله تعالى: ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾ [آل عمران: 69].

والوَدّ والمودّة أعمُّ من الحبِّ والمحبّة، فهو يعني الحبّ المشوبَ بالتَّمنّي، ويرِدُ بمعنى الصّداقةِ ومدّ ما يُقوّيها ويُبقيها ويوسِّعها، ولذا استعمل النَّظم القرآنيّ المودّة دون المحبّة في قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾(3) [الرّوم: 21]

البُنوَّة والولادة:

البنوّة الدَّعْوَة، والنّسب، والولادة النّسبُ فقط

لفظ البُنوَّة أوسَعُ من لفظ الولادَة؛ لِأنَّ المَقْصود بالبنوّة: الدَّعْوَة والنّسب، فَإذا نُسِبَتْ؛ فقد تُنْسَب إلى والِدٍ وغيرِ والِد؛ ألا ترى إلى

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 202.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 122.
(3) عبد الجبار فتحي زيدان، الفروق اللغوية في القرآن الكريم، ص: 457 - 458.

قَوْله تَعالى: ﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [البقرة: 177]، فنُسِب إلى السَّبيل ولَيْسَ بوالده، وكَذلِكَ قَوْلهم: ابْنُ آوى، وابْن عرس، وبَنات أوبر - للكَمْأة -، وبَنات نَعش - في النُّجوم.

ولا يحسن في شَيْء من هَذا لفظُ الوَلَد، فَمِن هَذا لم يَرَ زيدٌ رحمه الله تعالى حُجَّةً لِمَن قالَ من الصَّحابَة: إنَّ الجَدّ كالأَب، كَما أن ابْن الابْن كالابن؛ لقَوْله سُبْحانَهُ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الأعراف: 26]، و﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [البقرة: 40]، ولقَوْله: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحج: 78]؛ لِأَنَّ هَذا نسَبٌ وتعريفٌ، ولَو ذَكر الولادَة؛ لَكانَ لَهُم فيها حُجَّة ومتعلَّق؛ لِما تقدَّم مِن المَقْصود بِلَفْظ الوَلَد ولَفظ الابْن، وفرق ما بَينَهُما.

كما أنَّ الولد يَقع على الذّكر والأُنْثى، والواحد والجمع، بِخِلاف الابْن؛ فيختصُّ بالذَّكرِ الواحِدِ[1].

(1) السهيلي، الفرائض وشرح آيات الوصية، ص: 37.

المحتويات

